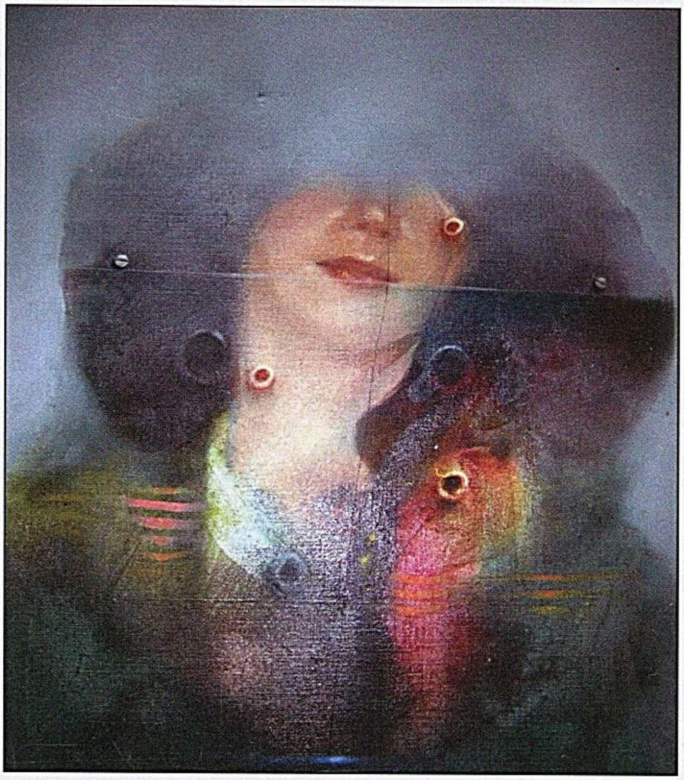
عاموس عوز

قصّة عن الحبّ والظّلام



ترجمة: جميل غنايم

منشورات الجمل

رواية

عاموس عوز: قصّة عن الحبّ والظّلام، رواية

عاموس عوز

قصّة عن الحبّ والظّلام

رواية

ترجمة: جميل غنايم

مراجعة: محمود كيّال

منشورات الجمل

עמוס עוז: סיפור על אהבה וחושך

Amos Oz: *A TALE OF LOVE AND DARKNESS*, roman

عاموس عوز: **قصّة عن الحبّ والظّلام**، رواية

ترجمة: جميل أ. غنايم، مراجعة: محمود كيّال، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

إهداء الطبعة العربية

هذه الترجمة العربية لرواية «حكاية حب وظلام» للكاتب الإسرائيلي الشهير آموس عوز، مُكرّسة لتخليد ذكرى وَلَدنا المرحوم جورج خوري، تباركت ذكراه الطيبة! لقد امتدتْ إليه يدٌ شريرة، عَدُوّة البشرية والحياة، واقْتَلَعَتْهُ من بيننا عندما كان عمره ٢٠ عاماً فقط، في ربيع حياته. في يوم الجمعة، المصادف ١٩ آذار، ٢٠٠٤، عشية السبت، عندما خرج كعادته للهرولة في الحي اليهودي القريب من منزلنا، وبينما كان لا يزال يركض، برِفْق، من أجل اللهو والاستمتاع في الهواء الربيعي ساعة الغروب اقتربتْ فجأة من وراءه سيارة فيها اثنان من الشبان الفلسطينيين في نفس عمره. كانا يبحثان عن يهوديٍّ، أي يهوديٍّ، من أجل قتله. كان أحدهم يقود السيارة، بينما كان الآخر يحمل مُسدّساً، وعندما كانا على مسافة قصيرة من جورج تَوَقّفتْ السيارة. ترجّل الذي يحمل مُسدّساً من السيارة وكان إزاء ظهر جورج. لمْ يَرَ وجه جورج، وَلَمْ يَتحدّثْ معه، وَلَمْ يَعرفْ من هو وبدون أي سبب، وبهدوء بالغ أطلق عدة رصاصات عليه. مزّقَ صوت الانفجار الهدوء، وعصفَ بسَكينة الحي، حيث كان السكان في منازلهم لاستقبال السبت.

أصابت ثلاث رصاصات رأسَ جورج وطَرحَته أرضاً، حيث تمرّغَ

بدمه حتى مات. وأما القاتل، الجبان، فقد عاد مسرعاً إلى السيارة وهرب مع السائق بقيادة السيارة بسرعة بعيداً عن الموقع، واختفيا في الأحياء العربية في شوارع القدس. في عَماهم، وجَهلهم، وعدم إلمامهم بالقيم الإنسانية الأساسية، اعتبرا فيما بينهما وفيما بين العصابة التي ينتميان إليها ما قاما به عملاً بطولياً. لا تعني الحياة شيئاً لهما. لم تجعلهما يشعران براحة. بعد وقت قصير من فرارهم، تمّ نشر بلاغٍ تمجيديٍّ متبجّح باسم كتائب شهداء الأقصى على موقع على الإنترنت وأعلنوا فيه عن اغتيال أحد أفراد العصابة الصهيونية.

وبعد بضع ساعات أعْلِنَت هوية القتيل على الملأ، وجاءَ في أعقاب ذلكَ الحرجُ. زعموا أن هنالك حالة خطأ في الهوية. واعتذروا. وأصبح القتل شنيعاً بصورة مضاعفة. كان الألم هائلاً. لقد ضاعَ الأملُ والجرحُ لن يندملَ. إنهم لا يدركون مغزى كلامهم، ولا يعرفون الآثار المدمرة لانتهاك حرمة حياة أي إنسان. أعلن رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات أن جورج شهيدٌ (شهيد وفقاً للإسلام). وأرسل عرفات بطاقة مع أحد رُسُله. خسارة أخرى للشعب الفلسطيني. لا شيء يبعثُ على الارتياح. لن يعودَ جورج إلى الحياة. انقلبتْ حياتنا رأساً على عقب بين عشية وضحاها، ولن تعودَ كما كانتْ مَرّة أخرى.

عندما كان جورج صغيراً كان صبياً واعداً. كان أملاً في مستقبلٍ أفضل لعائلته وأمته. كان يحب الحياة، وحاول أن يعيشها على أتَمّها. لقد أحبَّ الناس، وكان مؤنساً اجتماعياً لَبِقاً موهوباً وذا روح هادئة، وكان رفيع الذوق، وكان عازفاً للبيانو وكان رياضياً ومحباً للغات والآداب. اختار كلماته بشكل صحيح من أجل التعبير عن المعنى المنشود. كان موقفه تجاه الناس لا يعرف الحدود ولا العَقَبات. لقد رأى

ضوءاً في المعرفة، وظلاماً في الجهل وضياعاً للقيم الإنسانية. كان يؤمن أنه لا توجد حياةٌ لمجتمع بدون قيم، وأنه لا يوجد مجتمع من دون قانون ونظام. وحتى نَعْرِفَ وَنَتَعَلّمَ، وَحَتّى نَعْمَل بشجاعة لتدمير الشر فيما بيننا، فإننا لن نصبحَ أمةً ولنْ تقومَ لنا قائمة. تبارَكَتْ ذكراكَ يا جورج!

إلياس د. خوري

١

ولدت وترعرعت في بيت أرضي صغير جدّاً، لا تتجاوز مساحته الثلاثين مترا مربعا، يكاد سقفه يلامس رؤوس ساكنيه، كان سرير نوم والديّ عبارة عن كنبة دُرج كانت تفتح مساء كلّ يوم فتملأ الغرفة من الحائط إلى الحائط. وفي الصباح الباكر كانا يطويانها ويخفيان في أحشاء درجها السفلي الشراشف والمخدات ويكسوانها بغطاء رمادي فاتح وينثران عليها وسائد شرقية مطرّزة، حتى لا يبقيا أثراً لنوم ليلتهما عليها. وهكذا كانت غرفتهما غرفة نوم وغرفة عمل ومكتبة وغرفة طعام وغرفة ضيوف.

مقابل هذه الغرفة كانت غُريفتي الخضراء، التي احتلت نصف مساحتها خزانة ملابس ضخمة الكرش. كان يربط هاتين الغرفتين الصغيرتين بالمطبخ وكوخ المنافع ممرٌ مظلم وضيق ومنخفض وملتوٍ بعض الشيء يشبه سرداب الهاربين من سجن. مصباح كهربائي ضعيف محبوس داخل قفص حديديّ كان يلقي بضوئه الباهت المتكدّر على هذا الممر في ساعات النهار أيضاً. من الجهة الأمامية لم يكن هناك إلا شباك واحد لغرفة والديّ وشباك واحد لغرفتي، كلاهما محميان بدُرَف حديدية، وكلاهما يحاولان أن يسترقا النظر ليُطلا شرقا إلا أنهما لا يريان إلا شجرة سرو مغبرة وجداراً من حجارة غير مصقولة. أطلّ مطبخنا ومنافعنا عبر كوّة محدّدة على ساحة سجناء صغيرة محاطة بحيطان عالية ومرصوفة بالأسمنت، فيها كانت تحتضر نبتة خبيزة شاحبة زرعت في صفيحة زيت صدِئة لعدم وصول أشعة الشمس إليها. على قواعد النوافذ كانت تصطف دائماً مرطبانات مغلقة فيها خيار مخلل وشتلة

صبّار مغمومة البال مستحكمة في تراب مزهرية تشقّقت فتحوّلت للخدمة بوظيفة أصيص.

كان ذلك بيت أرضيّ: الطابق الأرضي في هذا المبنى حفر في سفح جبل. كان هذا الجبل هو جارنا الذي خلف الحائط - جار ثقيل، انطوائيّ، واجم، جبل هرم وكئيب، له عادات أعزب ثابتة، حرص دائماً على الهدوء المطلق، جبل وسنان كهذا، شتويّ، لم يسبق أن حرّك أثاثاً أو استقبل ضيوفا لم يضايق ولم يضجّ أو يشكُ. ولكن عبر الحائطين المشتركين بيننا وبينه كانت تتسرّب إلينا دائماً برودة وظلمة وصمت ورطوبة هذا الجار المكتئب مثل رائحة العفونة الخفيفة والعنيدة.

وهكذا كان طوال فترة الصيف يُحتفظ عندنا شيء من الشتاء.

كان الضيوف يقولون: لطيف جدّاً عندكم في أيام الحر الشديد، بارد وهادئ، بارد فعلا، ولكن كيف تتحملون ذلك في الشتاء؟ أولا تنقل الحيطان الرطوبة؟ أوليس الوضع كئيبا في الشتاء هنا؟

*

الغرفتان، كوخ المطبخ، المنافع وخاصة الممر الذي بينها كانت كلها مظلمة. الكتب عندنا ملأت كلّ زاوية في البيت: عرف والدي القراءة بست عشرة أو سبع عشرة لغة والتحدّث بإحدى عشرة (وكلها بلكنة روسية). أمي تحدثت بأربع أو خمس لغات وقرأت بسبعٍ أو ثمانٍ. كانا يتحدثان بينهما بالروسية والبولندية عندما أرادا ألا أفهم (طوال الوقت أرادا ألا أفهم، عندما زلّ لسان امي مرة وقالت على مسمع مني «حصان فَحل» باللغة العبرية بدلا من الأجنبية، أنّبها والدي بلغة روسية غاضبة: شتو اسْ تبوي؟! فيدش مَلتشيك ريادوم اسْ نامي!). لاعتبارات حضارية قرأ والديّ كتبا بالألمانية والإنجليزية بشكل خاصّ، أما أحلامهما في الليل فقد كانت بالتأكيد بالإيديش. أما أنا فلم يعلماني إلا العبرية لا غير: ربما خشيا من أن معرفة اللغات ربما تكشف لي مغريات أوروبا الرائعة والقاتلة.

في سلم قيم والديّ، كلّ ما كان غربيا أكثر اعتبروه أكثر تحضّراً: تولستوي ودوستويفسكي كانا قريبين إلى نفسيهما الروسيتين، ومع ذلك،

يخيّل إليّ أن ألمانيا - بالرغم من هتلر- كانت في نظرهما أكثر تحضّراً من روسيا وبولندا؛ وفرنسا- أكثر من ألمانيا. بريطانيا احتلت في نظرهما مكانة أعلى حتى من فرنسا. أما بالنسبة لأمريكا- لم يعودا على يقين: هناك يطلقون النار على الهنود الحمر ويسطون على قطارات البريد، يحققون أرباحاً خيالية ويصطادون البنات.

كانت أوروبا بالنسبة إليهما بلاد الميعاد المحرّمة، بلاد الحنين والأشواق، وأبراج الأجراس والميادين المرصوفة ببلاط حجري عتيق. بلاد الترام والجسور وأبراج الكنائس، القرى النائية، والينابيع الطبية، والغابات والثلوج والمراعي.

الكلمات « كوخ»، «مرعى»، «راعية الإوزّ» كانت تغريني وتثير انفعالي طوال فترة طفولتي. فقد كانت تحمل نكهة حسية لعالم حقيقيّ، مطمئن، بعيد عن أسطح الصفيح المغبرة، وساحات الخردوات والأشواك وعن سفوح القدس القاحلة التي تختنق تحت وطأة الصيف المتوهّج. كان يكفي أن أهمس لنفسي «مرعى» حتى أسمع خوار البقرات التي عُلّقت أجراس صغيرة في أعناقها وخرير الغدران. كنت أنظر إلى راعية الإوز الحافية بعينين مغمضتين، والتي كانت في نظري مثيرة، بلا حدود، للشهوة الجنسية قبل أن أعي شيئا.

*

بعد مرور سنوات تبيّن لي أن القدس التي تحت الحكم البريطاني في سنوات العشرين والثلاثين والأربعين، كانت مدينة ثقافية جذابة: كان فيها تجار كبار، وموسيقيون، ومثقفون وأدباء: مارتين بوبر وجرشوم شالوم وعَجنون بالإضافة إلى كثير من الباحثين والفنانين المرموقين. أحياناً، عندما كانوا يمرون في شارع بِن يهودا أو في جادّة بن ميمون كان أبي يهمس في أذني: «ها هو هناك يمر مثقف صاحب شهرة عالمية». لم أعِ ما كان يرمي إليه. ظننت أن للشهرة العالمية علاقة بمرض في الرِّجلين، وذلك لأنّه، في معظم الحالات، كان ذلك شخصا هرما يتوكأ على عصا تتلمّس له الطريق ورجلاه تتثاقلان، وهو، إلى ذلك، يرتدي في الصيف بذلة صوف ثقيلة.

القدس التي كانت محطّ أنظار والديّ امتدّت بعيدا عن حيّنا: كانت القدس في حي رحافيا المغمورة بالخضرة وبأنغام البيانوهات، كانت في ثلاثة إلى أربعة مقاهٍ ذات ثُريّات مُذهبة في شارع يافا وشارع بِن يِهودا وفي قاعات الواي أم سي إي (جمعية الشبان المسيحيين)، وفي فندق الملك داوود. هناك كان يجتمع محبو الثقافة من اليهود والعرب مع بريطانيين مثقفين ولطفاء، هناك أبحرت - حلّقت سيدات حالمات طويلات العنق بفساتين السهرة وهن يمسكن بأذرع سادة يرتدون البدلات الغامقة (السوداء)، هناك جلس انجليز واسعو الاطلاع والمعرفة مع يهود حضاريين ومع عرب مثقفين، هناك أقيمت الحفلات الموسيقية الفردية، والحفلات، والأمسيات الأدبية، وحفلات الشاي، والمناقشات الفنية الرقيقة. إلا أن قدسا كهذه، مع ثريات وحفلات شاي لم تكن إلا في أحلام سكان «كيرم أفراهام»، أمناء مكتبات، معلمين، موظّفين ومُجلّدي كتب. على كلّ لم تكن عندنا؛ حيّنا كيرِم أَفراهام كان تابعا لتشيخوف.

بعد سنوات، عندما قرأت تشيخوف (مترجما إلى العبرية) كنت متأكّدا أنه واحد منّا: فها هو العمّ فانيا يسكن، فعلا، في الطابق الذي فوقنا، والدكتور سامويلنكو كان ينحني ويجسّ جسمي بيديه العريضتين والقويتين عندما مرضت بالذبحة الصدرية أو بالخانوق (الدِّفتيريا)، لايبسكي صاحب الصُّداع النّصفي المزمن كان ابن عم امي، أما تريغورين فكنا نذهب للاستماع إليه في صباح السبت في قاعة «بيت الشعب».

صحيح أنه كان عندنا أشخاص روس من أصناف مختلفة: كان الكثير من التولستويين، حتى أن بعضهم كان يشبه تولستوي شبها تامّا. عندما اصطدمت بصورة بُنيّة لتولستوي على غلاف كتاب، كنت متأكّدا أنني رأيته عندنا مرارا كثيرة: يتسكع في شارع ملآخي أو في منحدر شارع عوفاديا حاسر الرأس، ولحيته الشائبة تتطاير في الهواء، كله هيبة ووقار مثل سيدنا إبراهيم الخليل، عيناه يتألق وميضهما، وبيده غصن يتخذه عكازا، وقميصه الفلاحي يتدلّى فوق بنطلونه الواسع الفضفاض، مربوط بحبل غليظ حول خصره.

التولستويون في حيّنا (والداي كانا يسميانهم « تولستويتشيكيين») كانوا جميعا نباتيين غيورين، مُصلحين، دُعاة أخلاق، يملأهم إحساس عميق نحو الطبيعة، يحبون البشر، ويحبون كلّ مخلوق حيّ، أيّ مخلوق، يملأهم حماس للسلام ومعارضة للحرب والشوق الشديد إلى حياة العمل البسيطة والنقيّة، وكلهم توّاقون إلى حياة الريف، والعمل الزراعي الأصيل في أحضان الحقول والبساتين. ولكنهم مع ذلك لم يفلحوا كثيرا حتى في العناية بأصصهم المتواضعة: ربما سقوا النباتات كثيرا حتى ماتت غرقاً أو ربما فاتهم أن يسقوها فماتت عطشا، أو ربما كانت تلك مسؤولية الحكم البريطاني الذي كان يمزج الكلور بمياهنا.

قسم منهم كانوا تولستويين شديدي الشبه بشخصيات رواية لدوستويفسكي معذّبين، كثيري الكلام، غرائزهم مكبوتة، وآراؤهم مترددة. ولكن جميعهم، التولستويين وكذلك الدوستويفسكيين، كلهم في حي «كيرِم أَفْراهام» كانوا في الواقع يشتغلون عند تشيخوف.

بشكل عام، كلّ العالم كان يسمّى عندنا باسم «العالم الكبير»، مع أنه إضافة إلى ذلك كانت له أسماء عائلة أخرى: المتنور، الخارجي، الحر، المنافق. أما أنا فلم أتعرف عليه تقريبا إلا من مجموعة الطوابع: دنتسيك. بوهيميا وموارفيا. البوسنة والهرسك. أوبنجي- شاري. ترينيداد وطوبغو. كينيا- أوغندا- تنغانيكا. كلّ العالم كان بعيدا، جذابا، فتنا ولكن خطيرا جدّاً ومعاديا لنا: لا يحبون اليهود لأنهم فطِنون، متوقدو الذهن ومتفوقون وإلى جانب ذلك ضوضائيون ويقفزون في المقدمة. ولا يحبون مشروعنا هنا في أرض إسرائيل لأنهم يحسدوننا حتى على قطعة أرض صغيرة كلها مستنقعات وصخور وصحاري. هناك في العالم جميع الحيطان كانت مغطاة بالكتابات المعادية: «أيها اليهودي الحقير، اذهب إلى فلسطين،» وها قد ذهبنا إلى فلسطين والآن كلّ العالم يصرخ علينا: «أيها اليهودي الحقير، اخرج من فلسطين.»

ليس كلّ العالم وحده كان بعيدا بل أرض إسرائيل أيضاً: هناك في مكان

ما، وراء الجبال، أخذ ينمو جنس جديد من اليهود الأبطال، جنس مسفوع، قويّ، سكوت وعمليّ، لا يشبه إطلاقا اليهودي المهجري ولا يشبه إطلاقا سكان كيرم افراهام. فتيان وفتيات، طلائعيون، حازمون، مسفوعون، سكوتون، والذين افلحوا في تحويل ظلمة الليل إلى صديق؛ كما أنهم فيما يتعلق بعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات النساء بالرجال قد قطعوا شوطا واجتازوا كلّ القيود ولم يعودوا يخجلون من أي شيء. ذات مرة قال لي جدّي ألِكْسَنْدِر: «إنهم يعتقدون أن الأمر في المستقبل سيكون سهلا جدّاً، حيث يستطيع الشاب التقدم من الفتاة ويطلب منها ذلك، وربما لن تنتظر الفتيات حتى يطلب الشاب منهن ذلك وربما طلبن هن أنفسهن ذلك من الشباب كما يطلبون أن يصبوا لك كأس ماء.» أما العمّ بتسليئل قصير النظر فقد قال غاضبا ولكن بأدب: «ولكن أوليس هذا أمرا بلشِفيّاً من الدرجة الأولى، أن يُهدم كلّ سرية وتكتّم؟! أن تلغى كلّ العواطف والمشاعر؟! أن تحوَّل كلّ حياتنا إلى كأس ماء فاتر؟!» أما العمّ نحميا فكان، من زاويته، يخور فجأة ببيتين من الشعر بدوا لي مثل أنين حيوان يائس: «أواه، تبدو لي الطريق بعيدة جدّاً، الدرب يتلوّى ويهرب، أواه يا أماه، أنا اهتزّ ولكنك بعيدة، القمر أقرب إليّ منك...» والعمّة تسيبورة تقول بالروسية: «هيا، كفى، هل جننتم جميعا؟ أوليس الولد يسمعكم!» وعندها ينتقلون إلى الروسية.

*

أولئك الطلائعيون عاشوا وراء أفقنا، في الجليل، وفي الشارون وفي المرج (ابن عامر). شباب أقوياء، حميمو الفؤاد ولكنهم سكوتون مستغرقون في التفكير، وفتيات ممتلئات الجسم، صريحات، متمالكات النفس، كأنهن يعرفن كلّ شيء ويفهمن كلّ شيء، يعرفنك أيضاً ويعرفن كلّ ارتباكاتك، وبالرغم من ذلك فهن يتصرفن معك بلطف وجدّية واحترام، ليس كما مع الأولاد بل مثل رجل ككل الرجال ولكنه ما زال قصير القامة.

بدا هؤلاء الطلائعيون والطلائعيات أقوياء، جدّيين، يحفظون السرّ، قادرين على الغناء في حلقة أغاني الحنين والأشواق التي تقطع القلب وكذلك

أغاني الدعابة والهزل وأغاني الشهوة الجريئة إلى حد الفزع الذي يتجاوز حدود الحياء، قادرون على عاصفة من الرقص الجارف حتى النّشوة، قادرون على الانزواء والتأمل، على حياة الميدان والخيام، وعلى كلّ عمل صعب، «نحن رهن الإشارة دائماً»، «حمل إليك أبناؤك سلام - المحراث، واليوم يحملون إليك السلام على البناد- ق!»، «حيثما نُرسَل - إلى هناك نتوجّه»، قادرون على ركوب الخيول غير الأليفة، والجرّارات ذات الجنازير العريضة، يعرفون العربية، يعرفون المغاور والأودية والمسدسات والقنابل اليدوية، وإلى جانب كلّ ذلك، يقرؤون الشعر وكتب المطالعة، واسعو الاطلاع، يكتمون مشاعرهم، يتحادثون أحياناً فيما بينهم بصوت منخفض جدّاً على ضوء شمعة في خيمتهم في الهزيع الأخير من الليل حول معنى الحياة وعن الاختيار الشهيّ بين الحبّ والواجب وبين الحاجة القومية وبين الحقّ.

أحياناً كنت أذهب مع أصدقاء إلى ساحة تنوفا حيث تفرّغ الشاحنات حمولتها، كي أنظر إليهم قادمين من وراء جبال الظلام على ظهر شاحنة محمّلة بالمنتجات الزراعية، «يلبسون الملابس العادية والنطاق والأحذية الثقيلة»، كنت أدور حولهم كي أشمّ رائحة القشّ وانتشي بروائح المسافات: هناك، عندهم، تحدث الأمور الكبيرة بالفعل. هناك يبنون البلاد ويصلحون العالم، وينشئون مجتمعا جديدا، يتركون أثرهم على الأرض وعلى التاريخ، هناك يحرثون الحقول ويغرسون الكروم، هناك يؤلفون شعرا حديثا، هناك يركبون مدججين على ظهر الفرس ويردون بالنار على نيران الثوّار العرب، هناك يأخذون الرعاع التافهين ويصنعون منهم شعبا مقاتلا.

حلمت سرا بأنهم يأخذونني أيضاً إليهم في أحد الأيام. كي يحوّلوني أيضاً إلى شعب مقاتل. كي تتحول حياتي أيضاً إلى شعر حديث، حياة نقية، مستقيمة وبسيطة مثل كأس ماء بارد في يوم حار.

*

تل أبيب في تلك الأيام كانت خلف جبال الظلام أيضاً، مكان مثير جاءتنا منه الصحف، والإشاعات حول مسرح وأوبرا وباليه وكباريه وعن فن حديث، الأحزاب، صدى النقاشات العاصفة، وكذلك بعض الأقاويل

الغامضة. رياضيون كبار كانوا هناك في تل أبيب. وكان هناك بحر، والبحر هناك كله مملوء باليهود المسفوعين الذين يجيدون السباحة. من يجيد السباحة في القدس؟ مَن، أصلا، سمع مرة عن يهود يسبحون؟ هؤلاء هم من طينة أخرى. طفرة. «كأعجوبة ولادة الفراشة من الدودة.»

كلمة «تل أبيب» وحدها كان لها سحر خفي خاصّ. عندما يقال «تل أبيب» كنت أرى في الخيال للتوّ صورة شاب قوي كهذا، بفانيلا الشغل الزرقاء، مسفوع، عريض المنكبين، شاعر-عامل- ثوريّ، شاب لا يعرف الخوف، اعتبروه «سهل المعاشرة»، مجعّد الشعر، يعتمر قبعة «كاسكت» بإهمال- وتأنّق، يدخن سجائر «ماتوسيان» وهو «محلّيّ» في هذا العالم: يعمل طوال النهار في التبليط أو الأسمنت، وفي المساء يعزف على الكمان، وفي الليل يرقص مع الفتيات أو يغني لهنّ أغاني حزينة بين الرمال على ضوء البدر، وقبيل الفجر يسحب من مخبئه مسدسا أو رشّاشا ويخرج خلسة في قلب الظلام ليحمي الحقول والبيوت.

كم كانت تل أبيب بعيدة! طوال سنوات طفولتي كنت في تل أبيب خمس أو ست مرات لا أكثر: كنا نسافر لقضاء العيد مع الخالات. ليس الضوء وحده في تل أبيب في ذلك الوقت كان مختلفا عن الضوء المقدسي أكثر مما هو مختلف عنه الآن، بل حتى قوانين الجاذبية كانت مختلفة تماما. ففي تل أبيب مشوا بشكل مختلف: قفزوا- حلقوا، كما فعل نيل آرمسترونج على القمر.

أما عندنا في القدس فكانوا يمشون دائماً كمن يمشون في جنازة، أو كمن يدخلون متأخرين إلى كونسرت: أولا يضعون طرف الحذاء ويتذوقون بحذر الأرض. بعد ذلك عندما يكونون قد وضعوا القدم لا يسرعون في تحريكها: بعد ألفي سنة وجدوا موقع قدم في القدس، إذن لن يتنازلوا عنها بهذه السرعة. إذا رفعنا القدم - فوراً سيأتي شخص آخر ويأخذ منا قطعة أرضنا، التي لا تسمن ولا تغني من جوع. من جهة أخرى، إذا كنت قد رفعت رجلك - لا تسرع وتعود إلى وضعها: من يدري أي شِلّة أفاع، معادية، تحيك المؤامرات، يمكن أنها تحطّ هناك. أولم ندفع خلال آلاف

السنين ثمنا من الدماء مقابل تسرّعنا، المرة تلو المرة وقعنا في أيدي عدو وخصم لأننا وضعنا أقدامنا دون أن نفحص أين. هكذا تقريبا كان المشي المقدسيّ. ولكن في تل أبيب، ما هذا! المدينة كلها كانت جندبا. تدفّق الناس وتدفّقت البيوت والشوارع والميادين ورياح البحر والرمال والجادات وحتى السحب في السماء.

في إحدى المرات جئنا إلى تل أبيب للاحتفال بليلة عيد الفصح، وفي الصباح الباكر عندما كان الجميع ما زالوا نياما لبست ملابسي وخرجت من البيت ورحت لألعب وحدي في ساحة ما صغيرة وفيها مقعد أو مقعدان، أرجوحة، وصندوق رمل، وثلاث - أربع شجرات صغيرة كانت العصافير التي عليها قد بدأت تزقزق. بعد ذلك بعدة أشهر، في رأس السنة، سافرنا مرة أخرى إلى تل أبيب، وإذا الساحة قد اختفت. نقلوها بأشجارها الصغيرة والأرجوحة والمقعد والعصافير وصندوق الرمل إلى طرف الشارع الآخر. ذهلت: لم افهم كيف يسمح بن غوريون والمؤسسات المسؤولة بالقيام بمثل هذا العمل. كيف ذلك؟ من يقوم فجأة بنقل ساحة؟ ما هذا، غدا يمكن أن ينقلوا جبل الزيتون؟ برج داوود؟ حائط المبكى؟

كانوا عندنا يتحدثون عن تل أبيب بحسد وافتخار، وتقدير وبنوع من السرية: كأنّ تل أبيب هي نوع من مشاريع الشعب اليهودي السرية والحيوية، مشروع من المفضل عدم التحدّث عنه أكثر من اللازم، للحيطان آذان، المبغضون وعملاء الأعداء موجودون في كلّ مكان.

تل أبيب: بحر، ضوء، سماء زرقاء، رمال، سِقالات، يهود، أكشاك في الجادّات، مدينة عبرية بيضاء، بسيطة الخط، تنمو بين البيارات والكثبان. ليست مجرد مكان تشتري تذكرة وتسافر إليه في حافلة شركة «إيجد» بل قارة أخرى.

*

طوال سنتين كان لنا ترتيب ثابت للاتصال التلفوني مع العائلة في تل أبيب. مرة كلّ ثلاثة- أربعة أشهر كنا نتصل بهم تلفونيا، مع أنه لم يكن عندنا ولا عندهم تلفون. في البداية كنا نرسل رسالة إلى الخالة حاية والعمّ تسفي

وفيها نكتب أنه في التاسع عشر من الشهر الذي يوافق يوم الأربعاء، في أيام الأربعاء تسفي ينهي العمل في عيادة صندوق المرضى (كوبات حوليم) في الساعة الثالثة، وعليه، في الساعة الخامسة نتصل بهم من صيدليتنا إلى صيدليتكم. ترسل الرسالة قبل اليوم الموعود بوقت طويل وكنا ننتظر منهم الردّ. في ردّهم يعد العمّ تسفي والخالة حاية بأن يوم الأربعاء الموافق التاسع عشر ملائم لهما تماما وأنهما سينتظران في الصيدلية قبل الساعة الخامسة، وألا نقلق إذا حدث واتصلنا بعد الخامسة بقليل إذ أنهما لن يهربا بكل تأكيد.

أنا لا اذكر إذا كنا نلبس أجمل ملابسنا بمناسبة الذهاب إلى الصيدلية، تكريما للمكالمة مع تل أبيب، لكنني لن استغرب إذا كنا نفعل ذلك. كان ذلك طقس احتفالي. فمنذ يوم الأحد كان أبي يقول لأمّي: فانيا، هل تذكرين هذا الأسبوع هو أسبوع المكالمة مع تل أبيب؟ وفي يوم الاثنين كانت أمي تقول: آرييه، لا تتأخر بعد غدٍ حتى لا يحدث أي طارئ. وفي يوم الاثنين كان كلاهما يقولان لي، عاموس، إيّاك أن تعمل لنا أي مفاجأة، هل تسمع، احترس من أن تصاب بمرض، أو زكام، أو أن تقع حتى غد بعد الظهر. وفي الليلة الأخيرة كانا يقولان لي: اذهب للنوم مبكرا حتى تكون قويا غدا في التلفون، أنا لا أريدهم أن يسمعوك هناك كمن لم يتغذّ.

هكذا كانا يبنيان الانفعال. كنا نسكن في شارع عاموس، والصيدلية كانت على بعد خمس دقائق مشيا على الأقدام، في شارع تسفانيا، ولكن أبي كان منذ الثالثة يقول:

«لا تبدئي بأي شيء جديد الآن، حتى لا تكوني في ضيق من الوقت.»

«أنا على أتمّ الاستعداد، ولكن أنت مع كلّ هذه الكتب، أخشى أن تنسى الأمر كليا.»

«أنا؟ أنسى؟ إنني أنظر في الساعة كلّ عدة لحظات وعاموس يذكّرني.»

ها أنا في الخامسة أو السادسة وأتحمل مسؤولية تاريخية، ما كانت لي ساعة يدوية ولم يكن بالإمكان أن تكون لي ولذلك كنت اركض كلّ لحظة إلى المطبخ لأرى ماذا يقول المنبّه، وكمن يطلق سفينة فضاء كنت أعلن: بعد خمس وعشرين دقيقة، بعد عشرين، بعد خمس عشرة، بعد عشر دقائق

ونصف- وعندما كنت أقول بعد عشر دقائق ونصف كنا نقف نغلق البيت جيدا ونخرج ثلاثتنا إلى الشارع إلى اليسار حتى نصل بقالة السيّد أوستر ثمّ نتجه إلى اليمين إلى شارع زخاريا وشمالا إلى شارع ملآخي ويمينا إلى شارع تسفانيا ومباشرة كنا ندخل إلى الصيدلية، نقول:

«السلام والتحية سيد هاينمن، كيف حالك؟ جئنا من أجل التلفون.»

إنه على علم، بالطبع، بأننا سنأتي يوم الأربعاء لكي نتصل بأقاربنا في تل أبيب، كما أنه يعلم بأن تسفي يعمل في عيادة، وأن لحاية كانت وظيفة مرموقة في مجلس العاملات وبان يجئال سيكبر ويصبح رياضيا وبأنهم أصدقاء مقربون لجولدا مئيرسون وميشا كولودني، المعروف هنا باسم موشيه كول، ولكننا مع ذلك ذكّرناه: «جئنا كي نتّصل بأقاربنا في تل أبيب.» كان السيّد هاينمن يقول: «نعم، بالطبع. تفضلوا بالجلوس،» وكان يحكي لنا نكتة التلفون الدائمة: ذات مرة في المؤتمر الصهيوني في زوريخ انفجر فجأة صراخ فظيع من إحدى الغرف الجانبية. سأل بيرل لوكر هرتسفيلد: ما هذا الصراخ؟ فأجابه هرتسفيلد بأن هذا هو الرفيق روبشوف يتحدث في التلفون مع بن غوريون في القدس. يتكلم مع القدس! استغرب بيرل لوكر، إذن لماذا يستعمل التلفون؟

كان أبي يقول: «الآن سأطلب الرقم.» وأمي: «ما زال الوقت مبكرا، آرييه. بقيت عدة دقائق حتى يحين الوقت.» فكان يقول: «نعم، ولكن حتى يتم الاتصال» (لم يكن في حينه اتصال مباشر). فتقول أمّي: «ولكن ما يحدث لو أن الاتصال تمّ بسرعة، وهم لم يصلوا بعد؟» وكان أبي يجيبها: «في مثل هذه الحالة نعاود الاتصال مرة ثانية.» فتقول أمي: «لا، فهم سيقلقون، فقد يظنون أنهم خسروا المكالمة.»

وما أن ينتهي الجدّال بينهما حتى تصبح الساعة الخامسة تقريبا. كان أبي يرفع السماعة، وهو واقف لا جالس، وكان يقول لعاملة المقسم: «تحياتي لك يا سيدتي. أطلب تل أبيب ٦٤٨» (أو شيئا من هذا القبيل. في حينه عشنا عهد الأرقام الثلاثة). في بعض الأحيان كانت عاملة المقسم تقول: «رجاء الانتظار بضع لحظات، أيها السيّد، فإنّ مدير البريد يتحدث الآن.» أو السيّد

سيطون أو السيّد النشاشيبي. أما نحن فكنا نشعر بالضيق شيئا ما، إذ ماذا سيحدث؟ ماذا سيظنون بنا هناك؟

استطعت فعلا أن أرى ذلك السلك الوحيد الذي يربط القدس بتل أبيب وعبرها - بكل العالم، وهذا الخط مشغول، وما دام هذا الخط مشغولا - فنحن مقطوعون عن العالم. هذا السلك يلتوي في الصحراء وفوق الصخور يتلوى بين الجبال والتلال وقد اعتقدت أن هذه معجزة كبيرة. وقد ارتعدت فرائصي: ماذا سيحدث لو أن بعض الحيوانات الضارة جاءت في الليل وأكلت هذا السلك؟ أو قام عربي شرير بقطعه؟ أو تتسرب إليه مياه الأمطار؟ أو يحدث حريق في الأشواك؟ من يدري. كانت تملؤني مشاعر الشكر لأولئك الأشخاص الذين قاموا بمد هذا الخط، شجعان، ماهرون إذ أن ليس من السهل مد خط من القدس إلى تل أبيب، من التجربة عرفت كم كان الأمر صعبا: ذات مرت مددت سلكا من غرفتي إلى غرفة إلياهو فريدمن على بعد دارين وساحة من بيتنا، سلك رفيع ومتين، ورشة كاملة، الأشجار في الطريق، والجيران، مخزن، جدار، درج وشجيرات.

بعد أن انتظر قليلا، كان أبي يخمن بأن مدير البريد أو السيّد النشاشيبي قد أنهيا مكالمتهما، فكان يرفع السماعة ويقول لعاملة المقسم: «عفوا، يا سيدتي، أظنني قد طلبت الاتصال بتل أبيب ٦٤٨.» فكانت تقول: «سجلت طلبك أمامي، أيها السيّد، رجاء الانتظار» (أو «أرجو أن تتحلّى بالصبر»). فكان أبي يقول: «أنا انتظر، يا سيدتي، بالطبع أنني انتظر ولكن هناك أشخاص ينتظرون أيضاً على الطرف الآخر.» وبذلك كان يلمّح لها بأدب بأننا حقا أناس حضاريون ولكن يوجد حد للصبر وضبط النفس. صحيح أننا أناس مؤدّبون جدّاً ولكننا لسنا ساذجين يمكن الضحك علينا؛ لسنا غنما تقاد إلى المسلخ لذبحها. لقد انتهت وإلى الأبد إمكانية أن ينكّل أي شخص باليهودي وأن يفعل به كلّ ما يحلو له.

وعندها كان التلفون يرن فجأة هناك في الصيدلية، وكان هذا دائماً رنينا صاخبا يرجف له القلب ويقشعرّ له الظهر، لحظة سحرية خارقة، وكانت المكالمة تتم على النحو التالي تقريبا:

«هالو تسفي؟»
«يتكلّم.»
«هذا آرييه. من القدس.»
«نعم آرييه، تحياتي، هنا تسفي، كيف حالكم؟»
«عندنا كلّ شيء على ما يرام. نحن نكلمكم من الصيدلية.»
«ونحن كذلك. ما الجديد؟»
«لا جديد. كيف الحال عندكم؟ ماذا تقول؟»
«كلّ شيء على ما يرام. لا شيء خاصّ. عائشون.»
«إذا لم يكن هناك أي جديد، فهذا جيد. لا جديد عندنا أيضاً. نحن جميعا بخير. كيف الحال عندكم؟»
«كذلك.»
«جيد جدّاً. إذن الآن ستكلمكم فانيا.»

ومرة أخرى نفس الشيء: كيف حالكم؟ ما الجديد؟ وبعد ذلك: «الآن عاموس سيكلمكم عدة كلمات.»

كانت هذه هي المكالمة كلها. كيف الحال؟ جيدة. إذا كان الأمر كذلك سنكلمكم ثانية قريبا. ما أجمل أن نسمع صوتكم. ما أجمل أن نسمع صوتكم أنتم أيضاً. سنرسل إليكم رسالة نحدد موعدا للمكالمة في المرة القادمة. سنتكلم. نعم. بالطبع سنتكلم. قريبا. إلى اللقاء. حافظوا على أنفسكم. نتمنى لكم كلّ الخير. نتمنى لكم أنتم أيضاً كلّ الخير.

*

إلا أن هذا لم يكن مضحكا: فالحياة كانت معلقة بخيط رفيع. الآن أنا أدرك بأنهم لم يكونوا متأكدين إذا كانوا سيتكلمون فعلا مرة أخرى، أم لا، ربما هذه هي المرة الأخيرة، إذ من يدري ماذا سيحدث، هل ستحدث اشتباكات، تحدث مذبحة، مجزرة، يقوم العرب ويذبحوننا جميعا، تندلع حرب، تحدث كارثة، أولم تصل مدرعات هتلر إلى عتبتنا من جهتين: من شمال أفريقيا وكذلك عبر القفقاز، من يدري ما الذي بانتظارنا. هذه المكالمة الفارغة ليست فارغة إطلاقا – لكنها كانت هزيلة.

الشيء الذي تنوّرني به الآن تلك المحادثات التلفونية هو كم كان من الصعب عليهم - على الجميع، وليس على والديّ فقط - أن يعبّروا عن مشاعرهم الخاصة. في التعبير عن الشعور العام لم تواجههم أية صعوبة- فقد كانوا أناسا حساسين، وأحسنوا التعبير. أواه كم أحسنوا التعبير، كانوا قادرين على أن يتناقشوا ثلاث - أربع ساعات بحماس كبير حول نيتشه، ستالين، فرويد، جابوتنسكي، وأن يضعوا في ذلك كلّ قوّتهم، وأن يصلوا إلى دموع الشفقة، وأن ينشدوا الأناشيد، حول الاستعمار، واللاسامية، والعدالة، و«قضية الأراضي»، وحول «قضية المرأة»، وحول «قضية الفن إزاء الحياة». ولكنهم في اللحظة التي حاولوا فيها التعبير عن شعور خاصّ، صدر عنهم شيء منكمش، مقفر، وربما حتى مرعوب، والذي هو ثمرة أجيال تلو أجيال من الكبت والتحريم. تحريم مضاعف، منظومتان من الكوابح: ضاعفت الأعراف الأوروبية البرجوازية من قوّة القيود التي فرضتها البلدة اليهودية المتدينة. كلّ شيء تقريبا كان «ممنوعا» أو «غير مألوف» أو «غير لائق».

بالإضافة إلى ذلك كان هناك نقص كبير في الكلمات: لم تصبح اللغة العبرية بعد لغة طبيعية بما فيه الكفاية، وبالتأكيد لم تصبح بعد لغة حميمية، كان من الصعب أن تعرف ماذا يبدر منك عندما كنت تتكلم العبرية. لم يكن الناس واثقين أبداً بأنه لن يصدر عنهم شيء سخيف، ومن السخف كانوا يخافون ليل نهار. خافوا حتى الفزع. حتى أن أشخاصا كوالديّ الذين أتقنوا العبرية جيدا، لم يتمكّنوا منها بشكل عملي. كانوا يتكلمون العبرية وهم يرهبون الوقوع في الخطأ، يتراجعون أحياناً كثيرة ويصوغون من جديد ما قالوه لتوهم: ربما هكذا يشعر سائق قصير النظر وهو يتحسس طريقه في الليل في شبكة الطرقات الضيقة لمدينة غريبة في سيارة لم يسقها من قبل.

ذات مرة، جاءت لضيافتنا يوم سبت، صديقةٌ لأمّي تعمل معلمة اسمها ليليا بار سمخا. دار حديث، وكانت الضيفة تقول دائماً «أنا أضرط خوفاً» ومرة أو مرتين قالت أيضاً «كان يضرط خوفاً» وقد انفجرت بالضّحك وهم لم يفهموا ما المضحك، أو أنهم فهموا وتظاهروا بأنهم لا يفهمون. كذلك كان الأمر عندما قالوا بأن العمّة كلارا دائماً «تخرأ» البطاطا المقلية، وكذلك عندما

تحدّث أبي عن سباق التسلّح بين الدول العظمى أو عبر عن معارضة غاضبة لقرار دول حلف الناتو البدء في تسليح[1] ألمانيا من أجل ردع ستالين.

والدي، من جهته، كان يتجهم وجهه في كلّ مرة كنت استعمل فيها بكلمة «يدبّر» وهي كلمة ساذجة تماما تخلو من أي تورية، ولكنني لم افهم، ولو لمرة واحدة، لماذا كانت هذه الكلمة تثير غضبه، وهو بالطبع لم يشرح، ولم يكن بالحسبان أن أسأله. بعد سنوات علمت بأنه قبل ولادتي، في الثلاثينيات، كانت كلمة «يدبّر» تعني يحبّل المرأة، وليس هذا فحسب بل يحبلها ولا يتزوجها. على ما يبدو أنهم ببساطة قصدوا، أحياناً، في التعبير «يدبّرها» القول بأنه ضاجعها: «في تلك الليلة في مشغل تغليف البرتقال دبّرها مرتين، وفي الصباح تظاهر، الحقير، بأنه لا يعرفها إطلاقا.» ولذلك إذا قلت بـ«أن أوري دبّر أخته» كان وجه أبي يتجهم وينكمش قليلا منبت أنفه. من المؤكد بأنه لم يشرح ذلك إطلاقا- وهل كان ذلك ممكنا؟

في اللحظات الخصوصية لم يتحدثا بينهما باللغة العبرية. ولربما في اللحظات الخصوصية جدّاً لم يتكلما إطلاقا. صمتا. عاش الجميع في ظل الخوف من أن يُرى أو يسمع شيء سخيف.

(١) الكلمة العبرية التي تعني تسليح تستعمل في اللغة العامّية بمعنى يقيم علاقة جنسية، يضاجع (المترجم).

٢

ظاهريا، على رأس سلم الرفعة وعلو الشأن في تلك الأيام وقف الطلائعيون. لكن الطلائعيين عاشوا بعيدا عن القدس، في المروج والجليل وفي الصحراء المقفرة على ضفتي البحر الميت. لقد أعجبنا من بعيد بشخصيتهم القوية والمتأملة التي ارتفعت بين الجرار والأتلام المحروثة، على لافتات الكيرن كيمت (الصندوق القومي الدائم لإسرائيل) التي كانت تسمى يافطات.

الدرجة التي تلي الطلائعيين تشمل سكان الاستيطان المنظّم، الذين يقرؤون جريدة «دفار» وهم يلبسون الفانيلا ويجلسون على الشرفات الصيفية، نشطاء الهستدروت (نقابة العمّال) و«الهاجناه» و«صندوق المرضى»، رجال البدلات الرسمية والضريبة، وآكلو السلطة والبيض المقلي واللبن، أتباع كظم الغيظ، وأصحاب المسؤولية، ونمط الحياة الرزين، ضريبة التكافل الاجتماعي، إنتاج البلاد، طبقة العمّال، الطاعة الحزبية، والزيتون غير الحار من مرطبان تنوفا، زرقة سماوية من الأسفل وزرقة سماوية من الأعلى، نحن نبني هنا ميناء! هنا ميناء!

مقابل سكان الاستيطان المنظم، خارج الجدار، وقف الانفصاليون - الإرهابيون، وكذلك الأصوليون (الحرديم) من مائه شعاريم، وكذلك الشيوعيون «أعداء صهيون»، وكذلك خليط كبير من المثقفين، والساعين إلى التقدم في الحياة، والفنانين المنشغلين بذاتهم من النمط الأممي-الفوضوي، ومعهم أنواع مختلفة من غريبي الأطوار المتمردين، والعصاميين والعَدَميين

المشبوهين وألمان لم يفلحوا في التخلص من عاداتهم الألمانية، ومتعجرفين متأنجلزين على مختلف أشكالهم، وإسبانيين متفرنسين أثرياء بدوا من هنا مؤدبين كالندل أكثر من اللازم، ويمنيين وجورجيين ومغربيين وأكراد وسلونيكيين، كلهم بكل تأكيد إخوتنا، كلهم - كلهم بكل تأكيد طينة بشرية تبشّر كثيرا بالخير، ولكن ما العمل، علينا أن نستثمر فيهم الكثير من الصبر والجهد.

بالإضافة إلى كلّ هؤلاء كان هناك لاجئون ومهاجرون غير شرعيين، وناجون، البقية الباقية (بعد الكارثة)، الباقون على قيد الحياة، والذين نظرنا إليهم بشكل عام بنوع من العطف وشيء من الاشمئزاز: منكوبون ومرضى وبؤساء، من أجبرهم مع حكمتهم، على أن يبقوا هناك ينتظرون هتلر بدلا من أن يأتوا إلى هنا قبل فوات الأوان؟ ولماذا سمحوا بأن يقودوهم كالبهائم إلى المسلخ لذبحهم بدلا من أن ينظموا صفوفهم لرد الصاع صاعين؟ وليتوقفوا عن الكلام دفعة واحدة وإلى الأبد وعن التخاطب بلغة الإيديش التافهة، وأن يكفوا عن الحديث عما فعلوا بهم هناك، لأنّ ما فعلوه بهم هناك لا يزيدهم ولا يزيدنا شرفا. وبشكل عام، أوليست أنظارنا هنا تتطلّع إلى المستقبل لا إلى الماضي، وإذا كان لا بد من استذكار الماضي - فإنّ لنا ما يكفي بل ويزيد من الماضي العبري المبهج، التوراتي، الحشموني، ولا حاجة إطلاقا إلى تعكيره بماضٍ يهوديّ كئيب كهذا الذي كله فواجع مفجعة (كلمة فواجع كانوا يلفظونها عندنا على طريقة الإيديش مع شيء من الاشمئزاز والتهكّم، حتى يعرف الولد أن هذه الفواجع هي نوع من الجذام وأن هذه الفواجع خاصّة بهم وليست بنا). من بين اللاجئين الناجين كان على سبيل المثال السيّد ليخط الذي سمّاه أولاد الحيّ «مليون يولدجي». استأجر لنفسه كوخا صغيرا في شارع ملآخي، نام فيه في الليل على فرشة وفي ساعات النهار طوى الفرشة جانبا وأدار هناك ورشة عرفت باسم «تنظيف جافّ وكيّ على البخار». طرفا فمه كانا مشدودين دائماً إلى الأسفل بمثل نوع من الاشمئزاز أو الازدراء الشديد. كان يجلس عند باب مغسلته، ينتظر الزبائن، وإذا مر به أحد أولاد الحيّ كان يبصق دائماً جانبا ويخرج من بين شفتيه المنكمشتين:

«قتلوا مليون طفل! أطفال أمثالكم! ذبحوا!» لم يقل ذلك بحزن بل بكراهية، بتقزّز، كمن يشتمنا.

*

لوالديّ لم يكن مكان على هذا الرسم البياني الذي على طرفيه كان الطلائعيون وأصحاب الفواجع: فرجلهما الأولى كانت في الاستيطان المنظّم (فقد كانا عضوين في صندوق المرضى ودفعا ضريبة الاستيطان) بينما رجلهما الثانية في الهواء: فقد كان أبي قريبا في قلبه من أيديولوجيا المنشقين ومع ذلك- كان بعيدا جدّاً عن القنبلة والبندقية. والحد الأقصى لما قام به أنه استخدم معرفته للانجليزية في التنظيم السريّ وأخذ على عاتقه أن يؤلف بين الحين والآخر المناشير الممنوعة المهاجمة بشان «بريفيديوس ألبيون» - «ألبيون الخائنة». طبقة مثقفي رحافيا شدّت إليها عن بعد قلبيّ والديّ، إلا أن المثل العليا للمسالمين أعضاء «بريت شالوم»، المتمثلة بالأخوة العاطفية بين اليهود والعرب، وبالتنازل الكامل عن حلم الدولة العبرية حتى يشفق علينا العرب ويتكرموا بفضلهم بالسماح لنا بالسكنى هنا تحت أقدامهم، هذه المثل بدت لوالدي غير واقعية، استسلاميّة، ركيكة، استعطافية، بل أنها من عادات الشتات.

أمي التي تعلمت في جامعة «براغ» وانتهت دراستها في الجامعة في القدس، كانت تعلم دروسا خصوصية للطلاب الذين كانوا يستعدون للامتحانات في التاريخ والأدب. كان أبي يحمل شهادة بكالوريوس في الأدب من جامعة «فيلنا» وشهادة ماجستير من الجامعة التي على جبل المشارف (سكوبُس)، إلا أنه لم يكن هناك احتمال لأن يحصل على وظيفة محاضر في الجامعة العبرية في تلك الأيام التي كان فيها عدد الخبراء ذوي الشهادات العالية في الأدب يفوق عدد الطلاب. أضف إلى ذلك أن لكثير من أولئك المحاضرين كانت شهادات حقيقية، دبلومات براقة من جامعات ألمانية عريقة، ليس مثل شهادة أبي البولندية - المقدسية المهلهلة. لقد وجد له وظيفة أمين مكتبة في المكتبة القومية على جبل المشارف، وفي الليالي جلس وكتب كتبه حول الرواية في الأدب العبري وتاريخ الأدب العام. كان والدي

أمين مكتبة مثقفاً، مؤدّباً، حازماً ولكنه حائر أيضاً، بربطة عنق ونظارات مستديرة، وجاكيت باهت بعض الشيء، يطأطئ برأسه أمام من هم أكبر منه، يسرع لفتح الأبواب أمام السيّدات، يطالب بإصرار بحقوقه القليلة، يردد بانفعال أبياتا من الشعر بعشر لغات، يحاول دائماً أن يكون لطيفا ومرحا، يروي مرارا وتكرارا نفس النكات (التي كان يسميها دعابات أو طرفا). إلا أن النكتة كانت تخرج معه عسيرة، ليست سخرية حيّة بل ما يشبه إعلان النوايا الايجابية بشأن الواجب الملقى على عاتقنا، بأن ننكّت في الأوقات العصيبة بالذات.

عندما كان يقف أمامه طلائعي بملابس رمادية، ثوري، مثقف تحوّل إلى عامل، كان أبي يدخل في ضائقة وحيرة: في خارج البلاد، في «فيلنا» و«وارسو» كان واضحا جدّاً كيف يديرون محادثة مع بروليتاريّ (عامل). كلّ واحد عرف مكانته، ومع ذلك كان عليك أن تثبت لهذا العامل، عمليا، إلى أي حد أنت ديمقراطيّ وانك لا تتعالى عليه. ولكن هنا؟ في القدس؟ هنا كلّ شيء له معنيان؛ ليس المعنى وعكسه، ليس كما عند الشيوعيين في روسيا، بل مزدوج المعنى: من جهة أولى، أبي كان ينتمي إلى الطبقة الوسطى، صحيح إلى الطبقة الوسطى المنخفضة نوعا ما إلا أنه بكل تأكيد ينتمي إلى الطبقة الوسطى، رجل مثقف، كاتب مقالات ومؤلف كتب، صاحب وظيفة متواضعة في المكتبة القومية، بينما محادثه- عامل بناء يتصبب عرقا يرتدي ملابس العمل وحذاء ثقيلا. من جهة أخرى يقال إن هذا العامل يحمل شهادة جامعية في الكيمياء، وهو أيضاً طلائعيّ واعٍ، ملح الأرض من أبطال الثورة العبرية، يشتغل في الأعمال اليدوية، في حين شعر والدي - على الأقل في أعماق نفسه- أنه مثقف غير واقعي قصير النظر لا يحسن القيام بأي عمل يدويّ، نوعا ما آبق من الجندية، ويتهرب من الجبهة الحقيقية جبهة بناء الوطن.

*

غالبية جيراننا كانوا من الموظفين الصغار، تجار المفرق، أمناء صندوق في المصارف أو في دور السينما، معلمين ومعلمين خصوصيين، وأطباء

أسنان. لم يكونوا متدينين، كانوا يذهبون إلى الكنيس فقط في يوم الغفران وأحيانا كانوا يشاركون في الدوران حول منبر الكنيس وهم يحملون أسفار التوراة في عيد نزولها في اليوم الثامن من عيد المظلة، وعلى الرغم من ذلك كانوا يشعلون الشموع في ليلة السبت، كي يحافظوا على شيء من النفحات اليهودية وربما أيضاً لمزيد من الاطمئنان، فليكن، كوقاية من كلّ شر محتمل.

كانوا جميعا من المثقفين، ولكنهم لم يكونوا مرتاحين بسبب ذلك. لجميعهم كانت آراء حاسمة حول الانتداب، مستقبل الصهيونية، طبقة العمّال، الحياة الثقافية في البلاد، حول الخلاف بين ماركس وديرينج، وروايات كنوت هامسون، حول «القضية العربية» وحول «قضية المرأة». كان من بينهم بعض أصحاب الرأي والدّعاة الذين طالبوا، على سبيل المثال، إلغاء الحرمان المفروض على سبينوزا، أو أن يشرحوا لعرب البلاد بأنهم في الحقيقة ليسوا عربا بل هم من نسل العبرانيين القدماء، أو الدمج بشكل مطلق بين أفكار كل من كنت وهيجل مع نظرية تولستوي ومع الصهيونية العملية ومن هذا الدمج تتولد هنا في البلاد حياة طاهرة وصحية مدهشة، أو الإكثار من شرب حليب الماعز، أو طرد الانجليز من هنا ومن أجل ذلك، إقامة حلف مع أمريكا وحتى مع ستالين، أو القيام كلّ صباح بتمارين رياضية بسيطة تقوى على إبعاد الحزن وتطهير روح الإنسان المتدرب.

هؤلاء الجيران الذين كانوا يجتمعون في ساحتنا الصغيرة كلّ يوم سبت بعد الظهر لشرب الشاي الروسي، كانوا كلهم أشخاصا لا يجيدون القيام بأي عمل يدويّ. وعندما استدعت الحاجة إلى تغيير صمامة كهربائية احترقت أو جلدة حنفية أو لعمل ثقب صغير في الحائط كانوا يسرعون جميعا للبحث عن باروخ، الوحيد في الحيّ الذي يحسن عمل مثل هذه العجائب ومن هنا سموه عندنا «باروخ صاحب الأيدي الذهبية». أما الآخرون فقد عرفوا كيف يحللون بحماس بليغ جارف إلى أيّ درجة من المهم أن يعود الشعب اليهودي أخيرا إلى العيش على الزراعة والأعمال اليدوية: من ناحية ذكاء، قالوا، يوجد لدينا أكثر من اللازم، وما ينقصنا هو العمّال البسطاء والمستقيمون. لكن، في حيّنا، إذا استثنينا باروخ صاحب الأيدي الذهبية لم يكن هناك أيّ عامل

بسيط. كذلك لم يكن عندنا مفكرون يقتلعون الجبال: كلهم كانوا يقرؤون العديد من الصحف، وكلهم أحبّوا الكلام. بعضهم ربما كان مختصا في بعض المجالات، وآخرون ربما كانوا متّقدي الذهن، إلا أن معظمهم رددوا، على وجه التقريب، ما وجدوه في الصحف وفي جميع أنواع المنشورات والمقالات التهكمية الهجومية والنشرات الحزبية. كولد، كان بإمكاني أن أخمّن، بشكل خافت، البعد الكبير بين حماسهم إلى إصلاح العالم وبين الطريقة الّتي كانوا بها يفركون أطراف القبعة عندما قدموا إليهم كأس الشاي، أو الخجل الفظيع الذي كان يجعل وجوهَهم محمّرة عندما كانت أمّي تنحني (قليلا فقط) لكي تحلّي لهم الشاي، حيث كانت فتحة صدرها المتواضعة تتسع بعض الشيء: ارتباكة أصابعهم الّتي حاولت أن تنطوي إلى الداخل وتتوقف عن كونها أصابع.

كلّ هذا كان تشيخوفيّاً- وكذلك كان الشعور بالنأي/ العزلة: هناك في العالم أماكن تتحقق فيها الحياة الحقيقية، بعيدا من هنا، في أوروبا ما قبل هتلر، في كلّ مساء تضاء مصابيح كثيرة، و السيّدات والسادة يلتقون لشرب فنجان قهوة مع الكريما في قاعات مسقوفة بالخشب، يجلسون مرتاحين في مقاهٍ فاخرة تحت نجَفات مذهبّة، ويذهبون وهم يمسكون بأذرع بعضهم إلى أوبرا أو باليه، يرون عن كثب حياة الفنانين الكبار، وقصص الحب المستعر، وانكسارات القلوب، حبيبة الرسام الّتي عشقت فجأة أقرب أصدقائه، الملحن، وفي منتصف الليل ذهبت حاسرة الرأس تحت زخّات المطر لتقف وحيدة على الجسر العتيق الذي يرتجف خياله في ماء النهر.

*

في حيّنا لم يحدث بتاتا مثل هذه الأمور: مثل هذه الأمور حدثت فقط خلف جبال الظلام، في الأماكن الّتي يعيش فيها الناس بلا حساب. على سبيل المثال، في أمريكا، حيث يحفرون ويجدون الذهب، يسرقون قطار البريد، يسوقون قطعان البقر على امتداد صحارٍ شاسعة، ومن يقتل أكبر عدد من الهنود الحمر يحصل في النهاية على فتاة جميلة. هكذا كانت أمريكا سينما أديسون: الفتاة الجميلة كانت الجائزة الكبرى الّتي تمنح لأفضل من

يجيد إطلاق النار. ماذا يفعلون بهذه الجائزة؟ لم تكن عندي أيّة فكرة. لو أنهم كانوا يظهرون لنا في تلك الأفلام أمريكا الّتي فيها من يقتل أكبر عدد من الفتيات كان في النهاية يمنح كجائزة مقابل ذلك هندياً أحمر جميل المنظر- لكنت، بكل تأكيد، أصدق بأن الأمر كذلك. على كلٍّ، هكذا الأمر في تلك العوالم البعيدة، في أمريكا، وفي غيرها من الأماكن العجيبة من ألبوم طوابعي، في باريس، وفي الإسكندرية، وفي روتردام، في لوغانو، وفي بياريتس، وفي سان موريس، الأماكن الّتي فيها أناس رفيعو المقام يعشقون ويتصارعون بأدب، يضيعون، يتنازلون، يتيهون على وجوههم، يجلسون ويحتسون في منتصف الليل وحدهم على كرسي عال أمام النُّضُد في البارات المعتمة في الفنادق في جادّات في مدن شديدة الأمطار ويعيشون حياتهم بدون أيّ حساب.

في روايات تولستوي ودويستوفسكي الّتي تناقش الجميع حولها طوال الوقت كان الأبطال يعيشون أيضاً بدون حساب ويموتون من شدة الحبّ. أو ماتوا في سبيل مثل أعلى. أو ماتوا بالسلّ أو من شدة الأسى. وأولئك الطلائعيون المسفوعون، على تلة هناك في الجليل، يعيشون هم أيضاً بدون حساب. عندنا في الحي لم يمت أيّ شخص بالسل أو بسبب حبّ فاشل أو في سبيل مُثُلٍ عليا. كلهم عاشوا بحساب؛ ليس والدي فقط، بل كلهم.

*

كان عندنا قانون صارم، لا نشتري أيّ شيء مستورد، لا شيء من خارج البلاد، ما دام بالإمكان الحصول عليه من صنع محليّ. ولكن عندما ذهبنا إلى دكان السيّد أوستر عند زاوية شارع عوفاديا وشارع عاموس، كان لا بد من أن نختار بين جبنة كيبوتس، من إنتاج تنوفا وبين الجبنة العربية: هل الجبنة العربية من القرية المجاورة لفتا هي من إنتاج الخارج أم من إنتاج البلاد؟ معقد؟ صحيح أن الجبنة العربية كانت أرخص بشكل قليل جدّاً. ولكنك إذا اشتريت جبنة عربية فقد خنت الصهيونية قليلا: هناك في مكان ما في الكيبوتس أو الموشاف في مرج ابن عامر أو في جبال الجليل قامت فتاة طلائعية بائسة وربما وهي تذرف الدموع بتغليف هذه الجبنة العبرية من أجلنا

- كيف يمكن لنا أن ندير لها ظهرنا ونشتري جبنة أجنبية؟ ألا ترتجف اليد الّتي تمتد للقيام بذلك؟ من جهة أخرى، إذا قاطعنا منتوجات جيراننا العرب- فإننا نحن بأنفسنا نعمّق ونخلّد الكراهية بين الشّعبين والدم الذي سيسفك، لا سمح الله، سيرزح فوق ضميرنا. إذ أن الفلاح العربي البسيط ما هو إلا مزارع بسيط وطاهر القلب لم تتلوّث نفسه بدنس المدن الكبيرة، هذا الفلاح هو في الحقيقة الأخ قمحيّ اللون لذلك «الموجيك» (الفلاح الروسي) البسيط، الشريف، من قصص تولستوي! أحقّاً نقسو وندير ظهورنا لتلك الجبنة القروية؟ أحقّاً نكون قساة القلب ونعاقبه؟ ولماذا؟ لأنّ بريطانيا المحتالة والأفندية الفاسدين يحرضون هذا الفلاح علينا وعلى مشروعنا؟ لا. هذه المرة سنشتري بكل تأكيد جبنة قروية عربية، والتي، على فكرة، هي ألذ طعماً من جبنة تنوفا بالإضافة إلى أنها أرخص قليلا. ولكن، من جهة ثالثة، وبالرغم من كلّ ذلك، من يدري، ربما أنهم لا يحافظون هناك كثيرا على النظافة؟ من يدري ما هو حال مَلْبَنتهم هناك؟ ماذا يحصل إذا اتضح، في وقت متأخر، أن جبنهم مليئة بالميكروبات؟

الميكروبات كانت أحد اشدّ الكوابيس المظلمة عندنا. مثلها مثل اللا ساميّة: لم يحدث ذات مرة أن شاهدت بأمّ عينيك لا ساميّا أو ميكروبا، ولكن تعلم علم اليقين أنهم يكمنون لك في كلّ مكان، يرون ولا يُرَون. عمليا، ليس صحيحا القول بأن أحدا منا لم يرَ في حياته ميكروبا: فأنا رأيت. كنت انظر وقتا طويلا بنظرة مركّزة وثاقبة في قطعة جبنة قديمة، حتى بدأت أشاهد فجأة تحركات صغيرة. مثل الجاذبية في القدس، الّتي كانت في حينه أقوى بكثير مما هي عليه اليوم، كذلك الميكروبات كانت أكبر حجما واشدّ قوة، لقد شاهدتهم.

جدال صغير كان يثور بين الزبائن في حانوت السيّد أوستر: نشتري أم لا نشتري جبنة فلاحين؟ من جهة أولى، «الأقربون أولى بالمعروف»، لذلك من واجبنا أن نشتري جبنة تنوفا؛ ومن جهة ثانية- «. . . حُكْمٌ وَاحِدٌ يَكُونُ لَكُمْ وَلِلْغَرِيبِ النَّازِلِ عِنْدَكُمْ». ولذلك من الجدّير بنا أحياناً أن نشتري جبنة جيراننا العرب، وذلك، «لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ». وبشكل عام، بأي نظرة

احتقار عميقة ينظر تولستوي إلى الشخص الذي يشتري هذه الجبنة ولا يشتري تلك الأخرى على خلفية الفرق في الدين أو القومية أو العِرق! ماذا عن القيم العالمية؟ الإنسانية؟ أخوة جميع المخلوقات على صورة الله؟ وعلى الرغم من ذلك، أيّ بؤس صهيوني، وأي وهن، وأي دناءة نفس تلك الّتي تجعلك تشتري جبنة عربية فقط لكونها أرخص بملّيمَين، بدلا من أن تشتري جبنة الطلائعيين، الذين يسلخون جلدهم عن لحمهم ويبذلون كلّ جهد بأظافرهم كي يخرجوا الخبز من الأرض؟

يا للعار! يا للعار والشنار! كذا أو كذاك، عار وشنار!

الحياة كلها كانت مليئة بأعمال مخجلة ومخزية كهذه.

*

كانت هناك معضلة كهذه: هل من اللائق أو غير اللائق إرسال الورود بمناسبة عيد ميلاد؟ وإذا كان لائقا فأيّ ورود؟ أزهار الجلاديولا غالية جدّاً ولكنها زهرة حضارية، نبيلة، مليئة بالإحساس، وليست مجرد عشبة برية أسيوية شبه متوحشة. شقائق النعمان وعصا الراعي كان يسمح لنا بقطف كلّ ما نريده منها، فعزاريا ألون كان ما زال صغير السن. إلا أن شقائق النعمان وعصا الراعي لم تعتبر من بين الأزهار الّتي من المألوف إرسالها بمناسبة عيد ميلاد أو بمناسبة صدور كتاب. للجلاديولا كانت نكهة لطيفة كنكهة المطربين الصادحين، وكنكهة حفلات القصور، نكهة المسرح، الباليه، الثقافة، وكنكهة الأحاسيس المرهفة - العميقة.

وعليه يشترون باقات الجلاديولا ويرسلونها. لا يعملون حسابا. والسؤال هو، هل سبع جلاديولات؟ أليست عددا كبيرا مبالغا فيه نوعا ما؟ أوليست خمس منها اقلّ من اللازم؟ ربما ست؟ أو سبع مع كلّ ذلك؟ لا: يعملون حسابا. يحيطون أزهار الجلاديولا بغابة من الهليون ويرسلون ستّاً. من جهة أخرى أليس هذا عملا أكل الدهر عليه وشرب؟ جلاديولا؟ أين، الآن، يرسلون جلاديولات؟ ماذا، هل في الجليل يبعث الطلائعيون بعضهم إلى بعض جلاديولات؟ هل ما زال هناك في تل أبيب مَن يتعامل مع الجلاديولا؟ ما هي فائدتها؟ تكلّف أموالا طائلة وبعد أربعة- خمسة أيام

تذهب مباشرة إلى برميل الزبالة. إذن، أيّ شيء نقدمه كهدية؟ ربما علبة حلوى؟ من أين علب الحلوى. علب حلوى قطعا لا. فتقديم علبة حلوى أكثر سخفا من تقديم الجلاديولا. عمليا ربما الأفضل أن نقدم مناديل للمائدة، أو طقماً صغيراً لحمل الكؤوس، مصنوعاً من المعدن المزخرف بلون الفضة مع مقابض لطيفة، بها يمكن تقديم الشاي وهو يغلي، هدية متواضعة وجمالية أيضاً بالإضافة إلى كونها عملية جدا ولا تُرمى بل تستعمل طوال سنوات عديدة، وربما كلما استعملوها تذكّرونا للحظة وذكرونا بالخير.

٣

في كلّ مكان كان بإمكانك أن تكتشف أنواعا مختلفة من السفراء الصغار لأوروبا، تلك البلاد الموعودة. على سبيل المثال، أولئك الأقزام الصغار، اقصد أولئك الرجال الصغار الذين يمسكون الأباجورات مفتوحة طوال ساعات النهار، أيّ تلك القطعة المعدنية (على شكل قزم) الّتي عندما أردت أن تغلق أباجور الشباك تدوّرها على محورها بحيث تبقى طوال الليل معلقة ورأسها إلى أسفل. كما علقوا في نهاية الحرب العالمية موسوليني وخليلته الّتي كان اسمها كلارا بيتاتشي. كان ذلك فظيعا، كان ذلك مفزعاً، لا أقصد شنقهما، لا فقد استحقا ذلك بكل تأكيد، بل لأنهم علقوهما ورأساهما إلى الأسفل. لقد أشفقت عليهما بعض الشيء، مع أن ذلك كان ممنوعا، هذا غير معقول، ماذا، هل جننت تماما؟ فقدت صوابك؟ أن تشفق على موسوليني؟ ذلك يشبه تقريبا الشفقة على هتلر! أما أنا فقد قمت بتجربة، علقت نفسي من قدميّ، مع الرأس إلى أسفل، على أنبوب مثبت في حائط: بعد دقيقتين كلّ الدم تدفّق إلى رأسي وشعرت أنني على وشك أن افقد وعيي. أما موسوليني وخليلته فقد بقيا معلّقين على هذا النحو ليس لدقيقتين بل لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وهذا أيضاً بعد أن قتلوهما! ظننت بأن هذا عقاب قاسٍ. حتى للقتلة وحتى للخليلات.

لم يكن عندي أيّة فكرة عما تعنيه كلمة «خليلة». في القدس كلها في تلك الأيام لم تكن حتى خليلة واحدة. كانت هناك «صديقة»، كانت هناك «شريكة حياة»، كانت «صاحبة بالمعنيين»، وربما كانت هنا وهناك بعض

العلاقات الغرامية: بحذر شديد كانوا يقولون، مثلا، بأن لتشرنيانسكي توجد علاقة ما مع صديقة لوفاتين، وقد خمنتُ بقلب يخفق بقوة بأن كلمتي «علاقة ما» هما تعبير غامض ومصيري يخبئ وراءه شيئا حلوا وفظيعا ومخزيا. أما خليلة؟! فهذا عامة، موضوع توراتيّ. موضوع أكبر من الحياة. لا يخطر ببال. ربما، هكذا ظننت، في تل أبيب توجد أمور كهذه، إذ، عندهم، توجد دائماً أمور متنوعة وممنوعة غير موجودة عندنا.

*

بدأت القراءة تقريبا لوحدي، عندما كنت صغيرا جدّاً. ماذا كان بإمكاننا أن نعمل سوى ذلك؟ كانت الليالي في حينه أطول كثيرا، لأنّ الكرة الأرضيّة دارت بشكل أبطأ ولأن الجاذبية في القدس كانت أقوى بكثير مما هي عليه اليوم. ضوء المصباح كان أصفر شاحبا، وهذا الضوء كان ينطفئ كثيرا بسبب انقطاع التيار الكهربائي المتكرر. حتى اليوم ترتبط لديّ رائحة الشموع الّتي يتعالى منها الدخان ورائحة قنديل الكاز الذي يغطيه السُّخام مع الرغبة في قراءة كتاب. منذ الساعة السابعة مساء كنا محبوسين في البيت بسبب منع التجوّل الذي فرضه البريطانيون على القدس. وحتى عندما لم يفرضوا منع التجول، من أصلا رغب في أن يكون في الخارج في الظلام في تلك الفترة في القدس؟ كلّ شيء كان مسدودا ومغلقا، الشوارع المرصوفة بالحجارة كانت تخلو من البشر، كلّ ظل كان يمر في هذه الأزقة كان يجرّ وراءه على الإسفلت الفارغ ثلاثة أو أربعة أشباح من الظل.

حتى عندما لم ينقطع التيار الكهربائي، عشنا دائماً في ضوء خافت لأننا ملزمون بالتوفير: كان والدي يبدلون لمبة الأربعين واط بلمبة خمسة وعشرين واط، ليس فقط بسبب ثمنها بل وفي الأساس لأنّ الضوء القوي هو ضوء فيه تبذير والتبذير صفة غير أخلاقية. كان يكتظ داخل بيتنا الصغير دائماً نصف الجنس البشري الذي يعاني: الأولاد الجائعون في الهند، والذين بسببهم كان عليّ أن آتي على كلّ ما يوضع لي في الصحن. المهاجرون غير الشرعيين الناجون من أتون هتلر والذين طردهم البريطانيون إلى معسكرات أكواخ الصفيح في قبرص. اليتامى الضالون والذين ما زالوا بملابس رثة بالية بين

الغابات المكسوة بالثلوج في أوروبا المهدمة. كان أبي يبقى حتى الثانية بعد منتصف الليل يشتغل إلى جانب طاولته على ضوء مصباح ذي خمسة وعشرين واطّ شاحب بسبب إصابته بفقر الدم، يرهّق عينيه، لأنه لم يكن من اللائق به أن يستعمل مصباحا أقوى: إذ أن الطلائعيين في قرى الجليل التعاونية يسهرون طوال الليل في خيمة يؤلفون ديوان شعر أو رسالة فلسفية على ضوء شموع تهتز بفعل الرياح، وأنّى لك أن تتجاهلهم؟ وأن تجلس مثل روتشيلد على ضوء مصباح مشع ذي أربعين واطّ؟ وماذا سيقول الجيران إذا رأوا عندنا فجأة إضاءة كما في الحفلات الفخمة. وعليه كان يفضل أن يجحظ عينيه على أن يثير عيون الحاسدين.

لم نكن فقراء جدّاً: كان أبي موظّفاً في المكتبة القومية وتقاضى راتبا متواضعا ولكن ثابتا. أمّي كانت تعطي بعض الدروس الخصوصية. وأنا كنت أسقي طيلة يوم الجمعة مقابل شِلِن حديقة السيّد كوهين في تل أرزه، وفي يوم الأربعاء كنت أرتب الزجاجات الفارغة داخل الصناديق خلف بقالة السيّد أوستر مقابل أربعة قروش، ومقابل قرشين للدرس كنت أعلم ابن السيّدة فينستر قراءة الخريطة (إلا أن ذلك كان دَينا، وحتى يومنا هذا لم تدفع لي عائلة فينستر).

على الرغم من كلّ هذه المدخولات، كنا نقتصد ونقتصد طوال الوقت. حياة البيت الصغير سارت كما الحياة في الغواصّة الّتي شاهدتها مرة في سينما أديسون، عندما كان الملاحون ينتقلون من قسم إلى آخر كانوا يغلقون وراءهم أنواعا مختلفة من الحواجز: بإحدى يدي كنت أشعل الضوء في المرحاض وفي الوقت نفسه كنت أطفئ الضوء في الممر، كي لا نبذر الكهرباء. أما سلسلة خزّان المياه فكنت أشدّها بلطف، لأنه يحظر تبذير خزان كامل على تبَول واحد. كانت هناك حاجات أخرى (لم يكن عندنا اسم لها بتاتا)، تحتاج في بعض الحالات إلى خزان كامل. لكن تبول؟ خزان كامل؟ في الوقت الذي فيه يجمّع الطلائعيون في النقب مياه فرك الأسنان لكي يرووا بها الأشتال. وفي الوقت الذي فيه يجب أن يكفي دلو ماء واحد في معسكرات النازحين في قبرص عائلة كاملة مدة ثلاثة أيام؟ وكنت أخرج من المرحاض

يدي اليسرى تطفئ ويدي اليمنى تشعل، بشكل متوافق، ضوء الممر، لأنّ الكارثة كانت بالأمس فقط، ولأنّ اليهود ما زالوا يعانون الأمرَّين بين جبال الكربات وجبال الدولميت في المعسكرات الّتي طردوا إليها وفي سفن هجرة غير شرعية متداعية بملابس ممزقة بالية هزلى كالهياكل العظمية ولأنّه يوجد نقص ومعاناة في زوايا أخرى من العالم، الكوليون في الصين، عمال قطف القطن الفقراء في ولاية مسيسيبي، أولاد أفريقيا، صيادو صقلية. يجب علينا أن نقتصد.

إضافة إلى ذلك، من يدري أصلا ماذا يمكن أن يحدث غدا هنا عندنا؟ إذ أن المصائب لم تنتهِ بعد، ومن شبه المؤكد أن الأسوأ مازال أمامنا: صحيح أنّ النازيين قد هزموا، إلا أن اللاسامية ما زالت تعربد في كلّ مكان. في بولندا مرة أخرى تحدث مذابح وفي روسيا يطاردون الناطقين بالعبرية، وهنا البريطانيون لم يقولوا بعد كلمتهم الأخيرة، والمفتي يتحدث عن ذبح اليهود، ومن يدري ماذا تحضر لنا الدول العربية، والعالم المستهتر يؤيد العرب لاعتبارات تتعلق بالنفط والأسواق ومصالح أخرى. من المؤكد أنه لن يكون مريحا لنا هنا.

*

الكتب هي الشيء الوحيد الذي كان متوفرا عندنا بكثرة بدون حساب، من الحائط إلى الحائط، في الممر وفي المطبخ والمدخل وعلى حافّات الشبابيك وفي كلّ مكان. آلاف الكتب في جميع زوايا البيت. كان هناك شعور بأن البشر يحضرون ويغادرون، يولدون ويموتون أما الكتب فهي باقية إلى الأبد. عندما كنت صغيرا راودني أمل أن أكبر وأن أكون كتابا، لا كاتبا بل كتابا: إذ أن الإنسان يمكن أن يقتل مثل النمل كذلك الكُتاب ليس من الصعب قتلهم. أما الكتاب وحتى إن أبادوه بطريقة منهجية هناك احتمال لأن تنجو نسخة منه تبقى حية حياة أبدية صامتة على أحد الرفوف المنسية في مكتبة ما نائية في ريكيافيك، أو في فالادوليد أو في فانكوفير.

إذا صدف مرتين أو ثلاث أن لم يتوفر لنا المال لشراء حاجات السبت كانت أمّي تنظر إلى أبي وكان أبي يدرك أنه حان الوقت لأن يختار «كبش

الفداء» وكان يتقدم نحو خزانة الكتب: كان إنساناً أخلاقيا ويدرك أن الخبز أولى من الكتاب وأن مصلحة الولد يجب أن تكون فوق كلّ شيء. أذكر ظهره المنحني وهو يخطو خارجا من الباب وثلاثة أو أربعة كتب حبيبة إلى نفسه تحت إبطه وبقلب يعتصره الألم كان يذهب إلى مكتبة السيّد ماير ليبيع بعض المجلدات القيّمة كمن يقطع أجزاء من جسده. هكذا بالتأكيد كان منحنيا ظهر سيدنا إبراهيم وهو يخرج في الصباح الباكر من خيمته واسحق على كتفه في طريقه إلى جبل الموريا.

كنت أستطيع أن أخمن مدى ألمه: كانت لأبي علاقة حسّيّة مع الكتب. كان يحب أن يتحسسها ويقلّب صفحاتها يلاطفها ويشمها. كان يشتهي الكتب، ولم يكن يستطيع كبح جماح نفسه وكان يسارع إلى «استعمال يديه» وحتى إلى كتب أشخاص غرباء. وفعلا فقد كانت كتب تلك الأيام مثيرة أكثر من الكتب في أيامنا: فقد كان فيها ما يمكن شمه وتحسسه وملاطفته. كانت هناك كتب بكتابات مذهبة على ظهور أغلفة من الجلد العطِر والخشن قليلا والتي ملامستها كانت تسبب لك قشعريرة احتكاك الجلد بالجلد، وكأنك وصلت في ملامستك إلى شيء مخفي وغير معروف، إلى شيء يقشعرّ ويهتزّ لملامسة أصابعك. وكانت هناك كتب جاءت بغلاف من الكرتون المكسو بالقماش، ملصّق بدبق له رائحة شهوانية إلى درجة مدهشة. لكلّ كتاب كانت رائحة سرية ومغرية خاصّة به. كان يحدث أحياناً أن ينفصل بعض الشيء غلاف القماش عن الكرتون وكان يتطاير مثل تنورة وقحة فكان من الصعب أن تتمالك نفسك وألا تنظر إلى الفراغ المظلل الذي بين الجسم وبين الملابس وأن تستنشق من هناك عبقا مثيرا.

غالبا ما كان أبي يعود بعد ساعة أو ساعتين، بدون الكتب، يحمل أكياسا ورقية بنية اللون وفيها الخبز والبيض والجبنة وأحيانا علبة لحم معلّب. ولكن كان يحدث أيضاً أن يعود أبي من مكان تقديم كبش الفداء سعيدا جدّاً وابتسامة عريضة ترتسم على محياه بدون الكتب ولكن بدون طعام أيضاً. لقد باع الكتب فعلا ولكنه بدلا منها اشترى كتبا أخرى، لأنه اكتشف فجأة في المكتبة كنوزا مدهشة، كتلك الّتي يمكن أن تلوح مرة واحدة ووحيدة في

العمّر، ولم يتمكن من تمالك نفسه. كانت أمّي تغفر له وكذلك فعلت أنا، لأنني عمليا لم ارغب في تناول أيّ شيء تقريبا عدا الذرة والبوظة. كرهت العجّة واللحم المعلب. والحقيقة أنني أحياناً كنت أحسد قليلا أولئك الأولاد الجائعين في الهند، الذين لا يجبرهم أحد على أن يأكلوا كلّ ما في الصحن.

*

عندما كنت في السادسة تقريبا حلّ يوم عظيم في حياتي: أخلى لي أبي مساحة صغيرة في إحدى المكتبات وسمح لي بأن انقل إليها كتبي. ولكي أكون صادقا فقد ورّثني ثلاثين سنتيمترا. والتي كانت تساوي حوالي ربع الرّف الأسفل. احتضنت كتبي والتي كانت حتى ذلك اليوم تضطجع على مسند للقدمين بجانب سريري، حملتها بين ذراعيّ إلى مكتبة أبي ورتبتها واقفة، كما يليق بها، ظهرها إلى العالم الخارجي ووجهها إلى الحائط.

كان ذلك طقس بلوغ، طقس استقبال حقيقيّ: الشخص الذي تقف كتبه هو رجل وليس ولدا. أنا الآن مثل أبي. كتبي أصبحت واقفة.

أخطأت خطأ فادحا. ذهب والدي إلى العمل، وكنت حرا لأعمل ما يحلو لي في المساحة الّتي منحت لي، ولكن كان مفهومي صبيانيا جدّاً حول كلّ ما يتعلق بكيفية عمل الأشياء. فقد حدث أن رتبت كتبي حسب ارتفاعها، وقد كانت الكتب الأكثر ارتفاعا هي الكتب الّتي لم تعد تليق بي - كتب مشكولة، مسجوعة، مع صور، تلك الّتي كانوا يقرؤون لي منها عندما كنت طفلاً. فعلت ذلك لأنني أردت أن أملأ حتى النهاية كلّ الفراغ الذي منح لي على الرف. أردت أن تكون زاوية كتبي مليئة وعامرة ومكتظة تماما كما عند والدي. كنت ما زلت منتشيا عندما عاد أبي من العمل ونظر مذهولا إلى رف كتبي وبصمت شديد نظر إليّ نظرة طويلة لن أنساها إلى الأبد: كانت تلك نظرة احتقار، وخيبة أمل مريرة لا تستطيع الكلمات التعبير عنها، نظرة قنوط وراثية تماما. في النهاية أخرج من بين شفتيه المقبوضتين: «قل لي، من فضلك، هل جننت تماما؟ حسب الارتفاع؟ ما هذا هل الكتب هم جنود؟ هل هي حرس شرف؟ أم مسيرة لجوقة رجال الإطفائية؟»

ثمّ عاد إلى صمته. كان صمتا طويلا ومفزعا من طرف والدي، صمت

من جنس صمت جريجور سامسا وكأنني تحولت أمام عينيه إلى حشرة. كذلك من جهتي كان هناك صمت المذنب، وكأنني حقاً كنت دائماً نوعا من الزواحف الحقيرة والآن فقط انكشف الأمر وقد ضاع كلّ شيء من الآن وإلى الأبد.

في طرف الصمت فتح لي أبي وكشف لي في عشرين دقيقة تقريبا كلّ حقائق الحياة. لم يُخفِ عني شيئا. أدخلني إلى أعمق الأسرار الخفية لعالم علم المكتبات: كشف أمامي أيضاً الطريق الرئيس بالإضافة إلى الطرق الجانبية المُحرجة والمناظر الطبيعية المدهشة للتغيرات والفوارق والفانتازيات، والجادات النائية تشكيلات جريئة وحتى نزوات منحرفة عن المركز: الكتب يمكن أن ترتب حسب العناوين، حسب أبجدّية أسماء المؤلفين، حسب سلاسل وحسب دور النشر. أو حسب التسلسل التاريخي أو حسب اللغات، أو حسب المواضيع، أو حسب النوع والمجال، وحتى حسب مكان النشر. بهذا الشكل أو ذاك.

هكذا تعلمت أسرار المنطق: الحياة مؤلفة من فئات مختلفة. كلّ شيء يمكن أن يحدث على هذا النحو أو ذاك، بحسب خطوط مختلفة وبموجب أمور منطقية متوازية. كلّ أمر من الأمور المنطقية المتوازية هو منطق متجانس ومترابط بطريقته، كامل بذاته، لا مبال بالآخرين.

في الأيام التالية قضيت الساعات تلو الساعات في ترتيب مكتبتي الصغيرة، عشرين أو ثلاثين كتابا رتبتها ثمّ عدت وخلطتها وكأنها أوراق شدة ورتبتها من جديد بطرق مختلفة، وفق صيغ متنوعة.

هكذا تعلمت من الكتب فن التركيب: ليس مما كتب فيها بل منها نفسها؛ من كينونتها الفيزيائية. هكذا علمتني الكتب عن المساحات المباحة المدهشة، عن المنطقة المحيّرة الّواقعة بين المسموح والممنوع، بين المشروع والمنحرف عن المركز، بين المعياري والمنحرف. هذا الدرس يرافقني طوال الحياة. عندما وصلت إلى الحب لم أكن بعد جاهلا تماما أو ما زلت في مرحلة التدريب. كنت قد عرفت بوجود طرق مختلفة ومتنوعة، هناك طريق سريع وهناك طرق ريفية ذات مناظر طبيعية متنوعة وهناك طرقات نائية لم تكد

أقدام البشر تدوسها. هناك مسموح أقرب للممنوع وهناك ممنوع أقرب لمسموح، هناك وهناك.

*

في بعض الأحيان سمح لي والديّ أن أخرج كتبا من رفوف والدي وأحملها إلى الخارج إلى الساحة، كي أنفض عنها الغبار: ليس أكثر من ثلاثة كتب في كلّ مرة حتى لا يختل ترتيب الكتب، لكي يعود كلّ واحد منها بكل تأكيد إلى مكانه. كانت تلك مسؤولية ثقيلة وممتعة، لأنّ رائحة غبار الكتب كانت تثيرني حتى أنني كنت أحياناً أنسى الوظيفة والمسؤولية والاحترام الذاتي، وأبقى في الساحة ولا أعود حتى ترسل أمّي القلقة والدي كبعثة إنقاذ، وليفحص إذا كنت أصبت بضربة شمس أو عضني كلب، ودائماً كان أبي يجدني متقوقعا في زاوية الساحة منغمسا في القراءة ركبتيّ ملتصقتان ورأسي مائل وفمي مفتوح بعض الشيء، وعندما كان أبي يسأل بنغمة تتراوح بين التوبيخ والتحبب، ماذا حدث لك ثانية؟ كنت بحاجة إلى لحظة طويلة كي تعيدني إلى هذا العالم، مثل الغريق أو فاقد الوعي الذي يطفو ويعود شيئا فشيئا، بدون رغبة، من أماكن نائية لا يمكن تخمين بعدها إلى الواقع الحزين والمسؤوليات اليومية.

طوال طفولتي كنت أحب أن أرتب الأشياء، وأن أوزعها وأعود وأرتبها، وفي كلّ مرة- أرتبها بشكل مختلف بعض الشيء. ثلاث أو أربع كؤوس بيض فارغة كانت يمكن أن تكون عندي مجموعة تحصينات، أو سرب من الغواصات أو مؤتمر رؤساء الدول العظمى المجتمعون في يالطة. أحياناً كنت أقوم بغارات قصيرة على مملكة الفوضى المباحة. كان في ذلك نوع من الجرأة والإثارة: أحببت أن أوزع على أرض الغرفة محتويات علبة الكبريت وأحاول أن أركب منها أشكالا لا نهاية لها.

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية كانت معلقة على حائط الممر خريطة كبيرة لحلبة المعارك في أوروبا، مع دبابيس وأعلام صغيرة بعدة ألوان. كان والدي يحركها كلّ يومين أو ثلاثة بناء على أخبار الراديو. وأنا بنيت واقعا موازيا، خاصا: فرشت على الحصيرة حلبة معارك خاصّة بي،

واقعا افتراضيا، وكنت أحرك الجيوش، أقوم بحركات التفافية تضليل، تمويه، اقتحم رؤوس جسور أقوم بالتطويق والمحاصرة، أقبل بالانسحاب التكتيكي واستغله لتوغلات إستراتيجية.

كنت ولدا مولعا بالتاريخ. خطر ببالي أن أصحح أخطاء قادة الماضي: جددت على سبيل المثال، الثورة اليهودية الكبرى ضدّ الرومان، أنقذت القدس من الخراب بأيدي جيش طيطس، نقلت المعركة إلى أرض العدو، أوصلت كتائب بار كوخبا حتى أسوار روما، واحتللت بهجوم عاصف الكولوسيوم ورفعت علما عبريا على تلة الكابتول. لتحقيق ذلك نقلت البريغادا اليهودية العاملة في الجيش البريطاني إلى أيام الهيكل الثاني واستمتعت بما يمكن لرشاشين أن يلحقا بجيوش أدريانوس وطيطس العظيمة (امّحا ذكرهما).

طائرة خفيفة واحدة، طائرة بايبر واحدة، جعلت الإمبراطورية الرومانية المتعجرفة تقف على ركبتيها. المعركة اليائسة الّتي خاضها حماة متسادا حولتها إلى نصر يهودي جارف بواسطة مدفع هاون واحد وعدة قنابل يدوية.

عمليا، هذا الدافع الغريب الذي لازمني عندما كنت صغيرا- الرغبة في أن امنح فرصة أخرى لمن لا توجد ولن تكون لهم فرصة ثانية- هو أحد الدوافع الّتي ما زالت تحركني حتى الآن، كلما جلست لكتابة قصة.

*

أمور كثيرة حدثت في القدس، تهدمت المدينة وبنيت ثمّ عادت وتهدمت ثمّ عادت وجاءها المحتل تلو المحتل، الذي حكم فترة قصيرة وخلّف وراءه عدة جدران وأبراج وبعض النقوش في الحجارة مع بعض القطع الخزفية والوثائق ثمّ اختفى. تطاير كما السحر في منحدرات هذه الجبال. هي حورية عجوز شبقة تعصر حتى آخر قطرة كلّ عشاقها قبل أن تلقيهم من فوقها الواحد تلو الآخر؛ مثل أنثى العنكبوت الّتي تفترس زوجها وهو مازال يلجها.

وحاليا في أقاصي العالم أبحرت الأساطيل إلى مناطق نائية واكتشفت قارات وجزرا جديدة. كانت أمّي تقول، لقد تأخرت، يا بني، دعك من ذلك، فقد اكتشف ماجلان وكولومبوس حتى أبعد الجزر ومع ذلك كنت

أجادلها. كنت أقول لها: عمليا، كيف يمكنك أن تكوني واثقة إلى هذا الحدّ؟ فالناس قبل كولومبوس كانوا متأكدين بأن كلّ شيء كان معروفا ولم يعد هناك ما يكتشفونه.

بين الحصيرة وأرجل قطع الأثاث والفراغ الذي تحت السرير كنت اكتشف أحياناً ليس الجزر المجهولة فحسب بل كواكب جديدة، مجموعات شمسية غير معروفة، وحتى مجرّات كاملة. فيما إذا أدخلت السجن فإنني بكل تأكيد سأفتقد الحرية بالإضافة إلى أمور أخرى- ولكنني لن أعاني من الفراغ وذلك شريطة أن يسمحوا لي بإدخال علبة دومينو أو شدّة أو علبتي كبريت أو دزّينة قطع نقدية معدنية أو حفنة من الأزرار: فإنني سأقضي الأيام وأنا أرتبها، أجمعها وأوزعها، اركبها وأفكّها، أقربها وأبعدها وأؤلف منها تراكيب صغيرة. ربما كان ذلك لأنني كنت وحيدا: لم يكن لي أخوة أو أخوات ولم يكن لي إلا القليل من الأصدقاء الذين تعبوا مني بعد وقت ما لأنهم أرادوا «أكشن» ولم يستطيعوا التأقلم مع الوتيرة الملحمية الّتي امتازت بها ألعابي.

كان يحدث أن أبدأ لعبة ما على أرض الغرفة في يوم الاثنين، وفي يوم الثلاثاء كنت افكّر طوال ساعات الصباح في المدرسة بالخطوة التالية، وبعد الظهر كنت لقوم بخطوة واحدة أو خطوتين، وأترك الباقي إلى يومي الأربعاء والخميس. كان أصدقائي يملون من ذلك ولذلك كانوا يتركونني لهلوساتي ويخرجون لممارسة ألعاب المطاردة بين ساحات المنازل، بينما كنت أتابع تطوير مساراتي التاريخية «الأرضية» لمدة أيام كثيرة أخرى، أحرّك الجيوش، أحاصر القلاع والعواصم، أهزم، أحتل، أقيم منظمات سرية بين الجبال، أغزو الحصون والخطوط الحصينة، أحرّر ثمّ أعود واحتلّ، أوسّع الحدود الّتي ابنيها بعيدان الكبريت ثمّ أعود وأضيقها. إذا حدث وداس أحد والديّ على عالمي الخاصّ كنت أعلن إضرابا عن الطعام أو تمردا على فرك الأسنان. حتى يحين يوم «القيامة» حيث لم تعد أمّي تحتمل تراكم أكوام الغبار وكانت تجرف كلّ شيء: الأساطيل، والجيوش، والعواصم والجبال والخلجان البحرية والقارات الكاملة وكأن كارثة نووية حلت بها.

ذات مرة، عندما كنت ابن تسع سنوات تقريبا، أحد الأعمام ويدعى نحميا علمني المثل الفرنسي: «في الحب مثلما في الحرب.» عن الحب لم أكن حينئذ قد عرفت شيئا باستثناء العلاقة الغامضة الّتي ربطت في سينما أديسون بين الحب وبين الهنود الحمر القتلى. ولكنني من أقوال العمّ نحميا استنتجت استنتاجا، بأن العجلة ليست محبّذة. بعد سنوات اتضح لي أنني عشت في خطأ مطلق على الأقل فيما يتعلق بالحرب- في ساحة المعركة السرعة، هكذا يقال، هي ميزة عظيمة جدّاً. ربما نجمت غلطتي عن كون العمّ نحميا نفسه كان إنسانا بطيئا لا يحب التغيير: عندما كان يقف، كان من غير الممكن أن تقنعه بالجلوس، وإذا كان قد جلس كان من المستحيل أن تجعله يقف. كانوا يقولون له: قف، نحميا، من فضلك، حقا ماذا جرى لك، لقد تأخرنا كثيرا، انهض رجاء، حتامَ تريد أن تبقى جالسا هنا؟ حتى الصباح؟ حتى يوم الغفران القادم؟ حتى مجيء المسيح المنتظر؟ أما هو فكان يجيب: على الأقل.

وكان يفكر في ذلك قليلا، يحك جلده، يبتسم لنفسه بدهاء كمن يحلل مكيدتنا، ثم يضيف: لن يهرب أيّ شيء.

جسمه، كطبيعة كلّ الأجسام، يفضل الاستمرار على حالته.

أنا لا أشبهه. أنا بالذات أحب التغييرات، واللقاءات، والجولات، ولكنني إلى جانب ذلك أحببت العمّ نحميا. قبل مدة بحثت عنه ولكنني لم اعثر عليه في المقبرة في جفعات شاؤول. المقبرة كبرت وتوسّعت. عما قريب ستزحف وتصل إلى ضفاف بركة بيت نقوبا أو حتى أطراف موتسا. نصف ساعة تقريبا أو ساعة جلست هناك على أحد المقاعد، بين أشجار السرو طنّ بإلحاح دبّور عنيد، وردد عصفور جملة خمس أو ست مرات متتالية، ولكنني من مكاني استطعت أن أرى شواهد الأضرحة وقمم الأشجار والجبال والغيوم.

بعد ذلك مرّت بي امرأة نحيفة تلبس السواد ويكسو رأسها منديل أسود، وولد في الخامسة أو السادسة يمسك بها. أصابعه الصغيرة قبضت على طرف فستانها وكلاهما مشى منتحباً.

٤

وحيدا في البيت في أحد أيام الشتاء قبيل المساء. كانت الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف، في الخارج خيم الظلام والبرد، كان المطر المجلود بسياط الريح يخدش أباجورات الشبابيك المغلقة. ذهب والديّ لاحتساء الشاي عند مالا وستاشيك رودنيتسكي عند التقاء شارع تشنسلر وشارع هنفيثيم وسيعودان كما وعداني، قبيل الساعة الثامنة وفي أقصى حد، في الساعة الثامنة والربع أو الثامنة وعشرين دقيقة. ولكن إذا حصل وتأخرا قليلا فليس هناك ما يثير قلقك، فنحن سنكون هنا قريبا عند عائلة رودنيتسكي على بعد ربع ساعة من البيت.

بدلا من الأولاد يوجد لمالا وستاشيك رودنيتسكي قطان لهما فروة أنغورا ناعمة الوبر: شوبان وشوبنهاور طوال فصل الشتاء ينامان يحتضن الواحد منهما الآخر على طرف الأريكة أو على وسادة جلوس يسمونها «بوف»، وكأنهما دبا شتاء. وفي قفص في زاوية الصالون يعيش عندهم عصفور هرم أصلع تقريبا، أعور، ومنقاره مفتوح دائماً. تسمي عائلة رودنيتسكي هذا العصفور أحياناً «عالْما» وأحيانا «ميربل». ولكي لا يعاني عالما - ميربيل من بؤس الوحدة أدخلت مالا رودنيتسكي إلى القفص عصفورا آخر صنعته من كوز صنوبر ملوّن رجلاه عودا كبريت، وجناحاه ورق مزخرف بشتى الألوان تزينهما خمس- ستّ ريشات حقيقية ألصقت بهما هنا وهناك. الوحدة، تقول امي، هي مثل ضربة شاكوش ثقيل: تحطّم الزجاج إلى شظايا ولكنها تسقّي الفولاذ، تسقية الفولاذ معناها منحه الصلابة. تسقية

(حيسوم - بالعبرية) تعني تقسية من القساوة (حوسن - بالعبرية) مع أن كلمة تسقية قريبة في لفظها من كلمة «محسوم» (حاجز) ويجب أن نفحص إذا كانت هناك علاقة بين «محسان» العبرية ومقابلتها العربية «مخزن» والتي من جمعها «مخازن» اشتقت كلمة «مجازين» الأوروبية.

يحب والدي كثيرا أن يصور لي بشكل مفصّل علاقات القرابة والتضادّ المختلفة بين الكلمات. وكأن الكلمات أيضاً هي عائلة متشعبة جاءت من شرق أوروبا وفيها الكثير من الأعمام وأبناء الأعمام من الجيل الثاني والثالث، والأنسباء، وأبناء وبنات الأخوة والأخوات والأحفاد وأبناء الأحفاد والأصهار وذوي قرابة الدم واللحم (شئِريم- بالعبرية): «الشئريم» من كلمة «شِئر» الّتي تعني اللحم، وعليه، يقول والدي، علينا أن نفحص لماذا يستعملون الاصطلاح الغريب العجيب «شئري- بسار» الذي يعني عمليا: لحوم اللحوم، كما أرجو أن تذكّرني أن نفحص بالمناسبة ما هي العلاقة بين «شئر = لحم وبين شئريت = بقية. أو عمليا لا تذكّرني بل اذهب وأحضر لي عن الرفّ القاموس الكبير لنفحص مَعاً ونتعلم أنا وأنت أشياء جديدة وفي طريقك تكرّم بإعادة فنجانك إلى مكانه.

*

في الساحات وفي الشوارع أيضاً يسود هدوء أسود وواسع حتى أنه من الممكن سماع صوت انسياب الغيوم المنخفضة والتي تتنقل بين أسطح المنازل وتتحسّس قمم أشجار السرو. نسمع صوت حنفية تنقّط في الحمام وخشخشة أو صوت احتكاك خفيف لا يكاد يصل إلى الأذن بل يلتقط - لا - يلتقط بأطراف الشعر الذي على مؤخر العنق، همس يأتي من ناحية الفراغ المظلم الذي بين الخزانة والحائط.

أضأت المصباح في غرفة والديّ وأخذت عن مكتب أبي ثمانية - تسعة مشابك، ومبراة ودفترين صغيرين، محبرة ذات عنق طويل مليئة بالحبر الأسود، ممحاة مطاط، علبة دبابيس، واستعملت كلّ هذه الأشياء لتأسيس كيبوتس حدودي جديد. [مستوطنة] محاطة بسور وبرج في قلب الصحراء على الحصيرة: رتبت المشابك على شكل نصف دائرة، وضعت المبراة

والممحاة على طرفي المحبرة العالية والتي هي برج خزان الماء وأحطت كلّ ذلك بسياج مصنوع من أقلام الحبر والرصاص ومحصّن بالدبابيس.

بعد قليل سيحدث هجوم: عصابة مشاغبين متعطشين للدماء (عشرون زرا تقريبا) ستهاجم البلدة من الشرق ومن الجنوب، ولكننا سندافع عنها بالحيلة والخديعة: سنفتح لهم البوابة، ونتركهم يدخلون إلى قلب ساحة المزرعة الّتي ستكون ساحة القتل، تغلق البوابة بعد دخولهم حتى لا يتمكنوا من الانسحاب، وعندها أصدر الأمر بإطلاق النيران وفي نفس اللحظة من فوق كلّ سطح ومن قمة المحبرة الّتي تلعب دور برج خزان المياه، يطلق الطلائعيون، مثل جنود الشطرنج البيض،عليهم النيران. وبعدة صليات كثيفة يبيدون القوة المعادية المحاصرة عن بكرة أبيها: يليق بك أن تسبّح وأنت تحضّر مذبحة العدو كثير النباح، وعندها أنهي بنشيد من المزامير، وأقدم الحصيرة لتقوم بدور البحر الأبيض المتوسط، حيث خزانة الكتب هي السواحل الأوروبية، والأريكة تكون أفريقيا وبين رجلي الكرسي يمر مضيق جبل طارق، أوراق من الشدة توزّع هنا وهناك لتمثّل قبرص وصقلية ومالطة والدفاتر الصغيرة تكون حاملات طائرات، والمبراة والممحاة مدمّرتين والدبابيس- ألغاما بحرية والمشابك - غواصات.

البرد شديد داخل البيت. بدلا من أن البس السترة الثانية فوق الأولى كما قالا لي لكي أقتصد في الكهرباء، سأشعل - لمدة عشر دقائق - المدفأة الكهربائية. للمدفأة سلكا تسخين ولكن يوجد أيضاً زر توفير وهو موجّه دائماً بحيث يسمح بإشعال سلك واحد فقط، السفلي، أمعن النظر كي أرى كيف يسخُن السلك ويتوهّج. السلك يتوهج بشكل تدريجي، رويدا رويدا، في البداية لا يُرى أيّ شيء وإنما تسمع سلسلة انفجارات صغيرة جداً مثل تلك الّتي تسمع عندما تدوس قدمك حبيبات سكر، بعد التفجيرات يلوح من طرفي السلك ضوء شاحب بنفسجي يأخذ بالانسياب من الطرفين باتجاه وسط السلك انسيابا رمزيا لونه شبه ورديّ كلون تورد خدي فتاة خجولة، بعد ذلك يشتد اللون فيصبح ورديا غامقا كالشعور بالعار وبعدها يهيج دون أيّ خجل حتى يبلغ التوهج وسط السلك فيتقد ولا أحد يطفئه. والآن تحولت النار

حمراء متقدة إلى درجة الابيضاض تنعكس مثل الشمس الملتهبة في معدن القوقعة الفضي المقعر اللامع الّتي تعكس الدفء الذي أصبح الآن من غير الممكن تقريبا النظر إليه دون أن ترف العين، أصبح السلك متقدا يخطف البصر طافحاً فاض على ضفتيه، لا يستطيع أن يتسع لأكثر من ذلك، بعد لحظة يثور كالبركان من شدة الاتقاد والتوهج بعد لحظة يزبد ويرغي ويفيض على حصيرة البحر الأبيض المتوسط مثل بركان هائج يفيض سيولاً ملتهبة ويحرق أسطول المدمرات البحرية وأسطول غواصاتي.

طوال ذلك الوقت ورفيقه السلك العلوي المطفأ تأخذه سنة من نعاس وهو بارد لا مبال. كلما اشتد السلك المشتعل اتقادا وتوهجا بدا السلك الآخر لا مباليا أكثر، يهزّ كتفيه دون اكتراث يرى كلّ شيء عن كثب ولكن شيئا لا يهمّه. وأنا ارتعد فجأة كمن يخمن أو يستوعب بجلده كلّ حدة التوتر الناشيء بين المتقد والبارد، وكمن يعرف بأنه توجد أمامي طريقة سهلة وسريعة تجعل السلك الثاني يرتجف أمامي كمن على وشك الانفجار من شدة النار الطافحة الّتي تفيض على ضفتيه- ولكن هذا ممنوع في الحقيقة. ممنوع حقا، يمنع منعا باتا إشعال سلكي المدفأة مَعاً في آنٍ واحد، وليس فقط بسبب التبذير الكبير في الكهرباء بل أيضاً بسبب مخاطر الحمل الكهربائي الزائد، لئلا يحترق سلك الأمّان فيغمر الظلام البيت، وعندها من سيذهب في منتصف الليل للبحث عن باروخ صاحب الأيدي الذهبية.

السلك الثاني إذا جننت فقط جنونا مؤكدا، وليحصل ما سيحصل. وماذا إذا عاد والدي قبل أن أتمكن من إطفاء السلك الثاني؟ أو تمكنت من إطفائه ولكنه لم يكد يبرد ويتظاهر بالموت، فماذا سأقول دفاعا عن نفسي؟ لذلك علي أن اكبح جماح نفسي. وألا أشعله. ومن الأفضل أيضاً أن أبدأ بترتيب وإعادة كلّ ما وزعته على الحصيرة إلى مكانه بشكل جيد.

٥

ما هي الأشياء الحقيقية وما هي الأشياء الخيالية فيما ارويه من سيرتي؟

كلّ شيء ضمن السيرة: إذا كتبت مرة قصة عن غرام بين الأم تريزا وابا إيفن، هذه ستكون قصة تتعلق بالسيرة- مع أن ذلك لن يكون اعترافا. كلّ قصة كتبتها هي سيرة ذاتية ولا يوجد قصة ليست اعترافا. القارئ السّيّئ يريد دائماً أن يعرف، وأن يعرف حالا وفورا، «ماذا حدث في الحقيقة». ما هي القصة الّتي وراء القصة، ما الأمر، من ضدّ من، من حقاً ضاجع من. «بروفيسور نبوكوف،» توجهت ذات مرة صحفية في مقابلة أذيعت بالبث المباشر في التلفزيون الأمريكي، «بروفيسور نبوكوف، قل لي من فضلك، «are you really so hooked on little girls ?

أنا أيضاً احظى بين الحين والآخر بصحفيين متحمسين يسألونني تحت شعار «حقّ الجمهور في أن يعرف»، هل زوجتي كانت مصدرا لشخصية حانة في روايتي «ميخائيل شلّي» (ميخائيلي)؟ هل المطبخ عندي قذر مثل مطبخ فيما في روايتي «همتساف هشليشي» (الحالة الثالثة)؟ وأحيانا يطلبون مني: ربما تستطيع أن تكشف لنا من هي في الحقيقة الفتاة الشابة في «أوتو هيَم» (نفس البحر)؟ أو ربما كان لك أنت شخصيا بالصدفة أيضاً ابن كاد يضيع منك في الشرق الأقصى؟ وما الذي يكمن في الواقع وراء اللقاء الجنسي العابر بين يوئل وبين الجارة أنماري، في رواية «لداعت إيشا» (معرفة/ مجامعة امرأة)؟ وربما تتكرم وتوافق على أن تقول لنا، بلغتك، ما هي في الحقيقة رواية «منوحا نخونا» (استراحة صحيحة)؟

وماذا يريد هؤلاء الصحفيون اللاهثون الذين يجرون المقابلات من نابوكوف ومنّي؟ ماذا يريد القارئ السيئ، ألا هو القارئ الكسول، والقارئ الاجتماعي، والقارئ مروّج الإشاعات - مسترق النظر؟

في الحالة السيئة، يكونون مزودين بزوج من القيود البلاستيكية ويأتون إليّ ليأخذوا مني رسالتي، حيا أو ميتا. يريدون «السطر الأخير». جاؤوا ليأخذوا «ما الذي أراد الشاعر أن يقوله». أن أضع بين أيديهم «بلغتي» الرسالة السرية، أو العبرة، العقار السياسي، «وجهة النظر». بدلا من الرواية، هل تتكرم وتعطيهم شيئا أكثر واقعية، شيئا له رجلان تدبّان على الأرض، شيئا يمكن أن يمسَك باليد، شيئا مثل: «الاحتلال مفسدة» أو «العدّ التازلي بالنسبة للفوارق الاجتماعية اقترب من نقطة الحسم» أو «الحب هو المنتصر» أو «الصفوة فاسدة» أو «الأقليات مظلومة». باختصار: قدِّم لهم، مرزومة بأكياس البلاستيك الّتي تلف بها الجثث، البقرات المقدسة الّتي ذبحتها من أجلهم في كتابك الأخير. شكراً.

وأحيانا يتنازلون من أجلك عن الأفكار وكذلك عن البقرات المقدّسة، ويكونون مستعدين للاكتفاء بـ«القصة الّتي وراء القصة». القيل والقال هو ما يريدونه. ما يريدونه هو أن يسترقوا النظر. أن تقول لهم ما الذي حدث لك في الحياة حقا وليس الذي كتبته بعد ذلك في كتبك. أن يكشفوا لهم أخيرا بدون رتوش وبدون تراهات من فعل ذلك في الحقيقة ومع من، وكيف، وكم. هذا كلّ ما يريدونه وبذلك يصلون ذروة نشوتهم. أعطهم شكسبير العاشق، وتوماس مان يحطم حاجز الصمت، داليا ربيكوفيتش تكشف، اعترافات سرماجو، حياة الحب الزاخرة لليئه غولدبرج.

القارئ السيئ يأتي ويطالبني بأن أقشّر من أجله الكتاب الذي كتبته. يجيء إليّ كي يطالبني بأن ألقي أنا بيديّ، من أجله، إلى برميل النفايات عنبي وأن أقدم إليه النوى.

القارئ السيئ هو مثل العاشق المعتوه الذي يهجم على المرأة الّتي وقعت بين يديه ويمزق ملابسها وعندما تصبح عارية تماما يتابع سلخ جلدها، وبهدوء وروية يضع جانبا جلدها ويبدأ في تفكيك هيكلها العظمي وفي النهاية

وعندما «يجرم» عظمها وينهش لحمها يصل إلى ذروة متعته: هذه هي. الآن أنا فعلا في الداخل. لقد وصلت.

إلى أين وصل؟ عودة إلى المونولوج القديم، المتآكل، المبتذل، إلى مجموعة الكليشيهات الجافة الّتي يعرفها القارئ السيئ، كغيره، منذ أمد بعيد ولذلك فهو يرتاح لها وبها فقط: الشخصيات الّتي في الكتاب هي بكل تأكيد الكاتب نفسه أو جيرانه، والكاتب أو جيرانه كما يظهر ليسوا «حمائم بيضاء»، وهم فاسدون قذرون مثلنا جميعا. بعد التقشير حتى العظم يتضح دائماً «أنهم جميعا نفس الشيء». وهذا بالضبط ما يبحث عنه القارئ بتلهف [ويجده] في كلّ كتاب.

إضافة إلى ذلك: القارئ السيئ، مثله مثل الصحفي اللاهث، يتعامل دائماً بنوع من الريبة العدائية، بنوع من الكراهية المتزمتة دينيا- القويمة أخلاقيا، مع الإبداع، الاختلاق، التحايل والمبالغة، وإلى ألعاب اللف والدوران، إلى الكلمات ذات الوجهين وإلى الموسيقي وإلى الإيحائيّ وإلى الخيال نفسه: قد يتكرم وينظر أحياناً في عمل أدبي مركب ولكن شريطة أن نضمن له مسبقا المتعة «التخريبيّة» الكامنة في ذبح بقرات مقدسة، أو المتعة المُحمّضة- الّتي تنطوي على التقوى الّتي أدمن عليها كلّ مستهلكي الفضائح و«الاكتشافات» على مختلف أنواعها بحسب قائمة الطعام الّتي تقدمها لهم الجرائد الصفراء.

متعة القارئ السيئ تنطوي على أن يكون دوستويفسكي المبجّل والمشهور، هو نفسه متهما بشكل غامض، بميل دنس لسرقة وقتل العجائز، وليام فوكنر بكل تأكيد كان على هذا النحو أو ذاك، متورطا قليلا بغشيان المحارم، ونبوكوف بمضاجعة القاصرات، وكافكا لا شك أنه متهم في الشرطة (إذ لا دخان بلا نار) وأ.ب. يهوشواع بحرق أحراش الكيرن كيمت (يوجد دخان وتوجد نار)، ناهيك عما فعله سوفوكليس لوالده وعما فعله هو لأمه، إذ لولا ذلك كيف نجح في وصف كلّ ذلك بشكل حيّ، لا ليس حيا فحسب بل حيا أكثر مما يحدث في الحياة الواقعية.

أعرف الحديث عن نفسي فقط/ عالمي ضئيل كعالم نملة. . ./

كذلك طريقي- كطريقها إلى القمة- / طريق ألم وطريق عمل،/
يد عمالقة شريرة وواثقة،/ يد ساخرة عاثت فساداً
ذات مرة قدّم إليّ أحد طلابي القدامى تلخيصا لهذه القصيدة:

عندما كانت الشاعرة راحيل صغيرة كانت تحب كثيرا تسلّق الأشجار ولكنها في كلّ مرة كانت فيها تبدأ بالتسلق كان يأتي شخص جلف وبضربة واحدة كان ينزلها إلى الأرض ولذلك كانت مسكينة.

*

من يبحث عن صميم القصة في المدى بين النتاج الأدبي وبين كاتبه- يخطئ: من المفضل أن يتم البحث ليس في الحقل الذي بين الكاتب والمكتوب بل في المدى الذي بين المكتوب والقارئ بالذات.

هذا لا يعني أنه لا يوجد ما يبحَث عنه بين النص والمؤلف- فهناك إمكانية للبحث عن السيرة الذاتية، وللقيل والقال حلاوته، وربما يوجد قيمة متوسطة للإشاعات في تقصي الخلفية الحياتية لكتابة الأعمال المختلفة. ربما يجب ألا نستهين بترويج الإشاعات: إذ أن ترويج الإشاعات هو صنو الأدب بوصفه فنّاً. صحيح أن الأدب بشكل عام لا يتنازل ليلقي عليه التحية في الشارع ولكن لا يمكن تجاهل الشبه العائلي الذي بين الاثنين، ألا وهو الحافز الأبدي والعالمي لاستراق النظر إلى أسرار الغير.

من لم يستمتع ولو لمرة واحدة بحلاوة القيل والقال هو وفقط هو الذي يقوم ليرجمها بأول حجر. إلا أن ملذات القيل والقال ليست إلا قطناً وردي اللون ممزوجاً بجبل كامل من السكر. حلاوة القيل والقال بعيدة عن حلاوة الكتاب الجيد كبعد المشروبات الغازية المحلاة بكل أنواع أصباغ الطعام المختلفة عن مياه النبع وعن النبيذ المعتّق.

عندما كنت صغيرا أخذوني مرتين أو ثلاثا، بمناسبة عيد الفصح أو رأس السنة إلى أستوديو روجوزنيك على ساحل بوجرشوف في تل أبيب. عند إيدي روجوزنيك وقف رجل عملاق ذو عضلات، رجل - جبل مقصوص من الكرتون، يستند بظهره الكرتونيّ إلى ركيزتين، مايوه سباحة صغير مشدود على خاصرتيه اللتين تشبهان خاصرتي ثور، وعضلات كثيرة كسلاسل الجبال

كست جسمه، وصدر كثيف شعِر مسفوح بلون النحاس. لهذا العملاق الكرتوني كانت فتحة مكان الوجه وكرسي مدرّج من الخلف. وعليك الالتفاف وراء ظهر البطل وأن تصعد درجتين على الكرسي المدرج وتدخل رأسك الصغير عبر فتحة وجه هذا الهرقل باتجاه آلة التصوير، كان إيدي روجوزنيك يأمرك بأن تبتسم، وألا تتحرك وألا ترمش. وعندها كان يضغط على الزناد. بعد عشرة أيام كنا نعود إليه لاستلام الصور الّتي فيها يظهر وجهي الصغير الشاحب والجادّ محمولا على أعالي عنق الثور ذي العروق البارزة محاطاً بجدائل شمشون الجبار، المتصل بكتفي أطلس، وصدر هكتور وذراعي كولوسوس.

كل عمل أدبي جيد يدعونا لأن ندخل رأسنا عبر شخصية أيّ مخلوق روجوزنيكي كهذا أو ذاك. بدلا من أن تحاول أن تدخل هناك رأس الكاتب، كما يفعل القارئ العادي، ربما من المفضل لك أن تحاول أن تدخل في الفتحة رأسك أنت وترى ماذا سيحدث؟

هذا يعني أن المدى الذي يستحسن أن يتعامل معه القارئ الجيد عند قراءة الأدب الرفيع ليس المساحة الّتي بين المكتوب وبين المؤلف بل المساحة الّتي بين المكتوب وبينك: ليس «هل كان دوستويفسكي حقا يقتل ويسرق الأرامل العجائز عندما كان طالبا؟» بل أنت، أيها القارئ، ضع نفسك مكان رسكولنيكوف، لكي تشعر بداخلك بالفظاعة واليأس والمهانة المتناميّة الممزوجة بالغرور النابوليوني، وبهلوسات الكبرياء، وبحمى الجوع والعزلة والشهوة والتعب مع الشوق إلى الموت، لكي تعقد مقارنة (نتائجها تبقى سرية) ليس بين الشخصية الّتي في القصة وبين فضائح مختلفة من حياة الكاتب، بل بين الشخصية الّتي في القصة وبين الأنا الخاصّ بك السري الخطير والبائس والمجنون والجنائي، هذا المخلوق المفزع الذي تسجنه دائماً عميقا جدّاً بداخل الزنزانة الأكثر حلكة لكي لا يخمن أيّ إنسان، معاذ الله، مجرد وجوده، لا أبواك، ولا أحبابك، لئلا يهربوا من أمامك بقشعريرة كما يهربون من مِسخ- وها أنت عندما تقرأ قصة رسكولنيكوف، شريطة ألا تكون القارئ مروج الإشاعات بل القارئ الجيد، فإنه يمكنك أن تأخذ هذا

الرسكولنيكوف إلى الداخل، إلى داخل أقبيتك، إلى داخل متاهاتك المظلمة، إلى خلف كلّ القضبان وإلى داخل الزنزانة، وهناك يمكنك أن تجعله يلتقي مع مسوخك المخجلة جدّاً والمخزية إلى أبعد الحدود، بإمكانك أن تعقد مقارنة بين مسوخ دوستويفسكي ومسوخك، تلك المسوخ الّتي في الحياة المدنية لا تستطيع ابدأ أن تقارنها بأي شيء لأنّك لن تعرضها أبدا أمام أيّ مخلوق حيّ، حتى ولو همسا، في السرير، في أذني من ينام أو تنام معك في الليالي، لئلا يخطفوا بذعر الملاءة ويلتفوا بها ويهربوا منك صارخين مفزوعين.

هكذا يستطيع رسكولنيكوف أن يجمّل قليلا العار وعزلة الزنزانة الّتي كلّ واحد منا مضطر لأن يحكم بها على سجينه الداخلي مدى الحياة. هكذا تستطيع الكتب أن تواسيك قليلا على مصيبة أسرارك المخزية: لست أنت وحدك، يا حبيبي، بل كلنا مثلك إلى حد ما: ولا واحد منا ليس جزيرة مع أن كلّ واحد منا هو شبه جزيرة، شبه جزيرة، محاط من جميع الجهات بمياه سوداء ومع ذلك متصل قليلا بأشباه جزر أخرى. ريكو دنون، على سبيل المثال، في كتاب «نفس البحر» يفكر في رجل الثلج الغامض الذي في جبال الهملايا:

ابن حواء يحمل على كتفه والديه. ليس على كتفه. في حضنه.
هو ملزم بأن يحملهما طوال حياته، هما وكل جنودهما، والديهما،
والدي والديهما، لعبة روسية حبلى حتى الجيل الأخير.
أينما يذهب يذهب حاملا والديه، وهو مضطجع يحمل والديه وهو واقف
يحمل والديه إذا أبعد التجوال أم بقي مكانه. كلّ
ليلة يتقاسم سريره مع أبيه وفراشه مع أمه
حتى يحين اجله.
وأنت لا تسأل: ماذا، هل هذه حقائق؟ هذا ما يجري عند هذا الكاتب ؟ اسأل نفسك. عن نفسك. والجواب يمكنك الاحتفاظ به لنفسك.

٦

في العديد من المرات تهدد الوقائع الحقيقة. كتبت مرة عن السبب الحقيقي لموت جدّتي: جاءت جدّتي شلوميت من فيلنا مباشرة في أحد أيام صيف ١٩٣٣ الحارة. ألقت نظرة جزعة إلى الأسواق المشبعة بالعرق وعلى «البسطات» متعددة الأشكال والألوان، وعلى الأزقة المكتظة بنداءات التجار ونهيق الحمير وثغاء المواشي وصبياح الفراخ المعلقة من أرجلها والدجاجات المذبوحة النازفة من أعناقها. شاهدت أكتاف واذرع الرجال الشرقيين وألوان الفواكه والخضراوات الصارخة، كما شاهدت الجبال المحيطة والمنحدرات الصخرية وأصدرت فوراً حكمها النهائي: «الشرق الأوسط مليء بالميكروبات».

خمس وعشرون سنة عاشت جدّتي في القدس وقد مرت عليها أيام صعبة وبعض الأيام الحلوة، ولكنها لم تخفف من حكمها ولم تغيره حتى آخر أيام حياتها. يقال بأنها غداة وصولها إلى القدس أوصت جدّي بما بقيت توصيه به كلّ يوم من أيام حياتهما في القدس، في الصيف والشتاء: بأن ينهض باكرا صباح كلّ يوم في السادسة أو السادسة والنصف، ويرش بالـ«فلِت» جميع زوايا المنزل كي يرد هجمات الميكروبات، وأن يرش تحت السرير وخلف الخزانة وداخل العليّة أيضاً وبين رجلي خزانة أدوات المائدة، وأن ينفض الفراش واللُّحف والوسائد. منذ طفولتي أتذكر جدّي ألِكْسَنْدِر يقف في الصباح الباكر على الشرفة بقميصه الداخلي وشبشبه وهو يضرب الفراش بكل قوته كما كان يفعل دون كيشوت وهو يهجم على زقاق اللنبيذ، يرفع المِرقعة

ويضرب الفراش ثمّ يعود ويرفعها ويطرق مرارا وتكرارا بكل حِدّة بؤسه أو يأسه. وكانت جدّتي شلوميت تقف على عدة خطوات إلى الوراء، أطول قامة منه، تلبس روباً حريريا زهريا مزرّراً حتى أعلى زر، وشعرها مربوط بشريط أخضر على شكل فراشة منتصبة، صلبة كمديرة مدرسة داخلية لبنات النبلاء، تشرف على ساحة المعركة حتى الانتصار اليومي.

في إطار حربها الدؤوب ضدّ الميكروبات اعتادت جدّتي أن تغلي الفواكه والخضروات دون أيّ تهاون. أما الخبز فكانت تنظفه مرة أو مرتين بقطعة قماش رطبة مغموسة بمحلول تعقيم كيماوي وردي يسمى «كالي». بعد كلّ وجبة لم تكن تجلي الأواني بل كانت تغليها على النار مدة ساعة أو أكثر كما يفعل بالأواني قبيل عيد الفصح. كذلك كانت تطبخ نفسها ثلاث مرات في اليوم: في الصيف وفي الشتاء اعتادت جدّتي أن تنقع نفسها ثلاث مرات في حوض الحمام بماء مغلي من أجل أن تبيد الميكروبات. لقد طال بها العمر، كانت الميكروبات والفيروسات تلحظها عن بعد وكانت تسارع إلى الهرب من وجهها إلى الرصيف المقابل، وبحكم كونها بنت أكثر من ثمانين سنة، وبعد أن مرت بنوبتين قلبيتين أو ثلاث حذرها الدكتور كرومهولتس: سيدتي العزيزة، إذا لم تتوقفي عن الاستحمام بالماء شديد الغليان فإنني لست مسؤولا عما يمكن أن يحدث لك.

ولكن جدّتي لم تستطع الكف عن حوض الحمام إذ أن فزعها من الميكروبات كان شديدا جدّاً. فقد ماتت وهي في حوض الحمام.

نوبتها القلبية هي واقع.

إلا أن الحقيقة هي أن جدّتي ماتت من كثرة النظافة وليس من النوبة القلبية. تميل الوقائع إلى أن تخفي عن أعيننا الحقيقة. النظافة قتلتها. مع أن شعار حياتها في القدس «الشرق الأوسط مليء بالميكروبات»، يشهد على حقيقة سابقة، داخلية أكثر من استحواذ النظافة عليها، حقيقة مخنوقة ومخفية عن الأنظار: جدّتي شلوميت جاءت إلى القدس من شمال شرق أوروبا، من الأماكن الّتي توفرت فيها الميكروبات بكميات لا تقل عنها في القدس، هذا بالإضافة إلى الآفات الأخرى.

ربما هنا يوجد شق من خلاله يمكن استراق النظر واستعادة شيء مما أثارته مشاهد الشرق، وروائحه وألوانه في قلب جدّتي وربما في قلوب مهاجرين - لاجئين آخرين جاؤوا من بلدات معتمة- خريفية في شرق أوروبا وقد دهشوا من شهوانية «الشرق الأوسط» الحادة حتى أنهم أرادوا أن يبنوا لهم «غيتو» يتحصنون بداخله أمام تهديداته.

تهديداته؟ وربما الحقيقة هي أنه ليس خوفا من تهديدات الشرق الأوسط كانت جدّتي تتقشّف وتنقي جسمها بأحواض الاستحمام الملتهبة في الصباح والظهيرة والمساء طوال حياتها في القدس، بل وبالذات خوفا من سحره الشهواني المغري. بسبب جسمها هي، بسبب الجاذبية القوية للأسواق المكتظة والتي تحيطها من كلّ جانب وتدهش روحها حتى أعماق الحجاب الحاجز تغريها وتذوّبها حتى ارتعاد الفرائص بسبب غزارة خضراواتها وفواكهها وأجبانها المتبّلة وروائحها القوية والمأكولات الحلقية المدهشة الغريبة والمستغربة الّتي فتنتها، والأيدي الجشعة الّتي كانت تتحسس- تنقّب في أعماق خفايا أكوام الخضراوات والفواكه، الفلفل الأحمر والزيتون المتبل وكل هذه اللحوم العارية المكتنزة، الدموية، والمحمرة بدون الجلد وبدون خجل تتدلى من كلاليب الجزارين، وتشكيلة التوابل والعقاقير والمساحيق الّتي فتنتها حتى الذوبان وشبه الإغماء. كلّ العجائب المكشوفة للعالم المر واللاذع والمالح أضف إليها روائح القهوة الوحشية الّتي تتغلغل إلى غرف البطن، والأواني الزجاجية المملوءة بالمشروبات الملونة مع قطع الثلج وشرائح الليمون، وعتالو السوق الأقوياء ببشرتهم الداكنة والشّعِرة والعارية حتى الخاصرتين وجميع عضلات ظهورهم ترتعد من شدة التعب تحت بشرتهم الحارة واللامعة بسبب انعكاس روافد العرق في الشمس. ربما لم تكن جميع طقوس النظافة الّتي قامت بها جدّتي إلا مثل بذلة فضاء محكمة الإغلاق ومعقّمة؟ حزام عفاف معقّم تمنطقت به جدّتي بمحض إرادتها وتحصنت بداخله، منذ يومها الأول في البلاد وسكرت بسبعة أقفال وأبادت المفاتيح.

في النهاية ماتت بنوبة قلبية: وهذا واقع. ولكن ليس النوبة بل النظافة

هي الّتي قتلتها. ليست النظافة بل رغباتها الخفية هي الّتي قتلتها. أو ليست رغباتها بل خوفها الشديد من رغباتها هذه. أو ربما ليست النظافة ولا الرغبات وليس خوفها من رغباتها بل وبالذات غضبها الدائم والسري على خوفها الشديد، غضب مخنوق، غضب ينتفخ، مثل دمل لم ينفجر، غضب على جسمها هي، غضب على شهواتها، وكذلك غضب آخر، أعمق منه، غضب على مجرد إحجامها عن شهواتها، غضب عكر، سامّ، غضب على السجينة والسجّانة، سنوات طويلة تفجّعت سرّاً على الوقت البائس الذي مضى على جسمها الذي يضمر يوما بعد يوم وعلى جمال الجسم، هذا الجمال المغسول آلاف الغَسْلات والمصبَّن حتى الكآبة، والمعقّم والمكشوط والمغلي، جمال هذا الشرق، الملوّث والمتصبب عرقا والبهيمي الممتع حتى الإغماء ولكنه مليء كله بالميكروبات.

٧

مضت ستون سنة على تلك الأيام وأنا ما زلت اذكر رائحته: أنادي تلك الرائحة فتعود إليّ، رائحة خشنة بعض الشيء، رائحة مغبّرة، ولكنها قوية ولذيذة، رائحة تذكرني ملامسة قماش- كيس سميك، لذلك تتاخم رائحته في الذاكرة ملامسة بشرته، شعره الغزير المجعد، شاربه الكثيف الذي احتك ببشرة خديّ وأشعرني بالمتعة، كما تكون في يوم شتوي داخل مطبخ قديم دافئ ومعتم. مات شاؤول تشرنيحوفسكي في خريف ١٩٤٣، عندما كنت ابن أقلّ من أربع سنوات، إذ أن هذه الذكرى الشهوانية حفظت بالتأكيد فقط لأنها مرت بعدة محطات إرسال ومحطات تقوية: كان أبي وأمّي يذكرانني بين الحين والآخر بتلك اللحظات، لأنهما أحبا أن يتفاخرا بإسماع معارفهما بأن ابنهما قد حظي بالجلوس على ركبتي شاؤول تشرنيحوفسكي وأن يعبث بشاربه. كثيرا ما كانا يتوجهان إليّ ليطلبا مني المصادقة على قصتهما: «أليس صحيحا أنّك ما زلت تذكر ذلك السبت بعد الظهر عندما أجلسك العمّ شاؤول الشاعر على ركبتيه وقال لك «مؤذِ»؟ صحيح؟» (مؤذِ- بنبرة تحبب.)

واجبي كان أن اردد من أجلهما اللازمة: «صحيح أتذكر ذلك جيدا.»

لم أقلّ لهما ذات مرة بأن الصورة الّتي أتذكرها تختلف قليلا عن الصورة من إنتاجهما.

لم أرغب في أن أفسد عليهما الأمر.

ما اعتاد عليه والداي من تكرار القصة ومطالبتي بالتصديق عليها في الحقيقة عزز وحفظ لدي ذكرى تلك اللحظات، ذكرى لولا تفاخر والدي

لربما كانت ذوت وامّحت. ولكن الفرق بين قصتهما والصورة الّتي في ذاكرتي، حقيقة كون الذكرى المحفوظة في ذاكرتي ليست معاكسة لقصة والديّ فحسب بل لها حياة أولية خاصّة بها، حقيقة كون صورة الشاعر الكبير والولد الصغير بناء على إخراج والدي تختلف شيئا ما عن الصورة المثبّتة داخلي، هي دليل على أن قصتي ليست إرث قصتهما: عند والديّ تفتح الستارة والولد الأشقر يجلس ببنطلونه القصير على ركبتي عملاق الشعر العبري، يلامس وينتف شعر شاربه في حين يمنح الشاعر الطفل لقب «مؤذ» والولد من جهته - يا لها من براءة حلوة- يرد على الشاعر بنفس الكلمات ويقول: «أنت نفسك المؤذي!»، إذ بناء على رواية والدي أجاب كاتب قصيدة «أمام تمثال أبولو» بالكلمات: «ربما نحن الاثنان على حقّ» وحتى طبع قبلة على رأسي، قبلة رأى فيها والدي إشارة إلى المستقبل، مثل مسحة الزيت، مثلما، فرضيا، بوشكين هو الذي انحنى وطبع قبلة على رأس تولستوي الطفل.

أما في صورة ذاكرتي أنا، تلك الصورة الّتي كانت أضواء والديّ الكشافة، الّتي ما أن تنطفئ حتى تعود وتضيء ثانية، هي الّتي ساعدتني على الاحتفاظ بها ولكنهما بكل وضوح ليسا هما اللذين طبعاها في ذاكرتي. في مشهدي الأقل حلاوة من مشهدهما، فأنا لم أجلس إطلاقا على ركبتي الشاعر، ولم أشد شعر شاربه المشهور، بل تعثرت قدمي ووقعت هناك في بيت العمّ يوسف، وأثناء وقوعي عضضت لساني حتى نزف الدم منه فبكيت، والطبيب، طبيب الأطفال، سبق والديّ وأسرع ورفعني بكلتا يديه العريضتين، كما أنني أذكر الآن بأنه رفعني عن الأرض وظهري من جهته ووجهي الصارخ موجه إلى كلّ من في الغرفة، أدارني بحركة سريعة بذراعيه وقال شيئا وشيئا آخر، بالتأكيد لا علاقة له بموضوع توريث بوشكين تاجه لتولستوي، وفي حين ما زلت انتفض بين ذراعيه فتح فمي بقوة وطلب أحضروا لي قليلا من الثلج من فضلكم، ونظر إلى الجرح ثمّ قال:

«شيء بسيط جدّاً، أنه خدش لا غير، وهكذا فكما نبكي بسرعة نضحك أيضاً بسرعة.»

ربما لأنّ الشاعر شمل في كلماته هذه كلينا، أو بسبب لمسة- الكيس الخشنة واللذيذة لبشرة خده بخدي، مثل احتكاك منشفة سميكة دافئة، وبالذات، على ما يبدو بسبب رائحته القوية، البيتية، الرائحة الّتي حتى اليوم بإمكاني أن أناديها وهي تسمع وتلبي النداء عائدة إليّ (ليست رائحة عطر حلاقة، ولا رائحة صابون، ولا رائحة تبغ، بل رائحة جسم ممتلئ وكثيف ومشبع كطعم شوربة الدجاج في يوم شتويّ)، وفي الأساس بسبب رائحته الذكية هدأت سريعا واتضح أن الألم، كما هو دائماً، كان في الحقيقة، هلعا أكثر منه ألماً. والشارب الكثيف، شارب نيتشه، احتك ودغدغني قليلا وبعدها - كما أذكر- وضعني الدكتور شاؤول تشرنيحوفسكي بحذر ولكن دون أن يبالغ في التربيت على ظهري على أريكة الاستراحة الّتي للعم يوسف الذي هو بروفيسور يوسف كْلاوْزنِر، والشاعر- الطبيب، أو أمّي وضعا على لساني بعض الثلج الّذي أسرعت في إحضاره العمّة تسيبورة.

على ما أذكر، لم يكن هناك أيّ أقوال مأثورة رمزية ثاقبة تليق بها أن تخلّد وتقتبس تبودلت في هذه المناسبة بين عملاق شعراء جيل النهضة في أدبنا وبين وكيله الصغير الباكي ابن جيل الدولة.

منذ ذلك اليوم مرت سنتان أو ثلاث قبل أن نجحت في لفظ الاسم تشرنيحوفسكي. عندما قالوا لي بأنه شاعر لم أنفعل: في القدس في تلك الأيام كلّ واحد تقريبا كان شاعرا أو كاتبا أو باحثا أو مفكرا أو مثقفا أو مصلحا عالميا. عندما قالوا دكتور لم يترك ذلك عليّ أيّ انطباع : في بيت العمّ يوسف والعمّة تسيبورة كلّ واحد من الرجال - الضيوف كان بروفيسورا أو دكتورا.

أما هو فلم يكن مجرد دكتور آخر أو شاعر آخر. كان طبيب أطفال، رجلا مجعّد الشعر أشعث، مهلهل بعض الشيء، له عينان ضاحكتان، راحتان كبيرتان صوفيتان، شارب - غابة كثيف متشابك، خد لباد، ورائحة فريدة وخاصة به، رائحة قوية وناعمة.

حتى اليوم في كلّ مرة أرى فيها شاؤول الشاعر في صورة أو رسم أو تمثال- رأسه الواقف، هكذا خيل إليّ، في مدخل المدرسة على اسم شاؤول

تشرنيحوفسكي فوراً تأتي رائحته الحنونة والمواسية وتلفني كما بطانية شتوية دافئة.

*

بتأثير العمّ يوسف الموقّر فضّل أبي تشرنيحوفسكي صاحب الشعر المجعد الكثيف على بياليك الأصلع: في رأيه كان بياليك شاعرا يهوديا أكثر من اللازم، مهجريا بعض الشيء، بل «نسائيا»، في حين وجد في تشرنيحوفسكي شاعرا عبريا بكل معنى الكلمة - أي رجاليا، طائشا بعض الشيء، غير ملتزم دينيا/ يتصرف كغير اليهودي، حساسا وجريئا، شاعرا شهوانيا - ديونيسي، «هيليني مرح» كما وصفه العمّ يوسف (بتجاهل كامل لأسى تشرنيحوفسكي اليهودي وأشواقه اليهودية جدّاً أن يتهلين بعض الشيء). نظر أبي إلى بياليك على أنه شاعر سوء الحظ اليهودي، عالم الأمس، البلدة اليهودية المهجرية، البؤس، الوهن، والشفقة (باستثناء قصائده «سفر النار» وَ«موتى الصحراء» وَ«في مدينة القتل» والتي فيها - هكذا قال أبي- «بياليك يزأر حقا»).

مثله مثل الكثير من اليهود الصهيونيين أبناء زمانه كان أبي شبه كنعاني مخفياً: البلدة اليهودية المهجرية وكل ما فيها وكذلك ممثلوها في الأدب الحديث، بياليك و عجنون سببوا له الارتباك والخجل. كانت رغبته أن نولد جميعا من جديد، بلون فاتح وشعر أشقر، أقوياء، مسفوعين، أوروبيين- عبريين وليس مجرد شرق أوروبيين- يهود. معظم أيام حياته اشمأز أبي من الإيديش وكان يسميها «رطنة». في نظره كان بياليك شاعر البؤس، شاعر «الاحتضار الأبدي» في حين بشّر تشرنيحوفسكي بفجر الغد الذي بدأت تطلع شمسه، فجر «محتلي كنعان كمثل عاصفة». قصيدته «أمام تمثال أبولو» كان أبي يقرؤها علينا عن ظهر قلب وبحماس شديد، دون أن ينتبه إلى أن الشاعر، بسذاجته، وهو يركع أمام أبولو أخذ يمجّد ديونيسيوس.

وكان أبي يردد بحماس وانفعال اوديسي - جابوتنسكيّ ولكن بنبرة أشكنازية رعود وبروق تشرنيحوفسكي: «الي لحن ولي نغم منذ القدم. . ./ لحن الدم والنار/ اصعد الجبل واهبط الوهاد، وكل ما ستراه - باطل» أو:

«ليلة... ليلة... ليل الآلهة،/ بلا نجوم، بلا أنوار---.» وجهه الشاحب، وجه المثقف المتواضع كان يبرق للحظة، مثل راهب خطرت بباله الخطيئة، في الوقت الذي اجتهد فيه أن يلفظ بزئير عال أبياتا مثل «سأعطي دما مقابل دم». ولكن أبي كان يلفظ الكلمات بنبرة أشكنازية كما كتبها الشاعر، الأمر الذي يسبب تحريف بعض الكلمات فتختلف معانيها وأحيانا تكون مثيرة للضحك فتنحبس الضحكات في حلقي.

حفظ والدي عن ظهر قلب قصائد تشرنيحوفسكي أكثر من أيّ شخص آخر عرفته. مما لا شك فيه أنه حفظ أشعار تشرنيحوفسكي عن ظهر قلب أكثر مما حفظها تشرنيحوفسكي نفسه، وكان ينشدها بانفعال كبير وحماس شديد. شاعر موزا (إلهة الفن والشعر) وتبعاً لذلك موسيقيّ أيضاً، شاعر بدون حواجز نفسية، وبدون عقد مهجرية، يكتب دون استحياء عن الحب وحتى عن المتع الجسدية، قال أبي، تشرنيحوفسكي لا يتمرّغ ولا يخوض أبداً، إلى حد اليأس، في جميع أنواع المصائب والآهات.

كانت أمّي تنظر إلى أبي بنوع من الشك، كمن تتعجب بداخلها، من النوعية الفظة لملذاته ولكنها امتنعت عن التعليق وفضّلت الصمت

*

كانت طباع أبي ليتوانيةً محضة، إذ أنه أحب كثيرا استعمال كلمة «محض» (أصل عائلة كْلاوْزنِر من أوديسا أما أصلهم الأول فهو من ليتوانيا في حين أن أصلهم الأبعد فهو من مترسدورف الّتي تسمى الآن مترسبورغ الواقعة شرق النمسا على الحدود مع هنغاريا). كان أبي رجلا حساسا ومتحمسا، إلا أنه مقت، معظم حياته، التصوف والشعوذة بمختلف أنواعها. بالنسبة إليه كان ما وراء الطبيعة المملكة الخالصة لأنواع مختلفة من المحتالين والمخادعين. حكايا المتصوفين اليهود (الحسيديم) كانت بالنسبة إليه نوعا من الفولكلور، وكان يلفظ كلمة «الفولكلور» دائماً بنفس القرف الذي كان يلفظ به على سبيل المثال، «رطنة»، «نشوة»، «حشيش»، «البديهة».

كانت أمّي تصغي لأقواله، وبدلا من الجواب كانت تقدم لنا ابتسامتها

الحزينة، وأحيانا كانت تقول لي: «والدك رجل حكيم ومنطقي؛ منطقي حتى وهو نائم.»

بعد سنوات من موتها بعد أن خفتت بهجته التفاؤلية مع حدته اللاذعة الدائمة، تغير أيضاً ذوقه وربما اقترب أكثر من ذوق أمّي: في أحد أقبية المكتبة القومية اكتشف أبي مخطوطة غير معروفة للأديب ي.ل. بيرتس، دفتراً من أيام الصبا وفيه من بين المسودات المختلفة والمخربشات ومحاولات الكتابة الشعرية وجدت قصة غير معروفة تحمل اسم «الانتقام». سافر أبي لسنوات عديدة إلى لندن وهناك حضر أطروحة الدكتوراه عن هذا الاكتشاف، الذي أخذ يبتعد من خلاله عن هياج واندفاع تشرنيحوفسكي السابق، وبدأ يتعامل مع الأساطير والأنواع الأدبية لشعوب بعيدة، وأطل على أدب الإيديش، حتى أنه بدأ ينجذب، كمن يفلت أخيرا من قبضته درابزين ما ليقع في حزن-غموض قصص بيرتس بشكل خاصّ وحكايات المتصوفين اليهود بشكل عام.

*

ولكنه في السنوات الّتي كنا نذهب فيها في أيام السبت إلى بيت العمّ يوسف في تلبيوت، كان ما زال والدي يحاول أن يربينا جميعا لأن نكون متنورين مثله: كان والدي يتناقشان في كثير من الأحيان حول الأدب. أحب أبي شكسبير، وبلزاك، وتولستوي، وإبسن وتشرنيحوفسكي. بينما فضلت أمّي بياليك، وشيلر، وتورجنييف، وتشيخوف، أما ستريندبرغ وغنسين وكذلك عجنون الذي كان يسكن تماما مقابل العمّ يوسف في تلبيوت، هكذا خيّل إليّ، لم تكن بينهم وبين والدي صداقة كبيرة.

إذا حدث والتقى الاثنان: البروفيسور كْلاوْزنر والسيّد عجنون كانت تمر بينهما نسمة مجاملة قطبية باردة، حيث يرفع كلّ منهما قبعته للآخر مع انحناءة خفيفة، بكل تأكيد، من أعماق قلبيهما كان كلّ منهما يتمنى للآخر الخلود في قعر هاوية النسيان: لم يقم العمّ يوسف أيّ اعتبار لعجنون الذي اعتبر كتابته مسهبة، محلية تشبه تراتيل دينية شكلية ومتحايلة.

أما بالنسبة للسيد عجنون نفسه فهو من جهته قد حقد وانتقم، ولم ينسَ،

عندما قام، في نهاية المطاف، بوضع العمّ يوسف على أحد سفود - السخرية بشخصية البروفيسور «بخلام» في روايته «شيرا». لحسن حظ العمّ يوسف، أنه توفي في الوقت المناسب، قبل صدور «شيرا» وبذلك وفر على نفسه ما كان سيصيبها من امتعاض واكتئاب. بينما امتد العمر بالسيّد عجنون وحاز على جائزة نوبل في الأدب وحظي بشهرة عالمية ولكنه بالمقابل صكّ أسنانه بامتعاض بلا شك، في اليوم الذي حوّل فيه اسم شارعهما الصغير- زقاق بدون مخرج في حي تلبيوت - إلى شارع كْلاوْزنر. منذ ذلك اليوم وحتى يوم وفاته حكم عليه أن يكون الأديب السيّد شاي عجنون من شارع كْلاوْزنر.

وهكذا مازال حتى يومنا هذا بيت عجنون قائماً وسط شارع كْلاوْزنر، وكأنه يريد الإغاظة.

أما بيت كْلاوْزنر بالمقابل فقد هدم وأقيم مكانه، وكأنما لمجرد الإغاظة، مبنى شقق سكنية مربع الشكل وعادي مقابل بيت عجنون الذي ما زال قائما حتى اليوم.

٨

في كلّ ثاني أو ثالث يوم سبت كنا نذهب إلى تلبيوت، إلى فيلا العمّ يوسف والعمّة تسيبورة الصغيرة. ستة أو سبعة كيلومترات فصلت بين بيتنا في «كيرِم أَفْراهام» وبين تلبيوت، حي عبري ناءٍ يكتنفه بعض الخطر: إلى الجنوب من رحافيا وكريات شموئيل، إلى الجنوب من طاحونة الهواء في مشكنوت شأنَنيم امتدت مساحات القدس الغريبة: حي طالبية وأبو طور والقطمون، المستوطنة الألمانية والمستوطنة اليونانية والبقعة (شرح لنا ذات مرة المعلم السيّد أفيسر بأن حي أبو طور يحمل اسم أحد الأبطال الذي لقب بـ«أبو الثور»، أما حي طالبية فقد كان ملكا لشخص اسمه طالب والبَقعة هي المكان المنخفض أو وادي الأشباح (عيمك رفائيم) أما الاسم قطمون فهو تحريف عربي للكلمات اليونانية قاطا مونس الّتي تعني «بجانب الدير»). وبعدها، إلى الجنوب بعد جميع المعالم الغريبة هذه، وراء جبال الظلام، في آخر العالم، لمعت نقاط يهودية معزولة، مكور حاييم، تلبيوت، ارنونة، وكيبوتس رمات راحيل الذي يلامس أطراف منحدرات بيت لحم. من قدسنا لم يكن بإمكاننا أن نرى حي تلبيوت إلا ككتلة صغيرة، رمادية، مغبرة على قمة تلة بعيدة. من على سطح بيتنا، في الليل، أشار ذات مرة، جارنا المهندس، السيّد فريدمن إلى مجموعة من الأضواء المرتجفة الشاحبة في طرف الأفق المعلقة بين السماء والأرض وقال: هناك معسكر اللَنبي، ومن هناك، أيضاً، تشاهد ربما أضواء تلبيوت أو أرنونة. إذا تكررت الصدامات

مرة أخرى، تابع قائلا، فإنّ وضعهم لن يكون سهلا. هذا إذا افترضنا أنه لن تكون هناك حرب حقيقية.

*

كنا نبدأ المشوار بعد وجبة الغداء، في الوقت الذي تحبس فيه المدينة نفسها خلف الأباجورات المغلقة وتغوص كلها في قيلولة ظهر يوم السبت، وحيث يسود الهدوء المطلق الشوارع والساحات الّتي بين المباني الحجرية مع سقائف الصفيح الملتصقة بها. وكأنما صُبّت القدس كلها داخل كرة زجاجية شفافة. كنا نقطع شارع جيئولا وندخل في شبكة الأزقة المهترئة ببلدة اليهود الأصوليين (الحريديم) الواقعة في أعالي حي أحفا، نمر من تحت حبال الغسيل المثقلة بالملابس السوداء والصفراء والبيضاء، ومن بين درابزينات حديد صدئة لشرفات مهملة ولأدراج خارجية، نتسلق الطريق ونمر عبر زخرون موشيه الّتي تلتف دائماً بغيمة من روائح أطبخة الأشكناز الفقراء، التشولِنت[١] والبورشت[٢] والثوم والبصل المقليين والملفوف المكبوس، ثمّ نتابع حيث نقطع شارع الأنبياء. في الساعة الثانية من ظهر يوم السبت دون أن يرى أيّ كائن حيّ في شوارع القدس. من شارع الأنبياء كنا نتوجه وننزل في شارع شتراوس الغارق بظلمة دائمة تفرضها عليه قمم أشجار الصنوبر العتيقة في ظل سورين، من هنا السور الحجري - الرمادي المعشوشب للمستشفى البروتستانتي للراهبات الديأكونيسيات deaconess ومن هنا جدار الحجارة الثقيلة والحزينة للمستشفى اليهودي «بيكور حوليم» مع شعارات الأسباط الاثني عشر المنقوشة على أبوابه النحاسية الفاخرة. صدى رائحة الأدوية والشيخوخة ومحلول الليزول الحادة كان يفوح من هذين المستشفيين. بعد ذلك كنا نقطع شارع يافا بالقرب من دكان الملابس الفخمة الّتي تحمل الاسم معيان شطوف، حيث كنا نتوقف قليلا أمام واجهة العرض لمكتبة أحيعيفر حتى نفسح المجال لوالدي ليزدرد بعينيه الجائعتين مختلف الكتب العبرية

---

(١) طبيخ السبت مؤلف من القطاني والبطاطا واللحم والبيض (المترجم)

(٢) شوربة خضروات (المترجم)

الجديدة الّتي في الفترينا. بعدها كنا نواصل السير على امتداد شارع الملك جورج بين حوانيت فخمة ومقاه عالية الثريّات والمحلات التجارية الثريّة، كلها خالية ومغلقة احتراما للسبت إلا أن شبابيك العرض كانت تغرينا من وراء شبكات الحديد المغلقة، تغرينا بمفاتن عوالم أخرى، ومَضات قارات بعيدة وزاخرة، عبق مدن أنوار، صاخبة، تربض بأمان على ضفاف أنهار كبيرة، وفيها سيدات رقيقات متأنقات وسادة كيّسون ومرهفون وأثرياء، لا تتراوح حياتهم بين أعمال شغب واعتداءات ومذابح إذ لا ينقصهم أي شيء ولا يعرفون طعم العوَز، ولا يعملون حسابا لكلّ مليم، كما أنهم معفون من ضغوط الأعمال الطلائعية والتطوعية، ومعفون من عقاب جامعي ضريبة التكافل الاجتماعي، ورسوم صندوق المرضى وقسائم حصص التقنين. محتجبون براحة وطمأنينة في منازل جميلة نبتت منها مداخن من بين ألواح القرميد الّتي تغطي أسطحها، أو في شقق واسعة، مترامية الأطراف تبلغ حد الكمال مفروشة بالسجاد وبواب ببزة زرقاء يقف حارسا عند مدخل كلّ عمارة وعامل ببزة حمراء مسؤول عن تشغيل المصعد، وخدم وطباخون وحاضنات وقهرمانات يقومون على خدمتهم والسيّدات والسادة يتمتعون بمعيشتهم خلال حياتهم وليسوا مثلنا هنا.

هنا في شارع الملك جورج وكذلك في رحافيا الأشكنازية وفي طالبية اليونانية-العربية الثرية خيمت سكينة من نوع آخر، لا تشبه سكينة أحياء اليهود الأصوليين الّتي تخيم ظهر يوم السبت على الأزقة الأشكنازية المكتظة والمهملة: سكينة من نوع آخر، مغرية، تكتم سرا، خيمت على شارع الملك جورج الخالي تماما في الساعة الثانية والنصف من ظهر يوم السبت، سكينة من خارج البلاد، حقا أنها سكينة بريطانية لأنّ شارع كينج جورج - وليس بسبب اسمه فقط- خيل إليّ منذ طفولتي وكأنه فرع من المدينة العجيبة لندن الّتي في السينما: كانت فيه صفوف من البيوت العالية والبنايات الرسمية تفرض احترامها وتمتد على جانبي الشارع بواجهات أمامية متراصّة، متجانسة، بدون ثغرات إلى ساحات بائسة، يقتلها الإهمال، مليئة بالخردوات والنفايات الّتي تفصل بين البيوت كما في حيّنا. هنا في كينج جورج لم تكن

هناك شرفات متآكلة وأباجورات بالية لشبابيك مفتوحة مثل فم عجوز بدون أسنان، شبابيك فقر من خلالها تنكشف لعابري السبيل محتويات البيت من سقط المتاع: لحف ووسائد مرقعة، خرق رثة بألوان صاخبة، كوم من الأثاث المتراكم، وأواني مطبخ: مَقالٍ يكسوها السخام، وأدوات خزفية متعفّنة، قدور مطلية بالمينا ملتوية ومعوجة وأشكال مختلفة من التنك الصغير والكبير تآكل بفعل الصدأ. أما هنا فعلى جانبي الشارع واجهة ممتدة، مترابطة، شامخة ومتسترة أيضاً حيث جميع أبوابها ونوافذها مكسوة بالستائر من قماش النسيج القطني الرقيق، وكل شيء يدل على الثراء والاحترام، أصوات خافتة، أقمشة فاخرة، وسجاد لين، كؤوس لطيفة وآداب رفيعة.

عند مداخل العمارات ثبتت ألواح زجاجية حملت أسماء مكاتب المحامين والسماسرة والأطباء وكتاب العدل والوكلاء المرخصين لشركات أجنبية محترمة.

كنا نمر في طريقنا أمام بيوت «طليثا قومي» - «يا صبية لك أقول قومي» - (أحب والدي أن يشرح معنى هذا الاسم، وكأنه لم يشرحه قبل أسبوعين وقبل شهرين وكانت أمّي تحب أن تقول له: كفاك، آرييه، سمعنا، بعد قليل ستتحول إلى يا صبية نامي من طول شرحك وتكراره). مررنا بالقرب من حفرة شيبر ومن أمام بيت فرومين الذي من المفروض أن يكون مقر الكنيست المؤقت، ومن أمام بيت الدرج المستدير، الذي يضمن لزواره مذاق المتعة الجدّية المتمثلة في منظر طبيعي بسيط وصغير، منظر اشكنازي، كنا نتوقف للحظة كي نطلّ على أسوار البلدة القديمة من وراء المقبرة الإسلامّية في ماميلا، «مأمن الله»، يحث الواحد منا الآخر (الساعة الثالثة إلا ربعا! والطريق ما زال طويلا جدّاً!)، نتابع السير حتى الكنيس يشورون، قبل نصف الدائرة الواسعة أمام مباني الوكالة اليهودية [كان أبي يهمس في أذني كمن يودعني معلومة سرية للغاية وبرهبة واحترام شديدين كان يقول: «هنا مقر حكومتنا: الدكتور ويزمن، وكبلن، وشرتوك وأحيانا أيضاً بن غوريون بنفسه. هنا ينبض قلب السلطة العبرية. كم من المؤسف أنها ليست حكومة قومية ذات صلاحية أكثر!» وكان يضيف شارحا لي ما معنى «وزارة الظلّ» وماذا

سيكون لنا هنا قريبا، عندما سيرحل البريطانيون في آخر المطاف إلى بلادهم («رضوا أم أبوا سيرحلون!»)].

من هناك كنا نواصل السير ونهبط باتجاه التيراسانطة (في عمارة التيراسانطة اشتغل أبي حوالي عشر سنوات، بعد حرب الاستقلال وبعد الحصار على القدس، عندما أغلقت الطريق إلى بناية الجامعة على جبل سكوبس، «المشارف»، ووجد قسم الصحافة التابع للمكتبة القومية وجد له هنا ملجأ مؤقتا في إحدى زوايا الطابق الثالث).

مسيرة عشر دقائق تفصل التيراسانطة عن بناية دافيد الدائرية الّتي بها تنتهي المدينة ودفعة واحدة تبدأ السهول الخالية وصولا إلى محطة القطار الّتي في عيمك رفائيم. عن يسارنا ظهرت طاحونة هواء حي يمين موشيه، وفي الأعلى من اليمين، في المنحدر، آخر بيوت حي طالبية. أي تَحَفُّز وبدون كلام كان يسيطر علينا ونحن نخرج خارج حدود المدينة العبرية: كمن يجتازون حاجزا- حدوديا غير مرئي ويدخلون دولة أجنبية.

بعد الثالثة بدقائق كنا نسير على الشارع الفاصل بين أطلال الخان التركي القديم والكنيسة الاسكتلندية الّتي فوقه وبين محطة القطار المغلقة: ضوء آخر خيم هنا، ضوء غائم أكثر، ضوء عتيق- طحلبيّ. هذا المكان حرك في ذاكرة أمي فجأة مشهد زقاق إسلامي- بلقاني كان يقع على طرف بلدتها في غرب أوكرانيا. كان أبي يبدأ الحديث عن أيام الأتراك في القدس، وعن أوامر جمال باشا، وعن الرؤوس المقطوعة وعن عقوبات الجَلد الّتي نفّذت أمام أعين الجمهور الذي كان يتجمّع في الساحة المرصوفة الّتي أمام محطة القطار هذه الّتي بناها، بامتياز عثماني، يهودي مقدسي بالذات، اسمه يوسف باي نفون، في أواخر القرن التاسع عشر.

*

من ساحة محطة القطار كنا نواصل السير في طريق الخليل، نمر عن منشآت السلطة البريطانية المحصنة ومن أمام ساحة صهاريج محاطة بسور علقت عليه لافتة عريضة بثلاث لغات. باللغة العبرية كتبت عليها الكلمات

«وقوم أفيل»(١) وأبي كان يبتسم ساخرا ويقول «من هو الغبي الذي يأمرونه بالقيام». ودون أن ينتظرني كان يجيب نفسه بنفسه، ما هذا إلا «فاكوم أويْل» بإملاء ناقص، وهذا دليل على أنه حان الوقت بكل تأكيد لكي يدخل إصلاح أوروبي حديث وجريء على إملاء اللغة العبرية المسكين، وأن نبدأ باستعمال حروف العلة والتي هي، كما قال، بمثابة شرطي مرور للقراءة. وبالمناسبة، على أحد جانبي قاطرات قطار جلالة الملك كتب باللغة الإنجليزية كلمة inflammable (أي قابل للاحتراق) وباللغة العربية كتب «قابل للالتهاب» في حين كتب بعبرية حكومة الانتداب على أحد جانبي كلّ قاطرة ما معناه «قابل للحماس». لا أقلّ ولا أكثر.

عن يسارنا الآن تتفرع عدة طرق منحدرة تؤدي إلى الحي العربي أبو طور، وعن يميننا جذبت انتباهنا وقلوبنا مداخل أزقة المستوطنة الألمانية اللطيفة، قرية بفاريّة (ألمانية) هادئة، تغمرها العصافير المغردة، ومشبعة بنباح الكلاب وصياح الديوك، وفيها أبراج الحمام وأسقف قرميد أحمر تطل من هنا وهناك من بين أشجار السرو والصنوبر، والكثير من الساحات ذات الأسوار الحجرية الّتي تظللها قمم أشجار كثيفة. لكلّ بيت كان هناك قبو- مستودع وعليّة، مجرد ذكر اسميهما كان يثير حرقة الشوق في قلب من ولد في أماكن لم يكن لأحد فيها قبو مظلم تحت قدميه ولا علية معتمة فوق رأسه، ولا مستودع ولا خزانة أدراج ولا حتى خزانة صغيرة ولا ساعة بندول ولا بئر مع رافعة لنشل الماء في فنائه.

كنا نواصل السير جنوبا في منحدر طريق الخليل حيث نمر عن بيوت واسعة مبنية من الحجارة الوردية المنقوشة، مساكن أفندية أثرياء ومسيحيين عرب من أصحاب المهن الحرة ومن الموظفين الكبار في حكومة الانتداب ومن أعضاء اللجنة العربية العليا، مردم بيه المتناوي، حاج راشد العفيفي،

(١) هذه العبارة إذا كتبت بهذا الشكل بالعبرية ممكن أن تقرأ على وجهين: الوجه الأول بمعنى «قم أيها الغبي»، والوجه الثاني أنها عبارة إنجليزية معناها «مضخة الوقود» (المترجم).

الدكتور إميل عدوان البستاني، والمحامي هنري طويل طوطح وباقي أثرياء حي البقعة. هنا كانت جميع الحوانيت مفتوحة ومن المقاهي تعالت أصوات الضحكات والموسيقى، وكأننا تركنا السبت نفسه من ورائنا، محبوسا داخل سور وهميّ سد طريقه في مكان ما هناك بين حي يمين موشيه وبين النزل (البنسيون) الاسكتلندي.

على الرصيف العريض في ظل شجرتي صنوبر هرمتين قبل أحد المقاهي جلس على مقاعد قش قصيرة حول طاولة خشبية قصيرة ثلاثة أو أربعة أسياد ليسوا شبابا يرتدون بدلات بنية وتدلّى من عروة بنطلون كلّ منهم سلسلة مذهبة ترسم على كرشه شبه قوس ثمّ تختفي في جيبه. احتسى هؤلاء السادة الشاي بكؤوس زجاجية سميكة أو شربوا القهوة الثقيلة بفناجين مزخرفة ودحرجوا مكعبات الزهر على لوحة النرد الّتي أمامهم. كان أبي يحييهم باللغة العربية الّتي كانت عند خروجها من فمه تبدو مثل الروسية. كان السادة يصمتون للحظة، ينظرون إلى بعضهم البعض بتعجب مكبوت، كان يتمتم احدهم بكلمات غير واضحة، وربما بكلمة واحدة وربما ردّ التحية على تحيتنا له.

في الثالثة والنصف كنا نمر على امتداد سياج الأسلاك الشائكة المحيطة بمعسكر اللنبي، حصن السلطة الإنجليزية في جنوب القدس. في مرات كثيرة كنت قد اخترقت هذا المعسكر، احتللته وطهرته ورفعت عليه علما عبريا في ألعاب حصيرتي. من هنا من معسكر اللنبي الذي وقع في الفخ من خلال هجوم ليليّ مفاجئ قامت به قواتي، كنت أواصل عاصفة الهجوم باتجاه قلب الحكم الأجنبي، أرسل فرق كوماندو إلى سور قصر المندوب السامي الذي على جبل المشورة السيئة والذي كانت كتائبي العبرية توقعه في الفخ المرة تلو المرة بحركة كماشة باهرة، سرب من المدرعات كان يقتحم السور إلى القصر من الجهة الغربية جهة معسكر اللنبي المحرّر، في حين ذراع الكماشة الآخر كانت تغلق بشكل مفاجئ تماما من الجهة الشرقية من التلال الشرقية المقفرة، من أطراف صحراء يهودا.

عندما كان عمري ثماني سنوات وبضعة أشهر، في السنة الأخيرة

للانتداب البريطاني، بنيت مع صديقين، شريكيّ في السر، صاروخا مرعبا في الساحة الخلفية للمبنى الذي نسكن فيه. كنا ننوي توجيه هذا الصاروخ إلى قصر بكينجهام الذي في لندن (عثرت على خريطة مفصلة لوسط لندن بين مجموعة خرائط أبي).

بماكنة طباعة أبي طبعت رسالة إنذار نهائي بلهجة مؤدبة وجهته إلى جلالة ملك انجلترا المحترم جورج السادس من عائلة ويندسور (كتبت بالعبرية إذ من المؤكد أن عنده من يترجمه له): إذا لم تخرجوا من بلادنا خلال ستة أشهر على أبعد حد، يتحول يوم غفراننا إلى يوم قيامة بريطانيا العظمى. إلا أن هذا المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ في نهاية الأمر، لأننا لم ننجح في تطوير جهاز التوجيه المحسّن (كنا نريد أن نضرب قصر بكينجهام دون أن نصيب المارة الانجليز الأبرياء من كلّ ذنب)، ولأننا أيضاً واجهنا صعوبة في إنتاج الوقود الذي يمكنه أن يدفع الصاروخ من شارع عاموس زاوية عوفاديا في حي «كيرِم أفْراهام» حتى غايته في قلب لندن. وبينما كنا منغمسين في البحث والتطوير التكنولوجي عاد الانجليز إلى صوابهم وسارعوا في الخروج من البلاد، وهكذا نجت مدينة لندن من عواقب غضبي القومي ومن سقوط صاروخي، الذي كان مركبا من بقايا ثلاجة مكسورة وبقايا دراجة هوائية عتيقة.

*

قبل الرابعة ببضع دقائق كنا نتجه من طريق الخليل إلى اليسار وندخل حي تلبيوت، بين أسراب أشجار السرو الظليلة الّتي كانت النسائم الغربية الرقيقة تعزف عليها لحن حفيف يغمرني بالدهشة، والتواضع والهيبة الصامتة. تلبيوت في تلك الأيام كان حي ورود هادئا، بعيدا عن مركز المدينة وضوضاء الأسواق التجارية، على حدود صحراء يهودا. لقد تمّ تخطيط تلبيوت بتأثير أحياء سكنية متطوّرة في وسط أوروبا، أقيمت من أجل راحة المثقفين والأطباء والأدباء والمفكرين. على جانبي الشارع انتشرت بيوت أرضية صغيرة ولطيفة، محاطة بحدائق الزينة الجميلة، وفي كلّ منها، هكذا تصورنا بخيالنا، خيال الفقراء، يعيش حياة فكرية هادئة باحث مشهور أو بروفيسور

وقور، أو مثقف له شهرة عالمية مثل عمنا يوسف الذي لم يرزق بولد ولكن شهرته طبقت الآفاق حتى أن الكثير من الدول البعيدة ترجمت بعض كتبه واستفادت منها.

كنا نتوجه إلى اليمين ونصعد في شارع «كوري هدوروت» حتى غابة الصنوبر، ومن ثمّ إلى اليسار وإذا بنا أمام بيت العمّ. كانت أمّي تقول: الساعة الآن الرابعة إلا عشر دقائق، ربما ما زالا في قيلولتهما؟ لماذا لا نجلس عدة دقائق بهدوء وننتظر هنا على المقعد في الحديقة؟ أو أنها كانت تقول: تأخرنا اليوم قليلا، إذ أن الساعة الآن الرابعة والربع ولا شك أن إبريق الماء يغلي والعمّة تسيبورة قد وضعت الفواكه على الطبق.

نخلتا واشنطن تنتصبان كحاجبين على جانبي البوابة، ومن ورائهما طريق مرصوف ومحدود من طرفيه بسياج من شجيرات التويا (شجرة الحياة). يقود هذا المسلك من البوابة إلى درج عريض صعدناه إلى شرفة مدخل المنزل، حتى الباب الرئيسي الذي نقش عليه بحروف مربعة الشكل على لوح من النحاس شعار العمّ يوسف: «**يهودية وإنسانية**».

على الباب نفسه علقت لافتة نحاسية صغيرة وأكثر لمعاناً نقش عليه بالعبرية وبالأجنبية:

البروفيسور الدكتور يوسف كْلاوْزِنِر

ومن تحته كتبت العمّة تسيبورة بخط يدها الدائريّ على وريقة صغيرة ثبتتها على الباب بدبوس:

الرجاء الامتناع عن الزيارة بين الثانية والرابعة.

شكراً

٩

وأنا ما زلت في المدخل كانت تخيم علي هيبة ورهبة مدهشة، وكأن القلب نفسه طولب بخلع حذائه هناك وأن يدخل بجواربه وعلى رؤوس أصابع قدميه وأن يتنفس بأدب وبفم مغلق كما يجب.

باستثناء مشجب من الخشب البني وقف بالقرب من المدخل ودلّى أغصانه المتفرعة وباستثناء مرآة حائط صغيرة وسجادة مطرزة غامقة لم يكن في بهو المدخل شبر واحد فارغ بين صفوف الكتب: رفوف فوق رفوف من الأرض وحتى السقف العالي كلها مليئة بالكتب بلغات حتى شكل حروفها لم أعهده، كتب منتصبة وكتب أخرى مضطجعة فوق الكتب المنتصبة، كتب أجنبية سمينة وفخمة تتمدد مسترخية وكتب أخرى، مرهقة تطل عليك وهي تصطف مكتظة وهي مضطجعة مثل لاجئين على أسرّة مبيت فى جدار سفينة مهاجرين غير شرعيين. كتب كبيرة وموقرة بتجليد جلدي مع كتابة بماء الذهب وكتب خفيفة بتجليد ورقي مهلهل، كتب- نبلاء أنيقون- مترفون وكتب- متسولون شاحبون شُعث يرتدون أسمالا بالية وبينهما ومن حولهما ومن خلفهما المزيد من الكتيّبات والكراريس والمنشورات والجرائد والمجلات والدوريات والدوسيهات والنشرات والنسائخ، وكل الرعاع المرهق الصاخب الذي يتجمهر دائماً في أطراف الميدان وأسفل السوق.

في بهو المدخل لم تكن إلا نافذة واحدة تطل من خلف قضبان حديدية مثل كوة راهب منزو على شجيرات الحديقة الكئيبة المتشابكة. هنا كانت

تستقبلنا وتستقبل كلّ ضيوفها العمّة تسيبورة، عجوز لطيفة، بيضاء الوجه وعريضة الفخذين، بفستان رمادي وشال أسود على كتفيها، روسية أصيلة جدّاً، شعرها أبيض مشدود بقوة إلى الخلف ومجمّع ككرة شيب صغيرة كانت معقودة ومثبتة في قفاها. تقدّم خديها نحوك الواحد بعد الآخر لقبلتين، وجهها المستدير والذي يشع طيبة يبتسم لك بمحبة وكانت دائماً تبادر إلى السؤال كيف حالك وغالبا كانت لا تنتظر جوابا بل تسارع لتبشرك وأنت ما زلت عند المدخل عن صحة عزيزنا يوسف الذي مرة أخرى لم يغمض له جفن طوال الليل، أو عن معدته الّتي عادت أخيرا إلى طبيعتها بعد علة رافقتها طويلا، أو عن تسلمه رسالة رائعة جدّاً من بروفيسور أمريكي مهم جدّاً جدّاً من ولاية بنسلفانيا، أو عن الحصاة في المرارة الّتي عادت تمرمر حياته، أو أنه ملزم بأن ينهي حتى ظهر الغد مقالا طويلا ومهما لمجلة رفيدوفيتش «همتسودا»، أو بأن العمّ يوسف قرر هذه المرة أيضاً أن يتغاضى عن إهانة كبيرة وجهها إليه يتسحاق زيلبرشلاج، أو أنه قرر أن يكيل الصاع صاعين لأحد قادة عصابة «بريت شلوم».

بعد موجز الأنباء كانت العمّة تسيبورة تبتسم برقة وتدعونا إلى الدخول وراءها والمثول أمام العمّ نفسه:

«يوسف بانتظاركم في غرفة الاستراحة،» كانت تبشرنا بابتسامتها المنعشة، أو «يوسف موجود في غرفة الضيوف ويجلس معه السيّد كروبنيك والسيّدة والسيّد نتنياهو والسيّد يونِتشمَن والسيّد والسيّدة شوخطمن، وهناك ضيوف أجلاء آخرون ما زالوا في الطريق.» وأحيانا كانت تقول: «منذ السادسة صباحا وهو منزو في غرفة العمل حتى أنني قدمت إليه طعامه هناك ولكن لا بأس، لا بأس فإنكم ستدخلون إليه الآن، تفضلوا تفضلوا بالدخول فهو سيبتهج بكم وهو دائماً يسعد باستقبالكم كما يسعدني ذلك أيضاً، كما أنه من المفضل له أن يتوقف عن العمل وأن يستريح قليلا، فهو يهلك نفسه! ولا يرحمها أبداً!»

*

من بهو المدخل فتح بابان: الأول باب زجاجي مزخرف بالأزهار

والمنمنات ويؤدي إلى غرفة الضيوف. والباب الثاني غير شفاف وثقيل ومعتم، متجهم، يؤدي إلى داخل غرفة عمل البروفيسور والذي يسمى أحياناً «المكتبة».

غرفة عمل العمّ يوسف بدت لي في طفولتي كممر إلى هياكل الحكمة: أكثر من خمسة وعشرين ألف مجلد، همس أبي ذات مرة في أذني، مكنوزة هنا في مكتبة العمّ الخاصة، منها كتب قديمة وثمينة، ومنها مخطوطات لكبار أدبائنا وشعرائنا، منها الطبعات الأولى مع إهداء شخصي من مؤلفيها، ومنها مجلدات تمّ إخراجها بالمكر والخديعة من حدود أوديسا السوفييتية وتم تهريبها وإحضارها إلى هنا بطرق ملتوية، ومنها كتب نادرة وثمينة جدّاً من كنوز هواة جمع الكتب النادرة وشحيحة الوجود. منها كتب علمانية وأخرى دينية، تحتوي تقريبا على كلّ كنوز التراث اليهودي وخيرة تراث الشعوب، منها ما اشتراه العمّ في اوديسا ومنها ما اشتراه في هايدلبرغ، كتب وجدها في لوزان وكتب عثر عليها في برلين ووارسو، كتب طلبها من أمريكا وكتب لا مثيل لها إلا في مكتبة الفاتيكان، عبرية وآرامية وسريانية ويونانية قديمة وحديثة، لغة سنسكريتية ولاتينية وعربية من العصور الوسطى، روسية وإنجليزية وألمانية وإسبانية وبولندية وفرنسية وإيطالية ولغات أخرى ولهجات حتى أنني لم اسمع باسمها مثل الأوغريتية والسلوفانية والكنعانية- المالطية والسلافية - الكنسية القديمة.

شيء ما مترمّت ومتقشّف خيم على غرفة المكتبة، بخطوط عشرات الرفوف الممتدة هنا صفوفا - صفوفا من الأرض وحتى السقف العالي، تمتد حتى فوق أسكُفة الأبواب والشبابيك، يا لها من علياء صامتة، حازمة، علياء موشّاة ليس قبلها لا ابتسامة ولا تهاون وهي تفرض علينا جميعا - وحتى على العمّ يوسف نفسه- أن نتحدث هنا همسا.

رائحة مكتبة العمّ العملاقة ستبقى ترافقني طوال حياتي: شذا العلوم الغيبية السبعة المغبر والمثير، رائحة حياة الاستقراء والاستقصاء الهادئة والمُحكمة، حياة ناسك مثقل بالأسرار، سكينة استحضار الأرواح صارمة تتصاعد وتهبّ من أعماق آبار التأمّل والحكمة، هديل همسات شفاه مفكرين

أموات، هتاف الأفكار السرية لمؤلفين واراهم التراب، لمسات ملاطفات باردة لرغبات أجيال سابقة.

من هنا أيضاً، من غرفة العمل، ينعكس عبر ثلاث نوافذ ضيقة ومرتفعة وغامقة الستائر منظرُ الحديقة الكئيبة، المهملة بعض الشيء، الحديقة الّتي وراء جدارها تماما يبدأ امتداد صحراء يهودا والمنحدرات الصخرية الّتي تتدحرج كالأمواج نحو البحر الميت: أشجار سرو عالية وأشجار صنوبر هامسة أحاطت بالحديقة وبين السرو والصنوبر نمت هنا وهناك شجيرات دِفلى، وأعشاب برية وشجيرات ورد مهملة، وشجيرات تويا (شجرة الحياة) مغبرّة، ممرات مرصوفة بالحصى الذي تحول رماديا، طاولة حديقة خشبية تعطّب تحت أمطار فصول شتاء كثيرة، بالإضافة إلى شجرة زنزلخت عجوز منحنية الظهر وشبه جافّة. حتى في الصيف، في أيام القيظ الشديد، كان هناك شيء ما شتوي روسي وحزين في هذه الحديقة، حيث أن العمّ يوسف والعمّة تسيبورة المحرومين من الأولاد كانا يعيلان قططها بفضلات مطبخهما ولكنني لم أرهما قط يخرجان للتنزّه فيها أو ليجلسا على أحد مقعديها الباهتين يستنشقان نسائم الغروب.

أنا فقط كنت أتجول فيها دائماً لوحدي في ساعات بعد الظهر، هربا من عقم حديث المثقفين في غرفة الضيوف، اصطاد النمور بين أشجارها المتشابكة، ابحث عن وثائق قديمة من ورق البرديّ مخبأة تحت حجارتها واحلم باحتلال التلال المقفرة الّتي وراء الجدار بهجوم عاصف أقوم به مع كتائبي.

حيطان المكتبة الأربعة العالية والواسعة كانت مغطاة من أولها إلى آخرها بروائع الكتب، متكاثفة ومتداخلة ولكنها مرتبة جيدا، قوافل قوافل من المجلدات الزرقاء الغامقة والخضراء والسوداء مع كتابات بماء الذهب والفضة. في عدد من الأماكن سبب الاكتظاظ إلى أن يضطر صفان من الكتب إلى الوقوف الواحد خلف الآخر على رف مثقل واحد. وكانت هناك كتل من الحروف القوطيّة المتموّجة مثل أبراج القلاع وكانت هناك كتل من الكتب الدينية العبرية من الجماراه والمشناه (التلمود) وكتب الصلوات وكتب الفقه

ومن كنوز المدراش (تفسير التوراة) والأساطير والحكايات، رف إسبانيا العبري، ورف إيطاليا، وقسيمة مجموعات برلين وبقية فروع حركة التنوير (الهسكلاه)، وكانت هناك مساحات تلو المساحات المخصصة لكتب التراث اليهودي وتاريخ إسرائيل وتاريخ الشرق الأوسط القديم وتاريخ اليونان وروما وتاريخ المسيحية القديمة والجديدة والحضارات الوثنية على اختلاف أنواعها وفلسفة الإسلام وديانات آسيا وتاريخ العصور الوسطى، وحائط كامل لكتب تاريخ الشعب اليهودي في العصور القديمة وفي العصور الوسطى وفي الأجيال الأخيرة، وكانت هناك مساحات سلافية واسعة ومبهمة بالنسبة لي، وأراض يونانية ومناطق رمادية- بنية لإضبارات وملفات من الكرتون مليئة بمقالات مطبوعة منفصلة وبمخطوطات. لم تخلُ أيّ بقعة من الحائط مهما صغرت من الكتب، كما تكوّمت على أرض الغرفة عشرات الكتب منها مفتوحة ومقلوبة على وجهها، ومنها مليئة بمؤشرات صغيرة، وكتب أخرى تجمهرت هنا وهناك مثل قطيع ماشية مذعور احتشدت على كرسيين أو ثلاثة عالية الذراعين معدة للضيوف وكذلك على عتبات الشبابيك، سلم أسود كان يوصل إلى الرفوف العليا، الّتي تلامس السقف العالي. هذا السلم كان بالإمكان تحريكه على سكة معدنية بمحاذاة المكتبة على طول وعرض الغرفة، وفي عدة مرات سُمح لي بتحريكه بحذر شديد على عجلاته- المطاطية من جهة إلى أخرى ومن رف إلى آخر على امتداد المكتبة. لم تكن هناك أيّ صورة ولا أيّ أصيص أو نوع من أنواع الزينة أو زاوية لقطع الزينة. كتب وكتب فقط وسكون يخيمان على الغرفة، والرائحة العجيبة، الكثيفة، رائحة أغلفة الكتب الجِلدية، والأوراق المصفرّة والعفن خفيف ومثل صدى غريب لطحالب بحرية ورائحة دبق التجليد القديم وشذا الحكمة والأسرار والغبار.

في مركز المكتبة، مثل مدمرة كبيرة ألقت رواسيها في قلب مياه خليج جبلي، وقفت طاولة عمل البروفيسور كْلاوْزنر: تراكمت فوقها تلال من مجلدات موسوعات ومعاجم وقواميس ودفاتر وأقلام حبر متنوعة، زرقاء وسوداء وخضراء وحمراء، وأقلام رصاص وممّاحٍ ومحابر، وكميات من

الدبابيس والمطاطات والمشابك، ومغلفات بنية وأخرى بيضاء ومغلفات عليها طوابع بريد متنوعة تبعث البهجة، وأوراق ونشرات وقصاصات وبطاقات، مجلدات أجنبية مفتوحة فوق مجلدات عبرية مفتوحة، وبين أوراق المجلدات المفتوحة مبعثرة أوراق أخرى نُزعت من دفتر زنبركات صغير تشابكت عليها خيوط خط يد العمّ العنكبوتية، مليئة بالكلمات المشطوبة والتصحيحات كجيَف ذباب منفوخة مخزون من القصاصات الصغيرة، ونظارات العمّ يوسف الطبية مذهبة الإطار موضوعة على قمة الكومة كأنها تحلق فوق الخواء، ونظارات أخرى سوداء الإطار موضوعة على رأس تلة ثانية من الكتب، على عربة مساعدة صغيرة بالقرب من كرسيه، ونظارات ثالثة تطلّ عليك من بين أوراق كراسة مفتوحة على ظهر خزانة أدراج صغيرة موجودة بالقرب من الكنبة المتحولة الغامقة.

على هذه الكنبة ربض العمّ يوسف منكمشاً على نفسه بوضعية الجنين في رحم أمّه، مكسوّاً حتى كتفيه ببطانية صوف خفيفة ملوّنة بمربعات حمراء- خضراء تشبه تنورة جندي اسكتلندي، وجهه عار وصبياني بدون نظاراته، نحيفا وصغيرا مثل الولد، بدت عيناه البنيتان الطويلتان مبتهجتين قليلا وتائهتين بعض الشيء. لوّح لنا قليلا بيده البيضاء- الشفافة الضعيفة، وابتسم ابتسامة وردية من بين شاربه الشائب وذقنه الأبيض المستدقّ وقال لنا تقريبا:

«تفضلوا، أعزائي، ادخلوا ادخلوا» (مع أننا كنا قد دخلنا ووقفنا قبالته، ولكن ما زلنا بالقرب من الباب ملتصقين مَعاً أمّي وأبي وأنا كقطيع صغير تاه ودخل مرعى ليس له)، واعذروني لعدم وقوفي لاستقبالكم، ولا تتشددوا معي فأنا منذ ليلتين وثلاثة أيام لم أبرح عملي ولم أغمض جفنا، اسألوا حتى السيّدة كْلاوْزِنر وهي تشهد على ذلك، فانا لا أتفرغ للأكل ولا للنوم ولا حتى لتصفّح الجرائد حتى انهي هذا المقال الذي سيثير، عندما ينشر، ضجة كبيرة عندنا وليس عندنا فحسب إذ أن كل عالم الثقافة يتابع هذا النقاش بتلهف شديد، وهذه المرة فإنني أفلحت، كما أتصور، في أن أخرس مرة واحدة وإلى الأبد أفواه جميع المتمردين على النور على مختلف أنواعهم! سيقولون هذه المرة، رغما عن أنوفهم، آمين أو على الأقل سيعترفون بأنه لم

يعد لهم ما يقولونه لأنّه تمّ دحض جميع ادعاءاتهم، فشلت كلّ محاولاتهم، وخسروا كلّ شيء.

وأنتم؟ عزيزتي فانيا؟ لونيا العزيز؟ وعاموس الصغير، الغالي جدّاً؟ كيف حالكم؟ ماذا استجدّ في عالمكم؟ هل قرأتم على مسامع عاموس الصغير بعض الصفحات من «عندما تقاتل الأمة من أجل حريتها»؟ يخيّل إليّ، يا أعزائي، أنه من كلّ ما كتبته حتى الآن لم يخرج من تحت يدي كتاب أفضل من «عندما تقاتل الأمة من أجل حريتها» لكي يكون غذاء روحانيا لنفس الحبيب عاموس الرقيقة بشكل خاصّ، ولنفوس أبناء شبيبتنا العبرية المدهشة بشكل عام، باستثناء، ربما، وصف البطولات والتمرد الموزّعة هنا وهناك بين طيات كتابي «تاريخ الهيكل الثاني». وقد كتب لي منذ وقت ليس بعيدا شخص غير يهودي بالذات، كاهن سويسري مثقف ومتنور ومحب لا مثيل له لليهود، أنه عند قراءة فصول حروب اليهود ضدّ الظلم الهيليني الوثني كما تظهر أيضاً في كتابي «تاريخ الهيكل الثاني» وكذلك في كتابيّ «يسوع المسيحي» و«من المسيح وحتى بولس» اتضح له لأول مرة في حياته إلى أيّ مدى كان المسيح عبرانيا ويهوديا، إلى أيّ مدى كان بعيدا عن اليونانية والرومانية مَعاً، مع أنه كان بعيدا أيضاً عن الحاخامات الذين تمسكوا بمعتقدات اعتبرت قديمة في زمانه، والذين لم يكونوا أفضل بكثير من الظلاميين من متزمتي عصرنا.

وأنتم أعزائي؟ لا شك أنكم جئتم مشيا على الأقدام؟ ومن طريق طويل؟ من بيتكم الذي في حي كيرم افراهام؟ ما زلت أذكر كيف كنا نحن الشباب، قبل ثلاثين عاما، عندما كنا ما نزال نسكن في حي البخاريين الرائع والأصيل، نخرج أيام السبت ونسير مشيا على الأقدام من القدس وحتى بيت إيل أو حتى عنتوت وأحيانا مشينا فعلا حتى قبر النبي صموئيل. ستقوم السيّدة كْلاوْزنِر الغالية بالتأكيد بتقديم الطعام والشراب لكم لو تفضلتم بالذهاب خلفها إلى مملكتها وأنا أريد أن أنهي هذه الفقرة الصعبة وسأنضم إليكم فوراً، ومن المتوقع أن يحضر لزيارتنا اليوم أيضاً الفويسلافسكيون وكذلك أوري تسفي وافن - زهاف. أما العزيز نتنياهو وعقيلته الرقيقة فهما يجلسان معنا تقريبا كلّ

سبت. تفضلوا اقتربوا مني أعزائي، اقتربوا وانظروا بأمّ أعينكم، انظر أنت أيضاً يا عاموس الصغير والدمث، انظروا كلكم وشاهدوا المسودات الّتي على طاولتي: بعد موتي من اللائق أن يحضر إلى هنا الطلاب جماعات-جماعات، جيلا بعد جيل كي يروا بأمّ أعينهم مدى المعاناة الّتي تفرضها الكتابة على الكاتب، كم من الجهد بذلت طوال حياتي وكم من المشاقّ واجهت، وكل ذلك من أجل أن يكون أسلوب كتابتي سهلا وسلسا وشفافا مثل البلور، انظروا كم كلمة شطبت في كلّ سطر، وكم مسودة سوّدت، أحياناً أكثر من ست مسودات مختلفة قبل أن أرسل المادة إلى الطباعة: لا تحلّ البركة إلا في الأماكن الّتي فيها يعتمد تصفيق الأجنحة على عرق الجبين، والإيحاء ينبع من المواظبة والدقة والتدقيق، ولهذا قيل، «بركات السماء في الأعالي وبركات الهاوية تربض في الأسفل» ما قلت ذلك إلا مازحا، بالطبع، مع اعتذاري للسيدات. والآن هيا اذهبوا من فضلكم في أعقاب السيّدة كُلاوْزنِر واروُوا ظمأكم وأنا لن أتأخر عليكم.

*

خرجت من المكتبة إلى ممر ضيق وطويل كان بمثابة أمعاء البيت، منه يمكن التوجه يمينا إلى غرفة الحمام أو إلى غريفة المخزن أو متابعة السير بخط مستقيم إلى المطبخ ومخزن المؤن وإلى مخدع الخادمة الذي يتفرع من المطبخ (كان هناك مخدع للخادمة ولكن لم تكن فيه خادمة بتاتا)، ويمكن التوجه يسارا فوراً إلى غرفة الضيوف أو المرور عنها على امتداد الممر والتوجه عبر الباب الثاني إلى اليسار إلى غرفة نوم العمّة والعمّ البيضاء والمزخرفة، كانت فيها مرآة كبيرة ذات إطار نحاسي محفور وشمعدانان على جانبي هذه المرآة.

هناك ثلاث طرق يمكنك الوصول بها إلى غرفة الضيوف: يمكنك بعد دخولك إلى البيت أن تتوجه من البهو إلى اليسار أو أن تسير من البهو بخط مستقيم إلى غرفة العمل وأن تخرج من طرف المكتبة إلى الممر والتوجه فوراً إلى اليسار لتجد نفسك هناك كما يفعل العمّ يوسف أيام السبت، مباشرة إلى الكرسي الخاصّ على رأس المائدة السوداء الطويلة والتي تمتد على طول

غرفة الضيوف تقريبا. إضافة إلى ذلك، توجد في زاوية غرفة الضيوف فتحة واحدة إضافية منخفضة ومتقوّسة تؤدي من غرفة الضيوف إلى غرفة الاستراحة الّتي كانت باللون البنفسجي الفاتح كبرج قلعة تتجه نوافذها إلى الجهة الأمامية من الحديقة إلى النخلتين إلى الشارع الهادئ وإلى بيت السيّد عجنون الذي انتصب تماما بالمقابل على الجهة الأخرى من الشارع.

غرفة الاستراحة كانت تسمى أيضاً غرفة التدخين (عند البروفيسور كْلاوْزنِر كان التدخين قبل غروب شمس يوم السبت ممنوعا، مع أن السبت لم يمنع دائماً العمّ يوسف من العمل بجدّ ونشاط على مقالاته). هنا انتصبت واقفة عدة أرائك ثقيلة ولينة بالإضافة إلى عدد من الكنبات المتحولة الّتي عليها وضع الكثير من الوسائد المطرزة على النمط الشرقي وسجادة كبيرة ولينة بالإضافة إلى لوحة كبيرة (ربما بريشة ماوريسي جوتليب؟) فيها يشاهد عجوز يهودي يلف على يده تفلين ويتوج رأسه بتفلين[1] الرأس ويلتف بالطليت (دثار الصلاة) وبيده كتاب مقدّس، إلا أن اليهودي العجوز لا يقرأ في الكتاب لأنّ عينيه مغمضتان وفمه مفتوح قليلا ووجهه يعبر عن معاناة شديدة ترافقها نفس متقشفة وروح شامخة. كان يخيل لي دائماً أن هذا المصلي اليهودي مطلع على جميع أسراري المخجلة ولكنه لا يصرخ موبخا لي ولكنه يحثني دون صوت على أن أقوّم مسلكي.

غرفة الاستراحة أو غرفة التدخين هذه، كانت تؤدي ثانية إلى غرفة نوم العمّ والعمّة البيضاء والمزينة برسوم الأزهار. هكذا كان البيت طوال طفولتي بمثابة لغز متاهة غير محلول جعلني - على الرغم من تأنيب والديّ- أركض أحياناً في البيت مثل كلب صغير لا يعرف الراحة محاولا المرة تلو المرة أن أفهم تركيبة غرف البيت، وأن أفهم كيف يرتبط الممر الخلفي بغرفة النوم والذي منه يمكن الوصول إلى غرفة الاستراحة المجاورة لغرفة الضيوف الّتي

---

(١) التفلين: هما مكعبان صغيران مكسوان بالجلد الأسود فيهما آيات من التوراة يضعهما اليهودي في صلاة الفجر في الأيام العادية الأول على أعلى يده اليسرى والآخر يطوق به رأسه (المترجم).

تفتح من جهة على مدخل المكتبة ومرة أخرى إلى الممر: لكلّ غرفة من غرف البيت بما فيها غرفة العمل وغرفة النوم كان بابان أو ثلاثة وبسبب ذلك كانت للبيت ميزة مثيرة، كالمتاهة، مثل مجموعة أزقة متشابكة ومفتوحة من الجهتين، أو مثل غابة، كان بإمكانك أن تتلوى وتدخل بثلاث أو أربع طرق مختلفة من بهو المدخل حتى مخدع الخادمة الخالي خلف المطبخ في عمق البيت. من هذا المخدع أو ربما من مخزن المؤن الذي بجانب المطبخ كانت هناك فتحة خروج خارجية إلى الشرفة الّتي منها يمكنك أن تنزل إلى الحديقة. الحديقة نفسها كانت متعرجة وملتوية متشابكة وكثيرة الطرقات المتفرعة والمخابئ المعتمة، شجرة خروب مريضة، ثخينة الجذع وثقيلة القمة كانت تظلل الحديقة، كانت هناك شجرتا تفاح وشجرة كرز وحيدة أيضاً، كمهاجر بائس، مصاب بالسل، حطّ به الترحال على غير رغبته، على حافة هذه الصحراء.

وهكذا، في حين كان البروفيسور كْلاوْزنِر وأخوه الصحفي المتواضع والإصلاحي الصهيوني، بتسالئل إليتسيدك، مراسل جريدة «همشكيف» وغيرهم من الضيوف من بينهم المثقف جرشون حورجين والباحث بن تسيون نتنياهو ووالديّ والجار المهندس المعماري السيّد كورنبرغ والأدباء يوحنان طبرسكي ويسرائل زارحي وحاييم تورن وغيرهم في حين كانوا يجلسون حول الطاولة السوداء الطويلة ويمحصّون - على كأس شاي من السموفر(١) شؤون العالم، كنت أنا أمر كشبح من غرفة إلى الممر إلى مخدع الخادمة إلى الحديقة ومرة أخرى إلى البهو وإلى المكتبة وإلى غرفة التدخين، ومرة أخرى إلى المطبخ وإلى الحديقة، ثائراً متحفّزاً باحثاً دون كلل أو وصب عن أيّ فتحة مهجورة لم اكتشفها بعد فيه تقودني إلى أعماق البيت الداخلي، السري، إلى البيت المخفي عن الأنظار، المستتر هناك بين حيطانه المزدوجة وبين تعرجات المتاهة المتشعبة، أو ربما تحته بين أساساته، وكنت ابحث أيضاً عن كنوز، اكتشف فجأة وجود درج مدفون تحت النباتات يؤدي على ما يبدو إلى

---

(١) وعاء للماء الساخن على شكل جرة يستعمل في روسيا (المترجم).

قبو - مخزن مغلق يمتد تحت الشرفة الخلفية، اكتشف جزراً غير معروفة، أضع في أطراف الحديقة خطوطا لنشر شبكة سكك حديدية في مسارات أرض وعرة.

أما اليوم فأعلم أن بيت العمّ يوسف والعمّة تسيبورة كان بيتا متوسطا، أصغر بكل تأكيد، من معظم الفيلات ذات المستويين أو الثلاثة الموجودة في مكان إقامتي في عراد: كان مكونا من غرفتين كبيرتين هما المكتبة وغرفة الضيوف، وغرفة نوم متوسطة وغريفتين صغيرتين ومطبخ ومنافع ومخدع للخادمة ومخزن. ولكن في طفولتي، عندما كانت القدس كلها تحتشد في بيوت مكونة من غرفة ونصف أو من غرفتين كان يقسمهما فاصل بين عائلتين متخاصمتين، بدا لي قصر البروفيسور كْلاوْزنِر مثل قصر السلطان أو قصر قياصرة روما، وأحيانا كنت قبل النوم اضطجع وأتخيّل في سريري بعث مملكة داوود والقصر الذي في تلبيوت تنتشر حوله كتائب الحراس العبرانيين. في سنة تسع وأربعين عندما رشّح مناحم بيغن باسم حركة «حيروت» (الحرية) العمّ يوسف مقابل ترشيح حاييم وايزمن لوظيفة رئيس دولة إسرائيل، رسمت بمخيلتي كيف سيحاط قصر- الرئاسة التابع للعمّ في تلبيوت بكتائب عبرانية من جميع جوانبه وحارسين متلألئين متألقين ينتصبان عند المدخل عن جانبيه تحت اللافتة الّتي تضمن لكلّ زواره بأنه توجد هنا يهودية وإنسانية لا تلغي الواحدة منهما الأخرى بل تصبحان شيئا واحدا.

«الولد المجنون عاد يركض في جميع أنحاء البيت،» كانوا يقولون عني، «انظروا إليه، رجاء، يركض ويركض، ذهابا وإيابا ينفث ويلهث، قد احمرّ جسمه، يتصبب عرقا كمن بلع زئبقا.» وكانوا يعنّفونني قائلين: «ماذا أصابك؟ هل أفرطت في تناول الفلفل الحار؟ أم أنّك تحاول عبثا الإمساك بذنَبك؟ هل أنت دوّامة الحانوكا (عيد الأنوار)؟ أم فراشة ليل؟ أم مروحة؟ ضيعت عروسك الجميلة؟ أم غرقت سفنك في البحر؟ إنّك تسبب لنا جميعا الصداع، كما أنّك تزعج تماما العمّة تسيبورة. ولذلك ربما تجلس هادئا بعض الوقت؟ لماذا لا تجد لك أخيرا كتابا جيدا تقرأ فيه؟ أو تفضل أن نعطيك ورقة وألوانا وتجلس هادئا ترسم لنا رسمة جميلة؟ أليس كذلك؟»

لكنني كنت قد جريت إلى الأمام متحمسا أمرّ وأشقّ طريقي في البهو والممر والمخدع اندفع إلى الحديقة ثمّ أعود مفكرا منفعلا تماما أتحسس وأدق بقبضة يدي على الحائط أحاول أن اكتشف فيها فراغات خفية أو غرفا محجوبة أو سراديب سرية، أو أقبية مدافن، أو أنفاقا، أو دهاليز، مخابئ سرية، أو أبوابا سرية محجوبة عن الأنظار. حتى اليوم لم أتنازل.

١٠

خلف زجاج البوفيه الغامق الموجود في غرفة الضيوف عُرض طقم أدوات مائدة مورّد، أباريق طويلة العنق، مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأدوات الزجاجية والخزفية - الصينية والبلورية، ومجموعة شمعدانات قديمة (خاصّة بعيد الأنوار- الحانوكا)، وصحون خاصّة بوجبة ليلة عيد الفصح. على سطح الخزانة ذات الأدراج وضع تمثالان غير كبيرين، تمثالان نصفيان من البرونز: بيتهوفن مضطربا يائسا، هائجا وغاضبا، أمام زئيف جابوتنسكي الهادئ قابض الشفتين والواقف هنا، معدنيا، متلألئا بكل بهاء بزّته، يعتمر قبعة كاسكيت خاصة بالضباط وحزاماً جلديّاً يوحي بالقوة والعظمة مشدوداً بشكل مائل على صدره.

على رأس الطاولة جلس العمّ يوسف وتحدث بصوته الناعم النسائيّ وهو يحثّ ويفنّد بما يشبه النشيج أحيانا. كان يتحدث عن وضع الأمة وعن مكانة الأدباء والباحثين وعن واجبات رجال الفكر وعن زملائه البروفيسورات الذين لا يتعاملون باحترام لائق مع أبحاثه واكتشافاته ومكانته العالمية، وهو من جهته أيضاً، بكلمات لطيفة، ليس معجبا كثيرا بهم، هذا إذا لم نقل بأنه يشمئزّ من ضيق آفاقهم المحدودة ومن تعقيباتهم وانتقاداتهم المنحطة والأنانية.

أحياناً كان يرقب مجالات السياسة العالمية، قلقا من مؤامرات عملاء ستالين في كلّ مكان وموقع، يسخر من انجلترا- ألبيون الخبيثة المنافقة الّتي تتظاهر بلباس التقوى والورع، يخاف من مكائد الفاتيكان الذي لم ولن يسلم

بتوطّد قوة اليهود في القدس خاصّة وفي أرض إسرائيل عامة، يعلق الآمال الحذرة على ضمير الدول الديمقراطية المتنورة، ينفعل ويتحفظ من أمريكا الّتي في أيامنا هذه على رأس جميع الدول الديمقراطية مع أنها هي نفسها مصابة بالسوقية وتقديس المال وهي خلو من العمق الثقافي والروحاني. وبشكل عام، كان أبطال القرن التاسع عشر محرّرين قوميين كبارا، كريمي النفوس، وذوي أخلاق رفيعة ومتنورين، غريبالدي، ابراهام لنكولن، جلادستون، بينما القرن الحالي يداس تحت جزمتي قتلة وسفّاحين، ابن الاسكافي الجورجي الجالس في الكرملين والمجنون، الحُثالة الذي سيطر على بلاد غوته وشيلر وكانت.

كان الضيوف يصغون إليه صامتين منصتين بإجلال وإكبار، أو يعبرون عن تأييدهم وموافقتهم بكلمات قليلة، هامسة، حتى لا يقطعوا حبل محاضرته. محادثات مائدة العمّ يوسف لم تكن محادثات بل مونولوجات انفعالية: كان البروفيسور كْلاوْزنِر من موقعه على رأس الطاولة ينتقد ويدين، يسرد ذكريات ويطلع جمهوره على وجهات نظره واعتراضاته ومشاعره في مواضيع مثل البؤس الدوني لقيادة الوكالة (اليهودية) المستكينة أمام الشعوب، ومثل مكانة اللغة العبرية الّتي تحاصرها العامية من جهة والكلمات الأجنبية من جهة أخرى لكي تقضيا عليها، ومثل حسد بعض زملائه البروفيسورات، ومثل انحطاط عالم الكتاب والشعراء الشباب وخاصة مواليد البلاد، والذين إلى جانب أنهم لا يجيدون أيّ لغة - ثقافة أوروبية فهم يتلعثمون في اللغة العبرية أيضاً، ومثل يهود أوروبا الذين لم يُعملوا فكرهم ويعوا إنذار جابوتنسكي التنبؤيّ ومثل يهود أمريكا الذين، الآن، وبعد هتلر ما زالوا يفضلون حياة الملذات (قدور اللحم) على الهجرة إلى البلاد.

بين الحين والآخر كان أحد الرجال- الضيوف يسأل أو يبدي ملاحظة كمن يضيف عود أسنان إلى المَشعَلة. وفي حالات نادرة كان هناك من يجرؤ على أن يعترض على شيء هامشي من أقوال ربّ البيت، بشكل عام أصغى الجميع بإجلال وتقدير وتلفظوا بكلمات تأييد مهذبة تدل على موافقتهم وارتياحهم أو ضحكوا في المواضع الّتي انتهج فيها العمّ يوسف أسلوب الغمز

واللمز أو نغمة تهكّم، إذ كان في مثل هذه الحالات يوضح دائماً: لم أقل ما قلته قبل لحظة إلا مازحا.

أما بالنسبة للنساء فهن لم يشتركن في المحادثة بل كن كمستمعات يهززن رؤوسهن بالموافقة والجميع يتوقعون منهن أن يتسمن في المواضع الّتي يليق بها الابتسام وأن تعبر أسارير وجوههن عن عمق استمتاعهن بدرر الحكمة الّتي ينثرها العمّ يوسف أمامهن بسخاء. بينما كانت العمّة تسيبورة تروح وتجيء بشكل دائم بين المطبخ ومخزن المؤن وغرفة الضيوف (لا أذكر أنها جلست ولو مرة واحدة حول الطاولة) تضيف الكعك إلى صحن الكعك وتكوّم المزيد من الفواكه على طبق الفواكه، تسكب الماء المغلي على الشاي من الإبريق الكبير المكوّر، تركض- مسرعة دائماً، مَريلة صغيرة على خاصرتيها، وعندما لم يكن عليها أن تسكب الشاي ولم يكن هناك أيّ شيء ناقص على الطاولة لا الكعك ولا الفواكه ولا حتى المربى الحلو الذي كان يسمى فارينيه، كانت العمّة تسيبورة تقف بجانب الباب الذي بين غرفة الضيوف والممر عن يمين العمّ يوسف وعلى بعد خطوتين أو ثلاث خلفه، يداها متصالبتان على بطنها، وكانت تنتظر أن ينقص شيء أو أن يحتاج أحد الضيوف شيئا ما، بدءاً من فوطة رطبة وحتى عود أسنان، أو أن يشير إليها العمّ يوسف بأن تتكرّم وتحضر له عن الزاوية اليمنى البعيدة أكثر لطاولة الكتابة في مكتبته مجلة «لشونينو» [لغتنا] أو مجلد ديوان أشعار يتسحاق لمدان الجديد الذي يريد أن يقتبس منه شيئا ما لدعم أقواله.

هكذا كان الترتيب المتبع في تلك الأيام: العمّ يوسف يجلس على رأس الطاولة يفيض بأحاديث الحكمة والجدّل والطرائف والعمّة تسيبورة تقف على رجليها بمريلتها الناصعة تقدم التضييفات أو تنتظر أن يحتاجوا إليها. ومع ذلك فقد كان العمّ والعمّة مرتبطين كلّ منهما بالآخر، مخلصين كلّ منهما للآخر، ينضحان حبا، عجوزين مريضين عاقرين، هذا يعامل زوجته كأنها طفلة ويغمرها بكلمات المحبة والاستلطاف وهذه تعامل زوجها كأنه ابنها الوحيد، ربيبها، تلفه دائماً بالمعاطف والشالات كيلا يبرد وتسقيه بيضا غير ناضج مخلوطا بالحليب والعسل كي تعتني بحلقه.

في إحدى المرات رأيتهما بالصدفة يجلسان ملتصقين على السرير في غرفة نومهما، أصابعه الشفافة في يدها وهي تقص له أظافره بلطف وتهمس له أثناء ذلك بكلمات حب ودلال باللغة الروسية.

*

من بين ضيوف السبت في بيت البروفيسور كْلاوْزنِر أتذكر بشيء من الضبابية، الشاعر المتحمس ذا الشعر الأحمر أوري تسفي غرينبرغ، الذي خيل إليّ أنه لولا أن قبض بقوة بكلتا يديه بذراعي الكرسي حتى ابيضت مفاصل أصابعه، لكان ارتفع وعام في الهواء فوقنا لشدة حماسه وغضبه المقدس. وشالوم بن باروخ وزوجته والدكتور يوسف ندافا والدكتور بن تسيون نتنياهو وولداه الصغيران، اللذان ركلت أحدهما مرة بكل قوتي عندما كنت في الثالثة عشرة تقريبا، لأنه كان يزحف تحت الطاولة ويفك لي رباط حذائي ويشدّ أهداب بنطلوني (حتى الآن لا أعرف إذا كنت ركلت الأخ البطل أم الأخ النشيط). وأحيانا كان هناك الدكتور باروخ شوخطمن وزوجته الفنانة، والبروفيسوران دينور وطور- سيناي (اللذان كان اسماهما في السابق دينبرغ وطورطشينر)، جدّتي شْلوميت الّتي تمقت الميكروبات وجدّي أَلِكْسَنْدِر محبوب النساء، واصغر الأخوة الثلاثة العمّ بتسالئل إليتسيدك قصير النظر مع زوجته حاية الّتي بعد موت العمّة تسيبورة انتقلت بموافقة زوجها لتسكن مع العمّ يوسف («لكيلا يهلك إذ أنه لا يستطيع أن يصب لنفسه كأس حليب بقواه الذاتية أو أن يفك ربطة عنقه في المساء»).

بالإضافة إلى هؤلاء حلّ ضيوف آخرون لتناول كأس شاي بعد ظهر السبت ومنهم باروخ كارو، وهو السيّد كروبنيك الدمث اللطيف، والشاعر- المترجم يوسف ليختنبويم، وعدد من كبار طلاب ومعجبي العمّ يوسف مثل شموئل فيرسس وحاييم تورن، ويسرائل زارحي، وتسفي فيسلافسكي، ويوحنان بوجربينسكي، ويوحنان طبرسكي، ومعهم أبي أيضاً، يهودا آرييه كْلاوْزنِر، «ابن أخي العزيز كابن لي»، كما كتب العمّ يوسف في كلمة الإهداء الّتي كتبها على كتابه «ينتجون ويبنون» الذي أهداه لوالدي. كان قلبه يميل إلى

إهداءات انفعالية: في كلّ سنة منذ بلغت التاسعة أو العاشرة كان يقدم لي في عيد ميلادي مجلدا واحدا من «موسوعة الشباب» وعلى أحد المجلدات كتب بخط مائل إلى الوراء كأنه ارتدع:

إلى عاموس الصغير، المثابر والموهوب
بمناسبة عيد ميلاده
مع أطيب التمنيات من أعماق قلبي بأن يكبُر ويصبح مفخرة لشَعبه
من العمّ يوسف

القدس = تلبيوت، عيد الشعلة لعام ٥٧١٠ الموافق ٥/٥/ ١٩٥٠م

أنظر الآن، بعد مضي أكثر من خمسين سنة، إلى هذا الإهداء وأتساءل ماذا، في الحقيقة، عرف عني العمّ يوسف الذي اعتاد أن يضع يده الصغيرة الباردة على خدي ويحقّق معي، وشاربه الأبيض يبتسم إليّ برفق، ماذا قرأت في الفترة الأخيرة وأيّ كتبه أكملت قراءتها، وماذا يتعلم أطفال إسرائيل في هذه الأيام في المدارس، أيّ قصائد بياليك وتشرنيحوفسكي حفظت غيبا وبأي أبطال التوراة أنا معجب جدّاً، ودون أن ينتظر إجابتي كان يرى من المناسب أن يخبرني بأنه هو نفسه كتب عن الحشمونائيم في «تاريخ الهيكل الثاني» ما يجدر بي أن أتعرف إليه وأن أتعلمه، بينما عن مستقبل الدولة من الجدّير بي أن أقرأ أقواله الحازمة في المقال الذي نشر أمس في «همشكيف» أو في المقابلة الّتي منحها هذا الأسبوع لـ«هبوكِر». في الإهداء نفسه شكل بعض الحروف فوضع الضمة على باء يكبر والفتحة على شين لشعبه وتفنّن في كتابة الفاء آخر حرف في اسمه حتى بدت مثل علم يرفرف بفعل الرياح.

في إهداء آخر كتبه على الصفحة الأولى من مجلد ترجمات دفيد فريشمن يتمنى لي بضمير الغائب:

لينجح في طريق الحياة
وليتعلم من أقوال الكبار المترجمة في هذا الكتاب
إذ يجب السير في الطريق الذي يمليه الضمير

وليس القطيع البشري- الأغلبية المسيطرة في تلك الساعة
من محبّه
العمّ يوسف
القدس = تلبيوت، عيد الشعلة لعام ٥٧١٤ الموافق ٢١/٥/ ١٩٥٤م

عندما كنت في الخامسة عشرة تقريبا قررت أن اترك البيت وأن أعيش في الكيبوتس. تأملت أن أصبح سائق جرار مسفوعا، قويا، طلائعيّا- اشتراكيا خاليا من العقد ومتحررا إلى الأبد من المكتبات ومن سعة الاطلاع ومن الحواشي (هوامش الكتب). لم يؤمن العمّ يوسف بالاشتراكية الّتي كان يسميها في كتبه «سوسياليسموس» (بدلا من سوسياليزم) كما أنه لم يحب الكيبوتسات وإلخ، وقد أمل في أن يقنعني بالعدول: فقد دعاني إلى محادثة وجها لوجه في غرفة مكتبته، وليس في يوم السبت - كالعادة- بل في أحد أيام وسط الأسبوع. لقد استعددت لهذه المحادثة بتفكير عميق وقد حضرت سلسلة من المبررات وقد نويت أن أقف أمامه بشجاعة وأن ألوّح أمامه بـ«الطريق الذي يمليه الضمير وليس القطيع البشري»- ولكنني أخبرت بأنه لمزيد أسفه طرأ في اللحظة الأخيرة أمر عاجل ولذلك فهو لا يستطيع وسيعود قريبا إلى دعوتي إلى محادثة وإلخ.

وهكذا ذهبت لأعيش حياة طلائعيّ فلاح في كيبوتس حولدا بدون مباركة من العمّ يوسف وكذلك بدون مواجهة ثاقبة كنت قد أعددت نفسي فيها لأقوم بدور داوود أمام جالوت أو دور الولد الصغير في أسطورة ملابس الملك الجديدة.

*

غالبا ما كنت اطلب بأدب الإذن بمغادرة مائدة المعجّنات، والفسيخ، والليكر (العنبريّ) وكعكة اللبنة والشاي المتبّل بمختلف التوابل، الّتي كان العمّ يوسف يجلس على رأسها ويديرها بحزم وقوة، لكي استسلم لجولاتي الحماسية في متاهات البيت وأعماق الحديقة، حديقة طفولتي ذات المسارب المتشعبة. ومع ذلك أذكر بعض مونولوجات العمّ يوسف: كان يحب أن

يبحر إلى أوديسا أو إلى وارسو ويحكي من ذكرياته عن خطابات هرتسل وعن الجدل حول أوغندا والكتلة الديمقراطية، وعن هايدلبرغ الجميلة وعن جبال سويسرا الشامخة، وعن «هشيلواح»[1] وعن خصومه، وعن جولته الأولى في أرض إسرائيل في سنة ١٩١٢ وعن هجرته إلى البلاد في باخرة روسلان في سنة ١٩١٩، وعن جرائم «البُلشُفيسموس» وعن خطر «النهيليسموس» (العَدَمِيّة. النِّهْلستيّة)، وعن مصادر «الفاشيسموس» (الفاشية) وعن فلاسفة اليونان وشعراء الأندلس، وعن بداية الجامعة العبرية وعن أحابيل «المتهلّنين» (أرباب الثقافة الهيلينية، هكذا كان يلقب أحياناً خصومه ومن يبغضهم مثل البروفيسور مغنس رئيس الجامعة وبقية البروفيسورات خريجي ألمانيا الذين أقاموا «بريت شالوم» وسعوا من أجل الاتفاق مع العرب ولو كلفهم ذلك التنازل عن المطالبة بإقامة دولة عبرية)، وعن عظمة هرتسل، ونورداو وزئيف جابوتنسكي إزاء حقارة الزعماء الوهميين الذين يتمرغون عند أقدام الانجليز، أنواع مختلفة من «السّنبَلاطيين» (الخونة) وغيرهم ممن ضلوا الطريق وساروا وراء سراب الاشتراكية على أنواعه. كما كان أحياناً يبحر إلى أعجوبة إحياء اللغة العبرية وإلى خطر تدميرها وفسادها، وإلى ضمور المتزمتين الذين لا يستطيعون حتى التلفظ بجملة عبرية واحدة بدون سبعة أخطاء، وإلى وقاحة اليديشيين الذين يطالبون لأنفسهم بموطئ قدم هنا أيضاً في أرض إسرائيل الّتي عملوا كلّ جهدهم لتشويه سمعتها وحتى لإخراجها من قلوب أبناء شعبنا. وقد عرض ذات مرة على مسامع مستمعيه الضرورة الملحة جدّاً لتوطين مزارعين يهود في جميع أرجاء شرقيّ الأردن أيضاً، وفكّر بصوت مرتفع في احتمال إقناع عرب البلاد بالتي هي أحسن وبإغراءات مالية لأن يهاجروا بمحض إرادتهم إلى بلاد ما بين النهرين الغنية والخصبة وشبه الخالية.

*

في كلّ موضوع تقريبا اعتاد العمّ يوسف أن يرسم أمام جمهوره

(١) مجلة شهرية صدرت في أوديسا ١٨٩٦ - ١٩٢٠ ثمّ في القدس ما بين ١٩٢٠- ١٩٢٧ حررها في القدس يوسف كْلاوْزنِر (المترجم)

معسكرين متخاصمين، معسكر النور ومعسكر الظلام، وكان يصف كيف أنه كان هو نفسه أحد الأوائل إذا لم يكن الأول فعلا الذي ميّز بين الظلام والنور، وشجب من يستحق الشجب وكافح وحيدا أمام كثيرين كفاح أصحاب الحقّ وكيف أن اقرب المقربين إليه همسوا في أذنيه طالبين ألا يغامر باسمه وألا يقامر بمكانته، وكيف أنه لم يأخذ برأيهم بل على العكس قام وانتصب في المقدمة حيث أراد له ضميره أن يقف، بمثابة «هنا أنا واقف ولا أستطيع غير ذلك»، وكيف شوّه مبغضوه سمعته وأساءوا إليه بكل طريقة شرعية وغير شرعية وصبوا عليه كؤوسا من السموم والعلقم ولكن الحقيقة ظهرت في نهاية المطاف، بمثابة «ستكشف لك الأيام ما كنت جاهلا»، وفي النهاية يتضح دائماً أن الأقلية هم الذين على حقّ وليس «الحقّ دائماً مع الأكثرية» بل الضمير هو الذي يعلو ولا يُعلى عليه: ها هو الولد الصغير عاموس معنا هنا، وهو ولد ذكي وممتاز لا مثيل له مع أنه يثير ضجة كبيرة بأعمال الطيش والشقاوة، الابن الوحيد لفانيا ويهودا آريه العزيزين، أولم يتسمَّ باسم معجّل نضوج ثمار الجمّيز من تكواع الذي دفعته روحه لأن يقف في وجه جميع وجهاء السامرة وأن يصرخ بهم بلغة بياليك «رجل مثلي لا يهرب. بقَري علّمني أن أمشي الخطوات هُوَينا»،[1] كلمات تحمل، بالإضافة إلى الشجاعة وانتصاب القامة الأخلاقية، شيئا من السخرية الدقيقة، كنوع من التحدي القروي- الشعبي في وجوه أنواع مختلفة من الطغاة المستبدين.

وبالمناسبة معجل نضوج ثمار الجميز يقوم بذلك عن طريق جرح وخدش حبّ الجميز بسكينه الأمر الذي يؤدي إلى تعجيل نضوجه، وأظنني لا أبالغ إذا قلت لكم بأنني أنا نفسي ساعدت قليلا اليعيزر بن يهودا في حينه للربط بين هذه الكلمة (بولِس) الّتي تظهر مرة واحدة في التوراة وبين كلمة (بَلوس) الّتي تعني غير نظيف، مخلوط، غير صافٍ، ممزوج، مختلط وأحيانا ملوّث أو ملطّخ ومليء بالنخالة، unrein mixed, unclean, malpropre, mede, gemischt، وعبثا أجهد الحكماء كرويس وكوهوت

(١) من قصيدة «قم يا نبي اهرب» - ترجمة راشد حسين (المترجم)

وليفي أنفسهم في البحث عن أصل فارسي أو يوناني، جاء تفسيرهم واهيا إذا لم نقل بأنه مصطنع كلية. ولكن كيف وصلنا فجأة إلى كرويس وكوهوت؟ وقد تحدّثنا عن إليعيزر بن يهودا الذي زارني في صباح أحد أيام السبت وقال لي، اسمع يا كْلاوْزِنِر، ألسنا نعلم أنا وأنت بأن سر حيوية اللغات الحية يكمن في كونها تستقبل كلمات وتعابير من كلّ ما يسنح لها تقريبا وتهضمها بكليتها وتخضعها إلى منطق اللغة المستقبلة وعلم صرفها (مورفولوجيتها)، وهاهم الداعون لصفاء اللغة ضيقو الأفق على مختلف أنواعهم يقفون بغبائهم لحماية لغتنا من دخول أيّ كلمات غريبة إليها، وهم لا يدركون أو أنهم لا يذكرون إلى أيّ مدى مشبعة لغتنا من البداية بكلمات دخلتها من نصف دزّينة من اللغات دون أن يظهر عليها، في حين أنه يمكن تحصين وحماية كلّ لغة حية ولغتنا المتجددة بالذات، هكذا أجبت بن يهودا، في تحصين البنى الأساسية والنحو ومبنى الجملة وترتيبها وباختصار في روح اللغة الـ "geist" الخاص بها، الـ "esprit"، جوهرها الأبدي الذي لا يتغير، كما سبق وكتبت قبل عشرات السنوات في كراستي «اللغة العبرية لغة حيّة» وعدت ونشرته هنا في أرض إسرائيل بصيغة جديدة وتحت عنوان جديد، وقد سمعت من عدد من الأشخاص المهمين بأن مقالتي هذه هي الّتي فتحت عيونهم وضبطت «ساعتهم اللغوية» - وقد سمعت بأم أذني جابوتنسكي نفسه وكذلك من عدد من العلماء الألمان الخبيرين بأسرار اللغة العبرية القديمة قبل أن تبعدني الفاشية والنازية عن الاقتراب أو ملامسة أيّ شيء تفوح منه رائحة ألمانيا، وليس كما تصرف، لأسفي ولخجلنا، عدد من زملائي من مدرسة «بريت شالوم» الذين أدخلوا إلى جامعتنا روحا ألمانية- سلمية روحا أمميّة وغير قومية، وهم يسارعون- يركضون الآن إلى منح ألمانيا تكفيرا عن خطاياها مقابل حفنة من الماركات أو مقابل تشريفات تيوتونية (ألمانية)، حتى أن جارنا الأديب الذي على الجهة المقابلة من الشارع انجرف وراء هؤلاء المتسامحين، ومن المحتمل أنه انضمّ إليهم لأنه بذكائه عمل حساباته واعتقد أنه بانضمامه إلى فرقة «بريت شالوم» سيجني تقدير شعوب العالم وتزداد شهرته بين الأمم.

ولكن كيف ضُلّلنا ووصلنا إلى ألمانيا وبوبر وماغنس و عجنون وإلى

مباي (حزب عمال إسرائيل)؟ ألم نكن نتحدث عن النبي عاموس الذي أنوي أن أكرس له مقالا سيقلب رأسا على عقب عددا من الكليشيهات البالية، إذا لم أقل الكاذبة الّتي مصدرها رجال حكمة إسرائيل الذين لم يدركوا منذ البداية وجودها لدى أنبياء إسرائيل-

في حين أن علماء الدراسات اليهودية، الذين هم، في عصرنا، بمثابة «بقرات الباشان» القانعة والمغرورة والمتغطرسة - ها هو، على سبيل المثال، عملاق من درجة بيرتس سمولَنسكين، ماذا كانت حياته؟ تشرّد وفقر، معاناة وعوَز، وهو قد كتب وكافح حتى لفظ آخر أنفاسه، وكانت نهايته أن مات في وحدة مروّعة وفظيعة، ولم يكن معه أحد عند خروج روحه-

وهل كان أفضلَ نصيب صديقي وصاحبي من أيام الصبا، أكبر شعرائنا في الأجيال الأخيرة، شاؤول تشرنيحوفسكي؟

ألم تكن هنا في البلاد أيام كان فيها الشاعر المرموق جائعا للقمة الخبز، بكل ما تعنيه هذه الكلمة؟

وبشكل عام، منذ بداية طريقي في الأدب وحياتنا العامّة وحتى يومنا هذا، كنت أرى دائماً وما زلت بأن أساس قوة وعظمة الأديب يكمن في أسلوبه المثير للعاطفة في حربه الدائمة ضدّ الموجود والمألوف! صحيح أن القصة الجميلة والقصيدة الرقيقة هما شيئان جميلان يوسعان المعرفة ولكنهما لم يصلا بعد ليكونا عملا كبيرا. يتوقع الشعب من العمل الكبير أن يشمل بشارة، نبوءة، وجهة نظر جديدة ومنعشة، وفوق هذا كله- أن يتضمن هذا العمل رؤيا أخلاقية.

إذ أن العمل الخالي من العواطف والرؤيا الأخلاقية ليس في نهاية الأمر، وفي أحسن الحالات، إلا فولكلورا وزخرفا وتحفة جميلة ولكنها لا تقدّم ولا تؤخّر، مثل قصص عجنون الّتي تجد فيها أحياناً بعض الجمال وفي معظم الأحيان لا تجد فيها لا جمالا ولا أيّ حماس أخلاقي بل نوعا من التملق لاستجداء الإعجاب، وهي تخلو بكل تأكيد من الروح، كما تخلو بكل تأكيد من الدمج الثاقب بين الشهوانية المأساوية والتدين المأساوي، كما لا يوجد

أيّ ذكر للعواطف الأخلاقية عند عجنون وأمثاله، بينما هي موجودة في نثر شنيئور، بالمقابل.

وبشكل عام، يمكننا القول أنه عند كلّ مبدع كبير يوجد قيراط واحد من ستين قيراطا من الوحي وقيراط واحد من ستين قيراطا من النبوّة: أولم يصف تورجنييف في روايته الرائعة «الآباء والبنون» شخصية العدميّ (النّهلستي) بزاروف قبل أن تظهر نظرية العدمية في روسيا؟ ودوستويفسكي؟ أوليست «عفاريته» تبشّر بدقة تنبؤية عجيبة فعلا مجيء البُلشفية؟

لم نعد بحاجة إلى الأدب البكائي ولقد أرهقتنا أوصاف جو البلدة من أيام مندلي كما شبعنا مواد إنسانية كلها من المتسولين وطلاب المدارس الدينية الطفيليين والخرقاء وغيرهم من العاطلين ذوي الجدّل الأجوف، بل نحتاج اليوم هنا في بلادنا إلى أدب جديد حقا، أدب يكون أبطاله نماذج من النساء والرجال الفعّالين لا السلبيين، بطلات وأبطال ليسوا، لا سمح الله، بمثابة مثل عليا أدبية سطحية بل أشخاصا من لحم ودم، ذوي غرائز قوية وذوي ضعف مفجع وحتى ذوي تناقضات داخلية ثاقبة، شخصيات يستطيع شبابنا أن يعجبوا بها، وأن يتربّوا على منهاجها وأن يستوحوا الأفكار من أفكارها وأعمالها، أبطال وبطلات من أبناء جيلنا أو أيضاً شخصيات ملحميّة ومأساوية تثير الاشمئزاز والشفقة. نحتاج الآن في بلادنا إلى أبطال أدبيين عبرانيين وأوروبيين لا مجرد وسطاء زواج ومهرجين ونشطاء مصالح وزعماء ومتسولين مهجرين فولكلوريين.

*

ذات مرة قال العمّ يوسف ما يلي على وجه التقريب:

«ها أنا أيّها السيّدات والسادة أعيش وحيدا بدون أولاد، أوليست كتبي هي أولادي، لها كرّست كلّ جهودي، وبعد موتي هي وهي فقط ستحمل روحي وأحلامي إلى الأجيال القادمة.»

وحول ذلك علّقت العمّة تسيبورة قائلة:

«هيا. أوسيا. كفاك. أوسينكا. كفى. كفى. ألم يأمرك الأطباء بعدم

الانفعال. وكأس شايك فتر في هذه الأثناء حتى أنه أصبح باردا تماما. لا، لا يا عزيزي، أنت لن تشرب من هذا الشاي سأسكب لك فوراً شايا جديدا.»

قد يحدث للعم يوسف أن يدفعه غضبه من نفاق ودناءة خصومه إلى أن يرفع صوته، إلا أن رفع صوته لم يتحول أبداً زئيراً بل كان أشبه بصفير عالٍ، مثل امرأة باكية وليس مثل نبي نذير معنّف وساخر. كان يحدث أحياناً أن يخبط سطح الطاولة براحة يده الهشّة إلا أن خبطته تخرج كما التربيتة. في إحدى المرات عندما كان يشجب البلشفية أو حزب البوند[1] أو ناشري اللهجة اليهودية - الأشكنازية (هكذا كان يسمي لغة الإيديش) قلب وسكب على ركبتيه إبريق عصير ليمون مع مكعبات ثلج، فسارعت العمّة تسيبورة الّتي كانت تقف وراء كتفيه بجانب الباب لتنشف وانحنت وأخذت تنشّف بنطلونه بمريولها، ثمّ اعتذرت وأوقفته وقادته إلى غرفة النوم وبعد عشر دقائق عادت به وقد بدّل ملابسه وكان جافا ونظيفا ولامعا إلى أحضان أحبائه الذين بقوا ينتظرون جالسين بأدب حول الطاولة ويتحدثون بصوت منخفض عن مضيفَيهم اللذين يعيشان مَعاً كزوجين من الحمام حقا: فهو يعاملها كـ«آخر العنقود» وهي تعامله كطفل سلوتها وكبؤبؤ عينها. ويحدث أن تشبك أصابعها اللّحيمة مع أصابعه الشفافة وللحظة ينظر كلّ منهما إلى الآخر وفورا يحوّلان نظراتهما إلى أسفل ويبتسم كلّ منهما لنفسه بحياء.

ويحدث أن تفك بلطف ربطة عنقه وتساعده على خلع حذائه وتضجعه على الأريكة ليستريح لبعض الوقت، رأسه الحزين ملقى على صدرها وجسمه الصغير يحتضنه جسمها الممتلئ. أو أنها تقف وحيدة في المطبخ تنظف الأواني وتبكي بدون صوت وهو يتسلل من ورائها واضعا راحتيه الورديتين على كتفيها ويأخذ في إسماعها سقسقة وقهقهة وهو يغمز بعينيه كمن يحاول أن يهدئ من روع طفلة أو كمن يتطوع ليكون طفلا لها.

---

(١) حزب يهودي اشتراكي أقيم في شرق أوروبا سنة ١٨٩٧ (المترجم)

١١

ولد يوسف كْلاوْزنِر سنة ١٨٧٤ في بلدة أولكِنيكي في لِتوانيا وتوفي في القدس في سنة ١٩٥٨. عندما كان في العاشرة انتقل الكْلاوْزنِريون من لتوانيا إلى أوديسا حيث فيها انتقل من «الكُتّاب» إلى المدرسة الدينية المتطورة ومنها إلى أوساط «حيبات تسيون» (محبة صهيون) وإلى دوائر آحاد هعام. عندما كان في التاسعة عشرة نشر مقاله الأول، بعنوان «كلمات جديدة وكتابة صحيحة» وفيه طالب بتوسيع حدود اللغة العبرية، وحتى عن طريق إدخال كلمات أجنبية، حتى تتمكن من أن تصبح لغة حية. في صيف ١٨٩٧ سافر ليدرس في جامعة هايدلبرغ لأنّ الجامعات في روسيا القيصرية كانت مغلقة في وجه اليهود. طوال خمس سنوات في هايدلبرغ درس الفلسفة عند البروفيسور كونو فيشر، وقد شدّه موضوع تاريخ الشرق بصيغة رينان، وقد تأثّر حتى أعماق نفسه بكارلايل. سنوات دراسته الخمس في هايدلبرغ تشعبت من الفلسفة والتاريخ إلى تاريخ الأدب وإلى اللغات السامية (كان يجيد حوالي خمس عشرة لغة، منها السنسكريتية، والعربية واليونانية واللاتينية والآرامية والفارسية والأمهرية)، بالإضافة إلى ذلك تعلم هناك الدراسات الشرقية.

تعلّم تشرنيحوفسكي، صديقه من أيام أوديسا، في تلك السنوات الطبّ في هايدلبرغ مما عمّق صداقتهما وحولها إلى علاقة روحانية حميمة وخصبة: «شاعر متوهّج» كان العمّ يوسف يقول عنه، «شاعر- نسر عبري جناحه الأول يلامس التوراة ومناظر أرض كنعان والآخر مفتوح فوق أرجاء أوروبا الحديثة!» وأحيانا كان يقول عن تشرنيحوفسكي: «روح طفل بريء ونقي

تسكن داخل جسم قوي كجسم قوزاقيّ!».

فاز العمّ يوسف في أن يكون مندوبا يمثل الطلاب اليهود في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، وفي المؤتمرات الّتي تلته، وفي إحدى المرات حالفه الحظ ليتبادل مع هرتسل نفسه بعض الكلمات «كان رجلا جميلا! مثل الملاك! بشرة وجهه كانت تشع نورا من الداخل! كأحد ملوك آشور القدامى بدا لنا بلحيته السوداء ووجهه المليء بالروحانيات والأحلام! وعيناه، سأتذكر عينيه حتى آخر يوم في حياتي، كانت عينا هرتسل عيني فتى - شاعر عاشق، عينان متقدتان وحزينتان تسحران كلّ من ينظر إليهما. كما أن جبينه العالي أضفى عليه عظمة الملوك!».

سرعان ما توقف كْلاوْزنِر عن الاكتفاء بصهيونية استاذه، آحاد هعام الروحانية وتمسّك حتى آخر حياته بصهيونية هرتسل السياسية، الّتي استمرت، حسب رأيه، عند نورداو[1] وجابوتنسكي، «النسرين» وليس عند وايزمن وسوكولوف وبقية «الناشطين - المتهاونين المهجريين». ومع ذلك لم يتردد في الوقوف ضدّ هرتسل أيام جدل أوغندا وأن يؤيد «صهاينة صهيون» ولم يتنازل عن حلم النهضة الثقافية والروحانية الّتي بدونها لم يرَ أيّ معنى للجهد السياسي.

مع عودته إلى أوديسا اشتغل كْلاوْزنِر بالكتابة والتعليم والنشاط الصهيوني حتى ورّثه آحاد هعام، وهو ابن تسع وعشرين سنة، تحرير «هشيلواح» وهي مجلة الثقافة العبرية الجديدة الرئيسية. وإذا أردنا التدقيق فقد ورث آحاد هعام لكْلاوْزنِر «رسالة دورية» ويوسف الشاب حولها فوراً إلى «شهرية» عن طريق خلق الكلمة العبرية «يرحون» (شهرية).

في طفولتي كنت معجبا بالعمّ يوسف أكثر من أيّ شخص سواه وذلك لأنه، هكذا قالوا لي، خلق وجدد عدة كلمات يومية بسيطة، كلمات يخيل لنا وكأنها كانت موجودة ومعروفة منذ الأزل منها كلمة يرحون (شهرية)، وعبرون

---

(١) ماكس نورداو الاسم الأصلي لمنير سمحا زيدفيلد ١٨٤٩ - ١٩٢٣ زعيم وكاتب صهيوني من مساعدي هرتسل (المترجم).

(قلم رصاص) وقرحون (جليد)، حولتسا (قميص)، حمَماه (دفيئة)، تسنيم (خبز مقمّر)، مطعان (حمل)، حدجوني (أحاديّ اللون)، رافجوني (متعدد الألوان)، حوشاني (شهوانيّ)، منوف (رافعة)، كرناف (وحيد القرن) (وماذا، عمليا، كنت سألبس كلّ صباح لولا أن منحنا العمّ يوسف كلمة «قميص»؟ ربما جلبابا؟[١] وبما كنت لأكتب لولا قلمه؟ بمنقاش رصاص؟ ناهيك عن الشهوانية الّتي وهبنا إياها عمي المتزمت المتطهر).

الشخص الذي يستطيع أن يصنع كلمة جديدة ويدخلها إلى دورة اللغة الدموية أرى أنه أقلّ بقليل من خالق النور وصانع الظلام: إذا كتبت كتابا قد يحالفك الحظ ويقرؤه الناس لمدة طويلة حتى تُكتب كتب أحدث منه وأفضل تحتل مكانه؛ ولكن كلّ صانع كلمة جديدة فهو كمن يلامس الخلود. حتى الآن أغمض عينيّ أحياناً فأرى ذلك الشخص الشائب النحيف - الهشّ، شارد الذهن، يعبث بذقنه الأبيض المستدقّ، وبشاربه الناعم، ويديه اللطيفتين، ونظارته الروسية، يمرّ بخطواته الخزفية المترددة مثل جوليفر صغير في بلاد العمّالقة الّتي توجد فيها جمهور كبير ومتنوع من المَجلَدات العظيمة والرافعات الشاهقة والكركدنات سميكة الجسم، وكل الرافعات والكركدنات والمجلدات وهي تنحني له شاكرة بأدب.

*

في أوديسا في شارع ريميسلينايا، تحول بيته وبيت زوجته فاني فايرنيك (والتي منذ زواجهما أصبح اسمها «تسيبورة العزيزة»، وفي حضور الضيوف كان يدعوها دائماً «السيّدة كْلاوْزنِر»)، ليصبح شبه نادٍ ثقافيّ وملتقىً للصهيونيين ورجالات الأدب، مندلي وناحوم سلوشتس، ليلاينبلوم واحاد هعام، أوسيشكين وجابوتنسكي، وبياليك وتشرنيحوفسكي. وعندما انتقل الكْلاوْزِنِر يون مع هيئة تحرير «هشيلواح» إلى وارسو واستقروا هناك في شارع تسيجليانه، على بعد منزلين من بيت يتسحاك ليبوش بيرتس، كانوا

(١) كتونت بسيم (جلباب) - كما ورد في قصة يوسف في التوراة تكوين ٣٧ :٣ (المترجم).

يستضيفون، على فنجان شاي وكعك ومعجنات وأنواع مختلفة من المربى البيتي، يتسحاك ليبوش بيرتس وشالوم آش ونومبرغ وفريشمن وبيركوفيتش وشتاينبرغ ويعكوف فيخمن وشنيؤور- وكأن جميع شوارع تل أبيب قبل أن تصبح شوارع، أحبت أن تجتمع مَعاً وتنضم إلى طاولة مونولوجات العمّ يوسف. (بالمناسبة اعتاد العمّ يوسف أن ينادي دائماً زلمن شنيؤور، لسبب لا أعرفه، باسم زلكيند شنيؤور، وأحيانا كان يناديه بتحبب باسم بطل روايته باندري البطل. أذكر شنيؤور وسواد ذقنه الأشوري الكثيف: ذات مرة في سنة واحدة وخمسين أو اثنتين وخمسين أخذني أبي معه لسماع محاضرة شنيؤور في بناية التيراسانطة، وهذا ما قاله هناك الشاعر «العصور الوسطى تقترب» وباغتباط واعتزاز المنتصرين أضاف: «من بين عمالقة الشعر الثلاثة في عصرنا بياليك شنيئور وتشرنحوفسكي بقينا في الحياة أنا فقط!»)

العمّ يوسف أيضاً كانت تغمره دائماً مشاعر الابتهاج شبه الصبيانية: وحتى عندما كان يتحدث عن حزنه، وعمق عزلته، أو عن مبغضيه، أو عن أوجاعه وأمراضه، عن المصير المأساوي لمن يسبح ضدّ التيار، أو عن الحيف والإهانات الّتي لحقت به طوال مشواره في الحياة، كانت دائماً تومض فرحة تختبئ وراء نظارته المستديرة. وعندما كان يحكي عن آلام أرقه كانت حركاته وعيناه الفاتحتان ووجنتاه الورديتان اللتان تشبهان وجنتي الطفل تعبر عن نضارة جذلة متفائلة تحب الحياة ومحبة للذات إلى حد ما: مرة أخرى لم يغمض لي جفن طوال الليل، كان دائماً يقول لجميع ضيوفه، مشاكل الأمة ربضت على صدري في الظلام، القلق على المستقبل، عدم إدراك القادة الأقزام أقلقتني أكثر مما تقلقني مشاكلي الخاصّة، الفظيعة، هذا عدا آلام الكبد وصعوبة التنفس والصداع النّصفي المؤلم الذي لا يفارقني ليل نهار» (إذا سلمنا بأقواله فإنه يبدو أنه لم يغمض له جفن ولو للحظة واحدة على الأقل منذ بداية سنوات العشرينات وحتى يوم وفاته في سنة ١٩٥٨).

بين عامي ١٩١٧ وَ ١٩١٩ عمل كُلاوْزنِر محاضرا ثمّ بروفيسورا في جامعة مدينة أوديسا الّتي كانت تنتقل من سيادة إلى أخرى نتيجة لحروب شرسة بين «البيض» و«الحمر» في الحرب الأهلية الّتي اعقبت ثورة لينين. في

سنة ١٩١٩ أبحر العمّ يوسف والعمّة تسيبورا ووالدة العمّ العجوز، هي أم جدّي روشا- كايلا لبيت براز، من أوديسا إلى يافا بسفينة روسلان هي الـ«مايفلاور» الصهيونية للهجرة الثالثة، وفي عيد الحانوكا (الأنوار) استقروا في حي البخاريين في القدس.

أما جدّي أَلِكْسَنْدِر وجدّتي شْلوميت ومعهما والدي الصغير وأخوه البكر دافيد فلم يذهبوا إلى فلسطين مع أنهم كانوا صهيونيين متحمّسين، إلا أن ظروف الحياة في البلاد بدت لهم آسيوية أكثر من اللازم لذلك توجهوا إلى فيلنا عاصمة ليتوانيا ولم يصلوا إلى البلاد حتى سنة ١٩٣٣ الّتي تزايدت فيها الأعمال المعادية للسامية وقد شملت أعمال عنف وتنكيل بالطلاب الجامعيين اليهود.

والدي ووالداه هم الذين وصلوا في نهاية المطاف إلى القدس: شقيق والدي، العمّ دافيد وزوجته مالكه وابنهما الطفل دانيئل الذي ولد قبلي بسنة ونصف بقوا في فيلنا: حالف الحظ عمي دافيد وعين في سن مبكرة، وبالرغم من يهوديته، محاضرا للأدب في جامعة فيلنا. كان رجلا أوروبيا واسع الاطلاع في الأيام الّتي لم يكن أيّ إنسان في أوروبا أوروبيا، باستثناء أبناء عائلتي وبعض اليهود الآخرين، الذين كانوا يشبهونهم. كلّ الآخرين كانوا سلافيين اتحاديين، ألمانيين اتحاديين، أو مجرد وطنيين لاتيفيين، بلغاريين، ايرلنديين، سلوفاكيين. الأوروبيون الوحيدون في كلّ أوروبا في سنوات العشرينات والثلاثينات كانوا هم اليهود. كان أبي يقول دائماً: في تشيكوسلوفاكيا تعيش ثلاث قوميات- التشيكيون، والسلوفاكيون والتشيكوسلوفاكيون الذين هم اليهود. في يوغوسلافيا يوجد صربيون وكرواتيون وسلوفانيون ومونتنغريون ولكن هناك أيضاً عاشت مجموعة صغيرة من اليوغوسلافيين الخالصين. وحتى عند ستالين يوجد روسيون ويوجد أكرانيون ويوجد اوزباكيون ويوجد تشوتشكيون ومنغوليون، وبين جميع هؤلاء يعيش هناك أيضاً إخوتنا أبناء الشعب السوفييتي.

كان العمّ دافيد أوروبيا محضا واعيا خبيرا بالأدب المقارن، آداب أوروبا هي وطنه النفسي. وهو لم يرَ سببا لأن يتنازل عن مكانته ويهاجر إلى طرف

آسيا، إلى مكان غريب وغير مألوف بالنسبة إليه، فقط من أجل الامتثال لرغبات لا ساميين جهلة وقطاعي طرق ضيّقي الآفاق. لذلك بقي في موقعه موقع التقدم والثقافة والفن والفكر الّذي لا حدود له حتى وصل النازيون إلى فيلنا: اليهود، المثقفون، الأمميون محبو الثقافة لم يكونوا على ذوقهم لذلك قتلوا دافيد ومالكه وابن عمي دانيئل الصبي الذي سماه والداه «دنوش» أو «دنوشك»، وفي رسالتهما قبل الأخيرة من يوم ١٥/ ١٢/ ١٩٤٠ كتب عنه والداه بأنه «منذ زمن قصير بدأ يمشي... وله ذاكرة ممتازة».

حاليا، تغيرت أوروبا تغييرا جذريا، فهي الآن تعجّ بالأوروبيين من أولها إلى آخرها: وبالمناسبة فقد تغيرت أيضاً لافتات الجدران في أوروبا رأسا على عقب: في أيام شباب أبي في فيلنا كان مكتوبا على كلّ جدار في أوروبا: «أيها اليهود، ارحلوا إلى بيتكم في فلسطين.» بعد خمسين سنة عندما عاد أبي لزيارة أوروبا صاحت به الجدران: «أيها اليهود ارحلوا من فلسطين.»

*

كرس العمّ يوسف سنوات طويلة لتأليف كتابه عن يسوع المسيحي، هذا الكتاب الذي ادّعى فيه، ما أثار دهشة المسيحيين واليهود مَعاً- بأن يسوع ولد يهوديا ومات يهوديا، وأنه لم يقصد أبدا إنشاء دين جديد. إضافة إلى ذلك: نظر إلى يسوع على أنه «صاحب الأخلاق اليهودي بال التعريف». حثّ آحاد هعام كْلاوْزنِر على شطب هذه الجملة وغيرها حتى لا تثور في العالم اليهودي موجة غضب عارمة والتي ثارت فعلا بين اليهود وكذلك بين المسيحيين مع صدور الكتاب في القدس في سنة ١٩٢١: اتّهم المتزمتون كْلاوْزنِر بأن «المبشرين رشوه بالمال والذهب لكي يعظم ويمجد ذلك الرجل»، في حين طالب المبشرون الإنجليكانيون في القدس من جهتهم الأسقف بعزل الدكتور دنبي من وظيفته لأنه ترجم إلى الإنجليزية كتاب «يسوع المسيحي» لأنه كتاب «مسمم بالكفر يصف مخلّصنا بمثابة حاخام إصلاحي كإنسان عادي وكيهودي محض لا صلة تربطه بالكنيسة». معظم شهرة العمّ يوسف العالمية جاءته من كتابه هذا، ومن الكتاب المكمل الذي ألحقه به بعد عدة سنوات بعنوان «من يسوع وحتى بولس».

ذات مرة قال لي العمّ يوسف ما يلي تقريبا: «في مدرستك يا عزيزي بكل تأكيد يعلمونك أن تمقت هذا اليهودي المأساوي الرائع، وليتهم لا يعلمونك أن تبصق ملء فمك في كلّ مرة تمر بها أمام صورته أو صليبه. عندما تكبر، يا عزيزي، اقرأ، رغما عن معلميك العهد الجديد وسترى بأن هذا الرجل كان واحدا من لحمنا ودمنا وكان بمثابة «تقي» أو «صاحب معجزة»، صحيح أنه كان صاحب أحلام، فاقدا لكلّ وعي سياسي أيا كان ومع ذلك له مكان في مقبرة عظماء إسرائيل إلى جانب باروخ سبينوزا الذي فرض عليه الحرمان ونُبذ وهو أيضاً جدير بأن نزيل عنه الحرمان: من هنا من القدس المتجددة، من الجدير بنا أن نرفع صوتنا ونقول ليسوع بن يوسف وكذلك لباروخ سبينوزا: «أخونا أنت، أخونا أنت» واعلم بأن المتّهِمين ما هم إلا يهود الأمس، ضيقو الأفق وقليلو الإدراك مثل الدودة داخل الجَرجار. وأنت، يا عزيزي، ولكي لا تكون، معاذ الله، واحدا منهم- اقرأ أيضاً الكتب الجيدة، اقرأ واقرأ ثمّ عُد واقرأ! وبالمناسبة كتابي الصغير عن دافيد شمعوني قدمته هدية لوالدك بشرط أن تقرأه أنت أيضاً. وعليه اقرأ واقرأ ثمّ عُد واقرأ! والآن، هل تسمح بأن تسأل السيّدة كْلاوْزنر، العمّة تسيبورا العزيزة، أين يوجد الكريم لتصليح البشرة، كريم بشرة وجهي أنا؟ قل لها من فضلك: الكريم القديم، إذ أن الكريم الجديد لا يصلح حتى طعاما للكلاب. هل تعلم يا عزيزي كم هي كبيرة الفجوة الّتي تفصل بين «المخلص» في لغات الأغيار وبين مسيحنا المنتظر؟ المسيح ليس إلا من مُسح بالزيت، كلّ كاهن هو عندنا مسيح وكل ملك من ملوكنا هو مسيح، وكلمة «مسيح» بلغتنا كلمة مبتذلة ويومية لا مثيل لها، قريبة قرابة دم واضحة من كلمة مرهم (كريم) - على عكس ما في لغات الأغيار، الذين عندهم يسمى المسيح مخلصا ومنقذا. ولكن من الممكن أن مثل هذا الموضوع ليس ملائما لسنك؟ لذلك أسرع من فضلك إلى العمّة واطلب منها ما طلبت منك أن تطلبه منها، ولكن ماذا طلبت؟ أنا لا أذكر ثانية؟ ربما تذكر أنت؟ إذن اطلب منها أن تتكرّم وتعمل لي كأس شاي، إذ سبق للرابي هونا أن قال في التلمود البابلي في فصل أصول الاحتفال بعيد الفصح: «كلّ ما يقوله لك صاحب البيت افعله، ما عدا اخرج»

وأنا أقول ما عدا الشاي. «أنا، بالطبع، أقول هذا مازحا. وعليه أسرع يا عزيزي إلى طريقك ولا تأخذ المزيد من وقتي كما يفعل كلّ العالم ويسرق مني وقتي ولا يرحم لحظاتي وساعاتي الّتي هي ثروتي الوحيدة الّتي أراها تتدفق من بين يدي. الفيلسوف بليز باسكال هو الذي وصف في تأملاته هذا الشعور الفظيع، شعور مرعب لتدفق الوقت: يتدفق الزمن تتدفق دقائقك وساعاتك تتدفق حياتك بلا توقف بدون رجعة. أسرع يا حبيبي ولكن انتبه جيدا جدّاً لئلا تتعثر وأنت تركض.»

*

عند قدومه إلى القدس في سنة ١٩١٩ عمل العمّ يوسف سكرتيرا للجنة اللغة (العبرية) قبل أن يُعيّن بروفيسورا للأدب العبري في الجامعة الّتي افتتحت في سنة ١٩٢٥. وقد تأمّل وتوقع أن يستلم قسم تاريخ شعب إسرائيل، أو على الأقل تدريس تاريخ الهيكل الثاني، إلا أن زعامة الجامعة، من علياء ألمانيتهم، استهانوا كما استهانوا بكل الفكرة القومية واستهانوا بكل ما لم يحظ بالتصفيق من الأغيار ومن اليهود المنصهرين مبغضي صهيون، ولذلك «نفوني إلى تدريس الأدب العبري، بعيدا عن الأعراف: مكان تطهير نفوس أبناء الشبيبة، بعيدا عن الميدان الذي فيه كان بإمكاني أن أزرع في قلوب الشباب محبة شعبنا وماضيه البطولي وتربيتهم بروح بطولة المكابيين الوطنية وبطولة ملوك الحشمونائيم وبطولة أبطال التمردات الرائعة ضدّ نير الرومان».

في قسم الأدب العبري شعر العمّ يوسف، بحسب أقواله، مثل نابليون في جزيرة إلبا: بما أنهم منعوه من دفع قارة أوروبا كلها إلى الأمام أخذ على عاتقه، مؤقتا، أن يفرض أنظمة متطورة وتقدّمية نموذجية في جزيرة منفاه الصغيرة. بعد مرور عشرين سنة فقط أقيم قسم دراسة تاريخ الهيكل الثاني والذي ترأسه أخيرا العمّ يوسف دون أن يتنازل عن منصبه كرئيس لقسم الأدب العبري. «أن نستوعب ثقافة الغير حتى نهضمها ونحولها إلى جزء من لحمنا ودمنا القومي والإنساني» كتب، «- هذا هو المثل الأعلى الذي كافحت من أجله جل سنوات حياتي ولن أتزحزح عنه حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة.»

كذلك وجدت عنده: «إذا كنا نريد أن نكون شعبا سيداً في بلاده، يجب

أن يكون أبناؤنا **حديداً!**» (التشديد في الأصل، ع.ع.) وكان معتادا أن يشير أحياناً على التمثالين النحاسيّين الموجودين على خزانة الإدراج في غرفة الضيوف: بتهوفن بشعره المتجعد والهائج المليء بالازدراء والحماس، وجابوتنسكي بفخامة بزته وبشفتيه الحازمتين والملتصقتين بقوة، ويقول لضيوفه: «روح الفرد مثلها مثل روح الأمة- كلتاهما تطمحان إلى أعلى وكلتاهما تجمح عند انعدام الرؤيا.»

في أحد أيام السبت حكى هناك باروخ كروبنيك المعروف بباروخ كارو، كيف ألف جابوتنسكي النشيد الوطني لبيتار ولم ينجح في إيجاد كلمة عبرية مناسبة تسجع مع كلمة «جيزَع» (جذع) ولذلك وضع مكانها مؤقتا كلمة «جيليزو» الروسية الّتي تعني الحديد وهكذا أصبح النشيد: «بالدم والجيليزو / يقام لنا جذع/ نابغ وكريم وقاسٍ، حتى جاء كروبنيك نفسه واستبدل الجيليزو بكلمة «ييزَع » (العرق): بالدم والعرق/ يقوم لنا جذع/ نابغ وكريم وقاسٍ.» كان أبي يقول: «أحقا. هناك أمور بكل بساطة لا يسخَر منها.» وأمي: «وأنا أظن بأنه لا توجد أمور كهذه»).

كان العمّ يوسف قوميا - ليبراليا متنورا بمفهوم القرن التاسع عشر، مثله مثل جابوتنسكي، سليل التنور والرومانسية وربيع الشعوب، من المعجبين بشدال ومابو وبيرتس سمولانسكين وميخال وروسو وفولتير وديدرو وديفيد هيوم ونيتشه، وتورجنييف وبلينسكي ونكرسوف ودوبروليوبوف، وكارلايل وارنست ريناي وبوشكين وشيلر وهاينه وبايرون وغريبالدي ومتسيني، تلميذ تسونتس، وغريتس وجايجر. أحب كثيرا طوال حياته استعمال كلمات مثل «لحمنا ودمنا»، «إنسانيون وقوميون»، «مثل أعلى»، «حاربت معظم سنوات حياتي»، «لن نتزحزح»، «قليلون مقابل كثيرين»، «الأجيال القادمة»، «حتى الرمق الأخير».

في سنة ١٩٢٩ اضطر إلى الهرب من تلبيوت الّتي هاجمها العرب. بيته شأنه شأن بيت جاره عجنون نهب وحرق ومكتبته كمكتبة عجنون تضررت كثيرا. «يجب تربية الجيل الصاعد تربية جديدة»، كتب في كتابه «عندما تقاتل الأمة من أجل حريتها»: «يجب أن نلبسه **روح البطولة** [التشديد في الأصل،

ع.ع.]، روح المقاومة الشجاعة، بدون تنازلات وحلول وسط. . .غالبية معلمينا لم ينتصروا بعد في داخلهم على منفى إدوم أو منفى العرب.»

*

في أعقاب العمّ يوسف وبتأثيره أصبح جدّي وجدّتي جابوتنسكيين، بينما تقرب أبي من أفكار الإيتسل وإلى حزب الحيروت حزب مناحم بيغن. مع أن بيغن بالذات أثار في الجابوتنسكيين الأوديساويين العلمانيين، واسعي الآفاق، مشاعر متناقضة نوعا ما، رافقها شيء من التعالي المكبوت: بسبب منشأه من بلدة بولندية وبسبب انفعالاته الزائدة، ربما بدا لهم بيغن من الدّهماء (العامّة) وفلاحا - قرويا إلى حد ما، مع أنه مخلص وجريء وقومي دون شك، ولكن ربما ليس إنسانيا بما فيه الكفاية، وليس جذابا بما فيه الكفاية، يفتقر إلى الشاعرية ولا تشع منه هالة من الإيثار ومحبة الغير الممزوجة بقليل من العزلة المأساوية، كما يليق بزعيم يوجد فيه شيء من روح الأسد وشموخ النسر. كيف كتب جابوتنسكي عن علاقة إسرائيل بالأمم بعد تحقيق النهضة؟ «كتقدم أسد من الأسود.» بيغن لم يبدُ أسداً. كذلك أبي، بالرغم من اسمه، لم يكن أسدا بل متعلما مقدسيا قصير البصر أيسر اليدين. لم يكن قادرا على أن يصبح مقاتلا في الحركة السرية ولكنه ساهم بنصيبه في الكفاح عن طريق ما كان يؤلفه أحياناً باللغة الإنجليزية من منشورات للتنظيم السري وفيها شجب وأدان نفاق «ألبيون الخائنة». كانت هذه المنشورات تطبع في مطبعة سريّة وكان بعض الشباب النشيطين يتنقلون بين الأحياء في الليل ويلصقونها على الجدران وحتى على أعمدة الكهرباء.

أنا أيضاً كنت ولد تنظيم سريّ: أكثر من مرة وأكثر من مرتين طردت الانجليز بحركة التفافية لفيالقي، أغرقت في كمين جريء اسطول مدمرات جلالة الملك، اختطفت وحاكمت المندوب السامي وحتى ملك انجلترا بنفسه، وبكلتا يدي رفعت العلم العبري (مثل أولئك الجنود في ايوو- جيما (Iwo Jima) المرسومين على طابع بريد أمريكي) فوق برج قصر المندوب السامي على جبل المشورة السيئة. بعد ذلك وبعد أن طردتهم من بلادنا كنت أعقد المعاهدات مع انجلترا، وأقيم مع البريطانيين جبهة شعوب الثقافة

المتنوّرين في وجه موجات الهمجية الشرقية، ملتوية الحروف، ومعوجة السيوف، والمتوهجة والمبحوحة، والتي تهدد بالانطلاق من الصحراء لتذبحنا وتنهبنا وتحرقنا وهي تعول وتصرخ بعويل وصراخ يُجمّد الدماءَ في العروق.
أردت أن أكبر وأن أكون مثل تمثال داوود للنحات برنيني، داوود ذلك الفتى الجميل، أجعد الشعر، ذو الشفتين المغلقتين بحزم الذي ظهر على غلاف كتاب العمّ يوسف «عندما تقاتل الأمة من أجل حريتها»: أردت أن أكون رجلا قويا وسكوتا ذا صوت عميق ومتأنٍّ. ليس مثل صوت العمّ يوسف الرقيق، النحيبي نوعا ما. لم أرد أن تكون يداي مثل يديه اللتين تشبهان يدي الدمية الضعيفتين.

*

كان العمّ يوسف إنسانا صريحا إلى ابعد الحدود، يغمره حب الذات والشفقة الذاتية مرهف الإحساس، يركض وراء الجاه، يغمره المرح الصبياني، إنسان سعيد يظهر دائماً بمظهر المسكين. من هدوئه اللطيف أحب أن يحكي دون نهاية عن انجازاته واكتشافاته وعن أرقه وسهاده، وعن مبغضيه وعن تجاربه في الحياة وعن كتبه ومقالاته ومحاضراته الّتي كلها دون استثناء أثارت دائماً «ضجة كبيرة في العالم»، وعن لقاءاته وعن برامج عمله، وعن عظمته وأهميته وعن علو قدره.

كان إنسانا طيّب القلب، أنانيا، مدللا، ولكنه حلو حلاوة الأطفال ومتغطرس كطفل عجيب. هناك، في تلبيوت، ذلك الحيّ الذي كان من المفروض أن يكون نسخة مقدسية لحي حدائق برلينيّ، بمثابة تلة وادعة محرّجة والتي من بين قمم أشجارها ستلمع مع الأيام أسطح القرميد الحمراء وفي كلّ بيت سيسكن هادئ البال وفي سعة عالم جليل أو أديب مشهور، أو باحث مبجّل، هناك كان العمّ يوسف يخرج أحياناً ليتمشّى عند هبوب نسمات المساء في الشارع الصغير الذي سيتحول مع الوقت ليصبح شارع كْلاوْزنِر.
أدخل ذراعه الدقيقة في الذراع السمينة للعمة تسيبورا، أمه وزوجته بنت شيخوخته ومساعدته. كانا يتمشّيان بخطوات وئيدة حذرة حتى يتوقفا وراء بيت المهندس المعماري كورنبرغ الذي استعمل أحياناً كبنسيون صغير

لضيوف مؤدبين ومثقفين. في آخر الشارع الذي هو بدون منفذ والذي كان أيضاً نهاية حي تلبيوت وطرف القدس وطرف الأرض المستعمرة- من هنا وما بعده امتدت تلال صحراء يهودا الجرداء القاحلة. البحر الميت كان يومض لهم من بعد مثل طبق من فولاذ منصهر.

أراهما يقفان هناك، في آخر الدنيا عند حافة الصحراء، لطيفين جدّاً مثل دبدوبين من الصوف، ممسك كلّ منهما بذراع الآخر، ومن فوق رأسيهما تهب نسمة مساء مقدسية، حفيف أشجار الصنوبر، رائحة الخبيزة الإفرنجية المرة- الحلوة تعبق في الهواء الجاف - النقي. العمّ يوسف مع ربطة عنق وجاكيت (الذي اقترح أن يسمى بالعبرية «يعقوبيت») يضع قدميه في شبشب بينما كانت العمّة ترتدي فستانا حريريا مزينا بالزهور غامق اللون وعلى كتفيها وضعت شال صوف منسوج رمادي اللون. على امتداد عرض الأفق تلتفّ جبال مؤاب الّتي خلف البحر الميت بالزرقة، عند أسفل الجبال تمر الطريق الرومانية القديمة الممتدة حتى أسفل سور المدينة القديمة وأمام عينيهما بدأت تتوهج باللون الذهبي قبب المساجد، وتتألق الصلبان الّتي في أعالي أبراج الكنائس والأهلة الّتي على قمم مآذن المساجد تحت وقع أشعة الشمس الغاربة. الأسوار نفسها أخذت تتلون باللون الرمادي، وتثقل، ومن وراء المدينة القديمة بدا لهما جبل المشارف الذي أقيمت عليه مباني الجامعة العزيزة على قلب العمّ يوسف، وجبل الزيتون الذي على سفحه ستدفن في حينه العمّة تسيبورا والذي على سفحه أيضاً طلب أن يدفن هو، ولكنه لم يحظ بذلك لأنّ المدينة القديمة عند موته كانت تحت سيادة المملكة الأردنية.

كانت أشعة المساء تزيد بشرة خديه الطفولية وجبهته العالية تورّدا. على شفتيه في تلك الساعة كانت تلوح ابتسامة انشداه مروَّعة نوعا ما، مثل تلك الّتي ترتسم على وجه الشخص الذي يطرق باب بيت اعتاد زيارته واعتاد أن يستقبل بالحرارة والترحيب وهاهو الباب يفتح فيطل عليه فجأة شخص غريب، فيرتدع متفاجئا مندهشا كمن يسأل من أنت يا سيدي وما الذي جاء بك إلى هنا؟

*

كنا - أبي وأمّي وأنا- نتركه والعمّة تسيبورا ليقفا هناك سويعة أخرى وكنا نودعهما بصوت خافت ونتوجه إلى محطة الحافلة رقم سبعة والتي ستصل بالتأكيد بعد عدة دقائق قادمة من جهة رمات راحيل وارنونا لأنّ السبت ولّى وقد دخلت ليلة الأحد. كانت الحافلة رقم سبعة توصلنا إلى شارع يافا ومنه كنا نركب الحافلة رقم ثلاثة باء حتى شارع تسفانيا على بعد خمس دقائق مشيا على الأقدام من بيتنا. كانت أمّي تقول:

«إنه لا يتغير. دائماً نفس الأقوال، ودائماً نفس القصص والطرائف. منذ أذكره يكرر نفسه كلّ سبت.»

كان أبي يرد عليها:

«أحياناً أنت تبالغين في نقدك. فهو لم يعد إنسانا صغيرا، أولسنا جميعا نكرر أنفسنا، وأنت أيضاً.»

وكنت أنا أضيف:

«بالدم والجيليزو يقام لنا جيزو.»

وكان أبي يقول:

«أحقا. هناك أمور لا يسخَر منها.»

وأمّي:

«أنا أفكر بأنه لا توجد أمور كهذه. ومن المفضل ألا تكون.»

هنا كان أبي يحسم الموضوع:

«كفى. انتهينا. هذا بكل تأكيد يكفينا لليوم. وعليك أن تتذكر أنّك اليوم يجب أن تستحم، وتغسل رأسك بالماء والشامبو. لا، أنا بكل تأكيد لن أتنازل لك. لماذا علي أن أتنازل؟ هل تستطيع أن تعطيني ولو مبررا واحدا جيدا بسببه نؤجل غسيل الرأس بالماء والشامبو؟ لا؟ لذلك من المفضل لك في المستقبل ألا تحاول أبداً أن تدخل في نقاش دون ان يكون عندك ليس مبررا فحسب بل نصف أو ربع مبرر. اذكر من فضلك جيدا، من الآن وإلى الأبد بأن « رغب» و «لا أرغب» - ليسا بكل تأكيد ضمن حدود المبررات بل ضمن حدود التدليل. وبالمناسبة، من كلمة حدود اشتقت كلمة «تحديد» - أوليست عملية التحديد هي دائماً بمثابة وضع حد بين ما يدخل ضمن ذلك

التحديد وبين ما يبقى خارجه. وبالضبط هكذا الوضع في اللغة اللاتينية الّتي فيها كلمة فينيس تعني «حدّاً» وكذلك «نهاية»، وكلمة «دفينير» تعني يحدد، يدافع، يضع حدا للشيء ومن هنا على ما يبدو جاءت كلمة «ديفينس»، دفاع في عدد من لغات الغرب.

وبعد أن تقصّ، من فضلك، أظافرك، وتلقي كلّ ملابسك إلى الغسيل: ملابسك الداخلية والقميص والجوارب أيضاً. بعدها تلبس منامتك فوراً وتشرب فنجان كاكاو وتنام، وهكذا ينتهي برنامجك لهذا اليوم.

١٢

أحياناً بعد توديع العمّ يوسف والعمّة تسيبورا، إذا لم تكن الساعة متأخرة كثيرا، كنا نتأخر عشرين دقيقة أو نصف ساعة إضافية لزيارة الجار في الجهة المقابلة. كنا نتسلل سرّاً إلى بيت عجنون دون أن نعلم العمّ أو العمّة مسبقا أين نتجه، كيلا نسبب لهم الهم والغمّ. أحياناً كان يحدث أن نلتقي السيّد عجنون وهو خارج من الكنيس ونحن في طريقنا إلى محطة الحافلة رقم سبعة فكان يشد ذراع أبي ويهدده إذا رفض (أيّ أبي) التعريج على بيت عجنون وأن ينوّر بيت عجنون بنور وجه السيّدة فانه أيّ بيت عجنون سيبقى خاليا من بهاء وجه السيّدة. بهذه الكلمات كان عجنون يرسم ابتسامة خفيفة على شفتي والدتي، وكان أبي يستجيب للدعوة قائلا: ولكن لدقائق قليلة فقط، ليسمح لنا السيّد عجنون، فإن مكوثنا لن يطول عنده، إذ علينا أن نعود إلى بيتنا في كيرم افراهام، والولد متعب ويجب أن يستيقظ مبكرا للمدرسة.

«الولد ليس متعبا إطلاقا،» قلتُ.

والسيّد عجنون:

«ليُصغِ سيدي الدكتور: مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً»[١]

بيت عجنون قائم داخل حديقة محاطة بسور من أشجار السرو، ومع ذلك، لمزيد من الحيطة والأمن وقف البيت وظهره إلى الشارع، كمن يخفي وجهه في فنائه. من الواجهة، من الشارع، لا تظهر إلا أربعة - خمسة

---

(١) مزامير: ٨ :٣ (المترجم)

شبابيك صغيرة تشبه فتحات الرمي. كنت تدخل من بوابة مخفية بين أشجار السرو، تمشي في ممر معبّد إلى جانب البيت، تصعد أربع أو خمس درجات، تقرع جرس الباب الأبيض، وتنتظر حتى يفتحوا ويدعوك للدخول والانعطاف إلى اليمين وصعود درج شبه مظلم إلى غرفة عمل السيّد عجنون الذي منه تتفرّع شرفة سطح كبيرة وواسعة تطلّ على صحراء يهودا وجبال مؤاب أو الانعطاف يسارا إلى الصالون الصغير المكتظ قليلا والذي تطل نوافذه إلى الحديقة الفارغة.

لم يَسُد بيتَ عجنون ضوء النهار ولو لمرة واحدة. لقد ساده طوال الوقت ضوء خافت مثل ضوء شمس قبيل الغروب مع رائحة خفيفة للقهوة ولبعض المعجنات، ربما لأننا كنا نأتيه قبيل خروج السبت في ساعة الغروب ولن يضيئوا هناك المصابيح الكهربائية قبل أن يروا عبر شباكهم ثلاثة نجوم على الأقلّ. أو ربما أضاء هناك مصباح كهربائي إلا أن ذلك كان كهرباء مقدسيا أصفر ضنينا، كان السيّد عجنون مقتصدا في الكهرباء أو ربما بسبب انقطاع التيار الكهربائي أضاء هناك مصباح نفط عرف عندهم باسم «سراج». ما زلت أذكر تلك الضبابية حتى اليوم، وأكاد المسها بأطراف أصابعي، ضبابية حبستها وزادتها خطورة دربزينات الشبابيك. ما هو سبب هذه الضبابية يصعب علي اليوم أن أعرف، وربما كان ذلك صعبا في تلك الأيام أيضاً. إن كان الأمر على هذا النحو أو ذاك ففي كلّ مرة كان فيها السيّد عجنون يقوم من مكانه ليتناول مجلدا من أحد رفوف مكتبته الّتي بدت كمجموعة مصلين مكتظين بملابسهم الغامقة الرّثّة قليلا كان شخصه يلقي حوله ليس ظلا واحدا فحسب بل ظلّين أو ثلاثة ظلال أو أكثر. وهكذا حفرت صورته في ذاكرة طفولتي وهكذا ما زلت أذكره حتى اليوم. رجل يتحرك داخل ضبابية وثلاثة أو أربعة ظلال مختلفة تتحرك معه عند مشيه أمامه أو عن يمينه أو من خلفه من فوقه أو تحت رجليه.

أحياناً كانت السيّدة عجنون تبدي ملاحظة ما بصوت سلطوي، صوت حاد وقاطع، وذات مرة قال لها السيّد عجنون ورأسه مائل بعض الشيء وصدى ابتسامة ساخرة كان يلامس ولا يلامس شفتيه: «اسمحي لي أن أكون

رجل البيت في بيتي ما دام الضيوف موجودين هنا. عندما سيذهبون كوني أنت رجلة البيت.» أذكر هذه الجملة بوضوح، وليس فقط بسبب ما انطوت عليه من عبث غير متوقع (الآن كنا نقول بأنه كانت لديه نبرة تآمرية)، بل وبالأساس بسبب كلمة «رجلة» (أدونيت بالعبرية) الّتي اصطدمت بها بعد مرور سنوات كثيرة عندما قرأت قصته «الرجلة (السيّدة) والبائع المتجول». ما عدا السيّد عجنون لم التقِ بأي شخص يستعمل كلمة رجلة بمعنى «سيدة». مع أن السيّد عجنون عند قوله «رجلة» لم يقصد أن يقول السيّدة بل قصد شيئا مختلفا قليلا. من الصعب أن أعرف: فقد كان رجلا له ثلاثة ظلال أو أكثر.

*

تعاملت أمّي مع السيّد عجنون، كيف اعبّر عن ذلك، كمن تقف على رؤوس أصابعها. حتى عندما كانت جالسة كانت تجلس وكأنها على رؤوس أصابعها. السيّد عجنون نفسه لم يوجه إليها الخطاب تقريبا، لم يكن يخاطب إلا أبي فقط، ولكنه عندما خاطب أبي بدا لي وكأن نظره يحط للحظة على وجه أمّي. وبالذات في المرات القليلة الّتي وجّه إليها كلامه كانت نظراته تمتنع عن التوجه إليها بل كانت تتوجه نحوي أو نحو الشباك. أو ربما لم يكن الأمر كذلك بل سجّل كذلك في مخيلتي: أوليست الذاكرة الحية تشبه التجاعيد على وجه الماء ومثل الارتعاش العصبي الذي يمر به جلد الغزالة لحظة قبل فرارها، الذاكرة الحية تأتي فجأة فترتعد له فرائصنا للحظة ودفعة واحدة بعدة إيقاعات، وفي عدة نقاط قبل أن يتحجر كله ويتجمّد دون حراك ويتحوّل إلى ذكرى الذاكرة.

في ربيع سنة ١٩٦٥ عندما صدر كتابي الأول «بلاد بنات آوى» أرسلته ويدي ترتعد إلى عجنون وعلى الغلاف كتبت له ما كتبت. ردّ علي عجنون برسالة جميلة وعن كتابي قال ما قاله وفي نهاية رسالته كتب ما يلي:

«ما كتبته لي على كتابك ذكرني بصورة أمك رحمها الله. اتذكر أنها ذات مرة قبل خمس عشرة أو ست عشرة سنة أحضرت إليّ بدلا من أبيك - مدّ الله في عمره- كتابا من كتبه. وربما أنّك كنت معها. عند وصولها وقفت عند عتبة الغرفة وقالت بعض الكلمات القليلة ولكن وجهها بقي ماثلا أمامي

بحسنه وبراءته أياما طويلة. مع أطيب التحيات، شاي عجنون.»

أبي، الذي قام بترجمة مادة «بوتشتش» من الموسوعة البولندية لصالح عجنون وبناء على طلبه عندما كان يكتب «مدينة وما فيها» كان يلوي قليلا شفتيه ويعرّف عجنون بأنه «أديب مهجري»: إذ أن قصصه تخلو من تحليق أجنحة ومن الموهبة الخلاقة والخيال التراجيدي كما ويخلو أيضاً من الضحكة البريئة وإنما تمتلئ بالملاحظات البارعة والكثير من الغمز واللمز. وإن وجدت عنده هنا وهناك بعض المقاطع الوصفية الجميلة فهو نفسه لا يدعها ولا يتوقف حتى يغرقها كلية في حفرة من اللغو والهذر التهكمي ودعابات أهل جاليسيا. يبدو لي أن أبي رأى في قصص عجنون فرعا من فروع أدب الإيديش وهو لم يستلطف أدب الإيديش: كان مزاجه مزاجاً «ليتوانياً» معارضا. كان يتقزز دائماً من كلّ ما هو غير طبيعي ومن السحر والشعوذة ومن الانفعالية الزائدة، ومن كلّ ما يتدثّر بالضبابية الرومانسية أو الصوفية ومعمول بهدف تدويخ المشاعر والاحتيال على العقل. في أواخر حياته فقط حصل تغيير على ذوقه الأدبي فوجد بعض المواساة في الحكايات وأساطير الحسيديم في قصص ي.ل. بيرتس، وعند عدد من كتاب الإيديش وربما في شيء من كتابات عجنون. الأشياء الّتي كان من قبل يمتعض لها وجهه ويسميها ساخرا تصوفا، فولكلورا، عبث أطفال، في أواخر حياته انجذب إليها. طبعا، كما في شهادة وفاة أمه، هي جدّتي شلوميت، الّتي ماتت من شدة النظافة، كتب بأنها ماتت بالنوبة القلبية فقط - هكذا في سجل والدي الثقافي- كتب بأن عمله البحثي الأخير كان حول مخطوطة غير معروفة للكاتب ي.ل. بيرتس. هذه هي الوقائع. ولكنني لا أعرف ما هي الحقيقة، لأنني لم أتحدث عن الحقيقة مع والدي ولو لمرة واحدة. لم يكلمني أبداً عن طفولتي، عن قصص حبه، عن الحب بشكل عام، عن والديه، عن موت أخيه، عن مرضه هو نفسه، عن معاناته، عن المعاناة بشكل عام. كذلك لم نتحدث ولو لمرة واحدة عن موت أمّي، حتى ولو كلمة واحدة. كما أنني لم أهوّن عليه ولم أرغب إطلاقا في أن أبدأ معه محادثة إذ أن أحدا لا يعرف ماذا سيتكشّف لي في نهايتها. لو أردت أن

أسجل هنا كلّ الأشياء الّتي لم نتحدث عنها، أبي وأنا، لملأت كتابين. لقد ترك لي أبي عملا كبيرا وأنا ما زلت اعمل.

*

كانت أمّي تقول عن عجنون:

«هذا الرجل يرى كثيرا ويفهم الكثير.»

وذات مرة قالت:

«ربما أنه ليس إنسانا طيبا جدّاً ولكنه يعرف الحسن من السيء ويعرف أننا لا نملك ما يكفي من الخيارات.»

كانت تقرأ وتعود وتقرأ كلّ شتاء تقريبا القصص الّتي يضمها مجلد «على كفتي القفل». ربما وجدت فيها صدى لحزنها ووحدتها. كذلك أعود أنا أيضاً بين الحين والآخر لقراءة أقوال ترتسا مازل من بيت مينتس الّتي في بداية قصة «في ريعان شبابها»:

> في ريعان شبابها ماتت أمّي. كانت أمّي ابنة إحدى وثلاثين سنة عند موتها. كانت قليلةً وسيئة سنوات حياتها. بقيت طوال النهار في البيت ومنه لم تخرج... صامتا وقف بيتنا بحزنه، أبوابه لم تفتح لغريب. على سريرها اضطجعت أمّي وأقوالها كانت قليلة.

وهذه الكلمات نفسها تقريبا كتبها لي عجنون عن أمّي: «عند وصولها وقفت عند عتبة الغرفة وقالت بعض الكلمات القليلة.»

أنا من جهتي عندما كتبت بعد سنوات كثيرة مقالا بعنوان «من القادم؟» ضمن كتابي «يبدؤون قصة» والذي كرسته لافتتاحية قصة «في ريعان شبابها» توقفت عند جملة «بقيت طوال النهار في البيت ومنه لم تخرج»، التي هي في الظاهر جملة حشوية نصفها الثاني ما هو إلا تكرار لنصفها الأول:

> لا يوجد في الجزء الثاني من الجملة أيّ ذرة معلومات جديدة لم تُذكر في الجزء الأول... إلا أن فعالية هذه الجملة ومعظم جمل افتتاحية قصة «في ريعان شبابها» تكمن في مجرد كونها تتكون من جزءين توأمين. عنصر التوازن يغطي هنا على الواقع العائلي الذي توازنه الداخلي من وراء المنظر الثابت أخذ يتزعزع.

أمّي لم تجلس طوال النهار في البيت. لقد خرجت ليس قليلا من البيت. إلا أنها أيضاً، كانت قليلةً وسيئة سنوات حياتها.

«سنوات حياتها» أحياناً أسمع بهذه الكلمات ازدواجية حياة أمّي وازدواجية حياة ليئة أم ترتسا وكذلك ازدواجية حياة ترتسا مازل من عائلة مينتس. وكأنهن هن أيضاً يلقين على الحائط أكثر من ظل واحد.

*

بعد سنوات، عندما أرسلتني الجمعية العامة لكيبوتس حولدا لدراسة الأدب في الجامعة لأنّ مدرسة الكيبوتس الثانوية كانت بحاجة إلى معلم للأدب، استجمعت شجاعتي وقرعت جرس باب السيّد عجنون (وبلغة عجنونية: «أخذت قلبي وذهبت إليه»).

- «لكن عجنون ليس في البيت،» ردّت علي السيّدة عجنون بأدب غاضب، كما كانت ترد على كثير من اللصوص والمختلسين الذين يأتون لابتزاز وقت زوجها الثمين. السيّدة عجنون لم تكذب عليّ: «السيّد عجنون لم يكن موجودا في البيت بل في الحديقة الّتي خلف البيت ومن هناك أطلّ فجأة، يلبس شبشبا وصدرية بدون أكمام كانت تعرف باسم بولّوفر (pullover) وقال لي «شالوم» ثمّ سارع وسأل مرتابا ومن حضرتك؟ قلت له اسمي واسمي والديّ، وعليه، وفيما كنا، هو وأنا، واقفَينِ أمام مدخل بيته (اختفت السيّدة عجنون داخل البيت دون أن تنطق ببنت شفة) تذكّر السيّد عجنون ما تحدثت به الألسن في القدس قبل عدة سنوات، ووضع على كتفي وقال لي تقريبا ما يلي: أولست أنت الصبي الذي تيتم من أمه المسكينة وابتعد عن والده وراح ليعيش في الكيبوتس؟ أولست أنت من كان والداك يؤنبانك هنا، عندما كنت تجمع حبات الزبيب من وجه الكعكة؟ (هذا الشيء لم أذكره، كما لم أصدقه في موضوع انتزاع حبات الزبيب ولكنني اخترت ألا أعارضه.) دعاني السيّد عجنون إلى الداخل وحقق معي سويعة حول عمل الكيبوتس ودراستي (وماذا من أعمالي يدرسون الآن في الجامعة؟ وأي أعمالي أحب إلى نفسك؟)، كذلك حقق ليعرف بمن تزوّجت وما هو منشأ عائلة زوجتي وعندما قلت له بأن زوجتي من طرف والدها هي من سلالة

هيشله المبارك[1] استهلّ وجهه فرحا وحكى لي حكايتين أو ثلاث وقد مضى حوالي ربع ساعة وقد بدأ يضيق صدره وبدا واضحا بأنه يبحث عن طريقة تجعلني أغادر، إلا أنني، ومع أنني جلست عنده وكأنني على رؤوس أصابعي، تماما كما جلست أمّي عنده قبلي، تجرّأت وأخبرته لماذا جئت إليه.

جئت لأنّ جرشون شكيد كلفنا نحن طلاب السنة الأولى في قسم الأدب العبري أن نقارن بين قصص يافا من تأليف برينر وبين قصص يافا من تأليف عجنون. وأنا قرأت القصص وقرأت كلّ ما وجدته في المكتبة حول معرفة برينر وعجنون ليافا أيام الهجرة الثانية، وتعجبت من رجلين مختلفين عن بعضهما كلّ الاختلاف كيف أصبحا صديقين: يوسف حاييم برينر كان رجلا يهوديا روسيا صعب المراس مضطربا، غليظا، أشعث، سريع الغضب، ذا روح دويستويفسكية تتأرجح دائماً بين الحماس والضيق وبين الشفقة والغضب. كانت شخصيته في تلك الأيام تقف وسط مركز الأدب والحركة الطلائعية، بينما كان عجنون في حينه فتى جاليسيّاً خجولا أصغر من برينر بعدة سنوات وكان ما زال بكرا في أعماله الأدبية، فهو طلائعي تحول إلى كاتب، طالب مدرسة دينية رقيق مرهف، يتأنق في ملابسه، ويدقق جدّاً في كتاباته وينمقها، شاب نحيف حالم ولاذع: ما الذي كان من الممكن أن يجذب كلّ منهما إلى الآخر في يافا أيام الهجرة الثانية حتى أصبحا مثل زوجين عاشقين؟ حاليا، يخيّل إليّ بأنني أخمّن شيئا حول هذا الموضوع، ولكن في ذلك اليوم في بيت عجنون، من شدة سذاجتي، أخبرت مضيفي ما هو البحث الجامعي الذي فرض علي القيام به، وسألته - من شدة سذاجتي- أن يتكرّم ويكشف لي ما هو سرّ قربه من برينر؟

قلص السيّد عجنون عينيه ونظر إليّ أو لم ينظر إليّ بل تأملني قرابة الساعة بطرف عينه، بمتعة وابتسامة خفيفة كما يبتسم صياد الفراشات- هذا ما

---

(١) هو الرابي إشعيا هليفي هوروفيتس من كبار حاخامات أشكناز في القرن السابع عشر وهو مدفون في طبريا (المترجم).

فهمته بعد سنوات- عند رؤية فراشة صغيرة وجميلة. وعندما انتهى من تأملي قال:

«ربطني مع يوسف حاييم - انتقم الله من قاتله- في تلك الأيام تقارب أساسه حب مشترك.»

أصخت السمع لأنه خيّل إليّ بأنه سيكشف لي أسرارا خفية لم تكشف لأحد قبلي. ها هو على وشك أن يسرد على مسامعي قصة حب خفية ومثيرة سأقوم على الفور بكتابة مقال مثير عنها يرفع اسمي عاليا، في يوم وليلة، في بحث الأدب العبري.

«ومن كانت هذه المعشوقة المشتركة؟» سالت سؤالا غرا مثل صغر سني وسذاجتي وقلبي يخفق بين جوانحي.

«هذا سري للغاية،» ابتسم السيّد عجنون ليس إليّ بل إلى نفسه، وبينه وبين نفسه كاد يغمز أيضاً وهو يبتسم، «سر عميق أريد أن اكشفه لك ولكن شريطة أن تعدني بألا تكشفه لأي شخص.»

لشدة انفعالي فقدت صوتي، جاهل مثلي، قامت شفتاي فقط تعدانه بحفظ سرّه.

«وعليه بيني وبينك أقول لك بأننا بمكوثنا في يافا في تلك الأيام أحببنا - أنا ويوسف حاييم أيضاً، حبا عميقا، شموئيل يوسف عجنون.»

سخرية عجنونية، بكل تأكيد، سخرية ذاتية تلسع صاحبها وهي تلسع في الوقت نفسه ضيفه الساذج الذي جاء يشد كمّ ربّ المنزل. وعلى الرغم من ذلك فانه تكمن هنا نواة صغيرة لحقيقة خفيّة، أيّ وميض باهت لسر انجذاب رجل ثخين وهائج إلى شاب نحيل ومدلّل ولسرّ شدة اشتياق الفتى الجاليتسي الرقيق للرجل المتقد المبجّل لكي يأتي ويفرش عليه جناحي أب ويقدّم إليه كتفا مثل كتف أخ بالغ.

ومع ذلك، ليس الحب بل الكراهية المشتركة بالذات هي الّتي تقرب ما بين قصص عجنون وقصص برينر: كلّ الزيف والثرثرة والشاعرية والخيلاء الّتي ميزت الهجرة الثانية، وكلّ الكذب والغطرسة في الواقع الصهيوني، وكلّ الدسامة البرجوازية القانعة بذاتها في حياة اليهود، كل هذه الأمور يبغضها

برينر ويمقتها عجنون. برينر في كتاباته يحطمها بشاكوش غضبه بينما يهاجمها عجنون بالسخرية، يأتي وبيده دبوس حاد لكي يفرّغ الكذب المتظاهر من الهواء الساخن والنتن الذي يملؤها.

وعلى الرغم من ذلك، ففي يافا برينر وفي يافا عجنون بين الكثيرين من المزيّفين والثرثارين والمتظاهرين تومض للحظات شخصيات بعض الشخصيات الصامتة رجال الحقيقة، الذين هم «المتواضعون الصامتون الناسجون خيوط حياتهم بعيدا عن العيون والذين أفكارهم متواضعة وفعالهم متواضعة»(١). سيدي واستاذي دوف سدان هو الذي أظهر كيف تتعقّب قصص برينر سحر كينونة «غائبين/ مجهولين»). كذلك في قصص عجنون نجد أن المتواضعين يمرون أحياناً بصمت وذهول أخرس، إذ من المحتمل أن يكون هناك نوع من الحب المشترك إلى أولئك الصامتين إلى أولئك الرجال- الأولاد الذين عند ظهورهم للحظة في قصص عجنون وبرينر قد يحدث أن يتخلص برينر من هياج غضبه كما يتخلى عجنون، تقديرا لهم، عن تهكّمه وسخريته.

*

كان عجنون إنسانا محافظا يؤدي واجباته الدينية: يحافظ على قدسية السبت، يضع على رأسه قبعة المتدينين، إنسان تقيّ يخشى الله بكل ما تعنيه هذه الكلمة: «الخوف» هي كلمة عبرية مرادفة لل«إيمان». في قصص عجنون توجد زوايا معينة فيها، بطريقة غير مباشرة وبحيل التمويه، ترتسم التقوى وخشية الله كخوف شديد من الله: عجنون مؤمن بالله ويخافه ولكنه لا يحبّه. «إنسان سهل أنا» يقول دانيئل باخ في رواية «ضيف جاء ليبيت»، «- ولا أومن بأن الله تبارك وتعالى يريد مصلحة مخلوقاته.» هذا موقف لاهوتي تناقضيّ، مأساوي وحتى يائس، لم يعبر عنه عجنون إطلاقا تعبيرا استطراديا بل جعله يصدر عن بعض الشخصيات الثانوية في أعماله الأدبية أو أن يفهم

---

(١) عن: حييم نحمان بيالك، نخبة من شعره ونثره، ترجمة راشد حسين، تل أبيب: دار النشر «دفير» ١٩٦٦، ص: ٩٩ (المترجم).

من تقلبات مصير أبطاله. مع الوقت كتبت عن ذلك بتوسّع في كتابي «صمت السماء: عجنون يعجب من الله». في أعقاب صدور هذا الكتاب كتب إليّ عشرات المتدينين، معظمهم من أوساط الأصوليين اليهود ومن بينهم الشباب والنساء وحتى معلمو توراة وموظفون في الشؤون الدينية، بعضهم أرسل رسائل اعتراف حقيقية وحكوا فيها، كلّ بطريقته، بأنهم يجدون في أعماق أنفسهم ما وجدتُه عند عجنون. ولكن ما وجدته في كتابات عجنون وجدته للحظة أو للحظتين عند السيّد عجنون نفسه، في استخفافه اللاذع الذي كان يلامس العدمية الساخرة اليائسة: «لا شك أن الله يشفق عليّ،» قال ذات مرة بعد إحدى الصعوبات اليومية الدائمة الّتي كانت تواجهه في الحافلات، «وإذا لم يشفق علي ربي ربما اشفقت علي لجنة الحي، ولكني أخشى أن شركة «همكشّر»[1] أقوى من كليهما.»

ومرة أخرى قال ما يلي على وجه التقريب: «منذ عدة سنوات والله تبارك وتعالى يخطئ في ظنه بأن القدس هي مدينة ملكوته، وأنه لم يسمع بعد بأن القدس في معظمها للسياسيين نشيطي الأحزاب، وإذا ما أرسل الله تبارك وتعالى المسيح المنتظر فإنهم سيماطلونه بـ«رح وتعال» ويحددون له دورا في الأسبوع القادم وفي الشهر القادم ويستاؤون منه تبارك وتعالى لأنه كمن يتدخل فيما لا يعنيه، وهم سينغصون حياته حتى ييأس ويذهب ليبحث عن مدينة أخرى يكون مَلكا عليها.»

*

خلال سنتَي دراستي في الجامعة في القدس قمت بزيارة تلبيوت مرتين أخريين أو ثلاث مرات. قصصي الأولى نشرت في حينه في ملحق نهاية الأسبوع لجريدة «دفار» أو في فصلية «كيشت» وقد نويت أن أبقيها عند السيّد عجنون وأن اسمع منه حكمه فيها إلا أن السيّد عجنون اعتذر مبررا ذلك «للأسف أنا في هذه الأيام غير قادر على القراءة» وطلب أن أعود إليه بها في المستقبل. في المستقبل جئته صفر اليدين إلا أنني حملت على بطني، تحت

---

(١) شركة حافلات عملت في القدس (المترجم)

سترتي، كمن تخجل بحملها، مجلة «كيشت» وفيها قصّتي. في النهاية لم أجرؤ على ولادتها هناك، خفت أن أكون ثقيلا متعبا، وخرجت من بيته كما جئت ببطن مليئة، أو بسترة منفوخة. بعد سنوات عديدة فقط، عندما جمعت قصص «بلاد بنات آوى» في كتاب (١٩٦٥) استجمعت كلّ جرأتي وأرسلت إليه نسخة. ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ حلّقت في كيبوتس حولدا بخطوات عملاقة منتشيا بشدة البهجة اغني واهتف بلا صوت هتافات السعادة اهتف ودموعي تنسكب في داخلي عندما وصلتني رسالة السيّد عجنون وفيها كتب من ضمن ما كتب: «. . .وعندما ستسنح الفرصة ونلتقي سأقول لك شفاهة أكثر مما كتبت هنا. إن شاء الله سأقرأ بقية القصص في أيام عيد الفصح، لأنني أحب القصص كتلك الّتي تكتبها والتي أبطالها يبدون بكينونتهم الحقيقية.»

في إحدى المرات في أيام دراستي الجامعية، ظهر في إحدى المجلات الأجنبية مقال بقلم أحد النجوم البارزة في موضوع الأدب المقارن (ربما كان ذلك إميل شتايجر السويسريّ؟). عبر كاتب المقال عن رأيه بأن سلالة الأدباء المهمّين الذين نبغوا في أدب وسط أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين هم توماس مان، روبرت موزيل وشاي عجنون. كتبت هذه الأقوال قبل سنوات عديدة من حصول عجنون على جائزة نوبل، وأنا دهشت إلى درجة كبيرة حتى أنني سرقت المجلة من قاعة المطالعة (ماكنات تصوير لم تكن موجودة في تلك الأيام في الجامعة) وأسرعت بها إلى تلبيوت كي أسعد بها قلب السيّد عجنون. وهو سعد فعلا حتى أنه التهم دفعة واحدة ما كتب في المجلة بشغف وهو ما زال واقفا عند عتبة بيته قبل أن يدعوني للدخول، وبعد أن قرأه وعاد وقرأه وربما لعق شفتيه أيضاً، نظر إليّ كما كان ينظر إليّ في بعض الأحيان وسألني بسذاجة: «وهل أنت أيضاً تعتقد أن توماس مان أديب مهم إلى هذا الحد؟»

في مرة أخرى سألته بخبث، ما رأيه في بياليك، وأوري تسفي غرينبرغ وألترمن وهزاز وشلونسكي: رغبت في أن اعتصر منه بعض السم وأن استمتع بخبثه الحادّ: «بياليك» هكذا قال تقريبا، وقد امتلأ صوته فجأة تواضعا جمّاً مشوبا بالإجلال والتعظيم، «كان بياليك أمير اللغة والشعر. منذ أن ختمت

الكتب المقدسة لم ينبغ في بني إسرائيل شخص ألمّ باللغة العبرية مثل بياليك. أمير لغتنا كان بياليك: حتى أنا لم أجد في كلّ كتاباته إلا غلطتين لغويتين.» وعن أوري تسفي غرينبرغ قال عجنون: «أمير اللغة والشعر! فارس شعرنا! لم يقم في أيّ أمة أو لغة شاعر عمل مثلما عمل أوري تسفي؛ حتى أن غوته العظيم لم يعمل مثل ما عمل أوري تسفي، أن يكتب المُلصقات ويشكلها، أن يكتب المُلصقات ويشكلها.» وعندما سألته عن رأيه في شلونسكي، ابتسم وربما أيضاً غمز بعينه بينه وبين نفسه ثمّ قال: «الله عزّ وجلّ بجلاله وعظمته سجع بين كلمتي «توهو وبوهو» (هرج ومرج) فجاء شلونسكي وحسّن ما جاء في سفر التكوين وسجع بوهو مع كموهو وهلوهو ويفوءو وما شابه. عندما سيتسع وقت خالق العالم سيذهب إلى شلونسكي ليتعلم منه أسرار الإبداع، من المحتمل أن تكون قصة الخليقة كلها مسجوعة دزينات الدزينات من قطع الزوزيم.[1]

وهو يقول ذلك لم تعبّر أسارير السيّد عجنون عن خبث ولا عن غطرسة بل عن بهجة عابثة كولد ذكيّ نجح في إيقاع جميع الكبار دون استثناء في فخ وهو يعلم أنه حتى وإن غضبوا عليه فهم لن يستطيعوا أن يخفوا حبهم له وانفعالهم من شدة ذكائه وفطنته واعتزازهم به. في تلك اللحظة بدا الحائز على جائزة نوبل للأدب كالولد العجيب المحروم من الحب والمتعطش إليه. الكثير من الماء لن يروي ظمأه إلى الحب والأنهار لن ترويه. وقد خرجت من بيته كإنسان كشفوا له عن سر عميق وإذا به يتضح له أنه يعرف هذا السر من قبل. وانه كان يعرفه منذ البداية.

*

في إحدى الأمسيات تأخرت عن موعد الحافلة الأخيرة من رحوفوت إلى حولدا وكنت مضطرا للسفر بواسطة سيارة أجرة. تركز الحديث في الراديو طوال ذلك اليوم عن جائزة نوبل الّتي تقاسمها عجنون مع الشاعرة نيلي زاكس، سألني سائق سيارة الاجرة إذا كنت قد سمعت ذات مرة عن

(١) قطع نقدية كانت تستعمل في البلاد في أيام المشناه والتلمود (المترجم).

أديب كهذا، عجنون (وقد لفظ الاسم عجنون بكسر العين): «انظر ما هذا،» تعجّب - انفعل السائق، «لم نسمع ذات مرة عنه وفجأة رفعنا إلى النهائي العالمي. ولكن، للأسف تعادل في النهائي مع امرأة ما.»

السيّد عجنون أيضاً تضايق من هذا «التعادل». وقد اعتقد وحتى تناقش بجدّية وبرزانة وبحماس شبه صبياني بأن لجنة الجائزة ستعود خلال سنتين - ثلاث لتنصفه وتمنحه جائزة نوبل كاملة بدون شركاء وبشكل مطلق. وذات مرة، كمن يسخر من حبه الذاتي ومن تَشَوُّقه إلى الجاه الذي نخره بقوة، قال: «اذهبوا وانظروا كم هو عظيم الجاه الذي من أجله البشر على استعداد لأن يتذللوا ويرتموا تحت الأقدام.»

*

مع الوقت اجتهدت من أجل أن أتحرر من ظل عجنون، كافحت من أجل إبعاد كتابتي عن تأثيراته، عن لغته المُشبعة، المصقولة، البرجوازية أحياناً، ومن إيقاعاته المحسوبة جيدا، من انتشاء تلمودي مع أصداء دافئة للغة من يخشون الله، مع خفقات نغمات إيديشية وتموّجات حكايا حسيدية خصبة وغنية. كان علي أن أتحرر من تأثير سخريته وتهكّمه، ومن الرمزية المفرطة- الشبيهة بأسلوب الباروك ومن ألعاب المتاهات المبهمة، ومن ازدواجية المعاني ومن الطرائف الأدبية المتطورة.

حتى بعد كلّ الجهود للابتعاد والكفاح من أجل التحرر منه، ما زال ما تعلمته من عجنون بكل تأكيد يتردد صداه بشكل لا بأس به في الكتب الّتي ألفتها.

ولكن، ماذا، في الحقيقة تعلمت منه؟

ربما هكذا: أن القي بأكثر من ظل واحد. بألا أقطف الزبيب من الكعكة. أن أكبح وأصقل الألم. وشيء آخر، كانت جدّتي تقوله لي بشكل حاد أكثر مما وجدته مكتوبا عند عجنون: «إذا لم تبق دموع في عينيك كي تبكي، لا تبكِ. اضحك.»

١٣

وفي بعض الأحيان كنت أبقى للمبيت عند جدّي وجدّتي. كانت جدّتي تشير إلى قطعة أثاث أو قطعة ملابس أو إلى شخص وتقول لي:

«إنه قبيح جدّاً إلى درجة أنه يكاد يكون جميلا.»

وأحيانا كانت تقول:

«لقد أصبح حكيما جدّاً، هذا الحكيم، حتى أنه أصبح لا يفهم شيئا.»

أو أيضاً:

«إنه مؤلم ومؤلم ومؤلم حتى أن هذا قد بدأ يصبح مضحكا.»

كانت طوال النهار تدندن بينها وبين نفسها بنغمات جاءت بها من الأماكن الّتي عاشت فيها على ما يبدو بدون تخوّف من الميكروبات وبدون الفظاظة الّتي كانت تشكو منها دائماً الّتي تصيب الجميع هنا:

«مثل البهائم» كانت تطلق فجأة باشمئزاز، دون أيّ سبب ظاهر للعيان، وبدون تحرّش أو سياق، وكذلك دون أن تجشّم نفسها مشقة أن تشرح لنا من يعتبرون في نظرها بهائم. حتى عندما كنت اجلس بجوارها على المقعد في حديقة البلدية قبيل المساء، والحديقة كانت خالية من الناس وكانت الرياح الخفيفة تلامس بلطف أطراف الأوراق وربما هزّت أطراف الأوراق دون أن تلمسها حتى بأطراف أصابعها الشفّافة، كانت جدّتي تلفظ من فمها فجأة، وهي مذعورة ترتجف كلها من شدة الصدمة والاشمئزاز:

«ولكن حقا! كيف يكون ذلك ممكنا! أنهم أسوأ من البهائم!»

وبعد دقيقة تعود تدندن لنفسها نغمات هادئة لا أعرفها.

طوال الوقت كانت تدندن لنفسها، في المطبخ، أمام المرآة، على كرسي شرفتها، وحتى في الليل.

في أحوال كثيرة، بعد الحمام وفرك الأسنان وتنظيف الأذنين بأعواد الأذنين الّتي رؤوسها مكسوّة بالقطن كانا يُضجعاني لأنام إلى جانبها في سريرها الواسع (هو سرير الزوجية الذي هجره جدّي نهائيا أو أنه نفي منه قبل أن أُولد). كانت جدّتي تقرأ لي قصة أو قصتين، تربت على خديّ وتقبلني على جبيني وفورا تجفّف جبيني بمنديل صغير مغموس بالعطر، كانت تحتفظ بها طوال الوقت داخل كمّها الأيسر وكانت تستعمله لمسح الميكروبات أو سحقها ثمّ كانت تطفئ النور علينا. حتى بعد إطفاء النور استمرت تدندن في الظلام، لا تدندن ولا تغمغم أو تهمهم بل كيف أقول ذلك كانت تخرج من جوفها صوتا عميقا حالما صوتا بلون بني - كلون الجوز نغمة خافتة ولطيفة كانت ترقّ حتى تصبح صدى، لونا، رائحة، خشونة لطيفة، دفئا بنيّاً، سائل رحم دافئاً. طوال الليل.

*

لكن، جميع لذائذ الليل هذه، الخشونة والدفء وسائل الرحم، كانت تجبرك على أن تفركها بشدة وعنف كي تنزعها عن جلدك في الصباح الباكر، الشيء الأول وحتى قبل فنجان الكاكاو بدون غشاوة. كنت استيقظ في سريرها على صوت مضرب جدّي الذي كان يدير معاركه الصباحية: بناء على توصية جدّتي كان جدّي يستيقظ صباح كلّ يوم قبل الساعة السادسة ويخرج إلى الشرفة ليخبط بحماس دون كيشوتي الفراش.

قبل أن تكون قد فتحت عينيك كان حوض الحمام المملوء بالماء الساخن الذي يتصاعد منه البخار والمخلوط بمحلول ما معقّم تشبه رائحته رائحة عيادة «صندوق المرضى». على حافة حوض الاستحمام كانت تكمن لك فرشاة أسنان على شعيراتها وضعوا لك جثة دودة بيضاء ملتوية من معجون عاجيّ. كان عليك أن تغمس جسمك وتُصبّنه جيدا جدّاً وأن تفركه بشلة ليف معقوصة كانت تعرف بـ«الليفة»، ثمّ تعود لتغمس جسمك وعندها كانت جدّتي تأتي وتوقفك على ركبتيك داخل مياه الحوض وكانت تمسك

بذراعك بقوة وهي بيديها كانت تفرك وتمسّد جسمك كله من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس، وهي تستعمل فرشاة خيل ذات شعر خشن فظيع مثل الممشّطات الحديدية الّتي استعملت في الإمبراطورية الرومانية الشريرة، تلك الممشّطات الّتي مزّقت جلد الرابي عكيفا وبقية اليهود الذين استشهدوا لتمسّكهم بدينهم أيام الرومان، تفرك بها جسمك حتى يحمر ويصبح بلون اللحم النيئ، عندها كانت جدّتي تأمرك بأن تغمض عينيك بقوّة وكانت تصبّن وتفرك بشدة راسك بيديها وتفرك بأظافرها القوية جذور شعرك، مثل النبي أيوب الذي كان يعذّب جلده بالخزف وطوال هذه الساعة كانت تشرح لك بصوتها البني اللطيف أيّ مستنقع من النتونة والنجاسة تفرز غدد الجسم كلّ ليلة أثناء النوم، مثل العرق اللزج وأنواع مختلفة من الزيوت من فضلات الجسم وأوساخ قشرة الرأس أو حزاز الجلد، وفضلات الكثير من الخلايا الميتة وغيرها من إفرازات السوائل القذرة، وقانا الله منها. وأنت ما زلت نائما ولا تشعر بشيء جميع إفرازات الجسم هذه تتمدد على جسمك ويختلط بعضها ببعض وهي تدعو، ولكن تدعو فعلا وبإصرار الميكروبات والفيروسات لتحضر وتحتشد على جسمك، هذا دون أن نتحدث عما لم يكتشفه العلم بعد، وعن كل ما لا نستطيع أن نراه حتى بأضخم الميكروسكوبات، ولكن حتى ونحن لا نرى هذا - فإنّ هذا يتجول طوال الليل على جسمك مع تريليونات من الأرجل الصغيرة الشّعيرية القذرة والمثيرة للاشمئزاز. أرجل شبيهة جدّاً بأرجل الصراصير ولكن دقيقة جدّاً جدّاً حيث أنها لا ترى، حتى أن العلماء لم يشاهدوها بعد، وهي بهذه الأرجل المليئة بالشعيرات القذرة تزحف وتعود إلى داخل أجسامنا عبر الفم والأنف وعبر، أنا لست بحاجة لأقول لك عبر ماذا تدخل أيضاً، وفي الأساس عندما تدخل في تلك المواضع غير الجميلة فإن الناس لا يغسلونها كما يجب وحتى عندما «يمسّحون» فإنّ «التمسيح» ليس تنظيفا أصلا، بالعكس فإنّهم بذلك يوزّعون الإفرازات الملوثة على ملايين هذه الثقوب الدقيقة الموجودة على سطح الجلد، والموضع كله يصبح أكثر تلوثا واتّساخا وعرقا ومثيرا أكثر للاشمئزاز، وخاصة عندما يختلط الوسخ الداخلي الذي يفرزه الجسم طوال

الوقت صباح مساء ليلا ونهارا مع الوسخ الخارجي الذي يلتصق بنا عندما نلمس موادا غير صحية لا ندري من لمسها قبلنا، مثل القطع النقدية أو الجرائد أو درابزين الدرج أو مقابض الأبواب أو حتى المأكولات الجاهزة، إذ من يمكنه أن يعرف من أصلا عطس لك على هذا الذي تقوم بلمسه، ومن حتى، اعذرني، نظّف انفه في المكان وربما سالت من أنفه بعض القطرات بالضبط على هذه اللفافات الّتي تتناولها مباشرة من الشارع وتضعها على السرير الذي ينام عليه الناس فيما بعد، هذا دون الحديث عن سداداتك الّتي تجمعها مباشرة من القمامة وعلى الذرة الصفراء المسلوقة التي تشتريها لك أمّك، منحها الله الصحة، من يد ذلك الرجل الذي حتى لم يغسل يديه ولم ينشفهما بعدما عملها، عفوا، وكيف يمكننا أن نكون متأكدين بأنه إنسان معافى ولا يعاني بالصدفة من مرض السُّلّ، مثلا، أو الكوليرا؟ أو من نوع من أنواع اليرقان (الصفر) أو الزُّحار (الديزنطاريا) ؟ أو ربما يعاني من أيّ دمّل أو تلويث في الأمعاء أو مرض النملة (الإكْزِيمَا) أو مرض الصّدفيّة على جلده، والذي هو نوع من الجُذام أو الجرب؟ أو ربما أنه ليس يهوديا أصلا؟ هل تعرف أنت كم من الأمراض تنتشر هنا؟ كم من الأوبئة المشرقية؟ وأنا أتحدث فقط عن الأمراض المعروفة، لا عن الأمراض الّتي لا يعرفها حتى الآن العالمون بالأمور، وها هو لا يمر يوم دون أن يموت أحد هنا في الشرق مثل الذباب بسبب أيّ طفيليّ أو جرثومة أو ميكروب أو بسبب أنواع مختلفة من الديدان الدقيقة الّتي لا يعرفها حتى الأطباء وبشكل خاصّ هنا في البلاد حيث الحرارة مرتفعة ويكثر الذباب والناموس والحشرات والنمل والصراصير والبرغش ومن يعرف أيّ أنواع أخرى غيرها، وأن الناس هنا يعرقون باستمرار والناس طوال الوقت يلامسون بعضهم ويحتكون ببعضهم الواحد مع التهابات الآخر وقيحه ومع العرق وجميع السوائل الّتي يفرزها الجسم، والتي من الأفضل لمن في سنك ألا يعرف عن كلّ هذه السوائل الملوّثة، وكل واحد يستطيع أن يبلّل الآخر حتى دون أن يشعر الآخر ماذا التصق به في إطار هذا الاكتظاظ الموجود هنا. المصافحة وحدها كافية لكي تنقل إليك أنواعا مختلفة من الأوبئة وحتى بدون اللمس بل فقط بتنفّس الهواء الذي استنشقه

غيرك قبل قليل إلى رئتيه مع ميكروبات وجراثيم السّعفة أو الرمد الحُبيبي (التراخوما) أو البيلهارسيا. والصيانة الصحية العامة هنا ما زالت بعيدة عن كونها أوروبية، وعلم حِفظ الصحة فنصف الناس هنا لم يسمعوا عنه إطلاقا، والهواء كله مليء بالحشرات الآسيوية: زواحف متنوعة مُقزّزة ذات أجنحة تأتي إلى هنا مباشرة من القرى العربية وحتى من أفريقيا ومن يعلم أيّ أمراض غريبة وعجيبة والتهابات وصديد تحمل معها هذه الزواحف تأتي بها من هناك طوال الوقت، إذ أن الشرق هنا يغص بالميكروبات. الآن قم بتنشيف نفسك بنفسك جيدا مثل ولد كبير دون أن تُبقي أيّ جزء رطب وبعد ذلك ضع أنت بنفسك بحذر بودرة حيث أنت تعرف أين وكذلك حيث تعرف أنت التالي، ضع من حولهما، كذلك أريدك بعد ذلك أن تدهن على عنقك بشكل جيّد من أنبوبة كريم الفلفيتا هذه الّتي هنا، وبعدها ارتدِ الملابس الّتي أضعها لك هنا إذ هذه هي الملابس الّتي حضّرتها لك أمك - وهبها الله الصحة - وكل ما فعلته أنني مررت عليها بمكواة حامية لأنّ ذلك يعقمها ويقتل ما يحتشد داخلها أفضل من الغسيل. بعد كلّ هذا تعال إليّ إلى المطبخ وقد مشّطت شعرك جيدا لتشرب كأس كاكاو ثمّ تتناول فطورك.

وهي تخرج من غرفة الحمام كانت تتمتم بينها وبين نفسها ليس بغضب بل بنوع من الأسى العميّق:

«مثل البهائم، وحتى أكثر سوءا.»

*

باب مع زجاج غير شفاف، زجاج عليه أشكال أزهار صقيعٍ هندسية، فصل بين غرفة جدّتي وبين الزاوية الصغيرة الّتي سميت «مقصورة الجدّ أَلِكْسَنْدِر». من هذه المقصورة كان لجدّي مخرج خصوصي، له وحده، يؤدي إلى الشرفة ومنها إلى الحديقة ومنها إلى الخارج إلى المدينة إلى الحرية.

في زاوية هذه المقصورة انتصبت الأريكة الأوديسيّة الضيقة والصلبة كلوح الخشب والتي كان جدّي ينام عليها في الليالي. تحت الأريكة انتظمت مثل الجنود الجدد في طابور واحد مستقيم، ثمانية أو تسعة أزواج من الأحذية، كلها سوداء لامعة كما ينبغي: تماما كما جمعت الجدّة شلوميت

تشكيلة من القبعات باللونين الأخضر والبني والأحمر القاني وحافظت عليها كما تحافظ على بؤبؤ عينها داخل صندوق قبعات مستدير، أحبّ الجدّ أَلِكْسَنْدِر أن يسيطر على أسطول كامل من الأحذية والتي كان يلمّعها حتى كانت تتلألأ مثل البلّور، منها ما هو صلب وسميك النعل، ومنها ما هو مستدير المقدمة، أو حاد الطرف ومخرّم، ومنها ما هو مع رباط الحذاء وما هو مع سيور ومنها ما هو مع إبزيم.

مقابل الأريكة انتصبت منضدته الصغيرة، مرتبة دائماً بشكل كامل وعليها محبرة ونشّافة مصنوعة من خشب الزيتون. النشافة في نظري بدت مثل الدبابة أو السفينة ذات مدخنة غليظة تبحر باتجاه رَصِيف الميناء الذي كان مكوّناً من ثلاثة أوعية فضية لامعة: الأول مملوء بالمشابك، والثاني مليء بالدبابيس والثالث مثل جحرٍ ممتلئ بالأفاعي، تلوّت وتشابكت فيه المطّاطات. بالإضافة إلى هذه يوجد على منضدة الجدّ حافظة فهرسة مستطيلة الشكل مصنوعة من المعدن فيها أدراج للبريد الداخل ودرج للبريد الصادر ودرج لقصاصات الصحف ودرج للمستندات الخاصة بالبلدية والبنك، ودرج آخر لمراسلاته مع حركة الحيروت فرع القدس. كما كانت هناك علبة من خشب الزيتون مملوءة بطوابع البريد من فئات مختلفة وفيها أيضاً خلية خاصّة للاصقات «اكسبرس»، وأخرى للاصقات «مسجّل» وثالثة للاصقات بريد جوي. وكانت زاوية خاصّة بالمغلفات وزاوية أخرى للبطاقات البريديّة، ومن خلفها وقف منصب فضيّ على شكل برج إيفل الذي كان قادرا على الدوران حول محوره. حمل هذا المنصب على ظهره الأقلام وأقلام الرّصاص بألوان مختلفة كان من بينها قلم عجيب له رأسان أحمر من جهة وازرق من الجهة الأخرى.

وفي زاوية منضدة جدّي بالقرب من ملفات المستندات انتصبت طوال الوقت قنينة عالية وغامقة من الليكر الأجنبي وبجانبها ثلاث أو أربع كؤوس خضراء كانت تشبه قوام النساء ممشوقات القد. أحب جدّي الجمال وتقزّز من البشاعة كما أحب أحياناً أن يقوي قلبه الهائج والوحدانيّ بجرعة ليكر خفيفة، بينه وبين نفسه: العالم لم يفهم مشاعره. زوجته لم تفهم مشاعره وما

يجيش بصدره. في الحقيقة لم يفهم مشاعره أيٌّ من البشر. فقد تطلع قلبه دائماً إلى العلى ولكنهم جميعا تآمروا مَعاً كي يقصوا له أجنحته، زوجته وأصدقاؤه، وشركاؤه كلهم كانوا شركاء في مؤامرة هدفت إلى إغراقه في بوابات الرزق الـ ٤٩ وفي النظافة والترتيبات والصفقات التجارية الصغيرة وفي ألف من الأعباء والواجبات. كان إنسانا مريحا، سريع الغضب ولكن من السّهل إرضاؤه. حيثما وجد واجبا ملقى على الأرض، واجبا عائليا أو واجبا عاما أو واجبا أخلاقيا، كان ينحني ويحمل هذا الواجب على كتفيه أو ظهره. ولكنه بعد ذلك كان يئنّ ويشكو من ثقل العبء ومن أنّ العالم كله وعلى رأسه جدّتي يستغلون طيب قلبه ويحملون على عاتقه ألف موضوع وموضوع قادر على إطفاء جذوة الشعر الّتي تتقد في صدره، بالإضافة إلى أنهم يستخدمونه كساعٍ.

في ساعات النهار عمل جدّي أَلِكْسَنْدِر سمسارا تجاريا ومسوّقا لمنتجات الملابس، الوكيل المقدسي لمصنع النسيج «لودزيا» ولعدد من الشركات المحترمة الأخرى. في داخل حقائب تراكمت فوق بعضها فوق رفوف ارتفعت على ارتفاع الحائط كانت عنده دائماً نماذج ملوّنة للأقمشة والقمصان وبنطلونات التريكو والغَبَردين والجوارب والمناشف وشراشف الطاولات وستائر الشبابيك وكل مستلزماتها. سُمح لي باستعمال بعض هذه الحقائب دون أن أفتحها لبناء القلاع والأبراج والأسوار الواقية. كان جدّي يجلس على كرسيّه ظهره إلى المنضدة، رجلاه ممدودتان إلى الأمام ووجهه الوردي المتوهّج دائماً من شدة الطيبة والرضا كان يبشّ في وجهي ببهجة وكأن برج الحقائب الذي يبنى ويرتفع أمامه على أرض الغرفة من المتوقع أن يغطّي على الأهرام وعلى حدائق بابل المعلقة وعلى سور الصين العظيم مَعاً. جدّي أَلِكْسَنْدِر هو الذي حكى لي عن الأهرام وعن الحدائق المعلقة وعن عجائب الدنيا الأخرى الّتي أنجزتها روح الإنسان. مثل البارثِنون والكولوزيوم ومثل قناة السويس وقناة بَنَما وبناية الإمبايَرسْتيت وكنائس الكرمِلين، وقنوات البندقية، وقوس النصر وبرج إيفل.

*

في ساعات الليل في وحدته داخل مقصورته بجانب منضدته مع كأس ليكر حلو كان جدّي أَلِكْسَنْدِر شاعرا حسّاسا يغمر العالم الذي تنكّر له أبياتا من شعر الغزل والبهجة والحماس والأسى باللغة الروسيّة. صديقه يوسف كوهين- تسيدك كان يترجم أشعاره إلى العبرية: «بعد خمس وعشرين سنة من الموت/ أيقظني الله!/ فتح عيني بيد محبّة/ لأعيش ثلاثة أيام/ ومن دان وحتى بئر السبع/ أعبر الوطن/ أستجلي كلّ وادٍ وتلة/ استكشف عظمتها/ كلّ شخص يجلس مطمئنا/ تحت كرمته وتحت تينته/ الكثير من الثمار تملأ الأرض/ وقد امتلأت بلادي بالبهجة. . ./» وفي قصيدة أخرى: «عندما تفتح الظلمة هاوية البلعوم/ وبظلاله يلفني الليل/ اصرخ إلى الرّبّ لينتقم/ للانتقام للنقمة أصلّي. . ./» أو حتى: «يوم كامل حتى حلول الظلام / من بئر السبع وحتى دان/ نفجّر الصخور بلا توقف/ وبالمطرقة ندق على السندان/ شعب يشيد له وطنا هنا/ شعب هنا إلى واحته عاد/ ويقيم غيها بأيدٍ عاملة/ بيتا - ملجأ وقرية ومستوطنة. . .»

كما كتب قصائد مديح وافتخار يمجّد فيها شخصيات زئيف جابوتنسكي ومناحم بيغن وأخاه المبجّل العمّ يوسف، بالإضافة إلى قصائد الهجاء والغضب ضدّ الألمان والعرب والبريطانيين وغيرهم من مبغضي اليهود. بين هذه كلها وجدت أيضاً ثلاث - أربع قصائد وحدة وحزن: «في الأحلام، في صمت المعاناة/ وتألق القمر مكسو/ رأيتك أمامي منتصبة/ نظراتك تشع ألمعية. . .» أو : «أفكار الحزن والأسى والمعاناة/ كم غمرتني في غروبي شمس أيامي/ برد الخريف تسرب، غيوم بالآلاف/ تبكي، تنعى انتهاء شبابي. . .»

ولكن، بشكل عام لم تغمره غيوم الخريف : فقد كان شخصا قوميا، وطنيّا يحب العسكرية والانتصارات والاحتلال، صقرا هائجا وساذجا يؤمن بأننا إذا ما تسلحنا نحن اليهود بالشجاعة والإصرار وانتصاب القامة وعظم النفس وما شابه، إذا ما قمنا أخيرا ولم نعر الأغيار بالا فإننا نستطيع أن نقضي على كلّ أعدائنا وأن نقيم مملكة داوود من النيل إلى النهر الكبير نهر الفرات، وكل الأغيار الأشرار المتوحشين سيأتون للركوع أمامنا. كان يشعر بالضعف

أمام السامي والقوي واللامع- البزّة العسكرية، أبواق النحاس البراقة اللامعة، أعلام ورماح تلمع تحت أشعة الشمس، قصور الملوك ولافتات أبطال. كان ابن القرن التاسع عشر، مع أن العمّر امتد به ورأى أكثر من ثلاثة أرباع القرن العشرين.

اتذكره وهو يرتدي بدلة صوفيّة ناعمة بلون بيج فاتح أو ببدلة مخطّطة حادة الثنيات والتي تحتها كان يلبس أحياناً سترة (فِسْت) بيكيه مع سلسلة فضيّة ناعمة أحاطت ببطنه حتى دخلت جيب هذه السترة (كان يسمّي السترة «صدرية» وأنا كنت أكبت ضحكة فظيعة كانت على وشك أن تتحوّل إلى قهقهة مدوية). في الصيف كان يعتمر قبعة قش فاتحة اللون مخرّمة وفي الشتاء - قبعة بورسلينو يحيط بها شريط حريري غامق اللون. كان سريع الغضب فظيعا ومرعبا، مستعداً لهياج فجائي ولعواصف رعدية مدوية، ولكنه سرعان ما كان يصفو ويغفر ويعتذر ويتأسف ويرتبك قليلا وكان غضبه لم يكن إلا نوبة عابرة من السعال الصعب. عن بعد كنت تشعر دائماً بحالته النفسية، لأنّ لون وجهه كان يتبدّل مثل إشارات المرور الضوئية بين الوردي والأبيض والأحمر ثمّ يعود إلى الزهريّ: في معظم الوقت كانت وجنتاه ورديتين من الرضا، وأحيانا كانت تبيضّ من الإهانة أو تحمرّ من الغضب، وخلال وقت قصير تعود إلى اللون الوردي تبشر العالم بأن الرعد قد هدأ وأن الشتاء قد انقضى وها هي البراعم بدأت تتفتح في البلاد، وبهجة جدّي الدائمة تعود لتشع وتتلألأ من جديد بعد استراحة قصيرة، وخلال لحظة كان ينسى نهائيا من وماذا أغضبه وبسبب أيّ شيء استشاط غضبه، مثله مثل الصبي الذي بكى للحظة وللتو هدأ وضحك وعاد فرحا مسرورا إلى ألعابه.

١٤

الرابي أَلِكْسَنْدِر زيسكيند من هوررودنو الذي توفي في سنة ١٧٩٤ يلقّب وفق تقاليد الحاخامات باسم «يوشا» وهي اختصار بالعبرية لاسم كتابه المعروف «أساس وأصل العمل». كان صوفيا، من علماء «الكبلاه»، زاهدا وهو المؤلف الدؤوب لعدد من «كتب الأخلاق» عظيمة الأثر. حدّثوا عنه أنه «كان يجلس كلّ الوقت منفردا في غرفة ضيّقة ويدرس التوراة، وانه لم يقبّل ابدأ أحدا من أولاده أو يحتضنه ولم يحدثهم بحديث غير جادّ». اهتمت زوجته لوحدها بتدبير اقتصاد المنزل وتربية الأولاد. وعلى الرغم من ذلك، وعظ هذا الزاهد كلّ الزهد بأن «يعبدوا الله من خلال الفرح الكبير والحماس الكثير» (قال عنه الرابي نحمن من براتسلاف بأنه «كان حسيديا قبل ظهور الحسيدوت»). إلا أن الفرح والحماس لم يمنعا الرابي أَلِكْسَنْدِر زيسكيند من أن يأمر في وصيته بعد موته بأن «تنفّذ شركة «كديشا» في جثماني أربع طرق الإعدام المتبعة بحسب الشريعة» حتى يتمزق إربا إربا. على سبيل المثال: بأن «يرفعه عدد من الرجال حتى السقف ويلقوه بقوة كبيرة إلى الأرض مباشرة دون أن يضعوا تحته شرشفا أو قشّاً وأن يقوموا بذلك سبع مرات الواحدة تلو الأخرى، وها أنا أحكم بالحرمان... على شركة «كديشا» بأن ينفّذوا بي هذه الإعدامات السبعة وألا يحاولوا أن يشفقوا عليّ من هذه الإهانة، لأنّ في الإهانة احتراما لي كي أتخلص من بعض الحكم علي يوم الحساب السماوي.» وكل ذلك - للتكفير عن سيئاتي أو من أجل تطهير نفسي، «من أجل نفس وروح أَلِكْسَنْدِر زيسكيند ابن المرأة رفقا». كذلك من المعروف عنه

أنه تنقّل بين مدن ألمانيا لكي يجمع الأموال من أجل توطين أرض إسرائيل، حتى أنه سجن بسبب ذلك. سميت سلالته باسم عائلة «براز» أي أبناء الرابي ألِكْسَنْدِر زيسكيند.

يعتبر ابنه الرابي يوسلي براز، وهو واحد من أولئك الذين لم يقبّله والده ولم يحمله على ذراعيه ولو مرة واحدة، إنسانا صالحا تقيّاً، كرّس كلّ حياته لتأمل التوراة ولم يخرج من الغرفة المخصصة لدراسة التوراة في الكنيس طوال أيام العمل الستة، ولا حتى لكي ينام: فقد كان يسمح لنفسه أن يغلب عليه النعاس وهو جالس ورأسه على ذراعه وذراعه على الطاولة لمدة أربع ساعات كلّ ليلة، وهو يمسك بشمعة مشتعلة وعند انتهاء الشمعة توقظه شعلتها من غفوته. كما أن وجباته الخفيفة كانت تُحضر إليه إلى مكان تواجده الذي لم يكن يغادره إلا مع دخول السبت ويعود إليه مع خروج السبت. كان زاهدا، تماما مثل أبيه. زوجته الّتي أدارت دكان أقمشة أعالته وأعالت أولاده طوال أيام حياته، كما صنعت أمه في حينها، لأنه لشدة تواضعه رفض الرابي يوسلي بشدة أن يتسلّم وظيفة رابي، بل كان معلما للتوراة لأبناء الفقراء بدون مقابل. كما أنه رفض أن يترك وراءه كتبا لأنه اعتبر نفسه أصغر من أن يجدّد شيئا لم يقله من سبقوه.

ابن الرابي يوسلي، الرابي ألِكْسَنْدِر زيسكيند براز (جدّ جدّي ألِكْسَنْدِر) كان تاجرا ثريّاً تاجر بالحبوب والكتّان وحتى بشعر الخنزير، وفي تجارته وصل حتى كونيجسبرغ ودانزيغ وحتى لايبزيغ. كان متشددا في تأدية الفرائض ولكن ضمن ما هو معروف عنه فقد ابتعد عن تزمّت والده وجدّه: فهو لم يدر ظهره للحياة الدنيا، ولم يحي من عرق جبين زوجته ولم يمقت روح العصر ولم يتحفّظ من الثقافة: فقد سمح لأولاده بأن يتعلّموا اللغتين الروسية والألمانية وبعض «النظريات الغربية» وحتى أنه شجع ابنته روشا- كايلا براز على تحصيل العلم والثقافة. وهو بكل تأكيد لم يُقسم على شركة «كاديشا» ويهددها بالحرمان حتى تقطع جثمانه إربا إربا بعد موته.

*

مناحم مندل براز، ابن ألِكْسَنْدِر زيسكيند، وحفيد الرابي يوسلي وابن

حفيد أَلِكْسَنْدِر زيسكيند مؤلف «أساس وأصل العمل»، سكن مدينة أوديسا في أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر وأدار مع بيرلة زوجته مصنعا صغيرا للزجاج. قبل ذلك، في أيام شبابه عمل كموظّف حكومي في كونيجسبرغ. كان مناحم براز رجلا جميل الطلعة، غنيا، يستمتع بحياته، جريئا، تجاوز المحرمات وحتى وفق المفاهيم المنفتحة والمتسامحة لأوديسا اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر: فقد كان ملحدا معلنا إلحاده، من أتباع مذهب اللذة عن وعي وإصرار، أما الدين والمتزمتين فيه فقد ازدراهم بنفس التفاني وبنفس الحماس اللذين نفذ بهما جده ووالد جده كلّ كلمة وحرف في التوراة. كان مناحم براز متحررا في آرائه محبا للتظاهر بها، يدخن يوم السبت أمام الجميع، يأكل المحرّمات بمتعة وشهية، يسعى وراء الشهوات من منطلق النظرة الحزينة لقصر حياة الإنسان ومن منطلق الكفر المتقد بالثواب والعقاب وبالآخرة. كان يعتقد، معجبا بأبيقورُس وبفولتير، بأنه يليق بالإنسان أن يمدّ يده وأن يأخذ حفنتين من كلّ ما تقدمه له الحياة وأن يستمتع بلا قيود وبلا حدود بكل ما يشتهيه قلبه شريطة ألا يسيء إلى الآخرين ولا يظلمهم ولا يسبب لهم المعاناة والألم. أما روشا- كايلا أخت مناحم - مندل وبنت الرابي أَلِكْسَنْدِر زيسكيند براز، فقد زوّجوها بالطريقة التقليدية عن طريق الخاطبة ليهوديّ بسيط من القرية الصغيرة أولكَنيني الّتي في ليتوانيا (غير بعيدة عن فيلنا) اسمه يهودا ليبف كْلاوْزنِر، ابن مستأجر مزرعة يحمل اسم يحيزقيئل كْلاوْزنِر، من نسل الرابي افراهام كْلاوْزنِر صاحب «كتاب العادات» والذي عاش في فيينا في أواخر القرن الرابع عشر.(١)

---

(١) توارث الأسماء: اسم ابنتي الكبيرة فانيا على اسم فانيا أمّي واسم ابني دانيئل يهودا آريه على اسم دانيئل كلاوزنر ابن عمي الذي ولد سنة قبل مولدي وقتله مع والديه دافيد ومالكه الألمان في فيلنا عندما كان ابن ثلاث سنوات، كذلك على اسم والدي يهودا آريه كلاوزنر، الذي سمي على اسم جده يهودا ليبف كلاوزنر من قرية أولكنيتسكي والذي هو من ذرية الرابي افراهام كلاوزنر صاحب «كتاب العادات» الذي عاش في فيينا في أواخر القرن الرابع عشر. جدّي من جهة أبي كان أَلِكْسَنْدِر زيسكيند كلاوزنر الذي سمي بهذا الاسم على اسم جده من جهة أمه أَلِكْسَنْدِر زيسكيند براز، والذي =

الكْلاوْزنِر يون المقيمون في قرية أولكَنيني على عكس أولاد عمومتهم المتعلمين المقيمين في بلدة تراكاي (Trakai) المجاورة كانوا في الغالب يهودا قرويين بسطاء، أقوياء وعنيدين وساذجين. ربّى يحيزقيئل كْلاوْزنِر البقر والغنم والأشجار المثمرة والخضراوات في البداية في قرية بوبيشوك (أو ببيشكي)، وبعدها في قرية رودنيك، وأخيرا في قرية أولكَنيني، كلها في ضواحي مدينة فيلنا. يهودا لييف مثله مثل أبيه يحيزقيئل قبله، تعلم جزءا صغيرا من التوراة وصفحة تلمود على يد معلم قروي، أدى الفرائض ولكنه مقت التبحر في الدراسة والتعمق فيها. وقد أحب حياة البر ومقت حياة الكتاب.

بعد أن جرب حظه في تجارة الحبوب وفشل لأنّ التجار الآخرين سرعان ما اكتشفوا سذاجته ونجحوا دون عناء في خداعه وإبعاده من طريقهم، اشترى يهودا لييف كْلاوْزنِر بما بقي معه من أموال حصانا وعربة وكان ينقل بواسطتها الركاب والبضائع من قرية إلى أخرى. كان حوذيا معتدلا، لين العريكة، وقانعا بنصيبه، يحب الطعام الجيّد وأناشيد السبت والأعياد وشرب العَرَق في ليالي الشتاء، لم يضرب بالسوط فرسه ولو مرة واحدة في حياته ولم يخف من المغامرة وخوض الصعاب. كان يحبّ التنقل وحيدا، وهو يسافر ببطء وروِيّة، في عربته المحمّلة بالحطب أو بأكياس الحبوب عبر الغابات في الظلام وعلى امتداد الصحاري الخالية من البشر، عبر العواصف الثلجية، وعلى عرض طبقة الجليد الدقيقة الّتي تغطي سطح النهر في الشتاء. ذات مرة (هكذا أحب جدّي أَلِكْسَنْدِر أن يحكي لي المرة تلو المرة، في أمسيات الشتاء) تكسرت طبقة الجليد تحت عجلات عربة يهودا لييف، فقفز هو وأمسك بقوة بكلتا يديه القويتين برسن الحصان وشدّه حتى نجح في إنقاذ حصانه وعربته من الجليد.

= حمل هو الآخر اسم جده الرابي أَلِكْسَنْدِر زيسكيند من هوروودنا صاحب كتاب «أساس وأصل العمل». أما أخي دافيد فقد سمّي على اسم عمي دافيد، أخ والدي، الذي قتله الألمان في فيلنا. ثلاثة من أحفادي يحملون اسم الجدّ (مكابي زيلتسبرجر) أو اسم الجدّة (لوطا زيلتسبرجر وريفا تسوكرمن) (المؤلف).

ولدت روشا - كايلا بنت عائلة براز ثلاثة أبناء وثلاث بنات من زوجها الحوذيّ. في سنة ١٨٨٤ أصيبت روشا - كايلا بمرض خطير مما اضطر عائلة كلاوْزنِر إلى اتخاذ قرار بالانتقال من أولكَنيني النائية إلى أوديسا، حيث يسكن أخو المريضة الثريّ والحازم: مناحم- مندل براز الذي لا شك سيساند أخته ويساعدها في الحصول على العناية الطبية على أيدي أفضل الأطباء.

عند وصولهم إلى أوديسا سنة ١٨٨٥ كان العمّ يوسف الابن البكر لعائلة كلاوْزنِر فتى «نابغة» في الحادية عشرة من عمره، مدمنا على المثابرة والاجتهاد يحب اللغة العبرية ومتعطشا للثقافة. كان شبيها بأبناء عمومته من عائلة كلاوزنر واسعي الاطلاع ومتوقّدي الذهن من بلدة تراكاي، أكثر مما كان يشبه أجداده المزارعين والحوذيين من أولكَنيني. عمه الابيقورسي - الفولتيري مناحم براز توسّم فيه العظمة وساعده في دراسته. أما أخوه ألِكْسَنْدِر زيسكيند، فقد كان وقت الانتقال إلى أوديسا ابن أربع سنوات، هائج المزاج، حساسا، سرعان ما تبيّن أنه يشبه أفراد عائلة كلاوْزنِر القرويين، والده وجده: لم يكن يميل إلى التعليم، ومنذ صغره أحب أن يتجوّل طويلا في الفضاء الرحب والنظر إلى أعمال الناس وأن يستنشق ويتحسس العالم، وأن ينزوي في المرعى أو في الغابة وأن يبني قصورا من الأحلام. ومع ذلك كان يفيض مرحا وبهجة وكرما وطيبة حتى أن كلّ من رآه كان يستلطفه ويحبه. وكان الجميع ينادونه باسم الدلال زيسيا أو زيسل.

كما كان هناك العمّ بتسالئل والأخوات الثلاث الذين لم يصلوا إلى البلاد أبداً: صوفيا وآنا وداريا. مما نجحت في معرفته فقد كانت صوفيا بعد الثورة معلمة للأدب وبعدها أصبحت مديرة مدرسة ثانوية في لينينغراد. أما آنا فقد توفيت قبل الحرب العالمية الثانية في حين أن داريا - دفورة وزوجها ميشا حاولا الهرب بعد الثورة إلى فلسطين إلا أنهما اضطرا إلى البقاء في كييف بسبب حمل داريا.(١)

---

(١) ابنة داريا هذه، ايفيتا ردوفسكايا، امرأة عمرها أكثر من ثمانين سنة تراسلني حتى يومنا هذا. العمّة ايفيتا ابنة عمة أبي، هجرت بطرسبورغ بُعيد انهيار الإتحاد السوفييتي =

على الرغم من مساعدة العمّ الثري مناحم وغيره من الأقارب الأوديسيين من الطرف البرازي للعائلة إلا أن أحوال أفراد عائلة كلاوْزنِر المادية ساءت بعد وقت قصير من وصولهم إلى أوديسا: الأب يهودا ليبف وهو رجل قوي ومعتدل إلا أنه مليء بالحيوية ويحب الدعابة أخذ يذوي بعد أن اضطر إلى استثمار بقية توفيراته الّتي احضرها معه من القرية الليتوانية، في شراء دكان بقالة صغيرة وخانقة منها اعتاش أفراد عائلة كلاوْزنِر بصعوبة. تاقت نفسه إلى الصحراء والغابات والسهول المكسوة بالثلوج وإلى الحصان والعربة وإلى الخان والنهر الّتي تركها وراءه في القرية الليتوانية. بعد مرور عدة سنوات مرض وذوى ومات في ظلمة دكان البقالة المنخفضة وهو في السابعة والخمسين من عمره فقط. الأرملة روشا - كايلا عاشت حوالي خمس وعشرين سنة بعد وفاته. وقد توفيت في حي البخاريين في القدس في سنة ١٩٢٨.

*

في حين ما زال العمّ يوسف يواظب على دراسته في أوديسا وبعدها في جامعة هايدلبرغ، يدرس ويمحّص ويسطع اسمه بالعلم والمعرفة ولا ينسى أو يضيّع شيئا، ترك الجدّ أَلِكْسَنْدِر دراسته وهو ما زال فتى في الخامسة عشرة وبدأ يجرب حظه في أنواع مختلفة من الأعمال التجارية الصغيرة، يشتري شيئا ما من هنا ويبيع شيئا ما هناك، وفي الليل يخربش قصائد هائجة باللغة الروسية، يسترق النظر إلى شبابيك العرض وإلى تلال الشمام والعنب والبطيخ وكذلك إلى النساء الجنوبيات الشهوانيات، يهرول إلى البيت ليؤلف المزيد من القصائد الغنية بالأحاسيس الجياشة، ثمّ يعود ليتجول في شوارع أوديسا وهو يركب دراجة هوائية ولكن مع ربطة عنق وملابس أنيقة وفق آخر تقليعة

= واستوطنت في كليفلاند، ولاية اوهايو. ابنتها الوحيدة، مارينا، الّتي كانت في مثل سني، ماتت في بطرسبورغ في ريعان شبابها. نيكيتا، ابن مارينا الوحيد ابن عم أولادي، سافر مع جدته إلى أمريكا ولكنه ندم بعد وقت قليل ثمّ عاد إلى روسيا، أو إلى أوكرانيا وهناك تزوّج وعمل طبيبا بيطريا قرويا وهو يربي بناته اللواتي هن في سن أحفادي (المؤلف).

رجالية - مثيرة ما استطاع إلى ذلك سبيلا. بكل تأكيد كان في منظره شبيها بالفتيان الحلوين المليئين بالحيوية والمتأنقين من حيّ مولدفانكا في قصص ايزاك بابل،[١] يدخن السجائر مثل الكبار، شاربه الأسود معتنى به بشكل جيد ومدهون بالشمع. قد يسير في طريقه باتجاه الميناء ليمتع ناظريه بمنظر السفن والعتالين وفتيات الميناء الرخيصات، وقد يقف ليشاهد بانفعال وحماس استعراضا تقوم به كتيبة جنود على وقع نغمات مارش تعزفه اوركسترا عسكرية، وقد يقضي ساعة أو ساعتين في المكتبة يقرأ بشغف كلّ ما لاح له، ثمّ يعود ليقرر بأنه لن يحاول منافسة أخيه البكر النابغة في العلم وقراءة الكتب. مؤقتا أخذ يتعلم كيف يرقص مع الفتيات من العائلات العريقة، وكيف يرتشف كأسا من المشروبات الروحية أو كأسين أو ثلاث دون أن يفقد توازنه، وكيف يتعرف ويبني علاقات في المقاهي وكيف يعاكس قليلا الكلب لكي يبدأ محادثة مع صاحبته.

كانت تجولاته في شوارع أوديسا وهي مدينة ميناء مثيرة للحواسّ، تغمرها الشمس وتكثر فيها الأقليات من جنسيات مختلفة، وهو يصاحب هؤلاء وهؤلاء، يعاكس الفتيات، يشتري شيئا ما، ويبيع شيئا ما، يربح شيئا ما، يجلس في زاوية أحد المقاهي أو على مقعد في حديقة عامّة، يخرج دفتره، يكتب شعرا مقطوعيا، ثمّ يعود يركب دراجته مسرعا ليقوم متطوّعا بعمل الساعي عند كبار رجالات «محبّي صهيون»[٢] في أوديسا قبل اختراع التلفون: يحمل وريقة مستعجلة من أحاد هعام إلى مندلي موخر سفاريم، أو من مندلي موخر سفاريم إلى السيّد بياليك صاحب الدعابة والنكتة المرحة أو إلى السيّد مناحم أوسيشكين ومن السيّد أوسيشكين إلى السيّد ليلاينبلوم، ومؤقتا وخلال انتظاره في الصالون أو الممر لكتابة الردّ كانت تتناغم في قلبه باللغة الروسية قصائد بروح «محبة صهيون»:

---

(١) كاتب يهودي روسي ١٨٩٤- ١٩٤١ (المترجم)
(٢) هم أعضاء منظمة «محبة صهيون» وهي منظمة أقامها يهود روسيا في القرن التاسع عشر (المترجم).

«أورْشَليم ذات الشوارع المرصوفة بحجارة الياقوت والعقيق حيث تقف الملائكة في كلّ زاوية فيها والسماء من فوقها تتلألأ وتضيء بنورها السماوات السبع».

كما أنه تغنّى بأغاني حب اللغة العبرية وكان يمجّد جمالها ويمتدح نغماتها ويقسم لها بالإخلاص إلى الأبد وكل ذلك باللغة الروسية (حتى بعد أن عاش أكثر من أربعين سنة في القدس لم ينجح جدّي في تعلم اللغة العبرية الصحيحة: حتى آخر أيامه تكلم بلغة عبرية خاصة غير ملتزمة بقواعد اللغة وكان يكتب اللغة العبرية بأخطاء فظيعة. في آخر بطاقة بريد أرسلها إلينا إلى كيبوتس حولدا قبل فترة قصيرة من وفاته في سنة ١٩٧٧ كتب يقول: « أحفادي وأبناء أحفادي الجدّا غالين علي أنا جدّاً جداً مشتاك إليكم. أنا جدّاً جدّاً أريد أن اراكم كلكم!»)

*

في سنة ١٩٣٣ عندما وصل أخيراً إلى القدس مع الجدّة شلوميت كثيرة المخاوف توقف عن الشعر وانغمس في حياة التجارة: خلال عدة سنوات سوّق بنجاح للسيدات المقدسيات المتعطشات إلى مباهج أوروبا فساتين تمّ استيرادها من فيينا من أزياء السنة قبل الأخيرة. إلا أنه خلال بضع سنوات ظهر يهوديٌ آخر نشيط أكثر من جدّي وبدأ يستورد إلى القدس فساتين باريسيّة من موديلات السنة الفائتة وهزم جدّي مع فساتين فيينا وأبعده عن هذا العمل مما اضطره إلى التنازل عن محبة الفساتين حتى وجد نفسه يزوّد القدس بجوارب لودزيا من حولون ومناشف من إنتاج الشركة الصغيرة شتشوباك وأولاده في رمات غان.

الهزيمة والعوز أعادا إليه شيطان الشعر وشاعريّته الّتي هجرته في أيام ازدهار التجارة. عاد مرةً اخرى إلى العزلة في الليل في «مقصورته» يكتب القصائد الهائجة المثيرة باللغة الروسية متغنياً بعظمة وفخامة اللغة العبرية وسحر أورْشَليم، لا تلك الفقيرة المغبرّة الخمسينية المتزمتة بل أورْشَليم الّتي تعبق شوارعها برائحة شجر المر والبخور. وفوق كلّ ميدان من ميادينها يحلق ملاك الرّبّ. إلا أنه في هذه اللحظة دخلت أنا إلى الصورة بدور الولد الصغير

الجريء من قصة «ملابس الملك الجديدة» وبمرارة واقعية هاجمت جدّي على أشعاره هذه: إنّك تعيش في القدس منذ سنوات طويلة، وأنت تعرف جيدا جدّاً بم رَصفت في الحقيقة شوارع القدس وماذا يحلّق في الحقيقة هنا فوق ميدان صهيون اذاً لماذا طوال الوقت تكتب عن أشياء غير موجودة؟! لماذا لا تكتب شيئاً عن القدس الحقيقية! عند سماعه أقوالي الوقحة ثار وزمجر الجدّ أَلِكْسَنْدِر وتحول في لحظة من وردي ناعم إلى أحمر فاقع وضرب بقبضة يده الطاولة وصرخ بي:

«أورْشَليم الحقيقية؟! ما الذي تعرفه حشرة صغيرة مثلك عن أورْشَليم الحقيقية؟! إن أورْشَليم الحقيقية هي الموجودة في أشعاري بالذات!!»

- «وإلى متى ستبقى تكتب باللغة الروسية يا جدّي؟»

- «ماذا تقصد، تي دوراك (أيها الأحمق)، يا من ما زلت تبول في فراشك، فأنا أجري حساباتي باللغة الروسية! وأشتُم نفسي باللغة الروسية! وفي الروسية أحلم أحلامي في الليل! وفي الروسية حتى أنني...-» إلا أن جدّتي شلوميت الّتي عرفت بالضبط ماذا سيأتي مباشرةً بعد قوله «حتى أنني» سارعت إلى مقاطعته قائلةً بغضب: «شتو اس توبوي! تي ني نورمالني؟! فيديش مالتشيك ريادوم اس نامي !!» (ما هي مشكتك هل أنت غبي؟ ألا ترى أن الولد على حقّ هنا!!)

«هل ترغب يا جدّي بالعودة إلى روسيا؟ للزيارة؟»

«إنها ليست قائمة بعد، بروبادي.»

- «ما هي الّتي ليست موجودة ؟»

- «ما غير موجود؟ ما غير موجود؟ روسيا غير موجودة! ماتت روسيا. يوجد ستالين. يوجد دزيرجينسكي. يوجد يجوب. يوجد بيريا. يوجد سجن واحد كبير. كولاج يوجد هناك! يفسيكيون، ابراتشيكيون، سفاحون!»

- «ولكنك ما زلت تحب أوديسا بعض الشيء؟»

- «أحب أو لا أحب، ما هذا، وهل هذا سيغير شيئا، تشيرت يجو زنايِت.» (الشيطان وحده الذي يعرف)

- «أولا ترغب في رؤيتها ثانية؟»

- «هيا، شا، أيها الصغير الذي ما زال يعملها في فراشه، يكفيك. شا. تشيتوب تي بروبال. شا.»

في أحد الأيام، في مقصورته، على فنجان شاي وكعكة كانت تسمى كيخالاخ، بعد أن تمّ الكشف عن إحدى فضائح الفساد والاختلاس الّتي زعزعت أركان الدولة، حكى لي جدّي كيف أنه عندما كان في حوالي الخامسة عشرة من عمره في أوديسا، «على دراجتي الهوائية، وبسرعة كبيرة، تدحرجت في إحدى الإرساليات، مع وريقة، رسالة، إلى بيت السيّد ليلاينبلوم من أعضاء لجنة «محبي صهيون» (إضافة إلى كونه كاتبا عبريا مشهورا، عمل ليلاينبلوم متطوعا محاسبا لحركة «محبي صهيون» في أوديسا) لقد كان ليلاينبلوم في الحقيقة أول وزير مالية لنا،» شرح لي جدّي.

وهو ما زال ينتظر السيّد ليلاينبلوم ليكتب له ردّه، اخرج الفتى ابن الخامسة عشرة من جيبه علبة السجائر وسحب إليه بخفة ورشاقة كرجل بين الرجال المنفضة وعلبة الكبريت الّتي كانت موضوعة على الطاولة في الصالون. سارع السيّد ليلاينبلوم ووضع كف يده على أصابع جدّي ومنعه، ثم سارع إلى الخروج وعاد بعد لحظة وقدم لجدّي علبة كبريت ثانية جاء بها معه من المطبخ وشرح له بأن عيدان الثقاب الموجودة على الطاولة في الصالون تمّ شراؤها من ميزانية لجنة «محبي صهيون» وانه يمنع استعمالها إلا في جلسات اللجنة، ولاستعمال أعضاء اللجنة فقط. ها ماذا؟ الملك العام كان في ذلك الوقت ملكا عاما، وليس مشاعا مباحا، ليس كما هي الحال في هذه الأيام هنا عندنا في البلاد، حيث بعد ألفي عام أقمنا في نهاية المطاف دولة لكي يكون هناك من يُسرق منه. في تلك الأيام كان كلّ ولد يعرف ما هو المسموح وما هو الممنوع، وما هو المباح للجميع وما لي وما ليس لي.

صحيح أن ذلك لم يكن دائماً، وليس تماما: ذات مرة، ربما في أواخر الخمسينيات، أدخل إلى أوراق النقد المتداولة قطعة نقدية ورقية جديدة وجميلة من فئة العشر ليرات وعليها صورة بياليك. عندما وصلت إليّ أول قطعة مع صورة بياليك ركضت للتو إلى بيت جدّي لكي اثبت له أن دولة إسرائيل تمجد وتعظّم من عرفه أيام فتوته من أيام أوديسا. انفعل جدّي حقا،

توردت وجنتاه لشدة ارتياحه، قلّب القطعة النقدية الورقية من جهة إلى أخرى ونظر إليها على ضوء الكهرباء، ربت بنظراته على صورة بياليك (الذي بدا لي كمن يرد على جدّي بغمزة عين عابثة كمن يقول له: «هيا، وما رأيك؟!» أيها البرجوازي السعيد القنوع). في عيني جدّي لمعت في تلك اللحظة دمعة صغيرة، ولكن من خلال سموّ روحاني طوت أصابعه الورقة النقدية الجديدة ودسّها بخفة ودون تردد مباشرة إلى جيب جاكيته الداخلي.

عشر ليرات في ذلك الوقت كانت مبلغا كبيرا، وبالذات بالنسبة إلى عضو كيبوتس مثلي. دهشت:

- «جدّي، ما الذي تفعله؟ لقد أحضرت إليك هذه الورقة النقدية لكي تراها وتبتهج بها فقط، ولا شك أنّه خلال يوم أو يومين ستصل إليك أوراق نقدية مثلها.»

- «ماذا تظن،» قال دون اكتراث، «لقد بقي بياليك مدينا لي باثنين وعشرين روبلا.»

١٥

وها هو جدّي وهو شاب صغير بشارب في السابعة عشرة من عمره في أوديسا يقع في حب سيدة مهمة تحمل اسم شلوميت ليفين، تحب الترف والرفاهية، وتنجذب وراء الطبقة الراقية؛ حلمت بأن تصبح امرأة مبجّلة ذات مقام رفيع، تستضيف في صالونها أشخاصا مشهورين وأن تصادق الفن والفنانين و«أن تعيش بشكل حضاري».

كان ذلك حبا فظيعا: فقد كانت تكبر كازانوفا الصغير بثماني أو تسع سنوات. إضافة إلى ذلك فقد كانت بالصدفة ابنة خالة مراودها المحموم.

في البداية لم تقبل العائلة المنفعلة حتى سماع أمر إقامة علاقة زواج بين الفتاة والولد: إذا لم يكن فرق السن والقرابة العائلية سببا كافيا، فإنّ الغلام لم يكن ذا ثقافة لائقة، كما لم يكن صاحب وظيفة دائمة، ولا صاحب دخل منتظَم باستثناء عمله المؤقت بالتجارة، يشتري شيئا ما هنا ويبيعه هناك. بالإضافة إلى كلّ هذه البلايا فإنّ قوانين روسيا القيصرية منعت بشكل واضح زواج الأقارب من الدرجة الأولى مثل أبناء العمّ الذين هم في نفس الوقت أبناء خالات.

بناء على الصور كانت شلوميت ليفين- بنت أخت روشا كايلا كْلاوْزنِر لعائلة براز- فتاة صلبة البنية عريضة المنكبين، ليست غاية في الجمال ولكنها كانت أنيقة مغرورة ملابسها مفصّلة بدقة وضبط نفس، قبعة لباد مستديرة تعرف باسم قبعة فيدورا رسمت خطا مائلا جميلا على عرض جبينها، أطراف القبعة اليمنى تتدلى فوق شعرها المجمّع وفوق أذنها اليسرى في حين أطرافها

اليسرى تتلوّى نحو الأعلى مثل مؤخرة القارب. تحمل هذه القبعة من الأمام عنقودا لامعا من الفواكه مثبّتا بدبوس براق كما يوجد على طرفها المرتفع ريشة كبيرة غنية بالزّغَب تنتصب بكبرياء وهي مفتوحة على وسعها فوق عنقود الفواكه، وفوق القبعة، فوق كلّ شيء، فهناك ما يشبه محفّة يدوية من ذنب طاووس متعجرف.

ذراع السيّدة اليسرى والتي تنتهي بقفّاز جلدي فاخر، تمسك بسير حقيبة يد جلدية مستطيلة الشكل. في حين أن ذراعها الأخرى ممسكة بقوة بذراع جدّي ألِكْسَنْدِر الفتيّ، وأصابعها، - والتي هي الأخرى داخل قفاز جلديّ- تحلق بخفة فوق كمّ معطفه الأسود، تلامسه أو تكاد لا تلامسه.

إنه يقف عن يمينها، وهو متأنق جدّاً في لباسه، متوتر، موشّى ومجلوّ ومتأنّق كله، النعل السميك أضاف ارتفاعا ما إلى قامته ومع كلّ ذلك فقد كان أنحف منها بكثير وكذلك أقصر منها، يبدو مثل أخيها الصغير، إذ لم ينتفع بقبعة الطنجرة السوداء والصلبة الّتي غطّت رأسه. قسمات وجهه الفتيّ جدّية ورزينة وحازمة وشبه حزينة. شاربه المرتّب يحاول جاهدا ولكن دون جدوى أن يخفي بقايا طلّ الصِّبا الذي ما زال على وجهه. عيناه مطوّلتان وحالمتان. يرتدي معطفا أنيقا واسع طيّة الصدر مع كتفين عاليين، وقميصا أبيض مُنشّى، وربطة عنق حريرية رفيعة، على ذراعه اليسرى علّقت وربما تتأرجح عصا تجوال أنيقة جدّاً لها مقبض خشبي وحدّ معدني مطليّ بالفضة. هذا الحد يلمع في الصورة القديمة وكأنه حد سيف.

*

تنكّرت أوديسا المصعوقة لهذين الروميو وجولييت. بين أم روميو وأم جولييت واللتين كانتا أختين، اندلعت حرب عالمية بدأت بتبادل التهم وانتهت بصمت ابدي متبادل. سحب جدّي توفيراته القليلة وباع شيئا هنا وشيئا آخر هناك، جمع روبلا فوق روبل، ومن المحتمل أن العائلتين قدمتا بعض المساعدة، ولو من أجل إبعاد الفضيحة عن العين وعن القلب، وهكذا قام جدّي وجدّتي، ابني الخالات، المجنونين بحبهما، وأبحرا إلى نيويورك- كما فعل في تلك الأيام مئات آلاف اليهود من روسيا ومن غيرها من بلدان شرق

أوروبا. كانت نيتهما أن يتزوجا في نيويورك والحصول على جنسية أمريكية كي أستطيع أنا أن أولد في بروكلين أو في نيوآرك، نيو جيرزي وأن اكتب باللغة الإنجليزية روايات بارعة عن شهوات ومحظورات المهاجرين طارقي القبعات وعن مشاكل أولادهم الصغار المعذّبين.

إلا أنه، على السفينة، في نقطة ما بين أوديسا ونيويورك وهم على البحر الأسود أو مقابل شواطئ صقلية أو عندما عبرت سفينة الحب الّتي تقلهما فوق قارة أطلنتيس الضائعة، حدثت دراما أخرى، انقلاب كامل، رفع الحب رأسه الحقيقي، رأس التنين: قلب صغير أنت، قلب الفتوة، من الأسى ومن الحب لن تعرف الراحة والسكينة.

باختصار، وقع جدّي العريس، الذي لم يبلغ الثامنة عشرة بعد، في حب جارف وهياج شديد، وبحزن كبير ويأس مطلق، وغير متناه، وهو على ظهر السفينة أو في ثنايا مؤخرة السفينة أو في خفايا الدرج، في حب امرأة أخرى- إحدى المسافرات على الباخرة- والتي كانت هي الأخرى، في حدود معلوماتنا، أكبر منه بحوالي عقد كامل من السنين.

إلا أن جدّتي شلوميت، هكذا حكوا عندنا، والتي لم تحلم بالتنازل عنه: أمسكت به من ساعتها من شحمة أذنه وبقيت ممسكة بقوّة ولم تعتقه لا ليلا ولا نهارا حتى خرجا كلاهما من عند الرابي النيويوركي الذي زوّجهما بعقد رسمي وفق شريعة موسى وإسرائيل («من شحمة الأذن» كانوا يقولون عندنا بتهامس ساخر مكبوت، «من شحمة الأذن سحبته طوال الطريق، لم تترك أذنه حتى بعد الزفاف». وهناك من كانوا يقولون: «ماذا بعد الزفاف. أين بعد الزفاف. أنها لم تترك شحمة أذنه ولو لدقيقة حتى آخر يوم في حياتها، وربما لفترة ما بعد ذلك، بقيت تمسك كما ينبغي بشحمة أذنه، وحتى أنها كانت أحيانا تشده منها قليلا».)

وها نحن أمام لغز كبير: لم يمض عام أو عامان على زواجهما وإذا بهذين الزوجين الغريبين يشتريان تذكرتي سفر أو ربما أن والديهما قدما لهما المساعدة مرة أخرى، وركبا مرة أخرى سفينة بخارية، ودون أن ينظرا إلى الوراء قاما وأبحرا عائدين إلى أوديسا.

كانت تلك حادثة لم يسمع كمثلها: حوالي مليوني يهودي هاجروا من الشرق إلى الغرب واستوطنوا في أمريكا في أقلّ من أربعة عقود من الزمن، بين ١٨٨٠ و١٩١٧. بالنسبة إلى كلّ هؤلاء المهاجرين رحلة ذات اتجاه واحد، كلّ من اشترك فيها لن يعود- باستثناء جدّي وجدّتي، اللذين أبحرا بالاتجاه المعاكس: يمكننا أن نفترض أنهما في هذه المرة كانا الراكبين الوحيدين على ظهر هذه الباخرة، إذ لم يكن هناك من يحبه جدّي الهائج مما أبقى أذنه حرة طوال طريق العودة إلى أوديسا.

لماذا عادا؟

لم أفلح طوال الوقت أن أحصل منهما على جواب واضح.

- «جدّتي، ما الذي كان سيئا إلى هذا الحدّ في أمريكا؟»

- «لم يكن سيئا. بل كان مكتظا جدّاً هناك.»

- «مكتظ ؟ في أمريكا؟»

- «كثير جدّاً من الناس على قطعة أرض صغيرة جدّاً.»

- «من قرر العودة. يا جدّي؟ أنت قررت؟ أم جدّتي هي الّتي قررت؟»

- «هيا، ما هذا ؟ أيّ نوع من الأسئلة هذا.»

- «ولماذا قررتما العودة؟ ما الشيء الذي لم يعجبكما ؟»

- «ما الذي لم يعجبنا. ماذا لم يعجبنا. لم يكن هناك ما لم يعجبنا. هيا، ما بك؟ إنها تغصّ بالخيول والهنود الحمر.»

- «الهنود الحمر؟»

- «الهنود الحمر.»

لم أفلح في الحصول على أكثر من ذلك من فمه.

*

هاكم ترجمة يوسف كوهين - تسيدك لقصيدة بعنوان «الشتاء» الّتي كتبها جدّي كعادته باللغة الروسية:

الرياح هائجة، ونفسي حزينة
وغادر قلبي الفرح، والبهجة

أدار الربيع ظهره، وجاء الشتاء
رغبت عيني في أن تدمع ولكن تجمّد فيها البكاء

ها قد غابت الشمس، وقد لفني المساء
والتفت نفسي، حزنت روحي.
أيامي لن تضيء وثانية لن تعود
بهجة ربيعي مع سعادة الحب.---

في سنة ١٩٧٢ عندما قدمت إلى نيويورك لأول مرة في حياتي، بحثت وربما وجدت حقا امرأة بدت لي هندية: «وقفت على ما اذكر في زاوية لكسينغتون وشارع ٥٣ ووزعت للمارّة نشرات دعائية. لم تكن امرأة فتية ولكن ليست عجوزا أيضاً، عظام خديها عريضة ترتدي معطفا رجاليا قديما، تلتف بوشاح بنيّ يقيها لسعات الرياح الباردة، مدّت إليّ بنشرة مبتسمة، أخذت منها النشرة وقلت لها شكراً. «الحب بانتظارك» - هكذا وعدتني الكتابة، تحت عنوان بار للوحدانيين- لا تتأخر، تعال الآن.»

*

في الصورة الّتي التقطت في أوديسا في سنة ١٩١٣ أو ١٩١٤ ظهر جدّي بربطة عنق فراشية وقبعة رمادية يزينها شريط حريريّ لامع، وببذلة من ثلاثة أجزاء حيث تحت الجاكت غير المزرّر وعلى عرض السترة المزررة جيدا، تتلوى سلسلة فضية رفيعة تفضي على ما يبدو إلى ساعة الجيب الّتي في جيبه. قميصه الناصع تزينه ربطة عنق فراشية من الحرير الغامق، حذاؤه الأسود يلمع، عصاه الخيزران معلقة، كعادته، على ذراعه أسفل المرفق، وبيسراه يمسك بيد ولد في السادسة من عمره تقريبا وبيمناه يمسك ببنت جميلة جدّاً في الرابعة من عمرها تقريبا. الولد مستدير الوجه، بتسريحة مع غرّة بقصة دقيقة ولطيفة تطلّ من تحت قبعته وتسقط بخط مستقيم على جبينه. يرتدي معطفا عسكريا فاخرا عليه صفّان من الأزرار البيضاء الكبيرة جدّاً. من تحت المعطف يطل بنطلون قصير من تحته يطل ربّاطا ركبتين ناصعتين

تختفيان مباشرة داخل جوارب بيضاء طويلة مثبّتة على ما يبدو بواسطة رباط جورب.

البنت تبتسم للمصوّر. وهي تبدو كمن تعرف جيدا مدى قوة سحرها وتقوم عن سبق إصرار بعكسه على عدسة الكاميرا. شعرها الناعم والطويل يسترسل فوق كتفيها ويحط على فستانها، ممشّط مع «فسخ» دقيق من الجهة اليمنى. وجهها دائري ممتلئ ومبتهج، عيناها مطولتان ومائلتان شبه صينية، وابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها الممتلئتين. فوق فستانها الفاتح ألبسوها معطف كاديت صغيرا مماثلا تماما لمعطف أخيها إلا أنه أصغر ولذلك بدا جميلا ومدهشا. كذلك لها أيضاً جوارب صغيرة تصل إلى ركبتيها وتضع قدميها في حذاء شبه القارب مع إبزيم على شكل فراشة جميلة.

الولد الذي في الصورة هو عمي دافيد، الذي سماه الجميع زيوزيا أو زيوزينكا. أما هذه البنت صاحبة العين الغنجة الصغيرة والفاتنة فهي والدي.

منذ رضاعته وحتى سن سبع أو ثماني سنوات، وأحيانا كان يحكي لنا بأن الموضوع استمر حتى سن تسع سنوات على الأقل كانت الجدّة شلوميت تلبسه فقط بالفساتين مع ياقة من نسيج شفّاف أو بتنانير كسر قصيرة ومنشّاة كانت تقصها وتخيطها له بكلتا يديها وكذلك بأحذية بناتية حمراء. شعره الطويل والجميل استرسل حتى كتفيه حيث ربط بأشرطة على شكل فراشة بلون أحمر، وأصفر وأزرق وزهري. كانت أمه تغسل له شعره كلّ مساء بالماء وبمحاليل عطرية ناعمة، وفي بعض الأيام كانت تعود لتغسله ثانية في الصباح، وذلك لأنّ زيوت الليل من المعروف أنها عدو للشعر تسلبه بريقه ونضارته بالإضافة إلى كونها دفيئة للقشرة. على أصابعه وضعت أمه خواتم ناعمة كما كانت تزيّن ذراعيه الممتلئتين بالأساور. عندما كانوا يذهبون للسباحة في بحر أوديسا كان زيوزينكا - عمي دافيد- يذهب مع جدّي أَلِكْسَنْدِر إلى حمامات الرجال في حين كانت تذهب جدّتي شلوميت مع ليونيتشكا الصغيرة، هي والدي- إلى حمامات النساء وتغتسلان وتُصَوْبِنان نفسيهما جيدا جيدا، هناك أيضاً تصوبني، وهناك أيضاً، وهناك بالذات من فضلك، هناك تصوبني مرتين.

بعد ولادة زيوزينكا تاقت نفس جدّتي شلوميت أن تلد بنتا. وعندما حملت وولدت ما ظهر أنه ليس بنتا قررت للتو بأن هذا المولود الذي هو قطعة من لحمها ودمها وعظما من عظامها بأنه من حقها الطبيعي والتي لا جدال حوله أن تربيه كما تحبّ، وبحسب خياراتها وذوقها وأن لا تسمح لأيّ قوة غريبة في العالم بأن تتجرأ وتتدخل لتملي عليها كيف تكون تربية لونيا أو ليونيتشكا ابنتها ولباسها وجنسها أو أخلاقها: بأي حقّ؟

*

الجدّ ألِكْسَنْدِر لم يرَ في ذلك مبررا للتمرد: من وراء باب مقصورته المغلقة، وهو في قشرة الجوز استمتع جدّي باستقلالية نسبية وحتى سُمح له أن يدير بنفسه بعض شؤونه. مثله مثل إمارة موناكو أو ليختنشتاين، وهو لم يخطر بباله أن يتصرف كمغفّل وأن يعرّض سيادته الهشّة بأن يحشر انفه في الشؤون الداخلية للدولة العظمى المجاورة، الواسعة والتي بسطت سيادتها من كافة النواحي على إمارة الأقزام سان مرينو.

بالنسبة لأبي، فهو لم يشكُ أبداً. وهو لم يحدثنا أبداً عن ذكرياته من حمام النساء وغيرها من التجارب الشعورية النسوية، إلا إذا خطر بباله أن يضحكنا.

لكن نكاته كانت دائماً شبيهة أكثر بإعلان نوايا: ها لاحظوا، انظروا وشاهدوا كيف أن رجلا رزينا مثلي يعمل أكثر مما هو مطلوب أو متوقع منه من أجلكم ويتطوع لتسليتكم ويبهجكم.

كنت أنا وأمّي نبتسم إليه مشجعين، وكمن نشكره على محاولاته، إلا أنه، وكله حماس وبهجة ومثير للشفقة نوعا ما، كان يفسر ابتسامتنا على أنها دعوة لإضحاكنا أكثر فأكثر، ومباشرة كان يضيف ويقدم لنا نكتتين أو ثلاث كنا قد سمعناها منه ألف مرة، عن يهودي وغير يهودي في القطار أو عن ستالين الذي يلتقي بكترينا زوجة قيصر روسيا وهنا كنا قد ضحكنا حتى امتلأت عيوننا بالدموع ووالدي يبدو منيرا من شدة الفخر لأنه نجح في إضحاكنا. كان ينجرّ كالعاصفة إلى قصة ستالين الذي جلس ذات مرة في الحافلة مقابل بن غوريون وتشرتشل، وإلى قصة بياليك الذي يلتقي في الجنة

مع شلونسكي وإلى قصة شلونسكي الذي يلتقي مع فتاة. حتى كانت أمّي في نهاية الأمر تعقّب بلطف:

«أولا تريد أن تشتغل قليلا هذا المساء؟»

أو: «تذكّر أنّك وعدت بأنك ستكمل مع الولد إلصاق الطوابع قبل أن يذهب لينام.»

قال ذات مرة لضيوفه:

«قلب المرأة! حاول كبار الشعراء فكّ أسراره وخفاياه ولكن عبثا. ها قد كتب شيلر في مكان ما بأنه لا يوجد في الكون كله سر أعمق من استقصاء قلب امرأة، وأن أيّاً من النساء لم تكشف ولن تكشف لأي رجل السر النسائي بأكمله. شيلر كان بإمكانه ببساطة أن يسألني: إذ أنني كنت هناك.»

وأحيانا تندّر بطريقته غير المضحكة: «الحقيقة أنني إلى حد ما أحب معاكسة لابسات الفساتين ومغازلتهن، مثل غالبية الرجال، وربما أكثر قليلا، لأنني في يوم من الأيام كنت ألبس الفساتين الكثيرة وفجأة في أحد الأيام حرمت منها كلها.»

وذات مرة قال ما يلي تقريبا: «لو ولدت لنا بنت، لكانت على ما يبدو ستكون جميلة» ثمّ أضاف: «في المستقبل، في الأجيال القادمة ربما ستردم الهوة الّتي بين الجنسين. هذه الهوة تعتبر بشكل عام مأساة، ولكن ربما سيتضح في أحد الأيام لنا جميعا أنها ليست إلا كوميديا أخطاء.»

١٦

جدّتي شلوميت امرأة مهمة، سيدة محبّة للكتاب وتفهم قلب الكتاب، وهي الّتي حوّلت بيتهم في أوديسا إلى صالونا أدبيا- ربما الصالون الأدبي العبري الأول. بحواسها المرهفة استوعبت جدّتي ذلك الخليط الحامض قليلا من الوحدة وحب الجاه، والخجل والغطرسة، فقدان الثقة العميق مع زهو ومكابرة، ذاك الخليط الذي يدفع الشعراء والكتاب إلى الخروج من غرفهم ليبحثوا عن بعضهم وليحتك بعضهم ببعض، وليضايق، وليتندّر، ويزهو، وليتحسس الواحد منهم زميله، وليضع راحته على كتف أو ذراع أو حول خاصرة، ليتحادثوا ويتناقشوا من خلال مدافعات خفيفة، ليتجسسوا قليلا، ليشتم ماذا يُطبخ في قدر الآخرين، ليتملق، ليتخاصم، ليتشاحن، ليكون على حقّ، ليشعر بالإهانة، ليعتذر، ليتراضى، ليتملّص الواحد من وجه الآخر وليستنشق الواحد ظل زميله.

كانت مضيفة حسنة الذوق، استقبلت ضيوفها بدون فخفخة ولكن بتكريم وطلاوة: أصاخت أذنها لكلّ واحد منهم، ومدت يدها تدعم كلا منهم، عيون فضولية ومعجبة، قلب داعم ومساند، مأكولات بحرية مترفة وشهية وأصلية وصحون حساء كثيف وساخن في ليالي الشتاء، وكعك بذور الخشخاش تذوب في الفم وأنهار وأودية من الشاي المغلي من إناء الشاي.

جدّي، من جهته، كان يصب بخبرة الليكر ويوفر تشكيلة كبيرة من الشوكولاطة والمعجنات الحلوة للسيدات والسجائر «الحامية» (الّتي كانت تسمى «ببيروسات») للسادة. أما العمّ يوسف، الذي في شبابه وهو في

التاسعة والعشرين من عمره تقريبا ورّثه آحاد هعام تحرير مجلة «هشيلواح» المجلة الرئيسية للثقافة العبرية الجديدة (بياليك بنفسه حرر زاوية الأدب) فقد كان يجلس على منصة قضاة الأدب العبري في أوديسا وكان يرفع ويحط بحسب نوع حكمه. كانت العمّة تسيبورا تقود العمّ يوسف إلى «الحفلات» في بيت أخيه وزوجة أخيه. كانت تحرص دائماً على أن تلفه بأوشحة صوف وتلفه جيدا بمعاطف دافئة وبغطاء للأذنين مبطّن بالزغب الناعم. مناحم أوسيشكين، أنيق، متألق، منفوخ الصدر مثل المهاة وغليظ الصوت مثل محافظ لواء روسي، هائج مثل إناء إلشاي الذي يغلي، كان بدخوله يفرض الصمت على جميع الحاضرين، الذين كانوا يصمتون تكريما واحتراما له، وكان دائماً هناك من يقفز من مكانه يسرع في إخلاء مكان له. كان أوسيشكين يجتاز الغرفة بخطوات جنرال، ثمّ يجلس بتوسّع فاتحا رجليه الضخمتين، يضرب بعصاه الأرض مرتين، وبذلك- كان يتكرم بالسماح لأحاديث الصالون أن تتجدد. كما كان الرابي تشرنوفيتس (الملقب بـ«الرابي الشاب») من رواد البيت. وكان هناك مؤرخ شاب ممتلئ والذي كان ذات يوم ممن غازلوا جدّتي شلوميت («لكن كان من الصعب على امرأة مرموقة أن تكون بجانبه- وقد كان ذكيا جدّاً جدّاً كان مثيرا للاهتمام، ولكن؟ كانت له دائماً بقع مثيرة للاشمئزاز على عنقه، وبعض السواد في كمّيه، وأحيانا وجدوا بعض فتات الطعام بين طيّات بنطلونه، لقد كان مهملا غير مكترث بمظهره الخارجي ونظافته، قذارة، يا للقرف!»). من بين الرواد كان أيضاً حنا رابنيتسكي وبن تسيون دينبورغ وشمارياهو ليفين والدكتور يوسف سبير، هذا بالإضافة إلى عدد من طلاب الجامعات وبعض الطلاب الخارجيين الذين يثقفون أنفسهم بأنفسهم وبعض طلاب المعاهد الدينية الذين أهملوا منهم شعراء في بداية الطريق ورجال أعمال صغار وجميعهم مع ربطات عنق وياقات منشّاة وكلهم مفكّرون جاشت وارتفعت أفكارهم حتى فارت لكثرة علامات الاستفهام.

*

بين الفينة والأخرى كان بياليك يصل إلى هناك في ساعات المساء،

شاحبا لشدة الحزن أو مرتجفا من شدة البرد والغضب، أو على العكس- فقد عرف أيضاً كيف يكون مرحا ومضحكا! وبحق! مثله مثل الصبي، مثل ولد طائش ومشاغب! وبدون قيود وكوابح! كان حاذاً ولاذعا! أحياناً كان يضحك معنا بالايديش حتى جعل وجوه السيّدات تحمرّ خجلا بسببه، وكان حنا ربنيتسكي يصرخ به، «هيا، شا! بياليك! ما الذي يجري لك! قرف! كفاك!» أحب بياليك الأكل والمشروبات، أحب أن يمتّع نفسه، يفرط في أكل الخبز مع أنواع مختلفة من الجبنة، وكعُقْبى كان يلعق حفنة من المعجنات ويتناول كأس شاي غالٍ وكأس ليكر، وعندها كان يبدأ بتسميع أغان كاملة بالايديش حول عجائب اللغة العبرية وحول عشقه الكبير لها.

أما تشرنيحوفسكي فكان يقتحم الصالون متحمسا ولكن خجولا، هائجا ولكن رقيقا، يأسر القلوب، يثير المشاعر بسبب سذاجته الطفولية، فهو حساس جدّاً مثل الفراشة ولكنه في الوقت نفسه مؤذٍ، يهين الجميع دون تمييز وبدون انتباه. الحقيقة؟ أنه لم يقصد إطلاقا أن يهين- فقد كان ساذجا إلى حد كبير! نفس طيبة! نفس طفل بريء لم يذق بعد طعم الخطيئة! ليس مثل الطفل اليهودي الحزين، لا! مثل طفل غير يهوديّ! مليء ببهجة الحياة والطيش والنشاط! أحياناً، كان عجلا حقيقيا! عجلا سعيدا كهذا، يقفز قفزات! يتغابى أمام أعيننا جميعا! ولكن أحياناً فقط. وأحيانا أخرى كان يأتينا حزينا إلى حد كبير الأمر الذي كان يدفع كلّ واحدة من النساء لأنّ تدلِّله! كلهن! العجائز والصبايا العازبات والمتزوجات الجميلات وغير الجميلات، كانت كلّ واحدة منهن تشعر برغبة سرية في تدليله. كان يمتلك مثل هذه القوة. وهو حتى لم يعرف أنه يملك هذا السرّ- هيا، لو أنه كان يعرف أن له هذه القوة، عندها كان بكل بساطة لا يؤثر علينا على هذا النحو بأي شكل من الأشكال!

كان تشرنيحوفسكي يهتاج بواسطة «كؤيس» من الفودكا، وربما اثنتين أيضاً، كان بعدها يبدأ أحياناً يقرأ من أشعاره الّتي تطفح بابتهاج المشاعر أو بكثرة أسى القلب، وكان رواد المنزل كلهم يستمتعون معه وبه: حرية تعامله وسلوكه مع الآخرين، شعره المتجعد الغزير، شبه الفوضوي. الفتيات اللواتي أحضرهنّ معه، واللواتي لم يكن دائماً من المثقفات جدّاً، وحتى لسن دائماً

يهوديات، ولكنهن دائماً جميلات جدّاً أبهجنَ كلّ من شاهدهن، وأثرن غير قليل من كلام الاغتياب المقزز وحددن غيرة الكتاب- كامرأة أقول لك، إن النساء لا يخطئن، ولا مرة في مثل هذه الأمور، كان بياليك يجلس وينظر إليه هكذا... وإلى الفتيات غير اليهوديات اللواتي يجئن معه... بياليك كان يعطي سنة كاملة من حياته، لو أنهم أعطوه أن يكون تشرنيحوفسكي لمدة شهر واحد فقط!

كانوا يتناقشون هناك حول تجدّد اللغة العبرية وأدبها، عن حدود التجديد، عن العلاقة بين التراث الثقافي اليهودي وبين ثقافة الشعوب، وعن حزب البوند وعن معسكر الايديشيين (العمّ يوسف، في ساعة احتدام النقاش كان يلقب الإيديش الرَّطانة وعندما كانت تهدأ عاصفة غضبه كان يسميها «اليهودية الأشكنازية»)، وعن المستوطنات الجديدة في الجليل ويهودا وعن الضائقات القديمة جدّاً لمقاطعة حرسون أو خركوف، وعن كنوت هامسون[1] وعن القضية الزراعية.

ذات مرة، في وارسو، قال ي.ل. بيرتس الاشتراكي للعم يوسف الذي كان بعيدا جدّاً عن الاشتراكية السياسية: «وهل تعتقد أنت بأنني ساذج حتى أؤمن بأن الاشتراكية ستحل جميع المشاكل في العالم؟ ها هي على سبيل المثال مشكلة «العوانس العجائز». هناك اشتراكيون يعتقدون أن هذه القضية ما هي إلا قضية اقتصادية: إذا توفّر الخبز للجميع فانه سيتوفر عريس لكلّ عانس. أنهم لا يرون بأن هذه مشكلة لا يستطيع أيّ اشتراكي أن يرد عليها.» وذات مرة قال العمّ يوسف لبياليك: «سأشرح لك ما هو الفرق بيني وبينك. لو جاء اليوم أدريانوس قيصر مثلا وحكم بإبادة وتضييع التوراة أو التلمود، لكنت أنت بياليك ستبكي على التوراة وتختار... أن يبقى التلمود، أما أنا فكنت سأبكي على التلمود واختار إنقاذ التوراة.» هكذا حكى العمّ يوسف، «انغمس في التفكير وبعد عدة لحظات قال: أنت على حقّ!». (إلا أن جميع

---

(١) كاتب نرويجي ١٨٥٩- ١٩٥٢ حائز على جائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٢٠ (المترجم).

قصص الجدل مع العمّ يوسف انتهت دائماً بهزيمة خصمه في الجدال الذي كان يعترف أمام العمّ يوسف «أنت على حقّ!»[1]

لقد عرفت جدّتي بكل تأكيد كيف تلطّف جميع تلك الخلافات، في أوديسا، مثلما رأيتها تلطف الخلافات في القدس. كانت تقول على سبيل المثال: «ولكن، لطفا، ليسمح لي كلّ منكما، أوليس هذان الادعاءان، هذان الطرفان، لا يلغي الواحد منهما الآخر بل يعمق الواحد منهما الآخر- فها هو بناء على كابوسكما بما يتعلق بأحكام أدريانوس الجديدة فانه في نهاية المطاف ستجلسان أنتما كلاكما مَعاً مثل اخوين وتبكيان على التوراة وعلى التلمود العزيزين عليكما، ومعاً تتفجّعان على هذه الأحكام السيئة، ولكن بعد أن تذوقا من فضلكما هذه الفاكهة المطبوخة بالسّكر. مثل هذا الفاكهة يحظر تناولها مع النواح والدموع.»

*

في سنة ١٩٢١ بعد مرور أربع سنوات على ثورة أكتوبر، وبعد أن انتقلت مدينة أوديسا من سيادة إلى أخرى نتيجة معارك دامية حدثت بين «البيض» و«الحمر» بعد سنتين أو ثلاث من تحول والدي نهائيا من بنت إلى ولد، هرب جدّي وجدّتي وولدهما من أوديسا إلى فيلنا.

اشمأزّ جدّي من الشيوعيين: «لا أريد أحدا أن يحكي لي عن البلاشفة،» كان يتمتم دائماً، «لقد عرفت البلاشفة جيدا جدّاً، عرفتهم قبل أن يعلو ويرتفع شأنهم، قبل أن يسكنوا البيوت الّتي اغتصبوها من غيرهم وحتى قبل أن يحلموا بأن يكونوا «أباراتشيكيين»،[2] ويفسكيين، وبوليتروكيين، وقوميسارات. ما زلت أذكرهم عندما كانوا ما زالوا مجرد قطاع طرق، العالم السفلي في حي الميناء في أوديسا، أنواع مختلفة من الهمجيين المتوحشين،

---

(١) هذه القصة وعدد آخر من القصص الّتي لها علاقة بعائلة والدي، وجدتها في السيرة الذاتية للعم يوسف- بروفيسور يوسف كلاوزنر- «طريقي نحو البعث والخلاص»، إصدار مسادا القدس وتل أبيب (١٩٤٦) (المؤلف).

(٢) أعضاء في التنظيم الإداري للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي سابقا (المترجم)

القبضايات، قصيرين بدناء، نشّالين سكارى وقوّادين. ماذا؟ كلهم تقريبا كانوا من اليهود، ما العمل؟ ولكن هؤلاء كانوا يهودا من أبسط العائلات- أي، عائلات تاجرات أسماك من السوق، من «قاع الدّست» أيّ مما يلتصق بقاع الدست، هكذا كانوا يقولون عندنا. لينين وتروتسكي- من تروتسكي؟ أيّ تروتسكي؟ ليبيلي برونشتاين، الولد المجنون لواحد باسم دافيدل - جانف من يانوفكا- هذا السوقيّ لبسوه ثياب الثورة، هيا، مع جزمة من الجلد، مع مسدسات على حزامه، مثل خنزيرة قذرة تلبس قميص حرير. وعلى هذا النحو كانوا يتجوّلون في الشوارع، يعتقلون الناس، ويصادرون الممتلكات، وبيف باف قتلوا كلّ من بيته أو فتاته أثارت شهوتهم، هيا، ما كلّ هذه االعصابة القذرة، كامنييف كان عمليا روزنفيلد، ومكسيم ليتفينوف كان مئير فالاخ، وكارل راديك كان زوبلسون، لايزر كجنوفيتش كان اسكافيا ابن جزار. هيا، ماذا، بكل تأكيد كان بينهم أيضاً بعض غير اليهود الذين انضموا إليهم كذلك هم من «قاع الدست» من حي الميناء من الحثالة، كانوا من الأوباش، رعاع مع رائحة فاسدة من الجوارب.»

*

عن رأيه هذا في الشيوعية والشيوعيين لم يزغ حتى بعد خمسين سنة بعد قيام الثورة البُلشُفيّة: «بعد أيام من احتلال جيش الدفاع الإسرائيلي للقدس الشرقية في حرب الأيام الستة، اقترح جدّي أن تساعد شعوب العالم إسرائيل، في هذا الوقت، لكي تعيد كلّ عرب الشرق «مع فائق الاحترام، دون أن تسقط شعرة واحدة من رؤوسهم ودون أن تغتصب حتى دجاجة واحدة من أملاكهم» إلى موطنهم التاريخي، الذي كان يسميه «العربية السعودية»: كما نحن اليهود نعود الآن إلى موطن أجدادنا، هكذا أيضاً يحق لهم أن يعودوا مكرّمين معزّزين إلى بيتهم إلى العربية السعودية، المكان الذي جاؤوا منه إلى هنا.»

لكي اختصر النقاش، سألته ماذا يقترح أن نفعل في حالة أن تعارضنا روسيا بالقوّة، بدافع رغبتها في أن توفّر على حلفائها العرب مشاقّ السفر إلى السعودية؟

احمرّ خدا جدّي الورديان فوراً من شدة الغضب، انتفخ، وثار واحمرّ وأرغى وأزبد وصاح علي بصوته:

«روسيا؟! أيّ روسيا تعني؟! لا توجد بعد روسيا، أيها الحشرة الصغيرة! غير موجودة! أنت ربما تقصد البلاشفة؟ لا؟ هيا، ماذا. أنا أعرف البلاشفة منذ أن كانوا قوّا. . . ، سماسرة الفاحشة في حي الميناء في أوديسا. أنهم رعاع من اللصوص وقطاع الطرق، أوباش من «قاع الدّست»! البلشفية كلها هي أكذوبة كبيرة! الآن عندما رأينا أيّ طيّارين عبريين رائعين يوجد عندنا، وأي طائرات وأي مدفعية، هيا، ماذا، أولسنا بحاجة إلى إرسال هؤلاء الشباب والطيارين لأن يطيروا إلى بطرسبورغ ربما يحتاجون إلى أسبوعين ذهابا وأسبوعين إيابا، قصف كبير واحد - الشيء الذي يستحقونه منا منذ أمد- بوم واحد قويّ- وللتو يتطاير جميع البلاشفة هناك إلى الجحيم مثل القطن القذر!»

«أنت تقترح أن تقوم إسرائيل بقصف لينينغراد، يا جدّي؟ وأن تندلع حرب عالمية؟ ماذا ألم تسمع عن القنبلة الذريّة؟ وعن القنبلة الهيدروجينية؟؟»

«إن الأمر كله بأيدي اليهود، هيا، ماذا، عند الأمريكان وكذلك عند البلاشفة جميع هذه القنابل الجديدة موجودة كلها بأيدي العلماء اليهود، وهم سيعرفون عندها بكل تأكيد ماذا يعملون وماذا لا يعملون.»

«والسّلام؟ هل هناك طريقة لإحلال السلام؟»

«نعم، يوجد: يجب أن ننتصر على جميع أعدائنا. يجب أن نضربهم ضربا مبرّحا حتى يأتوا إلينا يسألوننا السلام- وعندها هيا، ماذا، بكل تأكيد سنمنحهم السلام. ماذا هل نرفض طلبهم؟ لماذا نرفض؟ فنحن شعب يحبّ السلام. عندنا يوجد حتى فريضة من هذا النوع، أن نسعى وراء السلام- هيا، ماذا، عندها نسعى وراءه حتى بغداد نسعى وراء السلام، إذا لزم الأمر، حتى كايرو (القاهرة) نسعى وراءه، ماذا تظن؟ ألا نسعى وراءه؟ كيف يكون ذلك؟»

*

مرتاعون، مُعدمون (بعد أن فقدوا كلّ ما يملكون)، مراقَبون، مذعورون في أعقاب ثورة أكتوبر والحرب الأهلية والحكم الأحمر، تفرق أدباء أوديسا

اليهود والنشطاء الصهيونيون أيدي سبأ. العمّ يوسف والعمّة تسيبورا ومعهم الكثير من أصدقائهم هاجروا إلى البلاد في أواخر ١٩١٩ على ظهر الباخرة روسلان، الّتي بشّر وصولها إلى ميناء يافا ببداية الهجرة الثالثة. آخرون هربوا من أوديسا متوجهين إلى برلين، لوزان وأمريكا.

الجدّ أَلِكْسَنْدِر والجدّة شلوميت مع ولديهما لم يهاجروا إلى أرض إسرائيل- على الرغم من الحماس الصهيوني المتأجّج في أشعار جدّي الروسية، كانت البلاد مازالت بالنسبة إليهم آسيوية أكثر من اللازم، متوحشة، متخلّفة، ينقصها الحد الأدنى من الوعي الصحي وتفتقر إلى الثقافة الضرورية. لذلك توجها إلى ليتوانيا، الّتي تركها أفراد عائلة كلاوْزنِر والدا جدّي والعمّ يوسف والعمّ بتسالئل قبل أكثر من خمس وعشرين سنة. كانت فيلنا في تلك الفترة تحت السيادة البولندية، واللا سامية العنيفة والساديّة الّتي كانت دائماً تحلق في أجوائها أخذت تتزايد من سنة إلى أخرى: في بولندا وليتوانيا تعاظمت القومية وكراهية الغرباء. لليتوانيين المحتلين والمضطهدين بدت الأقلية اليهودية الكبيرة كعميل للقوى الغريبة المضطهِدة. من وراء الحدود، من ألمانيا، تسرب الصنف الجديد، الصنف البارد والقاتل من كراهية اليهود وهو النازية.

حتى في فيلنا اشتغل جدّي بالتجارة. لم يشتغل بتجارة كبيرة، هنا اشترى ما اشتراه وهناك باع ما باعه وبين كلّ شروة وبيعة أحياناً ربح شيئا ما، في البداية أرسل ولديه إلى مدرسة عبرية وبعدها- إلى ثانوية عامة «كلاسيكية». الأخوان دافيد وآريه، في حينه زيوزيا ولونيا، احضرا معهما من أوديسا ثلاث لغات: في البيت تكلما الروسية والايديش، وفي الشارع – الروسية، وفي روضة الأطفال الصهيونية الّتي في أوديسا تعلما التحدث باللغة العبرية. هنا في الثانوية الكلاسيكية الّتي في فيلنا، أضيفت لهما اليونانية واللاتينية، والبولندية والألمانية والفرنسية. بعد ذلك في قسم الأدب الأوروبي في الجامعة أضيفت لهما الإنجليزية والإيطالية، وفي قسم فقه اللغة (الفيلولوجيا) السامية تعلم أبي كذلك العربية والآرامية والمسمارية. العمّ دافيد سرعان ما أصبح أستاذا للأدب، أما أبي يهودا آريه الذي أنهى دراسته

الجامعية وحصل على البكالوريوس من جامعة فيلنا في سنة ١٩٣٢ كان على وشك اللحاق به- إلا أن اللا سامية تعاظمت وأصبحت قاسية لا تُحتمل. اضطر الطلاب اليهود إلى تحمّل الإهانات والضرب والتميز والتنكيل.

«ولكن ماذا بالضبط فعلوا بكم؟» سألت أبي، «أيّ تنكيل؟ ماذا، هل ضربوا؟ مزّقوا لكم الدفاتر؟ ولماذا لم تشكوهم؟؟»

«أنت،» أجاب أبي، «لن تستطيع أن تفهم هذا. وبالذات إنه من الأفضل أنّك لن تستطيع. وأنا مسرور لذلك، مع أنّك لن تستطيع أن تفهم هذا أيضاً، أي لماذا أنا مسرور لأنك لا تستطيع فهم ما كان هناك: بكل تأكيد أنا لا أريدك أن تفهم. لأنه لا حاجة. بكل بساطة لم تعد هناك حاجة. لأنّ كلّ شيء قد انتهى. انتهى مرة وإلى الأبد. أي أن ذلك لن يكون هنا. هيا بنا نتحدث عن شيء آخر: نتحدث عن البوم الكواكب السيارة خاصّتك؟ أعداؤنا بالطبع ما زالوا موجودين. وتوجد حروب أيضاً. ويوجد حصار ويوجد غير قليل من الخسائر. بكل تأكيد. يجب ألا ننكر ذلك. ولكن لا توجد ملاحقات. هذا- لا. لا ملاحقات ولا إهانات ولا مجازر، ولا الساديّة الّتي واجهناها هناك. هذا بكل تأكيد لن يعود مرة أخرى. أوليسوا يهاجموننا هنا؟ عندها نرد لهم الصاع صاعين. أنت، يخيّل إليّ أنّك ألصقت في ألبومك المريخ بين زحل والمشتري. لقد أخطأت. لا لن أقول لك شيئا. عليك أنت بنفسك أن تفحص وأنت تكتشف خطأك وأن تصحّحه بنفسك.»

*

من أيام فيلنا بقي ألبوم صور بالٍ: ها هو أبي وها هو أخوه دافيد، كلاهما في سن الثانوية، كلاهما جدّيان جدّاً، شاحبان، أذنا كلّ منهما الكبيرتان تبرزان من تحت قبعتيهما ذواتَي الحافّة الأمامية، كلّ منهما يرتدي بذلة مع ربطة عنق وقميصا مع ياقة صلبة. ها هو جدّي أَلِكْسَنْدِر قد أخذ يصلعّ بعض الشيء، مازال بشارب، مرتّب وأنيق ونظيف تماما. يشبه ربما سياسيا حديث العهد من روسيا القيصرية. وها هي عدة صور دورة، ربما صور إنهاء المدرسة الثانوية. هل هذا أبي أم عمي دافيد؟ من الصعب أن أعرف: الوجه غير واضح ممسوح قليلا. كلهم هنا يعتمرون القبعات،

الأولاد بقبعات ذات حافة أمامية والبنات مع قبعات بيريه مستديرة. غالبتهن سود الشعر، لبعضهن ظل ابتسامة مُضللة ابتسامة مونا-ليزية تعرف شيئا أنت بكل تأكيد تريد أن تعرفه ولكنك لن تعرفه لأنه ليس موجها إليك.

بل لمن؟ من شبه المؤكّد أن كلّ هؤلاء الشبان والفتيات الذين في صور الدورة هذه قد عُرّوا من ملابسهم ولوحقوا جلداً بالسوط وبالكلاب المحرَّضة والنحيفة لشدة الجوع والمتجمّدة من شدة البرد، إلى الآبار الكبيرة الّتي في غابة بونار. من منهم نجا بالإضافة إلى أبي؟ أحاول أن أتمعّن الصورة على ضوء لامبة قوي وأحاول أن أفكّ شيئا من أسرارها الّتي من المحتمل أنها تكمن في قسمات وجوههم: أيّ خبث وأي حزم وأي صلابة داخلية والتي ربما دفعت هذا الشاب الواقف في الصف الثاني عن اليسار إلى أن يخمن ما الذي ينتظره، وأن يشكك في جميع كلمات التهدئة وأن ينزل قبل فوات الأوان إلى قنوات المجاري الّتي تحت الغيتو وأن يهرب إلى الثوار ضد النازية المختبئين في الأحراش. أو هذه الفتاة الجميلة الّتي في وسط الصورة، صاحبة التعابير الساخرة الماكرة، لا يا عزيزي، أنا لن انخدع بهم، صحيح أنني ما زلت غرّة ولكنني أعرف كلّ شيء، أعرف حتى أشياء لا تحلمون بأنني أعرفها. ربما نجتْ؟ هربت إلى معسكر المقاتلين في حرش رودنيك؟ أو نجحت في التمويه والاختباء بفضل «منظرها الآريّ» في أحد الأحياء الّتي خارج الغيتو؟ أو وجدت ملجأ في أحد الأديرة؟ أو أنقذت في الوقت المناسب ونجحت في الإفلات من أيدي الألمان وخدمهم الليتوانيين، وأن تتسلل الحدود واللجوء إلى روسيا؟ أو أنها هاجرت قبل فوات الأوان إلى أرض إسرائيل وعاشت حتى ناهز عمرها السادسة والسبعين حياة طلائعية ذات شفاه مغرية، وهي مؤسسة فرع تربية النحل أو مركزة فرع الطيور الداجنة في أحد كيبوتسات المرج؟

وها هو أبي الفتيّ، وهو هنا يشبه كثيرا ابني دانيئل (الذي يحمل هو الآخر اسمه- يهودا آريه)، شبه مُروّع فعلا، والدي ابن السابعة عشرة نحيف طويل القامة مثل كوز الذرة الصفراء ولكنه مزدان بربطة عنق فراشية عيناه البريئتان تنظران إليّ عبر نظارته المستديرة، مرتبك بعض الشيء، ومعتز

وفخور بعض الشيء، متحدّث كبير ولكن بدون تناقضات، كما أنه خجول جدّاً، شعره الأسود ممشّط بدقة نحو الأعلى، على وجهه انتشر تفاؤل بهيج، هيا، حقا، لا تقلقوا أيها الأصحاب، فكل شيء سيكون على ما يرام، ستتغلب على كلّ شيء، كلّ شيء سينتهي على وجه من الوجوه، ماذا يمكن أن يحدث بعد، لا أهمية لذلك، سيكون كل شيء على أفضل وجه.

أبي الذي في الصورة أصغر من ابني. لو أن ذلك ممكن لكنت دخلت إلى الصورة وحذرته وزملاءه المبتهجين. لكنت حاولت أن احكي لهم ماذا ينتظرهم. من شبه المؤكّد أنهم ما كانوا ليصدقوني بل يستسخفوني ساخرين مني.

ها هو أبي مرة أخرى، يلبس وكأنه ذاهب إلى حفل استقبال، يعتمر قبعة روسية تعرف باسم شَبكا يجدّف بقارب تجدّيف ومعه فتاتان، تبتسمان له بسرور وغَنَج. وها هو ببنطلون نيكربوكر سخيف ومضحك، جواربه مكشوفة ينحني بجهد عظيم ويحتضن من أعلى فتاة مبتسمة مع فسخ مضبوط وسط تسريحتها. الفتاة تنوي إدخال رسالة إلى صندوق بريد كتب عليه، الصورة واضحة وتتيح المجال للقراءة بدون خطأ: "Skrzynka Pocztowa". لمن موجهة رسالتها؟ ماذا حدث للمرسل إليه؟ ماذا كان مصير الفتاة الثانية في الصورة، الفتاة الجميلة الّتي تلبس فستانا مخطّطاً وتضع جزدانا أسود صغيرا مستطيل الشكل تحت ذراعها، وجواربها البيض مغروزة في حذاء أبيض؟ كم من الوقت استمرت هذه الفتاة تبتسم بعد أخذ هذه الصورة؟

ها هو أبي هنا، مبتسما، يذكرني فجأة بتلك البنت الحلوة الّتي صنعتها منه أمه في صغره، في رحلة لخمس فتيات وثلاثة فتيان. هم موجودون في الغابة ولكنهم يلبسون بأحسن ملابسهم الّتي يرتدونها في المدينة. صحيح أن الفتيان قد خلعوا جاكيتاتهم وبقوا بالقمصان البيضاء وربطات العنق. وقفة الشباب هي وقفة جريئة، اتسمت بالمودة وحسن المعاشرة، تتحرّش بالمصير أو تتحرش بالبنات؟ وها هم يبنون هرما بشريا صغيرا، شابان يحملان على أكتافهما فتاة بدينة قليلا، الفتى الثالث يسند فخذها بحركة شبه جريئة، وفتاتان أخريان تقفان وتضحكان ضحكة واسعة. السماء الصافية تبتسم هي الأخرى،

وكذلك درابزين الجسر الذي فوق الوادي. الغابة المحيطة هي الوحيدة الّتي لا تضحك: كثيفة، رزينة، معتمة، تمتدّ هذه الغابة على كلّ عرض وعمق الصورة ومن المؤكّد أنها تمتد أكثر من ذلك. غابة فيلنا: غابة رودنيكي؟ غابة بونار؟ أو ربما هذه هي غابة بوبيشوك أو غابة أولكنيكي، تلك هي الغابات الّتي أحب جدّ أبي، يهودا لييف كْلاوْزِنر، في حينه أن يجتازها في الليالي الظلماء على عربته، واثقا بحصانه، وبقوة عضلاته وبحظه الجيد في قلب الظلام الكثيف، وحتى في ليالي الشتاء الماطرة والعاصفة؟

*

تاقت نفس جدّي إلى أرض إسرائيل التي تنقذ من إقفارها، وإلى الجليل والمروج وإلى الشارون والجلعاد والجلبواع وجبال السامرة وجبال إدوم، «هيا نهر الأردن، هيا تدفّق، لتضج أمواجك»، كان يتبرّع للكيرن كيمت، يدفع الشيكل الصهيوني، يبلع بشهية كل معلومة أو خبر من فلسطين، يتحمس حتى يكاد يسكر بخطابات جابوتنسكي الذي كان يمر بين الحين والآخر من فيلنا اليهودية ويكتسح القلوب. أيد جدّي دائماً من كل قلبه السياسة القومية المعتزة والتي لا تتهاون التي مثّلها زئيف جابوتنسكي واعتبر نفسه صهيونيا مقاتلا. ومع ذلك كلما اشتدّ اشتعال الأرض تحت قدميه وأقدام أبناء عائلته، كان ما زال يميل - أو ربما ميّلته الجدّة شلوميت- إلى البحث عن وطن جديد يكون اقل آسيوية من فلسطين وأكثر أوروبية من فيلنا التي تنحدر نحو الظلام: في السنوات ما بين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ طلب أفراد عائلة كلاوْزِنر وثائق هجرة إلى فرنسا، وسويسرا، وأمريكا (رغم وجود الهنود الحمر)، ولإحدى دول اسكندنافيا وإلى انجلترا. إلا أن أيّاً من هذه الدول لم تقبلهم: لكل منها كان في ذلك ما يكفيها ويزيد من اليهود ("None is too many!" قال في حينه وزراء في كندا وسويسرا والدول الأخرى تصرفت تماما مثلهما دون أن تعلن ذلك).

قبل حوالي السنة والنصف من وصول النازية إلى الحكم في ألمانيا كان جدّي الصهيوني أعمى حتى أنه بفعل مرارة اليأس من اللا سامية الفيلناوية توجه إلى ألمانيا طالبا أن يكون مواطنا فيها. لحسن حظنا رفضت ألمانيا أيضاً

طلب جدّي. رغب كثيرون جدا في جميع أرجاء أوروبا في تلك الأيام في التخلّص بشكل نهائي من جميع هؤلاء الأوروفيليين المتهورين، الذين يتقنون عددا كبيرا من لغات أوروبا، ويحفظون أشعار شعرائها، والمؤمنين بسموها الأخلاقي، المعجبين بالباليه والأوبرا الأوروبيين، محبي تراثها، والحالمين بوحدتها ما بعد القومية والمتحمسين لآدابها وملابسها وأزيائها، محبيها بلا حدود وبدون شروط والذين منذ عشرات السنوات، منذ بداية عصر التنوير اليهودي عملوا كل ما يمكن أن يقوم به بشر من أجل أن ينالوا رضاها، وأن يساهموا فيها في جميع المجالات وبكل الوسائل، وأن يندمجوا فيها وأن يخترقوا عدوانيتها الباردة بواسطة مغازلاتهم الحارّة ليكونوا محبوبين، مرغوبين مقبولين أن ينتموا وأن يكونوا محبوبين.

*

في سنة ١٩٣٣ قامت شلوميت و أَلِكْسَنْدِر كُلاوْزنِر محبا أوروبا من طرف واحد، هما وابنهما الصغير يهودا آريه الذي أنهى للتو دراسته الجامعية وحصل على شهادة البكالوريا في الأدب البولندي والعالمي يهاجرون عن غير رغبة ورغما عنهم تقريبا إلى آسيا الآسيوية، إلى القدس التي إليها اشتاقت أشعار جدّي مرهفة الحس من أيام صباه.

على ظهر السفينة الايطالية يبحرون من ترياست إلى حيفا وفي الطريق يتصوّرون مع القبطان الذي اسمه كما سُجّل في حاشية الصورة بنيامينو أومبيرتو شتايندلر. لا أقلّ من ذلك.

وفي ميناء حيفا، هكذا تقول الأسطورة العائلية، كان بانتظارهم طبيب يلبس مريولا أبيض (أو ربما كان ذلك مساعد ممرض؟) من طرف حكومة الانتداب البريطانية، والذي قام برشّ ملابس كل قادم إلى البلاد بمحلول تعقيم. عندما حان دور جدّي أَلِكْسَنْدِر، هكذا كانوا يحكون عندنا، غضب جدّي غضبا شديدا، خطف من يد الدكتور أداة الرشّ ورش مَن رشّه مرتين: هكذا يجب أن يُفعل بالشخص الذي يجرؤ على أن يتصرف هنا في الوطن وكأننا ما زلنا في الشتات. طوال ألفي سنة تحمّلنا كل شيء بصمت. ألفي سنة كنا كالغنم تقاد إلى المسلخ. ولكن هنا في بلادنا، فإننا لا نسمح بأي

شكل من الأشكال أن يكون لنا شتات جديد. شرفنا لن يدوسه أحد بعد الآن.

*

الابن البكر دافيد بقي في فيلنا: وهناك وصل وهو ما زال صغيرا جدا في السن إلى درجة أستاذ في الجامعة. لا شك أن سيرة العمّ يوسف المهنية الرائعة كانت نصب عينيه كما كانت نصب عيني أبي طوال حياته. هناك في فيلنا يتزوج العمّ دافيد، وهناك في سنة ١٩٣٨ يولد له ابنه دانيئل الذي لم أره ولو لمرة واحدة: حتى صورة واحدة له لم أنجح في أن أجدها في أي مكان. كل ما بقي هو بطاقات بريد ورسائل قليلة، مكتوبة بالبولندية بخط زوجة العمّ مالكا، أو ماتسيا زوجة العمّ دافيد: «١٠/٢/٣٩ : في الليلة الأولى نام دانوش من الساعة التاسعة مساء وحتى الساعة السادسة صباحا. إنه لا يعاني من أي مشكلة في النوم في الليل. في النهار يضطجع وعيناه مفتوحتان ويداه ورجلاه لا تتوقفان عن الحركة. كما أنه في بعض الأحيان يصرخ...»

أقل من ثلاث سنوات عاش دانيئل كْلاوْزنِر الصغير. بعد قليل سيأتون ويقتلونه، لكي يحموا أوروبا منه، لكي يحولوا مسبقا بينه وبين «كابوس إغواء مئات وآلاف الفتيات بيد أولاد العاهرة اليهود المنفّرين، عوج الرجلين... بسرور شيطاني على وجهه يكمن الشاب اليهودي أسود الشعر للفتاة... والتي يدنسها بدمه... الهدف النهائي لليهود هو مصادرة القومية... عن طريق «تهجين» الشعوب الأخرى، والحطّ من المستوى العرقي للشعوب العريقة جدا... بهدف خفيّ... لهدم الجنس الأبيض... إذا نقل خمسة آلاف يهودي إلى السويد، فإنهم خلال فترة قصيرة سيحتلون جميع المراكز الرئيسية... المُسمِّم العالمي لجميع الأجناس البشرية هو اليهودية العالمية...»[1]

---

(١) هتلر، عند هيرمن راوشنينغ، «محادثات مع هتلر»، ترجمه إلى العبرية م.ز فولفوبسكي، إصدار مكتبة ريمون/ مسادا (بالتعاون مع مؤسسة بياليك)، تل أبيب ١٩٤١، وكذلك عند يؤاخيم بسط، «هتلر» إصدار كيتر، القدس ١٩٧٣، ص٤٥-٤٦، ٢١٦-٢١٧، ٥٥٨-٥٥٩ وكذلك وصية هتلر، ن.م. ص:٧٧٨. (المؤلف)

لكن العمّ دافيد فكر بشكل مختلف: لقد تعامل باستهانة واحتقار لمثل وجهات النظر هذه الكريهة ولكن المتتشرة، لا سامية كنسية كاثوليكية مزخرفة كان يتردد صداها بين القبب الحجرية للكاتدرائيات العالية، ولا سامية بروتستنتية سامّة - باردة عنصرية - ألمانية، تقتيل نمساوي، كراهية يهود بولندية، وحشية ليتوانية، هنغارية، فرنسية، حب المجازر الأوكراني والروماني والروسي والكرواتي، كراهية اليهود البلجيكية والهولندية والبريطانية والايرلندية والاسكندينافية. كل هذه بدت له كمخلفات مظلمة لعهود وحشية وجاهلة، مخلفات الأمس التي حان الوقت لأن تختفي من الوجود.

اعتبر العمّ دافيد نفسه كمحليّ في عصره: إنسانا أوروبيّاً نموذجيا، متعدد الثقافات، متعدد اللغات، ذرب اللسان، موهوبا، متنوّرا، إنسانا عصريا بكل تأكيد. احتقر الآراء المسبقة وللكراهية العرقية الظلامية، وهو، لا ينوي، بأي شكل من الأشكال، أن يستسلم لكل أولئك العنصريين منخفضي الجبين، المحرضين، الشوفينيّين، الديماغوجيين، واللا ساميين الظلاميين، الغارقين في معتقدات السّخافة، الذين وعد صوتهم الأجشّ «الموت لليهود» ونبح عليه من على الجدران، «أيها اليهودي الحقير: اذهب إلى فلسطين!»

إلى فلسطين؟ بكل تأكيد، لا: ليس شخص مثله من يأخذ زوجته الشابة وابنه الرضيع ويهرب من الجبهة ليختبئ من عنف الرعاع الهمجي في أي ولاية مقفرة في الشرق، حيث هناك يحاول بعض اليهود اليائسين بذل جهودهم من أجل إقامة وطن قومي انطوائي ومسلح، الأمر الذي تعلموه على ما يبدو، من أسوأ أعدائهم.

لا: العمّ دافيد بكل تأكيد سيبقى هنا، في فيلنا، يقف بالمرصاد على أحد الثغور الأمامية والأكثر حيويةً للتنور الأوروبي التأمّلي، واسع الأفق، المتسامح، والليبيرالي، الذي يدافع عن نفسه أمام الموجات البربرية المتزايدة والتي تهدد بإغراقه. هنا سيقف لأنه لا يستطيع غير ذلك.

حتى النهاية.

١٧

ألقت جدّتي حولها نظرة خاطفة وحيدة ومذعورة، وللتوّ أصدرت حكمها المشهور والذي سيصبح شعارها طوال السنوات الخمس والعشرين التي عاشتها في القدس: «الشرق مليء بالميكروبات».

منذ صدور ذلك الحكم أصبح على جدّي أن يستيقظ صباح كل يوم في السادسة أو في السادسة والنصف وان يبدأ، من أجلها، يُنزل بالمضرب الذي بيده ضربات قاتلة على الفراش والشراشف والبطانيات واللّحف وتهوية السجاجيد والمخدّات كل يوم، وأن يرشّ البيت كله بالفلت، وليساعدها على الغلي الوحشي للخضروات والفواكه، وغسيل المناشف وأدوات المطبخ. كل ساعتين أو ثلاث كان علينا أن نعقّم بالكلور كراسي المرحاض والمغاسل. فتحات التصريف للمغاسل كانت دائمة مسدودة ووقف فيها دائماً القليل من الكلور ومحلول الليزول، مثل الخندق المملوء بالمياه حول أسوار قلعة من أيام العصور الوسطى. هدف هذا الخندق هو أن يصدّ غزوات الصراصير والآفات الأخرى التي تحاول ليل نهار أن تخرج إلينا من المجاري. حتى أن مناخير المغاسل أي الثقوب الصغيرة التي عند حافة المغسلة والتي وظيفتها تصريف المياه في حالة امتلاء المغسلة- حتى هذه الفتحات الصغيرة كانوا يسدونها هناك بسدادات مرتجلة مصنوعة من الصابون المُسيّل، حتى لا «يتشاطر» العدو ويتسلل عبرها. من شبكات البعوض التي على الشبابيك كانت دائماً تنبعث رائحة مبيد الحشرات الدي دي تي. في جميع أرجاء البيت كانت تحلق بشكل دائم أبخرة محاليل التعقيم. عمود غيوم خافت من

السبيرتو (الايثانول)، والصابون، والمعاجين، ومحاليل الرشّ، والطعوم، ومبيدات ومسحوق البودرة كان يتعالى طوال الوقت في غرف المنزل وشيء منه ربما انبعث من جلد جدّتي الناعم.

وبالرغم من كل هذا، بين الحين والآخر، في ساعات المساء الأولى كان يُدعى إلى هنا أيضاً عدد من الكتاب المبتدئين، وتاجرين أو ثلاثة تجار مثقفين وعدد من الباحثين الشباب الواعدين. حقا، بدون بياليك وبدون تشرنيحوفسكي وبدون وجبات العشاء الممتعة كثيرة المشتركين. الفقر والاكتظاظ وصعوبات الحياة أجبرت جدّتي على الاكتفاء بالقليل: حنة وحاييم تورن، استير ويسرائيل زارحي، تسيرتا ويعكوف - دافيد ابرمسكي، وأحياناً شخص أو شخصان من معارفهم من لاجئي اوديسا أو لاجئي فيلنا، السيّد شايندليفيتش من شارع يشعياهو، والسيّد كاتشيلسكي صاحب المتجر في شارع دافيد يلين، الذي اعتبر ابنيه الشابين في حينه خبيرين كبيرين في العلوم، ولهما مكانة سرية في أوساط «الهاجناه»، أو الزوجان بار يتسهار (ايتسيليفتش) من حي مكور باروخ، هو، الزوج، تاجر خردوات حزين الوجه، وهي، الزوجة، مصممة باروكات وتفصّل وتخيط مشدات نسوية، وكلاهما عضوان متحمسان في حزب زئيف جابوتنسكي ومن تسري كراهية حزب مباي في عروقهما.

كانت جدّتي تحضّر التشريفات كما في طابور عسكري لامع على المائدة وعلى الرخام، وكانت ترسل جدّي المرة تلو المرة محمَّلا بالأطباق إلى الجبهة، ليقدم إلى الضيوف حساء الشمندر الروسي المثلّج والذي يطفو على وجهه جبل جليدي شديد الانحدار من القشطة، وطبق من المندرينا الطازجة المقشّرة ومن فواكه الموسم والجوز واللوز والزبيب والقطين وفواكه أخرى مطلية بالسكر، وقشور برتقال مطلية بالسكر وأنواع مختلفة من المربى والفواكه المعلّبة وأنواع أخرى من مربى الفاكهة وكعك بذور الخشخاش والكعك المحشو بالمربى، وكعك التفاح أو فطائر أخرى لذيذة صنعتها من المعجنات.

هنا أيضاً كانوا يتحدثون عن أحداث الساعة وعن مستقبل الشعب

والعالم، هاجموا حزب مباي الفاسد وزعماءه النشطاء الانهزاميين الذين يتملقون ويداهنون المرتشين الفاسدين غير اليهود. أما بالنسبة للكيبوتسات فقد نظروا إليها من هنا على أنها خلايا بلشفية خطيرة بالإضافة إلى أنها فوضوية وتؤمن بالعَدَمِيّة، وهم منحلّون أخلاقيا ينشرون الانحلال ويدنسون مقدسات الشعب، بالإضافة إلى أنهم طفيليون يسمنون يوما بعد يوم على حساب أموال الشعب، وهم استغلاليون لصوص أراضي - الشعب - وهذا بالضبط ما سيقوله لاحقا عن الكيبوتسات أعداؤهم من مجموعة «هكيشت همزراحيت» (القوس الشرقية) الأمر الذي عرفه مسبقا في تلك السنوات ضيوف منزل جدّي في القدس. يبدو أن محادثات- المائدة هذه لم تبهج قلوب المتحدثين، إذ لو أن الأمر لم يكن كذلك- إذن لماذا حرصوا أن يصمتوا بين الحين والآخر في اللحظة التي كانوا يلمحونني فيها، أو ينتقلون فورا إلى الروسية أو يغلقون الباب الذي بين الصالون وبين قلعة الحقائب التي بنيتها لنفسي في مقصورة جدّي؟

*

هكذا كان منزلهم الصغير في شارع براغ: كانت هناك غرفة صالون واحدة، روسيّة جدا، كثيفة، مُثقلة بالأثاث الثقيل جدا، ممتلئة بالأغراض، ممتلكات منقولة، حقائب، روائح كثيفة لأسماك مطبوخة وجزر مطبوخ ومعجنات امتزجت مع روائح الفلت والليزول، حول الحيطان انتصبت خزائن أدراج مزخرفة، مسند قدمين، خزانة سوداء متينة، طاولة غليظة الأرجل، بوفيه مليء بالزخارف والتذكاريات. الغرفة كلها مكتظّة بشراشف الشيفون الشفاف الأبيض الناصع، وستائر من القماش المخرّم والوسائد المطرّزة والدمى الفنية وزخارف فنية صغيرة اصطفت زرافات زرافات على كل مسطح فارغ وحتى على عتبة النافذة، مثل تمساح من الفضة، يمكنك أن ترفع ذيله المحرشف وان تضع حبة جوز بين فكيه وتضغط لتكسرها، ومثل كلب من نوع بوديل اصطناعي ناصع بحجم طبيعي، مخلوق ناعم وصامت أسود الأنف وحزين العينين الزجاجيتين، كان يربض دائماً خانعا متواضعا مستكينا عند قدمي مقعد جدّتي وهو لم ينبح إطلاقا ولم يطلب إذنا بالخروج خارج

المنزل إلى شوارع الشرق التي بإمكانه أن يحضر معه منها ما لا يعلمه إلا الله: حشرات، بق، براغيث، قراد، دود البطن، قمل، إكْزيمَا، الجراثيم وغيرها من الأوبئة السيئة.

هذا المخلوق اللطيف الذي كان يسمى «ستاخ» أو «ستاشيك» أو ستاشينكا، كان مطيعا وناعما أكثر من الكلاب التي خلقت منذ الأزل لأنه كان مصنوعا من الصوف ومحشوّاً كله بملابس وجوارب قد أنهت وظيفتها. تنقل هذا الكلب مع أفراد عائلة كلاوْزنِر متمسكا بهم بإخلاص في جميع تنقلاتهم من أوديسا إلى فيلنا ومن فيلنا إلى القدس. حفاظا على صحته أجبر الكلب الحزين على أن يبتلع كل أسبوعين أو ثلاثة عددا من أقراص النفثالين اللاذعة. كل صباح كان عليه أن يتحمّل بخنوع صليات رشاش مياه جدّي المتدفق. بين الحين والآخر، في الصيف، كانوا يجلسونه على عتبة النافذة المفتوحة ليتهوّى قليلا وليتشرب بعض أشعة الشمس، وان يرتشف قليلا من الضوء.

لساعات قليلة كان «ستاخ» يربض على عتبة النافذة بلا حراك، عيناه الزجاجيتان السوداوان المكتئبتان كانتا تتوقان إلى الشارع بأشواق لا نهائية، أنفه الأسود المطرّز يستنشق عبثا روائح كلبات الشارع، أذناه الصوفيتان مائلتان إلى الأمام، مستنفرتان إلى أبعد حدود قدرتهما على الإصغاء لاستقبال مختلف أحداث الحيّ، مواء قط عاشق، ابتهاج العصافير، توبيخات صارخة بالايديش، نداءات تاجر الخردوات التي تجمّد الدماء في العروق، نباح الكلاب الحرة التي مصيرها أفضل كثيرا من مصيره، كان «ستاخ» يطأطئ رأسه قليلا، مفكراً حزينا، ذنبه القصير ملتوٍ بامتعاض بين رجليه الخلفيتين، عيناه كاسفتان. لم ينبح أبداً على عابري الطريق ذهابا أو إيابا، لم يستنجد بإخوته كلاب الشارع، ولم يولول ذات مرة أبداً، إلا أن وجهه، وهو يربض، على هذا النحو، على عتبة النافذة، عبر عن يأس صامت كان يمزّق قلبي ألماً، يأس أخرس كان يجرح أكثر من أي صرخة استغاثة، ثاقبا أكثر من أفظع الولولات.

قامت جدّتي صباح أحد الأيام ودون أن تفكر مرتين لفّت «ستاشينكا» كلبها بورق جرائد وألقت به إلى برميل النفايات مباشرة، لأنه أثار لديها، في

لحظة معينة، الشكّ بوجود غبار أو عفونة عليه. لقد حزن جدّي بكل تأكيد إلا انه لم يجرؤ حتى على أن يتمتم. أما أنا فلم اغفر لها صنيعها هذا.

*

هذا الصالون المكتظ، الذي لونه وحتى رائحته كانت بنية داكنة، كان أيضاً غرفة نوم جدّتي، ومنه تفرعت غرفة جدّي، المقصورة، خلوة الرهبان، خاصته، مع المقعد الصلب ورفوف البضائع وتلة الحقائب ورفوف الكتب والمنضدة الصغيرة المرتبة والنظيفة دائماً مثل طابور الصباح لكتيبة من الجنود الهوصارين اللامعين من أيام القيصر فرانس جوزيف.

هنا، في القدس أيضاً اعتاش الاثنان بضنك من تجارة جدّي المتأرجحة: مرة أخرى كان يشتري شيئا ما هناك ويبيعه هنا، يجمع في الصيف ويخرج للبيع في الخريف، يتنقل مع حقائبه «نماذجه» من دكان ملابس إلى آخر في شارع يافا وشارع كينج جورج وفي أجريبس وزقاق لونتس وفي بن يهودا. كان يسافر مرة في الشهر تقريبا إلى حولون ورمات غان، نتانيا، بيتح- تكفا وأحياناً ابتعد حتى حيفا، يتباحث هناك مع منتجي المناشف ويفاصل خياطي الملابس الداخلية ومستوردي الملابس الجاهزة.

صباح كل يوم، قبل أن كان يخرج إلى تجولاته كان جدّي يرزم ويحضر رزم الملابس والأقمشة لإرسالها بواسطة بريد الرزم. بين الحين والآخر، كانوا يمنحونه ثم يحرمونه ثم يعودون لمنحه صفة وكيل مبيعات محلي لإحدى شركات لبيع الملابس والملابس الجاهزة بالجملة محدودة الضمان، أو لأحد المشاغل لخياطة المعاطف الواقية من المطر. لم يحبّ التجارة ومنذ اشتغل فيها لم يفلح فيها، وبصعوبة كان يبقى معه ما يكفي بصعوبة لمعيشته ومعيشة جدّتي، ولكنه من جهة أخرى أحبّ التجوال الطويل في شوارع القدس، كان أنيقا جدّاً دائماً، يرتدي بدلته بذلة الدبلوماسي الروسي مع مثلث منديله الأبيض الناصع الذي كان ينتصب من جيب الصدر، ومع الأزرار الفضية التي ثبّتت طرفي كميه. وأحبّ كذلك الجلوس ساعات طويلة في المقاهي، ظاهريا من أجل أعماله ولكن في الأساس من أجل المحادثات والنقاشات ومن أجل الشاي المغلي وتصفّح الجرائد والمجلات. كما أحب

أن يأكل في المطاعم. كان دائماً يتعامل مع النوادل معاملة السيّد المتشدد وكثير الطلبات ولكن من جهة أخرى برحابة صدر:

«من فضلك، هذا الشاي بارد. اطلب بشدة أن تحضر لي وفي الحال، شايا ساخنا: شايا ساخنا معناه أن يكون التركيز أيضاً ساخنا جدا جدا. شكرا.»

أكثر ما أحب جدّي كانت السفريات الطويلة خارج المدينة واجتماعات العمل في مكاتب الشركات في مدن الساحل. كانت له بطاقة عمل فاخرة وجميلة، مع حواش مذهّبة ومع شعار على شكل معينات متداخلة على شكل كومة من الماسات الصغيرة. على هذه البطاقة طبع: «أَلِكْسَنْدِر ز. كْلاوْزنِر، مستورد، وكيل تجاري، وكيل عام وجملة مرخّص، القدس والمنطقة». كان يقدم بطاقته لك وهو يبتسم معتذرا كولد صغير:

«هيا، ماذا، الإنسان مضطر لأنّ يعتاش من شيء ما.»

لكن قلبه لم يكن في التجارة بل في أشياء محبوبة سرية وبريئة، في أشواق قلبية، كفتى ثانوية ابن سبعين سنة مع أشواق ضبابية وأحلام: لو أنه استطاع أن يحيا حياته من جديد، بحسب اختياره وبحسب ميوله ورغباته الحقيقية، لكان بكل تأكيد اختار أن يحبّ النساء، وان يُعشق، وان يتفهم قلوبهنّ، وان يقضي وقته معهنّ في مخيمات الاستجمام في أحضان الطبيعة، وان يجدف معهن في قارب في مياه البحيرات عند منحدرات الجبال المكسوّة بالثلج، وان يؤلف الأشعار الملتهبة، وان يكون جميلا، مجعد الشعر، ورقيقا ولكن رجلا، أن يكون محبوب الجماهير، أن يكون تشرنيحوفسكي. أو بايرون. أو أفضل منهما، أن يكون زئيف جابوتنسكي: شاعر مبجّل وقائد عظيم وجميل المنظر امتزجت كلها في شخصية واحدة مدهشة.

تاقت نفسه طوال حياته إلى عوالم الحب والمشاعر الجيّاشة. رغب كثيرا أن يمنح النساء الإيثار وأن يحصل مقابل ذلك على إعجابهنّ ومحبتهن الأبدية (لم يفرق يوما على ما يبدو بين الحب والإعجاب: متعطّش دائماً إلى كثير من كليهما كما تاقت نفسه واستمتع بان يمنح من كليهما بكثرة إلى هذه المرأة أو تلك أو للجنس اللطيف كله).

كان أحياناً ينقل قيوده يائسا، يعض بأسنانه على الرسن، يرتشف في عزلة المقصورة كأسين من الكونياك، وفي ليالي السهاد، الليالي المريرة بشكل خاصّ، كان يرتشف كأس فودكا ويدخن محزونا السجائر. أحياناً كان يخرج وحيدا بعد حلول الظلام ليتجول في الشوارع التي خلت من الناس. لم يكن من السهل عليه أن يخرج: لجدّتي كانت شاشة رادار متطوّرة وحسّاسة «وضعتنا» جميعاً عليها: في كل لحظة معطاة كان لزاما عليها أن تفحص وأن تعدّ الموجودات، وأن تعرف دائماً بدقة متناهية أين كل واحد منا موجود، لونيا بجانب طاولته في المكتبة القومية في الطابق الرابع من بناية تيراسانطة، زيسيا في قهوة «عطارا» فانيا تجلس في مكتبة «بني بريت» عاموس يلعب مع صاحبه الحميم الياهو في بيت الجار المهندس السيّد فريدمن في العمارة الأولى عن اليمين. في طرف شاشة جدّتي فقط من خلف السديم المظلم في زاوية الشاشة التي كان من المفروض أن يطل عليها ابنها زيوزا، زيوزنكا مع مالكا ومع دانيئل ابنهما الصغير، والذي لم تره ولم تحمّمه أبداً، من هناك كان يظهر عليها ليل نهار ثقب أسود مفزع.

كان جدّي يتجول نصف ساعة تقريبا في شارع الأحباش قبعته على رأسه، يسمع صدى خطواته يتنفس هواء الليل الجاف، والمشبّع بالصنوبر والحجارة. مع عودته كان يجلس إلى منضدته، يرتشف القليل ويدخن سيجارة أو سيجارتين ويكتب في وحدته قصيدة شخصية باللغة الروسية. منذ أن تعثر بشكل مخجل وأحبّ أخرى على ظهر السفينة في الطريق إلى نيويورك مما اضطر جدّتي إلى أن تجبره على الزواج بها لم يخطر بباله أن يتمرد: كان يقف أمام زوجته مثل الخادم أمام سيدته الغنية وكان يخدمها بتواضع وتقدير وخشية وإخلاص وتسامح لا حدود لها.

إما هي فقد كانت تناديه «زيسيا»، وفي حالات نادرة من اللطف العميق والشفقة والإحسان كانت تناديه «زيسل»، عندها كانت أساريره تنفرج فجأة وكأن أبواب السماوات السبع فتحت أمامه.

١٨

لقد امتد به العمر وعاش عشرين سنة بعد وفاة جدّتي شلوميت التي توفيت وهي تستحم في حوض الحمام.

خلال عدة أسابيع أو عدة أشهر كان ما زال يستيقظ مبكرا صباح كل يوم مع بزوغ الشمس وكان يسحب الفرشات واللحف إلى درابزين الشرفة وكان يقف ويخبطها خبطات قاتلة لكي يسحق الميكروبات وبقية الآفات التي تسللت بكل تأكيد خلال الليل وتوغلت داخل الفراش. ربما وجد صعوبة في التوقّف عن عادته. وربما احترم بهذه الطريقة ذكرى الفقيدة. وربما عبر بذلك عن شوقه وحنينه إلى ملكته. أو ربما خاف انه بتوقفه قد يثير عليه روحها الفظيعة- المنتقمة.

كما أنه لم يتوقف مباشرة عن تعقيمها بغضب شديد.

ولكنه رويدا رويدا مع مرور الأيام بدأ خدا جدّي الياسمان يتوردان كما لم يتوردا من قبل. ابتهاج دائم حل به. صحيح أنه حتى آخر أيام حياته حافظ كثيرا على النظافة والترتيب، فهو إنسان مصقول ولامع بطبيعته، إلا أن عنفه هدأ: لم تعد هناك خبطات وجلدات مضرب رنانة، ولم تعد هناك صليات نفاثة غاضبة من الليزول والكلور. بعد عدة أشهر من موت جدّتي عادت تزدهر لدى جدّي حياة الحب العاصفة والمدهشة جدا. وتقريبا في الوقت نفسه أو هكذا بدا لي اكتشف جدّي ابن السابعة والسبعين بهجة الجنس.

قبل أن يتمكن من إزالة غبار جنازة جدّتي عن حذائه، عجّ بيت جدّي بالمعزيات المواسيات اللواتي طردن الوحدة وتفهمن قلبه. لم يدعنه لنفسه

ولو للحظة واحدة، زودنه بأنواع مختلفة من الأطعمة الساخنة، وأقمن أوده بكعك التفاح وهو، على ما يبدو، مستمتع جدا ولم يدعهن يتركنه لنفسه: فقد تاقت نفسه طوال حياته إلى المرأة كيفما هي. تاقت نفسه إلى جميع النساء، فتنته النساء الجميلات وكذلك تلك اللواتي لم يعرف غيره من الرجال أن يرى جمالهن: «السيّدات،» هكذا حكم ذات مرة جدّي، «كلهن جميلات جدا. كلهن بدون استثناء. لكن الرجال،» ابتسم، «عميان، عميان تماما! هيا، ماذا. أنهم لا يرون إلا أنفسهم، وحتى أنهم لا يرون أنفسهم. عميان!»

*

بعد موت جدّتي قلّص جدّي تجارته. ما زال يعلن بين الفينة والأخرى، وهو يشع من شدة الاغتباط والمتعة عن «سفرة عمل مهمة جدا إلى تل أبيب، شارع جروزنبرغ»، أو عن «جلسة مهمة جدا جدا في رمات غان، مع جميع رؤساء الشركة». ما زال يحب أن يقدم لكل من صادفه في طريقه بطاقة الزيارة الفاخرة خاصته: «أَلِكْسَنْدِر ز. كُلاوْزِنر، أقمشة، ملابس جاهزة، مستورد، وكيل رسمي تجاري مرخّص، وكيل عام وسمسار» وإلخ وإلخ. ولكنه منذ الآن منغمس غالبة الأيام في أعمال القلب المتشعبة: يدعو أو يُدعى إلى كأس شاي، يتناول الطعام على ضوء الشموع في مطعم مميز ولكن ليس غاليا جدا («مع السيّدة تسيترن، تي دوراك [أيها الأحمق]، مع السيّدة تسيترين، وليس مع السيّدة شابوشنيك!»).

كان يقضي الساعات بجانب طاولته في الطابق الثاني، السري، في قهوة «عطارا» في منحدر شارع بن يهودا، ببدلته الزرقاء الغامقة، وربطة العنق المنقّطة، كله وردي، باسم، مشرق، مهندم، تفوح منه رائحة الشامبو والبودرة والعطر، مدهش في منظره بقميصه الأبيض المنشّى كلوح الخشب، وبمنديل جيب الصدر الأبيض الناصع، وبأزرار كمّي قميصه الفضية، محاط دائماً بمجموعة من النساء شديدات الاعتناء بأنفسهن في الخمسين أو الستين من العمر: أرامل بمشدّات ضيقة وبجوارب نايلون مع درزة من الخلف، مطلقات تزوّقن جيدا، سيدات أنيقات تزيّنّ بالكثير من الخواتم والحلق

والأساور، مصقولات بالمانيكير والبديكور وتموّج الشعر والتسريحات المنفوخة، وسيدات تكلمن العبرية الجريحة بلكنة هنغارية، أو بولندية أو رومانية أو بلقانية. أحب جدّي صحبتهن وهن كنّ يذبن أمام سحره: محدِّث ممتع وجذاب ومسلٍ، جنتلمان من القرن التاسع عشر، يقبل أيدي السيّدات، يسرع ليفتح لهن الأبواب، يقدم ذراعه مع كل درجة أو انحدار، يتذكّر أيام عيد الميلاد، يرسل باقات الزهور وعلب الشوكولاطة، شديد الملاحظة، يُطري بحكمة على جمال الفستان، أو تغيير التسريحة، أو الحذاء الأنيق، أو على الجزدان الجديد، كان يداعب برقة وبذوق رفيع، ينشد الإشعار في وقتها المناسب، يتحدث بحرارة وروح الدعابة. ذات مرة فتحت الباب ورأيت جدّي ابن التسعين يركع على ركبتيه أمام امرأة سمراء ذات شعر بني غامق، ممتلئة مستديرة وضحوكة، هي أرملة كاتب عدل معين. غمزتني السيّدة من فوق رأس جدّي العاشق وابتسمت بسرور، وهي تكشف عن صفين من الأسنان أجمل من أن يكونا طبيعيين. خرجت وأغلقت الباب بلطف دون أن يلاحظ جدّي ذلك.

ماذا كان سر سحر جدّي كرجل؟ ربما بدأت أفهم ذلك بعد سنوات فقط. لقد منحه الله صفة لا تكاد تكون موجودة بين الرجال، صفة رائعة والتي ربما لا يوجد أكثر منها إثارة لِلشَّهْوَةِ الجِنْسِيَّة في نظر الكثير من النساء: كان ينصت.

ليس مجرد أنه تظاهر بأنه يصغي، من منطلق الإتيكيت، وهو ينتظر، وقد نفد صبره، أن تنهي كلامها وتكفّ عن الثرثرة.

لم يكن يخطف من محدثته الجملة من فمها ويكمّلها بدلا عنها بعد نفاد صبره.

لم يسكتها، ولم يقاطعها لكي يلخّص أقوالها وينتقل إلى موضوع آخر.

لم يكن يسمح لمحدّثته أن تتكلم إلى الهواء وهو يحضر أثناء ذلك ماذا سيرد عليها عندما ستتوقف أخيراً عن الكلام.

لم يكن يتظاهر بأنه مهتمّ أو مستمتع بل اهتمّ واستمتع فعلا، هيا، ماذا. كان فضوليّاً لا يملّ ولا يتعب.

لم يكن فارغ الصبر. لم يحاول في تحويل المحادثة من المواضيع البسيطة التي تثيرها إلى مواضيعه، المهمّة.

بل على العكس، لقد أحب جدّاً جدّاً أحب مواضيعها. بالذات استمتع دائماً بانتظارها، حتى وإن أطالت كان ينتظرها وخلال ذلك يستمتع بكل التواءاتها.

لم يستعجل. لم يُعجّل. كان ينتظرها حتى تنهي، وحتى عندما تنهي لم يكن يقفز ليخطف منها الكلام بل أحب أن يستمر في انتظارها:

ربما ما زال عندها القليل بعد؟ ربما تأتيها موجة أخرى؟

أحب أن يدعها تمسك بيده وان تأخذه إلى أماكنها ووفق وتيرتها. أحب أن يرافقها مثلما يرافق الناي الغناء.

أحب أن يتعرف عليها. أحب أن يفهم. أن يعرف. أحب أن يدرك ما تعنيه وان يفهم مرادها وأكثر قليلا.

أحب الاستسلام، كان يستمتع بالاستسلام أكثر مما تمتع باستسلامها.

هيا، شتو (ماذا؟): لقد كنّ يتكلمن معه ويتكلمن حتى الارتواء، كما أحببن، تكلمن أيضاً عن شؤونهن الخاصة السرية والحسّاسة جدّاً وهو كان يجلس ويستمع بحكمة وبرقة وبتعاطف وطول أناة.

لا، ليس بطول أناة بل بمتعة وإحساس.

يوجد هنا رجال كثيرون يحبون الجنس جدّاً جدّاً، ولكنهم يكرهون النساء.

أما جدّي، هكذا خيّل إليّ، أحب كليهما (الجنس والنساء)

وبلطف: لم يجر حسابات. لم يكن يخطف نصيبه. لم يكن متعجلا أبداً. أحب أن يجدف ولم يسارع إلى الرسوّ.

*

كانت له علاقات غرامية عديدة على مدى العشرين سنة من العهد العسلي، بعد وفاة جدّتي، من سن سبعة وسبعين وحتى آخر أيام حياته. أحياناً كان يخرج مع حبيبته هذه أو تلك، لقضاء يومين أو ثلاثة في فندق في

طبريا، أو في بنسيون في جدّيرا أو في «مخيم صيفي» بالقرب من شاطئ البحر في نتانيا (ترجم جدّي، على ما يبدو، بالمصطلح «مخيم صيفي» مصطلحا روسيا مع شذا تشيخوفي للداتشات[1] على سواحل شبه جزيرة القرم). شاهدته مرتين أو ثلاث يخطو في شارع أجريباس أو في شارع بتسالئل مشبكا ذراعه مع سيدة ما ولم أقترب منهما. لم يحاول بشكل خاص أن يخفي عني غرامياته ولكنه من الجهة الأخرى لم يتباه بها. لم يحضر، ولو لمرة واحدة، صديقاته إلى البيت ولم يقدمهن إلينا، وتقريبا لم يذكرهن أو يتحدث عنهن. ولكن، أحياناً بدا لنا عاشقا ولهانا كما الشباب، عيناه محجوبتان وكأن عليهما غشاوة. يتمتم بينه وبين نفسه ببهجة وقوة، ابتسامة شاردة الذهن تتيه على شفتيه. وأحياناً كان الأسى يرتسم على وجهه، بهت التورّد الطفولي الذي على وجهه كالشمس المكسوة بالغيوم في أيام الخريف، كان يقف في غرفته يكوي بغضب قمصانه الواحد تلو الآخر، كما اعتاد جدّي أن يكوي ملابسه الداخلية وان يرشها بالعطر من زجاجة ذات بخّاخ صغير، وخلال ذلك، كان، أحياناً، يتحدث إلى نفسه بغلظة وبرقة باللغة الروسية أو يترنم بنغمة حزينة أوكراينية، هكذا، كنا نستنتج أنه ربما أُغلق باب معين أمامه أو على العكس- ربما هذه المرة أيضاً كما في تلك الرحلة المدهشة إلى نيويورك أيام خطوبته، عاد وتورط مرة أخرى حتى اليأس بآلام حبَّين في آنٍ واحد.

ذات مرة وهو في التاسعة والثمانين من عمره أخبرنا بأنه سيقوم «برحلة مهمة» تستغرق يومين أو ثلاثة، وألا نقلق عليه إطلاقا. ولكن عندما لم يعد بعد أسبوع راودتنا المخاوف: أين هو؟ لماذا لا يتّصل تلفونيا؟ ربما، لا سمح الله، حدث له مكروه؟ مع كل ذلك، إنسان بمثل سنه. . .

احترنا كثيرا: هل نتوجه إلى الشرطة؟ إذا كان، لا قدّر الله، ملقى مريضا في أحد المستشفيات، أو تورط في أي مشكلة، فإننا لن نغفر لأنفسنا

(١) داتشا- منزل صيفي - باللغة الروسية (المترجم)

لأننا لم نبحث عنه. ولكن، من جهة أخرى، إذا اتصلنا فعلا بالشرطة وإذا به يعود سليما معافى كيف سنقف أمام عاصفة هوريكان- غضبه؟ إذا لم يظهر جدّي حتى ظهر يوم الجمعة، هكذا قررنا بعد يوم من التردد، سنضطر إلى التوجه إلى الشرطة. لا مناص.

لقد ظهر وبان في ظهر يوم الجمعة، قبل نصف ساعة من انتهاء أجل هذا الإنذار النهائيّ، كان كله متوردا من شدة الارتياح والرضا، يقطر بهجة وسعادة، مسرور ومتقدا مثل الأولاد.

«أين اختفيت، يا جدّي؟»

«هيا، ماذا. تجوّلت قليلا.»

«لقد قلت بأنك ستعود بعد يومين أو ثلاثة؟»

«قلتُ. وماذا في ذلك إذا كنت قلتُ. هيا، لقد سافرت برفقة السيّدة هيرشكوفيتش، لقد أمضينا وقتا سعيدا هناك. لم نشعر بتاتا كيف مرّ الوقت بهذه السرعة، لقد كان يمرّ راكضا ثم يختفي.»

«وإلى أين سافرتما؟»

«لقد سبق وذكرت: سافرنا لقضاء الوقت والاستمتاع به. وجدنا بنسيونا هادئا. بنسيونا حضاريا جدّاً جدّاً. بنسيونا كما في سويسرا.»

«بنسيون؟ أين، في أي مكان؟»

«على جبل مرتفع في رمات غان.»

«كان بإمكانك، على الأقل، أن تتّصل بنا؟ كيلا نقلق عليك إلى هذا الحد؟»

«لم نجد هناك تلفونا في الغرفة. هيا، ماذا. كان هذا بنسيونا حضاريا بشكل مميز!»

«ولكن كان بإمكانك أن تتصل من تلفون عمومي؟ وأنا نفسي كنت قد أعطيتك قطعا معدنية للتلفون؟»

«قطع معدنية. قطع معدنية. هيا، شتو تاكويا. ما هذه القطع معدنية؟»

«قطع معدنية للتلفون العمّومي.»

«آه. تلك الجيتونات[1] خاصتك. ها هي. هيا، خذها يا «من يعملها تحته»، خذها وخذ معها الثقوب التي في وسطها، خذ، خذ، لكن عدها من فضلك. انتبه، لا تأخذ أبداً أي شيء من أي إنسان دون أن تعده أولا كما يجب.»

«لماذا لم تستعملها؟»

«استعمل الجيتونات؟ هيا، ماذا. جيتونات! أنا اومن بها.»

*

وعندما كان ابن ثلاث وتسعين سنة، بعد ثلاث سنوات من وفاة أبي، قرر جدّي بأنه حان الوقت وأصبحت بالغا بما فيه الكفاية وفسح لي المجال لأتحدث معه حديث رجل لرجل. دعاني إلى المقصورة، وأغلق النوافذ، وأغلق الباب بالمفتاح، وجلس، مزدانا ورسميا، وراء مكتبه، أشار إلي بالجلوس أمامه وراء المكتب، لم يناديني بـ«من يعملها تحته»، وضع رجلا على رجل اسند ذقنه على مرفقَيْه، فكّر قليلا ثم قال:

«حان الوقت لأن نتحدث عن المرأة.»

وفي الحال أضاف مفسرا:

«هيا. عن المرأة بشكل عام.»

(كنت وقتها في السادسة والثلاثين، متزوج منذ خمس عشرة سنة ووالد لبنتين في سن المراهقة.)

تنهد جدّي، سعل سعالا خفيفا داخل كف يده، صحح وضع ربطة عنقه، تنخّع مرتين ثم قال:

«هيا، ماذا. كانت المرأة تثير اهتمامي دائماً. أي طوال الوقت. ولكن، لا تفهم من ذلك بأي شكل من الأشكال شيئا قبيحا! ما أقوله هو شيء آخر تماما، هيا، كل ما أقوله هو أن المرأة دائماً أثارت اهتمامي. لا، ليست قضية المرأة! بل المرأة كإنسان.»

---

(١) قطع من البلاستيك تستعمل كبديل للنقود في ألعاب القمار (المترجم)

ثم ابتسم وصحّح أقواله:

«- هيا، أثارت اهتمامي بكل المعاني. فأنا طوال الحياة انظر إلى النساء طوال الوقت، حتى عندما كنت «تشوداكاً» صغيرا، هيا، لا، لا لم أكن انظر إلى المرأة مثل أي «بسكودنياك» (منحط)، لا، كنت انظر إليها بكل التقدير والاحترام. أنظر وأتعلم. هيا، وهذا هو ما تعلمته، وهذا ما أريد الآن أن أعلمك إياه أيضاً. لكي تعرف. لذلك عليك الآن أن تصغي جيدا من فضلك: الأمر كما يلي.»

ثم توقف ونظر هنا وهناك، كمن يريد أن يعود ويتأكّد من أننا نحن الاثنين موجودان وحدنا تماما، دون أي إذن غريبة، وحدنا فقط.

«المرأة» قال جدّي، «هيا، من عدة نواحٍ هي بالضبط مثلنا نحن. فعلا بالضبط. تماما. ولكن من عدة نواح أخرى،» قال، «المرأة هي شيء آخر تماما. جدّاً جدّاً لا تشبهنا.»

هنا توقف ثم فكر في هذا قليلا، ربما خطرت بباله بعض الصور- الصور، أشرق وجهه بابتسامته الطفولية، وهكذا لخص نظريته:

«لكن ماذا؟ في أي النواحي المرأة هي بالضبط مثلنا وفي أي النواحي هي جدّاً جدّاً لا تشبهنا- هيا، على هذا،» أنهى كلامه ثم قام من مكانه، «على هذا ما زلت أعمل.»

كان ابن ثلاث وتسعين سنة، وربما واصل «العمل» على هذا السؤال حتى آخر أيامه، أنا أيضاً ما زلت أعمل عليه.

*

كانت لجدّي أَلِكْسَنْدِر لغته العبرية الخاصة به، لغة عبرية شخصية، ولا بأي حال كان يسمح بان يصححوه كما لم يرد أن يعلقوا عليه: أصرّ على تسمية الحلاق (سبّار) بالملاح (سبّان) وعلى تسمية صالون الحلاقة (مِسْبَراه) حوض بناء السّفُن (مِسْبَناه). مرة في كل شهر بشكل منتظم ودقيق كان هذا الملاح الشجاع يمشي إلى مسفن الأخوين بن يكار ويجلس على كرسي القبطان ويلقي على الملاح سلسلة من الأوامر المفصّلة والحاسمة، أمر

تنفيذي للإقلاع. أحياناً كان يُعنّفني أيضاً: «هيا اذهب، اذهب لكي تحلق [تبحر] (تِسْتَبِنْ)، ما هذا، الشكل الذي لك، مثل القرصان!» الرفوف (إتستبؤوت) كانت في لغته (ايتسبتؤوت)، مع أن الرف بالمفرد (إيتستبا) سَمح لها أن تبقى كما هي دون تحريف. أما القاهرة فقد سماها على طول الخط (كايرو)، أنا كنت عنده (بالروسية): إما («خَروشي مالتشيك») أي «ولد شاطر» وإما («تي دوراك») أي (أنت أحمق). أما مدينة الميناء «هامبورغ» فقد سماها «جامبورغ»، العادة (هِرجِيل) كانت في لغته (ريجول) أي تجسّس، النوم كان عنده «سْبات»، على سؤالي «كيف نمتَ يا جدّي؟» كان يجيب طوال سنوات حياته، دائماً ودون استثناء ممتاز! ولأنه لم يكن يثق تماما باللغة العبرية كان يضيف ويؤكّد ضاحكا: «خَرَشوي! أوتشن خَرَشوي!!» (ممتاز! ممتاز جدّاً). المكتبة كانت بلغته «بيبليوتكا» وإبريق الشاي- «تشاينيك»، الحكومة- «بارتاتس»، الشعب- «عويلم»، «جويلم»، أما الحزب الحاكم، حزب مباي فقد كان يسميه أحياناً «جيشتانك» (العفن) وأحياناً أخرى «إبلايكت» أي الفساد.

وذات مرة، قبل حوالي السنتين من وفاته، حدّثني عن موته: «إذا سقط، لا سمح الله، جندي يافع في معركة، شاب في التاسعة عشرة أو العشرين، هيا، فان تلك مصيبة فظيعة ومفزعة- ولكنها ليست مأساة. أما الموت في سني فهذه مأساة! إنسان مثلي أنا ابن خمس وتسعين، قريب من المئة، عدد كبير من السنوات كان يقوم كل صباح في الساعة الخامسة، يستحمّ بدوش بارد كل صباح كل صباح منذ مئة سنة تقريبا، حتى وأنا في روسيا دوش بارد في الصباح، وحتى في فيلنا، مئة سنة وأنا آكل كل صباح قطعة الخبز مع الفسيخ اشرب كأس شاي واخرج كل صباح دائماً لأمشي نصف ساعة في الشارع، في الصيف أو في الشتاء، هيا، أمشي كل صباح - هذا من أجل الحركة! هذا يثير بصورة جيدة جدّاً الدورة الدموية! وبعد ذلك كنت أعود كل يوم كل يوم وأقرأ قليلا الجريدة وخلال ذلك أشرب كأس شاي إضافيا، هيا، باختصار، الأمر هكذا، إذا كان هذا الشاب اليافع الغالي ابن تسع عشرة وإذا قتل، لا سمح الله، فانه لم يتوفر له الوقت ليكوّن لنفسه أنواعا مختلفة من

العادات الثابتة: متى توفّر له الوقت لذلك؟ ولكن في مثل سني فان التوقّف صعب جدّاً، صعب جدّاً جدّاً: لأنّ المشي في الشارع كل صباح هذا عادة (بلغته تجسس) قديمة. ودوش بارد - كذلك عادة أيضاً. كذلك العيش - هو عندي عادة أيضاً، هيا، ماذا، بعد مئة سنة من ذا الذي يستطيع فجأة ودفعة واحدة أن يغيّر عاداته هذه كلها؟ ألا تستيقظ في الخامسة كل صباح؟ لا دوش ولا فسيخ مع الخبز؟ لا جريدة ولا جولة ولا كأس شاي ساخن؟ مأساة!»

١٩

في سنة ١٨٤٥ جاء إلى القدس التي تحت حكم الأتراك- العثمانيين القنصل البريطاني جيمس فين وزوجته إليزابيث آن. كلاهما عرفا اللغة العبرية كما أن القنصل كتب عن تاريخ الشعب اليهودي، الذي كان قد تعاطف معه طوال حياته. وقد كان عضوا في «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» ولكنه، حسب ما توفرت عنه من معلومات، لم يمارس في القدس أي نشاط تبشيري مباشر. لقد آمن القنصل فين وزوجته بحماس شديد بأنّ عودة الشعب اليهودي إلى وطنه تقرّب خلاص العالم. حمى القنصل، مرات كثيرة، اليهود في القدس من مضايقات وتنكيل السلطات التركية. كما اعتقد جيمْس فين بضرورة «جعل حياة اليهود حياة إنتاجية» كما ساعد اليهود لإعداد أنفسهم لأعمال البناء وأن يكيّفوا أنفسهم للأعمال الزراعية. لتحقيق هذا الغرض اشترى القنصل في سنة ١٨٥٣ بمبلغ ٢٥٠ جنيه إسترليني هضبة صخرية مقفرة على بعد عدة كيلومترات من القدس المأهولة التي داخل الأسوار، إلى الشمال الغربي من المدينة القديمة، مساحة غير مأهولة وغير مفلّحة يسميه العرب «كرم الخليل». ترجم جيمْس فين الاسم إلى العبرية فأصبح « كيرِم أَفْراهام » (كرم إبراهيم) وأقام هنا بيته ومشروعه الاقتصادي «موشفات حروشت» (المستوطنة الصناعية) الذي كانت غايته توفير أماكن عمل لليهود الفقراء وإعدادهم لحياة إنتاجية في الصناعة والزراعة. امتدت المزرعة على مساحة حوالي أربعين دونما والتي تعادل عشرة فدادين). على رأس الهضبة أقام جيمْس واليزابيث آن بيتهما، وحوله امتدت المزرعة والمباني الزراعية

وورش العمل. الحيطان السميكة للبيت المكوّن من طابقين بنيت بحجارة منحوتة بالأزميل مع سقف على الطريقة الشرقية، أي مكوّنة من قباب متصالبة. خلف المنزل في طرف الساحة المحاطة بسور، حفرت آبار مياه وأقيمت إسطبلات وحظيرة ومخزن حبوب ومخازن وخمارة ودهليز ومعصرة زيتون.

حوالي مائتين من اليهود تم تشغيلهم في «المستوطنة الصناعية» التي في مزرعة فين، في أعمال مثل إزالة الحجارة من الأرض، تسييج، زراعة البساتين، تربية الخضروات والفواكه، وكذلك في تطوير كسارة صغيرة وفي أعمال لها صلة بفرع البناء. مع الوقت بعد وفاة القنصل أسست أرملته أيضاً مصنعا للصابون وفيه أيضاً شغلت عمالا يهودا. بجوار « كيرِم أَفْراهام »، وتقريبا في تلك السنوات نفسها، أقام المبشّر الألماني يوهان لودفيج شنلّر، من مواليد مدينة أرفينجن التي في ولاية فيتمبرغ، مؤسسة تربوية للأيتام العرب المسيحيين، من لاجئي الحرب والمذابح التي حدثت ضد المسيحيين في لبنان. كانت تلك عقارات واسعة أحيطت كلها بسور حجري. «دار الأيتام السورية على اسم شنلّر» تماما مثل «المستوطنة الصناعية» التابعة للقنصل فين وزوجته، بنيت على أساس الرغبة في إعداد طلابه للحياة الإنتاجية في الصناعة والزراعة.[(١)] فين وشنلر كل بحسب أسلوبه كانا مسيحيين متزمتين آلمهما فقر ومعاناة وضعف اليهود والعرب في البلاد المقدسة. لقد اعتقد الاثنان بأن إعداد المواطنين لحياة إنتاجية ولحياة الصناعة والبناء والزراعة تخلّص «الشرق» من براثن الخمول، واليأس، والفقر واللا مبالاة. ربما تأمل حقا كل واحد بحسب طريقته بان كرَمهم سيضيء الطريق أمام اليهود والمسلمين إلى المسيحية.

*

---

(١) بناء على كتاب «فن العمارة في القدس- الأبنية الأوروبية المسيحية خارج الأسوار، ١٨٥٥ - ١٩١٨»، تأليف دافيد كرويانكر، إصدار دار النشر «كيتر» ومعهد أورشليم للدراسات الإسرائيلية، القدس ١٩٨٧، ص ٤١٩ - ٤٢١. (المؤلف)

عند منحدر مزرعة فين أقيم في سنة ١٩٢٠ حيّ «كيرِم أَفْراهام» والذي بنيت بيوته الصغيرة والمكتظة بين أشجار المزرعة وبساتينها وبلع رويداً رويداً مساحتها كلها. إما بالنسبة لبيت القنصل، فقد انتقل بعد موته إلى الأرملة إليزابيث آن فين، وقد مر بتحولات كثيرة: في البداية حوّلوه إلى مؤسسة بريطانية للجانحين الشباب، بعدها تحول إلى مقر سلطوي للحكومة الانجليزية، وبعد ذلك مقر قيادة عسكرية.

في أواخر سنوات الحرب العالمية أحيطت ساحة بيت فين بأسلاك شائكة عالية وضباط ايطاليون من أسرى الحرب حبسوا في البناية وفي الساحة المحيطة به. كنا نتسلّل إلى هناك قبيل الغروب للتحرّش بالأسرى ومداعبتهم بتشنجات في الوجه وبحركات في الأيدي: «بمبينو! بمبينو! بونجورنو بمبينو!» كان الأسرى الطليان يبشون ويسرون بنا، ونحن أيضاً من جهتنا كنا نحييهم «بمبينو! بمبينو! إل دوتشا مورتا! فينيتو إل دوتشا!» وأحياناً كنا نصيح «فيفا بينوكيو!» ومن خلف الأسوار ومن خلف هاوية اللغة الأجنبية الحرب والفاشية عادتا إلينا دائماً، مثل الشطر الثاني من صرخة حرب عتيقة الشعار: «جيبيتو! جيبيتو! فيفا جيبيتو!»

مقابل بعض الحلوى والفستق والبرتقال والبسكويت التي كنا نرميها إليهم من فوق سياج الأسلاك الشائكة مثلما للقرود في حديقة الحيوانات، كان بعضهم يعطينا طوابع بريد ايطالية أو يعرضون علينا صورهم العائلية مع نساء ضحوكات وأطفال صغار جدّاً محنّطين ببدلات رسمية وربطات عنق، وأولاد مع جاكيتات، أولاد في مثل سننا مع شعر أسود ممشّط ومرتب تماما مع خصلة شعر في مقدمة الرأس بارزة ومنتصبة إلى أعلى وتلمع لكثرة البريليانتين.

أحد الجنود أطلعني ذات يوم من وراء الأسلاك الشائكة، مقابل إصبع علكة «عَلْما» ملفوف بورقة صفراء، صورة امرأة عارية وسمينة دون أي قطعة ملابس عليها باستثناء جوارب نايلون ورباطات جوارب. وقفت أمام الصورة للحظة مصعوقا ومدهوشا، بعينين ممزّقتين، مشلولا من شدة الاشمئزاز، وكأن أحدا في يوم الغفران وفي داخل الكنيس وقف فجأة ولفظ اسم الجلالة

الصريح، وبعد لحظة استدرت وهربت من هناك، مرتاعا، مُحبطا، شاهقا راكضا بشكل جنوني. كنت يومها ابن خمس أو ست سنوات هربت من هناك كمن تلاحقه الذئاب ركضت وركضت ولم أتوقف عن الهرب من تلك الصورة حتى صار عمري إحدى عشرة سنة ونصف تقريبا.

بعد قيام الدولة استخدم بيت القنصل وزوجته حرس الشعب وحرس الحدود والدفاع المدني والجدناع (كتائب الشباب) قبل أن يتحول إلى مؤسسة تربوية للبنات المتدينات باسم «بيت براخا». في بعض الأحيان أتجول في «كيرِم أَفراهام» أتوجّه من شارع جيؤولا الذي أصبح اسمه شارع «ملخي يسرائيل» (ملوك إسرائيل) إلى شارع ملآخي، ثم يسارا إلى شارع زخاريا أقطع شارع عاموس ذهابا وإيابا ثم أصعد في شارع عوفديا حتى قسمه العلوي وهناك أتوقف عند مدخل بيت القنصل فين، أتوقف بجانب البوابة للحظتين أو ثلاث. البناية القديمة تقلّصت مع مرور السنين، كأنهم بضربة فأس ضغطوا رأسه بين كتفيه، وكأنه هُوِّد وفق الشريعة. الأشجار والشجيرات قُلعت والساحة كلها رُصفت بالإسفلت. بينوكيو وجيبيتو اختفيا. كذلك الجدناع ولى وكأنه ما كان، بقايا عريشة ساقطة مكومة في الساحة الأمامية. امرأتان أو ثلاث مع مناديل شعر شفافة وبفساتين غامقة تقفن أحيانا هناك عند البوابة: يصمتن كلما نظرت إليهن، ويتهامسن كلما ابتعدت.

*

مع قدوم والدي إلى البلاد في سنة ١٩٣٣ تسجّل للدراسة للماجستير في الجامعة العبرية التي على جبل المشارف في القدس. في البداية سكن مع والديه في نفس البيت الصغير المستأجر في حي «كيرِم أَفْراهام»، في شارع عاموس، على بعد مائتي متر إلى الشرق من بيت القنصل فين. بعد ذلك انتقل والده إلى بيت آخر. إلى البيت الذي في شارع عاموس انتقلت عائلة زارحي، إلا أن الغرفة التي مدخلها من الشرفة بقي يسكنها بالإيجار الشاب طالب الماجستير الذي علق عليه والداه آمالا كبيرة.

كان حي «كيرِم أَفراهام» ما زال جديدا، معظم شوارعه لم تكن معبّدة والكرم الذي تسمّى الحي باسمه كان مازال ينمو هنا وهناك في ساحات الأبنية

الجديدة: العنب والرمان، وأشجار التين والتوت، التي كانت قمما تتهامس مع كل هبة نسيم عابرة. في أوائل الصيف مع فتح الشبابيك، كانت روائح الأزهار تغمر الغرف الصغيرة. من فوق سطوح المنازل ومن أطراف الشوارع المغبرة كان بالإمكان مشاهَدة الجبال المحيطة بالقدس.

أقيمت هنا المباني الحجرية المربّعة والبسيطة الواحد تلو الآخر، طابقان أو ثلاثة طوابق كانت مقسّمة إلى الكثير من البيوت الضيقة ذات غرفتين صغيرتين. للساحات ودربزينات الشرفات كانت سياجات حديدية سرعان ما صدئت. على بوابات البيوت لحموا نجمة داوود أو كلمة «صهيون». رويدا رويدا سببت أشجار السرو والصنوبر لأشجارَ الرمان والعنب الإحباط. هنا وهناك كانت تزدهر أشجار رمان غير مهذّبة، كان الأطفال يطفئونها قبل أن تنضج الثمار. بين الأشجار المهملة وبين بقع الصخور التي في الساحات كان هناك من زرع شجيرات الدِّفلى أو الخبيزة الإفرنجية. ولكن سرعان ما كانت أحواض الزرع هذه تُنتَسى: نصبت فوقها حبال الغسيل مما أدى إلى الدوس عليها وهرسها أو امتلأت بالأشواك وشظايا الزجاج. إذا لم تمت عطشا، كانت شجيرات الدفلى والخبيزة الإفرنجية تنمو بدون تهذيب مثل الشُّجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة في غابة. أقيم الكثير جدّاً من المخازن في الساحات، سقائف أكواخ من الصفيح، تخشيبات مستعجلة بنيت من ألواح خشب الصناديق التي احضر السكان بها أغراضهم، وكأنهم أرادوا أن يقيموا هنا نسخة من البلدات التي نشأوا فيها في بولندا، أو أوكرانيا، أو هنغاريا أو ليتوانيا.

منهم من ثبّتوا تنكة زيتون فارغة على عمود ونصبوه برجا للحَمام كي يأتي ويعشش فيها ولكنهم يئسوا من مجيئه. وهنا وهناك حاول بعضهم تربية دجاجتين أو ثلاث في ساحة بيته، ومنهم من أجهد نفسه واعتنى بحوض خضراوات صغير، زرع فيه الفجل والبصل والزهرة والبقدونس. كل السكان هنا كانوا يطمحون في الانتقال من هنا إلى أماكن أكثر تحضرا، إلى رحافيا، إلى كريات شموئيل، إلى تلبيوت أو إلى بيت هكيرم. لقد مال الجميع كثيرا إلى التصديق بأن الأيام السيئة ستمرّ، وأن الدولة العبرية ستقوم سريعا وأن كل

شيء سيتغيّر إلى الأفضل: إذ أنّ صاع الآلام قد امتلأ. شنيئور - زلمن روفشوف، الذي أصبح فيما بعد زلمن شزار وحتى اختير رئيسا للدولة، كتب في تلك الأيام في الجريدة بالتقريب ما يلي: «عندما تقوم في نهاية المطاف الدولة العبرية الحرة، فإن أيّاً من الأشياء لن يكون كما كان عليه قبل ذلك! حتى الحب لن يعود ليكون كما كان قبل ذلك!»

ومؤقتا ولد في «كيرِم أَفْراهام» الأولاد الأوائل، وكان من شبه المستحيل أن تشرح لهم من أين جاء آباؤهم وأمهاتهم إلى هنا، ولماذا جاؤوا وما هو الشيء الذي ينتظره الجميع. في «كيرِم أَفْراهام» سكن موظفون من الدرجات السفلى في الوكالة اليهودية، معلمون، ممرضات، كتاب، سائقون، موظفون، مُصْلحون، مترجمون، بائعون، مفكّرون، أمناء مكتبات، أمناء صناديق في البنوك أو دور السينما، منظّرون، أصحاب حوانيت صغيرة، كهول وحدانيون اعتاشوا على توفيرات قليلة. في الثامنة مساء كانت الشرفات تغلق والبيوت تقفل، تُسدّ جميع أباجورات النوافذ ولا يبقى سوى مصباح الشارع الذي كان يرسم لنفسه بقعة صفراء ومقفرة في زاوية الشارع الفارغ. في الليالي كان من الممكن سماع الصوت الثاقب لصياح طيور الليل، ونباح الكلاب البعيدة، وبعض الطلقات النارية، وهبوب الرياح على قمم أشجار البستان: لأنه مع تخييم الظلام كان «كيرِم أَفْراهام» يعود ليكون كرما. في كل ساحة يسمع حفيف أوراق التين والتوت والزيتون، والتفاح والدوالي وأشجار الرمان. استقبلت الحيطان الحجرية ضوء القمر وعكسته ما بين الأشجار فيترجم إلى بياض شاحب، هيكلي.

*

شارع عاموس يظهر في صورتين أو ثلاث في البوم أبي كنسخة غير جاهزة لشارع: كتل من المباني المربّعة المبنية بحجارة منحوتة بالأزميل، ولها أباجورات حديدية ودربزينات حديدية للبرندات. هنا وهناك على عتبات النوافذ وضعت أصص الخبيزة الإفرنجية الشاحبة بين الكثير من المرطبانات المغلقة التي يُخلّل فيها الخيار أو الفليفلة بماء الثوم والشِّبت. في الوسط بين البنايات لا يوجد شارع بل ما يشبه قسيمة مؤقتة للبناء، طريق ترابي مغبر

نثرت على جوانبها مواد بناء، صرار، أكوام من الحجارة المنحوتة جزئيا، أكياس اسمنت، براميل حديد، بلاط، أكوام رمل أو رمل خشن لفّات أسلاك شائكة للتسييج، تلة من خشب الطوبار والسقالات المفكوكة، هنا وهناك ما زالت تنمو في هذا الخليط من مواد البناء نبتة ينبوت شائكة مكسوة بغبار ضارب إلى البياض. على التراب وسط الطريق تجلس مجموعة من الحجّارين الحفاة عراة حتى الخاصرتين، يلفون رؤوسهم بقطع من القماش ويلبسون بنطلونات قماش فضفاضة، وصوت شواكيشهم التي تطرق على الأزاميل التي تعمل خدودا على وجه الحجر ارتفع وملأ كل الحيّ مثل صليات من التطبيل الذي يرافق معزوفة غريبة، ومتواصلة، غير متناغمّة. بين الحين والآخر سمعت من أطراف الشوارع صرخات تحذير جافّة: «بارود! بارود!» بعدها يمزّق العالم صوت دويّ تفجير الصخور.

في صورة أخرى، مزخرفة وكأنها التقطت قبيل حفلة، يظهر واقفا وسط الشارع تماما عاموس، وسط اضطراب البناء هذا، اوتومبيل أسود ومربع مثل التابوت، عمومي أم خصوصي؟ حسب الصورة لا يمكنك أن تميّز. هذا اوتومبيل لامع وبراق من إنتاج سنوات العشرينات إطاراته ضيقة كإطارات الدراجة النارية وعجلاته كثيرة الأسلاك المعدنية الرفيعة، غطاء المحرك المستطيل يبرزه شريط نيكل فضيّ. عن الجانب يوجد في غطاء المحرك هذا فتحات للتهوية، مثل الأباجور، وفي مقدمة الأوتومبيل تماما ينتصب مثل الجُسْأة الصغيرة تلك هي سدادة الرادياتور المصنوعة من النيكل. مصباحان مستديران معلّقان من الأمام على ما يشبه العمود بلون الفضة، وهذان المصباحان أيضاً أبيضان فضيّان ويلمعان في الشمس.

بجانب هذا الأوتومبيل يظهر في الصورة الوكيل العام أَلِكْسَنْدِر كْلاوْزِنر، مهندم بشكل مدهش ببذلة استوائية بلون البيج ومع ربطة عنق، يعتمر قبعة خفيفة مخرَّمة من الألياف المجدولة، يذكرنا إلى حد ما بالممثل إرول فلين في فيلم له عن أسياد أرستقراطيين أوروبيين في أفريقيا الاستوائية أو في بورما. وبجانبه، قوية، أطول منه وأعرض، تنتصب بكل قوة زوجته الأنيقة شلوميت، بنت خالته وسيدته، سيدة نبيلة، جليلة ولامعة مثل بارجة حربية،

ترتدي فستانا صيفيا قصير الكُمَّيْن، عقد من الخرز حول عنقها، قبعتها الجميلة، قبعة فيدورا مع شبكة شيفون تغطي وجهها كشاشة شبه شفافة، تحط مائلة بشكل مضبوط وبذوق رفيع فوق تسريحتها الجميلة تمسك مِظَلَّة جميلة بيدها كانت تسميها بَارَسول. ابنهما، لونيا، ليونيتشكا، يقف بجانبهما مثل العريس في يوم زفافه. وهو يبدو هنا مضحكا نوعا ما، فمه مفتوح قليلا، نظارته المستديرة تسقط إلى منحدر أنفه، كتفاه يميلان إلى الأمام وكله مثبّت ومطوّق ومحنّط داخل بذلة ضيّقة وقبّعة سوداء صلبة. تبدو هذه القبّعة مفروضة على رأسه: فهي تنزل حتى نصف جبينه مثل قدر حديدي مقلوب ويبدو أن أذنيه الكبيرتين جداً حالتا دون سقوط القبّعة حتى ذقنه لتبتلع كل ما بقي من رأسه.

ما هو الحدث الذي يحتفل به ثلاثتهم والذي بمناسبته طلبوا تاكسي أو أنهم تجمّعوا حول أوتومبيل خصوصي؟ هذا ما يمكن أن نعرفه. السنة بحسب صور أخرى ملصقة في الألبوم على نفس الّصفحة هي على ما يبدو سنة ١٩٣٤، أي بعد سنة من قدومهم إلى البلاد، وفي الفترة التي كان ثلاثتهم ما زالوا يسكنون في بيت زارحي الذي في شارع عاموس. نمرة الأتومبيل الأسود احلّلها دون صعوبة، وهي بارزة جدا في هذه الصورة: M-1651. كان والدي حينئذ شابا في الرابعة والعشرين من عمره، ولكنه في هذه الصورة يبدو كغلام ابن خمس عشرة سنة تنكر في زي سيّد نبيل في الأربعين أو الخمسين من عمره.

مع قدومهم من فيلنا سكن أفراد عائلة كلاوْزنر الثلاثة حوالي السنة في بيت من غرفتين ونصف في شارع عاموس. بعد مرور سنة تقريبا وجد جدّي وجدّتي لهما غير بعيد من هناك بيتا صغيرا بالإيجار، غرفة واحدة وملحقا استعمله جدّي «مقصورة» له وملجأ في الأيام الماطرة تحميه من عواصف غضب زوجته ومن قسوة سيف النظافة والحرب مع الميكروبات. كان هذا البيت الصغير في شارع براغ، الواقع بين شارع يشعياهو وشارع تشينسلر الذي هو شارع شتراوس.

الغرفة الأمامية في البيت الذي في شارع عاموس أصبحت من هذا الوقت

فصاعدا غرفة الطالب الجامعي أي غرفة أبي: هنا نصب له أول خزانة كتب وفيها وضع كتبه التي أحضرها معه من أيام دراسته في جامعة فيلنا، وهنا وضع طاولة الديكت القديمة نحيفة الأرجل التي استعملها طاولة كتابة، وهنا علّق ملابسه داخل صندوق خشبي مستطيل ومخفى خلف ستارة، كان بمثابة خزانة ملابس. إلى هنا كان يدعو أصدقاءه وصاحباته لمحادثات عقلانية رصينة حول طعم الحياة والأذواق الأدبية وحول السياسة العالمية والمحلية.

في الصورة ظهر لي أبي وهو يجلس مستمتعا خلف مكتبه نحيفا وشابا ومتوتّرا، شعره ممشّط إلى الأعلى، بنظارات مستديرة رزينة سوداء الإطار، يرتدي قميصا أبيض طويل الكمّين. جلس أبي مسترخيا بشكل مائل يضع رجلا على رجل ظهره إلى الشباك الذي فتحت إحدى دفتيه إلى داخل الغرفة لكن أباجور الشباك الحديدي كان مغلقا وأشعة ضوء دقيقة فقط تتسلّل إلى الداخل عبر شقوق الأباجور. والدي في هذه الصورة مستغرق في مطالعة كتاب ضخم يمسكه عاليا في الهواء أمام عينيه. أمامه على الطاولة يوجد كتاب آخر مفتوح وكذلك شيء يبدو مثل ساعة منبّه ظهرها باتجاه المصوّر، ساعة قصدير مستديرة ذات رجلين مائلتين صغيرتين. عن يسار والدي توجد خزانة كتب ليست كبيرة، مليئة بالكتب أحد رفوفها كون لنفسه ما يشبه الكرش المقوس إلى الأسفل من شدة ثقل المجلدات الضخمة التي يحملها، على ما يبدو أنها مجلدات أجنبية جاءت من فيلنا ومن الواضح أن المكان هنا مكتظ وحار وغير مناسب لها.

على الحائط فوق خزانة الكتب علقت صورة مؤطّرة للعم يوسف الذي ظهر هنا جليلا وحازما، يشبه الأنبياء بذقنه البيضاء المستدقّة، وشعره الخفيف كمن ينظر من برجه العاجي إلى أبي ويرمقه بعين واسعة كيلا يهمل دروسه ولا ينجرف وراء مُتع الطلاب المشبوهة، وكيلا ينسى الوضع التاريخي للأمة وأمل الأجيال وكيلا يستهين، لا سمح الله، بالأمور الصغيرة التي منها في نهاية المطاف تتكوّن الصورة العامّة.

تحت صورة العمّ يوسف علّقت على مسمار علبة التبرعات التابعة للكيرن كيّمت وعليها نجمة داوود عريضة. يظهر أبي هنا مرتاحا وراضيا عن

نفسه ولكنه جدّي وحازم مثل الراهب: ثقل الكتاب المفتوح يقع كله على كفة يده اليسرى بينما يضع يده اليمنى على الصفحات من جهة اليمين تلك التي قد انتهى من قراءتها، ومن هنا يمكننا أن نستنتج بأنه يقرأ كتابا باللغة العبرية يتم تصفّحه من اليمين إلى اليسار. بينما من المكان الذي تطلّ فيه كف يده من كمّ قميصه الأبيض ألاحظ فروة شعره الأسود الكثيف الذي يغطي ذراعه من المرفق وإلى الأسفل وامتدّ حتى رِسْغه.

في هذه الصورة بدا والدي كشاب يعرف واجبه وينوي القيام به مهما كلفه من ثمن. وهو عاقد العزم على السير في طريق عمه الكبير وطريق أخيه البكر. هناك خلف أباجور غرفته المغلق يقوم العمّال بحفر قناة تحت الطريق الترابي لوضع أنابيب شبكة المجاري. في مكان ما في قبو إحدى العمارات اليهودية القديمة بين الأزقة الملتوية لـ «شعاري حيسد» أو «نحلات شفعا» يتدرب الآن بالسرّ شباب «الهاجناه» فرع القدس، يفكّكون مسدس بارابيلوم عتيقاً ثمّ يعيدون تركيبه. في الشوارع التي تتلوى في الجبل بين القرى العربية المعادية يقود سائقو «إيجد» و«تنوفا» سياراتهم أياديهم المسفوعة تمسك بقوة بعجلة القيادة. في الأودية التي تنزل إلى الصحراء يمرون خفية يلبسون بنطلونات الخاكي القصيرة وجوارب الخاكي وحزام وكوفيات عربية، جوّالون يهود شباب يتعرفون بأنفسهم على المسارب السرية للوطن. في الجليل والمروج في غور بيسان ومرج ابن عامر في الشارون وفي عيمك حيفر في صحراء يهودا وفي النقب وصحاري البحر الميت، طلائعيات وطلائعيون يعملون الآن في أراضيهم، مفتولي العضلات، صامتين، مصمّمين ومسفوعين. بينما هو الطالب الجامعي الجادّ والمتعمّق من فيلنا، هو يحرث له هنا تلما خاصا به: في أحد الأيام سيكون هو الآخر بروفيسورا على جبل المشارف وسيسهم في توسيع آفاق الثقافة والمعرفة، سيجفّف من القلوب مستنقعات المهجر: كما يعمّر طلائعيو الجليل والمرج القفار في البلاد ويحوّلونها إلى أرض خصبة مثمرة هكذا بالضبط يشترك هو بكل قوّته بحماس وتفانٍ في حرث أتلام الروح وتعمير الثقافة العبرية الجديدة. مصمّماً وعاقداً العزم.

٢٠

في صباح كلّ يوم كان يهودا آريه كْلاوْزْنِر يركب الحافلة رقم تسعة التابع لشركة «همكشّر» من المحطة في شارع جيئولا عبر حي البخاريين، ثمّ شارع شْموئيل هَنَفي، ثمّ شمعون هَتْسَديك، فالمستوطنة الأمريكية، فحيّ الشيخ جرّاح حتى مباني الجامعة العبرية الّتي على جبل المشارف، حيث كان يدرس للماجستير: في التاريخ عند البروفيسور ريتْشارد ميخائيل كوبنِر الذي لم ينجح أبداً في تعلّم اللغة العبرية، وعلم اللغات السامية عند البروفيسور حاييم يعكوف بولوتسكي، وعلوم التوراة عند البروفيسور أومبرتو موشيه دافيد كاسوتو، والأدب العبري عند العمّ يوسِف ألا وهو البروفيسور دكتور يوسِف كْلاوْزْنِر مؤلّف «اليهودية والإنسانيّة».

فعلا رعى العمّ يوسِف والدي وقرّبه إليه، إذ كان من أحسن طلابه، ولكنه لم يختره إطلاقا، في حينه، مساعداً له. حتى لا يستغيبه أصحاب الألسنة المنهمكة فى «القيل والقال» ونشر الإشاعات، كان مهما جدّاً للبروفيسور كْلاوْزْنِر أن يحول دون أن تلوك اسمه الطيّب واسم وريثه الألسنة الّتي تثير الإشاعات حتى أنّهُ ربما ظلم بلا حقّ ابن أخيه الذي من لحمه ودمه.

في غلاف أحد مؤلفاته كتب العمّ يوسِف المحروم من الأولاد إهداء: «إلى يهودا آرِيه، ابن أخي الغالي مثل ابن لي، من عمّه يوسِف الذي يحبه كنفسه.» تنذّر أبي ذات مرّة بمرارة: «لولا أنّني قريبه، ولو أنّهُ أحبني أقلّ ممّا أحبني، من يدري ربما كنت أنا الآن أيضاً محاضرا في قسم الأدب وليس مجرد موظّف في المكتبة.»

كان هذا الشيء مثل الجرح النازف طوال الوقت في نفس والدي، إذ أنّهُ

كان جديرا بأن يكون بروفيسورا مثل عمّه ومثل دافيد أخيه الذي كان محاضرا للأدب في فيلنا. كان أبي واسع الاطلاع جدّاً، نابغة حادّ الذكاء وصاحب ذاكرة مدهشة، كان خبيرا في آداب الشعوب وفي الأدب العبري، ويجيد لغات كثيرة جدّاً، يقرأ في التوسِفْتا (ملحق الْمِشْناه) والمِدْراشيم[1] وفي الأناشيد والأراجيز الدينية الأندلسية، وكذلك يقرأ في كتابات هوميروس وأوفيديوس وأشعار البابليين، كما يقرأ شكسبير وغوته وميتْسْكيفيتْش، كما يقرأ أدبه المحلي. إنه مجتهد ومواظب ونشيط مثل النحلة العاملة في خلية النحل، إنسان مستقيم ودقيق مثل المسطرة، معلم موهوب يدهش في شرحه بكل بساطة ودقة تنقلات الشعوب، و«الجريمة والعقاب»، وعمل الغوّاصة أو نظام المجموعة الشمسيّة. ولكنه لم يحظ بالوقوف أمام صفّ ولا أن يعلّم طلابا يرثون علمه ويكملون مشواره بل أنّهى حياته كأمين مكتبة ومختص بعلم المكتبات. ألّف ثلاثة أو أربعة كتب أبحاث كما ساهم في كتابة عدة مواد عِلْمِيّة مُعَمَّقة تدل على سعة الاطّلاع والمعرفة في دائرة المعارف العبرية في مجالَي الأدب المُقارن والأدب البولندي.

في سنة ١٩٣٦ عُرضت عليه وظيفة متواضعة بعيدة عن تخصصه في قسم الصّحافة في المكتبة القومية، حيث اشتغل عشرين سنة تقريبا، في البداية على جبل المشارف وبعدها في بناية التيراسانطة، في البداية عمل كأمين مكتبة بسيط وفي النهاية أصبح نائب مدير القسم، الدكتور فيفيرمان. في القدس المليئة باللاجئين من بولندا وروسيا والناجين من هتلر، ومن بينهم نجوم مشهورون من جامعات مرموقة كان عدد المحاضرين يفوق عدد الطلاب، وعدد الباحثين والمثقفين يفوق كثير جدّاً عدد الطلاب.

في أواخر سنوات الخمسينات بعد أن قبلت جامعة لندن أطروحة الدكتوراة الّتي تقدّم بها وصادقت عليها بامتياز، حاول والدي عبثا أن يجد له موطئ قدم متواضع ربما كمعلم ضيف في قسم الأدب في القدس: البروفيسور كْلاوْزْنِر خاف، في حينه، مما سيقال عنه فيما لو شغّل ابن أخيه.

---

(١) مجموعة الأساطير الشعبية اليهودية وشروح القوانين الشرعية اليهودية (المترجم).

بعد كْلاوْزْنِر تسلم رئاسة قسم الأدب البروفيسور- الشاعر شِمعون هَلْكين الذي أراد أن يفتح صفحة جديدة في قسم الأدب العبري وأن يبتعد تماماً عن تراث كْلاوْزْنِر، وعن طرق كْلاوْزْنِر، وعن رائحة كْلاوْزْنِر، وبكل تأكيد لم يرد ابن أخ كْلاوْزْنِر محاضرا في القسم. جرب والدي حظّه في أوائل الستينات في الجامعة الجديدة في تل أبيب، ولكن، هناك أيضاً لم تفتح له الأبواب.

*

في سنته الأخيرة كان يتفاوض من أجل الحصول على وظيفة معلّم للأدب في المعهد الأكاديمي الذي كان في مرحلة التأسيس في بئر السبع، ذاك هو المعهد الذي سيصبح مع الوقت «جامعة بن غوريون». بعد موت والدي بست عشرة سنة دخلت أنا كي أكون معلما ضيفاً للأدب في جامعة بن غوريون، وبعد سنة أو سنتين جعلوا مني هناك بروفيسورا كامل الرّتبة وبعدها تبوّأت الكرسي الجامعية على اسم شاي عجنون. مع الوقت توجّهت إليّ جامعة القدس وكذلك جامعة تل أبيب باقتراحات عمل كريمة كي أعمل عندهما أستاذا للأدب ذا كرسي كامل الرّتبة - أنا، مَن لست مجدّاً ولست واسع الاطّلاع ولست متأنّقا وخبيرا حادّ الذّهن، أنا، من رأسه لم يكن في يوم من الأيام مهتما بالأبحاث ويصاب ذهني دائما بنوع من النعاس الأبيض كالحليب عندما أرى حاشية سفلية[١]. ظفر خنصر والدي كان أكثر بروفيسوريّةً من عشرة «بروفيسورات دخيلين» مثلي.

*

كان بيت عائلة زارْحي مؤلفا من غرفتين صغيرتين ونصف، في الطابق

---

(١) كتب والدي غنية جدّاً بالحواشي السفلية. بالنسبة إليّ فقط في كتابي «صمت السماء- عجنون يعجب من الله»، (إصدار دار النشر كيتر، ١٩٩٣) أكثرت أنا أيضاً مثله من الحواشي السفلية. وفي الحاشية السفلية رقم ٩٢ والتي وردت في صفحة ١٩٢ أدخلت أبي . أيّ وجهت قارئي إلى كتاب أبي «الرواية في الأدب العبري». وفي اللحظة الّتي أدخلت فيها هذه الحاشية بعد حوالي عشرين سنة من وفاته، أملت أن أسبّب له فرحة صغيرة وخلال ذلك خشيت بأنه لم يفرح بل أظنه يلوّح لي بسبابته مهددا وموبّخا (المؤلف).

الأرضي من بناية من ثلاثة طوابق. في القسم الخلفي من البيت سكن يِسْرائيل زارْحي مع إستر زوجته ومع والديه العجوزين. في حين كان للغرفة الأمامية، تلك الّتي سكنها أبي، في البداية مع والديه، وبعد ذلك لوحده، وأخيرا مع أمّي- مخرج مستقل، يؤدّي إلى الشرفة ومنها - بواسطة درجتين أو ثلاث درجات - إلى الحديقة الضّيّقة الّتي أمام البناية، وإلى شارع عاموس الذي كان مازال طريقا ترابية مغبرّة، بدون أسفلت وبدون أرصفة، مزروعا أكواما أكواما من موادّ البناء وقطع السقالات المفكّكة الّتي تتراكض بينها أعداد كثيرة من القطط الجائعة والقليل من طيور الحمام التائهة. ثلاث أو أربع مرات في اليوم كانت تمرّ من هناك عربة يجرها حمار أو بغلة، عربة تحمّل قضبان حديد البناء الطويلة، وعربة الكاز وعربة موزّع الجليد، وعربة بائع الحليب، وعربة تاجر الخردوات الذي كانت نداءاته بصوته المبحوح تجمّد الدّم في عروقي: طوال سنوات طفولتي كان يخيّل إليّ بأنّهُم بهذه الطريقة يحذّرونني من المرض والشيخوخة والموت الّتي ما زالت بعيدة عني ولكنها تقترب مني رويدا رويدا، ليل نهار، بإصرار تزحف مثل الأفعى خفية تحت شبكة أعشاب الظلام، تحرك هناك أصابعها الباردة والتي ستتسلق فجأة على ظهري وتمسك بحلقي مباشرة: بالصرخة الّتي تنخر العظام «ألتي- زا--- خن» (خردوات) كنت اسمع دائما الكلمات الفظيعة «لا تهـ---رم!!» حتى يومنا هذا ما زال ذلك النداء يثير لديّ الرعب والاشمئزاز بارداً في ظهري.

على الأشجار المثمرة الّتي في الساحات عشّشت عصافير الدّوريّ وفي شقوق الصخور كانت تدخل وتخرج الحراذين، والسّحالي، والعقارب، وأحْياناً شوهدت هناك السّلاحف أيضاً. كان الأولاد ينبشون تحت الأسيجة وأقاموا شبكة من الممرات الّتي تختصر الطريق بين الساحات امتدّت على كلّ الحيّ. أو كانوا يتسلقون سطوح البيوت المستوية لكي يشرفوا على ما يقوم به الجنود البريطانيون بين أسوار معسكر شنيللر أو لكي يشاهدوا عن بعد القرى العربية الّتي على سفوح الجبال من حولنا، العيساوية، شعفاط، بيت إكسا، ليفتا، والنّبي صَموئيل.

*

اسم يِسْرائيل زازْحي اليوم قد نسي تقريبا من كلّ قلب، أما في تلك الفترة فقد كان زازْحي كاتبا معروفا خصب الإنتاج كانت كتبه توزّع بنسخ كثيرة. كان من جيل والدي ولكنه في سنة ١٩٣٧ وهو في الثامنة والعشرين من عمره كان قد استطاع نشر ما لا يقلّ عن ثلاثة كتب. هو الآخر تعلم الأدب العبري عند البروفيسور كْلاوْزْنِر على جبل المشارف، صحيح أنَّهُ قدم إلى البلاد قبل والدي بعدة سنوات وقد تمكّن من العمل سنتين أو ثلاث كعامل زراعي في مستوطنات سهل الشّارون. أما رزقه لمعيشته فقد وجده في العمل الكتابي في سكرتارية الجامعة. كان شخصا رقيقا، مشوشّاً، خجولا، حزينا جدّاً، لين الصوت ولين السلوك، جسمه نحيف ولطيف، لم أتمكّن، بتاتا، من أن أرسمه في مخيّلتي وهو يحمل الطوريّة أو الفأس، يتصبّب عرقاً في يوم شديد الحرارة في إحدى مستوطنات الشارون. حول صلعته الصّغيرة كان له مدرّج من الشّعر الأسود. وجهه النحيف كان شاحباً جدّاً وحالماً. وهو يمشي كان يبدو كمَن لا يثق بالتراب الذي يدوس عليه، أو على العكس، يخاف من أن يؤلم وقع خطواته أرض الساحات. لم ينظر إليّ بتاتا وهو يكلّمني - كانت نظرته البنيّة التأمّليّة بشكل دائم تقريبا مثبّتة في الأرض.

لقد كنت أكنّ له في قلبي التقدير والإعجاب إذ روي عنه عندنا بأنَّهُ ليس شاعرا مثل غيره من الشعراء: كلّ من في القدس كتبوا كتبا زاخرة بسعة الاطلاع والمعرفة، كتبا من قصاصات، كتبا من كتب أخرى، كتبا من أنواع مختلفة من الكتالوجات ودفاتر الملاحظات، من المعاجم، من المجلدات الأجنبيّة السميكة، كتبا من البطاقات الممتلئة ببقع الحبر الموجودة على طاولات الكتابة، لكن السيد زازْحي كان كاتبا «يكتب القصص من رأسه» (كان أبي يقول: «إذا سرقت كلّ حِكَمك من كتاب واحد فأنت منبوذ ومذموم جدّاً، منتحل، لصّ أدبيّ. ولكن إذا سرقت من عشرين كتابا - عندها تسمى باحثا، وإذا بلغ العدد ثلاثين أو أربعين كتابا فأنت باحث لامع»).

عندما كنت في السابعة أو في الثامنة حاولت أن أقرأ بالذات قليلا في كتب يِسْرائيل زازْحي، ولكن لغته كانت صعبة بالنسبة إليّ. في بيتنا، في غرفة نوم والديّ والتي استخدمت كغرفة صالون ومكتبة وغرفة ضيوف وغرفة

عمل وغرفة أكل كان هناك رف واحد - بمستوى نظري في حينه تقريبا - خصّص نصفه لكتب زارْحي: «بيت جدي الذي خرب»، «سِلوان»، «هار هَتْسوفيم» (جبل المشارف)، «الوهَج المحجوب»، «بلاد غير مزروعة»، «الأيام السيئة»، بالإضافة إلى رواية اسمها الغريب شدّ فضولي كثيرا: «النفط يتدفّق إلى البحر المتوسّط». كان عمر يِسْرائيل زارْحي ثماني وثلاثين سنة تقريبا عند موته وقد استطاع أن يؤلّف حوالي خمسة عشر مجلدا من الكتب والروايات بعد ساعات دوامه في سكرتارية الجامعة، كما ترجم حوالي دزينة من الكتب من اللغتين البولندية والألمانية.

*

في أمسيات الشتاء كان يجتمع عدد من أفراد المجموعة، إما عندنا وإمّا في البناية المقابلة عند عائلة زارحي: حاييم وحنان تورِن، شموئيل فرسيس، السيد والسيدة برايمن. السيد شارون- شفادرون المدهش والعصبيّ، السيّد حاييم شفارتسبويم الفولكلوري أحمر الشّعر، يِسْرائيل حناني الذي اشتغل في مكاتب الوكالة (اليهودية) وزوجته إستر حنانيت. كانوا يحضرون بعد وجبة العشاء، في الساعة السابعة أو السابعة والنّصف، وينصرفون في السّاعة التاسعة والنّصف الّتي اعتبرت في حينه ساعة متأخرة. ما بين مجيئهم وانصرافهم كان الضيوف يُكْرَمون بكعك العسل، أو بفواكه الموسم، يتجادلون بغضب مؤدّب حول مواضيع مختلفة لم أفهمها ولكن عرفت أنَّهُ عندما سيحين الوقت سأفهمها وسأجادل أعضاء هذه المجموعة وعندها سأقدّم لهم المسوّغات الحاسمة الّتي لم تخطر لهم على بال، وربما نجحت في أن أفاجئهم بشيء ما، ربما أؤلف أنا أيضاً قصصا من الرأس، مثل السيّد زارْحي، أو مجلدات من القصائد مثل بياليك ومثل جدّي ألِكْسَنْدِر ومثل ليفين كيبنيس ومثل الطبيب الدكتور شاؤول تْشرْنِيحوفْسكي الذي لن أنسى رائحة جلده.

لم يكن أفراد عائلة زارْحي أصحاب البيت، ومؤجّري الغرفة فحسب، بل أصدقاء حميمين أيضاً. على الرّغم من الاختلافات الثابتة في وجهات النظر بين والدي المتشدد وبين زارْحي «الأحمر»: أحبّ والدي كثيرا أن

يتحدث ويفسّر وأحبّ السّيّد زازحي أن يصغي. كانت أمّي تضيف بين الحين والآخر جملة أو جملتين هامستين، وأحْياناً كانت أقوالها، عن غير قصد منها، تسبب في نقل الحديث من موضوع إلى آخر أو من نبرة معينة إلى نبرة مختلفة. إستر زازْحي من جهتها كانت تميل إلى توجيه الأسئلة وكان أبي يستمتع في الإجابة عن أسئلتها بالشرح التفصيلي. كان يِسْرائيل زازْحي بين الحين والآخر يتوجّه إلى أمّي وعيناه في الأرض كان يسأل عن رأيها كمن يطلب منها بلغة مبهمة أن تقف إلى جانبه في ضائقته، وأن تؤيده في الجدال الدائر: عرفت أمّي كيف تلقي على الجميع ضوءاً مختلفا. بكلمات قليلة، حبيسة، كانت تفعل ذلك، وبعد أقوالها كانت تضفي على الجدال روحا لطيفة وهادئة، أيّ صمت جديد، وأيّ حذر أو تردد خفيف، كان ينصبّ على أقوال المتجادلين. حتى تعود الأعصاب تتوتر ويزداد الحماس من جديد بعد وقت فتعود الأصوات ترتفع وتتعالى بغضب حضاري ولكنه صاخب لكثرة علامات التعجّب.

*

في سنة ١٩٤٧ صدر عن دار النّشر يهوشواع تشيتشيك في تل أبيب الكتاب الأول لوالدي، «الرواية في الأدب العبري- منذ بدايتها وحتى نهاية عصر التنوير». يعتمد هذا الكتاب على أطروحة الماجستير الّتي قدّمها والدي إلى معلمه- عمّه البروفيسور كْلاوْزْنِر. في صفحة الغلاف تمّ التنويه إلى أن «هذا الكتاب فاز بجائزة بلدية تل أبيب على اسم كْلاوْزْنِر وتمّ نشره بالتعاون بين البلدية والصندوق على اسم المرحومة تسيبورا كْلاوْزْنِر». البروفيسور دكتور يوسِف كْلاوْزْنِر بشحمه ولحمه كتب المقدمة للكتاب:

> أنَّني أشعر بسعادة مزدوجة في طباعة هذا الكتاب العبري عن الرواية، والذي كان قُدّم إليّ، في إطار عملي كبروفيسور للأدب في الجامعة العبرية، جامعتنا الوحيدة، كأطروحة ماجستير في الأدب العبري الحديث لطالبي القديم ابن أخي يهودا آريه كْلاوْزْنِر. هذه ليست أطروحة عادية. . . أنَّهُ بحث شامل

وعامّ... كما أن أسلوب الكتاب غنيّ وواضح في آنٍ واحد وهو يتناسق مع مضامينه المهمة... وعليه لا يمكنني إلا أن أشعر بالسعادة... يقول التلمود: «الطلاب هم كالأبناء»... أتمنى أن يكون هذا الكتاب سببا في توسيع وتعميق فهم أدبنا القومي وصلته بالأدب العالمي، وأن يبارك الله للمؤلف في عمله وتعبه، الذي لم يكن سهلا بالمرّة...

وفي ورقة منفصلة بعد ورقة الغلاف، يهدي والدي كتابه إلى ذكرى دافيد أخيه:

إلى معلمي الأول في تاريخ الأدب

إلى أخي الوحيد

دافيد

الذي فقدته في ظلمة المهجر

أين أنت؟

*

طوال عشرة أيام أو أسبوعين كان أبي يركض، يوميا بعد عودته من العمل في قسم الصّحافة في الجامعة القومية على جبل المشارف إلى فرع البريد المجاور، والواقع على الطرف الشرقي لشارع جيؤولا قبل الدخول إلى حيّ «ميئاه شِعاريم» منتظرا وصول نسخ من كتابه الأول الذي صدر، كما قيل له، وأن أحدا حدّثه بأنَّهُ شاهد نسخة منه في مكتبة في تل أبيب. وعليه، فقد كان أبي يسارع كلّ يوم إلى فرع البريد وفي كلّ مرّة كان يعود صفر اليدين، وفي كلّ يوم كان يعد نفسه بأنَّهُ إذا لم تصل رزمة الكتب من عند السّيّد جروبر من مطبعة «سيناي» فأنَّهُ بكل تأكيد سيذهب إلى الصيدلية ويتصل بشدة بالسّيّد تشيتشيك في تل أبيب: إن الأمر لم يعد يحتمل! إذا لم تصل الكتب حتى يوم الأحد، حتى منتصف الأسبوع، وحتى يوم الجمعة على أقصى حدّ - ولكن الرزمة وصلت ليس بالبريد بل بواسطة ساعٍ، فتاة يمنيّة ضحوك أحضرت رزمة إلى بيتنا ليس من تل أبيب بل من مطبعة «سيناي» (القدس، تلفون ٢٨٩٢).

احتوت الرزمة على خمس نسخ من «الرواية في الأدب العبري»، طازجة من المطبعة، عذارى، ملفوفة بعدة طبقات من الورق الأبيض الفاخر (والتي طبعت عليها مسوّدات كتاب آخر، ألبوم صور) ومربوطة جيدا بالحبال. شكر والدي الفتاة، وحتى في أوج فرحته لم ينسَ أن يمنح الفتاة قطعة نقود من فئة الشّلن (مبلغ كبير بكل تأكيد في تلك الأيام، كان يكفي لوجبة غداء نباتية في كشك تنوفا). بعد ذلك طلب والدي مني ومن أمّي أن نتقدم إلى طاولة مكتبه وأن نقف إلى جانبه وهو يفتح الرزمة.

أتذكر كيف حاول أبي أن يتمالك حماسه المرتجف ولم يمزّق بقوة الحبال الّتي ربطت حول الرزمة، كما أنَّهُ لم يقصها بالمقصّ بل، ولن أنسى ذلك ما حييت، فكّ عُقد الحبال القوية: عقدة تلو عقدة بصبر وأناة لا نهائيين، وهو يستعمل بالتناوب أظافره القوية وطرف سكين الورق ورأس مشبك معدني منحنٍ. عندما انتهى، لم يهجم على كتابه الجديد بل لفّ بتأنٍّ الحبل ثمّ أزال الورق المصقول الألبومي الذي استعمل للّفّ، لمس بطرف أصابعه غلاف الكتاب العلوي في الرزمة، لامسه كعاشق خجول، ثمّ رفعه وقرّبه إلى وجهه بلطف، فرّج بين الصفحات قليلا، ثمّ أغمض عينيه وتنشّق ما بينها، استنشق إلى أعماق صدره رائحة الطباعة الطازجة، ومتعة الورق الجديد، ولذة رائحة دبق الغلاف المسكر. بعدها أخذ يتصفّح الكتاب، نظر أولا إلى المسرد يمرّ بعين حادة على صفحة التصويبات والإضافات، ثمّ يعود ليقرأ مقدمة العمّ يوسِف ومقدمته هو نفسه، يتطيّب من الغلاف الأمامي، ثمّ يعود ليلاطف الغلاف، وفجأة انتبه لئلا تكون أمّي تسخر منه في قلبها:

«كتاب جديد من المطبعة،» قال لها كمن يعتذر، «كتاب أول، إن ذلك يشبه تقريبا وكأن طفلا آخر قد ولد لي.»

«عندما تحتاج إلى تغيير حفاظته،» قالت أمّي، «أنت بلا شك ستناديني.»

وعندها أدارت ظهرها وانصرفت، ولكنها عادت بعد لحظات وهي تحمل معها من المطبخ زجاجة نبيذ التوكاي الحلو، نبيذ للتقديس، وثلاث كؤوس صغيرة مخصّصة لليكر، ليس للنبيذ، ثمّ قالت بأننا سنشرب الآن

نخب كتاب أبي الأول. سكبت له ولها وقطرة واحدة صبت لي أيضاً، وربما قبلته أيضاً على جبينه، مثل الطفل، وربت هو على رأسها.

في المساء فرشت أمّي على طاولة المطبخ شرشفاً أبيض، كما في ليلة السبت أو ليلة العيد، وقدّمت أحبّ المأكولات عند أبي، حساء الشمندر الساخن والذي يطفو على وجهه جبل جليدي أبيض من القشطة، وقالت «مبروك». كذلك حضر جدّي وجدّتي في ذلك المساء للاشتراك معنا في الاحتفال المتواضع، وقد نبّهت جدّتي أمّي بأن الحساء جيد وجميل وحتى أنّهُ أيضاً لذيذ جدّاً تقريبا، وبشكل عام- ليحفظها الله من أن تقدم، معاذ الله، النصائح المختلفة، ولكنه من المعروف جدّاً ومن أقدم العصور، معروف لكل صبية صغيرة، معروف حتى لغير اليهوديات اللواتي كن يطبخن هناك في بيوت اليهود، بأنّ حساء البرش يجب أن يكون حامضا وذا حلاوة قليلة جدّاً، ولكن، ليس حلوا وذا حموضة قليلة جدّاً، كما يفعل البولنديون الذين- كما هو معروف- يحلّون كلّ شيء بلا حساب وبلا حدود وبدون أي منطق وإذا لم ينتبهوا لهم فأنّهُم من المحتمل أن يغمسوا الفسيخ بالسكر وربما أنّهُم قادرون أيضاً على غمس الجرجار، الفجل الحار، بمربى البرتقال الذي لا يخلو من المرارة الخفيفة.

أمّي من جهتها شكرت جدّتي على أنّها منحتها من خبرتها وتجاربها ووعدت بأنّها من اليوم فصاعدا ستهتمّ بأن تتذوق جدّتي عندنا فقط من الحساء الحامض - المر كما تحبّ. أما بالنسبة لوالدي فقد كان مسرورا مبتهجا بحيث لم ينتبه إلى ما يشبه وخزات الإبر. قدّم إلى والديه نسخة واحدة من الكتاب كتب عليها كلمات إهداء، كما أهدى نسخة إلى العم يوسِف، ونسخة أخرى إلى صديقيه الحميمين استر وِيسْرائيل زارْحي، ونسخة أخرى لا اذكر لمن، واحتفظ بالنسخة الأخيرة في مكتبته، على رفّ بارز وظاهر للعيان، مجاورة ومستندة كمن تعانق مجموعة مؤلفات عمّه البروفيسور يوسِف كْلاوْزْنِر.

*

استمرت فرحة أبي ثلاثة أو أربعة أيام، بعدها حزن. كما كان قبل

وصول الرزمة يركض يوميا إلى فرع البريد، هكذا يركض الآن يومياً إلى مكتبة شاخنا أحي-أساف في شارع كينج جورج: ثلاث نسخ من «الرواية» عرضت هناك للبيع. وفي اليوم التالي بقيت النسخ الثلاث معروضة ولم تبع أيّ نسخة منها. وهكذا استمر الوضع طوال يومين أو ثلاثة.

«أنت،» قال أبي وهو يبتسم ابتسامة حزينة لصديقه يِسْرائيل زارْحي، «تجلس وتكتب طوال ستة أشهر رواية جديدة، ومباشرة بعد طباعتها تتخاطفها أيدي الصبايا الجميلات من على رفوف المكتبات ويأخذنها مباشرة إلى أسرتهن. أما نحن الباحثون، فإننا السنة بعد السنة نكدّ ونجتهد لدعم كلّ معلومة وندقق في كلّ اقتباس صغير أو كبير، نشتغل سبعة أيام كاملة على ذيل كلّ حاشية سفلية، ولكن من يكلف نفسه عناء القراءة؟ في أحسن الحالات، نحن أنفسنا، أي ثلاثة أو أربعة مؤيدين لموضوعنا، يتكرم الواحد منا بقراءة الآخر قبل أن يمزّقه إرباً- وأحْياناً حتى هذا لا يحصل. يتجاهلون.

مرّ أسبوع تقريبا ولم تُبع أيّ من النسخ الثلاث في مكتبة أحي- أساف. لم يعد والدي يتحدّث عن حزنه، ولكن حزنه ملأ أرجاء البيت مثل الرائحة: لم يعد يدندن لحن «حقول المرج» أو «طل من الأسفل، والقمر من الأعلى/ من بيت ألفا وحتى نهلال» بتزييف فظيع وهو يحلق ذقنه أو وهو يقف عند مغسلة المطبخ يغسل أواني الطعام. كما أنَّهُ لم يعد يحكي لي من ذاكرته مغامرات جلجاميش ومغامرات القبطان نيمو والمهندس كورش سميث اللذين في «جزيرة الأسرار»، بل انغمس، لشدة غضبه، في أوراقه والمعاجم المبعثرة على طاولته، والتي منها بدأ يولد كتابه العلمي الجديد.

وفجأة بعد يومين أو ثلاثة، في ليلة السبت، عاد والدي إلى البيت سعيدا ومتحمّسا، وقد إصابته قشعريرة مثل الصبي الذي قبلته أجمل فتيات الصف أمام العالم كله: «لقد بيعت! كلها بيعت! في يوم واحد! لم تبع نسخة واحدة! لم تبع نسختان! ثلاثتها بيعت! كلها! كتابي نفد- وسيطلب شاخْنا من مكتبة أحي - أساف عدداً من النّسخ الإضافية من تشينشيك في تل أبيب! ماذا سيطلب؟! لقد طلب! هذا الصباح! بالتلفون! لا، ليس ثلاث نسخ إضافية بل خمس نسخ! وهو، أي شخْنا، يعتقد أن هذه لن تكون المرة الأخيرة!»

مرّة أخرى خرجت أمّي من الغرفة وعادت ومعها زجاجة نبيذ التوكاي الحلو أكثر من اللازم ومعها ثلاث كؤوس صغيرة مخصّصة لليكر، لا للنبيذ. صحيح أنَّها هذه المرة اختارت أن تتنازل عن حساء الشمندر مع القشطة وعن شرشف الطاولة الأبيض، وبدلا من ذلك اقترحت أن يخرج كلاهما في المساء إلى سينما أديسون لمشاهدة العرض الأول لفيلم مشهور باشتراك الممثلة غْريتا جاربو الّتي كان كلاهما معجبين بها.

*

تركني والديّ عند عائلة زارحي لأتناول هناك وجبة العشاء ولأتصرف بشكل لائق حتى عودتهما من دار السينما في التاسعة أو التاسعة والنّصف. بشكل لائق، هل تسمع؟! وألا نسمع عنك أيّ شكوى مهما كانت صغيرة! عندما تحضر السيدة زارْحي المائدة تذكر أن تعرض عليها مساعدتها في تحضير المائدة. وبعد الطعام، ولكن بعد أن ينهض الجميع عن المائدة عليك أن تأخذ الأواني الّتي أكلت فيها وتضعها بحذر على رخام المطبخ بالقرب من المغسلة. بحذر، هل تسمع؟ كيلا تكسر لهم شيئا. وأن تأخذ، كما تفعل في البيت، خرقة وتنظف بها جيدا المشمّع بعد إزالة جميع الأواني عن المائدة. وألا تتكلّم إلا إذا وجهوا إليك الحديث. إذا كان السّيّد زارْحي مشغولا عليك أن تجد لنفسك شيئا ما تلهو به أو كتابا وتجلس هناك هادئا مثل الفار! وإذا، لا سمح الله، عادت السيدة زارْحي تشكو من الصّداع، فلا تزعجها بأي شيء أو تثقل عليها بأي طلبات، بأي شيء، هل تسمع؟!

وهكذا ذهبا في طريقهما. السيدة زارْحي، من جهتها، ربما أغلقت على نفسها الغرفة الثانية أو أنَّها ذهبت إلى بيت جارتها، أما السّيّد زارْحي فقد اقترح أن ادخل معه إلى حجرة عمله والتي كانت كما عندنا، غرفة النوم وغرفة الضيوف وكل شيء أيضاً. تلك الغرفة الّتي كانت غرفة والديّ وفيها على ما يبدو أنجباني وفيها عاش والديّ منذ يوم زواجهما وحتى قبل شهر من ولادتي.

أجلسني السّيّد زارْحي على الكنبة وتحدّث معي قليلا لا اذكر حول أيّ موضوع، ولكني إلى الأبد لن أنسى كيف أنّني اكتشفت فجأة على الطاولة

الصغيرة الّتي كانت تنتصب هناك عند رجلي الكنبة ما لا يقلّ عن أربع نسخ متماثلة من «الرواية في الأدب العبري» الواحدة فوق الأخرى كما في المكتبة، نسخة واحدة كنت أعلم أن أبي أهداها للسيد زارْحي مع كلمات الإهداء، «إلى صديقي وصاحبي العزيز عليّ» وثلاث نسخ أخرى لم افهم ما هي، وتقريبا كدت اسأل السّيّد زارْحي لكنني تذكّرت في اللحظة الأخيرة النسخ الثلاث الّتي تمّ شراؤها أخيرا اليوم، بعدما يئس من مكتبة أحي- أساف الّتي في شارع كينج جورج، فغرقت بموجة داخلية من الشكر والشفقة حتى البكاء. لاحظ السّيّد زارْحي أنّني رأيت ما رأيت ولم يبتسم بل نظر إليّ بطرف عينه لحظة، عن جنب، وبخط مائل، قلّص عينيه قليلا كمن يقبلني بالصمت عضوا في حلقة متآمرين سريّة، لم يقل أيّ كلمة واكتفى بأن انحنى وأخذ عن الطاولة الصغيرة ثلاثا من النسخ الأربع وخبأها في درج سفليّ من أدراج مكتبه. أنا الآخر صمتّ ولم أقلّ أيّ كلمة لا له ولا لوالديّ. لم احك لأحد حتى يوم وفاة زارْحي الذي توفّي في مقتبل العمر وحتى يوم وفاة أبي، لم احك ذلك لأحد، سوى، بعد مرور عدة سنوات، لنوريت زارْحي الّتي سمعتني ولم تبدُ منفعلة مما حكيت لها.

أديبان أو ثلاثة هم من اقرب أصدقائي، فهم أصدقاء حميمون قريبون وعزيزون عليّ منذ عشرات السّنين، ولكنني لست متأكّدا أنّني، مثل السّيّد زارْحي، كنت قادرا على أن أعمل من أجل أحدهم عملا يعادل عمل يِسْرائيل زارْحي من أجل والدي. من يدري إن كانت فكرة كريمة- ماكرة مثل فكرة السّيّد زارْحي كانت ستخطر ببالي. لقد كان السّيّد زارْحي مثله مثل غيره في تلك الأيام، يعيش بفقر مدقع. والنسخ الثلاث من «الرواية في الأدب العبري» كلفته بكل تأكيد كثمن ملابس ضرورية للشتاء.

خرج السّيّد زارْحي من الغرفة وعاد وهو يحمل لي معه فنجان كاكاو دافئ بدون قشطة، لأنّهُ تذكّر من بيتنا أنّهُم في المساء يسقونني كاكاو بدون قشطة، وأنا بدوري شكرته بأدب وقد رغبت كثيرا جدّاً أن أضيف قائلا شيئا كان من المهم بالنسبة إليّ أن أقوله ولكنني لم أجد ما أقوله واكتفيت بالجلوس هكذا على الكنبة في غرفته ولم أنبس ببنت شفة حتى لا أزعجه

وأصرفه عن عمله، مع أن السّيّد زازحي في ذلك المساء لم يشتغل بل كان جالسا يقلب صفحات جريدة «دافار» من البداية إلى النهاية وبالعكس حتى عاد والديّ من السينما وشكرا عائلة زازحي وسارعا إلى توديعهما وأخذاني إلى البيت فوراً لأنّ الوقت متأخر جدّاً ويجب أن أفرك أسناني وأدخل فراشي لأنام.

*

إلى تلك الغرفة نفسها احضر والدي لأول مرّة في إحدى أمسيات سنة ١٩٣٦ طالبة ما، صامتة، جميلة جدّاً، قمحية البشرة، سوداء العينين، توجز في الكلام ولكن مجرد وجودها يدفع الرجال إلى أن يتكلّموا ويتكلّموا بكل قوّتهم.

قبل ذلك بشهرين غادرت جامعة براغ وجاءت لوحدها إلى القدس لتتعلم التاريخ والفلسفة في الجامعة الّتي على جبل المشارف. لا أعرف كيف ومتى التقى آريه كْلاوْزْنِر بفانْيا موسمان الّتي تسجّلت هنا باسمها العبري، رفقا، مع أنّها في بعض الوثائق سميت تسيبورا وفي مكان آخر سجلوها باسم بايجا، إلا أن صديقاتها كن ينادينها دائما فانْيا.

لقد أحبّ كثيرا الكلام، الشرح، التحليل، وهي عرفت الإصغاء وأن تسمع حتى ما بين الأسطر. لقد كان هو واسع الاطلاع جدّاً وكانت هي حادة البصر وحتى أحياناً حادة البصيرة. لقد كان هو رجلا مستقيما، حريصا، نزيها ومجتهدا، وكانت هي تتأمّل دائما لتفهم لماذا من يتمسّك بقوة برأي معيّن يتمسّك به بالذات وليس برأي آخر، ولماذا من يعارض بحماس صاحب الرأي الأول يحتاج بقوة إلى أن يتمسّك بالرأي المعاكس. الملابس أثارت اهتمامها فقط كنافذة تطلّ منها إلى داخل لابسيها. عندما كانت تجلس في بيت معارفها كانت تتأمّل وتتمعّن بدقة مواد التنجيد، والستائر، والكنبات، والتذكاريات الموزعة على عتبات النوافذ وألعاب الزينة الّتي على الرفوف، في حين ينغمس الآخرون في النقاش والجدال: وكأنّها كلّفت بمهمة تحريات. أسرار الناس كانت تشدّها دائما، ولكن عند أحاديث القيل والقال فقد كانت في الغالب تنصت بابتسامتها الخفيفة، ابتسامة مترددة إلى درجة

تبدو كمن تريد أن تلغي نفسها، وتصمت. سكتت كثيرا جدّاً. ولكنها إن خرجت عن صمتها وتكلّمت عدة جمل لم تعد المحادثة إلى ما كانت عليه قبل أن تتكلّم.

عندما خاطبها أبي كنت تلمس في صوته أحياناً مزيجا ما من الخوف، والبعد والحب والاحترام والرهبة: كأنما تجلس عنده في البيت عرّافة بهوية مختلقة. أو امرأة نافذة البصيرة.

٢١

ثلاثة كراسي صغيرة مصنوعة من القش المجدول كانت تنتصب عندنا حول طاولة المطبخ المغطاة بمشمّع مورّد. المطبخ نفسه كان ضيّقا منخفض السقف ومعتماً، أرضيته غائرة بعض الشّيء، وجدرانه سُخامية بسبب السراج والبريموس، ومشكاته الوحيدة تطلّ على ساحة قبويّة تحيط بها جدران من الباطون الرمادي. أحياناً، بعد أن كان أبي يذهب إلى العمل، كنت أدخل إلى المطبخ وأجلس على كُرْسِيِّه لكي أكون مقابل أمّي الّتي كانت تحكي الحكايات وهي تقشّر أو تقطّع الخضراوات أو «تنقي» العدس بإخراج الحبات السود في صحن مُسطّح. وقد كنت بدوري آخذ هذه الحبات السود لأطعمها للعصافير في الخارج.

كم كانت غريبةً حكايات أمّي، لم تكن تشبه حكايات الأطفال الّتي حكتها الأمهات في ذلك الوقت في كلّ البيوت، كما أنّها لا تشبه الحكايات الّتي حكيتها أنا لأبنائي، فقد كانت غامضة مبهمة يغشاها الضباب: وكأنّ حكاياتها لم تبدأ من البداية ولم تنته في النهاية بل كانت تُطلّ من بين الشجيرات المتشابكة، تظهر لفترة وجيزة تثير الاستغراب أو لسعات من الخوف، تتراقص أمامي للحظات مثل الأشباح المُشوّهة على الحائط، أثارت الدّهشة واقشعرّ لها الظهر أحياناً، ثمّ عادت إلى أعماق الغابة قبل أن أفهم ما حدث. بعض حكايات أمّي ما زلت أذكرها حتى هذا اليوم كما حكتها كلمة بكلمة تقريبا. على سبيل المثال، حكايتها عن العجوز الهرم ألّلوييف:

من خلف الجبال الشاهقة ومن وراء الأنَّهار العميقة والصحاري المقفرة كانت هناك قرية صغيرة ونائية، كانت أكواخها آيلة للسقوط. في أقصى هذه القرية في ظلّ غابة سوداء من أشجار التَّنّوب، عاش عجوز فقير أخرس وأعمى، عاش هناك بدون قريب أو معرفة، وكان اسمه ألّوييف. كان العجوز ألّوييف أقدم من كلّ الشيوخ وكبار السنّ في القرية وفي السهل وفي الصحراء. لم يكن مجرد عجوز هرم أكل الدهر عليه وشرب بل قديما جدّاً مُمْعِناً في القِدَم. كان قديما جدّاً حتى انتشرت على ظهره المنحني بعض الطحالب الصغيرة. وبدلا من الشعر نبتت على رأسه أصناف مختلفة من الفطريات السوداء وبدلا من الخدّين كان له شقّان في داخلهما تشابكت السرطانات والأشَنات. من قدمَي ألّوييف هذا بدأت تنبت وتتلوّى جذور بنيّة وفي مِحجرَي عينيه المطفَأتَين توقفت يراعتان لامعتان. كان ألّوييف العجوز أكبر عمراً من الغابة، ومن الثّلج وحتى أكبر عمرا من الدهر نفسه. وها هي إشاعة تنتشر ذات يوم تقول بأنَّهُ في أعماق كوخه الّتي لم تفتح مصراعيه أبداً يعشّش عنده في نفس الكوخ عجوز آخر اسمه تشيرنيتشورتين أقدم بكثير من ألّوييف العجوز الهرم، وهو أكثر منه عَميً وفقراً وبُكماً وانحناءً وصَمَماً وهو مشلول وممْحوٌّ مثل قطعة نقد تتاريّة. وكانوا يحكون هناك في القرية في الليالي المثلجة بأن العجوز الهرم ألّوييف كان يعيل خفية وسراً العجوز القديم تشيرنيتشورتين، وكان يغسل وينظّف جروحه ويعدّ له الطعام ويفرش له الفراش للنوم ويغذّيه بحبوب الغابة ويسقيه من ماء البئر أو من ماء الثّلج، وأحْياناً وفي الليل خاصّة كان يغني له كما يغنّون للأطفال: ليو ليو ليو لا تخف يا ذُخري، ليو ليو ليو لا ترتجف يا عزيزي. وهكذا كانا ينامان يحتضن الواحد فيهما الآخر، وفي الخارج لا يوجد سوى الثلوج والرياح وما دامت الذئاب لم تفترسهما بعد فقد بقي كلاهما أحياء حتى اليوم في كوخهما البائس والذئب يعوي هناك في الغابة والرياح ما زالت تهدر في المدخنة.

وحيداً في سريري قبل النوم، ارتجف من شدّة الخوف والحماس كنت أعيد واكرر همسا الكلمات «عجوز هرم»، «عتيق»، «قديم جدّاً»، «متقدّم في السّنّ»، «أكل الدهر عليه وشرب». كنت أغمض عينيّ وأتخيل بذُعر حلو كيف تنتشر الطحالب ببطء على ظهر ذلك العجوز الهرم، وكِيف تكون الفطريات السوداء، والسرطانات والأشَنات، وكيف تتفرّع في الظُّلمة ديدان الجذور البنيّة، الشّرهة. وكنت أحاول أن أرسم لي داخل عينيّ المغمضتَيْن كيف يكون «مَمْحُوّاً مثل قطعة نقد تاريّة». هكذا كنت التفّ في نومي على أنغام الرياح الّتي تصفّر في المدخنة الّتي لم تكن ولم يكن بالإمكان أن تكون في بيتنا، الأنغام الّتي لم أسمعها في حياتي، والمدخنة الّتي لم أرها أبداً إلا من خلال الصور في كتب الأطفال والتي فيها كانت البيوت كلها ذات سقف قرميد ومدخنة.

*

لم يكن لي أخوة أو أخوات، لكن والديّ لم يقدرا على شراء ألعاب ودُمى لي، والتلفزيون والحاسوب كانا ما زالا غير مولودَيْن بعد. سنوات طفولتي الأولى كلها قضيتها في حيّ كيرِمْ أفْراهام في القدس، ولكنني لم أعش هناك بل عند أسفل منحدر الغابة بالقرب من الأكواخ والمداخن والمراعي والثلوج الّتي في حكايات أمّي وفي القصص المرسومة الّتي تراكمت فوق قطعة الأثاث المنخفضة الّتي كانت بجانب سريري: أنا في المشرق وقلبي في أقصى الغرب. أو «في أقصى الشَّمال»، كما ورد في تلك الكتب. دون انقطاع كنت تائهاً، دائخاً، في غابات افتراضيّة، غابات من الكلمات، أكواخ من الكلمات، ومراعٍ من الكلمات. إن واقعية الكلمات دحرت جانبا الساحات الّتي تقاسي من الحرّ الشديد، وسقيفة الزنك المتعرج الّتي التصقت بالبيوت الحجريّة، والشرفات المُثْقلة بالطُّشوت وحبال الغسيل. ما كان يحيط بي لم يكن مهمّاً. كلّ ما كان له اعتبار كان مصنوعا من الكلمات.

في شارع عاموس كان هناك جيران متقدّمون في السّنّ، إلا أن منظر مِشيتهم البطيئة الّتي تنمّ عن مكابدتهم وهم يمرّون من أمام بيتنا لم يكن إلا نسخةً باهتة، نسخة مترهّلة وبائسة للواقع المرعب وارتعاد ظهر اللّوييف

العجوز المتقدّم في السنّ والذي أكل الدهر عليه وشرب القديم جدّاً قدم الدهر الوارد في حكايات أمّي. تماما كما كانت غابة تَلْ أَرْزَه مجرد مخطط هواة بائس للغابات الكثيفة والغابات الأولية الّتي لم تلمسها أيدي البشر. العدس الذي طبخته أمّي كان مجرد رمز باهت ومخيّب للأمل للفطريات وحبوب الغابة، وللزّبيب وثمر العلّيق الواردة في حكاياتها. الواقع نفسه لم يكن إلا جهدا عبثيّا، محاولة فاشلة وسطحيّة لتقليد غزارة عالم الكلمات. إليكم القصة الّتي حكتها لي أمّي عن المرأة والحدادين، وهي لم تنتقِ الكلمات بل كشفت أمام ناظريّ، دون أن تأخذ بالحسبان عمري الغضّ، مدى اتّساع تلك المناطق النائية والمتنوّعة للغة، والتي لم تطأها أبداً قدم طفل، تلك المناطق الّتي هي موطن عصافير الجنّة اللغوية:

قبل سنوات كثيرة عاش في بلدة هادئة في بلاد إنولاريا، في محافظة السهول الداخليّة، ثلاثة أخوة حدادين هم: ميشا، أليوشا، وأنتوشا. كان ثلاثتهم رجالا غلاظاً كثيفي الشعر، رجالا دِبَبة، ناموا طوال فصل الشتاء وفقط في أيام الصيف كانوا يصبّون المحاريث، ويحذون الخيول، ويشحذون السكاكين ويكسّرون الخناجر ويصلّدون النّصال الحادّة ويصهرون عُرُش العربات القديمة. ذات يوم قام ميشا أكبر الأخوة الحدادين، وسافر إلى إقليم تروشيفان. غاب ميشا أياما طويلة وعندما عاد، لم يعد وحيدا بل عاد ومعه امرأة- صبية ضحوكة اسمها تَتْيانا، تانيا، تنيتشكا. كانت أجمل النساء، حيث لم تُر أجمل منها في بلاد إنولاريا. أخوة ميشا الاثنان صكّا أسنانهما وصمتا طوال النهار. في كلّ مرّة كان احدهما ينظر إليها كانت تنيتشكا تضحك بصوت مدوٍّ حتى اضطر الرجل إلى أن يُنزّل بصره. وإذا نظرت هي إلى احدهما كان الأخ الذي اختارت أن تنظر إليه يرتجف ويتمالك بصره. لم يكن في كوخ الأخوة الحدادين إلا غرفة واحدة غير واسعة. وفي هذه الغرفة سكن ميشا وتنيتشكا وفيها أيضاً الفرن والمنفاخ وأدوات الحدادة بالإضافة إلى الأخ المتوحش أليوشا

والأخ الصامت أنتوشا بين شواكيش الحديد الثقيلة والبلطات والأزاميل والقضبان والسلاسل واسطوانات الحديد. وهكذا قضي الأمر، عندما دُفع ميشا ذات يوم إلى أتون الصهر وتزوّج أليوشا من تنيتشكا. سبعة أسابيع ظلّت تنيتشكا الجميلة زوجةً للأخ المتوحّش أليوشا إلى أن سقط عليه شاكوش تسطيح الحديد بكل ثقله وحطّم وسحق صدره، فقام أنتوشا، الأخ الصامت بدفن أخيه واحتلال مكانهُ، وبعد سبعة أسابيع عندما كان يأكل هو وهي طعاماً مصنوعاً من الفُطر اختنق فجأة أنتوشا وشحب لونه وازرقّ ومات. ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا يحدث أن يأتي إلى ذلك الكوخ من جميع أنحاء إنولاريا، حدادون شباب، حدادون متجوّلون، ولكن لم يحدث بعد أن جرؤ أحد الحدادين على البقاء هناك سبعة أسابيع كاملة: يأتي هذا ويمكث أسبوعا، ويأتي آخر لليلتين فقط، وتانيا؟ لقد أصبح معروفا لدى كلّ حدّاد في جميع أرجاء إنولاريا بأن تنيتشكا تحبّ الحدادين الذين يأتون لأسبوع، والحدادين الذين يأتون ليومين أو ثلاثة وحدادين يأتون ليوم وليلة، وهم يعملون لها شبه عُراة بصب الحديد أو حذو الخيل أو اللحام، ولكنها لا تحتمل أو لا تصبر على الضيف الذي ينسى أن يغادر. أسبوع - أسبوعان هذا كافٍ، أما سبعة أسابيع كيف يمكن؟

*

لهيرْتْس وسارة موسْمَن، اللذين عاشا في أوائل القرن التاسع عشر في قرية تْروبي أو تْريبي الصغيرة القريبة من مدينة روفْنو في أُوكْرَانْيَا- كان ابن جميل اسمه إفْرايِم. منذ صغره، هكذا حكَوْا عندنا،(١) أحبّ إفْرايِم هذا

---

(١) هذه الحكاية وحكايات أخرى سأحكيها في الصفحات التالية سمعتها في طفولتي من أمّي وبعضها من جدّي وجدّتي ومن ابنَيْ عم أمّي شمشون وميخائيل موسمَن. في سنة ١٩٧٩ سجلت ما حكته لي الخالة حايا من ذكريات طفولتها، وبين السنوات ١٩٩٧ - ٢٠٠١ سجلت أحياناً القليل من الكثير الذي حكته لي الخالة سونيا. كما استعنت بالكتاب «الهروب من الخوف» من تأليف ابن عمّ أمّي شمشون موسمَن. صدر الكتاب عن دار النشر هكيبوتس همئوحاد، تل- أبيب، ١٩٩٦. (المؤلف)

دحرجة العجلات واللعب بالمياه المتدفقة من الحنفية. وعندما كان إفْرايِم موسْمَن ابن ثلاث عشرة سنة، أيّ بعد عشرين يوما من احتفاله ببلوغه سن التكليف عادوا ودعَوا الضيوف وعادوا وقدّموا لهم التشريفات ولكن هذه المرة بمناسبة زواج إفْرايِم من بنت في الثانية عشرة من عمرها اسمها حايا - دوبا: في تلك الأيام كانوا يزوّجون الأولاد بالبنات، زواج على الورق، لكي يحولوا دون خطفهم للخدمة العسكرية في جيش القيصر حيث لن يعودوا يرونهم إلى الأبد.

خالتي حايا شبّيرا (الّتي حملت اسم جدتها حايا - دوبا، تلك العروس ابنة الثانية عشرة) حكت لي قبل سنوات طويلة عما حدث في ذلك العرس: بعد انتهاء مراسيم عقد القران تحت الظُّلّة وتناول الوجبة بهذه المناسبة واللذين تمّا قبيل الغروب مقابل ساحة بيت الرابي في قرية تروبي، أراد والدا العروس صغيرة السّن أن يعودا بها إلى منزلهما ووضعها في سريرها لتنام. إلا أن الوقت تأخر والبنت الّتي كانت مرهقة من جلبة العرس وكانت مضطربة بعض الشيء لأنَّهُم أسقوها عدة جرعات من النبيذ، وضعت رأسها على ركبتي أمها وراحت في سبات عميق. أما العريس فقد كان يعبث بين المدعوّين وقد ابتل جسمه عرَقا ويلعب الغمّيضة مع زملائه من أيام «الكتّاب». بدأ الضيوف يودّعون أصحاب الفرح كما ودعت العائلتان بعضهما في حين حث والدا العريس ابنهما ليركب العربة والعودة إلى البيت.

إلا أن للعريس كان تخطيط مختلف كلّ الاختلاف: وقف الولد إفْرايِم هناك وسط الساحة وانتفخ جسمه فجأة «مثل الصوص- الديك الصغير الذي بدأ عرفه ينبت» ثمّ ضرب الأرض بقدمه طالبا بإصرار وعناد أن يأخذ زوجته معه: ليس بعد ثلاث سنوات وليس بعد ثلاثة أشهر بل الآن الآن. حالا وفي هذا المساء.

وعندما انفجر المدعوون إلى العرس بالضحك وبصوت مرتفع، شعر العريس الهائج بالإهانة، أدار إليهم ظهره ومشى مجتازا بإصرار الزقاق طارقا ثانية على باب الرابي، وقف وجها لوجه أمام الرابي الذي كان يضحك بينه وبين نفسه وبدأ يقرأ آيات من التوراة ثمّ استشهد بأقوال الحاخامات في

المشناة واستعان بفتاوى لمفتين سابقين، وبدا بأن الصّبيّ قد استعدّ جيدا وجهزّ سلاحه وحفظ درسه مسبقا. طلب من الرابي أن يحكم في الحال بينه وبين العالم كله، وأن يحكم بهذا أو ذاك: ماذا تقول التوراة؟ ماذا تقول كتب المشناه؟ وماذا يقول المفتون؟ هل هذا من حقه أم ليس من حقّه؟ هل هي زوجته أم ليست زوجته؟ عقد عليها وفق الشريعة والدين أم لا؟ وعليه إحدى اثنتين: إما أن يأخذ عروسه فوراً وإمّا أن يعاد إليه عقد الزواج.

أما الرابي فقد تمتم بعض الكلمات غير الواضحة ثمّ تنحنح عدة مرات ومسح مرتبكا بيده على شاربه وحكّ بعض المواضع في رأسه ونتَف شعر سوالفه وربما حتى عضّ أطراف لحيته وفي النهاية، تنهّد وجزم بأنَّهُ لا مفرّ إذ أن الصبي لم يكن خبيراً ولاذعا ومُجيدا للادّعاء والمرافعة فحسب بل على حقّ أيضاً: ولا حلّ إلا أن تذهب عروسُه الغضّة وراءه ولا حيلة لها إلا أن تأتمر بأوامره.

وعليه أيقظوا العروس الصغيرة من نومها وفي منتصف الليل بعد الانتهاء من الأخذ والرد اضطروا إلى نقل العروسين إلى بيت والديّ الزوج. ظلت العروس طوال الطريق تنتحب لشدّة خوفها. وما كان من أمها إلا أن احتضنتها وشاركتها النحيب. كما أن العريس، من جهته، بكى أيضاً طوال الطريق بسبب استهزاء وسخرية المدعوّين منه. أما أم العريس وبقية أفراد العائلة فقد بكوا أيضاً طوال الطريق لشدة خجلهم.

استمرت هذه المسيرة الليلية المُسَرْنمة حوالي الساعة والنّصف، ربما كانت مسيرة جنائزية بلّلتها الدموع أو حفل شراب صاخب لمجموعة من الطائشين العابثين: لأنّ بعض المدعوّين المرافقين استمتعوا كثيرا بالفضيحة، وسخروا بصوت مرتفع من قضية الفرخ الذي نطح الفرخة وفي قضية كيف يُدخل الخيط في ثقب الإبرة، كما طابت نفوسهم بالنبيذ الكحولي الذي شربوه فبقوا طوال الطريق يغطون ويشخرون ويهتفون بأصوات الفرحة والابتهاج والحديث الفاحش والكلمات النابية.

شجاعة العريس الصغير تلاشت كما لو أنَّها لم تكن، وربما حتى ندم على فوزه وانتصاره. وهكذا، وهما مذعوران وباكيان منتحبان ومحرومان من

النّوم، قيد العروسان، كما تساق الأغنام إلى المذبح، إلى غرفة الدخلة المرتجلة، فقد اضطر المرافقون إلى دفع العروسين، الصبيَّيْن: العروس المذهولة والمفزوعة حايا- دوبا والعريس المرعوب إفْرايِم، بالقوة تقريبا، في الهزيع الأخير من الليل، إلى فراشهما. أما الباب فقد اقفلوه عليهما - كما روَوْا- من الخارج. بعد ذلك ابتعد عن المكان المرافقون يمشون على رؤوس أصابعهم، حتى تهدأ الأمور، وجلسوا ما تبقى من الليل في غرفة ثانية، شربوا الشاي ثمّ الشاي وأكلوا ما تبقى من تشريفات حفل الزفاف وحاول بعضهم مواساة بعضهم.

وفي الصباح، من يدري، ربما هجمت الأمهات إلى الداخل مسلّحات بأصناف المناشف وطشوت الاستحمام، قلقات متخوّفات يفحصن ماذا حدث للصبيّين بعد مناوشات الليلة الفائتة وماذا فعل الواحد منهما بالآخر.

*

ولكن، ما أن مضت أيام عديدة حتى شوهد الزوج وزوجته يركضان بمرح وسرور يلحق الواحد منهما الآخر في الساحة، حافيَين وصاخبين. وقد اهتمّ الزوج بأن ركّب لزوجته بين أغصان الشجرة بيتا صغيرا للدُّمى تلعب به، في حين عاد هو إلى العبث كعادته، بالعجلات وتيارات المياه، الّتي كان يُقنّي على عرض الساحة صانعا بها الأنْهار والأودية على أنواعها والبرك والمنحدرات الصغيرة.

حتى سنّ السادسة عشرة أنفق الوالدان هرتس وسارة موسْمَن على الزوجين الصغيرين إفْرايِم وحايا: في تلك الأيام كانوا يسمون الزوجين الصغيرين اللذين عاشا على نفقة والدي الزوج «كيست كيندر» بلغة الإيديش. ومع وصوله سنّ البلوغ ربط إفْرايِم موسْمَن بين حبّه للعجلات وحبّه لتيارات المياه وأقام في قرية تروبي مطحنة قمح صغيرة دارت عجلاتها بقوة تدفّق المياه. أعماله لم تكن في يوم من الأيام ناجحة: فقد كان حالما ساذجا كالطفل، وكسولا ومشتّت الفكر يحب الجدال ولكنه إلى جانب ذلك متنازلا. كان يميل للانغماس مستمتعا في محادثات فارغة استمرت من ساعات الصباح حتى ساعات المساء. كانت حياة حايا- دوبا وإفْرايِم موسْمَن

حياة فقر. العروس الصغيرة ولدت لافرايم ثلاثة أولاد وبنتين. وقد تعلمت أن تكون قابلة ومضمِّدة بيتية. اعتادت أن تعالج مجانا وخفية المرضى الفقراء. ولكنها في النهاية ماتت بمرض السلّ وهي في ربيع عمرها وهي في السادسة والعشرين من عمرها، عندما ماتت كانت أمّاً لجدي.

بسرعة فائقة عاد إفْرايِم الجميل وتزوّج من صبيّة جديدة، في السادسة عشرة من عمرها وقد كان اسمها أيضاً حايا كاسم سابقتها. سارعت حايا موسْمَن الجديدة إلى طرد أبناء زوجها من بيتها. ولم يحاول زوجها ضعيف الشّخصيّة أن يمنعها: يبدو أن كلّ شجاعته وجرأته اللتين تجمعتا له طوال حياته أضاعهما إفْرايِم موسْمَن دفعة واحدة في ذلك المساء عندما قرع بجرأة وشجاعة بيت الرابي وطالبه باسم التوراة وباسم المفتين أن يطبق ملكيته لزوجته. منذ تلك الليلة الدامية وحتى آخر حياته تصرّف إفْرايِم موسْمَن بجبن: كان متواضعا، أصغر من العشب بحضرة زوجته، يتنازل بسهولة لكلّ من يصرّ بشدة على رغباته، ومع كلّ ذلك فقد تبنى أمام الغرباء مع مرور الوقت بعض صفات رجل غامض يستمد غموضه من ينابيع مقدسة خفيّة. في كلّ تصرفاته اظهر أهميته الذاتية الّتي يحيط بها التواضع كصانع المعجزات القروي أو كقديس أرثوذكسي روسي عجوز.

*

وعليه، عندما كان في الثانية عشرة من عمره سُلّم جدّي نَفْتالي هرتس ليكون مساعدا مهنيّا في محافظة اسمها فيلخوف بالقرب من روفْنو. كانت محافظة فيلخوف تابعة لأميرة عزباء غريبة الأطوار اسمها كنيجنا رافْزوفا. خلال ثلاث أو أربع سنوات اتّضح للأميرة بأن الشاب اليهودي الذي وُهب لها هدية تقريبا هو شخص نشيط وذكيّ ومحبوب ومُسلٍّ، وإضافة إلى كلّ ذلك تمكن في طفولته أن يتعلّم في مطحنة أبيه أمرين أو ثلاثة من أمور طحن القمح. وربما كان فيه أيضاً شيء آخر، ميزة ما أيقظت لدى الأميرة الجافة الخشنة والوحدانيّة شيئا من عطف الأمومة.

قررت الأميرة أن تشتري قطعة أرض في ضواحي روفْنو مقابل المقبرة الّتي في آخر شارع دوبينْسكا، وأن تقيم عليها مطحنة. أوكلت الأميرة إدارة

هذه المطحنة إلى أحد أبناء إخوتها - ورثتها، المهندس قُنْسْطَنْطين سميونوفيتش سْتيلايْتْسْكي. وعينت هيرْتْس موسْمَن الذي كان في السادسة عشرة مساعدا لستيلايتسكي. سرعان ما تكشّفت لدى جدّي موهبة الإدارة والتنظيم، والاتيكيت الرفيع، والتقمّص الوجداني المتدفق الّتي حبّبته إلى كلّ من يراه، بالإضافة إلى الإحساس المرهف بالآخر الذي ساعده طوال حياته في أن يخمّن أفكار ورغبات أبناء البشر.

في السابعة عشرة تقريبا كان جدّي عمليا يدير المطحنة (عند هذه الأميرة سرعان ما وصل قمة المجد! تماما كما في تلك القصة عن يوسِف الصديق في مصر عند تلك السيدة، ماذا كان اسمها؟ السيدة بوتيفَر؟ أليس كذلك؟ كلّ ما كان يركّبه المهندس سْتيلايْتْسْكي كان يخربه ويهدمه بنفسه في ساعة سكره. لقد كان مدمناً مفزعاً على الكحول! ما زلت أذكره وهو يضرب الحصان ضربات وحشيّة وهو يبكي في نفس الوقت لشدة رفقه بالحيوان، يبكي بدموع كبيرة كحبات العنب ولكنه في الوقت نفسه لا يتوقّف عن ضرب الحصان. في كلّ يوم كان يخترع ماكينات جديدة وأجهزة وعجلات نقل حركة مثل ستيفنسون. كان بداخله ما يشبه شرارة نبوغ كهذه. ولكنه فور الاختراع مباشرة كان سْتيلايْتْسْكي يغضب ويهيج ويدمّر بنفسه كلّ ما عمله!)

اعتاد الشاب اليهودي على صيانة وتصليح الماكنات والتفاوض مع الفلاحين الذين احضروا له القمح والشّعير، ودفع رواتب العمال، «مفاصلة» التجار والزبائن. هكذا أصبح نَفْتالي طحّاناً مثل أبيه إفرايِم تماما. إلا أنَّهُ اختلف عن أبيه الكْسول والصبياني فقد كان جدّي نَفْتالي هيرْتْس، إنسانا واقعيّاً ومجتهداً. بالإضافة إلى أنَّهُ طلب العُلى أيضاً.

أما بالنسبة للأميرة رافْزوفا فقد أصبحت في أواخر حياتها متزمّتة حتى الجنون، لم تلبس سوى السواد، وانغمست في الوفاء بالنذور وبالصيام، وكانت حزينة ليل نهار، تتهامس مع المسيح، وانتقلت من دير إلى آخر للحصول على الاستنارة الروحانيّة ووزعت ثروتها كتبرعات للكنائس ولأماكن تنسك وتزهّد معزولة («وفي إحدى المرات أخذت بكل بساطة شاكوشا كبيرا ودقّت مسمارا في كفة يدها لأنّها أرادت أن تشعر كما شعر المسيح تماما.

وعندها جاؤوا وقيّدوها وعالجوا يدها وحلقوا لها شعر رأسها وحبسوها حتى آخر أيامها في أحد الأديرة بالقرب من مدينة طولا»). أما المهندس قُنْسْطَنْطِين سْتيلايْتْسْكي المسكين ابن أخ الأميرة رافْزوفا فقد انغمس، بعد غروب شمس عمته، في الإدمان على الكحول. في حين قامت زوجته، والتي كان اسمها إيرينا ماتفييفنا، قامت وهربت منه مع أنْطون ابن فيليب الحوذيّ (هي أيضاً كانت «بيانيتسا» غير صغيرة أي مدمنة على الخمر! وستيلايتسكي نفسه هو الذي جعل منها «بيانيتسا»! كان يخسرها أحياناً في لعب الورق. أي كان يخسرها كلّ مرّة لليلة واحدة وتعود إليه في الصباح ليعود فيخسرها في الليلة التالية).

دفن المهندس سْتيلايْتْسْكي حزنه في الفودكا وفي ألعاب القمار («ولكنه إلى جانب ذلك كتب أشعارا جميلة جدّاً قصائد رائعة مليئة بالعاطفة ومليئة بالندم والشفقة! حتى أنَّهُ ألف رسالة فلسفيّة باللغة اللاتينيّة. كما أنَّهُ كان يحفظ عن ظهر قلب مؤلفات جميع الفلاسفة الكبار: أرسطو، كانت، سولوفييف وكان كثيرا ما ينزوي في الغابات. ولكي يذلّ نفسه اعتاد على أن يتنكّر أحياناً كمتسوّل، وأن يتجوّل قبيل الفجر في الشوارع وأن ينقب في براميل القمامة في الثلج مثل متسوّل جائع»).

تدريجيا حوّل سْتيلايْتْسْكي هيرْتْس موسْمَن إلى يده اليُمنى في المطحنة، وبعدها أصبح شريكه وبعد ذلك وكيلا له وقائما بأعماله. عندما كان جدّي في الثالثة والعشرين أيّ بعد عشر سنوات من «بيعه عبدا» للأميرة رافْزوفا، اشترى من ابن أخيها ما تبقى له من ملكية في المطحنة.

وسرعان ما توسّعت وتشعّبت أعمال هيرْتْس موسْمَن حتى ابتلعت أيضاً مطحنة أبيه الصّغيرة.

لم يحقد الثريّ الصّغير على طرده من بيت والده. بل بالعكس: فقد غفر لوالده إفْرايِم الذي أصبح أرملا من زوجته الثانية أيضاً، فقد أخذه إليه وسلّمه غرفة المكتب الّتي كانوا يسمونها «كونْتور» كما دفع له حتى آخر يوم في حياته راتباً عاليا. هناك في الكونْتور جلس إفْرايِم الحلو سنوات طويلة وربّى لحية قديسين بيضاء وطويلة وجميلة المنظر ولم يفعل شيئا: وكان يقضي وقته

رويداً رويداً بشرب الشاي وبتبادل الحديث الطويل والممتع مع التجار والوكلاء الذين جاؤوا إلى المطحنة. لقد أحب إفْرايِم كثيرا أن يلقي على مسامعهم بتوسّع وإطالة وبتأنٍ المحاضرات حول سر طول العمر، وعن نوعية الروح الروسيّة بالمقارنة مع الروح البولندية والأوكرانية، وحول أسرار اليهودية الغامضة وحول خلق العالم وحول أفكاره هو الأصلية لتحسين الغابات وتحسين عادات النوم وللمحافظة على القصص الشعبية أو تقوية الرؤية بطرق نباتيّة.

*

لقد تذكّرت أمّي جدّها إفْرايِم موسْمَن كشخصية بَطْرِيَرْك صاحب تأثير كبير: بدا لها وجهه ساميا جليلا بفضل لحيته الكثيفة الّتي تشبه لحية الأنبياء ناصعة البياض وتتدلّى بشكل تدريجيّ بكل بهائها على صدره، وكذلك بفضل حاجبي عينيه الكثيفين والأبيضين كالثّلج والتي منحته بهاء توراتيّاً. من أعماق مناظر شعره الثّلجيّ الغزير ولحيته وحاجبيه كانت تُطلّ عليك بابتسامة صبيانيّة سعيدة عيناه اللتان بلون زرقة السّماء وكأنّهُما بحيرتان صافيتان: جدّي إفْرايِم ظهر مثل الإله. أي مثلما يتخيّل الإلهَ كلّ ولد. رويدا رويدا اعتاد على الظهور أمام العالم كله مثل قديس سلافي، وصانع معجزات ريفيّ كشيء بين تجسيد شخصية تولستوي العجوز وبين شخصية بابا نويل.»

في سن الخمسين تقريبا ظهر إفْرايِم موسْمَن كعجوز هرم مذهل ومؤثّر ولكنه كان غامضا مبهما بعض الشّيء. في تلك السنوات يبدو أنّهُ لم يفرق جيدا بين النبي وبين الرّبّ بجلاله وعزّته: فقد بدأ يقرأ الأفكار، ويتنبّأ بما سيحدث في المستقبل، ويقدم المواعظ بهدوء، ويفسّر الأحلام، ويغفر، ويجزل العطاء ويرحم. منذ ساعات الصباح وحتى ساعات المساء كان يجلس مع فنجان الشاي إلى طاولته في مكاتب المطحنة ويرحم. باستثناء الرحمة لم يقم بأي شيء طوال النهار.

رائحة عطر ثمين كانت تفوح دائماً من حوله ويداه كانتا ناعمتين ودافئتين («لكن الجد إفْرايِم،» قالت الخالة سونْيا ابنة الخامسة والثمانين بفرحة انتصار مكبوتة، «أحبّني أكثر من جميع أحفاده! لقد كنت فِلْذَة كبده وحُشاشة قلبه!

وذلك لأنّني كنت «كراسافيتسا» صغيرة (جميلة فاتنة) كنت مدلّلة مغناجا، أبدو كفرنسية صغيرة وعرفت كيف ألاعبه على إصبعي الصغيرة- ولكن في الحقيقة كان بإمكان كلّ واحدة أن تلعب برأسه الجميل بسهولة على إصبعها الصغيرة- لقد كان محبوبا مشتّت الفكر صبيانيّاً - وحسّاسا للغاية- كلّ شيء كان يجعل دموع الانفعال تنهمر من عينيه- وأنا كنت أجلس الساعات على ركبتيه وهكذا كنت أمشّط له لحيته البيضاء الرائعة، وقد كنت دائماً واسعة الصدر صبورة استمع إلى كلّ الحماقات الّتي كان يحب أن يقولها. إضافة إلى ذلك كنت أحمل اسم أمّه سارة، سوركا. ولهذا السبب كان جدّي إفْرايِم يحبني أكثر من جميعهنّ وكان أحياناً يناديني أمّي الصغيرة»).

كان هادئا حسن الطباع، إنسانا رقيقاً مرهفَ الحسّ، ثرثارا وربما ساذجا مغفّلا بعض الشيء، لكن الناس أحبوا النّظر إليه بسبب ابتسامته الصبيانية الرقيقة خفيفة الظلّ، ابتسامة تخلب القلوب كانت دائماً تتراقص على أسارير وجهه («جدّي إفْرايِم كان من هذا النوع: في اللحظة الّتي تنظر فيها إليه تبدأ أنت فوراً بالابتسام! كلّ واحد، شاء أم أبى، كان يبتسم مباشرة لمجرّد دخول جدّي إفْرايِم إلى الغرفة. حتى الصّور الّتي على الحائط كانت تبدأ فوراً بالضحك مباشرة بعد دخول إفْرايِم إلى الغرفة!»). لحسن حظّه أن ابنه نَفْتالي أحبه بدون حساب وكان متسامحا ويتظاهر بأنَّهُ لا يعرف عندما كان العجوز يخلط بين المدينين أو يفتح دون إذن الصندوق في المكتب ويأخذ عددا من الأوراق النقديّة الّتي أحبّ، مثله مثل الله في أساطير الصوفيين، أن يجود بها على الفقراء الشاكرين لجميله بعد أن تنبّأ لهم بما سيحدث معهم في المستقبل، وقدّم لهم الوعظ والإرشاد والعِبرة الحسنة.

أياما كاملة كان العجوز يجلس مرتاحا في مكتب مطحنة ابنه. ينظر طوال النهار من الشباك، يرافق بنظراته الطيبة عملية الطحن وما يعمله العمال. ولكن لأنَّهُ كان «مثل الإله تماما» فقد نظر إلى نفسه فعلا في أيامه الأخيرة وكأنَّهُ سيّد العالم: متواضع ولكنه مزهوّ بنفسه وربما ضعيف العقل في شيخوخته (الّتي بدأت وهو في الخمسين من عمره). أحياناً كان يغمر ابنه بالنصائح المختلفة والأفكار والتعليمات والبرامج المتنوعة لإدارة المصلحة وتوسيعها، ولكنه لم

يكن يصرّ على رأيه: غالبا ما كان العجوز ينسى بعد ساعة أو نصف ساعة اقتراحاته وبرامجه ويبحر في أفكار جديدة. كان يشرب الشاي ثمّ الشاي وبعده الشاي، ينظر بفكر مشتّت في دفاتر الحسابات، ويتحدّث مع الغرباء الذين ظنوه خطأً مدير الورشة دون أن يصحح لهم خطأهم. حول أملاك أبناء روتشيلد وعن معاناة العمال البسطاء الكبيرة في بلاد الصين، الّتي كان يسميها كيتاي. كانت محادثاته غالبا ما تستمر مدة سبع أو عشر ساعات.

أما ابنه، هيرْتْس موسْمَن، فلم يحرص: بوعي وحذر وسعة صدر وسّع وعمق أعماله، وأقام الفروع هنا وهناك، وأصبح غنيا بعض الشيء، زوّج أخته سارة الّتي كنا نسميها سوركا، وآوى إليه أخته جيني وأخيرا نجح في تزويجها أيضاً («من نجار اسمه ياشا! شاب طيب، إلا أنَّهُ بسيط جدّاً جدّاً! ولكن ماذا يمكنه أن يفعل مع جيني هذه؟ فقد كانت قد تجاوزت الأربعين!»). كذلك شغّل عنده ابن أخيه شمشون وكذلك النجار ياشا زوج جيني، كما شمل تحت إشرافه جميع إخوته وأخواته وأقاربه، وقد

تشعّبت وتوسعت أعماله، وقد بدأ زبائنه من الأوكرانيين والروس ينادونه تقديرا واحتراما من خلال انحناءة طفيفة وقبعاتهم ملتصقة بصدورهم باسم جيرتس يفرموفيتش[١]. حتى أنَّهُ كان له مساعد روسيّ، شاب صغير، مريض بقرح في المعدة، كأنه عزيز قوم ذلّ. بواسطة هذا المستشار وسّع جدّي تجارة القمح حتى وصلت بضاعته إلى كييف وحتى موسكو وبطرسبورغ.

*

في سنة ١٩٠٩ أو ١٩١٠، عندما كان عمره إحدى وعشرين سنة تزوّج نَفْتالي هيرْتْس موسْمَن من ايتا جيدالييفنا شوستر بنت جيداليا شوستر وبيرل من بيت جيبور كثيرة الجموح والنزوات. عن بيرل أم جدّتي حكت لي الخالة حايا بأنَّها كانت امرأة حازمة، «لبقة مثل سبعة تجار»، صاحبة حس مرهف لمكائد ومؤامرات الفلاحين، كانت سليطة اللسان، توّاقة إلى المال والسّلطة، وبخيلة إلى حد الجنون («حُكي عنها عندنا بأنَّها كانت تجمع كلّ أيام حياتها

(١) هيرتس ابن إفرايِم (المؤلف).

كلّ خصلة شعر أو جديلة قصّت عند تسريح شعرها لكي تحشو بها الوسائد. وكانت تقسم كل مكعب سكر بالسكين إلى أربع مكعبات صغيرة ومتساوية»). أما جيداليا، والد جدّتي إيتا فقد ذكرته حفيدته سونْيا كرجل كثير التذمر، سمين، في صوته بحّة، هائج دائماً لكثرة نهمه. كانت لحيته سوداء ومنفوشة وتصرفاته صاخبة وسلطويّة. قيل عنه بأنَّهُ عرف كيف يتجشّأ وكيف يصاب بالحازوقة حتى «يرن الزجاج في الشبابيك» وأنَّهُ كان يجأر بصوته «مثل برميل فارغ يتدحرج» (لكنه كان يخاف خوفا عظيما من جميع الحيوانات، من الكلاب والقطط البيتية ومن الجدي أو العجل الرضيع).

*

ابنة جيداليا وبيرل، جدّتي إيتا، تصرفت دائماً كامرأة لم تعاملها الحياة بما يليق بها من رقة ونعومة: لقد كانت جميلة في شبابها، كثر خطابها، ويبدو أنّها كانت مدلّلة جدّاً أيضاً. طوال حياتها تحكّمت ببناتها الثلاث بيد من حديد، ومع ذلك- وكأنَّها توقعت منهنّ أن يتصرفن معها وكأنَّها هي نفسها أختهنّ الصغيرة أو ابنتهنّ الحلوة المدللة. وحتى في شيخوختها لم تكفّ عن إرسال مختلف الرشاوى الصغيرة وحركات الغنج والدلع والتملّق الصبيانية تجاه أحفادها: كمن تتوقّع منا أن ندلّلها وأن ننفعل وننبهر بسحرها ونخطب ودّها. ومع ذلك، أحياناً كانت قادرة على أن تتصرف بشيء من القسوة المؤدّبة.

*

زواج إيتا وهيرْتْس موشَمَن استمر، بالصمت، حوالي خمسا وستين سنة من الإهانات، والاضطهاد، والإذلال، والمصالحات، والخزي والعار، والتسامح والآداب المتبادلة بغضب وكزكزة أسنان: جدّي وجدّتي لأمّي كانا شخصين مختلفين وبعيدين كلّ البعد عن بعضهما حتى اليأس، إلا أن هذا اليأس بقي محبوسا داخل الغرف مغلق عليه بالسكرة والقفل، لم يتحدث أحد عنه عندنا، وأنا في أحسن الحالات كنت أشعر به بشكل ضبابيّ في سنوات طفولتي كما أشعر برائحة خانقة للحم يحترق رويدا رويداً خلف الحائط.

رأت بناتهما الثلاث: حايا وفانْيا وسونْيا عمق المعاناة وبحثن عن طرق

للتقليل من معاناة الحياة الزوجية لوالديهن. وقفت الأخوات الثلاث وقفة رجل واحد طوال الوقت وبدون أيّ تردّد إلى جانب والدهنّ وضدّ والدتهنّ. اشمأزت الأخوات الثلاث من أمهنّ، وخفنها، وخجلن بها واعتبرنها امرأة مشاكسة تحب إثارة النزاعات، سوقيّة وتحب التسلّط حتى أبعد الحدود. وكنّ يتّهمن بعضهن: «انظري إلى نفسك ! إنّك تحوّلت بالضبط، ولكن بالضبط تماما، مثل ماما!»

قبيل شيخوخة والديها، وتقريبا عند شيخوختها هي نفسها أفلحت الخالة حايا في الفصل أخيرا بين أمها وأبيها العجوزين حيث وضعت والدها في بيت للمسنين في جفعتايم، ووضعت أمها في أحد المستشفيات الخاصة بالمسنين المحتاجين إلى عناية خاصّة في منطقة نس تسيونا. لقد فعلت ذلك رغما عن الخالة سونْيا الّتي اعتقدت أن هذا الفصل من جانب واحد خطأً كبير. ولكن في تلك الأيام كان قد وصل الشرخ بين الخالة حايا والخالة سونْيا ذروته: ما يقرب الثلاثين عاما لم تتكلما مع بعضهما ولو كلمة واحدة، منذ أواخر خمسينيات القرن العشرين وحتى وفاة الخالة حايا (الخالة سونْيا شاركت على الرغم من كلّ خلافهما في جنازة أختها، وهناك قالت لها باسى: «أنا الآن أسامحها على كلّ شيء. وأنا أدعو الله في سرّي أن يغفر لها- وهذا لن يكون سهلا عليه، لأنَّهُ هناك الكثير الكثير من الأخطاء الّتي تحتاج إلى المغفرة!» وقبل سنة من وفاتها قالت لي الخالة حايا تقريبا نفس الكلمات عن أختها سونْيا).

*

عمليا لقد كانت الأخوات موسْمَن، منذ طفولتهنّ، كلّ واحدة بطريقتها غارقة حتى الرأس بحب والدها: رجل رقيق القلب، يفيض بمشاعر الأبوة، دمثاً وكان جدّي أَنَفْتالي هيرْتْس أيضاً جذاباً ممتعاً (حتى إننا جميعا بناته وأنسباؤه وأحفاده كنا نناديه «بابا»).

كانت بشرته قمحية اللون وصوته دافئاً، وقد ورث عينيه الصافيتين اللتين بلون زرقة السماء عن إفرايِم والده: عينان حادّتان ونافذتان ولكنهما أيضاً تضمران ابتسامة. عندما كان يتحدث معك كنت تظنه يفهم أحاسيسك فهما

عميقا، يخمن ما بين الأسطر، يستوعب بسرعة ما قلته ولماذا قلت ما قلته، ومع ذلك- يحلل ويفك رموز ما حاولت عبثاً أن تخفيه عنه. كان يبتسم إليك أحياناً ابتسامة غير متوقَّعة، ابتسامة محنّكة عابثة يرافقها ما يشبه غمزة العين: كمن يخجّلك قليلا في حين أنَّهُ يخجل باسمك، ولكنه يسامحك لأنَّهُ في نهاية المطاف ما هو إلا إنسان وهو لا يعدو أن يكون إنسانا فقط.

حقا، في نظره كان جميع الناس أولادا غير حذرين يجر الواحد منهم على الآخر وكل واحد على نفسه الكثير من خيبات الأمل ومن المعاناة، وكلهم مسجونون داخل ملهاة دائمة، ملهاة غير متأنّقة تنتهي بشكل عام بصورة غير جيدة. الطرق، كلّ الطرق تؤدي إلى المعاناة. ولذلك، في نظر بابا، اتضح أن جميع الناس تقريبا محتاجون إلى الشفقة وجميع أعمالهم تبدو له جديرة بالمغفرة: بما في ذلك أصناف الخدع والحيل والغشّ والتظاهر والانتحال والغرور والادعاءات الكاذبة والتشبّه بالآخرين. كلّ هذه الأمور كان يغفرها لك بمجرد ابتسامته الخفيفة العابثة كمن يقول (بالإيديش): هيا، ماذا؟

وما كان بابا يفقد تسامحه العابث إلا عند مشاهدته لمشهد فيه قسوة وإجحاف. تعامل مع الشرّ باستهانة واحتقار. كانت عيناه الزرقاوان الفرحتان تظلمان عند سماعه عن أعمال المكر: «حيوان شرير؟ ولكن ماذا يعني أصلا حيوان شرير؟» هكذا كان يفكّر بالإيديش، «لا يوجد حيوان شرير. إنّ أيّ حيوان لا يمكن أن يكون شرّيراً. الحيوانات لم تكن قد اكتشفت الشرّ بعد. الشرّ هو حكر علينا نحن البشر أحسن المخلوقات. إذن ربما أكلنا هناك في الجنّة من التفاحة غير الصحيحة؟ ربما نبتت هناك بين شجرة الخلد وشجرة المعرفة شجرة أخرى، شجرة سامّة لم تذكرها التوراة، اسمها شجرة الشّرّ» (أو كما كان يسميها بالإيديش: «شجرة الريشيس»)، «ونحن عن طريق الخطأ أكلنا منها بالذات؟ الأفعى الماكرة أغرت حواء ووعدتها بأن هذه هي شجرة المعرفة ولكنها قادتها مباشرة إلى شجرة الرّيشيس - الشّرّ. لو أننا فعلا لم نأكل إلا من شجرة الخلد وشجرة المعرفة ربما ما كنا لنطرد من الجنة؟»

بعد ذلك، كانت عيناه الزرقاوان تعودان إلى قذف شرارات بارعة من المرح والفكاهة، كان يواصل بصوته البطيء الدافئ ويصوغ بكلمات واضحة

بلغة إيديش تصويرية متدفقة ما كان سيكتشفه جان بول سارتر بعده بسنوات:
«ولكن ما هو الجحيم؟ وما هو النعيم؟ ما هو إلا شيء في الداخل. في داخل البيت. الجحيم والنعيم أيضاً يمكن أن نجده في كلّ غرفة. ووراء كلّ باب. تحت كلّ لحافٍ زوجيّ. ما هو إلا هكذا: مع قليل من الشرّ- الإنسان هو جحيم للإنسان. ومع قليل من الرأفة وقليل من الكرم - الإنسان هو جنّةٌ للإنسان.

«قليل من الرأفة والكرم قلتُ ولكنني لم أقل الحبّ: بالحبّ العالمي الشامل لست مؤمنا كلّ الإيمان. حبّ الجميع للجميع، ربما نترك هذا للمسيح: إذ أن الحبّ هو شيء آخر تماما. فهو لا يشبه الكرم كما أنَّهُ لا يشبه الرأفة وبالعكس. الحبّ هو خليط غريب من الشيء ونقيضه، هو خليط من الأنانيّة الأكثر أنانيّةً مع أكمل أنواع التفاني والإخلاص والتضحية. تناقض! إضافة إلى ذلك، الحبّ، أوليس العالم كلّه الآن يحدّث عن الحبّ، الحبّ، ولكننا لا نختار الحب، بل نصاب به، نقع فيه، كما في المرض كما في مصيبة. ما الذي نختاره إذن؟ بين ماذا وماذا الناس ملزمون بالاختيار في كلّ دقيقة تقريبا؟ إمّا الكرم - وإمّا الشّرّ. هذا الشيء يعرفه كلّ ولد صغير ومع ذلك فإنّ الشر لا يتوقف. كيف يمكننا تفسير ذلك؟ كلّ هذا على ما يبدو أصابنا من التفاحة الّتي أكلناها هناك: أكلنا تفاحة مسمومة.»

٢٢

نمت مدينة روفْنو[١]، والتي تعتبر محطة التقاء مهمة لخطوط سكك الحديد، حول قصر وحدائق الأمراء من عائلة لوبوميرسكي المحاطة بالبحيرات. نهرٌ اسمه أوستيا اخترق روفْنو من الجنوب إلى الشمال. بين هذا النهر وبين المستنقع برزت قلعة المدينة، وفي أيّام الروس كانت ما زالت هناك بحيرة بجعات جميلة. خط الأفق لمدينة روفْنو رسمته القلعة وقصر أمراء لوبوميرْسْكي وعدد من الكنائس الكاثوليكية والروسية الأرثوذكسية من بينها كانت واحدة مع برجين توأمين. عاش في المدينة حوالي ستين ألفا من السكان في السنوات الّتي سبقت الحرب العالمية الثانية، معظمهم من اليهود وقليل من الأوكرانيين والبولنديين والروس، وبعض التشيك وقلة قليلة من الألمان. عدة آلاف أخرى من اليهود عاشوا في البلدات المجاورة والقرى المنتشرة في المنطقة. أحاطت بالقرى بساتين الأشجار المثمرة ومزارع الخضراوات والمراعي وحقول القمح والشّيلم الّتي كانت الريح تسبب لها قشعريرة خفيفة أو ترسم على وجهها تموّجا خفيفا. صفير القطار كان يصنع ثقوبا بين الحين والآخر في سكينة الحقول. وأحْياناً كنت تستطيع أن تسمع من الحدائق غناء الفتيات- الفلاحات الأوكرانيات. من بعيد بدا هذا الغناء وكأنّهُ نحيب.

على امتداد البصر امتدت هنا السهول الواسعة، المستوية، تنحني هنا وهناك بموجات من التلال الناعمة، ومرصّعة بالأنْهار والمجمعات المائيّة،

---

(١) باللغة البولندية: Rowne وباللغة الروسية: Pobho (روفنو) (المؤلف).

وموشّاة بالمستنقعات وكتل الغابات الكبيرة. في المدينة نفسها كانت هناك ثلاثة - أربعة شوارع «أوروبيّة» وفيها مجموعة من المباني الفخمة بأسلوب نيو- كلاسيكي وواجهة تكاد تكون متصلة من البيوت السكنية الّتي عمَرها أبناء الطبقة الوسطى. كانت تلك بيوت من طابقين لها صفوف من الشرفات مع درابزينات حديدية. صفٌ من الحوانيت الصغيرة احتلّ الطابق الأرضي من بيوت هؤلاء التجار. لكن الكثير من الشوارع الجانبية لم تكن إلا طرقات ترابيّة موحلة جدّاً في الشتاء، ومغبرة جدّاً في الصيف. على امتداد عدد من هذه الطرقات الجانبية امتدت هنا وهناك أرصفة خشبيّة مُتداعِية. وبمجرّد أن توجّهت من شارع رئيس إلى أحد الشوارع الجانبية كنت تجد نفسك فجأة محاطا ببيوت سلافيّة، منخفضة، فظّة المنظر، سميكة الحيطان وكبيرة الحجم وقوية، منخفضة الأسقف تحيط بها الأراضي الزراعيّة والكثير من الأكواخ الخشبية المتضعضعة المقوّسة، وأكواخ مُسْودة بعضها غار في الأرض حتى شبابيكها وأسقفها مغطاة بالقشّ.

في سنة١٩١٩ افتتحت في روفْنو مدرسة ثانوية يهودية ومعها مدرسة ابتدائية وعدد من الحضانات التابعة لشبكة «تَرْبوت» (الثقافة). في جهاز التعليم اليهودي «تَرْبوت» تعلمت أمّي وأخواتها. صحف عبرية وصحف بلغة الإيديش طبعت في سنوات العشرينيات والثلاثينيات في مدينة روفْنو، عشرة أو اثنا عشر حزبا يهوديّاً تنافست فيها بشدة، كما ازدهرت فيها حلقات يهودية للأدب والدراسات اليهودية والعلوم ولتعليم الكبار. كلما تعاظمت كراهية اليهود في بولندا في سنوات العشرينيات والثلاثينيات تعاظم بالمقابل التيار الصهيوني وتوطد التعليم العبري، ومعهما - دون أيّ تناقض- توطّدت العَلمانية وزاد الإقبال على ثقافات الأجانب[1].

*

في الساعة العاشرة بالضبط من مساء كلّ يوم انطلق من محطة القطار في

---

(١) مناحم جيليرطر، «المدرسة الثانوية العبرية «تربوت» في روفنو»، إصدار لجنة خريجي المدرسة، القدس، ١٩٧٣ (المؤلف).

روفْنو قطار الليل السريع إلى زْدولبونوف، وَلفوف، ولوبلين، وَوارسو. في أيام الآحاد وفي الأعياد المسيحيّة دقت أجراس جميع الكنائس. فصل الشتاء كان معتماً وثلجيّاً وفي فصل الربيع هطلت أمطار دافئة. صاحب دار السينما في روفْنو كان ألمانيّاً اسمه براندت. أحد الصيادلة كان تشيكيّاً اسمه مخاتشيك. الجراح الرئيسيّ في المستشفى كان يهوديّاً اسمه دُكتور سيجَل الذي لقبه خصومه بسيجَل المجنون. معه في نفس المستشفى اشتغل طبيب العظام الدكتور يوسِف كوبِيْكا، والذي كان صهيونيا متحمسا من أنصار الحركة التعديلية الّتي أقامها زئيف جابوتِنْسْكي في سنة ١٩٢٥ وكانت تعارض الخط الرسمي للحركة الصهيونية. موشيه روتنبرغ وَسِمحا هيرْتْس ما يَفيت [ما أجملك] (Majafit) كانا حاخامي المدينة. تاجر اليهود بالأخشاب والحبوب، وطحنوا القمح، واشتغلوا بتجارة القماش والنسيج وبالأدوات المنزلية وبصياغة الذهب والجلود والطباعة والملابس والبقالة والخُرْدَوَات والتجارة والأعمال المصرفيّة. عدد من اليهود الشباب تحوّلوا إلى عمال بُرُولِيتَارِيّين عن وعي، عمال مطابع، مساعدين مهنيّين، عمال أجيرين يوميّين. عائلة بيسيوك أنتجت البيرة، وأبناء عائلة تفوآت شور [غلة الثور] (Twischor) كانوا أصحاب حرفة محترمين. وعائلة شتراوخ صنعت الصابون. أما عائلة جندلبرغ فقد استأجرت الغابات وقد كان لعائلة شتاينبرغ مصنع عيدان الثّقاب. في حزيران ١٩٤١ احتلّ الألمان مدينة روفْنو من أيدي الجيش السوفييتي الذي كان يسيطر عليها. خلال يومين، السابع والثامن من نوفمبر / تشرين الثاني من سنة ١٩٤١ قتل الألمان وأعوانُهُم أكثر من ثلاثة وعشرين ألفا من يهود المدينة. الآلاف الخمسة الباقون قتلوا في اليوم الثالث عشر من تموز ١٩٤٢.

كانت أمّي تُحدّثني بشوق وحنين، بصوتها الخافت الذي يمتد بعض الشيء في أواخر الكلمات، عن روفْنو الّتي تركتها خلفها: بست أو سبع جمل كانت ترسم لي صورة. المرة تلو المرة أؤجّل السّفر إلى روفْنو، حتى لا اضطر إلى استبدال الصور الّتي رسمتها أمّي.

*

رئيس بلدية روفنو غريب الأطوار في العقد الثاني من القرن العشرين، ليبيدايِفْسْكي، شخص بقي وحدانياً طوال حياته، عاش في بيت ضخم محاط بعزبة مساحتها حوالي الخمسين دونماً، مؤلفة من حديقة زينة وحقول خضراوات وبساتين أشجار مثمرة، والواقع في شارع دوبينْسْكا رقم ١٤. عاش هناك وحيدا مع خادمة، ليست صبيّة، ومع بنتها الصّغيرة والتي ترددت الإشاعات الّتي تقول بأنّها في الواقع ابنته. كما عاشت هناك معه إحدى القريبات البعيدات لليبيدايفسكي هذا اسمها ليوبوف نيكيتيشنا. تنتمي إلى نبلاء روسيا ولكنها لا تملك شيئاً، والتي، كما تدّعي، تربطها علاقة غامضة مع العائلة المالكة، عائلة رومانوف. سكنت في بيت ليبيدايِفْسْكي مع ابنتين لها من زوجين مختلفين: طاسيا، وهي أناسْتاسْيا سيرْجييفْنا، ونينا وهي أنْتونينا بوليسْلَفوفْنا، عاشت الأم وبنتاها في نصف غرفة كانت في الحقيقة نهاية الممر وقد تمّ فصلها عن الممر بواسطة ستارة سميكة. بالإضافة إلى ساكنات الغرفة الضيقة، بنات العائلة المالكة، فقد شاركتهن الغرفةَ خزانة-بوفيه كبيرة جدّاً قديمة وفخمة، قطعة أثاث من الخشب المحفور من القرن الثامن عشر، كان مصنوعا من الخشب الأحمر الغامق ومزخرفاً ببراعم ونقوش جميلة. في قطعة الأثاث هذه ومن خلف فتريناتها الزجاجيّة تراكم الكثير من التحف والتذكاريات القديمة من الفضة والخزف والكريستال. كما كان لهن فيها سرير واسع ومزيّن بكثير من المخدات الملوّنة والمطرّزة والتي عليها، على ما يبدو، نامت الثلاث مَعاً طوال الوقت.

كان البيت مؤلّفا من طابق واحد ولكن تحته امتدّ قبوٌ عملاق استُخدم كورشة ومخزن طعام ومستودع، وكنز من براميل الخمرة ومجمّع من الروائح الكثيفة: خليط غريب مخيف بعض الشيء ولكنه جذاب، من روائح الفواكه المجفّفة والمربّى والزبدة والنقانق والمشروبات الروحيّة والحبوب والعسل وأنواع مختلفة من مربّى الفواكه، فارينييه، بوفيدلو، وبراميل مملوءة بالملفوف المكبوس والخيار المكبوس وأجناس متنوعة من التوابل وقلائد الخضروات والفواكه المجفّفة كانت ملقاة على الحبال على طول القبو، وعدد من أنواع البقول في الأكياس وفي طشوت من الخشب وروائح القار والنفط

والزفت والفحم وحطب التدفئة بالإضافة إلى نتانة خفيفة من التّعفُّن والدُّبال والخُموجة. كوّة صغيرة بالقرب من سقف القبْو أدخلت إليه حزمة من أشعة الضوء المائلة والمُغبرّة والتي لم تبدّد ظلمة القبو بل أكّدتها وأبرزتها. من قصص أمّي تعرّفت على هذا القبو حتى أنّني الآن وأنا اكتب هذه الكلمات أغمض عيني وأدخل إليه واستنشق حتى يصيبني الدوار من روائحه الغنية والمتنوعة.

في سنة ١٩٢٠ قبل وقت قليل من احتلال قوات المارشال بيلسودسكي البولندية مدينة روفْنو وغرب أوكرانيا بكامله من أيدي الروس، انهارت مكانة رئيس البلدية ليبيدايِفْسْكي وعزل عن منصبه. مكانهُ عين شخص آخر اسمه بويارسكي، كان بويارسكي هذا شخصا همجيّاً فظّاً وسكّيرا وبالإضافة إلى كلّ ذلك يكره اليهود وغير مهذب. اشترى نَفْتالي هيرْتْس موسْمَن لنفسه بيت ليبيدايِفْسْكي الذي في شارع دوبْيينْسْكا بثمن بخس. انتقل نَفْتالي إلى هنا مع زوجته إيتا وبناته الثلاث حايا، أو نيوسيا البكر، الّتي ولدت في سنة ١٩١١، وَرِفْقة - فايْجا ألا وهي فانْيا الّتي ولدت بعدها بسنتين، والصّغرى سارة أو سونْيا الّتي ولدت سنة ١٩١٦. ما زال هذا البيت، هكذا قيل لي، قائما في مكانهُ.

من الجهة الأولى من شارع دوبْيينْسْكا الذي غير البولنديون اسمه إلى شارع كزاروفا («شارع القاعدة العسكرية»)، كانت تمتد بيوت ضخمة فخمة سكنها أثرياء المدينة. ومن الجهة المقابلة امتدت ثكنات الجيش الّتي سموْها «كزارمي». رائحة تفتّح الحدائق وبساتين الأشجار المثمرة ملأ الشارع بالربيع، وكان يمتزج أحياناً بروائح الغسيل وروائح المخبوزات الساخنة، الخبز الساخن والكعك والحلوى والمعجّنات، روائح المأكولات الشّهية المتبّلة الّتي تنبعث من مطابخ البيوت.

*

في البيت الواسع وكثير الغرف استمر يسكن جميع أصناف السكان الذين «ورثهم» الموسْمَنيون من ليبيدايِفْسْكي. لم يطاوع البابا قلبُه لطردهم: وعليه فقد واصلت الخادمة العجوز كِسانْيا ديمتريوفنا، كسنيوتشينكا، وبنتها دورا

الّتي ربما ولدت لها من ليبيدايِفْسْكي نفسه: كان الجميع يسمونها مجرد دورا بدون ذكر اسم الأب. وفي أقصى الممر في نصف الغرفة الّتي خلف الستارة الفاصلة استمرت تعشّش دون إزعاج من أحد السيدة العريقة والمُعدمة ليوفا، ليوبوف نيكيتيتشنا، الّتي تربطها، حسب ادّعائها، علاقة قرابة مع العائلة المالكة مع تاسيا ونينا ابنتيها، نحيفات جدّاً كنّ الثلاث، منتصبات القامة ومغرورات، مزيّنات طوال الوقت «مثل سرب طواويس». كذلك سكن هناك بأجر شهريّ في غرفة واسعة وجيدة الإضاءة موجودة في الواجهة الأمامية للبيت كانت تسمى «الكابينيت»، ضابط بولندي ما، بولْكوفْنيك[1]، متبجّح، كسول وشديد الإحساس. كان اسمه يان زاكاشفْسْكي، شخص في الخمسين من عمره تقريبا، رُجُولِيّ، قويّ، صلب، عريض المنكبين، ليس قبيحا. كانت البنات يسمّينه «باني بولْكوفْنيك» : في كل يوم جمعة كانت إيتا موسْمَن ترسل إحدى بناتها مع صينية من كعك الخَشخاش ذكيّ الرائحة فور إخراجها من الفرن لتقرع باب «باني بولْكوفْنيك» بأدب وتحييه مع ثني ركبتها وتتمنى له باسم العائلة كلها «يوم سبت سعيد». كان السّيّد العقيد، من جهته، ينحني قليلا ويربت على رأس البنت وأحْياناً على ظهرها وكتفيها ويسمي كلّ واحدة منهنّ «تسيغانغا» (غَجَرِيّة) ويعد كلّ واحدة بأنَّهُ بكل صدق وإخلاص ينتظرها حتى تكبر لكي يتزوّجها.

رئيس البلدية اللاسامي، بويارسكي، الذي ورث مكان ليبيدايِفْسْكي، كان يحضر أحياناً للعب الورق مع الْبولْكوفْنيك المتقاعد زاكاشفْسْكي. كان الاثنان يشربان مَعاً ويدخنان، «حتى يصبح الهواء عندهما مسودّاً». وكلّما مرت السّاعات كانت أصواتهما تصبح مبحوحة وغليظة وتمتلئ ضحكاتهما العالية بالنعير والخرخرة والتّأوُّهات. عند زيارة رئيس البلدية كانوا يبعدون البنات إلى ما وراء المنزل أو إلى الحديقة، لئلا تصل أسماعَهنّ كلمات ليس من اللائق ببنات مؤدّبات أن يسمعنها. أما الخادمة فقد كانت بين الحين والآخر تحْضر للسيدين كأسين من الشاي المغلي مع بعض النقانق والفسيخ

---

(١) عقيد (المؤلف).

أو طبقاً عليه منقوع الفواكه المعجنات والجوز. في كلّ مرّة كانت الخادمة تقدّم إليهما متذللة راجية طلب السيدة صاحبة المنزل بأن يخفضا صوتيهما قليلا لأنّ رأس السيدة صاحبة البيت يؤلمها «مثل جهنّم». ولا أحد يعرف بمَاذا أجاب السيدان الخادمة العجوز لأنّ الخادمة نفسها كانت «صمّاء مثل عشرة حيطان» («وأحياناً قالوا عنها بأنّها صمّاء أكثر من الإله بجلاله وعظمته»). كانت تصلّب لشدة خوفها، تنحني أمام السادة وتخرج من الكابينيت تجرجر رجليها المريضتين والمنهكتين.

وذات مرّة، في أحد أيام الآحاد قبيل الفجر، قبل بزوغ أشعة الشمس الأولى في الوقت الذي كان أهل البيت ما زالوا نائمين في أسرتهم، قرر العقيد زاكاشفْسْكي أن يفحص مسدّسه. في البداية أطلق رصاصتين عبر النافذة المغلقة باتجاه الحديقة. بالصُدفة أو ربما بطريقة غامضة، أفلح، في الظلام الدامس، في إصابة حمامة وجدت في السّاحة، في صباح اليوم التالي جريحة ولكنها ما زالت على قيد الحياة. بعد ذلك، ولا ندري لأي سبب، صوّب مسدّسه نحو زجاجة الخمرة الّتي على طاولته، ورصاصة أخرى إلى فخذه، ورصاصتين إلى الثُرَيّا المعلقة في السقف والتي أخطأها وبالرصاصة الأخيرة حطّم جبينه ومات. كان إنساناً مرهفَ الإحساس، ثرثاراً محموماً، منكسرَ القلب، في كثير من الأحيان كان ينفجر فجأة بأغنية أو ببكاء، حزينا كان على الكارثة التاريخيّة الّتي حلّت بشعبه، حزينا كان على جرو خنزير لطيف قتله الجار بضربة ركيزة، حزينا كان على سوء مصير العصافير المغرّدة مع حلول فصل الشتاء، وعلى آلام احتضار المسيح المثبّت بالمسامير على الصليب، حزينا جدّاً كان حتى على اليهود المطاردين منذ خمسين جيلا وما زالوا لا يفلحون في رؤية النور، حزينا كان على حياته هو، الّتي انقضت بدون هدف وطعم، وحزينا حتى اليأس كان أيضاً على الفتاة، فاسّيليسا، الّتي ذات مرّة، قبل سنوات، سمح لها أن تذهب وعلى ذلك ومنذ ذلك اليوم وحتى يوم وفاته لم يكفّ عن شتم غبائه وحياته الجوفاء، الّتي لا قيمة لها: «إلهي إلهي،» كان يردّد مقتبساً بلاتينيّته- البولنديّة، «لماذا تركتَني؟ ولماذا تركتنا جميعا؟»

في ذلك الصباح اخرجوا البنات الثلاث من البيت من الباب الخلفي، عبر البستان وبوابة الحظيرة، وعندما عدن في المساء كانت الغرفة الأماميّة فارغة ونظيفة ومرتّبة ومُهويّة وجميع حاجيات العقيد قد حُزمت في أكياس ونُقلت إلى مكان آخر. وما بقي في الغرفة لعدة أيام أخرى سوى رائحة خفيفة للخمرة الّتي انسكبت من الزجاجة الّتي حطّمتها رصاصة المسدّس، هذا ما ذكرته الخالة حايا.

وذات مرّة وجدت هناك البنت الّتي ستكون أمّي قصاصة ورق بين شقوق الخزانة، مكتوبة بلغة بولندية بسيطة بخط نسائيّ وفيها كتبت إحداهن إلى جروها الصّغير والعزيز جدّاً عليها، بأنّها طوال حياتها لم يحالفها الحظ لتلتقي مع شخص أطيب وأكرم منه، وحتى أنَّها ليست جديرة بأنّ تقبّل نعل حذائه. في كلمة «نعل» البولندية وجدت فانْيا خطأين إملائيَّين. وقعت كاتبة هذه الرسالة عليها بالحرف ن. رسمت تحته شفتين مكتنزتين جاهزتين للتقبيل. «لا أحد» قالت أمّي، «لا أحد يعرف أيّ شيء عن أيّ أحد. لا شيء، وكذلك لا أحد يعرف عن نفسه. لا يعرفون أيّ شيء. وإذا حصل أحياناً وتخيلنا للحظة أننا مع ذلك نعرف شيئا فإنّ ذلك أسوأ لأنَّهُ من الأفضل أن نعيش دون أن نعرف من أن نعيش على خطأ. ولكن في الحقيقة من يدري؟ بعد إعادة التفكير، ربما من الأسهل أكثر أن نعيش على خطأ من أن نعيش في الظلام؟»

*

من شقّة غرفتين غير مقنعة معتمة نظيفة ومرتّبة مثقلة بالأثاث ومغلقة الأبواب والشبابيك دائماً في شارع فايْزِل في تل أبيب (في الخارج بدأ يتطور نهار أحد أيام شهر أيلول شديد الرطوبة ومنهِك)، أخذتني الخالة سونْيا في جولة إلى بيت السادة الذي في حي فوليا في شمال غرب روفْنو. البيت موجود في شارع دوبْيينْسْكا، والذي غيروا اسمه، بعد دخول البولنديين، إلى شارع كزاروفا («دوبْيينْسْكا»- أي الطريق إلى بلدة دوبنو بينما الاسم كزاروفا مشتق من الكساركتين [القاعدة العسكرية]). تقاطع هذا الشارع كما سبق وذكرنا، مع شارع روفْنو الرئيس الذي كان اسمه في الماضي شوسايانايا ومنذ

دخول البولنديين غُيّر اسمه إلى شارع تشيتشايجو مايا- «شارع الثالث من أيار» يوم العيد القومي لبولندا.

عند التوجّه من الشارع إلى البيت، هكذا رسمت لي الخالة سونْيا بكلماتها المفصّلة والدّقيقة، نقطع أولا حديقة زينة صغيرة في الواجهة الأمامية، حديقة اسمها «بولوسيادنيك»، وفيها زرعت شجيرات ياسمين اعتنوا بها جيداً («وأنا ما زلت أذكر شجيرة صغيرة كانت في الجهة اليسرى فاحت منها رائحة قوية ومدهشة بشكل خاصّ، ولذلك سمّيْناها 'العاشق'...»). وكانت هناك أزهار «مرغريتكي» والتي تسمّى الآن كُزْبَرة الثَّعْلب، كما كانت هناك شجيرات الورد الجوري، «روزوتشكي»، والتي من إزهارها كانوا يصنعون عندنا نوعا من المربّى، مرَبّىَ عطريّ وحلو جدّاً جدّاً حتى أنَّهُ يخيّل إليك أنَّك تلعق السكر نفسه لشدّة حلاوتها. نبتت الورود في مسكبين دائريين محاطين بحجارة صغيرة، أو بلبنات مرتبة بشكل مائل مثل قافلة بجعات بيضاء تتكئ الواحدة على الأخرى.

خلف الشجيرات كان عندنا مقعد خشبيّ أخضر اللون، ومن عنده كنا نتوجّه يسارا إلى المدخل الرَّئيس: كانت هناك أربع أو خمس درجات عريضة، وبوابة كبيرة بلون بنّيّ مع أنواع مختلفة من النقوش والحفريات. كان ذلك من بقايا الذوق الأجعَد لرئيس البلدية ليبيدايِفْسْكي. المدخل الرئيس يقودك إلى ممرّ يوجد فيه عدد من قطع الأثاث الثقيلة المصنوعة من خشب أشجار الماهاغوني بنيّ اللون، واسمها بالعبرية أشجار التُولَعْنَة؟ لا؟ ربما تفسّر لي ذات يوم لماذا التُولَعْنَة بالذات؟ ما شأن الديدان هنا؟ إذ أن شجرة الماهاغوني بالذات مطعّمة ضدّ الديدان! ليتنا نحن مطعّمون ضدّ الديدان مثلها!

وكان هناك أيضاً في الممرّ شباك كبير مع ستائر طويلة مطرّزة وصلت حتى أرض الغرفة. من هذا الممرّ الباب الأول عن اليمين هو باب الكابينيت، أيْ- غرفة العقيد بان يان زاكاشفْسْكي. قبل بابه، من الخارج، في الممر، على فرشة كانت تُطوى في ساعات النهار وتخبّأ، كان ينام في الليل مساعد الضابط، خادمه، «الدّيينشيك»، فتى قروي عريض الوجه أحمر مثل شمندر

السّكّر، مشوّه من كثرة ما فيه من البثور والحَبّ كتلك الّتي تتسبب عن الأفكار غير الجميلة. كان هذا «الدّيينشيك» ينظر إلينا نحن البنات بعينين جاحظتين، وكأنَّهُ يوشك على الموت خلال لحظات من شدة الجوع، لا أقصد الجوع إلى الخبز، إذ كنا نحن نمده به بالذات من المطبخ طوال الوقت، وبالكمية الّتي يطلبها. كان العقيد يضرب هذا «الدّيينشيك» ضربا مبرّحا كما يندم بعدها على فعلته فيقوم بمنحه مصروف الجيب.

*

كان بإمكانك أيضاً أن تدخل إلى المنزل عن طريق الجناح، من الجهة اليمنى- كان هناك ممرّ مرصوف بحجارة ضاربة إلى الحمرة، تكون ملساء جدّاً في الشتاء، وعلى طول هذا الممر نبتت ست أشجار تسمّى باللغة الروسيّة «سيرين» (اللَّيْلَك) ولا أدري ما اسمها باللغة العبرية ولعلها أصلا غير موجودة هنا في بلادنا؟ لهذه الأشجار توجد أحياناً أزهار أرجوانية صغيرة وهي ذات رائحة عطرة مدهشة حيث كنا نتعمّد الوقوف عندها نستنشق عطرها عميقا عميقا إلى رئاتنا حتى إننا كنا أحياناً نحلّق من شدة هذه الرائحة، وكنا فجأة نبدأ نشاهد، بسببه، على أعيننا أنواعا مختلفة من الدوائر الملوّنة تتراكض بألوانها المتنوعة الّتي لا اسم لها. بشكل عام، أنا اعتقد أنَّهُ توجد ألوان وروائح أكثر بكثير من الكلمات. الممرّ الذي بالقرب من المنزل كان يقودك إلى ست درجات بواسطتها تصعد إلى شرفة مدخل صغيرة مفتوحة عليها يوجد مقعد: مقعد الحب، هكذا كانوا يسمونه عندنا، بسبب شيء ما ليس جميلا نوعا ما لم يريدوا أن يحكوه لنا ولكننا عرفنا أنّ له علاقة بالخدم. من هذه الشرفة يفتح باب المدخل للخدم، والذي كان يسمّى عندنا تشورني خود- أي المدخل الأسود.

إذا لم تدخل إلى المنزل من البوابة الرئيسة ولا من المدخل الأسود، بإمكانك أن تتابع السير إلى الأمام مع الممرّ الذي يحيط بالبيت حتى تصل الحديقة. الّتي كانت حديقة عملاقة: تمتد على الأقلّ من هنا من شارع فايْزِل وحتى شارع ديزنغوف. أو حتى مثل من هنا وحتى شارع ابِنْ يِهودا. في وسط الحديقة كانت جادّة على جانبيها عدد كبير من الأشجار المثمرة:

البرقوق من جميع الأصناف، شجرتي كرز كانت ازهارهما تشبه فستان الزفاف ومن ثمارهما كانوا يصنعون الفيشينياك (ليكر الكرز) والبيروشكي. تفاح ريناتا وبوبيروفكي وكذلك الجروشي- إجّاص ريّان وضخم، إجّاص بونتوفكي والتي كان الشباب يسمونها بأسماء ليس من اللائق أن نعود عليها. من الجهة الآخرة كانت أيضاً أشجار مثمرة: الخوخ الريّان -كثير العُصارة- ومزيد من التفاح الذي يشبه «لا مثيل له»، وإجّاص أخضر صغير سماها أيضاً الشباب أسماء كتلك الّتي كنا نحن البنات بمجرّد سماعها نضع كلتا يدينا على أذنينا بكل قوّتنا ولا نصغي إلى أيّ كلمة منها بأي حال من الأحوال. وكان هناك البرقوق الحلو- الحامض وبرقوق طويل لصنع المربّى، وكانت بين الأشجار المثمرة أيضاً شجيرات عُلّيْق وتوت وحَرشَف وزَعرور. ما هو الحرشف؟ هل تعرف؟ لا؟ الحرشف هو ما كنا نسميه عندنا تسينارا. وكان عندنا نوع خاصّ من التفاح للشتاء، تفاح أخضر صلب كنا نضعه تحت القشّ على التشيرداك - أهو يشبه السدّة؟- حتى تنضج هناك ببطء وتصبح ناضجة في الشتاء فقط، كما كنا نضع هناك الإجّاص حيث كنا نلفّه بالقش، ليبقى هناك عدة أسابيع ولا يستيقظ إلا بحلول الشتاء وهكذا توفّرت لنا الفواكه اللذيذة طوال أيام الشتاء، في حين لم يتوفر لغيرنا إلا البطاطا وحتى هذه لم تتوفر لهم دائماً. كان بابا يقول بأن الغنى خطيئة والفقر هو عقوبة ولكن يبدو أن الله يريد ألا تكون أيّ صلة بين الخطيئة والعقاب. الأول يخطئ والآخر يعاقَب. هذا هو شأن العالم.

*

لقد كان بابا، أي جدُك، شيوعيّاً تقريبا. لقد كان دائما يترك والده، الجدّ إفْرايِم، يأكل بالسّكين والشوكة مع فوطة بيضاء، بجانب الطاولة في مكتب المطحنة. بابا نفسه كان يجلس دائماً مع عمّاله، في الأسفل، بالقرب من فرن الحطب، وكان يأكل معهم بيديه خبز الشوفان مع الفسيخ ومع قطعة بصل بالملح وحبة بطاطا مع قشرتها. على ورقة جريدة مفروشة على أرض الغرفة كانوا يأكلون هذه الأشياء وينزّلونها مع جرعة فودكا صغيرة. في كلّ عيد أو وقفة عيد كان بابا يعطي كلّ واحد من العمال كيس طحين وزجاجة

خمر وعدة روبِلات. وكان يشير إلى المطحنة ويقول لهم- هذه ليست لي، أنّها لنا! لقد كان جدُّك، مثل فيلْهِلْم تيل في مسرحية الأديب الألماني فريدريخ شيلر الّتي تحمل اسمه، ذلك الرئيس الاشتراكي الذي كان يشرب دائماً الخمر من كأس واحدة مع أبسط الجنود.

وبكل تأكيد، لهذا السبب في السنة التاسعة عشرة، عندما دخل الشيوعيّون إلى المدينة وأوقفوا إلى جانب الحائط جميع الرأسماليين وأصحاب الشركات والمصانع، عندها فتح عمال بابا غطاء تلك الماكنة الكبيرة، الّتي لم أعد أذكر كيف كانوا يسمّونها، المحرّك الرئيسيّ الذي كان يمدّ أحجار الرّحى بالقوة لتطحن القمح، وخبّؤوه في الداخل ثمّ اختاروا وفدا عنهم إلى البوفودير الأحمر وقالوا له أصغِ إلينا جيدا من فضلك، أيها الرّفيق الحاكم، جيرتس ييفريموفيتش موسْمَن - لا تمسّوا منه حتى شعرة واحدة! هيرْتْس موسْمَن - أون ناش بَتْكا! والتي تعني باللغة الأوكرانية: هو أبونا!

وفعلا لقد قامت السلطة السوفييتية في روفْنو بأخذ جدّك وعملت منه أوبْرَفْلَيوشي- مديرا- للمطحنة، ولم يمسّوا صلاحياته، بل على العكس، لقد جاؤوا وقالوا له هكذا: الرفيق موسْمَن العزيز، أصْغِ من فضلك، من اليوم فصاعداً- إذا ظهر عندك بالصدفة أيّ عامل كسول أو مخرب في العمل، سَبوتَجْنيك، ما عليك إلا أن تشير لنا عليه بإصبعك ونحن فوراً نوقفه بجانب الحائط. إلا أن جدّك عمل على العكس، بالطبع: فقد كان يدافع بالمكر وطرق الاحتيال المختلفة عن عمّاله ليحميهم من هذه السلطة العمّالية. وفي الوقت نفسه زوّد بالطّحين جميع أفراد الجيش الأحمر في منطقتنا.

ذات مرّة حدثت تلك الحادثة، حيث تسلّم الحاكم السّوفييتي على ما يبدو شحنة كبيرة جدّاً من القمح المتعفّن تماما، وذهل جدّاً، إذ مباشرة وفورا في هذه الحالة كان بإمكانه أن يوقفه بجانب الحائط، ما هذا؟ لماذا استلم دون أن يفحص؟ وماذا فعل الحاكم لكي يحافظ على عنقه؟ في ساعة متأخرة من الليل أمر بإنزال الشحنة بالقرب من مطحنة بابا وأرسل إليه تعليمات- أوامر- أن يعمل من هذه الشحنة الطحين بشكل مستعجل حتى الخامسة صباحا.

قام بابا وعماله في الظلام حتى دون أن ينتبهوا إلى كون القمح متعفنا

تماما بطحن الشحنة كاملة، ظلوا يطحنون طوال الليل، وفي الصباح نتج عندهم طحين نتن مع الكثير من الديدان البنيّة. أدرك بابا على الفور بأن هذا الطحين - والآن المسؤولية هي مسؤوليته، والآن ليس أمامه إلا أن يتحمّل المسؤولية أو أن يتهم دون أيّ إثباتات الحاكم السوفييتي الذي أرسل إليه القمح الفاسد: أيّ الخيارين سيضعه أمام فرقة قناصة.

وماذا كان بإمكانه أن يفعل أيضاً ؟ أن يلقي التهمة على عماله؟ ولكنه بكل بساطة رمى جميع الشحنة الفاسدة مع ما فيها من ديدان وبدلا منها اخرج من مخازنه مئة وخمسين كيسا من أجود أنواع الطحين ليس من طحين الجيش بل طحينا أبيض طحينا للكعك والخبز الفاخر المضفور، وفي الصباح وبدون أن ينبس ببنت شفة قدّم هذا الطّحين إلى الحاكم. كذلك الحاكم لم ينبس ببنت شفة مع أنَّهُ في داخله ربما شعر بالخجل لأنَّهُ حاول أن يلقي العقوبة على جدّك. ولكن أيّ خيار بقي أمامه؟ إذ أن لينين وستالين لم يقبلا بالمرة أن يسمعا من أحد أيّ تبرير أو تفسير أو اعتذار: كانا فوراً يوقفان بجانب الحائط ويطلقان النار.

بالطّبع أدرك الحاكم بأن ما يقدمه بابا له هو بكل تأكيد ليس طحينه الفاسد وأن بابا عمليا أنقذ بذلك على حسابه الخاصّ عنقيهما، عنقه نفسه وعنق الجنرال. وبهذه الطريقة أنقذ أيضاً عماله.

*

لهذه القصة توجد تتمّة: لبابا كان أخ اسمه ميخائيل، ولحسن حظّه كان أصمّ مثل الرّب. أقول لحسن حظّه لأنَّهُ كان للعم ميخائيل زوجة فظيعة شريرة في صوتها بحّة، اسمها راحيل، كانت تصرخ به وتسبّه طوال النهار والليل، ولكنه لم يسمع شيئا: يعيش حياته في صمت وسكينة مثل القمر في السماء.

طوال السنين كان ميخائيل يتسكّع عندنا في مطحنة بابا ولا يقوم بأي عمل، يشرب الشّاي مع الجدّ إفْرايم في غرفة المكتب ويحكّ جلدَه، في حين دفع له بابا راتباً شهريا محترما جدّاً. في أحد الأيام بعد عدة أسابيع من حادثة القمح المعفّن، أخذ السوفييتيون فجأة ميخائيل وجنّدوه للجيش الأحمر. ولكن ميخائيل رأى فجأة، في تلك الليلة، حايا أمه في المنام وهي

تقول له في الحلم أسرع يا بنيّ واهرب لأنَّهُم غدا ينوون قتلك. ولذلك استيقظ مبكرا في الصباح وهرب من القاعدة العسكرية كمن يهرب من حريق: ديزيرتير، رَسْتَرَلْكي، أي آبِق. لكن الحمر - القوا القبض عليه فوراً وحاكَموه في نفس اليوم محاكمة عسكرية وأمروا بتوقيفه بجانب الحائط. بالضبط كما حذرته أمّه في المنام! إلا أنّها في الحلم نسيت ببساطة أن تقول له عكس ذلك أي ألاّ يهرب وألا يهجر وحدته!

جاء بابا إلى الساحة كي يودّع أخاه، لم يكن ما يمكن عمله، وإذا هناك في وسط الساحة والجنود قد تجهّزوا بوضع الرصاص في البنادق استعدادا لإطلاق النار على ميخائيل، فجأة الحاكم من قصة القمح الفاسد يتوجّه إلى المحكوم عليه بالإعدام: قل لي من فضلك، تي بْرات لجيرتس ييفْريموفيتش ؟ أي أنت ربما أخو هيرْتْس ابن إفْرايم؟ أجاب ميخائيل: دا (نعم) أيها الرفيق الجنرال! عندها توجّه الحاكم إلى بابا سائلا: هل هذا أخوك؟ فيجيبه بابا أيضاً: نعم نعم، أيها الرفيق الجنرال! أخي بكل تأكيد أخي! وهذا الجنرال يستدير ببساطة ويقول للعم ميخائيل: أيدي داموي، باشول! اذهب إلى البيت! انطلق فوراً! وينحني قليلا باتجاه بابا كيلا يسمعوه، ثمّ قال له هامسا: «ما قولك، جيرتس ييفْريمِتش؟ ظننت أنّك وحدك تعرف كيف تحول الغائط إلى ذهب نقيّ؟»

*

كان جدّك في قلبه شيوعيّاً، ولكن ليس بُلْشُفِيّاً أحمر. كان ستالين في نظرة دائماً مثل إيفان فظيع آخر. لقد كان كيف نقول ذلك، شيوعيا مسالما، نرودنيك، شيوعيا تولستويّاً يعارض سفك الدماء. كان يخاف كثيرا الشّر الذي يختبئ داخل النفس، لدى الرجال من جميع طبقات المجتمع: كان يقول لنا دائماً بأنَّهُ يجب أن تقوم ذات يوم حكومة شعبيّة مشتركة لجميع الشرفاء في العالم. وأنَّهُ يجب قبل كلّ شيء البدء في إلغاء الدول أولا باوّل والجيوش والشرطة السريّة وبعد ذلك فقط يمكن البدء أولا بأول المساواة بين الاغنياء والفقراء: نأخذ الضرائب من هؤلاء لنعطي أولئك، ولكن ليس دفعة واحدة، كيلا يسفك دم كثير، بل بشكل تدريجيّ. كان يقول: مِتْ أرابافاليندیکر،

مُنْحَدَر. ليأخذ حتى سبعة أو ثمانية أجيال، بطريقة لا تجعل الأغنياء يشعرون تقريبا كيف أَنَّهُم رُوَيداً رُوَيداً أصبحوا غير أغنياء جدّاً. الأهم حسب رأيه أَنَّهُ يجب أن نبدأ أخيرا في إقناع العالم بأن الظلم والإجحاف هما مرض الإنسانية والعدل هو العلاج الوحيد: صحيح أَنَّهُ دواء مرّ، هكذا كان يقول لنا دائماً، دواء خطير، دواء نحتاج إلى ابتلاعه نقطة - نقطة حتى يتعوّد الجسم عليه. ومن يحاول أن يبتلع الدواء دفعة واحدة يسبب كارثة وإلى سفك أَنْهار من الدماء: انظروا فقط ماذا فعل لينين وستالين لروسيا وللعالم أجمع! صحيح جدّاً، بأنّ الوول ستريت هو مصاص لدم العالم، ولكن ماذا؟ إذ أنّك بواسطة سفك الدماء لا تطرد مصاص الدماء بل على العكس فأنت بذلك تقويه وتنمّيه، إذ أنّك تطعمه وتسقيه بمزيد من الدم النّقي!

مصيبتنا مع تروتسكي ومع لينين وستالين وزملائهم، هكذا اعتقد جدّك، بأَنَّهُم حاولوا فوراً وبشكل مباشر أن ينظّموا كلّ الحياة بموجب الكتب، كتب ماركس وانجلس وغيرهما من الحكماء الكبار الذين ربما عرفوا جيدا جدّاً المكتبات ولكن لم يكن لديهم أيّ فكرة عن الحياة. ليس عن قسوة القلب ولا عن الحسد ولا عن الشُّحّ ولا عن الشرّ ولا عن الشّماتة. لا يمكن بأي شكل من الأشكال تنظيم الحياة بموجب كتاب! أيّ كتاب! لا بموجب كتاب الفقه «شُلحان عَروخ»، ولا بموجب يسوع المسيح ولا بموجب بيان ماركس! غير ممكن أبداً! بشكل عام، كان يقول لنا دائماً، من المفضل أن ننظم أقلّ وأن يساعد أكثر الواحد منا الآخر، وحتى من المحبّذ أن نرحم بعضنا ولو قليلا. جدّك كان مؤمنا بشيئين: بالرّحمة والعدل، ديرْباريمين أونْ جيريخْتيكايْتْ. ولكنه كان يعتقد بأننا ملزمون دائماً بالرّبط بين كلّ منهما: عدل بلا رحمة هو مَسْلَخ وليس عدلا، ومن جهة أخرى، رحمة بلا عدل، ربما لاءم هذا يسوع المسيح، ولكنه لا يلائم الناس البسطاء الذين أكلوا من تفاحة السّوء. هكذا كانت وجهة نظره: ننظم أقلّ ونشفق أكثر.

*

مقابل «المدخل الأسود»، التشُوزْني خود، نمت عندنا شجرة كَسْتَنَاء رائعة، شجرة معمّرة فخمة والتي تبدو مثل الملك لير، وقد أمر بابا بتركيب

مقعد تحتها لنا نحن البنات الثلاث- «مقعد الأخوات»، كانوا يسمونه. في الأيام الجميلة كنا نجلس هناك ونحلم بصوت مرتفع، ماذا سنصبح عندما نكبر؟ من منا ستصبح مهندسة ومن ستصبح شاعرة ومن ستصبح مكتشفة ذائعة الصيت مثل ماري كوري؟ بهذه الأمور كنا نحلم. لم نكن نحلم، مثل جميع البنات في مثل سنّنا، بـ«عرسان» أثرياء وقورين إذ أننا كنا بنات أثرياء ولم يجذبنا الزواج مع أغنياء يكونون أكثر منّا ثراءً.

وإذا حدث وتحدّثنا عن الحبّ فلم نتحدث عن حبّ نبيل أو حب أيّ ممثّل مشهور بل حب رجال ذوي مشاعر سامية، مثل فنان كبير، حتى وإن كان فقيرا معدما. غير مهمّ. ماذا كنا نعي في تلك الأيام؟ ماذا كان يمكننا أن نعرف كم هم خسيسون وخنازير أولئك الفنانون العظماء؟ ليسوا جميعا! بكل تأكيد ليسوا جميعاً! معاذ الله ليسوا جميعا! إلا أنّني الآن أفكر بأن المشاعر السامية وما شابه ليست هي بالذات الأساس في الحياة. قطعا لا. المشاعر ما هي إلا نار في حقل قشّ: يشتعل للحظة وبعد لحظة يبقى مجرد سخام ورماد. هل تعرف ما هو الأساس؟ ما الذي يجب على المرأة أن تبحث عنه عند رجلها؟ عليها أن تبحث وبالذات عن صفة ليست مدهشة جدّاً جدّاً ولكنها أندر من الذهب: النزاهة. وربما طيبة القلب أيضاً. حاليا، ليكن معلوما لديك، النزاهة في نظري هي أهم من طيبة القلب: النزاهة هي قطعة الخبز وطيبة القلب هي الزبدة أو العسل.

*

في البستان، وسط الجادّة، كان هناك مقعدان، الواحد مقابل الآخر، وكان الذهاب إلى هناك جيدا عندما تكون في حالة تدعوك إلى العزلة مع نفسك والتفكير أثناء الصمت والهدوء بين تغريد العصافير همسات الرياح الّتي كانت تتهامس مع أغصان الأشجار.

في الجهة السفلى في أقصى القسيمة كان هناك كُشْكٌ صغير كنا نسميه أوفيتسينا وفيه: في الغرفة الأولى مرجل أسود كبير لغلي الغسيل. كنا نلعب هناك وكأننا أسيرات في بيت الساحرة السيّئة بابا - ياجا الّتي تطبخ الأولاد في المرجل. بعد هذه الغرفة كانت غرفة صغيرة أخرى خلفيّة سكن فيها

الستوروج- حارس الحديقة. خلف هذه الأوفيتسينا كانت زريبتنا وفيها وقفت مركبة خفيفة وعربة بابا وكذلك حصان كبير بلون الكَسْتَنَاء كان يعيش هناك. وفي الجانب كانت تنتظر هناك عربة شتويّة كان لها نصلان من الحديد بدلا من العجلات، وكان فيليب الحوذيّ أو أنْطون ابنه ينقلاننا فيها إلى المدرسة أيام الجليد والثلج. أحياناً كان يركب معنا حيمي ابن الثريّين ابن روخا وآريه ليبف بيسيوك. كان البيسيوكيون يصنعون المسكرات والخمائر لجميع المنطقة. كان لهم مصنع كبير جدّاً، أداره جدّ حيمي هيرْتْس مئير بيسيوك. كانت عائلة بيسيوك تستضيف دائماً الشخصيات المرموقة والمشهورة الّتي تزور روفْنو، بياليك، جابوتِنْسْكي، تْشرنِيحوفْسْكي. أعتقد أن هذا الصبيّ حيمي بيسيوك، كان الحب الأول لامّك. كانت فانْيا ربما في الثالثة عشرة، أو الخامسة عشرة، وكانت ترغب دائماً في السفر في العربة أو في المِزلَجَة مع حيمي ولكن بدوني، وأنا كنت أتعمّد أن أحشر نفسي بينهما، ربما كنت يومئذ في التاسعة أو العاشرة من عمري، لم أدعهما ينفردان ببعضهما، كنت صغيرة - غبيّة. هكذا في حينه كانوا يسمّونني عندنا. عندما كنت أحبّ أن أثير غضب فانْيا، كنت اسمّيها أمام الجميع حيموتشكا وهو اسم اشتققته من حيمي. نحميا. حيمي بيسيوك سافر ليدرس في باريس وهناك قتله الألمان.

بابا، أيْ جدّك، أحب الحوذيّ فيليب، فقد أحبّ كثيرا الخيول، حتى أنَّهُ أحبّ أيضاً الحداد الذي كان يشحّم له بين الحين والآخر محاور العربة، ولكن ماذا؟ هناك شيء واحد فقط لم يحبّه إطلاقا، وذلك أن يسافر في العربة وهو ملتفّ بمعطف فرو مع ياقة من جلد الثعلب مثل نبيل بولندي خلف حوذيِّه الأوكرانيّ، هذا الشيء بالذات لم يحبه جدك إطلاقا وفي هذه الحالة كان يفضل عليها الذهاب مشيا على الأقدام. فهو لم يستمتع بكونه نبيلا ثريّاً. في العربة أو في الأريكة، بين البوفيهات وتحت هذه الثريّات من الكريستال، دائماً تقريبا كان يشعر بأنَّهُ ممثل هزليّ.

بعد مرور سنوات كثيرة، عندما ضاعت منه كلّ أملاكه وعندما جاء إلى البلاد تقريبا صفر اليدين اعتقد ساعتها بأن ذلك ليس فظيعا بالمرة. الأملاك لم تكن هي الّتي يفتقدها، بل على العكس: كأنما شعر بنوع من الارتياح

نوعا ما. إطلاقا لم يكن متضايقا من الفانِلّة الرماديّة، يتصبّب عرقا تحت أشعة الشمس، وكيس طحين يزن ثلاثين كيلوغراما على ظهره. ماما وحدها الّتي عانت عناء فظيعا، شتمت، كانت تصرخ عليه وتُهينه، ما هذا؟ لماذا هكذا هبط من عليائه؟! أين الأرائك وأين أواني وثريّات الكريستال؟! لماذا في هذه السنّ يجب عليها أن تعيش عيشة الموجيك مثل الحوحولكا بدون طبّاخة وبدون مُزَيِّنة شَعْر وبدون خيّاطة؟! متى سيتمالك نفسه أخيرا ويقيم هنا في حيفا مطحنة قمح جديدة، بحيث نعود من جديد إلى غابر مجدنا؟ مثل زوجة الصّياد المعروفة في الحكايات، هكذا كانت ماما، ولكنني قد غفرت لها كلّ شيء. وأرجو أن يغفر الله لها أيضاً. وسيكون هناك الكثير مما يحتاج إلى أن يغفر لها عنه! وليغفر الله لي أيضاً لأنَّني أتحدث عنها بهذه اللهجة، لتنم قريرة العين في قبرها. لتنم هادئة قريرة العين في قبرها ليس كما لم تترك لبابا لحظة واحدة هادئة قريرة العين في حياته. عاشا مَعاً في البلاد أربعين سنة وطوال هذه السنوات سوّدت عليه عيشته صباح مساء. لقد وجدا لهما في حقل أشواك متروك خلف كريات موتسكين ما يشبه السّقيفة متواضعة هزيلة مكونة من غرفة واحدة بدون ماء وبدون منافع، مغطاة بورق زفت- هل ما زلت تذكر سقيفة بابا وماما؟ نعم؟ الحنفية الوحيدة الّتي كانت هناك كانت في الخارج بين الأشواك، كانت المياه مخلوطة بالصدأ والمنافع كانت عبارة عن فتحة في الأرض داخل تخشيبة من الألواح الخشبية الّتي بناها بابا بنفسه من الخلف.

ربما لم تكن ماما مذنبة إلى حدّ كبير في أنَّها سوّدت له معيشته؟ إذ أنَّها كانت هناك تعيسة جدّاً. فظيع! عمليّاً، كانت امرأة تعيسة. هكذا ولدت: تعيسة. مع الثريات وأواني الكريستال كانت تعيسة إلى حدّ ما. ولكنها كانت تعيسة من النوع الذي يرى نفسه ملزما بإتعاس الآخرين هكذا كان حظ جدّك.

بمجرد وصول بابا إلى البلاد فوراً وجد لنفسه عملا في حيفا، في فرن للخبز. بعد ذلك اشتغل حوذيّاً في خليج حيفا: لاحظوا هناك بأنَّهُ يفهم في القمح، والطحين، والخبز، لذلك لم يشغلوه في الطّحن أو الخَبْز بل في نقل أكياس الطحين وتوزيع الخبز في عربته مع الحصان. بعد ذلك اشتغل سنوات

كثيرة لصالح مَسْبَك الحديد «فولكان» حيث كلفوه بنقل أنواع مختلفة من حديد البناء الطويل المستدير.

أحياناً كان يأخذك معه في عربته في طرقات خليج حيفا. هل ما زلت تذكر ذلك؟ نعم؟ في شيخوخته اعتاش جدّك من عمله طوال النهار في نقل السقالات وهي ألواح خشبية عريضة تستخدم في أعمال البناء. أو في نقل الرمل من شاطئ البحر للعمارات الجديدة.

أنا ما زلت أذكرك جيدا وأنت تجلس بجانبه، ضئيل، نحيف متوتر مثل مطاطة، كان بابا يعطيك لتمسك برَسَن الحصان. أنا ما زلت أرى هذه الصورة ماثلةً أمام ناظريّ: لقد كنت أنت ولدا أبيض شاحبا مثل قطعة ورق وكان جدك بالذات مَسْفوعاً جدّاً دائماً، قويّاً، حتى في سن سبعين سنة كان ما زال قويّاً، قمحيّاً مثل هندي، مثل أمير هنديّ، مَهَراجا بعيون زرقاء يتطاير منها بريق الابتسامة. وأنت كنت تجلس على مقعد - خشبة الحوذيّ بفانيلّة بيضاء صغيرة، وهو بجانبك بفانيلّة عمل رمادية مبللة بالعرق. لقد كان راضيا، قانعا بنصيبه، لقد أحبّ الشّمس والعمل الجسمانيّ، لقد كان مستمتعا بعمله كحوذيّ، طوال حياته كانت له وجهات نظر بروليتارية، وفي حيفا أحسّ بالذات إحساسا جيدا بأن عاد ليصبح بروليتار، كما كان في بداية طريقه، عندما كان مجرد مساعد مهني في محافظة فيلخوف. ربما كحوذيّ كان يستمتع بالحياة أكثر مما استمتع منها عندما كان ثريّاً صاحب مطاحن واملاك في روفْنو. وأنت كنت ولدا جدّيّاً، ولداً غيرَ ملائم لأشعة الشمس، ولدا جدّيّاً أكثر مما ينبغي، ابن سبع أو ثماني سنوات متوتّراً كلّك وأنت جالس على مقعد الحوذيّ بجانبه، تخاف من الرّسَن وتعاني من الذباب وحرارة الشّمس وتخاف قليلا من جَلْد ذيل الحصان. ولكن ماذا؟ كنت تتمالك نفسك بشجاعة ولا تئن ولا تشكو. أتذكر ذلك وكأنّهُ يحدث اليوم أمامي. الفانيلّة الكبيرة الرماديّة والفانيلّة البيضاء الصغيرة: وأنا فكرت في حينه بيني وبين نفسي بأنك بكل تأكيد ستكون كُلاوْزْنِريّاً أكثر منك موسْمَنيّاً. أما الآن فلم أعُد متأكّدةً.

٢٣

أذكر أننا كُنّا نتناقش كثيراً مع صديقاتنا ومع الشباب ومع المعلمين في المدرسة الثّانوِيّة وكذلك في البيت بيننا حول مواضيع مثل ما هو العدل، ما هو المصير، ما هو الجمال، ما الرّبّ؟ مثل هذه النقاشات في جيلنا كانت منتشرة جدّاً جدّاً أكثر من انتشارها اليوم. تناقشنا أيضاً حول أرض إسرائيل وعن ضياع الهوية وعن الأحزاب والأدب والاشتراكيّة وعن أمراض الشعب اليهودي. وبالذات تناقشت حايا وفانْيا مع صديقاتهما وأصدقائهما. كانت مشاركتي في هذه النقاشات أقلّ لأنّني كنت الأخت الصّغرى، وكانوا يقولون لي دائماً: أنت أصغي فقط. كانت حايا مرشدة رئيسية جدّاً أو سكرتيرة، في تنظيم الشبيبة الصّهيونيّة. أمّا أمّك فكانت في «هَشّومير هتْسَعير» وكذلك أنا - بعدها بثلاث سنوات- ذهبت إلى «هَشّومير هتْسَعير». عندكم في عائلة كْلاوْزْنر كان من الأفضل عدم ذكر «هَشّومير هتْسَعير» إطلاقا. أراد أفراد عائلة كلاوْزنر حتى أن لا تسمع أنت هذه الكلمة، «هَشّومير هتْسَعير»، لأنّهُم خافوا كثيرا جدّاً من أنّك من الممكن أن تصطبغ ولو قليلا باللون الأحمر.

ذات مرّة، ربما كان ذلك في الشتاء، في عيد الحانوكا (الأنوار) كنا نتناقش نقاشا طويلا استمر بشكل متقطع عدة أسابيع حول الوراثة مقابل الإرادة الحرّة. إنّني أذكر وكان الأمر كان اليوم، أنّهُ صدرت عن أمّك فجأة جملة كهذه، جملة غريبة كهذه أننا إذا فتحنا لأي إنسان رأسه وأخرجنا منه دماغه فعندها سنرى فوراً بأن دماغنا ما هو إلا رأس قرنبيط. حتى أن دماغ شوبين أو دماغ شكسبير هو ليس إلا رأس قرنبيط.

أنا لم أعد أتذكّر في أيّ سياق قالت ذلك فانْيا، ولكنني أتذكّر أننا ضحكنا كثيرا جدّاً، ولم نتمكن من التوقّف عن الضّحك، هطلت الدموع من عينيّ من شدة الضّحك، أما هي فلم تبتسم حتى. لفانْيا كانت أحياناً عادة أن تقول بكل جِدّيّة شيئا ما يُضحك الجميع، وقد عرفت بأنَّهُم سيضحكون، ولكنّها لم تكن تنضمّ إلى الضَّحك الذي دفعت الجميع إليه. كانت فانْيا تضحك في الحالات الّتي تناسبها، لوحدها، ليس مع الجميع، بل كانت تضحك بالذات عندما لم يتوقع أحد أنه فيما يتحدّثون عنه ما يدعو إلى الضحك- في هذه الحالات بالذات كانت أمّك تنفجر فجأة بالضحك. صحيح أن ذلك كان نادرا جدّاً عندها. ولكن عندما كانت فانْيا تضحك من شيء معيّن، كنا جميعا فوراً فجأة نرى دفعة واحدة ما الذي أضحكها إلى هذا الحدّ، وكل من كان في الغرفة، كلنا كنا نبدأ بالضحك معها.

ما هو إلا رأس قرنبيط كهذا، قالت وبين يديها أظهرت لنا حجم رأس القرنبيط، ويا للعجب، تابعت قائلة- إلى هذا القرنبيط تدخل السماوات والأرض والشّمس وجميع الكواكب تدخل أفكار أفلاطون وموسيقى بيتهوفن والثورة الفرنسية وروايات تولستوي وجحيم دانتي وجميع الصحاري وكلّ المحيطات، لجميع الدّيناصورات والحيتان يوجد فيه مكان، الجميع يدخل بسهولة إلى قلب هذا القرنبيط، وكذلك آمال الإنسانيّة والطموحات والأخطاء والفانتازيا، للجميع يوجد مكان هناك، وحتى تلك الجُسْأة المنتفخة مع الشعرات السود التي تنبت على ذقن باشكا دوراشكا. في اللحظة الّتي فيها ضمت فانْيا فجأة جُسْأة باشكا دوراشكا المثيرة للاشمئزاز بالضبط بين أفلاطون وبيتهوفن عدنا جميعا وبدأنا نتلوى من شدّة الضحك، باستثناء أمّك الّتي اكتفت بالنظر إلينا جميعا بدهشة وذهول وكأن المضحك هو نحن وليس قرنبيطها.

*

بعد ذلك كتبت لي فانْيا رسالة فلسفيّة من مدينة براغ، كنت وقتها ربما في السادسة عشرة وكانت هي قد أصبحت طالبة جامعيّة في التاسعة عشرة، كانت تكتب لي في رسائلها ربما أكثر مما ينبغي من أعلى إلى أسفل، لأنّني

دائماً أُعتبَر الصغيرة- الغبيّة، ولكنني ما زلت اذكر أن تلك كانت رسالة طويلة جدّاً ومفصّلة تتعلق بالوراثة مقابل البيئة ومقابل حريّة الإرادة.

الآن ربما أحاول أن احكي لك، ولكن سيكون هذا بالطبع بلغتي وليس بلغة فانْيا: ما كانت أختي فانْيا تستطيع التعبير عنه بالكلمات لا أعرف عددا كبيرا من الناس يستطيعون التعبير عنه. كتبت إليّ فانْيا كما يلي تقريبا: الوراثة والبيئة اللتان ربيتانا وكذلك الطبقة الاجتماعية، كلّ هذه هي مثل أوراق اللعب الّتي توزّع على اللاعبين بشكل عشوائيّ قبل بداية اللعب. في هذا الأمر لا توجد حرية اختيار: العالم يعطي وأنت بكل بساطة تأخذ ما يعطى لك، دون أيّ إمكانية اختيار. ولكن، هكذا كتبت لي أمُّك من مدينة براغ، والسؤال هو ماذا يفعل كلّ شخص بالأوراق الّتي وزِّعَت عليه؟ هناك من يلعب بشكل رائع ومدهش مع أوراق ليست جيدة إلى درجة كبيرة، وهناك من هو على النقيض - أيّ يضيّع كلّ شيء ويخسر حتى وإن كانت أوراقه رائعة! وهذه هي كلّ حريّتنا: حرية اللعب بالأوراق الّتي وُزّعَت علينا. ولكن حتى الحرية في طريقة اللعب، كتبت فانْيا تقول، متعلّقة بشكل مثير للسخرية بنصيب كلّ واحد وبصبره، وفهمه وسرعة بديهته وجسارته. وهذه كلها ما هي في نهاية الأمر إلا أوراق لعب توزّع علينا أو لا توزّع علينا قبل اللعب دون أخذ رأينا؟ وإذا كان الأمر كذلك، إذن ما هو الشيء الذي يبقى لنا بمثابة حرية اختيار؟

ليس الكثير، كتبت أمُّك، ليس الكثير، ربما كلّ ما بقي لنا هو فقط الحرية في الضّحك من وضعنا أو الحداد عليه، الاشتراك في اللعبة أو الخروج منها، أن نحاول أن نفهم تقريبا ماذا يوجد وماذا لا يوجد أو أن نتنازل ولا نحاول أن نفهم، وباختصار- الخيار هو بين أن نقضي هذه الحياة يقظين واعين أو تحت وطأة نوع من النعاس. هذه تقريبا أقوال فانْيا أمّك، ولكن بكلماتي أنا. لا بكلماتها. بكلماتها أنا لست قادرة.

*

ما دمنا نتحدّث عن القضاء والقدر مقابل حرية الاختيار، وما دمنا نتحدث عن أوراق اللعب فأَنَّهُ توجد في جعبتي قصة احكيها لك: لفيليب، الحوذيّ، حوذي عائلة موسْمَن الأوكراني كان ابن داكن اللون، جميل

الوجه، اسمه أنْطون: عينان لامعتان مثل ماستين سوداوين، وفم يغور قليلا نحو الأسفل في زاويتيه، يغور هكذا وكأنَّهُ من الاحتقار والقوة، كتفان عريضتان جدّاً، صوته جهير، مثل صوت الثور، الزجاج كان يرنّ في خزانة الأدراج عندما أنْطون يرعد بصوته. في كلّ مرّة عندما كانت فتاة تقابله في الشارع، كان أنْطون هذا يسير باتجاهها دائماً ببطء أكثر أما الفتاة فقد كانت وعن غير قصد، تمشي بسرعة أكبر وكانت تتنفّس أيضاً بسرعة أكبر. أتذكر كيف أننا كنّا نسخر من بعضنا نحن الأخوات والصديقات أيضاً، كيف كانت الواحدة منا

ترتب القميص استعدادا لملاقاة أنْطون؟ ومن كانت تضع زهرة في شعرها من أجل أنْطون؟ ومن من أجل أنْطون خرجت تتجوّل في الشارع بتنورة ذات ثنيات منشّاة وجوارب قصيرة بيضاء مثل الثّلج؟

بجوارنا في شارع دوبْيينْسْكا كان يسكن المهندس سْتيليتْشْكي، ابن أخ الأميرة رافْزوفا الّتي سُلّم لها جدّك وهو ابن اثنتي عشرة سنة للعمل عندها. كان ذلك نفس المهندس التعيس الذي أقام المطحنة، ذلك الذي في البداية اشتغل بابا عنده عاملا ثمّ أصبح مديرا للمطحنة وفي النهاية اشتراها منه. ما زلت أذكر بالضبط اسمه الكامل، مع السادة، المهندس قُنْسْطَنْطين سميونوفيتش سْتيليتْشْكي. كانت زوجته تسميه إيرا، إيرينا ماتفييِفْنا، وقد قامت في أحد الأيام وتركته مع ولديهما، كان اسما ولديهما: سنيا وكيرا. وهذه المرأة بكل بساطة هربت مع حقيبة زرقاء صغيرة في يدها مباشرة إلى الكوخ المقابل، الكوخ الذي بناه لنفسه أنْطون ابن فيليب الحوذيّ خلف فناء بيتنا، في الخارج، في أقصى الساحة. لا ليست ساحة بل حقلا كانت ترعى فيه الأبقار. صحيح أنَّهُ كان لها عذرها في أن تهرب من زوجها: ربما كان عبقريا نوعا ما - ولكنه عبقريّ سكران، ثرثار، بكّاء، وكان يحدث أكثر من مرّة أنَّهُ كان يخسرها في القمار أيّ أنَّهُ كان يقدّمها في كلّ مرّة لليلة واحدة مقابل مبلغ معيّن، إذا كنت تفهم ما أقصده، كان يقدّمها في الليل لمن غلبه في لعب الورق.

أذكر أنّني مرّة سألت أمّي عن ذلك، ولكنها ذهلت فعلا وشحب وجهها

وقالت لي سونيتْشْكا! ويحكِ! اخجلي من نفسك! وللتو، هل تسمعين؟ ولكن للتّوّ عليك أن تكفّي حتى في التفكير في مثل هذه الأمور غير الجميلة وأن تبدئي في التفكير في الأمور الجميلة فقط! لأنّهُ من المعروف، يا سونيتْشْكا بأن البنت الّتي تفكر حتى بينها وبين نفسها أفكارا غير جميلة فإنّ الشعر يبدأ بالنموّ في أماكن غريبة في جسمها ويبدأ صوتها يتحوّل إلى صوت ثخين وقبيح مثل صوت الرجل وبعدها لن تجدي إلى الأبد من يرغب في الزواج منكِ.

هكذا ربَّوْنا في حينه. ولكن الحقيقة ؟ أنا نفسي لم أرغب إطلاقا في التفكير بأفكار كهذه، أفكار حول امرأة يجب أن تذهب في الليالي كجائزة إلى كوخ قذر، مع شرير سكّير. وأفكار حول مصير نساء كثيرات جدّاً يخسرهن أزواجهن في ألعاب القمار. إذ توجد طرق أخرى يمكن أن تخسر فيها المرأة وليس عن طريق لعب الورق فقط! ولكن ماذا، الأفكار ليست تلفزيونا إذا شوهدت فيه أشياء غير جميلة فإنّك بكل بساطة تضغطين فوراً على الزر وتهربين إلى برنامج آخر! الأفكار غير الجميلة هي أشبه ما تكون بالديدان السيئة داخل القرنبيط!

*

تذكر الخالة سونْيا ايرا سْتيليتْشْكي كامرأة لطيفة، صغيرة الحجم، مع وجه لطيف، وجه مشدوها نوعا ما أو منذهلا: «لقد بدت طوال الوقت وكأنَّها قد أُعلمت في التوّ بأن لينين ينتظرها في ساحة البيت يريد أن يتحدث معها.»

عاشت سونْيا ايرا سْتيليتْشْكي في كوخ أنْطون عدة أشهر وربما نصف سنة، أما زوجها المهندس فلم يسمح للأولاد بأي شكل من الأشكال، بالذهاب إليها وعدم الردّ عليها عندما تحاول أن تتوجّه إليهم، ولكن كان بإمكانهم أن يروها كلّ يوم عن بعد كما استطاعت هي أيضاً أن تراهم. أما الزوج، سْتيليتْشْكي، فقد كان يراها، عن بعد، أمامه، طوال الوقت، عند أنْطون. أحبّ أنْطون أن يحمل إيرا، بعد ولادَتَيْن ما زال جسمها نحيفا وجميلا مثل جسم فتاة في السادسة عشرة. كان أنْطون يحملها على ذراعيه

مثل كلبة صغيرة، يرقّصها هكذا في دوائر، يقذفها إلى أعلى ثمّ يعود ليلقفها، هوب، هوب، هوبا، كانت إيرا تصرخ من شدّة الخوف وتضربه بقبضة يدها الّتي كانت بالكاد تدغدغه. كان أنْطون هذا قويا مثل الثور: بيديه الفارغتين، وبدون الاستعانة بأي شيء، كان يصحّح لنا عريش العربة إذا حدث واعوجّ هذا العريش قليلا. كانت تلك بكل بساطة، كارثة بدون كلمات، في كلّ يوم كانت إيرا ستيليتسكايا ترى أمامها البيت والأولاد والزّوج، وفي كلّ يوم كانوا هم أيضاً يرونها عن بعد.

في أحد الأيام، هذه المرأة التعيسة، الّتي كانت تشرب كثيرا جدّاً، كانت تبدأ الشرب منذ الصباح، في أحد الأيام، اختبأت بكل بساطة عند بوابتهم كامنة لبنتها الصغيرة، كيرا، مع عودتها من المدرسة. أنا بالصدفة كنت هناك في الشارع وشاهدت عن كثب كيف أن كيروتشكا بكل بساطة لم تسمح لأمّها بأن تحملها على ذراعيها، لأنّ الأب لم يسمح بأي نوع من الصلة معها. خافت الصّغيرة من والدها، خافت حتى من أن تتبادل مع أمها بعض الكلمات، دفعت أمّها، وركلتها وصاحت النجدة، حتى سمع صراخها كجيمير كبير خدم المهندس سْتيليتْسْكي، وخرج إلى الدرج. وبدأ يلوّح لها بيديه، هكذا، ويُصدر أصواتاً كمن يطرد دجاجة. لن أنسى أبداً كيف أن إيرا ستيليتسكايا ابتعدت من هناك وهي تبكي، ليس بكاءً صامتاً، لم تبكِ كما تبكي السّيّدات، لا، كانت تبكي مثل أيّة جارية، كانت تبكي مثل «موجيكة» وهي تولول بعويل مفزع، غير بشريّ، مثل عويل كلبة اخذوا منها جروها وقتلوه أمام ناظريها.

يوجد شيء كهذا عند تولستوي، أنت تذكر بلا شك، في «آنا كارنينا» عندما تسلّلت آنا ذات مرّة إلى بيتها، في الوقت الذي كان فيه كارنين يجلس في مكتبه، في الحكومة، نجحت في التسلّل قليلا إلى الداخل إلى البيت الذي كان في أحد الأيام بيتها، وحتى نجحت في أن ترى ابنها للحظة، إلا أن الخدم يقومون بطردها من هناك. إلا أن المشهد عند تولستوي كان أقلّ قسوة مما كان عندنا: عندما هربت إيرينا ماتفييفنا من كبير الخدم كجيمير مرّت في طريقها بالقرب مني تماما، قريبة مني مثلما أنت قريب مني الآن،

فقد كنا جيران، ولكنها لم تلقي عليّ السلام، وأنا سمعت بوضوح عويلها الجريح وشممت رائحة فمها ولاحظت على وجهها أنّها لم تعد سليمة العقل تماما. في نظراتها، وفي بكائها، وفي مشيتها شاهدت بوضوح بشائر الموت.

وبالفعل بعد عدة أسابيع أو أشهر طردها أنْطون أو أنّه ربما لم يطردها بل سافر إلى إحدى القرى وعادت إيرينا إلى البيت راكعة وقفت أمام زوجها، والمهندس سْتيليتْسْكي على ما يبدو أشفق عليها مع كلّ ذلك وتكرّم بقبول عودتها. ولكن ذلك لم يستمرّ مدة طويلة: فقد كانوا يأخذونها بين الحين والآخر إلى المستشفيات، وفي نهاية المطاف جاء مُساعِدو مُمَرِّض وربطوا عينيها ويديها وحمّلوها بالقوّة إلى مستشفى الأمراض العقلية في مدينة كوفيل. ما زلت أذكر عينيها حتى الآن وأنا أتكلم معك عن ذلك أرى عينيها أمامي وهذا غريب إلى حد ما، مرت منذ ذلك الوقت ثمانون سنة تقريبا، فكانت الكارثة ووقعت كلّ الحروب هنا وحلت مصيبتنا، والأمراض، والجميع قد ماتوا وأنا الوحيدة الّتي بقيت على قيد الحياة ومع كلّ ذلك، عيناها حتى الآن ما زالتا تجرحان قلبي وكأنّهُما صنارتا حياكة حادّتان.

*

بعد ذلك، مرات عديدة، عادت إيرا إلى البيت، إلى سْتيليتْسْكي، هدأت، واعتنت قليلا بالأولاد، وحتى زرعت بعض الورود الجديدة في الحديقة، وأطعمت العصافير، والقطط، ولكنها في أحد الأيام هربت مرّة أخرى إلى الغابة، وبعد أن ألقَوْا القبض عليها، أخذت صفيحة نفط ودخلت بها إلى الكوخ الذي بناه أنْطون لنفسه هناك في المرعى، كوخ مكسوّ بورق الزفت، كان أنْطون قد غادره منذ مدة طويلة، وأشعلت عودَ ثقاب وأحرقت الكوخ مع كلّ ما فيه من أسمال بالية وأحرقت نفسها أيضاً. أذكر، كيف أنّهُ في أيام الشتاء، عندما كانت الثلوج الناصعة تغطي كلّ شيء، كيف أن عارضات هذا الكوخ المحروق السوداء ترتفع من قلب الثلج وتشير نحو الغيوم والغابة مثل أصابع متفحّمة.

بعد وقت ما، فقد المهندس سْتيليتْسْكي صوابه، وتصرف كالمعتوه وتزوج ثانية، خسر جميع أمواله وفي نهاية الأمر باع لبابا نصيبه في المطحنة.

أما نصيب كنيجنا (أي الأميرة) رافْزوفا كان جدّك قد نجح في شرائه قبل ذلك. وهو الذي بدأ عندها كصبي مساعد مهنيّ، كان لها مثل الخادم، كان صبيا فقيرا ابن اثنتي عشرة سنة ونصف تيتّم من أمّه وزوجة أبيه طردته من البيت.

الآن انظر فقط إلى نفسك لترى أيّ دوائر غريبة يرسمها لنا القضاء والقدر: أنت أيضاً تيتّمت من أمّك بالضبط وأنت ابن اثنتي عشرة سنة ونصف. مثل جدّك. صحيح أنَّهُم لم يعطوك لأيّ صاحبة عزبة شبه مجنونة. أنت بدلا من ذلك أرسلوك إلى الكيبوتس بمثابة ولد خارجي. لا تعتقد أنَّني لا أعرف معنى ولد خارجي في الكيبوتس: الجنة لم تكن بانتظارك هناك. جدك وهو ابن خمس عشرة سنة أدار للأميرة رافْزوفا المطحنة لوحده تقريبا، وأنت في هذه السن كتبت الشّعر. بعد عدة سنوات أصبحت المطحنة كلها ملك بابا الذي بداخله كان يستهين دائماً بالأملاك. لم يكن يستهين فحسب،بل كان يختنق قليلا. لبابا أي لجدّك كان عناد وخيال، إيثار إلى جانب حكمة وتجربة خاصّة، ولكنه لم يكن محظوظا.

٢٤

حول الحديقة كان لنا سياج من الأعمدة الخشبية الّتي كانوا يدهنونها كلها مرّة في السنة، في فصل الربيع، باللون الأبيض. كذلك دهنوا جذوع الأشجار كلّ سنة باللون الأبيض، من أجل إبعاد الديدان. في السياج كانت هناك كليكتا صغيرة، أيّ خَوْخَة، وعبر هذه الكليكتا كان يمكنك أن تخرج إلى البلاشادكا وهي عبارة عن ساحة. كلّ يوم اثنين من أيام الأسبوع كان يحضر إلى هذه الساحة التسيغانغي، أيْ الغجر. كانت تلك النساء يوقفن هناك عربتهنّ، وهي عربة متعددة الألوان، مزيّنة، مع عجلات كبيرة وكن يرتبن لهنّ على طرف الساحة خيمة واسعة وكبيرة من القماش المشمَّع. نساء غجريات جميلات كنّ يتجوّلن حافيات بين البيوت، يدخلن المطابخ ليفتحن بورق اللعب، وليُنظّفن المراحيض، ويغنّين الأغاني مقابل بعض الملاليم وعندما لا ينتبه إليهن أحد - ليسرقن أيضاً بعض الحاجيات. كنّ يدخلن إلينا من مدخل الخدم، التشُوزني خود الذي حكيت لك عنه، والذي كان جانباً، في الجناح.

ذلك الباب الخلفي كان يؤدي إلى مطبخنا مباشرة، الذي كان عملاقا، أكبر من هذه الشقة كلّها، مع طاولة طعام في وسطه، ومع كراسي لستة عشر شخصا. وفيه هناك غاز مكون من ستة عشر رأساً بأحجام مختلفة، وفيه خزائن مطبخ ذات أبواب صفراء والكثير من الأدوات المصنوعة من الخزف ومن الكريستال. أذكر أنَّهُ كان عندنا صحن كبير جدّاً طويل كان بإمكاننا أن نقدم عليه سمكة كاملة ملفوفة بورق النبات ومحاطة بالرّز والجزر. ماذا حدث

لهذا الصّحن؟ من يدري؟ ربما ما زال حتى يومنا هذا يزيّن خزانة الإدراج في بيت أيّ حوحول سمين؟ وكانت هناك زاوية مع منصّة صغيرة، وُضع عليه كرسيّ هزّاز مع تنجيد مطرّز، وبجانبه كانت طاولة صغيرة مع صينيّة عليها دائماً كأس وفيها منقوع الفواكه الحلو: كان ذلك كرسي العرش الذي لماما أي جدّتك: هناك كانت تجلس أو تقف أحياناً تستند بكلتا يديها على ذراع الكرسيّ مثل قبطان يستند على برج - القيادة، ومن هناك كانت تصدر وتوزّع الأوامر للطبّاخة والخادمة ولكل من دخل المطبخ: منصة ماما هذه كانت دائماً مرتّبة بحيث كانت لها من هناك رؤية مريحة جدّاً إلى اليسار عبر الباب الداخلي إلى الممرّ وإلى المداخل إلى جميع الغرف، ومن جهة اليمين كانت لها نقطة مراقبة عبر الكوّة على جميع مساحة الجناح، على غرفة الطّعام، وعلى غرفة الخادمة، الّتي سكنت فيها كِسانْيا وبنتها الجميلة دورا، بهذه الطريقة كان بإمكانها أن تدير كلّ مواقع القتال من هذا الموقع الذي كانوا يسمّونه عندنا تلة نابليون.

أحياناً كانت ماما تقف هناك وتكسّر البيض في صحن عميق وتجبر حايا فانْيا وتجبرني على بلع صفار البيض النيّء - ذلك الذي يسمّى الزلال؟ - كنا مجبرات على بلع هذا الشيء الأصفر اللّزج بكميات مع أننا كنا نكرهه ونشمئزّ منه، لأنّ الرأي السائد كان بأن صفار البيض يطعمك ضدّ الأمراض. ربما هذا صحيح؟ من يدري؟ الحقيقة إننا كنا قليلا ما نمرض. عن الكولسترول في تلك الأيام لم يسمع أحد. أما فانْيا، أمّك، فقد أجبرتها على أن تبلع أكبر عدد من صفار البيض لأنّها كانت دائماً البنت الأكثر ضعفا والأكثر شحوبا.

من بين ثلاثتنا، عانت أمك أكثر من عانت من أمّنا، الّتي كانت امرأة ضوضائيّة وعسكرية إلى حد ما، مثل فيلدفيبل، مثل كوربورال (عريف). منذ الصباح وحتى المساء كانت تتناول بين الحين والآخر جرعة واحدة من كأس منقوع الفواكه الخاصّ بها، وكانت تأمر وتقرّر وتوزّع التعليمات وتصدر الأوامر. كما كانت لها بعض عادات البخل الّتي كانت تثير غضب بابا كثيرا، كانت مريضة حقّاً بداء البخل، وغالبا ما كان يتقي شرّها ويتنازل لها وهذا كان يغضبنا، تنازله كان يثير غضبنا: كنا دائماً إلى جانبه لأنّ الحقّ كان في جانبه.

كانت ماما تكسو دائماً جميع الفوتيلات (الأرائك) والأثاث الفاخر بشراشف حيث كان صالون بيتنا يبدو وكأنَّهُ مليء بالأرواح الشريرة. كانت ماما تخاف كثيرا من كلّ ذرّة غبار. كان يصيبها كابوس مفزع عندما كان الأولاد يدوسون على الفوتيلات بأحذيتهم القذرة.

كانت ماما تخبّئ أدوات الكريستال طوال الوقت وفقط عند مجيء ضيوف مهمّين أو بمناسبة حلول عيد الفصح أو عيد رأس السّنة كانت تخرجها من مخبئها وترفع الشراشف عن الأثاث في الصالون. لقد كرهنا ذلك كثيرا. وبالذات أمّك الّتي اشمأزّت من هذا النفاق، حيث نحافظ أحياناً على قواعد الحلال والحرام في الطعام ولا نحافظ عليها أحياناً أخرى، نزور الكنيس أحياناً ولا نزوره أحياناً أخرى، أحياناً نتباهى بالغنى وأحْياناً أخرى نغطيه بأكفان بيضاء. فانْيا، أكثر من أيّ واحدة منّا، كانت تقف بجانب بابا عارضت تحكّم ماما. أنا اعتقد أنَّهُ هو أيضاً، أي بابا، أحبّ فانْيا حبّا متميّزا. صحيح أنّني لا أستطيع أن أثبت ذلك، التمييز لم يعرف طريقا إلى بيتنا إطلاقا، لقد كان إنسانا ذا مشاعر حادّة جدّاً كلما تعلق الأمر بالعدل والإساءة. أنا طوال حياتي ما عرفت أيّ إنسان مثل جدّك كان يمقت الإساءة إلى أيّ إنسان. حتى الأشرار حرص جدّاً دائماً ألا يسيء إليهم. تعتبر الإهانات في اليهودية أسوأ من القتل، وقد كان جدك إنسانا لا يهين أحداً مهما كانت الأسباب والظروف. إطلاقا، وإلى الأبد.

كانت ماما تتخاصم مع البابا بالإيديش: في الحياة اليومية كانا يتبادلان الحديث فيما بينهما بلغة هي خليط من الروسيّة والإيديش، ولكن التخاصم بالإيديش فقط. أما معنا نحن البنات ومع شريك بابا ومع الساكنات معنا ومع الخادمة والطاهية والحوذيّ فقد تحدّثوا بالروسية فقط. مع السلطة البولندية تحدثا بالبولندية. بعد ضم روفْنو إلى بولندا طلبت السلطة الجديدة بحزم أن يتكلّم الجميع باللغة البولندية.

في المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت» (الثقافة) تكلمنا نحن الطلاب والمعلمين اللغة العبرية وحدها تقريبا. في البيت بيننا نحن الأخوات الثلاث، كنا نتخاطب بالعبرية والروسيّة. وغالبا ما كنا نتحدث بيننا بالعبرية حتى لا يفهم

الوالدان ما نقول. لم نتحدث إطلاقا فيما بيننا بالإيديش. لم نرغب في أن نكون مثل ماما: لقد ارتبطت لغة الإيديش عندنا بتعنيفها وتقريعها وزجرها وانتهارها وأوامرها. جميع الأرباح الّتي حققها والدنا بعرق جبينه من مطحنة القمح ابتزّتها منه وصرفتها كلّها على الخياطات الغاليات اللواتي خيّطن لها ملابس البذخ والترف. ولكنها ما كانت تلبس ملابس الترف والبذخ هذه إطلاقا، ولشدة تقتيرها وشحّها كانت بكل بساطة توفّر في أعماق الخزانة هذه الملابس الثمينة المرفّهة، وكانت ترتدي طوال الوقت داخل البيت عباءة قديمة بلون الفئران. مرتين في السنة كانت أمّي تتزيّن مثل عربة القيصر وتذهب بهذه الزينة إلى الكنيس أو إلى حفلة خيريّة: حتى تراها جميع نساء المدينة وتنفجرن من شدة الحسد. ولكن علينا كانت تصرخ وتتهمنا بأننا نُفقِر والدنا بتبذير أمواله.

أمك، فانْيا، كانت تحبّ أن يتحدّثوا معها بهدوء وتفكير وليس بالصراخ والتوبيخ. لقد كانت تحبّ أن تشرح وأرادت كذلك أن يشرحوا لها. لم تكن تتحمّل الأوامر. لا أن تعطيها ولا أن تستقبلها. حتى في غرفتها كان لها نظامها الخاصّ بها- لقد كانت بنتا مرتبة جدّاً- ولكن إذا لمس أحد ما ترتيبها كانت تشعر بالإهانة والإساءة- تستاء ولكنها كانت تتمالك مشاعرها وتكظم غيظها. لقد كانت متسامحة أكثر من اللازم: لا أذكر أنّ فانْيا رفعت صوتها ولو لمرة واحدة. أو أنّها وبّخت أحداً. لقد كانت تتغاضى وتغضّ الطّرف عن أمور، ليس من المألوف، في رأيي، أن تتغاضى عنها أو تغضّ الطرف عنها.

*

في زاوية المطبخ كان عندنا فرن كبير، وكانوا يسمحون لنا، أحياناً، كنوع من اللّعب، أن نأخذ اللّوباتا (جاروف الخبّاز) وأن نُدخل إلى الفرن العجين المقطّع كأرغفة: كنا نلعب وكأننا نُدخل إلى قلب النار البابا ياجا والساحرة الشريرة والتشورني تشورت، الشيطان الأسود. كما كان هناك أيضاً غاز صغير مع أربعة رؤوس ومع دوخوفكيَنِ لخبز الكعك وشيّ اللحم. أطلّ مطبخنا على الحديقة وعلى الأشجار المثمرة من خلال ثلاثة شبابيك عملاقة، كانت هذه الشبابيك معظم الوقت مكسوّة بالبخار، أو الضباب، بنوع من

السّديم الناجم عن حرارة الطهي والخبز. كان الدخول إلى حوض الاستحمام يمر عبر المطبخ: لم يكن لأي شخص في روفْنو في تلك الأيام بانيو في داخل البيت. للأغنياء منهم كان هناك كوخ في الساحة، خلف البيت، مع طشت خشبيّ، استعمل للغسيل وللاستحمام أيضاً. عندنا فقط كان هناك حوض استحمام والذي بسببه كانت صديقاتنا الصّغيرات يحسدننا عليه دائماً. في تلك الفترة كانت البنات يسمّين البانيو الذي في بيتنا «المتعة السلطانيّة».

عندما كنّا نريد أن نستحم في البانيو كنّا ندخل في الفم المفتوح الذي تحت المرجل الكبير عدة قطع من أغصان أو جذوع الأشجار، والقليل من النّشارة ثمّ كانوا يوقدونها وننتظر ساعة أو ساعة ونصف حتى يسخن الماء في المرجل كما ينبغي. كان الماء المغلي في المرجل يكفي لستة أو سبعة بانيوهات. من أين يأتي الماء؟ في السّاحة المجاورة كان هناك ما يشبه الكولوديتس (بئر ماء) ولكي نملأ المرجل كانوا يغلقون هناك الكولوديتس وكان فيليب أو أنطون أو فاسيا يشغّلون المضخة اليدويّة الّتي كانت تصدر صوتا كالصرير ويملؤون مرجلنا.

أذكر كيف إننا ذات مرّة في ليلة يوم الغفران بعد وجبة الإمساك قبل لحظات من بدء الصّيام، قال لي بابا: سورَليه ماين توخترل، أحضري لي من فضلك، كأس ماء من البئر مباشرة. ألقى والدي في الكأس الّتي أحضرتها له ثلاثة أو أربعة مكعّبات من السّكر ثمّ حرّكها ليس بملعقة صغيرة بل بخِنْصره، ثمّ شرب وقال لي: الآن بفضلكِ يا سورليه سيكون الصيام أهونَ عليّ قليلا. كانت أمّي تسمّيني سونيتْشْكا، والمعلمون يسموننى سارة، وعند بابا كنت دائماً سورليه.

أحياناً كان أبي يحبّ أن يحرّك هكذا بخِنْصره أو أن يأكل بيديه، كما وكأنَّهُ ما زال بروليتار. آراؤه بقيت بروليتاريّة وكذلك تصرّفاته. كنت حينئذ طفلة صغيرة ربما بنت خمس أو ست سنوات. لا أستطيع أن أشرح لك، كما أنّني لا أستطيع أن أشرح لنفسي أيّ فرح! وأيّ سعادة! سببتهما لي تلك الكلمات البسيطة الّتي قالها لي: أنَّهُ بفضلي سيكون صيامه الآن أسهل أكثر: والدليل على ذلك أنّني الآن وقد مضى على ذلك ثمانون سنة ما زلت كلما

أتذكرها أشعر بالسّعادة بالضبط مثلما شعرت بها في حينه.

ولكن يبدو أنَّهُ توجد في العالم أيضاً سعادة معكوسة، سعادة سوداء كتلك الّتي تنجم عن الإساءة الكبيرة إلى الآخرين- يبدو أنَّهُ بسبب ذلك يشعرون أحياناً بمشاعر طيبة جدّاً. كان بابا يقول بأنّنا طُردنا من الجنّة ليس لأننا أكلنا من شجرة المعرفة بل لأننا أكلنا من شجرة السّوء. إذ لولا ذلك كيف يمكننا أن نفسّر السعادة السّوداء؟ أن نفسر كوننا نستمتع ليس بما نملك بل وفقط بما نملكه ولا يملكه الآخرون؟ حتى يغاروا منا؟ حتى يشعروا بالسّوء؟ كان بابا يقول، كلّ مأساة هي شبه ملهاة وفي كلّ مصيبة توجد دائماً بذرة صغيرة من الرضا لمن يقف جانباً. قل لي هل صحيح أنَّهُ في اللغة الإنجليزية لا توجد كلمة للتعبير عن الشماتة؟

*

مقابل البانيو من الجهة الأخرى للمطبخ أيّ من جهة اليسار، هناك باب يفتح على غرفة كِسانْيا وبنتها دورا الّتي، على ما يبدو، ولدتها كِسانْيا لصاحب البيت السابق، رئيس البلدية ليبيدايِفْسْكي. أعتقد أنَّهُ في الاتفاقية الّتي اشترى بابا بموجبها البيت من ليبيدايِفْسْكي كان هناك بند ينصّ على أنَّهُ يحظر عليه طرد كِسانْيا ديمتريوفنا ودورا وكذلك الأمر بالنسبة إلى ليوبوف نيكيتيتشنا، النبيلة الّتي سكنت مع البنتين خلف الستارة الّتي في أقصى الممرّ. في الفترة الّتي كنت أسكن فيها عندكم في القدس، في شارع عاموس تماما خلف حائطكم، ربما ما زلت تذكر ذلك؟ اشتغلت وقتها ممرضة في مستشفى «هداسا» وكان بوما يأتي من تل أبيب كلّ جمعة وسبت لزيارتي. كان لي أيضاً ما يشبه الكوخ هناك بدون نافذة وقد تذكّرت ستارة النبيلة وقمت بواسطة خزانة وستارة بترتيب ما يشبه زاوية مطبخ مع بريموس فتلة ووابور كاز وإبريق وسلة صغيرة للخبز.

كانت دورا تلك فتاة جميلة حقّاً، كان وجهها يشبه وجه مريم العذراء كما هي مرسومة في الكنيسة، جسمها مستدير ولكن خصرها نحيف نحيف جدّاً كخصر النّحلة. عيونها عسلية كبيرة كعيون الْمَها البرية ولكنها كانت مريضة نفسيا إلى حد ما: في سن أربع عشرة سنة أو ستّ عشرة سنة أحبّت

فجأة شخصا غير يهودي متقدّما في السّنّ اسمه كْرينيتْشْكي، والذي كان على ما يبدو عشيق أمها، كِسانْيا، أيضاً. كان بان كْرينيتْشْكي يسكن في الشارع الرئيسي، شارع تشيتشييغو مايا زاوية نياميتسكي، بالقرب من البريد، مقابل مصلحة عائلة بيسيوك.

كانت كِسانْيا تحضّر لدورا ابنتها وجبة واحدة فقط في اليوم، قبيل المساء، وعندها أيضاً كانت تحكي لها قصّة يوميّة متسلسلة وكنا نحن الثلاث نسرع إلى هناك لكي نستمع إلى القصّة لأنّ كِسانْيا هذه كانت تجيد سرد مثل هذه القصص، الغريبة، الّتي يقشعّر لها البدن أحياناً، لم أعرف في حياتي شخصا كان يحكي القصص مثلها. حتى يومنا هذا ما زلت أذكر قصّة ما حكتها كِسانْيا ديمتريوفنا: كان يا ما كان كان هناك شخص اسمه يانوشْكا، وكان يانوشْكا دوراتشوك هذا هو أهبل القرية، وكانت أمه ترسله كلّ يوم إلى الجهة الأخرى من الجسر ليحمل الطعام لإخوته الكبار الذين يعملون في الحقل. ليانوشْكا، الذي كان غبيا وكسولا، خصصت أمه فقط قطعة خبز واحدة طوالَ اليوم. في أحد الأيام ظهر ثقب في الجسر، لا ليس في الجسر بل في السّدّ، ومنه بدأت تتسرّب المياه الّتي هددت بإغراق السهل بكامله. وقد صادف ذلك مرور يانوشْكا، من هناك في تلك اللحظة بالضبط، أخذ يانوشْكا قطعة الخبز الوحيدة الّتي خصّته بها أمه وسدّ بها الثقب الذي في السدّ كيلا يغرق السهل كله. مرّ الملك العجوز من هناك بالصّدفة وشاهد ما فعله يانوشْكا وتأثّر بذلك كثيرا وسأل يانوشْكا لم فعل هذا الشيء؟ فأجاب يانوشْكا، ما الأمر يا جلالة الملك، لقد فعلت ذلك لكي امنع الفيضان إذ لولا ذلك لكان من الممكن أن يغرق أناس كثيرون لا سمح الله. وهل كانت تلك قطعة الخبز الوحيدة الّتي تملكها؟ سأل الملك العجوز. إذن وماذا ستأكل طوال هذا اليوم؟ أجاب يانوشْكا، إن لم آكل أنا اليوم، يا جلالة الملك، فليس ذلك بالأمر المهمّ، ليأكل اليوم الآخرون وسآكل أنا غدا! كان الملك العجوز محروما من الأولاد، وقد تأثّر جدّاً ممّا قام به يانوشْكا وكذلك من جوابه حتى أنّهُ على الفور وللتّوّ قرر أن يجعله ولي عهد الملك، أي ملك دوراك (مجنون)- حتى عندما جلس يانوشْكا على كرسيّ العرش استمر

الجميع يسخرون منه ويضحكون عليه، جميع مواطني دولته كانوا يضحكون عليه، حتى أنَّهُ هو نفسه كان يضحك على نفسه: إذ كان يجلس طوال الوقت على كرسي العرش ويقوم بحركات كثيرة وغريبة في أسارير وجهه وعينيه. ولكن رُوَيداً رُوَيداً تبيّن أنَّهُ تحت حكم الملك يانوشْكا المجنون لم تندلع أيّ حرب، وذلك لأنَّهُ لم يعرف معنى الإهانة ومعنى الحقد والانتقام! في النهاية، كما هو متوقّع قام الجنرالات بقتله والاستيلاء على السلطة وبالطبع فإنهم فوراً شعروا بالإهانة من رائحة الإسطبل الّتي تحملها الرياح من خلف حدود الدولة المجاورة فأعلنوا الحرب عليها، وقد قتل جميعهم في الحرب كما أن السدّ الذي سدّه الملك يانوشْكا دورشوك ذات مرّة بقطعة الخبز الوحيدة الّتي كانت معه، فُجِّر وهكذا غرقوا جميعا في الفيضان، مسرورين ومبتهجين، غرق سكان الدولتين جميعا.

*

تواريخ: جدّي نَفْتالي هيرْتْس موسْمَن وُلد في سنة ١٨٨٩. ووُلدتْ جدّتي إيتا في سنة ١٨٩١. ووُلدتْ خالتي حايا في سنة ١٩١١. أما فانْيا أمّي فقد وُلدتْ في سنة ١٩١٣. ووُلدتْ خالتي سونْيا في سنة ١٩١٦. تعلمت بنات عائلة موسْمَن الثلاث في المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت» الّتي في مدينة روفْنو. بعدها أرسلت حايا وفانْيا الواحدة تلْو الأخرى للدراسة في مدرسة ثانوية خصوصية بولندية منحتهما شهادتَي إنهاء. هاتانِ الشّهادتان مكّنتا حايا وفانيا من أن تقبلا إلى الجامعة في مدينة بْراغ، لأنَّهُ في بولندا اللا- ساميّة في أواخر العشرينيّات لم تقبل الجامعات اليهود تقريبا. خالتي حايا قدمت إلى البلاد في سنة ١٩٣٣ واحتلت لها منصباً جماهيرياً ما في حزب «هَعوفيد هَتْسِيُّوني» (العامل الصهيوني) وفي فرع تل أبيب لـ «منظّمة الأمهات العاملات». بهذه الطريقة تعرّفت حايا على عدد من كبار السكان اليهود في البلاد في تلك الفترة. كان لها عدد من المعجبين المتحمّسين ومن بينهم كان من أخذ نجمه يحلق عاليا في سماء مجلس العمّال، ولكنها لبت نداء قلبها وتزوّجت من عامل مرح لطيف من بولندا، اسمه تْسْفي شَبيرا، والذي عمل بعد ذلك في العمل الإداري في عيادات «صندوق المرضى» وفيما بعد أصبح

مديرا إدارياً في المستشفى الحكومي دونولو- تْسَهَلون في يافا. الغرفة الثانية في شقّة حايا وتْسْفي شَبيرا الأرضية في شارع بِنْ يِهودا رقم ١٧٥ في تل أبيب كانت مؤجَرة، في النّصف الثاني من سنوات الأربعينات، لعدد من كبار قادة «الهَجَناة». طوال أشهر حرب الاستقلال سكن فيها الجنرال يِجّائل يَدين، الذي كان المسؤول عن العمليّات ونائب رئيس الأركان. وكان يحدث أن تجرى هناك المشاورات الّتي شارك فيها يسرائل جليلي، يتسحاق سديه، يعكوف دوري، رؤساء «الهَجَناة» مستشارون وقادة. بعد مرور ثلاث سنوات، وفي نفس الغرفة بالذات، انتحرت أمّي.

*

حتى بعد أن أحبت دورا الصّغيرة عشيق أمّها، بان كْرينيتْسْكي، لم تتوقّف كِسانْيا عن تحضير وجبة لها قبيل المساء ولم تتوقّف عن أن تحكي لها القصص، إلا أن الطعام الذي كانت تُعدّه لها كان مجبولا بالدّموع كذلك كانت القصص أيضاً ممزوجة بالدموع. كانت الاثنتان تجلسان هناك قبيل المساء إحداهما تبكي وتأكل، والأخرى تبكي ولا تأكل، لم يكن بينهما أيّ خصام، على العكس، كانتا أحياناً تتعانقان وتبكيان مَعاً، كأنّما أصيبتا مَعاً بنفس المرض الذي لا شفاء منه. أو كأنّ الأمّ هي الّتي، لا سمح الله، نقلت العدوى إلى ابنتها عن غير قصد وهي الآن تقوم بالاعتناء بها بحبّ واعتذار ورأفة عميقة وإخلاص وتفانٍ لا حدَّ لهما. في الليالي كنّا نسمع أحياناً صرير الخَوْخَة، الكليتكا، الصغيرة الّتي في باب جدار الحديقة، وعندها عرفنا أن دورا عادت من هناك وأنَّهُ بعد قليل ستتسلّل أمّها إلى نفس المكان الذي عادت منه دورا. كلّ شيء كان بالضّبط مثلما كان بابا يقول دائماً: المهمّ ألا تحبَل، لقد شرحت وشرحت لها بدون حدود، افعلي كذا ولا تفعلي كذا، وإذا قال لك كذا عندها قولي له كذا، وإذا أراد هو كذا بالذات افعلي أنت كذا وكذا. بهذه الطريقة سمعنا نحن أيضاً بعض الأمور وتعلمنا منها، لأنَّهُم لم يقولوا لنا، بالمرة، ولم يشرحوا مثل هذه الأمور غير الجميلة. ولكن كلّ ذلك لم يجدِ نفعا، فقد حملت دورا الصغيرة وقد تحدّثوا عندنا بأن كِسانْيا راحت وطلبت من بان كْرينيتْسْكي مالا وهو لم يرد أن يعطيها وتظاهر بأنَّهُ لا

يعرف من هي كِسانْيا ومن هي دورا. هكذا خلقنا الله: الغنى هو خطيئة والفقر هو عقاب ولكن العقاب يعطى ليس للمذنب بل فقط لمن لا يملك المال ليتخلّص من العقاب. المرأة، بحسب طبيعتها، إذا كانت حاملا - لا تستطيع أن تنكر. بأيّ شكل من الأشكال لا تستطيع. أما الرجل- فهو ينكر كيفما أراد، وما تصنعين له؟ لقد أعطى الله للرجل المتعة وأعطانا نحن العقاب. قال للرجل بعرق جبينك تأكل الخبز، وهذا هو أصلا جائزة وليس عقابا، جرِّدوا الرجل من العمل فأنَّهُ سيفقد صوابه فوراً. أما نحن النساء فقد تكرّم وسمح لنا أن نشمّ طوال الحياة وعن قرب عرق جبين الرجال هذا، والذي هو متعة صغيرة جدّاً، كما أنني أعرف أنَّهُ يمكن النظر إلى «بالوجع تلدين أولادا» بشكل مختلف بعض الشّيء.

*

عندما اقتربت دورا المسكينة من شهرها التاسع، جاؤوا وأخذوها إلى القرية، إلى إحدى قريبات كِسانْيا. اعتقد أن بابا أعطاهما بعض النقود. سافرت كِسانْيا مع دورا إلى القرية وعادت بعد عدة أيام مريضة شاحبة. كِسانْيا لا دورا. أما دورا فقد عادت بعد شهر لم تكن مريضة أو شاحبة بل مفعمة بالحيوية ومنتفخة مثل حبة تفاح نضرة منعشة. عادت بدون طفل كما أنَّهُ لم يظهر عليها الحزن أو الأسى بل بدت أكثر صبيانية مما كانت عليه قبل الولادة. وقد كانت قبل ولادتها صبيّة طفوليّة. ولكن، بعد عودتها من القرية، بدأت دورا تتحدّث طوال النهار بلغة الأطفال فقط وتلعب بالدُّمى وعندما كانت تبكي كان بكاؤها يبدو كبكاء طفلة في الثالثة من عمرها. كما أنَّها بدأت تنام ساعات نوم طفلة: عشرون ساعة في اليوم كانت هذه الصبية نائمة وكانت تستيقظ لكي تأكل شيئا ما وتشرب ثمّ تدخل أنتَ تعرف إلى أين.

ماذا حدث للطفل؟ من يدري. قالوا لنا بأن لا نسأل، ونحن كنا بنات مطيعات جدّاً، لم نسأل ولم يحدّثنا أحد شيئا. ذات مرّة، في إحدى الليالي، حدث أن أيقظت حايا كلتينا فجأة، أيقظتني وأيقظت فانْيا، وقالت بأنَّها تسمع بشكل واضح جدّاً من جهة الحديقة المظلمة في ليلة ماطرة وعاصفة صوت

طفل يبكي. أردنا أن نلبس شيئا وأن نخرج ولكننا خفنا. وعندما ذهبت حايا لتوقظ بابا لم نعد نسمع أيّ طفل ومع ذلك أخذ بابا مصباحا كبيرا وخرج إلى الحديقة وفحص جميع زواياها وبعدها عاد وقال بحزن، حيونيا، يبدو أنّك شاهدتِ حلماً. لم نناقش بابا ماذا كان سينفع النقاش؟ ولكننا نحن الثلاث عرفنا جيّداً جدّاً بأن ذلك لم يكن حلما شاهدته حايا بل طفلا كان يبكي حقاً في الحديقة، وقد كان الدليل بأنَّهُ ليست حايا وحدها بل فانْيا أيضاً وأنا كذلك سمعنا البكاء الذي ما زلت أذكره: دقيقا وعاليا جدّاً نافذا مفزعا، ليس كبكاء الطفل الجائع الذي يريد أن يرضع وليس كبكاء الطفل الذي يشعر بالبرد بل كبكاء طفل متألّم جدّاً جدّاً.

بعد ذلك أصيبت دورا بمرض دم نادر، عاد بابا ومنحها بعض المال لإجراء فحص عند بروفيسور مشهور جدّاً في وارسو، بوفيسور مشهور مثل لويس باستر، ولكنها لم تعد بعدها إلينا بالمرة. استمرت كِسانْيا ديمتريوفنا تسرد القصص قبيل المساء إلا أن قصصها أصبحت أكثر وحشيّةً، أي أنَّها أصبحت غير حضاريّة، وأحْياناً كانت تتخلّل القصص بعض الكلمات غير الجميلة بالمرة لم نرد نحن أن نسمعها. أو إننا أردنا ولكن كبحنا جماح أنفسنا لأننا كنا ثلاث بنات مهذّبات كما هذبوا الفتيات قديما لا كما يربونهنّ اليوم.

ودورا الصغيرة؟ عن دورا لم نتحدث بيننا ولا مرّة. كما أن كِسانْيا ديمتريوفنا لم تعد تذكر اسمها، كأنّها حقا غفرت لها أن أخذت منها عشيقها ولم تغفر لها أنّها اختفت في وارسو. بدلا منها ربّت كِسانْيا عصفورين لطيفين على الشرفة داخل قفص، وقد عاشا حتى حلول الشتاء، وفي فصل الشتاء تجمدا كلاهما.

٢٥

مِناحِم جيليرتر، الذي ألف كتابا عن المدرسة الثّانوِيّة «تَرْبوت» في روفْنو، كان معلما فيها لمادة التوراة والأدب وتاريخ شعب إسرائيل. من بين ما وجدته مكتوبا في كتابه، «إذا لم تخنه ذاكرته»، بعض ما تعلمته أمّي وأختاها وصديقاتها في إطار دراسة اللغة العبرية في مدرستهن في العشرينيات، «على الرغم من النقص المزمن في كتب التدريس باللغة العبرية»:

. . . كتاب الأساطير، قصائد مختارة لشعراء من العصر الذهبي في الأندلس، الفلسفة اليهوديّة في العصور الوسطى، مجموعات أشعار حاييم نحمان بياليك وشاؤول تْشرْنِيحوفْسْكي، وكذلك مختارات من أعمال شْنيؤور، يعكوف كوهين، بِرْديتشيفْسكي، فريشمَن، بيريتْس، شالوم آش، برينر (وجميعها من إصدار دار النشر - «توشيّا») مَنْدَلي، شالوم عَليخِم، بيركوفيتش، كَبَك وبورلا. كذلك ترجمات صدرت معظمها عن دار النشر «شتيبل» و«أمنوت»- كما درّسوا في «تَرْبوت» نخبة من أعمال تولستوي، دوسْتويْفسكي، بوشْكين، تورْجِنْيف، تشيخوف، ميتسكافيتش، سنكيفيتش، كرسينسكي، مَتيرْلينْك، فلوبير، رولان رومين، شيلِر، غوته، هاينه، جيرهارت هاوبتمِن، فاسِرمَن، شنيتسلر، بيتر آلتنبرغ، شكسبير، بايرون، ديكنز، أوسكار وايلد، جاك لُندن، طاغور، هَمْسون، ملحمة جلجاميش بترجمة شاؤول تْشرْنِيحوفْسْكي، وغيرها. وكذلك: تاريخ إسرائيل تأليف ي. ن. سِمحوني، تاريخ الهيكل الثاني تأليف يوسِف كْلاوْزْنِر، «كتاب طين

السِّباخ» تأليف نتان هنوفر، «سبط يهودا» ليهودا بن فيرغا، «كتاب الدّموع» تأليف شمعون برانفيلد، و«إسرائيل في المهجر» تأليف بن- تسيون دينابورغ.

*

في كلّ يوم، تحكي لي خالتي سونْيا، في الصباح الباكر قبل أن ترتفع درجة الحرارة، في الساعة السادسة، أو قبل السادسة، كنت أنزل ببطء الدرج لكي أرمي الكيس في برميل القمامة خارج المنزل. وقبل أن أعود أدراجي كان لا بدّ لي من أن أتوقف لحظة للاستراحة، وأن أجلس بضع دقائق على الجدار بالقرب من البراميل، لأنّ الدرج كان يقطع نفَسي. أحياناً كنت التقي هناك مع امرأة قادمة جديدة من روسيا، فاريا، كانت تكنس عندنا الرصيف في شارع فايْزِل كلّ صباح. هناك، في روسيا، كانت مديرةً كبيرة جدّاً. هنا، مُكنِّسة شوارع. لم تتعلم شيئا من اللغة العبرية تقريبا. أحياناً كنا كلتانا نتلكّأ بضع لحظات بالقرب من براميل الزبالة ونتبادل الحديث باللغة الروسيّة.

لماذا تعمل بالكناسة؟ لكي تعيل ابنتيها المتفوّقتين في الجامعة، إحداهما في الكيمياء والأخرى في طبّ الأسنان. زوج- لا يوجد لها. أقارب في إسرائيل- لا يوجد لها، أيضاً. في المأكل - يوفّرن، في الملبس- يوفِّرن. السكن- يسكن كلهن في غرفة واحدة. وكل ذلك لكي يتوفر المال للدراسة والكتب الدراسية. دائماً كان الأمر هكذا عند العائلات اليهوديّة: اعتقدوا بأن العلم هو التمسّك بالمستقبل، العلم هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أيّ شخص في أيّ وقت أن يأخذه من أبنائك، حتى وإن حدثت، لا سمح الله، حرب أخرى، أو ثورة أخرى، أو هجرة أخرى أو أحكام صارمة أخرى - فإنّ الشّهادة يمكن أن تطوى بسرعة وأن تخبّأ داخل بطانة الملابس والهرب إلى المكان الذي يسمح لليهود بالعيش فيه.

كان الأغيار يقولون عنّا هكذا: الدبلوم - هو دين اليهود. لا الغنى ولا الذّهب. الدبلوم. ولكن من وراء هذا الاعتقاد بالدبلوم يستتر شيء آخر أكثر تعقيدا وداخليا أكثر وهو أننا، نحن البنات في تلك الفترة، وحتى البنات العصريّات، مثلنا، البنات اللواتي تعلمن في الثّانوِيّة وبعدها في الجامعة، نحن هكذا تربّينا بأن المرأة يحق لها أن تكون مثقّفة وأن تشارك في الحياة

العامة - ولكن حتى ولادة الأبناء فقط. حياتك هي ملك لك لفترة قصيرة فقط: ابتداء من الخروج من البيت وحتى الحمل الأول. منذ تلك اللحظة، من الحمل الأول، كنا ملزمات بأن نبدأ العيش فقط حول الأبناء. بالضبط كما كانت أمهاتنا. حتى أن نكنّس الشوارع من أجل الأبناء، لأنّ ابنك هو الفرخ وأنتِ ماذا؟ أنتِ زلال البيضة، أنت هو ما يتغذّى عليه الفرخ لكي ينمو ويقوى. وعندما يكبر ابنك- حتى عندها لا تعودين إلى نفسك، بل بكل بساطة تتحولين من أم إلى جدّة والتي هي بكل بساطة خادمة أولادها في تربية أبنائهم.

صحيح، أنَّهُ حتى في تلك السنوات كانت هناك نساء قليلات بنين لأنفسهن سيرة حياة مهنية ودخلن الحياة العامّة. ولكن الجميع كنّ يتحدثن عنهنّ من وراء ظهورهن، انظرن فقط إلى هذه الأنانية تشارك في الجلسات وأولادها المساكين يتربون في الشارع فعلا، أنَّهُم يدفعون الثمن باهظاً.

الآن أصبح العالم شيئاً آخر جديدا. الآن، أخيرا ربما يسمحون للمرأة أن تعيش حياتها قليلا. أو أن الأمر هو مجرد وهم؟ ربما حتى لدى الأجيال الشابّة ما زالت المرأة تبكي داخل وسادتها، بعد أن ينام زوجها، لأنّها تشعر أنَّها مضغوطة لأن تختار إما هذا وإما ذاك؟ لا أريد أن أحكم: إذ أن هذا العالم لم يعد عالمي. لكي أقارن كان عليّ أن أنتقل من بيت إلى آخر وأن افحص كم من دموع الأمهات تنسكب في هذه الأيام كلّ ليلة في الظلام على المخدّة بعد أن ينام الزوج، وأن أقارن ذلك مع الدموع الّتي كانت تسكب في حينه وبين دموع اليوم.

*

أحياناً أشاهد في التلفزيون وأحْياناً أرى حتى هنا، من الشرفة، كيف أن الأزواج الشّابّة بعد يوم العمل يقومان بكل شيء مَعاً - يغسلان، يعلقان الغسيل، يحفِّظان الأطفال، يطبخان، حتى أنَّني سمعت ذات مرّة في البقالة شابّاً صغيرا يقول بأنَّهُ سيذهب في الغد هو وزوجته، هكذا قال، غدا سنذهب لكي يجروا لنا فحص السائل السَلَوِيّ. عندما سمعته يقول ذلك، أصبت بتشنّج في الحلق: ربما، مع كلّ ذلك، يتغيّر العالم قليلا؟

الضغينة والشحناء بكل تأكيد لم تتراجع في السياسة، وبين الأديان والشعوب وبين الطبقات، ولكن لعلها تراجعت قليلا بين الأزواج؟ داخل العائلات الشابّة؟ أو ربما أنا أوهم نفسي. ربما ما كلّ ذلك إلا مسرحية كوميدية والعالم ما زال يترف كما كان- القطة ترضع الجراء والسّيّد القطّ صاحب الجزمة يلعق بلسانه وينفض شاربه ثمّ يركض مسرعا إلى الساحة يبحث عن الملذات؟

هل ما زلت تذكر ما ورد في سفر الأمثال؟ ورد هناك ما يلي: الابن الحكيم - يسرّ أباه والابن الجاهل - يحزن أمّه! (١٠ : ١). إذا كان الابن حكيما يفرح ويبتهج الأب ويتباهى ويتفاخر بابنه ويحظى على ذلك بكل المديح والثناء والنقاط. ولكن إذا كان الابن، لا سمح الله، غير فالح، كان غبيا، أو مُشكلا، أو صاحب عاهة، أو مجرما - فإنّ كلّ ذلك بكل تأكيد بسبب أمه، وكل العناية والمعاناة تكون من نصيبها. ذات يوم قالت لي أمك ما يلي: سونْيا، اعلمي بأن هناك شيئين فقط - لا. مرّة أخرى يتشنّج حلقي. نتحدث عن ذلك في وقت آخر. لنتحدث الآن عن شيء آخر.

*

أحياناً، لا اشعر أنّني متأكّدة بأنّني أتذكّر بالضبط إذا كانت الأميرة ليوبوف نيكيتيتشنا، الّتي سكنت عندنا خلف الستائر مع بنتيها طاسيا ونينا ونامت معهما على نفس السّرير القديم، أنا لم أعد متأكدة تماما، هل كانت هي أمهما حقّاً؟ أم أنّها كانت الجوفِرْنانْطكا (أيّ المربية) لتلكما البنتين؟ اللتين ولدتا، على ما يبدو، من أبوين مختلفين؟ إذ أن طاسيا كانت أَنِسْتاسْيا سَرْجايِفْنا، ونينا كانت أنْتونينا بوليسْلافوفْنا. كان هناك بعض الضباب. شيء ما لم يتحدّثوا عنه كثيرا عندنا، أو أنّهُم تحدثوا وكأنّ الأمر لم يكن مريحا. أتذكر أن البنتين كانتا دائماً تناديان الأميرة بـ«ماما» أو «مامان»، ولكن ربما كان ذلك لأنَّهُما ما عدن يذكرن اسم أمهما الحقيقيّة. أنا لا أستطيع بأي شكل من الأشكال أن أقول لك ذلك بكل تأكيد، لا حول هذا ولا حول ذاك، لأنّ الغموض كان في تلك الأيام أيضاً. كثير من الغموض كان يكتنف الحياة الّتي

كانت قبل جيلَين. أو ثلاثة. اليوم ربما يوجد غموض أقلّ. أم أن الغموض اختلف؟ أوجدوا أشكالا جديدة من الغموض؟

إذا كان هذا جيدا أم سيّئا أنا حقّاً لا أعرف. ليس من حقي أن أحكم على الأوقات والعادات الجديدة إذ لعلهم عملوا لي ولكل البنات في جيلي غسيل دماغ. ومع كلّ ذلك أحياناً يخيّل إليّ أن ما يسمّى ما بينه وبينها، وأنت بلا شكّ تعي ما أقصده بالتعبير ما بينه وبينها، ما بينه وبينها ربما أصبح هذا، الآن في أيامنا، بسيطا أكثر. في الأيام الّتي كنت فيها ما زلت فتاة، شابّة، أو ما كان يعرف بفتاة بِكْر من عائلة عريقة، كان مليئا بالسكاكين مليئا بالسموم مليئا بالظلمة المفزعة. كمل لو نزلت حافية في الظلام إلى قبو مليء بالعقارب. اكتنف الغموض كلّ شيء. لم يتكلموا.

*

ولكنهم تكلموا بلا نهاية عن الإشاعات والحسد والخبث، تكلموا عن المال، والأمراض، تكلموا عن النجاح في الحياة، عن عائلة عريقة مقابل عائلة متوسّطة أو دون ذلك، هذه الأمور «لاكتها الألسنة» عندنا بلا ملل ولا سأم. كما كانوا يتحدّثون عن الخواصّ والشّخصية دون نهاية، هذه خواصّها وشخصيتها كذا وتلك خواصّها وشخصيتها كذا. وعن الأفكار! لقد تحدثوا كثيرا عن الأفكار! هذه الأمور لا يمكن تخيّلها اليوم! تحدّثوا عن الصهيونيّة وعن حزب البوند وعن الشيوعيّة، تكلموا عن الفوضويّة وعن العدميّة، تكلموا عن أمريكا، وتكلموا عن لينين، تكلموا حتى عن قضية المرأة، عن تحرر واستقلالية المرأة، كانت خالتك حايا الأكثرَ جرأة من بين ثلاثتنا في الكلام عن تحرير وانعتاق المرأة - طبعا كانت الأكثر جرأة في الكلام والنقاش فقط- كما كانت فانْيا تنادي، إلى حدّ ما، بمنح المرأة حقّ الاقتراع ولكن كانت تراودها بعض الشكوك. وأنا كنت الأصغر والأغبى الّتي كانوا يقولون لها دائماً، سونْيا، أنتِ لا تتكلمي، سونْيا، لا تشوّشي علينا، انتظري حتى تكبري وتفهمي. عندها كنت أغلق فمي وأنصت.

كلّ الشباب عندنا في تلك الفترة رفعوا طوال النهار شعار الحريّة: حرية كذا وحرية كذا. ولكن في ما بينه وبينها لم تكن هناك أيّ حريّة:

كانت هناك أقدام حافية في الظلام داخل القبو المليء بالعقارب. هذا ما كان حقاً. أي أنّهُ لم يمضِ أسبوع دون أن نسمع إشاعات مخيفة عن فتاة صغيرة حدث لها ما حدث للبنات الصغيرات اللواتي لم يأخذن الحيطة والحذر، أو عن امرأة فاضلة عشقت وفقدت صوابها، أو عن خادمة قام احدهم بإغرائها أو عن طبّاخة هربت مع ابن سيّدها وعادت لوحدها مع طفل أو عن معلمة متزوّجة، مثقّفة، ذات مركز مرموق في المجتمع، عشقت فجأة شخصا ما وألقت كلّ شيء تحت قدميه حتى وجدت نفسها منبوذة وأضحوكة للجميع. يقولون أضحوكة؟ أليس كذلك؟ أنت تفهم بلا شك ما أقصده بكلمة أضحوكة! في الفترة الّتي كنا فيها مجرد فتيات، كان العفاف قفصا وكذلك كان الحاجز الوحيد الذي حمانا من الوقوع في الهاوية. كان العفاف يربض على صدر الفتاة مثل صخرة وزنها ثلاثون كيلوغراما. حتى في الأحلام الّتي حلمناها في المنام بقي العفاف يقظا يقف إلى جانب السرير يراقبنا. ما أجمل أن نحلم، وما أقبح أن تحلم الفتاة وأن تخجل جدّاً جدّاً مما حلمت عندما تستيقظ في الصباح حتى وأن لم يعرف أحد بم حلمت.

*

كلّ موضوع ما بينه وبينها محاط، اليوم، بظلام أقلّ؟ الموضوع بسيط أكثر؟ في الظلام الذي أحاط في تلك الأيام بهذه القضية، كان من السهل أكثر على الرجال أن يسيئوا استغلال المرأة. من جهة أخرى، كون كلّ شيء بسيط الآن - هذا شيء جيّد؟ أليس ذلك قبيحا أكثر من اللازم؟

أنا استغرب من نفسي لأنّني أتحدث معك عن هذا الموضوع أصلا. عندما كنت فتاة، كان يصدف أن نتهامس، أحياناً، الواحدة مع الأخرى. ولكن مع شابّ؟ ولا مرّة في حياتي لم أتحدث مع شابّ عن مثل هذه الأمور. ولا حتى مع بوما، الذي، سأكمل معه، بعد قليل، ستين سنة زواج. كيف وصلنا إلى هذا الموضوع فجأة؟ لقد كنا نتحدث عن ليوبوف نيكيتيتشنا وعن طاسيا وعن نينا ابنتيها. إذا سافرت ذات يوم إلى روفْنو يمكنك أن تقوم بمغامرة بوليسية: ربما حاولت أن تفحص إذا ما زال عندهم هناك، في البلديّة، أيّ وثائق يمكن أن تلقي الضوء على هذا الغموض؟ أن

تفحص إذا كانت هذه الكونتسة أو الأميرة هي أم ابنتيها؟ وهل حقّاً كانت كونتسة أو أميرة؟ وإذا كان رئيس البلدية، ليبيدايِفْسْكي، صاحب البيت السابق، هو والد طاسيا ونينا أيضاً كما كان، على ما يبدو، والد دورا المسكينة؟

بنظرة متأنية، الوثائق الّتي كانت أو لم تكن هناك بلا شك احترقت منذ ذلك الوقت عشرات المرات، في الاحتلال البولندي، في احتلال الجيش الأحمر، بعده جاء الاحتلال النازيّ الذي بكل بساطة أخذنا جميعا وأطلق علينا الرصاص وألقانا في الحفر الّتي غطّاها بالرمال. بعد ذلك، جاء ستالين مرّة ثانية، مع الـ إن كي في دي. لقد ألقيت روفْنو مرات كثيرة من يد إلى أخرى كما يعبث الأولاد الطائشون بجرو صغير: روسيا- بولندا- روسيا- ألمانيا- روسيا. والآن أصبحت تابعة لا إلى بولندا ولا إلى روسيا بل إلى دولة أوكرانيا، أو ربما إلى روسيا البيضاء؟ أو إلى أيّ عصابات محلّيّة؟ أنا شخصيا لا أعرف لمن هي تابعة الآن. كما أن الأمر لم يعد يهمّني: ما كان لم يعد موجودا، وما هو موجود الآن، سيصبح في خبر كان بعد عدد من السنوات.

كلّ العالم، إذا نظرنا إليه عن بعد قليل، لن يستمرّ دهورا طويلة. يقولون بأن الشمس ستنطفئ ذات يوم، والظلام سيعود ليسود الكرة الأرضية. إذن علام يذبح الناس بعضهم بعضا على امتداد التاريخ؟ ما هو الشيء المهم إلى هذا الحد، أيّهم يحكم كشمير، أو المغارة الّتي تحت الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل؟ بدلا من أن نأكل تفاحة من شجرة الخلد أو تفاحة من شجرة المعرفة يبدو أنّنا أخذنا من الأفعى تفاحة سامّة من شجرة الشرّ وأكلناها بشهيّة. هكذا انتهت الجنّة وبدأ هذا الجحيم.

*

هذه الأميرة أو الكونتيسة ليوبوف نيكيتيتشنا، كانت إما أم هاتين البنتين أو مربيتهما. ولقد كانت إما قريبة رئيس البلدية السابق ليبيدايِفْسْكي أو أنّهُ كان دائنا لها. بينها وبين الضابط البولندي الْبولْكوفْنيك (العميد) بان زاكاشفْسْكي

كانت هناك إما علاقة لعب ورق أو علاقات من نوع آخر تماما، أنت لا شك تفهم ما الذي أقصده بذلك.

هناك أشياء كثيرة جدّاً تدخل في إطار أو - أو: إن الإنسان لا يعرف إلا القليل القليل حتى عن الأشخاص الذين يعيشون معه تحت سقف واحد. نظننا نعرف الكثير- ولكن سرعان ما يتّضح بأننا لا نعرف شيئا. أمك، على سبيل المثال، - لا، عذرا، أنا ببساطة ما زلت لا أستطيع التحدث عنها مباشرة. بل بطريقة ملتوية غير مباشرة. وإلا فإنّ الجرح سيفتح من جديد ويبدأ الألم. أنا لن أتحدّث عن فانيا. بل عما كان حول فانيا، هذا ربما صحيح بالنسبة لفانيا أيضاً. عندما نحبّ شخصا حبّاً حقيقيّاً، كان عندنا مثل يقول، تحب حتى منديله. باللغة العبرية هذا المثل لا يبدو جيدا ولكن المقصود منه أنت بكل تأكيد تفهمه.

هاك، انظر إلى هذا، من فضلك: عندي هنا ما استطيع أن أطلعك عليه ويمكنك أن تتلمّسه بأصابعك، كي تعرف أن كلّ ما رويته لك لم يكن مجرد حكايات: انظر، من فضلك، إلى هذا- لا هذا ليس شرشف طاولة، هذا «وجه» مخدّة، وجه مخدّة مع رسمة مطرّزة كتلك الّتي كانت البنات من العائلات العريقة يتعلمن تطريزها- هذه طرّزتها، كهدية لي، الأميرة- أو النبيلة؟ ليوبوف نيكيتيتشنا. الرأس المطرّز هنا، هكذا قالت لي هي بنفسها، هو الصورة الظِلِّيَّة لرأس الكَرْدِينال ريشليه. من كان هذا الكَرْدِينال ريشليه؟ هذا ما لم أعد أذكُره. ربما لم أعرف ذلك من قبل أيضاً، أنا لست مثقّفة مثل حايا وفانيا: إذ أنَّهُما أرسلتا للحصول على شهادة الإنهاء وبعدها أرسلتا إلى براغ للدراسة في الجامعة. أنا كنت أكثر بساطة. كان الجميع يقولون عني دائما: سونيتْشْكا هذه لطيفة جدّاً ولكنها ساذجة إلى حد ما. أما أنا فقد أرسلوني إلى مستشفى عسكريّ تابع للجيش البولندي، لكي أتعلم هناك مهنة التمريض وأصبح ممرضة مؤهلة. ولكنني اذكر جيدا جدّاً بأنّ الأميرة قالت لي قبل أن أغادر البيت بأن هذا رأس الكَرْدِينال ريشليه.

أنت ربما تعرف من كان هذا الكَرْدِينال ريشليه؟ ليس مهمّاً. احكِ لي ذلك بمناسبة أخرى، أو حتى لا تحكِ. في سنّي لا يهمّني إن كنت سأَنَهِي

حياتي بدون الشرف الكبير بمعرفة من هو وما هو الكَرْدِينال ريشليه. الكرادلة كثيرون جدّاً. وكلهم تقريبا يكرهون شعبنا.

*

أنا أيضاً في أعماق قلبي فوضويّة، مثل بابا. أمّك أيضاً كانت فوضويّة في أعماق قلبها. من البديهي أنّها بين أفراد عائلة كلاوْزنِر لم تستطع بأي شكل من الأشكال إظهار ذلك: حتى بدون ذلك كانت تعتبر غريبة، نوعا ما، في نظرهم، ومع ذلك كانوا دائماً يتصرّفون معها بأدب. بشكل عام عند أفراد عائلة كلاوْزنِر كان الأدب يحتلّ المكان الأول. جدّك الآخر، الجد ألِكْسَنْدِر، لو أنّني لم أكن أسحب يدي بسرعة من يده لكان يسرع إلى تقبيلها. كانت هناك ذات مرّة قصة أطفال معينة، القط صاحب الجزمة؟ كانت أمك بين أفراد عائلة كلاوْزنِر مثل عصفور أسير في قفص معلّق في صالون لعائلة قطط صاحبة الجزمات.

أنا فوضويّة نوعا ما، وذلك لسبب بسيط جدّاً، لأنّ أيّ شيء جيد لم يأتِ من أيّ كَرْدِينال ريشليه. يانوشْكا دوراتشوك فقط، أما زلت تذكره؟ ذلك الغبي من قصة خادمتنا كاسنيوتشكا، يانوشْكا دوراتشوك الذي أشفق على الشعب البسيط ولم يرحم الزاد البسيط الذي كان معه فأخذه وسدّ به الثقب في الجسر وبسبب ذلك جعلوا منه، بعد ذلك، ملكا: فقط أشخاص مثله ما زالوا يشفقون أحياناً علينا أيضاً. أما الباقون- جميع الملوك والنبلاء فهم لا يشفقون على أحد. وعمليا، نحن أيضاً لا نشفق كثيرا على الآخرين: فنحن لم نشفق حقّاً على البنت العربية الصغيرة الّتي ماتت عند الحاجز في الطريق إلى المستشفى، لأنَّهُ وقف هناك على الحاجز جنديّ بلا قلب - مثل الكَرْدِينال ريشليه. جندي يهودي- ولكنه الكَرْدِينال ريشليه! كلّ ما أراده هو أن يغلق بسرعة وأن يعود إلى بيته، وهكذا ماتت البنت الّتي يجب أن تمزّق عيونها نفوسنا جميعاً حتى لا ننام طوال الليل، ولكنني لم أرَ حتى عينيها، لأنَّهُم في جرائدنا لا يظهرون إلا صور ضحايانا ولا يظهرون ولو لمرة واحدة، ضحاياهم.

هل تعتقد أن الشعب البسيط هو لُقْيَة كبيرة إلى هذا الحد؟ ليس تماما!

الشعب البسيط غبيّ وقاسي القلب تماما مثل ملوكه. هذه هي العبرة أو المغزى الحقيقي عند أندرسون في قصة «ملابس الملك الجديدة» بأن الشعب البسيط هو غبيّ بالضبط مثل الملك ووزرائه ومثل الكَرْدِينال ريشليه. ولكن يانوشْكا دوراتشوك لم يكن يهمّه أبداً أن يضحكوا عليه مهما أرادوا- ما كان يهمّه أن يبقوا جميعا أحياء. كان في قلبه شفقة عليهم. لقد كان رؤوفا بالناس، لأنَّهُم كلهم بلا استثناء بحاجة إلى قليل من الرحمة. حتى الكَرْدِينال ريشليه. حتى بابا الفاتيكان الذي لا شك أنّك شاهدت في التلفزيون كم كان مريضا ومرهقا، وهنا عندنا، سمحوا له، بدون شفقة، أن يقف ساعات في الشّمس على قدميه المريضتين. لم يرحموا رجلا عجوزا ومريضا جدّاً، وقد شوهد حتى في التلفزيون بأنَّهُ يقف على رجليه وهو يعاني معاناة كبيرة ولكنه تمالك نفسه ووقف أمامنا بصمت في مؤسسة «يد فشم» لمدة نصف ساعة بدون استراحة، في الخمسين، وذلك لكيلا يمسّ كرامتنا. كان من الصعب عليَّ أن أرى هذا، تأثّرت وتضايقت جدّاً بذلك.

*

كانت نينا صديقة حميمة جدّاً لأمّك، فقد كانت من سنّها، وأنا صاحبت الصغيرة، طاسيا. لقد سكنتا عندنا سنوات طويلة مع مامانهما، الأميرة، كانتا تناديانها «مامان» وهي ماما بالفرنسية، ولكن من يدري إذا كانت هي أمّهما حقّاً؟ أو أنّها مجرد مربية لهما؟ كنّ فقيرات جدّاً، وأظنّ أنَّهُنّ لم يدفعن لنا أيّ شيء مقابل استئجار السكن. نحن، على ما يبدو ورثناهن مع كِسانْيا ودورا من رئيس البلدية ليبيدايِفْسكي، ومع ذلك سمحوا لهنّ عندنا أن يدخلن إلى البيت ليس من مدخل الخدم أيّ التشُورْني خود، بل من المدخل الرئيسيّ الذي كان يسمّى بارادنايا خود، لقد كنّ فقيرات، حتى أنّ هذه الأميرة، المامان، كانت تجلس في الليل على ضوء القنديل وتخيط التنانير من ورق مثنيّ لبنات الأثرياء اللواتي كنّ يتعلّمن رقص الباليه. ورق منكمش كانت تلصق عليه بالدبق نجوما كثيرة لامعة مصنوعة من ورق مذهّب.

بقي الحال على ذلك حتى أنّ الأميرة أو الكونتيسة ليوبوف نيكيتيتشنا،

في أحد الأيام، تركت البنتين وسافرت فجأة إلى تونس لتبحث عن قريبة لها ضائعة كان اسمها ييليزافيتا فرانزونفا. والآن، من فضلك، انظر بنفسك، لترى كيف أن الذاكرة تسخر مني! أين وضعت، قبل دقيقة، ساعتي؟ هذا ما لا أستطيع أن أذكره ولا بأيّ شكل من الأشكال. ولكن ماذا كان اسم تلك ييليزافيتا فرانزونفا الّتي لم أرها ولو للحظة طوال حياتي، واحدة باسم ييليزافيتا فرانزونفا والتي قبل ثمانين سنة سافرت الأميرة ليوبوف نيكيتيتشنا للبحث عنها وبالذات في تونس، هذه بالذات أنا أتذكّر اسمها مثل الشمس في كبد السماء! ربما ساعتي ضاعت هي أيضاً في بلاد تونس؟

*

في غرفة الطعام، عندنا، كانت معلّقة لوحة في إطار مذهّب، لخودوجْنيك (رسام) غالٍ جدّاً: ما زلت أذكر تلك اللوحة حيث يظهر فيها فتى جميل جدّاً بشعر فاتح اللون، أجعد متناثر، فتى كان اقرب إلى بنت مدلّلة أكثر منه إلى شاب: كأنَّهُ شيء بين بين، بين الولد والبنت. لم اعد أتذكر الوجه ولكنني أذكر جيدا جدّاً أنَّهُ كان يرتدي في اللوحة قميصا مطرّزا مع أكمام منفوخة، وقبعة صفراء كبيرة كانت مربوطة بخيط على كتفها - ربما ما كان ذلك إلا فتاة صغيرة- وقد شوهدت لها ثلاث تنانير الواحدة تحت الأخرى، لأنّ أحد أطرافها كان مرفوعا قليلا والكشكش يطل من تحتها، قبل كلّ شيء تنورة داخلية بلون أصفر فاقع كما عند فإنّ كوخ، ومن تحتها اطلت تنورة أخرى داخلية مخرّمة بيضاء ومن أسفل كانت رجلاها مكسوّتين على ما يبدو بتنورة داخلية بلون أزرق فاتح كلون السماء. هذه اللوحة وكأنّها محتشمة كلّ الاحتشام إلا أنّها في الحقيقة ليست محتشمة حقّاً. كانت لوحة بحجم طبيعيّ. وهذه البنت الّتي كانت تشبه الولد كثيرا وقفت هكذا وسط الحقل، محاطة بالخضرة والأغنام البيضاء في السماء ظهرت بعض الغيوم الخفيفة وعن بعد ظهرت قطعة من غابة.

أذكر أن حايا قالت ذات مرّة أن مثل هذا الجمال يجب أن لا يخرج إلى الرعي في المرعى بل يجب أن يبقى بين جدران القصر، وأنا قلت بأن التنورة

الداخلية الثالثة والسماء من فوق مرسومتان بنفس اللون بالضبط، وكأنّهم قصّوا التنورة الداخلية مباشرة من السماء. فجأة انفجرت فانْيا بغضب وحشيّ ضدّ كلتينا وقالت لنا اسكتا كلتاكما، ما تقولانه لا يعدو الهذر والكلام الفارغ، هذه لوحة كاذبة جاءت تغطي على فساد أخلاقي كبير جدّاً. تقريبا هذه هي الكلمات الّتي استعملتها ولكن ليس تماما وأنا لا استطيع أن أكرر كلمات أمك، لا أحد يستطيع تكرار كلمات لغة فانْيا. أنت ربما ما زلت تذكر ولو قليلا كيف كانت تتكلّم فانْيا؟

لا استطع، بأي شكل من الأشكال، أن أنسى اندفاعها ذاك، ولا أن أنسى تعابير وجهها في تلك اللحظة. لقد كانت وقتها، أنا لا أستطيع أن أتذكر بالضبط، بنت ست عشرة سنة أو خمس عشرة سنة. أنا أتذكّر كلّ شيء بالضبط وبالذات لأنّهُ لم يكن ملائما لها إلى أبعد الحدود ذلك الاندفاع: ما كانت فانْيا لترفع صوتها إطلاقا، حتى ولا في الحالات الّتي كانوا يؤذونها ويوجعونها، كلّ ما كانت تفعله هو أن تنكمش على نفسها. وإجمالا، عندها كانت هناك حاجة دائماً لأنّ نخمّن كيف تشعر في الحقيقة وما الذي لا يعجبها. وها هي هكذا، فجأة- وأنا حتى أتذكر أن ذلك كان يوم السبت في المساء، أو في مساء أحد الأعياد، ربما عيد العرش؟ أو عيد الأسابيع (العَنصَرة)؟ - فجأة تندفع وتصرخ بنا، ممكن أن أفهم أنّها تصرخ بي إذ طوال حياتي كنت الصغيرة - الغبية، أما أن تصرخ بهذا الشكل بحايا اختنا الكبيرة! القائدة في دورة الشبيبة! مع ما تتحلى به من قوّة شخصية! حايا الّتي تقدرها وتحترمها المدرسة كلها!

ولكن أمك، وكأنّها فجأة تقوم بثورة، بكل بساطة بدأت تحقّر بالكلمات هذه اللوحة الفنية المعلّقة عندنا في غرفة الطعام كلّ تلك السنوات. حقّرتها لأنها تجمِّل الواقع! لأنّها كاذبة! لأنّهُ في الواقع لا يوجد لرعاة الغنم إلا ملابس رثّة بالية وليس ملابس حريريّة. ولهم وجوه نقرها البرد والجوع لا وجوه ملائكة وشعر وسخ مع القمل والبراغيث وليس خصلات ذهبية كهذه. وأن يتجاهل الرسام بهذا الشكل المعاناة فهذا مؤلم ليس أقلّ من التسبب فيها، وبأن هذه اللوحة تحوّل الحياة إلى قطعة حلوى سويسريّة.

ربما غضبت أمّك على اللوحة الّتي كانت في غرفة الطعام لأنّ الخودوجنيك الذي رسمها صمم الصورة بحيث تبدو وكأنّ العالم خلو من المصائب والكوارث. اعتقد أن هذا ما أغضبها. أثناء تلك الاندفاعة يبدو أنّها كانت بائسة أكثر مما كان يمكن لأحد أن يخمّن. أنا آسفة لأنّني أبكي. لقد كانت أختي وقد أحبتني جدّاً وقد افترستها العقارب. يكفي: توقفت. عذرا. كلما تذكّرت هذه اللوحة المتبهرجة وكلما رأيت لوحة فنيّة مع ثلاث تنانير داخلية ومع غيوم كالريش، أرى من فوري العقارب الّتي افترست أختي وأشرع في البكاء.

٢٦

في أعقاب أختها حايا أرسلت فانْيا وهي ابنة ثماني عشرة سنة للدراسة في الجامعة في براغ في سنة ١٩٣١، لأنّ جامعات بولندا أُغلقت في وجه اليهود. درست أمّي في براغ التاريخ والفلسفة. والداها هيرتس وإيتا مثلهم مثل كلّ يهود روفْنو كانوا شاهدين وضحايا كراهية اليهود الّتي بدأت تتفاقم بين جيرانهم البولنديين وكذلك بين جيرانهم الأوكرانيين والألمان. لا ساميّة كاثوليكية ولا سامية بروتستنتية روسية، أعمال طائشة قام بها شباب أوكرانيون وأعمال تنكيل تتفاقم يوما بعد يوم من جانب السلطات البولنديّة. وكما الرعد البعيد دوّت أصداء أعمال التحريض المسمومة والملاحقات والمضايقات ضدّ اليهود الّتي قام بها هتلر في ألمانيا.

كما أن أعمال جدّي تورطت في أزمة: التضخم المالي الذي كان في أوائل الثلاثينات بدد في غضون ليلة واحدة تقريبا جميع توفيراته. خالتي سونْيا حكت لي عن تلك الفترة «القطع النقدية البولندية الكثيرة من فئة المليون أو التريليون الّتي أعطانيها بابا كنت أصنع منها ورق الحيطان. جميع الأموال الّتي وفرها لجهازنا - نحن بناته الثلاث- عند الزواج ذهبت أدراج الرياح خلال شهرين.» كما أن حايا وفانيا سرعان ما اضطرتا إلى التّوقّف عن الدراسة في براغ لأنّ المال، مال والدهما، قد أوشك على النفاد.

وفي صفقة متسرّعة وفاشلة تمّ بيع المطحنة وبيع أيضاً البستان والبيت في شارع دوبْيينْسْكا، وبيعت العربة والخيول والمِزلَجَة. جاءت إيتا وهيرتس موسْمَن إلى أرض إسرائيل كمعدَمَين لا يملكان شيئا تقريبا في سنة ١٩٣٣. استأجرا سقيفة بائسة مكسوّة بورق الزفتة بالقرب من كريات موتسكين. بابا

الذي أحبّ طوال حياته أن يكون قريبا من الطحين، نجح في إيجاد عمل له كعامل في فرن للخبز. بعد ذلك وعندما كان في الخمسين مع عمره تقريبا، اشترى عربة وحصاناً واعتاش في البداية من عمله كموزّع للخبز وبعدها كناقل موادّ بناء في منطقة خليج حيفا. أتذكّره رجلا قمحيا غامق اللون مفكرا بملابس العمل وفانيلا رمادية مُبللة بالعرق، ابتسامته خجولة قليلا إلا أن عينيه الزرقاوين كانتا تُطلقان شرارات من الضحك. والأعنة هادئة بين يديه وكأنّهُ من مقعده الخشبيّ الذي على عرض العربة يجد شيئا طريفا لطيفا ومثيرا للضحك في مناظر خليج حيفا، وسلسلة جبال الكرمل، ومعامل تكرير البترول، ورافعات الميناء البعيدة ومداخن المصانع.

منذ شبابه رأى جدّي نفسه كبروليتار. الآن عندما توقف عن كونه ثريّا وعاد إلى العمل الجسماني وكأنما عاد دفعة واحدة إلى شبابه. حطّت عليه سعادة دائمة مكبوتة، نوع من بهجة الحياة الّتي وثب فيها بصيص فوضوي أيضاً. تماما مثل يهودا ليبف كْلاوْزْنر والد جدّي الثاني، ألِكْسَنْدِر، من بلدة أولْكَنيكي الّتي في ليتوانيا، أحبّ أيضاً جدّي نَفْتالي هيرْتْس موسْمَن عمل العربجيّ، أحبّ وتيرة العزلة والسّكينة الّتي تحيط بالسّفر البطيء المتواصل، أحبّ ملامسة الحصان ورائحته القوية، أحبّ الإسطبل والقشّ واللجام والرسن وعريش العربة وكيس الشّعير والعنان والرسن.

سونْيا الّتي كانت فتاة في السادسة عشرة تقريبا عندما قدم والداها إلى البلاد وتعلمت أختاها في براغ، بقيت في روفْنو خمس سنوات أخرى، حتى تمّ تأهيلها ممرضة في مدرسة التمريض التابعة للمستشفى العسكري البولندي في المدينة. وصلت سونْيا إلى ميناء تل أبيب حيث كان بانتظارها والداها وأختاها وتسفي شبيرا «عريس» حايا اللذان تزوجا مؤخرا، قبل انتهاء عام ١٩٣٨ بيومين. في تل أبيب تزوجت سونْيا بعد مرور عدة سنوات مع من كان مرشدها في حركة الشبيبة الصهيونية في روفْنو، شاب نزيه حريص وكثير المعرفة يحمل اسم افراهام جندلبرغ، بوما.

وفي سنة ١٩٣٤ أي بعد سنة واحدة من قدوم والديها وأختها الكبيرة حايا وقبل أربع سنوات من قدوم أختها الصغيرة سونْيا، قدمت فانْيا أيضاً إلى

البلاد. روى بعض معارفها أنّها مرت في براغ بتجربة عاطفية صعبة: لم يعرفوا بالضبط تفاصيل الحكاية، ولكن عندما كنت في براغ وتمشّيت في عدة أمسيات داخل الأزقة العتيقة المرصوفة بالحجارة حول الجامعة رسمت في مخيلتي صورا وألفت في رأسي بعض القصص.

بعد سنة من قدومها تسجّلت أمّي لمتابعة دراسة التاريخ والفلسفة في الجامعة الّتي على جبل المشارف. بعد ثمان وأربعين سنة وعلى ما يبدو دون أن تكون عندها أيّ فكرة عما درسته جدتها في شبابها، اختارت ابنتي فانْيا أن تدرس في جامعة تل أبيب التاريخ والفلسفة.

*

لا أدري إذا كانت أمّي تركت الدراسة في جامعة براغ وهي في منتصف الدراسة فقط بسبب نفاد أموال والديها. وإلى أيّ مدى دفعتها كراهية اليهود العنيفة الّتي تفاقمت في سنوات الثلاثينات وملأت شوارع أوروبا وانتشرت في الجامعات أيضاً إلى الهجرة إلى البلاد، وإلى أيّ مدى كان قدومها بسبب تربيتها في المدرسة الثّانوِيّة «تَرْبوت» وفي حركة الشبيبة الصهيونية؟ ماذا توقعت أمّي أن تجد هنا، وماذا وجدت، وماذا لم تجد؟ كيف بدت تل أبيب والقدس في عيني من ترعرعت في بيت سيّد روفْنووي ثريّ وجاءت إلى هنا مباشرة من حضن جمال براغ القُوْطيّ؟ كيف كان وقع اللغة العبرية المحكية هنا في البلاد على أذني تلك الفتاة مرهفة السّمع الّتي أحضرت معها من المدرسة الثّانوِيّة «تَرْبوت» لغة عبرية رقيقة حسّاسة لغة الكتب وقد كانت وهبت بحس لغوي دقيق ومضبوط؟ ماذا عنت لأمّي تلال الرّمل، محركات المضخّات في البيارات، المنحدرات الصخريّة، الرحلات الأثرية، خرائب المواقع التوراتية وبقايا بلدات الهيكل الثاني، عناوين صحيفة «دفار» ومأكولات تنوفا، الأودية، الخماسين، قبب الأديرة المحاطة بالأسوار، مياه الجرة الباردة، الأمسيات الثقافية مع العزف على الأكورديون والهَرْمُونِيكَا، سائقو شركتي إيجد ودان ببنطلونات الخاكي القصيرة، نغمات اللغة الإنجليزية، لغة الحكّام، والبساتين المظلمة، ومآذن المساجد، وقوافل الجمال الّتي تحمل الرمل للبناء، الحراس اليهود، الطلائعيون المسفوعون من

الكيبوتس، وعمال البناء بقبعات الكاسكيت المهترئة؟ إلى أيّ مدى ردعتها - أو جذبتها الليالي الحافلة بالنقاش والجدال والانقسامات، والمراودات، رحلات أيام السبت، حماس حياة الأحزاب، وتبادل الأسرار بين أعضاء المنظمات السرّية ومؤيديها، تجنيد المتطوّعين للأعمال الزراعية، الليالي الزرقاء الغامقة، المشوبة بعواء بنات آوى وأصداء طلقات نار بعيدة؟

عندما بلغت السن الّتي فيها كان بإمكان أمّي أن تحكي لي عن طفولتها وشبابها وعن أيامها الأولى في البلاد، كان فكرها بعيداً عن كلّ ذلك ومشغولا بأمور أخرى. قصص المهد الّتي حكتها لي كانت مليئة بالعمالقة، والجنيّات والسّحرة، زوجة الفلاح وبنت الطّحّان، سقائف نائية في قلب الغابة. إذا تحدّثت عن الأيام الماضية، عن بيت والديها، عن المطحنة، عن الكلبة بريما كان هناك شيء مر ويائس يتسلّل أحياناً إلى صوتها، شيء ما مزدوج المعنى، ربما كان لاذعا بشكل غامض، فيه نوع من السّخرية المكبوتة، ولعله كان مركّبا أو غامضا لأنه يعصى علي استيعابه، شيء ما يسبب الضيق وتعكير صفو الراحة.

وربّما بسبب ذلك لم أحبّ أحاديثها هذه وكنت ألحّ عليها دائماً أن تحكي لي بدلا من ذلك شيئا واضحا وقريبا إليّ، عن نساء السّقّاء ماتفي الستّ المسحورات أو عن الفارس الميت الذي يواصل قطع القارات والمدن على شكل هيكل عظميّ يلبس درعا وخوذةً وينتعل مقامع من نار.

لا أعرف شيئا تقريبا عن يوم وصول أمّي إلى حيفا، وعن أيامها الأولى في تل أبيب وعن سنواتها الأولى في القدس. ربما كبديل عن ذلك سأسوق هنا بعض ما حكته لي خالتي سونْيا: كيف جاءت إلى البلاد، ولماذا، وماذا توقعت أن تجد، وماذا وجدت فعلا.

*

في المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت» تعلمنا ليس فقط القراءة والكتابة والتكلّم بلغة عبرية جميلة جدّاً، والتي لم تستطع الحياة حتى الآن أن تفسدها. تعلمنا التوراة و الْمِشْناه والشعر الأندلسي في العصور الوسطى، كما تعلمنا البيولوجيا والبولانستيكا، أي الأدب البولندي وتاريخ بولندا، والفن في عصر

الرنيسانس وتاريخ أوروبا. وتعلمنا في المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت» الّتي تقع خلف الأفق، وراء النهر والغابة، توجد بلاد سنضطر بعد قليل الذهاب إليها لأنّ وقت بقاء اليهود في أوروبا، على كلّ حال، وقتنا نحن، اليهود الذين يعيشون في شرق أوروبا، يتناقص تدريجيا وهو يشرف على الانتهاء.

شعر الوالدان بكيفية تناقص الوقت ونفاده أكثر مما شعرنا نحن: حتى أولئك الذين أصبحوا أثرياء مثل والدنا ومثل العائلات الّتي أقامت في روفْنو المصانع الحديثة أو أثبتوا أنفسهم في المهن الحرة: الطب والمحاماة والهندسة، وحتى أولئك الذين كانت لهم علاقات اجتماعية جيدة جدّاً مع السلطات ومع مثقّفي المدينة، حتى هؤلاء شعروا بأننا نعيش على جبل بركانيّ: أوليسوا موجودين بالضبط على الحدود المتوترة الّتي بين ستالين وجرايفسكي وبيلسودسكي. بالنسبة لستالين، نحن نعلم بأنَّهُ يريد أن يقضي علينا كلية، أن يمحونا عن الوجود، أن يمحو بالقوة كلّ الوجود اليهودي، لكي يصبحوا جميعا أعضاء صالحين في اتحاد الشبيبة الشيوعيّة (الكومْسومول) يشي كلّ منهم بالآخر. من جهة أخرى، تعاملت بولندا مع اليهود، هكذا، باشمئزاز، كمن قضم قليلا من سمكة فاسدة نتنة لم يستطع أن يبلعها ولم يستطع أن يتقيّأها. لم يكن مريحا لهم أن يتقيّؤونا بحضور دول معاهدة فرساي، وفي جوّ الحقوق القوميّة، وأمام ويلسون، وعصبة الأمم، في سنوات العشرينات كان البولنديون ما زالوا يشعرون بشيء من الخجل: فقد كانت رغبتهم شديدة لأنّ يظهروا أمام العالم بصورة جميلة. مثلهم مثل السكران الذي يحاول أن يمشي بشكل مستقيم، كيلا يروا أنَّهُ يمشي ويترنّح من شدة السكر. ما زال البولنديون على أمل أن يبدوا تقريبا كغيرهم من شعوب العالم. وقد فعلوا كلّ ما فعلوه بنا من اضطهاد ومضايقات وإهانات خفيةً «من تحت الطاولة»، من أجل أن نغادر كلنا رُوَيداً رُوَيداً إلى فلسطين حتى لا يروا أحدا منّا. من أجل ذلك حتى أنَّهُم شجّعوا قليلا التربية الصهيونيّة والمدارس الثّانويّة العبريّة: كي نتحوّل كلنا إلى قومية، نعم بالتأكيد، ولم لا، المهمّ أن ننصرف إلى فلسطين والحمد لله الذي خلّصنا منهم.

*

الخوف الذي عشش في كلّ بيت يهوديّ الخوف الذي لم يكونوا يتحدثون عنه أبداً ولكنهم زرعوه في نفوسنا بطريقة غير مباشرة، مثل السم، قطرة قطرة كلّ ساعة، كان هناك خوف مفزع من أننا ربما لسنا بريئين طاهرين بما فيه الكفاية، ربما نحن بالفعل أناس مزعجون ومقلقون أكثر من اللازم، أكثر من اللازم محتّكون وجشعون وطمّاعون. ربما حقّاً عاداتنا وأعرافنا غير مناسبة. كان هناك خوف فتاك، الخوف من أن نترك، لا سمح الله، على الأغيار انطباعا غير جيد، وعندها يثور غضبهم فيعودون بسبب ذلك إلى القيام بأعمال مفزعة ضدنا من المفضل ألا نفكر بها أبداً.

ألف مرّة غرسوا في رأس كلّ طفل يهوديّ أن يتصرّف معهم بأدب حتى وإن عاملوه بفظاظة أو كانوا سكارى، وأنَّهُ يحظر عليه، بأي حال من الأحوال، أن يثير حفيظتهم، وأن يمتنع في كلّ الظروف والأحوال عن مناقشة الأغيار أو مساومتهم أكثر من اللازم، يحظر عليك أن تثير أعصابهم، يحظر عليك أن ترفع راسك، وأن تلتزم دائماً الحديث معهم بهدوء وسكينة وبشاشة، حتى لا يقولوا عنا بأننا مُزعجون، وأن تتحدّث دائماً بلغة بولندية صحيحة وفصيحة حتى لا يقولوا بأننا نلوّث لغتهم، ولكن، من جهة أخرى، ألا نتكلم معهم بلغة بولندية عالية جدّاً حتى لا يقولوا بأننا وقحون نحاول أن نتسلق إلى الأعلى أكثر من اللازم، ولكي لا يقولوا إننا طماعون جشعون، وأن لا يقولوا، لا سمح الله، بأنَّهُ توجد عندنا بقع على التنورة. باختصار: إننا ملزمون جدّاً جدّاً بأن نحاول وأن نحرص على أن نترك عليهم انطباعا جيدا جدّاً، ويحظر على كلّ ولد أن يفسد هذا الانطباع الجيّد إذ أن ولداً واحدا ووحيدا لا يغسل رأسه كما ينبغي ويعشّش فيه القمل يمكن أن يسيء إلى سمعة الشعب اليهودي قاطبة. وهم بدون ذلك لا يطيقوننا وفي جميع الأحوال والظروف يحظر عليك أن تعطيهم، لا سمح الله، أسبابا أخرى لكيلا يطيقوننا.

أنتم يا من ولدتم في هذه البلاد، لا يمكنكم إطلاقا أن تفهموا، كيف أن هذا التقطير البطيء يثني ويلوي لك الأحاسيس، كيف أن هذا يبدو كالصدأ الذي يجعل صورتك البشرية تتآكل، رُوَيداً رُوَيداً، بكل بساطة. رُوَيداً رُوَيداً يحوّلك هذا إلى منافق، كذاب، ومحتال، ومراوغ مثل القطّ. أنا شخصيا لا

أحبّ القطط إطلاقا. الأمر نفسه ينسحب على الكلاب أيضاً. ولكن إذا كان لا بدّ من أن أختار عندها فانا أفضّل الكلب. الكلب هو مثل الأغيار، يمكنك أن تلاحظ مباشرة وفورا بما يفكّر وبما يشعر. اليهودي في المهجر - كان قطّاً بالمعنى السيئ للقط، إذا كنت تفهم ما أقصده.

ولكن أكثر خوفهم طوال الوقت كان من الرّعاع، وما يمكن أن يحدث عند عزل سلطة واستلام أخرى، فإذا طُرد البولنديون وحلّ محلّهم الشيوعيون: كان الخوف أن تظهر، بين هذا وذاك، عصابات من الأوكرانيين أو البيلوروسيين أو الدّهماء البولنديون المحرَّضون أو أبعد من ذلك باتجاه الشمال - أي الليتوانيون. كان ذلك بركان تتقطّر منه، كلّ الوقت، بعض الحمم البركانية كما تنبعث منه رائحة الدخان. «في الظلام يشحذون السكاكين،» قال الناس عندنا، ولم يقولوا من هم، إذ يمكن أن يكونوا هؤلاء أو أولئك أيضاً. الجماهير. كذلك هنا في بلادنا، يتضح، أن الجماهير اليهودية - هي مسخ لا يخلو من الغوغائية.

الناس عندنا لم يخافوا كثيرا من الألمان فقط. أتذكّر أنَّهُ في سنة أربع وثلاثين أو خمس وثلاثين، كنت قد بقيت الأخيرة من بين جميع أفراد العائلة في روفْنو لكي أنَّهي دراسة التمريض، في سنة خمس وثلاثين كان ما زال عندنا من قالوا ليت هتلر يصل إلى هنا، عنده، على الأقلّ، يوجد قانون ويوجد انضباط ويعرف كلّ واحد مكانهُ، ليس مهمّاً إلى حد كبير ما يقوله هتلر، من المهم أنَّهُ يفرض هناك نظاما ألمانيا كما ينبغي وأن الرعاع يرتجفون خوفا منه. من المهمّ أنَّهُ عند هتلر، على الأقلّ، لا توجد اضطرابات شوارع ولا توجد فوضى- في حينه كان الناس عندنا ما زالوا يعتقدون، أن الفوضى هي أسوأ ما يمكن أن يحدث: كان الكابوس أن يبدأ الكهنة في أحد الأيام بالتحريض في كنائسهم بأن دم المسيح ينزف ثانية بسبب اليهود، ثمّ يبدؤون بقرع أجراسهم المروّعة، فيسمعها الفلاحون فيملؤون بطونهم بالخمر (المصنوعة غالبا من كحول الحبوب) فيحملون البلطات أو الفؤوس والمِذْراوات، وهكذا يبدأ الأمر.

*

لم يخطر ببال أحد ما الذي من المتوقع أن يحدث فعلا، ولكن، منذ العشرينيات عرف الجميع تقريبا في قرارة أنفسهم بأنَّهُ لا يوجد مستقبل لليهود عند ستالين ولا في بولندا ولا في كلّ شرق أوروبا، ولذلك أخذ يتعزز التيار المنادي بأرض إسرائيل- ليس لدى الجميع، المتزمتون، بالطبع، عارضوا ذلك جدّاً، وأتباع حزب البوند ودعاة الإيديش، والشيوعيون، والمنصهرون الذين ظنوا أنفسهم بولنديين أكثر من باديريفسكي أو فيتشيخوفسكي، ولكن أناسا عاديين كثيرين جدّاً في روفْنو في العشرينيات اهتمّوا بأن يتعلّم أولادهم اللغة العبرية وأن يتعلموا في مدرسة «تَرْبوت». أما أولئك الذين كانوا يملكون ما يكفي من المال فقد أرسلوا أبناءهم ليتعلّموا في حيفا، والتخنيون، أو في إحدى مدارس تل أبيب الثّانوِيّة أو في المدارس الزراعيّة في البلاد، والأصداء الّتي وصلت إلينا من البلاد كانت رائعة بكل بساطة- والشباب كانوا ينتظرون متى سيحين دورهم؟ وحتى ذلك الحين قرأ الجميع الجرائد باللغة العبرية وتناقشوا وغنّوا أغاني أرض إسرائيل، وقرؤوا بانفعال قصائد بياليك وتْشيرْنِخوفْسْكي، وانقسموا إلى أحزاب ومجموعات كثيرة، خاطوا البِزّات والأعلام، وكان هناك حماس وانفعال عظيمان من كلّ شيء قوميّ. إنّ ذلك يشبه كثيرا جدّاً جدّاً الأمور الّتي نشاهدها هنا اليوم عند الفلسطينيين، ولكن بدون سفك الدماء الّذي يقومون به. عندنا، عند الشعب اليهودي، حاليا، لا نكاد نشاهد مثل هذه القومية.

لقد عرفنا، بالطبع، مدى الصعوبة في البلاد: عرفنا أن الحرّ شديد جدّاً، صحراء، مستنقعات، بطالة، وعرفنا أيضاً بوجود عرب فقراء في القرى، ولكن على الخريطة الكبيرة الّتي كانت معلّقة في الصف رأينا بأنّ العرب غير كثيرين، ربما كان عددهم في البلاد نصف مليون، وبكل تأكيد أقلّ من مليون واحد، وكنّا متأكدين تماما بأنَّهُ يوجد مكان كافٍ لعدة ملايين من اليهود، وبأنّ العرب ربما أنَّهُم محرَّضون ضدّنا مثل الشعب البسيط في بولندا، ولكن من الممكن أن نشرح لهم وأن نقنعهم بأن وجودنا لن يسبّب لهم إلا الخير والنعمة الاقتصادية والطبية والثقافية وغيرها وغيرها. فكّرنا بأنَّهُ بعد قليل، أي بعد سنوات قليلة، سيكون اليهود أغلبية في البلاد- وعندها

سنكون فوراً القدوة لكلّ العالم في التعامل مع الأقلية الّتي بيننا، مع العرب: نحن الذين كنا طوال الوقت أقلية مضطهدة، سنتعامل بكل تأكيد مع الأقلية العربية عندنا بنزاهة وعدالة وكرم، سنشترك معهم في الوطن سنتقاسم معهم كلّ شيء، ولن نحوّلهم إلى قطط. حلمنا حلما جميلا.

*

في كلّ صف من صفوف رياض الأطفال «تَرْبوت» وفي جميع الصفوف التمهيدية «تَرْبوت» والصفوف الثّانويّة «تَرْبوت» كانت تعلّق صورة كبيرة لهرتسل، وخريطة كبيرة من دان وحتى بئر السبع ظهر فيها أسماء مستوطنات الطلائعيين بخط كبير وبارز، وعلبة لجمع التبرعات للكيرن كيّمت، وصور للطلائعيين خلال عملهم، بالإضافة إلى عدد من الشعارات والمقطوعات الشعرية. لقد حلّ بياليك مرتين ضيفا على روفْنو كما زارنا هنا شاؤول تشرْنِيحوفْسْكي مرتين أيضاً، وكذلك زارنا آشير براش هذا ما يخيّل إليّ أو لربما كان ذلك أديب آخر. كما اعتاد على زيارتنا في كلّ شهر تقريبا زعماء يهود من أرض إسرائيل مثل: زلمن روفشوف، طبنكين، يعكوف زوروبابل، وزئيف جابوتِنْسْكي.

كنا، تكريما لهم، نقيم الاستعراضات الكبيرة، بمرافقة الطبول والأعلام والزينة والمصابيح الورقيّة، بحماس ومع شعارات وشريط حول الكم والأناشيد كان رئيس البلدية البولندي بنفسه، على علو منزلته، يخرج إلى الساحة لاستقبالهم، وهكذا بدأنا نشعر أحياناً أننا نحن أيضاً شعب، وليس مجرد قاذورات. ربما يصعب عليك أنت أن تفهم هذا، ولكن في تلك السنوات، كان جميع البولنديين سكارى ببولَنْدِيِّتهم، وكان الأوكرانيون سكارى بأوكرانيتهم وكذلك الألمان، والتشيك، كلهم وحتى السلوفاكيون والليتوانيون واللاتفيون، ولنا وحدنا لم يكن مكان في هذا المهرجان، لم نكن تابعين ولم نكن مرغوبين. ما العجب إن رغبنا نحن أيضاً في أن نكون شعبا مثل جميع الآخرين؟ أيّ خيار أبقوه أمامنا؟

لكن التربية لم تكن شُوفِينِيّة. التربية في «تَرْبوت» كانت إنسانيّة بالذات، وكانت تقدّميّة وديموقراطيّة وكذلك فنّيّة وعِلميّة. حاولوا أن يمنحوا البنات

والبنين حقوقا متساوية. علّموني أن نكنّ كلّ الاحترام للشعوب الأخرى ولا شيء غير الاحترام: خلق الإنسان على صورة الخالق حتى وإن كان ينسى ذلك طوال الوقت.

منذ سنّ مبكرة جدّاً كنّا عمليّاً مشغولين بالتفكير في أرض إسرائيل، حفظنا عن ظهر قلب أحوال المستوطنات، ماذا ينمو في حقول بثير طوفيا وما هو عدد سكان زخرون يعكوف، من عبّد شارع طبريا - سمخ (تسيمح) ومتى استوطنوا جبل الجلبوع. حتى أننا عرفنا ماذا كانوا يأكلون هناك، وماذا كانوا يلبسون.

أعني أننا اعتقدنا أننا نعرف. الحقيقة هي أن المعلمين أنفسهم لم يعرفوا ولذلك حتى لو أرادوا أن يحكوا عن الجوانب السيئة - لم يستطيعوا: لم تكن عندهم أدنى معلومة. كلّ من جاء من البلاد، مبعوثون، مرشدون، زعماء، وكل من سافر ثمّ عاد، رسم لنا صورا تخلب العقول. وإذا حضر ذات مرّة أيّ شخص وحكى أشياء غير ايجابية، لم نكن نحب أن نسمعه. وبكل بساطة كنا نخرسه. تعاملنا معه باشمئزاز.

*

مدير مدرستنا الثّانويّة كان رجلا ساحرا، جذّابا، كان مربيّاً رائعا ذا ذهن حادّ وقلب شاعر. كان اسمه رايس، دكتور رايس، يسّاخار رايس. جاء إلينا من جليتسيا وتحوّل بسرعة كبيرة إلى معبود أبناء الشبيبة. جميع البنات أحببنه في خفايا قلوبهن، حتى أختي حايا الّتي برزت في المدرسة بنشاطها الجماهيري وبكونها زعيمة طبيعية وكذلك، أمك فانْيا، الّتي أثّر عليها الدكتور رايس تأثيرا صوفيّاً ودفعها بلطف نحو الاتجاه الأدبي والفني. لقد كان شخصا جميلا جدّاً ورجوليا يشبه قليلا رودولف فلينتينو أو رامون نافارو في السينما، مليء بالدفء والتعاطف الطبيعي، لا يكاد يغضب أبداً وإذا غضب - ما كان يتردد في أن يدعو إليه الطالب وأن يعتذر له عن اندفاعه.

المدينة كلها كانت مسحورة به. اعتقد أن الأمهات كنّ يحلمن به في الليل وكانت البنات تذوب لمجرد مشاهدته في النهار. والأولاد أيضاً ليس أقلّ من البنات: فقد حرصوا على تقليده. أن يتكلموا مثله، وأن يسعلوا

مثله، وأن يتوقفوا في وسط الجملة مثله، وأن يذهبوا للوقوف لعدة دقائق عند النافذة، شاردي الذهن. كان بإمكانه أن ينجح كثيرا كفاتن للنساء. ولكنه لم يكن كذلك: بحسب معلوماتي فقد كان متزوّجا - وليس زواجا سعيدا إلى حد كبير، من امرأة أقل منه شأناً - ولكنه تصرف كرب عائلة نموذجيّ. كما كان بإمكانه أن ينجح كزعيم- كان يتحلّى بهذه الصفة الّتي تجعل الناس يحبون السير خلفه بالروح والدم وأن يفعلوا من أجله كلّ شيء يمكن أن يجعله يبتسم بتقدير وأن يقول لهم بعد ذلك كلمة ثناء. كانت أفكاره هي أفكارنا جميعا. دعابته أصبحت أسلوب كلّ واحد منّا. وقد آمن أنَّهُ في أرض إسرائيل فقط سيشفى اليهود من مرضهم النفساني وسيتمكنون من أن يثبتوا لأنفسهم وللعالم بأنَّهُ توجد لهم صفات حسنة أيضاً.

بالإضافة إليه كان لنا معلمون رائعون، كان الأستاذ مناحم جيليرطر الذي درّسنا التوراة وكأنَّهُ كان هو نفسه موجودا في وادي الحصى (عيمق هئيلا) أو في عناتا (عنتوت) أو في هيكل الفلسطينيين في غزّة. وكان يدرّس أيضاً الأدب العبري وآداب الشعوب وأنا أتذكر كيف أنَّهُ في أحد الأيام أثبت لنا أن بياليك، بكل تأكيد، لا يقلّ في أيّ شيء عن ميتْسْكيفيتْش وذلك عن طريق مقارنة بيت مقابل بيت. كان مناحم جيليرطر يأخذنا كلّ أسبوع في رحلة في البلاد، مرّة في الجليل، ومرة في مستوطنات يهودا ومرة في غور أريحا ومرة في شوارع مدينة تل أبيب: كان يحضر الصور والخرائط ومقتطفات من الصحف ومقطوعات من الشعر والأدب، صفحات من التوراة والجغرافيا والتاريخ والآثار، حتى أنّكِ كنتِ تشعرين بعد ذلك بتعب لطيف كهذا، وكأنّك فعلا كنتِ هناك، وليس فقط بأفكارك بل فعلا على قدميك مشيتِ هناك في الشمس والغبار. بين أشجار الحمضيات وبين الوجار في الكرم وسياج الصبار وخيام الطلائعيين في السهول. وهكذا جئت إلى أرض إسرائيل قبل أن أصلها فعلا بوقت طويل.

٢٧

في روفْنو كان لفانيا صاحب، معجب، رجل أكاديميّ، شاب رقيق وعميق كان اسمه تارلا أو تارلو. كان لهم ما هو أشبه بتنظيم صغير للطلاب الصهيونيين كان أعضاؤه أمك وتارلو واختي حايا استريكا بن مئير، وفانيا فايسمن وربما أيضاً فانْيا زوندر وليليا كليش الّتي سميت فيما بعد ليئه بار سمخا، وآخرون غيرهم. كانت حايا هناك هي الزّعيمة الطبيعيّة حتى سافرت للدراسة في براغ. كانوا يجلسون ويرسمون الخطط المختلفة كيف سيعيشون في أرض إسرائيل، كيف سيشتغلون هناك لتعزيز الحياة الفنيّة والثقافية، وكيف يحافظون هناك على وشائج العلاقة الروفنوية فيما بينهم. بعد أن غادرت البنتان روفْنو وذهبتا للدراسة في براغ وقدم هؤلاء إلى البلاد، بدأ تارلو يخطب ودّي. كان ينتظرني كلّ مساء عند مدخل المستشفى العسكري البولندي. كنت أخرج بالفستان الأخضر ومنديلي الأبيض، وكنا نتنزّه مَعاً في تشيتشبيكو مايا وفي شارع توبوليوفا الذي تحوّل إلى شارع بيلْسودْسْكي وفي حديقة القصر، وفي غابة جرافني، وكنا أحياناً نسير باتجاه النهر أوستيا، إلى الحي العتيق، إلى منطقة القلعة حيث كان هناك الكنيس الكبير وكذلك الكنيسة الكاثوليكيّة. لم يكن بيننا، طوال الوقت، أيّ شيء سوى الكلام، وفي أقصى الحالات ربما في مرتين أو ثلاث أمسك كلّ منا بيد الآخر. لماذا؟ لا استطيع أن أشرح لك لأنكم بطبيعة الحال لن تفهموا ذلك. وربما حتى أنكم تسخرون منا: كنا نتحلى حينها بعفاف مفزع، كنا مدفونين تحت جبل من الخجل والفزع.

كان تارلو هذا ثورياً كبرا جدّاً بحسب آرائه، ولكنه كان يحمرّ خجلا من كلّ شيء: إذا صدف وقال كلمة «نساء» أو «رضاعة» أو «تنورة» أو حتى كلمة «رجلين» كان فوراً يحمرّ وجهه خجلا حتى أذنيه وكأنَّهُ ينزف دماً، وكان يبدأ بالاعتذار والتلجلج قليلا. كان طوال الوقت يحدّثني دون توقف عن التكنولوجيا والعلوم هل يجلبان النعمة للبشرية؟ أم النقمة؟ أم النعمة وكذلك النقمة؟ وكان يتحدث بحماس كبير عن المستقبل حيث بعد وقت قليل لن يكون هناك فقر ولا ظلم ولا أمراض ولا حتى موت. كان شيوعيا إلى حدّ ما، ولكن ذلك لم يسعفه كثيرا: عندما جاء ستالين في سنة إحدى وأربعين ببساطة تم أخذه واختفى.

من كلّ سكان روفْنو اليهود لم تبق نفس واحدة تقريبا على قيد الحياة- بقي أولئك الذين جاءوا إلى البلاد قبل فوات الأوان، والقلة القليلة الّتي هاجرت إلى أمريكا، وأولئك الذين نجوا من حراب النظام البُلْشُفِيّ. ومن سواهم قتلهم الألمان، بالإضافة إلى الذين قتلهم ستالين. لا، أنا لم أعد أرغب في الذهاب إلى هناك: ما الهدف؟ لكي اشتاق من هناك من جديد إلى أرض إسرائيل الّتي لم تعد هي الأخرى موجودة، وربما أنَّها لم تكن موجودة أبداً خارج أحلامنا كشباب؟ لكي اتلوّع وأتفجّع؟ ولكنني من أجل أن اتلوّع وأتفجّع لا احتاج أبداً التزحزح من شارع فايْزِل ولا احتاج حتى إلى الخروج من البيت. أنا أجلس لي هنا على الأريكة واتلوّع وأتفجّع عدة ساعات في اليوم. أنا انظر من النافذة فاتلوّع وأتفجّع. لا، لا اتلوّع وأتفجّع على ما كان وضاع بل على ما لم يكن موجودا أبداً. فأنا لا أملك اليوم أن اتلوّع وأتفجّع على تارلو، فقد مضت على تلك الأيام سبعون سنة تقريبا. وهو ما كان ليكون حيّاً في هذه الأيام بل ميتا، إذا لم يكن بسبب ستالين فبسبب ما يجري هنا، من الحروب أو الأعمال الإرهابية وإذا لم يمت من الحرب إذن لمات من السرطان أو السُّكَّرِيّ. لا! أنا اتلوّع وأتفجّع فقط على ما لم يكن ذات مرّة. فقط على الصور الجميلة الّتي كنا نرسمها لأنفسنا وقد امحت الآن.

*

في تْريِيسْت صعدت على سفينة شحن رومانيّة كان اسمها «كونستانتسا»

وأنا أتذكّر بأنّني وعلى الرغم من أنّني لم أومن بأي ديانة فأنّني لم أرِد أن آكل لحم الخنزير- ليس من أجل الله، فهو نفسه هو الذي خلق الخنزير، ولم يشمئزّ منه، وعندما يُذبح الخنوص ويصرخ الخنوص متوسلا بصوت يشبه صوت الطفل المعذّب فإنّ الله يسمع ويرى كلّ قُباع ونعرة للخنزير وهو يشفق على الخنوص المعذَّب تقريبا كما يشفق على البشر. يشفق على الخنزير الصغير ليس أكثر ولكن ليس أقلّ أيضاً مما يشفق على جميع هؤلاء الحسيديم أتباعه الذين يؤدّون جميع الفرائض ويعبدونه طوال حياتهم.

ليس من أجل الله بل فقط لأنّهُ لم يكن يناسبني، وبالذات وأنا في طريقي إلى أرض إسرائيل، أن ألتهم وأنا على هذه السفينة لحم خنزير مدخّناً ولحم خنزير مملَّحاً ونقانق خنزير. وعليه بدلا من ذلك تناولت طوال الطريق خبزا أبيض رائعا خبزا طازجّاً لذيذا وغنيّاً. في الليالي كان نصيبي أن أنام تحت سطح السفينة في الدرجة الثالثة في المهجع بجوار فتاة يونانيّة مع طفلة ربما عمرها ستة أسابيع لا أكثر من ذلك. في المساء كنّا كلتانا نؤرجح الطفلة بواسطة شرشف كما في الأرْجوحة الشبكيّة، حتى تهدأ وتكفّ عن البكاء وتنام. أن نتبادل الحديث، لا لم ننبس ببنت شفة، لأنّهُ لم تكن بيننا أي لغة مشتركة، ولعله بسبب ذلك افترقنا أنا وهذه الفتاة بمحبة كبيرة.

وأنا حتى أتذكر أنّهُ للحظة واحدة هناك مرت برأسي فكرة، لماذا أصلا أنا مسافرة إلى أرض إسرائيل؟ هل فقط من أجل أن أعيش بين اليهود؟ ها هي هذه اليونانية والتي ربما لا تعرف ما معنى يهوديّ اقرب إليّ من كل الشعب اليهودي! كل الشعب اليهودي بدا لي للحظة مثل كتلة كبيرة تنضح عرقاً يحاولون إغرائي بالدخول إلى جوفها لتقوم بهضمي بواسطة عصارة معدتها، فقلت لنفسي، سونْيا، هل هذا حقا ما تريدينه؟ من المثير للاهتمام، أن هذا الخوف لم يراودني أبداً وأنا في روفْنو حيث أنّني مقبلة على أن أُهضَم بعصارة معدة الشعب. كذلك وأنا في البلاد لم يعد يراودني هذا الخوف. فقط في حينه وللحظة في السفينة في الطريق عندما كانت الطفلة اليونانية تنام على ركبتيّ وأنا شعرت بها عبر فستاني وكأنّها كانت في تلك اللحظة قطعة من لحمي على الرغم من أنّها لم تكن يهوديّة، على الرغم من انطيوخوس

الشرير وعلى الرغم من هذا النشيد غير الجميل «صخرة خلاصي»[1] الذي عسى من الأفضل ألا أفكر بكلماته النازية. لعله ما كان علي أن أقول نازية ولكن مع كلّ ذلك كلماته غير جميلة أبداً.

*

في الصباح الباكر، حتى أنّني استطيع أن أقول لك التاريخ والساعة بالضبط، لقد كان ذلك بالضبط قبل ثلاثة أيام من نهاية سنة ثمانٍ وثلاثين، يوم الأربعاء الموافق الثامن والعشرين من كانون أول سنة ثمان وثلاثين، بعد أيام من عيد الأنوار (الحانوكا)، لقد كان بالذات يوما صافياً جدّاً خاليا من الغيوم تقريبا، في الساعة السادسة صباحا كنت قد ارتديت ملابس دافئة جارزة ومعطفا قصيرا، وصعدت إلى سطح السفينة ونظرت إلى خط الغيوم الرمادي قبالتي. ربما بقيت أنظر حوالي الساعة وما شاهدت سوى طيور النَّوْرس. وفجأة، ودفعة واحدة تقريبا، من فوق خط الغيوم ظهرت شمس الشتاء ومن تحت خط الغيوم ظهرت مدينة تل أبيب: صف تلو آخر من البيوت المربّعة باللون الأبيض، لا تشبه إطلاقا بيوت المدينة ولا بيوت القرية في بولندا وفي أوكرانيا، ولا تشبه إطلاقا بيوت روفْنو ولا وارسو ولا ترييست، ولكنها تشبه كثيرا جدّاً الصور الّتي كانت معلّقة في كلّ صفّ من صفوف مدرسة «تَرْبوت»، من صفوف الروضة وحتى صفوف الثّانويّة، كذلك كانت تشبه الصور والرسوم الّتي كان يطلعنا عليها الأستاذ مناحم جيليرطر. وهكذا كنت مستغربة وغير مستغربة.

لا استطيع أن أصف كيف تصاعد الفرح دفعة واحدة إلى حلقي، فجأة أردت فقط أن اصرخ وأن اغني، هذا لي! هذا كله لي! هذا حقا كله لي! غريب، كيف أنّني قبل ذلك، لم يتملكني أبدا شعور بهذه القوة بالانتماء العميق، إحساس ببهجة الملكية، ليس في بيتنا، وليس في بستان أشجارنا المثمرة، وليس في المطحنة، إن كنت تعي وتفهم ما اقصده بذلك. ولا مرّة في حياتي، ليس قبل ذلك الصباح ولا بعد ذلك الصباح، ما تملكتني فرحة

(١) نشيد ينشد في عيد الأنوار (الحانوكا) (المترجم).

من هذا النوع: ها هو أخيرا هنا سيكون بيتي، ها هو أخيرا هنا استطيع أن أغلق الستائر وأن أنسى الجيران وأن أقوم بما يروق لي فقط. هنا أنا لست مهذّبة ولا أخجل من أيّ شخص ولا يقلقني ما سيقوله الفلاحون عنّا وما سيقوله الكهان وما سيشعر به المثقفون نحونا، كما أنّني لست ملزمة بأن أحرص على أن أترك انطباعا جيدا على الأغيار. حتى أننا عندما اشترينا بيتنا الأول، في حولون، أو هذا الذي في شارع فايْزِل، لم أشعر بهذا القدر من القوة بجمال كوني صاحبة البيت. كان هذا هو الشعور الذي ربما تملّكني في الساعة السابعة صباحا وأنا أمام مدينة لم أدخلها من قبل، وأنا أمام بلاد حتى لم تطأها قدماي بعد، وأنا أمام بيوت بيضاء غريبة لم أر مثلها من قبل في حياتي! أنت ربما لا تفهم ذلك جيدا؟ هذا يبدو لك سخيفا بعض الشيء؟ أو غير منطقي؟ أليس كذلك؟

في الحادية عشرة صباحا نزلنا مع الحقائب إلى قارب مع محرك والملاح الذي كان هناك، يشبه أوكرانيا غير يهودي ضخم الجسم أشْعَر يتصبّب كله عرقا، مخيفا قليلا، ولكن في اللحظة الّتي قلت له بأدب شكراً باللغة الأوكرانية وأردت أن أعطيه قطعة نقد ضحك وقال لي فجأة بلغة عبرية سليمة «حبوبة، ماذا حدث لكِ، لا حاجة لذلك، ربما أعطيتني بدلا من ذلك قبلة صغيرة؟»

*

كان ذلك اليومُ يوما لطيفا، باردا قليلا، وأنا أتذكّر قبل كلّ شيء رائحة لطيفة جدّاً، مسكرةً قليلا، رائحة قوية جدّاً رائحة زفت مغليّ ومن قلب الدخان الكثيف المتصاعد من براميل الزفت، يبدو أنَّهُم في ذلك الوقت بالضبط كانوا يعبّدون ساحة أو رصيفا، من خلال الدخان الأسود سطع عليّ فجأة وجه أمّي، وهي تضحك، تلاها بابا مع الدموع وأختي حايا مع زوجها، مع تسفي، الذي لم أكن قد تعرّفت عليه بعد ولكنني فوراً ومن أول نظرة لمعت في رأسي الفكرة التالية: أيّ فتى وجدت لها هنا! جميل المنظر وطيب القلب وبشوش! وفقط بعد أن تعانقنا وقبلت كلّ واحد منهم، انتبهت إلى أن أختي فانْيا أيضاً، أمك، كانت معهم هناك. كانت تقف هكذا جانبا قليلا،

بعيدة بعض الشيء عن البراميل المشتعلة، وقفت بتنورة طويلة وجارزة زرقاء مشغولة بالصنارة، وقفت هادئة تنتظر أن يأتي دورها لتعانقني وتقبلني بعد الآخرين كلّهم.

هكذا، كما لاحظت فوراً بأن أختي حايا متفتحة ومزدهرة هنا، كلها حيوية متورّدة الخدين، فخورة، حاسمة- لاحظت أن فانْيا لا تشعر بالارتياح: فقد بدت لي شاحبة جدّاً وهادئة أكثر مما كانت دائماً. لقد جاءت من القدس خصيصا لاستقبالي، واعتذرت باسم آريه، زوجها، والدك، لأنَّهُ لم يأخذ يوم إجازة، ودعتني لزيارتهم في القدس.

بعد ربع أو نصف ساعة فقط انتبهت إلى أنَّهُ لم يكن مريحا لها أن تقف وقتا طويلا كهذا على رجليها. قبل أن تقول لي هي أو أيّ شخص آخر من العائلة اكتشفت بنفسي فجأة أن حملها، أي حملها بك، ليس سهلا. ربما كانت ما زالت في الشهر الثالث، ولكنّ خدّيها بدَوَا لي غائريْن قليلا، وشفتيها شاحبتين، وجبينها وكأنَّهُ غائم. جمالها لم يختفِ بل على العكس، كأنَّهُ اتّشح بسبب ذلك بمنديل رماديّ، لم تزله بالكامل.

كانت حايا دائماً هي الأكثر ألقاً وإثارة للإعجاب من بيننا نحن الثلاث، مثيرة للانتباه، متألّقة تخلب الألباب، ولكن من أمعن النظر فيها مرّة ثانية وخاصة إذا كان ذا نظرة ثاقبة كان بإمكانه أن يرى بأن أجملنا كانت، مع كلّ ذلك، هي فانْيا. أنا؟ أنا تقريبا لم أكن معتبرة: فقد كنت دائماً الصغيرة - الحمقاء. أنا اعتقد أن أمّنا كانت معجبة بحايا وكانت تعتزّ بها، ومن جهة أخرى، ما كان بابا ينجح في إخفاء الحقيقة بأن قلبه كان موجّهاً غالبا نحو فانْيا. أنا لم أكن واسطة العقد لا عند أبي ولا عند أمّي، ولكن ربما عند جدّي إفْرايم ومع ذلك أحببت الجميع: لم أغَر من أحد، ولم أتذمّر من أيّ شيء. ولعلّ الأقلّ محبة بالذات إذا لم يكن غيورا ولا يشعر بالمرارة هو الذي يمكنه أن يستخلص من نفسه المزيد المزيد من الحبّ، أليس كذلك؟ أنا لست متأكّدة تماما من كلّ ما قلته الآن. ربما كان هذا مجرّد نوع فارغ من القصص الّتي أحكيها لنفسي قبيل النوم. ومن الممكن أن كلّ واحد منا يحكي لنفسه قصصا قبيل النوم لكي يروّح عن نفسه. عانقتني أمك وقالت لي سونْيا

ما أجمل أنّك قد جئتِ! جميل أننا نجتمع مَعاً من جديد، نحن بحاجة هنا إلى أن يساعد كلّ منا الآخر كثيرا، وخاصة علينا أن ندعم والدينا وأن نرفع من معنوياتهما.

كانت شقة حايا وتسفي على بعد ربع ساعة، ربما، من الميناء، وتسفي القويّ حمل تقريبا بمفرده كلّ حمولتي. في الطريق شاهدنا عمالا يقومون ببناء بناية كبيرة، هذه هي بناية السمينار (دار المعلمين) الّتي ما زالت قائمة في شارع بِنْ يِهودا قبل زاوية جادّة نورداو بقليل. بدا لي هؤلاء العمال لأول وهلة مثل مجموعة من النَوَر أو الأتراك ولكن حايا قالت بأَنَّهُم يهود ولكن سفعتهم أشعة الشمس. مثل هؤلاء اليهود لم أرَ في حياتي سوى في الصور. عندها انْهُمرت الدموع من عينيّ- لأنّ هؤلاء العمال كانوا أقوياء ومسرورين، ولكن أيضاً لأنّني شاهدت بينهم ولدين أو ثلاثة أولاد صغار، ربما لم يتجاوزوا الثانية عشرة. على ظهورهم عُلّق ما يشبه السّلم الخشبي وعلى هذا السلّم كومة من حجارة الطوب الثقيلة. شاهدت ذلك وبكيت قليلا، وذلك نتيجة الفرح وأيضا بسبب الإهانة أو الحزن. من الصعب عليّ أن أشرح ذلك.

في شارع بِنْ يِهودا بالقرب من جابوتِنْسْكي في شقّة حايا وتسفي الصغيرة كان بانتظارنا يجئال مع جارة كانت تحرسه حتى حضورنا، لقد كان ربما ابن نصف سنة، طفل يقظ وبشوش مثل أبيه، وكان أول ما فعلته أن غسلت يديّ وأخذت فوطة وفرشتها على صدري ورفعت يجئال على ذراعيّ واحتضنته وعانقته، بلطف ورقة، وهذه المرة لم أشعر إطلاقا برغبة في البكاء، ولكني لم أشعر من جهة أخرى ببهجة غامرة كتلك الّتي شعرت بها في السفينة، بل شعرت فقط بتأكيد مطلق، من أعماقي، من قرارة نفسي، من قعر البئر وكأنَّهُ جميل جدّاً أننا جميعا قد أصبحنا هنا وليس في البيت الموجود في شارع دوبْبينْسْكا. كما شعرت فجأة، أيضاً، أنَّهُ من المؤسف جدّاً أن ذلك الملاح الوقح الذي كان يتصبّب عرقا لم يحصل، بالرغم من كلّ شيء، على قبلة صغيرة مني كما طلب. ما العلاقة؟ حتى الآن لا أدري، ولكن هذا ما شعرت به هناك في تلك اللحظة.

في المساء أخذني تسفي وفانيا في جولة قصيرة لأرى تل أبيب، أي أننا

ذهبنا إلى شارع ألَلّنبي وإلى جادّة روتشيلد لأنّ شارع بِنْ يِهودا هذا لم يكن يعتبر فعلا من تل أبيب في تلك الأيام- شمال شارع بِنْ يِهودا، كان في تلك الأيام تقريبا مثل أور يهودا اليوم. وأنا أتذكّر كم بدا لي كلّ شيء، لأول وهلة، في ساعات المساء، نظيفا وجميلا، مع مقاعد الشّوارع والمصابيح واللافتات باللغة العبرية: وكانت مدينة تل أبيب كلها مجرد معرض جميل جدّاً في ساحة المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت».

كان ذلك في أواخر كانون أول سنة ثمانٍ وثلاثين، ومنذ تلك السنة لم أغادر البلاد ولو لمرة واحدة، اللهم إلا بالخيال. وأنا لن أغادرها أيضاً. ليس هذا لأنّ أرض إسرائيل رائعة إلى هذا الحدّ، ذلك لأنّني اليوم اعتقد بأن كلّ سفر في رحلة ما هو إلا حماقة كبيرة: الرحلة الوحيدة الّتي لا نعود منها دائماً صفر اليدين هي الرحلة الداخلية. في الداخل لا توجد حدود ولا جمارك، يمكن الوصول حتى إلى أبعد النجوم. أو التمشّي في أماكن لم تعد موجودة، وزيارة أشخاص لم يعودوا على ظهر الأرض. وحتى الدخول إلى أماكن لم تكن موجودة في يوم من الأيام وربما ما كان وجودها ممكنا، ولكنني ارتاح فيها. أو على الأقلّ - ليس سيّئا. وأنتَ؟ هل أعمل لك بسرعة «مقلى عجة»؟ مع حبة بندورة وقطعة جبنة وقطعة خبز؟ أو ربما مع أفوكادو؟ لا؟ أنت مستعجل دائماً؟ ألا تشرب، على الأقلّ فنجان شاي آخر؟

*

في الجامعة الّتي على جبل المشارف أو ربما في إحدى الغرف الضّيّقة في كيرِمْ أفْراهام في جيئولا أو أحفا الّتي فيها تجمّع الطالبات والطلاب الفقراء اثنين- اثنين أو ثلاثة- ثلاثة في غرفة، التقت فانْيا موسمَن ويهودا آريه كْلاوْزْنِر. كان ذلك في سنة خمس وثلاثين وستّ وثلاثين. علمت أن أمّي سكنت في حينه في غرفة مستأجرة في شارع تْسفانْيا ٤٢ مع اثنتين من صديقاتها الروفْنويات هنّ أيضاً طالبات جامعيات: استريكا فاينر، وفانيا فايسمن. كما علمت أنّ الكثيرين كانوا يخطبون ودّها. صحيح أنَّهُ هنا وهناك، كانت لها، كما سمعت من استريكا فاينر، علاقات غرامية قصيرة، غير جدية وغير صادقة.

بالنسبة لأبي فقد كان، هكذا قيل لي، محبّاً جدّاً لرفقة النساء، كان يكثر الكلام، ويبدع في اختيار الكلمات، يمزح ويداعب، يلفت الانتباه وربما بعض السخرية أيضاً. «قاموس متحرّك» هكذا لقبه طلاب الجامعة. إذا احتاج احدهم أن يعرف شيئا وكذلك إذا لم يكن بحاجة أحبّ والدي أن يترك انطباعا عليهم جميعا حيث أنَّهُ عرف ما هو اسم رئيس فنلندا، وكيف يسمون البرج باللغة السنسكريتيّة، وأين ورد ذكر البترول في المشناه.

للطالبات اللواّتي أعجب بهن كان يقدم المساعدة بسرور هائج في كتابة وظائفهنّ، في الأمسيات كان يتجوّل مع الفتيات في أزقة حيّ مئاه شعاريم وفي مسارب سانهيدْريا، يشتري لهن المشروبات الغازية، وينضمّ إلى جولات في الأماكن المقدّسة وفي الحفريات الأثريّة، لقد أحبّ كثيرا جدّاً أن يشترك في النقاشات الفكريّة، وأن يقرأ بصوت مرتفع وبحماس وانفعال من إشعار ميتْسْكيفيتْش أو تْشرْنيحوفْسْكي. ولكن على ما يبدو وصلت علاقاته أو غالبية علاقاته مع البنات عند حدود المحادثات النظرية الفكرية والجولات المسائيّة: يبدو أن البنات قد وجدن فيه جاذبية نظرية فكرية فقط. وعمليا، فإنّ حظّه لم يكن مختلفا عن حظ غالبية الشباب في تلك الأيام.

لا أعرف متى وكيف تمّ التقارب والألفة بين والديّ، ولا أدري إذا كانت بينهما، قبل أن أعرفهما، علاقة حبّ. لقد تزوّجا في أوائل سنة ١٩٣٨ على سطح مكاتب الحاخامية في شارع يافا، لبس والدي بدلة سوداء مع خطوط بيضاء دقيقة وربطة عنق ومنديل أبيض على شكل مثلث في جيب الجاكيت العلوي، ولبست أمّي فستانا أبيض طويلا أبرز لون بشرتها الغامق وسواد شعرها الجميل. انتقلت فانْيا مع حاجياتها القليلة من سكن الطلبة في شارع تسفانيا الّتي شاركت فيه زميلاتها إلى غرفة آريه في شقة عائلة زازْحي في شارع عاموس.

بعد عدة شهور، عندما كانت أمّي حاملا، انتقل والديّ للسكن في العمارة المقابلة تقريبا، في شقة أرضية شبيهة بالقبو مؤلّفة من غرفتين صغيرتين. هناك ولد لهما ابنهما الوحيد. أحياناً كان أبي يمزح بطريقته الشاحبة ويقول إن العالم، في تلك السنوات، لم يكن جديرا بأن يولد فيه

الأطفال (كان أبي يكثر من استعمال كلمة «بالطبع» وكذلك التعابير والكلمات «على كلّ حال»، «حقّاً»، «بالمعنى المعروف»، «واضح»، «واحد اثنان»، «يا للخزي والعار»). ربما قصد بقوله إنّ العالم غير جدير بالأطفال أن ينتقدني بطريقة رمزية غير مباشرة لأنّني ولدت بسرعة ودون مسؤولية على عكس برامجه وتوقعاته، لقد ولدت حقا قبل أن يحقق ما كان يرجو أن يحقّقه في حياته، وبسبب ولادتي فاتته الفرصة؟ وربما أنَّهُ لم يقصد أن يرمز إلى شيء بل أراد أن يفلسف الأمور قليلا كعادته: في مرات عديدة كان أبي يبدأ حديثه مازحا حتى لا يسود الغرفة الصمت. كان يعتبر كلّ صمت وكأنَّهُ موجّه ضدّه. أو كأنَّهُ هو المذنب فيه.

٢٨

ماذا أكل اليهود الأشكنازيون الفقراء في القدس في سنوات الأربعينات؟ الناس عندنا كانوا يأكلون الخبز الأسود مع شرائح بصل وأنصاف حَبّ زيتون، وأحْياناً مع معجون سمك الأنشوفة؛ أكلوا أيضاً سمكا مدخّنا وفسيخا أتوا بهما من أعماق البراميل شديدة الرائحة الّتي في زاوية بقالة السّيّد أوستر؛ وفي كثير من الأحيان أكلوا السردين، الذي اعتبر عندنا أكلة فاخرة. أكلنا الكوسا والقَرْع والباذنجان المطبوخ، والباذنجان المقلي، وسلطة الباذنجان المروية بالزيت، مع ثوم مهروس وبصل مفروم.

في الصباح كان الخبز الأسود مع المربّى، وأحْياناً - الخبز الأسود مع الجبنة (عندما وصلت باريس لأول مرّة في حياتي، مباشرة من كيبوتس حولدا، في سنة ١٩٦٩، اكتشف مضيفيّ المرفّهان أنَّهُ في إسرائيل لا يوجد إلا نوعان من الجبنة: جبنة بيضاء وجبنة صفراء). في الصباح أطعموني في الغالب عصيدة شوفان بطعم الدبق، وعندما أعلنت إضرابا أعطوني بدلا منها عصيدة السَّميد رشوا على وجهها من أجلي رشة داكنة من مسحوق القرفة. أمّي كانت تشرب كلّ صباح كأس شاي ساخن مع الليمون، وأحْياناً كانت تغمس في شايها بعض أقراص البسكويت من إنتاج شركة برومين. أما أبي فكان يأكل في الصباح قطعة خبز أسود مع نوع من المربّى يُسَمَّى المَرْمَلاد الأصفر اللزج، مع نصف بيضة مسلوقة مع حبات زيتون وقطع بندورة وفليفلة وخيار مقشّر ولبن من إنتاج تنوفا الذي كان يصلنا معبأً في مرطبانات زجاجية سميكة.

كان أبي يستيقظ مبكرا، قبل أمّي وقبلي بساعة أو ساعة ونصف: في الخامسة والنصف صباحا كان يقف أمام المرآة في الحمام يخلط ويكثّف بالفرشاة الثلج الذي على خدّيه، كان يحلق ويغني بصوت منخفض أغاني وطنية بصوت نشاز تقشعر له الأبدان. بعد الحلاقة كان يشرب لوحده كأس شاي في المطبخ ويقرأ الجريدة. في موسم الحمضيات كان يعصر كلّ صباح عدة برتقالات بعصّارة يدوية صغيرة ويقدم لأمّي ولي ونحن ما زلنا في الفراش، كأس عصير برتقال. وبما أن موسم البرتقال يحل في الشتاء وبما أنَّهُم اعتقدوا في تلك الأيام أن شرب مادة باردة في اليوم البارد تسبب الرّشح، كان أبي المجتهد يشعل البريموس قبل عصر البرتقال ويضع عليه طنجرة ماء، وعندما كان الماء يوشك على الغليان كان والدي ينقع كاسيْ العصير في طنجرة الماء المغلي ويحركهما جيدا بملعقة صغيرة حتى لا يسخن العصير القريب من جدار الكأس أكثر من باقي العصير الموجود في داخل كلّ كأس. وهكذا كان أبي الحليق والمهندم بربطة عنق ومريول مطبخ أمّي ذي الترابيع المربوط حول خاصرتيه من فوق بدلته الرخيصة، يوقظ أمّي (في غرفة الكتب) ويوقظني (في الغُرَيْفَة الّتي في أقصى الممرّ) ويقدّم لكلّ منا كأس عصير برتقال دافئ. كنت أشرب هذا العصير الفاتر كمن يبتلع دواءً وأبي يقف إلى جانبي، بمريوله ذي التربيعات وربطة عنقه الهادئة، وببدلته الرثة البالية عند المرفقين، ينتظر أن أعيد إليه الكأس الفارغة. في الوقت الذي كنت فيه أشرب العصير كان أبي يبحث عن شيء يقوله: دائماً شعرت أنَّني المتهم في كل صمت. لذلك كان يداعبني بطريقته غير المضحكة:

« هيّا اشرب العصير/ وأنا واقف لن أطير. »

أو:

«كلّ جرعة وجرعة / تبني في الجسم السرعة. »

وأحْياناً، في الأيام الّتي كان مزاجه أقلّ شاعرية وأكثر استطراداً:

«الحمضيات هي فخر بلادنا! في جميع أنحاء العالم يقدّرون برتقال يافا! وبالمناسبة الاسم يافا، مثل الاسم «ييفِت»، مشتقّ على ما يبدو من كلمة «يوفي» (جمال) كلمة قديمة جدّاً أصلها ربما آشوريّ «فايا»، وفي اللغة العربيّة

أصبحت «وافي» وفي الأمهريّة- إذا لم تخنّي ذاكرتي- «طاوافى». والآن، «أيها الصغير الجميل»- وكان قد ابتسم بتواضع، مستمتعا بصمت بتلاعبه بالألفاظ - والآن، «أيها الصغير الجميل، تفضّل، من فضلك، بإكمال العصير وأكمل فضلك بتفضيلي لإعادة الكأس إلى المطبخ.»

مثل هذا التلاعب بالألفاظ الّذي كان يسمّيه «كَلَمْبور» بالفرنسية أو «تورية» كان يثير لدى والدي طوال حياته نوعا من الدعابة والمرح الذي يجلب الرضا والبهجة: كان يعتقد أنَّهُ بمقدور هذا التلاعب بالألفاظ أن يبدّد كلّ أسى أو قلق وأن يبثّ في من حوله روح البهجة والسكينة. إذا قالت أمّي، على سبيل المثال، بأن الجار السّيّد لامبِرغ قد أُعيد بالأمس من مستشفى «هداسا» الذي على جبل المشارف وهو يبدو متضايقا أكثر مما كان قبل دخوله المستشفى، يقال إن مرضه «أنوش» (عضال) كان أبي يتأوّه ويتمتم بشيء عن القرابة اللفظية بين كلمة «أنوش» وكلمة «إنوش» (إنسان) وكلمة «نوآش» (يائس) وكان يقتبس من سفر إرميا «القلب أخدع من كلّ شيء وهو نجيس (أنوش) مَن يعرفه،»[1] ومن سفر المزامير «الإنسان مثل العشب أيامه.»[2] كانت أمّي تندهش كيف أن كلّ شيء وحتى مرض السّيّد لامبِرغ القاتل يثير لديه غريزة التلاعب بالألفاظ الصبيانيّة؟ أحقاً يخيّل إليه أن الحياة كلها هي مثل حفلة صفّ مدرسيّ أو ملتقى شباب عازبين، مليئة بالتلاعبات اللفظية والجناس والتورية؟ كان أبي يتوقع تأنيبها ولكنه يتراجع ويعتذر عن دعابته (الّتي كان يسميها «مزحة»)، وأنَّهُ ما قصد إلا الخير، وأنَّهُ ماذا يفيد السّيّد لامبرغ إذا كنا نحن هنا نبدأ الحداد عليه وهو ما زال على قيد الحياة؟ كانت أمّي تقول: حتى وإن كنت تقصد الخير فأنت تنجح دائماً في أن تفعله بشكل سيئ: إما أنّك تتغطرس أو أنّك تتملّق، وعلى هذا النحو أو ذاك فأنت دائماً محتال داهية. وعند هذا الحد كانا ينتقلان إلى الكلام بالروسية بنغمة خَتْشورْنيتْشفوِيّة مكبوتة.

*

(١) إرميا ١٧ : ٩ (المترجم).

(٢) مزامير ١٠٣ : ١٥ (المترجم).

في ساعات الظهيرة مع عودتي من حضانة السيدة بنينة كانت أمّي تغريني بالرشاوي والتوسّلات والقصص حول الاميرات والعفاريت، بهدف صرف نظري حتى ابلع القليل من القرع السائلّ أو الكوسا المُخاطيّ (الذي كان يسمّى عندنا باسمه العربي لا العبري) وكريات مقلية من الخبز المخلوط بقليل من اللحم المفروم (كانوا يحاولون إخفاء ما في الكريات من خبز بواسطة الثوم المهروس).

أحياناً كانوا يجبرونني، بدموع الاشمئزاز والغضب، على تناول أنواع مختلفة من كريات كفتة السبانخ، والسبانخ الأخضر والشمندر وحساء الشمندر والملفوف الحامض والملفوف المكبوس والجزر الطبيعي الطازج والمطبوخ. وأحْياناً يُحكم علي بقطع صحاري من جريش الحبوب والحنطة السوداء وأن أطحن سلاسل من الجبال من القرنبيط المطبوخ عديم الطعم والمذاق وأنواعا مختلفة من مأكولات القطنيات الثقيلة والمزعجة مثل الفاصولياء والبازيلاء والفول والعدس. في الصيف كان والدي يقطّع البندورة والخيار والفليفلة والبصل الأخضر والبقدونس تقطيعا دقيقا ليصنع سلطة ناعمة ثمّ يغمرها بالزيت اللامع من إنتاج مصنع يتسهار.

وفي أحيان نادرة كانت تظهر كضيف شرف قطعة من لحم الدجاج مغموسة بالأرز أو موحّلة في المياه الضحلة على شاطئ صحن بيريه من بطاطا مسلوقة، صواريها وأشرعتها مزيّنة بالبقدونس وحول سطحها يقف بثبات حرس من قطع الجزر المطبوخ مع قطع من الكوسا المصابة بمرض كُساح الأطفال. خيارتان مكبوستان كانتا بمثابة طرفي هذه المدمّرة، ومن ينجح في القضاء عليها نهائيا يفوز بجائزة ترضية عبارة عن حلوى وردية اللون مصنوعة من مسحوق البودينغ أو جيلي أصفر مصنوع من مسحوق الجيلي الذي كان يسمّى عندنا باسمه الفرنسيّ «جيليه»، والذي يقودك إلى جيل فيرن وإلى الغواصّة السريّة «ناوتيلوس» الّتي قادها الكابتن نيمو الذي يئس من الإنسانية كلها وانزوى في أعماق مملكته السرية تحت سطح المحيطات وقد قررت بيني وبين نفسي أن انضمّ إليه أنا أيضاً.

*

تكريما ليوم السبت والعيد كانت أمّي تستعدّ وتشتري وسط الأسبوع سمكة الشبوط طوال اليوم كانت سمكة الشبوط الأسيرة تسبح ذهابا وإيابا بإصرار وعناد داخل حوض الحمام، من جدار إلى جدار إلى جدار، دون تعب أو ملل كانت تبحث عن ممر سريّ تحت الماء يمكن أن تمرّ عبره من حوض الحمام إلى البحر الواسع. كنت أطعمها فتات الخبز. علمني أبي بأنَّهُ باللغة السرية الّتي بيننا تسمى «نونة» (أي سمكة). سرعان ما أصبحت نونة صديقتي حتى أنّها كانت عن بعد تعرف وقع خطواتي وتسرع إلى جدار الحوض لاستقبالي ترفع خارج الماء فمها الذي ذكرني بأشياء من المفضل أن لا أفكّر بها.

مرّة أو مرتين قمت في الظلام وتسللت إلى الحمام لأتأكد من أنّ صديقتي تنام فعلا، طوال الليل، داخل المياه الباردة، الأمر الذي بدا لي غريبا وحتى منافيا لنواميس الطبيعة، أم أنَّهُ ربما بعد إطفاء الأنوار ينتهي عمل نونة اليومي فتتلوى وتخرج زاحفة ببطء على بطنها إلى داخل سلة الغسيل حيث تلف نفسها وتنام حتى الصباح بين طيات المناشف وملابس الفلانيلّة الدافئة وفي الصباح فقط تتسلل ثانية بخفية إلى حوض الحمام، لكي تقوم بواجب خدمتها في الأسطول؟

ذات مرّة، عندما تُركت لوحدي في البيت، قررت أن أثري حياة سمكة الشبوط المملة بإدخال الجزر والمضائق والشّعاب المرجانية الّتي صنعتها من أدوات المطبخ المختلفة والتي أرسيتها في مياه حوض الاستحمام. بصبر وعناد مثل القبطان أحآف طاردت ساعة طويلة بواسطة مغرفة موبي ديك صاحبتي التي نجحت أن تتلوى وتتملّص من وجهي المرة تلو المرة وتختبئ في المخابئ الّتي وضعتها أنا من أجلها في قعر البحر. للحظة واحدة لامست فجأة حراشفها القاطعة الباردة فارتجفت اشمئزازا وخوفا ومن اكتشاف آخر تقشعر له الأبدان: حتى ذلك الصباح، كلّ ما هو حيّ، صوص، ولد، قط، كلّ ما هو حيّ كان دائماً لينا دافئا؛ وكل ما كان ميتا كان يبرد ويتحول إلى بارد وصلب. وهاهو هذا التناقض الذي في سمك الشبوط حيث أنَّهُ بارد وصلب ولكنه حيّ، ورطب، وأملس ودهنيّ، غضروفيّ - حراشفي،

خيشوميّ، يتلوّى ويرتعش بقوة متصلّب وبارد بين أصابعي، هذا التناقض أثار بداخلي فجأة وخزة فزع سارعت في أعقابها إلى إطلاق سراح غنيمتي وإلى نفض وغسل وصوبنة أصابع يدي وفركها ثلاث مرات. وبذلك أنهيت الصيد. وبدلا من مطاردة نونة حرصت خلال ساعة طويلة على النظر على العالم من خلال عيني سمكة مستديرتين وجامدتين بدون جفون وبدون رموش وبدون حركة.

وعلى هذه الحالة وجدني أبي وأمّي حين عادا من العمل وتسللا إلى غرفة الحمام دون أن اشعر بهما وقد ضبطاني جالسا متحجرا على هيئة بوذا على غطاء كرسي المرحاض، فمي مفتوح قليلا، وجهي ميت وعيناي المزجّجتان تسرحان إلى الأمام وهما جامدتان مثل خرزتين من الزجاج. فوراً تمّ أيضاً اكتشاف أدوات المطبخ الّتي أرساها الولد المجنون في قعر ماء سمكة الشبوط لتقوم بدور مجموعة جزر الأرخبيل أو بدور تحصينات بيرل هاربور التحت- مائية. قال أبي بأسى: «سيضطر، فخامته، إلى تحمل نتائج أعماله هذه المرة أيضاً، أنا آسف.»

*

في ليلة السبت حضر جدّي وجدّتي كما حضرت ليلينكا - صديقة أمّي مع زوجها المربوع السّيّد (مار) بار سمخا الذي غطّت وجهه لحية رمادية كثيفة ومتجعدة مثل ليفة حديدية لجلي الطناجر. كانت أذناه غريبتان، غير متساويتين في الحجم، كان أكثر ما يشبه كلب الرعاة الذي ينصب أذنا واحدة ويرخي أختها (عن قصد كنت أرتبك وأناديه بار- مار - سمخا وذلك في أعقاب والدي الذي مزح مرّة أو مرتين وسمّاه، في غيابه، باسم مار- بار - بار - حانه).

بعد شوربة الدجاج مع كريات العجين الذي كان مصنوعا من طحين خبز الفطير قدّمت أمّي فجأة على المائدة جثة «نونتي» كاملة من رأسها وحتى ذنبها ولكنها مقطعة بشكل عرضي بشقوق سكين متوحشة إلى سبع قطع متتالية، مزيّنة ومبجّلة مثل جثمان ملك محمول على عربة مدفع في طريقها إلى البانْتيون. وضعت الجثة الملكية في صلصة غنيّة بلون الكريم فوق طبقة من

الأرز الأبيض الناصع مزيّنة بحبات من الجرانق المطبوخ وقطع من الجزر، مرشوش عليها فتات زينة باللون الأخضر. لكن عيني نونة المفتوحتين اللّتين تتهمان ولا تستسلمان تحدقان بقاتليها بنظرات تأنيب حزين متجمّد وبصرخة ألم أخيرة.

عندما التقت نظراتي بنظراتها المفزعة، نادتني عينها الثاقبة بأنني نازيّ، وخائن، وقاتل، أخذت أبكي بصمت، مطأطئاً رأسي على صدري أحاول جهدي كيلا يرَوْني. لكن ليلنكا صديقة أمّي والمؤتمنة على أسرارها، والتي تملك روح معلمة روضة أطفال في جسم دمية من الخزف الصيني، فُزعت وسارعت إلى مواساتي: في البداية تحسّست جبيني وقررت، لا إنَّهُ غير ساخن. بعد ذلك مسّدت برقة ذهابا وإيابا ذراعي ثمّ قالت ولكن عنده بعض القشعريرة. بعد ذلك انحنت فوقي حتى أن نفسها خنق نفسي ثمّ قالت: يبدو أن الأمر نفساني لا جسماني. ولذلك توجهت إلى والديّ ولخصت بسرور كمن يشعر أنَّهُ على حقّ بأنَّها منذ مدة قالت لهما بأن هذا الولد مثل جميع الفنانين، الذين يعتبرون نتيجة وضعهم المستقبلي حسّاسين ومعقّدين وأصحاب مشاعر مرهفة، بأنّ هذا الولد على ما يبدو يبدأ سنّ المراهقة قبل الآخرين بوقت طويل، والأفضل في هذه الحالة بكل بساطة ترك العنان له على غاربه.

فكّر والدي في الأمر قليلا وزان الأمور بكافة جوانبها ثمّ اصدر قراره:

«نعم. ولكن قبل كلّ شيء أرجو أن تأكل السمكة تماما كما يفعل الجميع.»

«لا.»

«لا؟ لماذا لا؟ ماذا حدث؟ هل فخامته يميل إلى إقالة طاقم الطباخين؟»

«أنا لا استطيع.»

هنا تدخّل بار سمخا وهو يفيض حلاوةً ولهفة للتوسّط، وبدأ يحث ويتوسّط بصوته الناعم المُهدئ:

«إذن، ربما تأكل على الأقلّ الشيء القليل فقط؟ قطعة واحدة فقط، قطعة رمزية، لا؟ احتراما لامك وأبيك وتعظيما ليوم السبت؟»

إلا أن ليلكا زوجته، وهي شخصية سامية النفس ومرهفة الحس، انبرت تدافع عني: «لا داعي للضغط على الولد! إذ إن مشاعره تمنعه عن ذلك!»

*

ليئة بار سمخا وهي ليلنكا، ليليا كَليش[1] كانت تعتبر عندنا كواحدة من أبناء البيت طوال معظم سنوات طفولتي في القدس: امرأة صغيرة الجسم حزينة شاحبة هشّة ضعيفة مرتخية الكتفين. عملت لسنوات طويلة كمعلمة ومربية في مدرسة ابتدائية، كما أنَّها الفت كتبا مفيدة حول نفسية الطفل. من الخلف بدت ليلنكا مثل بنت نحيفة لا يتجاوز عمرها الثانية عشرة. كانت هي وأمّي تتبادلان الأسرار وهما جالستان معاً لساعات طوال.

على كرسي القدمين المصنوع من القشّ في المطبخ أو على كرسيّين أخرجتاهما إلى زاوية الساحة، كانتا تتهامسان أو يلتقي رأساهما على كتاب مفتوح أو ألبوم صور لأعمال فنية رائعة تمسكان به يدا بيد.

غالبا ما كانت ليلكا تأتي في الساعات الّتي يكون فيها والدي في العمل: يخيّل إليّ أن بينها وبين أبي ساد نفس الاشمئزاز المتبادل والمؤدّب والمُحلّى جيدا الذي يسود أحياناً بين الأزواج وبين أقرب صديقات نسائهم. إذا كنت اقترب من أمّي ومن ليلنكا ساعة تهامسهما كانتا تصمتان فوراً وتعودان إلى تهامسهما بعد خروجي من مجال السمع. كانت ليليا بار سمخا تبشّ في وجهي بابتسامتها الكئيبة، الّتي تتفهم وتصفح عن كل شيء على خلفية عاطفية، إلا أن أمّي كانت تطلب مني أن أسرع في قول ما أريده وأن أتركهما لوحدهما. كانت بينهما أسرار مشتركة كثيرة جدّاً.

ذات مرّة جاءت ليلنكا ولم يكن والديّ في البيت، كانت تتأمّلني لفترة طويلة بتفهّم وأسى، حرّكت رأسها إلى أعلى وإلى أسفل كمن توافق بكل تأكيد مع نفسها ثمّ شرعت في محادثة قالت: بأنَّها حقا، ولكن حقاً صدقاً، تحبني كثيرا من صغري وأنّها تهتمّ بي كثيراً جدّاً. تهتمّ ليس كما يهتم البالغون من النوع المبتذل، أولئك الذين يسألون دائماً إذا كنت طالبا مجتهدا؟ هل أحبّ

---

(١) غيرت بعض الأسماء لأسباب مختلفة (المؤلف).

أن ألعب كرة قدم؟ إذا كنت ما زلت أجمع الطوابع؟ ماذا أريد أن أصبح عندما أكبر؟ وغيرها من مثل ترّهات وحماقات الأعمام والأخوال. لا! إنَّها تهتمّ بأفكاري بالذات! بأحلامي! بحياتي النفسية! فأنا بنظرها ولد فريد من نوعه، أصيل جدّاً. نفسية فنان في مرحلة التكوّن! مبتغاها أن تحاول ذات مرّة- ليس الآن وفي هذه اللحظة بالذات- مبتغاها أن تحاول أن تخاطب الجانب الأكثر داخليّة والأكثر رقّة من شخصيتي الشابة الفتية (كنت في العاشرة من عمري تقريبا): على سبيل المثال، بمَ أفكّر عندما أكون لوحدي تماما؟ ما الذي يجري في خفايا حياتي الخياليّة؟ ما الذي يسعدني حقا وما الذي يحزنني؟ ما الذي يثير حماسي؟ ما الذي يخيفني؟ ما الذي يثير اشمئزازي؟ أيّ منظر يخلب عقلي وقلبي؟ هل سمعت ذات مرّة اسم يانوش كورْتْشاك؟ وهل سبق لي وقرأت كتابه «يوتام الساحر»؟ هل توجد عندي أية أفكار سرية عن الجنس اللّطيف؟ لقد كانت ترغب كثيرا في أن تكون الأذن الصاغية؟ أمينة سرّي؟ أن تكون عنواني؟ على الرغم من فارق السنّ بيننا وإلخ؟

لقد كنت ولدا تحكمت فيه سنن الإتيكيت وسيطرت عليه قواعد الآداب. عن سؤالها الأول بم أفكر أجبت بأدب جمّ: بأشياء مختلفة ومتنوعة. وعن سلسلة الأسئلة ما الذي يثير حماسك - ما الذي يخيفك أجبت بالكلمات التالية: لا شيء خاصّ. بينما بالنسبة لرغبتها بصداقتي أجبت بلطف: «شكراً خالتي ليليا هذا جميل جدّاً من طرفك.»

«إذا شعرت ذات مرّة بأنك بحاجة إلى أن تتحدّث عن شيء ما لا ترتاح في الحديث عنه مع والديك، فلا تتردّد؟ تعال إليّ؟ احكِ لي؟ وأنا طبعا سأحفظ سرّك؟ يمكننا أن نتشاور مع بعضنا؟»

«شكراً.»

«الأمور الّتي لا تجد مَن تتحدث معه عنها؟ الأفكار الّتي تجعلك ربما تشعر قليلا بالعزلة؟»

«شكراً. شكراً من كلّ قلبي. هل تحبين أن أحضر لك كأس ماء؟ ستعود أمّي بعد قليل. إنَّها هنا قريبة في صيدلية هاينمن. أو لعلك تحبين، يا خالتي ليليا، أن تقرأي جريدة حتى تعود؟ أو تحبين أن أشغل لك المروحة قليلا؟»

٢٩

بعد مرور عشرين سنة تقريبا وعلى وجه التحديد بتاريخ ٧/٢٨ ٧١ أيّ بعد عدة أسابيع من صدور كتابي «حتى الموت» تسلمت رسالة من صديقة أمّي، الّتي أصبحت في الستين من عمرها تقريبا: «أشعر أنّني لم أتصرف معك كما ينبغي منذ وفاة والدك - رحمه الله. أنا أعاني من ضائقة نفسية كبيرة ولست قادرة على فعل أيّ شيء. انزويت في البيت (شقتنا مفزعة. . . ولا أجد في نفسي أيّ رغبة في أغيّر شيئا فيها) وأخاف من الخروج - نعم إنّني أعني كلّ حرف أقوله. في قصتك «حب متأخر» وجدت في بطلها بعض الخطوط المشتركة- إذ يبدو لي هذا الشخص معروفا وقريبا جدّاً. «حتى الموت»- سمعت ذات مرّة تمثيلية في الراديو وشاهدتك ذات مرّة تقرأ في مقابلة تلفزيونية مقاطع منها. كان ذلك رائعا أن أشاهدك فجأة في التلفزيون القابع في زاوية غرفتي. أتساءل مندهشة ما هي مصادر هذه القصة- فهي فريدة من نوعها. يصعب عليّ أن أتخيل ما الذي جرى في داخلك عندما كتبت مشاهد الرّعب والفزع. إنَّهُ رهيب. أوصاف اليهود- شخصيات قوية، وليسوا ضحايا بأيّ شكل من الأشكال. . . تركت عليّ انطباعات مؤثّرة. وكذلك وصف الماء الذي يلعق بصمت الحديد. . . وصورة القدس غير الواقعيّة والتي لا تصلها قدمان، وهي ليست إلا أشواق وحنين إلى اللامكان في هذا العالم. الموت بدا لي من صفحات قصتك شيئا لم أخمّنه في أيّ وقت- وقد اشتقت إليه قبل وقت غير طويل. . . أتذكّر الآن أكثر من أيّ وقت مضى أقوال أمك الّتي تنبأت بفشلي في الحياة. وأنا كنت أتباهى بأنّ

ضعفي وهميّ وأنّني صلبة كالفولاذ. اشعر الآن بالتفتّت... غريب، حلمت بالعودة إلى البلاد سنوات طويلة وعندما تحقّق ذلك - أعيش هنا وكأنّني في كابوس. لا تهتمّ بأقوالي. أنّها زلة لسان. لا تردّ على ذلك. عندما شاهدتك مؤخّرا في حوارك الحماسيّ مع والدك، لم أحسّ بداخلك بذلك الإنسان الحزين... جميع أفراد عائلتي يسألون عن صحتكم ويهدونكم السلام. قريبا سأصبح جدة! مع خالص حبي، ليليا (ليئة).»

وفي رسالة أخرى من يوم الخامس من آب ١٩٧٩ كتبت إليّ ليلكا تقول:

«... لكن لنترك هذا جانبا الآن، ربما نلتقي، بالرغم من كلّ شيء، ذات مرّة وعندها سأتحدث معك حول كثير من التساؤلات الّتي تثيرها لدي أقوالك. ما الذي ترمز إليه الآن؟ في «خاطرة حول نفسي» الّتي في كتابك... عندما تتحدّث عن أمك الّتي انتحرت «من شدة خيبة الأمل أو الأشواق. شيء ما لم يكن ناجحا تماما»؟ رجاء، سامحني، أنا أنكث الجرح. جرح والدك رحمه الله، جرحك أنت بشكل خاصّ، وحتى - جرحي. أنت لا تعرف كم افتقد فانْيا وبالذات في الفترة الأخيرة. بقيت وحيدة جدّاً في عالمي الصغير والضّيّق إلى هذا الحدّ. أنا مشتاقة إليها. وإلى صديقة ثانية مشتركة لكلتينا، كان اسمها ستيفا والتي غادرت هذا العالم من خلال الحزن والآلام في سنة ١٩٦٣... كانت طبيبة أطفال وقد كانت حياتها خيبة أمل تلو خيبة أمل، ربما لأنّها صدّقت الرجال. لقد رفضت ستيفا أن تدرك ما الذي يمكن لبعض الرجال أن يقوموا به (أرجو ألا تأخذ كلامي بشكل شخصي). كنا نحن الثلاث قريبات جدّاً من بعضنا في سنوات الثلاثينات. أنا آخر من بقي من الصديقات والأصدقاء الذي لم يعودوا موجودين. وقد حاولت مرّتين في ٧١ وفي ٧٣ الانتحار ولكني لم أفلح. لن أحاول مرّة أخرى... لم يحن بعد الوقت الذي أحدّثك فيه عن أمور تتعلّق بوالديك... لقد مرّت منذ ذلك سنوات... لا، أنا

لا استطيع أن اعبر تحريريا عن كلّ ما كنت أريد. وقد كنت ذات مرّة لا استطيع التعبير عن نفسي إلا بالكتابة. ربما سنلتقي- وحتى يحين ذلك من المحتمل أن تتغيّر أمور كثيرة... وبالمناسبة، اعلمْ أنّني وأمّك وأخريات من مجموعتنا في «هشومير هتّسَعير» في روفنو كنا ننظر إلى البرجوازية الصغيرة على أنّها أسوأ الظواهر. كلنا جئنا من عائلات كهذه. أمك لم تكن ولا مرّة «يمينيّة»... عندما دخلت إلى عائلة كُلاوْزْنِر فقط ربما تظاهرت بأنّها مثلهم: عند «العمّ يوسِف» كانت دائماً جميع جرائد أرض إسرائيل - باستثناء جريدة «دافار». أكثرهم تعصّبا كان الأخ الأكبر بتسالئل إليتسيدك، ذلك الرجل الرقيق الّتي اعتنت زوجته بالبروفيسور بعد أن ترمّل. من بينهم كلهم لم استلطف إلا جدك ألكسندر رحمه الله الذي استلطفته كثيرا جدّاً...»

وأيضاً، في رسالة من اليوم الثامن والعشرين من أيلول ١٩٨٠:

«... خرجت أمك من عائلة محطّمة، وحطّمت عائلتكم. ولكنها ليست المذنبة... أذكر أنّك ذات مرّة، في سنة ١٩٦٣ كنت في شقتنا... وقد وعدتك أن أكتب لك في يوم ما عن أمك... ولكني أجد صعوبة في القيام بذلك. حتى أن كتابة رسالة أصبحت أمراً صعبا عليّ... ليتك تعرف كم طمحت أمك في أن تكون فنانة، أن تكون إنسانة مبدعة- منذ طفولتها. ليتها على الأقلّ حظيت في أن تراك الآن، في أن تقرأك! ولماذا لم تحظ؟ ربما في محادثة جريئة أكثر معك استطيع أن أكون أكثر جرأة وأن أحكي لك أشياء لا أجرؤ على أن أخطها على الورق. محبتك، ليليا.»

*

عاش والدي حتى تمكّن من قراءة كتبي الثلاثة الأولى قبل موته (سنة ١٩٧٠)، ولكنه لم يستمتع بها تماما. أمّي، طبعاً، لم تقرأ إلا مواضيع الإنشاء الّتي كتبتها في المدرسة، وبعض الأبيات الصبيانية الّتي نظمتها على أمل أن ألامس عرائس الشعر (الموزات) الّتي أحبت أن تحدثني عن أمر

وجودهنّ (والدي لم يؤمن بالموزات كما استهان طوال حياته بالجنّيات والساحرات والحاخامات أصحاب المعجزات وأقزام الليل، وأنواع عديدة من القديسين والأولياء، والحدس والمعجزات والأشباح. نظر إلى نفسه على أنَّهُ «إنسان متحرر في آرائه»، وآمن بالتفكير المنطقي وبالمجاهدة الروحانية).

لو أن أمّي قرأت القصتين اللتين في «حتى الموت» هل كانت سترد عليها هي أيضاً بكلمات مشابهة لكلمات صديقتها ليلنكا كَليش، «أشواق وحنين إلى اللامكان في هذا العالم»؟ من الصعب أن أعرف: حجاب ضبابيّ من الحزن الحالم والأحاسيس السرّية والآلام الرومانسيّة كان يحلّق فوق بنات هذه العائلات الروفنوية العريقة، كأن حياتهنّ قد صُبغت، هناك بين جدران مدرستهنّ الثّانوِيّة، بريشة لم تعرف إلا ألوانا مرهفة واحتفالية. على الرغم من أن أمّي كانت تثور ضدّ هذه الألوان.

شيء ما في لائحة الطعام في المدرسة الثّانوِيّة في العشرينات، أو ربما نوع من الرطوبة الرومانسية العميقة التي تشرّبها قلب أمّي وقلوب صديقاتها خلال فترة شبابهن، الإحساس الضبابي البولندي- الروسي المكثّف، شيء ما بين شوبان وميتْسكيفيتْش وبين آلام فرتر وبين بايرون، شيء ما في خط التماس بين السامي، المعذّب، الحالم والوحداني، كلّ أنواع الأضواء المخّادعة من «الأشواق والحنين» سخرت من أمّي معظم أيام حياتها وأغرتها حتى غرر بها وانتحرت في سنة ١٩٥٢. كانت يومها في التاسعة والثلاثين من عمرها. وأنا كنت ابن اثنتي عشرة سنة ونصف.

*

في الأسابيع والأشهر الّتي أعقبت وفاة أمّي لم أفكّر ولو للحظة بمعاناتها. صمَمْت أذنيّ عن سماع صرختها غير المسموعة الّتي بقيت وراءها وربما حلّقت طوال الأيام بين غرف المنزل. لم تكن بي أيّ قطرة رحمة. ولا حتى قطرة شوق. ولا حتى قطرة حداد على موت أمّي: من شدة الإهانة ومن شدة الغضب لم يبقَ بي مكان لأيّ إحساس آخر. عندما كنت ألاحظ، على سبيل المثال، مريولها ذي التربيعات الذي بقي معلّقا عدة أسابيع بعد موتها على علاقة خلف باب المطبخ، كنت امتلئ غضبا وكأنّ هذا المريول يرشّ

الملح على الجرح. أدوات استحمام أمّي، وعلبة التجميل، وفرشاة الشعر الّتي على رفّها الأخضر الذي في غرفة الحمام، كانت تؤلمني وكأنَّها بقيت هناك عن سبق إصرار لكي تسخر وتهزأ مني. زاوية كتبها. أحذيتها الفارغة. صدى رائحتها الذي استمرّ زمنا ما بعد موتها يهب في وجهي كلما فتحت الباب الجانبي الخاصّ بأمّي في خزانة الملابس، كلّ شيء أثار غضباً خائر القوى. وكأن جارزتها الّتي تسللت إلى كومة جارزاتي كانت تضحك مني ضحكة فظّة، ضحكة شماتة.

غضبت منها لأنَّها تركتنا دون وداع، دون عناق، ودون كلمة توضيح: فحتى من إنسان غريب تماما وحتى من موزع البريد أو من البائع المتجوّل الذي يتنقل من بيت إلى آخر لم تكن أمّي قادرة على فراقه دون أن تعرض عليه كأس ماء، ودون ابتسامة، ودون اعتذار خفيف وبدون كلمتين أو ثلاث كلمات لطيفة. طوال سنوات حياتي لم تتركني وحيدا في البقالة أو في أيّ ساحة غريبة أو في الحديقة العامّة. كيف استطاعت؟ غضبت منها كذلك باسم أبي الذي ألحقت زوجته به العار، وجعلته يبدو كإنسان مستضعف، كما نشاهد في الأفلام الكوميدية في السينما، قامت واختفت فجأة وكأنَّها ما كانت أو كأنَّها هربت من وجه رجل غريب. طوال سنوات طفولتي لو كنت اختفي عنهما لمدة ساعتين أو ثلاث كانا يؤنّباني ويعاقباني فوراً: كان هناك قانون ثابت عندنا في البيت، من يخرج عليه أن يخبر الآخرين دائماً إلى أين هو ذاهب ولكم من الوقت ومتى يعود. أو أنَّهُ يترك على الأقلّ وريقة في المكان الثابت المتفق عليه تحت المزهريّة.

كلّ واحد منا.

هكذا تقوم وتغادر، بفظاظة في وسط الجملة؟ هي نفسها كانت تقف بكل قوتها للمحافظة على الذوق السليم والأدب، لطافة التصرفات والاجتهاد الدائم من أجل عدم الإساءة وعدم إلحاق الأذى بالآخرين، أخذ آراء الآخرين بعين الاعتبار، الرقة والكياسة، كيف استطاعت؟

كرهتها.

*

بعد عدة أسابيع بهت الغضب وذوى. ومع الغضب كنت كمن فقد طبقة شبه واقية، ما يشبه دثارا واقياً من الرّصاص كان يحميني في الأيام الأولى من وقع الصّدمة ومن الألم. من الآن أصبحت مكشوفاً.

كلما توقفت عن كره أمّي بدأت أزدري نفسي.

حتى الآن لم تكن في قلبي زاوية فارغة تستطيع أن تحتوي عناء أمّي، ووحدتها، والغصّة الّتي شددت حولها الخناق، وفظاعة يأسها في الليالي الأخيرة من حياتها. ما زلت أعيش مصيبتي لا مصيبتها. ولكن لم أعد غاضبا منها بل على العكس اتّهمت نفسي: لو أنّني كنت ابنا أفضل، ابنا مخلصاً أكثر، لا أبعثر ملابسي على أرض الغرفة، لا أضايقها ولا أنغّص عليها، أحضّر دروسي في الوقت، أحمل برضى كلّ مساء صُنْدُوق القُمَامَة دون أن أضطرهم إلى تعنيفي وتوبيخي، لا أنغّصّ عليهما الحياة، لا أثير الضوضاء ولا أنسى إطفاء النور ولا أعود بقميص ممزّق ولا أطوف حولها في المطبخ بحذاء مليء بالأوحال. لو أنّني كنت أُراعي أكثر الشَّقيقَة الّتي كانت تصيبها. أو لو أنّني على الأقلّ كنت أحاول جاداً تحقيقَ رغبتها في أن أكون أقلّ ضَعفا وشحوباً، وأن آكل كلّ ما طهته وقدّمته لي بدون أن أسبب لها الكثير من المشاكل، وأن أكون من أجلها ولداً أكثر اجتماعيّة وأقلّ عزلةً، وأقلّ نحافة وغمّاً ومسفوعاً ورياضيّاً أكثر كما أرادتني أن أكون!

ولعله على العكس؟ لو أنّني كنت ضعيفاً أكثر بكثير، كثير المرض، مشلولا على كرسي متحرّك، مصاباً بالسّلّ أو حتى أعمى منذ الولادة؟ إذ أن مزاجها الجيد والسّخيّ ما كان يسمح لها، بأي شكل من الأشكال، بأن تترك ولدا سيّئ الحظ، أن تتركه في مصيبته وتنصرف؟ لو أنّني كنت ولدا معاقاً بدون ساقين، لو أنّني ركضت قبل فوات الأوان إلى تحت عجلات سيارة عابرة لدهستني فقطعوا لي ساقيّ لعلّ أمّي كانت ستشفق عليّ؟ ولا تتركني؟ تبقى لتواصل معالجتي والعناية بي؟

إذا تركتني أمّي هكذا دون أن تنظر إلى الوراء فإنّ ذلك دليل على أنّها، بكل تأكيد، لم تحبني أبداً: إذ عندما يحبّون، هكذا علمتني هي نفسها، عندما يحبّون يغفرون كلّ شيء ماعدا الخيانة. يغفرون كلّ المضايقات بل

يغفرون حتى ضياع القبعة وحتى ما بقي في الصحن من الكوسا أيضاً.

أن تترك إنساناً ما يعني أن تخونه- وهي خانتنا كلينا، خانت أبي وخانتني أنا أيضاً. مهما حييت ما كنت لأتركها بهذا الشكل، بالرغم من الشَّقيقَة الّتي كانت تصيبها، وعلى الرغم من أنّني، الآن، أعرف أنّها لم تحبْنا أبداً، مهما حييت ما كنت لأتركها، بالرّغم من كلّ السكتات الطويلة والإنزواءات في غرفة مظلمة، وبالرغم من كلّ الحالات النفسيّة. كنت أحياناً أثور غضبا، وربما أحياناً كنت امتنع عن الكلام معها ليوم أو يومين، ولكني ما كنت لأتركها إلى الأبد. مستحيل أن أفعل ذلك.

جميع الأمهات يحببنَ أولادهنّ: هكذا هي نواميس الطبيعة. حتى القطّة. أو العنزة. حتى أمهات المجرمين والقتلة. حتى أمهات النازيين. حتى أمهات المعوقين عقليا الذين يتَحَلَّبَ لعابهم. حتى أمهات المسوخ. كوني الوحيد الذي لم يكن محبوباً، وكون أمّي هربت مني، هذا يثبت بأنَّهُ لا يوجد بي ما يمكن أن يجعلني محبوباً. وأنني غير جدير بالحب. هناك ما هو غير طبيعي بي، شيء ما فظيع جدّاً، شيء ما مثير للاشمئزاز أو الرعب. شيء فظيع حقّاً، شيء بغيض أكثر من العاهة أو الإعاقة أو الجنون. بي شيء خسيس غير قابل للإصلاح، شيء مروّع حتى أن أمّي الّتي هي امرأة روحانيّة مرهفة الحسّ، امرأة عرفت كيف تغمر بالحبّ العصفور، والمتسوّل في الشارع، وجرو كلب ضالّ، حتى هي ما كان بمقدورها أن تتحملني وكانت مضطرة إلى أن تقوم أخيرا وتهرب مني إلى أبعد مكان يمكنها أن تهرب إليه. في اللغة العربية يوجد مثل يقول «القرد بعين أمه غزال» إلا أنا.

لو أنّني كنت أنا أيضاً جميلا، ولو قليلا، مثل جميع الأولاد الذين هم جميلون في عيون أمهاتهم حتى أقبح الأولاد وأسوأهم، حتى الأولاد المزعجين والعنيفين الذين يبتعدون إلى الأبد عن المدرسة، حتى بيانكا شور الّتي طعنت جدّها بسكين مطبخ، وحتى ياني المُنْحَرِف جِنْسِيّاً المصاب بداء الفيل والذي يفتح في وسط الشارع سحّاب بنطلونه ويخرج عورته ويعرضها أمام البنات. لو أنّني كنت طيبا - لو أنّني كنت أتصرف كما طلبت مني ألف مرّة أن أتصرف وأنا بغبائي كنت أعاندها بإصرار ولا أطيع أوامرها- لو أنّني

لم أكسر في حينه بعيد ليلة عيد الفصح تلك الزِبْدِيَّة الزرقاء الّتي ورثتها عن أم جدّتها- لو أنَّني كنت كلّ صباح أفرك أسناني جيداً جدّاً، أفرك من فوق ومن تحت أيضاً ومن الجوانب ومن زوايا الفم دون أن أغشّ - لو أنَّني ما كنت أسرق نصف الليرة من محفظتها، وأضيف على السرقة الكذب والإنكار بوقاحة بأنني سرقت- لو أنَّني فقط كنت أتوقف عن أفكاري القبيحة ولا اسمح أبداً ليدي بأن تدخل، ولو للحظة، إلى بنطلون البيجامة- لو أنَّني كنت مثل الجميع استحق أن تكون لي أمٌّ أيضاً-

*

بعد مرور سنة أو سنتين بعد أن تركت البيت وانتقلت للعيش كولد ضيف في كيبوتس حولدا، بدأت رُوَيداً رُوَيداً أفكر أحياناً بها أيضاً. قبيل المساء بعد ساعات الدراسة وبعد العمل والحمّام في الساعة الّتي كان جميع أولاد الكيبوتس يذهبون وقد استحمّوا وسرّحوا شعرهم ولبسوا ملابس المساء لقضاء بعض الوقت في بيت والديهم، وأنا وحدي أبقى وحيدا غريبا بين السّرادقات الفارغة، كنت اذهب لانزوي على المقعد الخشبي داخل غرفة الصحف الموجودة في السقيفة المغروزة خلف مخزن الملابس.

دون أن أشعل النور كنت اجلس هناك نصف ساعة أو ساعة وأستعرض أمام ناظريّ صورة - صورة آخر أيامها. في تلك الأيام بدأت أحاول أن أخمّن بقواي الذاتية القليل مما لم يتحدّثوا عنه عندنا، ليس ما بيني وبين أمّي وليس ما بيني وبين أبي وعلى ما يبدو ليس ما بينهما.

في كلّ مرّة كنت أقرأ فيها من جديد أسطر افتتاحية قصة عجنون «في ريعان شبابها»، كانت هذه الأسطر تعيد إليّ السنة الأخيرة من حياة أمّي:

في ريعان شبابها ماتت أمّي. في الواحدة والثلاثين من عمرها تقريبا كانت أمّي يوم وفاتها. كانت قصيرة وسيئة أيام سنوات حياتها. طوال النهار كانت تجلس في البيت ولم تغادره. لم تأت صديقاتها وجاراتها لزيارتها كما أن أبي أيضاً لم يبجّل مَدعوّيه. وقف بيتنا صامتا في حزنه لم تفتح أبوابه لغريب. على السرير اضطجعت أمّي وكانت كلماتها قليلة. . . كم أحببت صوتها.

مرات كثيرة فتحت الباب لكي تسألني من القادم. كانت بي صبيانية. أحياناً كانت تنزل من سريرها لتجلس بجانب النافذة.

(هذه الأسطر أقوم بنسخها الآن من الكتاب الدقيق الصادر عن المكتبة الصغيرة لدار «شوكِن» والذي كتب شاي عجنون على صفحته الأولى إهداء لأمّي وأبي: بعد وفاة والدي أخذت من مكتبته هذا الكتيّب أيضاً.) منذ اكتشفت «في ريعان شبابها» وأنا ما زلت في الخامسة عشرة ساويت بيني وبين تِرْتْسا. في كتاب «نبدأ قصة» كتبت القليل عن تِرْتْسا والقليل بطريقة غير مباشرة أيضاً عن الولد الذي كنته في أيام حياة أمّي الأخيرة:

...علاقة تِرْتْسا بأمّها هي علاقة طقسيّة. منذ بداية القصة تقدس شخصيتها، وطقس جلوسها عند النافذة، وملابسها البيضاء... الغموض الذي يحيط بالرحيل اللطيف والحاسم للأمّ يثير لدى تِرْتْسا اهتياجا قوياً يقرر في نهاية المطاف مصيرها هي: بعد موت أمها تطمح تِرْتْسا إلى الاندماج في شخصية أمها حتى تصل إلى درجة إلغاء نفسها. التعامل الطقسي يمنع أيّ قرب حقيقي بين البنت وأمها أو لربما أن انعدام القرب هو الذي يقود تِرْتْسا، منذ البداية، علاقة طقسية مع أمها. الأم الغارقة في مرضها وفي أسى حنينها لا تظهر أيّ اهتمام بقربها من تِرْتْسا، أو بحقيقة وجودها، ولا تتجاوب مع محاولات البنت في جذب الانتباه إليها... صوت تِرْتْسا وهو تقريبا الصوت الوحيد الذي يصل إلى مسامع أمها هو صوت الباب الذي يفتح «مرات كثيرة» (في البيت الذي «لا تفتح أبوابه لغريب»). هذا هو صوت صبيانيّ ساخر: الأم تحتضر والبنت تتسلّى... تظهر تِرْتْسا في بداية القصة كبنت مهملة: والدها يصب كلّ اهتمامه بأمّها، وأمّها غارقة بحبها وبطقوس الوداع، الأقارب والأصدقاء لا يكادون يلحظون وجود تِرْتْسا.

*

عند موتها كانت أمّي في التاسعة والثلاثين من عمرها: أصغر من ابنتي الكبرى وأكبر قليلا من ابنتي الصّغرى في اليوم الذي اكتب فيه هذه الأسطر. عشر سنوات - أو عشرون سنة بعد أن أنهين دراستهنّ في المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت»، نزلت على أمّي وعلى ليلنكا كَليش وعلى عدد من صوحيباتهما مصائب الواقع في القدس: الأحوال الخمسينيّة وأحوال الفقر وموجات القيل والقال ونشر الإشاعات المغرضة، جعلت هؤلاء الطالبات الثانويات المرهفات الحسّ يجدن أنفسهنّ فجأة على الأرض الخشنة لحياة علمانية: حفاظات، أزواج، شَقيقة، أدوار، روائح النَّفْثالين ومجالي مطبخ، اتّضح لهن أن ما قدمته المدرسة الثّانويّة الروفْنوية من سنوات العشرينات لم يفدهن بشيء إطلاقا بل زاد الطين بلة.

وربما كان شيء آخر، ليس منسوباً لبايرون ولا لشوبين بل قريبا أكثر إلى حجاب العزلة والانقباض الذي أحاط ببنات العائلات العريقة المنطويات على أنفسهن في روايات تشيخوف وكذلك في قصص جنسين: وعد ما من عهد الطفولة، هذا الوعد الذي جاءت الحياة نفسها، الحياة المُملّة، ونقضته وداست عليه وحتى سخرت منه. عاشت أمّي في حضن سحر روحانيّ لجمال محاط بالضباب، سحر اصطدم جناحاه أخيرا في أرض حجرية مقدسية مكشوفة للشمس ومغبرة. نمت وترعرعت كابنة الطّحّان الجميلة والرقيقة، بلغت رشدها في بيت الأسياد الذي في شارع دوبْبينْسْكا، ذلك البيت ذو البستان والخادمتين والطاهية: ربما ربّوها هناك تماما مثل راعية الغنم الّتي في اللوحة الّتي كرهتها، تلك الراعية المزدانة المتأنّقة وردية الخدّين ذات التنانير الثلاث.

ذلك الهيجان الذي تذكّرته الخالة سونْيا باستغراب بعد مرور سبعين سنة، هيجان فانْيا ابنة الستة عشر عاما الّتي قامت فجأة في ثورة غضب غير مناسبة لها بتحقير لوحة الفتاة راعية الغنم الرقيقة ذات النظرة الحالمة وتنانير الحرير العديدة حتى كادت تبصق عليها، ربما كانت تلك البصقة عبارة عن تشنّج قوى الحياة عند أمّي تلك القوى الّتي حاولت أن تتمرد وتتحرّر من شبكة خيوط العنكبوت الّتي كانت قد أخذت تنسج حولها.

من خلف زجاجات الشباك المغطّى بستائر مطرّزة تم حفظ وحماية طفولة فانْيا موسْمَن جيّداً. أدخل بان زاكاشفْسْكي في إحدى الليالي رصاصة مسدّس في فخذه ورصاصة أخرى في دماغه. رفعت الأميرة رافْزوفا شاكوشاً ودقت مسمارا صدئاً عبر راحة يدها لكي تحصل من المسيح المخلّص على جزء من معاناته وأن تتحملها بدلا منه. أما دورا ابنة مديرة شؤون المنزل فقد حملت من عشيق أمها. كان سْتيليتْسْكي السكران يخسر في الليالي زوجته لمقامرين عابرين، أما هي، إيرا، زوجة سْتيليتْسْكي فقد ماتت أخيرا بالنيران الّتي أحرقت بها كوخ أنْطون الجميل الخالي. ولكن كلّ هذه الأشياء حدثت في الخارج خلف الزجاجات المزدوجة، خلف دائرة المدرسة الثّانويّة «تَرْبوت» المضاءة والرقيقة. لا شيء من هذه الأمور كلها كان بمقدوره أن يتسرّب وأن يجرح حقا رقّة أيام طفولة أمّي، الرّقّة الّتي كانت على ما يبدو مشوبة بشيء قليل من السوداوية الّتي لم تعكّر الرقة بل جعلتها أكثر تنوّعاً وأكثر حلاوةً.

بعد مرور سنوات معدودة في حي كيرِمْ أفْراهام في شارع عاموس في بيت قبو ضيّق ومكسوّ بالطُّحلُب في الطابق الأرضي، تحت عائلة روزندورف وبجانب عائلة لامبرج بين طشوت الصفيح والخيار المكبوس وشجيرة الدِّفْلَى الذاوية داخل صفيحة زيت صدئة، وهي محاطة طوال النهار برائحة الملفوف والغسيل والسمك المطبوخ والبول الجافّ، بدأت أمّي تذوي. ربما كان بمقدورها أن تصمد، بأسنان محكمة الإغلاق أمام مصيبة أو فقدان. أمام الفقر. أمام خيبات الأمل في الحياة الزّوجيّة. ولكن، هذا ما يبدو لي، فهي بأيّ شكل من الأشكال لم تستطع تحمّل التآكل والانسحاق.

وفي سنة ثلاث وأربعين أو في سنة أربع وأربعين إذا لم يكن قبل ذلك، فقد علمت بأن الجميع قد قتلوا هناك، بالقرب من روفْنو. لقد كان هناك من جاء وحكى كيف أنّ الألمان والليتوانيين والأوكرانيين ساقوا تحت تهديد السّلاح كلّ سكان المدينة بشيبها وشبانها إلى غابة سوسينْكي: تلك الغابة الّتي أحب الجميع الخروج إليها دائماً للقيام بالجولات الطبيعية في الأيام الجميلة، وللقيام بألعاب الكشافة، وتحلق حول النيران في أمسيات غنائية، وللنوم ليلاً

في كيس نوم على ضفة الجدول تحت قبة السماء المرصّعة بالكواكب والنجوم. وهناك في غابة سوسينْكي بين الأغصان والعصافير والفُطْر والكِشْمِش و ثمار العُلَّيْق أطلق الألمان النيران وقتلوا على حافّة الحفر، خلال يومين، خمسة وعشرين ألف شخص.[1] من بينهم كان جميع أبناء صف أمّي. بالإضافة إلى أهاليهم وجميع الجيران وكلّ المعارف وجميع المتنافسين والمبغِضين. كان بينهم الإقطاعيون والبروليتاريون المتزمتون والمنصهرون والمتنصّرون، الملحاحون والقيّمون على الكنُس والزعامات وسدنة الكنس والذبّاحون والتجار المتجوّلون وسقاة الماء والشيوعيون والصهيونيون والمفكّرون والفنّانون ومجانين القرية، كان من بينهم أربعة آلاف طفل. وكان هناك أيضاً معلمو أمّي من أيام «تَرْبوت» يساخار رايس المدير صاحب الحضور المتسلط والعينين الثاقبتين الآسرتين اللتين شقت نظراتهما أحلام الكثير من الفتيات المراهقات، ويتسحاق بركوفسكي النعسان مشتّت الذهن والحائر دائماً وإليعيزر بوسليك الهائج سريع الغضب الذي درّس مادة الثقافة الاسرائيليّة، وفانكا زايدمن الّتي درّست في المدرسة الثّانويّة مادة الجغرافيا والبيولوجيا والرياضة البدنية أيضاً، وأخوها شموئيل الرسّام والدكتور موشيه بيرْغْمَن كثير التذمّر والحازم الذي علّم التاريخ العامّ وتاريخ بولندا بشفتين منقبضتين. كلّهم.

بعد ذلك بقليل في سنة ثمان وأربعين في قصف مدفعية جيش شرقيّ الأردن للقدس قتلت فجأة من جراء إصابتها بقذيفة إصابة مباشرة في إحدى أمسيات الصيف صديقة ثانية لأمي، بيروشكا، بيري يناي، والتي خرجت للحظة إلى ساحة بيتها لإدخال دلو وممسحة إلى البيت.

*

لعلّ شيئا ما من وعود الطفولة كان مصابا مسبقا بغشاء ما رديء، غشاء رومانسي سامّ ربط بين عرائس الشعر (الموزا) والموت؟ شيء ما في لائحة

---

(١) كعدد جميع سكان مدينة عَراد. وأكثر من عدد جميع اليهود الذين قتلوا خلال مئة سنة من الحروب مع العرب (المؤلف).

المواد المقطّرة جدّاً المقدمة في مدرسة «تَرْبوت» الثّانوِيّة؟ أو ربما كان هناك نغمة موسيقيّة برجوازية- سلافية، نغمة سوداوية اصطدمت بها بعد سنوات قليلة من موت أمّي بين صفحات تشيخوف وتورجينييف وفي قصص جينسين والنزر اليسير منها في أشعار راحيل أيضاً؟ بما أنّ الحياة لم تحقق لها ايّاً من وعود شبابها، فإن شيئاً ما سبّب لأمي أن ترسم لنفسها الموت في صورة عاشق مثير ولكنه أيضاً رؤوم ومهدّئ، عاشق أخير، عاشق منتسب إلى الموزا يداوي أخيرا جراح قلبها الوَحْدانِيّ.

منذ سنوات وأنا أتعقّب هذا القاتل العجوز، هذا المغري المحنّك والمخضرم، عجوز خليع متهتّك قذر دنس، مشوّه منحرف من شدة هرمه وشيخوخته ولكنه يظهر المرة تلو المرة في صورة فارس أحلام فتِيّ. هذا هو الصيّاد الماكر لكل من تحطم قلبه، هذا هو المغازل مصاص الدماء صوته حلو- مرّ مثل صوت وتر التشيلو خافت في ليالي الوحدة: محتال مخمليّ رقيق، فنان في المكر والخداع، عازف ناي ساحر يجذب إلى حضن عباءته الحريريّة اليائسين الذين يعانون من الوحدة. قاتل محترف قديم للأنفس خائبة الأمل.

٣٠

بأيّ شيء تبدأ ذاكرتي؟ الشيء الأول الذي أذكره هو حذاء: حذاء صغير بنيّ جديد طيّب الرائحة، له رباطان متشابهان ولسان دافئ وناعم. بالتأكيد كان بفردتين لا واحدة فقط. لكنّ الذاكرة أنقذت واحدة فقط من الاثنتين. حذاء جديد، ما زال صلبا قليلا. لقد أحببت رائحته كثيرا جدّاً، نسمة ممتعة لجلد جديد، لامع، حيّ تقريبا، ولدبق نعل قويّ يسبب الدّوخة حتى أنّني على ما يبدو حاولت في البداية أن انتعل ذلك الحذاء الجديد على وجهي، على أنفي، كنوع من الخرطوم كي أسكر من الأريج والعبق.

دخلت أمّي إلى الغرفة ووراءها دخل والدي ومعه عدد من الأعمام أو مجرد معارف. لا شكّ أنّني بدوت لهم لطيفا ولكن غريبا، وجهي الصّغير مقحم داخل الحذاء، لأنّهُم جميعا انفجروا بالضحك وهم يشيرون إليّ وقد صرخ احدهم وضرب بكفيه على ركبتيه وآخر قرقر وبُحّ صوته، أسرعوا أسرعوا وأحضروا آلة تصوير! (هكذا كانوا يسمون الكاميرا).[١]

ولكن آلة التصوير لم تتوفّر في بيتنا، أما ذلك الطفل، الذي ما زلت تقريبا أراه: فعمره سنتان، سنتان وربع، شعره كتاني وعيناه كبيرتان مستديرتان ومدهشتان. ولكن تحت العينين تماما وبدلا من الأنف، وبدلا من الفم والذقن كان يتدلّى كعب حذاء، ويتدلّى نعل جديد فاتح، نعل- بكر لامع لأنّهُ

---

(١) الكاميرا باللغة العبرية الحديثة מצלמה، أما في السابق فكانت تسمى צלמנייה (المترجم).

لم يطأ الأرض بعد. كان الطفل بدءاً من عينيه فصاعدا يبدو شاحبا ومن خدّيه إلى أسفلهما كان بالإمكان رؤية سمكة كلب البحر أو نوع من الطيور القديمة ذات الحَوْصَلة الثقيلة.

بمَ شعر الطفل؟ حول ذلك يمكنني أن أشهد بشكل دقيق لأنني ورثت من ذلك الطفل ما شعر به في تلك اللحظة: بهجة ثاقبة، بهججججة غير منمقة، مسكرة، نبعت من كون الجمهور كله مهتم للحظة فيه وفيه فقط، مستغرب منه، مستمتع به، ويشير إليه. وبالرغم من ذلك - وبدون أيّ تناقض- كان الطفل مفزوعا مذهولا من كثرة الاهتمام به، الذي يضيق عن احتوائه، كما أنَّهُ شعر بشيء من الإهانة من ضحكاتهم، ها هو يوشك على الانفجار في البكاء، لأنّ والديه والغرباء كلهم يقهقهون- يضحكون يؤشّرون - عليه - وعلى خرطومه، ثمّ يعودون إلى الضحك عليه في حين أنَّهُم يضحك الواحد منهم مع الآخر، آلة تصوير، أسرعوا وأحضروا آلة تصوير.

إضافة إلى ذلك كان خائب الأمل لأنَّهُم حرموه، تماما في الذروة- من متعة حسّيّة طيبة الرائحة مُسْكرة لاستنشاق رائحة جلد غضّ ودوار عبق دبق ترتجف له الكلى والقلب.

*

في المشهد التالي لا يوجد جمهور. أمّي فقط كانت تلبسني جوربا ناعما ودافئا (لأنّ تلك الغرفة كانت باردة)، وبعدها أخذت تشجّعني، تدفع، تدفع بقوّة، وبقوة أكبر، وكأنّها تولّد جنين قدم رجلي الصغيرة من خلال امتداد عنق الولادة البكر للحذاء الجديد ذي الرائحة العبقة.

حتى اليوم، في كلّ مرّة عندما اضغط قدم رجلي وأدسّها لتدخل في جزمة أو حذاء، وحتى في هذه اللحظة الّتي أجلس فيها وأكتب هذا، تعود إلى جلدي لذّة ولوج قدم الرجل الّتي تتلمّس طريقها في حضن الجدار الداخلي لذلك الحذاء الأول: ارتجاف اللحم المقحم - المنقّب لأول مرّة في حياته داخل خفايا مغارة جوانبها صلبة ولينة تلفّ وتمتّع من كلّ جهة وهي تشدّ حول لحمي الذي يشقّ طريقه بينها ويدفع ويندفع أكثر فأكثر إلى الداخل في حين صوت أمّي يحثّني، ناعما، متسامحاً، ادفع، ادفع لم يبق إلا القليل.

كفة يدها الأولى تدفع برقّة قدمي إلى الداخل أكثر فأكثر في حين تقبض يدها الأخرى من أسفل بالنّعل تدفع- تضغط بلطف ضدّي، ظاهريا تقاوم حركتي ولكنها في الحقيقة تساعد على استيعاب قدمي كلها حتى النهاية حتى اللحظة الحلوة الّتي فيها كمن يحتل أو يتغلب على العائق الأخير، يتغلب كعبي فجأة ثمّ ينطح نطحة قوية أخيرة ينزلق بعدها كله برويّة ويملأ أخيرا كلّ جوف الحذاء دون أن يترك أيّ فراغ ومنذ هذه اللحظة أنت كلك هناك في الداخل ملفوف محاط ومستتر، وها هي الأم تشدّ لك الرباط وتربطه وأخيرا كلَعْقة المتعة الأخيرة يأتي شدّ لسان الحذاء الدافئ من تحت الرباط ومن تحت العقدة : ذلك الشّدّ الذي يسبب لك دائماً نوعاً من الدغدغة الّتي تسري كالقشعريرة على طول ظهر قدم رجلي. وها أنا هناك. في الداخل. مُطوّق ومشدود محتضَن ومعانَق ومستمتع بقبضة جلد الحذاء الأول في حياتي.

في تلك الليلة طلبت أن يأذنوا لي بأن أنام لابسا الحذاء: أردت أن يبقى ملازما لي. أو على الأقلّ أن يضعوا الحذاء الجديد بجانب رأسي على المخدّة، كي استطيع النوم على نسمة عبق الجلد وشذى الدّبق. بعد مفاوضات طويلة وبعد أن تبللت بالدموع وافقا أخيرا على وضع الحذاء على كرسيّ بالقرب من موضع الرأس على السرير وبشرط ألا تلمسه ولو لمسة خفيفة حتى الصباح، إذ أنّك قد غسلت يديك هذا المساء، بإمكانك فقط أن تنظر إليه وأن تطلّ في كلّ لحظة إلى أعماق ظلمة بلعومه الذي يبتسم إليك وأن تستنشق إلى جوفك رائحته حتى تغفو أمامه وأنت تبتسم أيضاً من خلال نومك وشعورك بهيج كمن يلاطف ويداعب.

*

في ذاكرتي الثانية أنا في مكان مقفل علي من الخارج، أنا لوحدي، داخل وِجار مظلم.

عندما كنت ابن ثلاث سنوات ونصف، ابن أربع سنوات تقريبا، كانا يضعاني عدة مرات في الأسبوع طوال ساعات النهار عند جارة أرملة ليست شابّة، محرومة من الأولاد، من تلك المرأة كانت تفوح رائحة صوف رطب مخلوط قليلا برائحة صابون غسيل ورائحة قليٍ، كان اسمها السيدة جات

ولكننا كنا نسميها العَمَّة غْريتا، باستثناء أبي الذي كان أحياناً يضع ذراعه على كتفها ويناديها غريتشن، أو غريت وكان يمزح ويسجع كعادته بابتهاج طالب مراهق في المرحلة الثّانوِيّة في العالم القديم: «إذا حكيتَ / قليلا مع غْريت / شو سويت؟!/ مش عيبَ!» (يبدو أن هذه كانت طريقته في مغازلة النساء.) كانت العَمَّة غْريتا يحمر وجهها خجلا، وبما أنَّها كانت تخجل كثيرا كان احمرار وجهها يتضاعف، أحمر- دمويّ داكن وعميق، أحمر يبدو أرجوانيا.

شعر العَمَّة غْريتا الأشقر، كان مجموعا في جديلة سميكة اعتادت أن تلفّيها مثل حبل مجدول حول رأسها المستدير. في صدغيها بدأ ينبت شعر أبيض شائب، أشواك رمادية في منحدرات المرعى الأصفر. ذراعاها السمينتان المترهلتان كانتا منقطتين بكثير من النّمش البني الشاحب. من تحت فساتين القطن القروية الّتي اعتادت ارتداءها كان للعَمَّة غْريتا فخذان ثقيلتان وعريضتان جدّاً تذكّرانك بفرس عمل. ابتسامة حائرة، مسوِّغة خجولة بعض الشيء، كانت أحياناً ترتسم حول شفتيها وكأنَّها في هذه اللحظة بالذات ضُبِطت وهي تقوم بعمل قبيح جدّاً جدّاً أو ضُبِطت وهي تكذب فيما هي نفسها مندهشة من نفسها. طوال الوقت كانت إصبعان من أصابعها مضمّدتين، أو إصبعا واحدة مضمّدة وأحياناً ثلاث أصابع، إمّا لأنَّها جرحت بسكّين السلطة أو لأن ظفرها انضغط في شق الدرج أو أنّ غطاء البيانو أُغلق على إصبعها: على الرغم من متاعب أصابعها المتواصلة فقد كانت معلمة خصوصيّة للعزف على البيانو. إلى جانب العناية الخصوصية القليلة بالأطفال.

بعد تناول وجبة الإفطار كانت أمّي توقفني على كرسي القدمين أمام المغسلة في غرفة الحمّام، تمسح بالمنشفة من على شفتيّ وخدّيّ وذقني آثار البيضة المسلوقة بروشت تبلل قليلا شعري تشقّ لي بالمشط «فسخا» دقيقا ومستقيما عن جنب، ثمّ تضع في يدي كيس ورق بنيّاً كانت تضع فيه موزة وتفاحة وقطعة خبز مع الجبنة الصفراء وعددا من أقراص البسكويت. وهكذا، مُلَمَّعاً ومُمشّطاً وتعيساً كانت أمّي تقودني إلى الساحة الّتي خلف البيت الرابع عن يميننا. في الطريق كان عليّ أن أعِدها بأن أكون حسن السلوك وأن انصاع

لأوامر العَمَّة غْريتا، وألا أضايقها وأزعجها وبالذات - ألا أحكّ وأقشر الغشاء البني الذي نبت لي فوق الجرح الذي في ركبتي لأنّ هذا الغشاء الذي يسمى أدمَة هو جزء من الشفاء وأنّهُ سرعان ما يسقط لوحده ولكن إذا قمت أنت، لا سمح الله، بلمسه فأنّهُ من المحتمل أن تسبب تلوّثاً في الجرح وعندها لن يكون هناك مجال آخر سوى حقنك بحقنة ثانية.

*

بجانب الباب كانت أمّي تدعو لي وللعَمَّة غْريتا أن نستمتع ببعضنا ثمّ تودّعنا. مباشرة بعد ذلك كانت العَمَّة غْريتا تخلع عني حذائي وتجلسني مع الجوارب، كي ألعب جيدا وبهدوء مطلق، على الحصيرة الّتي على طرفها كانت بانتظاري كلّ صباح مكعبات، وملاعق، ومخدّات، وفُوَط، ونمر من اللباد وحجارة دومينو بالإضافة إلى دمية بنت الملك المهترئة والتي كانت تفوح منها رائحة طحالب خفيفة.

قائمة الموجودات هذه كانت تكفيني لعدة ساعات مليئة بالصراعات والمغامرات البطولية: بنت الملك كانت سبيّة لدى ساحر سيئ الأخلاق (النمر) والذي أخفاها محبوسة في مغارة (تحت البيانو). الملاعق كانت أسطولا من الطائرات الّتي طارت كلها للبحث عن بنت الملك وراء البحر(الحصيرة) وفوق رؤوس الجبال (المخدّات). أما حجارة الدومينو فقد كانت الذئاب الفظيعة الّتي نشرها الساحر حول المغارة حيث الأميرة المسبيّة.

أو على العكس: كانت حجارة الدومينو الدبابات، الفوط - خيام العرب، الدمية الضعيفة تحوّلت إلى المندوب السامي الإنجليزي، من المخدات بنيت الأسوار حول القدس بينما الملاعق بقيادة النمر فقد ترقّت عندي إلى درجة الحشمونائيم[١] أو كتائب بار كوخبا.

في منتصف الصباح تقريبا كانت العَمَّة غْريتا تحضر لي عصير توت أرضي كثيف مخاطيّ داخل فنجان ثقيل لم يُرَ مثله في بيتنا. أحياناً كانت تجمع وتربط بحذر أطراف فستانها وتنزل لتجلس على الحصيرة: كانت

(١) عائلة كهنة وملوك في مملكة يهودا (المترجم).

تغمرني بالشقشقة وبزمات الشفتين وبأنواع مختلفة من المحبة كانت تنتهي دائماً بكثير من قبلات المربى اللزجة. أحياناً كانت تسمح لي أن أعزف قليلا وبلطف! - على البيانو. إذا انتهيت من أكل كلّ ما حضّرته لي أمّي في الكيس كانت العَمَّة غُريتا تكافئني بقطعتين مستطيلتين من الشوكولاطة أو بقطعتين من المرزبان. أباجورات غرفتها كانت مغلقة دائماً بسبب أشعة الشمس وكانت النوافذ مغلقة بسبب الذباب. أما بالنسبة للستائر المورّدة فقد كانت مشدودة ومثبّتة ببعضها طوال الوقت، مثل ركبتين محتشمتين كي تصون خصوصيتها.

أحياناً كانت العَمَّة غُريتا تلبسني حذائي والقبعة الخاكي مع الحافة الواقية من أشعة الشمس فأبدو كشرطي إنجليزي أو مثل سائق حافلة يعمل في شركة «همكشّير». بعد ذلك كانت تستعرضني بنظرة فاحصة تصلح في أعقابها أزرار القميص، أو ترطب إصبعها بلعابها وتفرك بقوة بقايا الشوكولاطة أو المرزبان الّتي تحجرت حول شفتيّ، ثمّ تضع على رأسها قبعة القش المستديرة والتي تخفي نصف وجهها ولكنها تبرز استدارة جسمها. بعد أن تفرغ من كلّ هذه الاستعدادات كنا (أنا وهي) نخرج لساعتين - ثلاث «لنفحص قليلا أحوال العالم الكبير».

٣١

من حيّ كيرِمْ أفْراهام كان يمكن أن نصل إلى العالم الكبير بواسطة الحافلة رقم ثلاثة أَلِف التي تتوقف في محطة في شارع تسفانيا بالقرب من روضة أطفال السّيّدة حاسْيا، أو بواسطة الحافلة رقم ثلاثة باء الذي يتوقف في الطرف الآخر لشارع عاموس، في شارع جيئولا زاوية ملآخي. العالم الكبير نفسه يمتدّ على طول شارع يافا، في شارع الملك جورج باتجاه دير رتيسْبون ومباني الوكالة اليهوديّة، في شارع بِن يِهودا ومحيطه، في شارع هيلِّل، وفي شارع شمّاي، وفي منطقة سينما ستوديو وسينما ريكس الّتي في منحدر شارع الأميرة ماري وحتى في طلعة شارع يوليان الذي يتجه نحو فندق الملك داوود.

في المفترق حيث يلتقي شارع يوليان وشارع ماميلا وشارع الأميرة ماري كان يقف بشكل دائم شرطي نشيط يرتدي بنطلونا قصيرا. على ذراعية لبس أكماما بيضاء. كان هذا الشرطي يسيطر بقوّة على جزيرة صغيرة من الأسمنت مظلّلَة بشمسية من الصّاج مستديرة. من على هذه الجزيرة كان الشرطي يوجّه حركة السير، ألوهيّة قادرة على كلّ شيء مزوّدة بصفّارة قويّة. يده اليسرى تُوَقِّف السير ويده اليمنى تُعجّل السير. من هذا المفترق توزّع العالم الكبير وامتدّ باتجاه المركز التجاري اليهودي الذي عند أقدام أسوار المدينة القديمة، وأحيانا امتدت فروعه حتى أطراف الأماكن العربية الّتي في محيط باب العمود، في شارع السلطان سليمان وحتى إلى السوق الذي داخل الأسوار.

في كلّ جولة كهذه كانت العَمَّة غُريتا تجرّني إلى ثلاث أو أربع محلات

لملابس النساء، في كلّ محل منها أحبت أن تلبس وتخلع ثمّ تلبس وتخلع في ظلمة مقصورة القياس عددا من الفساتين الفاخرة وأنواعا مختلفة من التنانير وقمصان النوم القطنية الفاخرة وأنواعا مختلفة من الأرواب مزركشة الألوان الّتي كانت تسميها نِجْليجيه. في إحدى المرات قاست أيضاً فروة، أفزعتني بنظرة العينين المعذبتين للثعلب المقتول. وجه الثعلب هيّج نفسي لأنه بدا لي شريرا ماكرا وبائسا يمزق القلب في آنٍ واحد.

المرة تلو المرة كانت العَمَّة غُريتا تغوص في غياهب مقصورة القياس وتخرج من داخلها أخيرا، بعد ما بدا لي الأمر كسبع سنوات عجاف، وهي مشرقة من جديد. المرة تلو المرة كانت افروديت ضخمة المؤخرة هذه تولد وتنهض إلينا من داخل رغوة الأمواج، تبزغ من وراء الستارة بتناسخ جديد، زاهي الألوان براقا أكثر من سابقه. لأجلي ولأجل البائع ولأجل باقي الحضور في المحل كانت العَمَّة غُريتا تدور مرةً أو مرتين حول نفسها أمام المرآة: على الرغم من فخذيها الثقيلتين كانت تستمتع بأن تدور على قدم واحدة بغنج ورفعة، وكانت تسأل كلّ واحد منا على حدة إذا كان ذلك لائقا بها مناسبا لها؟ وإذا كان ملائما جدّاً لها ويزيدها جمالا؟ ولا يتناقض مع لون عينيها ؟ يقعد جيدا عليها ؟ لا يزيدها سمنةً؟ ليس سوقيا؟ ليس صاخبا أكثر من اللازم؟ وخلال ذلك كان وجهها يحمرّ وبما أنَّ خجلها كان يصاحبه احمرار فقد كان احمرار وجهها يتضاعف،حتى أن خدها وعنقها اصطبغا بلون شبه بنفسجي. في النهاية كانت تعد البائع بكل الوعود والمواثيق بأنها بشكل شبه مؤكّد ستعود إليه وعلى الأغلب فإن ذلك سيتمّ اليوم، ما معناه، بعد قليل، بعد الظهر، قبيل المساء، بعد أن تقوم بجولة قصيرة لفحص الأسعار ومقارنتها، أو على أبعد الاحتمالات غداً.

من كلّ ما اذكره، لم تعد ولا مرة إلى أيٍّ من هذه المحلات. بل على العكس: كانت تحذر دائماً من أن تعود لزيارة نفس المحل إلا بعد مرور عدة أشهر على زيارتها السابقة إليه.

وهي لم تشترِ أيّ قطعة ملابس أبداً: على كلّ حال، جميع الجولات الّتي اشتركت فيها بدور مرافق، مستشار ذوق وأمين سرّ، جميعها دون استثناء

رجعت منها دائماً بخفي حنين. ربما لم تكن تملك ما يكفي من النقود. أو لربما أن مقصورات القياس المغطاة بالستائر في محلات ملابس السيّدات الموجودة في جميع أرجاء القدس كانت للعَمَّة غْريتا، في نهاية المطاف، تقريبا كما كانت لدمية بنت الملك المهترئة قلعة الساحر، تلك القلعة الّتي كنت أبنيها من أجلها من المكعبات في طرف الحصيرة.

*

حتى كانت تلك المرة في أحد أيام الشتاء ذي الرياح العاتية الّتي أدارت، على بقعة من الضوء الرماديّ، زرافات - زرافات من أوراق الأشجار المتساقطة، حيث وصلنا، العَمَّة غْريتا وأنا يداً بيد إلى محل ملابس واسعة وفاخرة لعله في أحد الأحياء العربية- المسيحيّة؟ كعادتها دائماً غرقت العَمَّة غْريتا محاطة بأمواج من الأرواب وقمصان النوم القطنيّة والفساتين المزركشة، داخل مقصورة القياس. قبل انغماسها غمرتني بقبلة جيلي لزجة وأجلستني كي انتظرها مؤقتا على مسند قدمين أمام مقصورة خلوتها الّتي كانت مغلّفة بستارة سميكة وداكنة اللون. وأن تعدني بألا تذهب، لا سمح الله، في أيّ حال من الأحوال، إلى أيّ مكان، فقط انتظر هنا بصمت والأهمّ ألا تتكلم بأيّ كلمة مع أيّ شخص غريب حتى تخرج العَمَّة غْريتا وتكون أجمل مما كانت عليه، وإذا كنت حسن السلوك ونفّذت تعليماتي ستحصل من العَمَّة غْريتا على مفاجأة صغيرة، خمّن ما هي؟

وفيما أنا جالس أنتظرها، حزينا ولكن مطيعا ومنضبطاً. مرت أمامي فجأة بخطوات سريعة ووقع أقدام خفيفة بنت صغيرة كانت متنكّرة كما في عيد المساخر أو أنها كانت مزيّنة كلها: لقد كانت طفلة أكبر مني أنا ابن الثلاث سنوات والنصف (أو ربما ابن الأربع سنوات تقريبا). وللحظة واحدة خادعة خُيّل إليّ بأن شفتي هذه الطفلة مدهونتان بأحمر الشّفاه، ولكن كيف يمكن ذلك؟ وصنعوا لها ما يشبه صدر المرأة، صدر حقيقيّ، صدر مع شق كما للنساء. مبنى الخاصرتين لم يكن طفوليّاً بل أشبه بالكمان. على ساقيها الصغيرتين تمكنت من رؤية جوارب نايلون لها درزة من الخلف. هذه الجوارب شبه الشّفّافة انتهت إلى داخل حذاء مع كعب عال أحمر اللون

ومُدبَّب في المقدمة. لم أشاهد أبدا في حياتي مثل هذه البنت- المرأة؛ إنها صغيرة نسبياً لكونها امرأة ومزّينة جدّاً نسبياً لكونها طفلة. وعليه فقد قمت مذهولا مندهشا ومجذوبا بدأت أمشي مسحورا وهاذيا خلف هذه الطفلة لكي أرى عن كثب ما رأيته أو عمليا، ما كدت لا أراه، لأنّ البنت ظهرت من بين أكوام التنانير الّتي خلفي ومرت عني بسرعة. أردت أن أراها عن قرب. أردت لها أن تراني. أردت أن أقوم بعمل معين أو أن أقول لها شيئا يجعلها تنفعل مني: لقد كان لي في تلك الفترة، ضمن مجموعة الأدوار الّتي تدربت عليها عرضان أو ثلاثة عروض مجرّبة بواسطتها كنت أبتزّ من الكبار صيحات الإعجاب بالإضافة إلى عرضين أو ثلاثة تفعل فعلها جيدا على الأولاد، وبالذات على البنات الصغيرات.

البنت المتنكّرة كانت تحلق خفيفة بين الرّفوف المحمّلة بلفات الأقمشة ثمّ اتّجهت إلى أحد الممرات الشبيهة بالنفق فيه أسراب من جذوع الأشجار العالية والغنية بالفساتين، أحاطت بالنفق من الجهتين. كانت تلك جذوع محمّلة حتى أن أغصانها كادت تهوي تحت وطأة أوراق الأقمشة زاهية الألوان. على الرغم من ثقلها كانت الجذوع الكبيرة قادرة على أن تدور حول محورها بحركة يد خفيفة.

كان هذا عالم النساء: شبكة من الممرات الدافئة، المعتمة، المضغوطة والعطرة. متاهة مخملية- حريرية عميقة ومغرية، كلما توغلت فيها تشعّبت إلى ممرات أخرى مكتظة بالملابس. رائحة صوف، ورائحة نفتالين وفلانيل تختلط هنا بصدى معيّن خافت لأبخرة عطور متطايرة تحلق في أعماق غابة لا حدود لها من الفساتين والجرازي والقمصان والتنانير والأوشحة والمناديل والشالات والملابس الداخليّة وأرواب الحمام وأنواع مختلفة من المشدّات وأحزمة الجوارب والتنانير وأرواب النوم وتشكيلة كبيرة من الجاكيتات والصُّدرات والمعاطف ومعاطف الفرو وحفيف الحرير كان يهب مثل نسيم بحر لطيف.

*

هنا وهناك انفغرت أمام ناظريّ في الطريق خيام مظلمة صغيرة ملفوفة

بستائر داكنة. هنا وهناك غمزت في طرف أحد الأنفاق الملتوية لامبة ظلال خافتة. هنا وهناك تشعّبت من الممرّات ممرات ثانوية معتمة، مقصورات قياس، ممرات غابات ضيّقة وملتوية، أكواخ ضيّقة، مقصورات قياس مغلقة وأنواع مختلفة من الخزائن والرفوف والطاولات. إضافة إلى الكثير من الزوايا المغلقة بواسطة ستائر وحجب وقواطع سميكة.

خطوات تلك الطفلة عالية الكعبين كانت سريعة جدّاً، وواثقة، وكان وقعها يقول تك- تك- تاك (وأنا كالمحموم سمعتها تقول لي «اقترب، اقترب، اقترب»، وكذلك ظننتها تسخر مني «طفل صغير، طفل صغير!»)، لم تكن تلك خطوات بنت صغيرة، ومع ذلك تمكّنت من التيقّن من شكل ظهرها بأن قامتها كانت بكل تأكيد أقصر من قامتي. اشتقت إليها، بكل جوارحي تقت، ومهما كان الثمن، إلى أن أجعل عينيها تنفرجان من شدة الانفعال.

استعجلت. وكدت أركض وراءها. وبكل جوارحي المُشبعة بالخرافات عن أميرات قام فرسان مثلي بالسّعي من أجل إنقاذهنّ من بين فكّي التنين الأسطوري ومن تمتمات السحرة الأشرار. كان لا بد لي من أن الحقّ بها كي أرى عن قرب وجه حوريّة الغابة وربما لأنقذها؟ وأن أقتل من أجلها تنينا أو تنينَين؟ كي اكسب شعورها بالامتنان لي إلى الأبد؟ خفت أن أفقدها نهائيا في خضم ظلمة المتاهة.

ولكن لم أكن أملك أيّ طريقة لأعرف إذا كانت هذه البنت المتلوية بخفة في قلب غابة أشجار الملابس قد لاحظت أم لم تلاحظ بأن أميراً شجاعا وحاسما يركض خلفها ويتعقّبها يوسع خطواته الصغيرة أكثر فأكثر كي لا يتأخر. إذا كانت قد لاحظت فهي لم تعطني أيّ دليل على ذلك: فهي لم تلتفت ولو لمرة واحدة باتجاهي. كذلك لم تلتفت إلى الوراء ولو لمرة واحدة أيضاً.

وفجأة غاصت الجنيّة الرقيقة الصغيرة، توجّهت، انحنت إلى الأمام تحت شجرة من المعاطف المشمّعة الواقية من المطر كثيرة الأغصان هزتها قليلا ودفعة واحدة اختفت عن ناظري داخل ظلمة أوراقها وأغصانها المتشابكة.

في تلك اللحظة بالذات غمرتني موجة من الشجاعة والبسالة لست معتادا عليها، جرأة فرسان سرت فجأة في جسمي سريان التيار الكهربائيّ، ودون خوف أو وجل انطلقت وراءها. تجاوزت طرف الممر عن طريق دفع وإبعاد أغصان النسيج وبحركات واسعة وقوية كالسباحة ضدّ التّيار اندفعت مباشرة إلى قلب التشابك وشققت طريقاً التفافية بين الملابس الكثيرة الهامسة. وهكذا وأنا ألهث وأستعر اندفعت بقوة - حتى كدت أتعثّر- إلى داخل منطقة قاتمة خالية من الأشجار، هنا قررت أن انتظر، مهما يلزم من الوقت، لحورية الغابة الصغيرة الّتي تخيلت أنني استوعب همس حركاتها القريبة وحلاوة رائحة نفَسها من بين الأغصان القريبة. سأخاطر بحياتي وسأخرج من أجلها أعزل لمواجهة الساحر الذي حبسها في قبوه. سأتغلب على هذا المسخ،وسأقطع سلاسل الحديد الّتي على يديها ورجليها، وسأطلق سراحها، وسأقف عن بُعد أطأطئ رأسي بتواضع جمّ صامت أنتظر جزائي الذي لن يتأخر عن المجيء على شكل دموعها الشاكرة والتي لا أعرف ماذا سيأتي بعدها ولكنّني عرفت أنه آتٍ وسيكبر ويغمرني كلّي.

*

صغيرة، كالفرخ، ظهرها هشّ مثل عود الكبريت، تكاد تكون طفلة: لها ضفائر بنيّة مسترسلة وغزيرة. تنتعل حذاء كعب عالٍ أحمر، وفستان امرأة مع فتحة من الأمام تظهر صدر امرأة يتوسطه قنال حقيقي كما للنساء. وكانت لها شفتان عريضتان، شفتان منفرجتان قليلا مطليتان بأحمر شفاه صاخب.

عندما تجرأت في نهاية المطاف أن ارفع عيني وأنظر إلى وجهها، انفرج فجأة بين شفتيها شقّ منفر، ساخر، ابتسامة سامّة- مشوّهة كشفت عن أسنان صغيرة وحادّة ومن بينها لمعت فجأة إحدى الأسنان القواطع المذَهّبة. طبقة سميكة من مسحوق البودرة مع جزر من الحُمرة غطّت جبينها وأبرزت شحوب خديها المفزعين اللذين كانا أجوفين تقريبا، وغائرين مثل خدّي ساحرة عجوز شريرة: وكأنها لبست فجأة على وجهها وجه ثعلب الفروة القتيل، وجه بدا لي متآمرا شريرا ولكنه في الوقت نفسه مسكينا يجعل القلب يعتصر ألماً.

لأنّ الطفلة المحلّقة، الجنّية المتملّصة- اللعوب العابثة خفيفة الساقين، حوريتي الّتي لحقتها كالمسحور على طول الغابة وعرضها، لم تكن بنتا إطلاقا: لا جنية ولا حورية غابة بل امرأة ساخرة عابثة عجوز تقريبا. امرأة قزمة. حدباء قليلا. عن قرب كان في وجهها علامة غراب أعوج المنقار وجامد العين. كانت صاحبة عاهة، مفزعة، قصيرة جدّاً، نحيفة جدّاً، عنقها المعمّر كان متشقّقا وقد فتحت راحتي يديها على اتساعهما ومدتهما فجأة نحوي، وهي تضحك خلال ذلك ضحكة هامسة منخفضة ومفزعة تخطط أن تلمسني لكي تغريني وتأسرني، أصابعها كانت ضامرة وجافّة عظميّة تشبه مخالب طائر شرير.

استدرت في تلك اللحظة وهربت للتوّ، مضطرب النفس، مفزوعا، متنهدا، ركضت متحجرا دون أن استطيع الصراخ بصوت، جريت، دون توقّف أصرخ بداخلي صرخة مكبوتة، النجدة، أنقذوني، جريت جريا مجنونا بين الأنفاق ذات الحفيف في الظلام أسير وأتيه، أسير وأضيّع الطريق أسير وازداد تورّطا في أعماق المتاهة، لم أجرب قط في تاريخ حياتي لا قبل ذلك ولا بعده مثل هذا الفزع الرهيب. أنا من كشف سرّها الفظيع بأنها ليست بنتا بل هي ساحرة تتنكر في زيّ بنت صغيرة. الآن لن تدعني، إلى الأبد، أن أخرج حيّاً من غابتها المظلمة هذه.

وأنا أركض سقطت فجأة على فتحة صغيرة، ما يشبه بابا خشبيا كان غير مغلق ولا مفتوح، وعمليا لم يكن ذلك بابا بارتفاع بشريّ بل مجرد فتحة منخفضة مثل مدخل وجار الكلب: زحفت إلى هناك بما تبقى لي من قوة تنفّس وهناك اختبأت من الساحرة وما زدت عن شتم نفسي، لماذا لم أغلق ورائي باب هذا المخبأ؟ ولكني كنت مشلولا من شدة الرّعب، فزِعا من أن أطلّ ولو للحظة من مخبأي، ومتحجرا لا أقوى حتى على أن أبسط جسمي وأمدّ يدي وأغلق الباب ورائي.

وهكذا انكمشت كلي في إحدى زوايا ذلك الوجار الذي لم يكن إلا مخزنا، فراغ على شكل مثلث مغلق تحت مطلع درج. هناك بين عدة التواءات لأنابيب معدنية غير واضحة وحقائب مهترئة وأنواع مختلفة من أكوام

النسيج العفن، كنت منكمشا على بعضي ومنقبضا مثل الجنين، يدي تغطّي رأسي ورأسي ينحشر بين ركبتيّ، اطمح في أن ألغي كياني، أحاول أن أجمّع كلّ أعضائي داخل رحم ذاتي، هناك ربضت مرتجفا غارقا في بحر من العرق، أخشى أن أتنفّس، حريصا على ألا اخرج أيّ صوت، مفزوعا حتى الجمود من صوت نفَسي الذي يوشك أن يوشي بأمري لأنّ صوت نفخ أنفاسي المضطربة لا شك مسموع من الخارج أيضاً.

كلّ لحظة كنت أتوقّع أن أسمع صوت وقع كعبي حذائها، «تي تموت»، «تي تموت»، «تي تموت»، الذي يقترب مني، ها هي تجري ورائي بوجهها، وجه الثعلب القتيل، ها هي قد وصلت وخلال لحظة ستلقي القبض عليّ، ستنحني، ستسحب بقوة ستلمسني بأصابعها الّتي ملامستها مثل ملامسة الضفدع، تلمسني، تؤلمني، وفجأة ستنحني وهي تضحك بأسنانها القاطعة وتعضني وتبث في دمي تعويذة سحرية رهيبة بعدها أتحوّل فجأة أنا أيضاً إلى ثعلب قتيل أو إلى حجر.

*

بعد انقضاء سبع سنوات تقريبا مرّ من هناك شخص ما، أحد عمال المحل. توقفت عن التنفّس وقبضت راحتيّ المرتجفتين. ولكنّ الرجل لم يسمع خفقات قلبي. لقد مر بسرعة من أمام وجاري وفي طريقه ودون أن ينتبه، أغلق باب المخزن وأوصده من الخارج (وهو لم يكن عمليا أكبر بكثير من درج كبير)، ذلك الباب الذي لم تتوفر لي الجرأة لأن أمدّ يدي وأشدّه وأغلقه من الداخل. الآن أصبحت محبوسا. إلى الأبد. في هاوية مظلمة ظلاما دامسا. في قعر المحيط الهادئ.

في مثل هذا الظلام وهذا الهدوء لم أكن قط في حياتي، لا قبل ذلك اليوم ولا طوال السنوات الّتي مرّت بعده. لأنّ ذلك لم يكن ظلمة ليل، الّتي غالبا ما تكون زرقاء- داكنة والتي يرى فيها دائماً ومضات متنوعة تخترقها أو تنقّطها، كما توجد فيها كواكب وتوجد فيها يراعات، كما توجد مصابيح المسافرين البعيدين، ويوجد فيها شباك بيت في مكان ما حيث جميع الأشياء الّتي ترى في ظلام الليل الذي تستطيع فيه دائماً الانتقال من كتلة مظلمة إلى

أخرى بواسطة تلك الومضات وتراقص الأشعة والخفقات، ودائما يمكن أن تحاول أن تتلمّس في الظلام ظلالا معينة أقل سواداً من سواد الليل نفسه.

ليس هنا: هنا كان قعر بحر الحبر.

كذلك لم يسد هنا هدوء الليل، من أنواع الهدوء تلك الّتي دائماً كانت تخفق في ثناياها مضخة ما بعيدة والصراصير الّتي يرتعد منها الصمت، وجوقات الضفادع ونباح وضجيج محرّك خافت ودندنة الحشرات والناموس وبين الحين والآخر يخترقه صوت بكاء ابن آوى.

ولكن هنا أنا محبوس والباب موصد خلفي ليس في جوف ليل حيّ ومرتجف لونه بنفسجي غامق بل داخل ظلام الظلام. وصمت الصمت يلفّني هناك، هذا الصمت الذي يمكن أن نجده فقط في قاع بحر الحبر.

*

كم من الوقت؟

حاليا لا يوجد من يمكن أن نسأله: غْريتا جات قتلت في أيام الحصار على القدس اليهوديّة، في سنة ١٩٤٨. قناص من الجيش الأردني، قناص مع حزام جلد مائل أسود وكوفيّة مربعات حمراء، أطلق عليها رصاصة مسددة من جهة مدرسة الشرطة الواقعة عند خط الهدنة. الرصاصة، هكذا قيل في الحيّ، دخلت الأذن اليسرى للعَمَّة غْريتا وخرجت من عينها. حتى هذا اليوم عندما أحاول أن أرسم كيف كان وجهها تفزعني عين واحدة ممزّقة.

كذلك لا توجد لديّ اليوم أيّ وسيلة لاستوضح أين كان يقع في القدس محل الملابس ذلك، الغني بالمتاهات والمغاور والأكواخ وممرات الغابة، من قبل ستين سنة تقريبا؟ ماذا كان مصير تلك الغابات والأنفاق الملتوية والمتعرّجة؟ والأكواخ الّتي خلف الستائر والحواجز والطاولات وجميع مقصورات القياس؟ والوجار الذي دفنت فيه حيّاً؟ والساحرة المتنكرة بزي حورية غابة، تلك الّتي سرت في أعقابها ثمّ هربت من وجهها مفزوعا مرعوبا؟ ماذا كان مصير مغريتي الأولى الّتي جذبتني وراءها إلى أعماق شبكة خيوط المتاهة حتى شققت طريقي إلى المخبأ الذي فيه تكرّمت عليّ

وأطلعتني على وجهها فجأة وبمجرد نظري إليه حوّلته إلى مسخ: وجه ثعلب قتيل، وجه شرير ماكر ولكنه مسكين يتقطع له القلب أسىً.

*

من المحتمل أنّ العَمَّة غُريتا عندما تكرمت وأشرقت خارجةً في نهاية المطاف من جديد من داخل فرن الانصهار الخاصّ بها، وهي ترتدي فستانا براقا بأضواء وامضة متقطّعة فزعت عندما لم تجدني بانتظارها في المكان الذي ثبتتني فيه، على مقعد البراعم أمام مقصورة تبديل وقياس الملابس. لا شك أنها ذهلت وقد احمرّ وجهها ثمّ أحمر وجهها حتى اصطبغ باللون شبه البنفسجيّ: ماذا حدث للولد؟ أوَليس هو دائماً ذلك الولد المطيع الذي يتحمّل المسؤولية، ولد حذر جدّاً وليس المغامر بالذات وليس بذلك الولد الباسل والجريء؟

يجب أن نخمّن أن العَمَّة غُريتا حاولت أن تجدني بقواها الذاتية: لعلها خمّنت أن الولد انتظر وانتظر حتى ملّ وسئم وأنّه الآن على ما يبدو يلاعبها الغمّيضة كي يعاقبها على اختفائها عنه هذه المدة الطويلة. ربما يختبئ العفريت هنا وراء الرفوف؟ لا؟ هنا بين المعاطف؟ أو ربما يقف ينظر إلى دمى الشمع لفتيات كاسيات عاريات؟ أو لربما تسلل إلى المدخل ليراقب المارين في الشارع من وراء شباك العرض؟ أو أن هذا الولد بحث ووجد بقواه الذاتية مرحاضا لقضاء حاجته؟ أو حنفية يشرب منها الماء؟ ولد حكيم، ولد يتحمّل المسؤولية، لا شيء يمكن أن يقال، ولكن ماذا؟ إنه مشتّت الفكر، مرتبك، غارق في أحلام من أنواع مختلفة، يتيه كلّ مرة من جديد داخل قصص خياليّة أحكيها له ويحكيها هو لنفسه. ولربما خرج على الرغم من كلّ ذلك وحده إلى الشارع؟ فلعله ظنّ أنّي نسيته ومن خلال يأسه ضلّ وهو الآن يحاول أن يجد طريقه إلى البيت؟ وماذا لو ظهر له رجل غريب ومدّ له يده واقترح عليه العجائب؟ وماذا لو أن الولد افتُتن وذهب معه؟ مع رجل غريب؟

*

كلما تعاظم فزع العَمَّة غُريتا، لم يعد يحمرّ وجهها خجلا بل على

العكس، شحبت كلها وبدأت ترتعد وكأنها أصيبت بقشعريرة برد. ولا شكّ أن العَمَّة رفعت صوتها وانفجرت ببكاء مرير، ولا شكّ أن كلّ مَن في المحل، من عمال وزبائن، قد هبّوا لمساعدتها وبدأ جميعهم بتمشيط المحل والبحث عني من أجلها. ربما بدأوا ينادون باسمي بصوت عال وقد وطأوا ذهابا وإيابا ممرات المتاهة، فحصوا عبثا في كلّ شبكة ممرات الغابة. وبما أن هذا المحل كان محل ملابس عربي يمكنني التخمين بأن الكثير من الأولاد الأكبر مني قليلا قد استُنْفِروا وأرسلوا إلى هنا وهناك للبحث عنّي في البيئة القريبة، في الأزقة وفي الحفر وفي كرم الزيتون المجاور وفي ساحة المسجد وفي مرعى الماعز الذي في المنحدر وفي الممرات المؤدية إلى السّوق.

هل كان هناك هاتف حقا؟ هل حقا اتّصلت العَمَّة غُريتا بصيدلية السّيد هاينمن في زاوية شارع تسفانيا؟ هل أفلحت أم لم تفلح في الوقت الذي توفّر لها أن تفزع والديّ بالخبر الفظيع؟ يبدو أن الجواب لا، إذ لو أنها فعلت لكان والداي يذكّرانني بذلك المرة تلو المرة، لكانا سيذكران لي ذلك لسنوات طويلة، عند كلّ عدم رضوخ من طرفي كانا سيلوّحان لي بشبه الكارثة والحزن الفظيع وإن كان قصيرا الّذي أوقعهما فيه ابنهما المجنون، وكيف أنهم في غضون ساعة أو ساعتين كاد شعرهما يشيب من هول المُصاب.

أذكر أنني هناك في الظلام الدامس لم أصرخ. لم انبس ببنت شفة. لم أحاول أن أهزّ الباب الموصد ولم أطبّل عليه بقبضتيّ الصغيرتين: ربما لأنني ما زلت ارتجف من شدّة الخوف من أن تلك الساحرة صاحبة وجه الثعلب القتيل ما زالت تتعقب أثري. أذكر أنّ هذا الخوف قد تبدّل لي هناك، على قعر بحر صمت الحبر، بنوع من الحلاوة الغريبة: أن أكون هناك كان شبيها نوعا ما بأن أتشبث معانقا أمي تحت دفء بطانية شتوية في الوقت الذي كانت فيه هبات من البرد والظلام تلامس زجاج الشباك من الخارج. وأن ألعب قليلا دور الولد الأصم الأعمى. وأن أكون لوقت قليل متحررا منهم جميعا. وتماما.

توقعت أن يجدوني بعد قليل، وأن يخرجوني من هناك، ولكن بعد وقت قليل فقط. ليس فوراً.

وحتى كان لي هناك شيء ما صغير وصلب، شيء مثل قوقعة معدنية دائريّة، أملس وناعم الملمس، كانت مقاييسه ملائمة تماما لقبضة يدي وقد استطابته أصابعي الّتي تقبض عليه وابتهجت بملامسته، تتحسّس، تلاطف، تضغط طورا وترخي طورا آخر وأحيانا تجذب وتمسك وتشُدّ - قليلا فقط - طرف الساكن الدقيق والمرن المختبئ داخله، والذي يشبه رأس الحلزون الذي يطلّ بفضول للحظة، يتلوّى إلى هنا وإلى هناك ثمّ يعود فوراً ويختفي داخل ملجأه المُدرّع.

كان ذلك مترا زنبركيا وهو عبارة عن شريط دقيق ومرن من المعدن ملفوف كله داخل علبة معدنية (يسمى حاليا شريط قياس). عبثت ولعبت بهذه القوقعة فترة طويلة في هذا الظلام الدامس، أجذب أشدّ أطوّل ثمّ أرخي دفعة واحدة وبذلك أجعل الأفعى المعدنية تندفع بسرعة البرق إلى داخل مخبئها حتى تحتضنها العلبة كلها في جوفها، تستوعب كلّ طولها متجاوبة معها برجفة نهائية خفيفة رجفة «قرقعة» استلطفتها جدّاً راحتي الّتي تمسك بالقوقعة.

ثمّ أعود فأشدّ فأرخي وأشدّ والآن أخرج الأفعى النحاسية بكل طولها بعيدا إلى الفراغ المعتم أتحسس فيه أطراف الظلام أسمع طقطقة مفاصلها الرقيقة الناعمة كلما تمددت أكثر وابتعد رأسها عن درعها. وفي النهاية كنت أسمح لها أن تعود إلى بيتها رُوَيداً رُوَيداً حيث كنت أرخي قليلا ثمّ أتوقف، أرخي مرة أخرى ثمّ أعود وأتوقف، أحاول أن أخمن - لأنني لم أرَ شيئا، لم أرَ شيئا تماما- بعد كم طق- طق ناعمة كهذه ستسمع الطقطقة النهائية والتي تشير إلى دخول الأفعى كلها من رأسها إلى طرف ذنبها إلى أعماق الرحم الذي سمحت لها أن تندفع خارجة منه.

كيف وصلت إلى يدي هذه القوقعة المسلية؟ لم أعد اتذكّر إذا كنت اصطدتها في طريقي خلال رحلة الفروسية في أحد منعطفات المتاهة؟ أم أنني وجدتها خلال تحسّسي داخل ذلك الوجار بعد أن دُفنت فيه وأغلق علي من الخارج؟

*

هناك مجال لأن افترض بأنّ العَمَّة غُريتا قلّبت الأمور وقررت أنه، على

كل حال، من الأفضل ألا تخبر والديّ: بكل تأكيد رأت من المناسب ألا تفزعهم وخاصة بعد أن انتهى كلّ شيء بخير وسلام. ربما خشيت أيضاً أن يعتبروها مربية لا تتحمل المسؤولية، وبذلك تخسر مصدر رزقها، صحيح أنه مصدر رزق متواضع ولكنه ثابت وهي بحاجة إليه.

لم تُذكر بيني وبين العَمَّة غْريتا ولا حتى بالتلميح قصة موتي وبعثي في محل الملابس العربي. ولا حتى كلّمة واحدة. ولا حتى غمزة متآمرين. ربما توقعت حقا أنه مع الوقت ستخفت ذاكرة ذلك الصباح ونعتاد كلانا على الاعتقاد بأن ذلك لم يحصل، وأنّنا حلمنا حلما مفزعا فقط. ولعلها خجلت قليلا من جولات العبث الّتي كانت تقوم بها في محلات الملابس النسائيّة: منذ ذلك الصباح الشتوي لم تعد العَمَّة غْريتا تشركني في خطاياها. بل لعلها نجحت، بفضلي، في الإقلاع عن شهوتها إلى الفساتين؟ بعد أسابيع أو أشهر قليلة فصلت عن العَمَّة غْريتا وسلّمت إلى روضة السيدة بْنينة شَبّيرا في شارع تسفانيا. ولم يبقَ من العَمَّة غْريتا إلا صوت عزفها على البيانو الذي بقينا نسمعه، عن بعد، لسنوات طويلة، في ساعات ما قبل المساء، صوت خافت ولكنه عنيد ووحيد من بين بقية أصوات الشارع.

لم يكن ذلك حلما: الأحلام تتلاشى مع مرور الوقت وتخلي مكانها لأحلام غيرها، بينما تلك الساحرة القزمة، البنت العجوز، وجه الثعلب القتيل ما زالت تنظر إليّ باستهزاء بأسنانها الحادة القاطعة والتي من بينها كانت هناك سن واحدة مذهّبة.

وليست الساحرة فقط، بل القوقعة أيضاً الّتي أحضرتها معي من الغابة، القوقعة الّتي خبأتها عن عينَي أبي وأمّي وأحيانا، تجرّأت، وخاصة عندما كنت لوحدي، أن أخرجها وأعبث بها قليلا تحت البطانية بأن أجعلها تنتصب طويلة ثمّ تتراجع بسرعة البرق بقفزات سريعة إلى داخل أعماق وجارها وهكذا دواليك.

رجلٌ قمحيّ مع كيسي دموع كبيرين تحت عينيه الطيبتين، رجل ليس صغير السن ولا عجوزا، كان معلقا حول عنقه متر خيّاطين أخضر وأبيض تدلّى من جانبي صدره. حركاته بدت ثقيلة نوعا ما. وجهه البني كان عريضا،

ناعسا، وابتسامة خجولة كانت تومض للحظة ثمّ تختبئ فوراً تحت شارب شائب ليّن. انحنى هذا الرجل نحوي ثمّ قال شيئا ما باللغة العربية، شيئا ما لم أفهمه ومع كلّ ذلك ترجمته في قلبي إلى كلمات: لا تخف، أيها الصبيّ، فمن الآن فصاعدا، ببساطة، لن تخاف.

أتذكر أنَّه كان للرجل الذي أنقذني، نظارتان طبيتان مربعتان، بنيتا الإطار، نظارتان لا تلاءمان بائعا في محل ملابس للنساء بل ربما تلائمان نجارا هرما ضخم الجسم، يسير وهو يتمتم ويجرجر قدميه مع عقب سيجارة مطفأ بين شفتيه ومتر مطويّ وبالٍ يطل من جيب قميصه.

تأمّلني الرجل للحظة ليس عبر زجاجات نظارته الّتي انحدرت قليلا في منحدر أنفه بل من فوق نظارته. وبعد أن طالعني جيّداً وبعد أن أخفى ابتسامة أخرى أو ظل ابتسامة خلف شاربه المقصوص هزّ رأسه مرتين وربما ثلاث مرات ثمّ مدّ يده الدافئة ولفّ بها يدي الباردة من شدّة الخوف، كمن يدفّئ براحته صوصاً متجمّدا، وبذلك جذبني من داخل ذلك الدّرج المظلم وفجأة رفعني في الهواء وشدّني بقوّة إلى صدره مما جعلني أنفجر بالبكاء.

عندما رأى الرجل دموعي قرّب خدّيّ من خدّه الواسع المسترخي ثمّ قال، كان صوته منخفضا ومغبرا ولطيفا، صوت ذكّرني بطريق ترابيّ مظلّل وسط الحقل قبيل المساء، قال بعبرانية عربٍ سائلا ومجيبا وملخّصا:

«هل كلّ شيء على ما يرام؟ كلّ شيء جيد. حسناً.»

ثمّ حملني على ذراعيه إلى غرفة المكتب الّتي كانت موجودة في أعماق المحل حيث كان الهواء مشبعا برائحة قهوة وسجائر قوية حادّة بالإضافة إلى رائحة أقمشة صوفية ورائحة كولونيا الرجل الذي وجدني والتي تختلف عن رائحة أبي، فهي أكثر مرارة وكثافة، رائحة كتلك الّتي كنت أريدها أن تكون لأبي. والرجل الذي وجدني بدأ يتحدث مع جميع الموجودين هناك عدة كلمات بالعربية لأنه كان هناك في المكتب رجال وقفوا وجلسوا بيننا وبين العَمَّة غريتا الّتي أخذت تذرف الدموع في زاوية الغرفة، وقال أيضاً جملة للعَمَّة غريتا الّتي احمرّ وجهها خجلا، وفي أثناء ذلك، وبحركة طويلة وبطيئة مثل طبيب يجسّ المريض ليحدد بالضبط موضع الألم، أخذني ذلك الرجل

ووضعني بين ذراعي العَمَّة غْريتا الباكية.

على الرغم من أنّني لم أرغب كثيراً في أن أكون بين ذراعيها. ما زال مبكرا. إذ أنني أردت أن أبقى مزيدا من الوقت مضموما إلى صدر ذلك الرجل الذي أنقذ حياتي.

بعد ذلك استمروا يتحدثون بعض الوقت، الآخرون لا الرجل الذي وجدني، فهو لم يتكلّم بعد ذلك بل ربّت على خدّي مرة ومرتين على كتفي ثمّ خرج. من يدري ما اسمه؟ وهل ما زال حيّاً؟ أفي بيته؟ أم في خضم الغبار والفقر في أحد مخيّمات اللاجئين؟

*

بعد ذلك عدنا بالحافلة رقم ثلاثة ألِف. غسلت العَمَّة غْريتا وجهها ووجهي حتى لا يلاحظوا بأننا بكينا. أطعمتني قطعة خبز بالعسل والأرزّ المطبوخ في سُلْطَانِيّة مع كأس حليب فاتر، وكحلوى أعطتني قطعتي مرزبان. بعد ذلك خلعت عني ملابسي وأضجعتني على سريرها وغمرتني بكثير من المحبّة وحركات شفتيها الّتي انتهت بقبلات لزجة، ثمّ غطتني وقالت نمْ نمْ قليلا يا بُنيّ الغالي. ربما فعلا أرادت بذلك أن تطمس آثار الحادث. ربما توقعت أن أنام وأن استيقظ من قيلولة الظهيرة وأظنّ أن كلّ شيء حدث لي في المنام ولن أخبر والديّ، وإذا أخبرتهم فإنّها تستطيع أن تبتسم وأن تقول بأنني دائماً أحلم خلال القيلولة أحلاما قصصية تحتاج فعلا إلى من يكتبها ذات مرة في كتاب، كتاب مع رسومات ملوّنة يستمتع بها جميع الأطفال.

ولكّنني لم أنم حسب رغبتها، بل اضطجعت هادئا تحت البطانية ولعبت بقوقعتي المعدنية.

لم احكِ لوالديّ قط لا عن الساحرة ولا عن قعر بحر الحبر ولا عن الرجل الذي أنقذني: لم أرغب في أن يصادروا لي قوقعتي. كما أنني لم أعرف كيف أشرح لهما كيف وجدتها؟ ماذا؟ أأقول لهما بأنني أخذتها تذكارا من حلم حلمته؟ وإذا حكيت لهما الحقيقة أولن يغضبا غضبا شديدا على العَمَّة غْريتا وعليّ أيضاً: كيف ذلك؟! فخامته وجلالته يسرق؟! هل فقد حضرته صوابه؟!

وفورا سيأخذانني إلى هناك ويجبرانني على إعادة القوقعة وأن اعتذر طالبا العفو.

بعد ذلك يحين وقت العقاب.

*

بعد الظهر حضر والدي ليأخذني معه إلى البيت من منزل العَمَّة غْريتا. مع قدومه قال كعادته، «فخامة جلالته يبدو لي اليوم شاحبا قليلا؟ هل مرّ على فخامته يوم صعب؟ هل، لا سمح الله، غرقت بواخره في البحر؟ أم أن قصوره سقطت في أيدي الخصوم والأعداء؟»

لم أجب، على الرغم من أنه، بكل تأكيد، كان عندي ما يسبب له الإهانة: كان بإمكاني أن أقول له على سبيل المثال أنني اكتشفت أن لي، من دونه، اعتبارا من هذا الصباح، والدا آخر. عربياً.

وبينما كان يلبسني حذائي كان يضحك قليلا مع العَمَّة غْريتا كعادته الدائمة في مغازلة النساء بواسطة التلاعب بالألفاظ. أو كعادته في الثرثرة الّتي لا تعرف الحدود من أجل إلغاء كلّ احتمال لصمت مؤقت. طوال حياته كان والدي قلقاً جدّاً من الصمت. في كلّ لحظة كان يعتبر نفسه مسؤولا عن استمرار حياة المحادثة، ويشعر دائماً بأنه فاشل ومذنب إذا ما خبت المحادثة ولو للحظة. لذلك احتراما وتقديرا للعَمَّة غْريتا أخذ يقول ما يلي أو شيئا مشابها لما يلي:

«بكل صدق واستقامة/ ليس جرما ولا ملامة / إذا غازلت غْريتا الهمّامَة.»

أو ربما تمادى بعض الشيء قائلا لها:

«غْريتا جات، غْريتا جات/ لك في فؤادي لمسات.»

احمرّ وجه العَمَّة غْريتا خجلا، فوراً، وبما أنَّها كانت تخجل كثيرا باحمرار وجهها كان احمرار وجهها يتضاعف، حتى أن جلد عنقها وخديها احتقن بدم بنفسجي كلون الباذنجان، ومع ذلك نجحت في أن تتمتم:

«هيا، ولكن حقا، ولكن حقا، السّيّد الدكتور كْلاوْزْنِر،» غير أن فخذيها اهتزّتا قليلا وكأنهما اشتاقتا إلى الدوران على قدم واحدة من أجله.

في ذلك المساء أخذني أبي في جولة طويلة ومفصّلة بين بقايا حضارة الإينكا: متحمسين ومتعطشين للمعرفة بلعنا مَعاً بحارا وجبالا وقطعنا أنهارا وصحاري على صفحات الأطلس الألماني الكبير. بأم أعيننا شاهدنا المدن الغامضة وبقايا الهياكل والمعابد في الموسوعة وكذلك بين صفحات كتاب بولنديّ يحوي الصور. وطوال ذلك المساء جلست أمي على الأريكة تقرأ وساقاها مطويتان تحتها. في مدفأة الكاز اشتعلت شعلة صامتة بلون أزرق داكن.

وبين الحين والآخر تمّ التأكيد على صمت الغرفة بواسطة ثلاث - أربع تعويذات ناعمة صدرت عن فقاعات الهواء وهو تمرّ عبر شرايين المدفأة.

٣٢

الحديقة لم تكن حديقةً بل مستطيلا غير كبير من أرض الساحة المتماسكة والمرصوصة مثل أرضية الأسمنت: حتى أنها ما كانت تصلح لإنبات الشوك. سور الأسمنت يلقي بظلاله عليها طوال ساعات النهار كما في ساحة السجن. بالإضافة إلى ظلال أشجار السّرو العالية الّتي ارتفعت عاليا خلف الجدار، في ساحة عائلة لامبرج. في الزاوية نبتت لها بغضب مكبوت شجرة فلفل كاذب مُعَوَّقة أحببت أن أفرك أوراقها بين أصابعي وأن أستنشق رائحتها المثيرة. أمام شجرة الفلفل الكاذب هذه بقيت عندنا شجرة رمان أو أنها مجرد شجيرة كبيرة بقيت تعيسة منذ الأيام الّتي كان فيها كيرِم أفْراهام مازال بستانا وليس حيّاً، وهذه الشجيرة قاومت وأصرّت على أن تتفتح كلّ سنة من جديد بالرغم من كلّ شيء. لم ينتظر الأولاد حبّ الرمان بل قطفوا بدون شفقة البراعم الفجّة الّتي تشبه المَزْهَرِيَّة. كنا نغرز في كلّ واحد منها عصا صغيرة بطول إصبع ونصف وبذلك كنّا نحولها إلى غلايين كتلك الّتي دخنها البريطانيون وعدد من الأثرياء في الحيّ الذين أرادوا التّشبّه بالبريطانيين. في كلّ موسم كنّا نفتح في زاوية الساحة محلا للغلايين. بسبب لون براعم الرمّان كان يُخيَّل لنا أحياناً أنّه في طرف كلّ واحد من هذه الغلايين تومض شرارة ضاربة إلى الحمرة.

*

ضيوفنا من عشاق الحقول والمروج الخضراء، السيدة مالا والسيد ستاتشِك رودنيتسكي من شارع تشنسلر، أحضرا لي، ذات مرة، كهدية، ثلاثة

أكياس صغيرة من الورق وفيها بذور فجل وبذور بندورة وبذور خيار. لذلك، اقترح والدي أن نربّي عندنا مَسْكبا للخَضراوات: «نكون كلانا مزارعَيْن!» تحمّس «نؤسس لنا كيبوتسا صغيرا في القسيمة الّتي خلف شجرة الرمّان ونخرج بقوانا الذاتية الخبز من الأرض!»[1].

لم يكن لدى أيّ عائلة من شارع عاموس رَفْش أو مِعْول أو طوريّة أو مِذْراة. ولا حتى فأس أو كوّاشة. كانت هذه الأدوات تابعة لليهود الجدد، المسفوعين، الذين عاشوا خلف جبال الظلام - في المستوطنات والكيبوتسات، في الجليل، والشارون والمروج. وعليه بدون أيّ أداة تقريبا بأيدينا تجنّدنا أنا ووالدي من أجل إحياء الأرض القاحلة وتربية جنينة خضراوات.

في الصباح الباكر من يوم السبت في الوقت الذي كانت فيه أمي ما زالت غارقة في النوم وكذلك بقية أهالي الحيّ، تسللنا أنا وأبي إلى الساحة، نلبس فانيلات بيضاء وبنطلونات خاكي قصيرة ونعتمر قبعة تمبل، نحيفَيْن، ضيّقَيْ الصدر، منحنييْن حتى أطراف اصابعنا الدقيقة، شاحبَي البشرة مثل قطعتين من الورق ولكن محميَّين جيّداً بطبقة سميكة من الكريم الذي دهن به كلّ منا كتفَي الآخر (يسمى هذا الكريم باسم فلفيتا ووظيفته أن يعرقل كلّ مؤامرات شمس الرّبيع).

مشى والدي في المقدّمة ينتعل حذاء عاليا، مسلّحا بشاكوش ومفكّ وشوكة من المطبخ ولفة حبال وكيس خيش بالإضافة إلى سكين أخذه من منضدته سكين تقطيع الأوراق. ومشيت أنا وراءه ممتلئاً حماساً وانفعالا وابتهاجا زراعيّاً، أحمل بيدي قنينة ماء وكأسين وعلبة صغيرة احتوت على لَزْقة طبية وقنينة يود وعصا صغيرة لدهن اليود وشريط شاش ولفافة كإسعاف أولي لأيّ إصابة نتمنى ألا تقع.

في البداية لوح والدي بسكين تقطيع الأوراق تلويحة احتفالية كمن يقرر المصائر، كمن يضع الحدود بين الشعوب، ثمّ انحنى ورسم على التراب

---

(١) مزامير: ١٠٤: ١٤ (المترجم).

أربعة خطوط. وبذلك حدّد بشكل قاطع ونهائي حدودَ قسيمتنا، مترَين على مترَين، أكبر بقليل من خريطة دول العالم الّتي كانت معلّقة عندنا على امتداد عرض حائط الممر بين بابي الغرفتين. بعد ذلك أمرني بأن أركع على ركبتيّ وأن أمسك جيدا بكلتا يديّ بعصا مبريّة سمّاها وتداً: كان يفكّر في أن يغرز أربعة أوتاد واحدا في كلّ واحدة من زوايا القسيمة وأن يحيطها كلّها بسياج من الحبال الممدودة بين الأوتاد. إلا أنّ أرض الساحة المرصوصة وكأنها مصبوبة بالأسمنت لم تتأثّر من وقع ضربات أبي ورفضت أن تستقبل في داخلها الأوتاد. لذلك وضع أبي الشاكوش جانبا وأزال ببسالة ومغامرة نظارته ووضعها بحذر على عتبة شباك المطبخ، ثمّ عاد إلى الحلبة وضاعف من ضرباته، غرق بعرقه، واحتدّ، ولعدم وجود نظارته كاد مرة أو مرتين أن يحطّم بشاكوشه أصابعي الّتي كانت تمسك له الوتد الذي بدأ ينسحق.

بجهود جبارة نجحنا في نهاية المطاف في أن نخترق الغشاء الخارجي وأن نُدخل الأوتاد بشكل سطحيّ: تغلغلت الأوتاد بقدر نصف إصبع في غشاء التراب وهناك توقفت وتعنّتت مثل البهيمة الحَرون الّتي لا تفلح أيّ ضربات في العالم في أن تزحزحها من مكانها. لقد رفضت الأوتاد أن تدخل ولو ميليمترا واحدا إضافيّاً. ولذلك كان علينا أن نسند كلّ وتد بحجرين أو ثلاثة حجارة كبيرة وأن نتساهل قليلا في موضوع شدّ الحبال، لأنّ كلّ شدّة يمكن أن تتسبّب في قلع الأوتاد من تغلغلها السّطحيّ. وهكذا تمّ تسييج القسيمة بأربعة خيوط من الحبال الرخوة. صحيح أنه كان لكلّ حبل من هذه الحبال، بسبب ارتخائه، ما يشبه الكرش اللائق الصغير. ومع كلّ ذلك فقد أفلحنا في إيجاد شيء ما من لا شيء، إيجاد كيان جديد في هذا الكون: من هذه النقطة حتى تلك سيكون المجال الدّاخلي، جنينة الخضراوات، ومن هذه النقطة فلاحقا سيكون المجال الخارجي، بقية العالم بأسره.

«هذا هو» قال أبي بتواضع هازّاً رأسه أربع أو خمس مرات كمن يوافق بينه وبين نفسه بكل تأكيد ويصادق على صحة وسلامة ما قام به.

وأنا كررت خلفه مقلدا له دون أن أقصد هزّات رأسه من أعلى إلى أسفل قائلا: «هذا هو.»

بذلك أعلن والدي عن استراحة قصيرة. أمرني أن أجفّف عرقي، وأن أشرب الماء، وأن أجلس على الدرجة للاستراحة قليلا. أما هو فلم يجلس بجانبي على الدرجة بل عاد ليضع نَظَّارَته على عينيه ووقف عند مستطيل الحبال واستعرض إنجازات المشروع حتى هذه اللحظة، فكّر فيها ودرس إمكانية استمرار الكفاح، حلّل في فكره الأخطاء وتعلم منها العبرة فأمرني بإزالة مؤقتة للحبال والأوتاد مَعاً وأن أضعها جانبا بشكل مرتب بجانب الحائط: إذ أنه من المفضل عمليا أن ننكش أرض المسكب أولا وبعدها نعود إلى وضع حدودها، وإلا فإنّ الحبال ستعرقل عملنا في عملية العزق. كما تقرر أن نسكب على القسيمة أربعة أو خمسة دلاء ماء، وأن ننتظر عشرين دقيقة تقريبا حتى تتغلغل المياه في التربة ويليّن ولو قليلا درعها الحديديّ وبعدها فقط نعيد الكَرّة ثانيةً.

*

حتى ظهر يوم السبت حارب والدي ببسالة وتفان ومخاطرة بدون أدوات عمل تقريبا ضدّ التحصينات الترابية المكثّفة والمتراصّة: منحنيا، يعاني من ظهره، غارقا في عرقه، يتنفس بصعوبة كالغريق، عيونه بدون النظارة بدت لي حافيةً وبائسة، المرة تلو الأخرى كان يضرب الأرض العنيدة بشاكوشه، إلا أن هذا الشاكوش كان شاكوشا خفيفا جدّاً، شاكوشا بيتيّاً، شاكوشا مدنيّاً تماما ليس مخصّصا لاختراق الأسوار الحصينة بل لتكسير الجوز أو لدقّ مسمار صغير خلف باب المطبخ. كمن يهجم بحجر المقلاع على درع جالوت الفلسطيني رفع والدي المرة تلو المرة شاكوشه المسكين أو كمن يضرب بمِقْلاة على أسوار طروادة. الجهة المشقوقة للشاكوش تلك الجهة الّتي تشبه حرف Y والمخصص لقلع المسامير استخدمه بمثابة مذراة ومعزقة في آنٍ واحد.

سرعان ما انتفخت ثآليل كبيرة على طبقات جلد راحة يده الغض، إلا أن أبي زمّ شفتيه وتجاهلها ولم يكفّ عن تجاهلها حتى عندما انفجرت الثآليل ودلفت منها مياه مشيمتها وتحوّلت إلى جروح. وحتى في أصابع المثقّف الغضّة في أطرافها اللينة والحسّاسة تكونت الثآليل الّتي رفض أن يستسلم لها:

المرة تلو المرة لوّح بشاكوشه وهوى به ضاربا ثمّ عاد ورفعه ملوّحا وهكذا دواليك، وهو ما زال يصارع على هذا النحو قوى الطبيعة وبراري بدء الخليقة طلبت شفتاه بهمس قاطع قسم الولاء من الأرض العنيدة والمتعنتة باللغة اليونانية أو باللاتينية وربما بالأمهرية أو بإحدى لهجات اللغة السلافية القديمة أو باللغة السنسكريتية.

حتى أن هوى ذات مرة بشاكوشه بكل قوّة عزم ذراعيه على مقدمة حذائه، فتأوّه وأنّ من شدة الألم وعضّ بأسنانه على شفته السفلى، ثمّ استراح قليلا واستعمل كلمة «مطلقا» أو كلمة «بكل تأكيد» لكي يصرخ على نفسه بسبب عدم حذره، مسح عرقه وشرب جرعة ماء ومسح بمنديله فتحة القنينة وحرص أن أشرب أنا أيضاً ثمّ عاد إلى أرض المعركة يعرج ولكنه مصرّ ومصمّم واستأنف ببسالة مسلسل ضرباته العنيدة دون توقف.

استمر الأمر كذلك حتى أشفق تراب الأرض الرصين والمرصوص في نهاية المطاف على أبي، أو أنه ربما تضاءل واضمحلّ متعجّبا ومستسلما أمام تفاني أبي وإصراره، حتى أنه بدأ يتشقّق طولا وعرضا. في هذه الشقوق سارع أبي إلى غرز رأس المفكّ وكأنه كان يخشى أن تتراجع الأرض الرافضة عن قرارها وتعود إلى التماسك لتصبح قطعة واحدة. وعليه فقد نبش الجروح ووسّعها وغمّقها وبأظفاره وأصابعه الّتي شحبت وارتجفت من شدة الجهد بدأ يقتلع منها كتلا سميكة ويلقي تحت قدميه واحدة تلو الأخرى، بطنها المهزوم متجه إلى أعلى مثلها مثل تنانين قتيلة. جذور ممزّقة تشابكت وتفرّعت من هذه الكتل الترابية تتلوّى إلى هذه الجهة وإلى تلك الجهة مشوّهة مثل أوتار العضل الممزّقة والتي انسلخت لتوّها عن اللحم الحيّ.

كانت وظيفتي أن أتقدم في أعقاب فريق الهجوم وأن أقوم، بواسطة سكين تقطيع الورق، بتفتيت الكتل الترابية الخشنة الّتي أفلح أبي من هزمها. وأن استخرج منها الجذور وأضعها داخل الكيس، وأن أجمع الحجارة والصرار وأن أفتّت كتلة التراب إلى ذرات صغيرة وفي النهاية - أن استعمل الشوكة الّتي أحضرناها من المطبخ- ككواشة أو كمحراث وأن أمشط بها بخفة ناصية التراب المفتّت. وهكذا وصلنا إلى وقت التسميد: زبل بهائم وطيور لم

يكن متوفراً كما أنه من الممكن أن يكون متوفرا عندنا، روث الحمام الذي على السطح ليس واردا في الحسبان بسبب الخوف من انتشار الأوبئة. وعليه فقد حضّر أبي مسبقا ملء الطنجرة فضلات طعام. تكونت هذه الفضلات من شوربة برغل كثيفة وقاتمة، قشور فواكه وخضراوات، قرع يقطين مهمل، فضلات سبخية من رواسب القهوة تطفو على وجهها أوراق الشاي المستعملة، وبقايا عصيدة وبقايا حساء الخضراوات الروسي وبقايا خضراوات مطبوخة، حراشف سمك وزيت قلي محروق وحليب فاسد ومزيج من السوائل الدهنية وخليط وحلي من بقايا المطبخ العكرة الّتي تبحر فيها كتل كبيرة وصغيرة مشبوهة بشكل قبيح وممجوج داخل حساء كثيف احترق أو ترك لكونه فاسدا.

«الهدف من هذا هو إثراء هذه التربة الفقيرة والهزيلة» وضّح لي أبي ونحن نجلس لنستريح جنبا إلى جنب على الدرجة بفانيلات مبللة بالعرق نشعر وكأننا فعلا كزوج من رجال العمل الحقيقيين، ونحن نلوّح بقبعة الخاكي لكي تهب الريح على وجهينا الهائجين، : «بكل تأكيد علينا أن نغذّي كتل التراب بكل ما يمكن أن يتحول رُوَيداً رُوَيداً من زبالة إلى دبال غنيّ بالمواد العضوية التي تمنح أشتالنا مركبات إكسير الحياة والسماد ومكوّنات الغذاء الرئيسية (الزلاليات والنشويات والدهون والأملاح والفيتامينات) الّتي بدونها ستنبت لنا هنا بالكاد خضراوات هزيلة ومريضة.»

لا شك أنه خمّن جيدا الأفكار المفزعة الّتي دارت بخلدي، لذلك سارع أبي ليوضح لي ويهدئ من روعي: «ولا تسئ الظن وتفكر بأننا سنأكل عن طريق الخضراوات الّتي ستنمو هنا ما يبدو لك الآن كفضلات تثير الاشمئزاز. لا وألف لا! ولا بأيّ حال من الأحوال! فإنّ الزبالة ليست تلويثا بل هي كنز دفين - أجيال كثيرة متعاقبة من الفلاحين والمزارعين أدركوا بحسّهم الصادق هذه الحقيقة الغامضة! حتى أن تولستوي نفسه يتحدّث عن ذلك في مكان ما عن الكيمياء السرية الغامضة والخفيّة الّتي تحدث دون توقف داخل رحم الأرض، عن التحوّل العجيب الذي يحوّل العفونة والنتانة والخموجة إلى دُبال، أي إلى سماد، سماد للحبوب والخضراوات والأشجار المثمرة

ولجميع المحاصيل الزراعية في الحقول والبساتين.»

وفيما كنّا نُعيد الأوتاد إلى أماكنها في زوايا المسكب ونشدّ حبال السياج عليها بحذر وضّح لي أبي بشكل جيد جدّاً وببساطة وبدقة وعلى الترتيب: العفونة والنتانة. الخموجة. السماد. العضوي. الغامض الخفي. الكيمياء (القديمة). التحوّل. المحاصيل. تولستوي. الغموض.

*

عندما خرجت أمي لتنبهنا بأن الغداء سيكون جاهزا خلال نصف ساعة كنا قد انهينا عملية استصلاح القفر: حديقتنا الجديدة امتدت من وتد إلى وتد ومن حبل إلى حبل، محاطة من جميع جوانبها بأرض الساحة اليبوس المجدبة، ولكنها تمتاز عن كلّ ما حولها بلونها البنيّ الغامق، وبتربتها المعتنى بها والمهذّبة والمفتتة. كانت قسيمة الخضراوات معزوقة ومنكوشة كمن سرحت شعرها بإتقان، ومفلّحة ومزروعة ومسمَّدة ورطبة، وكانت مقسمة إلى ثلاث تموجات أو ثلاث تلال مستطيلة ومتساوية: واحدة للبندورة وواحدة للخيار وواحدة للفجل. ومثل لافتة الاسم المؤقتة الّتي اعتادوا وضعها عند رأس القبر الجديد حتى يتم بناؤه ووضع شاهد الضريح، غرزنا عند رأس كلّ مسكب عصا صغيرة وضعنا على كلّ منها أحد أكياس البذور الفارغة. وهكذا أصبح لنا، مؤقتا، على الأقلّ حتى تنبت الخضراوات نفسها حديقة صور فاقعة الألوان: صورة حية لحبة بندورة حمراء ملتهبة وقطرتان أو ثلاث قطرات ندى صافية تسيل على خدّها. وصورة خيارات غضّة لمعت بخضرتها المهيّجة للشهية. وصورة تثير الشهية لباقة من الفجل المتألق المشعّ، مغسولة مبتهجة بعافيتها بألوانها الأحمر والأبيض والأخضر.

بعد التسميد والزراعة سقينا ثمّ عدنا وسقينا بلطف وعناية كلّ واحدة من التلال الحوامل بواسطة رشّاش مرتجل صنعناه من قنينة ماء ومن مصفاة صغيرة استعرناها من المطبخ، تلك المصفاة الّتي كان عليها في حياتها المدنية أن تعشّش عند مصبّ الإبريق وأن تحتوي أوراق الشاي الّتي يصبّ عليها الماء المغلي.

قال والدي:

«كلّ صباح وكل مساء سنقوم بريّ مساكبنا شريطة ألا نفرط وألا نقتر، وأنت، دون شك، تقوم كلّ صباح فور استيقاظك لتفحص هل بدأت تظهر بوادر الإنتاش، إذ خلال أيام قليلة ستبدأ سُويقات صغيرة جدّاً بشق التربة ونفض التراب عن رأسها والانتصاب تماما مثل الولد «الشّقي» الذي يطير قبعته بحركة من رأسه. لكلّ نبتة ولكل شتلة، هكذا اعتقد كبار الحاخامات، يوجد ملاك خاصّ بها يقف عندها ويدق رأسها آمراً حاثّا: انبتي!» كما أضاف أبي:

«الآن ليتفضل حضرته المبلّل بالعرق والمغبر بأخذ الملابس النظيفة، الملابس الداخلية والقميص والبنطلون، من الخزانة والتوجّه إلى الحمام، وليتذكر فخامته بأن يفرك بالصابوّن جسمه جيدا في تلك الأماكن أيضاً. ولينتبه بألا يغفو هناك داخل الماء كعادته لأنني أنا أيضاً العاطل عن العمل أنتظر بصبر دوري.»

في الحمام بعد أن خلعت ملابسي حتى السروال الداخلي تسلقت حافيا مقعد المرحاض ونظرت إلى الخارج عبر الكوّة ربما يمكن أن أرى شيئا ؟ نتوء أول، بُرْعُم أخضر؟ ولو كان صغيرا كرأس الدبوس؟

وفي تلك الإطلالة من كوّة الحمام شاهدت أبي، تلكأ لحظتين أو ثلاثا بجوار حديقته الجديدة، كان متواضعا وسعيدا مثل الفنان الذي يتصوّر بجانب عمله الفني، كان مرهقا ويعرج بسبب ضربة الشاكوش على أصابع قدمه، ومع ذلك - كان فخورا كمن احتل بلادا كثيرة.

كان أبي متكلما لا يكلّ ولا يتعب، يفيض بكثرة الاقتباسات والأمثال، يسرع دائماً مبتهجا لكي يشرح ويقتبس متحمسا ليغدق عليك للتوّ كلّ ما يعرفه من معلومات وليقدم لك متبرعا وبدون أية حسابات كنوز ثقافته ومكنونات ذاكرته الغنية: هل فكرت ذات مرة في العلاقة الوثيقة الّتي تقيمها اللغة العبرية بين الفعل «عقر» (اقتلع) وبين الفعل «قرع» (مزّق) ؟ وبين الفعل «سيقل» (أزال الحجارة) والفعل «سيلق» (طرد)؟ وبين الفعل «عدر» (عزق) والفعل «نعدر» (غاب)؟ وبين الفعل «شتل» (زرع) والفعل «تلش» (قطع)؟ بين كلمة «أدماه» (أرض) وكلمة «أودِم» (حمرة) وكلمة «أدام» (إنسان) وكلمة «دم»

(دم) وكلمة «دومياه» (صمت)؟ وهكذا كان يندفع منه نهر زاخر من الإشارات، والروابط، والتلميحات والإلماعات، والتمحيصات والتلاعب بالألفاظ والتوريات، غابات مُثقلة بالحقائق والوقائع والقياسات، تلال من التفسيرات والادعاءات المناقضة، والجدالات العقيمة الّتي تهدف إلى تسلية الحضور، أو الترويح عنهم أو خلق جو من البهجة وحتى التغابي قليلا، لا يحرص على كرامته وكل ذلك خشية أن يسود الجو صمت. ولا حتى صمت قليل ولا حتى للحظة واحدة.

شخص نحيف وطويل، مع فانيلا تبللت بعرقه، ومع بنطلون خاكي قصير ولكنه عريض جدّاً وصل تقريبا حتى ركبتيه الهزيلتين. ذراعاه وكذلك رجلاه النحيفتان كانت شاحبة جدّاً مكسوة بشعر أسود كثيف، كان أبي يشبه طالب المدرسة الدينية مذهولا استُلّ فجأة من عتمة المدرسة وألبسوه بدلة تنكرية من الخاكي كأحد الطلائعيين وأخرجوه دون شفقة إلى زرقة الظهيرة الّتي تبهر العيون. ابتسامته الحائرة كانت تتشبث بك كمن تلحّ عليك وتشدّ كمّك وتتوسّل إليك كي تقبل أن تستلطفه قليلا. عيناه البنيتان نظرتا إليك بعدم تركيز خفيف وبنوع من الذهول من خلف زجاجتي نظارته مستديرتَي الإطار: وكأنه فعلا تذكر فجأة من فوره بأنّه نسي شيئا ما، من يعرف ماذا نسي، لقد نسي بالذات الأهم والمستعجل أكثر من أيّ شيء، نسي شيئا خطيرا هاما يمنع منعا باتا نسيانه.

ولكن ما الشيء الذي نسيه؟ بأيّ شكل من الأشكال لا يفلح في تذكّره. لطفاً، ربما أنت، بالصدفة، تعرف ماذا نسيتُ؟ شيء مستعجل؟ لا يحتمل أيّ تأخير؟ هل تتكرم بأن تذكّرني ما هو هذا الشيء؟ إذا كنت أعجبتك؟

*

في الأيام التالية كنت أركض كلّ ساعتين أو ثلاث إلى مسكب الخضراوات، يملؤني الحماس والتلهف ونفاد الصبر لكي أرى هل أورقت الدالية، هل تبرعمت شجرة الرمان، افحص بانحناءة كبيرة هل ظهرت علامات إنبات، أو على الأقلّ هل حدث تحرك ولو بسيط على مسطح التربة المتفتتة؟ كنت أسقي الحديقة مرارا وتكرارا حتى اختفت الأتلام وتحولت إلى

مستنقع من الوحل. كلّ صباح كنت اقفز من سريري أركض حافيا بالبيجاما لكي أفحص إذا كانت قد حدثت المعجزة المرجوّة في ساعات الليل. وبالفعل بعد عدة أيام وفي الصباح الباكر وجدت أن الفجل هو الذي سبق واستلّ عددا كبيرا من المناظير الصغيرة والكثيفة.

من شدة الفرح سارعت إلى ريّها أكثر فأكثر.

وغرزت هناك فزّاعة لبّستُها شلحة قديمة لأمّي ومكان الرأس وضعت لها علبة معلبات فارغة رسمت عليها فما وشاربا وجبينا مع شعر أسود انساب بشكل مائل، كشعر هتلر، وعينين رسمت إحداهما معوجَّة قليلا وكأنها تغمز أو أنها مليئة بالاستهزاء.

بعد يوم أو يومين أطل الخيار رافعا رأسه، ولكن ما رآه الفجل والخيار أشعرهما بالإهانة أو الفزع حتى أنهما تراجعا، شاحبين، انحنى ظهراهما بين ليلة وضحاها وكأنهما غرقا في سجود طويل، لامست رؤوسهما الصغيرة الأرض، وقد هزلت وضمرت واصطبغت باللون الرمادي حتى تحوّلت إلى مجرد خيوط من القش البائس. أما بالنسبة للبندورة فهي لم تنبت إطلاقا: فحصت الظروف السائدة في الساحة وقد فكّرت جيدا وقررت أن تتنازل عنّا. ربما من الأساس ما كانت الساحة قادرة على أن تنبت شيئا، بسبب كونها كالقبو محاطة بأسوار من جميع الجهات ومظللة بظلال أشجار سرو كبيرة: لم يمرّ بها ولا حتى شعاع شمس واحد. ولعلنا بالغنا قليلا في الريّ. أو في التسميد. أو لعلّ فزّاعة هتلر الّتي صنعتها أنا والتي لم تعمل الطيور لها أيّ حساب، أخافت، حتى الموت، النتوءات الصغيرة. وهكذا انتهت المحاولة لإنشاء ما يشبه الكيبوتس الصغير في القدس والأكل من نتاج أيدينا هنا بعد مدة من الوقت.

«ومن هنا» قال أبي بأسى، «من هنا نستخلص الاستنتاج الخطير ولكن المتوقع بأننا أخطأنا في شيء ما. أخطأنا بشكل قاطع. وعليه فإنه يتوجب علينا الآن، أن نفحص دون تنازل ودون لأيٍ أين وفيمَ أخطأنا : ربما بالغنا قليلا في التسميد؟ أو بالغنا في الريّ؟ أو على العكس، غفلنا عن القيام بشيء أساسيّ وحيويّ؟ في نهاية المطاف نحن لسنا فلاحين أولاد فلاحين بل مجرّد

هواة يراودون الأرض، مراودون بدون تجربة وما زالوا غير خبيرين بكل أسرار المعيار الصحيح؟»

وفي ذلك اليوم بالذات بعد عودته من عمله في المكتبة القومية الّتي على جبل المشارف، أحضر والدي معه مجلدين ضخمين حول البستنة وتجارة الخضراوات (كان احدهما بالألمانية)، استعارهما من المكتبة، وقد طالع فيهما ما شاء له أن يطالع. ولكنه سرعان ما انصرف فكره إلى مواضيع أخرى وإلى كتب أخرى مختلفة كلّ الاختلاف، حول تلاشي واضمحلال بعض اللغات الصغيرة من البلقان وتأثير أشعار الفرسان في فترة القرون الوسطى على بداية تكوّن الرواية، كلمات يونانية في الْمِشْناه، وتفسير كتابات أوغاريت.

ذات يوم مع خروجه إلى العمل حاملا حقيبته السوداء البالية تقريبا شاهدني والدي مكبّاً على النتوءات المحتضرة، والدموع تملأ عينيّ وأنا غارق بمحاولة يائسة أخيرة على مساعدتها بواسطة قطرة أنف أو قطرة أذن أخذتها، دون إذن، من خزانة الأدوية الموجودة في الحمام، وكنت أقطر على البراعم الصغيرة الذاوية قطرة واحدة على كلّ برعم. في تلك اللحظة أشفق أبي علي ورثى لحالي. رفعني أبي ثمّ ضمّني إلى صدره ولكنه سارع إلى إنزالي. كان مرتبكا، خجلا، شبه حائر لا يدري ماذا يفعل. قبل انصرافه إلى العمل كمن يهرب من ميدان المعركة هز ذقنه من أعلى إلى أسفل ثلاث أو أربع مرات وتمتم هامسا، مفكرا، بينه وبين نفسه دون أن يتوجه إلي، بالكلمات التالية: «سنحاول أن نرى ماذا يمكن أن نعمل أكثر من ذلك.»

في رَحافْيا في شارع ابن جبيرول، انتصبت عمارة كانت تسمى باسم «بيت الطلائعيات»، وربما كان ذلك «مزرعة العاملات» أو «مزرعة القادمات الجديدات المنجزات». خلف هذه العمارة امتدت محميّة زراعية صغيرة، ما يشبه الكومونة، مزرعة نسائيّة عبارة عن دونم واحد أو دونم ونصف من الأشجار المثمرة، والخضراوات وأقنان الدجاج، ومنحلة. في بداية الخمسينات أقيم على نفس هذه القسيمة الزراعية الكوخ الرسمي المشهور لرئيس الدولة يتسحاق بن تْسفي.

إلى هذه المزرعة التجريبية ذهب والدي بعد ساعات العمل: لا شك أنه بدأ الحديث وحكى لراحيل ينائيت أو لإحدى عاملاتها تاريخ قصة تجربتنا الزراعية الفاشلة وطلب منها التوجيه والإرشاد، تشاور وبعدها خرج من هناك عائدا إلى منزله بواسطة حافلتين، حاملا معه صندوقا خشبيا صغيرا في أرضيته كان هناك حوالي عشرين أو ثلاثين شتلة غضة يانعة. هرّب غنيمته تلك إلى البيت ثمّ خبأها مؤقتا عن ناظري وراء سلة الغسيل أو تحت خزانة المطبخ وانتظرني حتى نمت وعندها تسلل إلى الخارج بشكل ماكر وشديد التآمر متسلحا بمصباحه اليدوي وبمفكّه وشاكوشه البطولي وبسكين تقطيع الورق.

عندما استيقظت في الصباح توجّه إليّ أبي بصوت عمليّ مسطح، وكأنه يلفت انتباهي بشكل غير مثير للاهتمام حول ربط رباط حذائي وتزرير زر معيّن. ودون أن يرفع عينيه عن جريدته خاطبني قائلا:

«حسنا. يبدو لي أن دواءك من يوم أمس قد أفلح قليلا مع نباتاتنا المريضة. اذهب، فخامتك، وانظر بنفسك، ربما تجد هناك حقا علامات بسيطة لبداية انتعاش؟ أو لعلني أتخيل وجود علامات انتعاش؟ لتتكرم وتفحص من فضلك، ثمّ عد إليّ لتخبرني ما رأيك، وسنفحص إذا كنا نحن الاثنان نرى الأشياء بنفس المنظار تقريبا؟»

النتوءات الصغيرة الّتي جفّت واصفرّت حتى الموت وحتى أمس لم يبق منها إلا خيوط قش بائسة، تحوّلت فجأة وفي ليلة واحدة وكأنها بيد ساحر، إلى أشتال عالية جميلة وقوية وغنيّة بالحيويّة، تلمع من وفرة الصحة والعافية، غنية بخضرتها الغامقة والحيوية. وقفت هناك منذهلا، وبدا قلبي خائفاً متسعاً: هذا هو الفعل العجيب لعشر أو عشرين قطرة أنف أو قطرة أذنين!

كلما تابعت التأمّل تيقنت أن المعجزة كبيرة حتى أكبر مما تبدو لي من أول وهلة: سيقان الفجل قفزت في الليل إلى مسكب الخيار. بينما في مسكب الفجل استوطنت أشتال لم أعرفها من قبل ربما أشتال باذنجان. أو جزر والأغرب من كلّ هذا: على طول السرب الأيسر حيث دفنّا بذور البندورة ولم ينبت منها شيء، في هذا السرب الذي لم أرَ أيّ فائدة من تقطيره بأيّ قطرة من قطرتي السّحريّة، في هذا السرب نبتت الآن بالرغم من

كلّ شيء ثلاث أو أربع شجيرات صغيرة متشعبة جدّاً، مع براعم برتقالية بين أوراقها العلويّة.

*

بعد أسبوع عاد المرض وأصاب حديقتنا، عادت إليها آلام الاحتضار، طأطأت الأشتال رؤوسها، بهت لونها، وعادت لتصبح جافّة ومريضة مثل اليهود المطاردين والملاحقين في المهجر، تساقطت أوراقها، ذبلت سيقانها واصفرّت، وفي هذه المرة لم تفلح قطرة الأنف ولا الشراب ضدّ السّعال: فقد راحت حديقة خضراواتنا تتراجع حتى ذوت وماتت. خلال أسبوعين أو ثلاثة بقيت تنمو هناك دون جدوى. الأوتاد الأربعة المربوطة ببعضها بواسطة الحبال المغبرّة ذوت هي الأخرى أيضاً بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. فزّاعة هتلر وحدها الّتي صنعتها أنا بقيت غضة تتفتح فترة ما من الزمن. والدي من جهته تواسى بدراسة مصادر الرواية اللاتفية أو بميلاد الرواية من شعر الشعراء التروبادوريين. بينما أنا من جهتي فقد فرشت لي على طول وعرض الساحة المغبرة العديد من المجرات المكتظّة بالنجوم الغريبة والأقمار والشّموس، نجوم مذنّبة ونجوم سيّارة، وأبحرت في رحلة مليئة بالصراعات والمغامرات والمخاطر من نجم إلى آخر: لعلي أجد في أحدها دليلا على وجود حياة عليه؟

٣٣

قبيل المساء في أحد أيام الصيف، عندما كنت في نهاية الصف الأول أو في بداية الصف الثاني أو في الصيف الذي فصل بينهما. كنت وحدي في الساحة. ذهب الجميع بدوني، دانوش، وَأليك، وَأوري، وَلوليك، وَإيتان، وَعامي ذهبوا كلهم للبحث بين الأشجار في منحدر أحراش تل أرزا عن أشياء كهذه، أمّا أنا فلم يقبلوني في مجموعة الكَفّ السّوداء لأنّني لم أحسن النفخ. وجد دانوش واحدا كهذا بين الأشجار مليئا بصمغ جافّ سيئ الرائحة، غسله جيد جدّاً بماء الحنفيّة، كلّ من لا يجرؤ على النفخ فهو غير ملائم ولا يقبل للكف السوداء وكل من لا يملك الجرأة على تلبيس هذا وأن يبول قليلا بداخله مثل جنديّ إنجليزيّ لا يمكن أن يُقبل عضواً في الكَفّ السوداء. شرح دانوش كيف يعمل هذا. الجنود الإنجليز يأخذون كلّ ليلة فتيات إلى حرش تل أرزا وهناك في حلكة الليل، يبدأ الأمر هكذا: في البداية يتبادلان القبل بالفم وقتا طويلا. بعد ذلك يلمس لها مواقع مختلفة من جسمها ومن تحت ملابسها أيضاً. بعد ذلك يخلع لها وله ملابسهما الداخلية. ثمّ يلبّس له مثل هذا ويضطجع فوقها وهكذا في النهاية يقوم بالقذف. وهذا الشيء اخترعوه لكي لا تبتل أو تترطّب هي إطلاقا بما يقذفه. وهذا ما يحدث كلّ ليلة في تل أرزا وهذا ما يحدث كلّ ليلة عند الجميع حتى زوج المعلمة زيسمن يفعل ذلك في الليل للمعلمة زيسمن. حتى والداكم. والداك أنت أيضاً. وأنت أيضاً. كلهم. وهذا يصنع في الجسم بعض المتعة واللذة كما أنه يقوي لك العضلات كما أنه ينظف لك الدم جيدا جدّاً.

*

كلهم ذهبوا بدوني كما أنّ والديّ ليسا في البيت. اضطجع على الظهر على أرضية الأسمنت الّتي في نهاية الساحة خلف حبال الغسيل وأنظر إلى ما تبقى من النهار. الأسمنت صلب وبارد تحت جسمك الذي بالفانيلة. أفكر، ولكن ليس إلى النهاية، بأن كلّ ما هو صلب وكل ما هو بارد يبقى صلبا وباردا إلى الأبد وأن كلّ ما هو ليّن وكل ما هو دافئ هو ليّن ودافئ مؤقتا فقط. إذ أن كلّ شيء يجب أن ينتقل، في النهاية، إلى جهة البارد والصلب، إذ هناك لا يتحركون ولا يفكرون ولا يشعرون ولا يسخنون بالمرة. إلى الأبد.

أضطجع على ظهري وقد عثرت أصابع يدي على حجر صغير وضعته في فمي الذي شعر بمذاق الغبار والكلس وشيء آخر فيه ملوحة ولكنه ليس مالحا تماماً. واللسان يتحسّس أنواعا مختلفة من النتوءات الصغيرة والعيوب الصغيرة وكأن الحصى أيضاً عالَم مثل عالمنا توجد فيه الجبال والأغوار. وإذا اتّضح أن كرتنا الأرضية هذه أو حتى كوننا هذا كلّه، ما هو، في نهاية الأمر، إلا حصاة صغيرة على أرضية أسمنت في ساحة عمالقة؟ ماذا سيحدث، بعد لحظة، لو أن ولداً كبيراً وضخماً، لا نستطيع حتى أن نتخيّل مدى ضخامته وحجمه، سخر منه هو الآخر أصدقاؤه وتركوه وذهبوا بدونه، فقام هذا الولد العملاق، بكلّ بساطة، وتناول بين أصابعه كلّ كَوْننا هذا وأدخله إلى فمه وأخذ يتلمّسنا هكذا بلسانه؟ هل سيظن هو الآخر أن هذه الحصاة الّتي داخل فمه، ربما هي في الحقيقة عالم كامل فيه دروب تبّانات وفيه شموس ومذنّبات وفيه أولاد وقطط وغسيل معلّق على الحبل؟ ومن يدري، لعل كَوْنُ ذلك الولد الضخم العملاق، الولد الذي نحن لسنا إلا حصاة في فمه، ما هو، في نهاية المطاف، إلا حصاة على أرضية ساحة عند ولد أضخم وأعظم منه والذي هو وكَوْنُه... وهكذا دواليك، مثل دمية بابوشكا روسية كَون في حصاة في كَون في حصاة، وهكذا الأمر إذا اتجهنا إلى الكبر أو إلى الصغر أيضاً؟ كلّ كَون هو حصاة وكلّ حصاة هي كَون؟ حتى تبدأ تشعر من كثرة ذلك بالدّوار وفي تلك الأثناء ما زال اللسان يتحسّس هذه الحصاة مثل قطعة الحلوى والآن أصبح للسان نفسه نوعا ما طعم مثل طعم الجير. دانوش

وَأليك وَأوري وَلوليك وَعامي وجميع أفراد الكَفّ السوداء سيكونون أمواتاً بعد ستين سنة وبعدهم سيموت كلّ من يتذكّرهم وبعدهم سيموت كلّ من يتذكر مَن يتذكرهم وبعدهم سيموت أيضاً كلّ من سيتذكر مَن سيتذكّر مَن سيتذكرهم. العظام ستتحوّل إلى حجارة مثل تلك الحصاة الّتي في الفم الآن: لعل الحصاة الّتي هي الآن في الفم هي أولاد ماتوا قبل تريليونات السنين؟ الذين ذهبوا يبحثون عن كهذه في الحرش وكان هناك أيضاً واحد سخروا منه لأنه لم يملك الجرأة على النفخ والتلبيس؟ وقد تُرك هو الآخر وحده في ساحته وقد اضطجع هو الآخر على ظهره ووضع أيضاً في فمه حصاة كانت ذات يوم ولدا كان هو أيضاً ذات مرة حجرا. دوار. وفي هذه الأثناء بدأت تدبّ الحياة في هذه الحصاة فلم تعد صلبة وباردة بل أصبحت رطبة دافئة وحتى بدأت تعيد بلطف داخل الفم الدغدغات الّتي أخذتها من طرف اللسان.

*

من خلف أشجار السّرو من خلف الجدار في بيت لامْبِرْج أشعلت فجأة الأنوار الكهربائيّة. من هنا في حالة الاضطجاع لا يُرى من هناك في الغرفة. هل هي السيدة لامْبِرْج أم شولا أم إيفا، من أشعل هناك النور، ولكن يُرى من هنا النور الكهربائي الأصفر الذي يتدفق من هناك خارجا مثل تسرب دبق كثيف جدّاً والذي يسيل بصعوبة والذي يتحرك بصعوبة لشدة كثافته وبصعوبة يشقّ لنفسه طريقا كسولا كهذا، طريق سوائل كثيفة لزجة كهذه صفراء عكِرة تتقدم ببطء، مثل زيت المكنات الكثيف، عبر المساء الذي أصبح الآن شبه رمادي - أزرق فاتح تأتي الرياح وتلعقه للحظة. بعد خمس وخمسين سنة عندما كان يجلس ليكتب عن ذلك المساء في دفتر على طاولة الحديقة في مدينة عَراد عادت وهبت نفس نسمات المساء بالضبط ومن شباك الجيران هنا أيضاً وفي هذا المساء أيضاً يخرج سائل أصفر فاتح نور كهربائيّ كثيف كسول مثل زيت التشحيم اللّزِج، يعرف بعضنا بعضا، يعرف بعضنا بعضا منذ أمد وكأنه لم تعد هناك مفاجآت. ولكنها موجودة: إذ أن أمسية الحصاة في الفم في الساحة المقدسية لم تحضر إلى عَراد لكي تذكّرني بما قد نسيت أو لكي تسوق إليّ الحنين والأشواق، بل على العكس: يوشك ذلك المساء أن يهجم

على هذا المساء. ذلك يشبه تقريبا امرأة كنت قد عرفتها منذ مدة، وهي لا تجذبك ولا لا تجذبك، والتي تقول لك دائماً عندما تلتقيان تقريباً نفس الكلمات البالية القليلة ودائما عندما تلتقيان تبتسم لك أو في أحسن الحالات تربت لك على صدرك تلك التَّرْبيتة المعتادة على الصدر ولكنها هذه المرة، ولكنها الآن فجأة، لا تقوم بذلك، هي فعلا لا، فجأة تمد إليك وتلمسك وتمسك بتلابيب قميصك ليس برفق ورقة بل بكل أظفارها بشهوة ويأس، عيناها مغمضتان بقوّة، وجهها متقطب كما من شدّة الألم، تصرّ على رأيها، تريدك، مجبرة، وهي لن تتنازل، ولم يعد يهمّها ما رأيك، ولا يهمها ما تشعر به، إن كنت تريد أم لا تريد، لا يهمها أيّ شيء، الآن هي مجبرة، الآن لم تعد قادرة أن تنتظر أكثر، الآن هي تمتدّ وتنغرز بك مثل حَرْبون صيادي البحار وتبدأ تشدّ وتشدّ وتمزّقك، ولكن ليست هي الّتي تبدأ بالشدّ بل هي تكتفي بأن تغرز أظفارها، وأنت الذي تشدّ وتكتب، تشدّ وتكتب مثل الدلفين الذي انغرزت حربة الحربون في لحمه وهو يشدّ ويشدّ وراءه بكل قوته الحربون، وبذلك يشدّ أيضاً الحبل المربوط بالحربون، ويشدّ أيضاً القاذف المربوط بالحبل، ويشدّ أيضاً القارب الذي يلاحقونه به والذي رُكّب عليه القاذف، يشدّ ويجدّف، يشدّ ليهرب، يشدّ ويتقلّب في الماء، يشدّ ويغوص إلى داخل العمق الأسود، يشدّ ويكتب ويعود ليشدّ أكثر، إذا شدّ مرة واحدة أخرى بكل قوى يأسه ربما ينجح في الإفلات والتحرر مما انغرز في لحمه، مما يعضك ويخترقك دون أن يفلتك، أنت تشدّ وهذا ينهش لحمك، أنت تشد أكثر وهذا ينغرز أكثر فأكثر، وأنت إلى الأبد لا تستطيع أن تقابل الألم بالألم لهذه المصيبة الّتي ما تزال تتعمّق في الجرح، لأنه هو القابض وأنت المقبوض، هو الحربون وأنت الدّلفين، هو الذي أعطى وأنت أخذتَ، هو المساء الذي كان في حينه في القدس وأنت المساء الموجود حاليا في مدينة عَراد. هو والداك اللذان ماتا وأنت تشدّ وتكتب.

*

كلهم ذهبوا بدوني إلى حرش تل أرزا وأنا من لم يملك الجرأة على النّفخ مضطجع على ظهري على أرضية الأسمنت في طرف الساحة خلف

حبال الغسيل. أشاهد كيف أنّ ضوء النهار يُذعن ويتنازل. للتوّ سيخيّم الليل.

شاهدت ذات مرة من مغارة الأربعين حرامياً الّتي كانت لي في الفسحة الّتي بين الخزانة والحائط، شاهدت كيف أنّ جدّتي لأمّي، أي والدة والدتي، الّتي جاءت إلى القدس من السّقيفة المكسوّة بورق الزّفتة عند مخرج مدينة كريات موتسكين، قد استشاطت غضبا على أمّي وقد لوّحت في وجهها بالمِكْوَاة، وبعينين تقدحان شررا رشقت أمّي بأقوال فظيعة بالروسيّة أو البولندية المخلوطة بالإيديش. كلتاهما لم تخمنا أنّني منكمش على نفسي هناك، أحبس أنفاسي واسترق النظر وأسمع كلّ شيء. صحيح أن أمّي لم تنبس ببنت شفة رداً على شتائم أمها اللاذعة بل جلست على الكرسي الصلب غير المنجّد والذي لا مسند له والموجود في زاوية الغرفة، جلست منتصبة تماماً ركبتاها مستقيمتان ومتلاصقتان وكلتا يديها كانتا رابضتين بلا حراك على ركبتيها كما أنّ نظراتها كانت موجّهة باتجاه ركبتيها وكأنّ كلّ شيء كان متعلّقاً بركبتيها. جلست أمّي هناك كمثل البنت الموبّخة وعندما كانت أمّها تقصفها بالسؤال المسموم تلوَ السّؤال المسموم، كلها أسئلة رطبة صاخبة لكثرة ما تكرّر فيها من نغمات الـ«زش تس س» والـ«ش تش شتشجي»، لم تجب أمّي ببنت شفة وما زادت إلا إمعانا في تركيز نظراتها المتركزة أصلا في ركبتيها. سكوتها ضاعف من ثورة غضب جدّتي أكثر مما أثارها سكوت أمّي الأول، وكمن فقدت وعيها تماماً، بعيون تستعر ملتهبة ووجه أشبه ما يكون بوجه الذئب من شدة الغضب والزبد يبيّض زوايا شفتيها المنفرجتين وأسنانها المشحوذة البارزة من فكّيها، ألقت جدّتي بالمكواة المتوهجة الّتي كانت بيدها بقوة إلى الحائط كمن تريد أن تفجّره، وركلت خشبة المكواة فقلبتها ثمّ خرجت مغلقة خلفها الباب بقوة حتى أن زجاج الشباك وكذلك المزهرية والفناجين اهتزت وضجّت وطنّت ورنّت من كلّ جانب.

أما أمّي الّتي لم تعرف بأنّني استرق النظر فقد قامت فجأة عن كرسيّها وبدأت تعاقب نفسها: أخذت تلطم على كلا خدّيها وتشدّ وتقتلع شعرها وأخذت تضرب بعلاقة الملابس على رأسها وظهرها حتى نزلت دموعها، كما أنني أنا الآخر المختبئ في المغارة الّتي في الفسحة بين الحائط والخزانة بدأت

أبكي بصمت وأعضّ نفسي بقوة مرارا وتكرارا في كلتا يديّ حتى ظهرت عليهما أشكال ساعات لعضات مؤلمة. في ذلك المساء أكلنا جميعاً سمكاً محشوّاً حلواً كانت جدّتي أحضرته معها من السّقيفة ذات ورق الزفتة والتي كانت قائمة عند طرف مدينة كريات موتسكين، سمك مع صَلْصَة محلاة وجزر مطبوخ حلو. الجميع تحدّثوا مع بعضهم البعض عن المضاربين في البورصة وعن السوق السوداء عن شركة «سوليل بونيه» وعن المبادرة الحرة وعن شركة «آتا» وختموا الوجبة بحلوى من شوربة الفواكه المطبوخة الّتي كانوا يطلقون عليها اسم كومبوت، وهذا أيضاً حضّرته جدّتي والدة والدتي فكان منتوجها حلوا لزجا مثل الشراب المركّز. جدتي الأخرى، الأُوديسية الجدة شلوميت أنهت بأدب تناول الكومبوت مسحت شفتيها بمنديل ورق أبيض ثمّ عادت ومسحت بمنديل آخر ثمّ استلت من حقيبتها الجلدية المزركشة إصبع أحمر الشفاه ومرآة صغيرة، مستديرة ومذهّبة، وأخذت تعمّق خطوط شفتيها وبعد ذلك، وفيما كانت ما زالت تعيد بحذر شديد قضيب الكلب المنتصب الأحمر إلى داخل الغلاف المخصص له رأت من المناسب أن تقول:

«ماذا أقول لكم؟ لم أذق في حياتي ذات مرة ما هو ألذ من هذه الطيبات. الله عزّ وجلّ يبدو أنه يحبّ كثيرا جدّاً فوهلينيا، ولذلك غمسها كلها بالعسل: حتى أن السّكر عندكم أحلى بكثير مما هو عندنا، الملح عندكم حلو، والفليفلة، حتى أن خردل فوهلينيا له طعم مربّى قشور الحمضيات، وحتى فجل الخيل والجَرْجار والخلّ والثوم والمُرّار كلها عندكم هناك حلوة جدّاً إلى درجة يمكن أن يُحَلّى بها ملاك الموت شخصيا بشحمه ولحمه.»

قالت، ثمّ سكتت فجأة دفعة واحدة، وكأنها ارتجفت خوفاً فجأة خشية غضب الملاك الذي ذكرته هكذا بدون مناسبة وباستخفاف بارز وخطير.

عند سماع هذه الأقوال رسمت جدتي الثانية والدة والدتي على شفتيها ابتسامة لطيفة، ليست ابتسامة المنتصر ولا ابتسامة شماتة بل ابتسامة من يحب الخير، ابتسامة ساذجة وبريئة مثل ترنيم ملائكة الطهارة، أما بالنسبة لادعائها

بأنّ حلاوة طبيخها تكفي لتحلية الخلّ والمرار وحتى ملاك الموت بشحمه ولحمه كان جواب جدّتي إيتا للجدة شلوميت بكلمات موجزة ومتناغمة :

«ولكنها لا تكفي لتحليتك، يا نسيبتي!»

*

لم يعد الجميع بعد من حرش تل أرزا وأنا ما زلت مضطجعا على ظهري على أرضية الأسمنت الّتي ربما أصبحت الآن أقلّ برودة وصلابة. نور المساء يزداد برودة ويزداد حلكة من على رؤوس أشجار السرو الحادة. وكأن شخصا ما يتنازل شيئا فشيئا هناك، في الأعالي السامقة فوق ذرى الأشجار، وأسطح المنازل، وفوق كلّ ما يتحرّك هنا في الشارع وفي الساحات الخلفية وفي المطابخ، عالياً عالياً فوق روائح الغبار والمَلْفُوف والقمامة، عالياً فوق زقزقة العصافير، كبعد السماء عن الأرض، فوق ترانيم الصلوات الباكية التي تضل وتأتي نتفاً نتفاً من جهة الكنيس الذي في سفح الشارع.

هذا السامي والشفاف واللامبالي يتمدد الآن فوق خزانات المياه الّتي على أسطح المنازل وفوق الغسيل المعلّق هنا على رأس كلّ سطح وفوق الخردوات وقطط الشوارع وفوق جميع أنواع الأشواق وفوق جميع العرائش المصنوعة من الصفيح الموجودة في الساحات وفوق المؤامرات وأقراص العجّة والأكاذيب وطشوت الغسيل وفوق المناشير الّتي ألصقها أعضاء التنظيمات السرية وفوق شُورَبات الشمندر وجدب الحدائق الجافّة والمقفرة وبقايا الأشجار المثمرة الّتي بقيت شاهدة على أنه كان هنا بستان، وهو الآن - الآن يتمدّد ويتمدّد جاعلا سكينة المساء متعادلة وشفافة، يقوم بتحقيق السلام في الأعالي فوق براميل الزبالة وفوق نغمات البيانو الحائرة، الّتي تلدغ القلب، المرة تلو الأخرى تحاول هناك بنت غير جميلة، مِنوخليه شْطيخ، الّتي كنا نسمّيها «نموخليه» (أي دونيّة)، عبثا تحاول مرة تلو أخرى أن تصعد درجات سلم نغمات بسيط ولكنها تعود وتتعثّر المرة تلو الأخرى، ودائما في نفس المكان، تتعثّر وتتعثر ثمّ تكرر محاولة التسلق. وعصفورة واحدة، من جهتها، تجيبها المرة تلو الأخرى بالنغمات الخمس الأولى من معزوفة «إلى إليس» لبتهوفن. سماء فارغة واسعة من الأفق إلى الأفق في نهاية يوم صيفي

حار. هناك ثلاث غيمات خفيفة وطائران أسودان. الشمس اختفت وراء أسوار معسكر «شنلر» ولكن السماء لم تتنازل عن الشمس بل تتمسّك بها بأظفارها حتى تمكّنت من اقتلاع ذيل عباءة ألوانها والآن تقوم بقياس غنيمتها، مستخدمة غيمتين أو ثلاث غيمات خفيفة كقوالب قياس، لابسة النور كثوب[1] ثمّ تخلعه وتفحص كيف تلائمها قلائد العنق من الضوء الساطع الأخضر الفاتح وكيف أن القميص المخطّط بأشعة براقة لامعة برتقالية تحيط بها هالة من اللون البنفسجي- الأزرق الفاتح وكيف أنه على امتدادها تتلوّى وتتعرّج عدة خطوط فضية هشّة متأرجحة كتلك الخطوط المتكسّرة الّتي يرسمها تحت الماء سرب سمك سريع. وهناك أيضاً ومضات باللون الورديّ البُنَيْفِسِجي والأخضر - اللَّيْمونيّ. وها هو ذا يخلع ويلبس عباءة من البهاء الأحمر الفاتح، ومنها تسيل وتجري أنهار كاملة من البهاء الضارب إلى الحمرة الخابية، وبعد لحظة أو لحظتين يخلع بردة ويلبس عباءة أخرى بلون اللحم المكشوف، وإذا بهذا اللحم المكشوف فجأة مطعون ومجروح وملطّخ بثلاثة أو أربعة نزيفات دموية غزيرة وأطرافه الغامقة تتجمّع بين الطيّات المخمليّة السّوداء والآن لم يعد الارتفاع على الارتفاع بل على العكس العمق على العمق على العمق، مثل هاوية الرّدى الّتي تنفتح رُوَيداً رُوَيداً وتنحسر في السماء كأنها ليست هي في الأعلى والمضطجع على ظهره من أسفل بل الآن على العكس، السماء كلها هاوية والمضطجع على ظهره لم يعد مضطجعا بل محلّقاً منجذباً وهاوياً بسرعة وساقطاً مثل حجر باتجاه قعر مخمليّ. أنت لن تنسى هذا المساء أبداً: ما زلت ابن ستّ سنوات أو بالكاد ابن ست سنوات ونصف، ولكنها المرة الأولى في حياتك القصيرة الّتي انفتح لك فيها شيء كبير وفظيع جدّاً، شيء رصين، مقطب الوجه، منقبض الشفتين، شيء يمتدّ من اللانهاية وحتى اللانهاية، وهو يأتي إليك، إنه عملاق أخرس وهو يدخل ويتسرّب هكذا ويوقظ فجأة كلّ جوارحك، يوقظك هكذا حتى كأنّك أنت أيضاً أكثر سَعةً وعمقاً من نفسك، وبصوت ليس صوتك، ولكن من المحتمل

---

(١) مزامير ١٠٤، ٢ (المترجم).

أنه صوتك الذي سيكون لك بعد مرور ثلاثين أو أربعين سنة، بصوت ليس بعده ضحك ولا استخفاف يأمرك بأن لا تنسى أبداً أيّ جزء من تفاصيل هذا المساء: تذكّر واحفظ روائحه وتذكّر جسمه ونوره تذكّر عصافيره ونغمات البيانو ونعيق الغربان وكل غرائب السماء الّتي حدثت أمام ناظريك من الأفق وحتى الأفق، وكلها من أجلك وكلها فقط أمام عيني المخاطب. وألا تنسى أبداً دانوش وعامي ولوليك ولا جميع الفتيات مع الجنود في الحرش ولا ما قالته جدّتُك لجدّتك الأخرى ولا السمكة الحلوة الّتي كانت تعوم ميتة ومتبّلة في صلصة الجزر. لا تنسَ أبداً خشونة نتوءات الحجر الرطب الذي مرّ على وجوده في فمك أكثر من نصف قرن ولكن صدى مذاقه الرمادي مذاق الجير مع القليل من الكلس والقليل من الملح ما زال يتوسّل على طرف لسانك. وجميع أفكار ذلك الحجر، إيّاك إياك أن تنساها أبداً، كَون داخل كَون داخل كَون. تذكّر دوّامة الزمن- داخل - الزمن - داخل - الزمن وكذلك تذكّر كلّ جيش السماء الذي يقيس ويخلط ويجرح تشكيلة ألوان الضوء بعيد غياب الشمس، أرجواني وسماويّ فاتح وأصفر مخضر وبرتقالي ذهبي وفيض من النور وأرْجُوانيّ وقِرْمِزِيّ وأحمر فاقع وأزرق سماوي وذهبيّ وأحمر بدماء مسفوكة نازفة وعلى هذه كلها حلّ رُوَيداً رُوَيداً أزرق - رماديّ خافت وعميق كان لونه كلون السكوت ورائحته كرائحة أنغام البيانو الذي يكرر نفسه عبثاً المرة تلو الأخرى يكرر ويكرر كمن يتسلق وتزل قدمه يتسلق سلما مكسورا ويتعثّر، وعصفورة واحدة تتجاوب معه بواسطة النغمات الخمس الأولى من معزوفة «إلى إليس»: تي - دا- دي- دا- دي.

٣٤

نقطة ضعف أبي كانت تلهفه إلى الأسمى، في حين فتنت أمي الصبابة والاستكانة والشوق والحنين. أعجب أبي بحماس شديد بأبراهام لنكولن ولويس باستر وبخطابات تشرتشل «الدم والدموع والعرق»، و«منذ الأزل لم يشعر كثيرون إلى هذا الحدّ بالإثم»، و«سنقاتل على الشواطئ». تماهت أمي بابتسامة مع أبيات الشاعرة راحيل: «ما غنّيتُ لك يا بلادي وما مجّدت اسمك في قصص البطولة، لكن شقّت قدماي السبيل...» كان أبي ينفعل فجأة وهو بجانب مغسلة المطبخ ثمّ يندفع منشدا بحماس شديد، دون سابق إنذار من قصيدة لتْشرْنِيحوفْسْكي: «وفي البلاد ينتصب جيل/ يتخلّص من قيوده/ ويرى النور بأمّ عينيه!» وأحيانا من جابوتِنْسْكي: «... يودفات، مسّادا/ بيتار الاسيرة/ ستعلو بفخر واعتزاز!/ أيها العبري- حتى في الفقر أنت ابن وزير/ لو كنت عبدا أو هائما على وجهك/ فقد ولدتَ أميرا/ بإكليل داود نتوجك!» عندما يكون أبي منتشيا وقد حلّت عليه روح القدس كان يصرخ منشدا بصوت نشاز يفزع حتى الموتى، من قصيدة لتْشرْنِيحوفْسْكي: «بلادي، موطني، جبل صخري أجرد!» حتى تضطر أمّي إلى أن تذكّره بأنّ الجيران عائلة لامْبرْج وحتى الجيران عائلة بيخوفْسْكي وعائلة روزِنْدوزْف يصغون إلى حفلة غنائه وهم يلعقون أصابعهم، عندها كان أبي يصاب دفعة واحدة بالجُبن فيسكت من فوره، خجلا مخزيّاً، وكان يبتسم لها من شدة ارتباكه كمن ضُبط من توّه وهو يسرق قطعة حلوى.

أما أمّي فقد أحبت أن تقضي ساعات المساء جالسة عند زاوية السرير

المتنكر ككنبة قدماها الحافيتان مطويتان ومخفيتان تحت فخذها، ظهرها مستدير ورأسها منحنٍ فوق الكتاب الذي على ركبتيها، كانت تائهة لساعات طويلة في طرقات حدائق خريفية متنوعة مكسوة بأوراق الأشجار المتساقطة في قصص تورجنييف وتشيخوف إيفاشكيفيتش وأندريه مورِوا وغنيسين.

انحدر كلاهما إلى القدس مباشرة من قلب مناظر القرن التاسع عشر: تربّى والدي على حمية مركّزة من الرومانسية القومية - المسرحيّة، رومانسية متعطشة للدماء تواقة إلى القتال: ربيع الشعوب، الهيجان والاندفاع، الّتي على ذراها المحلاة تناثر مثل اندفاع تيار الشمبانيا شيء من السّعار الرجولي لنيتشه. أما أمّي، من جهتها، فقد عاشت حسب المعايير الرومانسية الأخرى، تلك المؤمنة بالانطواء على النفس، السوداويّة، الانعزالية المتواضعة، المطعمة بآلام وحدانيين كسيري الجناح وأغنياء النفوس، المشبّعة بروائح خريفية باهتة متنوعة من الانحطاط و«أفول القرن».

حيّ كيرم أفراهام بباعته المتجولين وتجاره وتاجراته وتجار الخُرْدَوَات الناطقين بالإيديش فيه، وبسكانه المتدينين المتزمتين الذين يرتلون الأناشيد الدينية بانفعال وارتعاش، وبسكانه البرجوازيين الصّغار النائين، وبمثقفيه مصلحي العالم غَرِيبي الأَطْوار، ما كان هذا الحيّ مناسبا لها وما كان مناسبا له. حلق طوال الوقت في أجواء البيت حلم متردد بالانتقال للسكن في حيّ حضاريّ أكثر، في بيت هَكيرِم مثلا أو في كِرْيات شموئيل إن لم يكن حيّ تَلْبِيوت أو حيّ رِحافيا: ليس الآن ولكن ذات يوم، في المستقبل، عندما يتاح المجال، عندما نوفّر شيئا، عندما يكبر الولد قليلا، عندما يجد والدي موضع قدم له بين أعضاء الهيئة التدريسية الأكاديمية، عندما تصبح أمي معلمة مثبّتة، عندما تتحسّن الأحوال، عندما تزدهر البلاد، عندما يخرج الانجليز، عندما تقوم الدولة العبرية، عندما يتضح ماذا سيكون هنا، عندما سيصبح الأمر، في نهاية المطاف، أكثر سهولة.

*

«هناك في البلاد التي أحبها الآباء والأجداد» هكذا تغنّى والداي في أيام فتوّتهم، هي في مدينة روفْنو وهو في مدينة أوديسة وفيلْنا، ومثلهم تغنى

آلاف الشباب الآخرين في شرق أوروبا في العقود الأولى من القرن العشرين، «هناك في البلاد التي أحبها الآباء والأجداد/ ستتحقق كلّ الآمال والأمنيات/ هناك سنحيا ونتتج/ حياة صفاء وحرية.»

ولكن ماذا كانت تلك الأمنيات؟ أيّ حياة صفاء وحرية توقع والداي أن يجدا هنا؟

بشكل مبهم، ربما خيل إليهما أن يجدا في أرض إسرائيل المتجددة شيئا أقلّ يهوديّةً - بُورْجوازِيّة وأقلّ أوروبية - حداثة؛ أقلّ مادية أيضاً وأكثر روحانية؛ أقلّ جدلا - كلاما وأكثر رزانة وصمتا وضبطا للنفس.

ربما حلمت أمّي أن تعيش في أرض إسرائيل حياة معلمة قروية رقيقة ومثقفة، تؤلف في ساعات الفراغ قصائد غنائيَّة وربما أيضاً قصصا حساسة مبطّنة. يخيّل إليّ أنها توقعت أن ترتبط هنا بروابط نفسية خفية، علاقات غنية بالأحاسيس والمشاعر القلبية الصادقة والمخلصة مع فنانين رفيعي الذوق، وبذلك- تتخلص في نهاية المطاف من قبضة صرخات أمها الضارية وأن تهرب وإلى الأبد مما تسببه لها التطهرية المتعفنة من اختناق ومن طعم فاسد، ومن مَزْبَلَة المادية الدنيئة التي كانت سائدة في الأماكن التي جاءت منها.

أما أبي فقد رأى نفسه في أحلامه انه سيصبح، في أحد الأيام، هنا، في القدس، مثقفا- باحثا مبتكراً، رائدا شجاعا من رواد تجدد الروح العبرية، ووارثا لائقا للبروفيسور يوسِف كْلاوزْنِر، ضابط جريء وشجاع في جيش أبناء النور الروحاني الذي يقاتل ببسالة أبناء الظلام، مكملا جيدا لسلالة باحثين طويلة ومحترمة من المتوقع أن تبدأ بالعم يوسف الذي حرم من الخلف وتستمرّ بابن أخيه المخلص له كالابن. فعلا مثل عمّه، وبكل تأكيد بإيحاء وتشجيع من العمّ، أصبح أبي أيضاً يقرأ قراءة علمية - بحثية بست عشرة أو سبع عشرة لغة. درس والدي في جامعتي فيلْنا والقدس وعندما كان في الخمسين من عمره تقريبا، استكمل وقدم إلى جامعة لندن أطروحة الدكتوراة، الّتي خصصها لحياة وأعمال ي.ل. بيرتس. حقّاً طوال الوقت، كان الجيران والغرباء يتوجهون إليه دائماً تقريبا باللقب «سيدي الدكتور» أو لُطفاً، سيد دكتور « كْلاوزْنِر» لكنه فقط قبيل بلوغه الخمسين حظي بالحصول على

الدكتوراة فعلا، وليس مجرد دكتور آخر إضافي بل دكتور من جامعة لندن. كما أنه درس عن ظهر قلب، وفي الأساس، بقواه الذاتية، التاريخ القديم والتاريخ الحديث وتاريخ الأدب، وفقه اللغة العبرية و فقه اللغة العامّ ودرس علوم التوراة والفلسفة اليهودية، وعلم الآثار وأدب العصور الوسطى وبعض الفلسفات والدراسات السلافية وتاريخ عصر النهضة ودراسات رومانية: كان جاهزا ومستعدا ومناسبا لكي يصبح معيدا، ومحاضرا، ومحاضرا كبيرا، وبروفيسورا، وبروفيسورا بارعا، وباحثا يشقّ الطرق، وكذلك، أن يجلس في نهاية المطاف على رأس الطاولة في كلّ يوم سبت بعد الظهر، وأن يقول مُونُولُوجا تلو مُونُولُوج على أسماع المعجبين والأتباع المشدوهين.

ولكنهم لم يرغبوا به: لم يكن لأي شخص هنا رغبة به أو «بحكمه السبع». ربما لأنّ عمه اشمأزّ مما سيقوله كلّ مبغضيه في الجامعة إذا لم يستحِ ولم يخجل ويعيّن ابن أخيه وريثا ومساعدا أول له. ربما لأنّ المرشحين الآخَرين كانوا أفضل من والدي، وربما لأنّ والدي لم يعرف ابدأ كيف يشقّ طريقه بمنكبيه، وربما ليس لأي واحد من هذه الأسباب بل ببساطة لأنه في البلاد كلها لم تكن هناك إلا جامعة واحدة صغيرة يتعلم فيها عدد قليل من الطلاب في قسم متواضع للأدب العبري في الوقت الذي تناحر فيه عشرات المحاضرين - اللاجئين على كلّ نصف وظيفة معيد، كلهم حملة شهادات وكلهم جائعون ويائسون وكلهم خبراء في كلّ العلوم الّتي في العالم. إضافة إلى ذلك: مع عدد كبير منهم شهادات من جامعات ألمانية مرموقة أكثر بكثير من تلك الّتي في فيلْنا.

وهكذا اضطر تربليوف إلى أن يعيش في حالة ضيق غالبية سنوات حياته، كأمين مكتبة بائس في قسم الصحافة في المكتبة القومية وأن يؤلّف في ساعات الليل، بما بقي له من قوة، كتبه عن تاريخ الرواية وعن تاريخ الأدب، بينما بنت النَّوْرس[1] خاصّته بقيت في البيت - القبو تطبخ وتغسل وتنظف

---

(١) تربليوف وبنت النورس: شخصيتان من شخصيات مسرحية تشيخوف «النورس» (١٨٩٦) (المؤلف).

وتخبز وتعتني بابنها المِمْراض، وعندما لم تكن تقرأ الروايات، كانت تقف وتنظر من الشباك مع كأس من الشاي الذي برد مع الوقت. وكلما سنحت لها الفرصة كانت تعطي هنا وهناك القليل من الدروس الخصوصيّة.

*

كنت ابنا وحيدا، وكلاهما ألقى بكل ثقل خيبة أمله على كتفيّ الصّغيرين: قبل كلّ شيء كان عليّ أن آكل جيدا وأن أنام كثيرا وأن اغتسل بعناية فائقة وبدون أيّ تنازلات لأنه بذلك تتحسن احتمالاتي لأن أكبر وأكيد كلّ العيون وأن أحقّق في نهاية المطاف شيئا، على الأقلّ، حلم به والداي في شبابهما. توقعا مني أن أتعلّم القراءة والكتابة قبل سن المدرسة: لقد تنافسا فيما بينهما من منهما يقدم لي مغريات ورشوة أكثر مقابل تعلّمي للحروف (والتي، بدون رشوة ومغريات، سحرتني وانقادت لي بسهولة كمن جاءت بمحض إرادتها). وعندما بدأت اقرأ وأنا في الخامسة، اهتم كلّ منهما بأن يحضّر لي قائمة كتب لذيذة وممتعة ولكنها أيضاً مغذّية وغنية بالفيتامينات الثقافيّة.

أحياناً كانا يشركاني في محادثات حول مواضيع لا يشركون فيها الأولاد الصغار في بيوت أخرى. أمّي من جهتها، أغرقتني بقصص السحرة، وأقزام الليل، والعفاريت، والأكواخ المسحورة في قلب الغابة، ولكنها كانت تتحدّث معي برزانة عن أعمال الإجرام، وعن المشاعر المختلفة، عن حياة ومعاناة الفنانين النوابغ، عن الأمراض النفسيّة وعن الحالة النفسية عند الحيوانات («إذا أمعنت النظر يمكنك أن ترى أنه عند كلّ إنسان توجد صفة بارزة تجعله شبيها بأحد المخلوقات، هذا قطّ، وهذا دبّ وهذا ثعلب، وهذا خنزير. كما نلاحظ في شكل الوجه ومبنى الجسم عند كلّ إنسان الحيوان القريب منه»). بينما أطلعني والدي على أسرار المنظومة الشمسيّة، والدورة الدّمويّة، والكتاب الأبيض البريطاني، ونظرية النشوء والارتقاء، وحياة هرتسل العجيبة، ومغامرات دون كيشوت، تاريخ الكتابة والطباعة وأسس الصهيونية («في المهجر كانت حياة اليهود سيئة جداً، هنا في أرض إسرائيل،

ما زال الوضع ليس سهلا بالنسبة لنا، ولكن عما قريب ستقوم الدولة العبرية وسيكون كلّ شيء جيدا ونضرا. وسيأتي العالم كله ويندهش عندما يرى كلّ ما يقوم به الشعب اليهودي وينتجه هنا»).

والداي، جدّي وجدّتي، أصدقاء العائلة الحساسون، الجيران محبو الخير، والخالات المزيّنات، المبالغات في عناق الدببة وفي سيل القبلات الدهنيّة، هؤلاء جميعا أعجبوا بلا انقطاع بكل كلمة نطقتُ بها: الولد مرتبك جدّاً، الولد مبدع، الولد حسّاس، الولد متميّز فريد، الولد متطور أكثر من سنه، الولد يفكر، الولد يفهم كل شيء، للولد عينا فنان.

أنا من جهتي انفعلت كثيرا من انفعالاتهم حتى أنني امتلأت إعجابا بنفسي: إذ أنهم بالغون، أي- مخلوقات تعرف كلّ شيء وعلى حقّ دائماً، وهم جميعا دائماً وأبداً يقولون عنّي بأنني عاقل وحكيم إذن أنا حقّاً حكيم وعاقل. وهم كلّهم يقولون بأنّني مثير جدّاً للاهتمام، وفي هذا الموضوع أيضاً أميل بالطبع إلى الموافقة معهم. وبأنّني ولد حسّاس ومبدع وأنّني كذا وأنّني كذا (كلاهما بلغة أجنبية)، ومع ذلك - ولد مبدع ومتطوّر ونبيه جدّاً وحلو جدّاً أيضاً وإلخ.

بحكم كوني اشعر بالرّهبة والتعظيم أمام عالم البالغين وأمام قيم النظام القائم، ولأنّه لا يوجد لي إخوة أو أخوات أو أصدقاء يعدّلون قليلا عبادة الشخصية الّتي تحيط بي، اضطررت إلى أن أنضمّ بتواضع ولكن باتّزان إلى رأي البالغين العامّ فيّ.

وهكذا، بدون تفكير، في سن أربع أو خمس سنوات تحوّلت إلى متعجرف متغطرس صغير والداه وجميع عالم البالغين استثمروا فيه ضمانات واسعة ومنحوه رصيدا كبيرا لغروره.

*

قد يحدث أحياناً أنّنا كنا نتحدث نحن الثلاثة ونحن حول طاولة المطبخ بعد وجبة العشاء. تحدّثنا بأصوات منخفضة لأنّ المطبخ كان ضيّقاً ومنخفضاً

مثل الزنزانة وبدون أن يقاطع أحد منا الآخر (إذ رأى أبي في ذلك شرطا مسبقا لكلّ محادثة). كنا نتحدّث مثلا عن الطريقة الّتي يمكن بها لشخص أعمى أو لمخلوق من كوكب آخر، أن يستوعبا عالمنا. ربما، من حيث المبدأ، كلنا نشبه، عمليا، مخلوقاً ما أعمى من كوكب آخر؟ تحدّثنا عن أولاد الصين والهند، عن أولاد البدو والفلاحين العرب، عن أولاد الغيتو، عن أولاد المهاجرين غير الشرعيين، وكذلك عن أولاد الكيبوتسات الذين لا يعيشون مع والديهم بل ما أن يصلوا إلى مثل سني حتى يعيشوا حياة اجتماعية مستقلة هم أنفسهم مسئولون عنها، ينظفون حسب نظام معين غرفهم ويقررون بقواهم الذاتية عن طريق التصويت، في أيّ ساعة يطفئون النور ويدخلون الفراش للنوم.

نور مصباح كهربائي أصفر- شاحب خيم في ساعات النهار أيضاً على فضاء المطبخ الضيّق. في الخارج في الشارع الذي كان يخلو من الناس قبل الساعة الثامنة مساء، إما بسبب منع تجوّل أعلنه البريطانيون أو بحكم العادة، كانت تصفر في ليالي الشتاء رياح جائعة. كانت الرياح تعبث بأغطية براميل الزبالة الموجودة عند مداخل البيوت، تفزع أشجار السّرو السوداء والكلاب المتجوّلة تحاول بأصابعها السوداء الإمساك بطشوت الغسيل المعدنية الّتي كانت معلقة على دربزينات الشرفات. أحياناً كان يصل إلى مسامعنا صوت طلقة بعيدة أو صوت انفجار خافت من أعماق الظلام.

بعد وجبة العشاء كنا نقف نحن الثلاثة في صف كمن يستعدون لاستعراض، أبي في المقدمة تليه أمي وأنا من خلفها، وجوهنا إلى الحائط الذي كان قاتما بفعل البريموس والطبّاخ ذي الفتيلة، ظهرنا باتجاه المطبخ: أبي منحنٍ على المغسلة يغسل ويصبّن ثمّ يعود ويغسل إناء بعد إناء ويضع إناء بعد إناء في مكان التجفيف، والذي منه تتناول أمي الصحون الّتي تقطر ماء والكؤوس الرطبة لتجفّفها وتضع كلّ إناء في مكانه. أما حملة تجفيف الملاعق والشوك والملاعق الصغيرة فقد أدرتها أنا بنفسي، كما قمت بتصنيفها ووضعتها أنا بنفسي وبقواي الذاتية في الدرج. ابتداء من عمر ست سنوات سمحوا لي بتجفيف سكاكين المائدة لكنهما، بكل تأكيد، لم يسمحا لي، ولا

بأي شكل من الأشكال، بتجفيف سكين الخبز ولا سكاكين الخضراوات واللحوم.

*

لم يكتفيا بأن أكون نبيها منطقيا وطيبا وحسّاسا ومبدعا ومفكّرا صاحب عيني فنان حالمتين. فقد فُرض عليّ أن أكون، بالإضافة إلى كلّ هؤلاء، متنبئا، عرّافاً ومتكهنا قارئاً للبخت، حُجّةً ومرجعا عائليا، حالماً بالإيجار، عرّاف الملك: إذ يعلم الجميع أن الأطفال ما زالوا قريبين من الفطرة والبراءة، من حضن الخليقة السحري، لم يفسدهم الكذب والنفاق ولم يتسمموا بحسابات المصالح الشخصية والربح والخسارة.

وعليه كان عليّ أن ألعب دور «بثيا» كاهنة دَلفي أو شخصية المعتوه المقدّس: وأنا ما زلت أتسلّق شجرة الرمان النورسية في الساحة أو اركض من حائط إلى حائط دون أن أدوس على خطوط البلاطة، كانا يستدعيانني لكي أُسمعهما وأسمع ضيوفهما أيّ إشارة ساذجة من السماء وبذلك - أساعدهما في حسم الجدل القائم هل نسافر أم لا نسافر لزيارة الأصدقاء في كيبوتس يَدْ عَنافيم، هل يشتريان أم لا يشتريان (بعشرة أقساط) طاولة بنية مستديرة مع أربعة كراسٍ، هل يعرّضان للخطر أم لا يعرّضان حياة الناجين في سفن الهجرة غير الشرعية المتضعضعة، هل يدعوان أم لا يدعوان الزوجين رودنيتسكي إلى وجبة العشاء عشية يوم السبت؟

كانت وظيفتي أن أُصدر أيّ سانحة معقدة وغامضة لا تلائم سنّي، جملة ضبابية مكونة من أشلاء أفكار سمعتها مرة من البالغين ومزجتها وحرّكتها جيدا، شيئا يمكن أن يفهم على هذا الجانب أو ذاك، شيئا مفتوحا لتفسيرات كثيرة ولتفسيرات التفسيرات. من المفضل أيضاً أن تشمل حكمتي تشبيها مبهماً، ومن المفيد لي أن تظهر فيه كلمة «في الحياة» على هذا النحو تقريبا: «كلّ سفرة هي مثل فتح درج.»، «في الحياة يوجد صباح ويوجد مساء، يوجد صيف ويوجد شتاء.»، «القيام بتنازلات صغيرة مثلها مثل الدوس على مخلوقات صغيرة.»

كان والديّ عند سماع هذه الجمل تهيج مشاعرهما حتى يفيض الجسم

عن احتوائها، عيناهما كانتا تتلألآن سنى وضياء، «من أفواه الأطفال والرّضع أُسست حمدًا»[1] وكانا يقلّبان ويقلبان تمتماتي هذه، المبهمة، سبعين تفسيرا للتوراة، وكانا يجدان فيها كما في ذلك الشيء غير المعروف على صدر الكاهن الأكبر الذي ساعده على الإجابة عن كلّ الأسئلة الّتي وجّهت إليه، عصارة الفهم العميق وغير الواعي للطبيعة ذاتها.

كانت أمي تضمني بقوة إلى صدرها في أعقاب الدرر الّتي قلتها الّتي كان علي أن أكررها أو أن أقول غيرها مثلها بحضور الأقارب المذهولين والضيوف المشدوهين. سرعان ما تعلّمت كيف أنتج حكما مبهمة كهذه بطريقة إنتاج متسلسل، بحسب طلب جمهور المستهلكين المتلهفين وأذواقهم. وهكذا كنت استمتع ثلاث مرات بكل تنبّؤ وتنبّؤ لا مرة واحدة: المتعة الأولى- أن أرى كلّ جمهوري يعلّق عينيه متلهفا بشفتي، ينتظر مرتجفا ما أتفوّه به، وللتو يغرق في بحر من التفسيرات المتناقضة ما الذي قصده أو رمى إليه الشاعر؟ والمتعة الثانية: دوامة حكمة - سليمان الّتي تصيبني، مكانتي كصاحب الكلمة الأخيرة كصاحب القول الفصل بين البالغين أنفسهم («ألم تسمع ما قاله لنا عن سر التنازلات الصغيرة؟ أما زلت مصرا على عدم السفر غدا إلى كِرْيات عَنافيم؟»). وكانت لي متعة ثالثة وهي السرية والأخطر: جودي وكرمي. لا توجد أيّ متعة في العالم يمكن أن تعادل في نظري متعة العطاء وبهجة المنح. هم، البالغون، ينقصهم شيء ما- وأنا الوحيد القادر على تزويدهم بما ينقصهم. إنهم عطشى وأنا المغدق. إنهم محتاجون وأنا المانح. ما أجمل أني ولدت لهما! ماذا كانوا سيفعلون بدوني؟

---

(١) مزامير، ٨: ٣ (المترجم).

٣٥

في الحقيقة كنت ولدا مريحا جدّاً: مطيعا، مجتهدا، داعما، عن جهل، دعما كاملا بالنظام الاجتماعي القائم (أمّي وأنا خاضعان لأبي، أبي يتتلمذ على العمّ يوسِف كْلاوزْنِر، و العمّ يوسِف كْلاوزْنِر نفسه - على الرغم من تحفظه وانتقاداته كمعارض- فهو يخضع مثل الجميع لأوامر بن غوريون والمؤسسات المخوَّلة). بالإضافة إلى ذلك كنت هاويا بلا كلل لكلمات المديح والثناء يكيلها لي البالغون: والداي وضيوفهم، والعمات والخالات والجيران والمعارف.

وعلى الرغم من ذلك، أحد العروض الأكثر رواجا من قائمة العروض العائلية، أحد العروض الكوميدية المحبوبة ذات الحبكة الثابتة تدور حول القيام بخطأ في أعقابه هناك حاجة إلى جلسة تمحيص ثاقبة يتلوها العقاب المدوّي. في أعقاب العقاب يأتي دائماً الندم والتوبة والمغفرة وتخفيض نصف العقاب أو معظمه، وفي النهاية- مشهد تترقرق فيه العيون بالدموع وترتعش فيه الجوارح مشهد العفو والتراضي الذي ينتهي بالعناق والتعاطف المتبادل.

في أحد الأيام، ومن منطلق حب العلم والمعرفة، أقوم برشّ مسحوق الفلفل الأسود في فنجان قهوة أمّي.

تأخذ أمي جرعة واحدة من القهوة. تشرق وتختنق. تبصق في منديل المائدة وتغرق عيناها بالدموع. أشعر للتوّ بالندم الشديد ولكنني أبقى صامتا: اعلم كلّ العلم أن المشهد التالي من نصيب أبي.

أبي، بحكم دوره كمحقّق نزيه، ينحني ويتذوّق بحذر قهوة أمّي وربما اكتفى فقط بترطيب شفتيه قليلا منها. وفي الحال يشخّص الحالة:

«هناك مَن تكرّم بتتبيل قهوتك. هناك مَن «تفلسف» قليلا. أخشى أن يكون ذلك من عمل شخصية مرموقة ذات مقام رفيع.»

صمت. بحسب كلّ قواعد الإتيكيت والأدب أتناول ملعقة ثمّ أخرى من عصيدة السميد من صحني، ثمّ امسح شفتي بمنديل المائدة، أتريّث قليلا ثمّ أعود إلى تناول ملعقتين أو ثلاث: رصينا- رزينا، منتصبا- مرفوع الرأس. وكأنني أمثّل كلّ ما كتب في كتاب آداب القصر. هذه المرة سأكمل صحن العصيدة حتى آخره. كولد مثاليّ، سأنظف الصحن حتى يلمع.

أما أبي فما زال غارقا في التفكير، كمن يرسم الخطوط الأولية لشكل الألغاز الكيماوية. لا ينظر إليّ، يخاطب أمّي فقط أو ربما يخاطب نفسه:

«كان من الممكن أن تحدث هنا جريمة أيضاً! كما هو معلوم هناك غير قليل من الخلطات المكونة من مادتين اللتين كلّ منهما هي مادة طيبة بحدّ ذاتها وتصلح لمأكولات البشر، ولكنهما عند مزجهما يمكن أن يعرضا حياة من يذوقهما إلى الخطر! من سكب اليوم ما سكبه إلى القهوة بكل تأكيد كان بإمكانه أن يسكب هناك إضافات أخرى. والنتيجة؟ التسمّم. المستشفى. وربما حتى خطر الموت.»

صمت القبور يخيّم على المطبخ. وكأنّ كارثة قد حصلت.

أمّي، وعن غير قصد، أبعدت بظهر يدها فنجان السُّم.

«وعندها؟!» أضاف أبي مفكرا محركا رأسه عدة مرات من أعلى إلى أسفل، كمن يعرف تماما ما الذي حدث هنا، ولكنه من خلال رزانته يتمالك نفسه ولا يسمّي الفظاعة باسمها.

صمت.

«وعليه، اقترح بأن يقوم الشخص الذي فعل هذه المكيدة - طبعا عن غير قصد، وبكل تأكيد كمزحة غير ناجحة- أن يقوم بكل شجاعة وجرأة ويقف على رجليه. حتى نعلم جميعا بأنه إذا كان عندنا هنا في البيت شخص طائش ومتهوّر - نعلم من جهة أخرى أنه لا يوجد عندنا هنا جبان حقيقي! أو

على الأقلّ ليس شخصاً فاقداً للاستقامة والنزاهة واحترام النفس!»

سكوت.

جاء دوري.

وقفت على قدميّ وقلت بنبرة بالغة وبنغمة تشبه تماما نغمة أبي:

«كان ذلك أنا. آسف. بكل تأكيد كانت تلك غباوة كاملة، وأنّ ذلك، بكل بساطة، لن يحدث ثانية.»

«لن يحدث؟»

«لن يحدث بكل تأكيد.»

«كلمةِ شرف من شخص صاحب كرامة؟»

«كلمة شرف من شخص صاحب كرامة.»

«الاعتراف، والندم، والوعد، ثلاثتها تقود إلى خفض العقاب. نكتفي هذه المرة بأن يتكرّم جنابك بأن يشرب. نعم. الآن، من فضلك.»

«ماذا أشرب، هذه القهوة؟ مع الفلفل الأسود الذي بداخلها؟»

«نعم، حقا.»

«ماذا، تريدني أن اشربها؟»

«من فضلك.»

ولكن بعد رشفة أولى، تتدخل أمّي مترددة. وهي تقترح الاكتفاء بذلك: لا حاجة إلى المبالغة. للولد معدة حسّاسة جدّاً. وقد تعلّم «الدرس» جيدا بكل تأكيد.

أبي لم يسمع بالمرة اقتراح الحل الوسط. أو يتظاهر بأنه لم يسمعه. يسأل:

«وكيف يجد صاحب المقام الرفيع شرابه الزعاف؟ هل طعمه مثل طعم الفطير مع العسل؟ أليس كذلك؟»

أقطّب وجهي بيأس بسبب القرف والتقزز والاشمئزاز. تعبر أسارير وجهي عن المعاناة والندم والحزن الذي تثير شفقة كلّ إنسان، عندها يقرر أبي:

«حسنا، يكفي. نكتفي بهذا هذه المرة. حضرة فخامته قال مرتين ما

ينبغي. لماذا لا نضع خطا على ما كان ولن يتكرر ثانية؟ وربما نؤكّد هذا الخط بواسطة حبة شوكولاطة نزيل بها الطعم السابق. بعد ذلك، إذا أردت، يمكننا أن نجلس مَعاً نحن الاثنين على طاولة العمل ونقوم بتصنيف القليل من طوابع البريد الجديدة؟ ما رأيك؟»

*

أحبّ كلّ واحد منا دوره الثابت في هذه المسرحية الكوميدية: استمتع أبي بتمثيل دور الإله المنتقم الذي يحفظ ويعدد الخطايا، ما يشبه الإله البيتيّ، يرمي بشرارات غضبه ويدوي برعوده المفزعة، ولكنه إله رحيم ورؤوف واسع الصدر وكثير النعم.

ولكنّه أحياناً كانت تغمره موجة عمياء من الغضب الحقيقي، ليس الغضب المسرحي (وبالذات إذا فعلت شيئا أعرض فيه نفسي للخطر)، عندها كان يوجّه إليّ، بدون مقدمات وبدون مغازلات، صفعتين أو ثلاث صفعات رنانة مدهشة.

عدة مرات في أعقاب العبث بالكهرباء أو التسلّق على غصن شديد الارتفاع، كان يأمرني بأن أنزع بنطلوني وأن أدير عجيزتي (الّتي كانت تسمى بلغته باسم «المَقْعَدَة، لو سمحت!» فقط لا غير)، وبعدها كان يلوّح بحزامه بدون شفقة ثمّ يجلدني ست أو سبع جلدات قارصة، تمزق الجلد و«تقطع» القلب.

لكن، في الغالب لم يتمثّل غضب والدي بالمجازر بل اتخذ شكلا لاسعا - سامّاً من أشكال آداب القصر بكل حذافيرها:

«لقد عاد فخامة صاحب المقام الرفيع مرة أخرى هذا المساء وغمر الممر كله بوابل من الوحل الذي جاء به من الشارع: يبدو أنه لا يليق بمقامه السامي أن يقوم بخلع حذائه عند المدخل كما نفعل نحن طيلة أيام المطر. إلا أنّني أخشى أنه في هذه المرة سيضطر فخامته إلى الهبوط قليلا من برجه العاجي وأن يمسح بيديه الناعمتين ذاتها آثار خطواته الملوكية. بالمناسبة المقصود هنا بآثار خطواته هو آثار القدمين. وبعد ذلك ليتكرّم فخامته بأن يحبس نفسه مدة ساعة كاملة وحيدا في العتمة في غرفة الحمام، وبذلك يتوفّر له الوقت الكافي

لكي يفكر في أفعاله، وأن يحاسب نفسه وحتى ليفكر جيدا في سلوكه في المستقبل.»

فوراً كانت أمّي تستأنف على فداحة العقوبة:

«نصف ساعة تكفيه. وبدون عتمة. ماذا حدث لك؟ ربما تمنعه أيضاً من التنفّس؟»

عندها كان أبي يقول:

«لحسن حظ جلالته، دائماً يجد له شفيعا متحمسا وبدون شروط.»

وأمّي:

«لو أنهم هنا يفرضون عقوبات على روح الدعابة الجوفاء - » إلا أنّ أمّي لم تكن تتم هذه الجملة أو شبيهاتها ابداً.

بعد ربع ساعة تقريبا كان يحين وقت مشهد الختام: كان أبي بنفسه يأتي لينتشلني من غرفة الحمام، كان يمد ذراعيه لعناق سريع ومتردد وكان يتمتم بنوع من الاعتذار:

«أنا أعلم جيدا، بالطبع، بأن الوحل لم يكن، بكل تأكيد، عن قصد بل عن مجرد عدم انتباه وفكر مشتت لا غير. وأنت نفسك تعلم جيدا إننا عاقبناك فقط لمصلحتك: كيلا تكبر وتكون أنت أيضاً فيلسوفا مشتّت الفكر.»

كنت أنظر مباشرة إلى داخل عينيه البنيتين البريئتين وشبه الخجولتين، وكنت أتعهد له بأنني منذ الآن سأنتبه دائماً - دائماً وأخلع حذائي عند المدخل. إضافة إلى ذلك: دوري الثابت في المسرحية هي أن أقول في هذه النقطة وبملامح رزينة وبالغة أكثر من سني وبتعابير أخذتها مباشرة من قلب مستودع أسلحة أبي، بأنني بالطبع ودون أدنى شك أدرك أن العقوبة هي من أجل مصلحتي فقط. هذا النصّ الثابت احتوى أيضاً على توجّه إلى أمّي، طالبا منها ألا تتسرع في الشفقة عليّ لأنّني ملتزم بقانون النتائج وأنني بلا شك قادر على تحمّل العقوبات الّتي استحقها. ولو كان ذلك ساعتين في الحمام وفي العتمة أيضاً. لا يهمّني.

*

وفي الحقيقة لم يكن يهمّني، لأنّه لم يكن أيّ فرق تقريبا بين الوحدة

المفروضة كعقوبة في داخل غرفة الحمام المغلقة بالمفتاح من الخارج وبين وحدتي العادية، في غرفتي أو في روضة الأطفال: طوال فترة طفولتي كنت ولدا وحيدا، بدون أخ أو أخت وتقريبا بدون أيّ أصدقاء.

حفنة من عيدان الأَسْنان وصابونتان وثلاث فراشي أسنان وأنبوب شبه فارغ من معجون العاج ومعها أيضاً فرشاة شعر، وخمسة دبابيس شعر تابعة لأمّي وعلبة أدوات الحلاقة التابعة لأبي وكذلك كرسي القدمين وعلبة الأسبيرين ولفة لصقات الجروح وربطة ورق المرحاض، هذه كلها بإمكانها أن تكفيني وقد تزيد، ليوم كامل من المعارك، والحَمَلات ومشاريع البناء الضخمة والمغامرات الكبيرة الّتي كنت فيها، على التناوب، فخامتي أو خادم فخامتي، وصيادا ومصادا ومتهما وعرّافا وقاضيا وملاحا ومهندسا يقتحم قناة بنما وقناة السويس في مسارات جبلية وعرة من أجل ربط جميع البحار والبحيرات الّتي في غرفة الحمام الضيّقة وتسيير سفن تجارية وغواصات وسفن حربية وقوارب قراصنة وسفن إخراج الألغام البحرية وسفن صيادي التماسيح وسفن مكتشفي القارات والجزر المائية الّتي لم تطأها قدم إنسان من قبل من آخر الدنيا إلى آخرها.

وإن حكموا عليّ بعتمة- الزنزانة لم أفزع: كنت أغلق في العتمة غطاء كرسي المرحاض وأجلس عليه وأجري كلّ معاركي وحملاتي بأيدٍ فارغة. بدون صابون وبدون أيّة أمشاط ودبابيس شعر وبدون أن أتحرك من مكاني. كنت اجلس وأغمض عينيّ وأشعل في مخيلتي كلّ الأضواء الّتي أريدها، وهكذا كنت أبقي العتمة كلّها خارجا. في حين داخل رأسي مضاء بأضواء زاهية.

يمكنني القول بأنّني أحببتُ عقوبة العزل والحجر. «من لا يحتاج إلى الغير» اقتبس أبي من أقوال أرسطو «دليل على أنه حيوان أو إله.» وأنا لساعات طويلة استمتعت بكوني هذا وذاك أيضاً. لا يهمّني.

في كلّ مرة كان أبي يناديني بسخرية سمو فخامة جنابه أو فخامة سموّه، لم أكن أتضايق أو أشعر بالإهانة. على العكس: كنت أوافق معه في قرارة نفسي. تبنيت لنفسي هذه الألقاب. ولكنّي سكتُّ. لم أفضِ له بأيّ إشارة

تدل على استمتاعي. مثل الملك المنفي الذي طرد من وطنه ولكنه نجح في أن يتسلل عائدا إلى مدينته وهو يتجوّل في شوارعها متنكرا في زيّ إنسان عاديّ. قد يحدث أن يتعرّف عليّ أحد المواطنين المندهشين فجأة فينحني ساجدا أمامي ويناديني بجلالة الملك، في الطابور للصعود إلى الحافلة أو بين عامة الناس في الميدان ولكنّي أتجاهل الانحناءة واللقب. لا أعطي أيّ إشارة. ربما اخترت أن أسلك على هذا النحو لأنّ أمّي علمتني بأنّ الملوك والوزراء الحقيقيين يعرفون بكونهم يستهينون ظاهريا بألقابهم ويعرفون جيدا بأنّ سمو مكانتهم يفرض عليهم التصرّف مع عامة الناس ببساطة شعبية، وبتواضع وكأنهم تماما مثل عامة الناس.

*

وليس كمجرد واحد من عامّة الناس فحسب بل كإنسان مريح يحرص على أن يتصرف دائماً بدماثة وأن يلبي طلبات مواطنيه: هل تُراهما، على ما يبدو، يستمتعان بأن يلبّساني ملابسي وحذائي؟ إذن فليتفضلا: وأنا أقدم إليهما، بفرح تام، أطرافي الأربعة. بعد فترة زمنية معينة يغيران ذوقهما فجأة؟ من الآن يستمتعان أكثر بأن ألبس أنا بنفسي ملابسي وحذائي بدون الاستعانة بهما؟ وبسرور كبير أدُسّ نفسي بقواي الذاتية داخل ملابسي مستمتعا بمشاهدة فرحتهما المتألقة، أخطئ أحياناً في التزرير واطلب منهما بحلاوة بأن يساعداني على ربط رباط الحذاء.

وهما يتنافسان فيما بينهما على من يحظى بالركوع عند قدميّ الملك الصغير وربط رباط حذائه، لأنه اعتاد أن يكافئ مواطنيه بعناق. لا يوجد في العالم ولد مثله يجيد تقديم الشكر لهما على خدماتهما، بنبل ووقار وأدب. حتى أنّه، ذات مرّة، وعد والديه (اللذين نظر كلّ منهما إلى الآخر بنظرات مُبطَّنة من شدة الاعتزاز والسّعادة، وهما يلاطفانني مبتهجين بصمت)، بأنه عندما يحين الوقت، عندما سيكونان عجوزين هرمين جدّاً مثل الجار لامْبِرْج سيأتي إليهما ليربط وليزرر لهما. مقابل كلّ هذه الأعمال الحسنة الّتي يقدمانها له.

يستمتعان بتمشيطي بفرشاة الشعر؟ أو أن يشرحا لي كيف يتحرك القمر؟

أن يعلماني العدّ حتى بالمئة؟ أن يلبّساني جارزة فوق جارزة؟ وحتى أن يجرّعاني كلّ يوم ملعقة من زيت السمك المثير للاشمئزاز؟ بسرور شديد أدعهما يفعلان بي كما يحلو لهما وأن يستمتعا بي بكل طريقة تخطر ببالهما، ومن جهتي فأنا أستمتع بالمتعة الدائمة الّتي يسببها وجودي لهما. زيت السمك على سبيل المثال، يثير اشمئزازي وبصعوبة فائقة أتمالك نفسي حتى لا اتقيأ حليب أمّي حتى قبل أن تلامس شفتاي السائل الكريه، ولكن وبالذات من أجل ذلك اشعر بالارتياح عندما اتجاهل هذا القرف وأبلع ملعقة زيت السمك دفعة واحدة وحتى أتقدم إليهما بالشكر على أنهما يحرصان على أن أكبر سليما معافى وأصبح قويا. ومع ذلك - أن استوعب مستمتعا دهشتهما: لقد أصبح واضحا وضوح الشمس أن هذا الولد ليس ولدا عاديا! إنّ هذا الولد ولد خاصّ جدّاً!

وهكذا يتحول في نظري اللقب «ولد عاديّ» إلى أسفل درجات التحقير والمهانة: من المفضل أن تكبر وتصبح كلب شارع، من المفضل أن تكون صاحب عاهة أو معاقا عقليا، من المفضل حتى أن تكون بنتا، ولكن، ألا تكون، لا سمح الله، بأيّ حال من الأحوال، «ولدا عاديا» مثل الجميع بل أن تبقى دائماً ومهما كلف الأمر، «مميزا جدّاً جدّاً!» أو «ولداً غير عاديّ فعلا!».

*

بما أنه لا يوجد لي أخ أو أخت وبما أنه منذ فجر طفولتي مثّل والداي بإدمان كهذا دور جمهور المعجبين، لم يبق أمامي إلا أن أصعد إلى المنصّة، وأن احتلّها وحدي طولا وعرضا وأن أسحر جمهوري الواسع. وهكذا، منذ سنّ ثلاث أو أربع سنوات إن لم يكن قبل ذلك، كنت أنا مونودراما. عرض دائم لا يتوقف. نجم منصات وحيد ملزم طوال الوقت بأن يرتجل وأن يجذب وأن يهيّج وأن يُدهش وأن يُسلّي جمهوره دون توقّف. من الصباح وحتى المساء كان عليه أن يلعب دور البطل. ها نحن صباح يوم السبت في طريقنا إلى زيارة بيت مالا وسْتاشيك رودْنيتْسْكي الواقع في شارع تشنسلور عند زاوية شارع «هَنْفيئيم» (الأنبياء). في الطريق يذكرانني أنه عليّ أن لا أنسى أبداً، ولا في أيّ حال من الأحوال، أن للعم ستاشيك وللعمة مالا لا يوجد أولاد

بالمرة، وهما حزينان جدّاً لأنه لا يوجد لهما أولاد بالمرة، ولذلك عليّ أن أحاول أن أبعث السرور والبهجة في قلبيهما، ولكن إيّاي ثمّ إيّاي أن يخطر ببالي، لا سمح الله، أن أسأل، على سبيل المثال، متى، أخيرا، سيكون لكما طفل؟ وعامة، أن أتصرف بشكل مثالي: لأنه لهذين العمّين توجد فكرة جيدة عني، فكرة جيدة جدّاً جدّاً، ولذلك عليّ ألا أفعل شيئا، ألا أفعل شيئا بكل ما تعنيه هذه الكلمات يمكن أن يشوّه فكرتهما الحسنة عني.

صحيح أنه للعمّة مالا وللعم ستاشيك لا يوجد أولاد، ولكن، بالمقابل، يوجد عندهما قطا أنغورا ذوا فروة سميكة وكثيفة، كسولان وسمينان جدّاً، زرقاوا العينين يدعيان شوبين وَشوبِنْهاوَر، على اسم الموسيقار وعلى اسم الفيلسوف (وهنا، ونحن ما زلنا نصعد المرتفع الشديد في شارع تشنسلور، قدما لي شرحين موجزين: عن شوبين من قبل أمّي وَعن شوبِنْهاوَر من قبل أبي. كلّ شرح من الشروحات كان تقريبا بحجم تعريف موجز لمادة في معجم). هذان القطان يناmان معظم الوقت وهما ملتصقان ببعضهما على طرف الكنبة أو على مخدة جلوس تسمّى «بوف» وكأنهما دُبّان قطبيان وليسا قطّين. وفي القفص المعلق في الزاوية فوق البيانو الأسود كانت تعيش عند عائلة رودْنيتْسيكي عصفورة عجوز هرمة صلعاء تقريبا، عصفورة مريضة قليلا وعوراء. منقارها مفتوح نصف فتحة بشكل دائم وكأنها تعاني من الظمأ. أحياناً كانت مالا وستاشيك يسميان هذه العصفورة باسم «عالمه» وأحيانا كانا يسميانها باسم «ميرابل». ولكي لا تبقى وحيدة ولكي يؤنسا وحدتها ادخلا إلى قفصها عصفورة أخرى، عصفورة صنعتها العَمَّة مالا من كوز صنوبر ملوّن تقف على رجلين من العيدان ولها منقار مصنوع من عود أسنان باللون الأحمر الغامق. لهذه العصفورة الجديدة الصقا جناحين من ريش حقيقي: ربما كانت تلك الريشات مما تساقط من جناحَي «عالمه - ميرابل» وتم دهنها باللون الفيروزيّ واللون الأُرْجُوَانيّ.

*

العم ستاشيك يجلس ويدخن. أحد حاجبيه، الأيسر، مرتفع دائما كمن يشكّ، أو كمن يرسل إليك بغمزة تقول: هل الأمر حقا كذلك؟ ألم تبالغ؟

كما أن إحدى أسنانه القواطع ناقصة، وكأنه أحد صعاليك الشوارع المضروبين. أمّي لا تتكلّم تقريبا. العمة مالا، امرأة شقراء شعرها مجموع في جديلتين أحياناً تهبطان برفق وحلاوة على كتفيها وأحياناً يطوّقان رأسها مثل الإكليل، تقدّم لوالديّ فنجان شاي مع كعكة تفاح. وهي تقشّر حبات تفاح بملفّ واحد كامل يتلوى حول نفسه مثل سلك سماعة التلفون. كلاهما حلما بان يكونا مزارعين. عاشا سنتين أو ثلاثا في كيبوتس، وسنة أخرى أو سنتين جرّبا حظّهما في مستوطنة عمالية حتى تبيّن لهما أن العمة مالا تعاني من حساسية من غالبية نباتات الحقل بينما العم ستاشيك حساس من الشمس نفسها (أو، بلغته، الشمس بحد ذاتها لديها حساسة منه). وعليه فإنّ العمّ ستاشيك يعمل كموظّف في البريد المركزي، بينما تعمل العَمَّة مالا في الأيام الفردية من الأسبوع مساعدة لطبيب أسنان مشهور. حين تقدّم لنا فنجان الشاي كان أبي يضحك ويمزح معها، كعادته دائما:

«لقد سبق وقال الرّابي هونا في التلمود: كل ما يقوله ربُّ البيت افعله- باستثناء أُخرُجْ، وأنا أقول - باستثناء الشاي! ولكن بما أن التقديم جاء ليس من ربّ البيت بل من ربّة البيت، فمعاذ الله، أن نرفضه، بالطبع!» وعن كعكة التفاح قال: «كعكاتك يا مالا يا مالا/ تسمو ثانية أعلى وأعلى!»

تقترح أمي:

«آريه. كفى.»

أما بالنسبة لي- إن أكلت حتى النهاية، مثل ولد كبير، قطعة سميكة من الكعكة- فقد حضرت لي العَمّة مالا مفاجأة كبيرة: كازوزا من صناعة بيتية. صحيح أن هذا الكازوز قليل الفقاعات (قنينة الصودا عندهم يبدو أنها عوقبت من السماء لأنها كانت تقف حاسرة الرأس)، إلا أن هذا الكازوز البيتي كان غنيا بعصير الفاكهة المركّز الأحمر، ولذلك كان حلوا حلوا جدّاً مثل الرحيق.

أنا أنهي بأدب جمّ كعكة التفاح (لم تكن سيئة بالمرة) احرص كل الحرص على أن أمضغ بفم مغلَق جيداً، وأحرص على أن استعمل الشوكة فقط وألا أوسّخ أصابعي، يقظا متنبها لخطر البقع وخطر الفتات وخطر الفم الممتلئ أكثر من اللازم، أحمّل كل قطعة صغيرة من الكعكة على أسنان

الشوكة ثم أحلّق بها في الهواء بحذر شديد كمن يأخذ بالحسبان وجود طائرات للعدو في الجو يمكن أن تقوم بإسقاط حمولتي وهي في طريقها من الصحن إلى فمي، أمضغ طعاما شهيّاً، بفم مغلق، ثم ابتلع برفق دون أن ألعق شفتيّ. اثناء ذلك كنت أحظى وأُقلّد نفسي في مقدمة بزة الطيران نظرات الاعجاب من عائلة رودْنيتْسيكّي واعتزاز وافتخار والديّ بي. وبالفعل فقد حظيت في النهاية بالجائزة الكبرى الموعودة: كأس كازوز من إنتاج بيتيّ، قليل الفقاعات ولكنه غنيّ جدّاً جدّاً بالرحيق.

غنيّ إلى حدّ كبير جدّاً جدّاً بالرحيق حتى أنه عمليا وبشكل مطلق لا يمكن شرب رشفة واحدة منه، ولا حتى نقطة واحدة منه، ولا بأي شكل من الأشكال. طعمه تتقزّز منه النفس حتى أكثر من طعم قهوة أمّي المتبّلة بالفلفل: مثير للاشمئزاز، لزج، يشبه طعمه طعم دواء القحّة المكثف.

وعليه أقوم بتقريب كأس الأحزان من فمي، أتظاهر بأنّني أبلل شفتيّ، ولكنني أسارع في التأكيد للعمة مالا الّتي تعلّق نظرها بي - مع الجمهور الذي ينتظر ما سأتفوّه به- (بنغمة وبكلمات تشبه نغمة وكلمات أبي) بأنّ منتجي كعكة التفاح وشراب الرحيق كليهما «في الحقيقة ممتازان جدّاً».

اتقدت وتوهجت العَمَّة مالا:

«يوجد المزيد، يوجد المزيد، سأقوم في الحال لأسكب لك كأساً أخرى! لقد حضّرت إبريقا كاملا!»

أبي وأمّي من جهتهما ينظران إليّ بنظرات حب خرساء. بأذني خيالي استطيع أن أسمع صوت ضجيج هتافهما وبخاصرتَي مخيلتي أنحني انحناءة كبيرة أمام جمهوري.

*

ولكن ما العمل الآن؟ قبل كلّ شيء ولكي أكسب الوقت، عليّ أن أصرف انتباههم. عليّ أن أسمعهم فكرة عبقرية لامعة صغيرة، شيئا عميقا لا يتلاءم مع سنّي، شيئا يثير إعجابهم:

«كلّ شيء يكون لذيذا في الحياة من الأفضل أن نتناوله بجرعات صغيرة.»

بشكل خاصّ أفادني، كما في كلّ الحالات، استعمال كلمة «في الحياة»: للمرة الثانية البثيا كاهنة دَلفي تقول كلمتها. ذلك المرجع والحُجّة نطق. الصوت الصافي والبريء القادم من الطبيعة بجلالته وعظمته هو الذي صدر من حنجرتي: أن تشربوا حياتكم بجرعات صغيرة. بجرعات معتدلة ومدروسة.

وهكذا، بواسطة جملة واحدة حماسية- عاطفية نجحت في أن أصرف انتباههم حتى يشعروا بأنّني لم أشرب بعد دبق النجارين خاصتهم. مؤقتا، وهم ما يزالون في نشوتهم بقيت كأس القرف موضوعة على الأرض بجانبي لأنه من اللائق شرب الحياة بجرعات صغيرة.

أما بالنسبة لي، فقد كنت غارقا في أفكار عابرة، مرفقي على ركبتي وكفي تحت ذقني: أمثّل لهم بدقة متناهية تمثال شخصية الابن الأصغر للإنسان المفكر الذي أطلعاني على صورته في أحد الألبومات أو إحدى الموسوعات. بعد لحظة أو لحظتين سيصرفون نظرهم عني: إما لأنه ليس من اللائق أن تحدق عيونهم بي في الوقت الذي تحوم فيها روحي في عوالم عليا، وإما لأنّ ضيوفا جددا انضموا إلينا وقد احتدم النقاش وكان يدور حول المهاجرين غير الشرعيين وعن ضبط النفس وعن المندوب السامي.

وهكذا استغللت بسرعة الفرصة الّتي سنحت، وتسللت دون أن ينتبه إليّ أحد مع كأس السم بيدي إلى غرفة المدخل وقرّبتها من أنف أحد توأمَي الأنغورا الموسيقي أو الفيلسوف. شمّ هذا الدبّ القطبيّ السمين، اشمأزّ قليلا، فتح وأغمض عينيه بسرعة، كمن شعر بالإهانة، وهو حقا يستغرب من تصرفي، يهزّ قليلا طرفي شاربه، لا، شكراً، لا، ولا بأي شكل من الأشكال، ثمّ تراجع ضجرا منسحبا باتجاه باب المطبخ. أما بالنسبة لأخيه، المخلوق السمين، فهو لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه عندما عرضت عليه الشراب. وراح يركض مقطّبا أنفه قليلا، ولسان حاله يقول لي: أحقّاً؟! ويحرك باتجاهي أذنا متوردة واحدة. كمن يطرد عنه ذبابة.

من الممكن، مثلا، أن أسكب إكسير الحياة هذا في وعاء الماء الذي في قفص «عالمه- ميرابل»، العصفورة العمياء والصلعاء وزميلها كوز الصنوبر ذي

الجناحين؟ اوازن بيني وبين نفسي الحسنات والسيئات: من المحتمل أن يشي بي كوز الصنوبر، في حين أن أصيص نبتة الفيلودندرون لن ينبس ببنت شفة ولن يسلمني حتى وإن حققوا معه تحقيقا تعذيبيا قاسيا. لذلك يقع اختياري على الأصيص وليس على زوج العصافير (اللذين هما أيضاً مثل العَمَّة مالا والعم ستاشيك محرومان من الخلف، وهما أيضاً يحظر سؤالهما بأي شكل من الأشكال متى سيضعان البيض أخيرا).

بعد وقت ما تلاحظ العَمَّة مالا كأسي الفارغة: فوراً يتضح أنني جعلتها فعلا سعيدة حقّاً، إذ استمتعت بالشراب الذي حضرته. ابتسمت لها، مثل البالغين، وكذلك بالنغمة الّتي يستعملها البالغون عند سماع هذا السؤال: «شكراً العَمَّة مالا، شكراً جزيلا لك لقد كان ذلك، بكل بساطة، رائعا جدّاً.» أما هي فبدون أن تسأل وبدون أن تنتظر موافقتي تسارع إلى ملء كأسي من جديد وتذكّرني بأن أتذكر بأن هذه ليست الكأس الأخيرة، فقد حضرت إبريقا كاملا. لعل كازوزها ليس فوّارا كما ينبغي ولكنه حلو مثل الشوكولاطة، أليس كذلك؟

وأنا من جهتي أعود وأكرّر شكري وانتظر ثانية أن تسنح لي الفرصة ثمّ أعود وأتسلّل دون أن يراني أحد، مثل مقاتل التنظيمات السريّة وهو في طريقه إلى أجهزة الرادار المحصّنة التابعة لحكومة الانتداب البريطاني، وأسمّم لهما نبتة الصبّار الموجودة في الأصيص الثاني.

ولكن في تلك اللحظة بالذات يُساورني نوع من الإغراء الماكر وكأنه عطسة لا يمكن حبسها أو مثل ضحكة همجية تنفجر بها فجأة داخل الصف، نوع من الرغبة الفجائية بالاعتراف: أن أقف وأعلن بصوت عال بأن كازوزهم نتن جدّاً حتى أنّ القطتين والعصفورين اشمأزّوا منه، وبأنّني أخذته وسكبته كله في الأصيصَين وأنّ ما في الأصيصين يشرف على الموت.

وأن أعاقب وأن أتحمّل العقاب مثل البطل وبدون ندم.

بالطبع لن أقوم بذلك: إذ أن رغبتي في أن أثير إعجابهم أقوى بكثير من الرغبة في أن أفزِعهم. أنا مثل حكمائنا رحمهم الله ولست جنكيز خان.

*

في طريق العودة إلى بيتنا نظرت أمّي إلى عينيّ وقالت مبتسمة ابتسامة الشريك للسرّ:

«لا يخطرنّ ببالك أنني لم أرَ، أنا بالذات رأيت كلّ شيء.»

وأنا، البريء والمجتنب لكلّ سوء، لكن قلبي المجرم يرتعد ويرتجف داخل صدري مثل أرنب مذعور:

رأيتِ كلّ شيء؟ ماذا رأيتِ؟

«رأيت أنك شعرتَ بالملل والسأم كثيرا ولكنك نجحت في التغلب على نفسك الأمر الذي أسعدني.»

قال أبي:

«حقاً، لقد تصرّف الولد اليوم بشكل رائع، ولكنه مقابل ذلك أخذ أجره بسخاء كبير، فقد حصل على كعكة وكأسين من الكازوز الذي لا نشتريه له مع أنه يطلب ذلك دائماً، إذ من يدري إذا كانت الكؤوس الّتي في الكشك نظيفة حقا؟ أم أنها نظيفة ظاهريّاً؟»

أمّي:

«أنا لست متأكدة تماما بأن هذا المشروب كان حقا لذيذا جدّاً بالنسبة إليك، ولكنني انتبهت إلى أنّك من أجل عدم إهانة العَمَّة مالا شربته حتى الثمالة ونحن فخوران بك.»

«أمّك»، قال أبي، «تعلم خفايا القلوب، أي أنها تعرف للتّو ليس فقط ما صرحت به وما قمت به بل ما خطر ببالك وما تضمره في قلبك، أي الشيء الذي لا يعلمه أحد. ولكن ليس الأمر دائماً بهذه السهولة أن تحيا ليل نهار مع أناس يعلمون خفايا القلوب.»

«وعندما عرضت عليك العَمَّة مالا كأساً أخرى من شراب الكازوز لفت انتباهي أنّك شكرتها وعدت وشربت الكأس الثانية كلها أيضاً لكي تسعدها. بودي أن تعلم أنه ليس الكثير من الأولاد من أترابك وبشكل عام قلائل هم أبناء البشر الذين يستطيعون أن يكونوا بمثل هذه الدماثة والرقة،»

في تلك اللحظة كدت اعترف بأنه ليس أنا بل أصيصا عائلة روديتسكي

هما اللذان يمكنهما أن يكونا بمثل هذه الرقة والدماثة، وأنهما هما اللذان شربا هذه الشحمة حتى الثمالة.

ولكن كيف يمكنني أن أنزع أوسمة الشرف الكثيرة الّتي علّقتها أمّي على صدري من فورها، وألقي بها تحت قدمَيها؟ كيف يمكنني أن أسيء إلى والديّ بدون أيّ ذنب اقترفاه؟ فقد تعلمت قبل لحظة من أمّي أنه إذا خيِّرت بين أن أكذب وبين أن أهين، من المفضل أن لا اختار الحقيقة بل الرقة والدّماثة. بين أن أسبب السعادة وبين أن أقول الحقيقة بين أن أسبب الألم وبين ألا أكذب، يجب أن أفضّل دائماً السخاء على العدل والاستقامة. وبقيامك بذلك أنت ترفع من قيمة نفسك عاليا فوق العامّة المتعبة والمُرهقة كما تحصل على الوسام الأجمل منهم جميعا: ولد خاصّ جدّاً، ولد غير عاديّ فعلا.

أبي كعادته لخّص لنا كلّ شيء وشرحه باتّزان وتروٍّ:

«كلمة «حسوخ» في التعبير «حسوخ بنيم» (محروم من الأولاد) هي فعلا ذات صلة بكلمة «حشوخ» (بالشين بمعنى مظلم) وربما كان معناها الأصلي انعدام، عدم وجود الأبناء أو الضوء. إضافة إلى ذلك فإنّ «حوسخ» (بالسين) و«حوسخ» (بالسامخ) هما كلمتان متماثلتان تقريبا: جاء في سفر الأمثال «من يمنع عصاه يمقت ابنه» وأنا شخصيا موافق تماما مع هذا القول. وبالمناسبة كلمة «حوشخ» في الآرامية هي «حشوخا» وبالعربية «غَسَق» ولكن بالعربية حدث تبديل للأحرف فهناك الفعل سحك أو سحكك. بل يقال عن ظلمة الليل بالعربية اسحنكك الليل، ولعل هذا يفسح المجال للتفكير في الصلة المحتملة، وهي صلة مثيرة، بين «حشخ» (أظلم) وَ«شخح» (نسي) وبين «حشيخه» (ظلمة) وَ «شخحه» (نسيان). أما فيما يتعلق بكازوزك فإنّ هذه الكلمة جاءت مباشرة من اللغة الفرنسية. أما «إِتْسطِرُبّال» (كوز الصنوبر) فما هي إلا تحريف من عصر «المشناة» للكلمة اليونانية «سْتروبيلوس» الّتي معناها كعكة أو خُذْروف. وهذا «السّتروبيلوس» مشتق من «الستروبوس» الذي معناه في اليونانية يدور ومن هذا «الستروبوس» جاءت كلمة «ستروفه» بمعنى مقطوعة وكذلك كلمة «كَتَسْتروفه» الّتي معناها دحرجة، تحوّل، انقلاب،

انقلب عليه الحظ أيّ ساءت أحواله. شاهدت أول أمس سيارة شحن صغيرة انقلبت وهي مسافرة في طلعة جبل المشارف، أصيب المسافرون بجروح وعجلات السيارة بقيت تدور في الهواء، أي «ستروبوس» وكذلك «كتستروفه» في آن واحد. فور وصولنا إلى البيت ليتفضل جنابه بجمع جميع ألعابه الّتي بقيت قبل خروجنا مقلوبة على الحصيرة وأن يضع كلّ شيء في مكانه.»

٣٦

كلّ ما لم يحصلا عليه في حياتهما، وكل ما لم يُعطَ لهما، حملني إياه والداي على كتفيّ. في سنة ١٩٥٠ مع غروب شمس ذلك اليوم الذي تعارفا فيه عن طريق الصدفة على درجات عمارة التيراسانطة، عاد حانه وميخائيل[١] والتقيا في مقهى «عطراه» الواقع في شارع بن يهودا في القدس. حانه تشجع ميخائيل المرتبك لكي يحدّثها عن نفسه ولكنّ ميخائيل بدلا من ذلك يحدّثها عن أبيه الأرمل:

إنه يبنى آمالا كبيرة جدّاً، وهو غير مستعد لأنّ يعترف بأن ابنه فتى متوسط. على سبيل المثال، الوظائف والتمارين الّتي يحلّها ميخائيل في إطار دراسة الجيولوجيا اعتاد والده أن يقرأها بتوجّس شديد وأن يثني عليه بكلمات ثابتة: «هذه وظيفة علمية، وظيفة محكمة جدّاً.» رغبة أبيه هي أن يصبح ميخائيل بروفيسورا في القدس لأنّ المرحوم جده لأبيه كان معلما للعلوم الطبيعية في معهد إعداد المعلمين العبري في غرودنو، كان معلما قديرا وفاضلا. يعتقد والد ميخائيل أنه من الجميل أن تستمر المسيرة من جيل إلى جيل. أنا قلت [هكذا تروي حانه]:

«العائلة ليست سباق مواصلات والمهنة ليست شعلة.»

قال ميخائيل:

---

(١) بطلا رواية «ميخائيلي» لعاموس عوز (المترجم).

«لكنني لا استطيع أن أقول ذلك لوالدي لأنه شخص حساس وهو يستعمل التعابير العبرية كما استعملت ذات مرة أواني السرفيس الثمينة القابلة للكسر. . .»[1]

لم ييأس والدي لسنوات طويلة من الأمل بأن توضع على كتفيه، مهما طال الزمن، عباءة العمّ يوسف، بل لعله يحظى بتوريثها لي عندما يحين دوري، هذا إذا سرت على طريق العائلة وأصبحت متعلما أيضاً. أما إذا حدث وقفزت العباءة عنه نظراً لغلبة السعي وراء لقمة العيش، وهو أمر يقيّده طوال الوقت إلى العمل الوظيفي المكتبي المملّ ولا يبقي له وقتا يكرسه لأبحاثه إلا في منتصف الليل، فقد يحظى بها ابنه الوحيد؟

أمّي، هكذا خيّل لي، أرادت أن أكبر وأن أعبر بدلا عنها عما لم تستطع هي التعبير عنه.

*

في السنوات الّتي تلت ذلك كانا يذكرانني مرارا وتكرارا، يذكرانني بسخرية ممزوجة بالرضا المخفي جيدا، يذكرانني بحضور جميع ضيوفهم، أمام عائلات زَارْجِي ورودْنيتْسيكي وَحَناني وَبارْ- يِتْسْهارِ وَأبْرامِسْكِي، كانا يستمتعان دائماً بأن يذكّراني كيف أنني حين كنت ابن خمس سنوات فقط، ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة من تعلمي الأحرف، كتبت بخط مربع على بطاقة لأبي الإعلان التالي: «عاموس كلاوْزْنِر كاتب»، ولصقتها بدبوس على باب غرفتي الصغيرة.

قبل أن أتعلّم القراءة كنت قد تعلمت كيف يحضرون الكتب: كنت أتسلل وأقف على رؤوس أصابع قدميّ أختلس النظر من وراء ظهر أبي الذي كان منكبّاً على مكتبه، كتفاه منحنيتان ورأسه المتعب بدا وكأنه يعوم في دائرة الضوء الأصفر الذي صدر عن مصباح طاولته ويشقّ طريقه رُوَيداً رُوَيداً

(١) «ميخائيلي» إصدار دار النشر «عام عوفيد»، تل أبيب ١٩٦٨ أو إصدار دار النشر «كيتر»، القدس ١٩٩٠، ص:٩ (المؤلف). صدرت هذه الرواية بالعربية عام ١٩٩٤ في مصر تحت عنوان «حانه وميخائيل» (المترجم).

وبجهد كبير في منحدر الوادي شديد الانحدار الذي تعرّج هناك وسط طاولة المكتب، بين تلَّيْن من الكتب المتراكمة أمامه، يمشي ويجمع، ينحني ويقطف ويفحص جيدا على ضوء المصباح وينتقي ويصنّف وينسخ على بطاقات صغيرة المعلومة تلو المعلومة من جميع أنواع الكتب الكبيرة المفتوحة والمكدّسة أمامه، ويدوّن ويدخل بحذر ومسؤولية المعلومات المناسبة، كلّ معلومة في المكان الملائم لها كمن ينظم اللؤلؤ المنثور في العقد المنظوم.

عمليّاً، أنا أعمل تقريبا مثله، أعمل مثل ساعاتيّ أو صائغ من الرعيل السابق. إحدى العينين منكمشة مغمضة وعلى العين الأخرى تم تركيب ما يشبه الأسطوانة، عَدَسَة ساعاتيّ مُكَبِّرَة، وملقط دقيق بين الأصابع، أمامي على الطاولة لا توجد بطاقات بل الكثير من قصاصات الورق الصغيرة التي سجلت عليها كلمات مختلفة، وأفعالا، ونعوتا وظروفا. وكذلك أكواما من أجزاء الجملة المفكّكة، وشظايا تعابير وأجزاء أوصاف ونعوتا وأنواعا مختلفة من محاولات لبناء تراكيب. بين الحين والآخر كنت أمسك وأرفع بحذر شديد بين ذراعي الملقط الدقيقتين إحدى هذه الجزيئات الصغيرة من النص، أرفعها واتفحصها جيدا أمام الضوء، أديرها إلى هذه الجهة وإلى تلك، أنحني وأبرد أو أصقل قليلا ثم أعود وأرفع وأعود وأفحص أمام الضوء أبرد قليلا بسمك الشعرة ثم أعود وأنحني وأرصّع بلطف الكلمة أو التركيب في مكانهما من النسيج. ثم أتباطأ. أنظر إلى ذلك من أعلى إلى أسفل ومن الجانب وبرأس مائل قليلا، أو مستقيم أو معكوس. وما زلت غير راض تماما، أعود فأخرج الجزيء الذي رصّعته قبل لحظة محاولا أن أضع مكانه كلمة ثانية، أو أن أضع الكلمة السابقة داخل فجوة ثانية من نفس الجملة، ثم أخرجها وأعود إلى شذبها وتمليسها مرة أخرى. ثم احاول تثبيت الكلمة التي اخترتها من جديد ربما بزاوية مختلفة قليلا؟ أو بتوزيع مختلف قليلا؟ ربما في منحدر الجملة؟ أو ربما في بداية الجملة التي تليها؟ أو ربما من المفضل أن أقوم بعملية فصل وان اعمل هنا جملة مستقلة مكونة من كلمة واحدة فقط؟

أنهض. أدور في الغرفة. أعود إلى الطاولة. أتمعّن ذلك لعدة لحظات أو أكثر، أمحو الجملة كلها أو أنتزع الورقة وأغضّنها ثم أمزّقها إرباً إرَباً. أفقد

الأمل. أشتم نفسي بصوت عال وألعن الكتابة وكذلك اللغة مثلما هي، ومع ذلك أعاود الكرة وأبدأ صياغة الكلّ من جديد.

كتابة رواية، قلت ذات مرة، مثلها مثل تركيب سلسلة جبال أدوم من مكعبات ليغو. أو مثل أن أبني باريس بكاملها بكلّ عماراتها ومبانيها ميادينها وشوارعها وأبراجها وأحيائها حتى آخر مقعد من مقاعد الشوارع فيها من علب كبريت كاملة وأنصاف علب ملصّقة ببعضها.

لكي تكتب رواية مؤلفة من ثمانين ألف كلمة عليك أن تقرر في الطريق حوالي ربع مليون قرار: وهي قرارات لا تتعلّق بتسلسل الحبكة فقط، من يعيش ومن يموت، من يحبّ ومن يخون، من يغنى أو يفقد وعيه، وماذا ستكون أسماء الشخصيات وأشكالها وملامحها، وكيف ستكون عاداتها وأشغالها، وكيف تقسّم إلى فصول، وما اسم الكتاب (هذه هي القرارات البسيطة، القرارات الأكثر ثخناً)؛ ليس متى تحكي ومتى تخفي وما الذي يُقدّم وما الذي يُؤخّر وما الذي تكشفه بالتفصيل وما الذي تشير إليه بالتلميح (هذه أيضاً هي قرارات ثخينة جدّاً)، ليس هذا فحسب بل عليك في الأساس أن تقرر عشرات الآلاف من القرارات الدقيقة مثل، على سبيل المثال، أن تكتب هناك، في الجملة الثالثة قبيل نهاية تلك الفقرة، أن تكتب أزرق أو أزرق فاتح؟ أو ربما سماويّ؟ أو أزرق سماويّ؟ أو ربما سماوي فاتح؟ أو في الواقع أزرق- رمادي؟ وهذا السماوي- الرمادي هل تضعه في بداية الجملة؟ أو من الأفضل أن يبزغ في نهاية الجملة فقط؟ أو في وسطها؟ أو أنه جملة قصيرة قائمة بحد ذاتها؟ نقطة قبله ونقطة وسطر جديد بعده؟ أو لا، أو من المفضل، بالذات، أن ينجرف هذا الأزرق الفاتح مع التيار الجارف لجملة ملتوية ومعقدة، متعددة التراكيب ومليئة بالجمل الصغيرة الثانوية الّتي لها محل من الإعراب؟ وربما أن الأفضل هو أن تكتب هناك ببساطة الكلمتين «ضوء المساء» وألا تلوّن ضوء المساء هذا بأي لون رمادي - أزرق ولا بأي لون سماوي مغبّر؟

*

منذ بداية طفولتي كنت، في الواقع، ضحية غسيل دماغ واسع ومتواصل: هيكل الكتب الذي للعمّ يوسف في «تَلْبِيوت»، خزانة الكتب

الصغيرة والمكتظة الّتي كانت لوالدي في بيتنا في حي «كيرم أفراهام»، ملجأ الكتب الذي لأمّي، قصائد جدّي ألِكْسَنْدِر، صفّ الروايات الّتي ألّفها جارنا السّيّد زارحي، البطاقات وتلاعب الألفاظ الّتي كانت لأبي، وكذلك العناق الفوّاح لشاؤول تْشرْنِيحوفْسْكي وزبيب السّيّد عجنون الذي يلقي حوله عدة ظلال في آنٍ واحد.

لكن الحقيقة هي أنّني، في الواقع، تنكّرتُ تماما، في التنظيم السريّ للبطاقة الّتي ثبّتها بدبوس على الباب: طوال عدة سنوات لم أكفّ عن الحلم خفيةً بأن أكبر وأترك في أحد الأيام كلّ متاهات الكتب هذه واذهب لكي أصبح إِطْفائِيّاً: النار والماء والبزة والبطولة والخوذة الفضية اللامعة، عويل الصفارة واستغراب الفتيات ووميض مصابيح الطوارئ، ذعر الشارع كله، متعة الحركة السريعة الّتي تشبه ضربة السيف لسيارة الإطفائية الحمراء الّتي تقطع العالم إلى نصفين في حين يفزع صفيرها الكارثيّ قلوب الجميع، وهي ما زالت تنهب الشارع تزمجر وتصفّر، يحيط بها الرعب والهلع، تترك خلفها سلسلة من ارتعاد الفرائص وتوقّف القلوب عن الخفقان بين كلّ المارة الغادين والرائحين في الشارع.

أضف إلى ذلك السلالم والأنابيب الّتي تُستخرج من مكانها وتطوّل وتتمدّد شيئاً فشيئاً، تماما حتى أقصى حدود التمدّد. وانعكاس ألسنة النار المتوهجة مثل الدم المسفوح وهي تنعكس على المسطحات المعدنية للاطفائيات الحمراء. وأخيرا - ذروة ذلك كله- الصبية أو المرأة المحمولة مغمى عليها بين ذراعي منقذها مخلّصها الذي لا يعرف الخوف: لحظات التضحية والمغامرة والمخاطرة بالنفس والروح، لحظات سفع الجلد واحتراق الرموش والشعر، جحيم من الدخان الخانق. وبعد ذلك مباشرة- التمجيد والتقريظ وأنهار وجداول الحب الدامع من نساء تنفطر قلوبهن إعجابا بك وامتنانا لك وبالذات أجملهن تلك الّتي ببسالتك وشدة بأسك وبذراعيك أنقذتها من ألسنة النار.

*

ولكن من كانت تلك الّتي في تخيلاتي طوال معظم سنوات فتوّتي كنت

أنقذها المرة تلو المرة من قلب أتون النار ثمّ أحظى مقابل ذلك بحبها؟ ربما ما كان يجب أن اسأل هذا السؤال على هذا النحو بل على النحو التالي: أيّ تنبّؤ مفزع، لا يُصدّق، جاء ولمّح لذلك القلب، القلب المغرور لذلك الولد الغبي الأحمق كثير الهذيان، لمّح دون أن يكشف له حتى النهاية، أشار دون أن يمنح أيّ احتمال لأن يحلّل مسبقاً التلميحات المبطّنة لما كان سيحدث ذات ليلة شتاء لأمّه؟

إذ منذ سنّ خمس سنوات كنت أهذي وأرى نفسي المرة تلو المرة في شخصية إطفائيّ شجاع وجريء إلى أبعد الحدود، إطفائيّ بارد الأعصاب، بهيّ بفخامة البزة والخوذة، ينطلق وحيدا مصمما إلى قلب ألسنة النار المستعرة، يحمل روحه على كفّه، يخلّصها، وهي فاقدة الوعي، من الحريق (في حين أن والدها الهزيل يقف مكتوف اليدين مشدوها، مغلوبا على أمره، عاجزا عن فعل أيّ شيء يتطلع على النار بفزع).

وهكذا، وهو ما زال يجسّد في مخيلته خلاصة رجولة الرجل العبري الجديد المطبوعة بالنار (بالضبط كما خطط له والده)، انقضّ وأنقذ حياتها، وبإنقاذه لحياتها ينزع أمّه بشكل مطلق ونهائي من سلطة أبيه ويضعها تحت حمايته ويكتنفها تحت جناحيه.

ولكن بأي خيوط سوداء كان بإمكاني أن أنسج هذه الهلوسة الأوديبية الّتي لم تفارقني طوال عدة سنوات؟ هل من الممكن أنّه، مثل رائحة دخان بعيد، تغلغلت تلك المرأة أيضاً، إيرينا، إيرا إلى داخل فانتازيا- الإطفائي- وناجيتي؟ إيرا سْتيلايْتْسكايا؟ تلك زوجة المهندس من روفْنو الّتي كان زوجها يخسرها كلّ ليلة في القمار؟ إيرا سْتيلايْتْسكايا المسكينة الّتي عشقت أنطون ابن الحوذيّ وخسرت أولادها وقامت ذات مرة وسكبت على نفسها صفيحة كاز وأحرقت نفسها بالقرب من سقيفتها المكسوّة بورق الزفتة؟ ولكن هذا كله حدث قبل حوالي خمس عشرة سنة قبل ولادتي؟ وحدث في بلاد لم أرها مطلقاً؟ وبكل تأكيد أمّي لم تصب بالجنون لكي تحكي مثل هذه القصة المفزعة لولد ابن أربع أو خمس سنوات؟

*

عندما لم يكن والدي في البيت، وفي الوقت الذي كنت أجلس فيه بجانب طاولة المطبخ «أنقي» العدس وكانت أمّي تقف وظهرها إليّ ووجهها باتجاه رخام المطبخ تقشّر الخضراوات أو تعصر البرتقال تكوّر كرات لحم، كانت أمّي تحكي لي قصصا متنوعة وغريبة ومفزعة في بعض الأحيان أيضاً. ربما كان مثلي تماما «بير الصغير»، الابن اليتيم ليون حفيد راسموس جينْت، يجلس طيلة الأمسيات الطويلة مع أوزي أمّه الأرملة الفقيرة وحيدين في سقيفتهما الجبلية في الليالي العاصفة والمثلجة، وكان يستوعب ويذوت قصصها الغامضة شبه الجنونية عن قصر سوريا- موريا الواقع خلف الفيورد، وعن اختطاف العروسة، وعن «الترولات»[1] في مملكة الجبل وعن بنات الغولة الخضر، وعن صاهر الأزرار وعن الأشباح وأيضاً عن بويْج المرعب.

المطبخ نفسه كان ضيّقاً ومنخفضا مثل الزنزانة، أرضيته غائرة، حيطانه قاتمة بسبب البريموس والطبّاخات ذات الفتلة. بجانب هذه الطباخات تم وضع علبتي كبريت: الأولى علبة كبريت جديدة والأخرى خُصّصت للعيدان المستعملة والتي استعملت، بهدف التوفير، لنقل الشعلة من طباخ إلى آخر أو من أحد الطباخات إلى البريموس.

كانت قصص أمّي غريبة، مخيفة ولكنها تستهوي القلوب، مليئة بالمغاور والأبراج، بالقرى المهجورة وبالجسور المبتورة من الوسط فوق الهاوية. لم تكن قصصها شبيهة بالقصص الّتي حُكِيَت في البيوت الأخرى في تلك الأيام. لم تكن قصصها شبيهة بقصص غيرها من البالغين. ولا تشبه القصص الّتي حكيتها أنا لأولادي ولا الّتي أحكيها الآن لأحفادي. قصص أمّي كانت تتحرك في دائرة، وكأن الغموض يكتنفها: لم تبدأ من البداية ولم تنتهِ نهاية سعيدة بل ومضت في قلب الإبهام ودارت حول نفسها تُطلّ للحظة من بين الضباب، مدهشة، يقشعّر لها البدن ثمّ تختفي في العتمة مرة أخرى قبل أن تستطيع أن ترى ماذا في الواقع مرّ من أمام ناظريك. هكذا كانت قصص أمّي عن العجوز الهرم جدّاً «اللّوييف»، وعلى هذا النحو كانت قصة الزوجة

---

(١) مخلوقات خرافية تسكن الكهوف في الميثولوجيا الاسكندنافية (المترجم).

تنيتشكا وأزواجها الثلاثة الأخوة الحدادين الذين قتل كلّ واحد منهم أخاه، وهكذا كانت قصتها عن الدّبّ الذي تبنّى ولدا ميتا، عن عفريت المغاور الذي أحبّ امرأة حارس الغابة، وعن روح نيكيتا الحوذيّ الّتي عادت من بين الأموات لكي تسحر وتفتن بنت القاتل.

كانت قصصها مليئة دائماً بتوت العلّيق وبثمار بريّة أخرى، توت برّي، كشمش، كمأة، وفُطر والحَرْشَف البري. دون أن تأخذ بعين الاعتبار سني المبكّرة كانت أمّي تأخذني إلى أماكن لم تطأها قدم طفل تقريبا، وفي الطريق كانت تبسط أمامي محفّة لغة رائعة، وكأنّها حملتني بين ذراعيها ورفعتني عاليا عاليا وكشفت أمام ناظريّ الكثير جدّاً من الكلمات المهيّجة: حقولها كانت حقولا مغمورة بالشمس أو مشبعة بالطلّ، الغابة عندها كانت غابة عذراء لم تعبث بها يد البشر أو غابة كثيفة ومتشابكة، أشجار الغابة علت وارتفعت، المراعي أينعت واخضرّت، الجبل، جبل قديم، كان يتسامى، القصور والقلاع كانت تنتشر وأبراج القلاع كانت تلوح من بعيد، السهول كانت ترقد في مربضها، والمروج كانت تسميها وديان وفي الوديان تدفقت عندها بلا انقطاع أنهار وجداول وروافد وعيون وغدران وينابيع مياه.

*

عاشت أمّي في عزلة، حبيسة معظم الوقت في المنزل. باستثناء صديقاتها ليلِيْنكا وَإستيركا وَفانْيا فايسمن اللواتي جئن إلى القدس من المدرسة الثانوية «تَرْبوت» الّتي في روفْنو، لم تجد أمّي في القدس أيّ طعم أو أيّ شيء يثير اهتمامها: فهي لم تحبّ الأماكن المقدسة ولا مختلف المواقع الأثرية المشهورة. الكُنُس ومعاهد تعليم التوراة والكنائس والأديرة والمساجد بدت لها كلها متشابهة جدّاً، ومتعبة، تفوح منها روائح جسم منتنة لرجال متزمّتين يغتسلون على فترات متباعدة جدّاً. وحتى تحت غيمة ثقيلة من البخور كان أنفها الحسّاس يلتقط باشمئزاز أبخرة البدن غير المغسول.

أبي أيضاً لم يستلطف الدين: كهنة جميع الديانات كانوا في نظره مشبوهين إلى حد ما، جاهلين جهولين، ينمّون كراهيات قديمة، ينشرون الرّعب، يزيفون المواعظ الكاذبة ويذرفون دموع التماسيح، يتاجرون بأدوات

مقدّسة مزيّفة وأثريّات مشبوهة وفي أشكال مختلفة من المعتقدات الفارغة والأحكام الّتي أكل عليها الدهر وشرب. لذلك كان «كلّ رجال الدين» الذين يكسبون لقمة عيشهم من الدين متّهمين في نظره بنوع من الخديعة والغش المشروع. اعتاد أن يستشهد بجذَل بهاينريش هاينه الذي قال عن الرابي والخوري بأنهما مُنْتنان (بحسب رواية أبي المُلطَّفة: «لأيّ منهما لا توجد رائحة طيبة! ولا، بالتأكيد، للمفتي المسلم الحاج أمين حبيب النازيين!»). بالمقابل، آمن والدي أحياناً بالعناية الضبابية لشيء سماه «وزير الأمة» أو «صخرة إسرائيل»، وبعجائب «العبقرية اليهودية المبدعة»، كما أنه وضع ثقته في قوى الإنقاذ والبعث الّتي ينطوي عليها الفن من حيث هو: «. . .كهنة الجمال وريشة الفنانين،» كان يستشهد منفعلا من أبيات مجموعة السونتات لتْشرنِيحوفْسْكي - «كهنة الجمال وريشة الفنانين/ المتحكّمين في الشعر وأسرار روعته/ ينقذون العالم بالأغاني والألحان»! كان يؤمن بأن الفنانين هم خير من بقية أبناء البشر، فهم ذوو رؤية جيدة، وقلوب مستقيمة طاهرة من كلّ درن. كيف يمكن لبعضهم، على الرغم من كلّ ذلك، أن ينخدعوا وينجرّوا وراء ستالين، وحتى وراء هتلر، هذا الأمر أشغل باله وأحزنه. بين الحين والآخر كان يناقش نفسه حول هذا الموضوع: الفنانون الذين فُتنوا بسحر الطغاة وتجنّدوا لخدمة الاضطهاد وخدمة الشرّ، ما عادوا جديرين في نظره بلقب «كهنة الجمال». أحياناً كان يحاول أن يشرح لنفسه بأن الشيطان، كما في «فاوست»، اشترى منهم أرواحهم.

الجذل الصهيوني لبناة الأحياء الجديدة، ومنقذي الأراضي ومعبّدي الشوارع، كان يبعث في والدي نشوة خفيفة، ولكنه لم يترك أثرا على أمّي. كانت تتنازل عن الجريدة بشكل عام بعد تصفّح خاطف للعناوين. لم ترَ في السياسة إلا المصائب. حديث القيل والقال كان يبعث فيها الملل والسأم. عندما كان يزورنا ضيوف أو عندما كنا نذهب نحن لتناول كأس شاي عند العمّ يوسف والعَمَّة تسيبورا في تَلْبِيوت أو عند عائلة زارْحِي، أو أبْرَمِسْكِي، أو روذْنيتْسيكي، أو في بيت السيّد عجنون، أو عند عائلة حَناني أو عند حنّة وحاييم تورِن، كانت أمّي قليلا ما تشارك في الحديث. صحيح أنه بمجرد

وجودها كانت تدفع الرجال إلى أن يتكلّموا ويتكلّموا بكل قوتهم في حين كانت هي صامتة تنظر إليهم بابتسامة خفيفة، كمن تحاول أن تحلّل خلال جدالهم لماذا، في الواقع، يتمسّك السّيّد زارحي بالذات بهذا الرأي، والسّيّد حناني بالذات بالرأي المناقض تماماً؟ هل حقا كان النقاش سيتغيّر شيئا ما لو تبادل السّيّد زارحي والسّيّد حناني المواقف فيما بينهما، لو أنهما التزما منذ هذه اللحظة بأن يدافع كلّ منهما بحماس عن رأي الآخر وأن يهاجم كلّ منهما بكل قوته رأيه السابق؟

*

الملابس والأغراض وتسريحات الشعر والأثاث أثارت اهتمام أمّي فقط مثل الفتحات الّتي كانت عبرها تطل على داخليّة البشر: في كلّ بيت كنا ندخله، وكذلك في غرف الانتظار في المكاتب، كانت أمّي تجلس دائماً منتصبة الظّهر مستقيمة الركبتين في زاوية الغرفة، تكتّف ذراعَيها على صدرها مثل طالبة مطيعة منضبطة في مدرسة داخلية قديمة لبنات طبقة النبلاء، وكانت تجلس تتأمل جيدا، بدون تسرّع، الستائر وموادّ التنجيد، والصوَر الّتي على الحائط، والكتب، والأدوات المنزلية، وتحف الزينة الّتي على الرفّ؛ مثلها مثل البوليس السرّيّ الذي يجمّع بشكل متواصل تفاصيل مختلفة إذا أضيفت إلى بعضها يمكن أن تؤدي إلى تسليم المجرم إلى العدالة.

أسرار الناس الآخرين أغرتها وجذبتها، ولكن ليس على مستوى القيل والقال- من يشتهي من، ومن تصاحب من، ومن اشترى كذا- بل كمن تعمل جاهدةً، بلا توقّف، على وضع حجارة الفسيفساء في مكانها الصحيح في لوحة معقّدة، أو على حلّ لغز تركيبي كثير الأجزاء. كانت تنصت متأهبةً إلى الحديث، ومع ذلك، وبينما كانت ابتسامتها الخفيفة، المتسامحة، ترتسم، دون انتباه، على شفتيها، كانت تنظر طوال الوقت إلى المتحدّث أو المتحدّثة، تنظر إلى شفاههم وإلى حركة أسارير وجوههم وإلى ما تفعل الرّاحتان، وما يقوله الجسم وماذا يحاول أن يخفي، وإلى أين تتجول العينان، متى تتغير قليلا طريقة جلوسهم، وإذا كانت القدمان هادئتين أم عصبيّتين داخل الحذاء؟ وهي نفسها لم تشارك في الحديث إلا بالقليل وإلا ما ندر.

ولكن إذا تخلّت عن صمتها وقالت جملة أو جملتين، في معظم الحالات ما كان الحديث يعود بعد أقوال أمّي إلى ما كان عليه قبل أقوالها.

أو ربما ليس كذا بل كذا: في الحديث في تلك الأيام خُصص للنساء،في معظم الحالات، دور جمهور المستمعات. إذا حدث وفتحت إحدى النساء فمها وقالت فجأة جملة أو جملتين كانت تثير بذلك نوعا من الاستغراب.

هنا وهناك أعطت أمّي دروسا خصوصية. في بعض الأحيان كانت تذهب لسماع محاضرة في جبل المشارف أو لحضور قراءات أدبية في قاعة «بيت هَعام» (بيت الشعب). أما معظم وقتها فقد كانت في البيت. لم تكن تجلس بل تعمل عملا شاقا، عملت بصمت ونجاعة. لم أسمعها، ولا مرة، تدندن أو تتمتم بينها وبين نفسها وهي تقوم بأعمال المنزل. كانت تطبخ وتخبز وتغسل وتقوم بالمشتريات باعتدال، تكوي وتنظّف وترتّب وتطوي الغسيل وتجلي الأواني وتقطّع الخضراوات وتعجن العجين. ولكن بعد أن تكون قد رتبت البيت ترتيبا كاملا متقنا ونظّفت جميع الأواني في المطبخ وطوت الغسيل النظيف ورتبته بزاوية قائمة على رفوف الخزائن، عندها كانت أمّي تنكمش في زاويتها وتقرأ. مرتخية، تتنفّس ببطء ورقة، كانت تجلس على الأريكة وتقرأ. كفتا قدميها الحافيتان مطويتان ومجموعتان تحت فخذها وتقرأ. منحنية كلها باتّجاه الكتاب الموضوع على ركبتيها وتقرأ. ظهرها مستدير عنقها منحنٍ كتفاها مرتخيان، كلّ جسمها يشبه نصف هلال، وتقرأ. وجهها شبه المخفي بستار شعرها الأسود منحنٍ على الصفحة، وتقرأ.

كانت تقرأ كلّ مساء، في الوقت الذي كنت ألعب فيه في الساحة وأبي يجلس إلى طاولته يؤلّف أبحاثه على بطاقاته المكتظّة، كما أنها كانت تقرأ بعد وجبة العشاء وتنظيف الأواني، وكانت تقرأ أيضاً عندما كنت أجلس مع أبي أمام رف الكتابة في مكتبته رأسي مائل يكاد يلامس قليلا كتفه، نصنّف الطوابع البريدية ونلصقها في الألبوم حسب تصنيفها، وكانت تقرأ بعد أن أدخل فراشي وبعد أن يعود أبي ليملأ بطاقاته. وكانت تقرأ بعد أن تغلق الأباجورات وتنقلب الأريكة على ظهرها وتكشف عن سرير الزوجية المخبّأ

داخلها، وكانت تواصل القراءة حتى بعد أن يُطفأ ضوء السقف ويزيل أبي نظارته ويدير لها ظهره وينام نوم الأشخاص الذين يحبون الخير الواثقين كلّ الثقة بأنه سيكون الحال أفضل عما قريب، وكانت تتابع القراءة: كانت تعاني من أرق أخذ يسوء يوما بعد يوم، حتى أنها في السنة الأخيرة من حياتها زارت أطباء مختلفين كي يصفوا لها أقراصاً قوية بالإضافة إلى أشربة ومحاليل مجرّبة للنوم، وقد أوصوْا براحة كاملة لمدة أسبوعين في بنسيون في صفد أو في دار نقاهة تابعة لصندوق المرضى في أرزا الّتي بالقرب من موتسا.

لهذا الغرض اقترض أبي عدة ليرات من والديه، وتعهد بأن يعتني وحده بالولد والبيت، وفعلا سافرت أمّي وحدها للاستراحة في بنسيون في أرزا. ولكنها، هناك أيضاً، لم تتوقّف عن القراءة بل على العكس، كانت تقرأ طوال النهار والليل تقريبا. منذ ساعات الصباح جلست هناك على كرسي استراحة في غابة الصنوبر الّتي على سفح الجبل وقرأت، وفي المساء كانت تقرأ على الشرفة المُضاءة في حين كان بقية النزلاء والمستجمون الآخرون يرقصون أو يلعبون الورق أو يشتركون في فعّاليات متنوعة. وفي الليالي، ولكيلا تزعج زميلتها في الغرفة، كانت تنزل بهدوء إلى القاعة الصغيرة الّتي بجانب المكتب وتجلس هناك على زاوية المقعد وتقرأ بصمت معظم ساعات الليل: قرأت موباسان، وَتشيخوف، قرأت تولستوي، وَغْنيسين، وَبلزاك، وَفْلوبير، وَديكِنْز، وَشَميسو، وَتوماس مان، وَإيفاشكيفيتش، وَكنوت هامسون، وَكلايست، وَمورافيا، وَهيرمان هيسّيه، وَمورياك، وَعجنون، وَتورْجِينْييف، وكذلك سومرست موم، وَستيفان تسفيج وكذلك أندريه مورْوا، ما كانت طوال فترة نقاهتها ترفع رأسها عن كتبها. وعندما عادت إلينا إلى القدس بدا عليها الإرهاق والشحوب، بقع سوداء ظهرت تحت عينيها وكأنها قضت كلّ الليالي في هرج ومرج وعبث ومجون. عندما طلبنا منها أنا ووالدي أن تحكي لنا كيف استمتعت بالعطلة ابتسمت وأجابتنا: «لم أفكّر في هذا.»

*

ذات مرة عندما كنت ابن سبع أو ثماني سنوات قالت لي أمّي عندما جلست وإيّاها على المقعد قبل الأخير في حافلة شركة «هَمِكَشّير» في طريقنا

إلى عيادة أو إلى محل أحذية أطفال بأنه صحيح حقاً أن الكتب يمكن أن تتغيّر بمرور السنين ليس أقلّ من تغيّر الأشخاص بمرور الوقت، ولكن الفرق هو أنّ الأشخاص جميعهم تقريبا يتركونك وحيدا لنفسك في نهاية الأمر، عندما يحين اليوم الذي فيه لا يحصلون منك على أيّ فائدة أو متعة أو مصلحة أو على الأقلّ على إحساس طيب، بينما الكتب لا تتركك. أنت بلا شك تتركها أحياناً، وقسم منها تتركه بكل تأكيد لسنوات طويلة أو إلى الأبد. لكنّ الكتب نفسها، حتى وإن خنتها، فلن تقلب لك ظهر المجن: فهي بصمت كامل وبتواضع جم تنتظرك على الرف. ولو طال انتظارها عقودا من السنوات فلن تشكو. حتى إذا كنت، فجأة، ذات ليلة، بحاجة إلى أحدها، ولو في الساعة الثالثة صباحا، ولو كان ذلك كتابا تركته مهملا وكدت تمحوه من قلبك سنوات طويلة، فلن يخيّب ظنك بل ينزل من الرف ويأتيك ليكون معك في أحلك الأوقات. لا يحاسبك ولا يعاتبك ولا يبحث عن مبررات وحجج ولا يسأل نفسه إذا كان ذلك من مصلحته وإذا كنت تستحقّ ذلك وإذا كنت ما تزال تليق به، بل يأتيك فوراً عندما تطلب منه أن يحضر. وهو لن يخونك إلى الأبد.

> عندما بلغت بلوما سنّ التعليم كان والدها يُجلسها على ركبتيه ويقرأ معها في الكتب. اعتاد حاييم ناخط أن يقول: اعلمي، يا بنيتي، بأنّني لا أورثك الغنى والأملاك ولكنني أعلمك قراءة الكتب.
> عندما تظلم الدنيا في وجه الإنسان يقرأ كتابا فيرى عالما آخر. كان من السهل تعليم بلوما. قبل أن تحسن معرفة الحروف بشكل جيد كانت قد قرأت الأساطير والقصص والمسرحيات.(١)

ما اسم أول كتاب قرأته بقواي الذاتية ؟ أي الكتاب الذي قرأه لي أبي

---

(١) شاي عجنون، «قصة بسيطة»، وردت في مجلد «على أكف القفل»، المجلد الثالث من الأعمال الكاملة لشاي عجنون، إصدار دار النشر شوكِن، القدس وتل أبيب ١٩٦٠، ص ٧١. (المؤلف)

قبل النوم مرات عديدة حتى أنني في نهاية الأمر حفظته، على ما يظهر، عن ظهر قلب، كلمة كلمة، وفي إحدى المرات عندما لم يستطع والدي أن يحكي لي القصة، أخذت معي ذلك الكتاب إلى السرير وألقيت الكتاب كله على نفسي من أول كلمة إلى آخر كلمة، أتظاهر بأنّني أقرأ، أمثل دور أبي، انتقل من صفحة إلى أخرى بالضبط بين تينك الكلمتين اللتين كان أبي كلّ ليلة يقلب الصفحة بالضبط بينهما.

في اليوم التالي طلبت من والدي أن يضع إصبعه حيث يقرأ، وتابعت جيدا جدّاً حركة إصبعه وهو يقرأ، وهكذا خلال خمس أو ستّ مرات حتى أنني بعد عدة أيام أصبحت قادرا على تشخيص كلّ كلمة بناء على شكلها وبناء على مكانها في السطر (كما تُشخّص الرسوم على ظهر حجارة لعبة «الدومينو» المرسومة حتى عندما يختلف ترتيبها).

وعندها حان الوقت لكي أُدهش كليهما كثيرا: ذات مرة في صبيحة يوم السبت، دخلت إلى المطبخ وكنت ما زلت ألبس البيجاما، وبدون مقدّمات فتحت الكتاب على الطاولة بينهما في الوسط، إصبعي تسير قدامي وتشير إلى الكلمات الواحدة تلو الأخرى وأنا أتذكر وأشخّص كلّ كلمة وأقرأ الكلمة بمجرد وصول إصبعي إليها. ووالداي اللذان انفعلا واهتاجا لشدة فخرهما واعتزازهما وقعا في الفخّ، إذ لم يخطر ببالهما مبلغ الخديعة وكانا مقتنعَين تماما بأن ابنهما الخاصّ والمتميّز حقّاً نجح بقواه الذاتية أن يتعلّم القراءة.

وحقا لقد علّمت نفسي: لقد اكتشفت، على سبيل المثال، أن كلمة דוב (دبّ) يُرى فيها (من اليمين إلى اليسار) وتد ومسمار ومغارة. وأن סוס (حصان) يحمل خُرْجاً ممتلئاً تدلّى على جانبي سرجه. أما كلمة גן (حديقة) فهي عبارة عن رجل ذهب ليتنزّه ولكنه وجد أمامه حائطا سدّ عليه الطريق، أما כתום (برتقالي) فهو عبارة عن ثلاثة أقفاص اثنان مفتوحان والأخير مغلق من جميع الجهات. بهذه الطريقة استطعت أن أقرأ بعض الأسطر أو حتى صفحات كاملة.

بعد مرور أسبوعين آخرين أو ثلاثة بدأت أتقرّب من الحروف نفسها وأتودّد إليها: اللام في كلمة דגל (عَلَم) بدت لي مثل العَلَم الذي يرفرف في

آخر كلمة «ديجِل». الشين في وسط كلمة קלשון (مذراة)، هي عمليا مذراة، مذراة حقيقية يمكن تحسّسها. אבא (بابا) وאמא (ماما) متشابهتان تقريبا في كلّ شيء إلا أنه توجد لكلمة بابا في الوسط فتحة واسعة وكأنها يداه اللتان يمدّهما إلى الأمام لكي يعانقني، بينما يوجد لكلمة ماما في الوسط ما يشبه الجرو الصغير الذي لا ذنب له ويجلس بأدب وينتظر.

*

الكتاب الأول الأول الذي أذكره ربما من المهد فعلا كان قصة مزينة بالصور عن دبّ كبير وسمين وراض جدّاً عن نفسه، دبّ كسول ويحبّ النوم، دبّ يشبه قليلا السّيّد أبرامسكي صاحبنا، دبّ يحب كثيرا جدّاً جدّاً أن يلعق، أن يلعق العسل بدون إذن، وفي الواقع لا يحب أن يلعق فحسب بل أن يبلع بنهم العسل بدون حساب. للكتاب كانت نهاية سيئة وحتى سيئة جدّاً وفقط بعد النهاية السيئة والسيّئة جدّاً كانت تأتي النهاية الجيّدة: تلسع هذا الدب الكسول والمحبّ للنوم الكثير من النحلات الغاضبة وإذا لم يكن هذا كافيا فقد عوقب على لعقه العسل بألم في أسنانه، في الرسم ظهر خدّه متورّما مثل تلة صغيرة وحول وجهه البائس جدّاً والذي يتمزق له قلبي الصغير حزناً وأسىً، ربطت ضمادة بيضاء انتهت بعقدة كبيرة على رأس الدبّ، الذي لم تعرف نفسه حداً تقف عنده، تماما بين أذنيه. والعبرة من هذه القصة كتبت هناك بحروف كبيرة وحمراء:

أكل العسل الكثير مضرّ!

في عالم والدي لم تكن هناك مصيبة أو ضائقة إلا وتنتهي بالخلاص: لليهود كانت أحوال سيئة ومريرة في المهجر؟ ولكن ها هي الدولة العبرية على وشك أن تقام وكل شيء سيتغيّر إلى الأحسن. ضاعت المبراة؟ غداة نشتري مبراة جديدة، أحسن من سابقتها. اليوم بطنك تؤلمك قليلا؟ حتى العرس سيشفى. والدبّ الملسوع والمتألم والمحزون، الدبّ الّذي تبدو عيناه بائستين حتى أنهما ملأتا عيني بالدموع؟ ولكن، ها هو على ظهر الصفحة كمن ولد من جديد، سعيد وبصحة جيدة ومنذ الآن أصبح مجتهدا ومثاليا يُقتدى به، لأنه استفاد واعتبر: فمع النحلات على سبيل المثال، عقد معاهدة

صلح لصالح الطرفين، بناء على أحد بنودها يحصل على حصة محدّدة من العسل، فعلا قدر محدود من العسل، يتناوله بضبط نفس، ولكن بشكل دائم وأبدي.

لذلك يظهر الدب في الصورة الأخيرة مبتهجا ودوداً لطيفا، يقوم ببناء بيت له، وكأنه بعد كلّ مغامراته الطائشة اختار هو أيضاً أن يصبح برجوازيّاً وبذلك ينضم في نهاية المطاف إلى صفوف الطبقة الوسطى. كان الدبّ في الصورة الأخيرة من الكتاب يشبه أبي وهو في حالة ابتهاج وسرور: يخيل إليّ أن الدبّ الوديع، سيقوم بعد لحظة، ويلقي علينا بيتا من الشعر أو تلاعب ألفاظ يعرف باسم «تَوْرية» أو أنه ربما لقبني (مازحا طبعا!) سمو معالي فخامته.

حقّاً كلّ ذلك كان مكتوبا هناك، على شكل سطر واحد ووحيد على الصفحة الأخيرة، وربما كان ذلك هو السّطر الأول في حياتي الذي قرأته ليس بحسب شكل الكلمات بل حرفا حرفا كما ينبغي ومن الآن فصاعدا كلّ حرف لم يعد صورة بل نغمة خاصّة به وحده:

الدبّ دبدوب جدّاً مسرور! الدبّ دبدوب مملوء بالسرور!

إلا أن الفرح تحوّل بعد أسبوع أو أسبوعين إلى نوبة شَرَه: لم يفلح والداي بكل قوتهما بإبعادي عن الكتب. من الصباح وحتى المساء وبعد ذلك أيضاً.

لست أنا بل هما اللذان دفعاني إلى أن أتعلّم وأقرأ هما اللذان أصبحا التلميذ المساعد للساحر: وأنا كنت الماء الذي لا يمكن وقف تدفقه. كما تغطي المياه البحر.[١] كنت أنا «التمثال من براغ».[٢] ولكن دون أن يكون هناك من يُخرج الورقة الّتي وضعت تحت لسانه: هيا، إذهبي فقط وشاهدي، ها هو ابنك قد جلس شبه عارٍ على المصطبة في وسط الممر وأخذ يقرأ.

---

(١) إشعيا ١١: ٩ (المترجم).

(٢) تمثال صنعه حاخام يهودي من براغ في القرن السادس عشر ونفخ فيه الحياة ليدرأ عن اليهود الأخطار (المترجم).

الولد مختبئ تحت الطاولة وهو يقرأ. الولد المجنون أغلق على نفسه الحمام وجلس يقرأ على كرسي المرحاض، هذا إذا لم يغطس ويغرق فيها بكتابه وفخذيه. الولد يتظاهر فقط بالنوم وفي الحقيقة انتظرحتى خرجت وبعد أن خرجت انتظر بضع لحظات ثمّ أشعل، دون إذن الضوء، وهو الآن على ما يبدو يجلس متكئاً بظهره على الباب لكيلا نستطيع أنت وأنا من الدخول، وخمّني ماذا يفعل هناك؟ الولد يقرأ الآن بسرعة وانسياب بدون تشكيل أيضاً. وعليه، الولد يدعي الآن بأنه ببساطة يجلس وينتظرني حتى انهي قراءة جزء من الجريدة. منذ الآن أصبح لدينا هنا في البيت قارئ صحف مميز آخر. هذا الولد لا ينهض طوال يوم السبت من سريره ربما باستثناء لقضاء حاجته. وحتى إلى هناك يأخذ معه الكتاب. منذ الصباح وحتى المساء يضطجع ويبتلع بنهم كلّ شيء، دون تمييز، قصص لآشير بَراش، ولشوفمَن، رواية لبيرل س. باك عن الصين، كتاب الأساطير ورحلات ماركو بولو، ومغامرات ماجلان وَدي غاما، مرشد للعجوز المصاب بالإِنْفلوَنْزَا، نشرة لجنة حي «بيت هكيرِم»، ملوك سلالة داود، يوميات أحداث سنة ١٩٢٩، كراسات عن الاستيطان القروي، أعداد من جريدة «دفار هبوعلت» (صوت العاملة)، عما قليل سيبدأ بابتلاع الغُلُف وشرب حبر الطباعة. نحن بكل تأكيد سنكون مجبرين على التدخل. يجب أن نضع حدا لذلك: إذ أن الأمر بدأ يتحوّل إلى غريب وحتى ربما مقلق نوعا ما.

٣٧

في العمارة الّتي في منحدر شارع «زخاريا» كانت أربع شقق. شقّة عائلة نَحْليئِيلي موجودة في الطابق الثاني، في الجهة الداخلية من العمارة. من شبابيكها يمكن مشاهدة ساحة خلفية مهملة، بعضها مُبلَّط وبعضها الآخر ينبت فيه في كلّ شتاء أنواع مختلفة من الأعشاب البرية المليئة بالحيوية والنشاط والتي تحوّلت مع رياح الصيف الخمسينية الأولى إلى شَرَك من الأشواك. كذلك يمكنك أن تجد في تلك الساحة حبال غسيل مرتخية، براميل زبالة، آثار موقد نار، صندوقاً قديماً، عريشة من الصاج وبقايا عريشة متهدمة، وسياجاً نباتياً متسلّقاً له أزهار زرقاء فاتحة تسمى زهرة الآلام.

الشقة نفسها كانت مؤلّفة من مطبخ، وحمّام، وممر مدخل، وغرفتين وثمانية أو تسعة قطط. في ساعات ما بعد الظهر استعملت الغرفة الأولى غرفة جلوس للمعلمة إيزابيلا وزوجها نَحْليئِيلي أمين الصندوق، في حين استعملت الغرفة الثانية الضيقة في الليل مخدعا للزوجين نَّحْليئيلي ولجميع أفراد جيش قططهما. في كلّ صباح كان الزوجان يستيقظان مبكّراً ويكوّمان جميع أثاثهما كومة واحدة مضغوطة في الممر، ومن الممر كانا يسحبان ويرتبان في كلّ غرفة من الغرفتين ثلاث أو أربع طاولات مدرسية صغيرة وثلاثة أو أربعة مقاعد يتسع كلّ منها لولدين.

وبذلك كانت شقتهما تتحوّل في كلّ يوم بين الثامنة صباحا وحتى الثانية عشرة ظهرا إلى مدرسة خصوصية بيتيّة اسمها «وطن الطفل».

كانت مدرسة «وطن الطفل» مؤلفة من صفين ومعلمتين، وبحسب ما

كان يمكن للشقة أن تستوعب فقد كان هناك ثمانية تلاميذ في الصف الأول وستة أطفال في الصفّ الثاني. المعلمة إيزابيلا نَحْليئيلي كانت هي صاحبة المدرسة كما أشغلت منصب مديرة المدرسة، وأمينة المستودع، والمحاسبة، ومركّزة المناهج التعليمية، وضابطة النظام، وممرضة المدرسة، وآذنة المدرسة، وعاملة نظافة تمسح أرضية الغرف، ومربية الصف الأول ومعلّمتنا في جميع المواضيع. كنا نحن نناديها «المعلمة إيزابيلا» (وكنّا نلفظ كلمة المعلمة مع إمالة الآخر ونمزجها مع الاسم لتصبح كلمة واحدة).

لقد كانت امرأة ضخمة في الأربعين من عمرها تقريبا، كثيرة الضجة، ضحوكة، ذات شامة مكسوّة بالشّعر تبدو كالصرصور التائه فوق شفتها العليا. سريعة الغضب، حسّاسة، ومع ذلك، حازمة وتزخر بدفء فظّ. كانت المعلمة إيزابيلا بفساتينها القطنية البسيطة والواسعة كثيرة الجيوب المزينة بدوائر بيضاء كبيرة تشبه خاطبة محنّكة من البلدة اليهودية، خاطبة بارعة سميكة الذراعين وحادة العينين تقيسك من الداخل ومن الخارج، بنظرة ثاقبة مع ثلاثة أو أربعة أسئلة ماكرة تبدو ساذجة. خلال لحظة أو لحظتين تحلّلك حتى النخاع، تتفحص وتستخلص صفاتك وماهيتك وتصل إلى أعمق أسرارك. وفيما هي تستعرض وتحدد معالمك جميعها بطريقتها الثاقبة كمن تكشّفت لها الحجب، تكون راحتاها الحمراوان، اللتان تبدوان بدون جلد، تفتّشان وتعبثان بعدم ارتياح بجيوبها الكثيرة. وكأنها ستُخرج للتو من أعماق أحد جيوبها زوجة جميلة تلائم جميع حاجاتك، أو فرشاة شعر، أو قنينة صغيرة مع قطرة أنف ضدّ الرّشح، أو على الأقلّ منديلا نظيفا تنتزع بواسطته القطعة الخضراء الّتي تعلّقت في طرف أنفك وقد تصلبت وجفّت بشكل مخزٍ.

*

المعلمة إيزابيلا كانت راعية قطط أيضاً: مجموعات من القطط المعجبة كانت تجري وراءها وبين رجليها حيثما اتجهت، تلتصق بأطراف فستانها، تزعجها في سيرها، تركلها برجليها ولكنها لا ترتدع، تكاد القطط تعرقلها لشدة تفانيها وإخلاصها. كانت القطط تتسلّق بمخالبها أطراف فستانها، قطط رمادية، بيضاء، مُبرقّعة، شقراء، مخطّطة، سوداء، ومُنقّطة، وكانت تجلس

على كتفيها العريضتين، أو تلفّ نفسها داخل سلّة كتبها، تحضن حذاءها، تتصارع فيما بينها في مواء يائس على حقّ الاستمتاع بحضنها. في كلّ درس من دروسها كان عدد القطط في الصف أكبر من عدد التلاميذ، وكلها كانت تصمت بخشية وإجلال عظيمين لكيلا تشوّش على سير الدّرس، كلها مدجّنة كالكلاب وكلها مربّية - مؤدّبة كمضيفات فندق من عائلات عريقة. على طاولتها، على ركبتيها، على فخذيها، على رُكَبنا الصّغيرة، على حقائبنا، على قاعدة الشباك، وعلى صندوق أدوات الرياضة البدنية والرسم والأشغال.

أحياناً كانت المعلمة إيزابيلا تنهرها أو تصدر لها الأوامر. وهي تلوّح بسبابتها كانت تهدد هذا أو ذاك من بينها بـ«شلع» أذنيه أو قطع ذنبه إذا لم يحسّن أخلاقه فوراً. القطط من جهتها كانت تخضع لها، فوراً، بدون شروط أو اعتراضات: «إخجل على نفسك يا زوروبابل!» كانت ترعد فجأة. على الفور كان المسكين يقوم وينسحب من بين الحَشْد الرابض على الحصيرة عند رجلي طاولة المعلمة ويمشي مطأطئ الرأس، خجلا، يكاد بطنه يلامس المصطبة، ذيله بين رجليه، أذناه مشدودتان إلى الوراء يتحسس طريقه بنفسه وهو موبخ إلى زاوية الغرفة. جميع العيون - عيون الأطفال وعيون القطط مَعاً - كانت ترمقه وترى مهانته وخزيه. إذ أن المتهم كان يبتعد زاحفا على بطنه إلى زاوية الغرفة، مهانا، محتقرا، معترفا بخسّته ودناءته، خجلا بخطيئته، نادما عليها ندما شديدا، ولعله بخنوعه وتذلّله يأمل حقّاً، حتى آخر لحظة، أن تحدث المعجزة وأن يحظى تكرما بالعفو الذي قد يأتيه إذا جاءه بعد يأس وقنوط.

من زاوية الغرفة كان المسكين يرسل إلينا نظرات وامضة حلوة ومثيرة للشّفقة، نظرة المذنب المليئة باسترحام متألّم من الأعماق، ولسان حاله يقول: أنا لست أهلا لذلك.

«يا ابن الشوارع!» كانت المعلمة إيزابيلا تقولها له بتعب أقرب إلى الاحتقار، وبعدها كانت تعفو عنه بإيماءة من يدها:

«حسنا، على كلّ حال، ارجع. ولكن تذكّر جيدا أنّك إذا عدت إلى ذلك ثانية -»

لم تكن تحتاج إلى إتمام هذه الجملة لأنّ المتهم الذي فاز بالعفو من «فوق» كان قد أخذ يتغندر ويمشي باتجاهها بخطوات متأنّقة وراقصة وكأنه يراودها، أو كمن أقسم أن يثير إعجابها هذه المرة إلى أقصى حد. يكاد لا يتمالك نفسه من فرط سعادته وفرحته، ذيله منتصب، وأذناه مائلتان إلى الأمام، يقفز محلقا باتجاهنا على أكفّه الرقيقة، لطيف يعرف جيدا سرّ قوّة لطافته ويستخدمها استخداما يسلب العقول، شواربه نظيفة ولامعة على أحسن وجه، فروته لامعة ومنتصبة قليلا وفي عينيه البراقتين يومض بريق ورع قِطَطيّ ماكر، كمن يغمزنا وهو ما زال يقسم بأنه من الآن فصاعدا لن يكونَ في كلّ العالم قط أكثر منه استقامة وورعا.

تربّت قطط المعلمة إيزابيلا على أن تعيش حياة بنّاءة، وفعلا كانت تلك القطط مفيدة: لقد علمتها أن تحضر لها قلما أو طبشورة أو زوج جوارب من الخزانة، أن تخرج من تحت الأثاث ملعقة صغيرة هاربة حاولت عبثا الاختباء هناك. وأن تقف على الشباك وتموء مواء ينبئ باقتراب شخص معروف من البيت ومواء إنذار إذا ظهر شخص غريب (كلّ هذه المعجزات لم نشاهدها بأم أعيننا ولكنّنا صدّقناها. وكنا نصدقها حتى لو قالت لنا بأن قططها كانت تحل الألغاز).

أما نَخْليئِيلي زوج المعلمة إيزابيلا صغير الجسم فلم نحظ برؤيته أبداً: غالبا ما ذهب نَخْليئِيلي إلى عمله قبل أن نحضر، وإذا حدث وتأخر في البيت فقد كان عليه أن يمكث في المطبخ وأن يقوم هناك بواجباته بصمت طوال ساعات التعليم. ولولا أنه سُمح لنا وله من «فوق» بالخروج أحياناً إلى المرحاض، لما كنا اكتشفنا إلى الأبد أن السّيّد نَخْليئِيلي ما هو إلا غيتسيل، ذلك الشاب، أمين الصندوق، الشاحب من بقالة الجمعية التعاونية. كان أصغر سنّاً من زوجته بعشرين سنة تقريبا: بسهولة كبيرة كان بإمكانهما، لو رغبا في ذلك، أن يسيرا جنبا إلى جنب في الشارع، وأن يعتبرا أُمّاً وابنها.

وفعلا حدث أن اضطر إلى استدعائها مرتين أو ثلاثا أثناء الدرس إمّا لأنّ كريات الكفتة احترقت معه وإمّا لأنّه سكب على نفسه مادة ساخنة تغلي. لم يناديها بإيزابيلا بل بأمّي كما تناديها بكل تأكيد جوقة قططها. أما هي فقد

كانت تنادي زوجها الصغير السنّ باسم مأخوذ من عالم العصافير: الفسفس أو الدُّوري أو الحسّون أو ربما البلبل. ولكن ليس «نَحْليئِيلي».[1]

*

على بعد نصف ساعة عن بيتنا حسب مشية ولد صغير كان هناك مدرستان ابتدائيتان، الأولى اشتراكية أكثر من اللازم والثانية متدينة أكثر من اللازم: «بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين على اسم بيرْل كاتسنيلسون» الواقع في شمال شارع «هطوريم» رفع على سقفه بجانب العلم القومي علمَ طبقة العمال الأحمر. هناك احتفلوا بالمسيرات والطقوس بأول أيار. المدير كان يسمّى «رفيق» إن كان من جهة الطلاب أو من جهة المعلمين. المربون ارتدوا بزّات صيفية: بنطلون خاكي قصير وانتعلوا صنادل بسيطة. في حديقة الخضراوات الّموجودة في الساحة تم تأهيل الطلاب لحياة زراعية وإلى تحقيق ذاتهم في الاستيطان العمّاليّ. في ورشات العمل تعلم الطلاب مِهنا إنتاجية مثل النجارة والحدادة والميكانيكا وحدادة البناء وكذلك شيئا غير واضح إلا أنه جذاب يسمى ميكانيكا دقيقة.

داخل الصفوف كان يسمح لطلاب بيت التربية والتعليم أن يجلسوا في أيّ مكان يختارونه وحتى ولد إلى جانب بنت. كلهم تقريبا لبسوا القميص الأزرق، المزيّن برباط أحمر أو أبيض. ارتدى الأولاد بنطلونا قصيرا مطويا حتى أصل الفخذ، أما بنطلونات البنات الّتي كانت هي أيضاً قصيرة جدّاً فقد شُدّت إلى أفخاذهن بشريط مطاطيّ. توجّه الطلاب إلى المعلمين فقط بأسمائهم الشّخصية، نَداف، إلْياخين، عِدْنه أو حَجيت (وكلها بالطبع بنبرة على آخر الكلمة). تعلموا هناك الحساب والموطن والأدب والتاريخ، وكذلك مواضيع مثل تاريخ الاستيطان والحركة العمّاليّة، أسس الاستيطان الزراعي التعاوني، مراحل في تطوّر الصراعات بين الطبقات. وكانوا ينشدون بصوت عال عددا من الأناشيد الطبقية بدءا من «الانترناتسيونال» وانتهاء بـ«كلنا

---

(١) «نَحْليئِيلي» هو اسم عبري لطائر صغير مغرّد طويل الذنَب يُسَمَّى بالعربية الذُّعَرَة أو هزّاز الذنب. (المترجم)

سنكون طلائعيين وطلائعيات» أو «قميص أزرق أفضل من أي حلية».

تم تدريس التوراة في بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين كسلسلة من المقالات التي تعالج مواضيع الساعة: الأنبياء يناضلون من أجل التقدم ومن أجل العدل ومن أجل رخاء الفقراء في حين يمثّل الملوك والكهنة كلّ مساوئ النظام الاجتماعي القائم. داود الشاب، راعي الغنم، كان فدائياً جريئاً في حركة التحرر القومي من نير الفلسطينيين، ولكن داود هذا نفسه تحوّل في شيخوخته إلى ملك كولونيالي- إمبريالي، يحتل الدول ويضطهد الشعوب وحتى يسلب الفقراء أموالهم ويستغل دون خجل عرق العمال.

على بعد أربع مئة متر من بيت التربية والتعليم الأحمر هذا، تماما في الشارع الموازي، كانت المدرسة التقليدية القومية «تَحْكِموني»، التي أسستها حركة «هَمِزْراحي»، وفيها تعلم فقط الأولاد الذكور الذين جلسوا في الصفوف وهم يعتمرون على رؤوسهم القبعات. كان معظمهم من أبناء الفقراء باستثناء عدد قليل من أبناء العائلات المقدسية السفاردية العريقة التي اندحرت جانبا بعد غزو الأشكناز المتعلمين وواسعي الاطّلاع. الطلاب هناك تمت مناداتهم بأسماء عائلاتهم فقط: بوزو، فاليرو، دَنون، كوردوبرو، سَراجوسْتي، ألْفاسي، أما المعلمون فتمت مناداتهم: السّيّد نايْمَن، السّيّد ألْكالْعي، السّيّد ميخائيلي، السّيّد آفيسار، السّيّد بِنْبينِشتي والسّيّد أوفير. أما المدير فنودي «حضرة المدير». كلّ صباح كان الدرس الأول هنا يبدأ بتبريكة الصباح «مُمْتَنٌ أنا»،[1] تليها دروس في أحد أسفار التوراة الخمسة مع تفسير الحاخام شلومو يتسحاقي. ودروس فيها يستظهر الطلاب الذين يضعون القبعة على رؤوسهم «فصول الآباء» وغيره من حكم كبار الحاخامات، ودروس في التوراة الشّفوية وهي تشمل الأساطير والفقه وتاريخ تطوّر الصلوات والتراتيل الدينية، وغيرها من الفرائض الدينية وأعمال الخير وفصولا من كتاب «شُلحان عروخ»،[2] ومن كتاب الأعياد والمناسبات وتاريخ الجاليات اليهودية وتاريخ

(١) تبريكة يقولها المتدين اليهودي بشكل عام عند نهوضه من النوم (المترجم).
(٢) كتاب فقه من تأليف يوسف كارو في القرن السادس عشر (المترجم).

حياة فقهاء اليهود على مر الأجيال وبعض الحكايات ذات المغزى والعبر الجيدة، وبعض الفتاوى والقليل من أشعار يهودا هليفي والقليل من أشعار بياليك، وبين هذه وتلك ظهرت بعض دروس النحو والحساب واللغة الإنجليزية والنشيد والتاريخ بالإضافة إلى إطلالة سريعة نحو ما يكتب في البلاد. المعلمون ارتدوا في فصل الصيف أيضاً الجاكيتات، وجناب المدير السّيّد إيلان كان يرتدي دائماً بدلة مؤلفة من ثلاثة أجزاء.

*

رغبت أمّي أن أتعلم منذ الصف الأول في بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين، إمّا لأنه لم يعجبها الفصل الديني المتزمت بين الأولاد والبنات وإما لأنّ مدرسة تَحْكِموني الهرمة بمبانيها الحجرية الثقيلة، والتي أقيمت في أيام الحكم التركي بدت لها مهجرية وقديمة ويخيم عليها الاكتئاب مقارنة مع بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين الذي تميز بنوافذ كبيرة، وصفوف مشرقة يغمرها الضياء، ومشاتل زراعية يانعة متفتحة، ومرح شبابي نابض كان يخيم عليه. ربما ذكّرها بيت التربية والتعليم ولو إلى حد ما بأيامها في المدرسة الثانوية «تَرْبوت» الّتي في روفْنو.

أما والدي فقد تحيّر غير قليل في هذا: كانت رغبته أن اذهب للتعلم مع أولاد البروفيسورات في «رِحافْيا» أو على الأقلّ مع أولاد الأطباء والمعلمين والموظفين الذي سكنوا حيّ «بيت-هَكيرِم»، إلا أن الوقت كان وقت اضطرابات وإطلاق نار و«رِحافْيا» و«بيت-هَكيرِم» كانتا تبعدان عن بيتنا في «كيرم أفراهام» مسافة حافلتين. تَحْكِموني كانت غريبة عن قلب والدي العَلماني- القومي وعن روحه النيّرة المتشكّكة. بيت التربية والتعليم بالمقابل كان في نظره نبعا عكرا لغرس مبادئ «مباي»- «مبام» ولغسيل دماغ «بروليتاري». لذلك لم يبقَ أمامه إلا أن يوازن بين هذا وذاك أي الخطر الأسود مقابل الخطر الأحمر وأن يختار في نهاية المطاف الأقلّ سوءا من بين الاثنين.

بعد تخبط غير بسيط مال رأي أبي، على خلاف رأي أمّي، إلى أن يبعث بي إلى تَحْكِموني: إذ إنه اعتقد بأنه لا مجال للخوف من أن يحولوني

إلى ولد متديّن لأنّ نهاية الدين على كلّ الأحوال قريبة، فالتقدم يسير حثيثا ليبعده ويحتل مكانه، وحتى لو افترضنا أنهم سينجحون هناك في أن يجعلوا مني لفترة قصيرة رجل دين صغير، فإنني سرعان ما سأخرج إلى الحياة وانفض عني هذا الغبار العتيق، أما المحافظة على الفرائض الدينية فستزول بالتأكيد عني دون أن تترك فيّ أيّ أثر، كما سيزول من العالم خلال سنوات قليلة المتدينون أنفسهم ومعهم كنُسهم أيضاً. وعما قريب لن يبقى منهم إلا ذكريات فولكلورية باهتة.

في حين انطوى بيت التربية والتعليم، بحسب رأي والدي، على خطر روحانيّ مفزع: إذ أن الموجة الحمراء تتعاظم في بلادنا، وهي في طريقها إلى إغراق العالم كله، ترسيخ الاشتراكية هو هاوية كلّ من يقع فيها لا يستطيع العودة. إذا أرسلنا إليهم الولد فهم خلال لحظات سيغسلون له دماغه ويشحنونه بكثير من ترهات ماركس وسرعان ما يحولونه إلى بُلْشُفِيّ، إلى جندي صغير في جيش ستالين، وينحدرون به إلى أحد كيبوتساتهم ومن هناك طريق العودة مغلق (أو كما قال أبي: «كل من دخل إليها لا يؤوب»[(1)]).

إلا أن الطريق من بيتنا إلى مدرسة تَحْكِموني والتي كانت تؤدي أيضاً إلى بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين، كانت تمر بالقرب من معسكر «شنلر». من نقاط المراقبة الّتي على أسوار معسكر «شنلر» والتي كانت مُحصّنة بأكياس رمل كان بعض الجنود البريطانيين العصبيّين أو ممن يكرهون اليهود أو ربما السكارى منهم يطلقون النار على المارة في الشارع. ذات مرة أطلقوا نيران رشاشاتهم وقتلوا حمار بائع الحليب، إذ خافوا أن تكون جرار الحليب مملوءة بالمتفجّرات، كما حدث في فندق الملك داود. كما حدث مرة أو مرتين أن دهس سائقون بريطانيون بعجلات جيباتهم المسرعة مُشاةً لم يسارعوا إلى إخلاء الطريق لهم.

كانت تلك الأيام الّتي أعقبت الحرب العالمية، أيام المنظمات السرية والأعمال الإرهابية، تفجير مقرات القيادات البريطانية، العبوّات الناسفة الّتي

---

(١) سفر الأمثال: ٢: ١٩ (المترجم).

زرعها رجال «الايتسل» في قبو فندق الملك داود، الهجومات على مقر المخابرات في شارع ماميلا وعلى معدات الجيش والشرطة.

وعليه، قرر والداي أن يؤجلا لمدة سنتين قرار الاختيار المحبط بين ظلمة العصور الوسطى وبين الشّرَك «الستاليني»، بين تَحْكِموني وبين بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين، وأن يرسلاني بشكل مؤقّت إلى الصف الأول والصف الثاني في «وطن الطفل» الذي تديره المعلمة السّيّدة إيزابيلا نَحْليئِيلي: أهم حسنات هذه المدرسة البيتية الغنية بالقطط كانت تكمن في أنها موجودة على بعد صَرخة من بيتنا: تخرج من الساحة وتتّجه يسارا تمرّ من أمام مدخل بيت عائلة لامْبِرْج ومن أمام بقالة السّيّد أوسْتِر، تقطع بحذر شارع «عاموس» من أمام شرفة بيت عائلة زَهافي، تمشي حوالي ثلاثين مترا في شارع «زخاريا» تقطعه بانتباه وحذر - وها قد وصلت: سياج من نباتات زهرة الآلام المتسلقة وقط أبيض- رمادي، القط الحارس المناوب يموء من الشباك مُعلناً عن وصولك. اثنتان وعشرون درجة وها أنت تعلق مَطَرَتَك على المشجب الذي في مدخل أصغر مدرسة في القدس، مدرسة من صفّين ومعلمتين وحوالي دزينة من الأولاد وتسعة قطط.

٣٨

بعد أن أنهيت الصف الأول انتقلت من السلطة الصاخبة للمعلمة إيزابيلا راعية القطط إلى الراحتين الباردتين والهادئتين للمعلمة زيلدا - معلمة الصف الثاني (هي أيضاً تلفظ مع إمالة، ولكن بدون أية قطط. وما يشبه النور الساطع السماوي- الرمادي يغمرها كلها ويشعّ ليجذبني فوراً إلى دوائره).

كانت المعلمة زيلدا تتحدث بصوت منخفض جدّاً، حتى أننا إذا أردنا أن نسمعها لم يكن كافيا أن نصمت بل كان من الضروري أيضاً أن ننحني إلى الأمام على طاولاتنا. ولذلك كنا نجلس دائماً منكبين على طاولاتنا، منذ الصباح وحتى الظهر، لأننا كنا نخشى أن نخسر كلمة مما قالته المعلمة زيلدا، لأنّ كلّ ما قالته المعلمة زيلدا كان جذابا وغير متوقَّع إلى حدٍّ ما. وكأننا تعلمنا عندها لغة جديدة، ليست بعيدة عن اللغة العبرية ومع ذلك مختلفة عنها ومؤثرة: فالجبال تسميها أحياناً الأطواد. والنجوم - أجرام السماء. والهاوية تسميها هاوية عظمى والأشجار تسميها شجيرات، مع أنها كانت في معظم الحالات تسمي كلّ شجرة باسمها. وإذا عبرتَ في الصف عن فكرة أعجبتها كانت المعلمة زيلدا تشير إليك بإصبعها وتقول هامسة: انظروا من فضلكم جميعا ها هنا يوجد ولد يغمره النور. وإذا غرقت إحدى البنات في أحلام اليقظة كانت المعلمة زيلدا تشرح لنا قائلة بأنه كما أن الإنسان ليس مذنبا فيما يصيبه من أرق كذلك يجب ألا نتهم نوعاه بما يصيبها أحياناً من أحلام اليقظة.

كلّ تهكم، أيّاً كان، كان بالنسبة للمعلمة زيلدا سمّاً. أما الكذبة فقد

سمتها سقطة أو انكسارة. أما الكسل فقد سمته رصاصاً، والقيل والقال - عيون جلدية. والكبرياء كانت بلغتها حارقة الأجنحة، أما التنازل، وحتى لو كان تنازلا بسيطا، مثل التنازل عن ممحاة أو عن دورك في توزيع أوراق الرسم على طلاب الصف، كلّ تنازل كان بلغتها شرارة. قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من عيد المساخر الذي كنا نعتبره أعزّ الأعياد قالت لنا المعلمة زيلدا فجأة: من المحتمل، في هذه السنة، أنه لن يكون هناك عيد مساخر. من المحتمل أن يطفئوه وهو في الطريق إلينا.

يطفئوه؟ يطفئوا العيد؟ ولكن كيف؟ لقد أصابنا هلع وفزع شديدان: ليس فقط خشية ضياع العيد، بل فزع أسود من تلك القوى الجبارة الخفيّة، القوى الّتي لم يحدثنا أحد، حتى اليوم، عن أمر وجودها، قوى تستطيع، إذا شاءت، أن تضيء أو أن تطفئ الأعياد، وكأنّ الأعياد ليست إلا عيدان ثقاب.

من جهتها لم تدخل المعلمة زيلدا في التفاصيل ولكنها لمحّت لنا تلميحا أن إطفاء أو إضاءة العيد متعلق في الأساس بها: فهي نفسها مرتبطة بتلك القوى الخفية الّتي تفرق بين العيد وغيره وبين يوم مبارك ويوم عاديّ. وعليه يحسن بنا، هكذا قلنا لبعضنا، بأننا إذا كنا لا نريد أن يُطفأ عيد المساخر، أن نبذل، نحن من جانبنا، كلّ الجهود وأن نفعل القليل القليل مما نستطيع القيام به، كي تكون المعلمة زيلدا راضية عنا. فمن لا يملك شيئاً، قالت المعلمة زيلدا، سيبدو بنظره أيّ شيء قليل ليس قليلا أبدا.

ما زلت أذكر عينيها: يقظتين، دافئتين، تحفظان سرّاً، ولكنهما ليستا مبتهجتين، عينان يهوديتان كانت لهما ملامح تَتارِيَّة نوعا ما.

كانت، في بعض الأحيان، تقطع الدرس، وتخرجنا إلى الساحة كي نلعب، ولكنها كانت تبقي معها طالبين مختارَين تراهما مناسبَين وجديرَين بتكملة الدرس معها. المَنفِيّون في الساحة لم يستمتعوا بدرس «الاستراحة» الذي حظوا به بل كانت الغيرة تأكل قلوبهم من زميليهما اللذين بقيا في الصف.

وأحيانا، انتهى الوقت، وطلاب المعلمة إيزابيلا قد صُرفوا إلى بيوتهم منذ زمن، وانتشرت القطط المسرّحة في جميع أرجاء المنزل والدرج والساحة

ونحن، كمن نسينا الجميع، ما زلنا تحت أجنحة قصص المعلمة زيلدا، ننحني إلى الأمام على طاولاتنا كي لا تفوتنا أيّ كلمة، حتى تحضر إحدى الأمهات القلقات، وتقف عند باب الغرفة بمريولها المربوط فوق تنورتها، ويديها على خاصرتيها، وتنتظر في البداية بفارغ الصبر وبعد ذلك بدهشة واستغراب تحولا تدريجيا إلى فضول وحب استطلاع، وكأنّ هذه الأم عادت لتوّها وفي لحظة لتصبح طفلة مشبعة بالتعجب والاستغراب متوتّرة ومشدودة معنا جميعا تستمع دون أن تفوّت على نفسها سماع ماذا سيحدث، في نهاية القصة، للغيمة الضّالّة، الغيمة غير المحبوبة الّتي شبكت عباءتها بقرون كوكب الذهب؟

إذا قلت في الصف، بأنك تريد أن تحكي شيئا ما للجميع، ولو وسط موضوع آخر، كانت المعلمة زيلدا فوراً، ترفعك وتُجلسك على طاولتها، طاولة المعلمة، في حين كانت تجلس هي مكانك على المقعد الصّغير. بذلك كانت ترفعك بقفزة عجيبة واحدة لتصبح بوظيفة المعلمة، ولكن شريطة أن تحكي قصة لائقة أو أن تقول قولا مثيرا للاهتمام. ما دمت تنجح في إثارة اهتمامها أو اهتمام الصفّ، كانت تبقيك جالسا على السّرج. بينما، بالمقابل، إذا تكلمت بغباء أو حماقة أو حاولت عبثاً أن تثير الاهتمام دون أن يكون عندك ما تقوله، كانت المعلمة زيلدا تجزم بصوتها البارد والهادئ جدّاً، بصوت لا يشوبه الضحك أو الاستخفاف:

«لكن هذا شيء سخيف إلى حد ما.»

أو:

«يكفيك سخافةً.»

أو أيضاً:

«كفى: إنّك الآن تحط من قدرك في أعيننا.»

وهكذا، كنت تعود إلى مكانك خجلا مخزيّاً حزينا.

سرعان ما تعلمنا جميعا أن نكون حذرين: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. لا جدوى من الكلمات الفارغة الطنّانة الرنّانة. لا تحاول أبداً أن تظهر بمظهر البطل إذا لم يكن عندك شيء مثير وجذاب تقوله.

صحيح، أن الجلوس على طاولة المعلمة شيء لطيف يبهر العيون ويشبع الغرور، إلا أن السقوط عنها يمكن أن يكون سريعا ومؤلماً. التفاهة والفهلوية يجلبان الخزي والحزن. قبل كلّ كلام أمام الجمهور يجب عليك أن تستعد. دائماً، زن الأمر جيدا وفكر أليس السكوت أفضل، لأنّ الساكت لا يجلب لنفسه التأنيب والإهانة.

*

إنها محبوبتي الأولى: امرأة غير متزوجة في الثلاثين من عمرها تقريبا، المعلمة زيلدا، السيدة شْنيئورسون. لم أكن قد بلغت الثامنة بعد ولكنها غمرتني وهزّت بداخلي بندول إيقاع داخلي معيّن والذي حتى تلك الفترة كان جامدا لم يتحرك، ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف.

كنت استيقظ في الصباح وأنا في سريري وأتخيلها أمامي بعينيّ اللتين لم تتفتحا بعد. كنت ألبس وآكل سريعا، فقط من أجل أن أنهي وأزرّر وأغلق وآخذ وأركض مسرعاً إليها مباشرة. كان رأسي يتفجرمن كثرة الجهد الذي بذلته، كلّ يوم، من أجل تأليف وتحضير مواد لائقة جديدة وجميلة أرسلها إليها لكي أحظى بنور نظرتها ولكي تشير، هذه المرة، إليّ بإصبعها وتقول: ها هو هنا بيننا هذا الصباح ولد يغمره النور.

جلست كلّ صباح في صفّها دائخاً من الحب. أو مسخما من شدة الغيرة. بلا انقطاع كنت أتقصى لاكتشف ما هي مفاتني الّتي تشد انتباهها. كنت أرسم المكائد، كيف يمكنني أن أفسد مفاتن الآخرين؟ وكيف أفرّق بينهم وبينها؟

في الظهيرة كنت أعود من المدرسة اضطجع على السرير وأهذي كيف نكون أنا وهي وحدنا.

أحببت لون صوتها ورائحة ابتسامتها وحفيف فساتينها (بأكمامها الطويلة ولونها غالبا بني، أزرق غامق، رمادي فاتح، وفوقها وضعت قلادة خرز بسيطة بلون العاج، أو أحياناً منديل عنق من الحرير بلون هادئ). في آخر النهار كنت أغمض عينيّ وأشدّ اللحاف حتى أغطي رأسي وآخذها معي. في

الأحلام كنت أعانقها وكانت تقبلني تقريبا على جبيني. نور ساطع سماوي أحاط بها وأضاءني أيضاً، كي أكون ولدا يغمره النور.

*

بكل تأكيد، كنت أعرف ما هو الحب: فقد التهمت الكثير من الكتب، كتب الأطفال وكتب الشبيبة وحتى الكتب الّتي اعتبرت غير ملائمة لسني. مثلما يحبّ كلّ ولد أمّه وأباه، هكذا يحبّ كلّ واحد، عندما يكبر قليلا، واحدة من عائلة أخرى. واحدة كانت غريبة تماماً عنه ولكن، دفعة واحدة، مثلما يعثرون على كنوز الذهب في مغارة في حرش «تل أرزا»، دفعة واحدة تتغير حياة العاشق. وكما فهمت من الكتب فإنه في الحب مثلما في المرض، لا يأكلون ولا يشربون، وأنا، في الحقيقة، لم آكل تقريبا مع أنني في الليل نمت نوما عميقا جدّاً وفي ساعات النهار أيضاً كنت انتظر أن يخيّم الظلام بسرعة كي أدخل فراشي وأنام. هذا النوم لم يتوافق مع مؤشّرات الحبّ كما وردت في الكتب، ولذا لم أكن متأكداً تماماً إذا كنت عاشقا مثل الكبار، إذ كان من المفروض أن أعاني من الأرق وقلة النوم، أم أن حبّي ما زال حبّا صِبيانيا؟

وقد عرفت من الكتب وعرفت من الأفلام الّتي شاهدتها في سينما «أديسون» وعرفت هكذا أيضاً، من الهواء، أن وراء الحبّ، من الطرف الآخر، كما من خلف سلسلة جبال مؤاب الّتي تطلّ علينا مقابل جبل المشارف، هناك يمتد منظر واحد، منظر آخر تماماً، مخيف جدّاً، لا يرى من هنا، وربما كان من الأفضل أنه لا يرى من هنا. شيء ما يوجد هناك، يعشّش هناك، مكسوّ بالفرو، مُخجل، شيء كهذا تابع للظلام فقط. ولعله مرتبط بالصورة الّتي حاولت مرارا وتكرارا أن أنساها ولكن أن أتذكر أيضاً بعض تفاصيلها الّتي لم أكد أراها بوضوح، الصورة الّتي عرضها عليّ الأسير الإيطالي في حينه عبر سياج الشريط الشائك وأنا سارعت إلى الهرب قبل أن أراها تقريبا. ومرتبط أيضاً بأجزاء من الملابس الّتي تستعملها النساء ولا نستعملها نحن ولا تستعملها حتى الآن بنات الصفّ. في الظلام يعيش ويتحرّك هناك شيء آخر، متهيّج، وهو رطب وهو مليء بالشعر، شيء ما،

من ناحية، من الأفضل لي ألا أعرف عنه شيئاً، ومن ناحية أخرى، إذا لم أعرف عنه شيئا تكون النتيجة أن حبّي ما هو إلا حب صبياني.

الحب الصبياني هو شيء آخر، غير مؤلم وغير مُخجل، مثل حبّ يوئيفي لنوعاه أو مثل حب بن عامي لنوعاه أو حتى مثل حب نوعاه لأخ أفنر. ولكن في حالتي أنا ليس الحديث عن إحدى بنات الصف أو أيّ بنت أخرى من الحي الّتي ما زالت تناسب سني أو أنها فقط أكبر مني قليلا، مثل الأخت الكبرى ليوعزار: بالنسبة إليّ ذلك عشق امرأة. بل هو أفظع كثيرا من ذلك لأن هذه معلمة، معلمة الصفّ. ولا يوجد أيّ شخص في العالم كله يمكنك أن تسأله عن ذلك إلا وحقنك بحقنة تهكّم. التهكم يسمى عندها سمّاً. والكذبة عندها انكسارة أو سقطة. أما خيبة الأمل فتسمّيها حزنا، أو حزن أصحاب الأحلام. والكبرياء عندها تسمى حارقة الأجنحة. والخجل بالذات كانت تسميه شكل الله.

وأنا؟ من كانت أحياناً تشير إليّ بإصبعها في الصف وتناديني الولد المغمور بالنور والآن بسببها أصبح مغمورا بالظلام؟

*

ودفعة واحدة امتنعت عن الذهاب إلى المدرسة «وطن الطفل». طلبت أن أذهب إلى مدرسة حقيقية، مدرسة مع صفوف وجرس وساحة، ليس داخل منزل عائلة نخْليئيلي المليء بأسراب القطط، مدرسة بدون شعر قطط في كلّ زاوية وحتى في المرحاض حيث يلتصق هناك الشعر ببدنك تحت الملابس، ومدرسة بدون نتانة بول القطط الذي جفّ تحت قطع الأثاث المختلفة. مدرسة حقيقية كتلك الّتي فيها لا تأتي المديرة فجأة وتنزع من أسفل أنفك ما تخثّر من مخاط، وزوجها ليس أمين صندوق في بقالة الجمعية التعاونية ولا يسمونني فيها المغمور بالنور، مدرسة بدون قصص غرام وما شابه.

وبالفعل بعد خصام مع والديّ، خصام هامس، بالروسية، خصام من نوع الخصومات «التيتشطيختشافوينية»، والذي كان الانتصار فيه حليف أبي؛

تقرر أنه في نهاية الصف الثاني عندما أنهي مدرسة «وطن الطفل» بعد عطلة الصيف سأتعلم في الصف الثالث في مدرسة «تحكيموني» وليس في بيت التربية والتعليم لأبناء الكادحين: فبين الشرَّيْن الأسود والأحمر فالأسود أهونهما. ولكن بيني وبين «تحكيموني» مازال يمتد صيف كامل من الحبّ.

«ما هذا؟ مرة أخرى تسرع راكضاً إلى بيت المعلمة زيلدا؟ في الساعة السابعة والنصف صباحا؟ ألا يوجد لك أصدقاء من أبناء سنك؟ »

«لكن، هي الّتي دعتني. لقد قالت لي بأنّه يمكنني أن أذهب إليها كلما رغبت في ذلك ولو كلّ صباح.»

«قالت، حسنا أنها قالت. ولكن قل لي أنت نفسك، من فضلك، ألا تعتقد أنه ليس من الطبيعي تماماً أن يكون ولد في الثامنة من عمره متعلقاً بهذا الشكل بمريول معلمته؟ معلمته السابقة، عمليا؟ كلّ يوم؟ في السابعة صباحا؟ وفي العطلة الصيفية؟ أليس هذا فيه مبالغة في نظرك؟ أليس يعتبر هذا قلة أدب؟ فكّر في هذا، رجاءً! كن منطقيا!»

كنت أنقل وزني من رجل إلى أخرى، على أحرّ من الجمر، منتظراً نهاية الموعظة، كنت أقول: «طيب، حسنا! سأفكّر! سأكون منطقيا!» كنت أقول ذلك وقد بدأت أركض على جناح السرعة إلى ساحة بيت المعلمة زيلدا الأرضي في شارع «تسفانيا» مقابل محطة حافلة رقم ثلاثة مقابل روضة السيدة حاسيا، خلف بائع الحليب السّيّد لانْغِرْمَن صاحب الجرار المعدنية الضّخمة الّتي جيء بها إلى أزقتنا البائسة مباشرة من أعالي الجليل أو من تلك المروج الّتي تغمرها أشعة الشمس، مباشرة من الحقول الّتي استقبلتني هذه الليلة، انتظرينا يا بلادي في حقول الخبز الواسعة، الطل من أسفل والقمر من أعلى، مباشرة من بيت ألفا وحتى نهلال.

إلا أن القمر كان هنا: المعلمة زيلدا كانت هي القمر. عندهم هناك، في أرجاء السهول وفي الشارون والجليل، هناك امتدت بلاد الدفء والشمس، مملكة الأقوياء المسفوعين المفضّلة. ليس هنا. هنا في شارع «تسفانيا» حتى في صباحِ يوم صيفيّ خيّمت قليلا ظلال ليلة مقمرة.

كلّ يوم قبل الساعة الثامنة صباحا كنت أقف أمام شباكها، ناصيتي مُبلَّلة

بالقليل من الماء، وقميصي نظيف ومرتّب كله داخل حزام البنطلون دون أن يطل منه ذنب من هنا وهناك. تطوّعت أن أساعدها عن طيب خاطر وبسرور في جميع أعمال الصباح: أروح بدلا منها إلى بائع الخضراوات وإلى البقالة، أكنس قليلا أرض الساحة، أسقي صفائح الخبيزة الإفرنجية، أنشر لها غسيلها القليل على الحبل أو أجمع عنه الغسيل الجافّ، أنشل لها الرسائل من صندوق البريد الذي صدئت سكرته. كانت تعرض عليّ كأس ماء، لم تسمه مجرد ماء بل مياه الينابيع. فطيرة الخبز المحلاة أسمتها في لغتها معجّنات، أرض الساحة أسمتها التراب، الرياح الغربية الخفيفة أسمتها نسيم البحر، أما الرياح من المشرق فأسمتها شرقية. عندما كانت تمر هذه الرياح بين إبر الصنوبر فهي لم تحرك الإبر فحسب بل كانت تداعبها.

عند انتهاء الأعمال المنزلية القليلة، كنا نخرج من داخل المنزل مقعدين منخفضين من القش ونجلس في الساحة الخلفية تحت شباك غرفة المعلمة زيلدا ووجوهنا إلى الشمال، باتجاه مدرسة الشرطة وباتجاه القرية العربية شعفاط. كنا نسافر دون أن نسافر: أنا الذي كنت ولداً يحب الخرائط عرفت بأنه خلف مسجد بلدة النبي صموئيل الّتي على سلسلة الجبال البعيدة والعالية والّبادية لنا من هنا يختبئ سهل بيت حورون وعرفت أن من خلفه تمتد أرض بِنْيامين وأرض إفْرايِم، و بعدها السامرة تليها جبال الجلبوع وبعدها المروج وجبل الطور والجليل. لم أزر هذه المناطق ولو لمرة واحدة: مرة أو مرتين في السنة كنا نسافر إلى تل أبيب لقضاء العيد هناك، مرتين كنت في سَقيفة جدتي- ماما وجدي - بابا المكسوّة بورق الزّفتة عند مخرج كريات موتسكين الواقعة خلف مدينة حيفا، وكنت مرة واحدة في بات- يام وباستثناء هذه لم أشاهد شيئاً. وبالتأكيد تلك الأماكن الرائعة الّتي كانت المعلمة زيلدا ترسمها بالكلمات، نهر حارود، صفد، وضفاف بحيرة طبريا.

في الصيف التالي بعد صيفنا هذا ستقصف القدس من رؤوس سلسلة الجبال الّتي كنا نجلس قبالتها كلّ صباح. بالقرب من قرية بيت إكسا وبالقرب من جبل النبي صموئيل تخندقت مدافع سلاح المدفعية البريطانية الّتي كانت في خدمة فيلق شرق الأردن والتي قصفت بآلاف قذائفها المدينة المحاصرة

والجائعة. وبعدها بسنوات عديدة اكتظت جميع التلال المحيطة بنا بمشاريع إسكان على طراز واحد لأبناء الكادحين، راموت إشكول، وَرموت ألون، وَمعلوت دفنا وَجفعات هتحموشت، وَجفعات همفتّر وَالتلة الفرنسية وجميع التلال تفيض حبوراً. ولكن في صيف سنة سبع وأربعين كانت كلها ما زالت تلالا وعرية مهجورة، ومنحدرات منقّطة ببقع صخرية فاتحة وبشجيرات غامقة. هنا وهناك توقف البصر على شجرة صنوبر وحيدة هرمة وعنيدة منحنية بفعل رياح الشتاء القوية الّتي قوّست ظهرها إلى الأبد.

*

لقد كانت تقرأ عليّ ما كانت تنوي أصلاً أن تقرأه وحدها في ذلك الصباح: حكايا «الحسيديم»، أساطير، وقصص غامضة حول قديسين يهود نجحوا في كتابة التعاويذ وعمل المعجزات والآيات والعجائب. أحياناً، إذا لم ينتبه هؤلاء القديسون الغامضون ولم يدققوا جيدا جدّاً، حينما كانوا يريدون إنقاذ أنفسهم أو البؤساء والمساكين أو كلّ الشعب اليهودي، فقد كانوا يجلبون على أنفسهم وعلى غيرهم المصائب والكوارث الّتي كانت تنجم دائماً عن خطأ في كتابة التعاويذ أو بسبب ذرة نجاسة تسرّبت بين أنواع الوجهات المقدسة.

كانت تجيب على أسئلتي بإجابات غير متوقعة وغريبة حتى أن إجاباتها بدت في بعض الأحيان شاذّة ومتهوّرة تقريبا حتى أنها تهدد بشكل فظيع مُثير للاشمئزاز أسس المنطق الراسخة لوالدي.

أو على العكس: كانت أحياناً تفاجئني بالذات بإجابة بسيطة متوقعة ولكنها تغني من جوع مثلها مثل الخبز الأسود. بل أن الطبيعي والمتوقع جدّاً بدا لديها غير متوقع إلى حد ما. وأنا أحببتها وانجذبت إليها وتعلّقت بها لأنه كان هناك شيء غريب ومثير ومخيف قليلا، في كلّ ما عملته أو قالته: «ضعفاء النفوس» مثلا الذين قالت عنهم بأنهم ينتمون إلى يسوع الناصري لكن بيننا نحن هنا في القدس يوجد الكثير من ضعف النفس وليس بالذات بالمعنى الذي قصده «ذلك الرجل». أو «بُكْمان الروح» الذين ذكرهم حييم نحمان

بياليك في قصيدته «ليكن نصيبي معكم»[(١)] والذين ما هم في الحقيقة إلا الأتقياء الستة والثلاثون الذين يتواجدون في كلّ جيل والذين بسببهم يستمر الوجود. وقد قرأت لي ذات مرة قصيدة بياليك عن والده صاحب النفس الطاهرة النقية الذي كانت حياته تحيط بها نتانة الخمارة إلا أن هذا الدنس والنتانة لم يستطيعا أن يتعلقا به. ولكنهما تعلّقا بابنه الشاعر، وبكل قوة، كما شهد بياليك بنفسه عن نفسه مثلما ورد في أول سطرين من قصيدته «أبي»[(١)]، سطرين تحدّث فيهما عن نفسه فقط وعن نفسه وعن دنسه قبل أن يبدأ حديثه عن والده. والغريب في نظرها أن الحكماء لم ينتبهوا إلى أن القصيدة الّتي تتحدث عن شخصية الأب الطاهرة النقية تبدأ بالذات بالاعتراف المرير بدنس حياة الابن.

ولعلها لم تقل ذلك: إذ أنني لم اجلس هناك مع قلم ودفتر ولم أسجل مباشرة من فمها ما قالته لي. وقد مضى على تلك الأيام أكثر من خمسين سنة. كثير من الأشياء الّتي سمعتها من المعلمة زيلدا في ذلك الصيف كان أعلى من مستوى إدراكي وفهمي. ولكنها كانت في كل يوم ترفع قليلا مستوى إدراكي وفهمي. فأنا أتذكر، على سبيل المثال، بأنها حكت لي عن بياليك، عن طفولته وعن خيبة آماله وعن حياته السيئة حكت لي أيضاً. حتى الأشياء الّتي لم تلائم سنّي. ومن القصائد الأخرى قرأت لي قصيدة «أبي» وتحدّثت عن دوائر الطهر والإثم.

*

ولكن ماذا قالت بالضبط؟

الآن وأنا في غرفتي في مدينة عَراد في يوم صيفي في أواخر شهر حزيران من سنة ٢٠٠١ أحاول أن استعيد ما قالته، أو ألا استعيد بل أن

(١) القصيدة ترجمت إلى العربية على يد الشاعر راشد حسين ضمن كتاب «حييم نحمان بياليك- نخبة من شعره ونثره» (١٩٦٦، ص ٩٩) (المترجم).

(١) السطران اللذان يشير إليهما المؤلف وردا في الترجمة المذكورة أعلاه (١٩٦٦، ص ١٠٩): «غريبا كان أسلوب حياتي، وعجيبا سبيلها فبين أبواب الطهر والإثم كانت دوائرها تدور...» (المترجم).

أخمّن، أن استحضر ما قالته كوجود من العدم تقريبا: مثل أولئك العلماء الذين يحنّطون الحيوانات في متحف الطبيعة حين يبنون شكل الحيوان بالاعتماد على عظمتين أو ثلاث منه.

أحببت الطريقة الّتي وضعت بها المعلمة زيلدا الكلمة بجوار أختها الكلمة: قد يحدث أن تضع كلمة عادية واحدة، روتينية، تستعمل في كلّ يوم بجانب كلمة أخرى، هي الأخرى عادية وروتينية، وهاهو الجمع بينهما فجأة، ولمجرد كونهما الواحدة بجانب الأخرى، كلمتان عاديتان تماماً ولكنهما غير معتادتين على أن تكونا جنبا إلى جنب، وكأنما تسري بينهما فجأة شرارة كهربائية هيّجت ونشّطت نفسي الشغوفة بغرائب وعجائب الكلمات. فيما يلي بعض الأبيات غير المتالية من قصيدتها «في مدرسة المكفوفين القديمة»:

لماذا فزعت من ازدراء الجبال---
نفسي الّتي جاءت كعصفور طائر / من أرض الثمار الّتي لم تذقها---
الحديقة الليلية نقضت عهدها مع الظلمة الرقيقة---
لأول مرة أنا أفكر / بليلة نجومها وأبراجها إشاعة---
وأيضاً مقطع كامل من نفس القصيدة هو المقطع الأخير في القصيدة:
متى أدرك أن ظلمتها
مليئة بالعلامات
وبأنني لا أعرف شيئا عن شطحات نفسها
إلى المثير، إلى العميق، إلى المضيء،
إلى المستحيل

*

كانت زيلدا في ذلك الصيف ما زالت امرأة غير متزوجة، ولكن بين الحين والآخر كان يظهر رجل في الساحة، لم يكن شابا في نظري، كان متديّنا بناء على مظهره. بمروره بيننا كان يمزّق دون انتباه خيوط الصباح الكثيرة غير المرئية الّتي نُسجت بيني وبينها. أحياناً كان يخصّني بهزّة رأس مع ذيل ابتسامة، وكان وهو يدير إليّ ظهره يبدأ مع المعلمة زيلدا محادثة استمرت

سبع سنوات أو سبعا وسبعين. دهرا من الزمن. وتحدثا بالإيديش كيلا افهم أيّ كلمة. وفي مرتين أو ثلاث نجح أيضاً أن ينتزع منها ضحكة رنانة، ضحكة - بنت، لم أحظ أنا، ولو لمرة واحدة، بانتزاع مثلها منها. ولا حتى في أحلامي في الليل. لقد غمرت ذلك الشخص بوابل من الضحكات. وأنا بيأسي تخيّلت بدقة متناهية وبأدق التفاصيل خلاط الأسمنت الذي يصم صوته الآذان الذي وقف منذ عدة أيام في منحدر شارع ملآخي: سألقي إلى جوف هذا الخلاط قبيل الفجر جثة هذا المضحك بعد أن اقتله عند منتصف الليل.

*

كنت ولد- كلمات. ثرثاراً لا يتوقف ولا يتعب. قبل أن أفتح عينيّ في الصباح كنت أبدأ محاضرة تستمر دون توقّف تقريبا حتى إطفاء الأنوار في الليل وبعد ذلك تتواصل المحاضرة في النوم.

ولكن لم يكن هناك من يسمعني: في إسماع الأولاد أبناء سني كلّ ما قلته كان كلغات «البانتو» أو كلغة سكان شبه جزيرة «تشوتشكي»، أما الكبار فكلهم مثلي كانوا يلقون الخطابات من الصباح وحتى المساء، مع أن أحدا لم يُصغِ إليهم. لم يصغ أحد للآخر في القدس في تلك الأيام. ولعل الواحد منهم لم يصغ عمليا لنفسه (باستثناء جدّي أَلِكْسَنْدِر الطيب الذي عرف كيف يصغي إصغاء تاما وحتى تمتّع بثمار إصغائه، ولكنه، ما العمل، كان يصغي للنساء فقط، لا لي).

في العالم كله لم تكن هناك أذن واحدة متفرغة لتسمعني، إلا ما ندر. وحتى عندما كانوا يتكرّمون عليّ بلطفهم ويُقبلون عليّ ليسمعوني كانوا يتعبون مني بعد ثلاث إلى أربع دقائق، مع أنهم، أدبا، تظاهروا بأنهم يستمعون، وفي بعض الحالات تظاهروا بالاستمتاع أيضاً كذبا وزيفا.

المعلمة زيلدا هي الوحيدة الّتي كانت تصغي إليّ: وليس كالعمة طيبة - القلب الّتي تعير، بتثاقل، وبدافع الشفقة، أذنها المجربة لكي يستخدمها بشكل جنوني صبيّ محموم صاخب هائج سرعان ما يطفح كيله في لحظة. لا. فقد استمعت إليّ ببطء وانتباه وجِدّيّة، وكأنها تتعلّم مني أشياء استمتعت بها أو أثارت فضولها.

إضافة إلى ذلك: تعاملت معي المعلمة زيلدا باحترام إذ أنها عندما أرادت أن أتحدث كانت تهيّجني برقة وتضيف قطع الحطب إلى الموقد ولكن عندما كانت تكتفي لم تتردد في أن تقول:

«يكفيك الآن. حاليا توقف عن الكلام.»

الآخرون كانوا يتوقفون عن الإصغاء بعد ثلاث دقائق ولكنهم كانوا يتركونني أتحدث وأتحدث حول كلّ ما يخطر ببالي وحتى لمدة ساعة كاملة وخلال ذلك كانوا يفكرون في شئونهم الخاصة ويتظاهرون بالإصغاء.

كلّ ذلك كان بعد إنهاء الصف الثاني، بعد أن أنهيت مدرسة «وطن الطفل» وقبل أن أدخل مدرسة «تحكيموني». كنت ابن ثماني سنوات وقد تعودت قراءة الصحف والنشرات والمجلات المختلفة، بالإضافة إلى المائة أو المئتي كتاب الّتي التهمتها حتى ذلك الوقت (كلّ ما وقعت عليه يدي تقريبا. ودون انتخاب تقريبا: استعرضت مكتبة أبي وكل كتاب كان مكتوبا باللغة العبرية المعاصرة - غرزت به أسناني وحاولت أن أقضمه في زاويتي).

كما أنني كتبت الشعر: عن كتائب يهودية، عن حروب المنظمة السريّة، عن يهوشواع بن نون، وكذلك عن خنفسة سُحقت تحت الأقدام وعن أحزان الخريف. قصائدي هذه كنت احضرها معي في الصباح إلى المعلمة زيلدا، الّتي تعاملت معها بحذر وبنوع من الشعور بتحمّل المسئولية. ما قالته عن كلّ قصيدة لم أعد أذكره. كما أنني نسيت القصائد نفسها.

ولكنني لم أنسَ ما قالته لي عن قصائد وأصوات: ليس عن أصوات من الأعلى تخاطب روح الشاعر بل عن كلمات مختلفة تصنع اصواتا مختلفة: كلمة حفيف على سبيل المثال، هي كلمة مهموسة بينما كلمة صريم فهي رنانة ولكلمة النّهام يوجد صوت ثخين ومنخفض ولكلمة سليل صوت ناعم بينما كلمة ضجّة فيها ضجيج وهكذا. كانت لديها مجموعة كاملة من الكلمات مع أصواتها، وأنا استعير هنا من الذاكرة أكثر مما يمكنني أن أتذكّر. وربما الشيء التالي سمعته أيضاً من المعلمة زيلدا في الصيف الذي كنا فيه قريبين: إذا كنت ترسم شجرة، ارسم فقط عدة أوراق. إذ أنك لست ملزما برسم جميع الأوراق. وإذا كنت ترسم إنسانا فلست ملزما برسم كل شعرة في

بدنه. ولكنها في هذا الموضوع لم تكن ثابتة على نفس الرأي: قالت لي ذات مرة بأنه يخيّل إليها بأنني هنا أو هناك كتبت أكثر من اللازم، وفي مرة ثانية قالت: هنا بالذات ربما كان من الأفضل أن تكتب أكثر قليلا. ولكن كيف يمكن أن نعرف؟ حتى الآن ما زلت أبحث عن جواب.

*

كما أن المعلمة زيلدا كشفت أمامي لغة عبرية لم أسمع بمثلها أبداً، لا في بيت البروفيسور كْلاوزْنر ولا في بيتنا ولا في الشارع أيضاً ولا في الكتب الّتي كنت قد قرأتها حتى ذلك الوقت: لغة عبرية غريبة، فوضوية، لغة قصص الأتقياء الصديقين وحكايات «حسيدية» ولغة الأمثال الشعبية، لغة عبرية مُشبعة بالإيديش، تتجاوز كلّ القواعد والقوانين، تخلط بين المذكّر والمؤنّث، وبين الماضي والمضارع وبين الضمائر والصفات، عبرية غير مهذّبة ومضطربة. ولكن أيّ حيوية ملأت تلك الحكايات! عندما كان الحديث يتم عن الثلج كانت القصة نفسها كأنها مكتوبة بكلمات مصنوعة من الثلج. وعندما كان الحديث يتم عن حرائق كانت الكلمات نفسها تشتعل. وأي حلاوة غريبة، ساحرة، كانت في حكاياتها تلك عن جميع أنواع المعجزات! وكأنّ الكاتب نفسه غمس الحروف بالخمر: إذ أن الكلمات كانت ترتبك وتضطرب في الفم.

كما أن المعلمة زيلدا فتحت لي دواوين شعر في ذلك الصيف، كتبا، لم تلائم سني تماما، لكن لم تلائم سني بكل معنى الكلمة: قصائد ليئة جولدبرغ، أوري تسفي جرينبرغ، أشعار بت مريم وَإستير راب. وقصائد يوسف تسفي ريمون.

منها تعلمت أيضاً انه توجد أحياناً كلمة تحتاج إلى أن يكون حولها صمت مطلق: أن يكون لها مجال رحب مثل اللوحات التي تعلق على الحائط وتوجد بينها لوحات لا تتحمل وجود جيران حولها.

لم يكن ما تعلمته منها قليلا، في الصف وكذلك في ساحة بيتها. يبدو أنه لم يكن يهمّها أيضاً أن تطلعني على بعض أسرارها.

لكن بعضها فقط: على سبيل المثال، لم أكن أعرف أي شيء، ولم

تلمح تلميحا بأنها ليست فقط معلمتي وحبيبتي بل إنها الشاعرة زيلدا، التي طبعت بعض أشعارها في الملاحق وفي بعض المجلات والدوريات الهامشية. كما لم أعرف أنها مثلي بنت وحدانية. ولم أعرف أنها قريبة زعماء حركة «حباد» الدينية أي أنها بنت عم الرابي من ليوبافيتش، مناحم - مندل شْنيئورسون (والده ووالدها كانا أخوين). كما أنني لم أعرف أنها تعلمت الرسم وكانت عضوا في فرقة مسرحية، وأنّه كانت قد نشرت هنا وهناك بعض القصائد الشعرية والنثر الشعري. لم يخطر ببالي أن غريمي العاشق الآخر هو الرابي حاييم ميشكوفسكي والذي بسبب طول قامته كانوا يسمونه «حياة طويلة»،[1] وأنّه بعد سنتين من صيفي وصيفها تزوّجها ولكن حياته لم تكن طويلة. لم أعرف عنها شيئا.

في بداية خريف سنة سبع وأربعين بدأت أتعلم في الصف الثالث في المدرسة التقليدية للبنين «تحكيموني». انفعالات جديدة جاءت وملأت حياتي. كما أنه لم يعد يليق بي أن أواصل كوني متعلقا كالطفل بطرف فستان معلمتي من الصفوف الدّنيا: الجيران بدؤوا يستغربون ويتساءلون وأولاد الجيران بدؤوا يسخرون مني كما أنني أنا نفسي سخرت من نفسي قليلا: ما الذي يجعلك تركض إليها كلّ صباح ؟ أيّ وجه سيكون لك عندما يبدأ جميع أهل الحي بعد قليل يتكلمون عن الولد المجنون الذي يجمع لها الغسيل ويكنس لها الساحة وفي منتصف الليل مع بزوغ النجوم يريد بكل تأكيد أن يتزوّجها؟

*

بعد عدة أسابيع اندلعت صدامات دموية في القدس، بعدها جاءت الحرب والحصار والمجاعة. ابتعدت عن المعلمة زيلدا: لم أعد أركض في الساعة السابعة صباحا بعد أن أكون قد اغتسلت وبلّلت ناصية رأسي بقليل من الماء كي أجلس معها في ساحة بيتها. لم أعد أحضر إليها القصائد الجديدة التي كنت أكتبها في تلك الليلة. إذا صدف والتقينا في الشارع كنت أسارع

---

(١) حاييم في اللغة العبرية معناها حياة (المترجم).

وأقول لها بسرعة، «صباح - الخير - كيف - حالك المعلمة - زيلدا.» دون علامة استفهام كنت أتمتم الـ «كيف - حالك» هذه، وأهرب مسرعاً دون أن أنتظر جوابها. شعرت بالخجل من كل ما كان. كما خجلت كيف أنني أنهيت- قطعت علاقتي بها هكذا، دون أن أقول لها بأن علاقتنا انتهت وحتى دون أن أقدّم لها أي تبرير أو تفسير. كما أنني شعرت بالخجل من أفكارها، وهي تعرف بكل تأكيد أنني من ناحية التفكير لم أقطع علاقتي بها بعد.

بعد ذلك تخلّصنا أخيراً من حي كيرِم أفْرَهام حيث انتقلنا للسكن في رِحافْيا، محط أحلام أبي. بعد ذلك توفيت أمّي وأنا انتقلت للعيش والعمل في الكيبوتس. كانت رغبتي شديدة في أن أترك القدس وراء ظهري. حُلّت جميع العُقد. هنا وهناك كنت ألتقي أحياناً بقصيدة جميلة لزيلدا في إحدى المجلات أو الدوريات ومن ذلك أدركت أنها ما زالت على قيد الحياة وأنها ما زالت ذلك الإنسان الحسّاس. ولكن منذ موت أمّي بدأت اشمئزّ من جميع المشاعر وخاصة أردت أن أبتعد مرة واحدة وإلى الأبد من النساء الحسّاسات، من حيث هنّ.

في السنة التي صدر فيها كتابي الثالث، «ميخائيلي»، الّذي تدور أحداثه بشكل عام في حيّنا صدر أيضاً «وقت فراغ» الكتاب الأول لزيلدا. خطر ببالي أن أكتب لها عدة كلمات لتتهنئتها ولكنني لم أكتب. كما فكّرت أن أرسل إليها كتابي ولم أفعل أيضاً. من أين لي أن أعرف إذا كانت ما زالت تسكن في شارع «تسفانيا» أم انتقلت إلى بيت في مكان آخر؟ وبالإضافة إلى ذلك فإنّني كتبت «ميخائيلي» لكي أمحو القدس لا لكي أجدد صلتي بها.

بين قصائد «وقت فراغ» اكتشفت أفراد عائلة المعلمة زيلدا كما التقيت هناك مع عدد من جيراننا. بعد ذلك نشرت أيضاً قصائد الديوان «الكرمل غير المرئيّ» وقصائد الديوان «ليس جبلا وليس نارا» اللذين أثارا إعجاب وحبّ آلاف القرّاء وبسببهما نالت جائزة «برينر» وجائزة «بياليك» وحظيت بالشهرة الواسعة، التي اجتازتها كما يبدو المعلمة زيلدا، المرأة الوحدانية، دون أن تنظر هنا وهناك.

*

القدس كلها كانت تجلسْ وتكتب في سنوات صباي، في أواخر أيام الانتداب البريطاني: لم يكن في تلك الأيام عند أحد تقريبا راديو، ولا تلفزيون ولا فيديو ولا جهاز «كومباكت ديسك» ولا انترنت ولا بريد الكتروني ولا حتى تلفون، ولكن كلّ واحد كان لديه قلم ودفتر.

المدينة كلها كانت تغلق في الساعة الثامنة مساء بسبب أمر منع التجوّل البريطاني، وفي الأيام الّتي لم تُغلق المدينة فيها كانت تنغلق بنفسها وبإرادتها وعن طيب خاطر حيث لا يبقى في الخارج إلا الرياح وقطط الشوارع ودوائر ضوء مصابيح الشارع الّتي كانت تتململ في الخارج. وحتى هي كانت تتسلل تريد أن تختفي بين الظلال كلما مرّ في الشارع جيب - الدورية الإنجليزية الذي نصب عليه مصباح كشّاف ومدفع رشاش. كانت الليالي طويلة جدّاً أكثر بكثير مما هي في أيامنا، لأنّ حركة دوران الكرة الأرضية حول محورها كانت أكثر بطءاً، لأنّ الجاذبية كانت أقوى. ضوء الكهرباء كان بائساً لأنّ الناس كلهم كانوا بائسين، اقتصدوا في المصابيح واقتصدوا في الإضاءة. وقد يحدث أن ينقطع التيار الكهربائي لعدة ساعات أو لعدّة أيام، فتستمر الحياة على ضوء قناديل كاز اكتست بالسخام. أو على ضوء الشمعات. كما أن أمطار الشتاء كانت اشدّ وأقوى مما هي عليه اليوم، وبالإضافة إليها فقد طرقت على الأباجورات المغلقة قبضات الرياح وأصداء البروق والرعود.

في كلّ مساء كان عندنا طقس انغلاق على النحو التالي: يخرج أبي ليغلق الأباجورات من الخارج (لأنه لم يكن بالإمكان إغلاقها إلا من الخارج)، ببسالة كان أبي يغوص داخل فكّي المطر والعتمة ومخاطر الليل غير المعروفة، مثل أولئك الرجال المكسُوّين بالشَّعر من العصر الحجري الأول الذين كانوا يندفعون ببسالة من جوف المغاوِر الدافئة للحصول على الغذاء أو للدفاع عن النساء والأطفال. أو مثل الصياد في كتاب «الشّيخ والبحر» كان أبي يخرج وحده إلى هاوية قوى الطبيعة المعربدة. كان يغطّي رأسه بما يشبه الكيس الفارغ المقلوب وينطلق إلى المجهول.

في كلّ مساء مع عودة أبي من حملة إغلاق الأباجورات كان يقفل الباب من الداخل ويثبته بالمزلاج (كان على جانبي الباب شنكلان يمد أبي بينهما

قضيب الحديد المسطّح الذي يحصّن الباب أمام المشاغبين أو الأعداء). حيطان الحجر السّميكة حمتنا من كلّ سوء، والأباجورات الحديدية، والجبل الغامض الرابض بكل ثقله محافظاً على سلامتنا من خلف الحائط الخلفي مباشرة مثله مثل مصارع عملاق أخرس. كلّ العالم الخارجي ينغلق جيدا في الخارج، وفي الداخل في قلب الخلية المصَفَّحة كنا نحن الثلاثة والمدفأة والحيطان المكسوّة بكتب فوقها كتب من الأرض وحتى السقف. هكذا كان البيت يغلق تماماً في كلّ ليلة ثمّ يغوص رُوَيداً رُوَيداً مثل الغواصّة محكمة الإغلاق تحت سطح بحر الشتاء. لأنه بجوارنا كان ينتهي العالم فجأة: نتوجّه يسارا خارج الساحة، ومِن هناك على بعد مئتي متر حتى نهاية شارع عاموس ثمّ يسارا مرة أخرى حيث على بعد ثلاثمائة متر يوجد آخر بيت في آخر شارع تسفانيا، حيث ينتهي هناك الشارع وتنتهي المدينة وينتهي العالم: من هناك فصاعدا منحدرات صخرية فارغة في الظلام الدامس وشقوق ومغاور، جبال عارية وأودية قرى حجرية يجلدها المطر والظلام، قرية لفتا وقرية شعفاط وبيت إكسا، وبيت حنينا، والنبي صموئيل.

وعليه، كلّ مساء جلس جميع سكان القدس، محبوسين مثلي في بيوتهم وكتبوا: البروفيسورات في رِحافْيا والمثقفون الذين في تَلْبِيوت والحكماء من بيت هَكيرِم والباحثون من كريات شموئيل والأدباء والشعراء والأيديولوجيون وَالحاخامات والثّوريون ومنتظرو قيام الساعة والمفكّرون. إذا لم يكتبوا الكتب فقد كتبوا المقالات. وإذا لم يكتبوا المقالات فقد نظموا الشعر أو ألفوا أنواعا مختلفة من الكراريس والكتيّبات والمناشير الدعائية. وإذا لم يؤلفوا المناشير غير القانونية ضدّ السلطة البريطانية فقد كتبوا رسائل إلى هيئات تحرير الجرائد والمجلات. أو كتبوا الرسائل إلى بعضهم. القدس كلها جلست كلّ مساء منكبّة على الورق تصحّح، وتمحو وتكتب وتهذّب وتصقل: العمّ يوسِف كْلاوزْنِر والسيّد عجنون الواحد مقابل الآخر على جانبي الزقاق في تَلْبِيوت. الجد أَلِكْسَنْدِر والمعلمة زيلدا. السيّد زارْحي والسيّد أبْرامْسْكي والبروفيسور بوبِر والبروفيسور شالوم والبروفيسور بيرْغمَن والسيد تورين والسيد نتنياهو والسيد فيسْلافْسكي وربما أمّي أيضاً. أما أبي فقد كان يبحث ويكشف عن

الموتيفات السنسكريتيّة الّتي تسرّبت إلى الشعر الملحمي الليتواني القومي. أو تأثيرات هوميروس على نشوء الشعر البيلوروسي. وكأنه من قلب غواصتنا الصغيرة يخرج في الليل مِنْظاراً ينظر بواسطته إلى دينتسيج أو سلوفاكيا. وكذلك جارنا من جهة اليمين السيّد لامْبِرغ الذي جلس وألف مذكّرات بلغة الإيديش، وعلى ما يبدو الجيران عن اليسار أيضاً، بيخوفسكي كتب كلّ مساء، والجيران روزِنْدورْف من أعلى، والجيران شطيخ في العمارة المقابلة. الجبل وحده، جارنا الذي يقع مباشرة وراء حائط بيتنا الخلفي، هو وحده الذي صمت طوال الوقت ولم يكتب حتى سطرا واحدا.

الكتب كانت شمعة الحياة النحيلة الّتي ربطت غواصتنا بالعالم الخارجي. من جميع الجهات أحاطت بنا الجبال والمغاور والصّحاري، البريطانيون، العرب، المنظمات السرية، صليات من مدافع رشاشة في الليل وانفجارات وكمائن واعتقالات وتفتيشات وهلع مكبوت بسبب تخبئه لنا الأيام القادمة. بين هذه كلها تلوّى أنبوب الحياة الدقيق إلى العالم الحقيقي: في العالم الحقيقي كانت البحيرة والغابة، السقيفة والمروج والمرعى، وكذلك القصر، الذي كانت له أبراج ونتوءات وسنام. وهناك كانت أيضاً الرّدهة، الغنيّة بالذهب والمخمل والبلّور، مضاءة بوهج أضواء مختلفة كتوهج سبع سماوات.

*

في تلك السنوات كما سبق وذكرت، توقعت أن أكبر وأن أصبح كتابا.

ليس كاتباً وإنما كتابا. وذلك لشدة الخوف.

لأنه تبيّن رُوَيداً رُوَيداً لكلّ من لم يصل أقاربه إلى البلاد بأن الألمان قتلوا الجميع. ساد القدس فزع شديد، حاول الناس دفنه عميقا عميقا داخل صدورهم، بكل ما أوتوا من قوة. دبابات رومل وصلت تقريبا مشارف أرض إسرائيل. الطائرات الايطالية قصفت أيام الحرب مدينة تل أبيب ومدينة حيفا. ومن يدري ماذا سيفعل لنا البريطانيون قبل خروجهم. وبعد خروجهم هناك جماهير عربية متعطّشة للدماء وملايين المسلمين المهتاجين، الذين سيقومون خلال عدة أيام بذبحنا جميعا. لن يُبقوا طفلا واحدا على قيد الحياة.

من البديهي أن الكبار حاولوا كثيرا جدّاً ألا يتحدّثوا عن هذه الفظائع على مسمع من الأطفال. في كلّ الحالات ليس باللغة العبرية. ولكن يحدث أحياناً أن تنزلق كلمة منهم. أو أن شخصا يصرخ بشيء وهو نائم. كانت البيوت كلها صغيرة ومكتظة مثل الأقفاص. في المساء عند إطفاء الأنوار كنت أسمع صوت تهامسهما في المطبخ، وهما يحتسيان الشاي مع البسكويت من صنع شركة فرومين، وتمكنت من أن استوعب: حلمنو[1] نازيون فيلْنا، الثوار اليهود، طرد اليهود وتحويلهم إلى معسكرات الإبادة في الدول الّتي احتلها النازيون، معسكرات الموت، قطارات الموت، العمّ دافيد والعمة مالكا والطفل دنيئيل ابن عمي وابن جيلي.

لذلك تغلغل الخوف: الأولاد في مثل سنك لا يكبرون دائماً. في كثير من الأحيان كانوا يأتون ويقتلونهم وهم في المهد. أو في الحضانة أو الروضة. في شارع نحميا أصيب مجلّد كتب بانهيار أعصاب فخرج إلى الشرفة وصرخ: أنقذوني أيها اليهود، النجدة، أسرعوا، عما قليل سيحرقوننا جميعا. الهواء كان مشحونا بالهلع والفزع. وأنا كنت قد استوعبت كم من السهل قتل الناس.

صحيح أنه ليس من الصعب إحراق الكتب أيضاً، ومع ذلك إذا ما كبرت وصرت كتابا فإنه يوجد، بكل تأكيد، احتمال لأن تبقى نسخة منه، في مكان ما ناءٍ، تفلح في البقاء حية، إذا لم يكن هنا، ففي بلاد أخرى، في إحدى المدن في إحدى المكتبات النائية، في زاوية رف بعيد وناءٍ: لقد رأيت أنا نفسي وبأم عيني كيف تستطيع الكتب أن تختبئ وأن تنسى في ظلمة الغبار بين صفوف المجلدات المكتظة تحت تلال من الكراسات والمجلات وأن تجد لها مخبأ مظلما وراء كتب أخرى-

---

(١) معسكر إبادة اقامه النازيون في الحرب العالمية الثانية في وسط بولندا إلى الغرب من لودج (المترجم).

٣٩

بعد ثلاثين سنة تقريبا أي في سنة ١٩٧٦، دُعيت للمكوث في القدس لمدة تقارب الشهرين لإلقاء عدد من المحاضرات، كمحاضر - ضيف، في الجامعة العبرية. وضعت الجامعة تحت تصرّفي شقة صغيرة على جبل المشارف، وفيها جلست كلّ صباح وكتبت القصة «السّيّد ليفي» الموجودة ضمن كتابي «جبل المشورة السيئة». تدور أحداث هذه القصة في شارع تسفانيا في أواخر أيام الانتداب البريطاني، ولذلك ذهبت لأتجول قليلا في شارع تسفانيا وفي الشوارع المجاورة، لأرى ماذا تغيّر من ذلك الوقت: المدرسة الخاصّة «وطن الطفل» أغلقت منذ أمد بعيد. الساحات امتلأت بالخُردوات. الأشجار المثمرة ماتت. المعلمون والموظفون والمترجمون وأمناء الصناديق ومجلّدي الكتب والمفكّرون البيتيّون كتاب رسائل القراء اختفوا جميعهم تقريبا من الحيّ الذي امتلأ مع الوقت بسكان متدينين متزمتين فقراء. كلّ جيراننا تقريبا اختفوا من على صناديق البريد. باستثناء السيدة شطيخ فقط، الأم المقعدة لمنوحالي شطيخ، بنت مقوسة الظهر كنا نسميها قزّومالي الّتي رأيتها مرة واحدة، عن بعد، تجلس على كرسي قصير في زاوية ساحة مهجورة غير بعيدة عن براميل الزبالة، وقد أخذ الكرى من عينيها. على جميع الحيطان تفتّحت إعلانات مبحوحة تلوح بقبضات نحيفة تهدد الخطاة بأنواع مختلفة من الميتات الغريبة: «لقد تجاوزن حدود الاحتشام»، «أصبنا بكسر كبير»، «لا تلمسوا ممسوحيّ»، «حجارة الحائط تصرخ من القرارات الشيطانية»، «يا للهول، وامصيبتاه، على المنكر الفظيع الذي لم يكن له مثيل في إسرائيل»، وما شابه.

ثلاثون سنة لم أرَ خلالها معلمتي من الصفّ الثاني في المدرسة الخاصة «وطن الطفل»، وها أنا فجأة أجد نفسي واقفا عند عتبة بيتها. مكان دكان بائع الحليب السّيّد لانْغِرْمَن الذي كان يبيع لنا الحليب من الجرار المعدنية المستديرة والثقيلة فتح في واجهة العمارة الأمامية دكان لرجل متدين متزمت لبيع مستلزمات الخياطة والأقمشة والأزرار والعُرى والسحابات ومستلزمات الستائر. من المؤكّد أن المعلمة زيلدا ليست هنا بعد؟

ولكن بين صناديق البريد المخلوعة ما زال صندوقها موجودا، هذا الصندوق الذي في صباي كنت أنشل منه بريدها لأنّ السكرة صدئت ولم يكن بالإمكان فتحه. الآن كان الصندوق مفتوحا على مصراعيه: بالتأكيد أن هناك من هو ضيق الصدر أكثر من المعلمة زيلدا ومني كسر الباب مرة واحدة وإلى الأبد، كما أن الكتابة على الصندوق اختلفت: فبدلا من زيلدا شْنيئورسون وجدت مكتوبا الآن شْنيئورسون موشْكوفْسكي: بدون زيلدا وبدون شرطة وبدون واو عطف بين الاسمين. وماذا اصنع إن فتح لي الباب زوجها؟ ماذا يمكنني أن أقول له؟ أو لها؟

كدت أستدير وأهرب من هناك، مثل العاشق الذي تفاجأ في أحد الأفلام الكوميدية (لم اعلم إطلاقاً بأنها تزوجت ولم أعلم أنها ترمّلت، لم أحسب بيني وبين نفسي بأنّني خرجت من بيتها وأنا في الثامنة والآن أعود إليها وأنا في السابعة والثلاثين، أكبر سنّاً منها عندما تركتها).

*

هذه المرة أيضاً كانت الساعة ساعة مبكرة جدّاً من ساعات الصباح.

من المؤكّد أنه كان من اللائق أن أتصل بها قبل الزيارة. أو أن اكتب إليها عدة أسطر. ربما تكون غاضبة عليّ؟ لم تسامحني على هجري المفاجئ لها؟ أو على صمتي طوال هذه السنوات؟ أو لأنّني لم أهنّئها بمناسبة صدور كتابها أو بمناسبة حصولها على الجائزتين الأدبيتين اللّتين فازت بهما؟ وربما أنها هي أيضاً مثل المقدسيّين القدامى الآخرين تحقد عليّ لأنّني في «ميخائيل خاصّتي» بصقت في الصحن الذي أكلت منه ذات يوم؟ وإذا كانت قد تغيّرت

حتى لا أكاد أتعرف عليها؟ وإذا كانت قد أصبحت امرأة أخرى بعد مرور تسع وعشرين سنة؟

تركت حلاوتي

تركت حلاوتي ولكني لن أسرع
إلى عسل العرّافين.
تركت حلاوتي وبيتي آخر، آخر،
ولكن، حتى الآن أيضاً
ما زالت تسمع فيه أصوات المحادثات
وطقوس الأعياد فيه
كما كانت بكل تفاصيلها.
لم أتحوّل إلى ريح تصفر في الفضاء.
سأذهب إذن لأروي ذلك الأصيص الدقيق
المتعطش للماء
يدور القلب في مساره المظلم
ثمّ يعود إلى الله.

*

وقفت ببابها عشر دقائق تقريبا، خرجت إلى الساحة، دخّنت سيجارة أو سيجارتين، لمست حبال الغسيل الّتي كنت اقطف عنها ذات مرة تنانيرها الداخلية البنية والرمادية. عثرت على البلاطة المصدّعة الّتي صدعتها أنا بنفسي عندما حاولت مرة أن أكسّر عليها حبات جوز بواسطة حجر. وأشرفت قليلا على المنظر الذي خلف سطوح حي البخاريين الحمراء، باتجاه التلال المهجورة الّتي كانت إلى الشّمال منّا. أما الآن فلم تعد ترى التلال كما أنها ليست مهجورة بل مكتظّة بالعمارات السكنية ذات النمط الواحد والّتي تشبه علب الكبريت: رموت اشكول، معلوت دفنة، جفعات همفتّر، التلة الفرنسية وجفعات هتحموشت.

ولكن ماذا سأقول لها عندما أدخل؟ سلام عليك يا معلمتي العزيزة

زيلدا؟ أرجو أنني لا أضايقك؟ اسمي كذا وكذا ؟ سلام عليك السيدة شنيئورسون موشكوفسكي؟ كنت طالبك في أحد الأيام، ربما ما زلت تذكرين؟ لطفا، سآخذ من وقتك عدة دقائق فقط؟ أشعارك تعجبني؟ أنت ما زلت تبدين رائعة؟ لا، لم احضر لإجراء مقابلة صحفية معك؟

*

يبدو أنني لم أتذكر كم مظلمة هي الشقق المقدسية الصغيرة الّتي في الطابق الأرضي، حتى في صباح يوم من أيام الصيف. الظلام فتح لي الباب: ظلام مليء بالروائح البنيّة. ومن داخل الظلام قال لي الصوت النّديّ الذي تذكّرته، صوت فتاة واثقة ومحبّة للكلمات:

«تعال عاموس، تفضّل ادخل.»

وبعدها مباشرة:

«أنت بالتأكيد تفضّل أن نجلس في الساحة؟»

وبعدها:

«أنت تفضّل الليمونادة الباردة مع القليل جدّاً من التركيز.»

وبعدها:

«عليّ أن أصحّح نفسي: ذات مرة كنت تحبّ الليمونادة مع قليل جدّاً من التركيز ولكن ربما حدث تغير في ذوقك خلال هذه المدة؟»

ما حدث في ذلك الصباح وما دار بيننا من حديث استرجعه بالطبع من الذاكرة- كمن يحاول أن يرمم عمارة قديمة مهدّمة بناء على سبعة أو ثمانية حجارة بقيت قائمة فوق بعضها. ولكن بين الحجارة القليلة الّتي بقيت بالضبط كما كانت، وليست استعادة أو استرجاعا كما أنها ليست اختلاقا، كانت أقوالها هذه: «عليّ أن أصحّح نفسي: . . . ربما حدث تغير في ذوقك خلال هذه المدة؟» هذه كلماتها الّتي قالتها لي بالضبط في ذلك الصباح الصيفي من أواخر شهر حزيران سنة ست وسبعين. بعد تسع وعشرين سنة من ذلك الصيف العسليّ الذي قضيته معها. وخمس وعشرون سنة قبل الصباح الصيفي الذي أكتب فيه هذه الصفحة (في غرفتي في مدينة عَراد في دفتر مليء بالخراطيش، بتاريخ ٣٠/٧/٢٠٠١: وعليه فإنّ هذه عملية تذكّر لزيارة كان

هدفها هي أيضاً في حينها إثارة تذكّر أو نبشاً للجراح القديمة. في كلّ هذه التذكّرات فإنّ عملي شبيه إلى حدٍّ ما بعمل من يحاول أن يبني شيئا من حجارة انهيار الّتي يحفر ليخرجها من تحت أنقاض عمارة كانت هي الأخرى قد بنيت بحجارة انهيار).

«عليّ أن أصحّح نفسي،» قالت المعلمة زيلدا، «ربما حدث تغير».

كان بإمكانها أن تقول ذلك بعدة صيغ أخرى مختلفة. كان بإمكانها، على سبيل المثال، أن تقول: ربما أنت الآن لا تحب الليمونادة؟ أو ربما أنت الآن تحب أن تشرب الليمونادة مع كثير من التركيز؟ أو أيضاً بكل بساطة كان بإمكانها أن تسألني: ماذا تحب أن تشرب؟

كانت إنسانا دقيقا: كانت رغبتها أن تثير بشكل مباشر، بفرح وبدون أيّ نوع من الحقد أو الضغينة ماضينا الخاصّ بنا أنا وهي (ليمونادا، تركيز قليل فقط) - إلا أن رغبتها كانت أن تثيره دون تسخير الوقت الحاضر لصالح الوقت الغابر(«ربما حدث تغير؟»- مع علامة استفهام- وبذلك منحتني حقّ الاختيار وألقت على عاتقي مسئولية توجيه سيرورة الزيارة. إذ أنا هو من بادر إليها).

قلت (طبعا بدون ابتسامة):

«شكراً. يسعدني جدّاً أن أشرب عندك الليمونادة كما في الماضي.»

قالت:

«هذا ما ظننته، ولكن رأيت من المناسب أن أسأل؟»

بعد ذلك شربنا الليمونادة الباردة (مكان صندوق الجليد توجد الآن ثلاجة كهربائية صغيرة من طراز قديم وقد ظهر عليها البِلى). استرجعنا بعض الذكريات. لقد قرأت كتبي كما قرأت كتبها ولكن هذا الموضوع مررنا عليه بخمس أو ست جمل، كمن يجتاز بسرعة مقطعا غير آمن من الطريق.

تحدثنا عن مصير الزوجين إيزابيلا وجيتسل نَحْليئِيلي. وعن معارف مشتركين آخرين. عن التغييرات في حيّ كيرم أفراهام. وكما ذكرنا بسرعة فائقة والديّ والمرحوم زوجها الذي توفي قبل خمس سنوات من زيارتي، ثمّ عدنا إلى سرعتنا العادية وتابعنا الحديث، تحدّثنا عن عغنون وربما عن

توماس وولف أيضاً («انظر إلى الخلف، أيها الملاك» ترجم إلى العبرية في تلك الفترة تقريبا، أو أننا قرأناه كلانا باللغة الإنجليزية). كلما اعتادت عيناي على الظلمة التي سادت الغرفة استغربت كيف أن كلّ شيء تقريبا بقي مكانه. البوفيه البني البائس الذي كان مطليّاً بالبوليتورا بهت لونه وربض في زاويته مثل كلب بيتي عجوز. من خلف الزجاج أطلت فناجين السيرفيس الناعسة. على البوفيه كانت صورة والدي زيلدا اللذين بدوا أصغر منها، وكذلك صورة رجل ملتحٍ خمّنت أنه زوجها ومع ذلك سألتها من يكون. عندما سألتها فجأة شع النور من عينيها، ولمعت بطيش صبياني، ضحكت معي كأنما انتهينا لتوّنا من عمل أُحْبُولَة سرية ولكنها تمالكت نفسها واكتفت بأن قالت:

«هذا حييم.»

الطاولة البنية المستديرة تقلّصت مع الوقت وبدت لي منخفضة جدّاً. في المكتبة هناك كتب دينية قديمة بتجليد أسود بالٍ إلى جانب عدة كتب دينية جديدة، كبيرة، فخمة، بتجليد جلديّ مع كتابة ذهبية إلى جانب كتاب شيرمن عن الشعر العبري في الأندلس، بالإضافة إلى العديد من دواوين الشعر والروايات من الأدب العبري الحديث، بما فيها صف كامل من كتيبات سلسلة «المكتبة الشعبيّة». لهذه المكتبة كان في أيام طفولتي حضور بارز وقد انخفض الآن وأصبح بمستوى الكتفين. هنا وهناك على الرف، وعلى البوفيه وعلى الرف الذي عند رأس الكنبة انتصب شمعدانان فضيان ليوم السبت، وشمعدانات حانوكا متنوعة وتذكاريات صغيرة مصنوعة من خشب الزيتون أو من النحاس المحفور وأصيص وحيد بائس على خزانة الأدراج وأصيص آخر أو أصيصان على قاعدة الشباك. على الكل سادت ظلمة مشبعة بروائح بنية: كانت بكل تأكيد غرفة امرأة متدينة. ليس مكان تزهّد ولكن مكانا انطوائيا مكبوتا وبناء عليه محزنا: حقّاً، حصل تغيير كما قالت. ليس لأنها هرمت وليس لأنها أصبحت محبوبة ومشهورة، بل وربما: لأنها أصبحت جديّة.

ولكنها، كانت دائماً وطوال الوقت إنسانا ذات انضباط وجدّيّة واتّزان داخليّ. من الصعب تفسير ذلك.

*

بعد تلك الزيارة لم أعد إليها ثانية. سمعت أنها انتقلت للسكن في بيئة جديدة. سمعت أنه كانت لها خلال السنوات، عدة صديقات حميمات أصغر سنّاً منها وحتى مني. سمعت أنها أصيبت بمرض عضال، أنها في احدى ليالي السبت من سنة ١٩٨٤ توفيت وهي تعاني آلاماً فظيعة. أما أنا فلم أرجع إليها ولم أكتب لها رسالة ولم أرسل إليها كتابا من كتبي ولم أعد أراها باستثناء بعض الصور في الملاحق الأدبية ومرة أخرى يوم وفاتها، لفترة أقلّ من دقيقة قبيل نهاية نشرة الأخبار في التلفزيون.

عندما وقفت لتوديعها والانصراف اتّضح لي أن السقف انخفض مع الوقت، حتى كاد يلامس رأسي.

السنون لم تغير فيها كثيرا. لم تتشوّه ولم تسمن ولم تتغضّن، بريق عينيها ما زال يومض بين الحين والآخر خلال محادثتنا مثل الشعاع المنبعث منها ويتغلغل فيّ لكي يكشف مكنوناتي. ومع كلّ ذلك هناك تغيير. كأن المعلمة زيلدا تحوّلت مع عشرات السنين الّتي لم أرَها فيها تشبه قليلا شُقّتها القديمة.

كانت مثل الشمعدان الفضي، مثل شمعدان مضيء بضوء خافت داخل فضاء غامق. وبودي هنا أن أدقق دقة متناهية: في ذلك اللقاء المتأخر كانت زيلدا في نظري شمعة وشمعدانا أيضاً وكذلك الفراغ الغامق. وهذا ما كتبته عنها في كتابي «ذلك البحر نفسه»:

ما أردته وما عرفته

ما زلت أذكر غرفتها:
شارع تسفانيا. المدخل من الساحة.
ابن ثمانٍ وربع، نشيط
ولد يحب الكلام. عاشق

تكتب: «غرفتي لا تسأل
الإشراق والغروب. يكفيها

أن الشمس تأتي بطبق من ذهب
والقمر يأتي بطبق من فضة.» أتذكر.

أعطتني التفاح والعنب
في العطلة الصيفية سنة ست وأربعين.
ربضت لها على الحصيرة،
ولد- اكاذيب. عاشق

من الورق كنت أقصّ لها
الورود والبراعم. كانت لها
تنورة، بنيّة، تشبهها،
جرس ورائحة الياسمين.

امرأة صموت. لامست
أطراف فستانها. صدفة.
ما أردت لم اعرفه
وما عرفته يحرق.

٤٠

كلّ صباح قبيل الشروق أو بعيده اعتدت أن أخرج لكي أفحص ما استجدّ في الصحراء. الصحراء تبدأ هنا في طرف شارعنا. من جهة جبال آدوم هبت ريح صباح شرقية تعمل هنا وهناك دوامات رملية صغيرة تحاول أن ترتفع فوق الأرض ولكنها لا تفلح. كلّ واحدة منها ترفرف قليلا ثمّ تتشوّه وتفقد شكلها الإعصاريّ ثمّ تخمد. الجبال نفسها ما زالت مختفية بفعل البخار المتصاعد من البحر الميّت الذي يكسو الشروق وسلسلة الجبال بوشاح رماديّ،وكأن الفصل ليس صيفا بل خريفا جاء مبكرا. إلا أن ذلك خريف وهميّ: إذ بعد ساعة أو ساعتين سيعود ليسود الجفاف والحرارة. كما كان أمس. وقبل أمس وكما كان قبل أسبوع وقبل شهر.

مؤقّتا، برودة الليل ما زالت صامدة. توجد رائحة لطيفة تنبعث من التراب الذي ارتوى بطل كثير، ممزوج برائحة كبريت خفيفة وبرائحة بَعْر الغنم والأشواك والمواقد المُطفأة. هذه رائحة أرض إسرائيل منذ القدم. أنزل إلى الوادي وأتقدّم في شِعْب متعرّج شديد الانحدار، حتى طرف الصخرة الّتي منها تنفتح أمامي مشاهد البحر الميّت، حوالي تسع مئة متر من تحتي، وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومترا من هنا. ظلال الجبال الشرقية يسقط على وجه الماء فيضفي عليه لون النحاس العتيق. هنا وهناك يفلح رأس شعاع أن يثقب للحظة الغيوم وأن يلامس البحر. والبحر من جهته يرد فوراً بومضة تبهر البصر. وكأنّ عاصفة برقية تحتمائية تحدث فيه.

من هنا وحتى هناك تمتد منحدرات فارغة من الصخور الجيرية المنقّطة

بالصخور الصلبة السوداء. وها هو بين هذه الصخور تماماً عند خط الأفق عند رأس التلة مقابلي ثلاث عنزات سوداء وبينها هيئة إنسان تقف دون حراك ملفوفة برداء أسود من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها: امرأة بدوية؟ وكلب يقف بجانبها؟ وهاهم جميعا يختفون وراء خط سلسلة الجبال، المرأة والغنمات والكلب. الضوء الرمادي يضع كلّ حركة تحت علامة استفهام. وفي غضون ذلك، كلاب أخرى تبدأ تصدر أصواتها من بعيد. قليلا إلى الأمام بين الصخور القريبة من الشِّعْب توجد خرطوشة قذيفة صدئة. كيف وصلت إلى هنا؟ ربما مرّت من هنا من الوادي في إحدى الليالي قافلة مهرّبين على سنام الجمال في طريقهم من سيناء إلى جنوب جبل الخليل، وقد أضاع أحد المهرّبين هذه القذيفة أو أنه لم يضعها بل ألقاها بعد أن تساءل ماذا سيفعل بها؟

الآن يمكن أن أسمع كلّ أعماق الهدوء الصحراوي. لا الهدوء الذي يسبق العاصفة وليس هدوءاً في نهاية المطاف بل ما هو إلا هدوء يغطّي على هدوء آخر، أشدّ عمقاً منه. وقفت هناك ثلاث - أربع دقائق وأنا أقف هناك وأستنشق الصمت كما الرائحة. ثمّ أستدير لكي أعود أدراجي. اصعد راجعا من الوادي إلى طرف الشارع وأتجادل مع مجموعة غاضبة من الكلاب الّتي بدأت تعوي عليّ من كلّ جانب. ربما خيل إليها بأنّني أنوي إدخال الصحراء إلى المدينة.

بين أغصان الشجرة المتطرفة في الحديقة الأولى الّتي بجانب أول بيت برلمان كامل من الدوريّات في خضم نقاش صاخب، الكلّ يقاطع بصراخه الكلّ. كلّ شيء هناك يصم الآذان، يبدو أن هذه الدوريات لا تزقزق بل تزأر فعلا: وكأنّ انقشاع ظلام الليل وبزوغ الفجر الأول هو تطوّر خطير لم يسبق له مثيل يوجب عقد جلسة طارئة.

*

في مرتقى الشارع توجد سيارة تمّ تشغيل محركها مع نوبة من سُعال قرقرة مبحوح مثله مثل المدخّن المدمن. موزّع الجرائد يحاول عبثا مراوغة كلب غير متساهل. جار قزم مسفوع رجل قويّ لولبيّ مع غابة كثيفة من

تجاعيد الشعر الشائب الذي يغطي صدره المكشوف، كولونيل سابق في الجيش، جسمه المربّع يذكّرني بصندوق لف معدني، شبه عار يقف هناك يرتدي بنطلونَ تدريبٍ أزرقَ ويسقي بأنبوب مسكب الورود الّتي أمام بيته.

«تبدو الورود رائعة، صباح الخير يا سيد شموليفيتش.»

«أيّ خير تجده في هذا الصباح؟» هاجمني، «ماذا هل توقّف شمعون بيرس عن بيع الدولة بالجملة لعرفات؟»

وعندما قلت له بأنّ هناك من ينظرون إلى ذلك نظرة مختلفة، أضاف بحزن:

«يبدو أن كارثة واحدة غير كافية لنا كي نتعلم منها الدرس. أما زلتم تسمون هذه المصيبة سلاما؟ عن قطاع السوديتين [بتشيكوسلوفاكيا] هل سمعت مرة؟ عن ميونيخ؟ عن تشمبرلين؟ لا؟ »

عن ذلك عندي إجابة مفصّلة ومعلّلة، ولكن من مخزون الصمت الذي جمعته من قبل في الوادي، أخرجت الكلمات التالية:

«أمس، في الساعة الثامنة تقريبا كانوا يعزفون عندكم على البيانو السوناتة «ضوء القمر». مررت من هنا وحتى توقفت لبضع دقائق كي أصغي. هل كانت تلك ابنتك؟ لقد عزفت بشكل رائع، أرجو أن تنقل لها إعجابي.»

نقل الأنبوب إلى المسكب التالي وهو يبتسم إليّ مثل طالب خجول تمّ انتخابه فجأة بتصويت سريّ لمنصب سكرتير الصفّ: «لم تكن تلك البنت» أجاب، «البنت أصلا سافرت إلى براغ. كانت تلك بنت البنت، حفيدتي. دنيئلة. حصلت على المكان الثالث في مسابقة المواهب الشّابة لكلّ منطقة الجنوب. مع أن الجميع بلا استثناء قالوا بأنها، بكل تأكيد، تستحق المكان الثاني على الأقلّ. كما أنها تكتب قصائد جميلة جدّاً. قصائد رقيقة وحساسة. ربما يكون عندك بعض الوقت؟ حتى يمكن أن نُحضر إليك ذات مرة بعضا منها لتقرأها، ربما يمكنك أن تشجّعها قليلا؟ أو أن ترسل إحدى القصائد إلى إحدى الصحف لنشرها؟ منك، سيقبلون، بكل تأكيد، القيام بذلك؟»

وعدت السّيّد شموليفيتش أنني سأنتهز إحدى الفرص وأقرأ قصائد

دنيئيلة. بكل سرور، بالتأكيد. ولم لا. لا شكر على واجب.

سجلت هذا الوعد في دفتر يوميات قلبي على أنه مساهمة متواضعة مني لدعم تأييد السلام. بعد ذلك، في غرفتي، وفنجان القهوة بيدي وجريدة الصباح مفروشة على الكنبة، وقفت عشر دقائق أخرى عند النافذة. استمع في الأخبار من الراديو عن فتاة عربية بنت سبعة عشر عاما أصيبت بجروح بليغة من عيار ناري في صدرها بعد أن حاولت طعن جندي إسرائيلي في حاجز بالقرب من بيت لحم. نور الصباح الذي كان ممزوجا بالبخار الرمادي بدأ يسخن الآن وتحول إلى أزرق فاتح قويّ دون تنازلات.

*

عند شباكي توجد حديقة صغيرة، بضع شجيرات، متسلّقة، شجرة ليمون ضعيفة لا ادري إن كانت ستعيش أم ستموت، قمتها شاحبة وجذعها مُلتَوٍ مثل الذراع التي يثنيها أحدهم بالقوة إلى الخلف. كلمة «مُنْعَقِف» تذكّرني بما اعتاد والدي أن يقوله: «ليكن معلوما لديك، أن كلّ شيء في اللغة العبرية، أول حرفين منه هما عين وقاف فإنّ هذا يشير، وبلا استثناء تقريبا، إلى أنه فيه إشكال، أو ورطة أو فضيحة. انتبه إلى الكلمات التالية: أعوج، عنيد، محنة، مواربة، لدغ، أفعوانيّ، تكبيل، دامٍ، مفتول، اقتلع، وعقرب[1] وحتى أنت سمو جنابك، لا شك أنّك انتبهتَ إلى أن الحرفين الأولين في اسمك هما ع.ق.[2] إما أنها مجرد صدفة أو أنها ليست من باب الصدفة.»

ربما أكتب اليوم مقالا إلى جريدة «يديعوت أحرونوت»، وفيه أحاول أن اشرح للسيد شموليفيتش بأن انصرافنا عن الاحتلال لن يُضعف إسرائيل بل يقوّيها؟ واشرح له أنه ليس صحيحا أن نرى في كلّ مكان المرة تلو المرة الكارثة وهتلر وميونخ؟

لقد حكى لي السّيّد شموليفيتش، ذات مرة، في إحدى أمسيات الصيف

---

(١) كلمات بالعبرية تبدأ بالعين والقاف (المترجم).

(٢) عاموس كلاوزنر، كلاوزنر بالعبرية تكتب بالقاف (المترجم).

الطويلة الّتي فيها يخيّل إليك بأن ضوء المساء لن يذوي إلى الأبد، جلسنا كلانا مع فانيلات وصنادل على دربزين جدار بيته، كيف أنه، عندما كان صبياً في الثانية عشرة من عمره، أُخذ مع والديه وجدته وأخواته الثلاث، إلى مركز الإبادة، مايدنك، وأنّه هو الوحيد الذي خرج منه حيّاً. لم يرد أن يحكي لي كيف نجا. وعدني بأنه ربما حكى لي ذلك في مناسبة ثانية. ولكنه، في المرات الأخرى فضّل أن يحاول أن يُفهّمني بألا أومن بالسلام وأن أكفّ عن كوني ساذجا وأن افهم جيدا وأقتنع بأن قصدهم الوحيد هو ذبحنا جميعا وأن كلّ ما يقولونه عن السلام ما هو إلا شَرَك أو مخدّر يساعد العالم كله في صناعته وتقديمه إلينا يريدوننا أن ننام كما في حينه.

*

قررت أن أؤجل كتابة المقال. فصل غير كامل من هذا الكتاب ينتظرني على طاولتي مع كوم من المسوّدات المخربشة والقصاصات المُجعّدة وأنصاف صفحات مليئة بالشطب والمسح والحذف: هذا هو الفصل عن المعلمة إيزابيلا نَحْليئِيلي من مدرسة «وطن الطفل» وعن كلّ جيش قططها. عليّ أن أتنازل عن القليل، وأن أمسح من الفصل بعض الأحداث مع القطط وبعض الحوادث مع جيتسل نَحْليئِيلي، أمين الصندوق: صحيح أن تلك الحوادث كانت مسلية جدّاً، ولكنها لا تسهم بشيء في تطوّر القصة. تسهم؟ تطوّر؟ فانا ما زلت لا أعرف، بعد، ما الذي يمكن أن يسهم في تطوّر القصة، لأنّني ما زلت لا أملك أيّ فكرة بالمرة عن الطريق الّتي تريد هذه القصة أن تسلكها، ولماذا أنا بحاجة، أصلا، إلى مساهمات؟ أو تطوّرات؟

مؤقتا بعد أخبار الساعة السابعة صباحا كنت قد احتسيت فنجان قهوة ثانٍ وأنا ما زلت واقفا انظر خارجا عبر الشباك: عصفورة صغيرة، تُمَّرة جميلة بلون فيروزي، تنظر إليّ للحظة من بين أغصان شجرة الليمون: تتأرجح، تقفز، تنتقل من غصن إلى برعم، تتبختر أمامي بكل بريق ريشها بين انكساري الظل والضوء. رأسها بنفسجي تقريبا، عنقها أزرق معدني، على صدرها يوجد ما يشبه الجاكيت الأصفر الرقيق، مرحبا بعودتك. بمَ جئت تذكرينني في هذا الصباح؟ بالزوجين إيزابيلا وجيتسل نَحْليئِيلي؟ بقصيدة حييم

نحمان بياليك «فنن تدلّى» الّتي مطلعها : «على سياج تهاوى غافياً فننٌ» أم بوالدتي الّتي كانت تقف وقتا طويلا أمام الشباك، وكأس شاي تبرد في يدها، وجهها باتجاه شجيرة الرمان وظهرها باتجاه الغرفة؟ لكن، كفى. عليّ أن أبدأ العمل. عليّ أن استعمل بقية الهدوء الذي جمعته في الوادي هذا الصباح قبيل الشروق.

*

في الحادية عشرة قفزت بالسيارة إلى وسط المدينة للقيام ببعض شئوني في البريد، والبنك والعيادة ودكان القِرْطاسِيَّة. شمس استوائية تكوي الشوارع الّتي أشجارها متفرقة و مُغْبَرّة. الضوء الصحراوي أصبح متوهِّجا يقسو عليك حتى أن العينين تتحولان من تلقاء نفسيهما إلى ثقبي دبابة ضيّقين.

يوجد طابور صغير بالقرب من الصرّاف الآلي وطابور آخر صغير أمام كشك فعكنين لبيع الصحف. في تل أبيب، في العطلة الصيفيّة لسنة خمسين أو إحدى وخمسين، ليس بعيدا عن شقة العَمّة حاية والعم تسفي في شمال شارع بن يهودا أراني ابن عمي يجئال كشكَ أخي دافيد بن غوريون، وكيف أنّ كلّ من يريد يستطيع أن يقترب منه وأن يتحدث بحرية كما تريد مع أخ بن غوريون هذا والذي يبدو شبيها جدّاً به. حتى أنك تستطيع أن توجّه له الأسئلة. على سبيل المثال، كيف حالك يا سيد غرين؟ ما هو ثمن الويفر المطلي يا سيد غرين؟ هل ستندلع حرب أخرى عما قريب يا سيد غرين؟ لكن، لا تسأله عن أخيه. هكذا. إنّه بكل بساطة لا يحبّ أن يُسأل أيّ سؤال عن أخيه.

غرت كثيرا من التل- أبيبيّين: لنا في «كيرم أفراهام» لا يوجد هناك أشخاص مشهورون ولا إخوة لأشخاص مشهورين. الأنبياء الجانبيون فقط كانوا موجودين في أسماء أزقّتنا: شارع عاموس، شارع عوفاديا، شارع تسفانيا، وحجاي، وزخاريا، وناحوم، وملآخي، ويوئل، وحبقوق، وهوشَع. كلّهم.

قادم من روسيا يقف في زاوية الفسحة التي في وسط مدينة عَراد. على الرصيف أمامه علبة كمانه مفتوحة لاستقبال الصدقات. المعزوفة هادئة جدّاً،

حزينة، تذكّر بغابات أشجار التَنُّوب وبينها الجداول والسقائف والمروج والمراعي الّتي تثير حكايات أمّي عندما كنا أنا وهي نجلس و«ننقي» العدس أو نقشر قرون البازيلاء في كوخنا- مطبخنا المسوّد بالسخام.

لكن، هنا في الفسحة الّتي وسط مدينة عراد الضوء الصحراوي يجفّف الأشباح ويبدّد كلّ ذكر لغابات أشجار التَنُّوب ولخريف مشبع بالضباب. هذا الرجل الذي يعزف، بشعر لبدته الشائب وبشاربه الأبيض الكثيف يذكرني إلى حد ما بشخصية ألبرت أينشتاين ويذكرني قليلا بالبروفيسور شموئيل هوجو بيرغمن الذي علّم أمّي الفلسفة على جبل المشارف كما أنني حظيت أيضاً بأن تعلمت عنده في جفعات رام في سنة إحدى وستين دروسا لا تنسى حول تاريخ فلسفة الحوار من كيركيجور وحتى مارتين بوبر.

امرأتان شابتان ربما من مهاجري شمال أفريقيا الأولى نحيفة جدّاً وترتدي قميصا شفّافا وتنورة حمراء بينما تلبس زميلتها بدلة بنطلون غنية بالسيور والأبازيم. توقفت الاثنتان أمام الرجل الذي يعزف. تصغيان لعزفه للحظة أو للحظتين. عيناه وهو يعزف مغمضتان وهو لا يفتحهما. تتبادل المرأتان التهامس تخرجان محفظتيهما وتتبرع كلّ منهما بقطعة نقدية من فئة الشيكل.

المرأة النحيفة والتي شفتها العليا مشدودة قليلا إلى أعلى باتجاه منخريها تقول:

«ولكن كيف يمكنك أن تعرفي أن هؤلاء هم يهود حقيقيون فعلا؟ نصف الروس الذين قدموا إلى هنا يقال بأنهم أغيار الذين استغلوا الهجرة اليهودية من أجل الخروج من روسيا، وإضافة إليها الحصول من عندنا هنا على سلة الاستيعاب هكذا مجانا دون مقابل.»

تقول زميلتها:

«هذا لا يغيّر شيئا، ليأت من يريد، وليعزف حتى على الرصيف، إن كان يهوديا أو درزيا أو جورجيّاً ما الفرق؟ أولادهم سيصبحون إسرائيليّين، وسيخدمون في الجيش والاحتياطي وسيأكلون ساندويتشات ستيكات مع مُخلّل وسيأخذون قرض إسكان ويظلون طوال النهار يتذمّرون ويتبرّمون.»

التنورة الحمراء تدّعي:

«ولكن، ماذا حدث لك يا سريت، أجننتِ؟ إذا سمحوا هنا لكلّ من يريد أن يدخل إلى البلاد بحرية مطلقة من العمال الأجانب ومن غزة ومن المناطق (المحتلة)، من إذن - »

*

إلا أن تتمة النقاش ابتعدت عني باتجاه موقف السيارات التابع للمجمع التجاري. أذكّر نفسي بأنّني لم أكد أتقدّم شيئا اليوم وأن النهار لم يعد طفلا. أنا في غرفتي ثانيةً. بدأت الحرارة تتزايد والرياح المغبرة تحمل الصحراء إلينا إلى الداخل. قمت بإغلاق الشبابيك والأباجورات والستائر، أغلق كلّ ثقب تماماً كما كانت اعتادت حاضنتي «غريتا» جات الّتي كانت معلمة بيانو أيضاً أن تفعل دائماً حيث تغلق كلّ ثقب وشق حتى تحوّل بيتها إلى غوّاصة.

عمال عرب بنوا هذه الغرفة قبل سنوات ليست كثيرة: وضعوا البلاطات واحكموها من خلال ميزان الماء. ركبوا الأطر الخشبية للأبواب والشبابيك وحددوها. وفي داخل الحيطان دفنوا شبكة أنابيب للمياه النقية ومياه المجاري، وخطوط الكهرباء ونقطة للربط مع شبكة التلفون. نجار ضخم الجسم، يحب الأوبرا، صنع لي خزائن وثبّت رفوفا على الحائط للكتب. مقاول تراب قدم إلى البلاد في أواخر الخمسينيات من رومانيا أرسل وأحضر من مكان بعيد شاحنة محمّلة بتربة خصبة للحديقة وغطى بها كما بواسطة ضمادة على الجرح، طبقة التربة الكلسية الجيرية الصخرية المالحة الّتي تمتد على هذه التلال منذ الأزل. في التربة الجيّدة الّتي احضرها مقاول التراب زرع الساكن الذي كان قبلي شجيرات وأشجارا وحشيشا أحاول أنا الاغتناء به ولكن دون مبالغة في الحب، كيلا يحدث هنا في حديقتي ما حدث لأبي في حديقته المشبعة بالنّوايا الطيّبة.

عدة عشرات من الطلائعيين من بينهم أفراد من محبّي الصحراء أو محبّي العزلة بالإضافة إلى عدة أزواج شابّة جاؤوا واستوطنوا في أوائل الستينيّات في هذه البلدة الصحراوية: عمال مناجم، حجّارون، ضباط جيش محترفون وعمال مشاريع التطوير. لوبا إلياف ومعه مجموعة صغيرة من بناة المدينة متحمّسون مولعون بالصهيونية، فكروا وخططوا على الورق وفورا أقاموا أيضاً

هذه البلدة: شوارع، وميادين، وجادّات وحدائق، ليس بعيدا عن البحر الميت، في مكان ناء، في تلك الأيام، في أوائل الستينيّات، لم يكن هناك أيّ شارع أو أيّ خط مياه أو أيّ خط كهرباء يصل إلى هناك. مكان لم تنبت فيه أيّ نبتة، لم يكن هناك أيّ خط، ولا أيّ بناء ولا أيّ خيمة ولا أيّ علامة لوجود الحياة. حتى أن بلدات البدو الّتي في المنطقة أقيمت كلها تقريبا بعد إقامة مدينة عراد. كان الطلائعيون الذين أقاموا المدينة متحمّسين، نافذي الصبر غنيّين بالجمل البلاغية المنمّقة كثيري الضجيج.

دون أن يفكروا مرتين أقسموا «أن يفلحوا الأرض ويستصلحوا الصحراء». (مثل أبي من قبلي أنا لا أقوى على مقاومة الإغراء بأن أسرع إلى القاموس لأفحص العلاقة بين الصحراء والاستصلاح؟ وما بينهما وبين الصّلاح؟ والصُّلح؟ والتصليح؟ وربما التّصحّر أيضاً؟)

*

شخص ما يمرّ الآن أمام البيت في سيارة صغيرة حمراء ويتوقف بالقرب من صندوق البريد الذي عند زاوية الشارع ويأخذ منها الرسائل الّتي أرسلتها أمس. شخص آخر جاء ليثبّت بالاسمنت حجر الرصيف الّذي اختل مكانه في الرصيف المقابل. يجب أن نجد طريقة كي نشكرهم، جميعا، كما يفعل الفتى ابن الثالثة عشرة[١] في نهاية خطبته في الكنيس لكلّ من أوصله إلى ذلك: للعَمة سونيا، والجد أَلِكْسَنْدِر، ولغريتا جات، وللمعلمة زيلدا، وللرجل العربي صاحب أكياس الدمع المنتفخة الذي منحني الحياة من جديد عندما أنقذني من الزنزانة المظلمة الّتي انحبست فيها في حانوت الملابس تلك، ولوالديّ، وللسيّد زارحي، وللجارين لامبرج، وللجنود الايطاليين الأسرى، وللجدّة شلوميت المحاربة للميكروبات، للمعلمة إيزابيلا وقططها، وللسيد عجنون، ولعائلة رودنيتسكي، وللجد - بابا الحوذيّ من كريات موتسكين، ولشاؤول تْشرْنِيحوفْسْكي وللعمة ليلينكا بار - سمخا، لزوجتي وأولادي، للأحفاد، وكذلك للبنائين والبلاطين والكهربائيّين الذين بنوا هذا

(١) سن التكليف الديني (المترجم).

البيت، للنجار، ولموزّع الجرائد، للرجل في سيارة البريد الحمراء، وللشخص الذي عزف على الكمان في زاوية الفسحة والذي يذكرني بأينشتاين وبيرجمَن، للكهربائي، للمرأة البدوية وللعنزات الثلاث السوداء الّتي رأيتها اليوم قبل الصباح أو ربما تخيلت أني رأيتها، للعمّ يوسف الذي ألف كتاب «اليهودية والإنسانية» وللجار شموليفيتش الذي يخشى حدوث كارثة جديدة، لحفيدته دنيئيلة الّتي عزفت أمس على البيانو السوناتا «ضوء القمر»، للوزير شمعون بيرس الذي سافر أمس ثانية للتفاوض مع عرفات محاولا التوصل - بالرغم من كلّ شيء- إلى تسوية مقبولة على الطرفين، للعصفورة الدورية الّتي تزور بين الحين والآخر شجرة الليمون مقابل شباكي. وكذلك لشجرة الليمون نفسها. وبشكل خاصّ لسكينة الصحراء قبيل الشروق، السكينة الّتي تنطوي على سكينات وسكينات. كان هذا ثالث فنجان قهوة أشربه هذا الصباح. يكفي. أضع الفنجان الفارغ على الطاولة برفق خاصّ أضعه حتى أنه لا يُسمع أيّ صوت مهما كان بسيطا، عند ملامسته للطاولة، كيلا أسبب ألماً للسكينة الّتي لم تتبعثر بعد. الآن سأجلس وأبدأ الكتابة.

٤١

حتى ذلك الصباح لم أرَ بيتا كهذا طوال حياتي.

فناء البيت كان محاطا بسور حجريّ سميك أخفى وراءه بستانا ظليلا يظلل على نفسه بأشجار الدوالي والأشجار المثمرة. عيني المندهشة تجوّلت باحثةً بين أسرابه عن «جرة الحياة» وعن «جرة المعرفة». أمام البيت كانت هناك بئر ماء وحولها ساحة كبيرة، مرصوفة ببلاطات حجريّة مصقولة تميل بلونها إلى الحمرة. في هذه البلاطات توشّجت عروق زرقاء فاتحة ناعمة. عند زاوية الساحة ظللت عريشة دوالٍ كثيفة ومتشابكة مفتوحة من الجهتين أمام الرياح الغربية. عدة مقاعد حجرية مع طاولة حجرية منخفضة وعريضة تغريك بالمكوث قليلا داخل هذه العريشة، وأن تسترخي وتستريح في ظل الدوالي وأن تستمع حتى الارتواء لصوت طنين نحلات الصيف وسقسقة طيور البستان وخرير مياه النافورة: إذ أنه في طرف العريشة كانت هناك بركة زينة صغيرة على شكل نجمة خماسية مليئة بالمياه، هي أيضاً مصنوعة من الحجر ومبلَّطة من الداخل ببلاط صيني أزرق فاتح ومزينة بزخارف الخط العربي. في جوف البركة بقبقت نافورة خرساء. كتل من الأسماك الذهبية تحلّق ببطء هنا وهناك في المناطق العارية من الغابة الّتي بين كتل أوراق نباتات النيلوفر.

من الساحة صعدنا نحن الثلاثة، منفعلين ومتأدّبين وبتواضع جمّ، الدرج الحجري المصقول الذي قادنا إلى شرفة أمامية واسعة والتي منها ظهرت أمامنا الأسوار الشمالية للبلدة القديمة ومن بينها المآذن والأبراج والقباب. على الشرفة كانت منتشرة هنا وهناك كراس خشبية مع تنجيد مخدات مع كراسي

قدمين وبينها عدة طاولات فسيفساء صغيرة، وهنا أيضاً كما في عريشة الدّوالي يطمح القلب في أن تقيّل هنا أمام السور والتلال وأن تأخذك سِنة من نوم في ظل قمم الأشجار أو أن تتشرّب بهدوء سكينة الجبال والحجارة.

ولكننا لم نتأخر في البستان ولا في العريشة ولا في الشرفة المطلة على المنظر بل سحبنا بلطف خيط الجرس الذي بجانب الباب الحديدي المكوّن من درفتين والمدهون بلون خشب شجرة الماهوغانى، باب مزيّن بنقوش وزخارف فنية صنعتها يد فنان ماهر على شكل رمان حديديّ وعنب حديديّ وأَلْيافٌ مِخْلاَقِيَّة حديديّة متعرّجة وجدائل من الأزهار الحديدية المتناسقة. حتى انفتح الباب عاد العمّ ستاشيك وأدار وجهه نحونا وعاد ووضع إصبعا مسَكِّتةً على شفتيه، كمن يصدر للعمة مالا ولي إشارة إنذار أخيرة: الأدب! ضبط النفس! السياسة!

*

على طول حيطان غرفة الضيوف الواسعة، الباردة، وضعت أرائك ناعمة مساندها الخشبية المحفورة متجاورة ومتلاصقة. أثاث الغرفة كان مزينا بنقوش بأوراق النباتات والبراعم والأزهار، وكأنه كان مفروضا عليه أن يمثل هنا داخل المنزل حديقة البستان الّتي تحيط به من الخارج. الأرائك كانت مغطاة بأنواع مختلفة من الأقمشة المخطّطة باللونين الأحمر والأزرق الفاتح السماوي. على كلّ أريكة احتشدت مجموعة من الوسائد زاهية الألوان مطرّزة ومخرّمة. على عرض المصطبة فرشت سجاجيد غنية برسوماتها وألوانها في إحداها رسمت طيور الفردوس بين أغصان أشجار الجنة. بالقرب من كلّ أريكة انحنت طاولات تقديم صغيرة منخفضة. وبدلا من مسطح وضع على كلّ طاولة صينية معدنية مستديرة وواسعة. على وجه هذه الصواني أيضاً كانت نقوش ناعمة ومتناسقة ليس على شكل الثمار والأزهار بل بأشكال مجرّدة ومكتظة مثل المتاهة متداخلة ببعضها تذكّرنا بتعرجات الخط العربي وربما كانت تلك فعلا كتابة فنية بالخط العربي.

من جانبي القاعة انفتحت ستة أو ثمانية أبواب إلى الغرف الداخلية. الحيطان كانت مغطاة بسجاجيد مطرّزة. بين السجاجيد ومن فوقها أطل دهان

الحيطان الذي كان هو أيضاً على شكل أوراق وأزهار باللّون الأحمر- البنفسجي والأخضر الفاتح. هنا وهناك تحت السقف المرتفع، علقت قطع أسلحة قديمة، وسيوف دمشقيّة، وسيف مقوّس، وخناجر وجِراب ورماح ومسدّسات وبنادق طويلة ثنائية القصبات. مقابل الباب، وقفت قطعة أثاث بنية ضخمة مبهرجة تسمى بوفيه وهي خزانة بأسلوب الباروك متعددة الأقسام لأدوات المائدة تشبه القصر ولها عدة شبابيك عرض مليئة بالفناجين الصينيّة، وبكؤوس الكريستال وبكؤوس الفضة والنحاس اللامع بالإضافة إلى الكثير الكثير من التحف الفنية الجميلة المصنوعة من الزجاج الخليلي أو الصيداوي، عن يمينها أريكة جلوس منجّدة باللون القرمزي وعن يسارها أريكة جلوس بلون الليمون.

في داخل تجويف عميق في الحائط بين الشباكين عشّشت مزهرية خضراء مرصّعة بالصدف والمَحار من فمها ارتفعت عدة ريشات طاووس زاهية الألوان. تجويفات أخرى استضافت جرارا كبيرة من النحاس وكؤوسا مصنوعة من الزجاج والفخار. أربع مراوح تدلّت من سقف القاعة العالي تصدر عنها بشكل متواصل أصوات مثل طنين الزنابير تخلط الهواء المشبع بدخان السجاير. في الوسط بين هذه المراوح الأربع ثريا نحاسية عملاقة فخمة تشبه شجرة كثيفة متعددة الأغصان والتي كثرة فروعها وأغصانها وأليافها المحلاقية تفتّحت عن هوابط بلّورية لامعة وكذلك بكثرة إجاصاتها اللامعة على تشكيلة من اللمبات الكهربائية والتي كانت كلها مضاءة في هذا الوقت أيضاً مع أن الشبابيك الواسعة أدخلت إلى القاعة ضوء صباح هذا السبت الصّيفي. في الأقسام العلوية المحدّبة لهذه الشبابيك ثبّتت قطع زجاج ملونة متناسقة على شكل باقات من أوراق نبات البرسيم. كلّ ورقة، من جهتها صبغت ضوء النهار بلون آخر مختلف: أحمر، أخضر، ذهبيّ، بنفسجيّ.

على حائطين، الواحد مقابل الآخر، معلّقَين على قضيبَين من الحديد، حلق قفصا عصافير. في كلّ قفص ببغاوان جدّيّان لمع ريشهما بمختلف ألوانه الزاهية: البرتقالي والفيروزي والأصفر والأخضر الفاتح والأزرق الفاتح. بين الحين والآخر كان أحد هذه الببغاوات يقول بصوت أجشّ كصوت مدخن

عجوز: «تفضّل! سيل فو بْليه! إنْجويْ!» ومن طرف الغرفة من داخل القفص المقابل كان يتجاوب معه فوراً يجيبه بصوت ندي ناعم قائلا: «آه، هاو فري فري سويت! هاو لافلي!»

فوق براويز الشبابيك وبراويز الأبواب فوق دهان الحائط المورّد، كتبت باللون الأخضر بعض الآيات أو الأشعار بخط عربي متعرّج. وبين السجادة والأخرى علقت على الحائط صور كبار رجال العائلة: منهم الأفندية الحليقون منتفخو الخدود، سمينون، يعتمرون الطرابيش الحمراء مع الشراشيب السوداء، يرتدون البدلات السماوية الثقيلة ذات سلسلتين ذهبيتين تتدليان وتنحنيان على عرض كروشهم حتى تختفي الأولى في الجيب الأيسر والثانية في الجيب الأيمن. وكانت هناك صور سابقيهم، أشخاص أشدّاء مع شوارب تبدو الرصانة والحزم والإصرار من قسمات وجوههم يبعثون على الاحترام ويفرضون الهيبة والمهابة، متشحين بعباءات مطرّزة ويعتمرون الكوفيّة ناصعة البياض مع العقال الأسود. كما كانت هناك صورتان أو ثلاث لفرسان قدامى منظرهم مخيف ولكن تحيط بهم هالة من المجد والفخار، رجال ملتّحون، شاحبون، يركبون الخيول الأصيلة، وكوفيات رؤوسهم كأنها تراجعت وتطايرت إلى الخلف في خضم انقضاضهم الجارف، حتى أن شعر عُرَف خيولهم تطايرت وانحنت إلى الخلف، على جانبي خاصرتي كلّ فارس منهم ثُبِّتت أنواع مختلفة من الخناجر والسيوف المقوّسة على شكل هلال أو أنها استُلت من أغمادها وحلّقت في أيديهم في الفضاء.

من نوافذ غرفة الضيوف هذه، نوافذ ذات عتبات عريضة في الجهتين الشرقية والشمالية، تُرى سلسلة جبل المشارف وغابة أشجار صنوبر، وسفوح صخرية، قلعة سلوان، قلعة أوغوستا فيكتوريا وبرجها الذي في قمّته مثل الخوذة القيصرية يبرز للعيان سقف بروسياني مائل بلون رماديّ. إلى اليسار قليلا من أوغوستا فيكتوريا تظهر قلعة ضيقة الفتحات، على رأسها طاقية، هي بناية المكتبة القومية، مكان عمل والدي، والذي من حوله تجمعت بقية بنايات الجامعة العبرية ومستشفى هداسا الّتي على جبل المشارف إلى الأسفل من خط سلسلة الجبال تظهر من هنا بعض السقائف المنتشرة على سفوح

الجبال، وقطعان صغيرة بين الصخور وحقول الأشواك، هنا وهناك أشجار زيتون هرمة كأنها خرجت قبل عصور من عالم النبات وانضمت إلى مملكة الجماد.

*

في صيف سنة ١٩٤٧ سافر والديّ لزيارة معارف لهم من نتانيا وتركوني لنهاية الأسبوع لدى مالا وستاشيك وشوبين و شوبنْهاوَر رودْنيتْسكي («عليك أن تتصرّف هناك! بشكل نموذجي! هل تسمع! وأن تساعد قليلا العَمَّة مالا في المطبخ وألا تزعج العمّ ستاشيك وأن تعرف كيف تُشغل نفسك، خذ كتابا واقرأ وألا يشعروا بك، وفي صبيحة يوم السبت أن تتركهما ينامان حتى ساعة متأخرة! كن عندهم ذهبا صافيا! كما تحسن أن تكون عندما تريد حقّاً ذلك!»).

الأديب حييم هزاز حكم مرة على العمّ ستاشيك أن يبدل اسمه البولندي «الذي تفوح منه رائحة المجازر» باسم عبريّ، وفعلا، كما أقنعه أيضاً أن يسمي نفسه بالاسم ستاف الذي يذكر بنغمته الاسم ستاشيك إلا أنه يفوح منه شذى «نشيد الأنشاد». وهكذا بالفعل تسجلا بخط العَمَّة مالا على الورقة الّتي ألصقت على باب منزلهما:

مالكا وستاف رودْنيتْسكي
لطفا، لا تقرع الباب
في ساعات الاستراحة المألوفة.

كان العمّ ستاشيك رجلا قزما، صلبا وأجعد الشعر كتفاه قويتان، منخراه أشعران ومظلمان مثل المغاور وحاجباه كثيفان أحدهما مرفوع دائماً كما في حالة شك أو بسخرية هزيلة. فقد إحدى أسنانه القواطع، وربما بسبب عدم وجودها بدا أحياناً على وجه العمّ ستاشيك قسمات رجل صعلوك وبالذات عندما كان يضحك. لقد اشتغل العمّ ستاشيك في قسم الرسائل المسجّلة في البريد المركزي في القدس، وفي ساعات الفراغ كان يجمع على بطاقات صغيرة موادّ لبحث جديد عن حياة الشاعر عِمانوئيل هرومي.

أما الأستاذ نجيب ممدوح السِلْواني من حيّ شيخ جراح الموجود شمالي

شرق المدينة فقد كان سمسارا وتاجرا غنيّاً والوكيل المحلي لعدة شركات فرنسيّة كبيرة الّتي وصلت بضائعها إلى الإسكندرية وبيروت ومن هناك تفرّعت إلى حيفا ونابلس والقدس. في بداية الصيف حدث أن اختفت أثار شيك بمبلغ كبير، أو ربما كان ذلك سند ملكية ثمين أو رزمة أسهم. دارت الشكوك حول ادوارد سِلْواني، الابن البكر وشريك الأستاذ نجيب في شركة «السِلْواني وأولاده». تمّ التحقيق مع الشاب، هكذا دار الحديث عندنا، وقد حقق معه مساعد رئيس دائرة التحقيقات الجنائية الإنجليزية بنفسه، وبعد التحقيق أخذه إلى المعتقل في حيفا لاستكمال التحقيق. الأستاذ نجيب الذي حاول إنقاذ ابنه بطرق تراوحت بين اللين والشدة، ذهب يائسا حزينا إلى السّيّد كنث أورويل نوكس- جيلفورد المسئول عن البريد وتوسّل بأن يبحثوا مرة أخرى عن مغلف ضائع والذي - هكذا أقسم- أرسله هو بنفسه، هو وليس ابنه، هو نفسه وليس كاتبه، في الشتاء الأخير بمسئولية وفي البريد المسجّل.

إلا أن الإيصال والتصديق ضاعا منه. اختفيا. كأن العفاريت ابتلعتهما. السّيّد كنث أورويل نوكس - جيلفورد من جهته، بعد أن عبر للأستاذ نجيب عن مشاعر تعاطفه معه إلا أنه شرح له بكل صدق وأسى ضعف احتمالات توصّل التحقيق الجديد إلى نتائج ايجابية، كلّف، على الرغم من كلّ ذلك، ستاشيك بالبحث وفحص ما يمكن فحصه حول رسالة مسجّلة من قبل عدد غير قليل من الأشهر، رسالة كانت أم لم تكن، ضاعت أم لم تضع، رسالة لم يبقَ منها أيّ تسجيل، لا بيد مرسِلها ولا في سجلات الرسائل.

إلا أن العمّ ستاشيك لم يكسل بل قلب وفحص ودقّق وقارن ووجد أن تسجيل تلك الرسالة ليس هو وحده الذي اختفى من سجلّ الرسائل بل الصفحة كلها اقتُلعت بيد ماهرة ودقيقة من السّجل دون أن يبقى لها أثر: وكأنها لم تكن. فور ذلك ثار الشكّ في قلب ستاشيك، فعاد يفحص في السّجِل وقد توصّل إلى معرفة من هو الموظف الذي اشتغل في ذلك اليوم الذي أرسلت فيه الرسالة خلف شباك استقبال الرسائل المسجّلة، كما حقق مع موظّفين آخرين حتى تبيّن له متى تمّ اقتلاع الصّفحة الناقصة، ومن هنا لم تكن الطريق طويلة حتى اعتراف المتهم (نظر الشابّ إلى داخل المغلّف أمام

ضوء مصباح كهربائيّ فظهر له سند الملكية المُضاء وكان يبدو مثل ورقة نقدية ذات قيمة كبيرة فغلب عليه الإغراء).

وهكذا عاد الحقّ لأصحابه، وأطلق سراح ادوارد السِلْواني من معتقله في حيفا، وعادت لشركة «السِلْواني وأولاده» مكانتها واحترامها وعاد الاسم يظهر للعيان على ورق الرسائل الممتاز وهو نظيف خال من أيّ شائبة، وقد دُعي السّيّد الغالي ستاف مع عقيلته بكل تقدير وتعظيم لاحتساء فنجان قهوة الصباح في صبيحة يوم السبت في فيلا سِلْواني الموجودة في طرف حي الشيخ جراح. أما بالنسبة للولد الظريف (ابن صديقيهم الموجود عندهما ولا يوجد لهما مكانا يتركانه فيه في صباح يوم السبت) بالطبع، أيّ سؤال هذا، فليحضر معهما أيضاً ذلك الولد الغالي في صبيحة يوم السبت، لأنّ عائلة سِلْواني نفذ صبرها ولا تريد الانتظار لتقديم خالص شكرها وتقديرها للسيد ستاف ذلك الرجل المستقيم والنشيط.

*

في يوم السبت بعيد وجبة الإفطار وقبيل خروجنا، لبست أفضل ملابسي، ملابس العيد الّتي اشتراها لي والدي ووالدتي وحرِصا على تركها عند العَمَّة مالا كي ألبسها في الزيارة («العربي يقدر كثيرا حسن السلوك والأناقة!» أكّد والدي): قميص ناصع البياض مكويّ أكمامه مطوية بشكل دقيق وفخم وكأنهما مقصوصان من الكرتون الأبيض. بنطلون أزرق غامق ينتهي بطيّتين قويّتين وله طيتا مكوى حادّتين وجميلتين على امتداد طوله، وحزامٌ قويّ من الجلد الأسود له إبزيم معدني نظيف ولامع، لسبب ما نقشت عليه صورة النسر مزدوج الرؤوس والذي هو شعار المملكة الروسية المقدسة إبان فترة حكم القياصرة. وفي رجليّ لبست صندلا قام العمّ ستاشيك مبكّرا لكي يلمّعه لي بنفس الفرشاة وبنفس البوية السوداء الّتي لمّع بها حذاءه المفضّل كما لمّع بها أيضاً كندرة العيد الخاصّة بالعمة مالا.

على الرغم من حرارة شهر آب إلا أنّ العمّ ستاشيك حرص على أن يلبس بدلة الصوف الغامقة (كانت تلك بدلته الوحيدة)، وقميص الحرير الثلجيّ الذي هاجر معه قبل خمسة عشر عاما من بيت والديه في لودج وربطة

العنق الحريرية ذات اللون الهادئ الأزرق العميق والتي كان قد لبسها يوم زفافه أيضاً. أما بالنسبة للعَمَّة مالا فقد عانت حوالي ثلاثة أرباع الساعة أمام المرآة: قاست فستان السهرة ثمّ عادت وتراجعت، حاولت تركيبة أخرى: تنورة ذات طيّات غامقة اللون مع قميص قطني فاتح اللون ولكنها تراجعت أيضاً، فكرت كيف يبدو عليها الفستان الربيعي الشبابيّ الذي اشترته قبل فترة وجيزة من حانوت «معيان شطوف» مع دبوس ومنديل أو مع قلادة وبدون دبوس وبدون منديل، أو مع قلادة ومع دبوس آخر ولكن بدون منديل مع وبدون حلق الهوابط.

إلا أن الفستان الربيعي الخفيف والشّفاف بدا لها فجأة وبالذات التطريز الذي حول العنق طائشا وشعبيا أكثر من اللازم ولا يتناسب مع الزيارة المتوقّعة هذا الصباح، ثمّ عادت إلى بدلة السهرة الّتي بدأت بها دورة القياس والتشكيك. وهي في حيرتها الشديدة توجّهت العَمَّة مالا إلى العمّ ستاشيك كما توجهت إليّ أيضاً وأقسمت علينا أن نقول لها الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة حتى وإن كانت هذه الحقيقة مُرّة ومؤلمة: أوليس أنيقا أكثر من اللازم هذا الفستان؟ أوليس رسميّاً، مصطنعا مبالغا فيه لا يتناسب مع زيارة غير رسمية في صباح يوم صيفي كهذا؟ أوليس متناقضا تماماً مع تسريحة الشعر؟ وإذا كنتم انتبهتم إلى التسريحة فما رأيكم؟ ولكن الحقّ الحقّ؟ أأربط الجدائل حول الرأس؟ أم من الأفضل أن أتركهما تتدليان على الكتفين؟ وإذا كان الأفضل أن تتدليا - فأين من اللائق لشعرها أن ينساب على هذه الكتف أم تلك؟

في نهاية المطاف، وبأسى، اختارت مع كلّ ذلك تنورة بنية بسيطة بدون ثنيات أو أيّ ملحقات وقميصا بأكمام طويلة زينته بدبوس صدر لطيف بلون الفيروز، وبحلقتي - الهوابط ذوات اللون الأزرق الفاتح الشفاف بلون عينيها الجميلتين. أما جدائلها فقد حلّتهما العَمَّة مالا ومنحت شعرها مطلق الحرية لينساب على سفوح كتفيها.

*

في الطريق شرح لي العمّ ستاف، وجسمه الصلب القوي معصور

ومضغوط داخل بدلة الخريف الثقيلة، عددا من حقائق الحياة الناجمة عن الاختلاف التاريخي بين الثقافات البعيدة: عائلة السِلْواني، قال، مع أنها بكل تأكيد عائلة أوروبية محترمة والتي تعلم أبناؤها في كليات معروفة في بيروت وليفربول وجميعهم يجيدون لغات الدول الغربية. نحن أيضاً من جهتنا أناس أوروبيون بكل تأكيد، مع أننا، ربما، أوروبيون بمعنى مختلف قليلا. عندنا، على سبيل المثال، لا توجد أيّ أهمية للمظهر الخارجي للإنسان بل نولي أهمية كبرى للإنسان من الداخل، لنفسه ولروحه: حتى أن نابغة عالميا مثل تولستوي لم يتردد في أن يقضي كلّ حياته بملابس فلاح، كما أن ثوريا مشهورا ولامعا مثل لينين استهان في الغالب بالملابس البرجوازية وفضّل أن يلبس معطفا من الجلد وقبعة عمال بسيطة.

إلا أن زيارتنا إلى فيلا السِلْواني لا تشبه لينين الذي قضى وقته مع عماله ولا تشبه تولستوي الذي نزل إلى عامّة الناس، بل هي حالة خاصّة فريدة وحتى شاذة: اعلم، قال العمّ ستاشيك، أننا نحن اليهود الجدد، نبدو خطأً، في عيون جيراننا العرب الأثرياء أكثر والمثقفين أكثر، والذين يعيشون بشكل عام، وفق نمط الثقافة الأوروبية الغربية أكثر، كنوع من الرعاع الغوغائيين والفقراء الأجلاف، نفتقر إلى التربية ولا نقدر حتى الآن على أن نكون على مستوى رفيع من التهذيب والدماثة الحضارية. حتى أن بعض زعمائنا ينعتون، كما يبدو، بشكل سلبي في نظر جيراننا العرب، لأنّ ملابسهم شعبية وسلوكهم بسيط ومباشر أكثر من اللازم. خلال عمله في مكاتب البريد، إن كان في شبابيك استقبال الجمهور أو من وراء الكواليس، سنحت الفرصة للعمّ ستاشيك، عدة مرات، لأنّ يتحقّق من أن الصيغة العبرية الجديدة: صندل وخاكي وأكمام مشمّرة وياقة مفتوحة والتي تعتبر عندنا أسلوبا طلائعيا-ديمقراطيا يناسب الجميع، يُنظر إليها بعيون بريطانية وبعيون عربية بالذات على أنها نوع من الجلافة والغلظة وقلة الأدب، أو كنوع من الاستجداء المتبجِّح، والاستهتار بكرامة الآخرين والاستهانة والتحقير للخدمة العامة. صحيح أن هذا الانطباع مبنيّ على أساس خاطئ، ولا حاجة إلى أن نعود ونكرر بأننا نؤمن بحياة البساطة، وبفكرة القناعة أو الاكتفاء بالقليل، وكذلك بالتنازل

الكامل عن ترك أثر بواسطة المظهر الخارجي. ولكن، في مثل هذه الحالات أقصد - زيارتنا هذا الصباح إلى منزل عائلة معروفة ومحترمة وكذلك، في مناسبات من هذا النوع، من المفضّل أن نتصرف كمن فرضت عليهم مهمة دبلوماسية. ولذلك علينا أن نحرص جداً على مظهرنا وسلوكنا وأسلوب حديثنا.

من الأولاد وحتى من الفتيان، على سبيل المثال، أكّد العمّ ستاشيك، يتوقعون ألا يتدخّلوا، بأي شكل من الأشكال، في حديث الكبار. إذا توجهوا إليهم - وفقط إذا توجهوا إليهم- يتوجب عليهم أن يجيبوا بأدب جمّ وبإيجاز شديد. وإذا قدمت تشريفات، على الأولاد أن يختاروا من الكعك فقط تلك الّتي لا تتفتّت ومن الحلوى تلك الّتي لا تتدفق أو تسيل. وإذا عرضت عليهم التشريفات مرة أخرى، فإنّه من واجب الأولاد أيضاً أن يرفضوا بأدب جمّ حتى وإن اشتهت وتاقت أنفسهم إلى تلك الحلويات. وطوال مدة الزيارة ليتكرم الولد بالجلوس بشكل مستقيم منتصب الظهر وألا يسترق النظر، والأهم، أن لا يقوم، لا سمح الله، بالتكشير أو تقطيب حاجبيه أو بتغيير قسمات وجهه والتي تعتبر سلوكا غير لائق وبالذات في المجتمع العربي الذي كما هو معلوم مجتمع حسّاس جدّاً، وسريع التأثر والانفعال كما أنه يميل إلى الحقد وأخذ الثأر على الإهانات، مظاهر سلبية في مثل هذه الأوضاع لا تعتبر وقاحة وخيانة فحسب تعتبر ضررا كبيرا على مستقبل التفاهمات والمفاوضات المتبادلة بين الشعبين الجارين؛ كمن يصب الزيت على موقد الكراهية في زمن المحادثات اليومية المقلقة حول خطر نشوب حرب دموية بين شعب وشعب.

باختصار، قال العمّ ستاشيك، أمور كثيرة جدّاً، حقّاً، أمور ربما أنها أكبر بكثير مما يتحمله كتفا ولد صغير ابن ثماني سنوات، تتعلق في هذا الصباح بك أيضاً وبوعيك وبتصرفاتك اللائقة. وبالمناسبة، أنت أيضاً، عزيزتي مالينكا، من المحبّذ ألا تتكلمي أنت أيضاً هناك، بكل بساطة، لا تقولي أيّ شيء، خيرا كان أم شرا، باستثناء كلمات المجاملة الضرورية: كما هو معلوم، في إطار ثقافة جيراننا، تماماً كما في تقاليد أجدادنا وأجداد

أجدادنا، من غير المقبول جدّاً جدّاً أن تفتح المرأة فمها فجأة وتتكلم في حضرة الرجال. لذلك، يجمل بك عزيزتي إذا تفسحي المجال أمام أصالتك الطبيعية ورقتك النسوية أن تتحدّثا هذه المرة باسمك.

*

وعليه، في العاشرة صباحا خرجت هذه البعثة الدبلوماسية الصغيرة، مجلية ولامعة وقد زوّدت بالتعليمات والإرشادات المطلوبة بشكل تامّ، خرجت من شقة عائلة رودْنيتْسيكي ذات الغرفة ونصف الواقعة عند التقاء شارع هَنْفيئيم (الأنبياء) مع شارع تشنْسلور تماماً فوق دكان بيع الزهور «حديقة متفتّحة» تاركةً وراءها شوبين و شوبِنْهاوَر، والعصفورة الجريحة عالما-ميرابيلا والعصفورة المدهونة اتسطرابولا، وأخذت البعثة تشقّ طريقها شرقا باتجاه فيلا عائلة سِلْواني الواقعة شمالي حيّ الشيخ جراح، عند أعلى الطريق المؤدية إلى جبل المشارف.

مباشرة في أول الطريق مررنا من عند سور بيت تابور الذي كان ذات يوم مسكن مهندس معماري ألماني غريب الأطوار، اسمه كونراد شيك، رجل مسيحي متزمت تاقت نفسه إلى القدس. فوق بوابة بيت تابور بنى المهندس شيك برجا صغيرا كنت أحيك حوله الكثير من الأساطير المسلّحة حول قلاع الفرسان وبنات الملوك. من هناك تابعنا المسير في منحدر شارع هَنْفيئيم (الأنبياء) حتى المستشفى الايطالي الذي بني مع برجه المسنَّن وقباب القرميد على نمط قصور فلورنسا.

بجانب المستشفى الايطالي توجهنا، صامتين، إلى الشَّمال باتجاه شارع سنت جورج نتجاوز حيّ اليهود المتزمتين مئة شعاريم، نتوغّل عميقا في عالم السّروات، والأسوار والدرابزينات والأفاريز والحيطان الحجرية في القدس الغربية، القدس الّتي لا أكاد أعرفها، الأثيوبية، العربية، محجّ المسيحيين، العثمانية، التبشيريّة، الألمانية، اليونانية، كثيرة الدسائس، الأرمنية، الأمريكية، ذات الأديرة، الايطالية، الروسية، كثيفة أشجار الصنوبر، المخيفة والجذّابة بأجراسها وسحرها المجنّح والمحظور عليك بسبب غربتها، مدينة غامضة تخفي أسرارا خطيرة، مشبعة بالصلبان ومآذن المساجد والأسرار،

نبيلة مبجّلة وصامتة، في شوارعها يحوم كالظلال الغامقة كهنة الديانات الغريبة يلتفون بعباءات سوداء أو ملابس كهنوتية سوداء، قساوسة وراهبات وقضاة شرعيون ووجهاء وحجاج مسيحيون وحجاج يهود ونساء محجّبات أو يضعن الخمار، وخوارنة مع برنس.

كان ذلك يوم السبت صباحا، في صيف سنة سبع وأربعين، قبل أشهر من اندلاع الصدامات الدموية في القدس، وقبل أقلّ من سنة من خروج البريطانيين وقبل الحصار والقصف والعطش وتقسيم المدينة. في يوم السبت الذي ذهبنا فيه إلى عائلة سِلْواني في حي الشيخ جراح ما زالت السكينة الثقيلة تربض على جميع هذه الأحياء الشمالية الشرقية. ولكن في هذه السكينة بدأ الإحساس بهبوب نسمة خفيفة من نفاذ الصبر، بخار غير مفهوم من العداء المكبوت: كيف يصل إلى هنا فجأة ثلاثة يهود رجل وامرأة وولد، من أين جاؤوا؟ وإذا كنتم قد جئتم فلأيّ غرض إلى هنا بالذات، إلى هذه الجهة من المدينة، ربما، في الحقيقة من المفضل ألا تتريّثوا هنا كثيرا. مروا من هنا من هذه الشوارع بسرعة. طالما.

*

كان قد تجمع في قاعة الضيوف حوالي خمسة عشر أو عشرين من الضيوف ومن أهل البيت، عندما دخلنا، كمن يحلقون في دخان السجاير، معظمهم جالسون على صفّ الأرائك الّتي على امتداد الحيطان الأربعة وبعضهم يقفون في مجموعات صغيرة في زوايا القاعة. كان بينهم السّيّد كارديجان، وكذلك السّيّد كنت أورويل نوكس- جليفورد، المسئول عن البريد المركزي وعن العمّ ستاشيك، والذي كان يقف هنا بين سيدين آخرين وحيا من بعيد العمّ ستاشيك بأن رفع قليلا الكأس الّتي في يده. معظم الأبواب المؤدية من القاعة إلى الغرف الداخلية كانت مغلقة، وفقط عبر أحد هذه الأبواب الذي كان مفتوحا نصف فتحة استطعت أن ألحظ ثلاث بنات في مثل سنّي، يرتدين الفساتين الطويلة، يتجمعن على مقعد صغير، ينظرن إلى الضيوف ويتهامسن.

الأستاذ السّيّد نجيب ممدوح السِلْواني صاحب البيت، قدّم لنا بعض

أفراد البيت وبعض الضيوف، رجالا ونساء، من بينهم كانت سيدتان انجليزيتان ليستا صغيرتين ترتديان بدلا رمادية، ومثقّف فرنسي عجوز، وخوري، يوناني بعباءة ولحية متجعّدة، مربّع. لكلّ واحد من أبناء البيت ومن الضيوف وصف المضيف وأثنى باللغة الانجليزية وأحيانا باللغة الفرنسية على ضيفه كما وضّح للجميع بجملتين أو ثلاث كيف حال السّيّد ستاف الغالي بينهم وبين كارثة كانت تحلق لعدة أسابيع حزينة فوق رؤوس أبناء عائلة سِلْواني.

نحن من جانبنا، صافحنا، وانحنينا، وابتسمنا، وطأطأنا رؤوسنا وتمتمنا «هاو نايس»، «آنشانتيه» و«جود تو ميت يو». كما قدّمنا هدية رمزية متواضعة لعائلة سِلْواني: ألبوم صور من حياة الكيبوتسات وفيه صور من أجواء غرفة الطعام التعاونية وصور لطلائعيين في الحقل والإسطبل، ولأطفال عراة سعيدين جدّاً يعبثون بمياه الرشاشات وصورة فلاح عربي عجوز يقف مذهولا يمسك بقوة برسن حماره وينظر إلى جرار جنزير عملاق يمر من أمامه في قلب غيمة من الغبار. جميع الصور مشروحة باللغة العبرية ولغة أجنبية.

تأمل الأستاذ السِلْواني الألبوم سويعة، ثمّ ابتسم برقة، وهزّ رأسه مرتين أو ثلاث من أعلى إلى أسفل كمن أدرك ما أراد المصوّرون أن يقولوه، شكر ضيوفه على هديتهم ووضعها في أحد التجويفات الّتي في الحائط أو على عتبة أحد الشبابيك العميقة. الببغاء ذات الصوت الرفيع رددت فجأة من قفصها: «هو ويل بي ماي ديستيني؟ هو ويل بي ماي برينس؟» ومن طرف الغرفة الآخر أجابها الببغاء الأجش: «كلامات، يا شيخ! كلامات يا شيخ! كلامات!»

سيفان مصقولان ملمّعان علقا متصالبين على الحائط فوق رؤوسنا في الزاوية الّتي جلسنا فيها. حاولت عبثا أن أخمّن من ضيف ومن من أبناء العائلة المُضيفة: معظم الرجال كانوا في الخمسينات أو الستينات من أعمارهم، وواحد كان عجوزا هرما، يرتدي بدلة بنية باهتة كانت مفتوقة الخياطة قليلا عند طرفي الكمين. كان ذلك عجوزا ضامرا، خداه غائران، شاربه الشائب يعلوه الاصفرار لكثرة الدخان وكذلك أطراف أصابعه القصار

المتشققة. يشبه كثيرا إحدى الصور المعلّقة على الحائط، والمحبوسة داخل أطر مذهّبة. هل هو جدّ العائلة؟ أو أنه أبو الجدّ؟ لأنه إلى جانب الأستاذ السِلْواني ظهر عجوز آخر، يشبه الوَتَرَ، طويل القامة ومقوس الظهر، يشبه جذع شجرة مكسور، رأسه بنيّ مكسوّ بشعيرات خشنة رمادية مثل الأشواك. يرتدي ملابسه بإهمال مطلق وعدم اعتناء: قميص مخطط كان نصفه مزرّرا فقط وبنطلونا بدا أكبر بكثير من مقاس جسمه. تذكّرت العجوز الهرم جدّاً ألّلوييف من قصة أمّي، الذي ربى في سقيفته عجوزا آخر، عتيقا أكثر منه نفسه.

كما كان هناك أيضاً عدد من الشباب ببدلات «تِنِس» ناصعة البياض، ورجلان كبيرا الكرش، ابنا خمسة وأربعين سنة تقريبا، جلسا جنبا إلى جنب وبدوَا مثل التوأمين اللذين يهرمان، كلاهما يغالب النعاس، عيناهما شبه مغمضتين، كان احدهما يحمل مسبحة من الكهرمان يعبث بحباتها في حين كان أخوه يدخّن بلا توقف ويساهم بنصيبه في رمادية دخان السجاير الّتي بدأت تكسو فضاء الغرفة بالضباب. بالإضافة إلى السيّدتين الإنجليزيّتين جلست نساء أخريات على الأرائك، في حين تجوّلت نساء أخريات في الغرفة وهنّ يحرصن على ألا يصطدمن بالخدم الذين يضعون ربطات عنق ويحملون أطباقا محمّلة بالمشروبات الباردة والمعجّنات وكؤوس الشاي وفناجين القهوة. أيّ النساء هي ربة البيت، من الصعب أن أعرف: بعضهن كنّ يتصرفن وكأنّهن في مملكتهن. امرأة واحدة ضخمة بفستان حريري مورّد لونه كلون المزهرية الّتي تنمو فيها ريشات الطاووس، ذراعاها المكتنزتان كانتا ترنان مع كلّ حركة لكثرة ما عليهما من أساور مطليّة بالفضة والأَسْوِرَة، وقفت تخطب بحماس على مسامع بعض السادة الشباب بملابس التِّنِس. سيدة أخرى بفستان قطني عليه نقشت فواكه وفيرة، فستان يؤكد ثقل صدرها وعرض فخذيها، مدّت يدها لتتلقى قبلة المضيف وقد كافاته فوراً بثلاث قبلات على الخدين: الأيمن ثمّ الأيسر ثمّ الأيمن ثانية. كما كانت هناك سيدة جليلة عجوز لها شويرب رمادي ومنخران واسعان، أشعران، وكذلك كانت هناك فتيات لطيفات دقيقات الخاصرتين حمر الأظافر متهامسات باستمرار

وبدون توقف، بتسريحات جميلة وتنانير رياضية. يبدو وكأن ستاشيك رودنيتسكي ببدلته الصوف الوزارية الغامقة الّتي هاجرت معه من لودج إلى أرض إسرائيل قبل هذا الصيف بخمس عشرة سنة تقريبا ومالا زوجته بتنورتها البنية الملساء وبقميصها ذي الأكمام الطويلة وحلَق الهوابط كانا أكثر الحاضرَينِ أناقة من بين جميع الحضور في الغرفة (باستثناء التُدُل). حتى أن المسئول عن البريد السّيّد نوكس- جيلفورد جاء بقميص سماوي بسيط بدون ربطة عنق وبدون جاكيت. من قفصه الذي في آخر القاعة صاح الببغاء صاحب الصوت الأجش كصوت العجوز المدمن على التدخين: «مي وي، مي وي، شير مدموزيل، مي وي أبسوليمو، نتوريلمو.» ومن قفصها على الحائط المقابل أجابته فوراً الببغاء السوبرانو المدلّلة: «بس! بس، يا عيني! بس من فضلك! أُسكت! بس وخلص!»

*

من قلب غيمة الدخان تجسّد أمامنا في كلّ لحظة أحد الخدم بملابسهم السوداء- البيضاء- الحمراء وحاولوا إغراءنا الواحد تلو الآخر بجفانٍ زجاجية وخزفية مليئة باللوز والجوز والفستق وبذور القرع وبذور البطيخ المحمّصة، وبأطباق مملوءة بأنواع المعجنات الّتي خرجت لتوها من الفرن، والفواكه وشرائح البطيخ وفناجين القهوة وكؤوس الشاي وكؤوس طويلة محاطة بعرق الجليد مملوءة بعصائر الفواكه المختلفة وبعصير الرمّان مع قطع الثلج الصغيرة، بالإضافة إلى صحون صغيرة بأنواع مختلفة من الحلوى العَطِرة والصافية مع رائحة القرفة: شظايا اللوز المقشّر كانت منثورة على وجه هذه الأنواع من الحلوى المغرية والمثيرة للشهية. أما أنا فقد اكتفيت بكعكتين وكأس عصير واحدة، ثمّ اعتذرت عن جميع الأطاييب التالية مع الشكر بأدب ولكن بإصرار أيضاً: ولم أضعف ولو للحظة واحدة، ولم أنس ولو لمرة واحدة الواجبات الملقاة على كاهلي بحكم كوني دبلوماسي بسيط ينزل ضيفا على دولة عظمى مهمة تنظر إليّ بنوع من الارتياب.

توقف السّيّد سِلْواني بجانبنا وتحدّث لبعض دقائق مع العَمَّة مالا والعمّ ستاشيك بالإنجليزية، مازحهما وبش في وجهيهما وربما أيضاً أطرى على

حلق الهوابط الّتي لبسته العَمَّة مالا. بعد ذلك، وهو ما يعتذر ناويا الانصراف إلى ضيوفه الآخرين تردّد قليلا ثمّ توجّه إليّ فجأة وهو يبتسم ابتسامة رقيقة وبلغة عبرية يتلمّس فيها طريق الصواب:

«سيدي إذا رغب في الخروج إلى الحديقة. هناك عدد من الأولاد في الحديقة.»

باستثناء والدي الذي أحبّ أن يناديني بجناب معاليك، لم يناديني أيّ شخص في العالم بسيّدي. للحظة سموّ واحدة كنت حقّاً في نظر نفسي كسيد عبري صغير لا تقل قيمته بشيء من قيمة السادة الأغراب الشباب الذين يتجوّلون في الخارج في الحديقة. عندما ستقام الدولة العبرية الحرة كان أبي يقتبس بشوق شديد من أقوال «زئيف جابوتِنْسْكي»، يستطيع شعبنا أيضاً أن يتقدم من شعوب العالم «كما يتقدم الأسد من الأسود».

كما يتقدم الأسد من الأسود خرجت من الغرفة المغمورة بدخان السجاير. نظرت من الشرفة الواسعة إلى منظر السور والأبراج والقباب. بعد ذلك نزلت رُوَيداً رُوَيداً بفخر واعتزاز وبوعي قوميّ واضح درجات الحجر المنقوشة وسرت باتّجاه عريشة الدوالي ومنها إلى أعماق البستان.

٤٢

هناك في عريشة الدوالي كانت شلة من خمس أو ست صبايا بنات خمس عشرة سنة تقريبا. تجاوزتهنّ، بعد ذلك مر بي بعدو صاخب وسريع عدد من الصبيان. بين أشجار الحديقة كان هناك زوجان شابّان يتجولان غارقين في محادثة هامسة ولكن دون أن يلمس أحدهما الآخر. وفي زاوية بعيدة في جوف البستان ليس بعيدا من زاوية السور، حول الجذع الخشن لشجرة توت كثيفة ومتشابكة ركّب أحدهم مقعدا للجلوس: مقعد ألواح خشبية بدون أرجل، جلست عليه تضع رجلا على رجل بنت شاحبة سوداء الشعر والرموش، نحيفة العنق، كتفاها واهيان لها تسريحة كاريه تتساقط على جبين بدا لي مضيئا من الداخل بنوع من الفضول والفرح. كانت ترتدي قميصا بلون الكريم فوقه لبست فستانا غامقا أملس وطويلا له كتّافتان عريضتان. على ياقة قميصها كانت قطعة حلي، دبوس عاج ذكّرني بدبوس فتحة العنق الذي لجدتي «شلوميت».

لأول وهلة بدت لي هذه البنت بمثل سنّي، ولكن بناء على التقوّس البسيط الذي ظهر في فستانها وكذلك بناء على نظرة غير صبيانية، نظرة فضول ولكنها نظرة إنذار وتحذير التقت مع نظرتي (بسرعة، كلمح البصر، وفوراً هربت عيناي إلى اتجاه آخر)، لم تعد تبدو لي في مثل سني بل أكبر مني بسنتين أو ثلاث: ربما أنها بنت إحدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة. ومع كلّ ذلك، استطعت أن ألاحظ بأن حاجبيها كثيفان قليلا ومتّصلان ببعضهما، مما تعارض قليلا مع رقة قسمات وجهها. وعند قدمي هذه البنت كان هناك

طفل صغير انحنى على ركبتيه في التراب، ابن ثلاث سنوات تقريبا، شعره أجعد - معقوص، نشيط ومتركّز جدّاً، ربما أنه أخوها، يحبو ويجمع بنشاط أوراق الشجر الساقطة ويرتبها على شكل حلقة مغلقة.

بشجاعة ودفعة واحدة بدأت وعرضت على البنت تقريبا ربع قاموس الكلمات الأجنبية الّتي جمعتها من الهواء: ليس تماماً كما يتقدم الأسد من الأسود بل ربما وبالذات مثل الببغاوين المؤدبَين اللذين في الأقفاص داخل قاعة بيتها انحنيت لها عن غير قصد انحناءة تواق خفيفة لأن أبني علاقة وبذلك - أطرح أرضاً الآراء المسبقة وأساعد ولو بالقليل في المصالحة بين شعبينا:

«صباح الخير، مِس. أنا اسمي عاموس. وأنت، يا بنت؟ فوترا نوم، سيل فو بْليه، مدموزيل؟ بليز يور نيم كايندلي؟»

تأمّلتني دون أن تبتسم. حاجباها المتصلان أضفيا على أسارير وجهها نظرة جد ورصانة لا يتلاءمان مع سنّها. هزّت رأسها عدة مرات من أعلى إلى أسفل، كمن تستخلص نتيجة وتوافق عليها بينها وبين نفسها، وبذلك أنهت تأمّلها وختمت استنتاجاتها. فستانها الأزرق الفاتح وصل إلى تحت ركبتيها، لكن في القطعة ما بين طرف الفستان والحذاء ذي عقدة الفراشة لمحت بشرة ساقيها القمحية والملساء، والنسائية، أنها كبيرة إذن، حتى احمرّ وجهي وهربت عيناي إلى أخيها الصغير الذي ردّ عليّ بنظرة هادئة، دون خوف ولكن دون ابتسامة أيضاً. فجأة بدا يشبهها كثيرا بوجهه الغامق والهادئ.

*

كلّ ما سمعته من والدي ومن الجيران ومن العمّ يوسف ومن المعلمات والأعمام ومن كلام الناس استيقظ بداخلي في تلك اللحظة بالذات. كلّ ما تحدّثنا به على كؤوس الشاي في ساحتنا أيام السبت وفي أمسيات الصيف، التوتّر الذي يتفاقم من يوم لآخر بين العربي واليهودي، الارتياب والعداء، الثمار السيئة لما يقوم به الانجليز من زرع الشقاق والنزاع وتحريض للمسلمين المتزمتين الذين يصوروننا بصور مفزعة لكي يشعلوا في قلوب العرب كراهية شديدة لنا. واجبنا، هكذا قالها ذات مرة السّيّد روزِنْدورْف أن نبدّد هذه

المخاوف وأن نشرح لهم بأننا فعلا أناس إيجابيون وحتى ظرفاء محبوبون. باختصار- الشعور بحمل الرسالة هو الذي ملأ قلبي جرأة لأن أتوجه هكذا هذه البنت الغريبة وأن أحاول أن أبدأ معها محادثة: كنت انوي أن اشرح لها بكلمات قليلة مقنعة كم هي نقية وطاهرة نوايانا، وكم بغيضة هي المكيدة لزرع الشقاق والنزاع بين الطرفين، وكم من الخير سيصيب المجتمع العربي - المتمثّل بشخصية هذه البنت رقيقة الشفتين- من بقائه برفقة الشعب العبري الأديب والظريف - المتمثّل في شخصي- أنا السفير الفصيح، ذرب اللسان، ابن الثامنة والنصف. تقريبا.

إلا أنني لم أفكر مسبقا ماذا سأفعل بعد أن استنفد في جملة الافتتاحية جُلّ مخزوني من الكلمات الأجنبية؟ كيف أُوَضِّح لهذه البنت الّتي لا تعرف كي تفهم مرة واحدة وإلى الأبد عدالة عودة صهيون؟ بواسطة التمثيل الإيمائي؟ بالرقص؟ وكيف أكسبها، بدون كلمات، إدراك حقّنا في البلاد؟ كيف أترجم لها بدون لغة قصيدة تْشيرْنِخوفْسْكي «بلادي، وطني» وكيف أترجم لها قصيدة زئيف جابوتِنْسْكي: «هناك سيرتوي غنى وسعادة/ ابن العرب ابن الناصرة وابني/ لأنّ علمي، علم نقاء واستقامة/ سيطهر ضفتَي أردني»؟[1] باختصار كنت كذلك الغبيّ الذي تعلّم كيف يحرك الجندي الذي أمام الملك مربعين إلى الأمام على لوحة الشطرنج، وفعلا قام بتحريكه برشاقة ودون تردد، ولكنه بعد هذه الخطوة لا يعرف أيّ شيء عن لعبة الشطرنج لا عن أسماء مكونات اللعبة ولا عن كيفية تحركها ولا متى ولا إلى أين.

مستحيل.

إلا أن البنت أجابت وبالعبرية بالذات، وبدون أن تنظر إليّ، ترتكز راحتاها المفتوحتان على المقعد من جانبي فستانها، عيناها ثابتتان على أخيها الذي كان يضع بدقة حجرا صغيرا تلو حجر صغير وسط كلّ ورقة من الأوراق في دائرته:

---

(١) أصبحت النشيد الخاصّ بحركة بيتار الّتي تأسست سنة ١٩٢٣ (المترجم).

«اسمي عائشة، وهذا الصغير - أخي. عوّاد.»
ثمّ تابعت:
«أنت ابن الضيوف من البريد؟»
شرحت لها بأنّني بكل تأكيد لست ابن الضيوف من البريد ولكني ابن صديقهما وبأنّ والدي بالذات هو مثقّف مهمّ جدّاً، أستاذ، وبأنّ عمّ والدي هو مثقف مهم أكثر وحتى أنه صاحب شهرة عالمية، وبأنّ والدها الموقّر، السّيّد سِلْواني، هو بنفسه الذي اقترح عليّ أن أخرج قليلا إلى الحديقة وأن أتحدث مع أولاد البيت.
صححت عائشة معلوماتي وقالت بأن الأستاذ نجيب ليس والدها بل عمّ أمها: وأنها وعائلتها لا يسكنون هنا في الشيخ جراح بل في حي طلبية، وأنها هي نفسها تتعلم منذ ثلاث سنوات العزف على البيانو عند معلمة من حي رِحافْيا، وأنها تعلمت الحديث باللغة العبرية من معلمتها ومن زميلاتها في العزف. اللغة العبرية في نظرها لغة جميلة جدّاً، كما أن حي «رِحافْيا» جميل جدّاً أيضاً. مرتّب وهادئ.
كما أن حي طلبية هادئ ومرتب، أسرعت للرد بإطراء على إطراء. ربما توافق على أن نتحدث قليلا؟
ها نحن نتحدث. (ابتسامة خفيفة أومضت للحظة حول شفتيها. تقوّم بكلتي يديها أطراف فستانها وتغير ترتيب تشبيك ركبتيها، وللحظة ركبتاها، وهما ركبتا امرأة، وفورا شدّت الفستان. نظرتها الآن موجّهة إلى يساري حيث يطل علينا سور الساحة من بين أشجار البستان.)
رسمت على وجهي أسارير وجه تمثيلية، وعبرت على مسامعها عن الرأي القائل بأنه في أرض إسرائيل يوجد مكان كاف للشعبين، وما ينقص هو أن يعرفوا كيف يعيشون مَعاً بسلام واحترام متبادل. وعليه ولشدة ارتباكي وكثرة غروري خاطبتها ليس بعبريتي بل بعبرية أبي وضيوفه: لغة فصيحة، بليغة، موشّاة. مثل الحمار المتنكر الذي لبس ثوب سهرة وحذاء كعب عال: مقتنع، لسبب ما، بأنه بهذه الطريقة فقط من اللائق والمحترم أن نتكلم مع العرب ومع البنات (صحيح أنه لم يحدث أن سنحت لي الفرصة للحديث مع

البنات أو مع العرب إلا أنني خمّنت أنه في الحالتين هناك حاجة إلى رقة ودماثة خاصّتين: يجب الحديث كما على رؤوس الأصابع).

*

اتضح لي أن معرفتها للغة العبرية ليست واسعة أو أن آراءها مختلفة عن آرائي. فبدلا من أن تتجاوب مع التحدي الذي وضعتها أمامه كانت كمن يرغب في أن يتحرك جانبا قليلا: أخوها الكبير، تقول، يدرس في مدينة لندن لكي يصبح «سوليسيتير و باريستير أيضاً» أي في اللغة العبرية شيء مثل المخامي؟

المحامي، صححتها، وسألتها، وأنا ما زلت منفوخا من شدة إدراكي لكوني ممثلا عن الشعب اليهودي، وماذا تريد هي أن تتعلم عندما تصبح كبيرة؟ أي في أيّ مجال أو مهنة؟

نظرت للحظة نظرة مباشرة إلى عينيّ وفوراً لم يحمر وجهي فقط بل شحب وامتقع لونه. وفي لحظة صرفت بصري موجها إياه بسرعة إلى الأسفل باتجاه أخيها الصغير والجدي عواد الذي أنهى ترتيب أربع دوائر منتظمة من الورق عند جذع الشجرة.

وأنت؟

حسنا، انظري، قلت، وأنا ما زلت واقفا أمامها افرك كفتي يديّ المبللتين بالعرق بجانبي بنطلوني، حسنا انظري، الأمر عندي سيكون هكذا-

أنت أيضاً ستكون ذات يوم مخاميا. هذا بناء على طريقة كلامك.

وما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟

أما أنا، قالت، بدلا من أن تجيب عن سؤالي، أما أنا فسأكتب كتابا.

أنتِ؟ أيّ نوع من الكتب ستكتبين؟

الشعر.

الشعر؟

باللغتين الفرنسية والانجليزية.

وهل تكتبين الشعر؟

وتكتب أيضاً الشعر باللغة العربية، ولكنها لا تُطلع أحدا عليه. العبرية

أيضاً لغة جميلة جدّاً. هل كتب الناس شعرا باللغة العبرية؟

مندهشا من مجرد سؤالها، هائجا منتفخ الأوداج من شدة الإهانة ومن قوة الشعور بحمل الرسالة، انطلقت من فوري أنشدها، بحماس كبير مقطوعات شعرية كثيرة: تْشرْنِيحوفْسْكي، ليفين كيبنيس، راحيل، زئيف جابوتِنْسْكي. بالإضافة إلى قصيدة واحدة من تأليفي. من كلّ ما خطر ببالي ونطق به لساني، بغضب، وبحركة في اليدين، وبصوت مرتفع، والتهاب المشاعر وتقطيب أسارير الوجه ومع القليل من تغميض العينين. حتى أن أخاها الطفل الصغير رفع إليّ رأسه المجعّد وغرز فيّ عيني الحمل المشدوهتين المليئتين بالفضول وبالخوف القليل، وفجأة أنشد هو الآخر بعبرية سليمة: تن لي ريجع! (أعطني لحظة!) إن لي ريجع! (لا وقت لديّ!) في حين أن عائشة لم تقل كفى، بل سألتني فجأة إذا كنت أعرف أيضاً أن أتسلق الأشجار؟ لا؟

منفعلا جدّاً وربما عاشقا لها إلى حد ما ومع ذلك ارتجف من شدة بهجتي بتمثيلي لقومي، ومتحمّسا لأن أحقق لها كلّ طلب يمكن أن يخطر ببالها، وفي طرفة عين تحولت من أجلها من «زئيف جابوتِنْسْكي» إلى طرزان: خلعت من رجلي الصندل الذي لمّعه لي العمّ ستاشيك صباح اليوم حتى صار جلده يتلألأ مثل ماسة سوداء، تجاهلت ملابس العيد المكوية الّتي أرتديها، تعلّقت بقفزة بغصن منخفض، أمسكت بقدميّ الحافيتين بالجذع عند منبت الأغصان، ودون تردد ولو للحظة ارتفعت إلى قلب تجمع الأوراق من عُجْرة إلى أخرى ومنها إلى الّتي فوقها وهكذا حتى الأغصان العلوية، أخدش ولا أبالي، أمتلئ بالرضّات والكدمات وبقع عصير التوت متجاهلا كلّ هذه المتاعب حتى صرت فوق مستوى السور وفوق مستوى رؤوس الأشجار حتى أصبحت خارج منطقة الظلّ، عند قمة التوتة حتى التصق بطني وأنا مضطجع بغصن مائل طريّ تقوّس تحتي وتأرجح مثل الزنبرك حتى أنه انعقف قليلا وخلال تحسسي وقعت يدي فجأة على سلسلة حديدية صدئة مربوطة في طرفها كرة أثقال، كرة حديدية ثقيلة جدّاً، صدئة هي الأخرى، لا أحد يعرف ما هو هذا الجهاز وكيف نبت في أعالي قمة شجرة التوت. الطفل، عواد،

رفع إليّ نظرة تأمّليّة، شُكوكية، ثمّ عاد يأمرني: تن لي ريجع! إن لي ريجع!

كانت تلك على ما يبدو الكلمات العبرية الوحيدة الّتي التقطتها من الهواء. ولم ينسها.

أمسكت جيدا بإحدى يديّ بغصني المنتحب وباليد الأخرى، وأنا اصرخ، من أعماق حنجرتي، صرخات مسعورة كصرخات المحاربين في المعركة، لوّحت بالسلسلة وعملت حركات سريعة بالكرة الحديدية المربوطة بها، كمن يلوح من أجل المرأة الشابة الّتي تحتي بباكورة ثمار نادرة: هاهم منذ ستين جيلا، هكذا تعلمت، اعتادوا على أن ينظروا إلينا على أننا شعب مسكين شعب طلاب معاهد دينية ذليلين، عث (فراش) ليل ضعيفين يفرّون مذهولين من خيال كلّ شيء. «أولاد الموت»، وها هو في نهاية المطاف تصعد يهودية العضلات على منصّة الواقع والحقيقة، الشبيبة اليهودية الجديدة تبزغ بكل عنفوانها، وكل من يراها يرتجفون من زئيرها: أسد بين الأسود.

إلا أن أسد الأشجار الجريء والفظيع الذي جسّدته بعلو نفس أمام عائشة وأخيها، هذا الغضنفر المختبئ لم يتوقع ولم يخمّن من أين يأتيه الشرّ: أسد أعمى وأطرش وغبيّ. له عينان ولم يبصر بهما، وله أذنان ولم يسمع بهما. فقط بقي يلوّح بالسلسلة وهو يركب على غصنه المتأرجح، يجرح الهواء بدوران التفاحة الحديدية الطائرة المتعاظم، كما شاهده في السينما في الأفلام عن رعاة البقر الجريئين الذين يلوّحون بالحبل وبه يرسمون في الهواء أثناء جريهم عروة تلو عروة.

*

لم يرِ ولم يسمع لم يخمّن ولم يأخذ حذره، هذا «الحارس- أنا لأخي» المتحمّس، هذا الأسد الطيّار، مع أنّ كلّ شيء هناك كان مصدرا للمشاكل والمتاعب، كلّ شيء كان مهيّأ لحدوث هذا الشيء الفظيع والمرعب: كتلة الحديد الصدئة المربوطة في طرف السلسلة الصدئة الّتي مجال دوائرها كان يتمدد ويتسع من دورة إلى دورة، كان يهدد أكثر فأكثر من دورة إلى أخرى بأن يقتلع ذراعه من أصلها. حمقه وغباؤه. نشوته وغروره. تسمُّم الرجولة المتزايد. نشوة القومية المتبجحة. الغصن الذي يربض عليه ومن فوقه قام

بعرضه التظاهريّ، ذلك الغصن الغضّ الذي كان يئنّ ويستغيث من شدة الثقل. والبنت اللطيفة- العاقلة ذات الحاجبين الأسودين الكثيفين، هذه البنت الشاعرة، الّتي كانت تنظر إليه من أسفل إلى أعلى كانت ترتسم على وجهها رُوَيداً رُوَيداً ابتسامة خفيفة مُسامحة، لا ابتسامة إعجاب ولا ابتسامة تقدير للإنسان العبري- ابن البلاد الجديد بل ملامح استخفاف واستهتار مشوب بشيء من الاحتقار، ابتسامة متسامحة- مؤنسة، كمن تقول، لكن هذا كله لا شيء، كلّ جهودك وتعبك هذا في الحقيقة لا يساوي شيئاً، لقد رأيت الكثير من هذه الأشياء بل وأعظم منها، كلّ هذه الأشياء أقلّ بكثير مما يمكن أن يثير إعجابي أو حتى يلفت انتباهي، إذا كنت تريد، ذات يوم، أن تثير إعجابي، حقّاً، فإنّه يتوجب عليك، يا حبيبي، أن تبذل جهدا مضاعفا، سبعة أضعاف بل سبعة وسبعين ضعفا.

(ومن أعماق بئر ما مظلمة ربما في تلك اللحظة نفسها أومضت فجأة لطرفة عين واختفت أيضاً كلمح البصر، صورة ذكرى الغابة الهمجية داخل حانوت ملابس النساء صورة تشابك الغابة القديمة الّتي في أعماق ظلمتها لاحق ذات يوم بنتا صغيرة وعندما افلح أخيرا باللحاق بها عند الأشجار الأزلية الحزينة ظهرت له الحقيقة الفظيعة (أو كما يقول المثل العربي: «ذكّرني فوك بحمار أهلي»).)

كما أن أخاها ما زال هناك، عند جذع شجرة التوت، وقد انتهى من ترتيب دوائر أوراق الشجر المنتظمة والغامضة، والآن، أجعد، جادّاً، قلقا، لطيفا، بدأ يخطو ببنطلونه القصير وحذائه الأحمر وراء فراشة صباح بيضاء وفجأة من أعلى شجرة التوت نادوه باسمه بصرخة مرتاعة ومذعورة: عواد، عوّاد ابتعد، وهو ربما تمكن من رفع عينية المستديرتين إلى قمة الشجرة وربما استطاع أن يرى التفاحة الحديدية الصدئة والتي بفعل قوة دوران العقرب اقتلعت دفعة واحدة من طرف السلسلة وطارت باتجاهه مثل قذيفة طارت إليه مباشرة، أخذت تظلم وأخذت تكبر وأخذت تنقض هكذا مباشرة باتجاه عيني الطفل الصغير، ولا شك أنها كانت ستحطم للتوّ جمجمته لولا أنها أخطأته بسنتيمترين أو ثلاثة سنتيمترات، مرت من عند أنف الطفل وسقطت بقوة

شديدة بصوت خافت محطمة قدم الطفل الصغيرة من فوق الحذاء الأحمر الصغير، حذاء الدمية هذا سرعان ما غرق بالدماء الّتي بدأت تتدفق من مكان شراك الحذاء ومن خلال درزة النعل ومن عند حافة الحذاء العليا. عندها ارتفعت حتى فوق قمم أشجار الحديقة صرخة ألم واحدة حادة وثاقبة طويلة تقتلع القلب من مكانه، بعدها أصيب جسمك كله برجفة وخزات إبر- جليد وكل شيء من حولك صمت فجأة دفعة واحدة وكأنهم حبسوك داخل كتلة جليديّة.

*

لا أذكر كيف بدا وجه الطفل المغمى عليه والذي حملته أخته على ذراعيها وراحت به، لا أذكر إذا كانت هي الأخرى قد صرخت أو استدعت المساعدة أو إذا قالت لي شيئا ولا أذكر متى ولا كيف نزلت عن الشجرة أو لم أنزل بل سقطت مع الغصن الذي هوى وانهار بي ولا أذكر من ضمّد لي الخدش على ذقني الذي تدفّق منه تيار دم ثخين إلى داخل قميص العيد الأبيض الذي أرتديه (حتى الآن ما زالت ندبة هذا الجرح على ذقني)، ولا أذكر تقريبا شيئا مما كان هناك ما بين صرخة الطفل الجريح الوحيدة وبين الشراشف البيضاء الناصعة قبيل المساء وأنا ما زلت ارتجف كلي وأنا ملتف بوضع الجنين في بطن أمه مع بعض الغرز في الذقن داخل سرير نوم العمّ ستاشيك والعَمَّة مالا.

ولكنني أذكر حتى الآن، مثل حَرْقَي- جمر حادَّين، عينيها من تحت إطار الأسى لحاجبيها الموصولين ببعضهما: قذفتني نظراتها بالاحتقار واليأس والذّعر والكراهية الّتي تطلق الشرر، وتحت الاحتقار والكراهية كان في عينيها نوع من تنكيس للرأس، حزين، كمن توافق مع نفسها كمن تقول لنفسها، منذ اللحظة الأولى كان بإمكاني أن أعرف حتى قبل أن تفتح فمك كان عليّ أن ألاحظ بأنّني يجب أن أحذر منك، لقد فاح منك ذلك مثل النتانة.

كما اذكر بصورة مشوّهة ضبابية إلى حد ما، شابا أشعر قصير القامة، كان له شارب كثيف يلبس على يده ساعة ذهبية سميكة جدّاً، ربما كان أحد الضيوف، أو ربما أحد أبناء المُضيف، كان يجرّني من هناك بخشونة كان

يسحبني من قميصي الممزّق وكأنه يركض تقريبا. وفي الطريق شاهدت عن بعد كيف أن شخصا يعربد بالقرب من بئر الماء الذي يتوسّط الساحة المرصوفة، كان يقف ويضرب عائشة. ليس بقبضة يده المغلقة ولا يصفعها على خدها بل يضربها بضربة يد واسعة وثقيلة ومتتالية، كان يضربها بقسوة ودون شفقة ببطء وتعمّق يضربها على رأسها وعلى ظهرها وعلى كتفيها وعلى عرض وجهها ليس كما يعاقَب الأولاد بل كما يصب جام غضبه المتوحش على فرس أو جمل عاقّ.

*

بالتأكيد كانت نية والديّ وكذلك نية ستاشيك ومالا، أن يتصلوا وأن يسألوا عن صحة الطفل عواد وإلى أيّ حدّ إصابته بليغة. بالتأكيد كانوا ينوون أن يجدوا طريقة للتعبير عن أسفهم وخجلهم. وربما فكروا في أن يقترحوا تقديم تعويض ماديّ لائق. ربما كان من المهمّ لهم أن يتيقّن مضيفُنا بأمّ عينيه بأن طرفنا أيضاً لم يخرج سالما من الحادث بل جُرح في ذقنه حتى احتاج إلى غرزتين أو ثلاث. ربما أن والدي بالتشاور مع عائلة رودنيتسكي خططوا أيضاً القيام بزيارة، زيارة مصالحة في فيلا الأستاذ السِلْواني، زيارة فيها يحملون الهدايا والهبات للطفل الجريح بينما عنّي، الذليل، كثير الندم فإنّه يتوجّب عليّ اركع هناك عند العتبة أو أن ألبس السواد وأعفّر رأسي بالتراب لكي أظهر لجميع أفراد عائلة السِلْواني خاصّة ولجميع أبناء الشعب العربي عامّة مدى أسفنا وخجلنا لكننا في الوقت ذاته أصيلين لا نبحث عن مبررات وظروف مخفّفة بالإضافة إلى أننا مستقيمون بما يكفي لكي نحمل على ظهورنا كلّ ثقل أعباء الخجل والندم والشعور بالذنب.

ولكن فيما كانوا يتشاورون ويتناقشون فيما بينهم حول التوقيت والأسلوب، وربما أنهم يكلّفون العمّ ستاشيك بأن يطلب من المسئول عنه السّيّد نوكس جيلفورد بأن يتحسس بشكل غير رسمي عند عائلة السِلْواني وأن يجسّ النبض وأن يفحص من أجلنا الأجواء والأوضاع النفسية عند الطرف الآخر، وما يمكن أن تكون مساهمة الزيارة وتقديم الاعتذار وكيف يمكن أن يستقبل طلبه بأن يصححوا الخطأ، وهم ما زالوا يتخذون الإجراءات وعمليات

جسّ النبض إذ حلّت الأعياد كما أنه قبل حلول الأعياد في نهاية آب ١٩٤٧ وضعت لجنة التحقيق الّتي عيّنتها هيئة الأمم المتحدة توصياتها على طاولة الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.

وفي القدس مع أنه لم تندلع أيّ أعمال عنف، إلا أنه بدا وكأن وتر عضل خفي قد شُدّ. وقد أصبح من غير الحكمة أن نذهب إلى تلك الأحياء.

*

بكل شجاعة، اتّصل والدي هاتفياً بمكاتب شركة «سِلْواني وأولاده م.ض.» الّتي كانت في منحدر شارع الأميرة ميري، قدّم نفسه بالإنجليزية وبالفرنسية وطلب أن يتحدّث مع السّيّد السِلْواني - الأب. سكرتير شاب ذرب اللسان ردّ عليه بأدب وببرودة،

طالبا من والدي بالإنجليزية وبالفرنسية أن يتكرم بفضله وينتظر لحظة أو اثنتين، ثمّ عاد وجزم بأنه هو أيّ السكرتير مخوّل بأن يستلم وأن يسجل الرسائل الموجّهة إلى السّيّد سِلْواني، رسالة موجزة تضمّنت مشاعرنا واعتذارنا، وقلقنا على سلامة الطفل العزيز، وعن استعدادنا لتحمّل تكاليف العلاج مهما بلغت، وعبر عن رغبتنا الصادقة في أن نلتقي وأن نحاول تصحيح الخطأ. (للانجليزية والفرنسية الّتي تكلم بهما والدي كانت نبرة روسية واضحة. كلمة "the" سُمعت من فمه مثل "dzee" وكلمة "locomotive" عنده كانت تخرج من فمه هكذا: "locomotsif").

لم نتسلم جوابا من عائلة سِلْواني، ليس بشكل مباشر ولا عن طريق السّيّد نوكس جيلفورد، المسئول عن ستاشيك روذنيتْسكي. هل حقّاً حاول والدي أن يعرف بطرق أخرى كم كانت بليغة إصابة الطفل عوّاد؟ كيف حال الطفل «أعطني - لحظة- لا توجد عندي - لحظة»؟ ماذا حكت عائشة وما لم تحكِه عني؟ إذا عرف والدي حقّاً، شيئا ما فهو لم يقل لي حتى كلمة واحدة. حتى يوم وفاة أمّي وبعده أيضاً وحتى يوم وفاته لم نتكلم أنا ووالدي عن يوم السبت وعلى حتى بالصدفة أو بشكل غير مباشر. ولا حتى بعد سنوات كثيرة أي حتى خمس سنوات بعد حرب الأيام الستة في يوم أحياء ذكرى وفاة مالا

روذنيتْسكي، عندما تحدث ستاشيك المسكين وتحدث نصف ليلة وهو على كرسيّه المتحرك واستذكر بعض الذكريات الجميلة والفظيعة ولكنه لم يذكر ذلك السبت في فيلا سِلْواني.

ومرة واحدة في سنة سبع وستين بعد احتلال القدس الشرقية ذهبت إلى هناك لوحدي، في ساعة مبكرة جدّاً من صباح أحد أيام السبت في فصل الصيف، في نفس الطريق الّتي مشيناها نحن الثلاثة في ذلك السبت. بوابة حديدية جديدة رُكّبت على مدخل سور البيت، وأمام البيت وقفت سيارة ألمانية سوداء ولامعة، على شبابيكها ستائر من

القماش الرماديّ على رأس السور المحيط بالبيت زرعت قطع زجاج لم أتذكرها. من وراء السور أينعت رؤوس أشجار البستان. علم إحدى القنصليات المهمة كان يرفرف هناك على السّطح، وإلى جانب البوابة الحديدية تمّ تثبيت لافتة من النحاس اللامع كتب عليها بالعربية والأجنبية اسم وشعار الدولة الّتي تمثلها القنصلية. حارس بلباس مدنيّ جاء ينظر إليّ وأنا اعتذرت وتابعت السير من هناك باتّجاه جبل المشارف.

*

التأم الجرح في ذقني بعد أيام قليلة. الطبيبة هولندر، طبيبة الأولاد في عيادة صندوق المرضى في شارع عاموس نتفت وانتزعت برفق الغرز الّتي قطبت في ذقني في ذلك السبت في محطة نجمة داود الحمراء.

ومنذ إخراج القطب أُسدل ستار سميك على تلك الحادثة. حتى أن العَمَّة مالا والعم ستاشيك تجنّدا هما أيضاً لحملة التكتّم. حتى ولا كلمة واحدة. لا عن حيّ الشيخ جرّاح ولا عن الأولاد العرب الأطفال ولا عن السلسلة الحديدية ولا عن البساتين وأشجار التوت ولا عن الندب في الذّقن. تابو. كأن الأمر لم يكن. أمّي وحدها، على عادتها، هي الوحيدة الّتي تحرّشت بأسوار الرقابة: ذات مرة، وأنا اجلس في مكاني وهي في مكانها إلى جانب طاولة المطبخ وفي ساعة لي ولها، عندما كان والدي غائبا عن البيت حكت لي أسطورة هندية:

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان، كان هناك راهبان ألزما نفسيهما تزهدا وتنسكا وحرّما على نفسيهما الكثير من الطيبات. من بينها حكما على نفسيهما قطع بلاد الهند مشياً على الأقدام من أولها إلى آخرها. كما فرضا على نفسيهما الصمت ولا أن يتلفظا بأي كلمة حتى في نومهما، ولا كلمة طوال فترة مسيرتهما. ولا حتى أيّ همهمة أو تمتمة. ولكن، ذات مرة عندما مرّا بالقرب من حافة نهر سمعا امرأة تغرق وتستغيث تطلب إنقاذها من التيار الذي يجرفها. دون أن ينطقا بأي كلمة قفز الصغير من بين الراهبين إلى الماء وحمل المرأة على ظهره إلى الشاطئ، ووضعها على الرمل دون أن يقول أيّ كلمة، ثمّ تابع الناسكان طريقيهما بصمت كامل. وما أن مضت نصف سنة أو سنة فتح الناسك الصغير فمه فجأة وسأل زميله: قل لي، هل تعتقد أنني أخطأت عندما حملت تلك المرأة على ظهري؟ أجابه زميلة عن سؤاله بسؤال: ماذا أما زلت تحملها على ظهرك؟

*

أمّا أبي فقد عاد، من جهته، إلى أبحاثه. كان في تلك الأيام غارقا في آداب الشرق القديم، أكّد وسومر، بابل وآشور، شهادات ومستمسكات الأراشيف القديمة في تل العمارنة وفي ختوشَش، والمكتبة الأسطورية للملك آشور بني بعل (بانيبال) الذي سمّاه اليونانيون «سَرْدَنَبالوس»، ملحمة جلجاميش والأسطورة القصيرة عن آدابا (Adapa). تلال من الكتب والمعاجم كانت متراكمة على طاولة أبي، يحيط بها جيش كامل من القصاصات والبطاقات الصغيرة. عاد مرة أخرى كي يسرّي عن أمّي وعني بواسطة إحدى نكاته المعروفة والثّابتة: إذا سرقت حكمتك من كتاب واحد فما أنت إلا مُنتحِل أدبيّ. بلاجياتُر ولكن إذا سرقت ملء يديك من خمسة كتب فأنت لست منتحلا أو سارقا بل باحثا، وإذا اتعبت نفسك وسرقت من خمسين كتابا فأنت باحث بارع ومشهور.

من يوم إلى آخر بدأ ينكمش عضل خفيّ تحت جلد القدس. إشاعات مزعجة بعضها يجمّد الدم في العروق، انتشرت في أحيائنا، هناك من قالوا بأن الحكومة في لندن ستُخرج قريبا جيشها وجميع موظفيها من البلاد لمدة أسبوعين أو ثلاثة وذلك لكي تفسح المجال أمام دول الجامعة العربية، والتي ما هي إلا ذراع بريطانية ملفوفة بعباءة، لكي تُخضع اليهود وتحتل البلاد ولكي تفسح المجال أمام الحكومة البريطانية لتعود إلى هنا من الباب الخلفي بعد أن يختفي اليهود. القدس- هكذا قرر بعض الاستراتيجيين في بقالة السّيّد أوستر ستصبح قريبا عاصمة الملك عبد الله ملك شرقي الأردن، بينما نحن - السكان اليهود- فسيقومون بنقلنا بواسطة السفن إلى مخيّمات لاجئين في قبرص. أو ربما يقومون بتوزيعنا على مخيمات النازحين في جزيرة «ماوريسيوس» في جزر «سيشل» في قلب المحيط الهندي.

وكان هناك من لم يترددوا في أن يقذفوا في آذان سامعيهم الاتهام بأن المنظمات السرية العبرية: «الايتسل»، و«الليحي»، وحتى «الهاجناه» في عملياتهم الدموية ضدّ السلطات البريطانية وبالذات تفجير مقر الحكومة البريطانية في فندق الملك داود هي الّتي سبّبت لنا هذه الكارثة: إذ أن أيّ إمبراطورية في التاريخ ما كانت تسكت على مثل هذه الأعمال والتحرشات المُهينة، ولذلك قرر البريطانيون معاقبتنا بمذبحة فظيعة. لقد كرّهتنا على الشعب البريطاني الأعمال الحمقاء الطائشة الّتي قام بها زعماؤنا الصهاينة المتزمتون والمتطرفون، حتى قررت لندن بأن تفسح المجال أمام لعرب لكي يقوموا بذبحنا جميعا: حتى ذلك اليوم حالَت القوّات البريطانية بيننا وبين مذبحة عامّة وشاملة بأيدي جميع الشعوب العربية، من الآن سينصرفون جانبا ونحن - سنتحمّل نتيجة ما جنته أيادينا.

كان هناك من قالوا في الحي بأن بعض ذوي الحسب والنسب وذوي العلاقات وأغنياء حي رِحافيا، من المقاولين والوكلاء أصحاب العلاقات الجيدة مع السلطات البريطانية، واليهود الذين يعملون بوظائف عالية في حكومة الانتداب البريطاني، قد لمّحوا لهم بأنه من الأفضل لهم أن يغادروا البلاد في اقرب فرصة، أو على الأقلّ، أن يهرّبوا صغارهم ونساءهم إلى

أماكن آمنة. ذكروا هذه العائلة أو تلك الّتي قامت وهاجرت إلى أمريكا وعن أصحاب المصالح والوصوليين من هنا وهناك وبالذات من أولئك الذين يتكلمون دائماً بصوت عال، الذين غادروا في ساعات الليل مدينة القدس واستقروا مع عائلاتهم في تل أبيب. إنّهم، بكل تأكيد، يعرفون حقّ المعرفة شيئا ما زلنا نحن لا نخمنه. أو أننا نفكر به في كوابيسنا وأحلامنا المزعجة.

وكان هناك من حكى عن مجموعات من العرب الشباب الذين يمشّطون أحياءنا في ساعات الليل وهم مزوّدون بفرشايات وعلب الدهان حيث يقومون مسبقا بوضع علامات وتقسيم بيوت اليهود فيما بينهم. كما حكوا بأن عصابات عربية مسلّحة من رجال مفتي القدس، أصبحت تسيطر، عمليا، على جميع سلاسل الجبال المحيطة بالقدس، في حين يغض البريطانيون أبصارهم. كما حكوا بأن قوات الجيش الأردني بقيادة البريغادير البريطاني سير جون جلوب المشهور بجلوب باشا قد انتشرت في مناطق رئيسية في جميع أرجاء البلاد من أجل هزم اليهود قبل أن يحاولوا رفع رؤوسهم. ومقابل كيبوتس رمات راحيل يتخندق مقاتلو «الإخوان المسلمين»، الذين سمح لهم البريطانيون بالقدوم من مصر مع أسلحتهم وإقامة التحصينات في داخل القدس. كما كان هناك من عبروا عن أملهم بأنه مع خروج البريطانيين سيتدخّل، على الرغم من كلّ شيء، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ترومَن: وبسرعة البرق سيرسل جيشه، حاملتا طائرات أمريكيتان عملاقتان شوهدتا في مياه صقلية وهي متجهة نحو الشرق، لن يسمح الرئيس ترومن، بأي حال من الأحوال، بأن تحدث للشعب اليهودي كارثة ثانية بعد أقلّ من ثلاث سنوات من كارثة الستة ملايين: إذ أن يهود أمريكا الأغنياء وكثيري التأثير سيضغطون عليه، فهم لا يستطيعون أن يبقوا مكتوفي الأيدي.

كان هناك من آمنوا بأن ضمير العالم النيّر، أو الرأي العالمي المتطور أو طبقة العمال العالمية، أو الشعور بالذنب المنتشر على المصير المرير للناجين اليهود، هذه كلها مَعاً ستقوم وتعرقل «المؤامرة الإنجليزية- العربية على إبادتنا». على أقلّ احتمال، هكذا واسى بعض جيراننا ومعارفنا أنفسهم مع

حلول البشائر الأولى لخريف غريب ومرعب. على أقلّ احتمال، ربما تمكّنا، على الرغم من كلّ شيء، بأن نواسي أنفسنا بالقول صحيح أن العرب لا يرغبون في وجودنا هنا ولكنّ شعوب أوروبا، بالمقابل، لا يريدون إطلاقاً إطلاقاً أن يرَوْنا نعود لنملأ أوروبا من جديد. وبما أنّ قوة شعوب أوروبا اكبر بكثير من قوة العرب فالحاصل أن هناك احتمالا ما لأن يُبقونا هنا ويجبروا العرب على بلع ما تريد أوروبا أن تتقيّأه.

على هذا النحو أو ذاك فقد تنبّأ الجميع بالحرب. في راديو المنظمة السرية الذي كان يبث على موجات قصيرة كانت تُذاع أغانٍ حماسية: «في الجبال أشرق نورنا/ سنصعد إلى الجبل/ الأمس بقي من ورائنا/ لكن الطريق طويل إلى الغد...» وأيضاً: «لا نحتلّ رأس الجبل/ إذا لم نترك قبرا في المنحدر!» «من المطلة حتى النقب/ من البحر حتى الصحراء/ كلّ شاب ومن يحسن حمل السلاح/ الفتيات - بالمرصاد!» «سلام المحراث حمله شبابك، اليوم هم يهدونك السلام بالبنادق!» وكذلك: «من منحدرات لبنان وحتى البحر الميت.» البرغل والزيت، والشموع، والسكر، ومسحوق الحليب، والطحين كلها اختفت تقريبا من السوق، من على رفوف بقالة السّيّد أوستر: بدأ الناس يخزّنون الحاجيات احتياطا لما سيأتي. أمّي أيضاً اشترت وخزّنت في أعماق خزانة المطبخ عدة أكياس من الطحين وطحين المصّة ورزم من القُرْشَلّة وعلب معدنية فيها عصيدة من طحين الشوفان، بالإضافة إلى الزيت والزيتون والسكر والمعلّبات. كما اشترى والدي صفيحتين مشموعتين مليئتين بالنفط وضعهما تحت مغسلة الحمام.

ما زال أبي يخرج كلّ يوم في الساعة السابعة والنصف صباحا مسافرا إلى مكان عمله في المكتبة القومية الّتي على جبل المشارف، بواسطة الحافلة رقم تسعة الذي يخرج من شارع «جيئولا» ويمر على طول مئاه شعاريم ويخترق حي الشيخ جراح ليس بعيدا من فيلا سلواني. قبيل الخامسة مساء كان يعود من عمله واضعاً كراريس وكتباً في حقيبته البالية وبعض الكتب والكراريس يتأبطها تحت ذراعه. لقد طلبت منه أمّي عدة مرات بألا يجلس على المقعد المجاور للشباك عند صعوده إلى الحافلة أضافت إلى طلبها هذا بضع كلمات

بالروسيّة. كما أننا مؤقتا، أجلنا رحلتنا الّتي كنا نقوم بها أيام السبت إلى بيت العمّ يوسف والعَمَّة تسيبورا.

*

كنت بالكاد ابن تسع سنوات وقد أصبحت قارئ صحف مدمن. مستهلك أخبار. معلقا مجادلا كله حيوية. خبيرا عسكريا- سياسيا يُحسب حساب لرأيه في نظر أولاد الجيران. إستراتيجيّ علب كبريت وأزرار وحجارة دومينو على الحصيرة. يسفّر الجيوش يقوم بالالتفاف التكتيكي، يقوي المعاهدات مع هذه الدولة العظمى أو تلك، يجمع المبررات الحاذقة الّتي يمكنها أن تتحول لصالحنا حتى وإن أعاد القلب البريطاني المتجمّد وكرّر خطابات تكفي، لا تسبب في أن تجعل العرب يتفهموننا ويتصالحون معنا فحسب بل إلى أن يطلبوا الصفح والمسامحة منا، بل بمقدورها أيضاً أن تجعل العرب يذرفون دموع - التعاطف مع معاناتنا بانفعال عميق من نبل أنفسنا وسموّ أرواحنا.

أجريت في تلك الفترة محادثات فخورة ولكن عملية مع داونينج ستريت ومع البيت الأبيض ومع البابا في روما ومع ستالين ومع ملوك العرب. «دولة عبرية! هجرة حرة!» صرخ متظاهرو السكان اليهود وقد انتظموا في مسيرات واجتماعات شعبية، إلى واحدة منها أو اثنتين، وافقت أمّي أن يأخذني أبي معه. في حين صرخت الجماهير العربية في كلّ يوم جمعة بعد خروجهم من المساجد في مسيراتهم الغارقة بالكراهية والعدائية: «اذبح اليهود!» أو أيضاً «فلسطين هي أرضنا واليهود - كلابنا!» بلا صعوبة كان بإمكاني أن أقنعهم لو أتيحت لي فقط الفرصة وأن أثبت لهم بمنطق بسيط أنه في الوقت الذي في شعاراتنا وطلباتنا لا يوجد، لا سمح الله، أيّ شيء يمكن أن يسيء إليهم فإنّ الشعارات الّتي يزأر بها الجمهور العربي المحرَّض هي غير لائقة وغير نزيهة جدّاً جدّاً، إضافة إلى أنها تظهر الصارخين بها بشكل مخجل جدّاً. في تلك الأيام لم أكن ولدا بل كتلة من الادعاءات الّتي اعتقدت أنها نزيهة وعلى حقّ. شُوفِينِّيّ صغير بجلد محارب من أجل السلام. «قومجي» يتظاهر بالنزاهة والصدق، سلس الكلام وذرب اللسان. داعية صهيوني ابن تسع سنوات:

نحن الأفضل وعلى حق أكثر، نحن الضحية دون أن نرتكب أي إثم، نحن داود مقابل جالوت نحن الحمل بين سبعين ذئبا ونحن الخروف القربان ونحن الجدي الوارد ذكره في قصة الهجداه[١] ونحن البهاء - إسرائيل، وهم - هم كلهم- الانجليز والعرب وبقية الأغيار، هم الذئاب السبعون، كل العالم الشرير المنافق والمتعطّش دائما إلى دمائنا- لهم العار والخجل. (في كتاب «النمر في القبو» وكذلك في قصص مجموعة «جبل الموعظة السيئة» كتبت عن تلك الأيام وكذلك عن ولد يشبهني قليلا. وبشكل خاص في القصة التي عنوانها «الأشواق».)

*

بعد أن أعلنت حكومة بريطانيا عن نيتها بإنهاء حكمها على أرض إسرائيل وإعادة الانتداب على أرض إسرائيل إلى هيئة الأمم المتحدة، عينت هيئة الأمم المتحدة لجنة خاصة (UNSCOP)[٢] كُلّفت ببحث الوضع في فلسطين وأوضاع مئات آلاف اليهود النازحين ممن نجوا من مكنة الإبادة النازية، والذين يسكنون منذ سنتين ونيّف في مخيمات لاجئين في أوروبا، في أواخر آب ١٩٤٧ نشرت هذه اللجنة استنتاجاتها: أوصى غالبية أعضائها بإنهاء الانتداب البريطاني على أرض إسرائيل في اقرب وقت ممكن. وبدلا منه تقسّم البلاد إلى دولتين مستقلّتين- دولة للعرب ودولة لليهود. المساحة الّتي خصصت لكلٍّ من الدولتين كانت متساوية تقريبا. الحدود الملتوية والمتشابكة بينهما رسمت تقريبا بحسب الانتشار السكاني للمجموعتين السكانيتين. ترتبط الدولتان مَعاً في اقتصاد مشترك، وعملة مشتركة وإلخ. القدس، هكذا أوصت اللجنة تكون كيانا منفصلا، حياديا، تدير شئونها هيئة دولية بواسطة حاكم من هيئة الأمم المتحدة.

وضعت هذه التوصيات على طاولة الجمعية العامة بانتظار المصادقة

---

(١) قصة خروج اليهود من مصر يقرأها اليهود في ليلة عيد الفصح (المترجم).

(٢) United Nations Special Committee on Palestine = لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (المترجم)

عليها، هذه المصادقة الّتي تحتاج إلى موافقة ثلثي أعضاء الجمعية العامة. وافق اليهود على القبول بقرار التقسيم وإن كانت الموافقة على مضض: إذ أن الدولة الّتي خُصّصت لهم لم تشمل القدس اليهودية ولا الجليل الأعلى ولا الجليل الغربي. خمسة وسبعون بالمائة من المساحة الّتي خصصت لليهود كانت أرضاً صحراوية مقفرة. بينما أعلنت القيادة العربية - الفلسطينية وكذلك جميع دول جامعة الدول العربية فوراً عن عدم موافقتها على أيّ تسوية وأنها تنوي «الحيلولة دون تطبيق هذه التوصيات بالقوة، وأن تغرق في الدماء كلّ كيان صهيوني يحاول أن يقوم ولو على شبر واحد من أرض فلسطين». من وجهة النظر العربية كانت كلّ البلاد أرضاً عربية منذ مئات السنين حتى جاء البريطانيون وشجّعوا جماهير غرباء ليسوا من هنا بغزو أرجاء البلاد، وتسوية التلال واقتلاع كروم الزيتون القديمة وشراء الأرض بالخديعة والاحتيال، قطعة تلو قطعة، من أيدي أصحابها الفاسدين والمنحلين أخلاقيا وسلبها من أيدي الفلاحين الذي يفلحونها منذ أجيال كثيرة. إذا لم يتصدوا لهم فإنّ هؤلاء المستعمرين اليهود النشيطين والماكرين سوف يبتلعون البلاد كلها ويزيلون عنها كلّ ما يشير ويدل على عروبتها، وسيغمرونها بالمستعمرات الأوروبية ذات السطوح الحمراء ويغمرونها بعادات وقحة متعجرفة خليعة ومستهترة وبعدها سيسيطرون على المقدسات الإسلامية ومنها يتوغلون في البلاد العربية المجاورة وسرعان ما يُحدثون هنا بمكرهم واحتيالهم وتآمرهم الشديد وبقوة تفوقهم المعزّز بتأييد الامبريالية البريطانية بالضبط كما فعل البيض في أمريكا وفي استراليا وفي أماكن أخرى لسكان البلاد الأصليين. إذا فسح لهم المجال لإقامة دولة هنا ولو كانت دولة صغيرة فإنهم سيستعملونها كرأس جسر حيث سيتدفق إليها الملايين منهم مثل السِرْب سينقضون على الجبال والمروج يسحقون كلّ أثر لعروبة مناظرها القديمة ويبتلعون كلّ شيء قبل أن يصحو العرب من سباتهم.

في أواسط شهر تشرين الأول وجّه المندوب السامي البريطاني الجنرال سير ألن كانينغهام إنذاراً مبهماً إلى دافيد بن غوريون الذي كان في حينه رئيس إدارة «الوكالة اليهودية»: «عندما تحلّ الكارثة،» قال حاكم البلاد من قبل

حكومة بريطانيا بأسى، «أخشى ألا نتمكّن من حمايتكم ولا حتى من مساعدتكم.»(١)

*

قال والدي:

«لقد تنبّأ هرتسل وقد عرف بما تنبّأ. في أيام المؤتمر الصهيوني الأول في بازل قال هرتسل بأنه بعد خمس سنوات وفي أسوأ الحالات بعد خمسين سنة ستقام دولة اليهود في أرض إسرائيل. وها قد مضت خمسون سنة بالضبط والدولة فعلا تقف عند الباب.»

قالت والدتي:

«لا تقف. لا يوجد أيّ باب. توجد هاوية.»

لقولها هذا صرخ بها والدي صرخة كانت كصوت جلدة السوط، ولكن بالروسية أو بالبولندية كي لا أفهم.

وأنا، ببهجة عبثا حاولت إخفاءها عنهما، قلت:

«ستندلع حرب عما قريب في القدس! ونحن سننتصر على الجميع!»

ولكن، أحياناً لوحدي في زاوية الساحة قبيل الغروب أو في الصباح الباكر من يوم السبت عندما يكون والديّ ما زالا نائمين والحيّ كله يغط في نوم عميق، كنت أتجمّد فجأة بسبب وخزة هلع ثاقبة لأنّ صورة البنت عائشة الّتي ترفع وتحمل الطفل أخاها على ذراعيها وهو صامت وقد أغمي عليه بدت لي فجأة كرسمة مسيحية ترتعد لها الفرائص كان والدي قد أرانيها وشرحها لي، ذات مرة، عندما زرنا إحدى الكنائس.

كنت أتذكر منظر أشجار الزيتون المطلة من نوافذ ذلك البيت، زيتون قد انتقل منذ

عهد أو عهود من عالم النبات والتحق بمملكة الجماد.

---

(١) دوف يوسف، «بلدة مخلصة»، إصدار دار النشر شوكين، القدس وتل أبيب ١٩٦٠، ص: ٣٢ (المؤلف).

«تن لي ريجع إين لي ريجع!» (أعطني لحظة! لا وقت لديّ!) «تن لي إين لي» «تنلي إينلي» «تنلي إينلي»

*

في تشرين الثاني بدأ يتجلى نوع من الستار بين القدس والقدس. ما زالت خطوط الحافلات تسافر من هنا إلى هناك وبالعكس، ما زال بائعو الفواكه المتجوّلون القادمين من القرى العربية المجاورة يتجوّلون أحياناً في شوارعنا، وهم يحملون سلال التين واللوز وأكواز الصبر، ولكن هنا وهناك هجر اليهود الأحياء العربية وانتقلوا إلى غربيّ المدينة كما أن سكانا عربا من غربي المدينة غادروا إلى الجنوب أو إلى الشرق.

فقط بالخيال كان بإمكاني أن امشي أحياناً في الجزء الشمالي - الشرقي من شارع سنت جورج، وأتعجب بعيون مفتوحة على وسعها تكاد تتمزق من روعة القدس الأخرى: مدينة السروات الهرمة الّتي أصبح لونها أسود لا أخضر، أحياء كلها أسوار حجرية وشبابيك مشبكة بالحديد ومع براويز وأفاريز وطُنُف وحيطان مظللة باهتة، القدس الغريبة، الصامتة، السامية النبيلة الغامضة، البلدة الأثيوبية، البلدة المسلمة، بلدة الحجاج، البلدة العثمانية، بلدة التبشير، البلدة الغريبة، البلدة المتنكرة، البلدة الصليبية، البلدة التمبلارية، البلدة اليونانية، البلدة الأرمنية، البلدة الايطالية، البلدة كثيرة المؤامرات، البلدة الإنجليكانية، البلدة البرافوسلافية، بلدة الأديرة، البلدة القبطية، البلدة الكاثوليكية، البلدة اللّوثرية، البلدة الاسكتلندية، البلدة السنيّة، البلدة الشيعيّة، البلدة الصوفية، البلدة العلَويّة، المغمورة بأصوات أجراس الكنائس وأصوات نداء مؤذّني المساجد، كثيفة أشجار الصنوبر، مخيفة وجذابة بكل سحرها فاقد الوعي، بمتاهات أزقتها المحرّمة علينا والمعادية لنا من قلب الظلام، بلدة تكتم أسرارا، تحيك الشر، حبلى بالمصائب، مثل الظلال السوداء تعوم هناك في تلك الشوارع في ظل الأسوار الحجرية أنواع مختلفة من الحجاج المسيحيين- الرهبان من لابسي العباءات السوداء مع البرانس السوداء والنساء بأكسية سود وخُمُر سوداء.

*

جميع أبناء عائلة سلواني، هكذا علمت بعد حرب الأيام الستة، أخذوا ثروتهم وهاجروا في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القدس الأردنية. منهم من حط الرحال في سويسرا وكندا ومنهم من استوطن إمارات الخليج، ومنهم من نزح إلى لندن وآخرون إلى أمريكا الجنوبية.

وببغاوانهم؟ «هو ويل بي ماي ديستيني؟ هو ويل بي ماي برينس؟»

وعائشة؟ وأخوها الأعرج؟ أين في العالم تعزف الآن على البيانو، إن كانت ما زالت تمتلك بيانو، إذا لم تكن قد شاخت وبهتت بين والسقائف الّتي يغطيها التراب واسعة الشمس الحارقة في أحد مخيمات اللاجئين الّتي تتدفق المجاري في منحدرات أزقتها الترابية؟ ومن هم اليهود المحظوظون الذين يسكنون الآن في البيت الذي بيت عائلة عائشة في حي طلبية المبنية كلها من حجارة زُرَيقاء وحجارة وردية وبحجارة على شكل أقواس؟

*

ليس بسبب الحرب الوشيكة بل لأي سبب آخر، غامض، كنت أحياناً أفزع كلي في أيام ذلك الخريف من سنة ١٩٤٧ وأنكمش من الداخل من شدة هِياج النفس اللاذع المختلط بالخزي والعار وبيقين وقوع العقاب الذي سيحل عليّ وكذلك بنوع من الألم غير الواضح: ما يشبه الشوق المحرّم، شوق مُشبع بالشعور بالإثم والمهانة، شوق إلى متاهات تلك الحديقة - ذلك البستان. إلى بئر الماء المغطّى بلوح معدنيّ أخضر وإلى بركة الزينة خماسية الشكل مع بلاطات الصيني الزرقاء ومع أسماكها الذهبية الّتي تلمع للحظة تحت أشعة الشمس ثمّ تعود لتختفي في غابة من أزهار النيلوفر إلى الوسائد الناعمة ذات التخريمات الدقيقة والمتجعّدة. إلى السجاجيد ذات النسيج الكثيف والتي رسم على إحداها طائر الفردوس بين أغصان أشجار الفردوس. إلى أوراق البرسيم المرسومة على زجاج الشبابيك كلّ ورقة وضوئها ورقة حمراء وورقة خضراء وورقة ذهبية وورقة بنفسجية.

وكذلك إلى الببغاء الذي كان صوته يشبه الصوت الأجشّ للمدخن العجوز: «مي وي، مي وي، شير مدموزيل»، وإلى زوجته الببغاءة ذات

الصوت السوبرانو الّتي كانت تجيبه بصوت مثل صوت أجراس الفضة: كصوت مدخن: «تفضّل. سيل فو بْليه. إنْجويْ».

إذ أنني كنت هناك ذات مرة، في ذلك البستان، قبل أن أطرَد منه خائبا مخزيّاً، فقط برؤوس أصابع لمست فعلا-

بس. بس، يا عيني. بس من فضلك. أُسكت.

في الصباح الباكر كنت استيقظ كمن يستيقظ على رائحة الشعاع الأول ويرى عبر ثقوب الأباجور الحديدي المغلق أغصان الرمان الموجودة الّتي عند أقصى ساحتنا. هناك، في خفايا هذه الرمانة كانت تقف كلّ صبح عصفورة لا تكاد ترى، كانت تكرر عدة مرات متتالية بدقة وببهجة متّقدة النغمات الخمس الأولى من معزوفة «إلى إليس».

أحمق، مندفع، أحمق صغير وصاخب :

إذ بدلا من أن يتقدم إليها كما يتقدم الشخص العبري الجديد إلى الشعب العربي الأصيل، بدلا من كما يتقدم الأسد إلى الأسود، ربما كان من الممكن ببساطة كما يتقدم ولد إلى بنت؟ أليس كذلك؟

٤٣

«انظري كيف أن الولد البارعُ في الإِسْتِرَاتِيجِيَّة عاد واحتل لنا البيت بالكامل: في الممر أصبح المرور مستحيلا، الكل ممتلئ بالتحصينات والأبراج من المكعبات والمواقع من حجارة الدومينو والألغام من أغطية القناني والحدود من عصيّ من تلك المستعملة في لعبة «العيدانيّة». في غرفته على الحصيرة توجد هناك معارك أزرار من الحائط إلى الحائط. يحظر علينا أن ندخل إليها، هذه خارج المجال. هذا أمر. وحتى في غرفتنا، حيث وزّع على المسطبة شوك وسكاكين والتي ترمز هي الأخرى، بكل تأكيد، إلى خط ماجينو ما أو إلى أساطيل وجيوش مدرّعة. بعد وقت علينا نحن الاثنين أن نغادر البيت وأن ننتقل لنسكن في الساحة. أو ربما في الشارع. ولكن ما أن وصلت الجريدة حتى ترك ابنك كلّ شيء وأعلن، على ما يبدو، عن وقف عام لإطلاق النار، واستلقى على ظهره على الكنبة وهجم على الجريدة. قرأها كلها وربما قرأ الإعلانات أيضاً. حاليا، يقوم بمدّ خيط طويل من مقر قيادته الواقع خلف خزانة الملابس عبر البيت كله حتى تل أبيب الموجودة عنده على ما يبدو عند حافة حوض الحمام. وإن لم أكن مخطئاً عبر هذا الخيط يريد بعد لحظة أن يتكلم مع بن غوريون. كما في الأمس. أن يشرح لبن غوريون ماذا الذي يجب عمله في هذه المرحلة ومن أيّ شيء يجب أن نحذر. ربما أنه حتى بدأ يصدر الأوامر إلى بن غوريون.»

*

في أحد الأدراج المنخفضة في غرفة عملي هنا في مدينة عراد وجدت

أمس مساء حقيبة من الكرتون البالي وفيها قصاصات ورق مختلفة كنت كتبتها استعدادا لكتابة قصص المجموعة «جبل الموعظة السيئة» قبل أكثر من خمس وعشرين سنة. من بين ما وجدته بينها كانت هناك بعض التسجيلات المتراكمة مما كنت قد نسخته في المكتبة في تل أبيب في سنة ١٩٧٤ أو ١٩٧٥ من جرائد شهر أيلول ١٩٤٧. وهكذا، في عراد، في صباح أحد أيام صيف عام ٢٠٠١، مثل الصورة المنعكسة في المرآة والتي تنعكس صورتها في مرآة ثانية، تذكّرني هذه القصاصات والتي تعود إلى قبل سبع وعشرين سنة ماذا قرأ الولد «البارِعُ في الإِسْتِرَاتِيجِيَّة» في الجريدة بتاريخ اليوم التاسع من أيلول ١٩٤٧:

شرطة مرور عبرية بدأت تعمل في تل أبيب بترخيص من الحاكم الإنجليزي، وهي مكونة من ثمانية رجال شرطة يعملون في نوبتين. تحاكم بنت عربية عمرها ثلاث عشرة سنة في محكمة عسكرية بتهمة حمل بندقية في قرية حوارة، قضاء نابلس. المهاجرون غير الشرعيين من مجموعة «خروج أوروبا» يُنقلون رغما عنهم إلى هامبورغ ويقولون بأنهم سيرفضون النزول حتى آخر نفس. حكم على أربعة عشر رجل جستابو بالإعدام في مدينة ليبك. خُطف السّيّد شلومو حملنيك من رحوفوت وضرب ضربا مبرّحا على يد المنظمات الانفصالية ولكنه عاد سالما إلى بيته. فرقة «صوت القدس» الموسيقية ستعزف بقيادة حنان شلزينغر. صيام المهاتما غاندي وصل إلى يومه الثاني. المطربة أديس دي- فيليب لا تستطيع الغناء هذا الأسبوع في القدس، كما أن المسرح الكاميري يضطر إلى تأجيل عرضه لمسرحية «لأنك لن تأخذه معك». بالمقابل، دُشّنت أمس الأول في القدس عمارة الأعمدة في شارع يافا وفيه، من بين ما فيه، حوانيت ميكونيلسكي وحوانيت فرايمن وباين وكذلك محل بديكور: العناية بالأقدام وأظافرها «دكتور شول». بناء على أقوال الزعيم العربي موسى العلمي فإنّ العرب لن يوافقوا أبداً على تقسيم البلاد وقد سبق وحكم الملك سليمان بأن الأم الّتي رفضت التقسيم هي الأم الحقيقية، واليهود بالذات هم الذين من المفروض أن يعرفوا جيدا هذا المثل وأن يفهموا المقصود منه. من جهة ثانية أعلنت غولدا مئيرسون العضو في

إدارة «الوكالة اليهودية» بأن اليهود سيناضلون من أجل ضم القدس إلى الدولة العبرية لأنّ القدس وأرض إسرائيل هما مترادفان في قلبنا.

بعد ذلك بعدة أيام كتبوا في الجريدة:

في ساعة متأخرة من الليل هاجم عربي فتاتين يهوديتين بالقرب من مقهى بيرناردیا الواقع بين حي بيت هكيرم وحيّ بايت فجان. إحداهما هربت في حين صرخت الأخرى حتى سمعها الجيران الذين نجحوا في إفشال محاولة هرب المتهم. في التحقيق مع الضابط أوكونور اتّضح أن الشخص يعمل في محطة الإذاعة وهو قريب من بعيد من عائلة النشاشيبي العريقة، ومع ذلك رفضوا إطلاق سراحه بالكفالة بسبب خطورة المخالفة المنسوبة إليه. للدفاع عن نفسه ادعى المعتقل بأنه خرج من المقهى سكران وقد تخيّل بأن الفتاتين عاريتان وهما تتبادلان المداعبة الجنسية في الظلام.

وفي يوم آخر من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧:

ترأس الليفتنانت - كولونيل أدرلي رئيس المحكمة العسكرية هيئة القضاة في محاكمة السّيّد شلومو منصور شالوم موزع مناشير غير قانونية والذي وجد غير مؤهل عقليا. طلب موظف الرقابة السّيّد جارديفيتس عدم إرسال المتّهم إلى مُسْتَشْفَى الأَمْراضِ العَقْلِيَّة (البيمارستان) كيلا يزداد وضعه سوءا وبدلا من ذلك ألح على القضاة بعزل المتهم مؤقتا في مؤسسة خصوصية، حيث لا يستغل المتطرفون المتزمتون عقله غير السويّ لأغراضهم الشريرة. رجّح الليفتنانت - كولونيل أدرلي بكل أسف الكفة بأنه لا يستطيع التجاوب مع الحاح السيد جارديفيتس بسبب حدود صلاحياته، وانه من واجبه أن يعتقل المتهم المسكين حتى يقرر المندوب السامي باسم العرش إذا كان هناك مجال للتساهل أو لمنحه عفوا خاصا. في صوت القدس ستقدم تسيلا ليبوفيتش فصولا في العزف على البيانو وبعد الأخبار سيقدم السيد جوردوس استعراضه وفي الختام ستقدم السيدة براخا تسيفيرا مقطوعات من الأغاني الشعبية.

*

في المساء شرح والدي لضيوفه الذين جاؤوا لتناول الشاي بأنه على

الأقل منذ منتصف القرن الثامن عشر، وقبل ظهور الصهيونية الحديثة بوقت طويل وبدون أي علاقة بها، كان اليهود أكثرية مطلقة من سكان القدس. في أوائل القرن العشرين، وقبل بدء الهجرات الصهيونية، كانت القدس، تحت السيادة التركية - العثمانية، أكثر مدن البلاد سكانا، إذ سكنها خمسة وخمسون ألف مواطن، منهم حوالي خمسة وثلاثين ألف يهوديّ. والآن، في خريف ١٩٤٧ يسكن في القدس حوالي مئة ألف يهودي وخمسة وستون ألفا من غير اليهود، من العرب المسلمين، والعرب المسيحيين، والأرمن واليونانيين، والبريطانيين وأبناء شعوب كثيرة أخرى.

إما في شمال المدينة وشرقها وجنوبها فقد امتدت أحياء عربية كبيرة منها الشيخ جراح، المستوطنة الأمريكية الحي الإسلامي والمسيحي اللذان داخل الأسوار، المستوطنة الألمانية والمستوطنة اليونانية والقطمون والبقعة وأبو ثور. على الجبال المحيطة بالقدس هناك مدن عربية، رام الله والبيرة، بيت جالا وبيت لحم وقرى عربية كثيرة، العيزرية، وسلوان وأبو ديس، والطور والعيساوية وقلنديا وبير نبالا والنبي صموئيل وبيدو وشعفاط ولفتا وبيت حنينا وبيت إكسا وكولونيا وشيخ بدر ودير ياسين التي أكثر من مئة من سكانها ذُبحوا بأيدي رجال الايتسل والليحي في نيسان ١٩٤٨، وصوبا وعين كارم وبيت مزميل والمالحة وبيت صفافا وأم طوبا وصور باهر.

إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب من القدس امتدت مناطق عربية. مستوطنات يهودية قليلة كانت موزّعة هنا وهناك بالقرب من المدينة: عطروت، نافي يعكوف من الشمال، كاليا وبيت هعرافا على شاطئ البحر الميت من الجهة الشرقية، رمات راحيل وجوش عتسيون من الجنوب، وموتسا وكريات عنَفيم ومعاليه هحميشاه من الغرب. في حرب ١٩٤٨ سقطت هذه المستوطنات مع الحي اليهودي الذي داخل أسوار البلدة القديمة في القدس، في أيدي الجيش الأردني. جميع المستوطنات اليهودية التي سقطت في الحرب في أيدٍ عربية مسحت تماما عن وجه الأرض - كلها دون استثناء- والسكان اليهود كلهم حتى آخر واحد منهم إما أنهم قتلوا أو هربوا أو أُسروا، ولكن الجيوش العربية لم تسمح لأي منهم بالعودة بعد الحرب.

عمل العرب في الأراضي التي احتلوها «تطهيرا عرقيا» أساسيا أكبر مما عمله اليهود للعرب في تلك الحرب: من أراضي دولة إسرائيل هرب وطُرد مئات الآلاف من العرب، لكن أكثر من مئة ألف بقوا في أماكنهم. بينما، بالمقابل، في الضفة الغربية وفي قطاع غزة أيام الحكم الأردني والمصري لم يبق يهود إطلاقا. ولا حتى يهودي واحد. المستوطنات مُسحت، الكنس والمقابر هُدّمت.

*

في حياة الأفراد وكذلك في حياة الشعوب، الصراعات الأكثر فظاعةً هي في حالات كثيرة تلك التي تدور بين اثنين مضطهدين. فقط في الأماني الانفعالية المنتشرة بين عدد من الحلقات، يتحد دائما المضطهدون والمظلومون أينما كانوا من منطلق الشعور بالتضامن ويسيرون معاً إلى المتاريس لكي يقاتلوا معاً مضطهدهم أو ظالمهم الغاشم. في الحقيقة، الابنان للوالد العنيف والمؤذي جسديّاً لا يكونان بالضرورة متحالفين، كما أنّ وحدة المصير لا تقرّب بينهما. وفي كثير من الحالات يرى كلٌّ منهما في أخيه ليس أخاً شريكا في المصير بل وبالذات يرى فيه صورة وجه مضطهدهما المشترك والمفزع.

ربما هذا هو الحال بين العربي واليهودي منذ مئة سنة:

أوروبا التي نكّلت بالعرب وأذلّتهم واضطهدتهم بواسطة الاحتلال والاستعمار والاستغلال والاضطهاد- هي نفسها أوروبا الّتي لاحقت اليهود أيضاً وطاردتهم، وفي النهاية سمحت للألمان أو ساعدتهم على اجتثاثهم من جميع أرجاء القارة وقتلتهم كلهم تقريبا. لكن العرب ينظرون إلينا فلا يرون أمامهم مجموعة من الناجين شبه الهِسْتِيرِيّين بل ممثلين متعجرفين جدد لأوروبا الاستعمارية المتطوّرة والاستغلالية الّتي عادت بطرق الخديعة والاحتيال إلى الشرق - وهذه المرة بلباس تنكر صهيونيّ- لكي تعاود الاحتلال والاستغلال والاضطهاد. بينما نحن، من جهتنا، ننظر إليهم فلا نرى أمامنا ضحايا مثلنا، إخوة لنا في الكارثة، بل قوزاقيّين ينفذون المجازر ولا ساميّين متعطّشين للدماء نازيين متنكّرين: وكأن مطاردينا الأوروبيّين عادوا

إلى الظهور هنا في أرض إسرائيل، التفوا بالكوفيات واطلقوا شواربهم ولكنهم هم هم قتلتنا القدامى، الذين جل غايتهم ذبح اليهود لمجرد المتعة والتسلية.

*

في أيلول وفي تشرين أول وفي تشرين الثاني من سنة ١٩٤٧ لم يعرفوا عندنا هنا في «كيرم أفراهام» إذا كان عليهم أن يصلوا من أجل أن تصادق الجمعية العامة لهيئة الأمم المتّحدة على توصيات غالبة أعضاء لجنة الاونسكوب (UNSCOP) أو إذا كان من الأفضل أن يتمنّوا ألا يتركنا الانجليز في هذه الحالة «لوحدنا بدون حماية في بحر من العرب». تأمّل الكثيرون أن تقوم فعلا في آخر المطاف دولة عبرية حرة، تأمّلوا أن تلغى القيود الّتي فرضها البريطانيون على الهجرة وأن يتمكّن أخيرا مئات آلاف اللاجئين اليهود الذين تعفّنوا، منذ انهزام هتلر، في مخيمات النازحين في أوروبا وفي معسكرات الاعتقال البريطانية في قبرص- من الدخول إلى البلاد الّتي أراد غالبيتهم أن يجدوا فيها وطنهم الوحيد في العالم. ومع ذلك وكأنما من وراء هذه الأماني الزاهرة كان من تخوّفوا (همساً) من أن المليون عربي من سكان البلاد بمساعدة الجيوش النظامية لدول الجامعة العربية سيقومون بسرعة فائقة، فوراً بعد انتهاء الحكم البريطاني، ويذبحون الست مئة ألف يهودي الموجودين في البلاد.

في البقالة، وفي الشارع، وفي الصيدلية، تكلّموا بصراحة عن الخلاص الوشيك التحقيق، تحدّثوا عن شرتوك، وعن كبلان اللذين سيصبحان عما قريب وزيرين في الحكومة العبرية الّتي سيؤلفها بن غوريون في حيفا أو في تل أبيب، كما تكلموا (همساً) عن جنرالات يهود عظماء تمت دعوتهم للقدوم من المهجر من الجيش الأحمر ومن سلاح الجو الأمريكي وحتى من الأسطول البريطاني حيث سيستلمون قيادة الجيش العبري الذي سيقام بمجرّد خروج الحكم البريطاني.

ولكننا في الخفاء، في داخل البيوت، وتحت اللحاف وفي الظلام بعد إطفاء الأنوار تهامسنا بأنه من يدري ربما يؤجل أو يلغي البريطانيون إخلاءهم

للبلاد؟ ربما أنهم لا ينوون إطلاقاً الخروج، وأن كلّ ما يفعلونه ما هو إلا مناورة محنّكة من «ألبيون» الماكرة، مناورة هدفها أن تدفع اليهود أنفسهم، الذين يرون إبادتهم الوشيكة، إلى أن يتوجهوا إلى البريطانيين يطالبونهم بألا يتركوهم ليلاقوا مصيرهم السيئ؟ وعندها تستطيع لندن أن تطلب من اليهود مقابل الحماية البريطانية، التوقف كلية عن الأعمال الإرهابية، ونزع أسلحتهم غير القانونية الّتي جمعوها، وأن يُسلّموا إلى الشرطة السرية البريطانية جميع أعضاء المنظمات السرية؟ ربما غيّر البريطانيون، بالرغم من كلّ ذلك، في اللحظة الأخيرة رأيهم، ولا يُسْلمونا جميعا إلى السكاكين العربية؟ وربما، على الأقلّ، سيُبقون، هنا في القدس، قوة عسكرية نظامية تحمينا من مجزرة عربية؟ وربما أن بن غوريون وزملاءه هناك، في تل أبيب المطمئنة، وغير المحاطة بالعرب من جميع الجهات، ربما أنهم مع كلّ ذلك، يعودون، في اللحظة الأخيرة، إلى صوابهم، ويتنازلون عن مغامرة الدولة العبرية لصالح تسوية متواضعة مع العالم العربي ومع جماهير المسلمين؟ أو ربما سترسل هيئة الأمم المتحدة قبل فوات الأوان، قوة عسكرية من دول محايدة لكي يحلوا محل البريطانيين وأن يدافعوا على الأقلّ عن المدينة المقدّسة، إذا لم يكن عن كلّ البلاد المقدسة ضدّ خطر حمام الدماء؟

*

هدّد عزام باشا سكرتير جامعة الدول العربية اليهود بأنه «إذا جرؤوا وحاولوا إقامة كيان صهيوني ولو على شبر واحد من الأرض العربية»، فعندها «سيغرقهم العرب في بحر من دمائهم، وسيكون الشرق الأوسط شاهدا على فظائع تبدو فظائع المغول شاحبة بالمقارنة معها». رئيس حكومة العراق، مُزاحم الباجه جي طلب من جانبه من اليهود في فلسطين أن «يرزموا أمتعتهم ويهربوا قبل فوات الأوان»، لأنّ العرب قد أقسموا بأنهم بعد انتصارهم لن يبقوا على قيد الحياة إلا بعض اليهود الذين عاشوا في فلسطين قبل سنة ١٩١٧، وحتى هؤلاء «سيسمح لهم بأن يمكثوا في كنف المسلمين حيث سيكون من الممكن تحمّلهم تحت راية الإسلام إذا نفضوا أيديهم وإلى الأبد من سم الصهيونية وعادوا إلى كونهم طائفة دينية تعرف مكانتها وحدودها في

ظل الشعوب الإسلامية ووفق أحكام الإسلام وقوانينه». اليهود، قال الخطيب في المسجد الكبير في يافا، ليسوا إطلاقاً شعبا كما أنهم ليسوا دينا حقيقة - من المعروف أن الله الرحمن الرحيم نفسه يبغضهم ولذلك كتب عليهم المسكنة والمهانة إلى ابد الآبدين في جميع بلاد الشتات: اليهود عنيدون متعنتون، لقد مدّ النبي يده إليهم - ولكنهم قابلوه بالرفض والإساءة، كما أن عيسى مدّ يده إليهم - ولكنهم قتلوه، حتى أنهم كانوا يرجمون بالحجارة أنبياء ديانتهم المحرّفة. لم يقرر شعوب أوروبا عبثا التخلص منهم مرة وإلى الأبد، والآن تتآمر أوروبا على أن تتقيأهم علينا ولكننا - نحن العرب- لن نسمح لشعوب أوروبا بأن تلقي إلينا بقاذوراتها. نحن العرب سنقتلع بسيوفنا هذه المؤامرة الشيطانية الّتي يريدونها أن تحول أرض فلسطين إلى مزبلة لكلّ قاذورات العالم.

والرجل من حانوت العَمَّة «غريتا» لملابس النساء؟ ذلك الرجل العربي العطوف الذي أنقذني من مصيدة الظلام وحملني بين ذراعيه عندما كنت ابن أربع أو خمس سنوات فقط، الرجل مع كيسَي الدموع الكبيرَين المتدلّيَين تحت عينيه، ومع رائحته البني المخدّر ومع متر الخياطين القماشيّ الأخضر- الأبيض الذي كان معلقا على عنقه وتدلّى على جانبَي صدره، مع خدّه الدافئ ذات الشعر الشائب اللطيف، ذلك الرجل الناعس والدّمث والذي كانت ابتسامة خجلة تومض للحظة على شفتيه ثمّ تعود وتحتجب تحت شاربه الشائب الناعم؟ مع نظارته الطبية المربّعة بنية الإطار والتي كانت تنزل عند آخر انفه مثل نجار عجوز طيب القلب مثل جيبيتو الرجل الذي كان يمشي هناك على مهل يجر رجليه المتعبتين بين متاهات ملابس النساء، وعندما سحبني من الزنزانة قال لي بصوته الجافّ ذلك الصوت الذي سأبقى أذكره بتلهّف طوال حياتي، «كفى أيها الولد كلّ شيء على ما يرام كلّ شيء بخير»: ماذا هو أيضاً؟ «يشحذ الآن خنجره الأعوج، يشحذ حدّه ويستعد لكي يذبحنا كلّنا»؟ هو أيضاً سيتسلّل إلى شارع عاموس عند منتصف الليل مع سكين كبيرة عوجاء بين أسنانه لكي يقطع بها حنجرتي وحنجرتَي والديّ و«يغرقنا جميعا بالدماء»؟

هُبّي، أيتها الرياح، هُبّي
جميلة هي الليالي في أرض كنعان
على صوت ابن آوى السوري
يجيبه الضَّبُع المصري
عبد القادر وسبيرس وخوري
يمزجون السم والعلقم

في ريح آذار العاصفة
تسبح غيوم السلام
صبية، مسلّحة، منتصبة
تطلق تل أبيب هذه الليلة
«المنارة» تحرس المنحدر الصخري
و«الحولة» عيونها يقظة...[1]

لكنّ القدس اليهودية لم تكن صبية ولم تكن مسلّحة ومنتصبة بل بلدة تشيخوفية مُرتاعة، مشتتة الفكر، مغمورة بالقيل والقال، والأقاويل الفارغة، فاقدة الاتزان، مذهولة من شدة البلبلة والهلع. في يوم العشرين من نيسان ١٩٤٨ كتب دافيد بن غوريون في دفتر يومياته، في أعقاب محادثة مع دافيد شالتيئل كيف بدت له القدس اليهودية:

تركيبة القدس: ٢٠٪ عاديون، ٢٠٪ من الطبقة الراقية (الجامعيين وغيرهم)، و ٦٠٪ غريبو الأطوار (قَرَوِيّون، من العصور الوسطى وما شابه).[2]

(من الصعب أن نعرف إذا كان بن غوريون قد تبسّم عندما كتب هذا

---

(١) نتان الترمن، «الليالي في كنعان»، ضمن «العمود السابع» (المجلد أ) إصدار عام عوفيد، تل أبيب، ١٩٥٠، ص ٣٦٤ (المؤلف).

(٢) دافيد بن غوريون، «يوميات الحرب ١٩٤٨- ١٩٤٩»، تحرير جرشون ريفلين ود. إلحنان أورِن، إصدار وزارة الدفاع، المجلد أ، ١٩٨٣، ص:٣٥٩. (المؤلف).

السطر في دفتر يومياته، أم أنه لم يتبسّم. على كلّ حال، حي «كيرم أفراهام» لم يُدرج ضمن النوع الأول ولا ضمن النوع الثاني.)

في حانوت بَائِع الخُضَار السّيّد بابيوف قالت جارتنا السّيّدة لامبرج:

«لكنني لم أعد أصدّقهم. أنا لم أعد أصدق أحداً. الكل ما هو إلا خدعة كبيرة واحدة.»

قالت السّيّدة روزيندورف:

«يجب ألا نتكلم أبداً بهذا الشكل. عفوا. أرجو أن تسامحيني لأنّني ألفت انتباهك: لا فائدة من مثل هذه الأقوال فهي فقط تزيد من تحطيم الروح المعنوية للشعب. ماذا تظنين؟ بأنّ شبابنا يوافقون على الذهاب للقتال من أجلك، وأن المغامرة بحياتهم وهم في مقتبل العمر إذا كنت تتكلمين هكذا بأن كلّ شيء ما هو إلا خدعة؟»

قال بَائِع الخُضَار:

«أنا لا أحسد العرب. يوجد هناك يهود من أمريكا وهم بعد وقت قصير سيرسلون إلينا من هناك قنابل ذرية.»

قالت أمّي:

«هذا البصل لا يبدو جيدا. وكذلك هذا الخيار ليس طازجاً أيضاً.»

والسّيّدة لامبرج (الّتي فاحت منها رائحة خفيفة لبيض مسلوق ممزوج بالعرق وبخار صابون حامض قليلا):

«كلّ شيء ما هو إلا خدعة واحدة كبيرة أنا أقول لكم! أنهم يمثلون! أنها مسرحية كوميدية! لقد سبق ووافق بن غوريون بصمت وبهدوء على بيع القدس للمفتي وللعصابات وللملك عبد الله، ومقابل ذلك ربما وافق الانجليز والعرب على أن يبقوا له كيبوتساته و«نهلاله» وتل أبيب مع «سوليل بونيه» واللجنة التنفيذية. فهذا كلّ ما يهمّهم! وماذا سيكون مصيرنا، ليذبحونا أو ليحرقونا جميعا، أن الأمر لا يهمهم هناك. من الأفضل لهم أن تتدمّر القدس حتى يبقى عندهم في دولتهم الّتي يريدون إقامتها عدد أقلّ من الإصلاحيين أتباع جابوتنسكي وعدد أقلّ من المتزمتين وعدد أقلّ من المثقفين.»

سارعت النساء إلى إسكاتها: ما الذي يحدث لك! السّيّدة لامرج! شا! بيست دو ميشيغي؟ إس شتايت دا آ كيند، آ فارشتانديكر كيند! = صه! هل أنت مجنونة؟ يوجد ولد هنا! ولد واعٍ!)

الفارشتانديكر كيند - الولد الواعي، الولد البارعُ في الإِسْتِرَاتِيجِيَّة، من جهته فتح فاه وردد ما سمعه من والده أو من جده:

«عندما سيعود البريطانيون إلى بلادهم فإنّ «الهاجناه» والايتسل والليحي سيتوحّدون وسينتصرون على العدوّ.»

بينما العصفورة غير المرئية عصفورة أغصان الرمان، العصفورة إليز، فهي من جهتها أصرّت على رأيها. لم تتحول قيد أنملة. «تي-دا-دي-دا-دا.» ومرة أخرى: «تي-دا-دي-دا-دا.» وبعد صمت تفكير قصير: «تي-دا-دي-دا-دا!!»

٤٤

في أيلول وفي تشرين أول من سنة ١٩٤٧ امتلأت الصحف بالتكهنات والتحليلات والتخمينات والتقييمات: هل سيطرح اقتراح التقسيم للتصويت في الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة؟ هل ستنجح أم ستفشل مساعي العرب من أجل تغيير التوصيات أو إلغاء التصويت عليها؟ وإذا طرح الاقتراح للتصويت - من أين سيجد أغلبية ثلثي الأعضاء على الأقلّ؟

في مساء كلّ يوم كان أبي يجلس بيني وبين أمّي حول طاولة المطبخ بعد وجبة العشاء. بعد تنظيف مُشمّع الطاولة كان أبي ينشر عليه عدة بطاقات ويبدأ يحسب بقلم رصاص على ضوء لمبة المطبخ الضعيفة الصُّفيراء الشاحبة احتمالات نجاحنا في التصويت. من مساء إلى آخر بدا أكثر يأسا إذ أن جميع حساباته دلّت على هزيمة مؤكّدة وساحقة:

«جميع الدول العربية والإسلامية الإثنتا عشرة ستتوحد بالطبع ضدّنا. والكنيسة الكاثوليكية بالتأكيد تعمل من وراء الكواليس من أجل التأثير على الدول الكاثوليكية للتصويت ضدّ الاقتراح لأنّ دولة يهودية تناقض عقيدة الكنيسة الأساسية، ولا يوجد من يعادل الفاتيكان في التأثير من وراء الكواليس. وهكذا سنخسر على ما يبدو أصوات دول أمريكا اللاتينية العشرين! ومن جهة أخرى، فإنّ ستالين بلا شك سيأمر كلّ أتباعه من الكتلة الشيوعية بالتصويت وفق موقفها المتعنت المناهض للصهيونية، وبذلك سيوجه ضدنا اثنا عشر صوتا على الأقلّ. هذا دون الحديث عن بريطانيا الّتي تعمل ضدنا في كلّ مكان وخاصة في الدومينيونات التابعة لها كندا واستراليا

نيوزيلاندا وجنوب أفريقيا، سيتجند هؤلاء جميعهم لإفشال كلّ الاحتمالات لوجود دولة عبرية. وفرنسا والدول الّتي تدور في فلكها ؟ إذ أن فرنسا بأي شكل من الأشكال لن تجرؤ على إغاظة وإثارة ملايين مسلميها في تونس والجزائر والمغرب. أما اليونان فهي من طرفها توجد لها علاقات تجارية واسعة جدّاً مع العالم العربي كما توجد جاليات يونانية كبيرة في الدول العربية. وحتى أمريكا نفسها؟ هل حقّاً دعم أمريكا لمشروع التقسيم هو نهائيّ؟ وماذا يحدث إذا نجحت مؤامرات شركات البترول العملاقة وتدخلات أعدائنا في وزارة الخارجية ويرجّحون الكفة الأمريكية ويتغلبون فجأة على ضمير الرئيس الأمريكي الشجاع؟»

كان أبي يعيد مرارا وتكرارا حساب نسبة الأصوات في الجمعية العمومية. في مساء كلّ يوم حاول من جديد أن يمزّق ويغير سوء المصير، وأن يضيف ائتلافا لولبيا من الدول الّتي اعتادت أن تسير، بشكل عام، خلف أمريكا مع الدول الّتي لها ربما حسابات تريد تصفيتها مع العرب ومع دول صغيرة ونزيهة مثل الدنمرك أو هولندا، الدول الّتي شاهدت عن كثب مقتل الشعب اليهودي والآن ربما تجرأت وجمّعت قوتها وشجاعتها بناء على نداء ضميرها وليس على حسابات البترول.

*

هل حقّاً في فيلا سلواني الّتي في الشيخ جراح أيضاً (على بعد أربعين دقيقة من هنا) تجلس الآن العائلة حول ورقة على مشمع طاولة المطبخ ويجرون حساباتهم، ولكن بشكل عكسي؟ هل حقّاً مثلنا، هم يحسبون حساب ما سيحدث، كيف ستصوت اليونان، ويقضمون أطراف قلم الرصاص، وكيف سيكون الموقف النهائي لدول اسكندنافيا ؟ هل عندهم أيضاً يوجد متفائلون ومتشائمون وساخرون ومتطيّرون؟ وهل عندهم أيضاً قلقون مساء كلّ يوم ينسبون إلينا المؤامرات والمكائد والتأثيرات الماكرة من وراء الستار؟ وهل يتساءلون عندهم أيضاً ما الذي سيحدث هنا؟ ما الذي سيأتي به الغد؟ يخافون هناك منا تماماً كما نخاف نحن منهم؟

وعائشة؟ ووالداها في حي طلبية؟ ربما أنهم يجلسون الآن هي وجميع

أفراد عائلتها في غرفة مليئة بالرجال ذوي الشواربب والنساء الأنيقات ذوات الوجوه المقطّبة والحواجب الّتي تلتقي مع بعضها عند أصل الأنف، يجلسون في حلقة حول أطباق مليئة بقشر البرتقال المرشوش بالسكر يتهامسون ويتآمرون «على إغراقنا في بحر من الدم»؟ هل عائشة ما زالت تعزف أحياناً على البيانو المعزوفات الّتي تعلمتها من معلمتها اليهودية؟ أم أنه أصبح الآن محظورا عليها تماماً؟

أم لا. فهم يقفون الآن تماماً في حلقة صامتة حول سرير طفلهم. عواد. لأنهم قطعوا له رجله. بسببي. أو لأنه يحتضر بسبب تسمم دمه. بسببي. عينا - الكلب المشدوهتان، عينا- الجرو الفضوليتان البريئتان، الآن هما مغمضتان. منكمشتان من شدّة الألم. وجهه نحيف وشاحب مثل الثلج. جبينه كالأرض المحروثة من شدة الألم. خصلات شعره الأجعد الجميلة مُلقاة على الوسادة البيضاء. تن لي ريجع! (أعطني لحظة!) إين لي ريجع! (لا وقت لديّ!). يتَأَوَّه ويرتجف من شدة الألم. أو أنه يبكي بصمت بكاء خافت طفولي. «تنلي إينلي» الصغير. وأخته تجلس عند رأسه وتكرهني إذ بسببي، الكل بسببي، وبسببي أيضاً ضربوها بقسوة، بطول أناةٍ ضربوها، ضربات عميقة، ضربوها ثمّ عادوا وضربوها على ظهرها، على رأسها، على كتفيها الضعيفتين، لا كما يضربون أحياناً بنتا عملت عملا غير لائق بل كما يضربون فرسا حروناً. بسببي.

*

الجد اَلِكْسَنْدِر والجدة شلوميت كانا يزورانِنا أحياناً في تلك الأمسيات، في أيلول وفي تشرين أول من سنة ١٩٤٧ ليجلسا معنا وليشاركا هما أيضاً في بورصة الحسابات الّتي يقوم بها والدي. كذلك كان يزورنا حانة وحييم تورن، أو عائلة روذْنيتْسيكي، والعَمَّة مالا والعم ستاشيك، أو عائلة أَبْرامْسكي أو الجيران روزيندورف والجاران توشيا وغوسْتاف كروخْمَل للسيد كروخْمَل كان كوخ صغير في منحدر شارع «جيئولا» حيث كان يجلس هناك طوال النهار مع مريول من الجلد ونظارات ذات إطار قرنيّ ويعالج الدُّمى:

معالجة فنيّة مُعتمَدة من غدانسك طبيب دمى

ذات مرة، عندما كنت ابن خمس سنوات تقريبا صلّح لي العمّ غوستاف مجانا في ورشته الصغيرة دميتي، الدمية الراقصة الشقراء، تسيلي حيث انكسر أنفها المنقط المصنوع من الباكليت. بواسطة دبق ناعم وبيد فنان ماهر عالج السّيّد كروخْمَل الدمية حتى أن النُّدب لم تظهر تقريبا.

آمن السّيّد كروخْمَل بالتفاوض مع جيراننا العرب: بناء على رأيه من الأفضل أن يؤلف سكان حي «كيرم أفراهام» بعثة صغيرة ولكن على مستوى عال وأن تذهب للتفاوض مع مخاتير وشيوخ وبقية وجهاء الأحياء العربية القريبة منا: إذا دائماً سادت بيننا علاقات جوار طيبة وحتى وإن فقدت البلاد الآن صوابها فإنّه لا يوجد أيّ سبب منطقي يفرض أن يحدث ذلك هنا أيضاً في شمال غرب القدس، هذا المكان الذي لا يوجد فيه أيّ نزاع أو أيّ خلاف بين الطرفين-

لو أنه يعرف شيئا من العربية أو الإنجليزية لقام هو بنفسه، غوسْتاف كروخْمَل، الذي يعمل منذ سنوات طويلة في معالجة الدمى العربية بالضبط كما يعالج الدمى اليهودية، دون أيّ تمييز بينهما، لقام هو بنفسه يمسك عُكّازه بيده وقطع الحقل الفارغ الذي يفصل بيننا وبينهم ويقرع أبوابهم ويشرح لهم ببساطة متنقلا من بيت إلى آخر.

ذات مساء زارنا السيرجنت فيلك، العمّ دوديك الوسيم الذي يبدو ككولونيل إنجليزي في السينما، وبالفعل فقد خدم في تلك الأيام عند البريطانيين كشرطي في شرطة القدس، وبقي عندنا سويعةً، وقد احضر لي معه كهدية علبة لسان القط من الشوكولاطة من إنتاج مصنع تسي دي، شرب كأس قهوة ممزوجة بقهوة الهندباء، التشيكوري، وأكل قطعتبن من البسكويت البني، دوّخني بفخامة بزّته العسكرية السوداء المكوية بصف أزرار فضية وحزام مائل من الجلد على عرض صدره، والمسدس الأسود الذي كان داخل بيت من الجلد اللامع على خاصرته مثل الأسد المفترس الذي يغالب النعاس حاليا في وكره (مجرد رؤية عقبه المغري الذي أطلّ من جرابه جعلني ارتجف رجفة خفية كلما نظرت إليه). جلس العمّ دوديك معنا حوالي ربع ساعة وبعد إلحاح والدي وإلحاح ضيوفهما الشديدين وافق أن يلمّح إلينا،

تلميحين أو ثلاثة من التلميحات الغامضة حول القليل الذي فهمه هو من جهته من التلميحات المبهمة لضباط الشرطة الانجليز عالي الرتب والعارفين بالأمور:

«حساباتكم كلها سدى. لا تضيّعوا أوقاتكم على هذه الحسابات. لن يكون هناك تقسيم. لن تقوم هنا دولتان، لأنّ النقب كله سيبقى في أيدي البريطانيين لكي يتمكنوا من حماية قواعدهم العملاقة في السويس، كما سيواصل البريطانيون بالتمسك بحيفا، المدينة والميناء، كما سيتمسكون بالموانئ الجوية الكبيرة في اللد وفي عكرون وفي رمات دافيد، وكذلك بكتلة معسكراتهم العسكرية الواسعة في صرفند. أما الباقي وكذلك القدس فسيحصل عليها العرب، لأنّ أمريكا تريدهم أن يوافقوا مقابل ذلك على أن يتنازلوا لليهود عن جيب صغير بين تل أبيب والخضيرة. داخل هذا الجيب سيسمح لليهود بأن يكوّنوا مقاطعة ذات استقلال ذاتي ما يشبه دولة فاتيكان يهودية، إليها سيسمحون لنا بأن ندخل تدريجيا حتى مئة ألف أو على أقصى حد مئة وخمسين ألفا من نازحي المعسكرات. عند الحاجة سيدافع عن هذا الجيب اليهودي عدة آلاف من جنود المارينز من الأسطول الأمريكي السادس من حاملة طائراته العملاقة، لأنهم لا يعتقدون بأن اليهود يستطيعون في هذه الظروف حماية أنفسهم.»

«ليس هذا إلا جيتو!» صرخ السّيّد أبرامسكي بصوت فظيع، «حدود المستوطنة! زريبة! زنزانة!»

من جهته ابتسم غوسْتاف كروخْمَل واقترح بلطف:

«سيكون الوضع أفضل بكثير لو أخذ هؤلاء الأمريكان لأنفسهم هدية هذه المنطقة متناهية الصغر الّتي يريدون أن يعطونا إياها بين تل أبيب والخضيرة، وبدلا منها ليتكرموا علينا من فضلهم ويعطونا حاملتي الطائرات التابعة للأسطول الأمريكي عندها سيكون الوضع مريحا لنا أكثر وبلا شك أكثر أمنا. وكذلك أقلّ اكتظاظا.»

بينما ألحت مالا روذنيتْسكي على الشرطي وحثّته كمن تتوسل إليه من اجلنا:

«والجليل؟ الجليل، أيها العزيز دوديك! والمروج؟ حتى المروج لا؟ لماذا لا يمكن على الأقلّ ترك هذه لنا ؟ لماذا يأخذون حتى النزر اليسير الذي تبقّى للفقير؟»

قال أبي بأسى:

«الذي تبقى للفقير، لا شيء مثل هذا، يا مالا، النزر اليسير هذا كلّ ما يملكه الفقير وقد جاؤوا وسلبوه إياه.»

بعد صمت قصير انفجر جدّي «ألِكْسَنْدِر» بجام غضبه، وقد أحمر كله وانتفخت اوداجه كمن يريد أن يخرج من جلده:

«أنه مُحقّ جداً، ذلك المحرّض الشرير من المسجد في يافا! أنه محقّ! نحن حقاً لسنا إلا حثالة! ماذا هذه هي النهاية! فِسو! خفاطيط! (كفى! كفى!) أنهم محقّون جدّاً كلّ أولئك المناهضين للسامية في العالم، خِمْيِلْنيسكي كان على حقّ، بيتليورا كان على حقّ. هتلر كان على حقّ أيضاً: ماذا، إننا ملعونون حقّاً! (إن اللعنة تلاحقنا حقّاً!) إنّ الله حقّاً يبغضنا! وأنا،» تنهّد جدّي وقد أحمر وجهه، يقصف الجميع من حوله برشات من رذاذ لعاب فمه، ويضرب الطاولة بيده حتى أن الملاعق رنت داخل كؤوس الشاي، «وأنا، أنا، من جهتي، كما أنه هو الإله يبغضنا - هكذا أنا أقابله بكراهية مثلها! أبغض الإله! ليمت هيا! لقد احترق العدو من برلين، ولكن هناك في الأعالي يوجد هتلر واحد آخر! أسوأ أكثر من الأول! هيا، ماذا! يجلس هناك ويسخر منا، ذلك النذل!»

أمسكت جدتي «شلوميت» بذراعه وأمرت:

«زيسيا! يكفيكَ ! شتو تي جَفاريش! جينوغ! إيبِر جينوغ!»

هدّؤوا من غضبه، سكبوا له القليل من الكونياك ووضعوا أمامه عدة قطع من البسكويت.

أما العمّ دوديك، السيرجنت فيلك فقد رأى، على ما يبدو، أن أقوالا كتلك الّتي تلفّظ بها الجد «ألِكْسَنْدِر» قبل لحظة في حمى يأسه، من الأفضل لها ألا تقال بحضور الشرطة. وعليه فقد وقف، اعتمر قبعة الشرطة المُذْهِلة ذات الحافةُ الناتئةُ في مقدمتها (الواقية للعينين) الجَدِيرة بِالثِّقَة، صحّح قليلا

وضعية جراب المسدّس على خاصرته اليسرى، ومن الباب رأى من المناسب أن يمنحنا احتمالا بالعفو، بصيص أمل، كمن أشفق علينا ووافق رغم كلّ شيء أن ينظر بروح ايجابية في استئنافنا، إلى حد ما على الأقلّ:

«لكن هناك ضابط واحد ايرلندي، شخصية حقيقيّة، لا يكف طوال الوقت عن الادّعاء ادّعاء واحد وهو، أن لليهود يوجد عقل أكثر من جميع العالم مجتمعين، وأنهم دائماً يقعون «واقفين على الأرجل». هذا ما يدعيه. السؤال فقط هو يقعون على رجلَي من؟ السلام عليكم جميعا. كلّ ما أرجوه رجاء حارا هو ألا تذكروا شيئا مما قلته لكم، لأنّ هذه القصص من قلب المقر» (طوال حياته، وحتى في شيخوخته حتى بعد مرور ستين سنة على وجوده في القدس يصر العمّ دوديك على أن يقول «لأنّ أنا»، «لأنّ ممنوع» ولم تنجح ثلاثة أجيال من المصححين اللغويين المخلصين الذين أرادوا أن يعلموه أن يقول «لأنّني»، «لأنّه ممنوع». ولم تنفعه أيضاً سنوات خدمته كضابط كبير في الشرطة وكقائد لشرطة القدس الإسرائيلية وبعدها كنائب لمدير عام وزارة السياحة، إذ أنه بقي كلّ حياته مصرا على خطئه: «لأنّني يهودي عنيد!»).

٤٥

أثناء وجبة العشاء شرح والدي بأنه في جلسة الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة والتي ستجتمع بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني في ليك ساكْسِس المجاورة لمدينة نيويورك، ستكون هناك حاجة إلى ما لا يقل عن الثلثين حتى تصادق الجمعية على توصية غالبية أعضاء لجنة الأونسكوب (UNSCOP) والتي تنصّ على إقامة دولتين مستقلّتين على الأراضي الّتي تحت الانتداب البريطاني، دولة يهودية ودولة عربية. دول الكتلة الإسلامية مع الحكومة البريطانية سيعملان كلّ ما في وسعهما لمنع تكوين أكثرية كهذه: إذ أن رغبتهما هي أن تصبح البلاد كلها دولة عربية تحت حماية بريطانية، تماماً مثل الدول العربية الأخرى، منها مصر، شرقي الأردن، والعراق، الّتي تخضع عمليا لحماية بريطانية. من الجهة العكسية يعمل الرئيس ترمَن بشكل يناقض موقف وزارة خارجيته من أجل المصادقة على مشروع التقسيم.

الاتحاد السوفييتي بقيادة ستالين انضمت بشكل مفاجئ إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأيّدت هي أيضاً إقامة دولة لليهود إلى جانب دولة للعرب في أرض إسرائيل: من المحتمل أن ستالين توقّع بأن قرار التقسيم سيؤدي إلى صراع دموي طويل الأمد في الشرق الأوسط، صراع يمكنه من الحصول على موطئ قدم سوفييتي في مجالات التأثير البريطاني في الشرق الأوسط، قريبا من حقول النفط ومن قناة السويس. حسابات ملتوية للدول العظمى تداخلت الواحدة منها بالأخرى، وتقاطعت، على ما يبدو مع شهوات دينية: تأمّل الفاتيكان أن يحقق لنفسه تأثيرا حاسما في القدس الّتي من المفروض، حسب

مشروع التقسيم، أن تكون تحت حكم دولي، أي: حكم ليس إسلاميا وليس يهوديا. اعتبارات ضميرية وعاطفية تداخلت في حسابات أنانية (عدد من حكومات أوروبا بحثت عن طريقة تعوّض بشيء ما الشعب اليهودي على فقدانه ثلث أبنائه وبناته بأيدي الألمان وعلى أجيال من الاضطهاد والملاحقات. مع ذلك، فإنّ هذه الدول نفسها الّتي تريد الإحسان لم تشمئزّ أيضاً من احتمال توجيه تدفق مئات آلاف اليهود النازحين، البؤساء والمُعدمين، من شرق أوروبا، بعيدا عن أراضيهم وبعيدا عن أوروبا حيث تعفّنوا في مخيمات اللاجئين في أماكن مختلفة من أوروبا).

حتى ساعة إجراء التصويت فعلا كان من الصعب التنبّؤ بالنتيجة: الضغوط والإغراءات، والتهديدات والمؤامرات وحتى الرشاوى استعملت من أجل ترجيح تصويت ثلاث أو أربع جمهوريات صغيرة في أمريكا اللاتينية وفي الشرق الأقصى إلى هذه الجهة أو تلك، تلك الدول الّتي أصواتها كانت ستحسم نتيجة التصويت. حكومة التشيلي، الّتي كانت على وشك تأييد مشروع التقسيم، رضخت للضغوط العربية وأصدرت تعليماتها إلى مندوبها في هيئة الأمم المتحدة للتصويت ضدّ المشروع. أعلنت هاييتي عن نيتها التصويت ضدّ المشروع. البعثة اليونانية مالت إلى الامتناع عن التصويت إلا أنها قررت في اللحظة الأخيرة أن تنضم إلى الموقف العربي. ممثل الفلبين تملّص من الالتزام. بَارَاجوِاي ترددت، ومندوبها في هيئة الأمم المتحدة، الدكتور كيسار أكوستا، تذمّر من أنه لا يحصل على توجيهات واضحة من حكومته. في سيام حدث انقلاب والنظام الجديد أقال بعثة البلاد إلى هيئة الأمم المتحدة ولم يعيّن بعثة جديدة. ليبيريا، من جهتها، وعدت بتأييد المشروع. غيرت هاييتي رأيها، بتأثير الأمريكان وقررت أن تصوت إلى جانب المشروع[1]. بينما عندنا في شارع عاموس، في بقالة أوستر أو في حانوت الصحف والقرطاسية الّتي للسّيّد كالكو حكوا عن دبلوماسي عربي

(١) حورحا غارسيا- جرانادوس، «هكذا ولدت دولة إسرائيل»، إصدار دار النشر أحي أساف، القدس، ١٩٥١، ص: ٢٧٢-٢٧٣.

وسيم كان قد أسر قلب مندوبة دولة صغيرة ونجح في أن يؤثّر عليها لتصوت ضدّ مشروع التقسيم، مع أن دولتها وعدت اليهود بأن تدعم المشروع. «ولكن، فور ذلك وفي الحال،» هكذا حكى بمرح السّيّد كولودني صاحب «مطبعة كولودني»، فوراً أرسلوا يهوديا نشيطا إلى زوج تلك الدبلوماسية العاشقة ليعلمه بالحكاية كلها وأرسلوا من جهة أخرى فتاة يهودية نشيطة لتحكي كلّ شيء لزوجة ذلك الدون جوان، الدبلوماسي العربي، وإذا كان هذا لم يحقق الغاية فقد حضروا لهما أيضاً. . .» (وهنا انتقل الحديث إلى لغة الإيديش حتى لا افهم).

*

في يوم السبت، هكذا قالوا عندنا، يوم السبت قبل الظهر، سيجتمع جميع أعضاء الجمعية العمومية في مكان اسمه ليك سكسِس وسيحسمون مصيرنا: «من للحياة ومن للموت!» قال السّيّد ابرامْسكي. أما السّيّدة توشيا كروخْمَل فقد أحضرت من عيادة الدمى الّتي يملكها زوجها كابل كهرباء الذي لماكنة الخياطة الكهربائية لكي يتمكن اللامبرجيون من سحب وإخراج جهاز الراديو الأسود الثقيل ووضعه على طاولة الشرفة (كان ذلك الراديو الوحيد في شارع عاموس، إن لم يكن الوحيد في كلّ حي كيرِم أفْراهام). من هناك، من شرفة عائلة لامبرج سيشغّل الراديو بأعلى صوته ونحن جميعا سنجتمع كرجل واحد عند عائلة لامبرج، وفي الساحة وفي الشارع وفي شرفة البيت الذي فوقهم وفي الشرفة المقابلة، وعلى الرصيف الذي أمام الساحة، وهكذا يستطيع سكان الشارع كلهم سماع البثّ الجاري (هكذا سموا في حينه البثّ المباشر)، وسنعرف ماذا سيكون الحكم علينا وماذا يخبّئ لنا المستقبل («إن كان سيبقى هناك مستقبل بعد هذا السبت»).

«ليك ساكسِس،» قال أبي «معناه في اللغة العبرية «بحيرة النجاح». أي العكس من بحر الدموع الذي يرمز عند بياليك إلى مصير شعبنا. لمعالي جنابه،» أضاف والدي، «سنسمح له بالتأكيد هذه المرة من المشاركة في هذا الحدث، في إطار مكانته الجديدة كقارئ صحف بارز وكذلك في إطار وظيفته كمُعَلّقنا العسكري والسياسي.»

قالت أمّي:

«نعم، ولكن مع جارزة. لقد أصبح الجو باردا.»

إلا أنه اتضح لنا في صباح يوم السبت بأن البحث المصيري المنتظر افتتاحه في ليك ساكسِس في ساعات ما بعد الظهر سيفتتح فقط في ساعات المساء من يوم السبت، بسبب فارق التوقيت بين نيويورك والقدس. أو ربما ليس بسبب فارق التوقيت بل لأنّ القدس في مكان ناء وراء جبال الظلام بعيدا عن العالم الكبير، وكل ما يحدث في العالم لكبير - يصل إلينا كصدى الصدى، ضعيفا، باهتا، ودائما يصل إلينا بعد تأخير كبير. التصويت، هكذا حسبوا عندنا، سيجري عندما تكون الساعة في القدس متأخرة جدّاً قريبة من منتصف الليل، ساعة، من المفروض أن يكون فيها هذا الولد في سريره منذ زمن إذ غدا أيضاً يجب أن يستيقظ ويذهب إلى المدرسة.

تبودلت بين أبي وأمّي عدة جمل سريعة، مفاوضات قصيرة بالبولندية الشتشفزينية أو بالروسية اليانيخاتشوئية، في نهايتها قالت أمّي:

«ربما، من الأفضل،على الرغم من كلّ ذلك، أن تأوي إلى فراشك هذه الليلة أيضاً كعادتك ونحن نجلس في الساحة بجانب السور لكي نصغي إلى البث من شرفة عائلة لامبرج، وإذا كانت النتيجة جيدة فسنوقظك ولو في منتصف الليل لنخبرك، هذا وعد.»

*

بعد منتصف الليل وقبيل نهاية التصويت استيقظت. سريري كان تحت الشباك المطلّ على الشارع، وما كان عليّ إلا أن أقف أو أن أقف على ركبتي وأن أطلّ من فتحات الأباجور. ارتجفت:

وكما في كابوس مخيف وقفت حشود كبيرة من الأشباح منتصبين ومكتظين وصامتين دون حراك تحت ضوء مصباح الشارع الأصفر في ساحتنا، وفي الساحات المجاورة، وعلى الأرصفة، وعلى الشارع، كما في تجمّع عملاق للأشباح الصامتة في ضوء شاحب، على جميع الشرفات، مئات الرجال والنساء دون أيّ صوت، جيران ومعارف وغرباء، منهم من هم بملابس النوم وآخرون بجاكيتات وربطات عنق، وهنا وهناك شاهدت رجالا

بقبعات قشّ ذات حافة أو بقبعات كاسكيت، نساء حاسرات الرأس ونساء بأرواب دو شامبر ومناديل للرأس، على أكتاف بعضهم ركب أطفال نائمون، هنا وهناك في حواشي الجمهور رأيت امرأة عجوزا تجلس على مقعد منخفض أو رجلا هرما حملوه وهو يجلس على كرسيّه وأخرجوه إلى الشارع.

هذه الحشود كلها كانت وكأنها قد تحجّرت هناك بصمت ليلي مخيف، وكأنهم ليسوا آدميين حقيقيّين بل مئات الظلال الغامقة المرسومة على رقعة الظلام الذي يومض. وكأنهم ماتوا جميعا وهم واقفون. لا كلام ولا سُعال ولا وقع أقدام. حتى أن حشرة لم تزنّ أو تطنّ هناك. باستثناء صوت المذيع الأمريكي الخشن والعميق الذي انبعث من المذياع الذي كان يعمل بأقصى صوته حتى اهتزّت وارتجّت له نسمات الليل، أو ربما كان ذلك صوت أوسفالدو أرانيا من البرازيل، رئيس الجمعية العمومية. كان يقرأ أسماء الدول الأخيرة في القائمة اسما بعد اسم حسب ترتيبها وفق الأبجدية الإنجليزية، وبعد قراءته لاسم الدولة كان يردد في الميكروفون بصوت كالرعد جواب مندوبها. يونايتد كينغدم: ابستاينس. يونيون أوف سوفييت سوتسياليست ريبابليكس: يس. يونايتد ستيتس: يس. أوروغواي: نعم. فنزويلا: نعم. اليمن: معارض. يوغوسلافيا: ممتنعة.

وبذلك صمت الصوت دفعة واحدة. وفجأة صمت كصمت أهل القبور حلّ وجمّد كلّ المشهد، صمت مريع، كارثيّ، صمت جمهور كبير من الناس الذين انحبست أنفاسهم، صمت لم اسمع بمثله طوال أيام حياتي، لا قبل هذه الليلة ولا بعدها.

حتى عاد الصوت الغليظ المبحوح نوعا ما يهزّ الهواء عبر الراديو يلخّص بنوع من الجمود والفتور واللامبالاة الخشنة ولكنها مليئة بالمرح: ثلاثة وثلاثون صوتا مؤيدا وثلاثة عشر صوتا معارضا. امتناع عشر دول عن التصويت، وغياب دولة واحدة عن التصويت. الاقتراح مقبول.

وهكذا ضاع صوته في خضمّ الأصوات الّتي انبثقت عبر الراديو من الشرفات الّتي هاجت وماجت لشدة الفرح الذي ساد القاعة الّتي في ليك ساكسس، وبعد ثانيتين أو ثلاث من الدهشة، بشفاه منفرجة كأنها عطشى

وبعيون مفتوحة على اتساعها، زمجر وهدر دفعة واحدة شارعنا النائي في أقصى حي «كيرم أفراهام» في شمالي القدس بصرخة أولية فظيعة، مزّقت الظلام والعمارات والأشجار، حادة وثاقبة، صرخة ليست صرخة فرح، لا تشبه إطلاقاً صرخات جماهير ملاعب الرياضة، لا تشبه أيّ مشادّات للجماهير المتحمّسة، ربما أنها تشبه أكثر صرخة- رعب وذعر، صرخة كارثية، كانت تلك زعقة تهتزّ لها الحجارة، تتجمّد لها الدماء في العروق، وكأن جميع القتلى الذين كانوا وجميع القتلى الذين سيقتلون أعطوا في آنٍ واحد كوّة للزعيق، وعلى الفور أغلقت هذه الكوة، وبعيد لحظة تصاعدت وارتفعت، مستبدلةً صرخات الرعب الأولى، صرخاتُ فرح كثيرة، وخليطٌ من النداءات من الحناجر الجافّة وشعب إسرائيل حيّ، وقد حاول أحدهم عبثاً أن يبدأ بإنشاد النشيد الوطني، وزعيق النساء والتصفيق و«هنا في البلاد الحبيبة على الآباء والأجداد»، وقد بدأ الجمهور كله يتحرّك ببطء حول نفسه وكأن احداً يحرّكه بخلاط عملاق ولم يعد هناك أيّ شيء مسموح وأيّ شيء ممنوع، أما أنا فقد قفزت إلى بنطلوني وتجاهلت القميص والجارزة وقُذفت دفعة واحدة من بابنا إلى الخارج فالتقطتني يدا أحد الجيران الغرباء كيلا تدوسني الأقدام وسلّمتني إلى آخر فآخر، وهكذا تطايرت من يد إلى يد حتى هبطت على كتفي والدي بالقرب من ساحتنا: هناك وقف والدي ووالدتي متعانقين يحتضن كلّ منهما الآخر مثل ولدين ضائعين في الغابة. كانا في عناق لم أرهما عليه من قبل تلك الليلة ولا من بعدها، وللحظة كنت بينهما وسط عناقهما وبعد هنيهة عدت ثانية إلى كتفي والدي، وهو، المثقف جدّاً، المؤدب، وقف هناك وصرخ بكل قوته، لا كلمات تلاعب لفظي، ولا شعارات صهيونية، ولا صرخات فرح، بل صرخة طويلة عارية وكأنها من العهد الذي سبق اختراع الكلمات.

لكن الآخرين كانوا قد بدؤوا يغنون هناك، الجمهور كله كان يغنّي، صدّقي أن يوما سيأتي، أو هنا في البلاد الحبيبة على الآباء والأجداد، أو صهيون يا حبيبتي، أو في الجبال في الجبال شعّ نورُنا، أو من المطلة إلى النقب، ولكن والدي الذي لم يعرف الغناء كما أنّه لا يحفظ كلمات هذه

الأغاني والأناشيد، والدي لم يسكت بل صرخ بأعلى صوته صرخته الطويلة حتى أقصى اتساع رئتيه آآآآآه ه ه ه وعندما نفد الهواء من رئتيه أخذ نفسا جديدا، مثل الغريق، وتابع يصرخ هذا الرجل الذي أراد أن يصبح بروفيسورا مشهورا كما كان جديرا أصبح الآن هنا كله آآآآآه ه ه ه فقط. وقد شاهدت متعجبا ومندهشا كيف أن أمّي تربّت براحتها على رأسه الغارق بالعرق وعلى قفا رأسه وفورا شعرت بيدها على رأسي وعلى ظهري ربما أنني عن غير وعي أخذت أساعد أبي في صراخه، وعادت يد أمّي تربت المرة تلو المرة على رأسينا ربما كانت تحاول أن تهدئنا أو ربما لا، ربما لا تحاول إطلاقاً تهدئتنا ربما من أعماقها حاولت هي أيضاً أن تشترك معه ومعي في صرختنا ومع كلّ الشارع ومع كلّ الحيّ ومع كلّ المدينة ومع كلّ البلاد حاولت أمّي الحزينة أيضاً أن تشترك هذه المرة (لا، بكل تأكيد، ليست المدينة كلها بل جميع الأحياء اليهودية فقط، إذ أن الشيخ جراح والقطمون والبقعة وطلبية لا شك أنهم سمعونا في تلك الليلة وقد التفوا بالصمت الذي كان شبيها جدّاً ربما بهدوء الذهول الذي خيم على جميع الأحياء اليهودية قبل أن تُعرف نتيجة التصويت. في بيت السلواني في الشيخ جراح وفي بيت والدي عائشة في طلبية وفي بيت الرجل من حانوت ملابس النساء ذلك الرجل الحبيب «جيبيتو» الرجل مع كيسي الدموع الثقيلة والعينين العطوفتين، هناك لم يفرحوا في تلك الليلة. لقد سمعوا أصوات الابتهاج والفرح من شوارع اليهود، ربما وقفوا يطلّون من الشبابيك ليشاهدوا الألعاب النارية القليلة الّتي اخترقت ظلمة السماء معبرة عن الفرحة، عضوا على شفاههم وصمتوا. حتى أن الببغاوين صمتا. كما صمتت النافورة في بركة الحديقة. على الرغم من أن القطمون وطلبية والبقعة لم تستطع أن تعلم في حينه أنها بعد خمسة أشهر ستسقط، خالية، بكاملها، بأيدي اليهود وفي جميع البيوت الحجرية الحمراء ذات الأقواس وفي الفيلات الغنية بالطنف والأقواس سيأتيها ويسكنها أشخاص جدد).

*

بعد ذلك ساد، في شارع عاموس وفي كلّ «كيرم أفراهام» وفي كلّ

الأحياء اليهودية، الرقص والدموع، ورفعت الأعلام، والشعارات المكتوبة على رقع من القماش، وقد صفرت السيارات بكل ما في صفاراتها من قوّة، و«احملوا إلى صهيون الراية والعلم»، و« هنا في البلاد الحبيبة على الآباء والأجداد»، وانبعثت من جميع الكُنُس أصوات الأبواق، وقد أخرجت كتب التوراة من خزائنها الخاصة في الكنس وحملت إلى حلقات الرقص، و« الله سيبني الجليل»، و«وانظروا، وأبصروا وشاهدوا / كم عظيم هذا اليوم»، وأيضاً، بعد ذلك، في ساعات الليل المتأخرة، فتحت فجأة بقالة السّيّد أوستر وفتحت جميع الأكشاك في شارع تسفانيا وفتحت في شارع «جيئولا» وفي تشينسلر وفي يافا وفي الملك جورج، وفُتحت البارات في جميع أرجاء المدينة وحتى بزوغ الفجر وزعت مجانا المشروبات الخفيفة والحلويات والمعجّنات وحتى المشروبات الروحية وتنوقلت زجاجات العصير والبيرة والنبيذ من يد إلى يد ومن فم إلى فم. والأغراب تعانقوا في الشوارع وقبّلوا بعضهم بالدموع، ورجال الشرطة المذهولين انجروا إلى حلقات الرقص وقد لُيّنوا بعلب البيرة وبزجاجات الليكر، وعلى مجنزرات الجيش البريطاني صعد المحتفلون المتحمسون ورفعوا عليها علم الدولة الّتي لم تقم بعد، ولكن هذه الليلة تقرر هناك في ليك ساكسس بأنه يسمح لها بأن تقوم. وهي ستقوم بعد مئة وسبعة وستين يوما وليلة، في يوم الجمعة مساء الرابع عشر من أيار ١٩٤٨، لكن واحدا من كلّ مئة من السكان اليهود واحد من كلّ مئة رجل وامرأة وشيخ وولد وطفل واحد من بين كلّ مئة محتفل وشارب وباكٍ بدموع الفرح، واحد كامل بالمائة من الشعب المبتهج والمعربد في هذه الليلة في الشوارع سيموت في الحرب الّتي سيبدؤها العرب خلال أقلّ من سبع ساعات بعد صدور قرار الجمعية العمومية في ليك ساكِس. ويأتي لمساندتهم بعيد خروج الجيش البريطاني قوات الجامعة العربية، صفوف من المُشاة والمدفعية والطائرات المقاتلة والطائرات القاصفة، من الجنوب ومن الشرق ومن الشمال تهجم إلى البلاد القوات الغازية المنظمة لخمس دول عربية بهدف القضاء على الدولة خلال يوم أو يومين من الإعلان عن إقامتها.

لكن والدي قال لي عندما تجوّلنا هناك، في ليلة التاسع والعشرين من

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، وأنا راكب على كتفيه، بين حلقات الراقصين والمبتهجين، قال لي والدي ليس كمن يطلب مني ذلك، بل كمن يعرف ويثبّت معرفته بمسامير: ما عليك إلا أن تنظر يا بُنيّ انظر فقط جيدا جدّاً يا بنيّ بسبع عيون انظر على كلّ ما يجري هنا هذه الليلة، لأنك أيها الولد لن تنسى هذه الليلة حتى آخر يوم في حياتك، وستحكي عن هذه الليلة لأولادك وأحفادك وأولاد أحفادك بعد وقت من انصرافنا عندما لا نكون نحن على قيد الحياة.

*

وقبيل الفجر في الوقت الذي لم يكن يسمح فيه للأولاد بألا يكونوا نائمين في فراشهم، ربما في الساعة الثالثة أو الرابعة، آويت بملابسي إلى سريري ملتفا في العتمة بلحافي. وها هي يد أبي تمتد، بعد وقت، لترفع عني في العتمة اللحاف، لا ليغضب مني لأنّني أنام في سريري بملابس النهار، بل لكي يدخل معي في سريري وينام إلى جانبي وهو الآخر بملابس النهار الّتي كانت مشبعة بالعرق نتيجة اكتظاظ الجماهير، تماماً مثل ملابسي (وعندنا كان هناك قانون صارم لا يجوز اختراقه أبداً مهما كانت الظروف: إطلاقاً، ولا في أيّ حال من الأحوال، لا يسمح بالدخول إلى السرير، بين الشراشف، بملابس النهار). اضطجع أبي بجانبي عدة لحظات صامتا مع أنه كان بشكل عام يشمئزّ من الصمت وكان يسارع إلى طرده. أما هذه المرة فلم يلمس الصمت الذي كان هناك بيننا، بل اشترك فيه وما زاد على أن ربتت يده رأسي برقة. وكأن أبي تحوّل في هذه العتمة إلى أمّي.

بعد ذلك حكى لي هامسا، دون أن يناديني هذه المرة بجناب معاليه ولا بفخامته، ماذا صنع له ولأخيه دافيد شباب شوارع في أوديسا وماذا فعل له شباب أغيار في المدرسة الثانوية البولندية في فيلْنا، وقد اشتركت في ذلك البنات أيضاً، وفي صبيحة اليوم التالي عندما وصل والده الجدّ «أَلِكْسَنْدِر»، إلى المدرسة يطلب الثأر لكرامته الّتي هُدرت، لم يُعد المتوحشون البنطلون الممزّق بل هجموا أمام عينيه على والده - جدّي- أيضاً وأوقعوه أرضاً بالقوة على الأرض وخلعوا عنه بنطلونه في وسط ساحة المدرسة، ضحكت البنات

وتفوّهن بكلمات بذيئة بأن اليهود جميعهم كذا وكذا والمعلمون، من جهتهم، شاهدوا وصمتوا وضحكوا أيضاً.

وما زال بصوت ظلام ويده ما زالت تتيه بين شعري (لأنه ليس معتادا على أن يربّت) قال لي أبي تحت لحافي قبيل الفجر من صباح يوم الثلاثين من تشرين الثاني سنة ١٩٤٧، «بكل تأكيد سيضايقك، في المستقبل، مرات عديدة، «قبضايات» من شباب الشارع أو من طلاب المدرسة. وربما سيضايقونك لأنك من المحتمل أن تكون مشابها لي. ولكن، من الآن فصاعدا من اللحظة الّتي ستصبح فيها لنا دولة، منذ الآن، إلى الأبد، لن يضايقك «القبضايات» لمجرد كونك يهوديّا ولأنّ اليهود هم كذا وكذا. هذا- لن يكون. إلى الأبد لن يحدث. اعتبارا من هذه الليلة هذا الموضوع انتهى، انتهى إلى الأبد.»

مددت يدي الناعسة لألمس وجهه قليلا دون جبينه العالي وفجأة بدلا أن تصطدم بالنظارات اصطدمت أصابعي بالدموع. ولا مرة في حياتي، لا قبل هذه الليلة ولا بعدها ولا حتى عند وفاة أمّي، لم أشاهد والدي يبكي. عمليا، في تلك الليلة أيضاً لم أشاهده يبكي: كانت الغرفة مظلمة. يدي اليسرى هي الوحيدة الّتي شاهدت.

*

بعد حوالي ثلاث ساعات في الساعة السابعة صباحا، بينما كنا كلنا نياما وربما كان الشارع كله والحي كله نياما، أطلقت عدة طلقات في الشيخ جراح على سيارة إسعاف يهودي كان في طريقه من مركز المدينة إلى مستشفى هداسا الذي على جبل المشارف. في جميع أرجاء البلاد هاجم عرب حافلات يهودية، قتلوا وجرحوا مسافرين وأطلقوا النار من أسلحة خفيفة ومن مدافع رشاشة باتّجاه الأحياء البعيدة والبلدات النائية. الهيئة العربية العليا برئاسة جمال الحسيني أعلنت عن إضراب عام في جميع القرى والمدن العربية، وأرسل الجماهير إلى الشوارع والمساجد حيث نادى الزعماء الدينيين بالجهاد ضدّ اليهود. مئات العرب المسلّحين خرجوا بعد يومين من البلدة القديمة في القدس ينشدون أناشيد الحرب ويرتلون آيات من القرآن الكريم

ويهتفون «اذبح اليهود» ويطلقون صليات نارية في الهواء. رافقتهم الشرطة البريطانية في طريقهم وسيارة بريطانية مُصفّحة سارت من خلفهم، على ذمة الراوي، على رأس الجمهور الذي اندفع إلى المركز التجاري اليهودي في شرقي شارع «ماميلا» (مأمن الله) حيث سرقوا واحرقوا الحيّ بكامله. تمّ إحراق أربعين حانوتا. وضعت الشرطة والجنود البريطانيون الحواجز في أسفل شارع الأميرة ماري وحالوا دون قوات منظمة «الهاجناة» من تقديم المساعدة لليهود الذين انحبسوا في المركز التجاريّ، وقد صادروا أسلحة رجال «الهاجناة» واعتقلوا ستة عشر عنصرا منهم. في اليوم التالي وكانتقام احرق رجالات «الايتسل» قاعة سينما «ريكس» الّتي كانت على ما يبدو بملكية عربية.

في الأسبوع الأول للاضطرابات قتل عشرون يهوديّا تقريبا. وحتى نهاية الأسبوع الثاني قتل في جميع أنحاء البلاد مئتان من اليهود والعرب. من أوائل كانون الأول ١٩٤٧ وحتى آذار ١٩٤٥ كانت المبادرة بيد القوات العربية: اليهود في القدس وفي جميع أنحاء البلاد اضطروا إلى الاكتفاء تقريبا بالدفاع فقط، لأنّ البريطانيين أحبطوا كلّ محاولات «الهاجناة» للقيام بمبادرة والخروج في هجوم مضادّ، حيث اعتقلوا رجالات «الهاجناة» وصادروا أسلحتهم. القوات العربية المحلية شبه المنظّمة ومعها مئات المتطوّعين المسلحين من الدول العربية المجاورة بالإضافة إلى حوالي مائتين جندي بريطاني فروا من الجيش البريطاني وقرروا القتال إلى جانب العرب، أغلقوا شوارع البلاد وفتتوا الوجود اليهودي إلى كنتونات معزولة ومجمعات من المستوطنات المحاصرة، الّتي لم يكن بالإمكان تزويدها بالمؤن والوقود والأسلحة إلا بواسطة القوافل.

فيما كان البريطانيون يواصلون تحمل مسئولياتهم السلطوية ويستغلونها في الأساس من أجل مساعدة العرب في حربهم وتقييد أيدي اليهود، تمّ عزل القدس اليهودية بشكل تدريجي عن بقية أجزاء البلاد. الطريق الوحيدة الّتي تربط بينها وبين تل أبيب أغلقته القوات العربية، وفي حالات قليلة جدّاً وبأثمان باهظة من الدماء كانت قوافل الإمدادات تنجح في اختراق الحواجز

والوصول إلى القدس اليهودية. في أواخر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ كانت جميع أجزاء القدس اليهودية قد أصبحت محاصرة عمليا. قوات عراقية نظامية والتي سمحت لها القوات البريطانية بوضع يدها على مضخات المياه في رأس العين قامت بتفجير منشآت الضخ فأصبحت القدس اليهودية بدون مياه، باستثناء مياه الآبار والخزّانات. أحياء يهودية معزولة مثل الحيّ اليهودي الذي داخل أسوار البلدة القديمة، و«يمين موشيه»، و«مكور حاييم»، و«رمات راحيل» أصبحت مع عزلها عن أجزاء المدينة في حصار داخل حصار. «الجنة الطوارئ» الّتي عينتها «الوكالة اليهودية» اهتمت بتقنين المواد الغذائية والصهاريج الّتي كانت تعبر الشوارع كلما توقّف القصف ووزعت كلّ يومين أو ثلاثة دلو ماء لكلّ فرد. الخبز والخضروات والسكر والحليب والبيض وغيرها من المواد الغذائية قننت بشدة ووزعت للناس بحسب بطاقات مواد غذائية حتى نفدت هي الأخرى وبدلا منها تمّ توزيع مخصصات ضئيلة جدّاً من مسحوق الحليب، وقطع الخبز الجاف ومسحوق البيض ذي الرائحة الغريبة. أما الأدوية واللوازم الطبية فقد أوشكت على النفاذ تماماً. لقد تمّ إجراء عمليات للمصابين أحياناً بدون تخدير. تزويد الكهرباء انهار وبما أنه لم يكن بالإمكان الحصول على النفط عشنا أشهر طويلة في الظلام أو على ضوء الشمع.

*

بيتنا القبو الضيق تحوّل إلى ما يشبه الملجأ لسكان الطبقات الّتي فوقنا، لقد اعتبر ملجأً يقي من القصف ومن الصليات النارية. لقد تمّ فك جميع ألواح الزجاج وإبعادها وبدلا منها أغلقت الشبابيك بمتاريس من أكياس الرمل. ساد بيتنا ظلام كظلام المغاور، في الليل وفي النهار أيضاً، من آذار ١٩٤٨ وحتى شهر آب أو أيلول الذي يليه. في هذا الظلام الدامس وفي نتانة الهواء الذي تعفّن بسبب انحباسه تجمّع عندنا بالتناوب رابضين على الفراش وعلى الحصر حوالي عشرين أو خمس وعشرين نسمة من الجيران والأغراب والمعارف ولاجئي الأحياء الحدودية من بينهم عجوزان متقدمتان جدّاً في السّنّ واللتان جلستا طوال النهار على مسطبة الممر محملقتان في الفضاء،

ومنهم عجوز شبه مجنون كان قد سمى نفسه النبي يرمياهو وكان يرثي دون توقف خراب القدس ويتوعدنا جميعا بحجرات غاز عربية بالقرب من رام الله «والتي بدؤوا يخنقون بها ألفين ومائة يهودي في كلّ يوم»، كان من بينهم جدّي ألِكْسَنْدِر وجدّتي شلوميت ومن بينهم الأخ البكر لجدي «ألِكْسَنْدِر»، العمّ يوسف بنفسه- البروفيسور كْلاوزْنِر- ومعه زوجة أخيه حايا إليتسيدك: كلاهما نجح في الهرب في اللحظة الأخيرة تقريبا من حي تَلْبِيوت المعزولة والمحاصرة، ووجدا عندنا ملجأ لهما. وقد كان كلاهما يجلسان عندنا بملابسهما وحذاءيهما ينامان ويصحوان على التناوب، لأنه بسبب الظلام كان من الصعب التمييز بين النهار والليل على مسطبة المطبخ - الكوخ، والذي اعتبر أقلّ الأماكن اكتظاظا في البيت (كما أن السّيّد عجنون، هكذا حكوا عندنا، نقل من بيته مع عائلته من تَلْبِيوت ليقيم في بيت أصدقائه في حيّ رِحافْيا).

كان العمّ يوسِف كْلاوزْنِر يبدأ بالحديث يبكي بصوته الرفيع الذي يبدو كالبكاء تقريبا.

مصير مكتبته ومخطوطاته الثمينة والتي خلّفها وراءه في بيته في «تَلْبِيوت» ومن يدري إذا كان سيحظى برؤيتها مرة أخرى. أما ابن «حايا إليتسيدك» الوحيد، «أريئل»، فقد تجنّد وقاتل دفاعا عن حي «تَلْبِيوت» ولفترة طويلة لم نعرف عنه إذا كان حيا أم ميتا جريحا أم اسيراً[1].

الزوجان «ميودوفنيك» اللذان خدم ابنهما «جريشا» في مكان ما مع قوات «البلماح» هربا من بيتهما الذي كان على خط القتال في حيّ «بيت يسرائيل» وأقاما هما أيضاً في بيتنا، بين عدة عائلات أخرى ازدحمت بهم الغرفة الصغيرة الّتي كانت قبل الحرب غرفتي. كنت أتمعن السّيّد «ميودوفنيك» بنوع من المهابة، حتى يكاد قلبي يتوقف عن الخفقان لأنه اتضح لي أن الرجل «ميودوفنيك» هو الذي ألف الكتاب الأخضر الذي تعلمنا فيه في مدرسة

---

(١) عن تجربته في حرب التحرير في القدس كتب أريئل إليتسيدك، ابن عم والدي، في كتابه «السيف عندما يظمأ» إصدار دار النشر أحي- أساف، القدس ١٩٥٠. (المؤلف)

«تحكيموني» : «حساب لطلاب الصف الثالث» تأليف متتياهو ميودوفنيك.
ذات صباح خرج السّيّد «ميودوفنيك» لتصريف بعض شئونه وفي المساء لم يعد إلينا. ولم يعد أيضاً في اليوم التالي. ذهبت زوجته إلى غرفة الأموات البلدية تجوّلت هناك ما تجوّلت ثمّ عادت مسرورة وسعيدة لأنّ زوجها لم يكن من بين الأموات.

عندما لم يعد إلينا السّيّد «ميودوفنيك» في اليوم التالي أيضاً، بدأ والدي يمزح كعادته دائماً ليبدّد الصمت ويسخر بصوت عال ليثير انتباه الجميع ويصرف اهتمامهم عن الحزن والأسى الذي خيم على الجميع: «ماتيا» العزيز، اقترح والدي، وجد له فتاة مقاتلة جميلة مع تنورة خاكي وهو الآن «يحتضنها» (وهنا حاول أبي أن يجرب تمكنه من التلاعب بالألفاظ المعتمد على ازدواجية معنى الاحتضان الأبوي والاحتضان الجنسي).

ولكنه بعد أن تهكّم على هذا النحو حوالي ربع ساعة، فجأة لبس وجهه قناع الجدية، وقام وذهب هو الآخر إلى غرفة الأموات البلدية وهناك وبناء على الجوارب، جواربه هو الّتي أعارها قبل يوم لـ«متتياهو ميودوفنيك»، تمكّن من تشخيص الجثّة الّتي مزّقها الانفجار. ولا شك أن السيدة «ميودوفنيك» مرت بها ولكنها لم تتعرف عليها لأنّ الوجه لم يكن موجودا.

*

والدي ووالدتي وأنا كنا ننام خلال أشهر الحصار على فرشة في أقصى طرف الممر، وكانت قوافل ممن يحتاجون المنافع يقفزون من فوقنا طوال الليل. المنافع نفسها أنتنت جدّاً لأنه لم تتوفر المياه لغسيل ما تراكم في كرسي المرحاض، ولان كوة المرحاض كانت مسدودة بأكياس الرمل. بين الفينة والأخرى ومع سقوط القذائف اهتزّ الجبل كله ومعه ارتعدت البنايات الحجرية. كنت استيقظ أحياناً على سماع صيحات تتجمد لها الدماء في العروق كلما أصيب أحد النائمين على الفراش في بيتنا بنوبة أو كابوس من الأحلام المفزعة.

في الأول من شباط انفجرت سيارة ملغومة بالقرب من بناية هيئة تحرير الصحيفة اليهودية باللغة الإنجليزية «فلسطين بوست». دُمّرت البناية بالكامل

وقد وجّه الاتهام إلى رجال الشرطة البريطانيين الذين تجندوا لمساعدة الهجوم العربي. في العاشر من شباط نجح المدافعون عن حي «يمين موشيه» من صدّ هجوم كبير للقوات العربية شبه المنظّمة. في يوم الأحد الموافق الثاني والعشرين من شباط بعد الساعة السادسة صباحا بعشر دقائق فجّرت منظمة سمّت نفسها «القوات الفاشية البريطانية» ثلاث شاحنات محملة بالديناميت في شارع «بن يهودا» في قلب القدس اليهودية. عمارات من ست طبقات انهارت بالكامل وتحولت إلى غبار كما أن قسما كبيرا من الشارع تحول إلى كومة أنقاض. اثنان وخمسون يهوديا من سكان الشارع قتلوا في بيوتهم وجرح حوالي مائة وخمسين من سكان الشارع.

في ذلك اليوم بالذات قام أبي «قصير النظر» وذهب إلى محطة «مشمار هعام» (حرس الشعب) الّتي أقيمت في الزقاق الذي بجانب شارع تسفانيا: وطلب أن يتجنّد. واضطر إلى الاعتراف بأن تجربته العسكرية السابقة اقتصرت على صياغة بعض المناشير غير القانونية باللغة الإنجليزية أصدرتها منظمة «الإيتسل» («الاحتقار لألبيون الماكرة!»، «فليسقط الاضطهاد النازي-البريطاني!» وما شابه).

في الحادي عشر من آذار دخلت سيارة القنصل الأمريكي في القدس المعروفة جيدا للجميع يقودها سائق القنصلية العربي إلى ساحة بنايات الوكالة اليهودية، قلب مؤسسات القيادة اليهودية في القدس وفي البلاد كلها. في الانفجار تهدم جزءاً من بناية الوكالة اليهودية وقتل أو جرح العشرات. في الأسبوع الثالث من شهر آذار فشلت المحاولات لنقل قافلات المواد الغذائية والإمدادات من منطقة السهل الساحلي إلى القدس: اشتدّ الحصار على القدس وأوشكت المدينة على المجاعة والعطش وخطر انتشار الأوبئة.

*

في منتصف كانون الأول من سنة ١٩٤٧ تمّ إغلاق المدارس في أحيائنا. أما نحن أولاد الحي طلاب الصفين الثالث والرابع في مدرسة «تحكيموني» أو في «بيت التربية» فقد جمعونا صباح ذات يوم في بيت فارغ في شارع «ملآخي». شاب مسفوع وغير مهندم يرتدي ملابس خاكي وكان يدخن

سجائر من نوع «ماتوسيان» وقدم إلينا نفسه بلقبه «جريبالدي» تحدث معنا حوالي عشرين دقيقة بجدية كبيرة، وخشونة عملية ما شاهدناها، من قبل، إلا في محادثات الكبار. فرض علينا جريبالدي أن ننتشر في جميع الساحات والمخازن وأن نجمع أكياسا فارغة («بعد ذلك نملأها بالرمل»)، وقناني فارغة («هناك من يعرفون تعبئتها بـ«كوكتيل» يكون لذيذا على مذاق العدو»).

كما علمونا كيف نجمع في الساحات الخالية وفي ساحات البيوت الخلفية المهملة نوعا من النباتات يسمّى «حِلْميت» ولكننا كلنا كنا نسميه باسمه العربي «الخُبّيزة»: الخُبّيزة خففت إلى حد ما من فزع المجاعة في القدس. كانت الأمهات تطبخ أو تقلي هذه النبتة وتصنع منها أنواعا مختلفة من الكُرَيّات أو العصائد لونها كلون السبانخ ومذاقها كان مروّعا أكثر من طعم السبانخ. كما تحددت لنا نوبات مراقبة: في كل ساعة من ساعات النهار كان على اثنين منا أن يراقبا من فوق سقف مناسب في شارع «عوفاديا» ما يجري بين أسوار معسكر الجيش البريطاني في «شنلر»، وبين الحسن والآخر عليه أن يسرع راكضا إلى دار القيادة في شارع «ملآخي» وينقل إلى جريبالدي أو أحد مساعديه ماذا يفعل هناك أولئك «التوميون» وإذا لوحظت عندهم أيّ استعدادات أولية للتحرك.

أما الأولاد الذين يكبروننا طلاب الصفين الخامس والسادس فقد علّمهم «جريبالدي» بأن يركضوا مع رسائل بين مواقع «الهاجناه» الّتي في آخر شارع تسفانيا وعند المنعطف المؤدي إلى حي البُخاريين. أمّي من جانبها كانت تتوسّل إليّ لكي أظهر نضوجا حقيقيا وأتنازل عن جميع «تلك الألعاب» ولكنني لم استطع أن استجيب لتوسلاتها. في الأساس تميّزت في جبهة القناني الفارغة: خلال أسبوع واحد نجحت في جمع مائة وست وأربعين قنينة فارغة وأن احضرها في صناديق أو أكياس إلى دار القيادة. جريبالدي بنفسه ربت براحته على قفا رأسي ونظر إليّ نظرة جانبية براقة. أسجل هنا، بالضبط، الكلمات الّتي قالها لي وهو ما زال يحكّ شعر صدره من خلال فتحة قميصه: «جميل جدّاً. ربما يأتي يوم ونسمع عنك ذات مرة.» كلمة كلمة. مرت منذ ذلك اليوم ثلاث وخمسون سنة وحتى الآن لم أنسَ.

٤٦

بعد سنوات طويلة اكتشفت أن المرأة الّتي تعرفت عليها في طفولتي السيدة «أبرامسكي تسيرتا» زوجة «يعكوف- دافيد أبرامسكي» (كان كلاهما صديقين حميمين لعائلتنا)، اكتشفت أنها كانت تكتب مذكراتها في تلك الأيام. بشكل ضبابي اذكر، أيضاً، أن أمّي كانت تجلس أحياناً على المسطبة في زاوية الممر في ساعات القصف ودفترها مفتوح على ظهر كتاب مغلق على ركبتيها، تكتب، متجاهلة أصوات انفجار قذائف المدافع والمورتر وصليات المدافع الرشاشة، تنعزل عن ضوضاء اللاجئين العشرين الذين يزدحمون ويتنازعون طوال النهار داخل غواصتنا المظلمة والنتنة، وتكتب في دفترها، لا تبالي بتمتمات النبي يرمياهو ولا لندب العمّ يوسف ولا للبكاء الثاقب والطفولي لإحدى العجائز الّتي كانت بنتها الخرساء تغيّر لها حفاظاتها المبلولة أمام الجميع. ماذا كتبت أمّي في تلك الأيام لن أستطيع أن أعرف إطلاقاً: لأنّ أيّ دفتر من دفاترها لم تقع بين يديّ. ربما أحرقتها جميعا قبل أن انتحرت. لم يبق لي حتى ورقة كاملة بخط يدها.

من بين ما كتبته تسيرتا أبرامسكي في مذكراتها وجدت ما يلي:

١٩٤٨/٢/٢٤

تعبت... تعبت... مخزن أغراض القتلى والجرحى...

لا يكاد يأتي شخص ليأخذ هذه الأغراض: لا يوجد من أتى لأخذها. أصحابها قتلى أو مُلْقَوْن جرحى على فراش الموت في المستشفيات. عرّج إلى هنا شخص جُرح في رأسه وفي يده ولكنه قادر على الحركة. قتلت

زوجته. لقد وجد ملابسها وصورها وصندوقاً معيناً... وهذه الأغراض الّتي ابتيعت بالحب وبهجة الحياة تتبعثر هنا في القبو... ودخل أحد الشباب، ج، للبحث عن أغراضه. فقد والده ووالدته وأخاه وأخته في الانفجار في شارع «بن يهودا». أما هو نفسه فقد نجا لأنه لم يبت تلك الليلة في البيت، لأنه كان يحرس في موقعه (الاستحكام)... بالمناسبة، لم يهتم بالأغراض كما اهتم بالصور... الّتي بقيت من الدمار، حاول أن يجد أيّ صور عائلية...

*

١٤/٤/١٩٤٨

أعلنوا صباح اليوم... بأنه بحسب كوبون في بطاقة النفط (بطاقة ربّ العائلة) ستعطى في حوانيت معينة ربع دجاجة للعائلة. طلب مني بعض الجيران أن أحضر لهم حصتهم أيضاً، إذا وقفت في الطابور، وذلك لأنه يجب عليهم أن يشتغلوا ولا يستطيعون الوقوف في الطابور. أراد ابني «يوني» أن يمسك لي دورا في الطابور قبل أن يذهب إلى المدرسة، ولكنني قلت بأنّني سأقف بنفسي في الطابور. أوصلت «يئير» إلى الروضة وتوجهت إلى «جيئولا» حيث تقع الحانوت. وصلت في الساعة الثامنة إلا ربعا ووجدت طابورا من ستمائة شخص تقريبا.

يقال: بأن الكثيرين جاؤوا في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل، لأنّ الإشاعة حول توزيع الحصص من لحم الدجاج قد انتشرت قبل يوم. لم أجد في نفسي رغبة للوقوف في الطابور، ولكنني وعدت جيراني بأن احضر لهم حصصهم، ولا يليق بي أن أعود إلى البيت بدون الحصص. فقررت «الوقوف» مثل بقية «الواقفين».

وفيما أنا واقفة في الطابور علمت بأن «الإشاعة» الّتي انتشرت في القدس أمس - قد أصبحت حقيقة: حقّاً، تمّ أمس حرق مائة يهوديّ بالقرب من «الشيخ جراح»، وهم ضمن القافلة الّتي تصعد إلى هداسا وإلى الجامعة. مائة شخص. من بينهم كبار العلماء والأطباء والممرضات والعمال والطلاب والموظفين والمرضى.

أمر يصعب عليّ تصديقه. في القدس يوجد الكثير من اليهود، وهؤلاء

اليهود لم يستطيعوا أن ينقذوا مائة شخص سيقوا إلى الموت وكل ذلك على بعد كيلومتر واحد. . . يقال: الانجليز لم يفسحوا المجال لعملية الإنقاذ. لماذا ربع الدجاجة هذا، إذا كانت تحدث، أمام ناظريك، هذه الكوارث؟ لكن الناس يقفون في الطابور بإصرار. وطوال الوقت تسمع: «الأولاد هزلوا. . . منذ أشهر عديدة لم يذوقوا طعم اللحم. . . الحليب غير متوفر، الخضراوات غير موجودة. . .» من الصعب الوقوف ست ساعات في الطابور، ولكن ذلك يستأهل: ستكون هناك شوربة للأولاد. . . ما حدث في الشيخ جراح فظيع ومرعب، ولكن من يدري ما الذي ينتظرنا جميعا في القدس. . . الذين ماتوا ماتوا والذين ما زالوا أحياء يواصلون الحياة. . . الطابور يتقدم رُوَيداً رُوَيداً. «السعداء» ينصرفون إلى بيوتهم وهم يحتضنون قريبا من قلوبهم ربع الدجاجة لعائلتهم. . . أخيرا شوهدت جنازة. . . في الساعة الثانية ظهرا حصلت أنا أيضاً على حصتي وحصة جيراني وانصرفت إلى البيت.(١)

*

كان من المفروض أن يرسَل والدي إلى جبل المشارف المحاصر ضمن تلك القافلة نفسها يوم ١٣/ ١٩٤٨/٤، تلك القافلة الّتي قتل وحرق فيها حيّاً سبعة وسبعون طبيبا وممرضة وبروفيسورا وطالبا: أُلقي على عاتق والدي من طرف «حرس الشعب» وربما من طرف المسئولين عنه في عمله في المكتبة القومية، مهمة إغلاق أقسام معينة من أقبية المكتبة ومخازنها، مع عزل الجبل عن بقية أحياء المدينة. إلا أنه في الليلة السابقة لذلك اليوم ارتفعت درجة حرارته حتى أربعين درجة وقد منعه الطبيب منعا جازما من مغادرة الفراش (كان قصير النظر وضعيف الجسم، وكلما ارتفعت حرارته تصبح عيناه ضبابيتين حتى تقتربا من العمى كما كان يفقد توازنه).

بعد أربعة أيام من احتلال «الايتسل» و«الليحي» للقرية العربية دير ياسين

---

(١) تسيرتا أبرامسكي، «من مذكرات امرأة من أيام الحصار في القدس ١٩٤٨» (١٩٤٨)، ضمن كتاب «رسائل يعكوف- دافيد أبرامسكي»، أعادت إصداره وأضافت ملاحظات: شولا أبرامسكي، الناشر: سفريات بوعليم، تل أبيب، ١٩٩١، ص ٢٨٨-٢٨٩. (المؤلف)

الواقعة غربي مدينة القدس وقاموا بذبح الكثيرين من سكانها هاجم عرب مسلّحون القافلة الّتي شقّت طريقها في الساعة التاسعة والنصف صباحا حيَّ الشيخ جراح إلى جبل المشارف. وزير المستعمرات البريطاني بنفسه، آرثور كريتش- جونس شخصيا هو الذي وعد ممثلي «الوكالة اليهودية» بأنه ما دام جيشه موجودا في القدس فإنّ القوات البريطانية تضمن التسوية الدائمة لقافلة تبديل النوبات في المستشفى والجامعة (مستشفى هداسا لم يخدم فقط السكان اليهود بل جميع سكان القدس).

شملت القافلة سيارتي إسعاف وثلاث حافلات شبابيكها حصّنت بألواح معدنية خوفا من رصاص القناصة، وعددا من الشاحنات المحمّلة بالموادّ والأجهزة والمعدات الطبية، بالإضافة إلى سيارتين صغيرتين. في مدخل حي الشيخ جراح وقف ضابط شرطة بريطاني وكعادته، أعطى القافلة الإشارة بأن الطريق مفتوحة وآمنة. في قلب الحي العربي، عند حدود فيلا المفتي الكبير الحاج أمين، زعيم عرب فلسطين المنفي والمؤيد للنازية، وعلى بعد مائة وخمسين مترا من فيلا سلواني، انفجر لغم تحت السيارة الأولى. وفورا أمطرت القافلة بوابل من النيران كالبرَد من جانبي الطريق بما فيها القنابل اليدوية وزجاجات المولوتوف الحارقة. استمرّ إطلاق النار طوال ذلك الصباح. وقع الهجوم على بعد أقلّ من مائتي متر من موقع الحرس البريطاني الذي كانت مهمته تأمين وحماية الطريق إلى المستشفى. وقف الجنود البريطانيون ساعات وهم يتفرّجون على الهجوم دون أن يحرّكوا ساكنا (هل خرج الأستاذ نجيب وأهل بيته لمشاهدة المجزرة؟ أم أنهم بقوا على كراسيهم الخشبية المنجّدة الّتي على الشرفة الأمامية؟ أو ربما تحت عريشة الدوالي؟ يحتسون كؤوس الليمونادة العالية والتي تعرق من شدة البرودة؟). في الساعة ٤٥ : ٠٩ مرّت من المكان، دون أن تتوقّف ولو لدقيقة، سيارة الجنرال «هـ. أ. ماكملان»، القائد الأعلى للقوات البريطانية في أرض إسرائيل (بعد ذلك ادّعى الجنرال «ماكملان» بلا حياء بأنه تخيل بأن الهجوم كان قد انتهى قبل وصوله).

في الساعة الواحدة ظهراً، ومرة أخرى بعد حوالي الساعة، مرّت من

المكان، دون أن تتوقف، وسائل نقل عسكرية بريطانية. عندما توجه ضابط الارتباط من طرف «الوكالة اليهودية» إلى القيادة البريطانية طالبا الإذن بإرسال قوات «الهاجناه» لإنقاذ الجرحى والمحتضرين، قيل له بأن «الجيش يسيطر على الموقف» وبان القيادة تمنع «الهاجناه» من التدخل. وبالرغم من ذلك حاولت قوات الإنقاذ التابعة لـ«الهاجناه» من تقديم المساعدة إلى القافلة المحاصرة، من جهة المدينة وكذلك من جهة جبل المشارف المحاصر. منعوا من الاقتراب من المكان. في الساعة ٤٥ : ١٣ ظهرا اتصل رئيس الجامعة العبرية البروفيسور «يهودا لييف ماجنس» بالجنرال «ماكملان» وتوسل طالبا المساعدة. كان الجواب بأن «الجيش يحاول الوصول إلى المكان إلا أن معركة حامية اندلعت هناك».

لم تكن هناك أيّ معركة. في الساعة ١٥:٠٠ بعد الظهر تمّ إحراق الحافلتين وكل المسافرين فيهما تقريبا والذين كانوا جرحى وفي ساعات الاحتضار حرقوا وهم على قيد الحياة.

من بين القتلى السبعة والسبعين كان مدير مستشفى هداسا البروفيسور «حييم ياسكي» والبروفيسوران «ليئونيد دولجينسكي» وَ «موشيه بِن دافيد» اللذان كانا من مؤسسي كلية الطبّ في القدس، وعالم الفيزياء الدكتور «جينتر فولفسون»، ورئيس قسم علم النفس البروفيسور «آنتسو بونَفينطورا»، والخبير بالقضاء العبري دكتور «افراهام حييم فرايمن» وعالم اللغة دكتور «بنيامين كلار».

بعد ذلك أصدرت الهيئة العربية العليا بيانا رسمياً وصفت فيه المجزرة على أنها عمل بطولي نُفّذ «تحت قيادة ضابط عراقي». يهاجم البيان تدخل البريطانيين في اللحظة الأخيرة ويقرّر: «لولا تدخّل الجيش البريطاني لما بقي على قيد الحياة أيّ شخص من ركاب القافلة.»[1]

فقط بسبب التقاء أسباب عديدة وبسبب سخونة حرارة أبي وربما أيضاً

---

(١) بناء على دوف يوسف، «مدينة مخلصة» إصدار دار النشر «شوكين»، القدس وتل أبيب ١٩٦٠، ص ٨١-٨٢ وبناء على مصادر أخرى. (المؤلف)

لأنّ أمّي عرفت كيف تكبح أحياناً حماسه الوطني، لم يحترق أبي أيضاً مع من احترقوا من تلك القافلة.

*

بعد مجزرة القافلة بوقت قصير في جبل المشارف خرجت قوات «الهاجناه» لأول مرة في هجومات كبيرة في جميع أرجاء البلاد، وهي تهدد باستعمال السلاح ضدّ الجيش البريطاني أيضاً الذي بدأ يُخلي البلاد، إذا تجرأ على التدخّل. الشارع الموصل بين سهل يهودا والقدس تمّ فتحه بقوة هجوم كبير ولكنه عاد وأغلق ثمّ فُتح ثمّ عاد وتجدد الحصار على القدس العبرية مع دخول الجيوش العربية النظامية. خلال شهر نيسان وحتى منتصف أيار سقطت في أيدي قوات «الهاجناه» مدن عربية ومدن مختلطة كبيرة: حيفا ويافا وطبريا وصفد، بالإضافة إلى عشرات القرى العربية في الشمال والجنوب. مئات آلاف العرب فقدوا بيوتهم في تلك الأسابيع وتحوّلوا إلى لاجئين وما زالوا حتى يومنا هذا. الكثيرون منهم هربوا والكثيرون هُجّروا بالقوة.

في القدس المحاصرة ربما لم يكن في تلك الأيام من يأسف على مصير اللاجئين الفلسطينيين المرّ: الحي اليهودي في القدس الذي سكنه اليهود منذ آلاف السنين بشكل متواصل (باستثناء فترة واحدة في القرن الثاني عشر بعد أن ذُبحوا وطردوا كلهم على أيدي الصليبيين)، سقط في يد الجيش الأردني، وقد تمّ هدم وسرقة كلّ بيوته وطرد أو أسر جميع سكانه. بلدات «جوش عتصيون» سقطت هي الأخرى ومسحت وسكانها اليهود ذبحوا أو أُسروا. «عطروت» وَ «نافي يعكوف» وَ «كاليا» وَ «بيت هعَرافا» أخلاها العرب من سكانها وهدموا بيوتها. مائة ألف سكان القدس اليهودية خافوا من مصير مشابه. عندما أعلنوا في راديو «كول همجين» (صوت المدافع) عن هرب السكان العرب من طلبية ومن القطمون لا اذكر أنني أشفقت على عائشة وعلى أخيها. بل وسّعت مع والدي حدودنا - عيدان الكبريت على خريطة القدس: أشهر القصف والجوع والخوف قسّت قلبي. إلى أين ذهبت عائشة؟ وأخوها الصغير؟ إلى نابلس؟ إلى دمشق؟ إلى لندن؟ أو إلى مخيم اللاجئين في الدهيشة؟ حاليا، إذا كانت ما زالت على قيد الحياة، فهي امرأة في

الخامسة والستين تقريباً. وأخوها الصغير ذلك الذي ربما هشّمتُ قدمه، سيصبح قريبا في الستين من عمره. ربما أصبح الآن من الممكن أن أقوم بمحاولة للبحث عنهما. وأن أعرف ما هو مصير جميع بطون وأفخاذ عائلة السلواني في لندن، في جنوب أمريكا، في استراليا؟

ولنفرض أنني اهتديت إلى عائشة في مكان ما من العالم. أو اهتديت إلى من كان الطفل الحلو «تنلي اينلي»: كيف أقدم له نفسي؟ ماذا أقول له؟ ماذا اشرح له؟ ماذا اقترح عليه؟

هل ما زالا يذكران؟ وإذا كانا كذلك ماذا يذكران؟ أم أن الفظائع الّتي واجهتهما قد أنستهما واقتلعت من قلبيهما مجنون الشجر المغرور؟

لم يكن كلّ شيء بسببي؟ ليس كلّ شيء. أنا فقط تكلمت وتكلمت وتكلمت. عائشة هي الأخرى تتحمل جزءا من المسئولية. فعائشة هي الّتي قالت لي تعال لنرى كيف تتسلّق الشجرة. لولا أنها حرّضتني وحثتني لما كنت تسلقت الشجرة فجأة وأخوها-

ضاع كلّ شيء. لا يمكن استعادة أيّ شيء.

*

في «حرس الشعب» في شارع تسفانيا سلّموا والدي بندقية قديمة جدّاً وفرضوا عليه القيام بواجبات الحراسة الليلية في شوارع حي «كيرم أفراهام ».

كانت تلك بندقية سوداء وثقيلة، مع عقب متآكل كان مليئاً بكتابات كثيرة ورؤوس أقلام وكلمات أجنبية اجتهد والدي محاولا حلّ رموزها قبل أن يتعرف على البندقية نفسها: ربما أنها بندقية ايطالية من أيام الحرب العالمية الأولى، وربما أنها بندقية أمريكية خفيفة وقصيرة وعتيقة. تحسّسها أبي من هنا وهناك، تفحّصها قليلا شدّ وأرخى دون فائدة وضع البندقية على المسطبة بجانبه وانشغل في فحص الخرطوشة، رفع بيده اليسرى حفنة من الرصاص وبيده اليمنى الخرطوشة الفارغة ولوح بهما نحو ظله الصغير على الباب وامتلأ بهجة وسرورا، وبدأ يهزأ من قلة عقل مارشالات نابليون بونابرت.

ولكنه عندما حاول إدخال الرصاصات مكانها في الخرطوشة تحول انتصاره إلى هزيمة نكراء: الرصاصات الّتي تنفست ريح الحرية رفضت

بإصرار العودة إلى داخل زنزانتها. لم تفلح كلّ حيل وإغراءات أبي. حاول أبي أن يدخلها بشكل مستقيم ومقلوب، حاول برفق وحاول بكل قوة أصابع المثقف الناعمة، حاول أيضاً أن يدخلها مرة أخرى إلى الخرطوشة على التناوب عندما يكون رأس الرصاصة الأولى إلى أعلى يكون رأس الرصاصة الثانية إلى أسفل ثمّ إلى أعلى، ولكن كلّ جهوده ذهبت سدى.

لكن أبي لم يسبّ ولم يشتم بل حاول أن يقسم على الرصاصات من جهة وعلى الخرطوشة نفسها بواسطة اقتباس مليء بالانفعال لأبيات معروفة من الشعر الوطني البولندي، ولأبيات من شعر أوبيديوس الشاعر، وباقتباس متناغم من بوشكين أو ليرمونطوف، وبإلقاء قصائد غرامية كاملة لشعراء اسبانيا اليهود من العصور الوسطى، وكل واحد بلغته الأصلية وكلها بلهجة روسية وكلها لم تجد نفعا. حتى أنه في نهاية الأمر ألقى على الخرطوشة وعلى رصاصاتها من الذاكرة مقاطع من شعر هوميروس باللغة اليونانية الكلاسيكية وفصولا من شعر «النيبليجيين» باللغة الألمانية ومن شعر تشوسير بالإنجليزية وربما أيضاً من أغاني «الكاليفالا» بترجمة شاؤول تْشيرْنِخوفْسْكي وكذلك من أسطورة «جلجاميش» وكذلك «الاوتنابيشيين» وَ «إنوما أليش» وماذا لم يقرأ، قرأ وألقى بكل لهجة وبكل لغة. ولكن كلّ محاولاته ذهبت أدراج الرياح.

مكتئبا ومغموما شق والدي طريقه إلى قيادة «حرس الشعب» في شارع تسفانيا، البندقية الثقيلة بإحدى يديه وفي الأخرى حمل الرصاصات التي هي أغلى من الذهب داخل كيس مطرّز كان مخصّصا في الأصل لحمل الساندويتشات وفي جيبه ويا ليته لا ينساها في جيبه، كانت الخرطوشة الفارغة نفسها.

هناك في قيادة «حرس الشعب» واسوه، وأطلعوه بسرعة كم من السهل كانت عملية إدخال الرصاصات إلى داخل الخرطوشة، ولكنهم في الوقت نفسه لم يعيدوا إليه سلاحه ولا ذخيرته ثانية. لا في نفس اليوم ولا في الأيام القادمة. ولا في أيّ وقت آخر. بدلا منها أعطوه مصباحا كهربائيا وصفارة وشريط ذراع مشيراً كتب عليه «حرس الشعب». عاد أبي إلى البيت مليئاً بالبهجة والسرور شرح لي معنى «حرس الشعب» أضاء المصباح وصفّر

بالصفارة حتى لمست أمّي كتفه وقالت له يكفيك آريه، من فضلك.

*

في منتصف الليلة الّتي بين يوم الجمعة الرابع عشر من أيار ١٩٤٨ ويوم السبت الخامس عشر من أيار، بعد انتهاء ثلاثين سنة من الانتداب البريطاني قامت الدولة الّتي أعلن عن ولادتها «دافيد بن غوريون» في تل أبيب قبل ذلك بعدة ساعات. بعد توقّف استمر ألف وتسع مائة سنة تقريبا، قال العمّ يوسف، عاد وانبسط هنا حكم يهوديّ.

ولكن في الساعة الثانية عشرة ودقيقة بعد منتصف الليل وبدون إعلان حرب غزت البلاد طوابير من قوات سلاح المشاة وسلاح المدفعية وسلاح المدرّعات التابعة للجيوش العربية: مصر من الجنوب، شرقي الأردن والعراق من الشرق، ولبنان وسوريا من جهة الشمال. في صباح يوم السبت قصفت طائرات مصرية مدينة تل أبيب. جيش شرقي الأردن- الجيش البريطاني تقريبا لمملكة شرقي الأردن، بالإضافة إلى قوات عراقية نظامية وكتائب متطوعين مسلمين مسلحين جاؤوا من عدة دول، هؤلاء جميعا دعتهم السلطات البريطانية لاحتلال نقاط مركزية في جميع أرجاء البلاد قبل أسابيع من الموعد الرسمي لانتهاء الانتداب البريطاني.

وحولنا ضاقت الحلقة: احتل جيش شرقي الأردن البلدة القديمة من القدس، وقطع بقوات كبيرة الطريق المؤدي إلى تل أبيب والسهل الساحلي، وسيطر على الأحياء العربية، ووضع استحكامات مدفعية على التلال المحيطة بالقدس، وبدأ بإطلاق نار مكثّف كان هدفه إيقاع الكثير من الضحايا بين السكان المدنيين المنهكين والجائعين لكسر معنوياتها وإجبارها على الاستسلام: الملك عبد الله صنيعة لندن، رأى نفسه ملكا على القدس. بطاريات مدفعية جيش شرقي الأردن كانت تحت قيادة ضباط مدفعية بريطانيين.

في تلك الساعة وصلت قوات الطليعة للجيش المصري حتى الأحياء الجنوبية للقدس حيث هاجمت كيبوتس رمات راحيل الذي انتقل مرتين من يد إلى يد. طائرات مصرية قصفت القدس بقذائف حارقة ومن بين ما هدمته

كانت بناية «موشاف هزكنيم» في حي «روميمة»، ليس بعيدا عنّا. انضمت المدفعية المصرية إلى مدفعية شرقي الأردن في قصفها للسكان المدنيين: من التلة المجاورة لدير مار إلياس قصفت القوات المصرية القدس بقذائف ٤,٢ إنش. سقطت القذائف على الأحياء اليهودية بوتيرة قذيفة كلّ دقيقتين ونيران المدافع الرشاشة كانت تملأ شوارع لمدينة. «غريتا جات»، المربية - عازفَة البيانو الّتي انبعثت منها دائماً رائحة صوف رطب ورائحة صابون الغسيل، العَمَّة «غريتا» الّتي كانت تسحبني معها إلى حوانيت الملابس النهائية والتي أحبّ والدي أن يقرض لها بعض الأبيات العبثية («في الحقيقة/ إذا ثرثرتَ / قليلا مع «غريتا» / فلا إثم فعلتَ!...») خرجت ذات صباح إلى الشرفة وهناك وقفت تنشر الغسيل، رصاصة قنّاص أردني دخلت أذنها، هكذا قالوا، وخرجت من عينها. تسيبورا يناي، «بيري» صديقة أمّي الخجولة الّتي تسكن في شارع «تسفانيا» نزلت للحظة لتحضر من الساحة «مِمْسَحَة مسطبة» ودلوا ولكنها قتلت فور إصابتها بقذيفة إصابة مباشرة.

*

كانت عندي سلحفاة صغيرة. في أيام عيد الفصح لعام ١٩٤٧ أي قبل ستة أشهر من الحرب اشترك والدي في رحلة مع عاملي الجامعة العبرية إلى آثار مدينة جرش في شرقيّ الأردن: خرج في الصباح الباكر يحمل معه كيسا من الساندويتشات ومَطَرة عسكرية حقيقية علّقها بفخر واعتزاز على حزامه. وفي مساء نفس اليوم عاد، محمّلا بمشاعر مبهجة وسارّة من الرحلة ومن عجائب المدرَّج الروماني، وقد أحضر لي هدية سلحفاة صغيرة وجدها هناك «تحت قوس حجرية رومانية مدهشة».

مع أن أبي لم يوهب روح الدّعابة، وربما لم تكن عنده فكرة واضحة حول ما هي روح الدعابة، أحب والدي طوال حياته حبا جما السّخرية والنكات والتورية والمُلَح والفكاهة والتلاعب بالألفاظ والاستعارات، وإذا حدث أحياناً أن نجحت مُلحه أن ترسم الابتسامة الخفيفة هنا وهناك فإنّ وجهه كان يشع بالنور لشدة فخره المتواضع. وهذا ما حدث، قرر والدي أن يطلق على السلحفاة الصغيرة الّتي أحضرها هدية لي الاسم الهزلي عبد الله -

جِرشون، تكريما لملك شرقي الأردن والمدينة التاريخية جرش. كان أبي يعلن باهتمام أمام كلّ من دخل بيتنا اسمَي السلحفاة، مثل المنادي- الحاجب الذي يعلن دخول دوق أو سفير وكان يستغرب كيف أن أحدا من الحضور لم ينفجر بالضحك؟ لذلك كان يرى أنه من الضروري أن يشرح لهم لماذا عبد الله وما معنى جرشون: ربما أنه تأمل بأن من لم يستمتع بالنكتة قبل الشرح سينفجر ضاحكا في النهاية بعد الشّرح. أحياناً، لشدة الحماس أو بسبب تشتت الفكر، كان يعود ويكرر نفس المقطع بالكامل حتى على الضيوف الذين سمعوه مرتين على الأقلّ وقد حفظوا عن ظهر قلب لماذا عبد الله ولماذا جرشون وقد حصلوا منه أكثر من مرة على شرح أين تكمن هنا النكتة.

أما أنا فقد أحببت كثيرا هذه السلحفاة الصغيرة، الّتي اعتادت أن تزحف كلّ صباح إلى زاوية مخبئي تحت شجيرة الرمان وأن تأكل بشره أوراق الخسّ وقشور خيار غضة مباشرة من راحة يدي، لم تخف مني ولم تخبّئ رأسها داخل درعها، وعندما كانت تلتهم طعامها بنهم كانت تقوم بحركات مضحكة برأسها، وكأنها موافقة على كلّ ما تقول وتهزّ رأسها بحماس شديد. وهي بذلك تشبه بروفيسورا أصلع من حي رِحافيا كان من عادته أن يهزّ رأسه نحوك هزات كثيرة مليئة بالحيوية والنشاط، حتى تنتهي من الحديث، وعندها تتحوّل الموافقة، بشكل عام، إلى سخرية، والبروفيسور، وهو ما زال يهزّ رأسه نحوك، كان يفتت آراءك إرباً إرباً.

بإصبع واحد كنت اربّت لسلحفاتي على رأسها وهي تأكل، مستغربا من التشابه بين منخريها وثُقبَي أذنيها. في داخلي، ومن وراء ظهر أبي لم أنادها بـ«عبد الله- جرشون»: سميتها ميمي. سرّاً.

في أيام القصف لم يعد متوفرا لا الخيار ولا الخسّ كما أنهم لم يسمحوا لي بالخروج إلى الساحة ومع ذلك كنت أحياناً افتح الباب والقي خارجا إلى الساحة من أجل ميمي، فضلات ما أكلنا. أحياناً كنت أراها من بعيد وأحيانا كانت تختفي عن ناظري عدة أيام.

*

في اليوم الذي قتلت فيه غُريتا جات وقتلت بيري يناي، صديقة أمّي،

قتلت أيضاً سلحفاتي ميمي: شظايا قذيفة وقعت في ساحتنا قسمتها إلى قسمين. عندما طلبت من أبي والدموع تنهمر من عينيّ بأن يسمح لي على الأقلّ أن احفر قبرا لها تحت الرمانة وأن أقوم بنفسي بدفنها وصنع شاهد لها كي نتذكّرها، وضّح لي والدي بكل صراحة بأنّني لن أتمكن من فعل ذلك، ولأسباب واعتبارات صحية بالذات. لقد قام هو بنفسه، هذا ما قاله لي، بإبعاد ما بقي منها. لم يقبل بأي شكل من الأشكال أن يقول لي إلى أين ابعدها، ولكنه رأى من المناسب أن يشرح لي بهذه المناسبة ما معنى كلمة «سخرية القدر» («آيروني»): هاك، على سبيل المثال سلحفاتنا، عبد الله - جرشون، قادمة جديدة من بلاد شرقي الأردن، الشظيّة الّتي وضعت حدّاً لحياتها كانت جزءا من قذيفة أطلقت، ويا لسخرية القدر، أطلقت بالذات من مدافع ملك شرقي الأردن، الملك عبد الله.

في تلك الليلة لم استطع النوم. اضطجعت على ظهري على فرشتنا في زاوية الممرّ البعيدة، محاطا بشخير وتمتمات وأنين وتأوّهات عجائز متقطعة، جوقة نوم مزعجة لحوالي عشرين غريبا ينامون عندنا على المساطب في جميع أنحاء البيت الذي كانت شبابيكه مسدودة بأكياس الرمل. اضطجعت، هناك، مبلّلا بالعرق، في الوسط، بين أبي وأمّي، وفي الظلمة المرتجفة (شمعة واحدة كانت شبه مشتعلة في الحمام)، في الهواء المتعفن، تخيلت فجأة صورة سلحفاة في الظلام، لم تكن ميمي، لم تكن سلحفاتي الصغيرة الّتي أحببت أن أربّت على رأسها بإصبع واحدة (لأنّ قطا أو كلبا بكل بساطة لم يكن واردا في الحسبان! لا مجال للكلام حول هذا الموضع! انسَ!) بل كانت تلك سلحفاة مرعبة، سلحفاة - وحشية بشعة، عملاقة، قذرة، تقطر دما، وخليطا من العظام، تحلق وتجدّف بأطرافها الأربعة وأظفارها الحادّة تنظر ساخرة مستهزئة بكل النائمين في الممر. وجهها كان مفزعا ومسحوقا منهكا بسبب رصاصة دخلت عينها وخرجت عبر المكان الذي فيه حتى للسلاحف ما يشبه الأذن الصغيرة بدون صيوان.

ربما حاولت أن أوقظ أبي. لكن أبي لم يستيقظ: ينام على ظهره بدون حركة يتنفس نفسا عميقا متتاليا، مثل طفل شبعان. لكن أمّي أخذت رأسي

ووضعته في حضنها. هي الأخرى مثلنا جميعا، في فترة الحصار، تنام بملابسها وقد آلمتني في خدي أزرار قميصها. حضنتني أمّي بقوة ولكنها لم تحاول أن تواسيني بل شاركتني النحيب، نحيب مخنوق، كيلا يسمعونا، كانت شفتاها تهمسان مرارا وتكرارا: «بيري»، «بيروشكا»، «بيريييبي». وأنا اكتفيت بأن ربّتّ على شعرها، وخديها وقبّلتها وكأنني أنا البالغ الكبير وهي البنت الصغيرة، وهمست في أذنها كفى يا أماه كفى يا أماه كفى كفى أنا هنا إلى جانبك.

بعد ذلك تهامسنا قليلا أنا وهي. بالدموع. وحتى بعد ذلك، بعد أن انطفأت الشمعة الضعيفة الّتي أومضت من طرف الممر وفقط صفير القذائف كان يشقّ ويجرح الظلام ومع كلّ قذيفة تسقط كان الجبل الذي وراء حائط بيتنا يرتجف، بعد ذلك، بدلا من رأسي الذي كان على صدرها وضعت أمّي رأسها المبلل بالدموع على صدري. في تلك الليلة فهمت لأول مرة بأنّني سأموت أنا أيضاً. وبأنّ كلّ واحد سيموت. وأن أيّ شخص في العالم لا يمكنه أن ينقذنا، ولا حتى أمّي. كما أنني لا أستطيع أن أنقذها: لميمي كان درع، ومع كلّ إشارة خطر كانت تنكمش على نفسها، بيديها ورجليها ورأسه، عميقا داخل درعها. كان لها درع ولكنه لم ينقذها.

*

في مذكرات تسيرتا أبرامسكي وجدت مكتوبا كما يلي:

١٩٤٨/٩/٢٣

في الثامن عشر من أيلول في الساعة العاشرة والربع من صباح يوم السبت، قتل «يوني»، «يوني» ابني، كلّ حياتي... قنّاص عربي أصابه، أصاب ملاكي، لم يقل سوى «ماما» ولم يخط إلا عدة أقدام (لقد وقف ابني الرائع، الطاهر بجانب البيت) ثمّ سقط... أنا لم أسمع كلمته الأخيرة وصوته الذي ناداني ولم أجبه. عندما عدت لم يكن بعد ذلك اللطيف، الحلو على قيد الحياة. رأيته في غرفة الأموات. لقد بدا الرائع بجماله، وكأنه نائم. حضنته وقبّلته. وضعوا حجرا تحت رأسه. تحرك الحجر، ورأسه، رأس ملاك من السماء، تحرك قليلا، قال لي قلبي: أنه ليس ميتا، ابني. ها هو

يتحرّك. . . كانت عيناه نصف مغمضتين. بعد ذلك جاؤوا «هم»- موظفو غرفة الأموات وبدؤوا يهينونني ويؤنبونني بفظاظة وطردوني: لا يسمح لي بأن أحضنه وبأن أقبله. . . انصرفت.

وبعد عدة ساعات رجعت. وقد كان قد فرض منع تجوّل (كانوا يفتشون عن قاتل «برنادوت»). مع كلّ قدم تقدمتها أوقفني رجال الشرطة. . . وسألوني عن تصريحي بأن اخرج إلى الشوارع في وقت منع التجوّل. هو، ابني القتيل، كان تصريحي الوحيد. سمح لي رجال الشرطة بأن أدخل إلى غرفة الموتى. أحضرت معي لحافا، حركت الحجر وأبعدته جانبا: لم استطع أن أرى رأسه الرائع ملقى على حجر. قمت بذلك حتى عادوا «هم» وقد اخذوا يطردونني مرة أخرى. قالوا بأنه يحظر عليّ أن ألمسه، لم انصع لأوامرهم. تابعت أحتضنه وأقبله، أحتضن وأقبل كنزي. هدّدوني بأنهم سيغلقون الباب ويبقونني في الداخل معه، مع خلاصة حياتي. وهذا كلّ ما أردته أنا [أن يذهبوا ويغلقوا عليّ الغرفة معه]. عندها غيّروا رأيهم وهددوني باستدعاء الجنود. لم أجفل. . . في المرة الثانية خرجت من غرفة الموتى. قبل خروجي حضنته وقبلته. في صباح اليوم التالي جئت إليه مرة أخرى، إلى ابني. . . عدت واحتضنته وقبلته، مرة أخرى صليت للرب، الرّبّ المنتقم، انتقام طفلي، طردوني مرة أخرى. . . وعندما جئت في المرة التالية كان ابني الرائع ملاكي داخل تابوت مغلق ولكنني أتذكر وجهه وكل جسمه، أتذكر الكلّ أتذكره كله.[1]

---

(1) تسيرتا أبرامسكي، «من مذكرات امرأة من أيام الحصار في القدس ١٩٤٨»، ضمن كتاب «رسائل يعكوف- دافيد أبرامسكي»، أعادت إصداره وأضافت ملاحظات: شولا أبرامسكي، الناشر: سفريات بوعليم، تل أبيب، ١٩٩١، ص ٣١٠-٣١١. (المؤلف)

٤٧

امرأتان مبشّرتان من فنلندا سكنتا في شقة صغيرة في آخر شارع «هطوريم» الذي في حي «مكور باروخ» «آيلي هافاس» وَ«راوها مويسيو». العَمَّة «آيلي» والعَمَّة «راوها». حتى عندما كان الحديث يدور حول النقص في الخضراوات كانت كلتاهما تتكلمان بلغة عبرية توراتية عالية، لأنهما لم تعرفا لغة عبرية غيرها: إذا قرعتُ بابهما لأطلب منهما بأدب بعض الأخشاب الزائدة كي نستعملها لموقد «لاغ بعومير».[(١)]

كانت العَمَّة «آيلي» تقول بابتسامة حذرة، وهي تمد لي صندوقا عتيقا: ولمعان نار ملتهبة ليلاً![(٢)] وإذا نزلتا ضيفتين علينا في بيتنا لاحتساء كأس شاي وتبادل الحديث المثقف في حين كنت أنا أدير معركة ضدّ ملعقة زيت السمك كانت العَمَّة «راوها» ترى من المناسب أن تبدي ملاحظة: فترعشُ أمامه سمك البحر![(٣)].

أحياناً كنا نحن الثلاثة نأتي لزيارتهما في غرفتهما المتقشفة الّتي كانت

---

(١) هو عيد الشُّعلة عند اليهود. وهو اليوم الثالث والثلاثون من بدء إحصاء العومر فور عيد الفصح اليهودي في أيام العومر حتى هذا اليوم لا يجوز حسب التقاليد اليهودية الزواج أو الحلاقة، ويقع في السادس عشر من شهر أيار العبري وهو حسب التقاليد اليهودية يوم انتصار بار كوخفا على الرومان كما أنه يوم عيد ديني تقام فيه المهرجانات حول قبر الحاخام شمعون بار يوحاي في جبل الجرمق في الجليل. اعتبارا من هذا اليوم يسمح بالحلاقة وإقامة طقوس الزواج. (المترجم)

(٢) إشعيا، ٤ : ٥ (المترجم).

(٣) سفر حزقيال، ٣٨ : ٢٠ (المترجم).

تبدو كغرفة بنات في داخلية متواضعة من القرن التاسع عشر: سريران بسيطان من الحديد وقفا متوازيين، من جانبي طاولة خشبية مربّعة كانت مغطاة بشرشف سماوي من القطن وحولها ثلاثة كراسٍ غير منجدة. عند رأس كلّ واحد من السريرين التوأمين وقفت خزانة صغيرة عليها مصباح قراءة وكأس ماء وعدد من الكتب المقدسة بتجليد أسود. زوجان توأمان من الشباشب أطلا من تحت السريرين. في وسط الطاولة تقف بشكل ثابت مزهرية فيها أزهار متفتحة لأشواك نبتة بساط الأرض قطفت من السهول المجاورة. تمثال للمسيح المصلوب محفور على خشب من شجر الزيتون، كان معلقا وسط الحائط بين السريرين. وعند أسفل السريرين كان لكلّ منهما صندوق ملابس مصنوع من الخشب السميك واللامع لم نرَ مثله في القدس قالت عنه أمّي بأنه من خشب السنديان وقد حثّتني على لمسه بأصابعي وعلى تحسسه بباطن يدي: كانت أمّي تصرّ، دائماً، على عدم الاكتفاء بمعرفة الأسماء المختلفة للحاجيات بل من المفضّل التعرف عليها بشمها ولمْسها لمسة خفيفة بطرف اللسان، وتحسّسها بأطراف الأصابع، من المفضل التعرف على حرارة الحاجيات وملاستها، ورائحتها، وخشونتها وصلابتها، والرنين الذي يصدر عنها عندما تدق عليها، وكل ما كانت أمّي معتادة على تسميته «تجاوب» وَ«رفض»: لكلّ مادة هكذا قالت، لكلّ قطعة ملابس أو أثاث أو إناء أو طعام لكلّ غرض توجد درجات مختلفة من التجاوب والرفض، وهذه الدرجات ليست ثابتة بل من الممكن أن تتغيّر بحسب فصول السنة، وبحسب ساعات اليوم (إذ يوجد رفض وتجاوب خاصّ بالنهار ويوجد رفض وتجاوب خاصّ بالليل)، وبحسب من يلمس أو يشمّ وبحسب الضوء والظلّ وكذلك بحسب ميول غامضة لا نملك طريقة لفهمها: ليس من قبيل الصدفة أن كلّ جسم جامد يسمّى باللغة العبرية «غَرَضاً» ليس لنا وحدنا يوجد أو لا يوجد غرض بهذا الشيء أو ذاك، تنطوي الجوامد والنباتات على حاسّة- غرض داخلية، وجود غرض أو عدم وجود غرض ليس خاصّاً بنا بل خاصّاً بها، ومن يعرف كيف يتحسّس ويصغي ويتذوّق ويشمّ بطريقة غير شهوانية وغير جشعة، هو وحده الذي يستطيع أحياناً أن يستوعب.

لاحظ أبي علي هذا متهكّما:

«تتفوق أمّنا حتى على سليمان الحكيم: الذي يروي عنه المدراش بأنه عرف لغة جميع الحيوانات والطيور، وها هي أمنا خبيرة حتى في لغة المنشفة والطنجرة والفرشاة.»

ثمّ أضاف ووجهه يضيء من شدة اللّسع الساخر:

«إنّها حقّاً تثير بلمستها الأشجار والحجارة فتتكلّم: «المَس الجبال فتدخّن»، هكذا مكتوب في سفر المزامير».[1]

قالت العَمَّة «راوها»:

«كما قال النبي يوئيل[2]، «أن الجبال تقطر عصيراً والتلال تفيض لبناً» وكما ورد في المَزمور التاسع والعشرين من سفر المزامير(٩)، «صوت الرّبّ يُوَلّدُ الأيّل»»،

قال أبي:

«ولكن من فم من ليس شاعرا مثل هذه الأقوال من المحتمل أن تبدو، كيف أعبر عن ذلك، تأنّقاً؟ وكأن الشخص يحاول بالقوة أن يبدو عميقا جدّاً؟ أن يبدو باطنيّاً- صوفيّاً جدّاً؟ أن يبدو متهلوساً؟ يحاول أن يُوَلّدُ الأيّل؟ سأشرح فوراً معنى هذه الكلمات القاسية، باطني - صوفي ومتهلوس. من ورائها تكمن رغبة بيّنة ربما أنها غير صحيّة، رغبة في أن تضفي غموضا على الواقع، أن تخفت نور المنطق وأن تموّه جميع التعريفات والخلط بين المجالات.»

قالت أمّي:

«آريه؟»

ووالدي بمحاولة ترضية (إذ حقّاً كان يستمتع بالتهكم عليها و«قرصها» قليلا، وحتى أن يظهر أحياناً شرارة شماتة أو تشفٍّ، ولكنه كان يستمتع أكثر في التراجع عما قال والاعتذار تماماً مثل والده، مثل جدّي «ألِكْسَنْدِر»):

---

(١) ١٤٤: ٥ (المترجم).

(٢) ٤: ١٨ (المترجم)

«هيا كفى يا فانيتشكا. خلص انتهينا. كنت أمزح قليلا فقط ؟»

*

خلال أيام الحصار المفروض على القدس لم تترك المبشرتان المدينة: كان عندهما شعور قوي بالرسالة الّتي تحملانها. وكان المخلّص نفسه قد ألقى على عاتقيهما مهمة تشجيع المحاصرين ورفع معنوياتهم وتقديم المساعدة لهم، كمتطوعتين في العناية بجرحى المعارك والقصف في مستشفى «شعري تسيدك». كانتا تعتقدان، بأنه على ما فعله هتلر لليهود يجب على كلّ إنسان مسيحي أن يحاول أن يكفر بالقول والعمل. إقامة دولة إسرائيل كانت في نظرهما مثل إصبع الرّبّ (قالت العَمَّة «راوها» بلغتها التوراتية وبلهجتها الفنلندية القاسية والخشنة مثل الحصى التي تميل إلى نبرة غريبة تجعلها في أول الكلمة: «إن ذلك يشبه ظهور قوس قزح في السحاب بعد الطوفان.» أما العَمَّة «آيلي» بابتسامة خفيفة لا تعدو عن كونها تقلّصا خفيفا في زاوية فمها فقالت: «لأنّ الرّبّ ندم على كلّ ذلك الشرّ العظيم - ولن يعود ليهلكهم.»

في الهدوء بين القصف والقصف التالي كانتا تتجولان في الحي بأحذية عالية مع منديل على الرأس تحملان سلة كبيرة مصنوعة من قماش الأكياس الرمادي وتمنحان كلّ من يقبل منهما مرطبانا مملوءا بالخيار المكبوس، أو أنصاف رؤوس بصل، أو قطعة صابون أو زوجا من الجوارب الصوفية، أو قطعة فجل أو قليلا من الفلفل الأسود. من يدري كيف وصلت إليهما هذه الثروة. من بين المتدينين كان من يرفض باشمئزاز هذه الهدايا التبشيرية، وكان هناك من طردوهما موبّخين لهما كلما اقتربتا من مداخل بيوتهم، وكان هناك من أخذوا منهما الهدية ولكنهم بعد أن أدارت العَمَّة «آيلي» وَ العَمَّة «راوها» ظهريهما كانوا يبصقون سراً على التراب الذي داست عليه أقدام المبشرتين.

لم تشعرا بالإهانة: كانتا دائماً تتواسيان بأقوال الأنبياء الغنية بالمواساة الّتي كانت تبدو لنا غريبة ومثيرة للدهشة بسبب لهجتهما الفنلندية الغريبة الّتي سمعت مثل وقع حذاءيهما الثقيلين عندما كانتا تدوسان على الحصى:

«وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها.»[1] «ولن يأتي عدو ومن يخيف بوابات هذه المدينة.» «ما أجمل على الجبال قدمي المبشّر المخبر بالسلام المبشر بالخير... لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس...»[2] وكذلك: «أما أنت فلا تخف يا عبدي يعقوب فلا تخف لأني أنا معك لأني أفني كلّ الأمم الذين بددتك إليهم...»[3]

*

أحياناً كانت إحداهما تتطوع للوقوف بدلا منا في الدور لتوزيع المياه الّتي كانت توزّع علينا بواسطة شاحنة صهريج في أيام الأسبوع الفردية باستثناء يوم السبت، بمقدار نصف دلو للعائلة، هذا إذا لم يخترق الرصاص أو شظايا القذائف جوانب الصهريج قبل أن تصل الشاحنة إلى شارعنا. كما كانت إحداهما تمرّ بين أكواخ قبو بيتنا الذي سُدّت شبابيكه بأكياس الرمل وتوزّع للسكان المحاصرين الذي نزلوا ببيتنا نصف قرص «فيتامين مخلوط» لكلّ فرد. الأولاد كانوا يحصلون على قرص كامل. من أين حصلت المبشّرتان على جميع هذه الهدايا العجيبة؟ ومن أين ملأتا سلتيهما الكبيرة؟ الّتي كانت مصنوعة من القماش الرمادي الذي تصنع منه الأكياس؟ كان هناك من قالوا كذا وكان هناك من قالوا شيئا آخر وكان هناك من حذّرنا من أن نأخذ منهما أيّ شيء لأنّ هدفهما كان أن تستغلا ضائقتنا وتروّجا لمسيحهما».

ذات مرة تشجعت وتجرأت وسألت العَمَّة «آيلي» مع أنني أعرف الجواب، سألتها من كان يسوع؟ ارتعدت زوايا شفتيها قليلا عندما أجابتني بتردد بأنه ما «كان» بل هو موجود الآن وهو يحبنا كلنا ويحب بالذات أولئك الذين يحتقرونه ويسخرون منه، وإذا ملأت قلبي بالمحبة فإنّه سيأتي ويسكن داخل قلبي وسيحضر لي الآلام والسعادة العظيمة ومن خلال الآلام ستشرق السعادة.

---

(١) إشعيا، ٣٧: ٣٥ (المترجم).

(٢) (إشعيا ٥٢ (المترجم).

(٣) (ارميا ٤٦ : ٢٨ (المترجم).

كم بدت لي هذه الأقوال غريبة ومليئة بالتناقضات، حتى شعرت أنه من الضروري أن أسأل والدي أيضاً. امسك أبي بيدي وأخذني إلى الفرشة الّتي على مسطبة المطبخ، زاوية ملجأ «العمّ يوسف»، وطلب من المؤلف الجليل لكتاب «يسوع الناصري» أن يشرح لي من وماذا كان يسوع، «على رجل واحدة» أي بإيجاز.

لم يقف «العَمّ يوسف» على رجل واحدة بل بقي مضجعا رابضا في مكانه متعبا، حزينا وشاحبا، على طرف الفرشة مسندا ظهره إلى الحائط السُّخامي، نظارته مرفوعة على جبينه. كان جوابه مختلفا كلّ الاختلاف عن جواب العَمَّة «آيلي»: في نظره كان يسوع الناصريّ «من كبار شعب إسرائيل في جميع الأجيال، صاحب أخلاق رائعة الذي مقت الأنجاس وناضل من أجل أن يعيد إلى اليهودية بساطتها الأصلية وتخليصها من أيدي حاخامات كثيري الكلام والتنظير».

لم أدرِ من كانوا الأنجاس ومن كانوا كثيري الكلام والتنظير. كما لم أدرِ كيف ألائم بين يسوع «العمّ يوسف» يسوع الذي يمقت ويناضل من أجل الخلاص وبين يسوع العَمَّة «آيلي» الذي لم يمقت ولم يناضل ولم يخلّص بل على العكس تماماً، أحبّ وبالذات الخطاة وبالذات أولئك الذين يحتقرونه ويسخرون منه.

*

في حقيبة قديمة وجدت رسالة كتبتها لي العَمَّة «راوها» من «هلسِنكي» في سنة ١٩٧٩، باسمها وباسم العَمَّة «آيلي». الرسالة كتبت باللغة العبرية ومن بين ما جاء فيها:

. . .لقد فرحنا نحن أيضاً أنكم فزتم في مسابقة الأغنية الأوروبية «الأوروفزيون». وكيف الأغنية؟

المؤمنون هنا فرحوا أنهم من إسرائيل، غنوا «هللويا!» لا توجد أغنية مناسبة أكثر. . . استطعت أيضاً أن أرى فيلم «الهولوكوست» الذي ادمع العيون وسبب ألما في ضمير الدول، الّتي لاحقت وطاردت بلا هوادة، ودون

وعي. يجب على الشعوب المسيحية أن تطلب المسامحة من اليهود. قال والدك ذات مرة، بأنه لا يستطيع أن يفهم لماذا وافق الرّبّ على مثل هذه الفظائع... قلت له بأن أسرار الرّبّ في السماء. يسوع يتألّم مع شعب إسرائيل في كلّ ما يصيبه من آلام. على المؤمنين أيضاً أن يتحملوا نصيبهم من آلام يسوع الّتي تركها لهم ليعانوا منها... تكفير المسيح على الصليب تشمل مع ذلك كلّ خطايا العالم، كلّ خطايا البشر. ولكن لا يمكن أن نعي ذلك بالعقل ولا مرة... كان هناك نازيون أصيبوا بوخز ضمير وتابوا قبل وفاتهم. ولكنّ اليهود الذين قتلوا لم يعودوا إلى الحياة بسبب توبة هؤلاء النازيين. نحن جميعا بحاجة إلى التكفير والإحسان يوم الدين. يقول يسوع: «وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا،».[1] هذه الرسالة ابعثها أنا والعَمَّة «آيلي». لقد وقعت قبل ستة أسابيع داخل حافلة وأصبت في ظهري والعَمَّة «آيلي» لا ترى جيدا. مع حبنا، «راوها مويسيو».

وعندما جئت ذات مرة إلى هلسينكي (بمناسبة ترجمة أحد كتبي إلى اللغة الفنلنديّة)، ظهرت كلتاهما في كافتيريا الفندق، تلتف كلّ منهما بشال غامق اللون يغطي رأسها وكتفيها مثل قرويتين عجوزين. العَمَّة «راوها» تستند على عكاز وتمسك بلطف بيد العَمَّة «آيلي» الّتي تكاد تكون عمياء، ساندتها وسحبتها برقة إلى طاولة جانبية. أصرت كلّ منهما على حقها في أن تقبلني على خدّيّ وأن تباركني. بصعوبة جمة وافقتا على أن تسمحا لي بأن اطلب لكلّ منهما فنجان شاي «ولكن بدون أيّ إضافات، من فضلك!».

ابتسمت العَمَّة «آيلي» قليلا، ليست ابتسامة تماماً بل رجفة خفيفة في طرفي شفتيها، أرادت أن تقول شيئا ثمّ تراجعت، وضعت قبضة يدها اليمنى داخل راحة يدها اليسرى كمن تحفظ طفلا، هزّت رأسها عدة مرات كمن تندب وأخيرا قالت:

«تبارك الله في عُلاه أن حظينا برؤيتك هنا في بلادنا، ولكنني لا افهم

---

(١) (متى ٢٨:١٠) (المترجم).

لماذا لم يحظ والداك العزيزان أن يكونا بين الأحياء؟ ولكن من أنا حتى أدرك؟ الجواب عند الله. لنا فقط أن نعجب ونندهش. من فضلك ربما تسمح لي أن أتحسس، معذرة، وجهك الغالي؟ وذلك فقط بسبب عينيّ اللتين انطفأتا؟»

قالت العَمَّة «راوها» عن والدي: «رحمه الله، كان أغلى الناس! كان صاحب نفس أصيلة! نفس إنسانية شاملة!» أما عن أمّي فقالت: «نفس ذات معاناة، عليها السلام. ذات معاناة كبيرة، لأنها كانت تنظر إلى قلوب البشر، وما كانت تراه لم يكن من السهل عليها أن تتحمله. يقول النبي ارميا،[1] «اَلْقَلْبُ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ، مَنْ يَعْرِفُهُ؟»».

*

في الخارج في هلسينكي نزل مطر خفيف كان مخلوطا ببعض فتات الثلج. ضوء النهار كان منخفضا ومعكرا، والفتات الذي ذاب قبل أن يصل الأرض لم يكن أبيض بل رمادياً. المرأتان العجوزان ارتديتا فستانين غامقي اللون ومتماثلين تقريبا مع جوارب بُنيّة سميكة، مثل طالبتين في داخلية محتشمة. ومن كلتيهما، عندما قبلتهما، فاحت رائحة صابون حمام بسيط وكذلك رائحة خفيفة لخبز أسود ورائحة نوم الليل. مر بالقرب منا مسرعا رجلُ صيانة صغير وفي جيب قميصه بطارية كاملة من أقلام الحبر وأقلام الرصاص. من داخل سلة كانت بين رجلي الطاولة سحبت العَمَّة «راوها» رزمة صغيرة ملفوفة بورق بني وقدّمت إليّ. وفجأة عرفت السلة: كانت تلك نفس السلة المصنوعة من القماش الرمادي الذي تصنع منه الأكياس، الذي كانت العَمَّة «راوها» وَالعَمَّة «آيلي» في أيام الحصار في القدس قبل ثلاثين سنة من زيارتي إلى هلسينكي، تخرجان منها وتوزعان علينا جميعا قطعا صغيرة من الصابون، أو جوارب الصوف، أو القرشلّة أو الشموع أو فلقة فجل أو علبة، من مسحوق الحليب كانت نادرة الوجود جدّاً تلك الأيام.

---

(١) (١٧ : ٩) (المترجم).

فتحت الرزمة وإذا فيها بالإضافة إلى الكتاب المقدس المطبوع في القدس باللغتين العبرية والفنلندية صفحة قبالة صفحة، وبالإضافة إلى علبة موسيقى صغيرة جدّاً مصنوعة من الخشب المدهون مع غطاء نحاسيّ، وجدت مجموعة كبيرة من الأزهار البرية المجفّفة: أزهار فنلندية غريبة كانت جميلة جدّاً حتى وهي ميتة، أزهار لم أعرف أسماءها ولم أرَ مثلها من قبل حتى ذلك الصباح.

«لقد أحببنا كثيرا،» قالت العَمَّة «آيلي» وعيناها اللتان لا تريان بحثتا عن عيني، «جدّاً جدّاً أحببنا والديك العزيزين. لم تكن حياتهما سهلة فوق الأرض، كما أنهما لم يحسن كلّ منهما، دائماً، إلى زوجه. كان يخيم بينهما، أحياناً، ظل ثقيل. أما الآن وكلاهما، في نهاية كلّ نهاية، موجودان تحت كنف الحضرة الالهية، فإنّ يسود بينهما، بلا شك الإحسان والحق، مثل طفلين بريئين، لم يعرفا التفكير بالإثم، ولم يعرفا إلا النور والحب والشفقة بينهما طوال الوقت، يساره تحت رأسها ويمينها تحتضنه، وقد زال عنهما منذ أمد ذلك الظل الثقيل.»

*

أنا، من جهتي، أردت أن أعطي للعمتين هدية نسختين من كتابي المترجم إلى لغتهما، إلا أن العَمَّة «راوها» رفضت أن تأخذ: كتاب عبري، قالت، كتاب عن مدينة القدس والذي كتب في مدينة القدس فإنّه يتوجب علينا أن نقرأه، رجاء، باللغة العبرية وليس بأي لغة أخرى! وبالإضافة إلى ذلك، فقد اعتذرت مبتسمة، حقّاً إنّ العَمَّة «آيلي» لا تستطيع أن تقرأ أيّ شيء لأنّ الله أخذ ما تبقى لها من نور عينيها. أنا وحدي ما زلت اقرأ على مسامعها، في الصباح وفي المساء، من العهد القديم ومن العهد الجديد ومن كتاب صلواتنا ومن كتب القديسين، مع أنّ عينيّ أيضاً بدأتا تظلمان وعما قريب سنصبح كلتانا عجوزين ضريرتين.

وعندما لا اقرأ لها وعندما لا تصغي إليّ العَمَّة «آيلي» عندها نجلس كلتانا امام الشباك وننظر عبر الزجاج إلى الأشجار والعصافير، والثلوج

والرياح في الصباح وفي المساء ضوء النهار وضوء الليل، ونحن كلتانا نحمد بتواضع جمّ الله ذا الإحسان والإكرام على عطفه وإحسانه وعلى كلّ عجائبه ومعجزاته: لتكن مشيئته في السماء والأرض. أنت أيضاً ربما ترى أحياناً في ساعات استراحتك، كم تمتلئ السماء والأرض والأشجار والحجارة، الحقول والغابات كلها ككل واحد مليئة بالمعجزات الكثيرة؟ كلها كنجم واحد تضيء وتشع وكلها كشخص واحد تشهد كشهادة ألف شاهد على عظمة الإحسان.

٤٨

وفي الشتاء الذي بين سنة ٤٨ وَسنة ٤٩ انتهت تلك الحرب. وقعت إسرائيل والدول المجاورة على اتفاقية الهدنة بينهما، في البداية مع مصر تلتها مملكة شرقي الأردن وأخيرا سوريا ولبنان أيضاً. العراق من جهتها سحبت قواتها العسكرية الّتي عملت خارج حدود العراق دون أن توقّع على أيّ وثيقة. على الرغم من كلّ هذه الاتفاقيات استمرت الدول العربية تصرّح بأنها ستقوم ذات يوم بـ«جولة ثانية» من الحرب بهدف وضع نهاية للدولة الّتي رفضوا الاعتراف بها، وأعلنوا أن مجرد وجودها هو بمثابة عدوان مستمر وسمّوها «الدولة المزعومة».

في القدس اجتمع، عدة مرات، القائد الأردني الملازم عبدالله التلّ والقائد الإسرائيلي المقدّم موشيه ديّان، من أجل ترسيم خط الحدود بين شطري المدينة والاتفاق على ترتيبات مرور القوافل إلى الحرم الجامعي على جبل المشارف الذي بقي كمنطقة إسرائيلية معزولة داخل الأراضي الّتي تحت سيطرة جيش شرقي الأردن. أقيمت أسوار عالية من الأسمنت على طول الخط، من أجل سدّ الشوارع الّتي تبدأ في القدس الإسرائيلية وتستمر في القدس العربية. هنا وهناك أقيمت حيطان من الصفيح لكي تعزل السابلة في الجزء الغربي عن عيون القناصة الذين كانوا على أسطح المنازل في المدينة الشرقية. قطاع محصّن بالاسلاك الشائكة وحقول الألغام واستحكامات إطلاق النار ونقاط مراقبة واستطلاع كانت تشق المدينة على طولها من الشمال إلى الجنوب. هذا القطاع سدّ على المدينة الإسرائيلية من الشمال ومن الشرق

ومن الجنوب. لم يبقَ مفتوحا سوى الجانب الغربي، وشارع واحد ووحيد متعرج يربط بين القدس وبين تل أبيب وسائر أجزاء الدولة الجديدة. إلا أن مقطعا من هذا الشارع الوحيد بقي تحت سيطرة قوات شرقي الأردن، وكانت هناك حاجة إلى تعبيد طريق التفافي يوضع بجانبه خط أنابيب مياه جديد، بدلا من الخط الموجود من أيام الانتداب البريطاني والذي تهدمت أجزاء منه وبدلا من محطة الضخّ الّتي ظلت تحت السيادة العربية. الطريق الالتفافي سمي «طريق بورما». بعد ذلك بسنة أو سنتين تمّ تعبيد طريق التفافي جديد سمي «شارع البطولة».

كلّ شيء في الدولة الشابّة تقريبا في تلك الأيام حمل أسماء من سقطوا في الحرب أو حمل اسم البطولة أو اسم الكفاح والهجرة وتحقيق الصهيونية. كان الإسرائيليون فخورين ومعتزّين جدّاً بانتصارهم ومعتصمين في صدق قضيتهم وبمشاعر تفوّقهم الأخلاقي. في تلك الأيام لم يفكروا كثيرا في مصير مئات الآلاف من المهجَّرين واللاجئين الفلسطينيين الذين هرب الكثير منهم وطرد الكثيرون منهم من المدن والقرى الّتي احتلها الجيش الإسرائيلي.

قالوا عندنا بأن الحرب بالطبع شيء سيئ ومر ومليء بالمعاناة ولكن من قال للعرب أن يخوضوها؟ نحن من جانبنا قبلنا تسوية التقسيم الذي أقرته الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، والعرب هم الذين رفضوا كلّ تسوية وهبوا لكي يذبحونا كلنا. إضافة إلى ذلك، يعلم الجميع أن الكثيرين هم ضحايا الحروب، ففي جميع أرجاء أوروبا ما زال ملايين اللاجئين من ضحايا الحرب العالمية الثانية يتنقلون من مكان إلى آخر، إذ تمّ تهجير جميع السكان في مناطق معينة وزرع مكانهم سكان آخرون، أما باكستان والهند الدولتان اللتان قامتا مؤخرا تبادلتا فيما بينهما ملايين المواطنين، ونفس الشيء فعلته اليونان وتركيا. ونحن فقدنا ربع الحي اليهودي في البلدة القديمة من مدينة القدس وفقدنا «جوش عتصيون» وخسرنا «كفار دروم» وَ«عطروت» وَ«كاليا» وَ«نفيه يعكوف»، تماماً كما خسروا هم يافا والرملة ولفتا والمالحة وعين كارم. بدلا من مئات آلاف العرب الذين هجّروا جاء آلاف اللاجئين اليهود الملاحقين من الدول العربية. وقد حذروا من استعمال كلمة «طردوا».

المجزرة الّتي كانت في دير ياسين نُسبت إلى «عناصر متطرفة وغير مسئولة».

ستار من الأسمنت فصل بيننا وبين حي الشيخ جراح وبقية الأحياء العربية في القدس.

من سقف بيتنا كنت أُطل على مآذن شعفاط وبيدو ورام الله، على البرج الوحداني على رأس جبل النبي صموئيل، وعلى مدرسة الشرطة (الّتي منها أطلق قناص أردنيّ رصاصة قتل بها «يوني أبرامسكي» عندما كان يلعب في ساحة بيته). وعلى جبل المشارف المعزول وعلى جبل الزيتون اللذين كانا تحت سيطرة قوات مملكة شرقي الأردن وعلى أسقف منازل حي الشيخ جراح والمستعمرة الأمريكية.

ربما تخيلت أنني أميّز من هناك، بين قمم الأشجار الكثيفة، زاوية سقف فيلا سلواني. اعتقدت أن مصيرهم أفضل بكثير من مصيرنا: فهم لم يقصفوا عدة أشهر طويلة بالمدافع، ولم يجوّعوهم ولم يعطشوهم، لم يجبروهم على النوم على فرشات في أقبية نتنة. ومع كلّ ذلك أخاطبهم بيني وبين نفسي بين الحين والآخر. تماماً مثل مصلّح الدُمى السّيّد «غوستاف كروخمال» من شارع «جيئولا»، اشتقت إلى ارتداء ملابس السبت والخروج إليهم على رأس بعثة سلام ومصالحة ولأثبت لهم عدالة قضيتنا، وأن اعتذر وأقبل اعتذارهم، وأن يكرموني بحلويات قشور البرتقال المكسوة بالسّكر، وأن استعرض عفونا ونفوسنا الكبيرة، وأن أوقّع معهم على اتفاقية سلام وصداقة وتعامل أخلاقي واحترام متبادل، وربما أن أثبت أيضاً لعائشة ولأخيها ولجميع أفراد عائلة سلواني بأنني لست الوحيد المتهم الذي يتحمل المسئولية عن الحادث الذي كان أو أنه لم يكن بسببي وحدي فقط.

أحياناً، قبيل الصباح، كنا نستيقظ على صوت صليات مدفع رشاش من جهة خط الهدنة، على بعد كيلومتر ونصف عن بيتنا، أو على صوت نداء المؤذن من خلف الحدود الجديدة: مثل النحيب الذي يتسمر له الشعر تغلْغل صوت ندائه وتسبيحه الصارم الذي كان يشقّ الهواء ويروّع نومنا.

*

خلت دارنا من كلّ من لجؤوا إليها طلبا للحماية: الجاران «روزندورف»

عادا إلى بيتهما، إلى الطابق الذي فوق شقتنا. العجوز الّتي تحدّق في الفضاء وبنتها جمعتا فراشهما في كيس من قماش الـ«يوتا» واختفيتا. كما ذهبت أيضاً «جيتا ميودوفنيك» أرملة «متتياهو ميودوفنيك» مؤلف كتاب التدريس «الحساب لطلاب الصف الثالث»، ذلك الرجل الذي تعرّف والدي على جثته المحطمة في غرفة الموتى بناء على الجوربين اللذين كان والدي نفسه قد أعاره إياهما في صبيحة اليوم الذي مات فيه. والعم «يوسف» مع سلفته «حايا إليتسيدك» عادا إلى بيت «كْلاوزْنِر» في حي «تَلْبِيوت»، ذلك البيت الذي فوق بابه كتبت بحروف نحاسية الكلمات «يهودية وإنسانية». كان عليهما أن يصلّحا البيت الذي تضرّر بسبب الحرب. طوال أسابيع كثيرة ندب البروفيسور العجوز بصوت حزين وكئيب آلاف الكتب الّتي أخرجت من مكانها على الرفوف والقي بها على أرضية الغرفة أو استعملت كمتاريس وكواقٍ من الرصاص في شبابيك بيت «كْلاوزْنِر» الذي تحوّل إلى استحكام ونقطة إطلاق نار. كما أن الابن الضائع «أريئل إليتسيدك» وجد سليما معافى بعد الحرب، ولكنه كان يجادل طوال الوقت ويحقّر بكلمات قاسية «بن غوريون» اللعين الذي كان بإمكانه أن يحرر البلدة القديمة والحرم المقدسي ولم يحررهما، كان بإمكانه أن يصد العرب كلهم ويعيدهم إلى الدول العربية ولكنه لم يصدّهم، وكل ذلك لأنّ الاشتراكية المسالمة والتولستويية النباتية أعمت قلبه وقلوب زملائه في القيادة الحمراء الّتي وقعت دولتنا الغالية بين أيديهم. عما قريب، هكذا كان يعتقد، ستقوم قيادة جديدة مختلفة، قيادة وطنية منتصبة القامة، وسينطلق جيشنا ليحرر أخيرا جميع أجزاء الوطن من نير المحتلّ العربي.

لكن غالبية المقدسيين لم ترغب نفوسهم بأي حرب إضافيّة ولم ينشغلوا بمصير حائط المبكى ولا بالشوق إلى قبر راحيل، اللذين اختفيا وراء ستار من حيطان الأسمنت وحقول الألغام. لعقت المدينة المحطّمة جروحها. طوابير رمادية طويلة امتدت كلّ أيام ذلك الشتاء والربيع والصيف الذي تلاه، أمام الحوانيت وبسطات الخضراوات ودكاكين القصابين. جاءت أيام التقشّف: طوابير اصطفت وراء عربة موزّع الثلج وطوابير أخرى وراء عربة موزّع النفط. حصص الأغذية وزّعت بحسب بطاقات من دفاتر المؤن. البيض والقليل من

لحم الدجاج خصّصا للأولاد والمرضى الذين يحملون تقارير طبية. الحليب بيع بالمكيال، الخضراوات والفواكه لم تظهر تقريبا في القدس. الزيت والسكر والجريش والطحين ظهرت على التناوب مرة في الشهر أو مرة كلّ أسبوعين. إذا أردت أن تشتري قطعة ملابس جديدة أو حذاء أو قطعة أثاث اضطررت إلى استعمال الكوبونات من دفتر البطاقات الذي كان يتقلص باستمرار. الأحذية كانت تصنع من بدائل للجلد، ونعالها كانت ضعيفة وكأنها مصنوعة من الكرتون. الأثاث كان يسمى «أثاث الجميع» وجودته كانت بائسة. بدلا من القهوة شربوا بدائل القهوة (من الحبوب -الشوفان- المحمصة) أو من جذور نبتة العلت المحمّصة. بدلا من الحليب والبيض استعملوا مسحوق الحليب ومسحوق البيض. وطوال الوقت كنا نأكل فيليه- البَقَلَة المجمّد الذي أصبحنا كلنا نكره مذاقه يوما بعد يوم. تلال من أسماك البَقَلَة المجمدة الّتي اشترتها الحكومة الجديدة بأسعار بخسة من فائض صيد النرويج.

كما أن الخروج من القدس إلى تل أبيب وإلى باقي أنحاء البلاد كان ينطوي، في الأشهر الأولى بعد الحرب، على الحصول على تصاريح خاصّة من السلطات المختصّة. ولكن الكثير من النشيطين الحاذقين، وكل من كان يملك بعض المال، وعرف الطريق إلى السوق السوداء، ومن كانت له علاقات مع السلطات الجديدة، كلّ هؤلاء لم يشعروا، تقريبا، بالنقص. وأنواع مختلفة من الأشخاص الأقوياء انقضوا واستولوا على بيوت وشقق في الأحياء العربية الغنية الّتي هرب سكانها أو طُردوا أو في المناطق المعلقة الّتي سكنها حتى الحرب عائلات الجيش ورجال السلطة البريطانيين: «القطمون» وَ «طلبية» وَ «البقعة» وَ«أبو ثور» وَ «المستوطنة الألمانية». بينما بيوت العرب الفقراء في «المصرارة» وَ«لفتا» وَ«المالحة» فقد استولت عليها عائلات من اليهود الفقراء الذين هربوا من الدول العربية. أقيم في «تَلْبِيوت»، وفي «معسكر ألَنبي» وفي «بيت مزميل» الكثير من الـ«معبروت» المبنية من الصفيح والخشب، بدون شبكات كهرباء وماء ومجارٍ. في الشتاء تحوّلت الطرقات بين سقائف الصاج إلى وحل لزج كما أن البرد «خرّ» في العظام. محاسبون

من العراق، وصائغو - ذهب من اليمن، وتجار متجولون من المغرب وَسَاعَاتِيّون من بوخارست حُشروا جميعاً في هذه السقائف ومقابل أجر زهيد تم تشغيلهم في أعمال جمع الحجارة من الأراضي وأعمال التحريج التي بادرت إليها الحكومة في سفوح جبال القدس.

مضت وانقضت «سنوات البطولة» سنوات الحرب العالمية، قتل الشعب اليهودي في أوروبا، المقاتلون مع العصابات، التجنّد الشعبي للجيش البريطاني ولـ«البريغادا»، السرية اليهودية التي أقامتها بريطانيا من أجل محاربة النازيين، سنوات مقاومة البريطانيين، المنظمات السريّة، الهجرة غير القانونية، الاستيطان بطريقة «حوماه ومجدال» (السور والبرج)، حرب الموت أو الحياة ضد الفلسطينيين وضد الجيوش النظامية لخمس دول عربية.

حاليا، مع انتهاء هذه «السنوات السامية»، حل علينا فجأة «صباح اليوم التالي»: رمادياً، كئيباً، رطباً وبخيلاً وتافهاً (حاولت رسم مذاق «صباح اليوم التالي» هذا في روايتي «ميخائيلي». كانت تلك سنوات شفرات الحلاقة غير الحادّة من إنتاج «أوكافا» ومعجون الأسنان الذي لا طعم له من إنتاج «شنهاف»، وسجائر «كنيست» النتنة وصراخات «نحميا بن أفراهام» وَ«أَلِكْسَنْدِر أَلِكْسَنْدِروني» في «صوت إسرائيل»، زيت السمك ودفاتر كوبونات المؤن وَألغاز «شموليك روزين» وَالتعليق السياسي لـ«موشيه مدزيني»، وَعبرنة أسماء العائلة والتقنين في المواد الغذائية وأعمال الطوارئ والطوابير الّتي تمتد أمام حوانيت البقالة، خزائن هواء في المطابخ والسردين الرخيص واللحوم المعلّبة من إنتاج «إينكودا»، لجنة الهدنة المشتركة الإسرائيلية الأردنية، والمتسللون العرب من خلف خطوط الهدنة، مسارح «أوهل» وَ«هبيما» وَ«دو- ري- مي» وَ«التشزبترون»، «دجيكن وشوماخر» وَ«بوابة مندلباوم» وَ«العمليات الانتقامية»، وَ«غسل شعر الأولاد بالنفط» للقضاء على القمل، وَ«يد لمعبراة» وَ«الأموال المتروكة» وَ«كيرن همجين» وَ«الأرض الحرام» وَ«دماؤنا لن تكون مهدورة».

*

وأنا عدت إلى الذهاب في كلّ صباح إلى المدرسة الدينية للبنين

«تَحْكيموني» الواقعة في شارع «تَحْكيموني». الأولاد الفقراء كانوا يتعلمون هناك، أولاد ممن اعتادوا تقبّل الصفعات على خدودهم من أبناء الحرفيين والعمال والتجار الصغار، أبناء لعائلات كثيرة الأولاد (ثمانية وعشرة أبناء)، كان بعضهم جائعا دائماً لقطعة الخبز الّتي معي، بعضهم حليقو الرأس، وكلنا نعتمر قَلَنْسُوَات مستديرة سوداء مائلة. كانوا يضايقونني عند حنفيات الشرب الّتي في الساحة، يرشقونني بالماء، لأنهم سرعان ما اكتشفوا بسهولة، بأنّني الابن الوحداني الوحيد بينهم، اضعف منهم، ويشعر بالإهانة بسرعة ويتضايق من كلّ دفعة أو إهانة. عندما كانوا يتسامون على أنفسهم ويخترعون إكراما لي مضايقات جديدة، كنت أحياناً أقف، لاهثا، وسط دائرة مبغضيّ الساخرين، مدحورا مخذولا مغبرا، نعجة بين سبعين ذئبا، وكنت ابدأ فجأة بضرب نفسي أمام أعدائي المندهشين المستغربين وأخدش نفسي بشيء من الهستيريا وأعض بكل قوتي لحم ذراعي حتى يظهر ما يشبه الساعة الدامية مكان العضة. كما فعلت أمّي مرتين أو ثلاث أمام ناظريّ عندما كان الوضع الصعب يصل ذروته.

لكن، كنت أحياناً اختلق لهم القصص المثيرة الجذابة واقصها عليهم في حلقات، مغامرات مثيرة وجذّابة على طريقة أفلام «الأكشن» الّتي كنا نذهب لمشاهدتها في دار السينما «أديسون» في القصص الّتي اختلقتها كنت أجمع، دون تردّد، بين «طرزان» مع «فلاش غوردون» وَ«نيك كارتر» مع «شارلوك هولمز» وعالمة الهنود الحمر ورعاة البقر لـ«كارل ماي» وَ«ماين ريد» مع «بن حور» ومع أسرار الفضاء الخارجي أو مع عصابات الإجرام من ضواحي مدينة نيويورك. وكنت أجذبهم واحكي لهم في كلّ استراحة مثلما فعلت شهرزاد الّتي كانت تؤجل بواسطة قصصها تنفيذ الحكم فيها، كنت أواصل الرواية وأقطعها في المكان الأكثر جاذبية وتوتّرا، بالضبط عندما كان يخيل بأن البطل على وشك الانتهاء حقّاً، الانتهاء تماماً وبدون أمل، والتكملة (الّتي لم أكن قد اختلقتها بعد) كنت أؤجلها بدون رأفة إلى يوم الغد.

هكذا كنت أتمشّى في الاستراحات في ساحة مدرسة «تَحْكيموني» مثل الرابي نحمن الذي كان يخرج إلى الحقول مع مجموعة من طلابه المتعطشين

لكلّ ما ينطق به، كنت أتمشّى هنا وهناك محاطاً بدائرة مكتظّة ممن يخشون أن يخسروا كلمة واحدة مما أقول ومن بينهم كان أيضاً أكابر مبغضيّ وملاحقيّ وأنا - مغمور حتى الفيضان بنهر كامل من مشاعر الجود والكرم - كنت أقرّبهم مني بشكل خاصّ، هم بالذات، كنت أدعوهم إلى الدائرة الداخلية جدّاً، حتى أنني أشير إلى احدهم بإشارة قوية حول تحوّل محتمل في أحداث القصة أو حول حدث تقشعر له الأبدان الذي سأحكيه في الفصول التالية غدا، وبذلك أحول الشخص الذي أشرت إليه إلى شخصية مطلوبة يمكنها أن تمنع أو أن تمنح، حسب رغبتها، إحساناً بحسب التسريبات غالية الثمن.

قصصي الأولى كانت مليئة بالمغاور والمتاهات والمدافن التحت أرضية الّتي تربط بينها شبكة من الطرقات، والغابات الكبيرة اللا نهائية، وأقبية الجرائم، وساحات القتال، والمجرّات الّتي تسكنها المسوخ ورجال الشرطة الشجعان والجنود المقاتلون بلا هوادة ولا خوف، مؤامرات وخيانات فظيعة ولكن أيضاً سعة صدر وكرم وفروسية تثير الدهشة، مغامرات تعود إلى عصر «الباروك» وتضحيات بالنفس والروح لا يمكن تخيّلها، ولفتات غنية بالمشاعر المليئة بالتنازل والعفو. من الشخصيات الرجالية في قصصي الأولية كانت على ما اذكر شخصيات من الأبطال والخسيسين. وكان فيها العديد من الخسيسين الذين تابوا وكفّروا عن ذنوبهم بأعمال بطولية وتضحيات كبيرة انتهت بموت الأبطال. وكان من بينهم «ساديّون» متعطشون للدماء، وكان هناك بعض المحتالين والخونة المنحطين، وكان هناك متواضعون يضحون بأنفسهم وهم يبتسمون. أما الشخصيات النسائيّة فقد كانت بالمقابل، جميعهن دون استثناء كلهن من الساميات المرموقات دائماً: يعانين ولكنهن يغمرن الآخرين بالحب. يتعذبن ويسامحن. معذّبات وحتى مهانات ولكنهن فخورات وطاهرات دوما. يدفعن الثمن كاملا على جنون الجنس الذكري ومع ذلك يغفرن ويسامحن، وتغمرهن مشاعر الحسن والمعروف والرأفة. كلهن.

ولكني إذا كنت أشدّ الحبل أكثر من اللازم وكذلك إذا كنت لا أشده بما فيه الكفاية فإنّه بعد عدة فصول أو في نهاية القصة وبالذات عندما كان الخير

ينتصر والشر يندحر وكان الإيثار يحقق في نهاية المطاف ما يستحق من الجزاء، عندها بالذات كان الشهرزادي المسكين يلقى به إلى عرين الأسود حيث يلاقي التنكيل والضرب المبرح والتوبيخ المرير: لماذا لا يسدّ فمه أبداً ولو للحظة؟

*

كانت مدرسة «تَحْكيموني» مدرسة للبنين. المعلمون أيضاً كانوا كلهم من الذكور. باستثناء ممرضة المدرسة لم تُرَ عندنا امرأة. الجريئون من الطلاب كانوا يتسلّقون أحياناً سور مدرسة البنات «لامل» لكي يتعرفوا بواسطة اختلاس النظر كيف هي الحياة خلف الستار الحديديّ: بنات بتنانير زرقاء طويلة وبقمصان ذات أكمام طويلة ولكنها منفوخة أيضاً، هكذا قالوا عندنا، يتجوّلن اثنتين اثنتين في ساحة «لامل» في الاستراحات، يلعبن «الحجلة» وتضفر إحداهن للأخرى جديلتها وأحيانا يرشقن بعضهن بالمياه من حنفيات الشرب، تماماً كما نفعل نحن هنا.

باستثنائي كان لجميع طلاب مدرسة «تَحْكيموني» أخوات، بنات كبيرات، أو زوجات إخوة أو بنات عم أو خال وهكذا كنت أنا آخر من يعرف عما يقال بين الناس ماذا يوجد للبنات ولا يوجد لنا، وعلى العكس، وماذا يفعل الأخوة الكبار مع فتياتهم في الظلام.

في بيتنا لم يقولوا أي كلمة. ولا مرة. باستثناء ربما عندما كان أحد الضيوف ينجرف في الكلام ويسخر من حياة البوهيما أو عن الزوجين «بار يتسهار إيتسليفيتش» اللذين يحرصان كلّ الحرص على القيام بفريضة «تكاثروا تناسلوا» وعندها كان الجميع يسكتونهم فوراً بنوع من التوبيخ: «شتو اس توبوي؟! فيديش مالتشيك ريادوم اس نامي!!» (أي أنّ «الولد قد أصبح يفهم كلّ شيء!»).

لكنّ الولد لم يفهم شيئا. إذا رشقه أبناء صفه في وجهه بالاسم العربي لما يوجد عند البنات أو إذا تجمّعوا وتناقلوا بينهم من يد إلى يد صورة لامرأة لا تلبس إلا القليل من الملابس، أو عندما احضر احدهم قلم حبر جاف بداخله صورة فتاة بملابس لعبة التنس ولكن عندما يقلبون القلم تختفي فجأة

جميع ملابس التنس الّتي ترتديها وعندها ينفجر الجميع بالضحكات المبحوحة، يتدافعون بالأيدي والمناكب والأضلاع يحاولون بكل قوتهم أن يظهروا مثل إخوتهم الكبار. وأنا وحدي، كان يتملكني فزع كبير: وكأنه عن بعد، عند خط الأفق، بدأت تظهر كارثة ظلماء عابسة. ما زالت بعيدة، لا علاقة لها بي، ولكنها مرعبة ومفزعة، تتجمد لها الدماء في العروق، مثلها مثل الحريق على رؤوس التلال البعيدة تحيط بي من جميع الجهات. إن أحدا لن يخرج منها بسلام. لا شيء سيعود كما كان.

عندما كانوا يتهامسون في الاستراحات، بمرح لاهث حول واحدة معتوهة من زقاق «كنيرت» الّتي تعطي في غابة «تل - أرزا» لكلّ من يضع لها في يدها نصف ليرة فقط، أو عن الأرملة السمينة من حانوت أدوات المطبخ الّتي تأخذ كلّ مرة عدة أولاد من طلاب الصف الثامن إلى مخزن موجود خلف حانوتها وترفع وتُريهم مقابل أن تشاهدهم وهم يستمنون، كنت أكتوي من الداخل بنوع من الأسى، يعتصر الحزن قلبي، وكأنّ شيئاً فظيعاً كبيراً يكمن لجميع البشر، الرجال والنساء، شيء فظيع وقاس ولكنه متأنٍّ، غير متسرّع رُوَيداً رُوَيداً هذا الشيء الفظيع الزاحف يحيطني بخيوط مُخاطية شفافة وربما دون أن اعلم أنا أيضاً مصاب بها قليلا.

عندما وصلنا إلى الصف السادس أو السابع دخلت فجأة إلى صفنا ممرضة المدرسة، امرأة عسكرية عصبية. واحدة أمام ثمانية وثلاثين ولدا منذهلين وقفت ببسالة طوال درس مزدوج وكشفت لنا حقائق الحياة. بدون خوف بدأت تصف الأجهزة والوظائف. رسمت على اللوح بطباشير ملوّنة مخططات لكلّ شبكة الأنابيب. لم تبخل علينا بشيء، الحيوانات المنوية والبويضات، الغدد والمهبل وقناة فالوب، بعد ذلك انتقلت إلى العرض المفزع: أفزعتنا بأوصاف تثير الرعب للمسخين اللذين يكمنان عند المدخل، فرنكنشتاين والرجل الذئب لعالم الجنس، خطر الحمل وخطر العدوى.

منذهلين ومخزيّين خرجنا من تلك المحاضرة إلى الخارج، إلى العالم، الذي بدا لي فجأة كحقل ألغام عملاق أو كنجم انتشر فيه وباء. الولد الذي كنته، أدرك، على هذا النحو أو ذاك، ما الذي من المفروض أن يلج وإلى

أين، وما الذي من المفروض أن يستوعب وماذا، ولكنني لم أفهم، بأي شكل من الأشكال، لأي سبب أو غرض يريد إنسان عاقل، ذكرا كان أم أنثى، أن يتورّط في متاهات التنين هذه: الممرضة الشجاعة الّتي لم تتردّد بأن تكشف أمامنا كلّ شيء، من الهورمونات وحتى قواعد الوقاية الصحيّة، نسيت أن تذكر، ولو بالتلميح الخفيف، بأن العمليات المعقدة والخطيرة تلك، تنطوي أحياناً على متعة ما. حول هذا الموضوع لم تقل لنا و حتى كلمة واحدة. ربما لأنها أرادت أن تحافظ على أمننا. وربما لأنها لم تعرف.

*

كان معلمونا في «تَحْكيموني» يرتدون غالبا البدلات الرمادية أو البنية، الرّثّة نوعا ما، أو الجاكيتات الّتي أكل الدهر عليها وشرب، ولم يتوقفوا عن مطالبتنا باحترامهم ومهابتهم: السّيّد «مونزون» والسّيّد «أفيسار»، السّيّد «نايمن» الوالد والسّيّد «نايمن» الابن، السّيّد «ألقلعي» والسّيّد «دوفشاني» والسّيّد «أوفير» والسّيّد «ميخائيلي»، والمدير السّيّد «إيلان»، «هو وحده يحكم بقوة»، كان يظهر دائماً ببدلة مكوّنة من ثلاث قطع، وأخو المدير، هو أيضاً السّيّد «إيلان» ولكن ببدلة من قطعتين فقط.

احتراما لكلّ واحد من هؤلاء كنا نقف على أرجلنا كلما دخل الواحد منهم إلى الصفّ. ولم نجلس إلا بعد أن نُعطى إشارة إحسان إذ تبيّن أننا نستحق الجلوس. كنا نتوجّه إلى المعلمين بصيغة «أستاذ» ونتحدث معهم دائماً بصيغة الغائب فقط: «الأستاذ هو من طلب مني أن أحضر تصديقا من والديّ؟ لكن والديّ سافرا إلى حيفا؟ ربما يتكرم هو ويوافق بأن أحضر التصديق يوم الأحد؟» أو: «أستاذي، عفوا، ألا يفكّر هو بأنه يبالغ قليلا هنا؟» (الضمير في أنه في هذه الجملة أيّ ذلك المتهم بالمبالغة لا يعود إلى المعلم- إذ أن أحدا، هنا عندنا، لم يكن يجرؤ على اتّهام المعلمين بالمبالغات- بل يعود هذا الضمير إلى النبي «إرميا» أو إلى الشاعر «بياليك» الذي تعلمنا نار غضبه المتدفق مؤخرا.)

أما بالنسبة إلينا نحن الطلاب فقد مسحت أسماؤنا الشخصية تماماً وبشكل مطلق ومنذ اللحظة الّتي تخطت أقدامنا عتبة المدرسة «تَحْكيموني»:

فإنّ معلمينا ينادوننا دائماً وفقط بـ«بوزو»، «سراجوستي»، «فاليرو»، «ريفاتسكي»، «الفاسي»، « كُلاوزْنِر»، «حجّاج»، «شلايفر»، «دي لا مار»، «دنون»، «بن نعيم»، «كوردابيرو»، «إسكلرود».

كان عند معلمي مدرسة «تَحْكيموني» مجموعة كبيرة من العقوبات: صفعات على الخدين، جلد بالمسطرة على رؤوس الأصابع الممدودة، هزّ من قفا العنق ونفي إلى الساحة، استدعاء الوالدين وتسجيل ملاحظة سوداء في دفتر يوميات الصف ونسخ إصحاح من العهد القديم عشرين مرة، أو كتابة «الكلام خلال الدرس ممنوع» وَ«يجب تحضير الوظائف البيتية في وقتها» على خمس مائة سطر متماثلة. وعلى كلّ من كان خطه غير واضح حكم عليه بأن ينسخ في البيت على صفحات تلو الصفحات «بكتابة فنيّة حسب قواعد الكتابة الصحيحة» أو «بخط صافٍ ونظيف مثل مياه النهر». من كان يضبط وأظافره غير مقصوصة أو أذناه غير ملمعتين أو ياقة قميصه فيها شيء من السواد، كان يبعد مخزيا إلى بيته لكن ليس قبل أن يقف أمام الصف ويلقي على مسامعهم بصوت مرتفع وواضح: «أنا ولد وسخ/ إذا لم أغتسل / فسألقى قريبا في سلة القاذورات!/ مباشرة في سلة القاذورات!»

في كلّ صباح كان الدرس الأول في «تَحْكيموني» يبدأ بنشيد «تبريكة الصباح»: «شاكرا لك»:

شاكرا لك / الملك الحي القيوم
لأنك أحييتني بعد أن أمتني برحمتك وإحسانك
بعد ذلك كنا مَعاً نترنم بأصوات ناعمة ولكنها متحمسة:
سيد الكون الذي ملك/ قبل أن يخلق أيّ مخلوق. . .
وبعد أن ينتهي كلّ شيء/ سيحكم وحده بقوة. . .

وعندها فقط بعد الانتهاء من كلّ المزامير والصلوات الصباحية (المختصرة) كان معلمونا يأمروننا بفتح الكتب والدفاتر وتحضير الأقلام وفي الغالب كانوا يبدأون بإملاء طويل وفارغ كان يستمر حتى جرس الحرية، وفي بعض الأحيان إلى ما بعد الجرس. في البيت كان علينا أن نحفظ عن ظهر

قلب أنصاف الإصحاحات، والقصائد الكاملة بالإضافة إلى أمثال كبار الحاخامات. حتى الآن يمكن أن توقظني وسط الليل وتحصل مني على جواب النبي لَرَبْشَاقَى رسول ملك آشور: «احْتَقَرَتْكَ وَاسْتَهْزَأَتْ بِكَ/ الْعَذْرَاءُ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ/ وَنَحْوَكَ أَنْغَضَتِ/ ابْنَةُ أُورُشَلِيمَ رَأْسَهَا/ مَنْ عَيَّرْتَ وَجَدَّفْتَ؟!/ وَعَلَى مَنْ عَلَّيْتَ صَوْتاً؟!. . ./ ، أَضَعُ خِزَامَتِي فِي أَنْفِكَ/ وَلِجَامِي فِي شَفَتَيْكَ/ وَأَرُدُّكَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْتَ فِيهِ!» أو من «فصول الآباء»: «على ثلاثة أمور يقوم العالم. . . قل قليلا واعمل كثيرا. . . لم أجد للجسم أفضل من الصمت. . . أعرف من فوقك. . . لا تنعزل عن الناس ولا تركن إلى نفسك حتى يوم موتك، ولا تحاسب صديقك قبل أن تفترض أنّك مكانه. . . وحيثما لا يوجد رجال حاول أن تكون رجلا.»

*

في مدرسة «تَحْكيموني» تعلمت اللغة العبرية: كأنما دخل المِقداح وأصاب شريانَ منجم معادن وفير، إذ منذ صف وساحة المعلمة زيلدا كنت قد لمسته اللمسة الأولى. شغفت نفسي بالتعابير البهيجة والكلمات الّتي كادت تُنسى، وإلى تراكيب غريبة وإلى أماكن نائية في أعماق غابات اللغة، أماكن لم تطأها تقريبا قدم إنسان منذ مئات السنين، إلى جمال اللغة العبرية المشحوذ: «وكان صباح - وهاهي ليئة»، أو «قبل أن يخلق أيّ مخلوق»، «غلف القلوب»،[1] «صاع الآلام»، وكذلك «كن متدفئا بنور الحاخامات وكن حذرا من جمرتهم لئلا تكويك، ولأنّ عضتهم عضة ثعلب ولسعتهم لسعة عقرب. . . وجميع أقوالهم كالجمر».

هنا في مدرسة «تَحْكيموني»، تعلمت أسفار التوراة الخمسة مع تفسير «راشي» (الرابي شلومو يتسحاقي) الحاذق خفيف الجناحين. هنا (في «تَحْكيموني») تشبّعت من حكم حكماء المشناه، ومن الأساطير والفقه والصلوات والأناشيد والتراتيل الدينية والتفاسير وتفاسير التفاسير، نظرة عجلى إلى كتاب الصلوات وإلى كتاب «صلوات الأعياد»، وإلى كتاب «شلحان

(١) (ارميا: ٩: ٢٥) (المترجم).

عروخ». هنا في «تَحْكيموني» التقيت مع معارف تعرفت عليهم في بيت والديّ مثل حروب «الحشمونئيم» وثورة «بار كوخفا»، تاريخ الشتات وحياة الحاخامات وفقهاء التوراة، وقصص الحسيديم الّتي تنطوي على عبرة وموعظة ومغزى مغلف بغلاف يأخذ بشغاف العيون. وبعض أقوال المُفتين، والقليل من الشعر العبري في الأندلس ومن بياليك وأحيانا في دروس النشيد للسيد أوفير كان يظهر نشيد ما من أناشيد طلائعيي الجليل والمرج ضلّ الطريق فوصل إلى «تَحْكيموني» كما يضلّ الجمل ويصل إلى ثلوج سيبيريا.

السّيّد «أفيسار»، معلم الجغرافيا كان يأخذنا معه في رحلات كثيرة المغامرات، إلى الجليل والنقب، إلى شرقي الأردن وإلى بلاد ما بين النهرين وإلى الأهرامات وإلى الحدائق المعلّقة في بابل: وكل ذلك على ظهر خرائط كبيرة، وأحيانا بواسطة صور عن طريق «الفانوس السحري» مخلّع الأوصال. السّيّد «نايمن الصغير» أسمعنا غضب الأنبياء وكأنه تيار متدفق من اللافا الحارقة، ولكنه سرعان ما كان يغمسنا في نهر صافٍ من النبوءات المواسية. أما السّيّد «مونزون» فقد ثبت فينا بمسامير حديدية الفرق الأبدي بين آي دو وَ آي ديد، آي هاف دَن وَ آي هاف بين دووينج، آي ود هاف دن أند آي شود هاف دن أند آي شود هاف بين دووينج: «حتى ملك إنجلترا بنفسه!» كان السّيّد «مونزون» يرسل الرعد فوق رؤوسنا مثل «يَهْوَه» الغاضب من رأس طور سيناء، «وحتى «تشرتشل»! وَ«شكسبير»! وَ«غاري كوبر» كلهم ينصاعون بدون اعتراض لقوانين اللغة هذه، وأنت وحدك فقط ؟! سيدي المحترم ؟! مستر «أبو العافية»؟! ماذا، أنت فوق القانون؟! هل أنت فوق «تشرتشل» ؟! فوق «شكسبير»؟! فوق ملك إنجلترا؟! شيم أون يو! ديسجريس! أي، أي، من فضلكم انتبهوا جيدا جميع الطلاب انتبهوا ثمّ سجلوا هذا جيدا جداً في دفاتركم إياكم أن تغلطوا بذلك ولا بأي شكل من الأشكال: إت إز أي شيم، بط يو ذي رايت هونورابل ماستر «أبو العافية»، يو آر أ ديسجريس!!!»

*

بينما السّيّد ميخائيلي، مردخاي ميخائيلي، الذي أحببته أكثر من جميع المعلمين، السّيّد ميخائيلي الذي يداه الناعمتان كانتا معطّرتين دائماً كيدَي

راقصة ووجهه متردد كالخجول، فقد كان يجلس، يخلع قبعته ويضعها أمامه على المنصة يقوّم وضع قبعة رأسه الصغيرة وبدلا من أن يعلمنا كان ينجرف لساعات وهو يحكي لنا الأساطير والخرافات: كان يبحر من حكماء المشناه إلى الحكايات الشعبية الأوكرانية ومنها يغوص فجأة وبخط مستقيم في أساطير الميثولوجيا اليونانية، وإلى الأساطير البدوية والقصص المضحكة المغرقة في الغلو من لغة الإيديش ومنها كان يتفرع حتى يبلغ أساطير الأخوين غريم وقصص أندرسون وحتى خرافاته هو، الّتي كان يؤلفها، تماماً مثلي، خلال سردها.

غالبية الأولاد في الصف كانوا يستغلون طيبة قلب السّيّد ميخائيلي اللطيف وشتات فكره، وكانوا ينامون بهدوء وسكينة من بداية دروسه وحتى نهايتها، واضعين رؤوسهم على أذرعهم المفروشة أمامهم على الطاولة. وكان يحدث أن يقوموا بتبادل الرسائل بينهم وحتى كانوا يرمون، في دروسه، التمريرات بين الطاولات بطابة من الورق: السّيّد ميخائيلي لم يكن يلاحظ أو أنه كان يلاحظ ولم يلق لذلك بالا.

أنا أيضاً لم ألقِ لذلك بالا: فقد كان يصوّب عينيه المرهقتين والطيبتين ويحكي أساطيره وحكاياته لي فقط، أو لثلاثة أو أربعة منا، والذين لم يصرفوا نظرهم عن شفتيه ولو لحظة: وكأنّ هاتين الشفتين، هنا أمام أنظارنا، تقومان بخلق عوالم وما فيها، ونحن مدعوون إلى الانضمام.

٤٩

عاد الجيران والأصدقاء إلى الالتقاء والاجتماع في أمسيات الصيف في ساحة بيتنا الصغيرة، يُقدّم إليهم الشاي مع الكعك ويتبادلون أطراف الحديث حول السياسة والمسائل الفكرية. مالا وَستاشيك روذنيتْسكي، وحاييم وَحانة تورن، الزوجان كروخمل اللذان عادا وفتحا من جديد الكوخ- حانوتهما الصغيرة في شارع جيئولا وعادا يلصقان الدمى المكسورة ويزرعان الشعر للدببة الّتي اصلعّت. وتقريباً بشكل دائم انضم إليهم أيضاً تسيرتا وَيعكوف - دافيد أبْرامْسكي (كلاهما ابيَضَّ شعرهما كثيرا في الأشهر الماضية منذ قتل ابنهما يوني. السَّيِّد أبْرامْسكي أصبح ثرثارا أكثر مما كان من قبل، أمّا تسيرتا فقد أصبحت أكثر صمتا). أحياناً، زارنا أيضاً جدّي اَلِكْسَنْدِر وجدّتي شلوميت والدا أبي، أنيقان كما كانا طوال الوقت، يلتفان بأهميّة أوديسيّة. كان جدي النشيط والمتحمّس يلغي أحياناً كل أقوال ابنه بقوله «وما في ذلك» وبحركة يد توحي بالازدراء والاستهزاء لكنه من جهة أخرى لم يجرؤ في حياته على أن يعترض على رأي جدتي في أي موضوع كان. جدّتي، من جهتها كانت تقبلني على خدّيّ قبلتين رطبتين، وفوراً كانت تمسح شفتيها بمنديل ورق وبمنديل آخر كانت تمسح خدّيّ، تظهر اشمئزازها من التشريفات الّتي قدمتها أمّي أو من الفوط الّتي يجب أن تكون مطوية بهذا الشكل وليس بذاك، وأيضاً من جاكيت ابنها الّذي بدا صاخبا أكثر من اللازم ويميل إلى قلة الذوق الشرقية:

«لكن، في الحقيقة، انه رخيص جدّاً يا «لونيا»! أين وجدت هذه

الخَلَقة؟ في يافا؟ عند العرب؟» وبدون أن تمنح أمّي حتى نظرة كانت جدتي تضيف بأسى: «في المدن الصغيرة جدّاً حيث كانت الثقافة مجرد إشاعة، هناك فقط ربما كان الرجال يلبسون على هذا النحو!»

كانوا يتحلّقون حول عربة الشاي السوداء الّتي سيقت إلى الساحة لكي تكون بمثابة طاولة حديقة، يثنون بالإجماع على نسمات المساء الباردة، يحللون على فنجان الشاي والكعكة الخطوات الماكرة الّتي يقوم بها «ستالين» وإصرار «ترومن»، يتبادلون الرأي حول غروب شمس الإمبراطوريّة البريطانية وحول تقسيم الهند، ومن هناك كان الحديث يبحر إلى سياسة الدولة الشابّة وكان الجدل يحتدم ويشتد قليلا سعار النقاش: «ستاشيكرودنيتْسكي» كان يرفع صوته في حين كان السّيِّد «أبْرامْسكي» يسخر منه بحركات يدين واسعة وبلغة عبرية مصقولة. لقد آمن ستاشيك بكل حماس وقناعة بالكيبوتسات وبالاستيطان العمّالي، واعتقد بان الحكومة يجب أن ترسل إلى هناك جميع القادمين الجدد من البواخر مباشرة، من رغب منهم ومن لم يرغب، وذلك لكي يجتثوا منهم مرة واحدة والى الأبد أمراض المهجر وعقدة الملاحقة، وهناك في أعمال الحقل والمرج يتم بناء الإنسان العبري الجديد.

كان أبي يبدي تذمّرا من استبداد نشيطي الهستدروت البلشفي الذين حرموا من العمل من لا يحمل بطاقة حمراء. السيد «غوستاف كروخمل» كان يدّعي بحذر بأنّ «بن غوريون»، على الرغم من كل مساوئه، فهو هو بطل جيلنا: وزير التاريخ بنفسه هو الذي وهبنا «بن غوريون» في الأيام الّتي فيها ربما كان يُصدم النشطاء الصغار من عظم المخاطر وكانت ستفوتهم الفرصة - فرصة إقامة الدولة. «شبابنا الصغار!» صرخ جدي «ألِكْسَنْدِر» بصوت عال، «شبابنا الرائعون، هم الذين وهبوا الانتصار وحققوا المعجزة! ليس أي «بن غوريون»! الشباب!» وعندها انحنى جدي إليّ ومنحني مرتبكا تربيتَتَيْن أو ثلاثاً، كمن يقابل الإحسان بالإحسان للشباب الذين انتصروا في الحرب.

لم تشارك النساء في المحادثة تقريبا. كانت العادة المنتشرة في تلك الأيام هي توجيه الإطراء والثناء إلى النساء على «حسن الإصغاء»، كما على التشريفات وعلى الجو اللطيف، ولكن ليس على مساهمتهن في المحادثة.

مالا رودْنيتْسكي، على سبيل المثال، كانت تهزّ رأسها برقة موافقةً عندما كان يتحدث ستاشيك وتهزّ رأسها بالنفي عندما كان أحدهم يعترض على أقواله. أمّا تسيرتا أبْرامْسكي فقد كانت تحتضن كتفيها بذراعيها كمن تشعر عندنا بالبرد الخفيف. منذ موت يوني حتى في الأمسيات الدافئة كانت تسيرتا أبْرامْسكي تجلس ورأسها مطأطأ قليلا كمن تنظر إلى قمم أشجار السرو الّتي في الساحة المجاورة، وتحتضن كتفيها بذراعيها. جدّتي شلوميت امرأة حازمة وحصيفة كانت تجزم أحياناً بصوتها الألتو المكتوم: «صحيح جدّاً جدّاً!» أو: «هذا أسوأ بكثير جدّاً حتى مما تقوله أنت يا ستاشيك، هذا أسوأ كثيرا جدّاً جدّاً!» وأحياناً كانت تقول: «لالالالا! ما يقول، السّيِّد «أبْرامْسكي»! إنّ هذا بكل بساطة غير ممكن!»

*

أمّي وحدها كانت أحياناً تخل بهذا النظام. عند سكتة قصيرة كانت تصدر ملاحظة أو رأياً كنوع من المقاطعة الّتي لأوّل وهلة تبدو وكأنّها لا علاقة لها بالموضوع، وحتى أنّها في الظاهر تدلّ على نوع من عدم الانتماء المربك، ولكن سرعان ما يتّضح بأنّ مركز الثقل للمحادثة كلها انحرف بلطف دون تغيير الموضوع ودون أن تنقض أقوال سابقيها بل ربما كمن تفتح بابا في حائط خلفي للمحادثة، حائط كان يخيّل حتى الآن أنه لا يوجد فيه باب أصلاً.

بعد أن تنهي ملاحظتها كانت تسكت، تبتسم برقة وتنظر كالمنتصرة ليس إلى الضيوف وليس إلى أبي بل إليّ بالذات. بعد أقوال أمّي كان يخيّل أحياناً بأنّ المحادثة كلّها قد نقلت وزنها من رجل إلى أخرى. بعد مرور وقت ما، ابتسامتها الرقيقة الّتي تشكّ في شيء ما وتحلل شيئا ما، ما زالت تمكث على شفتيها، كانت أمّي تقف وتعرض على كل ضيف، لطفا، هل أصبّ لك كأس شاي آخر؟ مع تركيز كثير أو قليل؟ وما رأيك في قطعة كعك إضافيّة؟

في نظر الولد الّذي كنته كان تدخّل أمّي القصير في محادثة الرجال تقلق الراحة بعض الشيء، ربما لأنّني أدركت بين المتحادثين موجة صغيرة من الارتباك، أو اهتزازا خفيفا كمن يطلبون منفذا للتراجع، وكأنّ تخوّفا ضبابيا

يومض بداخلهم للحظة ربما قالوا أو عملوا دون انتباه شيئا أثار لدى أمّي ابتسامة خفيفة، لكن أحداً منهم لا يعرف ما هو هذا الشيء بالذات. ربما إشعاع جمالها المكبوت هو الّذي كان يربك في كل مرة من جديد هؤلاء الرجال الموقوفين ويجعلهم يتخوفون من أنّهم ربما لا يعجبونها أو أنّها تجدهم مثيرين قليلا للاشمئزاز.

أمّا لدى النساء فقد كانت تدخلات أمّي تثير فيهنّ خليطا غريبا من القلق المشوب بالترقّب بأنّها في نهاية المطاف ستكبو ذات مرة، وربما أيضاً صدى صوت خفيف من الشماتة بارتباك الرجال.

السّيِّد تورن، الأديب ورجل الأعمال حاييم تورن كان من المتوقع أن يقول على سبيل المثال: «يفهم كلّ واحد بأنّه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال إدارة دولة كاملة مثل دكان بقالة. أو مثل لجنة الطائفة في أي قرية نائية.»

يقول والدي: «ربما انه من السابق لأوانه أن نحكم، يا «حاييم» يا عزيزي، ولكن كل من عقله في رأسه يجد أحياناً في دولتنا الشابة أسباباً لخيبة أمل واضحة.»

السّيِّد كروخمل مصلّح الدّمى يضيف بتواضع جمّ:

«إضافة إلى ذلك إنّهم لا يصلّحون حتى الرصيف. لقد كتبنا حتى الآن رسالتين إلى فخامة رئيس البلدية، ولم يصلنا حتى أي ردّ حتى الآن. لا أقول هذا، معاذ الله ردّاً على أقوال السّيِّد كْلاوزْنر بل، بنفس الروح، بالذات، وفي نفس الاتجاه.»

يضحك أبي، بعبرية في حينه بدت عتيقة نوعا ما:

«في دولتنا كل شيء مزفّت - ما عدا الشوارع.»

أمّا السّيِّد أبْرامْسكي فيقتبس من جهته:

«يقول النبي هوشع: دماء تلحق دماء، لذلك تنوح الأرض. جاءت بقية شعب إسرائيل لتعيد بناء مملكة داود وسليمان، لتضع الأساس لبناء الهيكل الثالث، وإذا بنا جميعا نقع في الأيدي المبللة بالعرق لسكرتيري كيبوتسات صغار مكتنزين بالسعادة ويفتقرون إلى الإيمان وغيرهم من الوصوليين حمر الوجوه ودنسي القلوب الذين ضاق عالمهم حتى أصبح كعالم النملة. وزراء

منحرفون، كلهم مجموعة من اللصوص، يتقاسمون فيما بينهم قسيمة قسيمة أرض الوطن الصغيرة الّتي أبقتها الأمم في أيدينا. عنهم عن هؤلاء بالضبط تكلّم النبي «حزقيال» عندما قال: «من صوت صراخ ربابينك تتزلزل المسارح».[1]

وأمّي بابتسامتها المحلّقة حول شفتيها والتي لا تكاد تلامسهما:

«ربما بعدما ينتهون من تقسيم القسائم بينهم، ربما سيبدؤون بتصليح الأرصفة؟ وعندها سيصلّحون أيضاً الرصيف الّذي أمام حانوت السّيِّد كروخمل؟»

*

الآن، بعد خمسين سنة من وفاتها، أتخيّل أنّني أستمع إلى صوتها يقول هذه الكلمات أو شبيهاتها، أي خليط ممتد من الرزانة والشكّ والسّخرية اللاذعة والدقيقة والعصبية الأبدية.

في تلك السنوات كان شيء ما يقضمها من الداخل. بدأ يظهر بطء معين على حركاتها- ربما ليس بُطئاً بل شيئا يشبه تشتت الفكر البسيط. لقد توقفت عن إعطاء الدروس الخصوصية في الأدب والتاريخ. أحياناً كانت تأخذ على عاتقها مقابل أجر زهيد، القيام بتصحيح اللغة والأسلوب وإعداد مقال علمي كتبه احد البروفيسورات من حي رِحافيا بلغة عبرية- ألمانية مضطربة ومشوشة. ما زالت تقوم لوحدها كل يوم بنشاط ونجاعة ورشاقة بجميع الأعمال المنزلية: حتى الظهر كانت تطهو وتقلي وتخبز وتشتري وتقطّع وتخلط وتجفّف وتنظّف وتدعك وتفرك وتغسل وتنشر وتكوي وتطوي حتى أن المنزل كله كان يلمع، وبعد الظهر كانت تجلس على كرسيّها وتقرأ.

غريبة كانت طريقة جلوسها وهي تقرأ: الكتاب كان دائما على ركبتيها، ظهرها وقفا رأسها يكونان نصف دائرة تجويفها إلى الأمام باتجاه الكتاب. مثلها مثل فتاة خجولة صغيرة تغض عينيها وتضعهما فوق ركبتيها هكذا كان منظر أمّي عندما كانت تجلس وتقرأ هكذا. بين الحين والآخر كانت تقف

---

[1] حزقيال، ٢٧: ٢٨ (المترجم).

أمام النافذة وتنظر لفترة طويلة إلى شارعنا الهادئ. أو أنّها كانت تخلع نعليها وتضطجع على ظهرها فوق غطاء السرير هكذا بملابسها وعيناها مفتوحتان ومتركزتان في نقطة واحدة في السقف. أحياناً كانت تقوم فجأة وبحركات سريعة محمومة كانت تبدّل ملابس البيت بملابس الخروج، تعدني بأنّها ستعود بعد ربع ساعة تقريبا، تعدّل تنورتها وتصلح قليلا شعرها دون أن تنظر في المرآة، تعلق على كتفها حقيبة يدها البسيطة المصنوعة من القش وتخرج إلى الشارع بسرعة كمن تخشى أن يفوتها شيء. عندما كنت أطلب منها أن أرافقها كانت أمّي تجيبني:

«أنا بحاجة إلى أن أكون مع نفسي بعض الوقت. كن أنت أيضاً مع نفسك.» وتعود لتعدني: «سأعود بعد ربع ساعة.»

كانت تفي بوعدها دائما: كانت تعود بعد وقت غير طويل، عيناها تشع سناء خفيفا، خدّاها متوردان، كأنها مكثت في مجرى هواء بارد جدّاً: أو كأنها ركضت كل الطريق. أو كأنه حدث معها في الطريق شيء مربك أو مدوّخ. كانت تعود من الشارع أجمل مما كانت عليه عندما خرجت.

ذات مرة خرجت خلفها من البيت دون أن تحسّ بي. سرت خلفها على بعد معين، التصق بالجدران والأشجار كما تعلمت من شارلوك هولمز ومن الأفلام. لم يكن الهواء باردا جدّاً، وأمّي لم تركض بل مشت بخطوات سريعة: كمن تخاف أن تتأخر. في آخر شارع «تسفانيا» اتجهت إلى اليمين ونزلت، حذاؤها الأبيض يسير متأنّقا بوتيرة ثابتة على الأسفلت، حتى وصلت إلى زاوية شارع ملآخي. هناك توقفت بجانب صندوق بريد وترددت للحظة. البوليس السري الصغير الذي لاحقها توصّل إلى نتيجة بأنّها تخرج من اجل إرسال الرسائل سرّاً، وعندها اتقد كياني بالفضول وبرجفة فزع خفيفة. لكن أمّي لم ترسل أيّ رسالة. توقفت لحظة بجانب الصندوق، غارقة بالأفكار وبعد هنيهة وضعت فجأة إحدى يديها على جبينها ثمّ استدارت لتعود أدراجها. (بعد سنوات أيضاً كان لا يزال يقف هناك مغروسا داخل جدار من الأسمنت ذلك الصندوق- صندوق البريد- الأحمر وعليه نقش الحرفان GR تكريما لجورج الخامس- ملك انجلترا.) عندها قفزت عبر إحدى الساحات

التي منها أستطيع اختصار الطريق إلى ساحة أخرى حيث وصلت إلى البيت قبل دقيقة أو دقيقتين من وصولها وهي تلهث قليلا، لون خديها كمن عادت لتوها من الثلج وعيناها البنيتان الثاقبتان كانتا تتلألآن ويتطاير منهما بريق مليء بالطيش الودي والمحبة. في تلك اللحظة كانت أمّي تشبه كثيرا جدّاً والدها الجد - بابا. أخذت رأسي بيديها وشدته قليلا إلى بطنها ثمّ قالت لي هكذا على وجه التقريب:

«من بين جميع أولادي أحبك أنت بالذات أكثر. ربما تستطيع أخيراً أن تقول لي ماذا يوجد فيك يجعلني احبك أنت بالذات إلى هذا الحدّ؟»

وقالت أيضاً:

«بشكل خاص براءتك. لم أصادف في حياتي براءة كبراءتك. حتى بعد أن تعيش سنوات طويلة وبكل تأكيد بعد أن تمرّ بتجارب كثيرة ومتنوعة فان هذه البراءة لن تغادرك، إلى الأبد، ستبقى أنت بريئا ساذجا.»

وقالت أيضاً:

«توجد في العالم نساء معينات يفترسن فقط السّذج البريئين وهناك أخريات وأنا إحداهن، يحببن بالذات السذج البريئين ويشعرن بحافز داخلي لفرش أجنحتهنّ عليهم لحمايتهم.»

وقالت أيضاً:

«أنا اعتقد أنك ستكبر وستصبح كُليبا- حماسيّاً، مثيرا للضجة- ثرثارا - مهذارا مثل أبيك، وستكون رجلا هادئا ممتلئا ومغلقا مثل بئر داخل قرية خلت من سكانها، مثلي. يمكن أن تكون مثل هذا ومثل ذاك أيضاً. نعم. أنا اعتقد أن ذلك بالذات ممكن. هل تريد أن تلعب معي الآن لعبة اختلاق قصة معاً؟ أنت فصل وأنا فصل؟ هل تريدني أن أبدأ؟ كان يا ما كان هناك قرية خلت من سكانها من كل سكانها. حتى من القطط والكلاب. كما أن العصافير غادرتها. هكذا بقيت القرية هادئة ومهجورة السنوات تلو السنوات. الأمطار والرياح جرفت الأسقف المصنوعة من القشّ، وتشققت حيطان السقائف بفعل البرد والثلج، حدائق الخضراوات يبست، ما عدا الأشجار والشجيرات التي واصلت نموّها وبما أنّها لم تجد من يُقلّمها فقد تضخّمت

وتعاظمت أكثر فأكثر. في إحدى الأمسيات، في فصل الخريف، وصل إلى تلك القرية المهجورة رحّال تائه ضلّ الطريق. دق الرحال مترددا على باب أول سقيفة، وإذا. . . هل تريد أن تكمّل من هنا؟»

*

في تلك الأوقات تقريبا، في الشتاء الذي بين سنة تسع وأربعين وسنة خمسين أيّ سنتين قبل وفاتها، بدأت تنتابها حالات صداع متتالية. أحياناً كانت تعاني من الزكام أو من الذّبحة الصدرية، وحتى عندما شفيت منهما لم تفارقها الشقيقة. نقلت كرسيّها بالقرب من النافذة وكانت تجلس الساعات وهي تلتف بروب أزرق من الفلانيلة وتنظر إلى المطر، كتابها على ركبتيها، مفتوح ومقلوب، ولكنها لم تقرأ فيه بل نقرت على غلافه بأصابعها: ساعة أو ساعتين كانت تجلس منتصبة في كرسيّها تنظر إلى المطر أو إلى أيّ عصفورة مبللة، ولا توقّف ولو للحظة النقر بكل أصابعها العشر على غلاف الكتاب. كمن تعزف على بيانو وتعود المرة تلو المرة على نفس المعزوفة.

رويداً رويداً اضطرت إلى تقليص الأعمال المنزلية: ما زال بإمكانها أن تضع كل إناء في مكانه وأن تجمع وترتب وأن تبعد وترمي كل قصاصة ورق أو فتات طعام. ما زالت تكنس كل صباح بلاط المنزل الصغير وتشطفه بالدلو والممسحة مرة كل يومين أو ثلاثة. ولكنها لم تعد تطهو وجبات مركّبة ومعقّدة إذ اكتفت بمأكولات بسيطة: بطاطا مطبوخة، بيض مقلي (عين) سلطة خضروات طازجة. وأحياناً قطع دجاج تطفو في شوربة دجاج. أو أرز مطبوخ وسمك «تونة» من علب معلبات. لم تشكُ تقريبا من الصداع الشديد الذي كان يصيبها والذي كان يستمر بضعة أيام دون توقف. والدي هو الذي حدّثني عن الشقيقة التي كانت تصيب أمّي. حدثني بهدوء في غير حضورها، فيما يشبه حديث رجال قلقين بصوتين مترددين. وضع أبي ذراعه فوق كتفي وطلب أن أعده بان أخفض صوتي من الآن فصاعدا عندما تكون أمّي في البيت. وبألا أصرخ وألا اعمل أيّ ضجة. وبشكل خاصّ علي أن أعد بألا أغلق بابا أو شباكا أو أباجورا بقوة. وأن أنتبه جدّاً جدّاً بألا أوقع على الأرض أيّ إناء من حديد أو أيّ غطاء لقدر. أو أن أصفّق داخل البيت.

وعدت ولكنني لم ألتزم. سماني الابن الحكيم، ومرة أو مرتين ناداني حتى بغلام.

ابتسمت إليّ أمّي بحب، ولكنها كانت ابتسامة من غير ابتسامة. تجعدات إضافية أضيفت إليها في الشتاء عند زوايا عينيها.

قلّل الضيوف من زياراتهم إلينا. «ليلينكا»، «ليليا كليش»، التي هي المعلمة ليئة بارسمخا التي ألفت كتابين مفيدين حول نفسية الطفل كانت تأتي كل عدة أيام تجلس أمام أمّي وكلتاهما كانتا تتحدثان باللغة الروسية أو البولندية. خيّل إليّ أنهما تحدثتا عن مدينتهما روفْنو وعن صديقاتهما ومعلميهما اللذين قتلهم الألمان رميا بالرصاص في غابة سوسنكي. لأنه بين الحين والآخر كنت اسمعهما تذكران اسم يسسخار رايس مدير المدرسة الثانوية الفاتن والجذاب الذي كانت تعشقه كل البنات في مدرسة «تربوت»، بالإضافة إلى أسماء معلمين آخرين، بوسليك، بركوفسكي، فانكا زايدمن، بالإضافة إلى أسماء شوارع وحدائق من أيام صباهما.

كانت جدّتي شلوميت تدخل أحياناً تستعرض برّاد الثلج وخزانة المؤن في المطبخ، تقطّب أسارير وجهها وتتهامس بعض الوقت مع والدي في آخر الممر، بالقرب من غرفة الحمام الذي كان أيضاً المرحاض. بعد ذلك كانت جدتي تلقي نظرة على الغرفة التي تستريح فيها أمّي، وكانت تسألها بصوت رقيق ناعم مُحلّى:

«هل تحتاجين أيّ شيء يا عزيزتي؟»

«لا، شكراً.»

«إذن لماذا لا تضطجعين؟»

«هكذا أنا مستريحة. شكراً.»

«أليس المكان هنا باردا أكثر من اللازم؟ هل ترغبين في أن أوقد لك المدفأة؟»

«لا، شكراً. لا أشعر بالبرد. شكراً.»

«والطبيب؟ متى كان آخر مرة؟»

«لا حاجة إلى الطبيب.»

«أحقّاً؟ ولكن، كيف عرفتِ بالضبط انك لا تحتاجين إلى الطبيب؟»

كان أبي يلفت انتباه أمّه باللغة الروسية بخشية وفي الحال كان يستميح كلتيهما عذرا. كانت جدتي توبّخه:

«اسكت يا لونيا. أنت لا تتدخّل. أنا الآن أتحدّث معها وليس معك. أيّ قدوة، عفوا، تعطي بذلك للولد؟»

سارع الولد إلى الابتعاد من هناك مع انه ذات مرة تمكن من أن يسمع كيف أن جدتي همست في إذن أبي الذي شيّعها إلى الباب:

«نعم. ممثلة هزلية. وكأنّها تستحق القمر. وأنت كفّ عن مناقشتي. يمكن الاعتقاد بأنّها الوحيدة التي تعاني هنا. يمكن الظن بان الجميع هنا باستثنائها يلعقون العسل. وأنت افتح لها الشباك قليلا، إذ فعلا يمكن الاختناق في الغرفة.»

*

ومع كل ذلك استُدعي طبيب. وبعد مدة ما استدعي الطبيب ثانية. أرسلت أمّي لتقوم بفحوصات شاملة في عيادة صندوق المرضى كما أنّها نامت يومين أو ثلاثة في المستشفى المؤقت لهداسا في ميدان الـ«دافيكا». فحصوا ولم يجدوا شيئا. بعد أسبوعين من عودتها من المستشفى شاحبة مرتخية الكتفين استدعي طبيبنا مرة أخرى. وفي إحدى المرات استدعي حتى في منتصف الليل وأنا صحوت عند سماع صوته الحسن، صوت ثخين وخشن مثل دبق النجارين، عندما كان يضحك مع والدي في الممر. عند رأس الكنبة التي فتحت في الليالي وتحوّلت إلى سرير زوجي ضيق، عند الرأس من جهة أمّي ظهرت أنواع مختلفة من قناني وعلب الفيتامينات وأقراص الشقيقة بالإضافة إلى أقراص اسمها آ- بي- سي (APC) وأدوية أخرى داخل قنانٍ. رفضت أمّي أن تنام في السرير. لساعات طويلة جلست مستريحة على كرسيّها أمام الشباك وأحياناً خُيّل لي بأنّها مرتاحة وسعيدة: تحدثت مع أبي في ذلك الشتاء برقة متميزة وبدفء، وكأنه هو المريض وكأنه هو الذي يتضايق من كل صوت مرتفع. اعتادت أكثر فأكثر أن تخاطبه كما تخاطب الأطفال، بحلاوة وبتسميات الدلال والتدليل، وربما أنّها حتى

شوهت أواخر الكلمات كما يفعلون عندما يتحدثون مع الأطفال. أمّا معي فقد تحدّثت أمّي في تلك الأيام كما يتحدثون إلى شريك في السرّ:

«من فضلك لا تغضب مني يا عاموس،» كانت تقول وعيناها الثاقبتان تتغلغلان إلى داخل نفسي، «لا تغضب مني، أنا في حالة صعبة الآن، إنك تلاحظ كم أحاول أن يكون كل شيء على ما يرام.»

كنت استيقظ مبكرا في الصباح وأكنس البيت بدلا منها قبل ذهابي إلى المدرسة. مرتين في الأسبوع كنت أمرّ على البلاط بالممسحة المبلولة بالماء والصابون، وبعدها بممسحة ناشفة. تعلمت كيف اقطع الخضراوات لأحضر السلطة وأن اقسم قطعة خبز وأن اقلي لنفسي بيضة كل مساء، كانت أمّي تعاني من الغثيان الخفيف في المساء في الغالب.

أمّا أبي، الذي بدأت تتدفق منه مشاعر البهجة في تلك الفترة بالذات بدون أيّ سبب ظاهر، فقد كان يحاول جدّاً أن يخفي بهجته الجديدة. فقد أكثر من الدندنة بينه وبين نفسه، ومن الضحك الفجائي بدون سبب، وذات مرة، دون أن يلاحظني، رأيته يقفز ويتراقص في الساحة وكأن شيئا لسعه على حين غفلة. كان يخرج بين الحين والآخر في الأمسيات ويعود بعد أن أكون قد نمت. كان لا بد له من أن يخرج، هكذا قال، لأنه في غرفتي كانت تطفأ الأنوار في الساعة التاسعة بينما في غرفتهما فلم تستطع أمّي أن تتحمل ضوء المصباح الكهربائي. كل مساء، كل مساء، كانت تجلس لوحدها في العتمة على كرسيّها الموجود أمام الشباك. حاول أن يجلس معها إلى جانبها بصمت مطلق، كمن يشاركها معاناتها، إلا أن روحه المبتهجة والعصبية لم تتركه يجلس بدون حركة أكثر من ثلاث أو أربع دقائق.

٥٠

في البداية تراجع أبي إلى كوخ المطبخ: حاول أن يقرأ هناك في الأمسيات، أو أن يفرش كتبه وبطاقاته الصغيرة على مشمّع طاولة المطبخ المتداعية وأن يشتغل قليلا. إلا أن المطبخ كان ضيقا ومنخفض السقف وضاق عليه مثل الزنزانة. كان والدي رجل أصحاب يحب النقاش والمزاح، يحب النور، وإذا اضطر إلى الجلوس لوحده الأمسية تلو الأمسية في المطبخ المُملّ، بدون تلاعب بالألفاظ وبدون اختلافات في الرأي حول التاريخ أو السياسة، فقد كانت عيناه تُكسى بطبقة دقيقة من الامتعاض الصبياني.

ابتسمت أمّي فجأة وقالت له:

«اخرج. اخرج والعب قليلا في الخارج.»

ثمّ أضافت:

«ولكن انتبه كثيرا. يوجد كهؤلاء ويوجد كهؤلاء. لسن كلهن طيبات ومستقيمات مثلك.»

«شتو تي بانيمايِش؟!» ثار كالبركان «تي ني نورمالنايا؟ فيديش مالتشيك!!»

قالت أمّي:

«معذرة.»

في كل مرة كان يأخذ الإذن من أمّي بالخروج. وما كان يخرج قبل أن ينهي جميع احتياجات البيت، يقوم بالمشتريات، يجلي الأواني، ينشر

الغسيل على الحبل أو يجمع الغسيل عن الحبل. بعد هذا كله فقط كان يقف ويلمّع حذاءه مرتين، ثمّ يغتسل، يرش على وجهه قليلا من ماء الكولونيا الجديد الذي اشتراه مؤخراً، يبدّل قميصه يختار لنفسه باهتمام بالغ ربطة عنق جميلة والجاكيت ما يزال في يده كان ينحني على أمّي ويسألها:

«أنت فعلا لا تمانعين في أن أذهب للجلوس بعض الوقت مع بعض المعارف؟ لنتحدث عن الأوضاع؟ أو عن شئون العمل؟ قولي لي الحقيقة؟»

أمّي لم تعترض أبداً. ولكنها رفضت بكل شدة أن تسمع عندما حاول أن يقول لها إلى أين بالضبط هو ذاهب هذا المساء.

«عندما تعود، يا «آريه» حاول فقط أن تدخل بهدوء.»

«سأدخل بهدوء.»

«مع السلامة، هيا مع السلامة.»

«هل حقّاً لا يهمك أن أخرج؟ أنا، على كل حال، لن أتأخر كثيرا؟»

« حقّاً، لا يهمّني، كما يمكنك أن تعود متى تشاء.»

«هل تحتاجين أيّ شيء آخر؟»

«شكراً. لست بحاجة إلى أيّ شيء. «عاموس» سيحرسني هنا.»

«أنا لن أعود متأخرا.»

وبعد صمت وتردد قصيرين:

«حسنا إذن؟ هذا على ما يرام؟ أنا خارج؟ إلى اللقاء. سلامتك. حاولي أن تنامي في السرير وليس في الكرسي؟»

«سأحاول.»

«إذن تصبحين على خير؟ إلى اللقاء؟ عندما أعود، ليس متأخرا، أعدك أن أدخل بهدوء تامّ.»

«هيا، مع السلامة.»

صلح وضع جاكيته وقوّم ربطة عنقه ثمّ خرج، يدندن بينه وبين نفسه وهو يمر في الساحة بالقرب من شباكي، بصوت دافئ ولكن بتزييفات تقشعر لها الأبدان: «الطريق تبدو لي طويلة جدّا/ والدرب يتلوى ويهرب/ أنا

أتحرك ولكنك بعيدة/ القمر اقرب إليّ منك...»[1] أو ربما: «ماذا تقول عيناك، عيناك، عيناك دون أن تقولا تماما تماما؟»

*

بسبب الشقيقة عانت أمّي من الأرق. وصف لها الطبيب أنواعا مختلفة من الأقراص المنوّمة والأقراص المهدّئة، وكلها بلا فائدة. خافت من السرير وكانت تمضي كل الليالي على كرسيّها، مغطاة بحرام مخدة تحت رأسها وبالمخدة الثانية كانت تخفي وجهها، ربما كانت تحاول أن تنام بهذا الشكل. كل خشخشة كانت تفزعها: صراخ القطط المهيجة جنسيا، الطلقات البعيدة من جهة الشيخ جراح أو العيساوية، نداء المؤذّن قبيل الفجر من على رؤوس المآذن في القدس العربية، مِنْ وراء الحدود. إذا أطفا والدي جميع الأضواء في البيت كانت أمّي تفزع كثيرا من الظلام. وإذا أبقى ضوء الممر كان الضوء يزيد من الصداع النصفي الذي تعاني منه. يبدو انه كان يعود قبيل منتصف الليل، مبتهجا سعيدا وقلبه مليء بالخجل، كان يجدها ما زالت يقظة تجلس على كرسيّها وتنظر بعينين جافّتين إلى الشباك المظلم. كان يعرض عليها فنجان شاي أو حليب ساخن ويحثّها على أن تحاول على الرغم من كل شيء، أن تضطجع في السرير وأن تنام، مستعد للتنازل لها عن السرير وأن يغفو هو على الكرسي، بدلا منها ربما كان ذلك يسهل عليها أن تنام أخيراً. من منطلق شعوره بالذنب كان أحياناً يركع على ركبتيه ويلبسها على قدميها جوارب الصوف الدافئة لأنه خشي أن تشعر بالبرد في قدميها.

عند عودته في منتصف الليل كان بالتاكيد يغتسل ويصوبن جسمه جيدا ويدندن بسرور بينه وبين نفسه طبعا بتزييف لا حدود له لحن «توجد لي حديقة/ وبئر توجد لي»،[2] يصحو على نفسه وسط الغناء فيسكت من فوره، خجلا، ثمّ يخلع ملابسه بصمت الخجل، يرتدي بيجامته المخططة ثمّ يعود ليعرض على أمّي بتذلل ورجاء فنجان شاي أو فنجان حليب أو كأس عصير،

---

(١) (من أشعار «الكسندر بن» كتبها في سنة ١٩٣٤ (المترجم)

(٢) قصيدة للشاعر حاييم نحمان بياليك (المترجم).

وربما كان يعود مرة أخرى يحثّها بلطف على أن تنام على السرير إلى جانبه أو مكانه. ويحرضها على أن تطرد من رأسها الأفكار السيئة وأن تفكر بكل ما هو جيد ولطيف. وفيما هو ما زال يلتف بلحافه كان يعرض عليها بعض الأفكار الجميلة التي يمكنها أن تفكّر بها، وبهذه الطريقة كان هو يغرق في النوم مثل الطفل لكثرة الأفكار الجميلة واللطيفة. لكنني أخمّن انه كان يستيقظ مرتين أو ثلاثا في كل ليلة، من منطلق شعوره بالمسئولية، يفحص ما هي احوال المريضة التي على الكرسي أمام الشباك، يقدم لها الدواء مع كأس ماء يصلح لها بطانيتها ثمّ يعود ليتابع النوم.

*

في نهاية الشتاء توقفت تقريبا عن تناول الطعام. كانت أحياناً تغمس قطعة قرشلة في كأس شاي وتقول بأنّ هذا يكفيها. وبأنّها تشعر بالغثيان وبأنها لا تشعر بشهية إلى الطعام. أنت لا تقلق، يا «آريه»، فأنا لا أتحرّك تقريبا، لو أنني آكل لكنت سمنت وأصبحت مثل أمّي، لا تقلق.

لي قال والدي بأسى:

«أمُّك مريضة والأطباء لا يعرفون مما تعاني. أردت أن أدعو أطباء آخرين ولكنها لا تسمح لي بأي شكل من الأشكال.»

وفي مرة أخرى قال لي:

«أمُّك تعاقب نفسها. فقط من أجل أن تعاقبني.»

أمّا جدي «ألِكْسَنْدِر» فقال:

«هيا، شتو. مزاج. السَّوداوِيَّة. نزوة. هذا دليل على أن القلب ما زال شابّاً.»

الخالة «ليلينكا» قالت لي:

«بالتأكيد أن الأمر ليس سهلا عليك أيضاً. أنت ولد حكيم وحساس، وأمّك تقول بأنك بصيص النور في حياتها. وأنت حقا بصيص نور. ليس كمن أنانيته الصبيانية تسمح له في هذا الظرف بالذات بأن يذهب ويقطف الأزهار في الخارج بدون أن يشعر بأنّه بذلك يضيف ألما إلى ألمها. غير

مهمّ. أنا تحدّثت الآن مع نفسي لا معك أنت ولد منعزل قليلا والآن ربما أنك تشعر أكثر من قبل، بالوحدة، لذلك، متى وجدت في نفسك حاجة لأن تتكلم معي، من القلب إلى القلب، فلا تتردّد. تذكّر من فضلك، بأن «ليليا» هي ليست صديقة أمك فحسب، بل، إذا سمحت لي، صديقة جيدة لك أيضاً؟ صديقة لا تنظر إليك كما ينظر الكبار إلى الصغار بل كنفس قريبة؟»

ربما فهمت أن الخالة «ليليا» قصدت بالكلمات «بأن يذهب ويقطف الأزهار» تقصد بأن أبي يخرج أحياناً في المساء لزيارة أصدقائه في بيوتهم، مع أنني لم افهم أي ازهار تنمو، حسب رأيها، في بيت عائلة رودنيتْسيكي الضيّق مع العصفورة الصلعاء والعصفور المصنوع من كوز الصنوبر وقطيع الحيوانات المصنوعة من ليف نخل الرّافية المحبوسة خلف زجاج «البوفيه»؟ أو في بيت عائلة أبْرَامِسْكِي اللذين لشدة فقرهما سكنا في بيت حقير ومهمل وبسبب حَدادهما توقفا كلية تقريبا عن تنظيفه وترتيبه؟ أو ربما خمّنت الأزهار الّتي تحدّثت عنها الخالة «ليليا» أنّها شيء لا يمكن أن يكون. لذلك لم أوافق على فهمه ولم أوافق على الربط بينه وبين تلميع الحذاء المضاعف وماء الكولونيا الجديد.

*

الذاكرة تخونني. أتذكّر الآن شيئا نسيته كليةً مباشرة بعدما حدث. ثمّ عدت وتذكّرته عندما أصبحت ابن ستّ عشرة سنة تقريبا. ومنذ ذلك الوقت عدت ونسيته. والآن في هذا الصباح أعود وأتذكر ليس الحدث نفسه بل بتذكره السابق والذي حدث هو الآخر قبل أكثر من أربعين سنة: كأن قمرا عتيقا ينعكس على زجاج الشباك ومنه تنعكس صورته في مياه البركة ومن تلك المياه تنتشل الذاكرة ليس الصورة التي لم تعد موجودة بل عظامها البيضاء.

ها هو: الآن هنا في عراد في يوم خريفيّ في الساعة السادسة والنصف صباحا أرى فجأة بحدة كاملة أرى نفسي وصديقي «لوليك» نمرّ في ظهيرة يوم غائم في شتاء سنة خمسين أو واحدة وخمسين في شارع يافا بالقرب من ميدان صهيون، و«لوليك» يضربني بقبضة يده بين أضلاعي ويهمس انظر جيدا، أليس هذا والدك يجلس هناك في الداخل؟ تعال نهرب من هنا بسرعة

قبل أن يضبطنا هاربين من درس «أفيسار»! وفعلا هربنا من هناك، ولكني خلال هربي شاهدت أبي عبر الزجاج يجلس هناك، داخل «مقهى زيخيل» على طاولة قريبة من الشباك الأمامي، يضحك يده تضع على شفتيه يداً عليها سوار لامرأة شابة كان ظهرها إلى الشباك، هربت من هناك وهربت أيضاً من وجه «الوليك» وحتى اليوم لم يكتمل هربي.

جدي «ألِكْسَنْدِر» دائما يقبل يد كل سيدة أمّا أبي فأحياناً. وبالإضافة إلى ذلك كان فقط يأخذ يدها وينحني بحيث ينظر إلى الساعة التي على يدها ليقارن بينها وبين ساعته، دائما كان يفعل ذلك، تقريبا مع كل واحد فعل ذلك، الساعات هي هوايته. وبالإضافة إلى ذلك كانت تلك المرة الوحيدة التي اهرب فيها من درس، لم أهرب ولا مرة في حياتي من أيّ درس، وهذه المرة بالذات كانت من أجل الذهاب لمشاهدة الدبابة المصرية المحروقة التي وضعوها في «ساحة المسكوبية» وأكثر من ذلك فأنا لن أهرب من أيّ درس مهما كان إلى الأبد.

*

كرهته. لمدة يومين تقريبا. من شدة الخجل. وبعد يومين انتقلت لأكره أمّي، مع كل ما تعانيه من الصداع النصفي وكل المسرحيات الهزلية وهذا الإضراب الذي تقوم به على الكرسي أمام الشباك، أنّها هي المذنبة لأنها هي نفسها التي دفعته للبحث عن علامات للحياة. بعد ذلك كرهت نفسي لأنني سمحت لـ«الوليك» بان يغريني كما الثعلب والقط في «بينوكيو» على أن أهرب من درس السيد أفيسار: لماذا لا توجد عندي شخصية؟ لماذا كل واحد يمكن أن يؤثّر عليّ بسهولة؟ وبعد ذلك باسبوع نسيت الحكاية كلها تماما ولم أتذكر ما شاهدته عبر زجاج شباك «مقهى زيخيل» حتى حانت ليلة سيئة في كيبوتس «حولدا» عندما كنت ابن ستّ عشرة سنة تقريبا. نسيت «مقهى زيخيل» كما نسيت تماما والى الأبد، وكأنه لم يكن، ذلك الصباح الذي عدت فيه مبكرا من المدرسة ووجدت أمّي تجلس بهدوء تلبس روبها الفلانيلة ولكن ليس في الكرسي أمام الشباك بل فجأة في الساحة، على كرسي الاستراحة تحت شجرة الرمان التي تجرّدت من أوراقها تجلس مستريحة يحلق على شفتيها شيء يشبه

الابتسامة ولكنه لم يكن ابتسامة، الكتاب كان كالعادة ملقى مفتوحا ومقلوبا على ركبتيها ومطر غزير يهطل عليها وربما لساعة أو لساعتين لم يتوقف المطر البارد من الهطول عليها، وفقط عندما أنهضتها وسحبتها إلى الداخل كانت مشبعة بالماء ومتجمدة من شدة البرد مثل عصفورة مبللة لن تنجح في أن تطير مرة أخرى إلى الأبد. سحبت أمّي إلى الحمام وأحضرت لها ملابس جافة من الخزانة وصرخت بها مثل رجل بالغ وأصدرت لها التعليمات من خلف باب الحمام، وهي لم تجبني ولكنها سمعت ونفّذت أقوالي بحذافيرها، ولكنها لم تتوقف عن ابتسامتها التي لم تكن ابتسامة أصلا. لم اقل لأبي شيئا لأنّ عيني أمّي طلبتا مني ألا افشي السرّ. وفقط للخالة «ليليا» قلت تقريبا هكذا:

«لكنك مخطئة يا خالة «ليليا». أنا، إلى الأبد، لن أصبح كاتبا أو شاعرا كما أني لن أصبح باحثا بأي شكل من الأشكال، لأنني أفتقر إلى المشاعر. المشاعر تسبب لي الاشمئزاز. أنا سأصبح مزارعا. سأعيش في الكيبوتس. أو ربما أنني سأكون مسمّما للكلاب. مع حقنة مليئة بسم الزرنيخ.»

*

في الربيع تحسنت حالها. في صبيحة يوم عيد غرس الأشجار الموافق الخامس عشر من شهر شباط العبري، في ذلك اليوم الذي افتتح فيه «حاييم وايزمن» رئيس «مجلس الدولة المؤقّت» جلسة الجمعية التأسيسية التي تحولت إلى «الكنيست» الأولى، لبست أمّي فستانها الأزرق واقترحت عليّ وعلى أبي الانضمام إليها في جولة صغيرة في غابة «تل- أرزا». منتصبة وجميلة بدت لي بفستانها هذا، وعندما خرجنا في نهاية المطاف من قبونا المثقل بالكتب إلى ضوء الشمس الربيعية عادت تومض في بؤبؤي عينيها أشعة المحبة الدافئة. وضع أبي ذراعه في ذراعها بينما ركضت أنا أمامهما، مثل كلب صغير، عن قصد، لأنني أردت أن أفسح لهما المجال ليتحدثا فيما بينهما، أو ربما من فرط الفرح والسرور.

حضّرت أمّي للطرق ساندويتشات جبنة مع قطع بندورة وساندويتشات

بيض مسلوق مع فليفلة حلوة حمراء وسمك الأنشوفة. أمّا أبي فقد حضّر ثرموسا مملوءا بعصير البرتقال الدافئ الذي عصره بيديه. عند وصولنا إلى الغابة فرشنا تحتنا رقعة قماش صغيرة وتمدّدنا عليها نشم رائحة الصنوبر المشبعة بأمطار الشتاء. من بين أشجار الغابة أطلت علينا تلال صخرية اكتست بنباتات خضراء غامقة. عبر الحدود شوهدت بيوت القرية العربية شعفاط وبعيدا عند خط الأفق ارتفع نحيفا وسامقا مسجد النبي صموئيل. القرابة بين كلمة غابة («حورشا») في العبرية وكلمة («حيرش» وَ «حريشي»)التي تعني الصمت والهدوء وساكن وهادئ، وبينهما وبين كلمة («حريش») بمعنى حِراثة وكلمة («حَروشِت») بمعنى صناعة حفّزت والدي لأن يتحدث عن سحر اللغة. كانت أمّي مرتاحة وراضية وقد أضافت إليه الكلمات «حيشور»، وَ«حشرات عفيم»، وَ«راحَش»، وَ«شاحَر»، وَ«شحور»، وَ«شوحِير»، وَ«مشحَّر لطيرِف» التي كلها متصلة عن طريق تشابه الحروف بالغابة («حورش»/ «حورشا»).

بعد ذلك بدأت تحكي لنا عن أحد الجيران في أُوكرانيا، شاب نشيط وجميل كان يحسن التنبّؤ مسبقا في أيّ فجر بالضبط ستظهر أول بوادر المزروعات في حقول الشوفان، وفي أيّ فجر يطل برأسه أول رأس شمندر. هذا الشابّ، ستيفان، ودللوه باسم «ستيفاشي» أو باسم «ستيوفا»، كانت جميع البنات غير اليهوديات مولعات به إلى حد الجنون أمّا هو فقد أحب حتى الجنون إحدى المعلمات اليهوديات من المدرسة الثانوية «تربوت» وذات مرة حاول من شدة حبه أن يغرق نفسه في عباب ماء النهر ولكن لكونه سابحا ممتازا لم ينجح في الغرق بل جرفته المياه إلى إحدى العزب التي على شاطئ النهر وهناك أغرته صاحبة العزبة وبعد عدة شهور اشترت له خمارة وهناك بقي وربما ما زال هناك حتى يومنا هذا ولا شكّ انه تقبّح وتحَيْوَن لشدة انغماسه في الملذات من شرب ودعارة.

نسي أبي هذه المرة أن يسكتها عندما استعملت كلمة «دعارة»، حتى انه لم يصرخ بها «فيدش مالتشيك!». وضع رأسه على ركبتها وتمدّد على رقعة القماش واخذ متشتت الفكر، يمضغ ورقة عشب. وأنا فعلت مثله: تمددت

على القماش ووضعت رأسي على ركبة أمّي الثانية، مضغت الأعشاب وملأت رئتيّ بالهواء الخمريّ الدافئ المليء بالشذى والعبير المنعش وأصوات الحشرات السكرانة بالربيع، هواء لطيف غُسل بالأمطار وتطهّر برياح الشتاء. ما أجمل أن نوقف هنا ساعة الدهر وأن أتوقف عن هذه الكتابة حوالي السنتين قبل موتها، في صورة الخامس عشر من شباط العبري لثلاثتنا في غابة «تل أرزا»: أمّي بفستانها الأزرق، ومنديل حرير احمر مربوط بأناقة حول ما انكشف من عنقها، تجلس منتصبة وجميلة تسند ظهرها إلى جذع شجرة رأس أبي على ركبتها ورأسي أنا على ركبتها الثانية، وهي بيدها الباردة تربت مرتين أو ثلاثا على وجهينا وشعرنا. والعصافير المبتهجة تزقزق فوقنا بلا توقف على قمم أشجار الصنوبر المغسولة.

*

تحسّنت حالتها كثيرا في الربيع. لم تعد تجلس طوال النهار والليل على كرسيّها أمام الشباك ولم يسبب لها ضوء المصباح الكهربائي الغثيان ولم تعد تفزع من كل صوت. لم تعد تعمل أعمال المنزل وساعات القراءة التي أحبتها كثيرا. آلام الشقيقة أخذت تتضاءل. كما أن شهيتها عادت إليها تقريبا. مرة أخرى اكتفت بخمس دقائق أمام المرآة، احمر شفاه بسيط، القليل من البودرة والكحل، فرشاة شعر ودقيقتان إضافيتان لاختيار ذي ذوق رفيع أمام خزانة الملابس، كي تبدو أمامنا جميعا، غامضة وجميلة ومتألّقة. مرة أخرى ظهر في بيتنا ضيوف الجدال والنقاش الدائمين، الزوجان بار يتسهار (إيتسليفيتش) والزوجان أبْرامْسكي، من الحركة الإصلاحية المتحمسان جدّاً يكرهان من أعماق قلبيهما حكم مباي، وكذلك حنة وحاييم تورن وعائلة رودْنيتْسكي وتوشيا وغوسْتاف كروخْمَل اللذان قدما من دنتسيغ

وفتحا «عيادة للدمى» في شارع جيئولا. أحياناً كان الرجال ينظرون إلى أمّي نظرة سريعة، خجولة، ثمّ يسارعون إلى غض أبصارهم.

ومرة أخرى عدنا إلى الذهاب كل مساء يوم سبت إلى اشعال الشموع وتناول السمك المحشو أو رقاب الدجاج المحشوة والمخيّطة على مائدة الجدة شلوميت والجد ألِكْسَنْدِر المستديرة. في صباح يوم السبت كنا نذهب

أحياناً لزيارة عائلة رودْنيتْسيكي وبعد وجبة الغداء، في كل يوم سبت تقريبا، نخرج لنقطع القدس على طولها من الشمال إلى الجنوب، في رحلة «الحج» إلى بيت العمّ يوسف في حيّ تَلْبِيوت.

في أحد الأيام، على وجبة العشاء حكت لنا أمّي فجأة قصة مصباح قراءة، مصباح على عمود كان يقف بجانب الكرسي الّذي في غرفتها المستأجرة في مدينة براغ عندما كانت ما زالت طالبة تدرس التاريخ والفلسفة. والدي من جهته مرّ في اليوم التالي في طريق عودته من العمل على حانوتين للأثاث في شارع الملك جورج وكذلك على حانوت للأدوات الكهربائية في شارع بن يهودا: قارن بين الأسعار ثم عاد إلى الحانوت الأولى وعند عودته أحضر معه هدية لأمّي أجمل مصباح قراءة على عمود. دفع والدي تقريبا ربع راتبه الشهري على هذه الهدية. قبلتنا أمّي على جبيننا ووعدت بابتسامتها الغريبة بأنّ هذا المصباح الجديد سيبقى يضيء لكلينا وقتا طويلا بعد موتها. والدي الّذي يشعر بنشوة الانتصار لم يسمع كلماتها هذه لأنه لم يحسن دائما الإصغاء ولان طاقة كلماته الجارفة كانت قد جرفته إلى الأمام إلى الجذر السامي العتيق «نور» والى صيغته الآرامية «منيرتا» والى اللغة العربية الّتي تبنت صيغة منار.

أمّا أنا فقد سمعت ولم أفهم. أو فهمت ولم أدرك.

بعد ذلك تجدد نزول الأمطار. عاد أبي ثانية يطلب من أمّي، بعد التاسعة بعد أن أكون قد أرسلت إلى غرفتي لأنام، «أن يخرج لرؤية بعض الأشخاص». كان يعدها بأن يعود دون أن يثير أي ضجّة، وفي ساعة غير متأخرة، وكان يقدّم لها كاس حليب دافئ ويخرج وحذاؤه لامع تماما، ومنديل أبيض على شكل مثلث يطلّ من جيب جاكيته، كالذي لوالده، وفي أثره تفوح رائحة ماء الكولونيا. عندما كان يمرّ من تحت شباكي الّذي قد اظلم كنت أسمعه يفتح بنقرة مظلّته ويدندن بينه وبين نفسه بتزييف مسعور: «يد ناعمة كانت لها/ لم يجرؤ احد على لمسها»، أو : «عينان كانتا لها مثل نَجْمُ القُطْب الشّمالي/ وقلب ملتهب مثل الصحراءءءءء. . .»

*

لكن أنا وأمّي ضللناه وخدعناه من وراء ظهره: مع أنه شدّد دائما وكان يشدد كثيرا على ساعة إطفاء الأنوار في غرفتي، «في الساعة التاسعة تماما، لا التاسعة ونصف دقيقة»، كنا أنا وأمّي ننتظر حتى يبتعد صدى وقع أقدامه في منحدر الشارع المبلول، ثم أنطلق من سريري راكضا إليها لاستمع إلى المزيد المزيد من القصص. كانت أمّي تجلس على كرسيها في الغرفة الّتي كل حيطانها ونصف مسطبتها مكسوة بصفوف أو أكوام من الكتب، وأنا كنت أربض عند قدميها على الحصيرة، أسند رأسي إلى فخذها الدافئ أغمض عينيّ وأصغي. الأضواء في بيتنا كلها مطفأة باستثناء مصباح القراءة العمود الجديد الّذي يقف عند رأس كرسي أمّي. على الأباجورات كانت تدق الأمطار وتزمجر الرياح. أحياناً كانت تتدحرج فوق القدس قوافل رعد منخفض وخافت. أبي قد غادر وذهب إلى حال سبيله وأبقى لي أمّي وقصصها. في احدى المرات حكت لي عن الشقة الّتي كانت فوق غرفتها المستأجرة في براغ في الأيام الّتي كانت تتعلم فيها في الجامعة. لم يسكن في تلك الشقة، هكذا حكت، همسا، الجارات، هناك، طوال سنتين أحد سوى روحَي بنتين ميتتين: حدث في هذه الشقة ذات يوم حريق هائل، والبنتان الصغيرتان، «إميليا»، وَ «يانا» لم يستطيعوا إنقاذهما من السنة النيران. بعد الحادث هاجر والدا البنتين إلى ما وراء البحار. والشقّة المحروقة والمتفحّمة أغلقت وسُدّت أباجوراتها. لم تصلّح ولم تؤجّر. أحياناً، هكذا تهامست الجارات، سمعت من الشقة أصوات ضحكات وأعمال طيش خافتة. أحياناً، في ساعات الليل المتأخرة، كانت تتسرّب من الشقة أصوات بكاء واستغاثة.

أنا، قالت أمّي، لم أسمع أصواتاً كهذه، ولكن أحياناً كنت شبه متأكّدة أنّهم فتحوا هناك حنفية. وحرّكوا قطعة أثاث من مكانها. صوت أقدام حافية كان يمتد هناك من غرفة إلى أخرى. ربما استعمل الشقة المهجورة في الليل شخص ما لممارسة علاقات جنسية سرية أو لأغراض أخرى، مظلمة. عندما ستكبر ستتيقن من أن كل ما تسمعه الأذن في الليل يمكن أن يفسَّر على أكثر من وجه واحد. وعمليا، ليس في الليل فقط وليس بواسطة الأذن فقط: فما

تراه العين أيضاً وحتى ما تراه في وضح النهار يمكن دائما أن نفهمه دائما بعدة وجوه.

في الليالي الأخرى حكت لي أمّي عن «أوريديكا»[(1)] وعن «هادس» (الجحيم) وأورفيوس. حكت عن البنت اليتيمة بنت الثماني سنوات لشخصية نازية معروفة، سفاح يداه ملطختان بالدم قام الأمريكان بإعدامه في مدينة «نيرنبرغ» بعد تلك الحرب، ابنته الصغيرة أرسلت إلى مؤسسة للأولاد أصحاب المخالفات فقط لأنها ضبطت تزيّن صورته بالورود. حكت عن تاجر غابات شابّ من إحدى القرى المجاورة لروفْنو الّذي ضلّ الطريق واختفى في ليلة خريف عاصفة في الغابة وبعد ست سنوات تسلّل شخص ما في منتصف الليل ووضع حذاء التاجر الشابّ الّذي كان قد بلي وتفتت تحت سرير أرملته. حكت لي عن تولستوي الشيخ الّذي قام في أواخر أيّامه وترك بيته وأغمضت عيناه في سقيفة حارس السكة في محطة قطار نائية اسمها «أستابوفو».

مثل «بير جينت» و«أوزي» أمّه كنا أمّي وأنا الواحد من للآخر في ليالي الشتاء تلك:

نعم، كان لي الغلام صديقا وقت الضيق/ . . . وأنا والولد جلسنا كلانا / وبحثنا عن ملجأ من حياة بؤسنا/ . . . ها هكذا حكينا الأساطير/ عن العفاريت والأرواح الشريرة والملوك الجبابرة/ عن السحر وعن «ترولات» الّتي في الجبال/ . . . خطف عروس- نعم عن هذا أيضاً حُكي/ ولكن من ظنّ أن يذكر كل شيء![(2)]

(١) «أوريديكا»: حَبيبة العازف «أورفيوس» التي حاوَل إنقاذها من الجحيم تحت الأرض، بعد أن لدغتها حيّة فماتت، ولكن الآلهة وافقت على أن يخرجها حبيبها من الجحيم بشرط أن لا ينظر وراءه حتى يصلا سطح الأرض، و كاد أن ينجو بها، لكنه في اللحظة الأخيرة نظر إليها قبل صعودها إلى سطح الأرض، ففقدها وتاه في البلاد عازفاً مُشَرَّداً (المترجم).

(٢) هنريك إبسن، «بير جينت» النسخة العبرية: ترجمة ليئة غولدبرغ، إصدار «دفير لعام»، تل أبيب (١٩٥٣) الفصل الثاني ، المشهد ب، ص ٥٢ (المؤلف).

في كثير من الأحيان لعبت أنا وأمي في تلك الليالي في لعبة قصة بالتناوب: كانت تبدأ هي القصة وأنا أكمل ثمّ يعود خيط الحبكة إليها ثمّ إليّ مرة أخرى، فصل لها وفصل لي. كان أبي يعود قبيل منتصف الليل أو بعيده وعند سماع وقع أقدامه في الخارج كنا نطفئ نور المصباح ونقفز بسرعة إلى الأسِرّة مثل ولدين ارتكبا مخالفة انضباط ونتظاهر بالنوم الهادئ العميق. وأنا بين النوم واليقظة سمعت صوت وقع أقدامه في البيت الضيّق يخلع ملابسه ويشرب القليل من الحليب من الثلاجة، يدخل إلى الحمام يفتح الحنفية ويغلقها، يفتح ماء مقعد المرحاض، ثمّ يعود ويفتح الحنفية ثمّ يغلقها، يدندن بينه وبين نفسه بصوت خافت أغنية حب قديمة، ثمّ يعود إلى الثلاجة ليأخذ عدة جرعات من الحليب، ثمّ يتسلل حافيا إلى غرفة الكتب إلى الكنبة المفتوحة لتصبح سريرا زوجيا وبالتاكيد يضطجع هناك إلى جانب أمّي التي تتظاهر بأنّها نائمة، يدندن بصوت داخلي لحظتين أو ثلاثاً ثمّ يغط في نوم عميق مثل الطفل طوال الليل حتى السادسة صباحا. في السادسة كان أول من يستيقظ، يحلق ويرتدي ملابسه ويلتف بمريول أمّي ويتوجّه إلى المطبخ ليعصر لأمّي ولي عصير برتقال، يقوم بتدفئته قليلا بواسطة ماء كان قد غلاه، إناء داخل إناء لكي يقدم لكل واحد منا في السرير كأس عصير دافئ، لان العصير البارد من المحتمل كما سبق وعرفنا أن يسبب لنا الزكام.

*

وفي إحدى تلك الليالي عاود أمّي الأرق. كان سيئاً وضعها على سرير الكنبة إلى جانب أبي الذي ينام نوما وادعا في حين تنام نظارته بهدوء على الرفّ الذي بجانبه. وعليه فقد نهضت من السرير ولم تتوجّه هذه المرة لتجلس على كرسيّها أمام الشباك ولا إلى المطبخ البائس بل جاءت حافية إلى غرفتي رفعت اللحاف ونامت بقميص نومها إلى جانبي واحتضنتني وقبلتني حتى استيقظت. عندما استيقظت سألتني هامسة في أذني، إذا كنت موافقا على أن نتهامس قليلا هذه الليلة؟ نحن الاثنان فقط؟ وعذرا لأنني أيقظتك ولكنني محتاجة جدّاً إلى أن أتهامس معك؟ وفي هذه المرة بالذات سمعت في صوتها في الظلام ابتسامة كانت فعلا ابتسامة وليست ظل ابتسامة.

عندما علم زيوس أنّ بروميثيوس نجح في أن يسرق من أجل بني البشر شرارة واحدة من النار التي منعها زيوس نفسه عن البشر عقابا لهم، كاد ينفجر العجوز (زيوس) من شدة الغضب. نادرا جدّاً ما كانت الآلهة تشاهد ملكها حانقا ساخطا إلى هذا الحدّ. طوال أيام كثيرة دحرج رعوده المزمجرة فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. وفي غضبه قرر العجوز المتقد غضبا أن يرسل على البشر كارثة كبيرة في قناع هدية رائعة. وعليه فقد أمر الإله الحداد فايستوس بأن يصنع من التراب المخلوط بالماء تمثالا على شكل امرأة رائعة الجمال. علّمت الإلهة أثينا هذه المرأة الحياكة والنسيج وزيّنتها بأجمل الملابس. أمّا الإلهة أفروديت من جهتها فقد منحتها جمالا ساحرا بهر عيون جميع الرجال وأثار شهواتهم. أمّا هرمس إله التجار واللصوص فقد علمها أن تكذب دون أن يرتجف لها جفن، وكيف توقع القلوب وتضلل الناس. اسم هذه الجميلة كان بندورا، أي تلك التي تتمتع بجميع المواهب. أمر زيوس المتعطّش للانتقام بمنح بندورا هدية إلى أخ بروميثيوس المعتوه. عبثا حذّر بروميثيوس أخاه بان يلزم الحذر من هدايا الآلهة. رأى الأخ ملكة الجمال هذه فأخذ يقفز من شدة الفرح ببندورا التي وُهبت زوجة له، أضف إلى أنّها أحضرت معها مهرا له عبارة عن صندوق مليء بالهدايا من جميع الهة الأوليمبوس. في أحد الأيام رفعت بندورا غطاء صندوق الهدايا فأطلت منه الأمراض والعزلة والظلم والقسوة والموت. هكذا وصلت إلى هذا العالم كل الآلام التي نشاهدها من حولنا. إذا كنت ما زلت يقظا كنت أودّ أن أقول لك أيضاً بان الآلام في رأيي كانت موجودة قبل ذلك أيضاً. كانت آلام بروميثسوس وزيوس وآلام بندورا نفسها، هذا عدا آلام الناس العاديين مثلي. لم تخرج الآلام من صندوق بل على العكس، فقد اوجدوا صندوق بندورا من كثرة الآلام. ومن كثرة الآلام فتحوا الصندوق. غدا بعد المدرسة ستذهب إلى الحلاق لتحلق شعرك؟ انظر إلى أين يصل شعرك.

٥١

بين الحين والآخر كان والداي يأخذاني معهما عندما كانا يذهبان «إلى البلد». أي إلى شارع الملك جورج أو شارع بن يهودا إلى أحد ثلاثة أو أربعة مقاه مهمة ربما ذكرتني بشيء ما المقاهي في مدن وسط أوروبا في الفترة بين الحربين العالميتين: في هذه المقاهي وضعت تحت تصرّف الزبائن الصحف اليومية باللغة العبرية واللغات الأجنبية مركبة على عصيّ طويلة بالإضافة إلى نخبة من المجلات والدوريات الأسبوعية والشهرية بعدة لغات. تحت الثريات النحاسية والبلّور حلقت في فضاء هذه المقاهي خشخشة أجنبية مكبوتة مع دخان السجائر الأزرق - الرمادي ورائحة عوالم أخرى. عوالم فيها تتدفق ببطء حياة متروية هادئة من التفكّر والاطّلاع والمزاملة والمصادقة.

حول كل طاولة جلست مجموعة من السيدات الأنيقات والسادة المحترمين الذين تحدّثوا فيما بينهم بصوت منخفض. نادلون ونادلات بجاكيتات بيضاء ناصعة وفوطة مكوية مطوية على أذرعهم، حلّقوا بين الطاولات وقدّموا للضيوف القهوة الساخنة التي على وجهها عام ملاك من القشدة المجدولة، أو الشاي السيّلاني مع تركيز كان يقدم منفصلا، داخل أباريق صغيرة من الخزف الصيني، بالإضافة إلى حلوى محشوّة بالليكر، كعك عجين متخمر وكعك تفاح مع قشدة، وكعك شوكولاطة مطلية بطبقة زجاجية من الفانِيليّا، كؤوس من البنش الساخن في الأمسيات الشتوية، وكؤوس صغيرة من الليكر والكونياك (في سنة ألف وتسع مئة وتسع وأربعين وفي سنة ألف وتسع مئة وخمسين حلّت بدائل القهوة محل القهوة كما أن

الشوكولاطة والقشدة كانت على ما يبدو إحدى هذه البدائل).

في هذه المقاهي كان والداي يلتقيان بين الحين والآخر مع مجموعة مختلفة من معارفهما، بعيدا عن حلقات الجيران مصلّحي الدمى مثل الزوجين كروخمل وموظفي البريد الصغار وكثيري الجدال مثل ستاشيك روذنيتْسكي. هنا اجتمعا مع أشخاص متميّزين ومتفرّدين مثل الدكتور بفيفيرمان الذي كان مسئولا عن والدي في عمله في قسم الصحافة في المكتبة القومية، ومثل، الناشر يهوشواع تشيتشيك الذي كان يحضر بين الحين والآخر من تل أبيب لزيارة القدس لمتابعة مصالحه، ومثل عالم بفقه اللغة أو مؤرخ شابّ وواعد، من سن والديّ، والذي فتحت أمامه أبواب الجامعة، وكذلك باحثين ومثقفين من بينهم أيضاً معيدون للبروفيسورات الذين على ما يبدو شقوا طريقهم إلى المستقبل. أحياناً حظي والداي بان يقابلا هنا اثنين أو ثلاثة أدباء مقدسيين الذي تشرف أبي جدّاً بمعرفتهم: دوف قمحي، شراجا قدري، يتسحاق شنهار، يهودا يعاري. حاليا نُسي هؤلاء الأدباء من أذهان الناس، كما أن غالبية قرائهم قد قضوا نحبهم، أمّا في تلك الأيام، فقد ملأ صيتهم البلاد وكانت أسماؤهم على كل لسان.

استعدادا لمثل هذه اللقاءات كان أبي يغسل شعر رأسه، يلمّع حذاءه ثمّ يعود ويلمعه حتى يصبح يتلألأ مثل حبات ماس سوداء، يثبّت دبوسا فضّياً على ربطة العنق المفضّلة عنده، تلك المخططة باللون الرمادي والأبيض، يشرح لي مرارا وتكرارا قواعد الآداب والواجبات الملقاة على عاتقي، أن أردّ بإيجاز وبذوق رفيع إذا ما توجه أحدهم إليّ بسؤال. أحياناً، قبل خروجنا إلى المقهى كان أبي يضيف على حلقة ذقنه الصباحية حلقة مسائية خاصّة، حلقة ليست في الحسبان. أمّي أيضاً كانت تلبس احتفاء بالمقهى عقد المرجان ذا اللون البرتقالي- الأحمر الفاتح الذي كان يلائم إلى حد الرّوعة السُفْعَة الزيتية لبشرتها وأضفى على جمالها المكبوت صبغة صاعقة كامرأة ايطالية أو يونانية.

*

لقد انفعل الباحثون والأدباء المشهورون من حدّة ذهن أبي ومن سعة درايته وإلمامه: لقد عرفوا بأنهم يستطيعون الاعتماد على ينابيع معرفته

الواسعة في المسائل التي تعجز المعاجم والكتب المساعدة التي تحت تصرفهم عن إسعافهم. ولكنهم أكثر مما استعانوا بأبي وفرحوا باستغلال خبرته ومعرفته كانوا يستمتعون بشكل مكشوف بصحبة أمّي: إنصاتها العميق المُلهم، كانت تستمد منهم قوة على الكلام لا تعرف الكلل: هناك شيء ما في حضورها التأمُّليّ، في أسئلتها غير المتوقعة، في نظرات عينيها، في ملاحظاتها التي تلقي، أحياناً، ضوءا آخر وغير متوقّع على موضوع المحادثة، كان يسبب لهم أن يتكلموا ويتكلموا كمن أصابهم سكر خفيف على عملهم، على التشكّك في إبداعاتهم، على نواياهم وانجازاتهم. بين الحين والآخر كانت أمّي تسوق اقتباسا مناسبا من مؤلفات المتحدث نفسه وتشير إلى قرابة ما بينها وبين روح أفكار تولستوي. أو أنّها كانت تستهدي في الأقوال جانبا رواقيّاً، أو تقول ملاحظة بميلة خفيفة من رأسها - كان صوتها في هذه اللحظة يتخذ جودة النبيذ الغامق- لأنه هنا يخيّل إليها بان أذنها تستوعب عند الكاتب الذي يجلس معنا حول الطاولة في المقهى نغمة شبه اسكندنافية، صدى لكتابة هامسون أو ستريندبرغ، أو ربما صدى بعيد لكتابات الصوفي عمانوئيل سفيدينبورغ. بذلك كانت أمّي تعود إلى صمتها والى إصغائها المتحفّز، تعود لتصبح كلها إناء استقبال دقيقاً وصافياً، في حين أنهم يتوقون ويغمرونها بكل ما كان وما لم يكن عندهم ويتنافسون على كسب انتباهها وإصغائها.

بعد سنوات، عندما حدث أن التقيت باثنين منهم، قالا لي بأنّ أمّي كانت ساحرة جدّاً وكانت أيضاً قارئة رائعة وموهوبة، قارئة يحلم بمثلها كل أديب وهو في وحدته أمام طاولة الكتابة في ليالي الكتابة الشّاقّة المرهقة. من المؤسف أنّها لم تترك وراءها آثارا مكتوبة. من يدري، قالا، من الممكن أننا بموتها قبل الأوان فقدنا كاتبة ملهمة جدّاً، وذلك - في السنوات التي فيها كان يمكن عدّ النساء اللواتي يكتبن في الأدب العبري على أصابع يد واحدة.

وإذا التقى هؤلاء الأشخاص المهمّون بأبي في المكتبة أو في الشارع كانوا يتحدّثون معه دقائق معدودة عن رسالة وزير التربية والتعليم دينور إلى رؤساء الجامعات حول زلمن شنيئور الذي يحاول في شيخوخته أن يكون

والت وايتمان أو حول التساؤل من سيحتل كرسي البروفيسور كْلاوزْنِر عندما سيخرج إلى التقاعد ويخلي كرسيه؟ بعد ذلك كانوا يربتون له على كتفه ويقولون بعيون لامعة ووجوه مشعة، انقل من فضلك سلامنا إلى اهل بيتك والى حرمك بشكل خاصّ اْمرأة عجيبة في الحقيقة امرأة حضارية - متنوّرة جدّاً، رفيعة الذوق! مبدعة- خَلاقة جدّاً!

بمحبة وودّ كانوا يربتون على كتفه ولكنهم في قلوبهم من الداخل ربما كانوا يحسدونه على زوجته، كما أنهم تعجبوا منها: ماذا وجدت فيه، في هذا الشخص المتحذلق، صحيح أنه حصل على علامة لا مثيل له وأنه شخص نشيط ونزيه وحتى باحث مهم نسبيا، ولكن، الحق يقال، إنه شخص مدرسيّ إلى حدّ ما، إنسان غير موهوب تماما.

*

أمّا أنا فقد فرضت عليّ وظيفة خاصّة في محادثات المقهى هذه: أوّلا كان عليّ أن أجيب بأدب وفطنة مثل الكبار تماما عن أسئلة صعبة مثل كم عمري؟ وفي أيّ صفّ؟ وهل أنا حقا اجمع الطوابع والجوائز؟ وماذا يدرسوننا الآن في دروس الموطن؟ وماذا - في دروس اللغة العبرية؟ وإذا كنت ولدا جيدا؟ وإذا سبق لي وقرأت من مؤلفات دوف قمحي (أو يعاري، أو قدري، أو إيفن زهاف، أو شنهار)؟ ومعلميّ - هل استلطفهم كلهم كثيرا؟ وأحياناً أيضاً: هل حقا بدأت اهتم بالفتيات الشابات؟ لا، ليس بعد؟ وعندما سأكبر - ربما سأصبح أنا أيضاً بروفيسورا ؟ وربما طلائعيا؟ أو جنرالا في جيش إسرائيل؟ (في قرارة نفسي توصلت في تلك الأيام إلى الاعتقاد بان الأدباء هم أشخاص مزيّفون إلى حد ما، وربما أنهم يثيرون الضحك قليلا.)

ثانيا، كان علي ألا أزعج.

أن أكون غير موجود، شفاف.

محادثات المقهى هذه كانت تستمر على الأقلّ سبعين دقيقة متواصلة في كل مرة، وعليّ كان أن ألعب طوال هذا الدهر دوراً خامداً وهادئاً أكثر حتى من المروحة المعلقة في السقف والتي تدور بهمهمة.

العقاب على خيانة الأمانة بحضور الغرباء يمكن أن يكون الحبس الكامل

في البيت والذي يبدأ العمل به فور عودتي من المدرسة ويستمر لمدة أسبوعين، أو سحب الإذن لي باللعب مع الأصدقاء، أو سحب الحق بقراءة كتاب قبل النوم لمدة عشرين ليلة تالية.

أمّا الجائزة الكبرى على مئة ساعة من الوحدة فقد كانت بوظة أو ربما كوز ذرة صفراء.

أمّا البوظة فلم يسمحا لي بها تقريبا لأنها تضرّ الحلق وتسبب الرشح. أمّا بالنسبة للذرة الصفراء والتي كانت تباع في زاوية الشارع من داخل وعاء كبير يغلي على بريموس، ذرة صفراء ساخنة تفوح منها رائحة شذيّة كان الرجل غير الحليق يلفها من أجلي بورقة ذرة خضراء ويرش عليها ملحا خشنا، والذي لم يسمحا لي به أبداً تقريبا، لأنّ الرجل غير الحليق كان يبدو غير نظيف فعلا. مياه الإناء بكل تأكيد تعج بالجراثيم. «ولكن إذا تصرف معالي جنابه في مقهى «عطارة» هذه المرة بشكل صحيح ولائق لا عيب فيه ولا خلل فإننا سنتساهل معه وسنسمح له في طريق عودتنا إلى البيت، بان يختار بين كوز ذرة صفراء وبين بوظة، كما تشتهي نفسه، اختيار حقيقي لا إكراه فيه».

وربما هكذا، في المقهى، على خلفية المحادثات اللانهائية بين والديّ وبين أصدقاء حول السياسة وحول التاريخ وحول الفلسفة والأدب حول كفاح البروفيسورات في الجامعة وحول مؤامرات ودسائس المحررين والناشرين، محادثات لم استطع فهم مضامينها ربما بحكم العزلة والفراغ تحولت رويداً رويداً إلى جاسوس صغير.

أي، طوّرت بيني وبين نفسي لعبة سرية، لعبة استطعت أن ألعبها ساعات تلو ساعات دون أن أتحرّك من مكاني، وبدون أيّ كلمة، وبدون أيّة أدوات، وحتى بدون قلم وورقة: كنت أنظر إلى الأشخاص الغرباء الذين في المقهى وأحاول أن أخمّن بناء على ملابسهم وحركاتهم، وبناء على الجريدة التي يقرؤونها وبناء على الضيافة التي يطلبونها من هو كل واحد منهم، ومن أين جاء، وإذا يعمل بشكل عام وماذا فعل قبل أن يحضر إلى هذا المقهى والى أين سيذهب بعد أن يخرج من هنا؟ بناء على أسارير الوجه كنت أتخيّل

بيني وبين نفسي ماذا يدور في خلد تلك المرأة التي ابتسمت لنفسها مرتين، وما هي مذكّرات ذلك الشاب النحيف الذي يعتمر قلنسوة والذي لا يحوّل بصره عن الباب ويصاب بخيبة أمل كلما دخل منه ضيف جديد؟ وكيف تبدو تلك التي ينتظرها؟ كنت أسترق السمع وأسرق من الهواء مقتطفات من المحادثات. كنت أنحني لأطلّ وأستوضح من يقرأ ماذا، من يسرع في الخروج لشئونه ومن يمكث جالسا على مهل.

وكنت اختلق لهم، لروّاد المقهى، وفق علامات خارجية معدودة وليست أكيدة قصص حياة ملتوية ومتشابكة وحتى تقشعر لها الأبدان: ها هي امرأة ذات شفاه مريرة وفتحة صدر عميقة، تجلس لوحدها هناك وسط غيمة من الدخان الكثيف بجانب طاولة في الزاوية وتدخّن. أكثر من ثلاث مرات، خلال أقلّ من ساعة، حسب ساعة الحائط الكبيرة التي فوق البار في المقهى، نهضت من مكانها واختفت في منافع السيدات ثمّ عادت لتجلس أمام فنجانها الذي فرغته من محتوياته، ثمّ تشعل سيجارة من سيجارة داخل «بزّ سيجارة» بني وتسترق النظر من حين إلى آخر نحو الشخص الأسمر الذي يجلس بمعطفه بجانب الطاولة التي أمام المشجب. حتى أنّها قامت مرة واحدة من مكانها وتقدّمت من الرجل ذي المعطف، انحنت، قالت له كلمتين أو ثلاثا، أجابها عليها بهزة رأس خفيفة، وها هي مرة أخرى تقف وتدخّن: ما أكثر الإمكانيات التي تكمن في هذا! كم غنيّ - حتى الدوار هو مشكال[1]- الحبكات والقصص التي يمكن تركيبها من هذه الشظايا! أو أنّها ببساطة طلبت منه أن يعطيها جريدة «هبوكير» (الصباح) بعد أن ينتهي من قراءتها؟

حاولت عيناي عبثا الهرب من المنظر الجانبي لفتحة الصدر الواسعة للمرأة التي تجلس على الطاولة في الزاوية ولكنني عندما أغمضت عينيّ كان الصدر يقترب، يرسل إليّ دفأه حتى انه كاد يطوّق وجهي. بدأت فرائصي

---

(١) المشكال أو الكاليدوسكوب : أداة بداخلها قطع صغيرة من الزجاج الملون والمرايا عندما تتغير أوضاعها تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية مختلفة الألوان (المترجم).

ترتعد. هذه المرأة تنتظر هنا حبيبها، الذي وعدها بان يأتي ونسي، لذلك فهي تجلس هناك وتدخن على هذا النحو، بنوع من الإدمان، واليأس، السيجارة من السيجارة وفنجان القهوة تلو الفنجان لكي تحرق الدموع التي في حلقها. بين الحين والآخر كانت تختفي في منافع النساء لكي تخفي بالمكياج أثر الدموع في وجهها. بينما للرجل الذي يرتدي المعطف فقد قدم له النادل الآن كأس ليكر لكي يخفف من حزنه على زوجته التي تركته وهربت مع عشيقها الشابّ: ربما، كلاهما العاشق والزوجة الهاربة يبحران في هذه اللحظة بالذات في سفينة ترف ورفاهية يرقصان وكل منهما يحتضن الآخر في ضوء القمر الذي ينعكس في مياه المحيط، يشتركان على ظهر السفينة في الحفلة التي يقيمها الربّان، موسيقى سينما أديسون الحالمة تطوّق رقصهم، وهما في طريقهما إلى أحد مواقع اللهو الإباحية والخليعة، أن موريتس، سان مارينو، سان فرانسيسكو، سان باولو، سان سوسي.

من هنا كنت أتابع حبك خيوطي العنكبوتية: العاشق الشاب الذي تصورته في شخصية الملاح الشجاع المرسوم على علبة السجائر نلسون ما هو إلا ذلك الشاب الذي وعد المرأة المدخنة بان يلتقي معها، هنا، هذا المساء، والآن هو موجود على بعد ألف ميل من هنا. عبثا تنتظره. «أحقاً أنت أيضاً، سيدي، تركت وحيدا؟ أحقاً أنت أيضاً بقيت مثلي، وحيدا في هذا العالم؟» هكذا، بلغة عبرية بلغة كتب دار النشر «أومنوت» (الفن) ولغة كتب الأطفال تأليف تسفي ليبرمن- ليفنه، بكل تأكيد سألت المرأة الرجل لابس المعطف عندما اقتربت قبل لحظة من طاولته وانحنت إليه وأجابها هو بقوله نعم برأسه. بعد قليل سينهض هذان المهجوران وسيخرجان معاً من المقهى. وفي الخارج، في الشارع، ستتشابك ذراعاهما دون أن يحتاجا إلى أن يقول أيّ منهما للآخر أيّة كلمة إضافية.

إلى أين يذهبان؟

كان الخيال يرسم الطرق المليئة بالأشجار والحدائق، ومقعداً تغمره أشعة القمر، ودرباً يقود إلى بيت صغير محاط بسور حجريّ، وضوء شمعة، وأباجورات مغلقة، وموسيقى، وهنا تتحول القصة إلى جميلة ورائعة أكثر مما

يمكنني أن أقصّها على نفسي أو أن أتحملها، فكنت أسارع إلى الابتعاد بكل قوّتي عن قصة هذا الثنائي - اللا- زوج. وبدلا منهما حملقت ببصري بسيّدين تجاوزا سن الشباب جلسا بجانب طاولة مجاورة لطاولتنا، كانا يلعبان الشطرنج، تحدثا بينهما بلغة عبرية- ألمانية، أحدهما كان يمصّ - يلاطف ويدلّل بين أصابعه غليونا مطفأ مصنوعا من الخشب الأحمر الفاتح، أمّا الآخر فكان بين الحين والآخر يمسح بمنديل ذي ترابيع عرقا غير ظاهر من على جبينه العالي. جاءت، فجأة نادلة وهمست بشيء ما في أذن السيد مع الغليون وهو طلب بلغة عبرية- ألمانية العفو من زميله والعفو أيضاً من النادلة، اتّجه إلى التلفون الذي بجانب كوة التقديم وتكلم هناك ما شاء له أن يتكلّم. بعد ذلك وضع السماعة وتوقف لحظة، مرتبكاً، مشتّت الفكر، لا حول له ولا قوة، ثمّ تقدّم وقدماه لا تقويان على حمله إلى طاولة الشطرنج، عاد وطلب العفو، على ما يبدو عفو زميله في اللعبة، كما شرح له شيئا ما، وهذه المرة بالألمانية، ثمّ ترك بعض القطع النقدية على زاوية الطاولة وأراد أن ينصرف، إلا أن زميله غضب وبالقوة تقريبا حاول أن يعيد كلّ النقود إلى جيب صاحب الغليون، الذي منعه من ذلك حتى أن النقود تناثرت، مصدرة رنينا معينا، تحت الطاولات المختلفة، عندها كفّ السيّدان عن محاولاتهما وركعا على أربع يجمعان النقود التي تناثرت.

عبثا: لأنني قد قررت بالنسبة إليهما أنهما أبناء عمّ، وأنهما الوحيدان اللذان نجوَا، من بين جميع أفراد العائلة، الذين قتلهم الألمان. وقد أثريت القصة بميراث ضخم ووصية غريبة بناء عليها الذي يغلب في لعبة الشطرنج يحصل على الثلثين أمّا الخاسر فسيضطر إلى الاكتفاء بثلث أموال الوصية. بعد ذلك ألحقت بالقصة أيضاً بنتا يتيمة في مثل سنّي، يتيمة أرسلت ضمن هجرة أبناء الشبيبة إلى كيبوتس أو إلى إحدى المؤسسات التربوية، وهذه البنت اليتيمة هي، وليس ابني العمومة لاعبي الشطرنج، هي- هي الوريثة الحقيقية. في هذه المرحلة خطوت أنا أيضاً إلى داخل القصة: بصورة الفارس حامي اليتامى ومخلّص الميراث الخرافي من أيدي من ليس أهلا له لمن هو أهل له، ليس مجانا بل مقابل الحب، ولكني عندما توصّلت إلى الحبّ

عادت عيناي وأغمضتا وكانت هناك حاجة ملحة لأن أقطع القصة وأن أبدأ بالتجسّس وراء جالسي طاولة أخرى. أو وراء النادلة العرجاء ذات العيون السوداء والعميقة. هكذا، على ما يبدو، بدأت حياة كتابتي: في المقاهي. انتظارا لحبة بوظة أو كوز ذرة صفراء.

حتى اليوم أقوم بالتّشل على هذا النحو. والغرباء خاصّة. وبالذات في الأماكن العامة التي تعجّ بالبشر. في الدور في عيادة صندوق المرضى، على سبيل المثال. أو في الانتظار عند مداخل المكاتب، أو في محطات القطار أو الموانئ الجوية. وأحياناً خلال السياقة، في الاختناقات المرورية، عند النظر إلى راكبي السيارات المجاورة: أنظر واختلق القصص. أختلق وأنظر ثمّ أختلق. من أين هي قادمة، هذه، بحسب ملابسها، بحسب تعابير ملامح وجهها، بحسب حركاتها وهي تصلّح مكياجها؟ كيف تبدو غرفتها؟ كيف هو رجلها؟ أو ذاك، هناك، ذلك الشاب ذو السوالف على خديه والتي لم تعد موضة شائعة، ذلك الذي يمسك بهاتفه الخليوي في يساره ويعبّر بيده اليمنى مقاطع، علامات تعجّب، علامات ضائقة؟ لأيّ غرض، عمليا، يريد أن يطير غدا إلى لندن؟ في أيّ أنواع الأعمال يتنقل؟ من ينتظره أو تنتظره هناك؟ كيف هو شكل والديه؟ ومن أين هما؟ كيف كان هو نفسه في طفولته؟ وكيف ينوي أن يقضي هناك المساء والليلة بعد أن يهبط في لندن؟ (حاليا، لم اعد أتوقف مفزوعا عند عتبة غرفة النوم بل أحلق بداخلها أرى ولا أُرى.)

إذا لاحظ الأغراب نظراتي المتعقّبة والمتفحّصة، ابتسم إليهم بتشتت كمن يستميحهم العذر، ثمّ أصرف نظراتي عنهم: إذ لا رغبة لي في إرباكهم. أخشى كثيرا من أن أُضبط وأنا متلبس بعمليات التلصّص التي أقوم بها، لئلا يطلب مني ضحاياي أن أفسر. ولكن، بطبيعة الحال، بعد لحظة أو لحظتين فأنا لست بحاجة إلى أن أغرز عينيّ في أبطال قصصي العشوائية: فقد سبق لي ورأيت. نصف دقيقة يكونون بعدها قد تم اصطيادهم في آلة تصوير البَبَراتْسي المخفيّة.

في الحانوت، على سبيل المثال، في الطابور الذي يمتد نحو الصندوق: تقف أمامي امرأة غير طويلة ممتلئة الجسم بنت خمس وأربعين

سنة تقريباً، جذابة جدّاً لان شيئا ما في وقفتها، تعابير وجهها، شيء ما يرمز بأنّها قد جرّبت كلّ شيء ولا تهتزّ من أيّ شيء حتى أن أكثر الأشياء شذوذا وغرابة لا تثير فيها الرهبة أو الاشمئزاز بل القليل فقط من الفضول وحب الاستطلاع المسلّي. أمّا خلفي فيقف جنديّ شابّ في العشرين من عمره تقريبا، مكتئباً، يغرز عينين جائعتين في قوام المرأة المجربة. تحرّكت جانبا، نصف خطوة، كيلا أحجبها عنه، أخلي لهما غرفة مع سجادة سميكة ولأجلهما أغلق الأباجورات، وأقف مستندا عند باب هذه الغرفة من الداخل، وها هو المشهد في ذروته، بكل تفاصيله، بما فيه النوتة الكوميدية لتهيجه الخجل والخط المثير للشفقة لعطفها وطيبة قلبها. حتى اضطرت أمينة الصندوق أن توقظني برفع صوتها: نعم، تفضل؟ وبلهجة ليست روسية تماما بل ربما من إحدى الجمهوريات الآسيوية؟ وها أنا ذا في سمرقند وفي بُخارى الجميلة: جِمال بسنامين ومساجد مبنية بالحجارة الحمراء الفاتحة وقاعات الصلاة الدائرية ذات القباب المثيرة للمشاعر والمفروشة بالسجاد الناعم المخملي ترافقني وأنا في طريقي إلى الخارج وسلة مشترياتي في يدي.

*

بعد الخدمة العسكرية في سنة ١٩٦١ أرسلتني سكرتارية الكيبوتس حولدا للدراسة في الجامعة العبرية. تعلمت الأدب (العبري) لأنّ الكيبوتس كان بحاجة ماسّة إلى معلم للأدب (العبري) في المدرسة الثانوية التي كانت تسمى عندنا «صفوف تكملة»، وتعلمت الفلسفة لأنني أصررت على تعلّم الفلسفة. في كلّ يوم أحد بين الرابعة والسادسة بعد الظهر، كان يجتمع حوالي مئة مستمع في القاعة الكبيرة في بناية «مايزر» لسماع سلسلة محاضرات البروفيسور شموئيل هوغو بيرجمن حول موضوع «الفلسفة الجدلية» من كيركيغور وحتى مارتين بوبر. أمّي، فانيا تعلمت أيضاً الفلسفة عند البروفيسور بيرجمن على «جبل المشارف» سنوات الثلاثينات، قبل أن تتزوج من أبي، وكانت تتذكره بحرارة ومحبة. في سنة ألف وتسع مئة وواحدة وستين كان «بيرجمن» العجوز بروفيسورا متقاعدا، بروفيسورا فخريا ولكننا عشقنا حكمته الواضحة والثاقبة. كنت منفعلا من مجرّد التفكير بان

الشخص الذي يقف أمامنا هو ابن صف كافكا، وطوال سنتين - هكذا حكى لنا ذات مرة- جلس بجوار كافكا على طاولة واحدة في مدرسة ثانوية في براغ، حتى جاء ماكس برود واحتلّ مكانه على نفس الطاولة.

في ذلك الشتاء كان «بيرجمن» يدعو خمسة أو ستة من طلابه أولئك الذين أحبهم أكثر من الآخرين أو أولئك الذين أثاروا اهتمامه أكثر من غيرهم، ليحضروا إلى بيته بعد حوالي ساعتين من محاضرته. في كلّ يوم أحد في الساعة الثامنة مساء كنت أركب الحافلة رقم خمسة من حرم الجامعة الجديد في «جفعات رام» إلى بيت البروفيسور بيرجمن المتواضع في «رِحافْيا». رائحة خفيفة وثابتة، ولطيفة، نسمة مخلوطة من غبار الكتب، والخبز الطازج، ونبات الخبيزة الإفرنجية كانت تعبق في فضاء الغرفة. كنا نجلس على الكنبة وعلى السجادة عند قدمي أستاذنا الكبير، صديق الصبا لكافكا ومارتن بوبر ومؤلف كتب فلسفة ومنطق تعلمنا فيها تاريخ عِلْمُ المَعْرِفِيَّات وأسس المنطق، وكنا نصمت انتظارا لكل بنت شفة تصدر عنه. رجلا عريض المنكبين، رصينا كان شموئيل هوغو بيرجمن حتى في شيخوخته. بنظرته الحاذقة، نظرة نزّاعة إلى الشّكّ ومع ذلك بريء وساذج كنظرات طفل فضوليّ، يشبه بيرجمن كثيرا ألبرت أينشتاين العجوز في صوره. بلهجته الألمانية- التشيكية كان يخطو في اللغة العبرية ليس خطوات طبيعية وليس من دافع الملكية بل بنوع من الاحتفالية المبتهجة، مثل العاشق السعيد الذي استجابت له عشيقته في آخر المطاف والآن عليه أن يسمو بنفسه ليثبت لها أنّها لم تخطئ به.

الموضوع الوحيد تقريبا الذي شغل بال أستاذنا في لقاءاتنا الشخصية هذه كان خلود الروح أو الاحتمال، إن وجد هذا الاحتمال، للوجود الذي بعد الموت. حول هذا الموضوع كان يتحدث إلينا في أمسيات أيام الآحاد من ذلك الشتاء، على صوت المطر يقرع الشبابيك وعلى نغمات الرياح في الحديقة. أحياناً كان يسألنا عن رأينا وكان يتحول كله إلى آذان صاغية، ليس كمعلم صبور يحرس خطوات تلاميذه، بل كان ينصت كإنسان يسمعونه مقطوعة موسيقية معقّدة جدّاً وقد فرض عليه أن يعثر من بين نغماتها الكثيرة على نغمة واحدة، معينة، غير مهمة وأن يحدد إذا ما كانت نشازاً.

«لا شّيء،» هكذا قال لنا في إحدى تلك الأمسيات وأنا لم أنسَ شيئا، لم أنسَ شيئا حتى أنه يخيّل إليّ أنني أستطيع أن أعيد هنا كلماته كلها كلمة كلمة، «لا شيء يضيع. إلى الأبد. مجرد كلمة ضياع، تفترض أن الكون ظاهريا نهائي يمكن الانصراف منه. ولكن لاااااا شيء(مدّ بشكل مقصود كلمة لا)، لاااااا شيء إلى آبد الآبدين لن يخرج من الكون. ولا يدخل إليه. ولا ذرة غبار واحدة لن تضيع ولن تُضاف. المادة تتحول بالطاقة، والطاقة - في المادة، الذرات تتجمّع ثمّ تعود وتنفصل، كلّ شيء يتغير ويتحوّل ولكن لاااااا شيء يمكن أن يحول من الوجود إلى العدم. ولا حتى اصغر شعرة التي ربما تنبت في ذيل فيروس ما. مصطلح اللا نهاية هو حقا مفتوح نهائيا، مفتوح حتى اللا - نهاية، ولكنه في الوقت نفسه مغلق ومسدود بإحكام: لا يسمح بالخروج منه ولا بالدخول إليه.»

استراحة. ابتسامة ماكرة تنتشر مثل ضوء الشروق على عرض مشهد تجعدات وجهه الغني والجذاب: «وعليه، لماذا، ربما يتكرم أحدكم بأن يشرح لي، لماذا هم يصرون على أن يقولوا لي بأن الشيء الواحد والوحيد الشاذ، الشيء الواحد والوحيد المعدّ للذهاب إلى الجحيم، الشيء الواحد والوحيد الذي ينتظره الفناء الكامل في جميع أرجاء الكون والذي فيه لا تستطيع أي ذرة أن تفني أن تتحول إلى عدم هو روحي المسكينة؟ ماذا، كل ذرة غبار وكل قطرة ماء ستبقى موجودة إلى الأبد وإن تغيرت في الشكل، كل شيء- «الروح،» تمتم هناك من زاوية الغرفة، شاب عبقريّ، حاد ومتقد الذهن، «إنّ أحداً حتى الآن لم يرها.»

«لا،» وافق بيرجمن فوراً، «كذلك فإننا لا نلتقي بقوانين الفيزياء والرياضيات هنا على كل رصيف أو في كل مقهى. كذلك لا نلتقي بالحكمة ولا بالغباء ولا باللهفة ولا بالخوف أيضاً. إن أحداً لم يأخذ حتى الآن أيّ عيّنة من الفرح أو الحنين ووضعها في أنبوب اختبار. ولكن، من يا عزيزي الشاب، من يتكلّم إليك الآن؟ هل لعاب بيرجمن هو الذي يتحدث إليك الآن؟ أم هو طحاله؟ أو ربما أنه، بالصدفة، مَعْيُ بيرجمن الغليظ هو الذي يتفلسف معك؟ ومن، إذا سمحت لي، من هو الذي رسم، في هذه اللحظة،

الابتسامة غير اللطيفة إلى حد ما، على شفتيك؟ أليست هي روحك؟ أم ترى الغَضاريف؟ أم عصارة المعدة؟»

وفي مرة ثانية قال:

«ما الذي ينتظرنا بعد الموت؟ لااااا أحد يعرف هذا. على كلّ حال، ليس معرفة يوجد معها أيّ إثبات أو أيّ قدرة على الإقناع. إذا حكيت لكم الآن في هذا المساء بأنّني أسمع أحياناً أصوات الموتى وبأنّ صوتهم واضح ومفهوم أكثر من أصوات الأحياء، فإنّه من حقّكم أن تقولوا فوراً بأنّ هذا العجوز قد خرفن. جُنّ قليلا لشدّة خوفه من قرب أجله. لذلك، لن أحكي لكم عن أيّة أصوات بل وبالذات سأقول لكم هذا المساء مقولة رياضية: بما أن أحداً لا يعرف إذا كانت توجد هناك أيّة أشياء في الجانب الآخر لموتنا أو لا يوجد أيّ شيء، يمكن الاستنتاج من عدم المعرفة المطلقة هذه بأنّ احتمال وجود شيء ما هناك يعادل تماماً احتمال عدم وجود أيّ شيء. خمسون بالمِائة للفناء وخمسون بالمائة للبقاء. بالنسبة إلى يهودي مثلي، يهودي من وسط أوروبا من جيل الكارثة النازية، فإنّ احتمال البقاء هو احتمال إحصائيّ تماماً، وهو ليس سيئا بتاتاً.»

كذلك، في تلك السنوات، شدّت أيضاً وربما عذّبت مسألة الحياة بعد الموت (الباحث) جرشوم شالوم صديق بيرجمن وخصمه. في صباح اليوم الذي أعلن فيه، في الراديو، عن موت شالوم كتبت:

جرشوم شالوم توفي الليلة. الآن هو يعرف.

كذلك بيرجمن أصبح يعرف. وكذلك كافكا. وأمّي وأبي ومعارفهم وأصدقائهم وغالبية الرجال والنساء تلك المقاهي، أولئك الذين استخدمتهم لكي يحكوا لي القصص وأولئك الذين نسيتهم ونسيهم الجميع، كلّهم يعرفون الآن. ذات يوم سيتضح ذلك لنا أيضاً. مؤقّتاً سنتابع نحن نجمع التفاصيل المختلفة. لتكون.

٥٢

في سنة ١٩٤٩، بعد شهرين من انتهاء الحرب وفكّ الحصار عن القدس اليهودية، ذهبت مع أبي ومع يعكوف دافيد- أبرامسكي لزيارة الأديب يهوشواع هشل ييفين. في بيته التقينا بالشاعر المتحمس أوري تسفي غرينبرغ، الذي سبق وتعرفت عليه من قبل لأنّه كان ممن ترددوا على بيت العمّ يوسِف كْلاوزْنِر. وربما نزل عليه ضيفا في ذلك اليوم أيضاً الكاتب والصحفيّ آبا أحيمئير. أوري تسفي ألهب المشاعر وأشعل الحماس وصبّ جام غضبه، وشجب البؤساء «الحمر» الذين تنازلوا عن جبل الهيكل لصالح أغنياء «دغانيا» وعن قبر راحيل أمّنا لصالح العجول السمينة في اسطبلات كيبوتس «مزراع» أو «مرحافيا». السيد أبرامسكي انضمّ إليه ونعت بن غوريون بالقزم الشرير ونعت شرتوك بأنه وسيط مهجري يتذلل ويتوسّل للأغيار ويحاول أن يكسب ودّهم بواسطة فلسفات وكلمات منمقة ومناقشات لا طائل منها. أشار آبا أحيمئير إليّ وقال بأن الشباب الذين ولدوا هنا أشبال آريه (أسد) يهودا، بالمعنيين، هم الذين سيقومون عمّا قريب وسيحررون عملية الخلاص الصهيوني من الحكم الفاسد لـ«دودة يعقوب»[1]. بعد أن نتخلص من الدودة الداخلية تتحرر أيضاً أجزاء الوطن المغتصبة، «صهيون» وَ «إفرايم»، جبل الخليل وَأريحا، الباشان وَالجولان، وَجبل طور سيناء وَالجلعاد وَمؤاب، والأنهار «أرنون» وَ«وهب في سوفه».

(١) كناية عن شعب إسرائيل في المهجر بناء على إشعيا ٤١ : ١٤ (المترجم).

وكان هناك رجل ذو ذقن رفيع هو البروفيسور شتراوس أشتور، الذي اقترح إرسال غولدا مئيرسون وغيرها من «البقرات السمينات» ليغسلن الملابس الداخلية في الكيبوتس وليدفئن أسرّة الكومونة، وكيف سارعوا إلى إسكاته. كما أنهم أسكتوا أبي، الذي كان، على ما يبدو، أكثرهم اعتدالا، عندما فتح فمه أخيراً وقال ملاحظة وهو خائف، بانه في نهاية المطاف يجب ألا نتناسى بأنّ رجال الكيبوتسات قاتلوا ببسالة عالية في حرب الاستقلال وبكل تاكيد البلماح-

لكن الشاعر أوري تسفي لم يرغب في أن يسمع. ورفض باشمئزاز كأس الشاي الذي قدِّم له، وقال بصوت النادبين:

«إنهم ببساطة لا يريدون جبل الهيكل! إنهم لا يريدون «عنتوت» (عناتا) ولا «شيلوح» (سلوان)! كان بإمكانهم أن يحرروها ولم يحرّروها! إناء الزيت سُلم لهم بحيث كان بإمكانهم أن يطهروا- ولم يطهروا الهيكل ولم يشعلوا نار الله! كانت المعجزة عند العتبة، وراء حائطنا تماماً ولكنهم لم يريدوا: أعطهم طائفة ولكن لا ملكوت! طائفة نمل أعطهم - لكن لا قومية! كراسي وزراء - لكن لا الخلاص!» ثم غطى وجهه بيديه وربما بكى، «ضاع! ضاع! ضاع كلّ شيء! من السماء أرسلوا إلينا ملكوت إسرائيل الثالثة، تتضرج بدمائها قدموها لنا ولم يغمسوها بصلصلة الدبلوماسية، بالنار وليس بإحسان من الأمم، ولكننا مرة أخرى فضلنا العجل الذهبيّ على بريق الملكوت...»

*

كنت ولدا قوميا متقدا ومتوهجا في سنوات الصف الرابع والصف الخامس في مدرسة «تَحْكيموني». ألفت قصة تاريخية في حلقات بعنوان «نهاية مملكة يهودا» بالإضافة إلى قصائد احتلال وقصائد للمكابيين ولبار كوخفا وقصائد اعتزاز قومي كانت شبيهة بالمنظومات الوطنية الحماسية التي كتبها جدي ألِكْسَنْدِر حاولت فيها تقليد النشيد الوطني لـ«بيتار» وبقية أناشيد زئيف جابوتِنْسْكي القومية- الوطنية: «... احمل النار لتحرق، لا شيء!/ لان الصمت هو الوحل/ قدِّم دمك وروحك/ من أجل المجد الخفي!...»

كما تأثرت بنشيد المقاتلين اليهود غير النظاميين وثوار الغيتو: «وحيثما سالت قطرات دمائنا / فانه ستنمو أكثر شجاعتنا وجرأتنا ! . . .» وبقصائد شاؤول تْشرْنِيحوفْسْكي التي كان أبي يقرؤها لي بإلقاء حماسي وهو يرتجف ويرتعش: «لحن الدم والنار! اصعد الجبل وحطم المرعى، كلّ ما تراه - رثه!»

أكثر من أيّ شيء آخر انفعلت من «جنود مجهولون»، النشيد المظلم - الحماسي الذي كتبه أفراهام شتيرن الملقب بيئير قائد «الليحي». وأنا وحدي في السرير بعد إطفاء الأنوار كنت أردد همسا وبإلقاء حماسيّ: «نحن جنود مجهولون بدون لباس عسكري/ ومن حولنا الفزع والظلام والموت/ كلنا تجنّدنا مدى الحياة/ من عضويتها لا يحرّرنا إلا الموت/ . . .في الأيام الحمراء من المجازر والدماء/ وفي الليالي السوداء من اليأس/ في المدن والقرى نرفع علمنا / وعليه الدفاع والاحتلال! . . .»

عواصف الدم، والأرض، والنار والحديد فعلت عليّ فعلها المسكر الثاقب. المرة تلو المرة تخيلت نفسي أسقط ببسالة عالية في ساحة القتال، وتخيلت حزن وفخر واعتزاز والديّ، ومع ذلك- ودون أن أشعر بوجود تناقض- بعد سقوطي البطوليّ وبعد أن استمتعت متعة دامعة بخطابات التأبين المرموقة التي سيلقيها على مسامعي بن غوريون وَبيغن وَأوري تسفي غرينبرغ معاً في تشييع جنازتي، وبعد أن تفجّعت على نفسي كما اِسْتَمْتَعت وحنجرتي تكاد تختنق عندما شاهدت النصب التذكاري الرخامي وقصائد المديح التي كرّست لذكري، كنت دائما استيقظ سليما منتعشا من موتي المؤقّت، مشبعاً كلّي بتعظيم نفسي والإعجاب بها، وكنت أعيّن نفسي قائداً لجيوش إسرائيل وأقود كتائبي من أجل أن أحرر بالدم والنار كلّ ما لم تجرؤ «دودة يعقوب» المهجرية على تحريره من أيدي الخصوم والاعداء.

*

مناحم بيغن، قائد المنظمة الأسطوريّ كان معبودي الرئيسي في صباي في تلك السنوات. حتى قبل ذلك، في السنة الأخيرة لحكم الانتداب البريطاني هيّج القائد المجهول للمنظمة خيالي: لقد رسمت له في مخيلتي

شخصية محاطة بالشموخ والمجد كما لأبطال العهد القديم. تخيلت مقرّ قيادته السري في أحد الكهوف الموحشة في مجاري أنهار وأودية صحراء يهودا. حافيا يلبس حزاما من الجلد، ينفخ النيران مثلما فعل النبي إلياهو بين صخور ومغاور الكرمل، ومن هناك، من المغارة النائية يرسل أوامره بواسطة فتيان أبرياء سُذّج في الظاهر. في كلّ ليلة تمتدّ اليد الطويلة لقائد المنظمة إلى صميم قلب الاحتلال البريطاني، تطيّر إلى السماء بواسطة الديناميت القيادات والمنشآت العسكرية، تقتحم الأسوار والجدران تفجر مخازن الأسلحة وتصبّ جام غضبها على معسكرات العدو الذي كان يسمّى في المنشورات السرية التي كتبها والدي بالاسم: العدو الأنجلو- نازيّ. أو عماليق أيضاً.[1] ألبيون الماكرة (في حين قالت أمّي ذات يوم عن البريطانيين: «عماليق أم غير عماليق، من يدري لعلنا سنتوق إليهم ذات يوم»).

بعد قيام دولة إسرائيل خرج أخيراً القائد الأعلى لجيوش المنظمة السرية العبرية من مخبئه، وظهرت صورته في أحد الأيام في إحدى الصحف فوق اسمه: لم يكن اسمه آري بن شمشون ولا عفرياهو بن قدوميم بل مناحم بيغن. ذهلت: كان الاسم مناحم بيغن ملائماً ليكون اسما لأحد تجار الخردوات أو لوازم الخياطة الناطقين بالإيديش من شارع تسفانيا أو لأحد مصممي الباروكات وخياطي المشدّات ذوي الأسنان المذهبة من شارع جيئولا. وحقا، لخيبة أملي اتضح من الصورة في الجريدة أنّ بطل فتوّتي رجل هشّ وضعيف، نحيل، نظارة كبيرة معلقة على وجهه الشاحب، وشاربه هو الوحيد الذي شهد على قدراته السرية. إلا أنه لم تمض عدة شهور حتى تبخّر واختفى هذا الشارب. شخصية السيد بيغن وصوته ولهجته وطريقة كلامه لم تذكّرني بمن احتلوا كنعان بسرعة العاصفة ولم تذكرني بيهودا همكابي بل ذكرني بمنظر وتصرفات معلميّ الضعفاء الواهنين من مدرسة

---

(١) العماليق شعب سكن فلسطين قبل قدوم اليهود إليها من مصر وكان من الشعوب الأولى التي وقفت في وجههم وهو اسم يطلق الآن على كلّ من يعادي اليهود وأطلق بالذات على النازيين (المترجم).

«تَحْكيموني»، الذين كانوا هم أيضاً يضجون ويهدرون بالتهجمات والتحريضات القومية أو بغضب وحنق يتوهج بشرار العدالة ولكن من خلف بطولاتهم كان يطل للحظات نوع من العصبية المتزمتة مع حموضة مخفية.

*

وفي أحد الأيام، وبفضل مناحم بيغن بالذات، فقدت دفعة واحدة الرغبة في أن «أقدّم دمي وروحي/ من أجل المجد الخفي». انصرفت عن وجهة النظر القائلة بأنّ «الصمت هو الوحل». وخلال فترة زمنية معينة توصلت إلى وجهة نظر عكسية.

مرة كلّ عدة أسابيع كان نصف سكان القدس يجتمعون في أيام السبت في الساعة الحادية عشرة صباحا للاستماع إلى خطابات مناحم بيغن الحماسية - النارية في اجتماعات حركة «حيروت» في قاعة سينما أديسون في القدس، التي كانت اكبر قاعة في المدينة وعلى واجهتها الأمامية علقت إعلانات تبشر بالعرض القريب الذي ستقدمه الأوبرا الإسرائيلية بقيادة فورداوز بن- تسيسي. كان جدي يتجمّل استعدادا للاجتماع الشعبي في أديسون ببدلته السوداء الأنيقة وبربطة العنق ذات اللون الأزرق الفاتح والمصنوعة من قماش الساتان اللامع. محرمته البيضاء المطوية على شكل مثلث كانت تطلّ من جيب جاكيته وكأنها رقاقة ثلج في يوم حارّ. مع دخوله إلى القاعة قبل نصف ساعة من بداية الاجتماع، كان جدي يلوح بقبعته محيّيا إلى هذا الجانب والى ذاك، وأحياناً كان ينحني قليلا تحية لمعارفه. أمّا أنا ففي أجمل ملابسي وبشعر ممشّط جيّداً وقميص أبيض وحذاء لامع، كنت امشي إلى جانب جدي مباشرة إلى الصف الثاني أو الثالث في القاعة، حيث حفظت الأماكن الخاصة لشخصيات مهمة مثل جدي أَلِكْسَنْدِر، وأعضاء اللجنة المقدسية لحركة «الحيروت» - من تأسيس المنظمة العسكرية القومية («الايتسل»). كنا نجلس جدي وأنا، بين البروفيسور يوسف يوئل ريفْلين والسّيّد إلياهو مريدور أو بين الدكتور يسرائل شايب-إلداد وَالسّيّد حانوخ قلعي أو إلى جانب السّيّد آيزيك رامبا محرر جريدة «حيروت».

كانت القاعة دائما ممتلئة تماماً بمؤيدي «الايتسل» وبالمعجبين بمناحم

بيغن الأسطوري، كلهم تقريبا من الرجال، ومن بينهم آباء الكثيرين من أبناء صفي في مدرسة «تَحْكيموني». ولكن كان هناك خط رفيع خفيّ يفصل بين الصفوف الثلاث أو الأربع الأماميّة الأولى، الصفوف التي حُفظت للمثقفين أصحاب المكانة العالية والجاه، قدامى مجموعات «بيتار»، نشطاء الحركة الإصلاحية، الذين كانوا في السابق قادة منظمة «الايتسل»، والذين كانوا كلهم تقريبا من أصل بولنديّ أو ليتوانيّ أو بيلوروسي أو أوكرانيّ، وبين الجمهور السفارادي البُخاريّ واليمني، والكردي والحلبي الذي ملأ جميع أرجاء القاعة الأُخرى. هذا الجمهور الحماسي اكتظّ في الصالات وفي الممرات وعلى طول الحيطان وحتى في قاعة الدخول وفي الشارع، في الباحة التي أمام قاعة «أديسون». في القسم الأماميّ تحدّثوا بأحاديث قومية- ثورية مشبّعين بشهوة المجد والانتصار، استشهدوا بنيتشه وبمنتسوني، لكن ساده جوٌّ برجوازي صغير تمثّل في وقار ووجاهة بارزة: بدل رسمية وقبعات وربطات عنق وآداب التصرف والمعاشرة ونوع من أبهة الصالونات التي حتى في تلك الفترة في أوائل الخمسينيات فاحت منها رائحة خفيفة من النَفْثالين والعفونة.

بينما من وراء الصفوف الثلاثة أو الأربعة المخصصة لأعضاء «الدائرة الداخلية» هاج وماج بحر واسع من المؤمنين المتحمسين: مشبّعين بالتزمّت والإيمان اكتظّ هناك أصحاب الحرف وباعة الخضراوات والعمّال من بينهم من يضعون «الكيباه» والذين جاءوا مباشرة من الكنيس بعد تأدية صلاة الفجر يوم السبت لكي يستمعوا إلى بطلهم وقائدهم السّيّد بيغن، يهود بائسون فقراء يتدثّرون بملابس الفقر، يرتعشون لشدة الاستقامة، حسّاسون ومتحمّسون، من السهل إثارة حماسهم، وهتافاتهم العالية.

في بداية الاجتماع كانوا ينشدون من أناشيد «بيتار» وفي نهايته كانوا ينشدون نشيد الحركة والنشيد الوطني. منصة قاعة «أديسون» كانت مزدانة كلها بأعلام الدولة وبصورة عملاقة لزئيف جابوتِنْسكي، وبصفّين مستقيمين كالمسطرة من أبناء شبيبة حركة «بيتار» بملابسهم الخاصة الفاخرة وربطات العنق السوداء، كم كنت أتوق إلى أن أكبر وأن أصبح واحدا منهم، وكذلك بشعارات هيّجت قلبي مثل: «يوديفت، مسادا، بيتار!»، «إن نسيتك يا

أورشليم - تنسى يميني!»[1] وَ«بالدم والنار سقطت يهودا- بالدم والنار ستحيى يهودا!»

*

بعد خطابين أو ثلاثة «خطابات تسخين» ألقاها رؤساء لجنة الفرع المقدسي كانت منصة الخطباء تخلو فجأة من كلّ جلساء منصّة الشرف. كما نزل عنها أبناء شبيبة «بيتار» بمسيرة عسكرية. صمت ديني، عميق كان يخيّم على قاعة «أديسون» مثل رفيف أجنحة خافتة. جميع العيون تسمّرت نحو المنصّة الفارغة وكل القلوب استعدت. استمر صمت الانتظار لحظة طويلة وفجأة ارتجف شيء ما في أعماق القاعة، ظهر شقّ صغير بان للحظة بين جناحي الستارة المخملية الخلفية، وإذا برجل صغير ونحيف يخطو لوحده بخطوات لطيفة باتجاه الميكروفون ويقف أمام الشعب بتواضع ورأس مطأطأ كالخجول. بعد عدة ثوانٍ من الدهشة بدأت تتصاعد من أطراف القاعة التصفيقات الأولى، مترددة: وكأنّ الشعب يواجه صعوبة في أن يصدق ما تراه عيناه، وكأنهم في كلّ مرة يندهشون من جديد عندما يتضح لهم أن مناحيم بيغن ليس عملاقا ينفخ النيران جاء من بلاد الجبابرة بل رجلا نحيفا وضعيفا هشّاً. ولكن الهتافات سرعان ما ارتفعت ومن الخلف تحولت الهتافات بسرعة إلى صرخات حب رافقت خطاب «بيغن» على طوله تقريبا.

وقف الرجل بلا حراك عدة ثوانٍ، رأسه مطأطأ وكتفاه هابطتان كمن يقول بدون كلمات: «أنا أقلّ من أن أكون جديرا بهذا الإعجاب/ التقدير كله،» أو «انحنى جسمي حتى الأرض تحت وطأة محبتكم.» بعد ذلك فتح ذراعيه كمن يحيي الجماهير، بنوع من الارتباك، أسكتهم وبدأ يتكلم بصوت متردد، كممثل مبتدئ غلبته الرهبة من الجمهور:

«سبت السلام والبركة على كلّ واحد وواحدة منكم، أيُّها الأخوة والأخوات، أبناء شعبي. أبناء القدس مدينتنا المقدسة الأبدية/ الخالدة.»

ثم سكت. وفجأة قال بهدوء وبحزن شديد، كمن يندب:

---

(١) (مزامير ١٣٧: ٥) (المترجم).

«أيُّها الأخوة والأخوات. هذه هي أيام عصيبة تمرّ على دولتنا الفتية والغالية. أيام عصيبة لا مثيل لها. أيام فظيعة لنا جميعا.»

رويداً رويداً تغلب على حزنه، وكمن ينتعش ويجمع قوته أضاف، وهو مازال هادئاً ولكنه الآن تحول إلى هدوء احتوى على قوة داخلية مكبوتة، كمن يخفي وراء غشاوة الصمت نوعا من التحذير المكبوت ولكنه جديّ جدّاً:

«مرة أخرى يَحْرُق أعداؤنا الأُرَّمَ في الظلام ويتآمرون للانتقام منا على هزيمتهم المشينة في ساحات القتال. كما أن الدول العظمى عادت تتآمر علينا بالسوء. لا جديد. في كلّ جيل يقومون ضدنا ليبيدونا. ولكنّنا، أيُّها الأخوة والأخوات، هذه المرة أيضاً ستتغلب وننتصر عليهم، كما انتصرنا عليهم أكثر من مرة أو مرتين. بالشجاعة سننتصر. بالإيمان ننتصر. وبالقامة المنتصبة. إلى الأبد، إلى الأبد لن يحظوا برؤية هذه الأمّة تركع على ركبتيها. إلى الأبد لن يكون ذلك! حتى الجيل الأخير!».

بالكلمات «إلى الأبد، إلى الأبد!» ارتفع صوته ليصبح صياحا ثاقبا، مشبّعا بارتعاشات «تريمولو» مؤلمة. والجمهور لم يهتف هذه المرة بل زأر من شدة الغضب والألم.

«خلود إسرائيل،» قال الخطيب بهدوء وثقة، وكأنه عائد لتوّه من اجتماع تنفيذي في مقر خلود إسرائيل، «ملاذ إسرائيل، سيقوم مرة أخرى ويحبط ويحطم إلى شظااااياااا كلّ مؤامرات أعدائنا!»

الآن غمرت الجمهور مشاعر الثناء والحب، وقد عبّر عنها بالهتافات المتكررة بوتيرة ثابتة: «بيغن، بيغن!» أنا أيضاً قفزت واقفا على رجليّ وزأرت اسمه بأعلى صوتي، الذي بدأ يتغير مؤخراً.

«بشرط واحد،» رفع الخطيب صوته وقال برصانة، بغضب تقريبا، ثم سكت كمن يفكر بجودة هذا الشرط، كمن يشكّ فيما إذا كان جديرا بأن يقوله أمام الجمهور. صمت القبور ساد القاعة. «بشرط واحد ووحيد ولا بدّ منه وحيوي ومصيريّ.» ثم عاد وسكت. انحنى رأسه. كمن أعيا كاهله الثقل الفظيع لهذا الشرط. والجمهور متحفّز حتى كدت أسمع صوت طنين المراوح المثبّتة في سقف القاعة المرتفع.

«بشرط أن تكون قيادتنا، أيُّها الأخوة والأخوات، قيادة قومية وليس شلة يهود «غيتو» مفزوعين مرعوبين أصابهم الذهول يخافون من ظل أنفسهم! بشرط أن تخلي حكومة بن غوريون الفاشلة والمعرقلة، المهزومة والانهزامية، المُهانة والمُستهانة بلا انقطاع، أن تُخلي مكانها لحكومة عبرية فخورة، وجريئة، حكومة طوارئ تعرف كيف ترعب كلّ أعدائها ومبغضيها، بالضبط كما أن اسم جيش العظيم، جيش إسرائيل، مجرد اسمه يزرع الخوف والرعب في قلوب جميع أعداء إسرائيل حيثما كانوا.»

هنا ماجت القاعة وهاجت وكأنها فاضت وأغرقت ضفتيها، الكلمات «حكومة بن غوريون الفاشلة» وما تلاها أثارت أصواتاً مليئة بالكراهية والاشمئزاز والاحتقار من جميع أرجاء الجمهور. من أحد الصالات صرخ شخص بصوت أجشّ «الموت للخونة!» وفي زاوية أخرى بدأت جوقة هائجة بالهتاف مرارا وتكرارا «بيغن، بيغن إلى الحكومة/ انصرف إلى بيتك يا بن غوريون!».

إلا أنّ الخطيب أسكتهم، وقرر ببطء معتدل- معتدل بنبرة صوت معلّم حريص يوبّخ طلابه بلا هوادة:

«لا، أيُّها الأخوة والأخوات. ليس هكذا. أرجوكم لا تهتفوا. ليس بالصراخ ولا بالعنف بل بالتصويت الديمقراطي الهادئ والمحترم. ليس بطرق الخداع والبلطجة التي ينتهجها أولئك الحمر بل بطريقة النزاهة والفخار التي تعلمناها من معلمنا ومرشدنا العظيم «زئيف جابوتِنْسْكي». ليس بالكراهية بين الأخوة وليس بالتهجم بل باحتقار بارد سنقوم عما قريب بصرفهم إلى بيوتهم. كلّهم. من باعوا أرض الوطن والذين باعوا أنفسهم إلى ستالين. نشطاء الكيبوتسات الذين سمنوا وكل طغاة الهستدروت البلشفية المغرورين والمتكبّرين، كلّ الـ«جدانوفيين»[1] الصغار مع جميع اللصوص الصغار. إلى البيت! أوَليسوا هم الذين يثرثرون طوال النهار بكلمات دسمة حول العمل

(١) نسبة إلى جدانوف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والذي فرض رقابة شديدة على الأعمال الأدبية ما بين ١٩٤٦ - ١٩٤٨ في الاتحاد السوفيتي (المترجم).

اليدوي وحول تجفيف المستنقعات؟ حسنا. جميل جدا. وعليه، نحن سنرسلهم مع كلّ الاحترااااام ليشتغلوا قليلا بالأعمال اليدوية. فهم قد نسوا ما هو العمل اليدوي! انه من الجميل أن نرى من مِن كل هؤلاء يعرف كيف يمسك بالمعول؟ نحن، أيُّها الأخوة والأخوات، سنكون أكبر مجففي المستنقعات- عما قليل، أيُّها الأخوة والأخوات، عما قليل، الصبر الصبر، القليل من الصبر فقط، ونحن سنجفف مستنقع حكم حزب مباي المتعفن هذا! سنجففه مرة واحدة وإلى الأبد، أيُّها الأخوة والأخوات! بلا عودة سنجففه! والآن رددوا معي كلكم سوية وبصوت مرتفع هذا النذر: مرة واحدة وإلى الأبد! مرة واحدة وإلى الأبد!! مرة واحدة وإلى الأبد!!! بلا رجعة! بلا رجعة!! بلا رجعة!!!»

استشاط الجمهور غضبا حتى كاد يفقد السيطرة على نفسه وأنا معه. كأنما تحولنا كلنا خلايا جسم واحد عملاق، يزأر غيظا وغضبا، يغلي من شدة الإهانة ومن شدة كونه على حقّ.

*

وعندها حدث الهبوط. حانت لحظة الطرد من الجنة: انتقل السّيّد بيغن إلى الحديث عن الحرب القادمة وعن سباق التسلّح الذي يجري بكل قوته في أرجاء الشرق الأوسط. إلا أنّ السلاح في لغة السّيّد بيغن كما في لغة جميع أبناء جيله، ومن جميع الأحزاب، كان يسمّى بـ«كْلي زاين» والتسلّح كان يسمى «زيون» وسباق التسلح سمي (من على صفحات جميع الجرائد) بالاسم «ميروتس هَهِزْدَيْنوت». (١)

الحدّ الفاصل كان يمر تقريبا بين الشباب من مواليد البلاد كلّ أولئك الذين كانت أعمارهم أقلّ من خمس وعشرين سنة وبين أولئك الذين تجاوزت أعمارهم خمسا وعشرين سنة أو أنّهم تعلموا اللغة العبرية من

---

(١) في اللغة العبرية الفصيحة كلمة «زين» تعني سلاح والفعل «زيّن» بمعنى سلّح. إلا أنه في اللغة العبرية المحكية كلمة «زين» أصبحت تعني أيضاً عضو الذكورة، وبالتالي الفعل «زيّن» أصبح يعني أيضاً ضاجع أو خوزق (المترجم).

المراجع (والّذي، على سبيل المثال، تبنى بسرور الصفة في اللغة المحكية «زِفت» أو «مزفت» التي تعبر عن رداءة في الجودة، إلا أنّهُ تبناها فقط عندما كفّ جميع الشباب تماماً عن استعمالها. بمرح كبير كان أبي ينكّت أمام ضيوفه بأنّ «في دولتنا اللطيفة كلّ شيء «مزفت» - ما عدا الشوارع!»).

السّيّد بيغن شرب جرعة أو جرعتين من كأسه، استعرض الجمهور، هزّ رأسه ثلاث أو أربع مرات من أعلى إلى أسفل، كمن يوافق مع ما أقواله أو كمن يندب، وبدأ يعدّ بصوت مرير ويتّهم، كنائب عام غاضب يطرح سلسلة، غير قابلة للنقاش، من الادعاءات اللاذعة وشديدة الوطأة:

«الرئيس أيزنهاور «مزيّن» (يسلّح/ يخوزق) نظام عبد الناصر!»

«بولغانين يسلّح/ يخوزق عبد الناصر!!»

«جي موليه وأنتوني إيدن يسلّح/ يخوزق ليلَ نهار أعداءنا العرب!!!»

استراحة. صوت الخطيب امتلأ تقزّزا وقرفا:

«ومن يسلّح/ يخوزق حكومة بن غوريون؟»

صمت - دهشة وذهول خيم على القاعة. إلا أن السّيّد «بيغن» لم يشعر بها. رفع صوته وهتف بهجوم عنيف:

«لو انني أنا رئيس الحكومة الآن - لكانوا كلّهم، كلّهم يسلّحوننا/ يخوزقننا كلهم!! كلللللللهم!!!»

هناك وهناك سمعت بعض التصفيقات الفاترة المترددة وبالذات من الصفوف الأشكنازية في القاعة. في حين على غالبية جمهور القاعة الذين في الخلف خيم، على ما يبدو، التردّد، لا يصدقون ما تسمعه آذانهم، أو ربما اصيبوا بصدمة خفيفة. داخل الصمت المرتبك الذي خيم للحظة على جميع أرجاء قاعة سينما «أديسون» كان هناك ولد واحد، ولد وطنيّ واحد، في الثانية عشرة تقريبا، ولد سياسي حتى أعماق جذور شعره، ولد «بيغنيّ» متحمس جدّاً بقميص أبيض وبحذاء لامع مثل المرآة لم يكن قادرا على أن يستوعب فانفجر فجأة بالضحك.

حاول هذا الولد بكل قوته أن يكبت ضحكته ودّ لو أنّهُ يموت من فوره

من شدّة الخجل، إلا أن الضحك المروع، الهستيري، كلما حاولنا كبته - ازداد انفجارا: كضحك مختنق، مغمور بالدموع، ضحك جافّ مع موجات من الصراخ المتنافر والنشاز، ضحك شبيه بالنشيج وشبيه بالاختناق.

من كلّ حدب وصوب غرزت في هذا الولد نظرات الاستغراب والدهشة والاشمئزاز. ومن كلّ جهة أصابع كثيرة وضعت على شفاه كثيرة بدأت تَهِسّ الولد «هُس، هُس». واخجلاه! الخجل والعار! ومن كلّ مكان هاج وثار رجال مهمون يوبّخون جدي ألِكْسَنْدِر الذي صدمه هذا العمل المخجل الفاضح. وربما في مكان ما إلى الوراء خُيّل للولد بأنّ ضحكاً آخر غير منضبط تجاوب مع ضحكه وانفجر من إحدى زوايا القاعة، وجاء بعده آخر. إلا أن هذه الضحكات، إن حدثت، فقد انفجرت في الأحياء النائية للشعب أمّا فيضانها فقد راح يغمر وسط الصف الثالث، المحترم، الذي امتلأ بقدامى «بيتار» ورجالات «حيروت» المهمّين، كلهم شخصيات معروفة ومرموقة.

شعر الخطيب به أيضاً، فقطع خطابه، وانتظر، صبورا، يبتسم بسخاء وبذوق، حتى أمسك جدي «ألِكْسَنْدِر» وقد صُعق واحتقن الدم في وجهه وتميّز غضبا كمن ضاق عليه عالمه أمسك بأذن الولد وأنهضه بقوة وحنق وسحبه «من أذنه» أمام كلّ الصف الثالث، أمام كلّ الجماهير المحبة للوطن في القدس، شدّ وجرّ جرّ ووبّخ، جرّ وهدر يائسا (ربما بهذه الطريقة، تماماً، «من أذنه»، جرّته، جرت جدي نفسه، جدتي شلوميت الفظيعة رافعة الراية حتى بيت الرابي في نيويورك بعد أن خطبها ولكنه، وهو على السفينة في طريقهما إلى أمريكا، أحبّ امرأة أخرى).

وعندما خرج الثلاثة من «أديسون»، الجارّ الذي يغلي الدم في عروقه من شدة الغضب والمجرور المخنوق والذي يبكي من شدة الضحك والأذن المسكينة التي قد احمرّت مثل الشمندر، رفع جدي يده اليمنى وصفعني بكل قوته على خدي الأيمن، ثم رفع يده اليسرى وصفعني على خدي الأيسر بكل قوة زخم كراهيته المتقدة لليسار، وبما أنّهُ كان يمينيا جدّاً في وجهات نظره لم يرد أن ينهي باليسار لذلك عاد وصفعني بيده اليمنى على خدي الأيمن، ليست صفعة ترضية- ضعيفة- مهجرية بروح «دودة يعقوب» بل صفعة قوية- وطنية-

صقورية، صفعة مرفوعة الهامة ومشبعة بالعظمة والفخار والغضب.

*

يوذفات، مسادا، بيتار المحاصرة خسرت، ربما أنّها سترتقي بقوة واعتزاز - ولكن بدوني. أمّا حزب «الحيروت»، وحزب «التكتّل»، من جهتهما، فقد خسرتا في ذلك الصباح من ربما كان من الممكن أن يصبح مستقبلاً أحد أمرائها الصغار، خطيباً حماسيّاً، وربما عضو كنيست بليغاً، وربما نائب وزير بدون وزارة.

لم أكرر ثانية في حياتي حتى اليوم تجربة أن أذوب فرحا مبتهجا داخل جمهور معربد، أو أن أكون ذرة عمياء وسعيدة داخل جسم غير بشري عملاق. بل على العكس: فقد تطور لديّ خوف من الجمهور، مرض رهاب واضح يدفعني إلى أن أرغب في الهرب دائما من كلّ مكان فيه اكتظاظ. الجملة «الصمت هو وحل» فهمتها من البداية كدليل على نوع من الأمراض المنتشرة والخطيرة. ومع الكلمات «الدم والنار» فإنني أتذوّق طعم الدم وأشمّ رائحة لحم مشوي. كما في سهول شمال سيناء في حرب الأيام الستة وكما بين الدبابات المحروقة على هضبة الجولان في حرب يوم الغفران.

كتاب السيرة الذاتية للبروفيسور كْلاوزْنِر، العمّ يوسِف، والذي استقيت منه الكثير مما حكيته عن تاريخ أسرة كْلاوزْنِر على مر الأجيال، يسمّى «طريقي إلى النهضة والخلاص». في ذلك السبت، في حين كان جدي الطيب ألِكْسَنْدِر أخو العمّ يوسِف، يجرني من أذني خارج القاعة وهو يتلفّظ خلال ذلك بألفاظ السّخط والغيظ التي أشبهت إلى حد ما نشيج الرعب والحماقة، في ذلك اليوم تماما بدأ، على ما يبدو، فراري من وجه النهضة والخلاص. وحتى يومنا هذا ما زلت فارّاً منهما.

ولكنني لم أهرب منهما فقط: هربت من حياة القبو الخانقة التي بين والدي ووالدتي وبين كليهما وبين جمهور الكتب الكبير والتبجّحات وجميع الأشواق المكبوتة باتجاه «روفنو» وَ«فيلنا»، إلى أوروبا معينة تمثّلت عندنا في عربة شاي سوداء وبفوط من قماش الموصلين الدقيق ناصعة البياض، عبء هزيمة حياته وجرح فشل حياتها، إخفاقات فرض عليّ بدون كلمات وظيفة

تحويلها مع الوقت إلى نجاحات وانتصارات، هذه كلها حملتني عبئاً حتى أني أردت أن أهرب منه. في فترات أخرى هجر الشباب بيوت الأهل وراحوا ليكتشفوا أنفسهم، أو ليضيّعوا أنفسهم، في إيلات أو في صحراء سيناء. وبعد ذلك كانوا يسافرون إلى نيويورك والى باريس وبعدها إلى معابد الهند أو إلى الغابات في جنوب أمريكا أو إلى جبال الهملايا، التي هرب إليها الابن الوحداني «ريكو» في كتابي «نفس البحر» في أعقاب موت أمّه. لكن، في أوائل الخمسينيات «القطب المضادّ» لضيق بيت الأهل كان الكيبوتس: هناك بعيدا عن القدس، عبر جبال الظلام، في الجليل، في الشارون، في النقب وفي المروج، نما وترعرع - هكذا خيّل إلينا في تلك الأيام في القدس- صنف جديد، عاقد العزم، من الطلائعيات والطلائعيين الأقوياء، رصينون ولكنهم غير معقّدين، قليلو الكلام، يحفظون الأسرار قادرون على الرقص الصاخب حتى انتشاء الحواسّ ولكنهم في الوقت نفسه قادرون على الوحدة والتفكّر، وعلى حياة الحقل والخيام: شباب أقوياء وصبايا مصممات، مستعدون للقيام بكل عمل صعب ولكنهم إلى جانب ذلك يحيون حياة روحية دقيقة وغنية بالعواطف المكبوتة. أردت أن أكون مثلهم كيلا أكون مثل والدي ولا مثل والدتي ولا مثل كل المثقفين اللاجئين البؤساء الذين ملأوا القدس اليهودية. وفعلا بعد وقت غير طويل، انضممت إلى الحركة الكشفية، والتي رغب أعضاؤها في تلك الأيام بالتجنّد بعد انتهاء دراستهم إلى «الناحل»[١] ومنه إلى «العمل، والدفاع وإلى الكيبوتس». لم يرق ذلك لوالدي ولكن بما أنّهُ أحبّ كثيرا أن يكون متحررا حقيقيا اكتفى بأن أبدى ملاحظته بعصبية: «حركة الكشافة. حسنا. طيب. ليكن. ولم لا. ولكن الكيبوتس؟ الكيبوتس معد للأشخاص البسطاء والأقوياء وأنت لست قويا إلى هذا الحد ولست بسيطا إلى هذا الحدّ. أنت ولد موهوب جدّاً. أنت شخص فردانيّ. إنّهُ من المفضل أن تكبر وتخدم دولتنا الغالية بمواهبك وليس بعضلاتك، فهي ليست متطورة إلى هذا الحد.»

---

(١) الشبيبة الطّليعية المحاربة (المترجم).

أمّا أمّي فقد كانت قد ابتعدت، كانت قد أشاحت بوجهها عني.

وأنا وافقت مع أبي. لذلك بدأت في تلك الأيام ألزم نفسي على أن آكل الضعف وأن أقوّي عضلاتي المرتخية بواسطة الركض وتمارين اللياقة البدنية.

*

بعد ثلاث أو أربع سنوات أي بعد موت أمّي وبعد زواج أبي الثاني، كنت قد أصبحت في كيبوتس حولدا. في صباح أحد أيام السبت، في الساعة الرابعة والنصف صباحا حكيت لإفرايم أفنيري قصة «تسليح/ خوزقة» بيغن. كنا قد استيقظنا مبكّرا للخروج متجندين لقطف التفاح في البستان. كنت في الخامسة عشرة أو في السادسة عشرة. إفرايم أفنيري، مثله مثل بقية مؤسسي حولدا كان يومها في الخامسة والاربعين من عمره. ومع ذلك كنا نسميه هو وزملاءه - كما كانوا هم يسمون أنفسهم - بـ«العجائز».

أصغى إفرايم إلى القصة، ابتسم، لاول وهلة تصعب في أن يفهم أين النكتة، لأنّه هو نفسه كان ينتمي إلى الجيل الذي ارتبط «الزيون» في ذهنه بالدبابات والمدافع. بعد لحظة قال «آه، نعم، فهمت، بيغن قصد التزوّد بالسلاح وأنت قصدت - على ما يبدو - المعنى العامي. هذا فعلا يكون مضحكا بعض الشيء. ولكن اسمع من فضلك، يا رفيقي الفتيّ» (كنا نقف على سُلمين متجاورين نقطف التفاح من جانبي قمة الشجرة إلا أن أوراق الشجرة حجبت بيننا، وكنا نتحدث ونحن نعمل، دون أن يرى أحدنا الآخر)، «أنت، على ما يبدو، فاتك الشيء الأساسيّ. الشيء السخيف جدّاً عندهم، عند بيغن وعند كلّ تيّاره الضوضائيّ هذا، هو استعمالهم لكلمة «زيون» بل استعمالهم للكلمات بشكل عام. كلّ شيء يقسّمونه دائما إلى «مهجري - استسلامي» من جهة و«عبري- رجوليّ» من جهة أخرى. وهم لا ينتبهون كم في هذا التقسيم من المهجرية. وإلى أيّ درجة احتضانهم الصبياني للعسكرية ولأنواع مختلفة من المسيرات العسكرية ولبلطجية فارغة وأسلحة، جاءتهم مباشرة من «الغيتو»

«في الأساس إنّهُ شخص طيب بالذات هذا البيغن. إنّهُ ديماجوج بمعنى الكلمة، نعم، ولكنه ليس فاشيا ولا متعطشا للدماء. بالمرة لا. بل على

العكس، إنسان رقيق جداً. أكثر ألف مرة من بن غوريون. بن غوريون مسبوك من الصخر، في حين بيغن مصنوع من كرتون. وهو قديم إلى حد كبير، أكل الدهر عليه وشرب، «بيغن». إنّهُ يعيش في زمان غير زمانه. يشبه طالب مدرسة دينية هرطقيّ، يؤمن بأننا نحن اليهود، إذا بدأنا فجأة وبكل بساطة نصرخ بكل قوة حناجرنا بأننا لم نعد يهودا كما كنا من قبل، لم نعد قطيعا يساق إلى الذبح، إننا لم نعد شاحبين ضعفاء بل على العكس نحن الآن خطيرون، نحن الآن ذئاب مخيفة وفظيعة- إذا صرخنا فقط بهذا فإنّ جميع الحيوانات المفترسة الحقيقية ستفزع منّا وستعطينا كلّ ما نريد، أن نرث البلاد وحدنا، وأن نأخذ لأنفسنا جميع الأماكن المقدّسة، وأن نبتلع شرقي الأردن، وأن نحظى علاوة على ذلك على الاحترام والتقدير من جميع دول العالم المتحضّر. إنهم - بيغن وأصحابه- يتحدثون طوال النهار، من الصباح وحتى المساء عن القوّة ولكنهم لا يزالون لا يعرفون أيّ شيء مهما صغر عن ما هي القوة، ومما تتكوّن وما هي نقاط ضعف القوة. إذ يوجد في القوة أيضاً خطر فظيع لمالكيها. لقد قال ستالين الشرير ذات مرة بأنّ الدين هو أفيون الشعوب؟ إذن، استمع إليّ من فضلك: أنا الصغير أقول لك بأنّ القوة هي أفيون الحكام. وليس الحكام فقط. القوة هي أفيون جميع البشر. القوة هي إغواء الشيطان، كنت سأقول لو أنني كنت أؤمن بوجود الشيطان. عمليا، أنا أؤمن به. وعليه، أين كنا؟» كنا في مسألة بيغن وضحكتك الكبيرة. أنت أيُّها الرفيق الصغير، ضحكت في ذلك اليوم في اجتماع «الإصلاحيين» لسبب غير صحيح. أنت ضحكت لان كلمة «زيون» يمكن أن تفسر على هذا النحو أو ذاك. ليكن. هل تعلم ممّ في الحقيقة كان عليك أن تضحك هناك؟ أن تضحك حتى ترتمي على المسطبة؟ أنا سأقول لك ممّ. ما كان عليك أن تضحك من كلمة «زيون» بل من أن بيغن يعتقد، بشكل حقيقي،على ما يبدو، بأنه لو كان رئيس الحكومة فإنّ الجميع، العالم كلّه، فوراً وحالا، سيتركون الجانب العربي ويسرعون إلى الوقوف إلى جانبه. لماذا؟ لماذا سيقومون بذلك؟ من أجل ماذا؟ من أجل عينيه الجميلتين؟ أم من أجل لغته البراقة الأنيقة؟ أم ربما من أجل ذكرى «جابوتِنْسكي»؟ أنت فعلا كنت مجبرا

بأنّ تضحك ضحكة كبيرة لأنّ سياسة كهذه بالضبط كان سينفذها عندنا كلّ الكسالى العاطلين عن العمل. من خلف مدفأة المدرسة الدينية كانوا طوال النهار يعملون سياسة متبّلة ومبهّرة كهذه. بلفة إبهام كانوا يفعلون ذلك: «قبل كلّ شيء نرسل بعثة إلى القيصر نيقولاي، بعثة مهمة تتحدث إليه بشكل جيد جدّاً وتعد القيصر بما تريده روسيا أكثر من أيّ شيء آخر - منفذ إلى البحر الأبيض المتوسط. بعد ذلك نطلب من القيصر بأن يذكرنا بالخير، مقابل ذلك، أمام القيصر فيلهالم، أن يؤثر قيصرنا على القيصر فيلهالم، كي يأمر صديقه الحميم، السلطان التركي، بأنّ يسلم حالا وفورا لليهود بدون سؤال ولا جواب كلّ فلسطين من الفرات وحتى النيل. بعد ذلك فقط، بعد أن ننجز لنا مرة واحدة وإلى الأبد الخلاص الكامل، عندها يمكننا أن نقرر كما نحب إذا كان «بونيا» (هكذا كانوا يسمون عندنا القيصر نيقولاي) جدير بأن نفي له بوعدنا ونسمح له بمنفذ إلى البحر الأبيض المتوسط أم لا؟ «إذا كنت بالصدفة أنهيت العمل هناك، لذلك، تعال بنا نذهب، كلانا، لتفريغ الأكياس داخل الصندوق وننتقل معاً إلى الشجرة التالية. وفي الطريق نفحص عند «أليك» أو «أليوشكا» إذا كانوا فطنوا إلى أن يحضروا لنا إبريق ماء أم أننا سنضطر نحن أيضاً إلى التقدم بشكوى إلى القيصر «نيقولاي.»

*

بعد مرور سنة أو سنتين كانوا قد أشركوا طلاب الصف العاشر في الحراسة الليليّة في كيبوتس حولدا: خلال تدريبات «الجدناع»[1] تعلمنا طريقة استعمال الأسلحة. كانت تلك ليالي الفدائيّين وعمليات الانتقام التي سبقت حرب سيناء. في كلّ ليلة تقريبا كان الفدائيون يهاجمون موشاف أو كيبوتس أو ضاحية مدينة، يفجرون المنازل على ساكنيها، يطلقون النار أو يدحرجون قنابل يدوية عبر النوافذ إلى داخل الشقق السكنية وفي طريق عودتهم كانوا يزرعون الألغام.

كنت اخرج مرة كلّ عشرة أيام لنوبة حراسة على امتداد سياج الكيبوتس،

---

(١) كتائب الشباب (المترجم).

حيث يمتدّ خط الهدنة بين إسرائيل والأردن في اللطرون على بعد خمسة كيلومترات تقريبا منه. في كلّ ساعة كنت أتسلّل لعدة لحظات، خلافا للتعليمات، إلى كوخ النادي الخالي لكي أستمع إلى الأخبار. فن الخطابة البطولي المقتنع تماماً بصدق ادّعاءاته الذي يميّز المجتمع المحاصَر سيطر على ما كانت تبثه الإذاعة في ذلك الوقت كما سيطر أيضاً على تربيتنا الكيبوتسية: «وضعنا إكليلا للمنجل والسيف». «لترتفع قصيدة لكتيبة مجهولة». «أخذت، أخذت جبال إفرايم/ ضحية شابة جديدة». «ما زال العدو يشحذ سلاحه عند المدخل». لم يستعمل أحدٌ، في تلك الأيام، كلمة «فلسطينيين»: وقتها كان اسمهم «إرهابيين» أو «فدائيين»، أو «العدوّ»، «لاجئين عرب متعطشين للانتقام».

في إحدى ليالي الشتاء كان علي أن أحرس مع إفرايم أفنيري. مع حذاء مرتفع متدثّرَين بمعطفين عسكريين رثَّين وبقبعتي صوف شائكتين، خطونا بتثاقل في الوحل على امتداد السياج خلف المخازن والحظيرة. رائحة تخمّر قوية انبعثت من قشور البرتقال التي استخدمت لتحضير العلف المحفوظ اختلطت مع روائح زراعية أخرى، زبل البقر، القش الرطب، البخار المتصاعد من الزريبة، غبار الريش المنبعث من قن الدجاج. سألت إفرايم هل حدث له ذات مرة، في حرب الاستقلال أو في أيام الأحداث في سنوات الثلاثينات أن أطلق النار وقتل واحدا من هؤلاء القتلة.

لم أستطع رؤية وجه إفرايم في الظلام، ولكن أيّ تهكّم هائج وأيّ حزن قارس غريب ولاذع تخلل صوته وهو يجيبني، بعد صمت تفكير لوهلة قصيرة:

«قتلة؟ لكن ما الذي تتوقعه منهم؟ من وجهة نظرهم، نحن أغراب هبطنا من الفضاء الخارجي وغزونا أرضهم، ورويداً رويداً سيطرنا على أجزاء منها وفي الوقت الذي كنا نعدهم بأننا جئنا فعلا لنغمرهم بالخيرات، ولنشفيهم من السَّعفة ومن الرَّمَد الحُبيبي، وأن نحررهم من الفقر والجهل ومن اضطهاد الإقطاعيين- كنا نضم إلينا بمكر واحتيال المزيد من أراضيهم. لذلك، ماذا تظنّ؟ بأنهم سيقدمون إلينا الشكر على إحساننا ومعروفنا؟ بأن يخرجوا

لاستقبالنا بالطبول والصّنوج؟ بأن يقدّموا لنا مفاتيح كلّ البلاد فقط لأنّ أجدادنا عاشوا هنا ذات يوم؟ ما العجب من أنّهم حملوا ضدنا السلاح؟ والآن، وبعد أن هزمناهم هزيمة نكراء ومئات الآلاف منهم يعيشون منذ ذلك الوقت في مخيّمات اللاجئين- ماذا، ربما تتوقع بأنهم يفرحون لفرحنا وبأنهم سيتمنون لنا كلّ الخير؟»

دهشت. على الرغم من أنّني ابتعدت كثيرا عن خطاب حزب «حيروت» وخطاب آل كْلاوزْنِر مازلت سوى منتوج يسير في الخط الذي رسمه الواقع الصهيوني. أقوال إفرايم الليلية أذهلتني جدّاً كما أغضبتني أيضاً: في تلك الأيام كان هذا التفكير يعدّ نوعا من الخيانة. لشدة الدهشة والذهول وجّهت إلى إفرايم أفنيري سؤالا- ادعاء لاذعا:

«إذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنت هنا تتجول مع السلاح؟ لماذا لا تغادر البلاد؟ أو تأخذ السلاح وتنتقل لتقاتل إلى جانبهم؟»

في الظلام سمعت ابتسامته الحزينة:

«إلى جانبهم؟ لكنهم، لا يريدونني في جانبهم. لا يريدونني في أيّ مكان في العالم. ولا واحد في العالم يريدني. هذه هي المشكلة. في كلّ الدول يوجد، على ما يبدو، أكثر من اللازم من أمثالي. لهذا السبب وحده أنا موجود هنا. ولهذا السبب فقط أنا أحمل السلاح، لكيلا يطردوني من هنا أيضاً. أمّا أنا فلن أستعمل كلمة «قتلة» لوصف العرب الذين فقدوا قراهم. على كلّ حال، لن استعمل في وصفهم هذه الكلمة بسهولة. في وصف النازيين- نعم. في وصف ستالين- نعم أيضاً. وكذلك في وصف أنواع مختلفة من مغتصبي بلاد ليست لهم.»

«لكن، من أقوالك يفهم بأننا نحن أيضاً مغتصبو بلاد ليست لنا؟ ماذا، ألم نعش هنا قبل ألفي سنة؟ ألم نُطرد من هنا بالقوة؟»

«الأمر كذلك،» قال إفرايم، «الأمر بسيط جدّاً: إذا لم تكن هنا - إذن أين هو وطن الشعب اليهودي؟ تحت ماء البحر؟ على القمر؟ وهل الشعب اليهودي وحده من بين كلّ شعوب العالم، هو الوحيد الذي لا يستحق وطنا صغيرا؟»

«وما أخذناه منهم؟»

«وعليه، ربما أنك نسيت، أنّهم، بالصدفة، حاولوا في سنة ألف وتسعمائة وثمان وأربعين أن يقتلونا جميعا؟ حينها في سنة ألف وتسعمائة وثمان وأربعين جرت حرب فظيعة وهم أنفسهم وضعونا أمام الخيار إما هم وإمّا نحن، ونحن انتصرنا وأخذنا منهم. وليس في هذا مجال للفخر! ولكن لو أنّهم هم الذين انتصروا علينا في سنة ألف وتسعمائة وثمان وأربعين، لكان هناك مجال أقلّ للفخر: إذ أنّهم ما كانوا سيبقون على يهودي واحد على قيد الحياة. وفعلا في كلّ البلاد التي تحت سيادتهم لا يعيش ولا حتى يهودي واحد. ولكن هذا هو صلب الموضوع: بما أننا أخذنا منهم ما أخذناه، في سنة ألف وتسعمائة وثمان وأربعين، لذلك فالآن هو بحوزتنا. وبما أنّهُ في حوزتنا الآن، لذلك يجب ألا نأخذ منهم أكثر مما أخذناه. انتهى الموضوع. هذا هو الفرق بيني وبين السّيّد بيغن صاحبك: إذا أخذنا منهم شيئا في يوم من الأيام، ونحن عندنا ما عندنا، فإنّ ذلك سيكون خطأً كبيرا جدّاً.»

«وإذا ظهر بعد لحظات هنا فدائيون؟»

«إذا ظهروا،» تنهّد إفرايم، «يكون علينا أن ننبطح حالا على الأرض هنا حيث نقف على الوحل وأن نطلق النار. ونحن سنحاول جدّاً جدّاً أن نطلق النار وبشكل أفضل منهم وأسرع منهم أيضاً. ولكن ليس لأنهم شعب من القتلة سنطلق النار عليهم، بل وفقط لسبب بسيط لأنّه يحق لنا أيضاً أن نعيش ولسبب آخر بسيط أيضاً لأنّه يحق لنا أن يكون لنا وطن. وليس لهم فقط. والآن بسببك أشعر أنّني بن غوريون. إذا سمحت لي فقط، فانا سأدخل إلى الحظيرة كي أدخن لي سيجارة بهدوء وأنت خلال ذلك قم بالحراسة بشكل جيد جدّاً. احرس من فضلك عني وعنك.»

٥٣

بعد سنوات قليلة من هذه المحادثة الليلية، بعد ثماني أو تسع سنوات من ذلك الصباح الذي فيه مناحم بيغن ومعسكره خسروني في قاعة سينما «أديسون»، التقيت مع دافيد بن غوريون. آنذاك كان بن غوريون رئيس الحكومة ووزير الدفاع، ولكنه اعتبر في نظر الكثيرين «وحيد عصره»، مؤسس دولة، المنتصر الكبير في حرب الاستقلال وفي حرب سيناء. مبغضوه كرهوه كراهية شديدة ومتّقدة وسخروا من طقوس تقديس الشخصية التي بدأت تحيط به، في حين نظر إليه المعجبون به حتى في تلك الأيام على أنّهُ «أبو الأمّة»: على أنّهُ مزيج عجيب من الملك داود وَيهودا همكابي، وَجورج واشنطن، وَغريبالدي، وَتشرتشل يهودي، وَحتى مسيح الرب القادر على كلّ شيء.

أمّا بن غوريون نفسه فقد نظر إلى نفسه على أنّهُ ليس مجرد سياسي بل وأيضاً - وربما في الأساس- كمفكّر وكمرشد روحي: درس بقواه الذاتية اللغة اليونانية القديمة لكي يستطيع قراءة مؤلفات «أفلاطون» بلغة المصدر، واختلس النظر إلى هيجل وَماركس، واهتمّ بالبوذيّة وبفلسفات الشرق الأقصى، حاول التعمق في سبينوزا حتى أنّهُ رأى نفسه من أتباع سبينوزا عن وعي وإدراك. (الفيلسوف يشعياهو برلين رجل حادّ كموسى الحلاقة، كان بن غوريون يجنّده ليرافقه في كلّ مرة كان يخرج فيها، منذ كونه رئيسا لحكومة إسرائيل، للبحث عن كتب الفلسفة في المكتبات الكبيرة التي في أكسفورد قال لي مرة: «بن غوريون خرج عن طوره من شدة شوقه ليظهر كمفكر. جاء شوقه هذا نتيجة لخطأين. الأول - اعتقد بن غوريون، خطأً بأنّ حاييم وايزمن

كان مفكّرا. والثاني- لقد اخطأ بأن رأى في جابوتِنْسكي مفكرا أيضاً.» وهكذا بلا شفقة ضرب يشعياهو برلين ثلاثة عصافير محترمة بسهم حادّ واحد.)

بين الحين والآخر كلف بن غوريون نفسه عناء تعبئة ملاحق عدد يوم نهاية الأسبوع من جريدة «دافار» بمقالات نظرية طويلة في مواضيع تأمليّة ومواضيع فلسفية. في أحد الأيام من شهر كانون الثاني سنة ألف وتسعمِائة وواحدة وستين، نشر بن غوريون مقالا ادّعى فيه بأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد مساواة بين البشر، مع أنّهُ يمكن أن يكون بينهم نوع من الشراكة.

أمّا أنا، وكمن نظر إلى نفسه كحامل لواء الدفاع عن قيم الكيبوتس كتبت مقالا قصيرا وارسلته إلى جريدة «دافار» للرد على عليه، ادعيت فيه، بأدب واحترام ورهبة بأنّ الرفيق بن غوريون ليس على حق.[1] عندما نشر المقال ثار غضب كبير في كيبوتس حولدا. احتد غيظ الرفاق على وقاحتي: «كيف تجرؤ أصلا أن تعترض على بن غوريون؟»

وها ما أن مضى أربعون يوما فقط حتى فتحت لي أبواب السماء: نزل «أبو الأمّة» من برجه العاجي وتكرم ونشر في جريدة «دافار» مقالا طويلا ومؤدّبا يردّ فيه على مقالتي، مقالا امتد على عدة أعمدة طويلة هدفه الدفاع عن آراء «وحيد عصره» ضد اعتراضات الطحلب الذي ينمو على الحيطان[2]

أعضاء كيبوتس حولدا أنفسهم الذين أرادوا بالأمس القريب أن يرسلوني إلى موقع ما لتربيتي من جديد بسبب وقاحتي، لمع الآن البريق في عيونهم من شدة السعادة وسارعوا إليّ ليباركوا لي بالمصافحة وبالتربيت على الكتفين: «وعليه، أنت الآن مضمون! أنت الآن من الخالدين! سيظهر اسمك في أحد الأيام في مسرد الاعمال الكاملة لبن غوريون! وكذلك اسم كيبوتس حولدا سيرد ذكره هناك، بفضلك!»

*

(١) «دافيد بن غوريون»، «تأمّلات»، «دافار»، ٢٧.١.١٩٦١ ؛ عاموس عوز، «الشراكة ليست بديلا للمساواة»، «دافار»، ٢٠.٢.١٩٦١ (المؤلف)

(٢) «دافيد بن غوريون»، «تأمّلات إضافية»، «دافار»، ٢٤.٢.١٩٦١ (المؤلف)

لكن عصر العجائب ابتدأ فقط مع نشر ذلك المقال.

بعد يوم أو يومين جاء الإشعار التلفوني.

لا لم يأت الإشعار إليّ مباشرة - حتى ذلك الوقت لم تكن هناك تلفونات في غرفنا الصغيرة- بل إلى مكتب سكرتارية الكيبوتس. بيللا ب. عضوة قديمة كانت تجلس في تلك الساعة في المكتب، سارعت إليّ، شاحبة كلها ومتطايرة مثل ريشة في مهب الريح، منذهلة كأن مَركبات الآلهة المحاطة بأعمدة النيران تجلت أمام ناظريها للتو، وأعلمتني بشفتين تحتضران بأنّ سكرتيرة رئيس الحكومة ووزير الدفاع تطلب مني أن أمثل في الصباح الباكر من يوم الغد في الساعة السادسة وثلاثين دقيقة في ديوان وزير الدفاع الموجود في «هكريا» في تل أبيب، لمقابلة شخصية مع رئيس الحكومة ووزير الدفاع بناء على دعوة شخصية من دافيد بن غوريون. الكلمات «رئيس الحكومة ووزير الدفاع» لفظتها بيللا برهبة وإجلال وكأنها تقول الله تبارك وتعالى.

حان دوري كي يشحب جسمي كله: أولا كنت ما زلت أرتدي الزي العسكري، بحكم كوني جندياً نظامياً، برتبة رقيب أول في جيش الدفاع الإسرائيلي، وكدت أخشى ربما آنني خالفت أحد الأنظمة أو القوانين عندما بدأت خلافا أيديولوجيا مع القائد الأعلى من على صفحات الجريدة. ثانيا، سوى الحذاء العسكري ذي المسامير لم يكن عندي أيّ حذاء آخر. كيف أمثل أمام رئيس الحكومة ووزير الدفاع؟ مع صندل؟ ثالثا، لم تتوفر لي أيّ وسيلة موجودة في العالم تضمن لي الوصول إلى تل أبيب في الساعة السادسة والنصف صباحا: إذ أن أول حافلة من كيبوتس حولدا إلى تل أبيب تخرج في الساعة السابعة وتصل إلى المحطة المركزية بالكاد في الساعة الثامنة والنصف.

وعليه، قضيت تلك الليلة أدعو ربي دعاء خفيا لتحلّ كارثة: نشوب حرب، حدوث هزة أرضية، نوبة قلبية، له أو لي، غير مهم.

في الساعة الرابعة والنصف لمّعت حذائي العسكري المُسمّر ثم احتذيته وربطته جيدا. لبست بنطلون خاكي مدني مكويّ وقميصا أبيض وجارزة ومعطف وخرجت إلى الشارع. بأعجوبة نجحت في الحصول على «توصيلة» والوصول فزِعا إلى الديوان الذي لم يكن داخل عمارة وزارة الدفاع المفزعة

المطوّقة بالهوائيات بل، بالذات، في الساحة الخلفية لهذه العمارة، في داخل بيت ريفي صغير على النمط البفاري، بيت قروي لطيف شاعري مكون من طابقين متواضعين، سقفه من القرميد الأحمر، مكسو من جميع الجهات بنباتات متسلقة خضراء بناه في القرن التاسع عشر ألمان نشطاء من «محفل فرسان الهيكل» الذين أقاموا مستوطنة هادئة على الرمال إلى الشمال من تل أبيب وكانت نهايتهم أن طردهم البريطانيون مع نشوب الحرب العالمية الثانية.

*

تجاهل السكرتير الخلوق اللطيف ارتعاد فرائصي وحلقي المختنق، واهتم بإرشادي بحرارة شبه حميمية، كمن «يتآمر» معي من وراء ظهر «الإله» الذي في الغرفة المجاورة:

«الختيار،» بدأ السكرتير حديثه مستعملا اللقب الشعبي الرائج والمحبوب الذي اشتهر به بن غوريون منذ سنوات الخمسينات من حياته، «الختيار، أنت تدرك بكل تأكيد، بأنه، كيف أعبر عن ذلك، يميل قليلا، في الآونة الأخيرة، إلى التوغّل في محادثات فلسفية طويلة. لكن وقته، كما يمكنك أن تخمّن بنفسك، أغلى من الذهب. فهو ما زال يدير بنفسه تقريبا كلّ شئون الدولة ابتداء من الاستعدادات للحرب وعلاقاتنا مع الدول الكبرى وانتهاء بإضراب موزعي البريد. سيكون عندك من اللباقة ما يجعلك تنسحب من هناك بلطف بعد عشرين دقيقة كي نحاول أن ننقذ بطريقة ما جدول أعماله لهذا اليوم.»

لم يكن في العالم أحبّ إليّ من «أن أنسحب من هناك بلطف»، وليس بعد عشرين دقيقة بل للتو. فوراً. في الحال. مجرد التفكير بأنّ القادر على كلّ شيء بنفسه موجود هنا فعلا بجسمه وهو ليس ملاكا وليس رسولاً موجوداً فعلا خلف هذا الباب الرمادي، وبعد لحظة سأسقط بين يديه سبب لي الإغماء من شدة الخشية ورهبة القدسية.

حتى أنّه لم يبق أمام السكرتير، على ما يبدو، خيار إلا أن يدفعني برفق من ظهري بكلتي يديه إلى الداخل إلى «قدس الأقداس».

أُغلق الباب عليّ من الخارج وأنا وقفت هناك كالمشلول، أستند بظهري

إلى الباب الذي أُدخلت منه إلى الغرفة وفرائصي ترتعد. مكتب الملك دافيد لم يكن إلا غرفة عادية، زاهد إلى درجة عجيبة، لا يكاد يزيد بشيء تقريبا عن غرفة سكنية متواضعة في الكيبوتس. أمامي بالضبط كان هناك شباك مكسو بستارة قروية أضفى على الغرفة ضوءا خارجيا أضيف إلى ضوء مصباح كهربائي عاديّ. خزانتا أدراج مكتبية مصنوعة من المعدن، وقفتا على جانبي الشباك. وطاولة مكتب عريضة وقفت هناك في وسط الغرفة تكاد تحتل ربع مساحتها، مغطاة بلوح زجاج عليها ثلاثة أو أربعة أكوام من الكتب والكراريس والجرائد والمجلات بالإضافة إلى الأوراق والدوسيهات، بعضها مفتوح وبعضها مغلق. كرسيّان معدنيان بيروقراطيان وقفا من جانبي الطاولة، كرسيان رماديان، بإمكانك أن ترى مثليهما في كلّ مكتب حكومي أو عسكري في تلك الأيام ودائما كانت مختومة على جهتها الداخلي بالختم: «ملك دولة إسرائيل». أيّ كراسٍ إضافية غير هذين الكرسيين لم تكن موجودة داخل الغرفة. على حائط كامل من السقف وحتى المسطبة ومن الزاوية إلى الزاوية الأخرى امتدت خريطة عملاقة لكامل منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط من مضيق جبل طارق وحتى الخليج الفارسي. إسرائيل صغيرة مثل طابع البريد، تم إبرازها بخط سميك على هذه الخريطة الواسعة. وثلاثة رفوف محمّلة ومكدّسة بالكتب امتد على طول الحائط وكأن شخصا ما من المحتمل أن يصاب فجأة بهَوَس القراءة المستعجل والذي لا يقبل التأجيل بأيّ شكل من الأشكال.

بين حيطان هذا المكتب المتواضع جدّاً إلى حد الزهد، كان يمشي ذهابا وإيابا بخطوات صغيرة وسريعة، يداه متشابكتان خلف ظهره وعيناه في المسطبة، رأس كبير مطأطأ وممتد إلى الأمام كمن ينطح، شخص واحد يبدو تماماً مثل بن غوريون ولكنه بأيّ شكل من الأشكال لا يمكن أن يكون بن غوريون: كلّ ولد في البلاد، في تلك الأيام، وحتى أولاد الحضانات عرف، حتى من خلال النوم، كيف يبدو بن غوريون. ولكن بما أنه لم يكن هناك بعد تلفزيون فقد كان من المفهوم ضمنا أن «أبا الأمّة» هو شخص عملاق رأسه في الغيوم. بينما هذا المنتحل لشخصيته فقد كان شخصا صلبا قصيرا ومستديرا

جسمه كجسم امرأة حامل، كان طول قامته أقلّ من متر وستين.

دهشت. وكدت أشعر بالإهانة.

ومع ذلك، من خلال الصمت الذي ساد الغرفة ولم يقطعه أحد لمدة دقيقتين أو ثلاث كانت كالدهر في حين ما زال ظهري ملتصقا بفزع بالباب، التهمت بعينيّ الحضور الغريب والساحر لهذا الرجل الصغير القوي والرصين، الشبيه ربما بشخصية جد قروي- جبلي صلب أو ربما بشخصية قزم نشيط، معمر كان يمشي من الحائط إلى الحائط بإصرار وعناد يخلو من الراحة يداه خلف ظهره رأسه يمشي قدامه كمن يهدم أسوارا حجرية غير مرئية، غارق في أفكاره، بعيد، لا يكلف نفسه عناء إعطاء أيّ إشارة مهما كانت بسيطة إلى أنّهُ لمح أو لاحظ أن شخصا ما أو شيئا ما، أو بذرة متطايرة، طحلب حائط شاحباً يرتجف، قد أُلقي به، في هذه اللحظة، إلى مكتبه. كان بن غوريون في حينه في الخامسة والسبعين من عمره تقريبا وكنت أنا أزيد قليلا عن العشرين سنة.

*

كانت له لبدة فضية نبوئية من الشعر الشائب الذي أحاط صلعته مثل المدرّج. في أسفل جبينه العريض امتد حاجبان شائبان كثيفان، ومكتظّان ومن تحتهما خرقت الفراغ الهوائي عينان صغيرتان نظراتهما حادة مثل الموسى، عينان زرقاوان- رماديتان، ثاقبتان. كان له أنف عريض وثخين وغليظ، أنف يخلو من الخجل، إباحي فاحش، مثل انف الشخصيات اليهودية في تلك الرسوم الكاريكاتورية المعادية للسامية. بشرة وجهه كانت حمراء وخشنة وكأنها ليست بشرة بل لحما غير ناضج. تحت عنقه القصير امتد كتفان عريضتان وممتلئتان. أمّا صدره فقد كان ضخما. قميص مفتوح الياقة كشف شيئا من صدره الأشعر. كرشه البارز جدّاً البارز دون أيّ نوع من الخجل مثل حدبة الحوت، بدا لي صلبا متماسكا وكأنه مصنوع من الباطون لا من الدهون. إلا أن كلّ هذه العظمة انتهت - لشدة دهشتي- برجلي قزم رجلان لولا الخوف من انتهاك حرمة المقدسات لكان بالإمكان القول عنهما بأنهما مثيرتان للسخرية تقريبا.

حاولت أن اتنفس قليلا قدر الإمكان. ربما غرت في تلك اللحظة من جريجور سامسا من قصة كافكا، الذي نجح في التقلص حتى أصبح حشرة. هرب الدم من جميع أجزاء جسمي واختبأ في كبدي.

الكلمات الأولى التي خرقت صمت الغرفة جاءت بصوت معدني عال وقاطع، صوت كنا نسمعه كلّ يوم تقريبا من الراديو في تلك الأيام. حتى أننا كنا نسمعه في أحلامنا. القادر على كلّ شيء جلدني بنظرة غاضبة قائلا:

«هيا!، لماذا لا تجلس! اجلس هيا!»

في لمح البصر جلست على الكرسي المقابل للمكتب. جلست منتصبا مثل العصا. ولكن على طرف حافة الكرسي فقط. أن اسند ظهري لم يكن واردا في الحسبان.

صمت. واصل «أبو الأمّة» المشي ذهابا وإيابا في الغرفة، بخطوات صغيرة ولكنه مشى بسرعة وبقوة مثل الأسد الحبيس في قفصه، أو كمن قرر مصرا على عدم التأخّر. بعد مضي نصف دهر تقريبا قال فجأة:

«سبينوزا!»

ثم سكت. وعندما ابتعد عني حتى النافذة، استدار دفعة واحدة وقرر: «قرأت سبينوزا؟ قرأت. ولكن ربما انك لم تفهم؟ القليل من الناس الذين يفهمون سبينوزا. القليل القليل.»

وهكذا استهلّ - دون أن يتوقف عن مشيه ذهابا وإيابا، ذهابا وإيابا، بين الباب والشباك، يعطيني محاضرة صباحية ليست بالقصيرة حول نظرية سبينوزا.

في وسط محاضرته ظهرت فرجة مترددة في الباب: السكرتير، بخشوع، وخنوع اقصر من العشب دسّ رأسه، ابتسم، حاول أن يتمتم بشيء ما إلا أن زئير أسد جريح وقع عليه كالصاعقة:

«انصرف!، انصرف من هنا!، لا تزعجنا! ألا ترى أنني أقوم الآن بإحدى المحادثات الأكثر أهمية التي كانت من أمد بعيد؟ لذلك، انصرف، هيا!»

اختفى المسكين كلمح البصر.

وأنا لم أقل حتى الآن أيّ كلمة ولم أنبس ببنت شفة.

إلا أن بن غوريون، كما تبيّن لي، استمتع كثيرا جدّاً بإلقاء المحاضرة عن سبينوزا قبل الساعة السابعة صباحا. وفعلا واصل بن غوريون بإلقاء محاضرته دون أن يزعجه أحد عدة دقائق أخرى. فجأة، توقف عن الكلام في منتصف الجملة. وقف ورائي تماماً. حتى كدت أشعر بأنفاسه تهب على قفا رأسي المتجمد من الخوف. ولكنني لم أجرؤ على الالتفات إليه. جلست متحجرا متصلبا، ركبتاي منتصبتان بزاوية قائمة ومتلاصقتان. فخذاي بزاوية قائمة مع ظهري المشدود والمتوتر. بدون أيّ تلميح إلى الاستفهام في نبرة صوته أنزل علي بن غوريون الكلمات التالية:

«أنت لم تتناول وجبة الإفطار بعد!»

لم ينتظر جوابا وأنا لم انبس ببنت شفة.

دفعة واحدة اختفى بن غوريون وراء مكتبه. غاص مثل حجر كبير في الماء. حتى أنّني لم أعد أرى طرف لبدته الفضية.

بعد لحظة عام وطفا على سطح المياه وصعد، بإحدى يديه كأسان من الزجاج وزجاجة عصير «باز» في يده الأخرى. وقف وصبّ كأسا مليئة من العصير لنفسه. بعد ذلك صب لي أيضاً وجزم:

«اشرب هيا!»

شربت الكأس بالكامل. فوراً. دفعة واحدة بدون توقف. حتى آخر قطرة.

أمّا بن غوريون فقد اخذ جرعتين أو ثلاث جرعات عميقة، صاخبة، جرعات فلاح ظمآن، ثم عاد إلى محاضرته.

«بطلاقة سبينوزية أقول لك دون أيّ تردد بأنّ كلّ جوهر نظرية سبينوزا، بشكل سريع، يمكن أن نوجزه هكذا: على الإنسان أن يحافظ دائماً على هدوئه! على الإنسان ألا يفقد سكينته! وما عدا ذلك فما هو إلا تفسيرات ومساجلات وتأويلات. الهدوء النفسي! سكينة في كلّ الأحوال! وما عدا ذلك اذهب وتمّم!» (لهجة بن غوريون حولت كلمة تفسيرات ومساجلات

وتأويلات إلى تفسيرَت ومساجلَت وتأويلَت مع رفع نبرة صوته على المقطع الأخير من كلّ كلمة.)

هنا لم أستطع أن أتغاضى عن إهدار كرامة سبينوزا. لا يمكن أن اسكت دون أن أخون الفيلسوف الغالي عليّ. جمّعت كلّ قواي النفسية، رفّت عيني قليلا، وبأعجوبة تجرأت وفتحت فمي في حضرة سيد البلاد ومالئها وأن أغرّد له بصوت صغير:

«الهدوء والسكينة موجودان فعلا عند سبينوزا، ولكن ربما ليس من الدقة أن نقول بأنّ هذا هو جوهر نظرية سبينوزا؟ إذ يوجد عنده أيضاً -»

وهنا انصبت عليّ حمم من النيران والكبريت واللافا الحارقة مباشرة من فوهة البركان الثائر المستعر:

كلّ حياتي وأنا من أتباع سبينوزا! منذ شبابي وأنا سبينوزيّ! الهدوء النفسي! عدم الانفعال! هذه هي خلاصة زبدة جميع أفكار سبينوزا! هذه هي صميم قلبها! راحة النفس! في الخير والشر، في الهزيمة والانتصار، على الإنسان ألا يفقد سكينته أبداً! إلى الأبددد!»

قبضتا يديه كلتاهما، قبضتا يدي حطّاب عجوز، وقعتا فجأة بضراوة، بغضب ثائر، على لوح الزجاج الذي على طاولة مكتبه حتى أن كأسينا قفزتا وأخذتا كلتاهما ترتجفان من شدة الخوف:

«على الإنسان ألا يفقد أعصابه / صوابه أبداً»، هاجمني مثل عاصفة رعدية في يوم الحساب الأخير، «إلى الأبد، لا! وإن كنت لا ترى ذلك - فإنك لا تستحق أن تكون من أتباع سبينوزا أو أن تطلق على نفسك صفة سبينوزيّ!»

*

وبذلك، هدأت عاصفة غضبه. وأصبح صافيا.

جلس على كرسيه، قبالتي، وفتح ذراعيه على اتساع طاولة مكتبه، كمن ينوي أن يضمّ إلى صدره كلّ ما تجمّع على سطح لوح الزجاج الذي يغطّي طاولة المكتب. شعّ منه نور لطيف، نور يذيب القلب، شع منه عندما ابتسم فجأة بسرور وبراءة، وكأن الذي ابتسم ليس وجهه وعينيه فقط بل جسمه،

جسم الملاكم، كلّه ارتخى وتبسم والغرفة كلها ابتسمت وكأنما سبينوزا نفسه ابتسم معه أيضاً. عينا بن غوريون واللتان تحولتا في لحظة من رمادي- غائم إلى ازرق فاتح تجولتا وفحصتاني، بدون أدب، من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي وكأنه كان يجسّني بأصابعه. شيء ما يشبه الزئبق كان فيه شيء هائج يسلب الراحة. تعليلاته أشبهت ضربات الملاكم. ومع ذلك عندما أشرق فجأة بدون أيّ سابق إنذار تحوّل الرجل كلمح البصر من اله منتقم وحاقد إلى جدّ عجوز منتعش مشع يتمتع بصحة ممتازة وهدوء عميق. في تلك اللحظة صدر عنه دفء مغر وللحظة أطلت صفته المنعشة صفة الولد منشرح الصدر والمتفائل، ولد «شقيّ» فضولي بلا حدود.

«وأنت؟ أنت تكتب الشعر، أليس كذلك؟»

قالها وغمزني بعينه بـ«شقاوة». وكأنه نجح في أن ينصب لي فخا صغيرا ولطيفا. وكأنه بذلك ربح اللعبة.

دهشت مرة أخرى: حتى ذلك اليوم لم أنشر إلا قصيدتين أو ثلاث قصائد في مجلات فصلية بعيدة تابعة للحركة الكيبوتسية (فصليات ليتها تفتتت وتحولت إلى غبار مع أبياتي الهزيلة).

إلا أن بن غوريون، على ما يبدو، رأى هذه القصائد ذات مرة: كان من عادته أن يتصفح كلّ ما يطبع: شهريات الحدائق والزينة. كراسات هواة الشطرنج وأصدقاء/ أنصار الطبيعة. أبحاث في الهندسة الزراعية. مجلات الإحصاء. كان فضوليا/ محبّاً للاستطلاع لا يرتوي.

وكان عنده، على ما يبدو، قوة ذاكرة مطلقة: كلّ ما شاهده ذات مرة لم ينسه أبداً.

تمتمت بشيء ما.

لكن رئيس الحكومة ووزير الدفاع لم ينتظر ليسمع. روحه الجامحة كانت تعدو إلى الأمام. الآن، بعد أن فسر مرة واحدة وإلى الأبد بضربة قاضية واحدة، كلّ ما لم يفسّر في نظرية سبينوزا، توجه ليحاضر لي بحماس شديد حول المواضيع الأخرى: عن انخفاض الحماس الطلائعي بين أبناء شبيبتنا. وعن الشعر العبري الحديث الذي ينشد تجارب غريبة بدلا من أن

يفتح عينيه ويتغنى بالأعجوبة التي تحدث هنا في كلّ يوم أمام أعيننا: بعث الشعب! بعث لغتنا! بعث صحراء النقب!

*

وفجأة، ومرة ثانية بدون سابق إنذار، في وسط تدفق مناجاته، في منتصف الجملة تقريبا، فجأة شعر بالسأم.

وعليه، اندفع من على كرسيه، مثل قذيفة مدفع، وأنهضني كذلك من على كرسيّ، وهو مازال يدفعني باتجاه الباب - يدفعني فعلا بكلتي يديه القويتين بالضبط كما اضطر سكرتيره أن يدفعني إلى الداخل قبل حوالي ثلاثة أرباع الساعة- وهو مازال يدفعني ويبعدني، قال لي بن غوريون بلطف كبير ودفء:

«جميل أن نتحدث. جميل جدّاً. وماذا قرأت في الآونة الأخيرة؟ ماذا يقرأ الشباب اليوم؟ أنت مدعوّ لزيارتي كلما جئت إلى المدينة. عرّج علي، لا تخف!»

وفي الوقت الذي دفعني فيه بحذائي العسكري المسمّر وقميص السبت الأبيض خارج الباب أضاف يقول بمرح:

«تعال، عرج علي، بابي مفتوح في وجهك!»

*

أكثر من أربعين سنة انقضت منذ تلك المحاضرة الصباحية عن سبينوزا في مكتب بن غوريون المتواضع إلى حد الزهد. منذ ذلك الوقت سنحت لي الظروف لأن التقي بمشاهير من بينهم قادة سياسيين أيضاً. من بينهم شخصيات جذابة وأحياناً تتمتع بسحر شخصي. ولكن أيّاً منهم لم يحفر أثره في نفسي بحدة مثل الأثر الذي تركه في نفسي حضور بن غوريون الجسدي وصدمة قوة إرادته الكهربائية. لقد كان في بن غوريون، على الأقل في ذلك الصباح، طاقة سحرية.

لقد كان يشعياهو برلين على حق في تشخيصه القاسي: بن غوريون، بالرغم من أفلاطون وسبينوزا، لم يكن مفكّرا. بعيد عن ذلك. لقد كان،

هكذا يبدو لي، فلاحا حالما ذا خيال واسع. شيء ما عتيق جدّاً كان فيه. شيء لا يمت إلى هذا العصر. بساطة نفسية شبيهة ببساطة شخصيات التوراة. قوة إرادة تشبه جلدة سوط من شعاع الليزر المركّز. منذ طفولته الحزينة في بلدة بلونسك في شرق بولندا خطر ببال بن غوريون، على ما يبدو، فكرتان بسيطتان: بأن اليهود يجب أن يعودوا إلى وطنهم في ارض إسرائيل وأنه هو الشخص المناسب لقيادتهم. طوال حياته لم ينحرف ولا لمرة واحدة عن قراري الصبا هذين. وكل شيء أخضعه لهما.

كان إنسانا مستقيما وقاسيا، ومثل غالبية أصحاب الرؤى لم يتوقف ليتساءل كم يكلف هذا الأمر. أو ربما أنّهُ توقف للحظة ثم أجاب نفسه ليكلف مهما يكلف.

طوال أيام طفولتي بين أفراد عائلة كلاوزْنر وبقية مبغضي اليسار الذين كانوا عندنا في حي «كيرم أفْراهام»، رددوا على مسامعي بأنّ كل مصائب الشعب مصدرها بن غوريون. في المحيط الذي ترعرعت فيه، كان بن غوريون الشخص الشرير، تجسدت فيه كلّ مساوئ الحكومة اليسارية.

في حين طوال أيام شبابي كنت معارضا لطرقه من الجهة الأخرى، اليسارية. مثل الكثيرين من المثقفين الإسرائيليين أبناء جيلي، نظرت إلى بن غوريون - منذ أيام «فضيحة لافون» - على أنّهُ شخصية شبه دكتاتورية، حتى أنّني تقززت من قبضته الشديدة ضد العرب في حرب الاستقلال وفي أيام العمليات الانتقامية. في السنوات الأخيرة فقط بدأت أقرأ عنه وأتساءل ربما لم أكن على حق.

توجد إثباتات إلى هذه الجهة وتوجد إثباتات إلى تلك الجهة.

وفجأة، وأنا كنت اكتب هنا «قبضته الشديدة»، رأيت من جديد بصورة واضحة جدّاً وشبه محسوسة، يد بن غوريون الممتلئة بالشعر وهي تمسك بكأس العصير الرخيص الذي صبّ منه، في البداية، لنفسه قبل أن يصبّ لي. الكأس نفسها كانت من النوع الرخيص أيضاً مصنوعة من الزجاج السميك. كانت ثخينة وقصيرة جدّاً أصابعه القوية التي التفت حول الكأس بقوة وكأنها قنبلة يدوية. دهشت: في تلك اللحظة خفت من أنني إذا أخطأت

وقلت كلمة واحدة تثير سخطه وغضبه فإنّ بن غوريون سيرفع، للتوّ، ذراعه ويقذف بكل محتويات الكأس في وجهي مباشرة. أو أنّهُ سيقذف الحائط بالكأس. أو أنّهُ سيزيد من قبضته عليها بين أصابعه فيحطمها فيها. هكذا كانت قبضته الفظيعة على تلك الكأس. حتى زال عنه الغضب وكشف لي بأنه يعرف عن محاولاتي لكتابة الشعر، وقد ابتسم، مستمتعا جدّاً عندما لاحظ الصدمة - الدهشة التي ارتسمت على وجهي، وللحظة واحدة قصيرة بدا مثل المهرج السعيد وطيب القلب الذي نجح في أحبولة صغيرة، وهو يفكر ما هي الأحبولة التالية؟

٥٤

في الخريف، في أواخر سنة ١٩٥١، ساءت حالة أمّي مرة أخرى. عادت تشكو آلام الشقيقة، ومعها عاودها الأرق وقلة النوم. عادت تجلس طوال الوقت على الكرسي بجانب الشباك تعدّ العصافير أو الغيوم. في الليل أيضاً كانت تبقى جالسة على ذلك الكرسي وعيناها يقظتان مفتوحتان.

تقاسمت أنا وأبي أعمال المنزل. كنت أقوم بتقشير الخضراوات وكان هو يقطعها ليصنع منها سلطة ناعمة. كان هو يقسّم الخبز وأقوم أنا بدهنه بالزبدة المصنّعة والجُبنة أو بالزبدة المصنّعة والمُرَبّى. كنست أنا وشطفت المساطب ومسحت الغبار بخرقة من على قطع الأثاث وكان أبي يأخذ أكياس النفايات ويحضر كلّ يومين أو ثلاثة ثلث قالب ثلج لبراد الثلج. كنت أقوم أنا بالمشتريات من البقّال ومن عند بائع الخضراوات، بينما قام والدي بالمشتريات من عند الجزّار ومن الصيدلية. كلّ واحد منا كان يضيف بخط يده، حسب الحاجة، مواد إلى قائمة المشتريات التي امتدت على طول بطاقة واحدة من بطاقات مكتبة والدي والتي كنا نعلقها على مسمار صغير على عارضة باب المطبخ وكنا نشطب أو نمحو منها ما قد اشتريناه. في كلّ أسبوع مع غروب شمس يوم السبت، كنا نحن الاثنان نفتح بطاقة مشتريات جديدة:

بندورة. خيار. بصل. بطاطا. فُجْل.

خبز. بيض. جبنة. مربى. سكر.

أن نفحص إذا وصلت اليوسفي ومتى سيبدأ وصول البرتقال.
كبريت. زيت. شموع (لحالات انقطاع التيار الكهربائي).
صابون أواني. صابون غسيل. معجون أسنان «شنهاف» (عاج).
نفط.
مصباح كهربائي ٤٠ واط. تصليح المكواة. بطاريات.
جلدة جديدة لحنفية مغسلة الحمام. وتصليح هذه الحنفية لأنها لا تغلق حتى النهاية.
لبنة. زبدة مصنّعة. زيتون.
شراء جوارب صوف لأمّي.

في تلك الأيام بدأ خطي يقترب من خط أبي ليصبح أكثر شبها به، إلى درجة أصبح من الصعب التمييز من منّا سجل «كاز» ومن منا سجل «نحتاج إلى ممسحة جديدة للمسطبة». حتى هذا اليوم خطي يذكّر بخط والدي، خط مُفْعَمٌ بِالحَيَوِيَّة، ليس مقروءا دائماً، شديد وحاد يدلّ على ضغط كبير على القلم: بعيد كلّ البعد عن خط أمّي ذي الحروف اللؤلؤية المستديرة والهادئة، والتي تميل قليلا إلى الخلف، دقيقة ومريحة للنظر، مكتوبة بيد خفيفة منضبطة، حروف كاملة ومتتالية مثل صفّي أسنانها.

في تلك الأيام كنا - أنا وأبي - قريبين جدّاً من بعضنا: مثلنا مثل حاملَي نقّالة عليها جريحتهما يصعدان بها جبلا شديد الانحدار. كنا نقدم لها كاس الماء ونحرص على أن تتناول الأدوية المهدّئة التي وصفها لها طبيبان مختلفان: لهذا الموضوع أيضاً كانت لنا بطاقة من بطاقات أبي المكتبية، كنا نسجل عليها أسماء الأدوية وأوقات تناول كلّ منها وكنا نشير بحرف (v) إلى جانب كلّ دواء أُعطي لها، وبحرف (x) إلى جانب ما رفضت أمّي بلعه أو بلعته ثم لفظته من فمها. في معظم الحالات كانت تتجاوب وتبلع الدواء حتى وإن شعرت بالغثيان. وفي بعض الأحيان كانت تحاول جاهدة أن تمنحنا ظل ابتسامة والذي كان يؤلمنا أكثر من شحوبها وأكثر من الهلالين الصغيرين اللذين أحاطا عينيها لان الابتسامة تلك كانت جوفاء. وكأنه حدث بدونها.

وكانت أحياناً تشير إلينا بأنّ نطأطئ رأسينا لتربت عليهما قليلا بحركة متماثلة دائرية. ساعة طويلة كانت تربت على رأسينا. إلى أن يقوم والدي بأخذ يدها بلطف ووضعها في حضنها وكنت أنا أفعل مثله.

*

في كلّ مساء خلال وجبة العشاء كنا - أنا ووالدي- نعقد في المطبخ ما يشبه جلسة قيادة يومية، نلخص فيها أحداث اليوم ونخطط ليوم الغد. كنت أحكي له القليل مما كان في المدرسة وكان هو يحكي لي القليل مما يجري في مكان عمله، في المكتبة الوطنية، أو يستعرض على مسامعي مقال بحث جديدا يحاول أن يكمل كتابته قبل فوات الاوان للعدد القادم من مجلة «تربيتس» أو مجلة «متسودا».

كنا نتحدث فيما بيننا في السياسة، عن مقتل الملك عبد الله وعن بيغن وعن بن غوريون. كشخصين متعادلين تحدثنا. لقد امتلأ قلبي حبا لهذا الرجل المتعب عندما كان يلخص ويقول بكل رزانة:

«وعليه بيني وبينك ما زالت هناك اختلافات واسعة في وجهات النظر. مؤقّتاً سيبقى كلّ منا متمسكا برأيه.»

بعد ذلك كنا نتباحث قليلا في شئون البيت، نسجل على إحدى بطاقات والدي ما هي الأمور التي علينا أن نتدبرها، ونشطب أو نمحو الأمور التي تم تدبيرها وقضاؤها. حتى في الشئون المالية كان أبي يشاورني أحياناً: بقي على المعاش أسبوعان وقد صرفنا حتى الآن كذا وكذا. في كلّ مساء كان يسألني ماذا عن وظائفي البيتية وأنا بدوري كنت أقدم له للمقارنة والمراقبة قائمة الوظائف البيتية التي أحضرتها من المدرسة ومعها دفاتري التي حللت عليها هذه الوظائف البيتية. أحياناً كان يتطلع ويبدي ملاحظات صائبة لأنّ معلوماته في جميع المواضيع كانت واسعة وعميقة حتى أكثر من مؤلفي كتب التدريس. في غالب الأحيان كان يقول:

«لا حاجة إلى أن أفحص وراءك. أنا بكل تأكيد اعتمد عليك وأثق بك كلّ الثقة.»

الفخر الخافت الممزوج بالاعتراف بالجميل كان يغمرني عند سماعي لهذه الكلمات. وقد يحدث أن تثور بداخلي فجأة شفقة كبيرة أيضاً.

عليه. ليس على أمّي. عليها لم أشفق إطلاقا في تلك الأيام: فقد كانت سلسلة طويلة من الواجبات والقسريات اليومية فقط. والارتباك والخجل والامتعاض: لأنّه كان من الضروري أن أشرح لأصدقائي لماذا لا يمكنهم أبداً المجيء لزيارتي كما كان علي أن أجيب الجيران في البقالة الذين حققوا معي بلطف ومودة لماذا لا يرونها أبداً؟ ماذا حدث لها؟ وحتى للأعمام والعمات/ الأخوال والخالات وحتى لجدي ولجدتي، لم نقل (أنا وأبي) الحقيقة كلها: خفّفناها. قلنا إِنْفلوَنْزَا ثقيلة حتى عندما لم تكن عندها إِنْفلوَنْزَا. كنا نقول صداع نصفي، وكنا نقول أيضاً: حساسية خاصة لضوء النهار. وأحياناً كنا نقول: إنّها مرهقة جدّاً. حاولنا - أنا ووالدي- أن نقول الحقيقة ولكن ليس كلّ الحقيقة.

الحقيقة الكاملة لم نعرفها. ولكن عرفنا دون أن نتحدث عن ذلك ودون أن نتفق على ما نقوله، بأننا لن نقول كلّ ما نعرفه كلانا لأي شخص، بل نكشف للعالم الخارجي حقيقة واحدة أو حقيقتين. لم نتحدث - أنا وأبي- فيما بيننا أبداً عن حالة أمّي. كنا نتحدث فيما بيننا فقط عن مهمات الغد، وعن توزيع العمل لاستمرار الحياة اليومية وعن حاجات المنزل. لم نتحدث، ولا مرة، عن مرضها، باستثناء تنهدات أبي المتكررة وهو يقول «هؤلاء الأطباء، لا يعرفون أيّ شيء. لا شيء». كما أننا لم نتحدث عن ذلك بعد موتها. من يوم وفاة أمّي وحتى يوم وفاة أبي بعد عشرين سنة من وفاتها، لم نتحدث - هو وأنا- عنها ولا حتى لمرة واحدة. ولا حتى كلمة واحدة. كأنها لم تكن. كأنّ حياتها كانت مجرد صفحة قصتها الرقابة من دائرة معارف سوفييتية. أو كأنني أنا مثل أثينا، ولدت من رأس زيوس. كنت مثل مسيح معكوس: رجل بتول ولدني من أشباح شفافة. وفي كلّ صباح، مع بزوغ أول شعاع، كنت أستيقظ على صوت عصفورة تزقزق بين أغصان شجرة الرمان التي في الساحة. كانت هذه العصفورة تستقبل أول أشعة الصباح بالنغمات الأولى من معزوفة «إليز» من تاليف الموسيقار «بتهوفن»: «تي-دا-دي-دا-

دي!» ومرة أخرى وفورا وبانفعال أكبر «تي-دا-دي-دا-دي!!» وأنا من تحت اللحاف كنت أكمل بانفعال كبير: «---دا-دي-دا-دي!» بيني وبين نفسي سميت تلك العصفورة «إليز».

*

كان وضع أبي في تلك الأيام يؤسفني ويحزنني. وكأنه وقع ضحية دون أيّ ذنب اقترفه، أو ضحية لعملية تنكيل طويلة ومتواصلة. وكأن أمّي كانت تقسو عليه بمكر وخبث وعن سابق إصرار. كان مرهقا جدّاً، وحزينا، على الرغم من أنّهُ كعادته حاول طوال الوقت أن يظهر من نفسه بهجة كلامية لا تنقطع. لقد كره طوال حياته الصمت ورأى نفسه مسئولا عن الصمت إذا ما خيم. حول عينيه كما حول عيني أمّي ظهرا هلالان أسودان.

أكثر من مرة كان يترك عمله في المكتبة الوطنية في منتصف النهار لكي يأخذها لإجراء الفحوصات الطبية. أيّ فحوصات لم تُعمل لها في ذينكما الشهرين: القلب والرئتان وموجات الدماغ، الجهاز الهضمي والهورمونات، الأعصاب وأمراض النساء والدورة الدموية. لكن عبثا. لم يبخل أبي بالمال، استدعى أطباء مختلفين، أخذها على الرغم من رفضها إلى أطباء خصوصيين متخصصين، وربما أنّهُ احتاج في تلك الأيام إلى أن يقترض مبالغ من المال من والديه مع أنّهُ كان يمقت الدِّين، كما مقت أكثر منها رغبة أمّه، الجدة شلوميت، في أن «تكون في الصورة» وأن تصلح له حياته الزوجية.

في كلّ صباح كان أبي يستيقظ باكرا مع بزوغ أشعة الشمس الأولى ليقوم بترتيب المطبخ، وتصنيف الغسيل، وليعصر عصير الفواكه لكي يقدمها بدرجة حرارة دافئة إلى أمّي وإليّ كي نتقوى قليلا ولكي يتمكن قبل ذهابه إلى العمل أن يردّ بسرعة على ثلاث أو أربع رسائل وصلت من محررين وباحثين. بعد ذلك كان يهرول إلى محطة الباصات أخذ معه سلة شبكة للمشتريات فارغة ومطوية في حقيبته المكتبية الرثّة، كي يتمكن من الوصول في الوقت إلى بناية التيراسانطة التي انتقل إليها قسم الصحف التابع للمكتبة الوطنية بعد أن فصل حرم الجامعة الموجود على جبل المشارف باقي أجزاء المدينة خلال حرب الاستقلال.

في الساعة الخامسة بعد الظهر كان يعود، وليس قبل أن يمر في طريق عودته على البقال والكهربائي أو الصيدلي، وكان يسرع مباشرة إلى أمي كي يرى إذا كان وضعها قد تحسّن راجيا أن تكون قد نامت بعض الوقت خلال فترة غيابه عنها. بمعلقة صغيرة كان يحاول أن يطعمها بيريه بطاطا أو الأرز المطبوخ الطري والذي تعلمنا (أنا وهو) طريقة إعداده. بعد ذلك كان يغلق باب غرفتيهما من الداخل ويساعدها على تبديل ملابسها محاولا التحدث معها. وربما كان يحاول مجتهدا أن يرفّه قليلا عن نفسها بواسطة النكات التي قرأها في الجريدة أو جاء بها من المكتبة، والتي كان يسميها دعابات أو حِدّة تفكير. وقبيل مداهمة الليل كان يسرع للقيام بالمزيد من المشتريات ويقوم ببعض الترتيبات هنا وهناك، لا يستريح، يتأمل وهو واقف نشرات التعليمات الطبية المرفقة مع الأدوية الجديدة محاولا شدّ أمي إلى محادثة حول مستقبل دول البلقان.

بعد ذلك كان يأتي إلى غرفتي ليساعدني على تبديل شراشف السرير أو لتوزيع حبات النفتالين في خزانة الملابس استعدادا لفصل الشتاء، وخلال ذلك كان يدندن بينه وبين نفسه بصوت بالغ النشاز إحدى الأغاني العاطفية أو يشدني إلى نقاش حول قضية دول البلقان.

*

قبيل المساء كان يحدث أحيانا أن تأتي إلينا الخالة ليلنكا، الخالة ليليا، الخالة ليئة كليش - بار- سمخا، صديقة أمي الحميمة، بنت بلدها وبنت صفها من أيام مدرسة «تربوت» الثانوية في مدينة روفنو. وهي التي ألفت كتابين عن نفسية الطفل.

كانت الخالة ليليا تحضر معها بعض الفواكه، أو كعكة برقوق من صنع يديها، وقد كنت أنا أقوم بإعداد الطاولة أمامهما واضعا عليها الفواكه التي أحضرتها بعد أن أكون قد غسلتها مع الصحون وسكاكين الفواكه. وكنا نخرج ونتركهما لتكونا معاً لوحدهما. كانت الخالة ليليا تجلس منفردة مع أمي، في الغرفة، لمدة ساعة أو ساعتين، وعندما كانت تخرج كانت عيناها حمراوين. أمّا أمي فقد بدت هادئة وساكنة كعادتها طوال الوقت. كان أبي يتغاضى عن

الاشمئزاز القليل الذي كانت تسببه له هذه السيدة، وكان يقترح، بأدب جمّ، أن تتكرّم وتبقى لتتناول معنا وجبة العشاء؟ ولم لا؟ اسمحي لنا، من فضلك، أن نكرمك قليلا؟ لا شك أن هذا سيسعد فانيا بكل تأكيد؟ إلا أنها كانت تعتذر بفزع، وكأنه عُرض عليها أن تشترك في عمل غير لائق: فهي لا تريد، لا سمح الله، أن تضايق، وإضافة إلى ذلك فهم بانتظارها في البيت ولا شك أنّهم لو تأخرت أكثر من ذلك فسيبدؤون بالقلق عليها.

وقد يحدث أن يزورنا جدي وجدتي، وهما يلبسان أحسن الملابس ومتزينان وكأنهما ذاهبان إلى حفلة. جدتي مع حذاء كعب عال وفستان- قَطِيفَة أسود وقلادة خَرَز أبيض، كانت تقوم بجولة في المطبخ قبل أن تجلس. عندما كانت تجلس بجانب أمي، كانت تعبث بعلب الأدوية وتفحص محتويات القناني الصغيرة، تشدّ إليها والدي وتتأمل ياقة قميصه من الداخل، وتقطب وجهها مشمئزة عندما كانت تفحص حالة أظافري. ووجدت من اللائق أن تقول بأسف بأنّ العلم اليوم يعرف بأنّ غالبية الأمراض أو كلها تقريبا تسببها النفس وليس الجسد. أما جدي «ألِكْسَنْدِر» لطيف يبعث البهجة في النفس دائما وكثير الحركة مثل جرو كلاب مبتهج، قبل يد أمي وأثنى على جمالها «حتى وأنتِ مريضة وبكل تأكيد عندما تشفين تماما غدا إذا لم يكن هذه الليلة. هيا، «شتو!» ها أنت متفتحة! ساحرة فعلا! كراسافيتسا!» (امرأة رائعة الجمال).

*

في المساء مازال أبي يواظب بشدة على أن يطفأ الضوء في غرفتي في الساعة التاسعة بالضبط. وكان يدخل على رؤوس أصابع قدميه إلى الغرفة الأُخرى، غرفة الكتب، غرفة الضيوف- والعمل والنوم، يلف كتفي أمّي بشال من الصوف لأنّ الخريف على الأبواب والليالي أصبحت باردة، ثم يجلس بجانبها يتناول كفة يدها الباردة ويضعها في راحته الدافئة دائما محاولا أن يشدّها للدخول معه في محادثة خفيفة. مثل فارس الأحلام من الأسطورة حاول أبي المرهق أن يوقظ الجميلة النائمة. ولكنه حتى وإن ربما قبلها، فهو لم يفلح في أن يوقظها: سحر التفاح لم يبطل مفعوله بعد. أو أن قبلته لم

تكن صحيحة. أو أنها في أحلامها لم تنتظر متكلما يضع نظارة خبيرا بجميع فنون المعرفة ويتندّر بلا توقف وقلقا على مستقبل دول البلقان، بل كانت تنتظر أميراً من نوع آخر تماما.

كان يجلس إلى جانبها في العتمة لأنها في تلك الأيام لم تستطع تحمّل الضوء. في كل صباح قبل خروجه إلى العمل وقبل انصرافي إلى المدرسة كان علينا أن نغلق جميع أباجورات المنزل وجميع الستائر وكأن أمّي تحوّلت لتصبح تلك المرأة الفظيعة - البائسة التي حبست في عليّة في الرواية الانجليزية «جين إير».

في العتمة وفي صمت كان أبي يجلس يمسك بيد أمّي بدون حركة. أو ربما أمسك بكلتي يديها وضمهما بين راحتيه.

ولكنه لم يكن قادرا على أن يجلس بدون حركة أكثر من ثلاث أو أربع دقائق، ليس إلى جانب أمّي المريضة فقط بل ولا في أي مكان آخر باستثناء طاولة مكتبه وبطاقاته: كان رجلا مليئا بالحيوية نشيطا كله حركة وإحساس وترتيبات وسيل متدفق من الكلام.

عندما لم يكن يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك العتمة والصمت، راح والدي مع كتبه ومع الكثير من بطاقاته إلى المطبخ، فرّغ لنفسه جزءا من مشمّع طاولة الطعام، وجلس على الكرسي القصير واشتغل بعض الوقت. ولكن سرعان ما أوهنت يديه زنزانة المطبخ السخاميّ القاتم. ولذلك، مرة أو مرتان في الأسبوع كان يقوم ويتنهد ويبدّل ملابسه ويمشط شعره ويفرك أسنانه جيدا ويتطيّب بماء الكولونيا ويسترق النظر خفية إلى غرفتي ليفحص إذا كنت قد نمت جيدا (من أجله كنت دائما أتظاهر بالنوم). بعد ذلك كان يدخل إلى أمّي يقول لها ما يقوله، ويعدها بما يعد، وهي بكل تأكيد لم تقف في طريقه، بل على العكس، كانت تمرر يدها على رأسه وتقول، اذهب «آريه» اذهب لتلعب قليلا في الخارج، هناك، لسن كلهن متجمّدات مثلي.

مع خروجه، مرتديا بدلة، وقبعة هامفري- بوغارت على رأسه، وعلى ذراعه تتأرجح شمسية احتياطا لأي مطر طارئ، كان أبي يمر من الساحة من أمام شباكي ويدندن بتزييف مفزع وبلهجة أشكنازية صرفة: «ليكن حضنك

ملجأً لرأسي / عشا لصلواتي غير المستجابة»،[1] أو «عيناك كزوج من الحمام / وصوتُ- تُ- تُك كرنين الأجر- را- راس!»

لم اعرف إلى اين يذهب ومع ذلك عرفت حتى بدون أن أعرف ومع ذلك لم ارغب في أن أعرف ومع ذلك غفرت لأبي. تمنيت أن يستمتع هناك قليلا. لم أرغب في أن أرسم لنفسي ماذا يوجد هناك، في هذا الـ«هناك»، ولكن ما لم أرسمه بأيّ شكل من الأشكال، جاءني في الليل وخلط كياني ولم يدعني أعرف طعم النوم. كنت صبيا في الثانية عشرة من عمري. والجسم قد بدأ يصبح عدوا لا يعرف الرحمة.

*

أحيانا، خيّل إليّ، بأنّ أمّي، عندما كان يفرغ البيت في كل صباح، كانت، مع كل ذلك، تدخل تحت اللحاف وتنام طوال ساعات النهار. وكانت تقوم أحياناً وتتمشّى قليلا في البيت، حافية كعادتها دائماً، لم تجدِ نفعا معها كلّ توسّلات أبي ولا حتى الشبشب الذي كان يعرضه عليها: ذهابا وإيابا، ذهابا وإيابا كانت أمّي تبحر على امتداد الممر الذي استعملناه في أيام الحرب ملجأ والآن تراكمت فيه الكتب، وبسبب خرائط الحائط الكبيرة التي كانت معلقة فيه كان لي ولأبي بمثابة غرفة عمليات منها أدرنا أمن الدولة والدفاع عن العالم الحر.

في ساعات النهار أيضاً ساد الظلام المطبق هذا الممرّ إذا لم يُضأ فيه المصباح الكهربائي. في هذا الظلام تجولت أمّي الحافية ذهابا وإيابا، بوتيرة واحدة لمدة نصف ساعة أو ساعة كاملة كما اعتاد السجناء أن يمشوا في دوائر في الساحة داخل أسوار السجن. وكانت في بعض الأحيان تأخذ بالغناء، كمن تنافس أبي، مع أنّها أقلّ منه تحريفا وتزييفا. كان صوت غنائها غامقا ودافئا، مثل طعم النبيذ الدافئ في ليالي الشتاء. لم تكن تغني باللغة العبرية بل بلغة روسية تشنّف الآذان، أو بلغة بولندية حالمة. ومرة أو مرتين كانت تغني أغنية معينة بالإيديش، وكأنها من خلال دموع حبيسة.

---

(١) قصيدة لحاييم نحمن بياليك (المترجم).

في الليالي التي كان فيها يخرج، كان أبي يعود دائماً، كما وعد، قبيل منتصف الليل. كنت استطيع أن اسمعه وهو يخلع ملابسه ويبقى بملابسه الداخلية، يحضّر لنفسه كأس شاي، يجلس في المطبخ على الكرسيّ الذي بلا ظهر أو ذراعين ويدندن لنفسه بصوت خافت وهو يغمس قطعة بسكويت بالشاي المحلّى. بعدها كان يغتسل بماء بارد (لأنّه لكي يغتسل بماء ساخن عليه أن يشعل الموقد تحت المرجل لمدة ثلاثة أرباع الساعة ويغذيه بقطع من الحطب والتي كان عليه أن يرشها بالقليل من النفط لكي تشتعل). بعد الحمام كان يتسلل على رؤوس أصابع قدميه ليفحص نومي وليحسّن وضع اللحاف. بعد كلّ هذه الأمور كان يمشي على رؤوس أصابع قدميه إلى غرفتهما. وقد يحدث أن أسمع صوتيهما المنخفضين، صوته وصوت أمّي، حتى كنت أغفو في نهاية الأمر. وقد يحدث أن يسود صمت مطلق وكأنه لا أحد حيّ هناك.

بدأ والدي يشكّ فيما إذا كان مجرد وجوده هو نفسه في سرير الزوجية، يسبب الأرق لأمّي. عدة مرات كان يصرّ على أن تنام على الكنبة التي تحولت كلّ ليلة إلى سرير الزوجية، في حين نام هو نفسه على كرسيّها (في طفولتي كنا نسمّي هذه الكنبة «الكنبة النابحة» لأنها كانت عند فتحها تبدو مثل حنجرة كلب غاضب). كان أبي يحثّها ويشرح لها بأنّ ذلك أفضل لكل منهما: هي على السرير وهو على الكرسيّ، إذ أنّهُ ينام مثل كتلة خشبية في أيّ مكان يضطجع فيه «ولو على مقلاة تغلي». وعلى العكس: نومه على الكرسيّ، وهو يعلم أنّها تنام على السرير، يكون هنيئا ألف مرة من نومه على السرير وهو يعلم أنّها تجلس الساعات تلو الساعات يقظة على الكرسيّ.

*

وفي إحدى الليالي، قبيل منتصف الليل، فُتح فجأة باب غرفتي، وإذا بخيال أبي ينحني فوقي في الظلام. كعادتي دائماً تظاهرت بالنوم. ولكن أبي بدلا من أن يحسّن وضع لحافي فقد رفعه ودخل سريري ليضطجع بجانبي. كما فعل وقتئذ. كما فعل في ليلة ٢٩ تشرين الثاني، بعد التصويت على إقامة الدولة، عندما شاهدت يدي دموعه. ذهلت وسارعت إلى تقليص جسمي بأنّ جمعت ركبتيّ إلى بطني بشدة، كيلا يلاحظ، بأيّ شكل من الأشكال، بأيّ

شكل من الأشكال، ما الذي سبّب لي ألا أنام: إذا لاحظ ذلك فإنّني سأموت من فوري. لقد تجمّد الدم في عروقي إلى حد كبير عندما دخل والدي، فجأة، تحت لحافي، لقد ذُعِرت من أن أُضبط بقباحتي، مرت لحظة طويلة حتى أدركت، وكأنني في كابوس، بأنّ الظل الذي دخل سريري لم يكن ظل والدي.

كستنا كلينا حتى أعلى رأسينا ثم حضنتني من الخلف وهمست لا تستيقظ.

وفي الصباح لم تكن موجودة. وفي الليلة التالية عادت وجاءت لتنام في غرفتي ولكنها هذه المرة جرت معها فرشة واحدة من فرشات «الكنبة النابحة» ونامت على المسطبة عند موضع قدميّ. في الليلة التالية أصررت بكل قوة، مقلدا، قدر استطاعتي، طريقة وأسلوب أبي القاطع الجازم المنطقي، ولم أتنازل، وبقيت على إصراري أن تنام هي على سريري وأن أنام أنا على الفرشة، عند موضع قدميها.

وكأننا كنا نحن الثلاثة نلعب لعبة الكراسي الموسيقية. وكأننا طوّرنا نحن الثلاثة وصنعنا لنا لعبة اسمها الأسرة الموسيقية. المقطع الأولي، الطبيعي: والداي كلاهما في سرير الزوجية، وأنا نائم في سريري. بعد ذلك في المقطع التالي، أمّي على كرسيّها ووالدي على الكنبة وأنا كما أنا دون تغيير، في سريري. في المقطع الثالث أمّي وأنا ننام كلانا في السرير المخصص لشخص واحد في حين ينام والدي وحده على سرير الزوجية. في المقطع الرابع، والدي كما هو دون تغيير وأنا في سريري وأمّي على الفرشة عند موضع قدميّ. بعد ذلك يأتي التبادل بيني وبينها، ترتفع هي وأنزل أنا ووالدي ما زال كما هو دون تغيير.

وحدث بعد عدة ليال، عندما كنت نائما على الفرشة في غرفتي عند موضع قدميّ أمّي، أفزعتني في منتصف الليل بأصوات متقطّعة كانت تشبه السّعال ولكنها لا تشبهه تماماً. بعد ذلك سكتت ونمت أنا. ومرة أخرى، بعد ليلة أو ليلتين استيقظت على صوت سعالها الذي لم يكن سُعالا. نهضت وعيناي ملتصقتان، ملتفّاً ببطانيتي اجتزت الممر، كمن يمشي وهو نائم،

واضطجعت بجانب أبي، على سرير الزوجية، ونمت من فوري. وهكذا كان في الليالي التالية.

تقريبا حتى آخر أيام حياتها نامت أمّي في غرفتي وعلى سريري ونمت أنا مع والدي. وخلال يومين أو ثلاثة نقلت إلى هناك أيضاً جميع علب الأدوية وقناني العقاقير الطبية والأقراص المهدئة وأقراص النوم والأقراص ضد الشقيقة.

لم نتكلم ولو بكلمة واحدة حول هذا الترتيب الجديد. لا هي ولا أنا ولا هو. وكأنّ الشيء حدث من تلقاء نفسه.

وبالفعل من تلقاء نفسه. دون أيّ قرار عائليّ. دون أيّ كلمة.

وفي الأسبوع قبل الأخير لم تعد أمّي تنام في سريري بل عادت إلى كرسيّها أمام الشباك، إلا أن هذا الكرسيّ نُقل من غرفتنا- غرفة والدي وغرفتي- إلى غرفتي التي تحوّلت إلى غرفتها.

حتى عندما انتهى كلّ شيء لم أرد أن أعود إلى هذه الغرفة. أردت أن أبقى مع أبي. وعندما رجعت أخيراً إلى الغرفة التي كانت غرفتي، لم يكن بإمكاني أن أغفو فيها: شعرت وكأنها ما زالت هناك. تبتسم دون ابتسامة. تسعل بدون سعال. أو كأنها ورّثتني الأرق الذي لاحقها حتى النهاية ومن الآن فصاعدا سيلاحقني. لقد كانت مفزعة جدّاً تلك الليلة التي عدت فيها لأنام في سريري، حتى أن والدي اضطر، في الليالي التالية، إلى أن يجرّ من «الكنبة النابحة» إحدى فرشتيها ويأتي لينام معي في غرفتي. أسبوع أو ربما أسبوعان نام أبي، عند موضع قدميّ، في الليالي. بعد ذلك عاد هو إلى مكانه وكذلك هي أيضاً، أو لعل أرقها سار في أعقابها.

وكأن حوّاما بحريا كبيرا جرفنا نحن الثلاثة، وتقاذفنا إلى هنا وإلى هناك، قرّبنا وأبعدنا، رفعنا وحرّكنا ودوّرنا حتى ألقى بكل واحد منا على شاطئ ليس له. ومن شدة الإرهاق والتعب سلّم كلّ واحد منا صامتا بتغيير المكان. لأننا كنا متعبين جدّاً. لم يبد التعب على وجهَي أمّي وأبي فحسب بل من تحت عينيّ أيضاً وجدت في المرآة في تلك الأيام علامات هلالية الشكل غامقة اللون.

كنّا في ذلك الخريف مرتبطين وملتصقين ببعضنا مثل ثلاثة أشخاص محكومين داخل حُجيرة واحدة. ومع ذلك كان كلّ واحد منا مع نفسه: إذ ماذا كان بإمكانهما أن يعرفا هو وهي عن قرف لياليّ؟ عن قباحة الجسد الشنيعة؟ كيف كان بإمكان والديّ أن يعلما بأنني أنذرت نفسي المرة تلو المرة، بأسنان مصطكّة من شدة الخزي والعار، إذا لم تتوقف عن ذلك، إذا أنت لم توقف ذلك هذه الليلة أيضاً، عندها أُقسم بأنّني سآخذ كلّ الأقراص التي لأمي وأبلعها دفعة واحدة وبذلك أضع نهاية لذلك.

لم يخمّن والدي أيّ شيء. ألف سنة ضوئية كانت تفصل بيني وبينهما. ولكن، ماذا عرفت أنا عن معاناتهما؟

وهما؟ كلاهما؟ هذا مقابل الآخر؟ ماذا عرف أبي عن مصيبتها؟ ماذا فهمت أمّي عن معاناته؟

ألف سنة ضوئية فصلت بين كلّ منهما والآخر. وحتى بين المحكومين الثلاثة في الحجيرة. وحتى، في حينه، في تل أرزا، في صباح ذلك السبت، عندما جلست أمّي مستندة إلى إلى جذع شجرة وأنا ووالدي وضعنا رأسينا على ركبتيها كلّ رأس على ركبة وكانت هي، أمّي تربت على رأسينا، حتى في تلك اللحظة، التي كانت أعزّ من كلّ لحظات طفولتي، كانت تفصل بيننا ألف سنة ظلام.

٥٥

في مجلد أشعار زئيف جابوتِنْسكي، بعد «بالدم والعرق يقام لنا جذع»، بعد «ضفتان لنهر الأردن» و«منذ اليوم الذي دعيتُ فيه لأعجوبة/ بيتار وصهيون وسيناء»، وردت أيضاً ترجمات جابوتِنْسكي المتناغمة من الأشعار العالمية ومن ضمنها «الغراب» و« أنابل لي» تأليف إدغار ألن بو، و«الأميرة البعيدة» تأليف إدمون روستان و«قصيدة خريف» التي يعتصر لها القلب ألما من تأليف بول فيرلين.

سرعان ما تعرفت على هؤلاء جميعا وكنت أتمشى طوال النهار كالثمل من شدّة الآلام العاطفية السامية ومهاوي الأحزان المروعة التي أحاطت بهذه الأعمال الأدبية.

إلى جانب القصائد الوَطَنِيّة القتالية التي نظمتها وسجلتها في دفتر أسود فاخر، هدية من العم يوسف، بدأت أنظم أيضاً قصائد حول أحزان العالم، مشبعة بالأعاصير والعواصف والغابات والبحار. وقليلا من قصائد الحب والغزل، قبل أن أذق طعمه، أو قبل أن أدري ما هو. أو ليس قبل أن عرفت ولكنني كنت ما أزال أحاول عبثا التوفيق بين أفلام الغرب الأمريكي والتي فيها كانت تمنح فتاة جميلة كجائزة لمن قتل أكبر عدد من الهنود الحمر وبين النذور المغموسة بالدموع بين «أنابل لي» وحبيبها، وحبهما الذي تجاوز القبر والموت. كان من الصعب علي التوفيق بين هذه وتلك، وكان صعبا أكثر التوفيق بين كلّ هذه وبين متاهة القنوات- المهابل - البويضات التي تحدّثت عنها ممرضة مدرسة «تَحْكيموني». وبين قباحات الليل التي عذّبتني دون

رحمة حتى أحببت الموت. أو أن أعود لأكون كما كنت قبل أن وقعت هكذا بيد مجموعة من ساحرات الليل المستهترة: كل ليلة كنت أقرر أن أقتلهن لأتخلص منهن مرة واحدة وإلى الأبد، وفي كل ليلة كانت تلك الشّهرزادات تكشف أمام عينيّ المنذهلتين مغامرات وحشية حتى كنت طوال ساعات النهار انتظر بفارغ الصبر ساعة دخولي سريري الليليّ. وأحيانا لم استطع حتى الانتظار فكنت أنزوي في المرحاض نتن الرائحة الموجود في ساحة مدرسة «تَحْكيموني» أو في الحمام في بيتنا ثم أندفع خارجاً من هناك أجرّ ذيلي مخزيّاً ملعونا محتقرا ذليلا مثل الممسحة.

حبّ البنات وكل ما انطوى عليه بدا في نظري مثل الكارثة، أو مثل فخّ مفزع مَن يقع فيه لا يعود أبداً: في البداية يُجذبون بتحليق حالم وهميّ إلى داخل هيكل من البلّور الساحر وفي النهاية يستيقظون وهم غارقون حتى هنا داخل بلّوعة كريهة ونتنة.

كنت أهرب راكضا إلى قلعة الاتزان والرزانة إلى كتب الغموض والمغامرات والحروب: جول فيرن، كارل ماي، كوبر فينيمور، ماين ريد، شارلوك هولمز، «المُسْكيتيّون الثلاثة»، «الكابتن هتراس»، «إلى جبال القمر»، «بنت مونتيزوما»، «سجين زندا»، «بالنار والسيف»، «القلب» تأليف دي أميتشيس، «جزيرة الكنز»، «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» جول فيرن، «في الصحراء والبادية»، «ذهب كَخامالكا»، «جزيرة الأسرار»، رواية «الكونت دى مونت كريستو»، «آخر الموهيكان»، «أولاد القبطان غرانت»، خبايا أفريقيا السوداء، المهاجمون الغريناديون، والهنود الحمر والمجرمون والفرسان وناهبو البقر واللصوص ورعاة البقر والقراصنة، جزر الأرخبيل، الكثير من المحليين المتعطشين للدماء المكسوّة رؤوسهم بالريش ومدهونين بألوان الحرب، صراخات الحرب، تجمّد الدماء في العروق، أعمال سحرية، فرسان صارمون وعنيفون وفرسان شرقيون ذوو السيوف المعوجة، مسوخ، سحرة، قياصرة ومحتالون، أرواح شريرة تطارد، مستهترون - طائشون غير أخلاقيين متسكّعون كسالى، وبالأخص فتيان صغار السن وشاحبون معدّون

للأمور الجسيمة بعد أن ينجحوا في تذليل بؤسهم. رغبت في أن أكون مثلهم، كما أردت أن أعرف أن أكتب مثل الذين كتبوا عنهم. ربما أنني ما زلت لا أفرّق بين أن أكتب وبين أن أفوز.

*

«ميخائيل ستروغوف» تأليف جول فيرن ترك عليّ شيئا ما زال يلازمني حتى اليوم. بعث القيصر الروسي ستروغوف في مهمة سرية لينقل خبرا مصيريا إلى القوات الروسية المحاصرة في أطرف سيبيريا. في الطريق كان على الرسول أن يقطع مساحات سيطر عليها التتار. ألقى الحراس التتار القبض على ميخائيل ستروغوف وقادوه إلى زعيمهم، الخان الكبير الذي أمر أن يعمي عيني ميخائيل ستروغوف بواسطة رأس سيف متوهج كيلا يتمكن من مواصلة رحلته إلى سيبيريا. إلا أن الخبر المصيريّ حفظه ميخائيل ستروغوف ولكن كيف يتابع رحلته إلى سيبيريا بدون عينين؟ حتى بعد أن حرق الحديد المتوهج عينيه تابع الرسول المخلص يتلمّس طريقه في الظلام الدامس باتجاه الشرق، حتى يتضح للقارئ في لحظة حرجة من تسلسل أحداث القصة أن ميخائيل ستروغوف لم يفقد بصره: إذ أن توهج السيف المحمى لدرجة الابيضاض الذي مرّروه قريبا جدا من عينيه برّدته دموعه! لأنّ ميخائيل ستروغوف في تلك اللحظة الحاسمة فكّر في أفراد عائلته الذين أحبهم حبا شديدا والذين لن يراهم ثانية إلى الأبد، وقد فاضت عيناه بالدموع بسبب هذا التفكير وهذه الدموع هي التي برّدت توهج السيف وأنقذت نور عينيه وبعثته المصيرية والتي انتهت فعلا بالنجاح وأدت إلى انتصار بلاده على جميع أعدائها.

وعليه، دموع ميخائيل ستروغوف هي التي أنقذته وأنقذت روسيا كلّها. ولكن، أليست الدموع محرّمة عندنا على الرجال! شائنة! البكاء هو من نصيب النساء والأطفال فقط لا غير. منذ أن بلغت الخامسة كنت أخجل من البكاء وعندما بلغت الثامنة أو التاسعة تعلمت كيف أكبتها لكي أقبل عضوا في نادي الرجال. لذلك اهتجت كثيرا في ليلة ٢٩ تشرين الثاني عندما اصطدمت

يدي اليسرى في الظلام بخد أبي المبتلّ. ولذلك لم أتحدث عن ذلك ولا مرة لا مع والدي نفسه ولا مع أي إنسان غيره. وها قد جاء ميخائيل ستروغوف، وهو البطل المقدام الذي لا يعرف الخوف، الرجل الحديدي القادر على الصمود في وجه كل الصعاب وكل أصناف التعذيب، عندما تثور بداخله مشاعر الحب لا يكبح جماح نفسه، بل يتركها تبكي. لا يبكي ميخائيل ستروغوف من الخوف ولا يبكي من شدة الألم بل يبكي من فيض مشاعره

إضافة إلى ذلك: بكاء ميخائيل ستروغوف لا يحطّ من قدره ويضعه في درجة واحدة مع البؤساء والمساكين ولا في درجة واحدة مع المرأة أو يجعله حطاما بل على العكس فان هذا البكاء يقبله الكاتب جول فيرن كما يقبل به القارئ. وإذا لم يكن هذا كافيا بان أصبح بكاء الرجل شيئا مقبولا فإنّ هذا البكاء ينقذ الباكي وحتى ينقذ روسيا كلها. وهكذا، انتصر هذا الرجل، الذي هو أكثر الرجال رجولةً، على جميع أعدائه بفضل «الجانب النسائيّ» الذي اندفع فجأةً من أعماق نفسه في اللحظة الحاسمة، وهذا «الجانب النسائيّ» لم يُلغِ ولم يُضعف «الجانب الرجولي» (كما غسلوا أدمغتنا بذلك في تلك الأيام) بلَ على العكس، كمّله وسلّم بوجوده. ربما يوجد مخرج محترم، تحرير غير مُخزٍ من الاختيار، الذي ضيّق الخناق على نفسي في تلك الأيام، بين العواطف والرجولة؟ (بعد مرور اثنتا عشرة سنة على ذلك تاقت نفس حنّة في روايتي «ميخائيلي» إلى شخصية ميخائيل ستروغوف).

وكان أيضاً الكابتن نيمو من كتاب «عشرون ألف فرسخ تحت الماء»، كان ذلك الرجل الهنديّ المعتزّ والشّجاع الذي سئم قسوة السلطات الاستغلالية وسئم اضطهاد الشعوب والأفراد من البشر من قبل العتاة الظالمين الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ومن قبل دول كبرى أنانية. شعر الكابتن نيمو في «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» باشمئزاز شبيه باشمئزاز ادوارد سعيد إذا لم يكن بكراهية تشبه كراهية فراتس - فانون لغطرسة العالم الشمالي الغربي المتعجرفة. ولذلك قرر أن يعتزل الجميع وان يخلق لنفسه عالما مثاليا وهميا صغيرا تحت المحيطات.

وبذلك فقد أثار بي أيضاً من بين ما أثاره بي، على ما يبدو، خفقة تجاوب صهيونية: لاحقنا العالم دون توقف وما صنع لنا إلا الظلم والاضطهاد. لذلك، قمنا وانزوينا جانبا، لكي نخلق لنا فقاعة مستقلّة صغيرة نعيش فيها حياة طُهر وحياة حرية، بعيدا عن قسوة ملاحقينا ومطاردينا. ولكن، تماما، كما الكابتن «نيمو» نحن أيضاً لن نظلّ ضحايا لا حول لها ولا قوة ضحايا مغلوبة على أمرها، بل بقوة عقلنا المبتكر ونبوغنا فإننا سنسلح ناوتيلوس خاصتنا بأشعة موت متطوّرة حتى أن أحداً لن يجرؤ على محاولة التنكيل بنا. يدنا الطويلة تمتد عند الضرورة حتى تطال آخر العالم.

*

في «جزيرة الأسرار» أفلحت مجموعة صغيرة ممن نجوا من حُطام سفينة غارقة بأن أنشأت من العدم حضارة صغيرة فوق جزيرة قاحلة ومقفرة. كان هؤلاء الناجون كلّهم من الأوروبيين، وكلهم من الرجال، وكلهم من المنطقيين الكرماء المحبين لعمل الخير، وكلهم تقنيون وكلهم من البواسل ذوي الفطنة والإربة: فعلا هكذا على شاكلتهم وعلى صورتهم أراد أبناء القرن التاسع عشر أن يروا شكل المستقبل، متزنا نورانيا رجوليا ويحل كلّ مشكلة بواسطة قوى الإدراك وبحسب قوانين دين التقدم (يبدو أن القسوة والغرائز والشر نفيت إلى جزيرة أخرى، فيما بعد، جزيرة الغلمان للكاتب وليام غولدينغ في كتابه «أمير الذباب»).

بقوة نشاطهم وبقوة عقلهم ذي الفطرة السليمة، ومن خلال حماسهم الطلائعيّ ينجح ناجو السفينة الغارقة أن يبقوا على قيد الحياة وأن يبنوا لأنفسهم من الأساس بأصابعهم العشر فقط مستوطنة سكنية مزدهرة على الجزيرة القاحلة. بذلك أنعشوا نفسي التي كانت مشبعة كلها بروح الشعب الصهيونية الطلائعية التي ورثنيها والدي، روح عَلمانية متنورة ومتحمسة، عقلانية ومثالية وقتالية متفائلة تسعى نحو التقدم.

ومع ذلك، ففي اللحظة التي فيها حامت حول طلائعيي جزيرة الأسرار مصيبة من كوارث الطبيعة لا يقدرون على مقاومتها، في اللحظة التي وقفوا

فيها وظهورهم إلى الحائط وكل فطنة عقولهم لم تستطع أن تساعدهم، في تلك اللحظات المصيرية، كانت في كلّ مرة تتدخل في سيرورة الأحداث يد خفية من أعلى، عناية إلهية عجيبة قادرة على كلّ شيء والتي كانت تنقذهم في اللحظة الأخيرة تماماً من الفناء المطلق: كتب بياليك يقول: «إذا كان هناك عدل - فليظهر حالا.» في «جزيرة الأسرار» كان هناك عدل- وظهر حالا، كلمح البرق، في اللحظة التي لم يعد فيها ولو بصيص أمل.

ألم يكن كذلك بالضبط روح الشعب الأخرى، التي تناقض بشكل كامل كلّ وجهات نظر والدي: مثل هذه كان منطق قصص أمّي الليلية، قصة العِفْريت والمعجزة، وقصّة العجوز الهرم الذي أعطى ملجأ في سقيفته لعجوز آخر أكثر هرما منه، الشر والغموض والمعروف، صندوق «بندورا» والذي بعد كلّ المصائب مازال موضوعا فيه الأمل الذي في قعر كلّ يأس. كهذا أيضاً كان منطق الحكايات الصوفية الغنية بالمعجزات التي بدأتها المعلمة زيلدا وتابعها المعلم الغني بالخرافات مردخاي ميخائيلي من مدرسة «تَحْكيموني» من النقطة التي توقفت فيها المعلمة زيلدا.

كان ذلك وكأنه هنا في «جزيرة الأسرار»، حيث حدث أخيراً التوافق بين النافذتين الأوليين المتناقضتين واللتين من خلالهما تجلى لي العالم في بداية حياتي: نافذة أبي العقلاني والمتفائل، ومقابلها - نافذة أمّي والتي أطلت علي من خلالها مناظر كئيبة وقوى غريبة أعلى من حدود الطبيعة، قوى الشرّ وكذلك قوى الرأفة والإحسان.

وفعلا، في نهاية «جزيرة الأسرار» اتضح أن يد العناية الإلهية هي التي تدخلت وأنقذت مرة ثانية وثالثة «المشروع الصهيونيّ» للناجين من حطام السفينة الغارقة في كلّ مرة كان يحيق بهم خطر الدمار والفناء، كانت تلك عمليا يد الكابتن نيمو المُتَوَاضِعة، ذلك الكابتن مقطب الجفنَين من الكتاب «عشرون ألف فرسخ تحت الماء». ولكن لم يكن ذلك ليقلّل في نظري من فرحة التوافق التي منحني إياها هذا الكتاب، ومن إلغاء التناقض الدائم بين انفعالي الصهيوني- الصبياني وبين انفعالي الفظّ الصبياني أيضاً.

وكأن أبي وأمّي تصالحا وعاشا في نهاية المطاف معاً بتناغم وتآلف كاملين. صحيح أن ذلك لم يحدث هنا في القدس بل هناك على جزيرة نائية مهجورة في مكان ما. ومع كلّ ذلك كان بإمكانهما أن يتصالحا.

*

السّيّد ماركوس الطيب، الذي كان صاحب مكتبة لبيع الكتب الجديدة والكتب المستعملة وكذلك مكتبة لإعارة الكتب في منحدر شارع يونا في زاوية شارع جيئولا تقريبا- وافق أن يبدّل لي كتابا مرة في كلّ يوم، وأحياناً مرتين في اليوم. في البداية لم يصدقني بأنني قرأت الكتاب بالكامل حتى أنّهُ كان يمتحنني في كلّ مرة أعدت فيها الكتاب بعد عدة ساعات من استعارته، كان يوجه إليّ بعض الأسئلة المعرقلة بهدف إفشالي، أسئلة بارعة وماكرة حول مضمون الكتاب. رويداً رويداً تحوّل شكّه وارتيابه إلى إعجاب وإعجابه إلى - إخلاص: كان يعتقد أنّهُ مع ذاكرة مدهشة كهذه ومع موهبة للقراءة سريعة كهذه، وخاصّة إذا واظبت أيضاً على تعلّم لغات الثقافة الرئيسيّة، ربما أستطيع أن أكون في أحد الأيام سكرتيرا مثاليا خاصّاً لأحد القادة الكبار: من يدري وربما أنتخب ذات يوم لأكون سكرتير بن غوريون؟ أو سكرتير موشيه شارت؟ لذلك قرر السّيّد ماركوس أنّهُ من المحبّذ أن يستمر بي على المدى البعيد كمن «يرمي خبزه على وجه الماء فإنّهُ سيجده بعد أيام كثيرة»[1]: فمن يدري؟ ربما سيحتاج في يوم من الأيام إلى رخصة أو إلى تعجيل معاملة أو إلى القليل من الزيت على عجلات أعمال النشر والتوزيع التي كان ينوي الدخول إليها، وعندها- لا شك أن علاقات الصداقة من السكرتير الشخصي لأحد كبار الأكابر لا تقدر بثمن.

كان السّيّد ماركوس بكل فخر واعتزاز يطلع بعض زبائنه على بطاقة الاستعارة التي تحمل اسمي والتي كانت مليئة بأسماء الكتب التي استعرتها للقراءة من مكتبته، كمن يفتخر بثمار استثماره: تعالوا وانظروا ماذا يوجد

---

(١) كما ورد في سفر الجامعة ١١: ١ (المترجم).

عندنا هنا! «عُثَّةُ الكُتُب!»، شخص غريب، شيء غير طبيعي، خارقة من خوارق الطبيعة! شخص يبلع عندي ليس فقط الكتب بل الرفوف الكاملة كلّ شهر!

وهكذا، حصلت من السّيّد ماركوس على إذن خاص كي أتصرف في مكتبته كمن يتصرف بأملاكه: أن استعير أربعة كتب دفعة واحدة كيلا أجوع في يومي العيد. أو أن أتصفّح - بحذر! الكتب الجديدة التي وصلت لتوها من المطبعة والمعدّة للبيع وليس للإعارة. وحتى أن أتصفح الروايات التي ليست لأبناء سنّي، مثل روايات سومرست موم، أُو هنري، ستيفان تسفيج وحتى موباسان الحاد واللاذع.

في أيام الشتاء كنت أركض في الظلام، داخل قنوات مياه الأمطار القارصة والقارسة. تلفحني الرياح، كي أصل إلى مكتبة السّيّد ماركوس قبل الساعة السادسة مساء ساعة إغلاق المكتبة. كان البرد قارسا جدّاً في القدس في تلك الأيام، برد يخز كالإبر، دبة القطب الجائعة كانت تنزل من سيبيريا وتتجول عندنا في «كيرم أفراهام» في ليالي أواخر كانون الأول. ولأنّني ركضت بدون معطف كانت جارزتي تبتلّ فتنبعث منها كلّ ساعات المساء رائحة سيئة، رائحة صوف رطب يسبب الحكّة للجلد.

حدث أكثر من مرة أنني بقيت بدون أيّ كتاب مطالعة، في أيام السبت تلك التي كنت أستنفد فيها كلّ «ذخيرتي» التي أحضرتها من مكتبة ماركوس. لشدة جوعي ونهمي كنت آخذ من رفوف مكتبة والدي أيّ كتاب تقع عليه يدي: أسطورة «تيل أويلنشبيجل» بترجمة شلونسكي، «ألف ليلة وليلة» بترجمة ريفلين. وكتب يسرائيل زارحي ومندلي وشالوع عليخم وكافكا وبرديتشيفسكي وأشعار راحيل وبلزاك وهَمسون ويجئال موسينزون وفياربرغ ونتان شاحَم وغنيسين وبرينر وهزاز، وحتى كتب السّيّد عَغْنون. لم أفهم شيئا تقريبا، ربما باستثناء الأشياء التي رأيتها بمنظار أبي، أي أن البلدة اليهودية في المهجر كانت كئيبة وحقيرة وتثير الضحك أيضاً. وفي قلبي الساذج لم أستغرب كثيرا نهايتها المرة.

معظم الأعمال الأدبية الكبيرة في الأدب العالمي اقتناها والدي بلغتها الأصلية التي كتبت بها، لذلك لم أستطع حتى تصفحها. أمّا كل ما كان هناك باللغة العبرية، إذا لم أقرأه تماما فقد تصفحته محاولا تنسم أخباره، قلبت كل حجر.

*

لقد قرأت، بكل تأكيد، «دفار للأولاد» وكذلك كتب الأولاد التي كانت ضمن لائحة الأطعمة الشهية عند الجميع: اشعار ليئة غولدبرغ، وفانيا بيرغشتاين و«جزيرة الأولاد» تأليف ميرا لوبيه، وجميع قصص ناحوم غوطمن: أفريقيا «لوبنجولو» وباريس «بياتريتشا»، مثل تل أبيب المحاطة بالرمال والبيارات والبحر كذلك كل هذه كانت هدفا للجولات العالمية اللذيذة الأولى في حياتي. الفرق بين القدس وبين تل أبيب- الموصولة مع بقية أجزاء العالم الواسع بدا لي مثل الفرق بين حياتنا هنا حياة شتوية باللونين الأبيض والأسود وبين الحياة بالألوان والصيف والضوء.

بشكل خاص استهوى خيالي «فوق الأنقاض» كتاب تسفي ليبرمن - ليفنيه الذي قرأته عدة مرات: كان يا ما كان، كانت هناك قرية يهودية نائية في أيام الهيكل الثاني، قرية هادئة مختبئة بين الجبال والتلال والكروم. في احد الأيام جاء إلى القرية جنود فيلق روماني قاموا بذبح جميع سكان القرية، الرجال والنساء والشيوخ، نهبوا الأملاك، وحرقوا البيوت وتابعوا السير. ولكن أهل القرية تمكّنوا قبل المجزرة من تخبئة أولادهم الصغار أولئك الذين كانوا دون الثانية عشرة من أعمارهم ولم يستطيعوا المشاركة في الدفاع عن القرية داخل مغارة في الجبال.

بعد المذبحة خرج الأولاد من المغارة وشاهدوا الدمار والخراب ولكنهم لم ييأسوا بل على العكس فقد قرروا بعد نقاش بدا كجمعية عمومية في كيبوتس بأنّ الحياة يجب أن تستمرّ وبأنّه يجب ترميم القرية وإزالة الأنقاض. اختاروا لجانا شاركت فيها البنات أيضاً لأنّ هؤلاء الأولاد لم يكونوا شجعانا ومجتهدين فحسب بل كانوا متقدمين ومتنورين إلى درجة كبيرة أيضاً. رويداً

رويداً، وبعمل دؤوب نجحوا في تجميع فلول قطعان البقر والغنم وتصليح الزريبة والحظيرة وترميم المباني المحروقة وتجديد أعمال الحقل والزراعة وإنشاء مجتمع أولاد مثاليّ شبيه بكيبوتس وادع: مجموعة روبنسون كروزو لم يكن فيها أي «جمعة».

لم تَشُب أي شائبة حياة الشراكة والمساواة لأولاد الأحلام هؤلاء: لا الصراع على السلطة ولا المنافسة والغيرة، لا قباحة الجنس ولا أشباح أهاليهم الميتين. حقّاً حدث هناك بالضبط النقيض الايجابي لما حدث لأولاد وليام غولدينج في «أمير الذباب». لقد قصد تسفي لفنيه بكل تأكيد أن يمنح أبناء اليهود صورة رمزية صهيونية مثيرة للحماس: ها هو جيل الصحراء قد مات كله وبدلا منه نشأ جيل في البلاد، جيل قوي وبطل، «قيوده الحديدية تُزال عنه»،[1] جيل يتسامى بقواه الذاتية «من الكارثة- إلى البطولة» ومن الظلام إلى النور الساطع. وبصيغتي المقدسية، وبالمجلد المكمّل الذي ألفته في مخيلتي لـ«فوق الأنقاض»، لم يكتفِ الأولاد بحلب الماشية وقطف الزيتون والعنب فقد عثروا هناك على مخبأ للأسلحة، أو أفضل من ذلك، فقد نجحوا في اختراع وإنتاج مدافع رشّاشة، ومدافع هاون وعربات مصفّحة. أو أن البلماح هو الذي نجح في تهريب هذه الأسلحة مئة جيل إلى الوراء، مباشرة إلى أيدي أولاد «فوق الأنقاض» الممتدة. وقد شعر هؤلاء الأولاد، أولاد تسفي لفنيه وأولادي وقد تسلّحوا بكل هذه المعدات، وقد نجحوا في الوصول تماما في اللحظة الأخيرة إلى اسفل الجبل الذي تقوم عليه قلعة مسادة: بضربة نار مُذهلة، من الخلف، وبصليات طويلة وصائبة وبنيران مدافع الهاون القاتلة فاجأوا فيالق الرومان، تلك الفيالق التي قتلت أهالي الأولاد تلك الفيالق التي أخذت تتسلق المتاريس باتجاه مسادة. وهكذا تماماً في الوقت الذي فيه كان إلعزار بن يئير على وشك أن ينهي خطاب الوداع الذي لا يُنسى، تماماً عندما أوشك أواخر المدافعين عن مسادة على الموت

(١) من قصيدة لتشرنيحوفسكي (المترجم).

لكيلا يقعوا أسرى في أيدي الرومان، اقتحمت أنا وشبابي رأس الجبل وخلّصناهم من الموت وخلصنا شعبنا من عار الهزيمة.

بعد ذلك نقلنا المعركة إلى أرض العدوّ: نصبنا مدافعنا الهاون على قمم جبال روما السبعة وفجّرنا بوابة طيطس إلى شظايا وركّعنا قيصر على ركبتيه.

*

وربما اختفى هنا أيضاً شيء حلو - خفيّ مريض لم يخطر، بكل تأكيد، ببال «تسفي لفنيه» عندما ألف كتابه التعليمي الايجابي جدّاً هذا: حلاوة أوديبية. حلاوة مظلمة. لأنّ الأولاد هنا دفنوا أهاليهم. جميعهم. لم يبق منهم هناك، في القرية، أي شخص كبير. لم يبقَ أي والد، ولا أي معلم، ولا أي عمّ أو خال، ولا أي جدّ أو جدّة. لا السيد كروخمل، ولا العم يوسف، لا مالا وَستاشيك رودْنيتْسكي، لا عائلة أبْرَامِسْكِي ولا عائلة بار-يتسهار، لا الخالة ليليا، ولا بيغن ولا بن غوريون. وبذلك تحققت، بطريق المعجزة، أمنية مُراقَبَة جيدا للروح الصهيونية ولكن للولد الذي كنته أيضاً: ليموتوا حالا. لأنّهم كانوا مهجريين جدّاً في أفكارهم، مُغيظين. لأنهم جيل الصحراء. طوال الوقت كانوا ممتلئين بالادعاءات والأوامر، طوال الوقت لا يسمحون لنا بان نتنفّس. بعدما يموتون فقط نستطيع، أخيراً، أن نثبت لهم، كيف أنّنا نستطيع القيام بكل شيء لوحدنا: كل ما يريدوننا أن نقوم به وبالضبط كل ما يتوقعونه منا، نحن سنحقق كل شيء على أكمل وجه- سنحرث وسنحصد، وسنبني وسنقاتل وسننتصر- ولكن بدونهم: لأنّ الشعب اليهودي الجديد يجب أن ينفصل عنهم. لأنّ كل شيء هنا خلق بقصد أن يكون شابا وسليما وقويا وهم عجائز ومحطّمون وكل شيء عندهم معقّد وكل شيء منفّر نوعا ما ومثير للضحك ليس بشكل قليل.

كل جيل الصحراء تبخّر إذن في «فوق الأنقاض» وترك وراءه يتامى سعداء، رشيقين، أحراراً مثل رف من العصافير في سماء زرقاء صافية. لم يبق أي شخص ينغّص عليهم حياتهم بلكنته المهجرية أو يغدق عليه بكلمات منمّقة ويفرض عليهم قواعد آداب متعفّنة، أكل الدهر عليها وشرب، ويعكّر

صفو حياتهم بأنواع من الاكتئاب والإهانات والأوامر والمطامح. لم يبقَ منهم أحد لكي يعظنا ويؤنّبنا طوال النهار، هذا مسموح وهذا قبيح، نحن وحدنا، لوحدنا في العالم.

بموت كل الكبار ترمّز سحر خفيّ ثاقب. وفعلا، بسن أربع عشرة سنة ونصف أي بعد سنتين ونصف من موت أمّي قمت وقتلت أبي وقتلت كل القدس، وغيّرت اسمي وذهبت وحيدا إلى كيبوتس حولدا لكي أعيش هناك فوق الأنقاض.

٥٦

أقتلته في الأساس بأن غيّرت اسمي. سنوات طويلة غطّى على حياة أبي الظلّ الكبير لعمه المثقف الذي كان «صاحب شهرة عالمية» (التعبير الذي كان أبي ينطقه بخفض صوت دينيّ). طوال سنوات كثيرة حلم يهودا آريه كْلاوزْنِر أن يسير في أعقاب البروفيسور يوسف جدالياهو كْلاوزْنِر، مؤلف «يسوع المسيحي» وَ«من المسيح وحتى باولوس»، وَ«تاريخ الهيكل الثاني» وَ«تاريخ الأدب العبري»، وَ«عندما يناضل شعب من أجل حريته». وفي أعماق قلبه ربما حلم أبي أن يضع نفسه بل وان يرث مكان البروفيسور الوحداني. من اجل ذلك تعلّم أبي لغات لا تقل عددا عن تلك التي عرفها عمّه. من أجل ذلك كان يجلس منكبّاً على مكتبه في الليالي ويضع حوله أكواما عالية من البطاقات. وعندما بدأ ييأس من أن يكون هو الآخر في احد الأيام بروفيسورا يشار إليه بالبنان، بدأ يتمنى في أعماق نفسه أن تنتقل الشعلة إليّ. وأنه سيحظى بأن يرى ذلك في حياته.

وهو يسخر كان أبي يقارن أحياناً بينه وبين ذلك المندلسون المهمل، ألا وهو موظف البنك أفراهام مندلسون الذي كان من نصيبه أن يكون ابن الفيلسوف الشهير موشيه مندلسون ووالد الملحّن الكبير فليكس مندلسون - برتولدي («في البداية كنت ابن أبي وبعد ذلك كنت أبا ابني» قال ذات مرة «أفراهام مندلسون» وهو يضحك على حساب نفسه).

كمن يتندّر، كمن يسخر مني من خلال مشاعر المحبة المكبوتة أصرّ أبي أن يناديني منذ الصغر بجناب. أو بجناب معاليه. معالي فخامته. بعد مرور سنوات كثيرة فقط في الليلة التي تلت صباح وفاته خطر ببالي فجأةً بأن وراء

تندّره هذا الدائم، المثير للأعصاب، الذي ينغص البال قليلا، اختفت، ربما، أحلام عظمته هو التي خابت؛ وكذلك، أحزان ضرورة تسليمه بوَسَطِيَّته، وكذلك أمنيته الخفية التي ألقى بها عليّ مهمة أن افتح باسمه، حينما يحين الوقت، الأبواب التي عجز عن فتحها.

من خلال عزلتها واكتئابها كانت أمّي تحكي لي في المطبخ قصص العجائب والفظائع والأشباح، التي كانت تشبه الحكايات التي كانت الأرملة أوزي تحكيها للولد بير جينْت في سقيفتهما في ليالي الشتاء. بينما أبي، على طريقته، كان مثل يون جينات والد بير، ليس أقلّ مما كانت أمّي مثل أوزي:

بير، أنت خلقت لأمر جسيما / بير أنت ستصبح رجلا عظيما[1]!

«الكيبوتس،» قال أبي بأسى، «الكيبوتس هو ربما ظاهرة لا بأس بها، ولكنه بحاجة إلى عُمّال أقوياء ذوي درجة روحانية متوسطة. وأنت تعلم بكل تأكيد انك لست متوسّطا. أنا لا أريد، معاذ الله، أن أشجب الكيبوتس من أساسه، إذ يوجد للكيبوتس رصيد كبير في حياة الدولة ولكنك أنت لا تستطيع أن تتقدّم وان تتطور هناك. لذلك، لأسفي الشديد لا يمكنني أن أوافق على ذلك بأيّ شكل من الأشكال. وانتهينا. بهذا انتهت المناقشة.»

*

منذ وفاة أمّي ومنذ زواج أبي الجديد بعد سنة من وفاتها، كنا أنا وهو نتبادل أطراف الحديث بيننا تقريبا في الأمور الضرورية للمحافظة على استمرار الحياة اليومية فقط. أو حول السياسة. حول اكتشافات علمية جديدة وحول القيم ووجهات النظر (كنا قد انتقلنا إلى الشقّة الجديدة في شارع بن ميمون رقم ٢٨ في رِحافيا، الحي الذي طالما تاق قلب أبي إليه طوال كل السنوات). حول ضائقة سن المراهقة وحول زواجه الجديد وحول مشاعره ومشاعري، وحول الأيام الأخيرة من حياة أمّي وحول موتها وفقدانها حول كل هذه الأمور لم نتبادل بيننا كلمة واحدة. ولا حتى مرة واحدة. في كثير

(١) هنريك إبسن، «بير جينت»، ترجمته (إلى العبرية) ليئة غولدبرغ، إصدار «دفير لعام»، تل أبيب، ١٩٥٣، الفصل الثاني، المشهد الرابع، ص ٦١ (المؤلف).

من الأحيان، تصادمنا بحماس، بنوع من العداء المتبادل المؤدّب ولكن المتوتّر جدّاً، حول بياليك، ونابليون، حول الاشتراكية التي بدأت تسحرني بينما نظر إليها أبي كـ«وباء أحمر»، ومرة واحدة تعاركنا بعنف حول كافكا. غالبية الوقت تصرفنا مع بعضنا مثل ساكنين يشتركان في شقة صغيرة: الحمام شاغر. نحن بحاجة إلى مرجرين وورق تواليت. ألا ترى أنّ الطقس أصبح باردا قليلا؟ هل تمانع في أن أوقد المدفأة؟

عندما بدأت أسافر لقضاء السبت والأعياد في تل أبيب، عند حايا وعند سونيا أختَي أمّي، أو في كريات موتسكين، عند «جدي- بابا»، كان أبي يعطيني تكاليف السفر وكان يزيد عليها عدة ليرات «لكي لا تضطرّ إلى أن تطلب مالا من أحدهم». «ولا تنسَ أن تقول لشخص ما هناك بأنه يُحظر عليك خلال عدة أيام أن تأكل أي شيء مقليّ.» أو كان يقول: «تذكّر، من فضلك، أن تسأل شخصا ما هناك إذا كانوا هناك معنيين بأن أرسل إليهم في المرة القادمة مغلفا مع أشياء من دُرجها.»

الضمير المنفصل «هي» أو المتصل «ها» غطيا على ذكر أمّي مثل قطعة حجرية بدون كتابة عليها. الكلمات «أحدهم» و«شخص ما هناك» دلّت على قطع العلاقات بشكل كامل بينه وبين عائلة أمّي، تلك العلاقات التي لم تتجدّد ثانية إطلاقا: فهم نظروا إليه على انه مذنب. علاقاته مع النساء الأخريات، هذا ما شكّت فيه أختا أمّي، هي التي عكّرت صفو حياة أختهما. وكذلك أيضاً كلّ تلك الليالي التي كان يقضيها على مكتبه وظهره إليها وقلبه غارق في أبحاثه وبطاقاته. صُعق والدي من هذه التهمة وقد تأثر حتى أعماق نفسه. نظر والدي إلى أسفاري إلى تل أبيب وحيفا تقريبا كما نظرت الدول العربية في تلك السنوات، سنوات المقاطعة والتنكّر، إلى زيارات شخصيات محايدة إلى دولة إسرائيل: لا يمكننا منعك، سافر حيث شئت، ولكن في حضرتنا لا تسمي ذلك المكان باسمه؛ وعند عودتك، لا تحكي لنا أي شيء عنهم. لا خيراً ولا شرّاً. ولا تحكي لهم عنا. لأننا لا نريد أن نسمع ولا يهمّنا أن نعرف. وبشكل عام، عليك أن تحترس هناك جيدا جدّاً كيلا يضعوا على جوازك ختما غير مرغوب فيه.

بعد ثلاثة اشهر من انتحار أمّي حان يوم الاحتفال ببلوغي البارمتسفا،[1] ولم يكن هناك احتفال. اكتفينا بالمراسيم الدينية في صباح يوم السبت في الكنيس «تَحْكيموني» حيث دُعيت إلى المنصة وتممت الفصل الأسبوعي من التوراة. كل عائلة موسمن شاركت، حيث حضروا من تل أبيب ومن كريات موتسكين أيضاً ولكنهم اتخذوا لأنفسهم زاوية خاصة بهم في قاعة الكنيس بعيدا قدر الإمكان عن المكان الذي تواجد فيه أبناء عائلة كْلاوزْنِر. لم يتبادل المعسكران بينهما ولا حتى كلمة واحدة. باستثناء تسفي وبوما زوجي خالتيّ ربما تطوّعا بهزّة رأس خفيفة لم تكد تلاحظ. وأنا تراكضت بين مقرّي الفريقين كجرو صغير أصابه دوار، أتظاهر بكل قواي لأمثل دور الصبي المبتهج والمسرور أثرثر بلا توقف هنا وهنا، مقلدا قواعد سلوك أبي الذي كره طوال أيام حياته الصمت ورأى نفسه مسئولا عن كل صمت قد يحلّ وألزم نفسه بطرده.

أمّا جدي أَلِكْسَنْدِر فهو الوحيد الذي تجاوز الستار الحديدي دون تردّد، أخذ يد جدّتي الحيفاوية وقبلها كما قبل أختي أمّي على خدّيهما ثلاث قبلات كل واحدة: من اليسار إلى اليمين ثمّ عودة إلى اليسار كما هي العادة في روسيا، ثم قرب كل منهما إليه قائلا بغبطة متوهجة: «هيا، شتو؟ فتى رائع، أليس كذلك؟ فتى مولوديتس! (مقدام) كما أنّه موهوب جدّاً! جدّاً جدّاً موهوب! جدّاً.»

*

بعد وقت ما من زواج أبي الجديد طرأ تدهور كبير على وضعي التعليمي، حتى وصل الأمر إلى تهديد بالطرد من المدرسة (في السنة التي تلت وفاة أمّي نُقلت من مدرسة «تَحْكيموني» إلى المدرسة الثانوية «جيمناسيا رحافيا»). شعر والدي بالإهانة والذهول وفرض علي عقوبات. ورويداً رويداً بدأ يشكّ بأن هذه هي طريقتي في حرب العصابات معه والتي لن تنتهي إلا بموافقته على ذهابي إلى الكيبوتس. فردّ على الحرب بالحرب: في كل مرة

---

(١) أي حفل بلوغ الثالثة عشرة وهو سن التكليف الديني (المترجم).

كنت أدخل فيها المطبخ كان أبي يخرج منه دون أن ينبس ببنت شفة. ولكنه في أحد أيام الجمعة، على غير عادته، قام وشيّعني حتى محطة باصات شركة «إيجد» القديمة التي في منتصف شارع يافا. وقبل أن أصعد إلى الباص إلى تل أبيب قال لي فجأةً:

«إذا كان هذا يناسبك، اسألهم هناك، من فضلك، ما رأيهم في خطتك للذهاب إلى الكيبوتس. بالطبع رأيهم هناك، بكل تأكيد، غير ملزم لنا، ولكنه يهمّنا، وهذه المرة لا أعارض في أن أسمع كيف ينظرون هناك إلى هذه الإمكانية.»

حتى قبل الكارثة، منذ بداية مرض أمّي وربما حتى قبل ذلك، نظرت خالتايَ التل- أبيبيتان إلى أبي على أنّهُ شخص أنانيّ وربما على أنّهُ مستبدّ إلى حد ما: وكانتا تعتقدان بأنّني منذ وفاة أمّي أعاني من اضطهاده واستبداده، ومنذ زواجه - هكذا اعتقدتا- تنكّل بي أيضاً زوجة أبي. كنت أحاول جاهدا المرة تلو المرة، كمن أريد أن أضايق خالتيّ، أن أتحدث إليهما عن إحسان أبي وزوجته المفرط، وعن اهتمامهما بي وقلقهما الصادق المخلص عليّ، وكيف أنّهما يعملان كل ما بوسعهما كيلا ينقصني شيء. لكن خالتيّ لم ترغبا في سماع أية كلمة: واستغربتا مني، وغضبتا، وشعرتا بالإهانة، وكأنني أحاول أمامهما أن أشيد بنظام حكم عبد الناصر أو أن أدافع عما يقوم به الفدائيون. كلتاهما كانتا تُسكتانني بمجرد أن فتحت فمي مادحا أبي. كانت خالتي حايا تقول:

«كفى. كُفّ عن ذلك فورا. إنّك بذلك تسيء إليّ. إنّهما على ما يبدو يغسلون لك دماغك كما ينبغي.»

أما خالتي سونيا فلم تنهرني كلما حاولت أن أقول في بيتها كلمة طيبة عن أبي أو عن زوجته، بل كانت تنفجر بالبكاء.

في نظرَيهما الثاقبين المتحريين يتحدث الواقع عن نفسه: نحيف وضامر مثل الخيط بدوت في نظريهما، شاحب وعصبيّ وغير نظيف كما ينبغي. لا شك أنّهما يُهملانني هناك، إذا لم يكن الوضع أسوأ بكثير من الإهمال. وما هذا الجرح في خدّك؟ ألم يأخذاك هناك إلى الطبيب؟ وهذه الجارزة البالية هل

هي الوحيدة التي تملكها؟ ومتى اشتروا لك آخر مرة ملابس داخلية جديدة؟ ونقود للباص للعودة؟ بكل تأكيد نسيا أن يعطياك؟ لا؟ لماذا أنت مصرّ على العناد؟ لماذا لا تسمح لنا بان نضع لك في جيبك هنا بعض الليرات، كنوع من الاحتياط؟

من الحقيبة التي جهزتها للسفر ليوم السبت إلى تل أبيب كانت الخالتان تخرجان منها بمجرد وصولي كل القمصان والبيجاما والجوارب والملابس الداخلية وحتى المحرمة الاحتياطية، وهما تتأففان دون كلام وتحكمان فورا على ما فيها بالغسيل والغلي أو لساعتين من التهوية الشديدة بنشرها على حبل الغسيل في الشرفة يليه كيّ عنيف وأحيانا حتى تحكمان بالإعدام دون حلول وسط: وكأنهما تبيدان خطر انتشار وباء أو كأنهما ترسلان جميع ملابسي وحاجياتي إلى دورة إعادة تربية. أمّا أنا فقد كنت، دائما، أرسَل، قبل كلّ شيء، إلى الحمام، وبعدها أن تجلس نصف ساعة في الشمس على الشرفة، فأنت شاحب مثل الحائط، ثم تأكل عُنقُود عنب؟ أو تفاحة؟ والقليل من الجزر الطازج؟ بعد ذلك سنذهب لشراء ملابس داخلية جديدة. أو قميصا «مثل الناس». أو جوارب. كلتاهما كانتا تحرصان على تغذيتي بكبد دجاج وبزيت السمك، وبعصائر الفواكه وبالكثير من الخضراوات الطازجة. وكأنني جئت إليهما مباشرة من بين أسوار الغيتو.

حول قضية ذهابي إلى الكيبوتس قررت خالتي حايا فوراً:

«نعم، بكل تأكيد. من المفضل أن تبتعد عنهما قليلا. في الكيبوتس أنت تنمو وتترعرع وتقوى ورويداً رويداً تتحسّن صحتك هناك.»

بينما خالتي سونيا اقترحت بحزن وهي تضع ذراعها حول كتفيّ:

«حاول أن تعيش في الكيبوتس، نعم، وإذا لا سمح الله شعرت هناك أيضاً بالكآبة، عندها، بكل بساطة، تعال وانتقل إلينا.؟»

*

في نهاية الصف التاسع، السنة «الخامسة» في «جيمناسيا رحافيا» تركت فجأة الكشافة وتوقفت تقريبا عن الذهاب إلى المدرسة. طوال النهار كنت أربض على ظهري في غرفتي مجرداً من الملابس باستثناء مَلابِسي الداخِلِيَّة،

ابلع الكتاب تلوَ الكتاب، وخلال ذلك اقضي على أكوام كاملة من الحلوى، والتي باستثنائها لم أذق شيئا، تقريبا، في تلك الأيام. لقد كنت غارقا في الحبّ، عاشقا، بدموع مكبوتة، وبدون أي بصيص أمل، لإحدى أميرات الصف: ليس حب شباب بطعم مرّ- حلو، كما في الكتب التي قرأتها، والتي وصفوا فيها كيف أن النفس تتعذب من شدّة الحبّ ولكنها في الوقت نفسه تتسامى، تتفتّح وتزدهر. ليس كهذا، بل كأنهم صعقوني بضربة قضيب حديد على الرأس. وكالمستجير من الرمضاء بالنار جسمي أيضاً، وفي تلك الأيام بالذات، لم يتوقف عن التنكيل بي في الليل ولا حتى في النهار بقباحاته التي لم تعرف الشبع. أردت أن أتحرّر، أن أتحرر مرة والى الأبد من عدوّيّ هذين: من الجسم ومن الروح. أردت أن أكون سحابة. أردت أن أكون حجرا على سطح القمر.

في كل مساء كنت انهض من مربضي واخرج للتجوّل ساعتين أو ثلاثا في الشوارع أو في الحقول الفارغة خارج المدينة. أحياناً انجذبت بالذات إلى أسيجة الأسلاك الشائكة والى حقول الألغام التي قطعت المدينة وفي إحدى المرات، في الظلام، دخلت، ربما، إلى إحدى المناطق الحرام ودست خطأً على تنكة فارغة والتي عملت، فجأةً، ضجة تشبه انهيار كوم من الحجارة، وفور ذلك، أُطلقت، عن قرب، رصاصتان، من خلال الظلام ففررت من هناك راكضا. ومع ذلك، عدت في الغداة، وفي الأيام التي تلتها، إلى حدود المنطقة الحرام وكأنّني سئمت كل شيء. كما كنت أهبط إلى الأدوية الخفية، إلى زوايا منها لم أعد أستطيع أن أرى أي ضوء من أضواء منازل مدينة القدس باستثناء ظلال الجبال وانغماس النجوم ورائحة أشجار التين والزيتون ورائحة ارض الصيف المتعطشة للماء. كنت أعود إلى البيت في العاشرة أو الحادية عشرة أو في منتصف الليل، أرفض أن أقول أين كنت والى أين ذهبت. اتجاهل ساعة إطفاء الأنوار مع أن أبي قد زادها من التاسعة إلى العاشرة مساء، متجاهلا كلّ توبيخاته وتأنيباته، لا أردّ على محاولاته المترددة لتسوية الصمت الذي بيننا بواسطة تهكماته المألوفة:

«وأين، إذا سُمح لنا بأن نسأل، أين تفضّل معالي جنابه وقضى الوقت

حتى منتصف الليل؟ ربما كان في لقاء غرامي؟ مع أيّ سيدة شابّة وجميلة؟ أو ربما دُعي فخامة معاليه إلى حفلة عَرْبَدَة ولهو في قصر ملكة سبأ؟؟»

صمتي كان يفزعه أكثر حتى من الأشواك التي تعلقت بملابسي وأكثر من انقطاعي عن الدراسة. عندما توصل والدي إلى أن غضبه وعقوباته لم تُجْدِ نفعاً استبدل الغضب بالسّخرية التافهة وكان يهمهم نحوي وهو يهزّ رأسه قائلا:

«هذا ما يريده جنابه؟ ليكن كذلك.» أو: أنا، عندما كنت في مثل سنّك، كنت قد أنهيت المدرسة الثانوية. ليس مدرسة- استجمام سهلة كمدرستكم! بل ثانوية كلاسيكية! مع انضباط عسكري صارم! مع تعليم اليونانية القديمة واللاتينية! كنت قد قرأت أوريبيدس وأوفيديوس وسنكا بلغتهم! وأنت ماذا؟ تربض اثنتي عشرة ساعة متتالية على ظهرك وتقرأ هراء وسفاسف وزبالة؟ أسبوعية «هعولام هزيه» (هذا العالم)؟ عدة أنواع من الكراريس المليئة بالوحل؟ يا للعار ويا للخجل! «قزم» و«ستالاج»! شيء مُقرف، معدّ فقط لحثالة البشر! حفيد أخي البروفيسور كْلاوزْنر يمكن أن ينتهي في احد الأيام كتافه؟ كطبل أجوف؟ كأزعر شوارع؟»

في النهاية تحوّلت سخريته اللاذعة إلى حزن. بجانب مائدة الإفطار كان أبي ينظر إلي بعيني كلب بنية كئيبة، وفورا كان نظره يتراجع أمام نظراتي ويختبئ عميقا خلف جريدته. وكأنه هو الذي انحرف عن الطريق وهو الذي عليه أن يخجل من نفسه. وكأنه يعيش في خطيئة.

وأخيراً، في نهاية المطاف، وبقلب مثقل بالهموم جاء والدي باقتراح لحل وسط: أصدقاء في كيبوتس «حوليوت»، وهو «سديه نحميا» في أقصى الجليل الأعلى، الشرقي، على استعداد لاستضافتي طوال أشهر (عطلة) الصيف حيث يمكنني فيها أن انخرط هناك في العمل الزراعي وان أجرّب الحياة مع أبناء سنّي في إطار النوم المشترك: تلائمني؟ أم لا تلائمني؟ إذا اتّضح لي بأن هذا يكفي بل ويزيد، نكتفي بتجربة الصيف هذه وعليّ أن ألتزم مسبقا بأن أعود في نهاية عطلة الصيف إلى المدرسة الثانوية وأن أبدأ بالتعامل مع الدراسة بشكل جدي كما يليق بها. أما إذا في نهاية عطلة الصيف الكبيرة

لا أزال غير متيقظ من سكرتي سنعود ونجلس معا أنت وأنا نتحدث بيننا حديثا بالغا فعلا ونحاول أن نجد مخرجا يكون مقبولا على كلينا.

العم يوسف بجلال قدره، البروفيسور العجوز والذي رشّحته حركة «الحيروت» لمنصب رئيس دولة إسرائيل مقابل مرشّح اليسار والمركز البروفيسور حاييم وايزمن، سمع عن نيتي المحزنة بالخروج إلى الكيبوتس فصُعق: لقد كانت الكيبوتسات في نظره خطرا على ذات الروح القومية، إذا لم تكن فرعا لستالين. دعاني العم يوسف للحضور إلى بيته لمحادثة خاصّة ومهمّة، وجها لوجه، ليست في إطار إحدى رحلات الحج الأسبوعية في أيام السبت، بل، ولأول مرة في حياتي، في يوم عاديّ من أيام الأسبوع. استعدادا لهذه المحادثة حضرت نفسي مسبقا، بقلب خافق، حتى أنني سجلت لنفسي عدة رؤوس أقلام على وريقة. كان بنيتي أن أذكر العم يوسف ما كان هو نفسه يثني عليه وهو السباحة ضد التيار. إصرار الفرد على موقفه وعلى ما يمليه عليه ضميره ولو حتى أمام رياح عكسية عاتية حتى من اقرب المقربين إليه. إلا أن العم يوسف اضطر إلى إلغاء دعوته لي في اللحظة الأخيرة بسبب موضوع مفاجئ لا يقبل التأجيل.

وهكذا، وبدون مباركة أحد، استيقظت في الساعة الخامسة من صبيحة أول يوم من أيام عطلة الصيف لكي أتوجه إلى محطة الباصات المركزية في شارع يافا. استيقظ أبي قبلي بنصف ساعة تقريبا: عندما دقت ساعة المنبّه في غرفتي كان قد استطاع أن يحضّر لي زوّادة للطريق مكوّنة من ساندويتشين سميكين من الجبنة الصفراء والبندورة وساندويتشين من البندورة وشرائح البيض المسلوق بالإضافة إلى الخيار المقشّر وتفاحة وقطعة نقانق وأن يلفها بورق مُشمَّع وقنينة ماء محكمة الإغلاق كيلا يسيل منها الماء في الطريق. عندما قطع والدي رغيف الخبز لعمل الساندويتشات جرح إصبعه عن طريق الخطأ بسكين حادّة فسال دمه وقبل أن أودعه قمت بتضميد جرحه. عند الباب حضنني في البداية مترددا ثم عاد وحضنني مرة أخرى بقوة ثم طأطأ رأسه وقال:

«إذا حدث في الآونة الأخيرة أنني ربما أسأت إليك بأيّ شكل من

الأشكال فإنني أسألك أن تسامحني. إن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة إليّ أيضاً.»

وفجأة غيّر رأيه، ربط بسرعة ربطة عنقه، وارتدى جاكيته ومشى معي يشيعني إلى محطة باصات شركة «إيجد». طوال الطريق، على طول شوارع القدس الخالية من البشر قبيل طلوع الفجر، حملت أنا وهو الحقيبة التي وضعت فيها كلّ حاجياتي. طوال الطريق كان أبي يمزح ويحكي دعابات وطرائف قديمة وتوريات. أشار إلى المصادر الحسيدية للمصطلح «كيبوتس» وعن التشابه المثير الذي بين المثل الأعلى الكيبوتسي وبين فكرة «الكوينونيا» اليونانية أيّ الجماعة التي تحيا معا في ملكية مشتركة، وهو الاصطلاح الذي تعود جذوره إلى اليونانية القديمة ومصدره كلمة «كوينوس» أيّ الجماعة أو الجمهور. وبالمناسبة من مصطلح «الكوينونيا» وصلتنا كلمة «كنونيا» (مُؤَامَرَة) وربما منها أيضاً جاء المصطلح الموسيقي «كانون». عندما صعدت إلى الحافلة التي ستنقلني إلى حيفا صعد أبي خلفي جادلني حول اختيار المقعد، ثم عاد وودعني، ولشدة تشتت فكره نسي للحظة أنّ هذه الرحلة ليست واحدة من سفرات نهاية الأسبوع لزيارة إحدى خالتيّ اللتين في تل أبيب، وتمنى لي «سبت سلام» مع أن اليوم كان يوم الاثنين. قبل أن ينزل من الحافلة مزح قليلا مع السائق وحثّه على أن ينتبه في سياقته بشكل خاص لأنّه حظي بأن يحمل معه هذه المرة كنزا كبيرا. ثم سارع ليشتري له جريدة ثم تعوّق على رصيف المحطة باحثا عني بعينيه ثم لوّح بيديه مودّعا، بعصبية ما، باصاً غير الباص الذي أركب فيه.

٥٧

في نهاية ذلك الصيف غيّرت اسمي وانتقلت مع حقيبتي من كيبوتس سديه نحميا إلى كيبوتس حولدا، في البداية كطالب خارجي، في ظروف مدرسة داخلية، في المدرسة الثانوية المحلية (التي كانت تسمي نفسها تواضعا «صفوف التكملة»). مع انتهاء دراستي في المدرسة قبيل تجنيدي للجيش انضممت إلى الكيبوتس كعضو فيه. كان كيبوتس حولدا بيتي من سنة أربع وخمسين وحتى سنة خمس وثمانين.

أمّا أبي فقد تزوّج ثانية بعد سنة تقريبا من وفاة أمّي، وبعد سنة أخرى تقريبا من ذهابي للعيش في الكيبوتس، سافر أبي مع زوجته إلى لندن. عاش أبي في لندن خمس سنوات تقريبا، هناك ولدت أختي مرغنيتا وأخي دافيد، هناك تعلّم أبي أخيرا - بصعوبة جمّة - سياقة السيارات، وهناك، في جامعة لندن أنهى وقدّم أطروحة الدكتوراة عن «مخطوطة غير معروفة للكاتب ي.ل. بيرتس». بين الحين والآخر كنا نتبادل البطاقات البريدية. بين الحين والآخر كان أبي يرسل إليّ نسائل من مقالاته. وأحيانا كان يرسل إلي كتبا وحاجيات صغيرة كانت تهدف إلى تذكيري بلطف بالغاية الحقيقية من وجودي مثل الأقلام أو قاعدة لها أو مثل الدفاتر الجميلة أو مثل السكين المزخرفة لتقطيع الورق.

في كل صيف كان يأتي وحده لزيارة الوطن، ليتعرف على أحوالي على حقيقتها وليتأكد إذا ما كانت الحياة في الكيبوتس تلائمني فعلا، وليتفحّص

بالمناسبة أحوال الشقة وكيف حال مكتبته. في رسالة طويلة ومفصّلة أعلمني والدي في بداية صيف ١٩٥٦ أي بعد سنتين من افتراقنا، بأنّه:

في يوم الأربعاء من الأسبوع القادم، إذا كنت لا أثقل عليك، فإنني أفكر في أقوم بزيارتك في كيبوتس حولدا. فحصت فوجدت أنّهُ يوجد باص مُجمّع يخرج كل يوم في الساعة الثانية عشرة ظهرا من المحطة المركزية في تل أبيب ويصل إلى كيبوتس حولدا في الساعة الواحدة والثلث. وهذه هي أسئلتي: ١. هل يمكنك أن تحضر إلى لقائي في محطة الباص؟ (ولكن، إذا كان الأمر صعبا أو إذا كنت مشغولا وإلخ فإنني أستطيع، بكل تأكيد، دون أية صعوبة من أن أسأل عن مكانك وان أصل إليك بقواي الذاتية). ٢. هل من المفضل أن أتناول وجبة خفيفة في تل أبيب قبل صعودي إلى الباص، أم هل من الممكن أن نتناول الطعام معا بعد وصولي إلى الكيبوتس؟ وبالطبع، فقط في حالة أن ذلك لا يسبب لك أي متاعب؟ ٣. فحصت ووجدت بأنه يوجد باص واحد ووحيد بعد الظهر يعود من كيبوتس حولدا إلى مدينة رحوفوت والتي منها يمكنني أن أصل بباص آخر إلى تل أبيب ثم أركب باصاً ثالثا عائدا إلى القدس، إلا أنّهُ في هذه الحالة تتوفر لنا لنكون معا مدة ساعتين ونصف فقط هل نكتفي بذلك؟ ٤. أو، بالتناوب، ربما أستطيع أن أبيت ثم أغادر في الباص الذي يخرج من كيبوتس حولدا في الساعة السابعة صباحا؟ وهذا ممكن إذا توفرت ثلاثة شروط: ألف- ألا تواجه صعوبة في أن تجد لي مكانا أبيت فيه (سرير بسيط جدّاً. كما يمكنني أن أكتفي بفرشة). باء- ألا ينظروا إلى ذلك في الكيبوتس بنظرة سيئة وجيم- وأن تشعر أنت بالراحة من زيارة طويلة كهذه، نسبيا. رجاء أخبرني فورا قرارك كذا أو كذا. ٥. ماذا عليّ أن أحضر معي، بالإضافة إلى الحاجيات الشخصية؟ (منشفة؟ شرشف، بطانية، فأنا لم انزل

من قبل في كيبوتس!). بالطبع عن المستجدات (غير الكبيرة) سأحدثك عندما نلتقي. كذلك سأحدثك عن خططي إذا أحببت أن تسمع. وأنت، إذا أردت يمكنك أن تحكي لي القليل عن برامجك. أتأمل أن صحتك جيدة ومزاجك جيد أيضاً. (بين هذين الشيئين توجد علاقة وثيقة!). حول ما بقي من المواضيع - قريبا جدّاً، شفهيّاً؟ مع حبي لك، والدك.

*

في ذلك اليوم الأربعاء انتهت الدراسة في الساعة الواحدة، وأنا طلبت وحصلت على إعفاء من ساعتي العمل التي كنت ملزما بهما في الظهيرة، بعد الدوام المدرسي (اشتغلت في حينه في القن). وبالرغم من ذلك ركضت مباشرة من الصف لكي ألبس ملابس العمل الرمادية المغبرة وأن أحتذي حذاء العمل الثقيل، وأسرعت إلى الكراج، حيث وجدت مفاتيح الميسي- برجوسون مخبّأة تحت وسادة المقعد، أدرت الجرار بسرعة ووصلت سريعاً مع غيمة من الغبار إلى المحطة بعد دقيقتين من وصول الباص من تل أبيب. والدي الذي لم أره منذ أكثر من سنة، كان واقفا ينتظرني، يظلل على عينيه من الشمس وينظر من أي جهة سيأتيه الفرج. كان- وقد فاجأني كثيرا- يلبس بنطلون خاكي وقميصا سماويا بكمين قصيرين، وقد اعتمر قبعة تمبل، وبدون أي ذكر لجاكيت أو ربطة عنق. من بعيد بدا وكأنه واحد من «عجائزنا». بكل تأكيد لبس على هذا النحو بعد تفكير طويل، كلفتة تقدير واحترام للحضارة التي وإن لم تتماش مع روحه ومبادئه إلا أنّهُ يكنّ لها التقدير. بإحدى يديه حمل حقيبته الرثّة وبيده الأُخرى أمسك بمنديل مسح به جبينه. أسرعت بالتراكتور نحوه وفرملت أمام أنفه ثم ملت عليه بملابسي الزراعية الزرقاء الغامقة المغبرّة، ومن مقعدي العالي وإحدى يديّ تمسك بالمقود والأخرى تستريح باستعلاء على جناح التراكتور، قلت محيّياً: سلاماً. رفع إليّ عينيه اللتين كبّرتهما نظاراته مثل عيني طفل مفزوع، وسارع ليرد التحية: سلام مع أنّهُ ما زال لم يعرفني جيدا. أو أنّهُ عرفني فارتجف كله مهتاجا.

بعد لحظة قال: «هذا أنت؟»

وبعد لحظة أخرى:

«لقد كبرت كثيرا. تحسّنت صحتك.»

وفي النهاية عندما عاد إليه صوابه، قال:

«اسمح لي أن أقول لك بأنك لم تكن حذرا في اندفاعك هذا نحوي: كدت تدهسني.»

طلبت منه أن ينتظر في الظل هناك وليس تحت أشعة الشمس، ثم أعدت الميسي- برجوسون إلى العريشة لأنّ دوره القصير في هذه المسرحية قد انتهى، أخذت أبي إلى قاعة الطعام، وفجأة اتضح لكلٍّ منّا هناك بأنّ طولي الآن أصبح مثل طوله وكلانا ارتبكنا قليلا ثم تندّر أبي من حول ذلك. جسّ بفضول عضلاتي كمن يزن إذا كان من المفيد أن يشتريني، كما تندّر أيضاً على بشرتي البنية مقارنة ببشرته هو: «زنجي سامبو! يمني حقيقي!»

في قاعة الطعام كانوا قد فرّغوا جميع الطاولات من حمولتها من الأواني ولم تبقَ إلا طاولة واحدة معدة، قدّمت لأبي الدجاج مع الجزر المطبوخ ومع البطاطا بالإضافة إلى شوربة دجاج مع فتّة. أكل بحذر شديد، محافظا على قوانين آداب المائدة متجاهلا طريقة تناولي للطعام الفلاحية - الصوتية والمقصودة. عندما تناولنا العقبى وكانت فنجانا من الشاي في وعاء من البلاستيك، أجرى أبي محادثة مؤدّبة مع تسفي بوتنيك، من قدامى كيبوتس حولدا، الذي جلس معنا على نفس الطاولة. حرص أبي جدّاً على ألا يتطرق إلى أيّ موضوع يمكن أن يكون حوله خلاف أيديولوجيّ؛ اهتمّ بأن يعرف من أيّ بلاد قدم محدّثه، وعندما أجاب تسفي بأنه جاء من رومانيا، شع النور في وجه أبي وبدأ يتكلم الرومانية، التي تصعب تسفي في فهمها بسبب طريقة خروجها من فم أبي. بعد ذلك انتقل للحديث عن منظر منخفضات يهودا وكذلك عن النبيّة حولدا وعن بوابات حولدا التي كانت في الهيكل، مواضيع التي لا خلاف ولا جدل حولها. ولكننا قبل أن نودّع تسفي لم يستطع أبي أن يتمالك نفسه وسأل عن مدى رضاهم هنا عن ابنه؟ هل نجح في التأقلم هنا؟

تسفي بوتنيك الذي لم تكن عنده أيّة فكرة عن إذا كنت تأقلمت في حولدا وكيف، قال:

«بكل تأكيد، ممتاز جدّاً!»

أجاب أبي: «وعلى ذلك أنا شاكر جدّاً للجميع هنا.»

عندما خرجنا من قاعة الطعام لم يشفق عليّ أضاف قائلا لتسفي، كمن جاء يعيد إليه كلبه بعد مكوث في نزل للكلاب:

«سلمته لكم بوضع سيئ من عدة جوانب، وها هو الآن، كما يبدو لي قد وصل إلى وضع لا باس به.»

*

سحبته ورائي في جولة شاملة في جميع أرجاء حولدا. لم أكلّف نفسي عناء السؤال ما إذا كان يفضل أن يستريح. كما لم أكلف نفسي أن أعرض عليه حماما باردا، أو أن يذهب إلى المنافع. مثل رئيس عرفاء أول في معسكر للمجندين الجدد دفعت بأبي المسكين، محمرّ الوجه، وهو يمسح، دون توقف، عرقه بمنديله، من الإسطبل إلى القنّ وإلى الزريبة ومنها إلى المنجرة والمحددة ومخزن الزيتون التي على رأس التلّة، وطوال كلّ ذلك الوقت كنت أحاضر، دون توقف، عن مبادئ الكيبوتس وعن الاقتصاد الزراعي وعن حسنات الاشتراكية وعن مساهمة الكيبوتس في انتصارات إسرائيل العسكرية. لم أتنازل عن أيّ شيء. كنت معبّأ كلّي بنار تعليمية-انتقامية كانت أقوى مني. لم أدعه ينطق بأيّة كلمة. رفضت كلّ محاولاته بأن يطرح هنا وهناك أيّ سؤال: تكلّمت وتكلّمت وتكلّمت.

من حيّ بيوت الأولاد سحبته، بما بقي له من قوى، لكي يشاهد مباني سكن الأعضاء القدامى، والعيادة وصفوف المدرسة حتى وصلت أخيراً إلى بيت الثقافة والمكتبة حيث وجدنا هناك شِفْتِل، أمين المكتبة، والد نيللي التي ستصبح زوجتي بعد ذلك بعدة سنوات. شِفْتِل طيب القلب، ودائم الابتسامة، جلس بملابس العمل الزرقاء وكان يدندن لنفسه نغمة حسيدية يا-با- بم ويطبع شيئا ما بإصبعين على آلة الكتابة على ورقة ستانسل. مثل

السمكة التي كادت تموت وفي اللحظة الأخيرة أُعيدت إلى الماء استيقظ أبي الذي ذوى من شدّة الحرارة وكثرة الغبار، أبي الذي كاد يختنق كان على وشك أن يُغمى عليه لشدّة رائحة الزبل والقش- أنعشه، في لحظة، مشهد الكتب وأمين المكتبة، وأعاداه، في لحظة، إلى الحياة، وفورا بدأ يدلي بآرائه.

تحدث النسيبان مستقبلا حوالي عشر دقائق عن الأمور التي من عادة أمناء المكتبات التحدّث عنها فيما بينهما. بعد ذلك غَلَب على «شِفْتِل» حياؤه، فتركه والدي وتوجّه إلى استعراض منظومات المكتبة وأسرارها: مثل الملحق العسكري اليقظ الذي يستعرض بتأمّل دقيق مناورات جيش غريب.

بعد ذلك تجولت مع أبي هنا وهناك. تضيّفنا بفنجان قهوة وكعكة في بيت هانكا وعوزر حولدائي، اللذين تطوّعا ليكونا عائلتي في سنوات فتوتي في الكيبوتس. هنا أظهر أبي كلّ عمق تمكّنه ومعرفته للأدب البولندي، وبعد أن وقف وتفحّص رفوف مكتبتهما أدار معهما محادثة بهيجة باللغة البولندية، اقتبس من يوليان توفيم[١] فردّت عليه هانكا باقتباس من سلوفتسكي، ذكر ميتسكيفيتش فأجاباه بإيفشكيفيتش، ذكر اسم ريمونت فأجاباه بفيسبيانسكي. كمن يمشي على رؤوس أصابعه تحدّث أبي مع رجال الكيبوتس: كمن يخشى أن يتلفّظ عن طريق الخطأ بشيء مخيف وفظيع لا يعرف أحد ماذا تكون نتائجه. تحدث معهم برقة، وكأنه ينظر إلى اشتراكيتهم مرضا لا شفاء منه وهؤلاء المساكين الذين يحملون جرثومتها لا يخطر ببالهم كم حالتهم خطيرة، وعليه هو الضيف، من الخارج، أن ينتبه ويحذر لئلا ينطق بكلمة عن طريق الخطأ تفتح عيونهم على عظم مصيبتهم.

من أجل ذلك حرص أن يعبّر بحضور أعضاء كيبوتس حولدا انفعاله الأكيد مما يشاهد، كما أبدى اهتماما مؤدّبا وسأل أسئلة قليلة («كيف وضع

---

(١) أديب يهودي بولندي (المترجم).

محاصيلكم؟»، «كيف أحوال قسم الحيوانات عندكم؟؟» ثمّ عاد ليبدي انفعاله. لم يصبّ عليهم انهار معرفته ولم يتلاعب في الألفاظ أمامهم. تمالك نفسه. ربما خاف أن يسبب لي أيّ ضرر.

*

ولكن، قبيل المساء، غمرت والدي موجة من الحزن. وكأن دعاباته نفدت فجأة ونضب معين نوادره. طلب أن نجلس نحن الاثنان على مقعد في الظل خلف بيت الثقافة ونشاهد معاً غروب الشمس. مع الغروب صمت وجلسنا نحن الاثنان جنبا إلى جنب صامتين. ذراعي البنية والتي قد ظهرت عليها أوائل الشعيرات كانت تستريح على ذراع المقعد ليست بعيدة عن ذراع أبي الشاحبة والمكسوة بالشعر الأسود. هذه المرة لم يخاطبني أبي بصيغة جنابه، أو معاليه، كما لم يتصرّف وكأنه على عاتقه يقع الواجب المستعجل، بكل تأكيد، بدحر كلّ صمت. بدا لي أبي مرتبكا وحزينا، حتى أنني كدت ألمس كتفه. ولكنني لم ألمسها. ظننت أنه يحاول أن يقول لي شيئا، شيئا مهما وحتى مستعجلا، ولكنه لا يفلح في أن فتح الموضوع. لأول مرة في حياتي، بدا لي أبي كمن يخشى مني. أردت أن أساعده، وحتى أن افتح الحديث بدلا منه، ولكنني كنت موقوفا مثله. في النهاية قال فجأة:

«إذن هكذا»

وأنا رددت وراءه وقلت أنا الآخر:

«هكذا.»

ثم عدنا إلى الصمت. تذكرت فجأة حديقة الخضراوات التي حاولنا أنا وهو أن نربيها في تربة - الأسمنت لساحة بيتنا في «كيرم- أفراهام». تذكّرت سكين تقطيع الورق والشاكوش البيتي اللذين لعبا دور المعدات الزراعية. والأشتال التي احضرها من بيت الطلائعيات أو من حديقة العاملات وزرعها في الليل من وراء ظهري لكي يواسيني على فشل مساكبنا.

*

أحضر لي أبي معه هدية كتابين من كتبه هو: على ورقة غلاف «الرواية

في الأدب العبري» كتب لي الإهداء التالي: «إلى الابن مربي الدجاج - من الأب أمين المكتبة (سابقا)». أمّا الكتاب «تاريخ الأدب العام» فقد أهداه لي بكلمات ربما انطوت على تأنيب- خيبة أمل خفية: «إلى عاموس ابني، على أمل أن يحتل مكانة في أدبنا».

في الليل نمت أنا وأبي في غرفة أولاد خالية وفيها سريرا فتيان وصندوق مع ستارة للملابس. خلعنا ملابسنا في العتمة وفي العتمة أيضاً تحدّثنا حوالي عشر دقائق: عن حلف الناتو، وعن الحرب الباردة. بعد ذلك تمنّى كلّ منا للآخر ليلة مريحة وأدار كلّ منا ظهره للآخر، وربما واجه أبي، مثلي، صعوبة في أن يغفو. منذ كم سنة لم ننم أنا وأبي في غرفة واحدة. تنفسه بدا لي مجهدا وكأن الهواء لم يكن كافيا له، أو كأنما تنفس عن طريق فمه، بأسنان متلاصقة. منذ وفاة أمّي لم أنم معه في غرفة واحدة: منذ أيامها الأخيرة والتي انتقلت فيها إلى غرفتي وأنا كنت أهرب منها إليه، لأنام إلى جانبه على سرير الزوجية. ومنذ الليالي الأولى بعد وفاتها، الليالي التي اضطر فيها والدي إلى أن ينام على فرشة في غرفتي لأنني كنت مفزوعا.

هذه الليلة أيضاً كانت لحظة مفزعة. في الثانية أو في الثالثة استيقظت مفزوعا، لأنني على ضوء القمر خيّل إليّ فجأة بأنّ سرير أبي خاليا، وبأنّه هو نفسه قرّب إليه بهدوء كرسيّاً وعلى هذا الكرسيّ جلس طوال الليل أمام النافذة دون حراك، بعينين مفتّحتين، ينظر إلى القمر دون توقف أو أنّهُ يعدّ الغيوم المارّة. تجمّد الدم في عروقي.

ولكن أبي كان ينام نوما عميقا وهادئا في السرير الذي حضّرته له، وما بدا لي جالسا بعينين مفتّحتين في سكينة على الكرسي أمام النافذة لم يكن والدي ولا شبحاً بل كومة ملابسه، بنطلون الخاكي والقميص السماوي البسيط الذي اختاره بعد تفكير عميق كيلا يظهر متكبرا على أعضاء الكيبوتس. لكيلا يمس، لا سمح الله، بكرامتهم.

*

في أوائل الستينيات عاد أبي مع زوجته وأولاده من لندن إلى القدس،

سكنوا في حي «بيت هكيرِم». عاد أبي إلى عمله في مبنى المكتبة القومية، لا إلى قسم الصحافة، بل إلى المشروع البيبليوغرافي الذي أقيم في تلك الأيام. الآن عندما أصبح أخيرا مع شهادة دكتوراة من جامعة لندن وحتى مع بطاقة زيارة جميلة ومتواضعة شهدت له بذلك، حاول ثانية أن يجد وظيفة في التدريس، وإذا لم يكن في الجامعة العبرية في القدس قلعة المرحوم عمه، ربما وجد، على الأقلّ، في إحدى الجامعات الجديدة؟ في تل أبيب؟ في حيفا؟ في بئر السّبع؟ وحتى جرب حظه مرة في جامعة بار - إيلان، مع أنّهُ رأى في نفسه معارضا للسلطة الدينية عن وعي ومع سبق الإصرار.

ولكن، عبثا.

في الخمسين من العمر أو أكثر كان أكبر من أن يكون مناسبا لان يعمل مساعد مدرس أو معلما أكاديميا صغيرا، ولم يكن محسوبا على حلقات الباحثين لكي يحصل على وظيفة أكاديمية عالية. لم يرغبوا فيه في أيّ مكان. في تلك السنوات انخفضت أيضاً بشكل كبير جدّاً مكانة البروفيسور يوسف كْلاوزْنر. جميع أبحاث العم يوسف المشهورة في الأدب العبري أصبحت في سنوات الستينات قديمة وحتى ساذجة إلى حد ما. في قصته «إلى الأبد» يقول عجنون:

> عشرون سنة اشتغل عديئل عمزا في دراسة أسرار «جومليداتا» التي كانت مدينة كبيرة مفخرة شعوب كبيرة، حتى زحفت عليها كتائب القوط فجعلوها ركاما وأكواما من التراب واستعبدوا أبناءها إلى الأبد---
>
> كل السنوات التي كان فيها مشغولا في عمله لم يتملق حكماء الجامعة ولا نساءهم ولا بناتهم، والآن عندما يأتي ليطلب منهم معروفا تدفق من أعينهم برودة غضب حتى شعّت نظاراتهم وقالوا له تقريبا ما يلي: من أنت أيها السيد، نحن لا نعرفك. ردّ كتفيه إلى الوراء وخرج من عندهم محبطا خائب الرجاء. على كل

الأحوال لم يكن ذلك دون جدوى، إذ أنّهُ تعلم أنّهُ إذا أراد أن يعترفوا به عليه أن يتقرّب منهم ولكنه لم يعرف كيف يتقرّبون...[1]

لم يتعلّم أبي ولا مرة، «كيف يتقرّبون»، مع أنّهُ كان يجتهد، طوال حياته، بكل قوته، على أن يتقرّب: بواسطة التندُّر والمُلَح وبواسطة استعداده أن يتقدم للقيام بكل عمل دون إجراء الحسابات، بواسطة إظهار معرفته وبواسطة تلاعبه بالألفاظ. لم يعرف في حياته النفاق والتملّق ولم يعرف كيف ينضم إلى مجموعات القوى أو إلى بيوت زعماء الصوفية الأكاديمية، لم يكن خادما «يسبح بحمد أي شخص» ولم يكتب مقالات الثناء والمديح والتمجيد إلا للأموات.

في النهاية، على ما يبدو، سلم بمصيره. عشر سنوات أخرى استمر أبي يجلس كلّ يوم بروح محبطة ذليلة داخل غُريفة بدون شبابيك في المركز البيبليوغرافي الموجود في بناية المكتبة الوطنية الجديدة في «جفعات رام» وكان هناك يجمع الحواشي السفلية. عندما يعود من عمله كان يجلس إلى مكتبه ويكتب موادّ مختلفة للموسوعة العبرية التي كانت في طريقها إلى التحقيق. في الأساس كتب المواد الخاصة بالأدبين البولندي والليتواني. ورويداً رويداً بدأ يحوّل فصول أطروحة الدكتوراة التي كتبها عن ي.ل. بيرتس إلى مقالات - مقالات نشرها في «يد لكوريه»، وفي «كريات سيفِر» وحظي مرة أو مرتين بأنّ تطبع مقالاته باللغة الفرنسية في "REVUE DES ETUDES SLAVES" التي تصدر في باريس. من بين نسائله التي احتفظ بها هنا في بيتي في عَراد وجدت مقالات عن شاؤول تْشرْنِيحوفْسْكي («الشاعر في وطنه»)، وعن عمانوئيل هرومي وعن «دفنيس وخلوءة» تأليف لونغو وكذلك مقالا بعنوان «فصول مندلي» والذي أهداه والدي -

(١) شاي عَجْنون، «إلى الأبد» ضمن مجلد «النار والأشجار»، المجلد الثامن من أعمال «عَجنون» الكاملة، إصدار دار النشر «شوكن»، القدس وتل أبيب ١٩٦٢، ص ٣١٥-٣٣٤.

لذكرى زوجتي، رقيقة النفس، ورفيعة الذوق، التي
غادرتني يوم ٨ من شهر تيفت سنة ٥٧١٢ الموافقة لسنة ١٩٥٢.

*

في سنة ستين قبل أيام قليلة من زواجنا (نيلي وأنا) أصيب والدي بأوّل نوبة قلبية. لذلك لم يكن قادرا على حضور حفل الزواج الذي أقيم في حولدا تحت ظُلّة ارتفعت على رؤوس أربع مَذارٍ. كان في حولدا تقليد ثابت هو حمل الظلة على بندقيتين ومذراتين رمزا إلى الدمج بين العمل والدفاع والكيبوتس. نيلي وأنا أحدثنا فضيحة غير بسيطة عندما رفضنا أن نتزوج تحت ظلة تحملها البنادق. في الاجتماع العام لأعضاء الكيبوتس سمَّوني «زلمن ب. مُرْهَف الحِسّ»، بينما سأل تسفي ق. ساخرا إذا ما كانوا في الوحدة العسكرية التي أخدم فيها يسمحون لي بالخروج إلى الدوريات والكمائن مسلحا بمذراة أو ربما بمكنسة؟

بعد أسبوعين أو ثلاثة بعد الزواج تعافى والدي من النوبة القلبية، إلا أن وجهه لم يعد إلى ما كان عليه: بقي شاحباً ومرهقا. منذ أواسط الستينيات بدأت تخبو رويداً رويداً بهجته. ما زال يستيقظ باكرا كلّ صباح ويسارع إلى العمل إلا أنّ رأسه، بعد الظهر، كان يهبط على صدره من شدة التعب ومع المساء كان يضجع ليستريح. بعد ذلك، بدأت قواه تنفد في ساعات الظهيرة. وفي النهاية لم تعد تسعفه قواه إلا في الساعتين أو الثلاث الأولى من الصباح، كان بعدها يرمد ويخبو.

مازال يحب التورية والتلاعب بالألفاظ والاستعارات، مازال يتحمّس مسرورا لكي يوضح لك بأنّ كلمة «بيرز» (حنفية) جاءتنا على ما يبدو من الكلمة اليونانية "VRISI"، التي تعني عين ماء بينما كلمة «محسان» (مخزن) العبرية مثلها مثل المجازين الأجنبية فكلتاهما مصدرهما من كلمة مخزن العربية بمعنى المكان الذي تُحفظ فيه المواد المختلفة. أمّا أصل هذه الكلمة فربما كان الجذر السامي (ح-س- ن) بمعنى قويّ. أمّا فيما يتعلق بكلمة «بلجان» (فوضى) والتي تعتبر عندنا خطأً كلمة روسية أصلية، فإنّ الحقيقة هي

أن أصل كلمة «بلجان» ليس روسيا بل فارسيا، وجذرها هو كلمة «بَلَكان» والتي تعني شرفة خلفية مهملة تلقى فيها كلّ الخِرق المهملة وغير الضرورية ومنها اشتقت كلمة الـ«بَلْكون» الموجودة في معظم لغات أوروبا بمعنى الشرفة.

أكثر وأكثر بدأ يعيد ويكرر نفسه: على الرغم من قوة ذاكرته الشديدة، فقد يحدث نفس «النكتة» مرتين في نفس الجلسة، أو أنّهُ كان يعود ويشرح ما سبق وشرحه من قبل مرة أو مرتين. كان مرهقا ومنطويا على نفسه، وأحياناً كان يتصعّب في التركيز. في سنة ١٩٦٨ عندما صدر كتابي «ميخائيلي» قرأ فيه خلال عدة أيام بعدها اتصل بي تلفونيا إلى حولدا ليقول لي بأنه «توجد هناك عدة أوصاف مقنعة جداً، ولكنه بمجمله يفتقر إلى شرارة الهام أو إيحاء، كما يفتقر إلى فكرة مركزية». وعندما أرسلت إليه نسيلة قصتي «حب متأخّر» كتب لي رسالة يعبّر فيها عن فرحته بـ

> . . .أن بناتكما ناجحات جدّاً، والمهم - أننا سنلتقي قريبا. . . أمّا بالنسبة للقصة نفسها: لا بأس. صحيح أنّهُ باستثناء الشخصية الرئيسية - كلّ الباقي هي كاريكاتورات من ورق، في رأيي المتواضع، لكن الشخصية الرئيسية، بكل قرفها وسخريتها فهي شخصية حيّة. بعض الملاحظات: ١. في صفحة ٣: «كلّ نهر المجرّات»: كلمة جلاكسي من اليونانية- جلا (= الحليب) ومنها - «درب اللبانة». من الأفضل بالمفرد! لا يوجد، في رأيي المتواضع، سبب للجمع. ٢. صفحة ٣ (أيضاً): «ليوفا كجنوفسكا» - هذه صيغة بولندية. بالروسية - يجب أن تقول كجنوفسكايا! ٣. في صفحة ٧ مكتوب: فياجما. يجب أن تقول فيازما («ز» وليس «ج»!).

وإلخ وإلخ حتى نهاية الرسالة كلها حتى الملاحظة رقم ٢٣، والتي بعدها لم يبق له الا نصف سنتيمتر في زاوية الصفحة لينهي فيه الرسالة: «سلام منا جميعا- والدك».

ولكن، بعد عدة سنوات كشف لي حاييم تورن: «كان والدك يتنقل بين غرف المكتبة القومية، يشع نورا وبهجة وكان يطلعنا بتواضع على ما كتبه جرشون شاكيد عن مجموعة «بلاد بنات آوى» وكيف أثنى أفراهام شآنان على رواية «مكان آخر»، ومرة شرح لي غاضبا إلى أيّ مدى أخطأ البروفيسور كورتسفيل في تقييم رواية «ميخائيلي». وأظنّه اتصل هاتفيا بشكل خاص بعجنون وشكا له مما جاء في مقال كورتسفيل. لقد افتخر بك والدك على طريقته، مع أنَّهُ كان، بكل تأكيد، محرجا إلى درجة لم تسمح له بأنّ يقول لك ذلك، وربما خشي، أيضاً، أن تغترّ بنفسك.»

*

في السنة الأخيرة من حياته انحنت كتفاه. وكانت تُلمّ به نوبات غضب قاتم، فكان يصرخ يمنةً ويسرة، يوجّه التّهم والادعاءات إلى كلّ من هب ودبّ، ينزوي مغلقا على نفسه باب غرفة عمله. ولكنه بعد خمس أو عشر دقائق كان يخرج معتذرا عن اندفاعه وينسب كلّ ذلك إلى سوء صحته، وإلى تعبه، وإلى عصبيته، ويطلب عن وهَن أن يسامحوه على ما قال في ساعة غضبه بشكل غير لائق وغير صحيح.

الكلمات «لائق وصحيح» كانتا تترددان كثيرا على لسانه، ليس أقلّ من الكلمات: «واضح»، «حقا، بالضبط»، «بلا شك»، «بالتأكيد»، «من عدة نواحٍ».

في تلك الأيام، أيام مرض والدي، كان جدي، ابن التسعين، في ذروة تفتّحه الجسدي، وازدهاره الرومانسي، متورّد الوجه مثل الطفل، منتعشاً مثل العريس الشاب، كان يدخل ويخرج يثور طوال النهار ويهتف «هيا، شتو! أو: يا لكم من «باسكودنياكين» (حقيرين)! «جوليكيين» (محتالين)! أوغاد! أو «هيا، «دافاي»! إلى الأمام سِرْ! خراشو! (حسنا) كفى!» أحاطت به النساء حتى عنقه. في كثير من الأحيان وحتى في ساعات الصباح، كان يتجرع كأس كونياك فيتحول وجهه المتورد إلى متورد - أحمر مثل شروق الشمس. إذا وقف والدي وجدي في الساحة وتحدّثا فيما بينهما، أو تجوّلا هنا وهناك على

الرصيف الذي أمام البيت وتناقشا، بناء على لغة الجسد، على الأقل، يبدو أن جدي أَلِكْسَنْدِر أصغر بكثير من ابنه الصغير. كان سيعمّر أربعين سنة بعد موت ابنه البكر دافيد وبعد حفيده الأول دانيئل كْلاوزْنِر اللذين قُتلا في فيلنا بأيدٍ ألمانية، وعشرين سنة بعد موت زوجته، وسبع سنوات أخرى بعد موت ابنه الأخير.

*

في أحد الأيام، في الحادي عشر من تشرين الأول من سنة ١٩٧٠ بعد أربعة أشهر من بلوغه سن الستين استيقظ والدي مبكرا كعادته طوال أيام حياته، قبل وقت كبير من استيقاظ أهل بيته، حلق ذقنه، وتطيّب، ورطّب قليلا شعره قبل أن يمشطه إلى الخلف، تناول قطعة خبز مع الزبدة وشرب كأسين من الشاي، تصفّح الجريدة وتأوه عدة مرات، نظر في مفكرته التي كانت مفتوحة دائما على مكتبه، الأمر الذي يمكّنه من شطب ما قد تمّ فعله، ربط ربطة عنقه ولبس جاكيته وحضّر لنفسه قائمة صغيرة بالمشتريات، ثم خرج بالسيارة إلى ما وراء زاوية الشارع، إلى ميدان «الدانمرك» الذي عند تقاطع جادّة هرتسل مع شارع «بيت هكيرم»، لكي يشتري بعض الأدوات المكتبية من الحانوت الصغيرة التي تحت الأرض التي اعتاد أن يشتري منها كل احتاج إليه في مكتبه. أوقف سيارته وأغلقها ونزل الدرجات الخمس أو الستّ ووقف في الطابور ينتظر دوره، كما أنّهُ تنازل عن دوره لصالح سيدة ليست صغيرة، واشترى كلّ ما كان مسجّلا في القائمة ثم ضحك مع السيدة صاحبة الحانوت على كلمة «مهديك» (مشبك/ يشد) التي هي في الحقيقة اسم وفعل في نفس الوقت، كما أنّهُ قال لها شيئا عن تقصير البلدية، ثم دفع لها واخذ منها الباقي وحمل كيس مشترياته وشكرها ببشاشة وطلب منها ألا تنسى حمل سلامه إلى زوجها اللطيف، ثم ودعها متمنيا لها يوما سعيدا وناجحا وحيّى أيضاً شخصين غريبين كانا في الطابور خلفه وأدار ظهره ومشى إلى الباب وهناك سقط ومات في الحال اثر نوبة قلبية. كان والدي قد أوصى بجسده لخدمة العلم أما مكتبته فقد ورثتها أنا. وعليها أكتب هذه الأوراق

ولكن بدون دموع لأنّ أبي عارض الدموع بشكل مبدئيّ، وعلى كل حال- عارض دموع الرجال.

في مفكرته في تاريخ اليوم الذي توفي فيه وجدت مكتوبا ما يلي: «أدوات كتابة: ١. دفتر رسائل ٢. دفتر زنبركات ٣. مغلّفات ٤. مشابك ٥. الاستفسار حول ملفات كرتون.» كل هذه الأشياء بما فيها ملفات الكرتون وجدت في الكيس الذي بقيت أصابعه قابضة عليه. عندما وصلت إلى بيت والدي في القدس بعد ساعة أو ساعة ونصف تناولت قلمه وقمت بوضع خطين متصالبين على هذه القائمة، كعادة أبي في شطب كل ما تم تنفيذه فورا.

٥٨

عندما غادرت البيت وذهبت لأعيش في الكيبوتس عندما كنت في الخامسة عشرة تقريبا من عمري، سجلت على وريقة عدة قرارات حاسمة وضعتها نصب عيني نفسي كاختبارات يحظر عليّ أن افشل فيها: إذا كنت حقّاً قادرا على أن أبدأ حياة جديدة تماماً، عليّ أن أبدأ بأن أنجح في التّسفّع خلال أسبوعين حتى أبدو واحدا منهم، وأن أتوقف بشكل نهائي والى الأبد عن أحلام اليقظة، وأن أغيّر اسم عائلتي، وأن استحم بمياه باردة مرتين أو ثلاثا في كل يوم، وأن أتغلب وأن أتوقف بشكل نهائي ودون مهاودة عن قباحات الليل تلك، وأن لا أعود إلى كتابة الشعر، وأن أتوقف عن الثرثرة طوال النهار، وأن لا احكي للجميع قصصا من هنا وهناك بل أن أظهر في المكان الجديد كإنسان سكوت جدّاً.

بعد ذلك أتلفت الوريقة. في الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى نجحت في ألا أتقابح وألا أثرثر: عندما سألوني سؤالا مثل إذا كنت أكتفي ببطانية واحدة أو إذا كان من المريح لي أن أجلس في الصف في الزاوية التي بجانب الشباك كنت أجيب بهزّ الرأس دون أن أنبس ببنت شفة. وعن السؤال إذا كنت أهتمّ قليلا بالسياسة وإن كنت أرغب في الاشتراك في دورة لاستعراض الصحف أجبت: أَهِم. إذا سألوا عن حياتي السابقة في القدس كنت أجيب بأقلّ من عشر كلمات وحتى هذه كنت أعوّقها عن قصد، لبضع ثوانٍ، كمن يغرق في التفكير، قبل أن ابدأ بالرّدّ: ليعرفوا هنا أنني إنسان مغلق، يحفظ السّرّ، ولي عالمي الداخلي الخاصّ بي. وحتى في موضوع الحمام البارد

حققت نجاحا، مع أنّني فقط بعد استبسال وجسارة أفلحت في أن أجبر نفسي على خلع ملابسي عاريا تماماً في حمامات الأولاد العامة. كما أنّني، على ما يبدو، نجحت أخيرا في أن أفطم نفسي عن الكتابة.

ولكن ليس من القراءة.

بعد الدوام في المدرسة وبعد ساعات العمل كان أبناء الكيبوتس يذهبون يوميا لقضاء الوقت في بيوت أهاليهم. أمّا الأولاد الخارجيون فكانوا يقضون الوقت في النادي أو على ملعب كرة السلّة. في كل مساء كانت تقام حلقات مختلفة: كالرقص، مثلا، أو أمسيات للغناء الجماعي، والتي تملّصت منها كيلا أكون أضحوكة. عندما كانوا يختفون جميعا كنت أربض وحيدا على الحشيش أمام بنايتنا، شبه عارٍ، أتسفّع وأقرأ كتابا حتى حلول الظلام (احترست جدّاً من الغرفة الفارغة ومن الربض على السرير، إذ هناك كمن لي القبح وهددني بأن يحرّض علي جميع شهرزادات قصر حريمه).

*

قبيل المساء، مرة أو مرتين في الأسبوع، وأنا ما زلت لابسا القميص، كنت أفحص أمام المرآة تقدم التسفّع، أجمّع جسارتي وأذهب إلى مساكن الأعضاء القدامى، لشرب كأس عصير وتناول قطعة كعك في بيت «هانكا» و«عويزر حولدائي» اللذين تطوّعا لأن يكونا عائلة- حاضنة لي في الكيبوتس. زوجان معلمان، كلاهما من مدينة لودج في بولندا، تحملا طوال الوقت عبء الحياة التربوية والثقافية في كيبوتس حولدا. هانكا التي علّمت في المدرسة الابتدائية، كانت امرأة جامدة ومليئة بالحيوية والنشاط، مستعدة دائما مثل النابض، هالة من التضحية بالذات ومن دخان السجائر كانت تحيط بها طوال الوقت. لقد حمّلت نفسها كامل أعباء إدارة الأعياد والمناسبات، والأعراس وحفلات الإنهاء، وكذلك إخراج الفصول المسرحية وبلورة التقاليد المحلية القروية- البروليتارية. هذه التقاليد كما توقعتها «هانكا حولدائي» كان من المفروض أن تصهر معا نكهات نشيد الأنشاد مع العبرية الزيتونية- الخروبية لعمال الأرض التوراتيين وأن تمزجهم مع نغمات البلدة الحسيدية ومع الطرق الخشنة- ولكن- الممتعة لفلاحين بولنديين أصيلين مع بقية أبناء الطبيعة الذين

يرضعون براءتهم وصفاء نفوسهم وبهجة حياتهم الصوفية مباشرة من «ثمار أرض» كنوت هامسون[1] التي تحت أقدامهم الحافية.

أمّا بالنسبة إلى عوزر حولدائي أو عويزر، مدير «الصفوف المكمّلة» الثانوية، فقد كان رجلا بلورياً، صلبا، تجعدات وجهه اليهودية طُبعت بالآلام والحكمة الساخرة. أحياناً كان تمرّ- تومض للحظة بين تجاعيده المتنسكة شرارة ماكرة- متهتكة، شرارة عبث فوضويّ. كان رجلا نحيفا، مستدقّاً كله، قصير القامة، ولكنه ذو عينين فولاذيتين ساحقتين مع حضور ذي تأثير مغناطيسي. كان يتمتع بقدرات خارقة على الكلام وبقدرة على السخرية اللاذعة المُشعة. كان قادرا على أن يستخلص من نفسه إشعاع محبة كان بموسوعها أن تذيب حتى الاستسلام من حظي بالتعرّض إليها، ولكن، أيضاً، انفجارات غضب بركانية، كل من كان ضحية لأحدها، لا ينسى إلى الأبد فزع يوم القيامة الذي عرف عويزر أن يقيمه حوله.

كان ذكيا بارعا سريع البديهة مثل المثقف الليتوانيّ العقلاني ولكنه مع ذلك، مُنْتَشٍ وحماسي مثل واعظ حسيديّ القادر على أن يغمض فجأةً عينيه بقوة وأن يثور وينجرف كالمجنون في نشيد- راقص يم- بم بامي كهذا، مليء بالامتثال حتى التجرد الجسدي: «يبنى الهيكل!» أو «ثانية هيا نشعل! نشعل الأرض! بشعلة خضراء!!» في أيام غير هذه أو في أماكن أخرى ربما أصبح عويزر حولدائي حَبْراً حسيديا مبجلا، «صاحب معجزات» محاطا بهالة من الغموض والكاريزما ومحاطا بحاشية من الحاخامات الحسيديين الذين ينجرون خلفه مثل المجذوبين. كان بإمكانه أن يصل بعيدا جدّاً لو اختار أن يكون رجل سياسة، قائدا شعبيا يترك خلفه عندما يمرّ ذيلا متدفّقا من التقدير الغريزي والعداوة التي لا تقل غريزية عنه. ولكنّ عويزر حولدائي اختار أن يعيش في الكيبوتس- كرجل تربية، إنسان صلب، مبدئيّ بلا هوادة، متورط، وأحيانا، مستبد ومتحكّم أيضاً. علم عندنا، بنفس الكفاءة والحماس شبه

(١) أديب نرويجي حائز على جائزة نوبل لسنة ١٩٢٠ عن روايته «ثمار الأرض» الصادرة سنة ١٩١٧ (المترجم).

الجنسي مثل أحد «الوعاظ» الذين كانوا يتجوّلون بين البلدات، التوراة والبيولوجيا، وموسيقى عصر الباروك والفن في عصر النهضة، حكمة حاخامات حزال وأسس الفكر الاشتراكي، مراقبة الطيور وتعريف النباتات والعزف على الناي و«مكانة نابليون في التاريخ وأثره في الأدب والفن الأوروبي في القرن التاسع عشر».

*

بقلب خافق كنت أدخل إلى شقة الغرفة ونصف وشرفة أمامية صغيرة في المبنى الشمالي عند طرف مساكن الأعضاء القدامى، مقابل جادة السرو: لوحات لموديلياني وباول كلي بالإضافة إلى رسم دقيق، شبه الرسوم اليابانية، لغصن شجرة لوز مزهر، كانت تزين جدرانها. طاولة قهوة صغيرة تواضعت بين أريكتين بسيطتين عليها داخل مزهرية منتصبة القامة، توجد، دائماً، بذوق رفيع، مجموعة من الأغصان الغضة الرطبة لا من الأزهار. على النوافذ غطت ستائر فلاحية فاتحة اللون، مزركشة بتطريز يدوي بأشكال بالفعل كانت تحمل شيئا من نكهة الشرق الخفيفة، مع أنها كانت تلك شرقية معتدلة ومعالجة، مثل ألحان الأناشيد والأغاني الشعبية التي ألفها ملحنون أشكناز من الذين تاقت أنفسهم إلى ملامسة النفس الشرقية - العربي- التوراتي ومزجها مع روح أعمالهم.

إذا لم يكن عويزر حولدائي يمشي بخطوات سريعة ذهابا وإيابا في الممرّ الذي أمام البيت وذراعاه مشبوكتان وراء ظهره وذقنه الناتئ يقص أمامه الهواء، فهو إمّا يجلس في زاويته يدخّن ويدندن بينه وبين نفسه ويقرأ. وإمّا يركّب إطارا لصورة. أو أنّهُ يترنّح ويتمايل فوق صفحة الجمارا (التلمود). أو أنّهُ يضع مجموعة أزهار تحت عدسته المكبّرة ويقلب خلال ذلك كتاب تعاريف النباتات، في حين تشقّ هانكا بخطوات عسكرية الغرفة من هنا وهناك بنشاط وحيوية تقوّم شرشف الطاولة أو تفرغ وتنظّف منفضة السجائر، مصممة حتى أنها تقبض شفتيها، تصلح زاوية شرشف السرير، تقص أشكالا للزينة من أطباق ورق ملون. كانت دولي تستقبلني بنبحتين أو ثلاث قبل أن كان عويزر ينهرها بصرخة مرعدة يتردد صداها: اخجلي يا دولي! يا للعار! على من

تنبحين؟! على من تجرأت على رفع صوتك؟! أو أحياناً كان يقول أيضاً: «أحقا! يا دولي! أنا مندهش جدّاً! مندهش وخجل بسببك!! كيف تجرّأتِ؟! كيف لم يرتعش ويرتجف صوتك؟! إنك تخجلين نفسك فقط بمثل هذا السلوك المخجل!»

كانت الكلبة تنكمش عند سماعها وابل الغضب النبوي هذا، تنفّس مثل كلبة بالون هرب منها الهواء، وكانت تبحث ببقية قوتها إلى أين تذهب لتدفن عارها، حتى يقودها عارها عميقا جداً تحت السرير.

في حين كانت هانكا حولدائي تبش في وجهي وتتوجه إلى جمهور غير مرئيّ: «انظروا! من فضلكم، انظروا فقط، لتروا من جاءنا! فنجان قهوة؟ وكعكة؟ أو ربما أي فاكهة؟» وفيما هذه الخيارات ما زالت تحلق على شفتيها، وفجأةً وكأنها بعصا سحرية كانت القهوة والكعكة وسلة الفواكه تحط على الطاولة. بأدب وتواضع جمّ ولكن بفرحة دفينة وحارّة كنت أشرب بأدب فنجان قهوة وأتناول فاكهة أو فاكهتين، دون أن أبالغ، وأتناقش مع هانكا ومع عويزر حول مواضيع مستعجلة لا تقبل التأجيل مثل عقوبة الإعدام أو هل الإنسان مجبول بطبيعته على الخير والبيئة والمجتمع هما اللذان يفسدانه؟ أم بالعكس الغرائز هي بطبيعتها سيئة ومظلمة منذ الولادة، والتربية وحدها يمكنها في ظروف معينة أن تهذّبها قليلا؟ المصطلحات «فساد»، «تهذيب»، «طبيعة»، «قيم»، «تحسين»، «تسامٍ» كانت تملأ في كثير من الأحيان فضاء الغرفة الذي تلطفه رفوف الكتبِ البيضاء التي تملؤه والتي تختلف كل الاختلاف عن رفوف الكتب في بيت والديّ في القدس لأنهما هنا فصلا بين الكتب بواسطة الصور والتماثيل ومجموعة من الأحافير وكولاجات لنباتات برية مجفّفة، وبواسطة مزهريات جميلة وزاوية فونوغراف مع عدد كبير ومتنوع من الأسطوانات.

قد يحدث أن كانت ترافق المناقشة حول الفساد والتهذيب والقيم والتحرر والاضطهاد أنين كمان أو مأمأة ناي خافتة: شاي الأجعد كان يقف وظهره إلينا ساكتاً يعزف. أو أن رون كان يتهامس مع كمانه، أو أن روني النحيف الذي كانت أمّه تناديه دائما بـ«الصغير» والذي كان من الأفضل لك

ألا تحاول أن تحكي معه ولا حتى كيف- حالك- ما- هي- أخبارك. لأنّه كان دائما متخندقا عميقا عميقاً في خجله المبتسم وفي حالات نادرة كان يتطوع احتراما لك بجملة قصيرة مثل «بخير» أو جملة طويلة «لا مشاكل». تقريبا مثل الكلبة دولي التي كانت تختبئ تحت السرير خوفا من انتهار وتعنيف صاحبها وحتى يذهب عنه الغضب.

وأحيانا كنت أذهب إلى هناك فأجد جميع أبناء عائلة حولدائي: عويزر وشاي وروني، ثلاثتهم جالسين على الحشيش، أو على درجات الشرفة، مثل جوقة مغنين وعازفين تابعة للبلدية، يهيجون هواء المساء بعزف ناي متواصل، تشق أعماق النفس، كانت تثير بداخلي رقّة قلب لطيفة ممزوجة بلسعة حزن على ضعفي وعلى غربتي، على أن أي تسفّع في العالم لا يمكنه أن يجعلني واحدا منهم بالفعل: دائما- دائما سأبقى متوسلا أعتمد عليهم في معيشتي. ولد من الخارج. ضعيف مقدسيّ- محموم، إذا لم أكن مجرد مُدّعٍ بائس (قليل من فائض هذه المشاعر نقلتها إلى عزاريا جيطلين الذي في كتاب «استراحة صحيحة»).

*

مع حلول الظلام كنت أذهب مع كتابي إلى بيت الثقافة، بيت هرتسل، الذي كان في طرف الكيبوتس. في بيت الثقافة كانت هناك غرفة صحف في كل مساء كان بإمكانك أن تجد فيها عددا من رجال الكيبوتس- العجائز- العزّاب، جالسين يقضمون وفق ترتيب معين صفحات الجرائد والمجلات الأسبوعية، ويفترس الواحد منهم الآخر في نقاشات سياسية مريرة تذكّر قليلا بنقاشات حيّ «كيرم أفراهام»، نقاشات ستاشيك رودْنيتْسكي والسيد أبْرامْسكي والسيد كروخْمَل والسيد بار يتسهار والسيد لامْبِرْج («العجائز- العزّاب» في الكيبوتس كانت أعمارهم في السنة التي جئت فيها إلى الكيبوتس تتراوح ما بين الأربعين والخامسة والأربعين).

خلف غرفة الصحف كانت هناك غرفة واحدة شبه مهجورة، أطلقوا عليها اسم «غرفة مطالعة» واستعملت في بعض الأحيان كمكان لمناقشات لجان الكيبوتس أو لفعاليات بعض الحلقات، ولكنها، في الغالب، في

ساعات المساء، لا تطؤها قدم إنسان. مغبرة ومهجورة خلف زجاج الخزانة انتصبت هناك في صفوف متعبة مجلدات «العامل الصغير» وَمجلة المرأة العاملة الشهرية «دفار هبوعلت» ومجلة «هسديه» (الحقل) وَ«الساعة» و«الكتاب السنوي» لجريدة «دفار».

إلى هنا كنت أجيء كل مساء لأقرأ كتابا حتى منتصف الليل تقريبا، حتى تلتصق جفوني ببعضها. وهنا أيضاً عدت إلى الكتابة دون أن يراني أحد، وبخجل وبإحساس متعكّر بالحقارة والاشمئزاز من نفسي: فقد تركت القدس ليس من اجل أن أكتب بعض القصائد أو القصص بل لكي أولد هنا من جديد، لكي أترك خلفي أكوام الكلمات، ولكي أتسفّع كلي حتى العظام وأن أتحوّل إلى مزارع يعمل في الأرض.

*

إلا أنّهُ في حولدا تبيّن لي بسرعة بأنّ المزارعين وحتى الفلاحين جدّاً يقرؤون هنا الكتب في الليالي ويتناقشون حولها طوال النهار: يقطفون الزيتون وخلال ذلك يتناقشون بتلهف وحماس شديدين حول تولستوي، وحول بليخانوف وحول باكونين، وحول الثورة الدائمة مقارنة مع الثورة في دولة واحدة، وحول الديمقراطية الاشتراكية لغوستاف لانداور وحول التوتر الأبدي بين قيمة المساواة وبين قيمة الحرية وبينهما وبين الرغبة في الأخوة. كانوا يصنّفون البيض في القنّ ويبحثون إضفاء الصبغة القروية من جديد على الأعياد اليهودية القديمة. كانوا يقلمون كروم العنب ويعترضون على الفن الحديث.

كما أن قسما منهم كتب بين الحين والآخر مقالات صغيرة متواضعة دون أي تناقض مع إخلاصهم وتفانيهم في الزراعة والتزامهم الكامل بحياة العمل اليدوي. كانوا يكتبون غالبا حول المواضيع التي تباحثوا وتناقشوا حولها طوال النهار. إلا أنهم في مقالاتهم التي طبعت مرة كل أسبوعين في النشرة المحلية سمحوا لأنفسهم أكثر من مرة أن يكونوا شاعريين قليلا بين ادعاء ساحق وادعاء آخر ساحق مرتين.

بالضبط كما في البيت.

وأنا طلبت أن أدير ظهري بشكل نهائي والى الأبد لعالم الألمعية

والمجادلة الذي جئت منه، وإذا بي أقع مباشرة من الرمضاء إلى النار: «كما إذا هرب إنسان من أمام الأسد فصادفه الدّبّ».[1] فعلا كان المتناقشون هنا مسفوعين أكثر ممن كانوا حول طاولة العمّ يوسف والعمّة تسيبورا ويعتمرون القبعات يلبسون ملابس العمل والأحذية الثقيلة. ولم يتكلموا عبرانية عالية بلكنة روسية بل بعبرانية جذِلة مشبعة بنكهات مرطبة بالإيديش الغاليتسي أو الصربي.

تماماً مثل السيد ماركوس صاحب مكتبة الإعارة في شارع يونا، أشفق أمين المكتبة، شيفتل، على تعطشي الذي لا يرتوي للكتب. فقد سمح لي أن أستعير دون حساب، أكثر بكثير من قوانين المكتبة التي كتبها هو بنفسه وطبعها بحروف كبيرة وواضحة على الآلة الكاتبة التابعة للكيبوتس وعلّقها في أماكن بارزة في جميع أرجاء مملكته والتي كانت رائحتها الخافتة- المغبرة، رائحة الدبق القديم والطحالب البحرية تشدّني إليها مثلما يشدّ الرحيق الحشرة.

ما الذي لم أقرأه في حولدا في تلك السنوات: كافكا وَيجئال موسينزون، كامي وتولستوي وموشيه شمير، تشيخوف ونتان شاحام، برينير وفوكنير، بابلو نيرودا وحاييم غوري، وألترمان وأمير جلبواع وليئة غولدبيرغ، شلونسكي وع. هيلّيل، يزهار وتورجينييف، توماس مان ويعكوف فاسرمن وهمينجواي، أنا، كلاوديوس، كل مجلدات مذكرات ونستون تشرتشل، برنارد لويس عن العرب والإسلام، إيزاك دويتشر عن الاتحاد السوفييتي، بيرل باك، محاكمات نيرنبرغ، حياة تروتسكي، ستيفان تسفيج، تاريخ الاستيطان في البلاد ومصادر الساجا - الأساطير- الاسكندينافية، مارك توين وكنوت هامسون والأساطير اليونانية و«مذكرات هدريانوس» وأوري أفنيري. الكل. باستثناء الكتب التي لم يسمح لي شيفتل بقراءتها، ولم تنفعني كل التوسّلات: «العراة والأموات»، على سبيل المثال (أظن أن شيفتل حتى بعد زواجي تردد فيما إذا لم يكن هناك خطر في أن يسمح لي بقراءة نورمان مايلر وهنري ميلر).

*

(١) سفر عاموس: ٥: ١٩ (المترجم).

تبدأ «قوس النصر»، وهي رواية تدعو للسلام ألّفها إريك ماريا ريمارك وتدور أحداثها حول الحرب العالمية الثانية، بوصف امرأة وحدانية تقف وحيدة مستندة على دربزين الجسر المهجور في الظلام، تتردّد لحظة أخرى خفيفة قبل أن تقفز إلى النهر لكي تنتحر وتضع حدا لحياتها. ولكن، في اللحظة الأخيرة تماماً يمر من هناك رجل غريب، يتباطأ، يحكي معها قليلا ثم يمسك بقوة بذراعها وبذلك ينقذ حياتها كما أنّهُ يحظى بليلة حمراء فاقعة. كتلك كانت الفانتازيا التي حلمت بها: أن التقي مع الحبّ على هذا النحو تماماً. أن تقف هي وحيدة بجانب دربزين جسر مهجور وبائس في ليلة عاصفة، فأجيء أنا في اللحظة الأخيرة لإنقاذها من نفسها، أن أقتل من أجلها تنينا، والذي لم يعد تنينا كالذي قتلت منه الكثير في صباي، بل تنينا داخليّاً والذي هو ليس إلا اليأس نفسه.

أنا مستعد، من أجل حبيبتي، أن أقتل هذا التنين، الداخلي، ثم أحصل منها على أجري، وبذلك كانت هذه الفانتازيا تتطور إلى اتجاهات حلوة وفظيعة أكثر مما استطيع تحمّلها. حتى ذلك الوقت لم يخطر ببالي أن المرأة اليائسة التي بجانب الدربزين ليست، مرة تلو مرة، إلا أمّي الميتة. هي ويأسها، هي وتنينها.

أو «لمن تدق الأجراس» بقلم ارنست همينجواي: قرأت تلك الرواية أربع أو خمس مرات في تلك السنوات. هذه الرواية المسكونة بنساء فتاكات وبرجال صامتين، بأسارير صارمة، اخفوا خلف مظهرهم الصارم نفساً شاعرية. حلمت أن أشبههم قليلا، ذات يوم، رجلا حزينا مليئا قوّةً مع جسم مصارع ثيران ووجه غنيّ بالازدراء والأسى: ربما مثل همينجواي كما يبدو في الصورة. وإذا لم أنجح في أن أكون مثلهم في أحد الأيام، فربما أعرف أنا أيضاً، ذات مرة، على الأقل، أن أكتب عن رجال مثل هؤلاء: رجال بواسل يعرفون كيف يسخرون ويزدرون، أو أن يوجّهوا، عند الضرورة، قبضة مربّعة وقاضية إلى فكّ مغرور ما، يعرفون بالضبط، ما الذي يليق طلبه من البار وماذا يليق بأن يقال للمرأة أو للخصم أو للزميل في السلاح، يعرفون كيف يستعملون المسدس ويثيرون الدهشة والإعجاب عند معاشرتهم للنساء.

وكذلك عن نساء متعاليات، نساء فاتنات ورقيقات ولكنهن ممتنعات حتى يستحيل الوصول إليهن، نساء محيّرات مترددات، غامضات، يغمرن بحبهن بسخاء وبدون قيود- ولكن فقط على صفوة من الرجال الذين يجيدون السخرية والتهكم وشرب الويسكي وإنزال اللكمات وما شابه.

كما أن أفلام السينما التي كانت تعرض كل يوم أربعاء في قاعة بيت هرتسل أو على قطعة قماش بيضاء على الحشيش أمام قاعة الطعام تدلّ دلالة واضحة بأن العالم الواسع مملوء في غالبيته برجال ونساء على صيغة همينجواي. أو على صيغة كنوت هامسون. وهكذا ارتسم العالم من خلال قصص جنود الكيبوتس ذوي القبعات الحمراء، الذين كانوا يعودون من عمليات الانتقام التي تقوم بها الوحدة ١٠١ مباشرة إلى بيوتهم لقضاء عطلة السبت، أقوياء، يعتزّون ببزات رجال المظلات مسلحين برشاش من نوع «عوزي» يكتمون الأسرار، يلبسون ملابس عادية وحزام المعدات العسكرية وحذاء ثقيلاً وتسيل منهم قطرات طلّ الشباب العبري.

*

كدت أيأس نهائيا من الكتابة: إذ لكي تكتب مثل ريمارك أو مثل همينجواي عليك أن تحمل نفسك وتسافر من هنا إلى العالم الحقيقي، إلى الأماكن التي فيها الرجال رجوليون مثل قبضة اليد والنساء أنثويات رقيقات مثل الليل، والجسور تمتد على عرض الأنهار الكبيرة وفي المساء تلمع أضواء الخمارات التي فيها تحاك وتنسج الحياة الحقيقية فعلا. من لم يمارس ويجرب حياة تلك العوالم لا يمكنه أن يحصل على حتى نصف رخصة مؤقتة لكتابة القصص والروايات. مكان الكاتب والأديب الحقيقي ليس هنا، بكل تأكيد، بل هناك، في العالم الكبير. ما دمت لم أخرج بعد وأحيا في مكان حقيقي، فبكل بساطة لن يكون لي أي احتمال لأن يكون عندي ما أكتب عنه.

مكان حقيقي: باريس. مدريد. نيويورك. مونت كارلو. صحاري أفريقيا أو غابات اسكندنافيا. وفي حالات الضيق يمكن ربما الكتابة عن مدينة صغيرة جذابة ومثيرة تقع إلى جانب مدينة كبيرة ومشهورة في روسيا وربما حتى عن بلدة يهودية في غالينسيا. أمّا هنا؟ في الكيبوتس؟ ماذا يوجد هنا؟

قن وزريبة؟ بيت أولاد؟ لجان ونوبات عمل ومخزن لتزويد الحاجات الصغيرة؟ رجال ونساء مستنزفون جدّاً يستيقظون باكرا إلى أعمالهم ويبقون يعملون كل ساعات الصباح ويتناقشون ويستحمون ويشربون الشاي ويقرؤون قليلا وهم في أسرّتهم ثم ينامون منهكين مرهقين قبل العاشرة مساء. حتى في «كيرم أفراهام» المكان الذي جئت منه لم أجد شيئا جديراً بالكتابة: ماذا يوجد هناك، باستثناء أشخاص شاحبين حياتهم على وتيرة واحدة، مملة، ملابسهم رثة إلى حد ما؟ تقريبا مثل هنا في كيبوتس حولدا؟ بل إن حرب الاستقلال فاتتني: فقد ولدتُ متأخرا ولم يبق لي منها إلا بعض الفتات الضئيل، أن أملأ أكياس الرمل القليلة وأن اجمع القناني الفارغة وأن أركض مع وريقات من محطة الحرس الشعبي إلى نقطة المراقبة على سطح منزل عائلة سلونيمسكي والعودة إلى الحرس الشعبي.

الحقيقة، في مكتبة الكيبوتس اكتشفت أيضاً كاتبين أو ثلاثة رجوليين نجحوا في أن يكتبوا قصصا تشبه قصص همينجواي عن حياة الكيبوتس: نتان شاحام ويجئال موسينزون. موشيه شمير. ولكنهم كانوا من الجيل الذي حظي بأن يهرّب السلاح والمهاجرين غير الشرعيين، وأن يفجّر مراكز قيادة بريطانية وصدّ الجيوش العربية: كانوا كتابا بدت لي كتاباتهم ملفوفة بأبخرة الكونياك ودخان السجائر، وتفوح منها رائحة البارود. كما أنهم جميعا سكنوا في تل أبيب التي كانت قد أصبحت إلى حد ما متصلة بالعالم الحقيقي، مدينة مع مقاهٍ تعجّ بالفنانين الشباب يحتسون كأس نبيذ مرّ، مدينة مع نواد ليلية، وهيجان وجعجعات ومسرح وحياة بوهيمية مليئة بقصص الغرام المحرّمة والمشبعة بالشهوات اليائسة ليس كما في القدس وفي كيبوتس حولدا.

من رأى في كل كيبوتس حولدا الكونياك؟ من سمع هنا ذات مرة عن نساء جريئات جسورات ومن سمع هنا عن قصص حب كبير؟

لكي أكتب مثل أولئك الكتاب الرجوليين عليّ أن أصل أولا إلى لندن أو إلى ميلانو. ولكن كيف؟ إذ أن المزارعين البسطاء من الكيبوتس لا يستيقظون فجأةً ليسافروا للعيش لمدة معينة في لندن أو في ميلانو لكي يتشربوا الوحي لعمل أدبي.

لكي يكون لي احتمال لأنّ أصل إلى باريس أو إلى روما علي أولا أن أكون مشهورا أي أن اكتب كتابا رائعا كواحد من تلك الكتب. ولكن لكي أكتب هذا الكتاب الرائع علي أولا أن أعيش في لندن أو في نيو يورك: حلقة مفرغة

*

شيروود أندرسون هو الذي أخرجني من هذه الحلقة المفرغة. هو الذي «حرّر لي اليد التي تكتب». طوال حياتي سأبقى مدينا له بذلك.

في أيلول ١٩٥٩ صدر عن دار النشر «عام عوفيد» في إطار «سفريا لعام» (مكتبة الشعب) كتاب أندرسون «واينزبيرغ، أوهايو»، بترجمة أهرون أمير. حتى قراءة هذا الكتاب لم أعرف بأنه في العالم توجد مدينة اسمها واينزبيرغ كما لم اسمع الاسم «أوهايو». ربما تذكرت «أوهايو» بشكل ضبابي من «توم سوير» ومن «هوكليبري فِين». وها قد جاء هذا الكتاب المتواضع وأثار مشاعري وهزّ كياني حتى العظام: ليلة صيف كاملة حتى الساعة الثالثة والنصف صباحا تجولت ذهاباً وإياباً في طرقات الكيبوتس مفعما بالاحاسيس المحمومة، ثملا، أحدّث نفسي بصوت مرتفع، أرتجف مثل العشاق، أغني وأقفز، أبكي بكاء مرّاً من شدة الخوف والفرح ومن شدة السعادة والانفعال: وجدتها.

في آخر تلك الليلة في الساعة الثالثة والنصف صباحا ارتديت ملابس العمل وانتعلت حذاء العمل وركضت إلى العريشة التي منها خرجنا في الجرار إلى القسيمة التي تسمّى «منصورة» لكي نعشّب حقل القطن خطفت منكوشا من الكوم وحتى الظهر تقدّمت بسرعة على امتداد أسراب القطن سابقا جميع العمال الذين معي وكأنه قد نبتت لي أجنحة، متهيّج من شدة السعادة. أركض وأنكش وأصرخ، أركض وأنكش وأخطب في أذني نفسي وفي أذني التلال والرياح، أنكش وأنذر النذور، اركض متحمسا ومهتاجا جدّاً ودموعي تسيل بغزارة.

كتاب «واينزبيرغ، أوهايو» كله عبارة عن عقد من القصص والمشاهد

التي ينجم فيها الواحد من الآخر وترتبط ببعضها في الأساس بأنها كلها تحدث في بلدة واحدة، نائية، بائسة، مغمورة. لقد ملأ الرجال الصغار العاديون صفحات هذا الكتاب، أحدهم نجار عجوز، وأحدهم فتى حالم أحلام اليقظة، وشخص ما صاحب نُزُل وكذلك فتاة- خادمة. لقد اتصلت القصص المختلفة ببعضها أيضاً بكون الشخصيات تنتقل من قصة إلى أخرى: الشخصيات التي كانت رئيسية في قصة معيّنة عادت وظهرت هي نفسها كشخصيات ثانوية، كشخصيات خلفية، في قصص أخرى.

الأحداث التي تدور حولها قصص «واينزبيرغ، أوهايو» كانت كلها عادية، بسيطة، ويومية، بنيت من موادّ القيل والقال المحلي أو من أحلام صغيرة لا تتحقّق: نجار عجوز وكاتب عجوز يتحدثان بينهما عن رفع سرير معين، وشاب حالم اسمه جورج فيلارد يعمل كمراسل مبتدئ في صحيفة محلية، يصغي لمحادثتهما ويفكر فيما يفكر فيه. ويوجد هناك أيضاً عجوز آخر غريب الأطوار اسمه بيدلباوم ولقبه «بيدلباوم جناح». وصبية معينة، طويلة القامة وسمراء البشرة، والتي تزوجت لسبب ما من أحدهم، دكتور ريفي، ولكنها ماتت بعد سنة من الزواج. وأفنير جروف الخبّاز وكذلك الدكتور بارسيفال، «رجل ضخم الجثة وله فم مترهّل، مزيّن بشارب أصفر، والذي كان يرتدي دائما صدرية بيضاء قذرة وقد أطلّت من جيبها عدة سجائر سوداء ورفيعة ورخيصة»، وغيرها من الشخصيات المشابهة، نماذج بشرية حتى تلك الليلة كنت أعتقد بأنه لا مكان لها في الأدب باستثناء، ربما كشخصيات خلفية، تثير في القارئ، في أحسن الحالات، نصف لحظة من السخرية الممزوجة بالشّفقة. وها هي في «واينزبيرغ، أوهايو» تحتل مركز كل واحدة من القصص مواضيع وأشخاص كنت متأكدا بأنهم أقل بكثير دون مستوى الأدب. أقلّ بكثير من مستوى الحد الأدنى للدخول إلى الأدب. النساء عند شيروود أندرسون لم يكن جسورات ولا حتى غامضات - مغريات. الرجال لم يكونوا بواسل ولا مفكرين صامتين ولا حتى ملفوفين بالدخان والحسرة الرجولية.

*

هكذا أعادت قصص شيروود أندرسون ما كنت قد ألقيت به من وراء ظهري عندما غادرت القدس، وعمليا - ليس ما ألقيت به من وراء ظهري بل التراب التي وطأته قدماي كل أيام طفولتي ولكنني لم أكلّف نفسي الانحناء للمسه: الابتذال الذي أحاط بحياة والديّ. الرائحة الضعيفة لدبق - طحين ممزوج برائحة الأسماك المملحة التي كانت ترافق دائما الزوجين كروخْمَل مصلّحي العاب الأطفال وتلصيق الدمى. الدار البنية - المعتمة للمعلمة زيلدا مع خزانة الفورنير القابلة للانطواء. وبيت الكاتب السيد زارحي مريض القلب الذي عانت زوجته إستير من الشقيقة. والمطبخ القاتم في بيت تشيرنا أبْرامْسكي، والعصفوران اللذان ربّاهما ستاشيك ومالا رودْنيتْسكي داخل قفص في غرفتهما، العصفور الأصلع والعصفور المصنوع من كوز الصنوبر. وجوقة قطط المعلمة إيزابيلا نَحْليئِيلي البيتية، جيتسل زوج المعلمة إيزابيلا، أمين الصندوق فاغر الفم من البقالة. وكذلك ستاخ الكلب المصنوع من الخرق البالية العجوز والحزين والبائس الذي كان لجدتي شلوميت. ذلك الكلب صاحب عيني الأزرار السوداوين والذي كانوا يحشونه بكريّات النفتالين خوفا من العثّ ويضربونه بقسوة لكي ينفضوا عنه الغبار، إلى أن سئموا منه في أحد الأيام ولفّوه بورق جرائد قديمة والقوا به داخل برميل القمامة.

أدركت من أين جئت: من لَفِيفَة مترددة غير واثقة من نفسها من الحزن والتظاهر، كتلة من الأشواق والسخرية والبؤس والأهمية الريفية ومن التربية العاطفية والمثل التي أكل الدهر عليها وشرب والمخاوف المكبوتة والذلّ واليأس. يأس من الصنف الحامض قليلا، البيتي، من أماكن فيها الكذّابون الصّغار يتظاهرون بأنهم إرهابيون خطيرون، وبأنهم مقاتلون أبطال من أجل الحرية، ومجلّدو كتب بؤساء كانوا يفكرون بمعادلات إنقاذ عالمية، أطباء أسنان كانوا يحكون لجميع الجيران بالسر والكتمان عن مكاتباتهم الشخصية المتواصلة مع ستالين، معلمات للعزف على البيانو ومعلمات روضات أطفال وربات منازل تقلّبن باكيات على مضاجعهنّ في الليل من شدة الأشواق المكبوتة إلى حياة الفن الغنية بالأحاسيس، وكاتبون قهريون كتبوا المزيد والمزيد من رسائل الهلع والفزع إلى هيئة تحرير جريدة «دفار»، وخبّازون

متقدمون في السنّ رأوا في مناماتهم الرمبام[1] و«الطيب الذكر»،[2] نشطاء الهستدروت منغلقون أبرار في عيون أنفسهم فتحوا أعينهم ذات هوية مباي الحزبية على سكان الحي، وأمناء صناديق في البقالة أو في السينما كانوا يؤلفون كلّ ليلة الاغاني والمناشير.

هنا أيضاً في كيبوتس حولدا عاش مربي أبقار مختصّ بتاريخ الحركية الفوضوية الروسية، وكان عندنا معلم أدرج اسمه مرة في المكان الرابع والثمانين في قائمة مرشّحي حزب مباي للكنيست الثانية، وخيّاطة جميلة، تحبّ الموسيقى الكلاسيكية، والتي كانت تجلس كلّ مساء لترسم مناظر قرية مسقط رأسها في بيصرابيا كما تذكرها قبل تدمير القرية. وكان هناك عازب تتقدّم به السن أحبّ أن يجلس لوحده على المقعد عند هبوب نسيم الغروب ويسرح نظره خلف البنات الصغيرات، وكان هناك سائق تندر صاحب صوت صادح حلم بينه وبين نفسه في حياة الأوبرا وكان هناك أيديولوجيان متحمسان جدّاً يسخر ويتهكم كلّ منهما على الآخر تحريريا وشفهيا. وكانت هناك امرأة كانت في صباها جميلة الصف في بولندا حتى أنّها ظهرت مرة أمام آلات التصوير السينمائية وهي الآن تجلس كلّ يوم مع مريول المطبخ على كرسي خشن صغير بدون ذراعين وبدون ظهر، وراء مخزن الموادّ الغذائية، سمينة، متوردة البشرة، مهملة طوال النهار تقطّع اكواما هائلة من الخضراوات وبين الحين والآخر تمسح عن وجهها بطرف مريولها: دمعة أو قطرة عرق أم كليهما.

*

أيقظني كتاب «واينزبيرغ، أوهايو» فجأة لأكتشف كيف هو العالم بحسب تشيخوف، قبل أن أحظى بالتعرف على تشيخوف نفسه: لا لم يعد العالم بحسب دوستويفسكي وكافكا وكنوت هامسون ولا بحسب همينجواي ويجئال

(١) موسى بن ميمون (المترجم).

(٢) كناية ليسرائيل بن إليعزر مؤسس حركة الحسيدوت (الحركة الصوفية اليهودية) من مواليد أوكراينا عاش في القرن الثامن عشر (المترجم).

موسينزون أيضاً. لا نساء غامضات على جسور ورجال عالي- الياقات داخل دخان الخمارات.

هذا الكتاب المتواضع مرّ بي مثل انقلاب كوبرنيكوس معكوس: اكتشف كوبرنيكوس بأنّ عالمنا ليس مركز كلّ الكون بتاتاً، كما اعتقدوا حتى ذلك الوقت، والأرض ما هي إلا كوكب سيار واحد من مجموعة الكواكب السيارة التي في المجموعة الشمسية. بينما فتح شيروود أندرسون عينيّ لكي أكتب عما هو حولي. بفضله أدركت فجأة بأنّ العالم المكتوب ليس مرتبطا بميلانو ولندن بل يدور دائماً حول اليد التي تكتب في المكان الذي تكتب فيه: أنت هنا- هنا مركز الكون.

في حولدا كانت غرفة مطالعة انقطعت عنها الأرجل، خلف غرفة الجرائد التي في الطابق الأرضي من بيت الثقافة الموجود على طرف الكيبوتس. في غرفة المطالعة المهجورة هذه اخترت لي طاولة على شكل زاوية. هناك كنت افرش كلّ مساء دفترا مدرسيا بنيّ الغلاف كتب عليه «الكل الاستعمالات» وكتب عليه أيضاً «٤٠ ورقة». بجانب هذا الدفتر وضعت قلم حبر جاف سمي «جلوبوس» وقلماً مع ممحاة في طرفه الآخر، طبعت عليه الكلمات «همشبير لتسرخان بعم»[1] بالإضافة إلى فنجان من البلاستيك بلون البيج مملوء بمياه فاترة من الحنفية.

وهنا هو مركز العالم.

*

في نادي الصحف خلف الحائط الدقيق، يتناقش مويشه كالكر وأليوشكا وأليك بشدة واحتدام حول خطاب موشيه ديّان الخطاب الذي فيه «رمى حجرا إلى شباك في الطابق الخامس»: ثلاثة رجال ليسوا على جانب من الجمال ولم يعودوا شبابا يتجادلون فيما بينهم أكثر وأكثر بنغمة تعمق بأدقّ التفاصيل مثل طلاب المدرسة الدينية الذين يدرسون التلمود. أليك، شخص مجتهد

---

(١) معناها الحرفي «المتجر المزوّد للمستهلك م.ض. (محدود الضمان)» وهي شركة لها العديد من المجمعات التجارية في المدن الكبرى (المترجم).

ونشيط، يحاول جاهدا دائماً على أن يلعب دور الذكي المحبوب على الجميع الذي يقول لك ما يفكّر به بشكل مباشر وبدون لف ودوران. وهو متزوج من امرأة عليلة اسمها زوشكا ولكن معظم ساعات المساء يقضيها غالبا مع مجموعة من العازبين. عبثاً يحاول الآن أن يدخل بين أليوشكا ومويشه كالكر جملة «لحظة من فضلكما، كلاكما ليس على حق،» أو: «أعطياني، اسمحا لي، من فضلكما، لحظة واحدة لأقول لكما شيئا ينهي الخلاف في وجهات النظر بينكما.»

أليوشكا ومويشه كالكر كَلاهما رجلان وحيدان وكلاهما مختلفان فيما بينهما تقريبا حول كلّ موضوع. ومع ذلك لا يفترقان عن بعضهما في ساعات المساء: «دائماً يتناولان الطعام معاً في قاعة الطعام، يتجولان معاً في الطريق ويذهبان سوية إلى نادي الصحف.»

أليوشكا خجول مثل الصبيّ، وهو رجل مستدير الوجه، مبتسم، متواضع، يحب الخير، وعيناه الحائرتان فقط دائما تنظران إلى الأرض وكأن حياته نفسها هي شيء مخجل ومخزٍ. ولكنه في ساعة النقاش، قد يحدث أن يثور أليوشكا فجأة، يشحن بالغضب فيبدأ يرشق الشرار، حتى تكاد تخرج عيناه من محجريهما. على وجهه الصبياني الشفوق ترتسم في ساعة النقاش ليست أسارير الغضب بل أسارير الذهول والإهانة، وكأنّ آراءه نفسها تسبب له أن يشعر بأنه مُهان.

أمّا مويشه كالكر الكهربائي فهو شخص نحيف ولاذع وعنيد، في ساعات النقاش، يقطّب وجهه ويكاد يغمزك أيضاً بغمزات- خطيئة، يغمره مكر وخبث متغطرسان، يبتسم إليك ثم يغمزك بمتعة شر شيطانية وكأنه بحث طوال الوقت وهو يعثر أخيراً أين بالضبط يكمن عندك مستنقع سرطاني نجحت حتى الآن في إخفائه عن عيون العالم ولكنك لا تستطيع إخفاءه عن عينيه هو، اللتين تخترقان أقنعتك وهما تستمتعان جدّاً وبالذات بمستنقع الوحل الذي تكشّفت عندك: إنّهم جميعا يظنونك إنساناً محترما ونزيهاً، شخصية إيجابية، ولكن الحقيقة الكريهة أنت وأنا نعرفها جيدا حتى وإن نجحت معظم الوقت في إخفائها وراء سبعة وسبعين قناعا. الكل مكشوف

أمامي، يا عزيزي، الكل، بما في ذلك جوهرك الداخلي الذي يثير الفزع، الكل مكشوف أمام ناظريّ والكل يسبب لي المتعة لا غير.

يحاول أليك بلغة رقيقة أن يطفئ الخلاف في وجهات النظر بين أليوشكا ومويشه كالكر، إلا أن المتخاصمين يتفقان، في الحال، ضدّه ويؤنبانه هما كلاهما لأنّ أليك بحسب رأييهما، لم يفهم حتى الآن ما هو موضوع الخلاف.

يقول أليوشكا:

«اسمح لي، يا أليك، ولكنك، على ما يبدو، بكل بساطة لا تصلي من كتاب الصلوات الذي نصلي منه نحن».

ويقول مويشه كالكر:

«أنت يا أليك، في الوقت الذي يأكل فيه الجميع «تشولنت» (طبيخ السبت) تقوم أنت لتنشد «هتكفا» وفي الوقت الذي يحل فيه التاسع من آب العبري[1] يحلّ عندك «البوريم» (عيد المساخر).»

شعر أليك بالإهانة ووقف لينصرف، إلا أن العازبين، كعادتهما دائما، أصرّا على مرافقته حتى باب منزله وأن يستمرا قليلا في جدالهما، وهو كعادته سيدعوهما إلى منزله، ولم لا، ستسعد زوشكا جدّاً وسنشرب معاً فنجان شاي ساخن، ولكنهما سيرفضان شاكرَين. دائماً يرفضان. ها هو منذ سنوات والمرة تلو المرة يدعوهما ليشربا عنده في بيته، بعد نادي الصحف، فنجان شاي: تفضلا، تفضلا قليلا، نشرب معاً فنجان شاي، لم لا، إنّ زوشكا ستفرح جدّاً. وطوال السنوات كانا كلاهما يرفضان دائماً شاكرَين. حتى كانت تلك المرة-

ها أنا ذا هكذا سأكتب القصص.

وبما أن الليل قد فرش أجنحته في الخارج، قريبا جدّاً من السياج تعوي بنات آوى الجائعة، سأدخلها أيضاً إلى القصة. لم لا. ليبكوا قليلا تحت الشبابيك. وكذلك الحارس الليلي الذي ثكل ابنه في إحدى عمليات الانتقام.

---

(١) ذكرى خراب الهيكل (المترجم).

وكذلك الأرملة صاحبة القيل والقال التي من وراء ظهرها سمّوها عندنا الأرملة السوداء. والكلاب النابحة وحركة أشجار السّرو التي ترتجف الآن، في الظلام، رجفة خفيفة، بتأثير الرياح، وبهذه الرجفة تبدو أشجار السرو لأول وهلة مثل صف من المصلين همسا.

*

هكذا كان الكنز الذي أخذته من شيروود أندرسون. وقد حدث أن استطعت أن أعيد إليه أغورة أو أغورتين على حساب الدَّين: هناك في أمريكا، شيروود أندرسون هذا صديق ومن رعيل وليام فوكنر كاد هناك في أمريكا أن ينساه الجميع. فقط هنا وهناك كتبه ما زالت ترفرف في بعض أقسام اللغة الانجليزية. وها قبل عدة سنوات، وصلتني رسالة من دار النشر نورتون: بأنهم ينوون إعادة إصدار مجموعة قصص لشيروود أندرسون تحت عنوان «موت في الغابات وقصص أخرى» وقد وصلتهم إشاعة بأنني من بين المعجبين به، ولذلك هل يمكنك أن أتكرّم بكتابة سطرين أو ثلاثة لترويج بيع المجموعة يطبعها الناشر على غلاف الكتاب؟

تماما كما يطلب، على سبيل المثال، من عازف كمان في المطاعم أن يسمح باستعمال اسمه لترويج موسيقى يوهان سِيبَستيان باخ.

٥٩

وكانت في كيبوتس حولدا معلمة روضة أطفال، أو مربية للصف الأول، سأسميها أورنا معلمة أجيرة في الخامسة والثلاثين من عمرها كانت تسكن عندنا في الغرفة الأخيرة في أحد المباني القديمة. في كلّ يوم خميس كانت تسافر إلى زوجها وتعود إلى عملها في حولدا في الصباح الباكر من كلّ يوم أحد. في إحدى المرات دعتني مع طالبتين من بنات صفّي إلى زيارتها في غرفتها في ساعات المساء، للحديث عن قصائد «نجوم في الخارج» وأن نستمع معها إلى المعزوفة كونشيرتو للكمان والأُوركِسْترا للموسيقار مندلسون وإلى الثُمانِيَّة للموسيقار فرانس شوبرت. وُضع الفونوغراف على كرسيّ صغير مجدول من الخيزران موجود في زاوية غرفتها، التي احتوت أيضاً على سرير وطاولة وكرسيّين وغلاية كهربائية وخزانة ملابس مغطّاة بستارة قماش مورّد وبيت قذيفة بمثابة مزهرية نبتت فيه باقة أشواك باللونِ البنفسجي.

على حيطان غرفتها علّقت أورنا لوحتين من رسومات بول غوغين نساء من تاهيتي مكتنزات وناعسات شبه عاريات، بالإضافة إلى عدة رسوم بالرصاص رسمتها هي بيدها وركبت لها أطرا. ربما بتأثير رسومات غوغين رسمت أورنا نفسها أيضاً صورا لنساء عاريات مكتنزات الجسم في هيئات استلقاء أو اتكاء. جميع هؤلاء النساء نساء غوغين ونساء أورنا بدون مرتويات ومرتخيات وكأنهن في أعقاب متعة. ومع ذلك خيل إليّ، بناء على هيئاتهن الفسيحة بأنهن على استعداد بأن يواصلن بغمر من لم يرتوِ بعد بفائض من الملذات.

على رفّ الكتب الذي عند موضع رأس سرير أورنا وجدت كتيّب «رباعيات عمر الخيام» و«الطاعون» لألبير كامي وبجانبهما وقف بير جينت وهمينجواي وكافكا وكذلك أشعار ألترمن وراحيل وشلونسكي وليئة غولدبرغ وحاييم غوري ونتان يونتان وزورزبابل جلعاد وَقصص يزهار و«طريق الرجال» للكاتب يجئال موسينزون و«قصائد في الصباح الباكر» للشاعر أمير جلبواع، وَ«بلاد الظهر» للكاتب ع. هيلّيل، وكذلك الكتابان «على قارعة الطريق» و«موت العاشق» للشاعر والفيلسوف الهندي رابندراناث طاغور (وبعد عدة أسابيع اشتريت لأورنا ببضعة قروش، من مصروفي، كتاب «اليراعات» كتبت لها على صفحة الغلاف إهداء شخصيا ظهرت ضمن كلماته كلمة «منفعل»).

كانت أورنا امرأة خضراء العينين، نحيفة العنق، ولها صوت رخيم شجيّ وراحتان صغيرتان وأصابع رقيقة ناعمة لكن ثدييها كانا ممتلئين وقويّين وفخذيها كانتا جميلتين. في معظم الأوقات كانت أسارير وجهها جديّة ورصينة ومتزنة إلا أن هذه الأسارير لم تكن تتغيّر فجأة عندما تضحك: كانت لها ابتسامة جانبية، ابتسامة متسرعة نوعا ما، تبدو كغمزة خفيفة، كمن تنزل إلى أعماق أفكارك وترى هناك كلّ الأسرار وتغفر لك. إبطاها كانا حليقين لكن حلاقتهما لم تكن متساوية، وكأنها ظللت أحدهما بالقلم الذي تستعمله للرسم. عندما كانت تقف، كانت أورنا تضع، دائماً، ثقل كلّ جسمها على رجلها اليسرى، وبذلك كانت، دون أن تنتبه، تقوّس فخذها اليمنى. كانت تحبّ أن تقول رأيها في الفن والوحي وقد وجدت فيّ مستمعا مخلصاً.

*

بعد مرور عدة أيام تجرّأت فتزوّدت بمجلد قصائد «أوراق العشب» للشاعر الأمريكي والت وايتمان بترجمة هلكين (والذي حدّثت أورنا عنه في الأمسية الأولى)، وجئت وطرقت باب غرفتها في المساء، وهذه المرة- لوحدي. قبل عشر سنوات تقريبا كنت أركض هكذا إلى شارع تسفانيا، إلى بيت المعلمة زيلدا. كانت أورنا ترتدي فستانا طويلا مع صفّ من الأزرار الكبيرة من الأمام. كان الفستان بلون البيج الفاتح إلا أن ضوء المصباح الكهربائي بعد معالجة ستار «الرافيا» البرتقالي المحيط به أضفى عليه صبغة

تميل إلى الاحمرار. عندما وقفت أورنا بيني وبين المصباح الكهربائي ارتسمت الخطوط الخارجية لفخذيها وسروالها الداخلي من وراء قماش فستانها. على الفونوغراف وضعت هذه المرة أسطوانة موسيقى مسرحية بير جينت للكاتب النرويجي إبسن التي ألفها الملحن النرويجي إدوارد غريغ. جلست بجانبي على السرير المغطّى بشرشف شرقيّ ووضّحت لي ما هي المشاعر التي يعبّر عنها كلّ مقطع من مقاطع العمل الفني. أمّا أنا، من جهتي، فقرأت لها من كتاب «أوراق العشب» وبالغت في تقييمي لتأثير والت وايتمان على أشعار ع. هيلّيل. قشّرت لي أورنا حبات اليوسفي أسقتني ماء باردا من جرة فخار مغطاة تمتمت ووضعت راحة يدها على ركبتي، كي تقول لي بأن أتوقّف لحظة عن الكلام، وقرأت لي قصيدة حزينة كتبها أوري تسفي غرينبرغ ولكن ليس من مجلد «شوارع النهر» الذي أحب والدي أن يقرأ منه عن ظهر قلب بحماس شديد بل من كتيب لم أعرفه وله اسم غريب، «أنكرؤون على قطب العصبية». بعد ذلك طلبت مني أن أحدّثها شيئا عن نفسي وأنا لم اعرف ماذا وقلت هناك أشياء كثيرة مرتبكة حول فكرة الجمال، حتى عادت أورنا ووضعت راحة يدها على قفا رأسي وقالت كفى، تعال نكون ساكتين بعض الوقت؟ في العاشرة والنصف قمت وودعتها وخرجت لأتجوّل تحت ضوء الكواكب بين المخازن والأقنان أشعر بالسعادة لأن أورنا دعتني إلى زيارتها مرة أخرى، في إحدى الأمسيات بعد غد أو حتى غدا.

بعد مرور أسبوع أو أسبوعين تقريبا انتشرت إشاعة في الكيبوتس وهناك حتى من سموني «عجل أورنا الجديد». كان لها بيننا عدد من المعجبين المعاكسين، أو من كانت تتحدث معهم، ولكنّ أحداً منهم لم يكد يصل عمر ستة عشر عاما ولا أحد منهم يعرف أن يقرأ عن ظهر قلب، مثلي، من أشعار «فرحة الفقراء» و«برق في الصباح». مرة أو مرتين وقف أحد المعجبين بها وانتظر في الظلام بين أشجار الكينا أمام العمارة: انتظر حتى أخرج من غرفتها. وأنا بلسعة غيرة، تأخرت في ظل سياج النباتات حيث استطعت أن أشاهده يدخل إلى الغرفة التي فيها قبل قليل صنعت لي أورنا قهوة ثقيلة بالغلاية وقالت لي «غير طبيعي» كما سمحت لي أن أدخّن معها سيجارة على

الرغم من أنني ما زلت فتى كثير الكلام في الصف الحادي عشر. وقفت هناك حوالي ربع ساعة كظل بين الظلال، حتى أطفئ الضوء.

*

ذات مرة في ذلك الخريف، جئت إلى غرفة أورنا في الساعة الثامنة مساء ولم أجدها، ولكن بما أنّ ضوء مصباحها تسرّب إلى الخارج برتقالياً خافتاً، من خلف الستائر المغلقة، وبما أن الباب لم يكن مقفلا، دخلت وجلست على الحصيرة لكي انتظرها. انتظرت ساعة طويلة، حتى قلّت أصوات الرجال والنساء من الشرفات وبدلا منها تزايدت أصوات الليل، بكاء بنات آوى ونباح الكلاب وخوار البقر من بعيد وسقسقة رشاشات المياه وجوقات الضفادع والصراصير. فراشتان من فراش الليل اصطدمتا بين المصباح والستار البرتقالي - الأحمر الذي يخيّم عليه. الأشواك التي في المزهرية- خرطوشة القذيفة ألقت بنوع من الظلال المتكسّرة على المسطبة وعلى الحصيرة. نساء غوغين اللواتي على الحيطان، والرسوم التخطيطية العارية التي رسمتها أورنا بقلمها، أثارت بي فجأة نوعا من التخمين الخافت كيف يبدو جسمها بدون ملابس في الحمام وكيف هنا على السرير في الليالي بعد انصرافي، ليست وحيدة، ربما مع يؤاف أو مع مندي مع أنّهُ يوجد لها في مكان ما زوج ضابط في الجيش النظامي.

دون أن أنهض من مكاني على الحصيرة أزحت للحظة الستارة التي تغطي خزانة ملابسها فرأيت ملابس بيضاء وملوّنة وقميص نوم واحد من النايلون، شبه شفاف، بلون الخوخ. وأنا ما زلت مضطجعا على ظهري على الحصيرة تسللت أصابعي لكي تلمس هذا الخوخ ويدي الأخرى كانت ملزمة بأن تتسلل إلى تلة بنطلوني وأغمضت عيناي عرفت أنني مجبر على أن أتوقف، مجبر فعلا على أن أكفّ ولكن ليس فوراً بعد قليل فقط. وأخيرا، قبيل النهاية، توقفت وبدون أن أبعد أصابعي عن الخوخ وكف يدي عن التلة فتحت عيني فرأيت أن أورنا دخلت دون أن أشعر بها ووقفت حافية تنظر إليّ من عند طرف الحصيرة، معظم وزن جسمها يميل على رجلها اليسرى ولذلك كانت خاصرتها اليمنى مرتفعة قليلا وإحدى يديها تستريح على هذه الخاصرة

وبيدها الأخرى لامست بلطف كتفها من تحت شعرها المسترسل. هكذا وقفت ونظرت إليّ وابتسامتها الدافئة الصبيانية ارتسمت على شفتيها وعيناها الخضراوان ضحكتا إليّ كمن تقولان، أنا أعرف، أنا أعرف انك بكل تأكيد كنت ترغب جدّاً في أن تموت في الحال، واعرف انك كنت أقلّ ذهولا لو وقف هنا الآن مكاني قاتل يوجّه إليك مسدسا رشاشا. كم اعرف أنك تعيس الآن بسببي حتى حضيض التعاسة، ولكن لماذا تكون تعيسا؟ انظر إليّ فأنا لم أفزع فعلا مما رأيت عندما دخلت إلى الغرفة وأنت يكفيك شعورا بالتعاسة.

لشدة الخوف واليأس أغمضت عينيّ وتظاهرت بالنّوم، فربما، بهذه الطريقة تصدّق أورنا أنّ شيئا لم يكن، وإذا كان فهو من خلال الحلم فقط وإذا كان من خلال الحلم فإنّ معنى ذلك أنّني مذنب وسافل ولكن أقلّ بكثير مما لو أنّني فعلت ذلك مستيقظا.

قال أورنا: لقد سببت لك الإزعاج. ولم تضحك عندما قالت ذلك، بل أضافت وقالت، أرجو أن تسامحني. أنا متأسفة، وفجأة وبنوع من البهجة، صنعت بخاصرتيها حركة رقص معقّدة وقالت لا، إنها في الحقيقة غير متأسفة، لأنّه كان من الممتع لها أن تنظر إليّ، لأنّ وجهي في تلك اللحظات بدا كما في ألم وفي تنوّر في آن واحد. وغير ذلك لم تقل شيئا، بل بدأت تفك أزرارها من الزر العلوي وحتى الخاصرتين، ووقفت أمامي كي أنظر إليها وأكمّل. ولكن كيف أستطيع. غمّضت عينيّ بقوة بعد ذلك فتّحت وأغمضت ثم فتحت عينيّ وبعدها نظرت إليها وابتسامتها الفرحة تحثّني على ألا أخاف، لا شيء في هذا، مسموح لك، وصدرها القويّ، هو الآخر يحرّضني، بعد ذلك نزلت على ركبتيها على الحصيرة إلى جانبي من الجهة اليمنى ثمّ أخذت راحة يدي وأبعدتها عن الخيمة التي انتصبت في بنطلوني ووضعت بدلا منها راحة يدها وبعدها فكّت وفتحت وحرّرت وإذا بهالة من الشرارات الحادة مثل مطر غزير من النيازك يسري على امتداد جسمي، عدت إلى إغلاق عينيّ ولكن ليس قبل أن شاهدتها تشمّر وتنحني ثم تأتي من فوقي ثم انثنت ثم أخذت كلتا يديّ وأرشدتهما إلى هنا وهنا وشفتاها لامستا جبيني ثم لامستا عينيّ المغمضتين بعد ذلك أمسكت بيدها وغطّستني، غطّستني كلّي وفي

لحظة قصفت في أعماق جسمي عدة رعود لطيفة تلاها في الحال بريق حادّ، وبسبب الحيطان الدقيقة كان على أورنا أن تسد فمي بقوّة وعندما ظنّت أن ذلك كافٍ رفعت أصابعها كي يتسنى لي التقاط أنفاسي ولكنها كانت مضطرة إلى أن تسرع إلى إغلاق شفتيّ بقوة لأنّني لم أكن قد اكتفيت بعد. وبعد ذلك تبسّمت وعانقتني ولاطفتني كما تلاطف طفلاً، ثم عادت وقبلتني على جبيني ولفّت رأسي بشعرها وأنا والدموع تملأ عيني بدأت أقابل قبلاتها بقبلات- الشّكر الخجولة على وجهها وعلى شعرها وعلى ظاهر راحة يدها وأردت أن أقول شيئا ولكنّها لم تفسح لي المجال حيث وضعت يدها على فمي حتى أنّي تنازلت عن الكلام.

بعد ساعة أو ساعتين أيقظتني وقد طلب جسمي منها المزيد ولكنني امتلأت خجلا وحياء، ولكنّها لم تبخل عليّ بل همست في أذني كمن تبتسم قائلة تعال خذ، وهمست تتمتم أي «فحل» صغير، ورجلاها كانتا مسفوعتين باللون البني- الذهبي وعلى فخذيها كان هناك زغب ذهبيّ ناعم لا يكاد يُرى، وبعد أن عادت وخنقت براحة يدها نافورة صيحاتي أنهضتني وساعدتني على إغلاق أزرار ملابسي وصبّت لي كأس ماء بارد من جرة- الفخار المغطاة بقطعة من الشاش الدقيق الأبيض، وعانقت ولاطفت رأسي وشدّته إلى صدرها وقبلتني مرة أخرى أخيرة، وهذه المرة، عند طرف أنفي، بالذات، وسرّحتني إلى برودة الصمت الكثيف صمت الثالثة قبيل فجر ليلة خريفية. ولكن عندما جئت إليها في الغد لأعتذر لها وأطلب منها أن تسامحني أو متمنياً تكرار المعجزة. قالت: انظروا، انه شاحب مثل الطبشورة، ما الذي حدث لك! تعال اشرب كأس ماء. وأجلستني على كرسيّ وقالت لي تقريبا ما يلي، انظر، لم تحدث أي جريمة، ولكن من الآن فصاعدا أنا أريد أن تسير الأمور كما كانت قبل أمس، حسناً؟

كان من الصعب عليّ أن أحقّق لها رغبتها، وبكل تأكيد شعرت هي أيضاً بذلك، وهكذا رَمِدت أمسياتنا الشعرية على نغمات شوبرت وغريغ وبرامس من على الفونوغراف ولكنها بعد مرة أو مرتين توقفت ثمّ انقطعت نهائيّاً، ولم يبقَ إلا ابتسامتها تستريح على وجهي من بعيد عندما كنّا نتقابل في الطريق

وكانت تلك ابتسامة مليئة بالبهجة والاعتزاز والمحبة: ليس كمحسنة يبشّ وجهها في وجه من أحسنت إليه بل مثل فنانة تنظر في لوحة قامت برسمها، ومع أنها في هذه الأثناء قد توجهت إلى «لوحات» أخرى إلا أنها ما زالت راضية عن صنع يديها وما زالت تعتزّ بأن تتذكر وسعيدة بأن تعود لتراه من بعيد.

*

ومن ذلك الوقت شعرت بالسعادة بصحبة النساء. مثلما كان جدي أَلِكْسَنْدِر. ومع أنني على مرّ السنين تعلمت معرفة القليل وأحياناً اكتويت أيضاً بنارهن. إذ ما زلت- في ذلك المساء في غرفة أورنا - ما زال يخيّل إليَّ دائما أنّه في يد المرأة موجودة كل مفاتيح الشهوة. التعبير «منحته من إحسانها» يبدو لي صحيحاً وصائباً أكثر من التعابير الأخرى. إحسان النساء يثير بي، بالإضافة إلى الشهوة والانفعال، موجة من اعتراف صبيانيّ بالجميل مع الرغبة لأن أنحني أمامها: أنا أصغر من أن أكون جديرا بكل هذه العجائب والمعجزات. فأنا على قطرة واحدة ووحيدة كنت لأشكركِ بدهشة وانفعال، فكيف وقد منحتِني البحر وما فيه. ودائما كالفقير المتسول على الأبواب: إذ أن المرأة دائما اكبر وأوسع مني وبيدها فقط الخيار أن تغدق أو ألا تغدق.

وربما غيرة خافتة خفية أيضا من جِنْسَانِيَّة المرأة والتي هي غنية رقيقة ومعقدة أكثر بكثير، كفضل الكمان على الطبل. أو من أي صدى ذاكرة أولية لبداية أيام حياتي: ثدي مقابل سكين. إذ فور مجيئي إلى العالم انتظرتني عند المدخل امرأة سببت لها في الوقت نفسه ألماً شديدا وقد قابلتني بإحسان رقيق،. إحسان مقابل إساءة، وقدمت لي ثديا. أما جنس الذكور، بالمقابل، فقد كمن لي فعلا عند المدخل وبيده سكين المطهر.

*

كانت أورنا امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريبا، أكثر من ضعفَي عمري في تلك الليلة. وكمن تنثر نهرا كاملا من الحجارة الكريمة الأرجوانية والقرمزية والسماوية والكثير من اللؤلؤ أمام خنزير صغير لا يعرف ماذا يفعل بها وكل ما فعله اخذ منها وبلع دون أن يمضغ حتى كاد يختنق من

كثرة الخير. بعد عدة أشهر تركت عملها في الكيبوتس. لم أعرف إلى أين ذهبت. بعد سنوات وصل إلى مسامعي بأنها تطلّقت من زوجها وتزوجت من جديد، وخلال فترة معينة كانت تكتب زاوية ثابتة في إحدى المجلات النسائية الأسبوعية. وها أنا ذا، منذ فترة، وأنا في أمريكا، بعد محاضرة، وقبل حفل استقبال، من بين دائرة مكتظة من السائلين والمتجادلين أشرقت عليّ أورنا فجأةً، خضراء العينين، متوهّجة، اكبر بقليل مما كانت عليه في أيام فتوتي، بفستان أزرار فاتح اللون، لمعت عيناها لي بابتسامة من تعرف كل الأسرار، ابتسامة الإغراء- المواساة- الشفقة الخاصّة بها، ابتسامة تلك الليلة، وأنا كالمسحور توقفت في وسط الجملة وشققت طريقي إليها، أبعدت جميع الواقفين في طريقي، دفعتُ جانباً حتى تلك العجوز السارحة والتي ساقتها أورنا أمامها على كرسي متحرك، أمسكت بها، وضممتها إلى صدري ورددت اسمها مرّتين وحتى قبلتها بحرارة على شفتيها. تحررت مني بحركة لطيفة، ولكن دون أن تتوقف عن غمري بابتسامة إحسانها التي جعلت وجهي يحمرّ خجلا وكأنني شاب صغير، أشارت على الكرسي المتحرك وقالت باللغة الانجليزية: هذه أورنا. أنا ابنتها. للأسف أمّي لا تستطيع الكلام. كما أنها لا تتذكر جيدا أيضاً.

٦٠

قبل أسبوع من موت أمّي تحسّنت حالها فجأة. أقراص النوم الجديدة التي وصفها لها الطبيب الجديد عملت المعجزات في ليلة واحدة. قبيل المساء بلعت أمّي قرصين من هذه الأقراص، وفي الساعة السابعة والنصف مساء نامت بملابسها على سريري الذي تحول إلى سريرها، نامت تقريبا يوما كاملا حتى الخامسة بعد الظهر من اليوم التالي، وعندما استيقظت قامت واغتسلت وشربت وربما عادت وبلعت قبيل المساء قرصا أو قرصين من الأقراص الجديدة، هذه المرة أيضاً نامت في السابعة والنصف مساء وبقيت نائمة الصباح، وفي الصباح عندما استيقظ والدي وراح ليحلق وليحضّر عصير البرتقال يسخّنه قليلا ليصبح فاتراً، قامت أمّي ولبست روباً ومريول مطبخ وتمشّطت وحضّرت لنا وجبة افطار حقيقية، كما قبل مرضها، بيض مقلي بصفار سليم ومقلوب وسلطة خضراوات ومرطبانات لبنة وصينية مع خبز مقطّع التي كانت أمّي تحسن تقطيعه أفضل حيث تأتي قطعها أدق من قطع أبي والتي كانت تسميها ضاحكة «قطعا خشبية».

مرة أخرى جلسنا نحن الثلاثة في الساعة السابعة صباحا على كراسي القشّ الصغيرة حول طاولة المطبخ المكسوة بالمشمّع المزيّن بالورود، وحكت لنا أمّي عن تاجر فرو غنيّ كان يعيش في مدينتها، في «روفنو»، يهودي ماكر بارع حتى من باريس وروما كان تأتيه الرسل لشراء نوع نادر من الفرو كان يعرف باسم الثعلب الفضي، فرو كان يلمع أمام ناظريك كلون الصقيع في ليلة مقمرة.

وقد حدث ذات يوم فجأة أن تحوّل هذا التاجر إلى نباتي صارم وحازم. وضع هذا التاجر في يد عمه (والد زوجته) وشريكه جميع تجارة الفرو المتشعبة. بعد فترة زمنية معينة أقام له سقيفة صغيرة في إحدى الغابات وهجر بيته وسكن في السقيفة لأنه حزن حزنا شديدا على كلّ آلاف الثعالب التي قتلها أولئك الذين أرسلهم لاصطيادها من أجل صناعة الفرو. وفي النهاية اختفى الرجل كلية. وعندما كنت أنا وأخواتي نريد أن نخوّف بعضنا كنا نربض ثلاثتنا على السجادة في العتمة ونبدأ نصف كلّ واحدة في دورها كيف أن ذلك الرجل الذي كان ذات مرة تاجر فرو غنيّاً، قد أصبح الآن يتسكع في الغابات عاريا وربما أنّه مصاب بداء الكَلَب وهو يصدر عويلا يشبه عواء الثعلب تقشعر له الأبدان، وكل من التقى في الغابة بالرجل- الثعلب كان شعره يشيب فورا من شدة الخوف والفزع.

والدي الذي لم يحبّ هذا النوع من القصص كان يقطب أسارير وجهه ويسأل، عفوا ماذا يمكن أن تكون هذه؟ قِصَّةٌ رَمْزِيَّة؟ أم معتقدات خرافية؟ أم مجرد عبث أطفال مبهم؟ ولكن لأنه كان مسرورا جدّاً بالتحسّن الذي طرأ على حالة أمّي حرك يده بحركة استخفاف قائلا:

«ليكن.»

حثّتنا أمّي كيلا نتأخّر، والدي عن عمله وأنا عن مدرستي. عند باب المنزل عندما انتعل أبي حذاءه الفوقي فوق حذاءه العادي وأنا صارعت الجزمة صدر عني فجأة عواء ثعلب طويل، يتجمد لها الدم في العروق، حتى أن أبي فزع وارتعش كله وفي الحال عاد إلى صوابه ورفع يده ليضربني كفّاً لكنّ أمّي توسطت بيننا وضمتني إلى صدرها وهدّأت من روعي وقالت لكلينا، «هذا كله بسببي. سامحاني.» كانت تلك آخر مرة تحتضنني فيها.

في السابعة والنصف تقريبا خرجت أنا ووالدي، لم نتبادل الحديث ولو بكلمة واحدة إذ غضب أبي عليّ بسبب عواءة- الكَلَب تلك. بالقرب من بوابة ساحتنا توجّه هو إلى اليسار باتجاه بناية التيراسانطة وتوجهت أنا إلى اليمين باتجاه مدرسة «تَحْكيموني».

*

عندما عدت في ذلك اليوم من المدرسة وجدت أمّي ترتدي تنورتها ذات اللون الفاتح، وذات الصفين من الأزرار، وكنزة صوف بألوان الأسطول. بدت لي جميلة ومليئة بالحيوية والشباب. كان وجهها جيدا وكأن كل أيام مرضها امحت عنها في ليلة واحدة. طلبت مني أن أضع حقيبتي المدرسية وأن أبقى لابساً معطفي، كما لبست هي الأخرى معطفها وكانت مفاجأة لي عندما قالت:

«لن نتناول، اليوم، غداءنا في البيت. لقد قررت أن أدعو الرجلين اللذين في حياتي ليأكلا على حسابي وجبة الغداء، اليوم، في المطعم. ولكن والدك حتى الآن لا يعرف شيئا. هل نعملها مفاجأة له؟ تعال بنا الآن نذهب أنا وأنت للتجوّل قليلا في المدينة، وبعد ذلك نذهب إلى بناية التيراسانطة ونسحبه من هناك بالقوة كما يسحبون عثّ الكتب الهمّاز اللماز من داخل ركام غبار كتبه، ونذهب ثلاثتنا لتناول الطعام في مكان لن أكشف لك عن اسمه: كي تبقى أنت أيضاً في توتّر قليل.»

لم أعرف أمّي: صوتها لم يكن كما عهدته دائما بل كان سعيدا ومرتفعا، وكأنها تقوم بمراجعة دورها في مسرحية مدرسية، صوت امتلأ بالنور والدّفء وهو تقول: «تعال بنا الآن نذهب أنا وأنت» ولكنه ارتعش قليلا عند قولها «عثّ الكتب الهمّاز اللماز» وعند قولها: «ركام غبار كتبه»؛ صوت أثار بي، للحظة، فزعا خافتاً. ولكن سرعان ما أخلى الفزع مكانه لبهجة المفاجأة والسعادة بانشراح صدرها وعودة أمّي إلينا.

*

لم يعتد والداي على تناول الطعام في المطاعم، مع أننا، في غير قليل من الأوقات، كنا نلتقي مع أصدقائهما في المقاهي في شارع يافا أو في شارع الملك جورج.

في إحدى المرات، في سنة خمسين أو إحدى وخمسين عندما كنا نحن الثلاثة عند الخالات في تل أبيب، خرج والدي عن طوره على غير عادته، وفي اليوم الأخير من الزيارة، مباشرة قبيل عودتنا إلى القدس، أعلن والدي نفسه، فجأة، «البارون روتشيلد ليوم واحد» ودعا الجميع: أختيّ أمّي

وزوجيهما والابن الوحيد لكل واحدة منهما، إلى وجبة في مطعم «هموزيج» الموجود في شارع ابن يهودا عند التقائه بشارع شالوم عليخم. جهّزوا لنا هناك مائدة لتسعة ضيوف. جلس أبي على رأس المائدة بين نسيبتيه وقد رأى من المناسب ألا يُجلسنا جميعا بحيث لا تجلس أي واحدة من الأخوات الثلاث بجانب زوجها وألا يجلس أي واحد منا نحن الأولاد بين والديه، وكأنه كان مصمما هذه المرة على خلط جميع الأوراق. العم تسفي والخالة بوما كانا كثيري الريبة ولم يدركا حتى النهاية ما هي غاية المضيف، وبكل تأكيد لم يرغبا في أن يذوقا مع أبي كأس بيرة بيضاء لأنهما لم يكونا معتادين على شربها، كما أنهما لم يشعرا بالارتياح. لذلك فقد تنازلا عن حقهما في الكلام وقررا أن يبقيا المنصة كلّها لوالدي. أمّا هو، من جانبه، فقد شعر، على ما يبدو، بأنّ المخطوطات التي اكتشفت في صحراء يهودا هي بكل تأكيد الموضوع المستعجل والمثير جدّاً في نظر جميع الجالسين حول المائدة. ولذلك بدأ محاضرة مفصّلة طوال وقت تناول الشوربة والوجبة الرئيسية، حول مدلول المخطوطات التي اكتشفت في مغارة وادي قُمران وحول الاحتمال بوجود كنوز أخرى مطمورة بين شقوق صخور الصحراء، لا تقدّر بثمن، تنتظر من يكتشفها. حتى تدخّلت أمّي التي جلست بين العمين تسفي وبوما وقالت بلطف:

«ربما يكفي لهذه المرة، يا آريه؟»

أدرك والدي وتنازل، ومن هذه اللحظة وحتى نهاية الوجبة توزّع الحديث إلى عدة محادثات محلية. ابن عمي الكبير يجئال طلب الإذن وأخذ ابن عمي الصغير إفرايم إلى شاطئ البحر المجاور. بعد عدة لحظات تنازلت أنا أيضاً عن رفقة البالغين وخرجت من مطعم «هموزيج» للبحث عن شاطئ البحر.

*

ولكن من كان يتوقّع أن تقرر أمّي، بالذات، المبادرة للذهاب إلى المطعم؟ أمّي التي تعوّدنا على رؤيتها جالسة، تقريبا طوال النهار والليل، على كرسيّها تحملق في الشباك دون أي حركة؟ أمّي التي قبل عدة أيام أخليت

لها غرفتي وهربت من صمتها لكي أنام إلى جانب أبي على سرير الزوجيّة؟ جميلة جدّاً وصاحبة ذوق رفيع كانت ذلك الصباح في القدس بكنزتها الصوف ذات ألوان الأسطول، وبتنورتها ذات اللون الفاتح، وبجوارب النايلون مع الدرزة من الخلف وبحذاء الكعب العالي، حتى، ونحن نسير في الشارع، أدار رجال غرباء وجوههم لينظروا إليها. أمّا معطفها فقد حملته مطوياً على ذراعها، وشبّكت ذراعها الأخرى بذراعي خلال سيرنا:

«أنت ستكون «الكافلير» خاصتي اليوم.»

وكمن تأخذ على عاتقها أيضاً وظيفة أبي الدائمة أضافت قائلة:

« «كافليير» معناها فارس: «شيفال» في اللغة الفرنسية تعني فرسا و«شيفاليه» - خيّالا فارسا.» ثم قالت:

«هناك عدد غير قليل من النساء ينجذبن إلى الرجال المستبدين. كما الفراشات إلى النار. وهناك نساء هن بحاجة ماسة ليس إلى بطل ولا حتى إلى عاشق هائج بل إلى أكثر من كل هذا إلى صديق. لتتذكر ذلك عندما تكبر: عن النساء اللواتي يحببن المستبدين- ابتعد، ومن بين أولئك اللواتي يبحثن عن رجل- صديق حاول أن تعثر ليس على أولئك اللواتي يحتجن إلى الصديق لأنهنّ يشعرن بالفراغ بل على أولئك اللواتي يستمتعن أيضاً في أن يملأنك. وتذكّر بأنّ الصداقة بين المرأة والرجل هي شيء ثمين ونادر أكثر بكثير جدّاً من الحبّ: الحب في الحقيقة هو شيء ثخين جدّاً وحتى غليظ وثقيل بالمقارنة مع الصداقة. الصداقة تحتوي بداخلها أيضاً على صفة رقة النفس ورهافة الإحساس، وعلى الإصغاء والكرم، وعلى إحساس متطور بالاعتدال والنزاهة.»

«حسناً،» قلت. لأنّني أردتها أن تتوقف عن الكلام عن أمور لا تخصّني ولكي نتكلم عن أمور أخرى. منذ عدة أسابيع لم نتكلم وكان من غير المجدي أن نضيّع وقت الطريق هذا، الذي كان لنا وحدنا أنا وهي. عندما اقتربنا من مركز المدينة عادت وشبكت ذراعها بذراعي، ثم تبسمت فجأة وقالت:

«ماذا سيكون رأيك في أخ صغير؟ أو أخت؟»

ودون أن تنتظر جوابا، أضافت قائلة بنوع من الحزن المرح، أو غير المرح بل مغلف بابتسامة لم أرها بل سمعتها بصوتها عندما قالت لي:

«في أحد الأيام، عندما تتزوّج وتكون صاحب عائلة، أنا اطلب منك جدّاً ألا تأخذ أي شيء من حياتنا الزوجية أنا ووالدك كنموذج تقتدي به.»

كلماتها هذه لا أستعيدها الآن من الذاكرة، كما استعدت قبل تسعة عشر سطراً؟؟ أقوالها عن الحبّ والصداقة. بل، إنّ طلبها هذا، بألا آخذ حياة والديّ الزوجية قدوة لي، أذكره تماما كما قيل لي كلمة بكلمة. كما أنّني أذكر صوتها المبتسم الآن بشكل دقيق. كنا في شارع الملك جورج أمّي وأنا، متشابكَي الذراعين مررنا من أمام المبنى الذي يسمى «طليتا- قومي» في طريقنا إلى بناية التيراسانطة لكي نخرج والدي من مكان عمله. كانت الساعة الواحدة والنصف ظهراً. نسمة ريح باردة ممزوجة ببعض قطرات من المطر هبت من جهة الغرب. بسبب هذه الريح أغلق عابرو السبيل في الشارع مظلاتهم لكيلا تحطمها الريح. أمّا شمسيتنا فلم نكلف نفسينا عناء فتحها. متشابكَي الذراعين سرت أنا وأمّي في المطر، مررنا أمام «طليتا- قومي» ومن أمام «بناية فرومين» التي كانت المقر المؤقّت للكنيست ثم مررنا عند أسفل «بيت همعلوت». كان ذلك في بداية الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني ١٩٥٢. خمسة أيام أو أربعة قبل موتها.

*

وعندما تعاظم نزول المطر اقترحت أمّي، وما زال في صوتها شيء من الدعابة:

«تعال بنا ندخل إلى أحد المقاهي لبعض الوقت، فإن والدنا لن يهرب.»

جلسنا حوالي نصف الساعة في مقهى أشكنازي عند مدخل حي رحافيا في شارع كيرن كيّمتْ مقابل بناية الوكالة اليهودية حيث فيها كان ديوان رئيس الحكومة. حتى توقّف المطر. في هذه الأثناء أخرجت أمّي من حقيبة يدها علبة تجميل صغيرة مع مرآة صغيرة مستديرة ومشط، أصلحت شعرها وخدّيها. وبداخلي ثار مزيج من المشاعر والأحاسيس: اعتزاز بجمالها وفرحة

بشفائها والمسئولية الملقاة على عاتقي، بالمحافظة عليها من أي ظل ربما خمّنت مجرد وجوده. وإن لم أخمنه أيضاً، على أبعد حدّ، فقد شعرت- لا- لم أشعر بنوعٍ من عدم الارتياح الخفيف والغريب في جلدي. كما يستوعب الطفل أحياناً دون أن يعي أشياء موجودة خارج نطاق إدراكه، ويشعر بها ويفزع دون أن يعرف ما هي:

«هل أنت بخير، يا أمّي؟»

طلبت لنفسها فنجان قهوة ثقيلة، ولي طلبت فنجان قهوة مع الحليب مع أنهما لم يسمحا لي بالمرة لأنّ القهوة ليست للأولاد، وطلبت لي بوظة بمذاق الشوكولاطة مع أنّه كان معروفا عندنا بأنَّ البوظة تسبب الرشح وآلام الحنجرة، أضف إلى ذلك أننا في يوم شتويّ بارد. وكل ذلك قبيل وجبة الغداء. من منطلق شعوري الكبير بالمسئولية شعرت بالحاجة إلى الاكتفاء بملعقتين أو ثلاث ملاعق من البوظة، وأن أسأل أمّي بين الحين والآخر إذا ما كانت تعرّض نفسها للبرد بجلوسها هنا؟ وإذا ما كانت تشعر بالتعب؟ أو الدوار؟ إذ أنك خرجتِ لتوّك من المرض؟ واحذري جدّاً يا أمّاه عند دخولك إلى المنافع لأنَّ المكان مظلم وتوجد هناك درجتان. امتلأ قلبي بالفخر والخطورة والخوف. وكأننا ما دمنا هنا في مقهى مدخل حي رحافيا فهي ستكون بمثابة القاصرة التي تحتاج إلى صديق كريم وأنا سأكون كافلييرها. أو ربما أكون والدها:

«هل أنت بخير، يا أمّي؟»

*

عندما وصلنا إلى بناية التيراسانطة التي فيها يوجد عدد من أقسام الجامعة العبرية منذ سُدّت الطريق في حرب الاستقلال إلى الحرم الجامعي في جبل المشارف، سألنا عن مكان وجود قسم الصحف ثم صعدنا الدرج إلى الطابق الثالث. في يوم شتويّ مثل هذا زلّت قدم حنة في روايتي «ميخائيلي» على هذه الدرجات نفسها، وربما التوى مفصل كاحلها، والطالب الجامعي ميخائيل حماها وأمسك بمرفقها وقال لها فجأة إنّ كلمة «كاحل» جميلة في نظره. ربما مررت أنا وأمّي عن ميخائيل وحنّة على ذلك الدرج ولم ننتبه

إليهما حتى. ثلاث عشرة سنة فصلت بين ذلك اليوم الشتوي يوم كنت مع أمّي في بناية التيراسانطة وبين الشتاء الذي بدأت فيه كتابة كتاب «ميخائيل خاصّتي».

عند دخولنا إلى قسم الصحف شاهدنا أمامنا مدير القسم، الدكتور بيفيرمان الرقيق وطيّب القلب والذي رفع عينيه عن كوم الأوراق التي أمامه على مكتبه ثم بشّ في وجهينا وأشار إلينا بكلتي يديه تفضلا، تفضلا، ادخلا، من فضلكما. كما شاهدنا والدي بظهره إلينا. وخلال لحظة لم نتعرّف عليه، لأنه ملتف بروب رمادي خاصّ بأمناء المكتبات غايته وقاية ملابسهم من غبار الكتب. كان يقف على الدرجة الأخيرة لسلّم صغير، ظهره إلينا وكل فكره منصبّ على ملفات كرتون كبيرة كان يتناولها من مكانها على رفّ عالٍ واحداً واحدا، يتصفحه ثمّ يعيده إلى مكانه، يتصفّح ويعيد، ثم يتناول ملفاً آخر وملفا آخر ثم آخر لأنه على ما يبدو لم ينجح في العثور على ما يبحث عنه.

طوال ذلك الوقت لم ينبس الدكتور بيفيرمان طيب القلب، ببنت شفة، بل استرخى على كرسيه خلف طاولة مكتبه الكبيرة وقد اتسعت ابتسامته الرقيقة أكثر فأكثر، كمن يستمتع، كما أن عاملين أو ثلاثة عاملين آخرين من عاملي قسم الصّحافة توقّفوا عن العمل وضحكوا وهم ينظرون إلينا والى ظهر أبي ولم يقولوا شيئا، كمن ينضمون إلى لعبة الدكتور بيفيرمان وينتظرون بفضول مرح ليروا متى سيشعر الرجل بضيفيه اللذين يقفان عند الباب وينظران إلى ظهره بصبر، ويد المرأة الجميلة تستريح على كتف الولد؟

من مكانه على آخر درجة من درجات السلم، نظر أبي إلى مدير القسم وقال «اسمح بدقيقة من فضلك، دكتور بيفيرمان، يوجد هنا على ما أعتقد ـ»، وفجأة لاحظ ابتسامة المدير الواسعة وربما فزع قليلا لأنه لم يفهم لماذا يثير هو الآن الضحك، وفي تلك الأثناء قادت نظرات الدكتور بيفيرمان نظرات أبي من خلف نظارته من على طاولة المكتب إلى الباب، وعندما شاهدنا خيّل إليّ أنّ وجهه قد شحب لونه. أعاد إلى الرفّ العلوي ملف الكرتون الكبير الذي كان يحمله بكلتي يديه، ثمّ نزل بحذر عن السلم، ونظر إلى هنا وهناك ورأى جميع العاملين يبتسمون، وكأنه لم يكن له مفرّ تذكّر أن يبتسم هو

الآخر ثمّ قال لنا «أيّ مفاجأة! عظيمة!»، وبصوت منخفض أكثر سأل إذا كان كلّ شيء على ما يرام أم حدث شيء، لا سمح الله؟

كان وجهه متوترا وقلقاً مثل وجه ولد في أوج حفل تقبيل لأولاد صفه رفع عينيه واكتشف، فجأة، أنّ والديه يقفان عند الباب ويرمقانه بنظراتهما الصارمة، ومن يدري كم من الوقت كانا يقفان بهدوء وينظران، وما الذي تمكنا من رؤيته.

في البداية، لشدة ارتباكه، حاول والدي، وكأنه عن دون قصد، أن يدفعنا قليلا، وبلطف، بكلتي يديه من مكاننا بجانب الباب، إلى الخارج، باتّجاه الممرّ، ونظر إلى الوراء وقال لجميع قسم الصحافة وبالذات للدكتور بيفيرمان «اسمحوا لي لعدة دقائق.»

ولكنه، بعد لحظة، تراجع: توقف عن دفعنا إلى الخارج وسحبنا نحن الاثنين إلى الداخل، إلى طاولة مدير القسم، وبدأ يقدمنا إليه، وتذكر ثم قال: «دكتور بيفيرمان، لقد سبق وتعرفت على زوجتي وابني.» وبذلك قام بتدويرنا وتقديمنا بشكل رسمي، إلى بقية عاملي قسم الصحافة، بقوله: «أقدم إليكم زوجتي فانيا وابني عاموس. طالب في المدرسة، عمره اثنتا عشرة سنة ونصف.»

عندما خرجنا نحن الثلاثة إلى الممرّ سأل والدي بذهول وبنوع من التوبيخ: «ما الذي حدث؟ هل والداي بخير؟ ووالداك؟ هل الجميع بخير؟»

هدّأت أمّي من روعه. لكن فكرة المطعم أثارت فيه شيئاً من التخوّف: إذ أن اليوم ليس عيد ميلاد أحد منا. تردد، ثم أراد أن يقول شيئا ولكنه تراجع، وبعد لحظة أخرى قال:

«بكل تأكيد، بكل تأكيد. ولم لا. سنذهب للاحتفال بشفائك يا فانيا أو على الأقلّ التحسّن الكبير الذي طرأ على وضعك الصحي تماما بين ليلة وضحاها. نعم. سنحتفل بكل تأكيد.»

أمّا وجهه وهو يقول ذلك لم يكن باشّاً منفرج الأسارير بل قلقا.

بعد ذلك، اختفت الغيوم عن وجه أبي فجأة، وقد امتلأ حماسا وحيوية، ضمّ إليه كتفي كلٍّ منّا، طلب وحصل من دكتور بيفيرمان إذنا

بتقصير يوم عمله، ثم ودّع عاملي القسم، وخلع روب أمناء المكتبات الرمادي ومنحنا جولة شاملة في عدد من أجنحة المكتبة، في القبو، في قسم المخطوطات النادرة، وكذلك أرانا ماكنة التصوير الجديدة وشرح لنا جيدا وهو يقدمنا بكل فخر لكل من صادفه في الطريق، كله انفعال مثل فتى يقدّم والديه المهمّين لإدارة مدرسته.

*

كان ذلك مطعما جانبيا لطيفا وشبه فارغ في أحد الأزقة التي بين شارع ابن يهودا وشارع شمّاي أو شارع هيلّيل تجدد هطول الأمطار تماماً في اللحظة التي دخلنا فيها إلى المطعم، قال أبي بأنّه يرى في ذلك مؤشّر خير، وكأنّ المطر تعوق وانتظر حتى وصلنا نحن فقط. وكأنّ السماء تبتسم لنا في هذا اليوم. وفورا صحّح نفسه:

«أي أنني كنت لأقول مثل لو أنني آمنت بالمعجزات ولو أنني آمنت بأنّ السماء تهتمّ بنا. ولكن السماء لا تبالي. ما عدا الهومو- سَبينس الكون كلّه لا مُبالٍ. وعمليا غالبية البشر هم غير مبالين. اللا- مبالاة في نظري هي العلامة الفارقة الأكثر بروزا للوجود كلّه.»

ثم عاد وصحّح نفسه:

«وبشكل عام، كيف تمكنت من القول عن السماء بأنها تبتسم لنا في حين أنها رمادية وحزينة اليوم وتهطل علينا وابلا من الأمطار؟»

قالت أمّي:

«لا. أنتما الاثنان تطلبان أولا لأنّني أنا المضيفة اليوم. وإنّه ليسعدني أن تطلبا لكما هذه المرة أغلى الوجبات في لائحة الطعام.»

إلا أنّ اللائحة كانت متواضعة، كما يليق بسنوات التقشّف والاعتدال. طلبت أنا ووالدي شوربة خضراوات وقطع كفتة دجاج مع بيريه بطاطا. ومثل شريك في مؤامرة سرية امتنعت عن إخبار أبي بأنني في الطريق إلى التيراسانطة سمحوا لي لأول مرة في حياتي أن أجرّب طعم القهوة. وسمحوا بتناول بوظة الشوكولاطة وأيضاً قبل وجبة الغداء، ومع أن اليوم هو يوم شتوي بارد.

حملقت أمّي في لائحة الطعام سويعة ثمّ وضعتها جانبا مقلوبة على الطاولة، وبعد أن عاد والدي وذكّرها استجابت وطلبت لنفسها صحن أرزّ أبيض. اعتذر والدي برقة للنادلة وشرح لها بأنّه كذا وكذا وبأنها أي أمّي لم تشف تماماً من مرضها. الأرزّ الذي قُدم لأمّي، ذاقته أمّي كمن تجبر نفسها: عبثت به قليلا ثم توقفت وطلبت لنفسها فنجان قهوة سوداء وثقيلة.

«هل أنت بخير، يا أمّي؟»

عادت النادلة إلينا مع فنجان قهوة لأمّي وفنجان شاي لأبي، وأمامي وضعت صحن «جيلي» أصفر رجراج. على الفور أخرج والدي، نافذ الصبر، حقيبة نقوده من جيب جاكيته الداخلي. ولكنّ أمّي أصرت على رأيها: أعد حقيبتك، من فضلك، إلى جيبك. اليوم، أنتما الاثنان ضيفاي. انصاع والدي لطلبها ليس قبل أن يحكي نكتة مصطنعة حول آبار النفط السريّة التي حصلت عليها، على ما يبدو، بالوراثة، ومنها، بكل تأكيد، تأتي ثروتها الجديدة وتبذيرها. انتظرنا، حتى يتوقف المطر. جلسنا أنا ووالدي ووجهاننا باتجاه المطبخ ومقابلنا كان وجه أمّي التي كانت تنظر من بين كتفينا إلى المطر العنيد عبر الشباك الذي يطل على الشارع. عن أي شيء تحدّثنا لا أتذكر، ولكنني أخمن أن أبي كان يسارع إلى صدّ وإبعاد كل صمت. ربما حدّثنا في تلك الأثناء عن معاملة الكنيسة المسيحية للشعب اليهودي أو أنّه استعرض على مسامعنا تاريخ النقاش المرير الذي اندلع في أواسط القرن الثامن عشر بين الرابي يعكوف عمدان الملقب أيضاً بالرابي يعبيتس وبين مؤيدي شبتاي تسفي وعلى الأخصّ بين الرابي يعكوف عمدان وبين الرابي يهوناتان لآيفشيتس الذي اتّهم بالميل إلى حركة شبتاي تسفي.

*

بالإضافة إلينا كان في المطعم في تلك الساعة من ساعات بعد الظهر الماطرة امرأتان كبيرتان في السنّ تكلمتا فيما بينهما باللغة الألمانية برقة متناهية وبصوت منخفض ومؤدّب. كانت المرأتان متشابهتين، بشعرهما الرماديّ - الحديدي وبتقاطيع وجهيهما العصفوريين وقد برزت بشكل حادّ وواضح جدّاً عند كلتيهما تفاحة آدم: العجوز الكبرى من بينهما كانت في الثمانين أو أكثر

من عمرها، وبنظرة أخرى خمّنت أنها ربما تكون أم العجوز التي تجلس قبالتها. وقررت بيني وبين نفسي أن الأمّ وابنتها أرملتان وأنهما تسكنان معا لأنه لا يوجد لهما أي شخص آخر في هذا العالم. سميتهما في أفكاري السيدة جيرترود والسيدة ماجْدا وحاولت أن أرسم في مخيلتي شقتهما الصغيرة والنظيفة جداً، الموجودة، ربما، في المنطقة، تقريبا مقابل فندق «عيدِن».

فجأة، رفعت إحداهما، السيدة «ماجْدا» الصغيرة، رفعت صوتها، ورمت العجوز الجالسة قبالتها بكلمة ألمانية واحدة. رمتها بصرخة غضب سامّة وحادّة، مثل طير جارح ينقضّ على فريسته، وفي الحال، لوحّت بفنجانها وضربت به عرض الحائط.

في الأخاديد التي خطها الزمن على خدّي المرأة الكبيرة أكثر والتي سميتها أنا جيرترود بدأت تسيل الدموع. بكت دون أن يصدر عنها أي صوت وبدون أن يطرأ أي تغيير على أسارير وجهها يدلّ على أنها تبكي. بكت دون أن يتغير في وجهها شيء. النادلة، بدورها، انحنت لتجمع بصمت شظايا الفنجان: جمعت، أنهت وابتعدت. لم تصدر أي كلمة بعد تلك الصرخة. تابعت المرأتان الجلوس الواحدة قبالة الأخرى دون أن تنبس أي منهما ببنت شفة، كانت كلتاهما نحيفتين جداً، وكان شعر كلتيهما شائبا مجعدا- حديديا بدأ بخط مرتفع جداً على جبين كل منهما، كما عند الرجال الصُّلعان. استمرت الدموع الخرساء تسيل على خدّي الأرملة العجوز، دون أي صوت، وبدن أي تقطيب في الوجه أو تقلّص في العينين، تسيل وتتجمع على ذقنها الحادّ وكما في مغارة كاريستية تقطّرت دموعها واحدةً واحدة إلى حضنها. كما أنها لم تحاول أن تكبح جماح دموعها أو أن تجفّف عينيها، مع أن بنتها مدّت إليها، وهي صامتة، وبوجه قاسٍ، منديلا أبيض مكوياً. إن كانت تلك بنتها. أمّا العجوز «ماجْدا» فلم تسحب يدها الممتدة إلى الأمام على الطاولة وبها المنديل المكويّ. طوال وقت طويل تجمّد هذا المشهد، كأنما كانت الاثنتان كلتاهما: الأمّ والبنت مجرد صورة بنية قديمة باهتة نوعا ما، داخل ألبوم مغبر. أمّا أنا فسألت فجأة:

«هل أنت بخير، يا أمّي؟»

وذلك - لأنَّ أمّي تجاهلت كل قواعد الآداب وأدارت كرسيّها قليلا ولم ترفع نظراتها عن المرأتين. في تلك اللحظة خُيّل إليَّ بأنَّ وجه أمّي عاد وشحب وابيضّ جدّاً ثانية، كما كان طوال أيام مرضها. بعد وقت ما استأذنت أمّي منّا وطلبت أن تعود في الحال إلى البيت لتستريح قليلا. هزّ أبي رأسه، ونهض فورا، واستفسر من النادلة أين يوجد في المنطقة تلفون قريب، وخرج ليطلب سيارة أجرة (التي كانت في تلك الأيام ما زالت تسمى «تاكسي»). عند خروجنا من المطعم اضطرت أمّي إلى أن تستند قليلا على ذراع أبي وعلى كتفه وأنا أمسكت لهما الباب ولفتّ الانتباه إلى الدرجة، كما فتحت لهما أيضاً باب التاكسي. بعد أن أجلسنا أمّي في الكرسي الخلفي عاد أبي للحظة إلى المطعم لكي يدفع الحساب. جلست أمّي منتصبة جدّاً داخل التاكسي وعيناها البنيتان كانتا مفتحتين على اتساعهما وحتى أكثر من ذلك.

*

في المساء استدعي الطبيب الجديد وبعد انصرافه استدعى والدي الطبيب القديم. لم يكن بينهما اختلاف: أوصى الطبيبان بالراحة التامّة. جهّز أبي سريري الذي أصبح سريرها، وقدّم لها فنجان حليب فاتر مع العسل وحثّها على أن تتجرع منه ثلاث أو أربع جرعات على الأقلّ مع أقراص النوم الجديدة، وسألها أي ضوء يبقي لها. نامت حتى صباح الغد، عادت مرة أخرى واستيقظت مبكراً ونهضت من سريرها لتساعد والدي وتساعدني قليلا في كل أعمال الصباح. عادت وقَلَت لنا بيضات عين مقلوبة، في حين جهزت أنا المائدة وقام والدي بتقطيع الخضراوات المختلفة قطعا دقيقة جدّاً لتحضير السلطة. وعندما حان موعد خروجنا: والدي إلى بناية التيراسانطة وأنا إلى مدرسة «تَحْكيموني»، قررت أمّي فجأة أن تخرج هي أيضاً وأن تذهب معي إلى المدرسة لأنه بالقرب من مدرسة «تَحْكيموني» سكنت صديقتها الحميمة ليلينكا والتي هي ليليا بار سامخا.

بعد ذلك اتضح لنا أن أمّي لم تجد صديقتها ليلينكا في البيت، ولذلك

تابعت الطريق لتذهب إلى بيت صديقتها الأخرى، فانيا فايسمن، والتي هي أيضاً كانت، ذات مرة، طالبة في المدرسة الثانوية «تربوت» في مدينة روفْنو ومن بيت فانيا فايسمن ذهبت أمّي قبيل الظهيرة إلى محطة باصات شركة «إيجد» المركزية الواقعة في منتصف شارع يافا، ومن هناك ركبت الباص متوجهة إلى تل أبيب لزيارة أختيها، أو ربما أرادت أن تركب من تل أبيب باصا آخر وتتوجه إلى حيفا وإلى كريات موتسكين إلى سقيفة والديها. ولكنها عندما وصلت إلى محطة الباصات المركزية في تل أبيب غيّرت، على ما يبدو، رأيها احتست فنجان قهوة سوداء في أحد المقاهي ثم عادت قبيل المساء إلى القدس.

مع وصولها إلى البيت شكت بأنّها مرهقة جدّاً. وعادت وتناولت قرصين أو ثلاثة من أقراص النوم الجديدة. أو ربما أنها حاولت هذه المرة أن تعود إلى الأقراص القديمة. لكنها في هذه الليلة لم تستطع النوم. عادت الشقيقة تسبب لها الألم، وقد أمضت الليل بطوله وهي بملابسها، على الكرسي الذي أمام الشباك. في الساعة الثانية قبيل الفجر قررت أمّي أن تكوي. أشعلت الضوء في غرفتي التي تحوّلت إلى غرفتها، نصبت طاولة الكيّ، وحضّرت لها قنينة ماء للرشّ على الملابس التي قامت بكيّها خلال عدة ساعات، حتى بزغ الفجر. عندما أنهت جميع الملابس أخرجت من الخزانة الشراشف والبطانيات وكوتها كلها من جديد. وعندما أنهت هذه كلها، وقفت وكوت حتى البساط الذي يستعمل غطاء للسرير في غرفتي، ولكنها لشدة التعب والضعف حرقت البساط واستيقظ والدي على رائحة البساط المحترق كما أنّه أيقظني أيضاً وقد ذهلنا عندما وجدنا أمّي قد استطاعت أن تكوي جميع الجوارب والمناديل والفوط وكل شرشف طاولة موجود في البيت. سارعنا إلى إطفاء البساط المحترق بالماء في غرفة الحمام، وأجلسنا معا أمّي على كرسيها وركعنا أنا ووالدي على ركبتينا ونزعنا حذاءها من على قدميها، فردة حذاء نزعها والدي والفردة الثانية نزعتها أنا. بعد ذلك طلب مني والدي أن اخرج من فضلك من الغرفة لبضع دقائق ولو سمحت أغلق الباب خلفك. أغلقت الباب ولكنني هذه المرة بقيت ملتصقاً بالباب المغلق لأنّني قلقت

عليها. أردت أن أسمع. حوالي نصف ساعة تكلما فيما بينهما باللغة الروسية. بعد ذلك طلب مني والدي أن احرس أمّي لعدة دقائق، وذهب إلى الصيدلية واشترى لها دواء ما أو شرابا ما، كما اتصل من الصيدلية بمكتب العم تسفي الذي كان يعمل في مستشفى «تسهلون» في يافا، كما واتصل بمكان عمل العم بوما في صندوق المرضى فرع شارع «زمنهوف» في تل أبيب. في أعقاب هذه الاتصالات اتفق والدي ووالدتي بأن تسافر، دون تأخير، هذا الصباح، إلى بيت إحدى أختيها في تل أبيب للاستراحة وتغيير الهواء أو الجو. يمكنها أن تبقى هناك كما تحبّ حتى يوم الأحد أو حتى يوم الاثنين صباحا، لأنّ ليليا بار سمخا نجحت في ترتيب دور لها لإجراء فحوصات في مستشفى «هداسا» في شارع «هنفيئيم» (الأنبياء)، هذه الفحوصات التي لولا علاقات الخالة ليليا لكان علينا انتظارها عدة شهور على الأقلّ.

ولأنّ أمّي ضعفت وشكت من الدوار، أصرّ أبي أنها لن تسافر هذه المرة إلى تل أبيب لوحدها، بل يسافر هو معها ويرافقها تماماً حتى منزل الخالة حايه والعم تسفي، وربما حتى يبيت عندهما هذه الليلة ويعود صباح غد الجمعة، إلى القدس في أول باص حيث يستطيع أن يذهب إلى عمله ولو لعدة ساعات، على الأقلّ. ولم يصغِ لاحتجاجات أمّي التي ادّعت أنه لا حاجة إلى أن يسافر معها، وأن يضيّع يوم عمل، فهي قادرة على أن تسافر لوحدها إلى تل أبيب وأن تجد بنفسها منزل أختها. فهي لن تضيع.

إلا أن أبي لم يرد أن يسمع. كان هذه المرة عنيدا، على وتيرة واحدة وأصرّ على موقفه بشدّة. أمّا أنا من جهتي، فقد وعدته أن أذهب بعد الدوام المدرسي مباشرة، دون أي تأخير، إلى بيت جدّتي شلوميت وجدي اَلِكْسَنْدِر الموجود في شارع «براغ»، وسأشرح لهما ما حدث وأبقى عندهما حتى الغد، حتى عودة أبي. وألا أثقل، بأيّ شكل من الأشكال على جدي وجدتي، وأن أساعدهما بشكل جيد جدّاً وأن أقوم بجمع الأطباق عن المائدة بعد الطعام وأن اقترح عليهما أن افرغ لهما سلة القمامة. وأن أحضر هناك جميع وظائفي البيتية: وألا أؤجل أي شيء ليوم السبت. قال لي: «ولد

شاطر». وربما حتى وصفني بالشاب. ومن الخارج انضمت إلينا في تلك اللحظة العصفورة «إليز» التي هتفت ثلاث أو أربع مرات ببهجة صافية، مشعة، هتافها الصباحيّ البتهوفني «تي-دا-دي-دا-دي. . .» أنشدت ذلك بدهشة متميزة، برهبة وشكر وسمو ومعنويات عالية، وكأنه حتى هذه اللحظة منذ الأزل لم ينتهِ الليل. وكأن هذا الصباح هو الصباح الأول في الكون وضوءه هو ضوء عجيب لم يبزغ مثله من الأزل ولم يخترق جنح الظلام.

٦١

كنت في الخامسة عشرة تقريبا عند قدومي إلى كيبوتس حولدا بعد سنتين من وفاة أمّي: شاحبا بين مسفوعين، نحيفا ضعيفا وهزيلا بين فتيان عمالقة أشدّاء وأقوياء الجسم والعظم، ثرثارا بين مقلّي كلام، ناظم شعر بين فلاحين أبناء زارعي كروم وبين مربي أبقار أبناء سائقي جرارات. كلهم، كل الفتيان والفتيات أبناء صفّي الجديد في «صفوف التكملة» في حولدا، كانوا نفوسا سليمة في أجسام سليمة- أنا وحدي كنت نفسا حالمة في جسم شبه شفّاف. وأسوأ من ذلك: مرتين أو ثلاثاً ضبطوني جالسا في زاوية نائية من زوايا ساحة الكيبوتس مع أطباق ورق وألوان مائية، أحاول أن أرسم لوحات مائية. أو مختبئا داخل غرفة المطالعة المخفية خلف نادي الصحف في الطابق الأرضيّ من «بيت - هرتسل»، أكتب وأمحو. وسرعان ما انتشرت في حولدا الإشاعة الميكارثية بأنني متصل قليلا مع حزب «حيروت»، وأنني ترعرعت في عائلة تحمل أفكار جابوتِنْسكي. ولذلك كنت مشبوها بإقامة علاقات غير نظيفة مع الديماغوجيّ البغيض مناحم بيغن، زعيم مبغضي حزب العمل. وباختصار: تربية مشوّهة وجينات معطوبة غير قابلة للإصلاح.

لم تفدني حقيقة كوني جئت إلى حولدا نتيجة لتمرّد متوهّج ضدّ عالم أبي وعائلته. لم يحتسبوا لصالحي أنني كنت مرتدا عن حزب «حيروت»، لم يسجلوا لصالحي نقاط استحقاق على ضحكتي البربرية في اجتماع مناحم بيغن في قاعة سينما «أديسون»: الولد الشجاع من قصة الملك العاري، هو بالذات الذي يتّهم هنا في حولدا كعميل مثير للريبة، يعمل لصالح الخياطَين المحتالَين.

عبثاً حاولت أن أتفوق في العمل الزراعي وأن أتكاسل في الدراسة. عبثا احترقت مثل قطعة لحم مشويّة من اجل أن أتسفّع مثلهم. عبثا تكشّفت في مناقشات حلقة أحداث الساعة كالاشتراكي الأكثر اشتراكية في حولدا، إذا لم يكن ذلك في الطبقة العمالية كلّها. أي شيء من هذا لم يسعفني: في نظرهم كنت نوعا من الأجسام الغريبة، غريب ومختلف. ولذلك لم يتوقف طلاب صفي عن مضايقتي المرة تلو المرة بدون أي رحمة أو شفقة لكي أتخلّص بشكل نهائي من كل غرابتي وأكون واحدا منهم. في إحدى المرات أرسلوني لأركض إلى الحظيرة بدون مصباح في منتصف الليل، كي أفحص وأعود لأخبرهم إذا ما كانت هناك بقرة مُنَزّاة بحاجة ماسّة إلى خدمات الثور. ومرة أخرى سجلوني في سجل توزيع العمل لأن أعمل في فرع صيانة الصحة العامّة. ومرة أخرى أُرسلت إلى ساحة قسم الأولاد لكي أقوم بالفصل بين الذكور والإناث في قفص البطّ: لكيلا أنسى، لا سمح الله، من أين جئت، وألا يكون عندي أي سوء فهم حول السؤال إلى أين وصلت.

*

أنا، من جهتي، تقبّلت كل شيء بخنوع، لأنّني عرفت أن عملية اجتثاث مقدسيتي وآلام مخاض ولادتي من جديد، ينطويان، وبحقّ، على الألم. برّرت قيامهم بمضايقتي وإهانتي ليس لأنّني عانيت من عقدة مركب الشعور بالنقص بل لأنّني كنت ناقصا: هم، الأولاد الجلفين المحروقين بالغبار والشمس، وهن، البنات طويلات القامة مع تَسْرِيحَةُ ذَيْلِ الفَرَس والصرفند، كانوا أحسن وأطيب ما في البلاد. ملح الأرض. سادة البلاد كلّها. جميلون مثل الملائكة، جميلات مثل الليالي في كنعان، نبني بلادنا- أرض الوطن، نكون كلنا طلائعيين وطلائعيات.

كلنا - ما عداي

مهما تسفعت، لم أستطع تضليل أحد: كلهم عرفوا جيدا - وأنا عرفت أيضاً- بأنه حتى لو تسفع جلدي وتلون أخيرا باللون القمحيّ، فقد بقيت من الداخل شاحبا. مهما حاولت وأجهدت كل ما بقي فيّ من قوّة، بإخلاص

وتفانٍ، حتى تعلمت، كيفما اتفق، نقل خطوط الري في حقول العلف، أو أن أسوق الجرار وأن أطلق الرصاص دون أن أخطئ الهدف بواسطة البندقية التشيكية القديمة في ميدان رمي «الجدناع»، فإنني لم أستطع أن أتخلص من جلدي: عبر جميع شبكات التمويه التي فرشتها على نفسي كان يطلّ هذا الولد ابن المدينة، الضعيف، رقيق الإحساس، مرهف الشعور، ثرثار لا يعرف التعب، يتوهم ويختلق القصص المختلفة والغريبة لم تكن ولم تحدث كما أنها لم تُثر هنا اهتمام أحد.

في حين بدوا لي جميعا شامخين: هؤلاء الأولاد الضخام الذين كان بإمكانهم أن يحرزوا الهدف في لعبة كرة القدم حتى بالقدم اليسرى وعن بعد عشرين مترا، وأن يقطع رأس فرّوج دون أن ترمش له عين، وأن يقتحم في الليالي مخزن الموادّ الغذائية وأن يسرق منه بعض المواد الغذائية اللذيذة لحفلة الأكل الجماعي حول موقد النار في ساعات الليل. والبنات الشجاعات واللواتي كان بمقدورهن أن يسرن مسافة ثلاثة كيلومترات في اليوم وهن يحملن على ظهورهنّ حقيبة ظهر وزنها ثلاثين كيلوغراما وبعد ذلك يبقى عندهن من القوة ما يجعلهنّ يرقصن حتى منتصف الليل، تنانيرهن الزرقاء تتطاير وهن يرقصن وكأن قانون الجاذبية لا يجرؤ على أن يفرض نفسه عليهن، وبعد كل هذا الرقص تابعن الجلوس معنا في الحلقة حتى قبيل الصباح يغنين لنا تحت قبة السماء أغاني تثير العواطف، تغصّ القلب، أغان لا ينضب معينها بصوتين أو بثلاثة أصوات يغنين ويستندن ظهرا إلى ظهر يغنين وينشرن حولهن شعاعا شهوانيا ساذجا وجارفا، جارفة بالذات لأنها كانت ساذجة بريئة براءة الأطفال، سماوية مثل ترتيل الملائكة للصفاء والنقاء.

*

بكل تأكيد: أنا عرفت مكاني. لا تخالط قلبك الكبرياء. لا تبحث عن عظائم الأمور ولا تطمح بالوصول إلى مكانة عالية مرموقة. لا تزج بنفسك في الأماكن التي أعدت لمن هم اكبر وأفضل منك. صحيح أن جميع الناس ولدوا متساوين، وهذا هو المبدأ- الأساس الذي تقوم عليه حياة الكيبوتس.

ولكن ميدان الحبّ تابع لقوى الطبيعة وليس للجنة المساواة. وفي ميدان الحب، كما هو معروف، المجال مقصور على الكبار فقط ولا مكان للصغار فيه.

ولكن، كما هو معروف، يسمح للقط أيضاً أن ينظر إلى الملك. ولذلك، نظرت إليهم طوال النهار وكذلك طوال الليل على سريري، بعدما كنت أغمض عينيّ، لم أتوقف عن النظر إليهم بجمال الغرة والمنظر. وبالذات نظرت إلى البنات. أقول نظرت؟ لا بل حملقت بهن بعيون ملتهبة. وحتى من خلال النوم كنت أغرز فيهن نظرات عجل توّاقة ويائسة. فعلا، بدون أن أمني نفسي بأي أمنيات كاذبة: عرفت أنهنّ لسنّ لي، أنهن لن يكنّ من نصيبي. فهم، الشباب، كانوا ظَبي إسرائيل[1] وأنا كنت دودة يعقوب. وهنّ البنات كن الظبيات والغزالات - وأنا - ابن آوى المنبوذ الذي يعول ويعوي من وراء السياج. ومن بينهن كانت - واسطة العقد - نيلي.

كل واحدة منهن كانت جميلة كقرص الشمس. كلهن. ولكن نيلي - حولها كانت ترتعش دائما هالة من المسرة والبهجة. نيلي كانت تمشي وتغني، في الممرات، على مسطح العشب الأخضر، في الغابة، بين المساكب- تمشي وتغني لنفسها. وعندما كانت تمشي ولا تغني بدت لي وكأنها تمشي وتغني. ما بها؟ كنت أتساءل بيني وبين نفسي أحياناً من أعماق معاناة سن السادسة عشرة، ما بها تغني دون توقف؟ ما الذي يثير إعجابها وسرورها في هذا العالم؟ ماذا هل من «معاناة مصير مضطرب/ ضيق حياة الفقر/ من أمس غير معروف/ وغد بدون رؤيا...» يمكن أن نستخرج بهجة حياة كهذه؟ فرحة مشعة كهذه؟ توهّج سرور مثلما لها؟ هل لم تسمع حتى الآن بأنها أخذت، «أخذت جبال إفرايم/ ضحية شابة جديدة/ ... مثلك، بحياتنا أيضاً/ نضحي من أجل الشعب...؟ ماذا، نيلي لا تعرف عن هذا؟ لا تعرف شيئا، لا تعرف بأننا «فقدنا كل غال وثمين/ وبأنه لن يعود إلى الأبد...؟»

---

(١) رمز الجمال والقوة، بناء على صموئيل الثاني ١: ١٧ (المترجم).

هذا أثار العجب والدهشة. هذا كاد يثير الغضب ولكنه من الجهة الأخرى سحرني: مثل اليراعة.

*

حول كيبوتس حولدا خيّم ظلام دامس. في كل ليلة هاوية سوداء بدأت تمتد على بعد مترين من دوائر أضواء مصابيح السياج الصفراء وتستمر حتى أطراف الليل، حتى نجوم السماء البعيدة. خلف سياج الأسلاك الشائكة ربضت حقول خالية وبساتين مقفرة في الظلام وهضاب لا حياة فيها، حدائق مهجورة في رياح الليل، خرائب قرى عربية- ليس كما هو الحال اليوم، حيث من حولدا تُرى كتل كثيرة من الأضواء الكثيفة من جميع الجهات. في سنوات الخمسينات كان كل شيء من حولنا ما زال خاليا خاويا. وفي داخل هذا الخواء الكبير كان يمر في منتصف الليل المتسللون، الفدائيون. وفي داخل هذا الفراغ الكبير كانت هناك أيضاً الغابة التي على الهضبة، وكرم الزيتون، والبساتين، وبينها تجوّلت في الليل بنات آوى يسيل لعابها بعويلها الجنوني الذي تقشعرّ له الأبدان، كان يقطع علينا نومنا ويجمّد الدماء في العروق قبيل الفجر (تلك هي بنات آوى التي أخذتها عندي للعمل، وهي مجنّدة عندي في قصص «بلاد بنات آوى» مع أنّه بين ذلك الوقت واليوم صمتت بنات آوى. وتوقفت عن العويل. اختفت بنات آوى لسنوات طويلة من المنخفض الداخلي ولم تعد تظهر إلا مؤخّراً).

حتى داخل ساحة الكيبوتس المسَيّجة والمصونة لم تكن في الليل إضاءة كثيرة: هنا وهنا صبّ مصباح متعب بقعة من الضوء الخافت، ثم خيم الظلام الكثيف حتى المصباح التالي. بين الأقنان والحظائر تجوّل حراس الليل وهم يلتفون من البرد. وفي كل نصف ساعة أو في كل ساعة كانت الحارسة تنهض تاركةً صنارة الحياكة في مُطيبخ بيت الأطفال لتقوم بجولة من بيت الأطفال وحتى بيوت الأولاد ثم تقفل عائدة.

كان علينا أن نثير الضجيج والصخب في كل مساء لكيلا نقع في الفراغ والحزن. في كل مساء كنّا نجتمع ونعمل معا شيئاً صاخبا، شبه اضطراب، حتى منتصف الليل، حتى ما بعد منتصف الليل، حتى لا يتغلغل الظلام إلى

داخل الغرف وإلى داخل العظام ويطفئ النفوس. كنا نغني ونصرخ نأكل ونتناقش ونتجادل، نتفوّه بكلمات بذيئة، نغتاب ونروّج الإشاعات، ونحكي النكات والنوادر والطرائف، وكل ذلك لكي نصدّ الظلام والصمت وأصوات عويل بنات آوى. في تلك الأيام لم يكن هناك تلفزيون ولا فيديو ولا ستيريو ولا انترنت ولا العاب حاسوب، ولا حتى نوادٍ ليلية، ولا الحانات ولا حتى موسيقى الديسكو. الأفلام كانت تعرض في بيت هرتسل أو في الخارج، على مسطح العشب الأخضر مرة واحدة في الأسبوع في كل يوم أربعاء.

في كل مساء كان علينا أن نجتمع وأن نتجنّد وأن نبدأ بتكوين الضوء والبهجة لأنفسنا.

الكبار في الكيبوتس أولئك الذين سميناهم «العجائز» مع أن غالبيتهم لم يتجاوزوا سن الأربعين- من بينهم كان غير قليل ممن خبا نورهم الداخلي لكثرة الديون والالتزامات وخيبة الأمل وفقدان الرجاء، والأعمال الشاقة والجلسات واللجان والتجند لقطف الثمار، والمناقشات والدوريات والأيام الدراسية والتجنّد من اجل اقتلاع الأعشاب بأيديهم ومن كثرة الأمسيات الثقافية ومن كثرة روتين الحياة الذي يستنزف القوى. غير قليل منهم كانوا أشخاصا قد فقدوا حيويتهم وخبت نفوسهم. في الساعة التاسعة والنصف أو في الساعة العاشرة إلا ربعا كانت الأضواء الضعيفة تختفي الواحد تلو الآخر من نوافذ الشقق الصغيرة في مجمع مساكن القدامى: غدا أيضاً يجب أن يستيقظوا في الرابعة والنصف صباحا، للقيام بقطف الثمار، أو لحلب الأبقار الحلْبة الصباحية، أو للعمل في الحقل، أو في المطبخ المشترك. في تلك الأيام كان الضوء سلعة نادرة وقليلة الوجود في حولدا.

ونيلي كانت يراعة. لا ليست يراعة بل مولّد كهرباء. لا بل محطة كاملة لتوليد الكهرباء.

*

نشرت نيلي على كل من حولها نوعا من بهجة الحياة المسرفة، الغنية بدون قيود، بهجة لا سبب لها ولا علّة، لا أساس لها، ولا دافع، لا شيء كان يجب أن يحدث لكي يسبب لها أن تفيض من كثرة الفرح والجذل.

بالتأكيد، رأيتها أكثر من مرة، حزينة للحظة، تبكي بشكل مكشوف إذا سبّبوا لها أو إذا خيّل لها أنهم سبّبوا لها أي إهانة أو إساءة. أو أنها تشهق بالبكاء، بدون حياء، أثناء عرض فيلم حزين، أو ذرفت دموعا سخية على صفحة يتمزّق لها القلب أثناء قراءة رواية. إلا أن حزنها كان دائما مغلقا جيّدا داخل قفص قوي من بهجة حياة دائمة وقوية مثل تدفق ينابيع ساخنة لا يستطيع أبداً أي ثلج أو جليد أن يجمّدها لأنَّ سخونتها تنبع مباشرة من باطن الأرض.

ربما جاءها ذلك من البيت. من والديها: ريفا، على سبيل المثال، أمّ نيلي كانت تعرف سماع الموسيقى من رأسها حتى عندما لا تكون هناك ولا يمكن أن تكون هناك أية موسيقى في محيطها. في حين أن شيفتل، أمين المكتبة، كان يمشي في شوارع الكيبوتس مرتديا فانيلة عمل رمادية وهو يغني، أو يعمل في الحديقة ويغني، يحمل على ظهره أكياسا ثقيلة ويغني، وعندما كان يقول لك «ستتحسن الحال» - كان فعلا يؤمن بذلك، يؤمن دائما، بشكل مطلق، دون أي شك وبدون أي قيد أو شرط: لا تقلق، سيكون الحال أفضل، بعد وقت قصير.

ولد خارجي، ابن خمس عشرة أو ست عشرة سنة، نظرت إلى البهجة التي تشع من نيلي كما أنظر إلى القمر وهو بدر: بعيد، لا يدرك، ولكنه جذاب ومنعش.

بالطبع، من بعيد فقط. مَن أنا. أضواء براقة، لامعة مثل هذه، أنا وأمثالي لا يحق لنا إلا أن ننظر إليها من بعيد. في السنتين الأخيرتين في المدرسة، وبعد ذلك- في سنوات الخدمة العسكرية، كانت لي صاحبة من خارج كيبوتس حولدا، بينما لنيلي كانت سلسلة لامعة من الأمراء- الذين يخطبون ودّها، وحول هذه السلسلة كانت حلقة ثانية من المفتونين المهتاجين المجذوبين ودائرة ثالثة من المعجبين المتواضعين الصامتين، ودائرة رابعة ممن عشقتها آذانهم من بعيد، وفي الدائرة الخامسة أو السادسة كنت أنا أيضاً، الطحلب الذي على الحائط، الذي أصابه بين الحين والآخر، عن غير قصد، شعاع واحد مسرِف، أصابني ولم يدرِ ماذا فعلت بي إصابته العابرة.

*

عندما ضُبطت أخربش الشعر في الغرفة الخلفية المهجورة في بيت الثقافة في حولدا، كان قد أصبح واضحا للجميع بأنه مني لن يأتيهم أي خير. وعلى الرغم من ذلك، كمن يجني من الشوك العنب، قرروا بعد أن ضُبطتُ أن يفرضوا عليّ تأليف أبيات شعر للمناسبات المختلفة: الحفلات والأفراح، الأعراس والأعياد، وكلما احتاجوا إلى ذلك- في حفلات التأبين ومقالات قصيرة لكراسات إحياء الذكرى. أمّا القصائد الوجدانية فقد نجحت في إخفائها عن أنظارهم عميقا داخل حشوة القش لإحدى الفرشات القديمة)، ولكنني أحياناً لم أستطع أن أتمالك نفسي فكنت اطلع نيلي على بعضها.

لماذا لها بالذات، من بينهن جميعا؟

ربما كنت بحاجة إلى أن أفحص أي قصائد الظلام ستتلاشى في اللحظة التي تتعرّض فيها إلى أشعة الشمس، وأيها، ربما تنجح مع كل ذلك بالصمود. حتى الآن «نيلي» هي أول من يقرؤني. وعندما تجد في المسودة شيئا ما غير صحيح، تقول لي: إن هذا، بكل بساطة، غير فعال. اشطب هذا. اجلس واكتب هذا من جديد، مرة أخرى. أو: كفى. سمعنا. هذا سبق لك وكتبته. لا حاجة إلى تكراره. ولكن عندما يعجبها شيء، ترفع نيلي نظرها عن أوراقي، وتنظر إليَّ نظرة كهذه، فتتسع الغرفة. وعندما يخرج معي شيء مضحك فهي لا تقول شيئا بل تنفجر ضاحكة ضحكة براقة. وبعدها تقرأ بنتاي وأخيرا يقرأ ابني، ثلاثتهم حادّي البصر ومرهفي السمع. وبعد ذلك بوقت يقرأ ما اكتب بعض أصدقائي، بعدهم قراء الكتب، بعد ذلك يحين دور المختصين بالأدب، المثقفين، والنقاد وحلقة الإبادة. ولكن عندها أنا أكون موجودا هناك.

*

في تلك السنوات كانت نيلي تصاحب «ملح الأرض»، وأنا لم أنظر إلى أعلى: إذا صدف ومرت الأميرة محاطة برف من المعجبين، من أمام سقيفة أحد الفلاحين العبيد - أكثر ما يمكنه هو أن يرفع عينيه ناظرا إليها للحظة، فينبهر بصره، ويبارك نهاره. لذلك كانت الصدمة كبيرة جدّاً في حولدا وحتى في البلدات المجاورة عندما كشف في أحد الأيام بأنَّ ضوء الشمس نزل وغمر

الجزء المظلم من القمر. في ذلك اليوم، في حولدا باضت البقرات ومن ضروع النعاج تدفق النبيذ، ومن أشجار الكينا سال الحليب والعسل. من وراء عريشة الحظيرة ظهرت الدببة القطبية، وقيصر اليابان شوهد يتجوّل بالقرب من المغسلة ويردد عن ظهر قلب من مؤلفات أ.د. غوردون، «وتقطرت الجبال عصيرا وسالت جميع التلال».[1] سبع وسبعين ساعة متتالية وقفت الشمس فوق قمم أشجار السرو ولم ترد أن تغيب. وأنا ذهبت إلى حمامات الأولاد الخالية أغلقت الباب جيدا ووقفت أمام المرآة وسألت بصوت مرتفع أيتها المرآة، أيتها المرآة، قولي لي كيف حدث ذلك؟ لماذا استحقّ ذلك؟

(١) سفر عاموس، ٩: ١٣ (المترجم).

٦٢

عندما توفيت أمّي كانت في الثامنة والثلاثين من عمرها تقريبا. في مثل عمري الآن، يمكنني أن أكون والدها.

بعد دفنها بقيت أنا وأبي عدة أيام في المنزل. أبي لم يزاول عمله وأنا لم أذهب إلى مدرسة «تَحْكيموني». باب المنزل كان مفتوحا طوال النهار. منذ ساعات الصباح لم يتوقّف الجيران والمعارف والأقارب من المجيء إلينا. جاراتنا الطيبات أخذن على عاتقهن الاهتمام بتوفير مشروبات خفيفة لجميع المعزّين، بالإضافة إلى القهوة والشاي والكعك. بين الحين والآخر كنت أُدعى للذهاب لسويعة إلى بيوتهن، لتناول وجبة ساخنة. كنت أتذوّق عندهن بأدب ملعقة شوربة وأمضغ نصف كرة كفتة ثم أقفل عائدا إلى أبي. لم ارغب في أن أتركه لوحده. مع أنّه لم يكن لوحده: منذ الصباح وحتى الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف كان بيتنا يعج بالمعزّين. جمعت الجارات من بيوتهن الكراسي ورتبنها على شكل دائرة على امتداد حيطان غرفة المكتبة. على سرير والديّ تراكمت طوال النهار معاطف غريبة.

جدي وجدتي نفيا غالبية ساعات النهار إلى الغرفة الثانية، بناء على طلب والدي، لأنّ وجودهما كان يثقل عليه: جدي أَلِكْسَنْدِر كان ينفجر فجأة، بين الحين والآخر، ببكاء روسي عالٍ، بكاء مع شهيق، بينما لم تتوقف جدتي شلوميت عن الركض بين الزوار وبين المطبخ، تقريبا بالقوة كانت تخطف الفناجين وصحون الكعك من أيدي الضيوف، تجلي كل فنجان على حدة بصابون تنظيف الأواني ثم تغسله جيدا من الصابون بالماء ثم تجففه وتعيده

إلى الخزانة ومن هناك يعود إلى غرفة الضيوف. كل ملعقة لم تغسل في الحال كانت في نظر جدتي شلوميت كعميل ماكر للقوى التي سببت الكارثة.

هناك، في الغرفة الثانية، جلس جدي وجدتي مع عدد من المعزّين الذين أنهوا جلوسهم معي ومع والدي ومع كل ذلك رأوا من الواجب أن يبقوا وقتا إضافيّاً قصيرا. جدي ألِكْسَنْدِر الذي أحبّ كثيرا كنته وكان قلقا جدّاً بسبب حزنها، كان يمشي ذهابا وإيابا في الغرفة رأسه يهتز إلى أسفل وإلى أعلى بدون توقف بنوع من السخرية الحانقة، وكان ينفجر فجأة بعويل بصوت مرتفع:

كيف حدث هذا؟! كيف هذا؟! جميلة! شابّة! موهوبة جدّاً! ناجحة! كيف هذا؟! اشرحوا لي كيف حدث هذا؟!

وكان يقف في الزاوية، ظهره إلى الجميع، يشهق بالبكاء بصوت عال، وكأنه أصيب بالحازوقة، وكتفاه تهتزان بشدة.

كانت جدتي تنتهره:

«زيسيا. كُفَّ عن ذلك، رجاءً. كفى. لونيا والولد، إنهما لا يتحملان تصرفك هذا. كفى! امسك نفسك! حقا! افعل مثل لونيا والولد، تصرف كما يتصرفان! حقا!»

كان جدي يستجيب لها فورا وكان يجلس ويغطي وجهه بكلتي راحتيه. ولكنه بعد ربع ساعة كانت تنفجر من قلبه شهقة بكاء مستميتة:

«صغيرة جدّاً! وجميلة! جميلة مثل الملاك! شابّة! موهوبة! كيف هذا؟! اشرحوا لي كيف حدث هذا؟!»

*

حضرت صديقات أمّي، ليليا بار سمخا وروحليه أنجل وإستيريكا فاينر وفانيا فايسمن وامرأة أو امرأتان غيرهن، صديقاتها من أيام الشباب من أيام المدرسة الثانوية «تربوت»، شربن الشاي وتحدّثن عن أيام المدرسة الثانوية. وسردن بعض الذكريات من أيام شباب أمّي، وعن المدير الساحر يسْساخار رايس الذي كانت كل البنات مفتونات به في الخفاء، وعن حياته الزوجية التي لم تكن ناجحة إلى حد ما. كما تحدثن عن معلمين آخرين. وهنا، فكّرت

الخالة ليلينكا مليا وسألت أبي بلطف إذا ما كانت هذه الأقوال، هذه الذكريات، والطرائف، تؤلمه؟ وربما كان من الأفضل له أن ينتقلن للحديث عن موضوع آخر؟

لكن أبي، الذي جلس طوال اليوم مرهقا غير حليق على الكرسي الذي قضت عليه أمّي ليالي أرقها، اكتفى بأن هزّ رأسه بدون اكتراث وأشار بيده أن تابعي.

الخالة ليليا، الدكتورة ليئه بار سمخا، أصرت على رأيها بأن أتحدّث أنا وهي على انفراد، على الرغم من أنني حاولت التملّص بأدب من هذه المحادثة. بما أنّه في الغرفة الثانية جلست جدتي وجدي وعدد من أبناء عائلة أبي، والمطبخ كان محتلا من بعض الجارات طيبات القلب وجدتي شلوميت كانت تدخل وتخرج دون توقف إلى ومن المطبخ لتغسل كل صحن أو ملعقة، أخذتني الخالة ليليا من يدي وقادتني إلى غرفة الحمام وأغلقت خلفنا الباب. غريب بل وهجين بدا لي هذا الانفراد بهذه المرأة في غرفة الحمام المغلقة من الداخل. فقط في أحلام يقظة القبيحة حدثت لي مثل هذه التجارب. لكن الخالة ليليا بشّت في وجهي جلست على غطاء مقعد المرحاض المغلق وأجلستني قبالتها على حافة حوض الاستحمام. نظرت إليّ لحظة أو لحظتين بصمت، بشفقة كبيرة، ثم فاضت الدموع من عينيها، بعد ذلك شرعت تتكلم لعدة لحظات ليس عن أمّي وليس عن المدرسة الثانوية في روفْنو بل عن قوة الفن العظيمة وعن العلاقة بين الفن وبين الحياة الداخلية للنفس. أمّا أنا فقد انكمشت قليلا داخل حذائي من وطأة هذه الأقوال.

بعد ذلك غيرت الخالة ليليا صوتها وتكلمت معي عن واجبي الجديد والبالغ، بأن أنتبه، منذ الآن، إلى أبي، كي أدخل بعض النور إلى ظلمة حياته وأن امنحه على الأقلّ القليل من راحة البال، على سبيل المثال- عن طريق التفوق الكبير في دراستي. من هنا انتقلت للحديث عني وعن مشاعري: كان من الضروري لها أن تعرف بمَ فكّرت في اللحظة التي فيها علمت بخبر الفاجعة؟ وبم شعرت في تلك اللحظة؟ وبمَ أشعر الآن؟ ولكي تساعدني بدأت الخالة ليليا تعدد على مسامعي وتقترح علي سلسلة من أسماء المشاعر

المختلفة، كمن تحثّني على أن اختار من بينها أو كمن تريد مني أن اشطب الزائد: حزن؟ فزع؟ قلق؟ شوق؟ ربما قليل من الغضب؟ الدهشة؟ أو الشعور بالذنب؟ لأنك بكل تأكيد قد سمعت أو قرأت أنّه في مثل هذه الحالات تظهر أحياناً الشعور بالذنب أيضاً؟ أليس كذلك؟ وماذا عن الشعور بعدم الثقة؟ بالألم؟ أو نوع من الرفض للاعتراف بالواقع الجديد؟

طلبت منها بأدب المعذرة ونهضت خارجا. للحظة فزعت لئلا تكون الخالة ليلينكا مع إغلاقها للباب قد دسّت مفتاح الحمام في جيبها والآن يحظر علي الخروج إلا بعد أن أجيب عن جميع أسئلتها. الا أن المفتاح كان ما زال في موضعه داخل ثقب السكرة. وأنا أخرج سمعت صوتها القلق في ظهري وهي تقول:

«ربما فعلا ما زال من المبكر إجراء هذه المحادثة معك الآن. ولكن، من فضلك، في اللحظة التي تشعر فيها انك مستعد لهذه المحادثة، تذكّر ألا تتردد ولو للحظة في أن تأتي إليَّ لكي نتحدّث. أنا واثقة من أن فانيا أمّك المسكينة، ترغب جدّاً في أن تستمر العلاقة الوثيقة قائمة بيني وبينك.»

هربتُ.

*

في غرفة الضيوف يجلس الآن ثلاثة أو أربعة من زعماء حزب «الحيروت» في القدس، رجال معروفون في المدينة، هو وزوجاتهم التقوا مسبقا في المقهى ومعاً كبعثة مصغرة جاؤوا لتعزيتنا. لقد قرروا سلفا أن يصرفوا تفكير والدي بواسطة البدء في محادثة سياسية: في تلك الأيام كانت الكنيست على وشك مناقشة اتفاق التعويضات الألمانية الذي وقعه رئيس الحكومة بن غوريون مع مستشار ألمانيا الغربية، أديناور، هذا الاتفاق الذي نظر إليه حزب «الحيروت» على أنّه خزي وعار وإهانة لذكرى ضحايا النازيين ووصمة لا تمحي على ضمير الدولة الفتية. بعض المعزين كان يعتقد بأنه من واجبه أن يحبط بكل ثمن هذا الاتفاق، حتى ولو سفكت في سبيل ذلك الدماء.

لم يشترك والدي، تقريبا، في المحادثة، إلا أنه هزّ رأسه ثلاث أو أربع

مرات، أمّا أنا فقد تحمّست وحتى تجرأت على قول بعض الجمل على مسامع كبار رجالات القدس، وبذلك نظفت نفسي من نكد محادثة الحمام: إذ أنّ كلمات الخالة «ليليا» صمّت أذنيّ مثل صرير الطبشورة اللوح. طوال عدة سنوات كان وجهي يتقطب فجأة بشكل لا إراديّ كلما تذكّرت محادثة الحمام تلك. حتى يومنا هذا ذكرى تلك المحادثة تشبه قضمة من فاكهة متعفّنة.

بعد ذلك انتقل رؤساء فرع «حيروت» في القدس إلى الغرفة الثانية لتعزية جدي ألِكْسَنْدِر بواسطة غضبهم على اتفاق التعويضات. وأنا انتقلت معهم إلى الغرفة الثانية لأنّني أردت أن أشارك في المناقشة حول برامج الانقلاب الذي سيكون هدفه إحباط الاتفاق المشين مع قتلتنا وكذلك إسقاط حكم بن غوريون الأحمر. وسرت خلفهم إلى الغرفة الثانية وأيضاً لأنّ الخالة «ليليا» خرجت من غرفة الحمام واقترحت على والدي أن يتناول قرصا مهدّئا ممتازا أحضرته معها، وأنه بعد بلعه دفعة واحدة سيشعر بتحسن كبير. إلا أن أبي قطّب وجهه ورفض. وحتى نسي هذه المرة أن يشكرها.

*

كما جاء للتعزية الزوجان تورن وكذلك عائلات لامبرج ولروزندورف وبار يتسهار كما جاء جيتسل وإيزابيلا نحليئلي من «وطن الطفل» بالإضافة إلى معارف وجيران من «كيرم أفراهام»، كما جاء أيضاً العم دوديك، قائد الشرطة، مع طوتشيا زوجته الرقيقة، والدكتور بيفيرمان جاء ومعه العاملون في قسم الصحافة، كما جاء أمناء مكتبة آخرون من جميع أقسام المكتبة القومية. جاء ستاشيك ومالا رودْنيتْسكي وعدد من المثقفين وقراء الكتب وعدد من بائعي الكتب والسيد يهوشواع تشيتشيك الناشر التل أبيبي الذي أصدر كتاب أبي. حتى العم يوسف ظهر، البروفيسور كْلاوزْنِر، دخل ذات ليلة إلى بيتنا وهو منفعل وخائف جدّاً، ذرف على كتف والدي دمعة عجوز صامتة وتمتم: «واأسفاه على من ماتوا ولن يُعوّضوا.» جاء معارفنا من المقاهي، وجاء الأدباء المقدسيون، يهودا يعاري وشراجا قادري ودوف قمحي ويتسحاق شنهار وجاء البروفيسور هلكين وزوجته وكذلك البروفيسور بينيت الخبير في تاريخ

الاسلام، والبروفيسور يتسحاق فريتس باير الخبير في تاريخ اليهود في اسبانيا المسيحية. وجاء معهم ثلاثة أو أربعة محاضرين شباب ومساعدي بروفيسورات الذي سطع نجم شهرتهم في سماء الجامعة. كما جاء اثنان من معلميّ في مدرسة «تَحْكيموني»، وعدد من طلاب صفي، وعائلات كروخمال، طوشيا وغوستاف كروخمل من مشغل تصليح الألعاب ومعالجة الدمى الجريحة والذي تغيّر اسمه إلى «مستشفى الدّمى». جاء تشيرنا ويعكوف - دافيد أبرامسكي اللذان قتل ابنهما البكر يوناتان في اواخر حرب الاستقلال عندما أطلق عليه النار قنّاص أردني من شباك بناية مدرسة الشرطة التي خلف خط الجبهة. كان ابن اثنتي عشرة سنة عند موته. أصابته رصاصة القناص بينما كان يلعب في ساحة بيتهم في ساعات الصباح من أحد أيام السبت. تماماً في ساعة موته كان والداه يجلسان عندنا، كانا يشربان الشاي ويأكلان الكعك، وعندما مرت سيارة الإسعاف وصفرت في شارعنا في طريقها لنقل يوني ثم عادت بعد لحظات وهي تصفر بصفارة الإنذار في طريقها إلى المستشفى، قالت أمّي ملاحظة عند سماع طنين صفارة الإنذار بأننا جميعا طوال اليوم نقوم بالتخطيط ورسم الخطط المختلفة وهاهو هناك من يضحك منا ومن كل خططنا وبرامجنا في الظلام. عقّبت تشيرنا أبرامسكي بقولها صحيح، هذه سنة الحياة، ومع ذلك سيواصل الناس رسم الخطط والبرامج لأنفسهم لأنه بدون ذلك سيسطر علينا اليأس. بعد عشر لحظات تقريبا جاء جار واستدعى بلطف عائلة أبرامسكي وخرج معهما إلى الساحة وحكى لهما أقلّ من الحقيقة وقد سارعا للركض وراءه حتى أن العمة تشيرنا نسيت عندنا حقيبة يدها وفيها محفظتها ومستنداتها. في الغد عندما ذهبنا لمواساتهما أعاد إليها والدي بصمت هذه الحقيبة بعد أن عانقها كما عانق السيد أبرامسكي. الآن عانقني الاثنان ووالدي والدموع تملأ عيونهما ولكنهما لم يحضرا معهما أيّة حقيبة.

تمالك والدي نفسه وحبس الدموع في عينيه. على كلٍّ في حضوري لم يبك ولا حتى مرة واحدة. طوال حياته آمن والدي أن الدموع تليق بالمرأة ولا تليق بالرجل. كان يجلس طوال النهار على الكرسي الذي كان كرسي أمّي،

ويوما بعد يوم اسودّ وجهه من شعر الحداد الخشن الذي أخذ يكسو وجهه، وكان يستقبل ضيوفه بهزّة رأس وبهزة رأس أيضاً ودّعهم عند خروجهم. تقريبا لم يتكلم في تلك الأيام، وكأنه بموت أمّي شفي دفعة واحدة من عادته دحض كل صمت فورا وفي الحال. الآن ها هو يجلس أياماً كاملة وهو صامت ويفسح المجال للآخرين لكي يتكلموا، عن أمّي، عن الأدب والأدباء، عن تقلبات الوضع السياسي. كنت أحاول دائما أن أجد لنفسي مكانا أجلس فيه قبالته: لم تغفل عيني عنه طوال ساعات النهار. وهو، من جهته، عندما كنت أمرّ بجانب كرسيّه كان يربّت على ذراعي أو على ظهري براحة يد متعبة تربيتة خفيفة مرة أو مرتين. باستثناء هذه التربيتة لم نتكلّم فيما بيننا.

*

والدا أمّي وأختاها لم يحضروا إلى القدس في أيام الحداد ولا في الأيام التي تلتها: لقد حدّوا وفتحوا بيت عزاء منفصلا خاصّاً بهم، في بيت الخالة حايه في تل أبيب، وذلك لانهم اتهموا والدي بالتسبُّب بالكارثة ولم يستطيعوا تحمّل رؤية وجهه بعد ذلك. حتى في الجنازة، هكذا قيل لي، مشى والدي مع والديه في حين مشت أختا أمّي مع والديهما وطوال سير الجنازة والدفن لم يتبادل الفريقان الكلام بينهما أبداً.

أنا لم أكن في جنازة أمّي: الخالة ليليا، ليئة كليش- بار سمخا، التي كانت بيننا هي الخبيرة بالمشاعر والعواطف بشكل عام وبتربية الأولاد بشكل خاص، خشيت من التأثيرات الصعبة للدفن على نفسية الولد. منذ ذلك الوقت، لم تطأ أقدام أبناء عائلة موسْمَن بيتنا في القدس، كما أن والدي من جهته لم يزرهم ولم يحاول أن يتصل بهم أو أن يقيم أي علاقة لأنه تأثّر كثيرا جدّاً من الاتهامات المؤلمة التي وجهوها إليه. خلال سنوات كنت أنا اتنقل بين المعسكرين. في الأسابيع الأولى قمت حتى بنقل رسائل غير مباشرة حول كل ما يتعلق بحاجيات أمّي الشخصية، وفي مرتين أو ثلاث نقلت الحاجيات نفسها. في السنوات التي تلت ذلك كانت خالتاي تحققان معي بشكل حذر حول الحياة اليومية في بيتنا وحول صحة والدي وجدي وجدتي،

وحول زوجة أبي الجديدة، وحتى حول الوضع المالي، ومع ذلك حرصتا جدّاً على قطع إجابتي بالكلمات: لا يهمني أن أسمع. أو: كفى. ما سمعناه فيه الكفاية وزيادة.

والدي، من جهته، أيضاً، أراد أحياناً أن يسمع مني إشارة أو إشارتين حول ماذا تفعل خالتاي وكيف حال أفراد عائلتيهما وكيف حال جدي وجدتي من «كريات موتسكين». ولكنه بعد لحظات من بدء إجابتي عن أسئلته كان وجهه يكفهرّ ألماً وكان يشير إليَّ بيده بحركة رفض طالبا مني الكفّ. وألا أدخل في التفاصيل. عندما توفيت جدّتي شلوميت في سنة ثمانٍ وخمسين طلبت مني الخالتان وكذلك الجد والجدة من جهة أمّي بأنَّ أنقل تعازيهم إلى جدي أَلِكْسَنْدِر، الذي كان في نظر أبناء موسْمَن الوحيد من عائلة كْلاوزْنِر الذي منحه الله قلبا مفعما بالطيبة حقّاً. وبعد خمس عشرة سنة، عندما حكيت لجدي أَلِكْسَنْدِر عن موت جدي الآخر، ضرب كفا بكفّ ووضع كلتا يديه على أذنيه ورفع صوته وقال، بغضب أو بأسى، «بوجي موي! لقد كان ما زال إنسانا صغيرا! إنسانا بسيطا، ولكنه مثير للاهتمام! عميق! أنت، عندما تذهب إليهم قل لهم جميعا بأنَّ قلبي يعتصر ألماً عليه! أرجو أن تنقل إليهم هناك هذه الكلمات بحذافيرها: قلب أَلِكْسَنْدِر كْلاوزْنِر يعتصر ألماً على موت السيد هيرتس موسْمَن الغالي قبل أوانه!»

*

حتى بعد انقضاء أيام الحداد عندما فرغ أخيرا البيت وأغلقنا أنا ووالدي علينا الباب وبقينا وحدنا، لم نتبادل الحديث بيننا تقريبا. باستثناء الأمور الضرورية جدّاً: باب المطبخ لا يقبل الانفتاح، لم يحضروا اليوم البريد. الحمام شاغر ولكن ينقصه ورق تواليت. كما حرصنا ألا تلتقي عينا الواحد منا بعيني الآخر: وكأننا خجلنا جدّاً بشيء ما، بشيء تسببنا به معا وكان من الأفضل لو أننا لن نتسبب به، وعلى الأقلّ من الأفضل لو كان ذلك ممكنا أن تخجل بصمت وبدون شريك يعرف عنك كل ما تعرفه أنت عنه.

عن أمّي لم نتحدث إطلاقا. ولا حتى بكلمة واحدة. كما أننا لم نتحدث أيضاً عن أنفسنا. ولا حتى عن المواضيع التي توجد فيها حتى رائحة

المشاعر. تحدّثنا عن الحرب الباردة. تحدّثنا عن اغتيال الملك عبد الله وعن تهديدات الجولة الثانية. اهتمّ والدي بأن يشرح لي الفرق بين الرمز وبين قصة المثل والحِكَايَة الرَمْزِيَّة وبين السّاجا وبين الأُسْطُورَة. كذلك شرح لي الفوارق بين الليبرالية والاشتراكية- الديمقراطية بشكل واضح ودقيق. وفي كل صباح، وحتى في صباح أيام كانون الثاني هذه الرمادية والضبابية والمبللة، مع بزوغ أول شعاع شمس، كان يعلو دائما من الخارج، من بين الاغصان المتجردة من الأوراق والرطبة صوت سقسقة العصفورة المتجمّدة «إليز»: «تي- دا- دي-دا-دي---» ولكنها في أعماق هذا الشتاء لم تكرر ذلك مرتين أو ثلاثا أو أربع، كعادتها في أيام الصيف، بل اكتفت بأنَّ قالت ما عندها مرة واحدة فقط. وصمتت. لم نتحدث عن أمّي تقريبا ولا مرة طوال سنوات حياتي حتى هذه اللحظة، حتى كتابة هذه الأوراق. ليس مع أبي ولا مع زوجتي ولا مع أولادي ولا مع أي إنسان آخر. بعد موت أبي، عنه أيضاً لم أتحدث تقريبا. وكأنني كنت لقيطاً.

*

في الأسابيع الأولى بعد الكارثة تردّت أحوال المنزل كثيرا جدّاً. لم أقم أنا وكذلك لم يقم أبي بجمع فضلات الطعام عن مشمع طاولة الطعام في المطبخ، ولم نلمس الأواني التي غرّقناها في مياه المغسلة العكرة، حتى نفدت جميعها وكان علينا أن نصطاد من داخل مجمع القاذورات صحنين وشوكتين وسكينين وأن نغسلهما تحت الحنفية وأن نستعملهما وأن نعيدهما إلى كومة الأواني التي بدأت تفوح منها رائحة نتنة. كما أن برميل الزبالة امتلأ وفاض ونتن لأنَّ أيّاً منّا لم يرد أن يحمله ويفرغه. كما أننا ألقينا بملابسنا على كل كرسيّ في المنزل، وإذا احتجنا إلى كرسيّ كنا نلقي بكل ما عليه إلى المسطبة. الأوراق والكتب والقشور وقطع الورق والمناديل المستعملة كانت تتجول هنا وهناك على بلاط مسطبة المنزل. كذلك عندما سُدّ كرسي المرحاض بشكل جزئي لم نحرك نحن الاثنان ساكنا. أكوام من الغسيل ملأت الحمام وفاضت خارجه إلى الممرّ وهناك كانت بانتظارها تلال من القناني الفارغة، والكراتين، والمغلفات غير الصالحة والرزم القديمة لحاجيات من

البقالة (هكذا، تقريبا، صوّرت شقّة «فيما» في كتابي «الحالة الثالثة»).

ومع ذلك، في هذه الفوضى العارمة، خيّمت على بيتنا الأخرس مراعاة عميقة متبادلة لمشاعر الآخر: تنازل لي أبي أخيرا عن ساعة إطفاء الأضواء وترك لي أن أقرّر بنفسي متى أطفئ الضوء. وأنا، من جانبي، مع عودتي من المدرسة إلى المنزل الخالي والمهمل، كنت أحضّر لنفسي طعاما بسيطا: بيضة مسلوقة وجبنة وخبز وبعض الخضراوات وبعض قطع السردين أو التونة من علبة معلبات. وكنت أحضّر لأبي أيضاً قطعتين من الخبز مع قطع البندورة والبيض المسلوق مع أن أبي في الغالب كان يأكل قبل ذلك شيئا ما في كافيتيريا بناية التيراسانطة.

على الرغم من الصمت والخجل كنت أنا وأبي قريبين من بعضنا في تلك الأيام، قريبين كما كنا في الشتاء الماضي، قبل سنة وشهر من الكارثة، عندما تردّى وضع أمّي وكنت أنا وهو زوجا نحمل معا حمّالة جريحتهما ويصعدان بها سفح جبل شديد الانحدار.

الآن يحمل الواحد منا الآخر.

وطوال أسابيع الشتاء تلك لم نفتح شباكا أبدا. كأننا خشينا أن نفقد نتانة البيت. وكأنه كان كلٌّ منّا يرتاح برائحة جسم الآخر، وحتى عندما انضغطت الرائحة وتكثفت جدّاً. تحت عيني والدي ظهرت أهلة غامقة مثل تلك التي كانت لأمّي في أيام أرقها. كنت أستيقظ في الليل مذهولا فأتسلّل حافيا إلى غرفته لأرى إذا ما كان يجلس مثلها مستيقظا على الكرسي يحملق في الفضاء بحزن أمام الشباك. لم يجلس والدي على الكرسي أمام الشباك ولم يحملق في الفضاء في قطع الغيوم أو في القمر. اشترى لنفسه جهاز راديو صغيرا اخضر العين من إنتاج شركة «فيليبس» وثبّته عند موضع رأسه على السرير وكان يضطجع في الظلام ويسمع كل شيء: في منتصف الليل عندما كان ينقطع البثّ من دار الإذاعة «صوت إسرائيل» وبدلا منه يصدر صفير طويل يصم الآذان، كان أبي يرتفع قليلا ويمد يده باحثا عن محطة الـ بي بي سي البريطانية التي تبث من لندن.

*

في أحد الأيام، قبيل المساء، جاءتنا فجأة جدتي شلوميت، تحمل قصعتين ممتلئتين بمأكولات كانت قد طبختها من اجلنا. فورا بمجرد أن فتحت لها الباب تسمرت مما شاهدته عيناها أو من النتانة التي هاجمت منخريها. ودون أن تكاد تقول شيئا أقفلت راجعة تنقذ نفسها من الخطر. ولكنها عادت وظهرت في اليوم التالي في الساعة السابعة صباحا، مسلّحة هذه المرة بخادمتين وبترسانة من موادّ التنظيف والتعقيم. وهي بنفسها أقامت مقرا حربيا أماميا على مقعد في الساحة مقابل مدخل المنزل ومن هناك أدارت المعركة التي استمرّت ثلاثة أيام.

هكذا عاد المنزل إلى سابق عهده ولم نعد أنا وأبي نهمل أي واجب من واجبات البيت. تم استئجار إحدى الخادمتين لكي تحضر إلينا مرتين في الأسبوع. تمت تهوية البيت كله وتنظيفه وبعد شهرين أو ثلاثة قررنا أن نستدعي دهانا.

ولكن، منذ أيام الفوضى العارمة تلك، أنا لم أشفَ من الشهوة المرضية إلى الترتيب والتي تقض حتى يومنا هذا مضاجع حياة أفراد بيتي: كل ورقة ليست في مكانها، كل جريدة غير مطوية أو فنجان غير مغسول يهدد سكينة روحي إذا لم يكن اتّزاني. مثل شرطي الـ كي جي بي، أو مثل المسخ فيركنشتاين، وربما مثلي مثل جنون النظافة والترتيب الذي لجدتي شلوميت، فأنا احرث البيت، حتى يومنا هذا، كل بضع ساعات، أبعد وأخفي بقسوة في أعماق صحاري سيبيريا كل غرض لم يحالفه الحظ وتواجد على سطح ما، وأخفي إلى الأبد في داخل درج خفي منسيّ كل رسالة أو منشور مفتوح وضعه أي واحد منهم للحظة على الطاولة لأنّهم استدعوه ليردّ على التلفون، أضع في المغسلة وأغسل، وأضع داخل الجلاية الكهربائية بشكل مقلوب كل فنجان قهوة وضعه أحد ضحاياي على الطاولة لكي تبرد القهوة قليلا، أمحو، بدون شفقة، من الأماكن المكشوفة للنظر، كل مجموعة مفاتيح، أو نظارات، أو أوراقاً، أو أدوية، أو قطعة كعك في صحن، أدار صاحبها ظهره، ببراءة، إليها للحظة: كل شيء يسقط فورا بين فكّي المسخ الذي يقوم بجرشه ويخفي كل شيء لكي يصبح هناك أخيرا نوع من الترتيب في هذا

البيت الفوضوي. لكيلا يذكّرني هذا البيت ولو بالتلميح والإشارة من بعيد بما كان عليه بيت أبي وبيتي في تلك الأيام التي اتفقت أنا وهو فيما بيننا بصمت كامل بأنه من الأفضل لنا أن نجلس داخل الرماد وأن نحكّ أجسامنا بالخزف، فقط من اجل أن تعلم هي.

*

بعد ذلك نهض أبي، في أحد الأيام، وانقضّ بغيظ شديد على أدراج أمّي وعلى الجهة الخاصّة بها من خزانة الملابس: ولم تنج من يديه إلا بعض الأغراض التي طلبتها أختا أمّي ووالداها كتذكار من أختهما وابنتهما، بواسطتي، وفعلا في إحدى سفراتي أحضرتها إليهم إلى تل أبيب داخل كرتون كتب مربوط بحبل. أمّا ما سوى ذلك، الفساتين، والتنانير، والأحذية، والملابس الداخلية، والدفاتر، والجوارب، والمناديل والشالات واللفحات وحتى مغلفات مملوءة بصور الطفولة، كلها وضعها والدي في أكياس غير شفافة أحضرها معه من المكتبة القومية. وأنا رافقته من غرفة إلى غرفة مثل الكلب الصغير وشاهدت ثورة أعصابه وأفعاله ولم أساعده ولكني لم أضايقه أيضاً. دون أن انبس ببنت شفة نظرت إلى أبي عندما سحب بجام غضبه درج أمّي الليلي وفيه قطعتان أو ثلاث من المجوهرات البسيطة، والدفاتر وعلب أدوية وكتاب ومنديل وغطاء للعينين وبعض القطع النقدية المعدنية، قلب الدرج وفرّغ محتوياته داخل أحد أكياسه. لم أقل أيّة كلمة. وكذلك علبة مكياج أمّي وفرشاة شعرها وأدوات الاستحمام وفرشاة أسنانها. كل شيء. صامتا وفزعا وقفت مستندا بظهري على خشبة إطار الباب ونظرت إلى أبي وهو يقتلع بحركة تمزيق تصم الآذان روب أمّي الأزرق من على شنكل مشجب الحمام ويدعسه ويزج به أيضاً دون شفقة في أحد الأكياس. ربما بهذا الشكل وقف وصمت الجيران المسيحيون مستندين بظهورهم على خشبة إطار باب البيت، مفزوعين يغرسون عيونهم ولا يتمالكون انفسهم بسبب المشاعر المتضاربة عندما جاؤوا ليقتلعوا بالقوة جيرانهم اليهود ويضغطوهم جميعا حتى آخر واحد منهم داخل عربات النقل. أين ذهب أبي بتلك الأكياس، هل تبرع بها لصالح فقراء

«المعبروت»[1] والمصابين بفيضانات الشتاء، عن ذلك لم يخبرني ولا حتى بكلمة واحدة إطلاقا. مع حلول المساء لم يبقَ لها أي ذكر. بعد سنة فقط، عندما جاءت زوجة أبي الجديدة واستقرت في المنزل، تم اكتشاف علبة فيها ستة دبابيس شعر بسيطة نجحت في أن تنجو وتختبئ سنة كاملة في الفراغ المخفي الذي بين الدرج الليلي وبين ظهر الخزانة. صمّ والدي شفتيه وألقى بها أيضاً إلى سلة المهملات.

*

بعد عدة أسابيع من دخول الخادمات وبعد تنظيف وتعقيم البيت، عدنا أنا وأبي رويدا رويدا، إلى عقد ما يشبه جلسات طاقم يومية بيننا في المطبخ قبيل المساء: كنت دائما ابدأ أنا وأحكي له باختصار عن مجريات الأمور في المدرسة. وكان أبي يحكي لي عن محادثة مثيرة للاهتمام أجراها في ذلك اليوم، وهو يقف بين رفوف المكتبة، مع البروفيسور جويتين أو مع الدكتور روتنشترايخ. كنا نتبادل الآراء ووجهات النظر حول الوضع السياسي، وحول بيغن وبن غوريون وعن انقلاب الضباط الأحرار محمد نجيب في مصر. عدنا وعلّقنا في المطبخ بطاقة سجلنا عليها بخطي يدينا، اللذين أصبحا اقل تشابها، ماذا علينا أن نشتري من البقالة وماذا من عند بائع الخضراوات وأن نذهب معا إلى الحلاق في يوم الاثنين بعد الظهر أو أن نشتري هدية صغيرة للخالة ليلينكا بار سمخا تهنئة لها بالشهادة الجديدة، أو للجدة شلوميت بمناسبة عيد ميلادها الذي كان رقمه يحفظ في السر دائما.

بعد مرور عدة أشهر أخرى عاد أبي إلى عادته، أن يمسح ويلمّع حذاءه، أحياناً، حتى ينبعث منها الشرار عندما ينعكس عليها ضوء الكهرباء، وأن يستحمّ في السابعة مساء وأن يلبس قمصانا مكوية ومنشّاة ويلبس إحدى ربطات عنقه الحريرية، وأن يرطب قليلا شعره الأسود قبل أن يمشطه بفرشاة الشعر إلى أعلى وأن يرشّ على نفسه ماء كولونيا وأن يخرج «لجدال قصير مع الأصدقاء» أو «للتشاور في شئون العمل».

---

(١) مخيمات أقيمت لاستيعاب المهاجرين إلى إسرائيل (المترجم).

أمّا أنا فقد كنت أبقى لوحدي في البيت، أقرأ، واحلم الأحلام، وأكتب وأشطب ثم أعود وأمحو. أو أنني كنت أخرج للتسكّع قليلا في الأودية وافحص عن قرب في الظلام ما هي أحوال أسيجة المناطق الحرام وحقول الألغام على امتداد خط وقف إطلاق النار الذي قسّم القدس بين إسرائيل والمملكة الأردنية الهاشمية. كنت أسير وحدي في الظلام وأدندن بيني وبين نفسي بشفتين مغلقتين تي- دا- دي- دا-دي مرة أخرى لم تتق نفسي إلى «أن أموت أو أن أحتلّ الجبل». أردت أن يتوقف كل شيء. أو على الأقلّ أردت أن أترك وإلى الأبد البيت والقدس وأن أذهب للعيش في الكيبوتس: وأن اترك ورائي جميع الكتب وجميع المشاعر وأن أعيش حياة بسيطة، حياة قروية، حياة أخوّة وعمل يدويّ.

٦٣

وضعت أمّي حدّاً لحياتها في منزل أختها في شارع بن يهودا في تل أبيب في الليلة التي بين يوم السبت ويوم الأحد في السادس من كانون الثاني ١٩٥٢ وهو الموافق للثامن من شهر «تيفت» العبري سنة ٥٧١٢. في تلك الأيام ثار في البلاد جدل مليء بالهستيريا حول السؤال هل يُسمح لإسرائيل أم يُحظر عليها أن تطلب وأن تأخذ تعويضات من ألمانيا على فقدان أملاك اليهود الذين قتلوا في ألمانيا أيام هتلر. كان هناك من وافق على رأي بن غوريون الذي كان رأيه بأنه يجب ألا نسمح بأن يكون القتلة هم الوارثين. وأنه من اللائق جدّاً أن يردّ ثمن الأملاك اليهودية التي سرقها الألمان ويعاد كاملا إلى دولة إسرائيل حيث تمكّنها هذه الأموال من استيعاب الناجين من المذبحة. بالمقابل كان هناك آخرون على رأسهم زعيم المعارضة مناحم بيغن والذين ادعوا بألم وغضب بأنَّ هذا العمل يوشك أن يكون جريمة أخلاقية وحتى تدنيسا لذكرى الضحايا الذين توشك دولتهم أن تبيع للألمان غفران جرائم سهلا مقابل مكسب مادي دنس.

في جميع أرجاء البلاد في ذلك الشتاء، شتاء ١٩٥١- ١٩٥٢ أمطار غزيرة بلا توقف تقريبا. وادي «أيلون» وهو وادي المصرارة فاض وغمر حيّ مونتيفوري في تل أبيب وهدد بغمر أحياء أخرى أيضاً. الفيضانات الكثيرة أدّت إلى دمار كبير في مخيمات الخيام، والمزنكيات والسقائف التي زُجّ فيها في تلك الأيام مئات الآلاف من اللاجئين اليهود الذين هربوا بدون أي شيء من الدول العربية وعشرات آلاف الناجين من هتلر من شرق أوروبا ومن دول

البلقان. في عدد من الأماكن عزلت الفيضانات المخيمات حتى أوشكت على أن تتعرض لخطر المجاعة وانتشار الأوبئة. كان عمر دولة إسرائيل في ذلك الوقت اقل من أربع سنوات وعاش فيها في تلك الأيام أكثر قليلا من مليون مواطن. حوالي الثلث منهم كانوا لاجئين فقراء معدمين. بسبب كثرة المصاريف على الجيش وعلى استيعاب الهجرات وكذلك بسبب أجهزة مضخمة ومعقّدة فرغت خزانة الدولة، وكانت خدمات التربية والتعليم والصحة والرفاه الاجتماعي على وشك الانهيار. في بداية ذلك الأسبوع طار دافيد هوروفيتس، مدير عام وزارة المالية، للقيام بزيارة طوارئ في أمريكا، على أمل أن يجنّد خلال يوم أو يومين قرضا قصير الأمد بمبلغ عشرة ملايين دولار لكي يمنع الانهيار المتوقع. حول هذه الأمور كلها تحدثت أنا ووالدي عند عودته من تل أبيب: في يوم الخميس وصل أبي وأمّي إلى بيت خالتي حايه وعمي تسفي، بل بات معها عندهما ليلة واحدة، وعند عودته في يوم الجمعة سمع من جدتي شلوميت وجدي اَلِكْسَنْدِر بأنني ربما أصبت بالزكام ولكنني أصررت على أن انهض من الفراش وأذهب إلى المدرسة. اقترحت جدتي أن نبقى كلانا لقضاء السبت في منزلهما: لقد بدا لها أنه قد بدأ عندنا، نحن الاثنين، نوع من الفيروسات. ولكننا فضّلنا أن نذهب إلى البيت. في الطريق من بيت جدي وجدتي في زقاق «براغ» إلى بيتنا رأى والدي أنه من المناسب أن يقدم لي تقريرا بكل جدية، كما يخاطب البالغُ البالغَ، بأنه في بيت الخالة حايه تحسّنت على الفور حالة أمّي النفسية: وقد خرج أربعتهم في مساء يوم الخميس، تسفي وَحايه وأمّي وأبي، للجلوس بعض الوقت في مقهى صغير، على بعد خطوتين من بيت حايه وَتسفي في شارع ديزنغوف عند التقائه بشارع جابوتِنْسكي. في النهاية اتضح أنهم جلسوا هناك حتى ساعة اغلاق المقهى وتحدثوا عن الناس وعن الكتب. حكى تسفي قصصا طريفة من حياة المستشفى ووجه أمّي كان جيدا وقد اشتركت في الحديث وفي الليل نامت عدة ساعات ولكنها في إحدى الساعات بعد منتصف الليل استيقظت وخرجت لكي تجلس هناك في المطبخ لكيلا تزعج النائمين. في الصباح الباكر عندما ودّعها والدي لكي يعود إلى القدس ويتمكن من الذهاب إلى

عمله لعدة ساعات في قسم الصحافة، ودعته أمّي وهي تعده بأنه لا حاجة لأن نقلق عليها، إذ أن الأسوأ قد أصبح من خلفها، ومن فضلك انتبه جيدا للولد: إذ أنه بالأمس عندما خرجا في طريقهما إلى تل أبيب بدا لها أن الولد على وشك أن يصاب بالزكام.

قال والدي:

«أمّك على حقّ، بكل تأكيد، في موضوع الزكام، وآمل أنها على حق أيضاً بالنسبة لما قالته عن الأسوأ الذي أصبح من خلفها.»

وقلت أنا :

«لم يبق علي إلا بعض الدروس، بعد أن أنهيها، ربما كان عندك بعض الوقت لكي نلصق الطوابع الجديدة في الألبوم.»

طوال ذلك السبت هطلت الأمطار. هطلت وهطلت. ولم تتوقف. قضيت أنا وأبي الوقت ونحن ننحني فوق مجموعة الطوابع خاصتنا. اصطدم رأسي بطريق الصدفة عدة مرات برأسه. قارنا كل طابع بمثيله في الكتالوج البريطاني السميك ووجد والدي لكل طابع جديد مكانه الصحيح في الألبوم، إن كان في إطار سلسلة كانت ممثلة عندنا أو في صفحة جديدة. في ساعات الظهر من يوم السبت اضطجعنا لنستريح هو في مكانه وأنا مرة أخرى في غرفتي، على السرير الذي تحول في الأيام الأخيرة إلى سرير مرض أمّي. بعد الاستراحة كنت أنا ووالدي مدعوّين إلى بيت جدي وجدتي لتناول السمك المحشوّ المغموس بصَلْصَة ذهبية ومحاط من جميع الجهات بقطع من الجزر المطبوخ. ولكن بما أنّ كلينا مصابان بالانفلونزا التي صاحبها السعال والدموع في العينين، ولأنّه في الخارج سقط المطر مائلا جارفا وهبطت الغيوم حتى تداخلت بين البنايات الحجرية، قررت أنا ووالدي أنّه من الأفضل لنا أن نبقى في البيت. بسبب السماء المنخفضة كان علينا أن نشعل أضواء الكهرباء منذ الساعة الرابعة. جلس والدي على طاولة مكتبه واشتغل حوالي الساعتين أو الثلاث على مقال كان قد أجله مرتين، نظاراته تهبط قليلا في منحدر انفه، وهو منحنٍ فوق كتبه وبطاقاته الصغيرة. طوال ساعات عمله ربضت أنا عند رجليه على الحصيرة وقرأت كتابا. قبيل المساء لعبنا «دومينو»، غلبني والدي

مرة وغلبته مرة وفي المرة الثالثة انهينا اللعبة بالتعادل. من الصعب أن اعرف إذا كان والدي سبب هذه النتائج عن قصد أم أنها كانت مجرد صدفة. أكلنا شيئا ما بسيطا وشربنا الشاي الساخن وأخذ كل منا من علبة أدوية أمّي قرص أوبتلجين أو قرص آ- بي- تسي لكي نقاوم الانفلوانزا. بعد ذلك دخلت سريري لكي أنام وقد استيقظنا في الساعة السادسة صباحا. وفي الساعة السابعة جاءت تسيبي بنت الرجل صاحب الصيدلية لتخبرنا بأنهم اتصلوا الآن من تل أبيب واخبرونا بأنهم سيتصلون مرة ثانية بعد عشر دقائق وهم يطلبون من السيد كْلاوزْنِر أن يذهب في الحال إلى الصيدلية لاستقبال المكالمة، كما أن والدها قال لها أن تقول بأنَّ الأمر مستعجل.

*

حكت لي الخالة حايه أنّه في يوم الجمعة دعا العم تسفي الذي عمل مديرا للجهاز الإداري في مستشفى «تسهلون» طبيبا مختصّاً من المستشفى والذي تطوّع أن يحضر بشكل خاص إلى بيتهم بعد ساعات الدوام. فحص هذا الطبيب المختصّ أمّي جيدا، ولم يسرع إلى الخروج بل بقي ليتحدث معها ثم عاد وفحصها وفي النهاية قرر أنها مرهقة، متوتّرة ومكتئبة قليلا. باستثناء الأرق وقلة النوم لا يرى أنها تعاني من أي مشكلة خاصة. في كثير من الأحيان النفس هي العدو اللدود للجسم: لا تسمح للجسم بأن يعيش، ولا تسمح له بأن يستمتع عندما يريد هو المتعة ولا تسمح له بأن يرتاح عندما يتوسّل للراحة. لو كان بإمكاننا أن نخرج النفس بواسطة عملية بسيطة كما نجتث اللوزتين من الحلق أو الزائدة الدوديّة، لكننا جميعا نستطيع أن نعيش ألف سنة بصحة جيدة وبمتعة وسرور. الفحص الذي حدد لها ليوم الاثنين القادم في مستشفى «هداسا» في القدس رأى الطبيب المختص بأنّه غير ضروري، مع أنه لا يضرّ. وهو من جانبه يوصي براحة تامة والامتناع عن الانفعالات. وبشكل خاص كان من المهم في نظره أن تتنزّه المريضة ساعة على الأقلّ أو ساعتين يوميا خارج المنزل، حتى أنه يمكنها أن تلبس ملابس دافئة وأن تتزوّد بشمسية وأن تتجول في الشوارع تتفرج على شبابيك العرض أو لا تتفرج عليها وأن تنظر بدلا من ذلك على الشباب الصغار والجميلين،

غير مهم، المهم هو المشي في الهواء الطلق والنقيّ. بالإضافة إلى ذلك وصف لها الطبيب أقراص نوم جديدة وقوية جدّاً والتي كانت على ما يبدو جديدة وقوية أكثر من تلك الأقراص الجديدة التي وصفها لها الطبيب الجديد من القدس. سارع العم تسفي لشراء هذه الأقراص من الصيدلية المناوبة في شارع «بوغرشوف» لأنّ الوقت كان بعد الظهر من يوم الجمعة وجميع الصيدليات الأخرى كانت قد أغلقت إكراما لقدسية يوم السبت التي تبدأ مساء يوم الجمعة.

في ليلة السبت جاءت الخالة سونيا والعم بوما واحضرا معهما قصعة معدنية لها محمل وضعا فيها شوربة للجميع وعدة وجبات من الفاكهة المطبوخة بالسكر للتحلية كوجبة أخيرة. وقفت الأخوات الثلاث حوالي الساعة أو الساعة والنصف في مطبخ حايه الصغير وحضرن وجبة العشاء. اقترحت الخالة سونيا أن تستضيف أمّي في بيتها في شارع «فيزل» لكي تخفّف قليلا عن حايه. لكن الخالة حايه لم تحلم بالتنازل، كما أنها وبّخت قليلا أختها الصغيرة على مجرد أنها فكرت بهذه الفكرة الغريبة. تأثّرت خالتي سونيا قليلا من توبيخ أختها لها إلا أنها لم تقل شيئا. في وجبة ليلة السبت كان الجو معكّرا قليلا بسبب إهانة سونيا. أمّي، هكذا تخيلت، أخذت على عاتقها المهمة التي كانت دائما من نصيب والدي وحاولت أن تحافظ على تواصل الحديث حتى نهاية تلك الأمسية. في نهاية السهرة شكت أمّي من التعب واعتذرت لتسفي وحايه عن عدم قدرتها على مساعدتهما في تنزيل الأواني عن المائدة وتنظيفها. تناولت قرصا من الأقراص الجديدة التي وصفها لها الطبيب المختصّ التل- أبيبي، وربما أنها، كنوع من الاحتياط، تناولت أيضاً من الأقراص الجديدة السابقة التي وصفها لها الطبيب المقدسيّ. في العاشرة نامت ونامت نوما عميقا إلا أنها استيقظت بعد ساعتين تقريبا وذهبت إلى المطبخ وحضرت لنفسها فنجان قهوة سوداء وثقيلة وجلست حتى آخر الليل على أحد كراسي المطبخ. قبيل حرب الاستقلال سكن كمستأجر في الغرفة التي نزلت فيها أمّي، ضابط المخابرات في تنظيم «الهاجناه»، يجائل يدين، والذي أصبح مع قيام الدولة الجنرال يجائل يدين، نائب قائد

الأركان العامة في جيش الدفاع الإسرائيلي ورئيس قسم العمليات ولكنه بقي يسكن في نفس الغرفة. المطبخ الذي جلست فيه أمّي طوال تلك الليلة وكذلك في الليلة التي سبقتها. كان إذن مطبخا تاريخيا، لأنه في أيام الحرب عقدت فيه عدة اجتماعات تشاور مصيرية حسمت مصير المعركة. لا سبيل إلى أن نعرف إذا ما فكرت أمّي في هذه الأمور للحظة خلال تلك الليلة، بين فنجان قهوة حادّ وفنجان قهوة حاد آخر. وإذا كانت فكرت في ذلك فإنني أشك في أن يكون ذلك قد أثار اهتمامها.

*

في صبيحة يوم السبت قالت لحايه ولتسفي بأنها قررت أن تتبنى نصيحة الطبيب المختص وأن تخرج للتنزّه ساعة في الشوارع وأن تتفرج، كما أوصى الطبيب، على الشباب الصغار وجميلي المظهر. طلبت واستعارت من أختها شمسية وجزمة مبطّنة وخرجت لتمشي في المطر. من المؤكّد أن المارة لم يكونوا كثيرين، في شمالي تل أبيب في صباح ذلك السبت الماطر والعاصف برياحه الرطبة. في ذلك الصباح الخامس من كانون الثاني من سنة ١٩٥٢، سجلت في تل أبيب درجةُ الحرارة ستّ أو خمس درجات مئوية. في الساعة الثامنة أو في الساعة الثامنة والنصف خرجت أمّي من بيت أختها الواقع في شارع بن يهودا رقم ١٧٥. ربما أنها قطعت شارع بن يهودا وتوجهت يسارا إلى الشمال باتجاه جادّة نورداو. شبابيك عرض تقريبا لم تصادفها في طريقها، باستثناء شباك محلبة «تنوفا» المظلم والذي على زجاجه ألصق من الداخل بواسطة أربع قطع ورق دبق بني اللون إعلان اخضر فاتح فيه تظهر بنت فلاحة راضية قانعة على خلفية مروج مزدهرة متفتحة ومرعى ومن فوق رأسها على وجه السماء الزرقاء الصافية رفرفت فرحة جملة تقول: «حليب في الصباح حليب في المساء بهجة حياة بلا انتهاء». في ذلك الشتاء كانت ما زالت مساحات كثيرة على جانبي شارع «بن يهودا» فارغة، بقايا كثبان رملية بين البيوت، عليها شجيرات العُلّيق والعُنصل الميتة والتي التصقت بها بكثافة الحلزونات البيضاء، بالإضافة إلى الخردوات والقمامة المشبعة بمياه الأمطار. شاهدت أمّي صفوف البنايات المرشوقة باللون الأبيض والتي بعد ثلاث أو

أربع سنوات من إنشائها ظهرت عليها آثار أظفار البِلى: دهان متقشّر وقصارة تغلغلت إليها الرطوبة فاخضرّ لونها وتقشّرت وتعفنت، ودرابزينات حديد أكلها الصدأ بسبب رياح البحر المالحة، وشرفات قد تم إغلاقها بألواح فورنير وديكت وكأنّها في مخيم نازحين، لافتات سقطت من مكانها، أشجار زينة ماتت في الساحات لانعدام من يحبها، ومخازن بالية متهرئة أقيمت بين بناية وأخرى بواسطة ألواح من الخشب المستعمل ومن الصفيح ومن قطع قماش القنّب. قوافل من تنك الزبالة التي قلبت قسما منها قطط الشارع، فتدفقت محتوياتها على أرصفة الباطون الرمادية. حبال الغسيل التي امتدت من شرفة إلى الشرفة المقابلة. هنا وهناك اختلطت وتشابكت حبال الغسيل تلك فدارت يائسة تحت فعل الرياح الشديدة أنواع مختلفة من الملابس الداخلية البيضاء والملوّنة المشبعة بمياه الأمطار. كانت أمّي مرهقة جدّاً في ذلك الصباح، ورأسها، بكل تأكيد، كان ثقيلا بسبب قلة النوم ومن الجوع ومن كثرة شرب القهوة السوداء الثقيلة وحبّات الدواء، لذلك كانت خطواتها بطيئة مثل خطوات امرأة تمشي وهي نائمة. ربما أنها من شارع «بن يهودا» وقبل أن تصل إلى جادة «نورداو» توجهت أمّي إلى اليمين إلى زقاق «يفي نوف» (المنظر الجميل) والذي لم يكن فيه أي منظر جميل بل بيوت طينية منخفضة، مبنية بحجارة طوب ودرابزينات حديد صدِئة، وهذا الزقاق قادها إلى جادّة موتسكين والتي لم تكن جادّة بل شارعا فارغا، قصيرا وعريضا مبنيا حتى النصف وقسم منه ما زال غير معبّد ولا حتى مرصوف. ومن موتسكين حملتها رجلاها المرهقتان إلى زقاق تاهون ومن تاهون إلى شارع ديزينغوف حيث بدأت الأمطار الشديدة والثاقبة تهطل عليها، ولكنها لم تفطن إلى وجود الشمسية معها والتي كانت معلقة على ذراعها، تابعت سيرها مكشوفة الشعر في المطر، حقيبة يدها الجميلة معلقة بواسطة سيرها على كتف معطفها، قطعت شارع ديزينغوف إلى حيث قادتها قدماها، ربما إلى شارع زنجفيل ومنه إلى زقاق زنجفيل والآن قد أصبحت ضائعة فعلا، لا تعرف أي شيء عن طريقة عودتها إلى بيت أختها كما أنها لم تعرف لأيّ غرض عليها أن تعود ولم تعرف لماذا مشت هذا المشوار إذا لم يكن تلبية لتوصية الطبيب المختصّ

الذي حكم عليها بالتجوّل في شوارع تل أبيب لكي تتفرج على الشباب الصغار وجميلي المظهر. ولكن أيّاً من هؤلاء الشباب لم يكن في صباح ذلك السبت الماطر، لا في شارع زنجفيل ولا في زقاق زنجفيل ولا في شارع سوكولوف الذي منه وصلت إلى شارع بازل ولا في شارع بازل ولا في أي مكان. ربما فكرت في تلك الساعة ببستان الفواكه الواسع الذي امتدّ خلف بيت والديها في روفْنو أو بإيرا شْتيليتْشْكايا، زوجة المهندس من روفْنو التي أحرقت نفسها داخل سقيفة أنطون ابن الحوذيّ فيليب المهجورة. وربما فكرت بالمدرسة الثانوية «تربوت» وبمناظر النهر والغابة. أو بأزقة مدينة براغ العتيقة وبأيامها في الجامعة، وكذلك بمن، لم تتحدّث عنه أمّي، على ما يبدو، ولا مرة، لا لنا ولا لأختيها، ولا لليلينكا صديقتها الحميمة. هنا وهناك، مرّ بها راكضا عابر سبيل مستعجلا هاربا من المطر. هنا وهناك قطع طريقها قط ربما نادته أمّي، أرادت أن تسأله عن شيء ما، أو أن تتبادل معه الآراء أو المشاعر وأن تطلب منه نصيحة قطط بسيطة، ولكن كل قط توجهت إليه بالكلام هرب من وجهها مذهولا وكأنه استطاع أن يشتم منها، عن بعد، مصيرها الذي قد تقرر.

*

في ساعات الظهيرة عادت إلى بيت أختها وهناك فُزِعوا من منظرها، لأنها كانت متجمّدة كلها ومشبعة بالماء ولأنها شكت، كمن تتندّر، من أن شوارع تل أبيب خالية من الرجال الشباب وجميلي المظهر: لو أنها وجدت بعضا منهم لربما حاولت أن تغريهم، إذ أن الرجال نظروا إليها دائما بنظرات شهوانية، وعما قليل لن يبقى هناك ما يشتَهى. سارعت أختها حايه إلى ملء حوض الاستحمام بالماء الساخن واغتسلت أمّي، ورفضت أن تذوق أي نوع من أنواع الطعام إذ أن كل شيء أثار فيها الاشمئزاز والغثيان، نامت ساعتين أو ثلاث ساعات وقبيل المساء عادت ولبست ولفّت نفسها بالمعطف الذي لم يكد يجف، لبست جزمة والتي كانت هي الأخرى ما زالت مشبعة بالمياه الباردة من مسيرتها الصباحية، وعادت وخرجت بحسب نصيحة الطبيب المختصّ بأن تبحث في شوارع تل أبيب عن شباب صغار وجميلي المظهر.

وفي هذه المرة، قبيل المساء، ولأنّ المطر هدأ قليلا لم تكن الشوارع فارغة وأمّي لم تتجول عبثا بل وجدت الطريق إلى ديزينغوف زاوية كيرن كيمت ومن هناك إلى ديزينغوف - غوردون، وإلى ديزينغوف- فريشمن، حقيبتها الجميلة السوداء معلقة بسير على كتف معطفها، شاهدت شبابيك العرض الجميلة والمقاهي وأطلت على ما اعتبرته تل أبيب حياة بوهيمية، إلا أن كل شيء بدا في نظرها مستعملا، رثّاً، حزينا مثل تقليد التقليد لما أصله الأول كان بائسا وحزينا أيضاً. كل شيء بدا في نظرها جديرا وبحاجة إلى الشفقة ولكن شفقتها هي قد نفدت. قبيل المساء عادت إلى البيت، تنازلت هذه المرة أيضاً عن الطعام، شربت فنجان قهوة سوداء وبعده شربت فنجانا آخر. وجلست تتصفّح كتابا ما سقط من بين يديها مقلوبا عند قدميها، عندما أُغمضت عيناها، ولمدة عشر دقائق خُيّل للعم تسفي والخالة حايه أنهما سمعا من جهة كرسيّها غطيطا خفيفا، غير منتظم. بعد ذلك استيقظت وقالت بأنّها بحاجة إلى الاستراحة، وأنها تشعر بأن الطبيب المختص كان على حقّ كبير عندما أمرها بأن تمشي كل يوم عدة ساعات في شوارع المدينة، وأنها تشعر بأنّها في هذه الليلة ستنام مبكرا وأنها ستنجح في آخر المطاف في أن تنام نوما عميقا جدّاً. منذ الساعة الثامنة والنصف مساء فرشت لها أختها السرير من جديد وغيّرت لها الشرشف والملحفة ووجه المخدة وحتى وضعت لها قربة ماء ساخن تحت لحاف الزَّغب لأنَّ الليالي كانت باردة جدّاً، وفي تلك الساعة بالضبط تجدد هطول الأمطار في الخارج وبدأ يضرب أباجورات الشبابيك بقوة. اختارت أمّي أن تنام هذه الليلة بملابسها ولكي تضمن أنها لن تستيقظ لليلة معاناة في المطبخ صبت لنفسها فنجان شاي من الترموس الذي حضّرته لها أختها عند رأس سريرها وانتظرت حتى يبرد قليلا وعندما برد بلعت مع الشاي أقراص النوم خاصّتها. لو كنت هناك بجانبها في الغرفة التي تشرف على الساحة الخلفية في منزل حايه وتسفي في تلك الساعة، في الثامنة والنصف أو في التاسعة إلا ربعا من مساء ذلك السبت، لكنت، بكل تأكيد، حاولت بكل قواي أن أشرح لها لماذا هذا ممنوع. وإن كنت فشلت في أن اشرح لها كنت سأبذل كل جهدي لكي أثير شفقتها، لتشفق على ابنها،

وحيدها. كنت سأبكي وأتوسّل بدون أي خجل وكنت سأقبل قدميها وربما كنت أيضاً سأتظاهر بالمغمى عليه أو كنت سألطم وأجرح نفسي حتى تسيل دمائي كما شاهدتها تفعل هي نفسها في لحظات اليأس. أو كنت سأهجم عليها مثل القاتل، دون تردد، أحطّم رأسها بمزهرية. أو أضربها بالمكواة التي كانت تقف على الرف في زاوية الغرفة. أو استغلّ ضعفها وانبطح فوقها وأقيد لها يديها خلف ظهرها وأخطف وأفني جميع حبات الدواء والأقراص والمحاليل والسيروبات والتركيزات التي كانت عندها. ولكنهم لم يسمحوا لي أن أكون هناك. وحتى أنهم لم يسمحوا في أن أمشي في جنازتها. نامت أمّي، نامت هذه المرة بدون أيّة كوابيس وبدون أي ارق أو قلق وقبيل الصباح تقيّأت ثم عادت ونامت بملابسها ولأن تسفي وَحايه بدآ يشكّان فيها استدعيت قبيل الشروق بقليل سيارة إسعاف حيث قام اثنان بنقلها بلطف إلى الحمّالة كيلا يزعجوها في نومها، وفي المستشفى أيضاً لم ترد أن تمتثل لهم وعلى الرغم من أنهم حاولوا أن يزعجوا نومها بهذه الطريقة أو تلك لم تهتمّ بهم، ولا حتى بالطبيب المختصّ الذي تعلمت منه أن النفس هي العدوّ اللدود للجسم، ولم تستيقظ ثانية في الصباح، ولا حتى عندما ملأ ضوء الشمس الفضاء ومن بين أغصان شجرة الفيكوس التي في حديقة المستشفى نادتها العصفورة «إليز» بدهشة وذهول ثم عادت ونادت ونادتها عبثا ومع كل ذلك حاولت مرة أخرى وأخرى وما زالت تحاول أحياناً.

مدينة عراد في كانون الأول ٢٠٠١

هذا الكتاب

ولدت وترعرعت في بيت أرضي صغير جدّاً، لا تتجاوز مساحته الثلاثين متراً مربّعاً، يكاد سقفه يلامس رؤوس ساكنيه، كان سرير نوم والديّ عبارة عن كنبة دُرج كانت تفتح مساء كلّ يوم فتملأ الغرفة من الحائط إلى الحائط. وفي الصباح الباكر كانا يطويانها ويخفيان في أحشاء درجها السفلي الشراشف والمخدات ويكسوانها بغطاء رمادي فاتح وينثران عليها وسائد شرقية مطرّزة، حتى لا يُبقيا أثراً لنوم ليلتهما عليها. وهكذا كانت غرفتهما غرفة نوم وغرفة عمل ومكتبة وغرفة طعام وغرفة ضيوف.

رسمة الغلاف: أحمد أمير